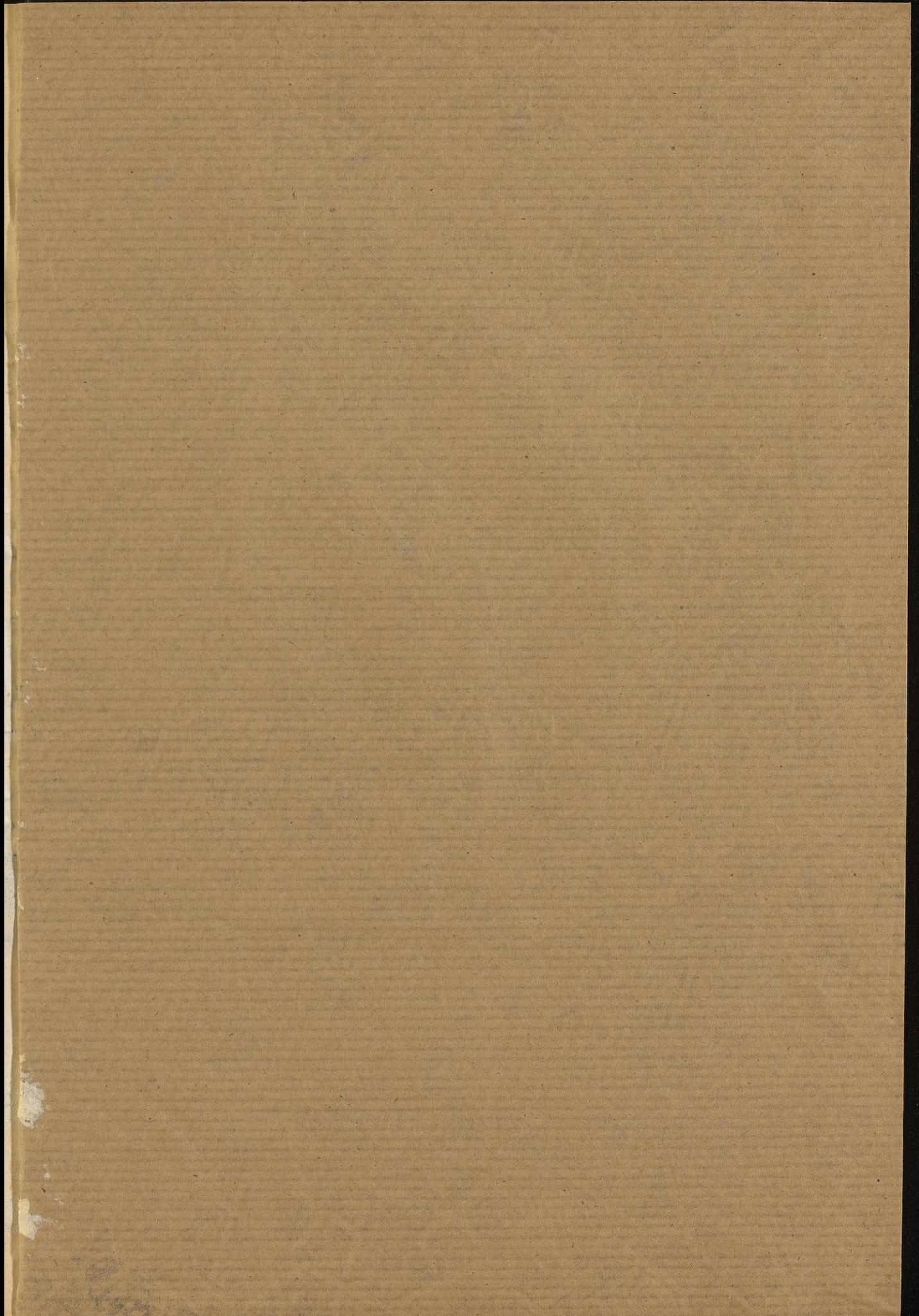


THE LIBRARIES  
COLUMBIA UNIVERSITY

---

GENERAL LIBRARY





الجزء الثامن

في تفسير القرآن الكريم

لشيخنا العلامة السيد محمد باقر

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
متع الله المسلمين بحاله آمين

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مكتبة الباني الحلبي وأولاده بمصر

بشاره محمد أمير عثمان

BP  
130.4  
.J27  
v. 19-20

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة غافر ( هي مكية )

إلا آيتي - إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم  
ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير \* خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس  
ولكن أكثر الناس لا يعلمون - فدينيتان  
( آياتها ٨٥ - نزلت بعد الزمر )

بروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد  
لأهله منزلاً فترّ بأثر غيث فيلينا هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث  
الأول فهذا أعجب منه وأعجب ! فقيل له : إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وأن مثل هذه الروضات  
الدمثات مثل آل حم في القرآن ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لكل شيء لباب وللباب القرآن  
الحواميم » اهـ

﴿ هذه السورة أربعة أقسام ﴾

« القسم الأول » في تفسير البسملة

« القسم الثاني » غلب فيه وصف حلة العرش واتصال عالم الملائكة بعالم الانسان إشراقاً وتعلماً وتنظيماً  
لمناسبة ما في آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ من أول السورة الى قوله - إن الله هو السميع البصير -

« القسم الثالث » الاعتبار بالأأم الماضية وتخصيص موسى بالذكر عليه السلام وبنى اسرائيل والمؤمن  
من آل فرعون من قوله - أولم يسبوا في الأرض - الى قوله - وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار -

« القسم الرابع ، غلب فيه النظر في عجائب الحكمة الإلهية من قوله - إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان - الى آخر السورة ، فيرجع معظم أجزائها ومقصودها الى العالم الروحي الأعلى فالأنبياء السابقين فعجائب العالم المحسوس

### ﴿ القسم الأول في تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والتوفيق ومعرفة بعض العجائب القرآنية والرحمات النورية والبهجات الحكيمية والسعادة العقلية والجمال والبهاء والسرور بالابداع ، أرى أننا أن بين سورة الزمر والمؤمن المتعاقبتين مناسبة بديعة ، ففي آخر الزمر أن الملائكة حافون من حول العرش ، فهناك ذكر للعرش وملائكة حافون وتسييح وتحميد ، وههنا في سورة المؤمن ذكر الملائكة والعرش والتسييح والتحميد ، وهكذا ذكر العرش مرة أخرى فيها - رفيع الدرجات ذوالعرش - وبين ما ذكر في آخر سورة الزمر وما ذكر في أوائل سورة المؤمن من العرش والملائكة والتسييح والتحميد جاءت البسملة وفيها اسم الله واسم الرحمن الرحيم . ههنا رجة جاء ذكرها متخللاً ذكر العرش وما معه ، وكما أن الرجة العامة في البسملة في أول ﴿ سورة ص ﴾ كان انجاءها بإقظا لصفة الاخلاص المذكور معناه في آخر سورة الصافات وفي أول سورة ص هكذا هنا الرجة العامة في البسملة متجهة الى إفاضة العلم والحكمة وتعميم الهداية في نوع الانسان فان أولئك الملائكة الحافين من حول العرش المسبحين بحمد ربهم يستغفرون للذين آمنوا والله الذي أبدع العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، والرسل بينه وبين الأنبياء هم الملائكة

واعلم أن عروش الملوك لا تقوم إلا على دعامين : دعامة هي أبهة الملك وعظمته وترجع الى القدرة والجاه ودعامة هي العلم الذي به نظم ذلك الملك ، والمملكة التي لا قوة فيها ولا نظام لها مفككة الأجزاء معطلة واهية ذاهبة ، فكل عرش إنما يقوم على القدرة وعلى العلم . والقدرة تكون بالمال وبالرجال . والعلم يقوم بنظام الحياة الطبيعية والحياة السياسية . فله إذن في أرضنا أربع دعائم . وعرش الله عز وجل مشروح في آية الكرسي ومبناه فيها العلم والقدرة . فإذا كان الله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يحيطون بشئ من علمه الخ فذلك كله راجع للعلم وكونه له ما في السموات وما في الأرض ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فذلك راجع للقدرة . ولقد جاء ذكر العرش في آخر ﴿ سورة التوبة ﴾ في آية - فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - وجاء في أول ﴿ سورة يونس ﴾ - إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر - فالاستواء على العرش بالقدرة وتدبير الأمر بالعلم . وجاء في أول ﴿ سورة هود ﴾ بعدها - وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء - والمقام هناك واضح في معنى العرش الذي سقنا له الكلام هنا إن كل عرش لا يتم إلا بعلم وقدرة . وإذا كان العرش في آخر التوبة وفي أوائل سورة يونس وهود يذكرنا بأن الأمم الإسلامية تولت عروش أمم وقامت بحفظ بلادها . وتلك الأمم هي المذكورة في سورة يونس وهود . فتكرار العرش هناك في السور الثلاث وتخلل ذكر الرجة في البسملة في أوائلها قد أعقبه أن ملك المسلمون تلك العروش التي في أرض مصر المشار إليها بقصة موسى وهرون فيها وأرض الجزيرة وما بين النهرين من بلاد الآشوريين والبابليين . فهذه كلها الآن بلاد إسلامية وهذه البلاد مشار إليها بقصة يونس إذ كان في نينوى وهي من تلك البلاد . وقد فصلت في سورة هود قصة نوح . ولقد كانت سفينه هناك عند (جبال ارارات) وهذه في تلك الناحية التي قام فيها الكرد اليوم . وهم يريدون الخروج من الدولة التركية . وهذه الجبال في بلاد العراق مما يلي بلاد الترك . ولاجزم أنها بلاد إسلامية الى الآن . وهكذا فصلت قصة عاد وثمود وقصة

ابراهيم ولوط ومدين وموسى . ولاجرم أن هذه البلاد كلها عربية وهي اسلامية اليوم . فلوط ببلاد الشام  
وهكذا ابراهيم وعاد وثمود في بلاد حضرموت وما يليها ومدين حوالى بحر القلزم وهو البحر الأحمر من جهات  
الشرق . فهذه العروش كلها أصبحت عروشا اسلامية . هذا ماتقدم في سورة التوبة ويونس وهود  
وهكذا هنا فان العرش الذى ذكر في سورة الزمر وفي سورة المؤمن قد ذكرنا بالهداية العامة والملك  
كما تقدم . أتترى الى قوله تعالى - يسبحون بحمدهم ويستغفرون لمن فى الأرض - فالملائكة الحافون  
من حول العرش لهم حالان : تنزيه الله عما لا يليق بحمالة واستغفار لمن فى الأرض . ومن طلب المغفرة لأحد  
أحب هدايته والملائكة هم الذين يلهمون الناس الخير وهم الذين يكونون سفراء بين الله وبين أنبيائه فهم  
ملقنون الوحي للأنبياء وهم ملهمو الخير للمؤمنين . وترى هذا الأمر واضحاً فى قوله تعالى - ربنا وسعت كل  
شئ رحمة وعلماً - فذكر الرحمة وذكر العلم . ثم يقولون - فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب  
الجحيم - الخ

وهذه الصفة العامة هي إحدى الدعواتين اللتين تنقسمان الى قسمين آخرين كما تقدم . وتكون هذه  
الأربعة الدعوات للعروش والدعامة الأخرى هي القدرة ولقد غلبت هنا فى ذكر الأمم السابقة - أولم يسبروا فى  
الأرض فيظنوا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض - الخ وفصل  
بعضهم فى خلال قصة موسى إذ قال - مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم - فهذه القصة  
مفصلة وبجملتها ترجع للقصة التى فى سورة يونس وهود بعد سورة التوبة وكلها ذات عروش والعروش قد  
أصبحت للمسلمين . ذكر العرش فى التوبة وما بعدها وذكره فى الزمر وسورة المؤمن للإشارة الى ما وصفنا من  
أن هذه العروش فى تلك البلاد لا تزال الى الآن فى أيدي المسلمين

واعلم أن هذا ان لم يتبعه بنصائح للمسلمين لا يكون العلم به نافعاً ، فانه اذا كان ذكر العرش فى هاتين  
السورتين مشيراً الى ذلك كما أشار فى السور الثلاث السابقة وهي هود وما بعدها من غير عظة تلحقه وعمل يتبع  
العلم ، بقى المسلمون على ما هم عليه يفرحون بما يفتح عليهم من أسرار القرآن ولكنهم لا يحركون ساكناً  
ويتركون جبل الأمم على غاربها ، ونحن نقول أيها المسلمون : هذه المجائب ومعرفتها ليست تجزينا وحدها  
فالعلم إن لم يتبعه العمل لم يفد الناس . فاذا سمعت أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى  
الأرض فذلك تذكير لنا أن تبرع فى ﴿ الأمر الأول ﴾ المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية والرياضية حتى  
ندرك جلال الله وجلاله فى السموات والأرض بدراسة علوم جميع الأمم حولنا مع إضافة مباحثنا العقلية ،  
وبذلك وحده ندرك معنى قوله تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم - فكيف يكون التنزيه بلا علم  
بالآثار التى أبدعها ، وكيف يكون حمد على نعم نجهل تفصيلها ، فالحمد اللفظى عبادة والحمد الحقيقى علم ولا علم إلا  
بالدراسة ومعرفة الحقائق ، والعايد الجاهل قليل المنفعة والعالم هو الذى اتبع الأنبياء وقلد الملائكة المسيحين  
بحمد ربهم ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن نكون نافعين للناس فلانكون حياتنا وقفا على العلم وحده لأن ثمرة العلم  
إفاضة الخير على الناس والملائكة الحافون حول العرش كما أنهم يسبحون بحمد ربهم يفيضون الخير على  
أهل الأرض ، ولاجرم أن لنا ضمائر وعقولا هي محل إفاضة الخير من الملائكة علينا ، فلنقم بالعلم ولنقم بالعمل  
والعالم كله متشابه متسق ، فليكن العلماء فى الأمم الاسلامية بعدنا متحليين بجمال العلم بهذا الوجود تفصيلاً  
على قدر إمكانهم أولاً وليكونوا مفيضين على الناس من علومهم ، ويجب أن تكون علومهم شاملة لخبرى  
الدنيا والآخرة حتى يتم جدهم والحمد يكون على نعمة ونعمة الدنيا مشاهدة محسوسة . ومن جهل المحسوس  
جهل المعقول . ومن حمد بلا علم فحمده رياء وقول لفظى ضئيل . واذا لم يقدّم العلماء فى الاسلام بهذه الشرائط  
واستمر المسلمون على نومهم العميق وسلموا أعناقهم وتخضعوا للجهلاء ممن لا يعقلون بدائع هذه الدنيا وحكم

خالقها الحكيم فان العروش المذكورة في ﴿سورة المؤمن﴾ المفصلة في سورة يونس وهود التي هي في أيدي المسلمين تيمد ويملكها أمم غيرنا وهذا آخر انذار في هذا التفسير للمسلمين  
 الملائكة يسبحون ويعلمون الناس الخير وهم حافون حول العرش هكذا العلماء حافون حول عروش الأمم الاسلامية . اذا هم لم يقوموا بحق العروش من العلم الجم وافاضة العلم على أمم الاسلام . وهذا العلم يليق لاقامة العروش وبقائها فان هذه العروش ساقطة في أيدي الأمم الأخرى . ولقد سقطت عروش الأندلس التي كانت مفرقة عشرين دولة ولم يكن لهم من الدين مايزعهم والشعراء كان لهم بينهم القدح المعلى وقبل ذلك سقطت بغداد التي كان لها السلطان على هذه العروش المذكورة في يونس وما بعدها وهي سورة المؤمن  
 واذا كان عرش الله وهو القائم على كل نفس بما كسبت تحفه الملائكة المسبحون المستغفرون لا يفارقونه فكيف يقوم عرش الانسان الضعيف إلا بعلم و بافاضة على الخاضعين للعرش

ومن العجب أن في ﴿سورة التوبة﴾ ذكر لما يوافق اسمها من أن الله تعالى تاب على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار الخ وتاب على الثلاثة الذين خلفوا الخ فهناك توبة وههنا توبة وغفران للذنوب المذكورين في قوله تعالى - غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ههنا ذكر للعقاب الشديد و ذكر للغفرة وما أنسب هذين بالعرش لأن المستوى على العرش يدبر الأمر ومن يدبر الأمر يعاقب تارة ويغفر أخرى ويتوب على من يشاء وهذا شديد المناسبة بالعرش ولذلك ذكر في آخر سورة التوبة . فالملك يناسبه ذلك غفران وتوبة تارة وعقوبة تارة أخرى وذلك يكون على مقتضى العلم . والعرش اعمايني على العلم وعلى القدرة ومظاهر هذين تسبيح الملائكة وحمدهم واستغفارهم وهم حافون حوله فعلمهم وافاضتهم الخير على الناس مظاهر وآثار لما فوق ذلك من علم الله وقدرته اللتين بآثارهما أقيم العرش . فالله قادر وعليم والملائكة استمدوا منه والمؤمنون لاسيا علماء وهم يستمدون من الملائكة . وفي هذه السورة من المباحث أنواع ،

- ( ١ ) جفاج الأرض الواسعة وما فيها من حكم ومعجائب في آية - أولم يسيروا في الأرض - الخ
- ( ٢ ) والسموات والأرض في آية - لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس -
- ( ٣ ) تفصيل النوع الأول في آية - الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء - . وهنا ذكر صورنا وحسنها
- ( ٤ ) تفصيل النوع الثالث في آية - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - ففي هذا تبيان نمو الانسان حالا بعد حال
- ( ٥ ) بيان الأنعام التي تركبها والتي تأكلها
- ( ٦ ) وختم السورة بما يلخص السورة كلها من انه أرانا آياته كلها ومن أن سيرنا في الأرض يعرفنا عاقبة الأمم الخ
- ( ٧ ) وفي السورة الالتجاء الى الله - فادعوا الله مخلصين له الدين -
- ( ٨ ) وفيها ان الله ينصر رسله ونابعيهم - إنا لننصر رسلنا - الخ وفيها - فواقه الله سيئات ما مكروا -
- ( ٩ ) وفيها تبيان أن الضعفاء يحتجون بأن المستكبرين أضلواهم ويحجبهم المستكبرون ويقع الجميع في العذاب
- ( ١٠ ) وذلك لأن المدار على الأنواع السبعة السابقة من النظر بالعقل في السموات والأرض ، وخلق الانسان والأنعام . فاذا احتج انسان بأن غيره أضله فحجته داحضة لأنه يقال له : أين عقلك إذن ؟ فلك أيها الضعيف عقل كما للمستكبر فكيف أمته ؟ ولماذا لم تسرفي الأرض وتنظر العواقب أفليس من عجب أن يكون الله برحمة أنزل القرآن وعلم المسلمين فيه ترينتين : تربية لاذكر للأسباب

معها غالباً وهي الصلوات وأنواع العبادات وهي التربية العملية ، وتربية علمية وهي المباحث التي تكون بها الهداية ، وهذه هي النظرية كالنظر في الأنفس والآفاق الخ وهذه لا يقتصر فيها اهتمام العقل ، وبهذه يحتاج المستكبرون والضعفاء ويقع الجميع في العذاب ، ولقد علمت أيها الذكيّ فيما نقلناه عن ( كانت ) الألماني في كتاب التربية : « أن التربية العملية أولاً تكون بلا ذكراً للأسباب فإذا كبر الصبي علم الأسباب » وهنا في القرآن - ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة - فهذا أمر في نفسه مدموم وهكذا في القتل جاء في سورة المائدة - من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً - الخ وجاء في سورة البقرة - ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب -

هذه في التربية العملية فهي اشتملت على ما لم يذكر معه سبب وعلى ما ذكر معه السبب وهذا هو الذي قرره علماء التربية في عصرنا ، فأما التربية العلمية فلا تصح إلا بالنظر العقلي ولذلك لما احتاج أهل النار لم ينفع الضعفاء الاحتجاج بالذين استكبروا

أيها المسلمون : إن القرآن مملوء بحكمة وأتم التاركون لها ، وهذه الآيات فيها عجائب ولكن الله تعالى حرمها على الناعمين الساهين اللاهين الذين لا يفكرون ، فكذلك كره الله محاجة الكفار في النار في هذه السورة وفي سورة سبأ وفي سور كثيرة ، كل ذلك ليوقظ شعور المسلمين الذين ناموا نوما عميقاً ففكروا بعقولهم . إنني أنذر المسلمين بهذا التفسير . أنذرهم قبل فوات الفرصة . إن هذا الكتاب قد جاء بين عهدين كبيرين : عهد النوم العميق للأمم السابقة وعهد اليقظة للأمم المستقبلية . وسيستقبل المسلمون أيام العلم والعمل بعد أن استبدروا أيام الجهل والكسل والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . كتب صباح يوم الخميس ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠ انتهى القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

### ﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم \* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \* غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ \* مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ \* وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ \* الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ  
 هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ  
 تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ \* قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا  
 بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ  
 يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ \* هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ  
 مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ \* فَاذْعُوا لِلَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْكَافِرُونَ \* رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
 لِيُنزِّلَ يَوْمَ التَّلَاقِ \* يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ  
 الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ \* الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ \*  
 وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ  
 يُطَاعُ \* يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ \* وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ  
 دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \*

### ﴿ التفسير اللفظي ﴾

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام على الحروف كلها في أول ﴿ آل عمران ﴾ وفي أوائل ﴿ العنكبوت ﴾ وما بعدها  
 ويختص الكلام على حم هنا بأنها تشير إلى حمد سبق في آخر الزمر وكما سترى هنا عند قوله تعالى - الذين يحملون العرش  
 صادران من الملائكة والمؤمنين كما رأيت في آخر الزمر وكما سترى هنا عند قوله تعالى - الذين يحملون العرش  
 ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - الخ فرجعت هذه الإشارة الحجيبة  
 إلى استكمال قوة العلم وافاضته على المتعلمين فإن الحمد وتمامه ليس يكون إلا باستكمال قوة العلم ، وكيف يحمد  
 الإنسان على نعمة يجهلها ، وكما كانت الم تشير في العنكبوت وما بعدها إلى تحقيق المباحث العنصرية والوقوف  
 على حقائق هكذا هنا يراد بالحاء والميم استكمال قوة العلم في جميع الفروع إذ لا حمد كاملاً إلا بعد علم بالمحمود  
 عليه ولا تعليم بصدق إلا لمن استكمل العلم ، وهذا هو الذي تشير له حم ولذلك أردفها بقوله (تنزيل الكتاب  
 من الله العزيز العليم) بكل المعلومات ، وحمد العبد تابع لعلمه بما أبدعه الله تعالى والله يحب من تخلق بأخلاقه  
 والعلم منها (غافر الذنب) سآته (وقابل التوب) أي التوبة (شديد العقاب) فالأول لمن آمن وأطاع والثاني  
 لمن كفر وعصى (ذو الطول) ذي السعة والغنى والفضل والنعم (لا إله إلا هو) فليقبل الإنسان بكلية عليه  
 (إليه المصير) فيجازى كلا بما يستحق ، وهذه الصفات جمعت بين الترغيب والترهيب لئلا ييأس الناس من

الرحمة ولا يأمنوا مكر الله ، فهاحقق أمر التنزيل سجل الكفر على المجادلين فيه بالباطل . فقد قيل « إن جدالا في القرآن كفر » فأما الجدال لايضاح الملتبس فهو مرغوب فيه فقال (مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلايفررك قلبهم في البلاد) فلايفررك إمهالهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فانهم سيؤخذون قريبا كما أخذ من قبلهم (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) والذين تحزبوا على الرسل بعد نوح كعاد وشمود (وهمت كل أمة) من هذه الأمم (برسوطهم ليأخذوه) ليقتلوه أولياسروه (وجادلوا بالباطل) بما لاحقيقة له (ليدحضوا به الحق) ليزيلوه به (فأخذتهم) بالهلاك جزاء لهم (فكيف كان عقاب) أى فكيف كان عقابي إياهم ، ألم يكن مستأصلا مهلكا وأتم تمرؤن على ديارهم وترؤن آثارهم وفيه معنى التعجيب (وكذلك حقت كلمة ربك) وعيده وقضاؤه بالعذاب (على الذين كفروا) لكفرهم (أنهم أصحاب النار) بدل من كلمة ربك ، ابتداء الله السورة بصفات العزة والعلم والقدرة الواسعة ، وبذكر الرحمة والعقاب ، ثم أتبع ذلك بمن استوجبوا العقاب وأعقبهم بذكر من هم على النقيض من حالهم فهما على طرفي نقيض ، كفار في أسفل دركات الشقاء وحلة العرش في أعلى دركات العز والهناء فقال (الذين يحملون العرش ومن حوله) أى حاملو العرش والحافون حوله وهم الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجودا ولا معنى للحمل إلا الحفظ والتدبير وذلك يستلزم قربهم من ربهم ومكائهم عنده وعلوهم على العالمين . الأترى أن كل من كان في الناس أغزر علما وأحسن تدبيرا يكون أرقى منزلة ، فهؤلاء (يسبحون بحمد ربهم) أى يذكرونه بمجامع الثناء :

(١) من صفات الجلال التي هي عبارة عن التسبيح أى التنزيه عن مقام المحدثين ككونه لأوّل له ولا

آخر لبقائه وأنه مخالف للحوادث في ذاته وصفاته وأفعاله

(٢) ومن صفات الاكرام كعلمه وقدرته وارادته وكلامه ، فالإشارة للأوّل بالتسبيح وللثاني بالتحميد

فالصفات الأولى كمال والثانية مشتتة على التكميل كالخلق والرزق والهبة والهداية وما أشبه ذلك

وقوله (ويؤمنون به) انما ذكر للدلالة على اظهارفضيلة الايمان والاعمال العرش لا يكون إلا بكمال العلم ، ولا كمال للعلم إلا بعد مبدأ الايمان ، وذلك لأن المقام مقام إبراز أمة وبراها انما يكون أولا بالايمان ثم يقبع العلم ، فلذلك قصر الكلام على ذلك فقال (ويستغفرون للذين آمنوا) أى يسألون الله المغفرة لهم ومعنى ذلك انهم يحملونهم على التوبة ويلهمونهم مايجب المغفرة ، إن هؤلاء الملائكة يمتعون بالقرب من ربهم فهم مدبرون للعالم نظاما جسمى وارشادا علميا ، فالوحى منهم للأنبياء بأمر ربهم ، والاهلام منهم لذوى الفطر القابلة للخير ، ولايصدّهم صادّ عن إلهام الخير لاسرىء من الناس إلا اذا كانت فطرته تصدّه عن القبول منهم فيتولى الشياطين هدايته الى طريقهم المؤدّي الى الفساد ثم بين الاستغفار المذكور المعبر به عن إلهامهم بما يكون نتيجة له من حيث شمول الرحمة الإلهية العامة لهم والمغفرة وادخالهم الجنة مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم اذا صلحوا كصلاحهم ، وهذا البيان هو قوله يقولون (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمنا) فان كل حيوان مثلا قد ألهم ما به صلاحه الموافق له وفطر عليه والانسان بعدت طريقه ونحن نجد في هدايته الى الصراط المستقيم بالاهلام والارشاد (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) لاستعداد فطرهم لقبول الهداية من الرسول وخلفائه ومن الاهلامات التي نوجهها اليهم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) إياها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) عطف على هم من أدخلهم (إنك أنت العزيز الحكيم) الملك الذي لا يظلم وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شئاً خاليا عن الحكمة ومن موجب حكمتك أن تدخل معهم من صلح من ألهم ليم سرورهم وأن تتم وعدك الذي وعدت (وقهم السيئات) أى المعاصي في الدنيا (ومن تن السيئات يومئذ فقد رحمته) ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة (وذلك

هو الفوز العظيم) أى النعيم الذى لا ينقطع فى جوارمليك لاتصل العقول الى كنه عظمته

﴿ فصل فى ذكر نتائج الكفر ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكافرين فى الدنيا ، و بين موجبات الهداية والعناية المبذولة من حمة العرش وصفوف الملائكة بالالهام مع تدير الملك واهتمامهم بهداية الناس أتبعه بما هو النتيجة اللازمة لذلك وهى ان هؤلاء يندمون حين يوضعون فى الدرجات التى هم أولى بها فى جهنم فقال (إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة وهم فى النار وقد مقتروا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم وعابنوا العذاب فيقال لهم (لمقت الله) إياكم فى الدنيا والآخرة (أ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الإيمان فتكفرون \* قالوا ربنا أمتنا) إمامتين (اثنتين وأحييتنا اثنتين) أى أمتنا فى الدنيا ثم أحييتنا فى القبر للسؤال ثم أمتنا فى البرزخ وأحييتنا للبعث لأن الانسان عند الموت يخلع هذا الهيكل الجسمى وتبقى الروح بالجسم الأثيرى اللطيف المائل لأجسامنا الأرضية ، فهذا موت وانتقال من حال الى حال مغاير كل المغايرة ، وهناك يرى الانسان الجحائب الكامنة فى جسده الروحى ، ويرى صور أعماله السابقة من سيئة بادية العار والسنار ظاهرة القنارة والحقارة فيلحقه منها خزي لا يطاق وعذاب روحى ونار جسمية ملازمة له ملازمة الظل للشبح والهواء للأجسام الأرضية ، ومن حسنة تظهر موقفة بهجة متلاثة بهية تهيج من رآها كالسكواكب الدررية تسرى الناظرين ، ثم إن هذه الحال البرزخية يحصل فيها انتقال وتغير ، وربما ظهرت حال جديدة للأرواح تبدل فيها تبدلا عظيما كالتبدل الذى حصل بموت الأجسام فيعتبر موتا ثانيا ثم يبعث الناس فتكون حياة ثانية ، فاذن يكون هناك موتان بين الأول والثانى حياة برزخية و بعد الثانى حياة يوم القيامة ، وعلى ذلك تكون لنا أنواع ثلاثة من الحياة لأن الحياة الدنيا لم تذكر فى هذا المقام وربما كانت تبدلات الانسان فى الحال البرزخية كثيرة جدا لسرعة أحوال الأرواح فنبه على ذلك بذكر أعظم تبدل فيها فسماه موتا والا فالأنفس حية فى الحياة الدنيا و بعد مفارقة الأجساد ويوم القيامة ، وهذه الآية فيها رموز مجيبة سيظهرها المسلمون بقراءة علم الأرواح واستحضارها بعد مفارقتنا هذه الدنيا ورجوعنا الى الحال البرزخية لأنهم اليوم ونحن أحياء ليس عندهم من الوقت ما يتفرغون به لمثل هذه العلوم ، وأمم الغرب اليوم تطاردهم وسيخلصون منها إن شاء الله قريبا و بعد ذلك يقرؤون هذا التفسير وأمثاله قراءة أتمم ويشرعون فى المباحث العلمية ويدخلون جنة علمية عالية فى الدنيا ثم يتمتعون بروضات الجنات البرزخية ويلحقوننا إن شاء الله تعالى هناك جيلا بعد جيل

ولما كانت أحوال الأنفس البشرية وتقلباتها فى البرزخ ويوم القيامة تكون قدأملت عليها دروسا عالية قاسية لظهور الحقائق لها تحملهم على الاعتراف وطلب الخروج من النار أعقبه بقولهم (فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج) من النار (من سبيل) طريق نسلهك فيجابون بأنه لاسبيل الى الخروج (ذلكم) العذاب (بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به) غيره (تؤمنوا) أى تصدقوا ذلك الشرك (فالحكم لله العلى) الذى لا أعلى منه (الكبير) الذى لا أكبر منه (هو الذى يريك آياته) عجائب مصنوعاته لتكملاوا أنفسكم بمعرفتها (وينزل لكم من السماء رزقا) أى المطر لأنه سببه ، فمجائب المصنوعات لأمرين : ترقية العقول ، وترقية الأجسام ، والثانى عام ، والأول خاص وهذا قوله (وما يتذكر) يتفكر فيرقى نفسه بهذه العجائب (إلا من ينيب) يرجع عن الانكار بالاقبال عليها والتفكير فيها ، ولما كان فريق المنيبين هو الذى تتجه العناية لارتقائه فى القرآن والحكمة أردفه بما يناسبه فقال (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك الخفى والجلي (ولو كره الكافرون) اخلاصكم وشق عليهم هو (زفيع الدرجات) أى هو مرتفعة درجات كاله فوق المحسوس والمعقول ، وهكذا مراتب مخلوقاته الجسمية رفيفات درجاتها طبقا عن طبق وكذلك الروحانية من صفوف النفوس الانسانية والملائكة فهؤلاء جميعا درجات بعضها فوق بعض ارتقاها الى أن تقف دونه العقول (ذوالعرش)

الذي هو أصل العالم فهو في قبضة قدرته ، وقوله (يلقي الروح من أمره) خبر رابع لقوله - هو الذي يريكم - يقول الله انه يرينا الجحائب وهو مرتفع الدرجات ورافع درجات الخلق والعرش في قبضته ويلقي الوحي بأمره (على من يشاء من عباده) أي من يختاره للنبوّة (لينذر يوم التلاق) إذ تتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض والعمال والأعمال (يوم هم بارزون) خارجون من قبورهم وظاهرون لا يسترهم شيء وأعمالهم وسرايرهم مكشوفة لا يحجبها نفاق ولا رياء (لا يخفى على الله منهم شيء) من أعمالهم وأحوالهم ، وحينئذ تنطق الحال بهذا السؤال (لمن الملك اليوم) واذن تجيب هي (لله الواحد القهار) فهو وحده قهر الخلق بالموت وبالبعث وبالخسر ، ولا جرم أن إلقاء الوحي بهذه المعاني على الأنبياء إنما يكون لرفع درجات النفوس الأرضية ولحوقها بما هو أعلى منها ، فإذا كان الله رفيعا درجات كماله رافعا عالم الكواكب طبقات بعضها فوق بعض كما رأيت فيا مضى في هذا التفسير ورافع درجات الأرواح والملائكة فانه بهذه النفوس الرفيعة والأرواح الشريفة يهيئ نفوسا أخرى لتلحق بها فيوحى بواسطة الملائكة الى الأنبياء والناس يستمعون الوحي فيرتفعون الى درجات أرقى مما هم عليه ، هذا هو الذي يقتضيه نظم الآية منسجما عجيبا ، ثم ذكر نتيجه فقال (اليوم تجزي كل نفس بما كسبت) فلا يرى المرء إلا ما كونه في نفسه من عقيدة أو علم أو حال فيرى كل ذلك منقوشا مصورا في جسمه كما يحس الآن في هذه الحياة بذلك من حسد وعداوة وطمع وشرة وكبرياء ، فكل ذلك منغص للانسان في حياته لاحق به بعد موته بحيث يحس الانسان به ويشعر ويكون سوائل معنوية في عالم الأثير مختلفة باختلاف ألوان النبات وروائحها وهكذا أنواع العلم والحكمة والفضائل الخلقية من الكرم والصفح والآداب جميعها ترى لها سوائل أثرية معنوية أشبه بالسوائل المغناطيسية ترشح من النفس ولاتفارقها كما لا يفارقها في هذه الدنيا من هذه الصورة الجسمية أشكالها وألوانها وأطوارها ونسبها وقيلتها ، وذلك كله جاء في علم الأرواح في العصر الحاضر ، وهذا معنى قوله (لا ظلم اليوم) وذلك لأن الله لما كان رفيع الدرجات وقد رفع درجات العوالم الروحية فها هوذا سخرها لترفع الأرواح التي هي ضعيفة في الأرض تعيش مع الحيوان وهي في نظام كله هرج ومرج الى عالم أرقى من عالم الأجسام ، فإذا ماتت ظهرت بمظهرها الذي وصلت اليه على مقدار طاقتها كما يظهر الطفل بمظهره عند أبويه من النقص والضعف ، فالعذاب الذي يعترى النفوس الانسانية بعد الموت هو من لوازمها وهكذا النعيم ، إن الله تعالى مربى العالمين ورافعهم من أدنى الى أعلى ، وفي أثناء رفعهم يرسل بعضهم وتظهر فضائحه وقبائحهم أثناء سفره ويحصل للمجرمين عذاب لا يطاق فان الانسان اذا ظهر بعد الموت بمظهر قبيح اشمازت منه نفوس أصحابه ورأوه بغير العين التي كانوا يرونه بها وأصبح في ذلك لا يحتمل واشتعلت النار الجسمية والمعنوية معا ، وقد يرى الأمير أن عبدا من عبيده فضل عليه بأخلاقه التي اكتسبها وطار الى العلا وخلفه مع الجمادات ، فأى ذل وأى عار وأى مهانة بعد هذا كله ؟ فلا ظلم إذن فكما اننا لما خلقنا في الأرض وكان منا نساء ورجال ، وكان فينا الجميل والقبيح والقصير والطويل والمريض والصحيح وما لا ينهائي من الأوصاف والأحوال ، لم نقل إن هذا الاختلاف ظلم والا لكان معنى ذلك أن الوجود كله خطأ ، هكذا نقول في أحوال الأرواح بعد الموت فكلّ يكون على شاكلته الروحية الحقيقية ، فكما لا اعتراض في الاختلاف الجسمي هكذا لا اعتراض في الاختلاف الروحي فيكون قوم في نعيم وقوم في جحيم ولا اعتراض كما لا اعتراض اذا قلنا في الأرض فراش وابل وحيوانات برية وأخرى بحرية وآساد فأنكة وغزلان ما كولة مع ان الانسان لوقيل له : أموت أم تكون ناموسة أو جرادة ؟ لا يرضى إلا بالموت وكذلك الجرادة لا تطلب أن تكون انسانا لأنها تجهله ، فإذا عرفت الجرادة والتملة والحمامة مرتبة الانسان وحرمت منها فهناك الطامة الكبرى والعذاب والذلة والمهانة وهناك تكون نار الخزي ونار العذاب ، فالأرواح الأرضية بعد الموت التي هي ضعيفة ليست كالجراد في الحياة الدنيا بل هي تجسّ وتعرف المراتب ، وهنا تتجلى نار الخزي

ونار جهنم ، ولكن نار الخزي أشد كما يحس الانسان في الدنيا بالعار اذا لوثت سمعته وضاع صيته ومجده وشرفه ولكن في الدنيا يتخلص بالموت ولكن في عالم الأرواح لا يقدر على التخلص من الحياة فيه . وهذا يفهمنا قوله (إن الله سريع الحساب) فيصل كل الى ما يستحقه سر يعا . ولهذا المعنى الذي قررته لك تفهم قول سيدنا على كرم الله وجهه لما سأله سائل : « كيف يحاسب الله الناس كلهم ؟ قال كما يرزقهم كلهم » وقوله (وأندهم يوم الآزفة) القيامة سميت بذلك لازوفها أى قربها (إذ القلوب لدى الحناجر) إذ ترتفع عن عن أما لكنها فتلتصق بحلوقهم من الخوف فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع الى مواضعها فيتنفسوا ويتروحووا حال كون أصحاب القلوب (كاظمين) على النعم أو مسكين بخناجرهم (ما للظالمين من حيم) قريب مشفق (ولاشفيح يطاع) ولا شفيح مشفع (يعلم خاتمة الأعين) النظرة الخاتمة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه (وما تخفى الصدور) من الضمائر (والله يقضى بالحق) وقد عرفته فيما مضى في هذا المقام (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ) تهكم بالأصنام لأنها جاد (إن الله هو السميع البصير) فيعلم خاتمة الأعين وما تخفى الصدور وأما الأصنام فلا سمع لها ولا بصر فكيف تقضى بحق أو باطل ! انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف : في قوله تعالى حم وفي قوله - الذين يحملون العرش ومن حوله - الخ وقوله تعالى

- رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده - ﴾

تبين لك فيما تقدم في هذا التفسير أن الحروف في أوائل السور قد جعلت رموزا وعرفت في كثير من السور كيف كانت تشير الى مقاصد لرقى المسلمين كما ترى في ﴿سورة البقرة﴾ - الم - للتنبية على جهاد بني اسرائيل في قوله - ألم تر الى الملاء - الخ ولتوجيه الهمم الى بحث حقائق المجانب الكونية في قصة الخليل والعزير كما سبق شرحه مرارا وهكذا في ﴿سورة العنكبوت﴾ قدر جمع رمزها الى البحث في عجائب العناصر وكيف كان لها نظام كشفه العلامة (مندليف الروسي) وتبعه العلماء وهكذا في يس وص . فأما هنا فان الأمر أعجب . وكيف لا يكون أعجب ونحن نرى في آخر ﴿سورة الزمر﴾ قول الله تعالى - وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم - وقد وضعوا مراتب كما جعلت أرواح الناس مراتب في الدنيا وهم يسبحون ويمحمدون ، وقد عرفت أن ذلك كله عبارة عن العلم بالجلال والاكرام ، ولا معنى لمعرفة صفات الاكرام إلا بدراسة المجانب الالهية ﴿وبعبارة أخرى﴾ دراسة العلوم التي امتازت بها أوروبا علينا . هذا هو الذي يفهم من التسبيح والحمد ، فأما الملائكة فعلاوهم طبعا فوق طاقنا ، وترى السورة ختمت بقول الملائكة والمؤمنين « الحمد لله رب العالمين » وكيف يحمد المؤمنون ربهم جدا حقيقيا إلا اذا عرفوا نظام الخلوقات إذ لا يحمد المحسن إلا على مقدار ما عرف الحامد من آثاره الواصلة اليه والى غيره . هذا هو الذي جاء في آخر ﴿سورة الزمر﴾ ثم قال في أول ﴿سورة غافر﴾ - حم - حرفان من الحروف الأربعة عشر مشيرا الى الحمد أى حمد المؤمنين وحمد جملة العرش ﴿وبعبارة أخرى﴾ مشيرا الى العلوم الطبيعية والفلكية التي هي أقرب اليائن نحن في الأرض . فانظر ماذا تم بعد ذلك ؟ أعاد الكرة في أوائل السورة فذكر جملة العرش وتسبيحهم بحمد ربهم واجتهادهم في ارتقاء أهل الأرض وحبهم لاسعادهم

انظروا تعجب ، فاني سأريك الساعة عجبا عجبا ، بل أريك مجزة القرآن الحقة ، وكيف نطق من ألف وثلثمائة سنة بما نقرؤه اليوم في كتب الفرنجة . أنت اذا كنت من الذين تبعوا هذا التفسير لا تنكر ما سأقوله الآن ، ولكن اذا كان هذا أول نظرك له فانك تقول : إن العالم اليوم أصبح كله راقيا وأنتم أيها المسلمون مخزفون ، إن العالم كله مادي أوله وآخره ، وأنا لم أر ملكا ولا روحا يرقيني . فما هذا القول ؟ ومن هم جملة العرش ؟ وأي رموز تقولونها ؟ دعونا دعونا ، واني أجيبك ناقلا لك عن علماء الشرق وعلماء الغرب فأقول

جاء في « اخوان الصفاء » أن الأساتذة والآباء والمعلمين اذا ماتوا كان كل عملهم انما هو الارشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم . وهذا التعليم الالهامي يرقى الروح لعلها والحي المتعلم فهو نافع للحي والميت وقال الفخر الرازي في سورة النازعات (وسأذكره هناك إن شاء الله) « أليس الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه الى كنز مدفون »

أليس ان جالينوس قال : « كنت مريضا فحجزت عن علاج نفسي فرأيت واحدا في المنام أرشدني الى كيفية العلاج »

وقال أيضا : « أليس ان الغزالي قال ان الأرواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن انسانا شابه الانسان الأول في الروح والبدن فانه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة » اه

هذا ما قاله علماؤنا . فاذا أبيت إلا علماء أوروبا فاني أقول لك انهم أغرقوا في هذا العلم اغراقا ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين لأن الشرقى اليوم يظن انه بانكاره هذه العلوم يعد فيلسوفا . أما الاوروبى فهو حرد والآراء تقال بلانكبير . فلا سمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة في بلاد الانجليز في خطبة خطبها في مجمع العلماء فما قاله : « وليس من العقل أن يقال ان النفس تضمحل اذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض . أقول لك ذلك مستندا الى أدلة علمية . أقول لأنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ انى قد ناجيتهم . ثم قال : إنى مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير »

ومن قوله في نفس الخطبة : « وعندى أن في الوجود كائنات نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا ونحن ننسكح بين أرجلها غير عارفين عنها شيا » انتهى ما أردته منه . وقد تقدم هذا القول مطولا تارة ومختصرا أخرى لمقاصد مختلفات في هذا التفسير . وسيأتى نفس هذا القول في « سورة النازعات » عند ذكر قول الامام الرازى أن أرواح الناس تصبح من المدبرات أمرا

أفلمت ترى أن ما يقوله علماؤنا وما تموج به الجمعيات النفسية في أوروبا قد أصبح تفسيراً لهذه الآية . انظر كيف يقول العالم الانجليزى : « ان هناك عوالم نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا » وقوله « إن الأموات يهتمون بأمر هذا العالم » . يا عجبا : أليس هذا هو عين ما قاله الامام الرازى والغزالي واخوان الصفاء . أليس هذا عينه هو نفس هذه الآية . بل أليس هذا معجزة . وأى معجزة أكبر من هذه ! تموج المجمع النفسية بهذه الفكرة فيقول الناس في مجالسهم : « ان فوقنا أرواحا تلهمنا وتعلمنا ونهتّم بنا ونحن نمل بالنسبة لها »

أليس هذا عينه هو قوله تعالى - الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم - ولقد عرفت أن الأمر راجع للعلم . وقوله - ويستغفرون لمن في الأرض - فهل لهذا معنى إلا الالهام والتعليم فيعملون الأنبياء ويعلمون كل واحد منا الآن بالالهام ، واذا كنا أصبحنا جميعا من جهلاء وعلماء مؤمنين بعالم الحيوان الذرى المسمى بالمكروب وانه هو الذى يأتي لنا بالطاعون والحمى والجدرى والحكومات فى الأرض كلها تؤمن وتمثل لقول الأطباء فى ذلك مع ان تلك الحيوانات لم نرها قط ولكننا آمننا بها مع ان الموت والمرض لا يحتاجان الى فاعل يفعلهما ، فان المرض نقص والمادة فى تحوّل دائم والموت خراب الجسم وخراب الجسم لا يحتاج الى فاعل يفعله بحسب النظر الظاهرى ، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك . وأن الموت أيام الوباء والأمراض الكثيرة كالحمى والجدرى والحصباء انما يكون بأحياء لانزاعها تحدث تلك الأمراض المنتشرة . فما أسهل أن تعرف أن الخير والشر تأتي بها عوالم تسمى ملائكة أو ارواحا . فالأرواح العالية لاهام الخير

والأرواح السافلة للوسوسة . ههنا تجلي الأمر وظهور وعرفنا سر الحياء والميم اللذين جيء بهما بين جدتين : حمد في آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ صادر من الملائكة وأرواح المؤمنين . وحمد صادر من الملائكة في ﴿ سورة غافر ﴾ مصحوب بالتسبيح والملائكة يفيضون الخير على المؤمنين . وهذا كما ستراه في ﴿ سورة النبأ ﴾ إذ جاء في آخرها - يوم يقوم الروح والملائكة صفا - وفسر ابن عباس الروح بأرواح العباد يصطفون كما تصطف الملائكة وههنا ظهر معنى الاصطفاف إذ الأرواح تلاميذ الملائكة فأصبح الأمر كله راجعا للعلم والدراسة . فاذا تعلمنا اليوم فهو مقصود الحمد المذكور في السورتين وأصبح التسبيح والتحميد معناهما الارتقاء العلمي والارتقاء العقلي للملائكة وهم يرقون أرواحنا في الدنيا كما نرى الأساندة يعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم فاذن ارتقاؤنا في الدنيا بالعلوم والملائكة ملهمون . ونحن اذا متنا نكون في تلك العوالم المدبرات أمرا كما فسرهُ الامام الرازي في ﴿ سورة النازعات ﴾ وكما رأيتهُ في كلام فلاسفة الشرق والغرب . هنا يظهر لك مقصود الحياء والميم في هذه السورة . فهما من الحمد والحمد راجع للعلم الذي يلقيه الأطلى الى الأدنى ومبدؤه من الله رفيع الدرجات ذي العرش وهو الذي يرقى الأرواح والأجسام . فترى صفوف الكواكب طبقة بعد طبقة كما ترى صفوف الأرواح صفا بعد صف

### ( ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذا المقام )

فاذا سمعت ما ورد أن جملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أردفهم الله بأربعة آخر كما قال - ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية - فلتعلم أن ذلك إشارة الى ازدياد عدد الأرواح المرتقية . واذا سمعت قول ابن عباس : « جملة العرش ما بين كعب أحدهم الى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام » وما يروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات الى عجزهم فلتعلم أن معناه إحاطتهم علما وتديرا بهذه العوالم باذن ربهم . واذا سمعت انهم يقولون : « سبحان ذي العزة والجبروت . سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت . سبحان قدوس رب الملائكة والروح » فاعلم أن هذا إشارة الى علمهم بصفات الجلال وصفات الاكرام التي هي تشمل سائر العلوم والى أنهم مقررون بأن الله رباهم بقولهم « رب الملائكة » وانهم هم صربون الأرواح التي هي أقل منهم بأمر ربهم . واذا سمعت انهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة وهؤلاء أشد خوفا من التي تليها وهكذا فإن ذلك على مقدار العلم فإن الخشية تتبع العلم ، ومن عرف جيلا وملا عينه حسنا وجمالا وبهجة وحكمة فانه يدهش منه ويخشاه ، ولا يتسنى ذلك لمن يجهل أمره . واذا سمعت انه صلى الله عليه وسلم حدث عن ملك أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام فذلك ان صح لانساع دائرة علمه وتديره للعوالم التي تؤهل أنت اليوم للقيام ببعضها على ما عرفت . واذا سمعت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال : « ان ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام فذلك إشارة الى عظمة ملك الله . وهذا أصبح اليوم معروفا في علم الفلك الحديث كما تراه في ﴿ سورة البقرة ﴾ وغيرها . واذا سمعت أن العرش يكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهذا ظاهر اليوم لأن ملك الله تجلي اليوم كما في هذا الخبر وظهر على هذا النحو ، وأما ألوان النور فانك لو بحثت لوجدت أن الأنوار لا يحصى عددها بألف ولا بألاف كل يوم ، ولوانك فكرت في عدد الأنوار التي تسطع على أرضنا من النجوم وان لم نرها لدقة نورها واحتجابها عنا بالشمس نهرا لرأيتها تعدد بمئات الملايين وهي تسطع على الأرض وأحباب الأرصاد يميزونها تميزا حقيقيا ، وان أردت بالأنوار العلوم فهي أوسع مدى فان تغير العوالم لا يكون إلا بعلوم قامت بنفوس الملائكة والأرواح المدبرات . وقوله لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهو ظاهر . ان

الشموس التي لانهاية لعددها ظهر اليوم أن أنوار كثير منها أضوأ الشمس بمراتب كثيرة فلا يستطيع الناس أن ينظروا اليها لو كانوا هناك ، ولكن الأقرب للحديث أن تلك الأنوار هي العلوم التي في نفوس الملائكة وهي محجوبة عن عداهم ولا يعرفها غيرهم إلا اذا ارتقى الى مراتبهم

ولست أقول لك ان هذه الأحاديث أو الآثار ذكرتها لك على أنها صحيحة أو حسنة أو ضعيفة انما المقام مقام ذكر ما قيل بدون نظر الى مقدار صحته لتعلم كيف كان التعبير الذي يبره عن عظمة ملك الله ، وما دام المقام مقام مجاز فلا بأس بذكر ذلك كله . واذا سمعت قول وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش ، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة وذكريتهم يقولون : « سبحانك وبمحمدك ما أعظمك وأجلك الخ » وأن كلامهم يسبح بتسبيح لا يسبحه الآخر فان ذلك أصبح معلوما لك لأنهم مراتب وصفوف ودرجات لا يعرف متهاها عبر عنها بذلك العدد . واذا كانت الكواكب بلغت ما لا يعرف له عدد فكيف يكون عالم الأرواح ؟ فأما التسبيح والتحميد فهو العلم الذي أمرت بدراسة مقدماته في الدنيا وأشير لذلك بالحاء والميم والجد في السورتين وفي سورة فاتحة الكتاب . واذا سمعت قول وهب بن منبه : « إن الله احتجب عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من درّ أبيض ومثلها من ياقوت أحمر ومثلها من زبرجد أخضر ومثلها من نلج ومثلها من ماء ومثلها من برد وما لا يعلمه إلا الله عز وجل » فذلك معناه على سبيل المجاز نقص مراتبهم عن مرتبة ربهم لأنه هو العليّ الكبير

فانظر كيف كان الأولون يضر بوث للناس الأمثال بعظمة ملك الله تعالى ليوسعوا خيالهم حتى اذا جاءت الحقائق وكشف القناع اتسعت له العقول وأقبلت عليه وقال السامع نعم قد تخيلنا هذا من قبل في الآثار الواردة عن آبائنا الأولين . فالتعبير بأن العرش جوهره خضراء وأن الأنوار تكسوه ونحو ذلك كله للدلالة على الجمال والبهاء والاشراق والعظمة والعلم والحكمة . ولعلك الآن فهمت قول ابن مسعود : « اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات الجنة أتأنتق فيهن »

أقول : وهل روضات الجنات إلا العلوم ؟ وأليس نفس الحاء والميم هذان الحرفان هما اللذان فتحا هذا الباب كله ، إن حم إشارة الى المحامد ولا محامد بلا علوم ، فالأمة الاسلامية اليوم عليها أن تقوم بدورها في الحكمة والعلم فقد خبا الله لها كنوزا في الأرض ستظهر بأعمال المسلمين ، فليقوموا بدورهم . هذا كله معنى - حم -

### ﴿ صلاتنا معاشر المسلمين ﴾

لقد علمت أن الملائكة يسبحون ويحمدون وأن معنى ذلك انما هو العلم بالعالم العلوي والسفلي الذي هو داخل في صفات الاكرام الذي اتصف به الله تعالى . والمسلم في صلاته عند الركوع يقول « سبحان ربي العظيم » ثم يقول « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ومعنى ذلك أن يدرسه ويفقه سره . وكذلك في السجود يقول المسلم « سبحان ربي الأعلى » ثم يقول « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »

فاذا ظن الناس أن تسبيح الملائكة وتحميدهم عبارة عن ألفاظ فليفهموا أن تسبيحنا وتحميدنا ألفاظ لا غير . فاذا أرادوا الجد فليعلموا انه جاء في هذه السورة قول الله تعالى بعد ذكر جملة العرش وتسييحهم والهامهم للذين آمنوا ودعائمهم لهم فالجهد العليّ الكبير . وبين مشار الجهد فقال - هو الذي يريكم آياته وينزل

لكم من السماء رزقا - فجعل مدار الحمد ترقية العقول بالعلوم وتديير الأجسام بالرزق . هذا هو مقصود الحمد ومقصود (حم) ومقصود القرآن

ليعلم المسلمون بعد اليوم أن المسألة جدّ لاهزل فيها . وأن الملائكة تأهلوا لمرتبتهم بالعلم . وأن الناس لا يسعدون في دين ولادنيا إلا بالعلم واننا نسبح بحمد الله كما ان الملائكة يسبحون بحمده . ذلك ظاهر في صلاتنا إذ نبدأ بالتسبيح ونقبه بذكر النعم التي أنعم بها علينا في سمعنا وبصرنا الخ . كل ذلك ليعلم المسلم انه ملازم بالعلم والحكمة اللذين يرجعان الى معنى التسبيح والتحميد . هذا هو سرّ الفاتحة التي يتلوها المسلم صباحا ومساء . يقول الحمد لله رب العالمين ويفصل بعض النعم في الركوع والسجود ويقسمها في الرفع والاعتدال فيقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد » ومعلوم أن العوالم لا تخرج عن هذه . فالفاتحة علم والركوع علم وآل حم علم وتسبيح الملائكة علم وتحميدهم علم وتشبهنا بهم في ذلك علم

فليظن المسلمون فقد انقضى دور الهزل وجاء دور الجد . وأظهر الله السرّ الذي خبأه . وأبان لعباده عجائب الدنيا بالعلوم والدين بالفهم والالهام . وبهذا تمّ الكلام على القسم الثاني من السورة

### ﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ \* وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ \* وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ \* وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ \* يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ \* وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ \* مِثْلَ دَابِ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ \* وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ  
 عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ \* يَوْمَ تُوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ  
 فَأَلَهُ مِنْ هَادٍ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَهَارَلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ  
 حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ  
 مُرْتَابٌ \* الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ \* وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي  
 صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ \* أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى آلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا  
 وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ \* وَقَالَ  
 الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ \* يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ  
 وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ \* مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ  
 ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ \* وَيَا قَوْمِ  
 مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ \* تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ  
 لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ \* لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ  
 فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ \* فَسَتَدْرِكُونَ  
 مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ \* فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا  
 وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ \* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ  
 أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ \* وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ  
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا كُنَّا مُعْتَبَرِينَ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا كُنَّا  
 مُعْتَبَرِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخِرَانَةٌ جَهَنَّمَ  
 أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ \* قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
 قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ \* إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ \* يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوهُ الدَّارِ \* وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ \* فَأَصْبِرْ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ \*

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أي مآل الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد رممود ( كانوا أشد منهم قوّة ) قدرة وتمسكنا ( وآثارا في الأرض ) كالقلاع والمدائن الحصينة ( فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ) يمنع العذاب عنهم ( ذلك ) الأخذ ( بأنهم ) كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ( بالمحجزات والأحكام الواضحات ) فكفروا فأخذهم الله ( إنه قوي ) متمكن مما يريد به غاية التمكّن ( شديد العقاب ) كل عقاب دون عقابه

﴿ قصص موسى عليه السلام وبنى اسرائيل ﴾

قال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المحجزات (وسلطان مبین) وحجة ظاهرة (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) يعنون موسى . ذلك تسليّة له (فلما جاءهم بالحقّ من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أي أعيدها عليهم ما كنتم تفعلونه بهم من قبل كي يصدوا عن اتباع موسى (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) أي وما صنع فرعون وقومه إلا في ضياع فان هذا كله لم يمنع موسى من إقامة دينه وخذلان فرعون وجنوده (وقال فرعون ذروني أقتل موسى) وقد كانوا يكفونه عن قتله تهويينا لأمره ويقولون اذا قتلته ظنّ الناس انك عجزت عن اقامة الحجّة . ثم قال (وليدع ربه) إظهارا بعدم المبالاة به مع انه لم يمنعه من قتله لإشدة الهول والفرع من ذلك لعلمه انه نبيّ (إني أخاف أن يبدل دينكم) أي يغير ما أتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام (أوأن يظهر في الأرض الفساد) أي ما يفسد ديننا من التحارب والتهاج (وقال موسى) لقومه لما سمع كلامه (إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ذكر اسم الرب اشارة الى الترية وليحضهم على موافقته في الدعاء لأن اتجاه أرواح كثيرة لغرض واحد أقرب للإجابة (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أقاربه (يكنم إيمانه أقتلون رجلا) أي أنقصدون قتله (أن يقول) أي لأنه يقول (ربي الله) وحده (وقد جاءكم بالبينات) الكثيرة (من ربكم وان يكاذبا فعليه كذبه) لا يتخطاه (وان يك صادقاً يصبكم بهض الذي يعدكم) أي فلا أقلّ من أن يصيبكم بعضه (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) ولو كان مسرفاً كذاباً لحذله الله ولكنه لم يخذله فأعطاه المحجزات والآيات البينات (ياقوم لكم اليوم ظاهرين في الأرض) غاليين عالين في أرض مصر (فن ينصرونا من بأس الله إن جاءنا) أي فلا تقصدوا أمركم ولا تنعروا لبأس الله تعالى (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى) أي ما أشير عليكم إلا بما استصوبه من قتله (وما أهديك إلا سبيلاً) وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب (وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم) في تكذيبه (مثل يوم الأحزاب) مثل أيام الأمم الماضية أي وقائمهم كما يقال أيام العرب (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) مثل جزاء ما كانوا عليه دائماً أي دائماً فكانوا لا يتفكرون عنه (وما الله يريد ظلماً للعباد) أي وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم بغير انتقام لأنه يريد منهم (ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد) أي يوم ينادى فيه بعضهم بعضاً ويتصايحون (يوم تولون) من الموقف (مدبرين) منصرفين عنه الى النار (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه (ومن يضل الله فإله من هاد) ولقد جاءكم يوسف) ابن يعقوب (من قبل بالبينات) ونخهم بأن يوسف جاءهم بالبينات على التوحيد من قبل موسى فشكوا في أمره وبقى

شكهم الى زمن موسى وهذا قوله (فمازلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وذلك حكمكم من عند أنفسكم من غير برهان (كذلك يضل الله) أى مثل هذا الاضلال يضل الله كل (من هو مسرف) فى عصيانه (مرتاب) فى دينه (الذين يجادلون) بدل من مسرف لأنه بمعنى كل مسرف (فى آيات الله) فى دفعها وابطالها (بغير سلطان) حجة (أناهم كبر مقتا) أى عظم ذلك الجدل بفضا (عند الله وعند الذين آمنوا كذلك) هكذا (يطبع الله) يختم (على كل قلب متكبر جبار) عن قبول الحق والهدى (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا) بناء مكشوقا عاليا من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى أبلغ الأسباب) الطرق ثم بينها فقال (أسباب السموات فأطلع الى إله موسى) أراد أن يبني له رسدا فى موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على ارسال الله إياه ، أو قصد بذلك التمويه على الجهلاء يريهم أن إله السموات الذى يقول به موسى انما هو إله كالألهة التى هى عبارة عن تماثيل فى مصر يراها الناس الآن بقيت من ذلك الزمان لتضليل عقولهم (وانى لأظنه كاذبا) فى دعوى الرسالة (وكذلك) مثل ذلك التزيين (زين لفرعون سوء عمله وصدت عن السبيل) سبيل الرشاد وموه على الناس بهذه العويها (وما كيد فرعون إلا فى نيباب) أى خسار (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون (يا قوم اتبعون أهدكم) بالدلالة (سبيل الرشاد) لأن ما عليه فرعون غي (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) تمتع يسير لسرعة زوالها (وان الآخرة هى دار القرار) لخلوها (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) عدلا من الله (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة (ويا قوم ما لى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كثر النداء لإيقاظ لهم من سنة الغفلة ثم أبدل منه قوله (تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به) بربوبيته (علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) أى من كملت قدرته وغلبت ولا يكون ذلك إلا بعلم وإرادة فهو قادر على التعذيب والغفران (لا) رد لما دعاه اليه قومه (جزم أن ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) جزم فصل بمعنى حق وأن وما بعدها فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أى ان ماتدعوننى اليه ليس له دعوة الى نفسه قط ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد الى طاعته وما تدعون الى عبادته لا يدعوه الى ذلك ولا يدعى الربوبية فكيف تدعوننى الى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا حق له ولا يدعوه اليه هذا جهالة فلا تتبعها وعطف على فاعل جزم قوله (وأن مردنا الى الله وأن المسرفين) فى الضلالة والظفان (هم أصحاب النار) ملازموها (فستذكرون) أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصيحة (وأقوض أمرى الى الله) ليعصمنى من كل سوء (إن الله بصير بالعباد) فيصرهم ثم فر من بينهم فطلبوه فلم يقدروا وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) شدايد مكروهم (وحاق بال فرعون) بفرعون وقومه (سوء العذاب) وكأنه قيل ماسوء العذاب فقال هو (النار) ثم استأنف مبينا فقال (يعرضون عليها) وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأسارى على السيف اذا قتلهم وقوله (غدوا وعشيا) أى فى هذين الوقتين يعذبون بالنار وينفس عنهم فيما بين ذلك ويدوم ذلك الى يوم القيامة (ويوم تقوم الساعة) يقال لخزنة جهنم (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى عذاب جهنم ، قال علماءنا : وهذه الآية دليل على عذاب القبر وقد ظهر ذلك العلم فى الجامع النفسية وأوضحناه مرارا فى هذا التفسير وشرحناه تكرارا وصار هذا القول حقا فى علم الأرواح ، وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> قال : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة » وهذا المعنى هو الذى أطالت به الأرواح لما سألوها بتفصيل فقرأه فى كتابي المسمى « الأرواح » ثم قال تعالى (و) اذ كر

لقومك يا محمد (إذ يتحاجون) أي يختصمون أي أهل النار (في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا) وهذا تفصيل للمخاصمة (إنا كنا لكم تبعاً) أتباعاً نتقدم جمع خادم (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا نصيباً من النار) قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أي كلنا فيها لا يعني أحد عن أحد (إن الله قد حكم بين العباد) قضى بينهم فأدخل قوما الجنة وقوما النار (وقال الذين في النار لخرزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً) قدر يوم شيئاً (من العذاب) قالوا) ملزمين لهم الحجية (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) تويخا لهم (قالوا بلى قالوا فادعوا) فانا لانجترى عليه إذ لم يؤذن لنا في ذلك (ومادعاء الكافرين إلا في ضلال) ضياع لا يجاب والمقصود من مساق هذه القصة أن عادة الله نصر الرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة ووعدته بالنصر حق، ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر وأن يحمد في الاستغفار والتسبيح حتى يأتي له نصر الله وهذا قوله (إنا لننصر رسلكم والذين آمنوا) كما مر في هذه القصة (في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أي في الدارين ولا ينقض ذلك بما كان لأعدائهم من الغلبة امتحاناً أحياناً لأن المدار على العواقب، والأشهاد جمع شاهد كالملائكة والأنبياء والمؤمنين (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من يوم الأول (ولهم اللعنة) البعد من الرحمة (ولهم سوء الدار) جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) ما يهدي به في الدين من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بني إسرائيل الكتاب) التوراة (هدى وذكرى لأولى الألباب) فاصبر) يا محمد على أذاهم (إن وعد الله حق) في اظهار دينك وفي تأييدك وتأبيدك كل صادق في دينك كما أيدت موسى ومن صدق من أتباعه (واستغفر لذنبك) أي وأقبل على أمر دينك وتدارك ذلك بالاستغفار، وهكذا إذا خالجتك اهتمام بأمر الأعداء لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وتدارك ذلك يكون بالاستغفار، وهكذا إذا خالجتك اهتمام بأمر الأعداء فافزع الى الاستغفار لأن الله تعالى كافيك في النصر واطهار الأمر وهكذا كل صادق في وجهته الدينية والمنفعة العامة (وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار) ودم على التسبيح والتحميد لربك، وذلك مطابقة لما جاء من تسبيح حلة العرش الذين هم في الملاء الأعلى. فعلى أهل الأرض أن يحذوا حذوهم والله ينصر رسوله القائمين بدعوة الخير الذين يحذون حذو الملاء الأعلى. والى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة وتفسيره اللفظي والحمد لله رب العالمين

### ﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِئْسَ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ  
بِيَالَيْهِهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \* خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ  
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ \* وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ \* إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ  
عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ \* اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ  
مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ \* ذَلِكَمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ  
 اللَّهِ يَجْحَدُونَ \* اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
 صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* هُوَ  
 الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ  
 أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْيَتِيمَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ \*  
 هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا  
 أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ  
 تَعْقِلُونَ \* هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* أَلَمْ تَرَ  
 إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضْرَفُونَ \* الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ  
 رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ \* إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ \* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ  
 فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ \* ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا  
 بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ \* ذَلِكَمُ بِمَا كُنتُمْ  
 تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ \* أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا  
 فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ \* فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ  
 تَوَفِّيكَ فَوَالِئِنَّا يُرْجَعُونَ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ  
 وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ  
 اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْبَاطِلُونَ \* اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا  
 وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى  
 الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ \* وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ \* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي  
 الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا  
 عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ \* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ  
 اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ \*

### ﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم) سواء أكانوا هم مشركي مكة أم اليهود  
 الذين قالوا: «لست أنت الذي وعدنا بك بل هو المسيح ابن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار»  
 أم غيرهم، فهولاء (إن في صدورهم إلا كبر) أي إلا تكبر عن الحق فلا يتفكرون ولا يتعلمون، وإنما  
 يقولون الملك والنبوة فينا (ماهم ببالغيه) أي ببالغي مقتضاه من الرئاسة والنبوة (فاستعذ بالله) أي فالتجئ  
 إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك (إنه هو السميع البصير) بعملك وعملهم (خلق السموات والأرض  
 أكبر من خلق الناس) ذلك لأنهم كانوا يجادلون في البعث، فن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمتها  
 فهو على خلق الانسان أقدر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لا يتأملون لعفتهم (وما يستوى الأعمى والبصير)  
 الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء) أي والمحسن والمسيء، فاذن لا بد لهم من حال  
 فيها يظهر التفاوت وذلك بعد البعث، فهانذا ﴿برهانان: البرهان الأول﴾ لجواز البعث الثاني لوجوبه اقتناعا  
 (قليل ما تتذكرون) أي تذكر قليلا تتذكرون (إن الساعة لآتية لا ريب فيها) في مجيئها لما تقدم من  
 الدليلين (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) لا يصدقون بها لقصور نظرهم (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)  
 أي اعبدوني أنبكم. وروى انه ﷺ قال وهو على المنبر «الدعاء هو العبادة ثم قرأ - وقال ربكم ادعوني  
 أستجب لكم -» (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) صاغرين (الله الذي  
 جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) لتستر يحوا فيه بأن خلقه باردا مظلما ليؤدي الى ضعف المحركات وهدوء الحواس  
 (والنهار مبصرا) يبصر فيه أوبه (إن الله لذو فضل على الناس) لا يوازيه فضل (ولكن أكثر الناس  
 لا يشكرون) لجهلهم بالنعم واغفالهم مواقعها وجهلهم بالنعم (ذلكم) الذي اتصف بتلك الصفات (الله ربكم  
 خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره!  
 (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يحدون) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم  
 فأحسن صوركم) بأن خلقكم منتصبى القامة، أعضاءكم متناسبة، منهيئين للعلوم، وللصناعات، واكتساب  
 الكمالات (ورزقكم من الطيبات) النافعات واللذائذ (ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) وكل ما سواه  
 مر بوب مفتقر اليه (هو الحى) المفرد بالحياة (لا إله إلا هو فادعوه) فاعبدوه (مخلصين له الدين) الطاعة  
 من الشرك والرياء (الحمد لله رب العالمين). ولما طلب الكفار منه عليه الصلاة والسلام عبادة الأوثان نزل  
 (قل إني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي) بالوحى والقرآن (وأمرت  
 أن أسلم) أن أستقيم وأتقاد (رب العالمين) هو الذى خلقكم من تراب) بخلق أيكم آدم منه أو بخلقكم أتم  
 من تراب انقلبت عناصره بالتغذية نباتا فحيوانا فكان منهما غذاؤكم ومنه كانت أجسامكم فكان منها نطفة  
 فعلقة فضفة فتخرجون أطفالا وهذا قوله تعالى (ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أي يخرج كل  
 واحد منكم طفلا، وقد وضع هذا المقام في سوابق هذا التفسير (ثم) يبيِّنكم (لتبلغوا أشدكم ثم) يبيِّنكم  
 (لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل) من قبل الشيخوخة، أو من قبل بلوغ الرشد (و) يفعل ذلك  
 (لتبلغوا أجلا مسمى) وهو وقت الموت (ولعلمكم تعقلون) ما فى قلبكم فى تلك الأدوار من العبر والحجج فان  
 أبلغ الحجج ما أحسن به الانسان من نفسه (هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى أمرا) أي أرادها (فانما يقول

له كن فيكون) فلا يحتاج في تكوينه الى عدة أو كلفة (أم ترى الذين يجادلون في آيات الله أنى يهرفون) عن التصديق به ، وإنما كرر ذم المجادلة لأنها هي الغالبة على نوع الانسان تكبرا وعنادا وتقليدا وتمسكا بالعادات (الذين كذبوا بالكتاب) بالقرآن (وبما أرسلنا به رسلا) من سائر الكتب (فسوف يعلمون \* إذ الأغلال في أعناقهم) أى فسوف يعلمون جزاء تكذيبهم وقت ما تكون الأغلال في أعناقهم واذ للماضى عبرها عن المستقبل لتيقنه كقوله - أتى أمر الله - ثم قال (والسلاسل يسحبون) بها (في الحميم) في الماء الحار (ثم في النار يسجرون) يقال سجر التنور اذا ملاه بالوقود ، ومعنى ذلك انهم في النار فهمى محيطة بهم (ثم قيل لهم) أى تقول لهم الخزنة (أين ما كنتم تشركون \* من دون الله) يعنى الأصنام (قالوا ضلوا عنا) غابوا عن عيوننا فلا تراهم (بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا) أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، تقول حسبت فلانا شيئا فاذا هوليس بشئ ، وذلك اذا خبرته فلم تر عنده خيرا (كذلك يضل الله الكافرين) أى كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الهدى (ذلكم) العذاب الذى نزل بكم (بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون) أى بسبب ما كنتم تطرون وما كنتم تختالون (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة (خالدين فيها فبئس مشوى المتكبرين) عن الايمان جهنم ، ثم خاطب النبي ﷺ قائلا (فاصبر إن وعد الله حق) بنصرك على الأعداء ، أقول لاجرم أن ذلك النصر يمتد الى كل صادق في نصر دينه (فما ترى بك بعض الذى نعدهم) من العذاب فى حياتك كالقتل يوم بدر فذاك (أو) أن (نتوفيك) قبل ذلك (فالىنا يرجعون) يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الى أممهم (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ولم نذكر لك حال الباقين منهم ، وما منهم من أحد إلا أعطى آيات ومججزات وقد جادله قومه وكذبوه فيها وما جرى عليهم يقارب ما جرى عليك كما جاء فى مثل سليمان عليه السلام « ما تحت الشمس من جديد » وكما يقول العلماء « التاريخ يهيد نفسه » وقد صبروا ونصروا فاصبر وستنصر ، يقال ان عدداً لآباء ١٢٤ ألف نبي والذين ذكرت قصصهم أشخاص معدودة (وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا باذن الله) وهى المججزات إلا عطايا قسمت بينهم كسائر العطايا والمنح ليس لهم فى هبتها مدخل (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب فى الدنيا والآخرة (قضى بالحق) باسعاد الحق واشقاء المبطل (وخسر هنالك المبطلون) المعاندون باقتراح الآيات . ولما كانت الآيات المقترحات ليس لها إلا نتائج ظاهرية كما شرح فى هذا التفسير ، وإنما الأمر يرجع الى النظر فى الجنب أردفه بقوله (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) فان من جنسها ما يؤكل كالغنم ، ومنها ما يؤكل ويركب وهو الابل (ولكم فيها منافع) كالألبان والجلود والأوبار (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) أى تحمل أقالكم من بلد الى بلد فى أسفاركم وحاجاتكم (وعليها وعلى الفلك تاملون) أى وعلى الابل فى البر وعلى السفن فى البحر (ويرىكم آياته) دلائل قدرته كما قال فى أول السورة - هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا - وسيأتى قريبا لماذا قال هنا ويرىكم آياته بعد ذكر الأنعام (فأى آيات الله تنكرون) فتقولون انها ليست من عند الله وهذه هى الدلائل القائمة فى أنواع المخلوقات من الحيوانات ، ثم أردفها بدلائل آثار الأمم الظالمة وكيف كان التكذيب بالآيات الكونية سببا فى خراب الأمم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض) قصورا ومصانع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى لم ينفعهم كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا) رضوا (بما عندهم من العلم) كأن يقولوا لن نبعث ولن نعذب وكان يقولوا نحن نحسن علوم السياسة والزراعة والصناعة والامارة ونظام المدن فهل بعد هذا علم ؟ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى وحق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزأهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما

رأوا بأسنا) أى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم (سنة الله التى قد خلت فى عباده) أى سنّ الله ذلك سنة ماضية فى العباد وهذا مصدر مؤكد (وخسر هنالك) أى وقت رؤيتهم البأس فهو اسم مكان استعير للزمان (الكافرون) انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة

١ - ﴿ لطيفة فى قوله تعالى - ويرىكم آياته فأى آيات الله تنكرون - ﴾

ذكر الله الأنعام وأعقبها بذكر آياته ، وقد جاء فى أول السورة - هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب -

تبين فى سور كثيرة فى هذا التفسير أن الرزق والحكمة متلازمان ، أنزل الله الأنعام والزرع لرزقنا الجسمى والعقلى ، كرّر الله ذلك فى القرآن ليبين لنا أن هذه الحياة لم تكن لها ولعبا ، انا مخلوقون فى عالم كله جمال وكمال وحكمة وعلم ، فالويل لمن استمر المرعى وغفل عن نظامه ، إن الأمر لجدّ فليتنهز المسلمون الفرصة أيام حياتهم ، وليتلهوا من تلك النعم رزقا وعلمها ، ومن لم يوجهوا عنايتهم الى اقتحام الأخطار وتجنب المشاق ودرس هذه العوالم وبحثها لا يتألون دنيا بما يتمتعون ، ولا آخرة بها يرقون ، فليشمر المسلمون عن ساعد جدّهم - والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع الحسنيين -

ثم ارجع الى هذا المقام فى ﴿ سورة النحل ﴾ تأمل هناك كيف ذكر الأنعام وانه خلقها لنا لنستدفع بأصوافها وأوبرها وأشعارها ، وننتفع بلحمها وشحمها ولبنها ، وانها لنا جمال فى غدوّها ورواحها ، وانها تحمل أثقالنا الى بلاد نائية ، وكيف ذكر الخيل والبغال والحمير ، وانها للركوب والزينة ، ثم قال - ويخلق ما لا تعلمون - فانظر كيف يقول هناك - ويخلق ما لا تعلمون - عقب ما ذكر ويقول هنا - ويرىكم آياته - ويقول فى ﴿ سورة البقرة ﴾ بعد الكلام على ذبحها - كذلك يحيى الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون - انظر : لماذا يقول هناك - ويرىكم آياته - ويقول فى النحل - ويخلق ما لا تعلمون - ويقول هنا - ويرىكم آياته - الفعل مضارع فى الجمع ، ولقد علمت الاجابة فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أن الأرواح لها وجود وهى تكلم الناس فارجع اليه ، فهذا رمز لما حصل فعلا فى هذا الزمان من مخاطبة الأرواح ، وكذلك مرّ بك فى ﴿ سورة النحل ﴾ كيف كان ذلك إخبارا بما حصل فعلا فى أيامنا من الكهرباء والآلات المحركات بالبخار فان الكهرباء أصبحت تعطى الناس ما تعطيه الأنعام من حوث ونقل فى البرّ والبحر ، فهذا معنى قوله هناك - ويخلق ما لا تعلمون - وأشار له هنا بقوله - ويرىكم آياته - أى التى بها تتألون ما نلتموه من الأنعام النافعة لكم فى حياتكم (انظر هذا المقام واضحاً فى سورة النحل وتفطن)

\*\*\*

لقد تبين لك أن (حم) تشير الى الحمد ، وأن الحمد مرجعه العلم كما شرح فى هذا التفسير مرارا ، وآية ذلك انه قد تكرر الحمد هنا ، فبينما تراه فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ اذا هو فى حيز الكلام على جملة العرش يسبحون بحمد ربهم ، ثم فى قوله تعالى أمر الرسول ﷺ واستغفر لذنوبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار . وأخيرا فى الكلام على عجائب الحكمة من جعل الأرض قرارا والسماء بناء وتصويرنا فى أحسن صورة ورزقنا من الطيبات إذ ختم هذا المقال بقوله « الحمد لله رب العالمين »

﴿ تذييل التفسير فى سورة حم غافر ﴾

والكلام فيه على « مقصدين : المقصد الأول ، فى قوله تعالى - وصوركم فأحسن صوركم - وقوله تعالى - الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها - الخ « المقصد الثانى ، فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدوا وعشيا -

المقصد الأول . في تصوير يشمل الانسان والحيوان

ولنخص الكلام على التنفس فنقول :

### التنفس الرئوي في الانسان والحيوان

التنفس انما يكون في الحيوان برئات هوائية مثل رئة الانسان . والرئة تتكون في الحيوانات الرخوة كهيئة شبكة العنكبوت ، وأرقى من ذلك في الضفادع فهي فيها وعاءان ، وفي الحيات كيس مستطيل فيه خلايا كثيرة ، وفي ذوات الثدي والطيور عضو اسفنجي البناء كالبقرة والجاموس ، وللطيور رئة تناسب حالها في طيرانه

### صفة الرئة العامة

جسمان اسفنجيان موضوعان في الصدر ، وظهر كل منهما متصل بباطن الأضلاع ويتصلان بالفم بقصبة غضروفية يدخل فيها الهواء ، وهذه القصبة متى وصلت الى الرئة تتحول الى شعبتين كل شعبة تدخل رئة نصير شعبا كثيرة منبثة في الرئة اليمنى والرئة اليسرى ، ويصير كل فرع من الفرعين في كل رئة من الرئتين مشبها بكيس وهذا الكيس متصل بهواء الخارجي بأنبوبة صفاقية تخترق الرئة حتى تخرج منها في أعلى الصدر ، وباجتماع الأنبوبتين تكون القصبة الغضروفية . والدم اذا عاد من أطراف الجسد بواسطة الأوردة يصب في الأذين الأيمن من القلب ويسير منه الى البطين الأيمن ويخرج من البطين الأيمن المذكور بشریان كبير يقال له الشريان الرئوي وهو يسير الى الرئتين ويتفرع فيهما كما تتفرع شعب القصبة فتنتهي الشعب بالأنايب الهوائية وتنتهي الشرايين بالشبكة الشعرية . فاذا دخل الهواء في المسالك الهوائية وانتهى الى الخلايا الهوائية أصبح مجاورا للدم في الأوعية الشعرية . فاذن يمتص الدم الاكسوجين من الهواء وينفث فيه حامض الكربونيك بقوة حيوية لم تدركها عقول الناس . وحينئذ يدخل الدم في البطين الأيسر والأذين الأيسر ويتفرع في سائر الجسم اه

لعلك تقول نحن الآن في تفسير القرآن والقرآن سهل . وهذه الألفاظ التي سمعتها الآن لاتفهم . فما هو البطين وما هو الأذين وما معنى هذا المقام ؟ أقول لك : إن هذا المقام مقام المجائب والحكمة . انظر الى القلب . انه فيه أربع تجاويف كأنها أربع غرف غرفتان في أعلى وهما صغيرتان وغرفتان في أسفل وهما كبيرتان . والصغريتان تسمى كل منهما (أذنين) أعني أذن صغيرة تشبها لها بالأذن . والكبيرتان يقال لكل منهما بطين أي انها كالبطن والبطن أكبر من الأذن . هكذا هاتان أكبر مما فوقهما

ولعلك تقول قد فهمت . إذن أقول لك ان لنا حنجرة وهي القصبة الهوائية . وهذه القصبة تتفرع فرعين كل فرع يدخل رئة من الرئتين كما تقدم . والفروع المنفرعة من الفرعين تكون منتهية بما يشبه الكيس يدخل الهواء فيه من الفم . وهذا الهواء الآتي من الفم معد لتطهير الدم والدم يأتي من أطراف الجسم في العروق التي يقال لها الأوردة لأن الأوردة تحمل الدم الذي يحتاج الى الإصلاح وهو الدم الوريدي والشرايين تحمل الدم الشرياني أي الذي حصل اصلاحه بهواء كما سترى . فهذا الدم الذي جاء من طريق الأوردة يصل الى الاذنين الأيمن . وهناك فتحة بين الاذنين الأيمن والبطين الأيمن تفتح وتغلق والقلب أشبه بالآلة الماصة الكابسة فينزل الدم من الاذنين الأيمن الى البطين الأيمن تحتته ويخرج من البطين الأيمن في الشريان الرئوي وهو يمتد الى الرئة ويتفرع فيها فروعاً شعرية دقيقة . وقد علمت مما مر أن القصبة الهوائية لها فروع منبثة فيها هواء . فهنا تجاورت الفروع الهوائية الآتية من الفم والفروع الشعرية الآتية من الشريان الممتد من البطين الأيمن . وهناك يتلاقى الدم والهواء ويحصل التفاعل بينهما

فانظر كيف جرى الدم وسار في مسالك في الجسم ثم جرى الى الاذنين الأيمن والبطين والشريان الرئوي

وانتهى الى الهواء الآتى من الخارج . وكيف استمرّ هذا العمل ليلا ونهارا والناس لا يعلمون بل ربما يعيش الانسان ويموت وهو لا يدري عن هذا ولا عن غيره شيئا ، ومتى طهر الدم سار في كل من الاذين الأيسر والبطين الأيسر وخرج الى الجسم في الأورطى وهو يتفرّع الى فرعين فرع يمتد الى أعلى الجسم وفرع الى أسفله ويتفرّع فروعاً لا تحصى في سائر الجسد لتغذيته وهكذا ، ومتى اتصلت بالحوصلات الجسمية وتغذت بها رجعت عكارة الدم المتحددة بالمادة الفحمية وهو الكربون الى القلب بطريق الأوردة وهكذا ، وانما أطلت لك في هذا المقام لأن المدار ليس على كثرة العلم بل المدار على الفهم والتعقل وهذا مقام دقيق يحتاج الى البسط والشرح الدم جاء من الأغذية الداخلة من الفم الى المريء الى المعدة الى الامعاء وخلصته تذهب في الأوعية الشعرية وتدخل الكبد ويطبخ هناك وتخرج منه الصفراء ويخلص منه السوداء والماء ويتجه كل الى مقره فالأولى في المرة الصفراء والثانية في الطحال والثالثة تذهب الى الكلى ويبقى الدم فيدخل مع الدم الشرياني في الدورة ، فهذا الدم الآتى من الغذاء محتاج الى الهواء لتجديد مادة الحياة فيه فهو للدم أشبه بالماء بالنسبة لظاهر الجسم من حيث ازالة المضار فكما أن الماء نشربه وتطهر به هكذا الدم يتطهر بالهواء ويأخذ منه مادة الحياة كلما ضعفت . هذا ما أردت ذكره في هذا المقام والحمد لله رب العالمين

## ٢ - المقصد الثانى فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدواً وعشيا -

قد ذكرت لك أن علماءنا رحمهم الله قالوا « إن هذه الآية تدل على عذاب القبر ، واذن لابد أن أذكر لك شذرات من كتاب الأرواح الذى ألفته لهذا الغرض وانى أحد الله عز وجل إذ جعل بينى وبين تفسير القرآن حائلا مدة نحو (١٣) سنة مع انى كنت أدرسه فى مدرسة دار العلوم وكانت الفرصة سانحة لتتيممه فأراد الله أن يسلط رجال السياسة على وأنا فى (دار العلوم) فوشوا بى وقالوا للانجليز انه يعلم تلاميذه الوطنية فنقلت من تعليم طلبة دار العلوم الذين يفهمون الى تعليم تلاميذ الثانوى اللغة العربية لا غير واقطع التفسير وبقى ما كتبه محفوظا عندى حتى انتهت الحرب العظمى ودارت الأيام وانتهت من أعمال الحكومة وفى أثناء هذه السنين اطلعت على علم الأرواح وألفت فيه الكتاب المذكور ، فلولا نعمة الله التى كانت بحسب ظاهرها نعمة وهى تأخير التفسير مع مسيس الحاجة اليه وشغف الطلبة والعارفين به ما أمكن شرح هذا المقام ولا اظهار ما أبرزه الله فى العالم الانسانى من الخبايا الروحية التى تنطق بمصدق القرآن ، فكم لله من نعمة اختبأت فى ظواهر النقم ، فلا شرع فى نقل شذرات من ذلك الكتاب الذى ألفته لهذا المعنى ، فقد جاء فى مقدمة ذلك الكتاب ما يأتى :

ألا فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية فى البلاد الاوروبية قد نطقت فيها الأرواح على مرآى ومسمع من مجالس شورا هم والملا من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان فى أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلا ومبيناً أيما تبيان ، لقد شرحت الأرواح ماشاهدته فى عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء وخطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء فأنصت الجمع وكفكف الدمع وجاءت البشرى بالحياة الأخرى وقال الأموات للأقارب والاخوان « وان الدار الآخرة لهى الحيوان » فصدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وفرح المسؤل وقنع السائل

فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين ، إنه لعيب فاضح وخطأ واضح وشين مبین ، نحن أحقّ بهذا العلم من الغربيين ، إن الأمر لجلل يعوزه كتب تؤلف ومجامع تحمّش وعلماء تنتقد ، أنا لست فى كتابى هذا أثبت العالم الروحى فحسب ، فلقد سبقنى اليه من نشرها الفكرة وأذاعوا أمره بين اخوانى المصريين ، انما الذى أدهشنى ما عثرت عليه من المحاورات بين الأرواح الناطقة من عالم الغيب وبين الأحياء فى المجامع العلمية . وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرنى كثيرا بما طالعت فى أمهات الكتب الاسلامية وما جاء

عن السادة الصوفية . أليس من واجبي أن أنشر تلك المطابقات العجيبة بين أئمتنا الاسلامية . انه لحرام على أن  
أنغمض العين ولا أتهمز الفرصة فأذ كر كل حادثه من حوادث العجائب الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الاسلامية  
مينا الكتاب والصفحة واسم المؤلف

سيجب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها اذا جاءهم هذا النبأ الذي عنه يتساءلون من ذا الذي كان  
يدور بخلداه أو يهيجس بخاطرته أن ما جاء من نعيم القبر وعذابه في ديننا يعرض اليوم عرضا على الجامع الأوروبية  
النفسية كمثل الحاكم الالماني ييلون الذي مات وعمره ٧٩ سنة وقد استغاثت روحه من اضطهاد يمين له  
وحققوا فوجدوا ثبتت غدره باليتامى في دفاتر الحكومة في تلك الأقطار

أم من ذا الذي يسمع بحادث مدينة ونسبرج اذ تجلت روح محاسب ارتكبت الخيانة فطلب أن تساعده  
أرملته اذ دها على المكان الذي أخفيت فيه تلك الدفاتر ففعلت ما طلب وخف عنه بعض ما يجد من العذاب المهين  
بل من ذا الذي يسمع بحادثة مدينة انجوليم ولا يكون من الموقنين وهي من حوادث لاعداد لها في الجامع  
النفسية الروحية . ذلك انه مات غنى بجحيل فأحضرت الجمعية روحه فقال هاتوا لي ذهبي ومالي لم أخذتموه في حديث  
طويل ستقرؤه مفصلا في الكتاب

أنا لست في كتاب الأرواح أسرد الحوادث المنقولة سهلا ولكني أجد ذلك يطابق مانص عليه الغزالي وغيره  
بطريق الكشف وكيف قال ان عذاب القبر على هذا الأسلوب وستراه مفصلا في الكتاب

من وقف على أسرار دين الاسلام في أمهات الكتب العلية عرف ما للذنوب القلبية من الحسد والكبرياء  
والطمع والجشع من الأثر في العذاب وان العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات . وكذلك ليس للره  
من كمال الابدالات العظيمة لبنى الانسان . لما قرأت محادثات الأرواح التي سترها ألفتها جهات مصدقة لما قرأته  
في كل كتاب فأبنت المطابقة في هذا الكتاب . وفي الحديث : من كتم علما ألجه لله بدجام من نار يوم القيامة  
أفلا يجب نشر هذا التفصيل لاخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ان ذلك يأمر به الدين

نعم لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - وثبت بالبراهين  
و يقين الصدق . قوله تعالى - سفرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق -  
وجاء في صفحة ٣٣ منه وما بعدها ما يأتي :

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبدالرؤف تاج العارفين ابن زين العابدين الجداوى القاهرى المعروف  
بالمناوى المولود سنة ٩٥٢ المتوفى بالقاهرة صبح يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر الخير سنة ١٠٣١ على  
قصيدة النفس لابن سينا صفحة ٣٢ ناقلا عن الغزالي ما يأتي :

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التي تلى جهة فوق الى التي تلى جهة أقدامنا مملوء جنودا  
وملائكة وما يعلم جنود بك الالهو الى أن قال ولا ينبغي أن يشكر من كذلك وقد شهد شعاع الشمس وروحانته  
و بساطته حتى ان قرصها يكون بالقرب وشعاعها بالشرق فها هو الآن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذي  
بالشرق بلا زمان فلو كان جسما ما انقطع في عدة سنين واذا أخذت امرأة وعكست بها الشعاع انعكس الى حيث  
شئت ثم تعطفه لافى زمان . وجوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كثيف فليس في العالم موضع الالهو  
مغمور بما لا يعلمه الله ولذلك أمر الشارع بالستر في الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح اه

(ثانيا) قال المناوى نفسه في الكتاب المذكور نقلا عن الغزالي رحمه الله صفحة ٨٠ ما ملخصه أنه قال قد  
ظهر للمشاهدة ظهورا أوضح من العيان أن أصناف عذاب القبر ثلاثة أقسام فرقة المشتبهات وخزى خجل  
الفاضحات وحسرة فوت المحبوبات

وهذه أنواع روحانية تتعاقب على الميت الى أن ينتهي الى النار الجسمانية . ففرقة المشتهيات وهو أوها  
وصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل التين الذي وصفه الشرع وعدد رهوسه وهي بقدر الشهوات ورذائل  
الصفات الى أن قال . والثاني خزي خجل الفاضحات فاذا تناول الزمن بعد الموت وقد احترق الفؤاد بفراقه ما تشبهه  
النفس من الأهل والأحباب والمال تجبونا نار ذلك الفراق بطول الزمن فتبدو إذ ذاك نار الخزي في القلب بما  
ارتكبت من الذنوب والآثام ويرى نفسه في خزي وفضيحة أمام خالقه والعقلاء فاذا طال الزمن ألف الفضيحة  
ثم تظهر آخر الأمر نار حسرة فوت المحبوبات من الأعمال العظيمة والعلوم اليقينية التي يرى غيره بها ارتقى  
وذلك آخر ما يلقي من العذاب قبل ما يلج النار في الآخرة هذا ملخص ما ذكره المناوي نقلا عن الفزالي  
صفحة ٨٠ و٨١ وما قال فيها بالحرف

ولا تظن أن الله يغضب عليك انتقاما ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول لم يعذبني ولم تضره معصيتي . إذ يلزم  
العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم . وهذه الحسرة دائمة لا تزول أبدا انتهى المقصود منه بالحرف الواحد  
(ثالثا) : قال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٩٣

واعلم ان النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك  
النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل فهذه النفوس  
الشيطنية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها الى الفعل كما قال تعالى - شياطين الانس والجن  
يوسى بعضهم الى بعض زخرف القول غورا - فشياطين الانس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد  
وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأبصار وقال قبل ذلك ما ملخصه . ان هذه  
النفوس الشريرة للمفارقة الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لورجعت  
للذات كرة أخرى حينئذ تصبح النفس كأنها لاهية ولا ميتة كما قال تعالى لا يموت فيها ولا يحيى تقول . ياليتنا نرد  
فنعمل غير الذي كنا نعمل . ياليتني كنت ترابا . هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا . وقال تعالى - ولوردوا لعادوا  
لمنهم وأنهم لكاذبون - لما ركب فيهم من الأخلاق السائئة وتبقى تلك النفوس متعلقة ببناء جنسها المتجسدة  
توسوس لهم وهكذا شأن الغافلين انتهى ملخصا من إخوان الصفاء  
ثم جاء في صفحة ٣٨ وما بعدها ما يأتي

قال شير محمد عندي سؤال آخر هام لاطاقة على كتمه ولا مندوحة لي من فهمه وذلك أني قرأت أحاديث  
كثيرة في أمر عذاب القبر ونعيمه وانها أمور جسمية لا معنوية وكيف يقنع المسلمون بقولك هذا وكأنني بمن يسمع  
كلامك يقول هذا كلام فلاسفة خارج عن الدين وما تقول في قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن في قبره في روضة خضراء  
ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت » فان له معيشة  
ضنكا » قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسقط عليه تسعة وتسعون تينا هل تدرون ما لتنين  
تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رعوس يخذشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون  
قلت يا شير محمد ان لنا في الجواب عليه وجوها ثلاثة ذكرها الامام الفزالي فلنسر على منهجه ولنسج  
على منواله

(الأول) أننا نبقى الحيات والعقارب والتنانين على حالها بلا تأويل ونسلم أنها موجودة وجودا غير مأنهده .  
ولنا في ذلك نظائر . ألم تر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه جبريل والناس لا يرونه وهم به مصدقون . لما روا  
من الآثار والعلم والحكمة وقد أجمع رجال الكشف من المسلمين أنهم يشاهدون صورا ويعرفون أموراً يجهلها  
سواهم وأنت تعلم أن الوسطاء المؤمنين بالفتح يشاهدون صورا وأشباحا ويخبرون بأمر . والناس حولهم  
لا يدركون منها شيئا . أفليس الميت أوفر حربة وأكثر انظلا وأوسع نطاقا . فاذالم يسعك أن تتصور هذا وشق

عليك فاستمع لما ألقىه إليك في

الوجه الثاني . ذلك اننا نعتبر بحال النائم فاننا نرى نائمين في فراش واحد وقد قام أحدهما مذعورا كئيبا وجلا خائفا مما شاهد وقت نومه . وقال الثاني قد كنت في حديقة غناء مع من أحب وهو مستبشر فرح بمالاقى من المسرات والنعيم فلنتأمل الميت الذي صار أ كثر حورية وأحد نظرا من النائم فتكون الحية والتنين والعقرب موجودة بالنسبة له والحاضرون لا يعلون . فاذا عسر عليك هذا وأبيت أن تقبل فاستمع لما أقول في

الوجه الثالث . بأن نقول ان الحيات ليست مؤذية بذاتها وان المؤذى هو السم الذي نقتشه من نابها فيدور مع الدم فيكون الألم الشديد بل نفس السم ليس بمؤذ . ألا ترى الى ما حققه الأطباء ان سم الحية ان شرب ولا جرح في الفم ولا في مجرى الطعام الى المعدة صار غذاء لاداء قاتلا . وانما يؤذى ويضر الجسم اذا دار مع السم في العروق والشرايين . فهناك الأذى فالحية ليست بمؤذية ولا السم وانما هو الأثر الناجم من السم الملقوظ من الحية فكانت النتيجة أن اللذات والآلام كيفيات قد تصل الى الحس بطريق الأعصاب . والمدار على الأثر للمؤثر . والآلام قسمان قسم جسمي وقسم روحي . فالجسمي اما من داخل وإما من خارج . والذي من الخارج إما من الحواس الخمس . كالصوت الكريه في السمع . والمنظر البشع والمخزن أو الخيف في البصر . والروائح الكريهة في الشم والمر في النوق . والذي من داخل هي الأمراض وهي ترجع إلى انحراف المزاج عن

اعتدال الطباع الأربع وهي الصفراء والسوداء والدم والبلغم . ومن هذه تنشأ سائر الأمراض المتكاثرة أما القسم الروحي فهو راجع الى الغضب والشهوة والجهل وعدم العدل . ولقد تفرع على هذه فروع كثيرة كتفرع رؤس الحيات وعدد التنانين والحيات . فاذالم يترن الغضب بالشجاعة والعلم ولم تحفظ الشهوة بالهفة . ولم يوصف العقل بالحكمة . ولم يكن اعتدال بين هذه القوى . كانت الآلام النفسية الموجهة التي تبقى في النفس بعد الموت . وهذا انحراف في الأخلاق كما أن المرض انحراف في المزاج . فاذا غلبت السم حدثت الأمراض الناجمة عنه . كما أن الغضب في الأخلاق يحدث عنه أمثال الاحقاد والضغائن واذا غلبت الشهوة حدثت أمور . كالعشق المنحرف عن الجادة ومتى فارق الحب ما أحبه جزع . وهناك موازنة ما بين الآلام الجسمية بقسميها وما بين الآلام النفسية . ولنضرب لك مثلا يوضح المقام فنقول لتتخذ حاسة الحس مثلا فان الآلام الواصلة الى الجسم منها تكون بالضرب أو بالجرح مثلا . وتقابلها بالآلام الروحية لفقد المحبوب من مال وعقار

فلو أن رجلا قيل له أعطني عقارك وضياحك وضرب ضرابا موجعا فانه لا يترك ماملك ولا يدع ما أحب لما يحس من الألم الناجم من فراق المحبوب وهو ما يملكه وهو أشد من الألم الناجم من الضرب المؤلم بطريق الحس . الا أنه لا يزال يوازن بين الألمين ويتحمل الأمرين ويرضى بتمزيق جلده . حتى اذا أصبح ألم الجسم لا يطاق . وكادت تلتف الساق بالساق . هنالك يرى الألم الناجم من الضرب الجسمي أقوى من ألم فراق المحبوب فيتركه على قاعدة « اذا اجتمعت هلتان يتبع الأخف »

( قال الامام الغزالي . والصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذيا يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عندهموت المعشوق فانه كان لذيذا فطرات عليه حال صار للذيذ بنفسه مؤلما . حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتني معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه أحد أنواع عذاب الميت . فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ منه جميع ذلك في حياته من لا يريد استرجاعه . فماذا ترى يكون حاله . أليس يعظم شقاؤه ويشد عذابه ويقول ياليتني لم يكن لي مال قط ولا جاه فكنت لا تأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ماحال من كان له واحد \* غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدينا فتؤخذ منه وتسلم الى أعدائه ثم يضاف الى ذلك الحسرة على ما فاتته من نعيم  
الآخرة انتهى المقصود منه  
وجاء في صحيفة ٤٤ ما يأتي

### ﴿ المجلس الرابع ﴾

( في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه وفي قلة علم النوع الانساني ومقارنات شتى )

بين أقوال الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف

فلما أن جاء الشيخ شير محمد والتأم المجلس شرع يطالبني بما وعدته في المجلس السابق فقلت حبا وكرامة  
أما القصة الأولى فهي ما قاله في الكتاب المذكور في صفحة ٦٣ ونصه بالحرف الواحد روى المعلم جاردى  
نقلا عن إحدى الجرائد الرومانية الألمانية الحادث الآتى :

في اليوم الثالث من شهر آب ١٨٨٢ قعد ثلاثة أشخاص من مدينة . ح . حول طاولة لمكالمتها . فلما  
استقرت بهم الحال . أخذت المائدة تتحرك اشارة الى رغبتها فى التكلم . فدار بينهم الحديث الآتى :

(س) من الطارق . ج : خياط مقتول

(س) كيف قتلت . ج : مرت على قطار فداسنى

(س) متى كان ذلك . ج : منذ ثلاث سنين

(س) وأين تم ذلك . ج : فى أوتنر بارمن

(س) أى يوم . ج : فى ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

(س) ما اسمك . ج : سيجوار ليكوييسك

(س) أين كان مقرك . ج : فى بارمن

(س) هل والدك فى قيد الحياة . ج : نعم

(س) أ كنت معلما أم صانعا . ج : كنت أجير صانع

(س) فى أى سن قتلت . ج : فى السابعة عشرة من عمرى

(س) هل تستحسن أن نبلغ ذلك لوالديك . ج : كلا

(س) لماذا . ج : لأنهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت

(س) ربما هذا يقنعهما . ج : لا ينوبكم من ذلك الا السخرية

(س) كيف تمّ حادث قتلك .

(ج) كنت ذاهبا لزيارة أنسباء لى فى أوتنر بارمن واذا كنت ماشيا فى طريقى لم ألمح لضعف بصرى قدوم

القطار فرّ على وداسنى

(س) بما اذا اشتغل الآن . ج : لا أستطيع وصف ذلك .

فجذب الحضور من هذه الرواية وقصدوا أن يتحققوا صحتها فكتب أحدهم فى اليوم الثانى الى مديرية

بارمن ليستقصى الخبر فورد اليه الجواب من رئيس الشحنة فى ١٧ آب سنة ١٨٨٢ وهاك نصه : اجابة لطلبكم

رقم ٨ الجارى أنشرف باعلامكم أننا على اثر مطالعتنا سجلات المديرية وجدنا أن الصانع الخياط المدعو

سيجوار ليكوييسك وله من العمر سبع عشرة سنة بينما كان مارا فى طريق اوتنر بارمن ليلة ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

الساعة ١١ والدقيقة ١٤ مر من فوقه قطار السكة الحديدية فقتله ونسبت قضيته الى تجول القليل جهلا منه فى

طريق القطار . اه

## اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

### ﴿ اللطيفة الأولى ﴾

( في قوله تعالى - هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - الى قوله - فأنما يقول له كن فيكون - مع قوله - الله الذى جعل لكم الأنعام - الى قوله - فأى آيات الله تنكرون - مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - التى فى سورة الزمر الى قوله هناك - فينبشكم بما كنتم تعملون - وقوله فيها - خلق السموات والأرض بالحق - الى - من الله العزيز الحكيم - )  
فهنا خلقنا وخلق أنعامنا ، وأنه حكيم ، وأنه خلق هذه العوالم بالحق ، وأنه يرضى لنا شكر النعمة ولا يرضى لنا كفرها ، ولا جرم أن المجهول لا شكر عليه ، إذن المعلوم هو الذى يكون عليه الشكر ، وعلى قدر جهل الانسان بالنعمة يكون كفرها وعلى مقدار معرفة حقائقها والعمل بها يكون شكرها ، إذن المسلمون اذا جهلوا الأنعام ونحوها فهم كافرون بنعمتها والله لا يرضى لنا ذلك الكفر ، وأنت عليم أيها الذكى أن شكر النعمة تقدم تفسيره تكرارا فى هذا التفسير ، ذلك ان شكرها صرفها فيما خلقت له وذلك لا يكون إلا بعد المعرفة فن عرف نعمة المحسن أحبه وأثنى عليه بلسانه وذلك هو الحمد وأطاعه بتسخير أعضائه كلها له ، إذن هنا قلب عرف فأحب ولسان أثنى وجوارح تسخر فى مصالح المشكور والمشكورنا هو الله والله غنى ، إذن يجعل الانسان كل مواهبه مسخرة لعباد الله ، هذا هو شكر النعمة الذى أساسه المعرفة ، والمسلمون اليوم فى أقطار الأرض محروم أكثرهم من معرفة هذه العوالم ، والحرمان من المعرفة يبعث على التقصير فى الشكر فوجب على إذن فى هذا المقام أن أصطفى نبذا جيلا مفيدة للمسلمين كنموذج لمعرفة علم الحيوان ، ولأخص من غوامض العلم ماتق اعين الناس عليها وهم عنها غافلون

لما وصلت الى هذا المقام حضر صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ماذا تريد أن تقول فى علم الحيوان ؟ ألم تكتب عنه مقادارا كبيرا فى ﴿ سورة النحل ﴾ عند آية - وان لكم فى الأنعام لعبرة - الخ وفى ﴿ سورة طه ﴾ نبذا جيلا مصورة بالصور الشمسية البديعة وهكذا فى آخر ﴿ سورة الحج ﴾ إذ بينت هناك كيف تقسم الحيوانات الى فقرية وغير فقرية ، وجعلت الذبابة المذكورة فى الآية محور التقسيم ناقلا عن العالم الفرنسى الذى كان يتحدث تلاميذه فى أمر الذبابة وانها عند عصرها لا يرى لها عظم ولادم والحضان عند تهشيمه يرى له دم وعظم ، وهناك انقسمت الملكة الى هذين القسمين وهكذا . ثم إنك فى ﴿ سورة النور ﴾ أطلت فى هذا المقام ورسمت الصور الحيوانية والنباتية المقسمة على المناطق الأرضية كلها . وهناك إيضاح تام عند قوله تعالى - والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع - الخ وهكذا فى ﴿ سورة النمل ﴾ شرحت أحوال النمل شرحا وافيا كما شرحت أحوال الحشرة المسماة بالأرضة وأبنت عجائبها البديعة فى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية - ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته - وفى ﴿ سورة الروم ﴾ رسمت صور الحشرات والطيور والتعابين المختلفة الألوان لتبيان أن الألوان التى انصفت بها هذه الحيوانات كانت سببا فى حفظ ماشا كلها بهذه الألوان من الحيوانات الأخرى التى خلت من سلاح المقاومة والحفظ وهذا كما اتضح فى أول الروم فى آية - واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين - واتضح أيضا فى ﴿ سورة المؤمنين ﴾ فى أولها عند قوله تعالى - وما كنا عن الخلق غافلين - فهناك حيوانات كثيرة مرسومة حفظت بما منحت من الهيئات الخاصة

(١) هذه اللطائف لم تسطر إلا عند طبع هذه السورة ولم يكن لها وجود عند التأليف : المؤلف

والألوان المناسبة لحاها بخلاف تلك المرسومات في ﴿سورة الروم﴾ فان منفعة ألوان الحيوان تعدت الى حفظ غيره لأن مشابهة ما ليس له سلاح لماله سلاح من الحشرات ونحوها هي التي أخافت الحيوانات المفترسة لهذه الحشرات ونحوها فصارت محفوظة ، ذلك كله ظاهر وقد تقدم كما تقدم في ﴿سورة فاطر﴾ عجائب أنواع الريش في مختلف الطيور ونحو ذلك وهكذا تقدم هناك عجائب المعدة والأمعاء وأعصاب الحس وأعصاب الحركة وما شابه ذلك كله تقدم موضحاً أيما إيضاح كما انضح أيضاً في ﴿سورة السجدة﴾ عند آية - الذي أحسن كل شئ خلقه - الخ هذا كله تقدم في هذا التفسير ، فما الذي تريد أن تقوله اليوم في علم الحيوان ؟ فقلت : أنا أسألك سؤالاً في علم الحيوان . فقال سل . فقلت : ما تقول في نوع السحالي والبرص والحرباء ، أضرار هذه أم نافعة ؟ فقال : لا أدري . فقلت : ما الفرق بين الثعابين السامة والتي لا سمّ لها حتى تقتل الأول ولا تقتل الثاني ، وما الثعبان الذي يحمله الحواة في بلادنا المصرية ؟ وهل هو سام . فقال : لا أدري فقلت : هل تعلم حيواناً في الماء يولد في مكان بعيد عن وطنه الأصلي بعدا شاسعا جدا وهذا المولود وهو صغير يسافر شهورا وشهورا حتى يرجع الى الوطن الذي خرج منه أصله . فقال : كلا . فهذه ماهي إلا ألباز فقلت : وهل العلق الذي في الأرض له منفعة ؟ فقال : لا أدري . فقلت : أضرر الحداة أكبر أم نفعها حتى اذا غلب ضررها قتلناها أو نفعها أبقيناها ؟ فقال : لا أدري . فقلت : فلا جيبك على هذه الأسئلة في هذا المقام حتى اذا جاءت فرصة ذكرت فوائد أخرى وذلك في ﴿سبعة فصول﴾ في السحالي والبرص والحرباء والثعابين و الثعابين السمك والعلق والحداة . فقال : ولكن يظهر لي أن الكلام وان حسن فقد خرج عن الموضوع . فقلت : إن الله يقول - وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج - فقد ذكر الأنعام والأنعام نوع من الحيوان إذن فلنبحث في تقسيم الحيوان حتى نستخرج منه الأنعام . فقال : أما هذا فنعم . فقلت : نظرنا في كتب المتقدمين فوجدنا أن « اخوان الصفاء » يقسمه الى ناقص الخلقه وتام الخلقه ، وناقص الخلقه مقدم في الوجود على تام الخلقه . ثم قال بعد كلام : واعلم يا أخي أن الحيوان هو جسم متحرك حساس يفترس ويغنى ويحس ويتحرك حركة مكانية ، وان من الحيوان ما هو أشرف المراتب مما يلي رتبة الانسانية وهو ما كان له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم ومنه ما هو أدون رتبة مما يلي النبات وهو كل حيوان ليس له الاحاسة واحدة وهي اللمس فحسب كالأصداف ، وما كان كأجناس الديدان كلها التي تتكون في الطين أو في الماء أو في الخلل أو في الثلج أو في لب الثمر أو في الحب أو في لب النبات والشجر أو في أجواف الحيوانات الكبار الجثة ، وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ، ويحس باللمس وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس حسب . وهو سريع التكون وسريع الهلاك والفساد والبلب . ومنها ماهي أتمّ بنية وأكمل صورة وهي كل دودة تتكون وتدب على ورق الشجر والنبات ونورها وزهرها لها ذوق ولمس . ومنها ماهي أتمّ وأكمل وهي كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواقع المظلمة ومنها ماهي أتمّ وأكمل وهي كل حيوان من الهوام والحشرات التي تدب في المواقع المظلمة له لمس وذوق وشم وليس له بصر مثل الحلقة . فاللمس قوام جشته وبالذوق يميز الغذاء من غيره وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له فيجتز قبل الورود والهجوم عليه ولم يجعل له البصر لأنه يعيش في المواقع المظلمة ولا يحتاج الى البصر ولو كان له بصر لكان ذلك وبالا عليه من حفظه من إغماض العين من القذى ضرورة لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا ولا حاسة لا يحتاج اليها ولا ينتفع بها . ومنها ماهو أتمّ بنية وأكمل صورة وهي ما لها خمس حواس كاملة وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل في الجودة والرداءة

**﴿فصل﴾** ومن الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج ومنها ما يزحف كدودة الصدف ومنها ما ينساب كالحية ومنها ما يدب كالعقارب ومنها ما يعدو كالفار ومنها ما يطير كالذباب والبق وما يدب ويمشي ماله رجلان ومنها ماله أربعة أرجل ومنها ماله ستة أرجل ومنها ماله أكثر كالدحال وما يطير من الحشرات ماله جناحان ومنها ماله أربعة أجنحة ومنها ماله ستة أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخالب وقرون كالجراد ومنها ماله خرطوم كالبق والذباب ومنها ماله مشفر وحة كالزنابير ومن الطوام والحشرات ماله فكر وروية وتميز وتديير وسياسة مثل الخمل والنحل يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقري وجمع الفخائر والقوت للشتاء ويعيش حولا وربما زاد وما كان غير هذين من الطوام والحشرات مثل البق والبراغيث والذباب والجراد وماشا كلها فانها لا تعيش حولا كاملا لانها يهلكها الحر والبرد المفرطان ثم يتكون في العام القابل مثلها

**﴿فصل﴾** ومن الحيوان ما هو أتم بنية مما ذكرنا وأكمل صورته منها وهو كل حيوان بدنه مؤلف من أعضاء مختلفة الأشكال وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام وكل قطعة منها مفضنة الهياآت من الطول والقصر والدقة والغلف والاستقامة والاعوجاج ومؤلفه كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الاعصاب والرباطات محشوة الخلل باللحم منسوجة بالعروق محصنة بالجلدة مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصدف أو الفلوس وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسة كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والامعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكروش والحوصلة والقانصة وماشا كلها وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخالب ومناقير والحافر والظلف والخف وماشا كلها كل ذلك لما ترب وخصال عدة ومنافع جمة لا يعلمها الا الذي خلقها وصورها وانشأها وأتمها وأكملها وبلغها الى أقصى غايتها وتتمام نهايتها وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الطوام كالحيات والأنعام وهو كل ماله ظلف مشقوق والبهائم ما كانت لها حافر والسباع ما كان لها أنياب ومخالب والوحوش ما كان مركبا بين ذلك والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخالب مقربة وحيوان الماء ما يقيم فيه ويعيش والحشرات ما يطير وليس له ريش والطوام ما يدب على رجلين وأربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه

**﴿فصل﴾** ثم اعلم يا أخي أيديك الله وايانا بروح منه بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجل والجاموس وغيرها تحتاج أن تمسك في الرحم زمانا طويلا الى أن تولد لعلتين اثنتين احدهما كيما تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج اليها الطبيعة في تميم البنية وتكميل الصورة والعلة الأخرى كيما تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج الثلثات المشاكلات الطباع وتحط من هناك قوى روحانيات الكواكب الى عالم الكون والفساد التي تحتاج اليها في تميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة ليقبل كل جنس من الكائنات المولدات ماله أن يقبل من تلك القوى كما ينظرنا طرفا من ذلك في رسالة مسقط النطفة . ثم اعلم يا أخي أيديك الله وايانا بروح منه بأن الحيوانات التامة الحلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كونت في بدء الخلق ذكرا وأنثى من الطين تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين والحر والبرد معتدلين والمواضع الكينية من تصريف الرياح موجودة هناك والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة وللمساكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جعلت أرحام اناث هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطباع لكيما اذا انتشرت في الأرض تناسلت وتوالدت حيث كانت وأكثرت الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين ولا يتعجبون من كونها في الرحم من ماء مهين وهي أعجب في الحلقة وأعظم في القدرة لأن من الناس من يقدر أن يصور حيوانا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هي موجودة مشاهدة في ايدي الناس من

خلقة الأصنام ولا يمكن أحدا أن يصور حيوانا من الماء لأن الماء جسم سيال لا تماسك فيه الصورة فتكون هذه الحيوانات في الأرحام أو في البيض من ماء مهين أعجب في الخلقة وأعظم في القدرة من كونها في الطين وأيضا ان أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقرة وهي أعجب خلقة وأطرف صورة لأن الفيل مع كبر جسده له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان والبقرة مع صغر جسدها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخولا يدركها البصر وهي مع صغر جسدها مسيطرة على الفيل بالأذية ولا يقدر عليها ولا يمنع بالتحرز منها . وأيضا فان الصانع البشري يقدر على أن يصور فيلا من الخشب أو من الحديد أو من غيرها بكمالها ولا يقدر أحد من الصانع أن يصور بقرة لامن الخشب ولا من الحديد بكمالها وأيضا فان كون الانسان من النطقة بدنيما في الرحم جنينا ثم في المهدي ضعيفا ثم في المكتب صبيما ثم تصريف أمور الدنيا رجلا حكما أعجب أحوالا وأعظم اقتدارا من كونه يبعث من تراب قبره يوم القيامة وخروج الناس كأنهم جراد منتشر وهكذا أيضا مشاهدة خروج عشرين فروجة من تحت حضن دجاجة واحدة أو ثلاثين دراجة من تحت حضن دراجة واحدة ينقض عنها قشور بيضها في ساعة واحدة وعدوكل واحدة في طلب الحب وفرارها وهربها من الطالب لها حتى ربما لا يقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة فما الذي منع المنكرين من الاقرار بذلك وهم يشاهدون مثل هذه التي أعجب هي منها وأعظم في القدرة لولا جريان العادة بها اه

هذا ماجاء في « اخوان الصفاء » أيها النكي ولا جرم انك رأيت في هذا المقال تعريف الأنعام بحسب ما كانوا يرونه والفرق بينها وبين السباع والبهائم ، هذا نوع آراء المتقدمين ، ولما كان هذا التفسير لا يقع أذكياء قرائه بأراء طائفة دون أخرى أردت أن أريك تقسيم المتأخرين للحيوان وهناك تأتي بالفصول السبعة لتعرف أجوبة المسائل المتقدمة ، وهناك تعرف أننا في هذه الاجابة الآتية لم نخرج عن مضمون الآية الكريمة فقد صرح فيها بالأنعام ، وما الحيوان إلا أنعام وغير أنعام ، وهذا الذي سنذكره انما هو بعض المقابل لما في الآية ، وهذا من مقاصد التفسير ، إذن الفصول السبعة الآتية لا تخرج عن مضمون التفسير ، فهالك تقسيم المتأخرين في زماننا الحاضر :

الحيوانات إما أولية أي ذات خلية واحدة . واما غير أولية أي كثيرة الخلايا . فذات الخلية الواحدة كحيوان الملاريا الذي لا أعضاء له يتحرك بها فيعيش في السكرات الدموية الجراء في دم الانسان فترتفع حرارته بسبب تكاثر هذا الحيوان بالتناسل وهو يستعين بالناموس فيدخل فيه وهذا ينقله الى انسان آخر فيمرض بهذا المرض . فهذا هو أذى الحيوان خلق ليكون ضارا بالنوع الانساني والانسان مكلف بدراسته ليتقيه . فهذه نعمة من حيث انها تحثنا على الدراسة التي بها نعرف مضرّة الضارّ فتقيه ومنفعة النافع فنصطفيه . فاذا جهلنا فاننا لاجمالة مصابون بالضارّ معاقبون بالحرمان من منفعة النافع . انتهى الكلام على الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة

أما الحيوانات ذوات الخلايا فمنها الاسفنج وهو معروف . ومنها حيوان المرجان . وقد تقدم الكلام عليه في ﴿ سورة النحل ﴾ وسور أخرى . ومنها الحيوانات ذوات الجلد الشوكي كنجمة البحر وهذا تقدم في ﴿ سورة الحج ﴾ رسمه وقنفذ البحر . ومنها الديدان المفرطحة كالودودة الكبدية والبلهارسيا . ومنها الديدان الاسطوانية مثل دودة الانكستوما . ومنها الودودة الحلقيه وهي دودة الأرض والعلق الطبي . ومنها الحيوانات المفصليّة مثل الصرصار والذباب المنزلي الخ . ومنها الحيوانات الرخوة كالقواقع وأم الخلول . ومنها الحيوانات الفقرية التي جاءت ببعضها هذه الآية . والفقرية منها السمك والضفادع والزواحف والطيور والحيوانات الثديية هذا مجمل أنواع الحيوانات . ولا جرم أن الفصول السبعة الآتية بعضها من ذوات الفقرات كشعابين السمك

وكالحداة . وبعضها من الديدان الحلقية كدودة الأرض . وبعضها من الحيوانات الزاحفة كالسحالي والبرص والحرباء والتعاين . إذن فلنذكر الفصول السبعة على ترتيب ماقدّمناه :

### ( الفصل الأول في السحالي )

اعلم أن السحالي من الحيوانات الورلية . وهذه الحيوانات تغطي أجسامها بالخراسيف أو الدرناات . ولها أربعة أطراف تنتهي أصابعها بمخالب حادة . وهذه الحيوانات في الغالب نشطة وسريعة الحركة وألوانها زاهية وبعضها يماثل لون الوسط الذي يعيش فيه وهذا يساعدها على الاختفاء عن الأنظار . وأذناها هذه الحيوانات طويلة ويلاحظ أنها تتحرك زمنا بعد فصلها عن الحيوان . ولهذه الحيوانات قدرة خاصة على تجديد بعض أعضائها المقطوعة كالأذناات

تعيش الحيوانات الورلية في المناطق الحارة عادة ويقل وجودها أو ينعدم في الأقطار الباردة . وتتغذى هذه الحيوانات باللحوم كالحشرات والديدان وغيرها . وتضع أيضا تدفنه في الرمال حتى يفقس . وتشمل هذه الفصيلة حيوانات كثيرة مختلفة منها الورل والسحالي والأبراص والحرباء

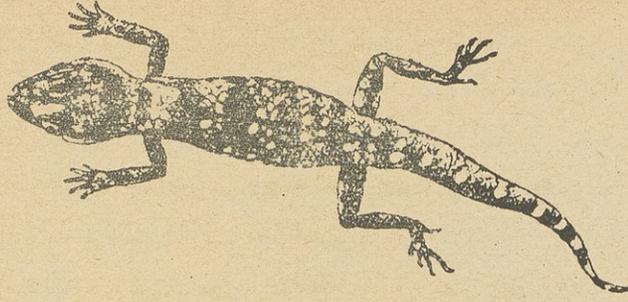
(١) الورل : حيوان كبير الحجم نوعا يغطي جلده بدرناات خشنة . ويصل طول أكبر أنواعه إلى متر أو أكثر . ويعيش بعض أنواعه في الصحاري وعلى شواطئ الأنهار حيث تفوص في الماء إذا أزعجت  
(٢) السحالي : حيوانات كثيرة الأنواع توجد في جميع جهات القطر في المزارع وغيرها وتسلق الأشجار وتتغذى بالحشرات والديدان والحيوانات الصغيرة وجلدها لين في الغالب وذو ألوان زاهية وتعتبر من الحيوانات النافعة لأنها تتغذى بالحيوانات الضارة (انظر شكل ١)



( شكل ١ - رسم السحلية )

### ﴿ الفصل الثاني . الأبراص ﴾

(٢) الأبراص : زواحف صغيرة تكثر في المنازل ، ولها أصابع مفرطحة نوعا منتهية بمخالب ويتكوّن هذا الجزء المفرطح من أجزاء عضلية مستعرضة بارزة موازية لبعضها تقريبا ، فإذا وضع الحيوان قدمه على سطح أملس انطبق سطح هذه الأجزاء عليه انطباقا تاما ، وذلك بطرد الهواء الموجود بينهما وبذلك يتمكن البرص من تسلق الجدران الناعمة والمثني على الأسطح الملساء كالزجاج ، وتتغذى الأبراص بالحشرات الصغيرة في المنازل كالصراصير مثلا ، ولذلك يعتبر البرص من الحيوانات النافعة والذكور في العادة أزهي لونا من الإناث ، وتماثل الأبراص لون الوسط الذي تعيش فيه عادة (انظر شكل ٢ في الصفحة التالية)



( شكل ٢ - رسم البرص )

## ﴿ الفصل الثالث . الحرباء ﴾

(٣) الحرباء حيوان غريب الشكل متوسط الحجم يعيش على الأشجار ، والحرباء رأس هرمي وعلى جانبيه عينان برّاقتان بارزتان وتتحرك كل منهما بمفردها في جميع الاتجاهات ، وعنقها قصير وعليه ثنيات جلدية ، ولها ذنب طويل ورفيع يلتف عادة حول أفرع الأشجار التي تقف عليها ، وأصابعها معدة للقبض على أفرع الأشجار . وجلد الحرباء لين ويتغير لونه بسرعة حسب لون الوسط الموجودة فيه الحرباء لتختفي فيه عن الأنظار ، وتصعب رؤيتها حتى من مسافة بسيطة ، ولسانها طويل واسطواني الشكل وينتهي بطرف منبسط كالملعقة يفرز مادة لزجة . وتتغذى الحرباء بالباب وأبي دقيق والصراصير والحشرات الصغيرة إذ عند ما تقرب منها حشرة ينطلق لسانها بسرعة البرق فتلتصق الفريسة بقمته وسرعان ما يعود اللسان بها الى الفم . والحرباء حيوان بطيء الحركة كسول يتر بص لفريسته زمنا طويلا حتى يتمكن منها . وتوجد الحرباء في كثير من بقاع الدنيا القديمة وفي كثير من مناطق الصحارى المصرية حيث توجد بعض الحشائش والأشجار ( انظر شكل ٣ )

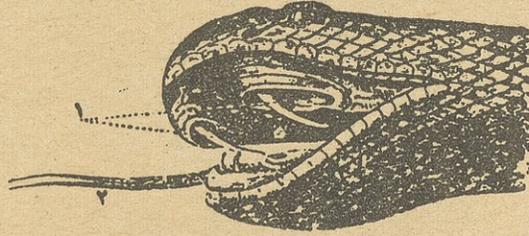


( شكل ٣ - رسم الحرباء )

### ﴿ الفصل الرابع : الثعابين ﴾

(٤) الثعابين : تميز الثعابين عن الزاحفات الأخرى بطول جسمها وخلقه من الأطراف (توجد الأطراف الخلفية بحالة أثرية تحت الجلد في البوا والبيتون) ويناسب شكل الثعابين مع طرق معيشتها حيث تزحف داخل الشقوق والانفاق الضيقة . ويغطي جسمها بطبقة حرشفية . وتغير الثعابين الطبقة الخارجية من جلدها في فترات منتظمة . وتعيش الثعابين في جميع بلاد العالم وتكثر على الأخص في البلاد الحارة فيعيش بعضها في الغابات ويتسلق الأشجار . ويعيش بعضها على الأرض في أنفاق خاصة . ويعيش البعض في الماء . وأغلب الثعابين المائية سام

توجد بجانب رأس الثعبان عينان ليس لهما جفون متحركة وهذا ما يجعل الحيوان كأنه محقق دائماً . وما يستحق الذكر أن الثعابين لا ترى تماماً أيام انسلاخها لأن الطبقة الخارجية لقرنية العين تغير أيضاً . وبالجزء الأمامي من الرأس يوجد الفم وله فتحة كبيرة ، وتمكن الثعابين من ابتلاع حيوانات كبيرة بالنسبة لحجمها ، وذلك راجع لعدم التحام بعض عظام الرأس التي يتصل بها الفك الأسفل ، وبهذا يمكن فتح فمها واسعا بدرجة غير عادية ، وما يسهل مرور القرينة الكبيرة اللحم في القناة الهضمية كون أضلاع الثعابين عاتمة أى سائبة من أسفل ولا تتصل بقص متوسط وللثعابين أسنان حادة متصلة بالفكين ولسان طويل سريع الحركة وذو طرف مشقوق ويستعمل كعضو للحس (انظر شكل ٤)



( شكل ٤ - رسم رأس ثعبان سام )

(١) النابان السميان (٢) اللسان المشقوق

ويميل أكثر الثعابين للرقاد هادئاً ولا يتحرك إلا من الجوع أو الخوف . وبعضها نهاري ويميل للرقاد تحت أشعة الشمس المباشرة . وبعضها ليلي أى انه لا يتجول للبحث عن غذائه إلا ليلاً . وتغلب أكثر الثعابين على فريستها بسرعة حركتها وقوة عضلاتها . وقد وصفها بعضهم بقوله : « إن الثعابين تفوق القردة في مقدرتها على التسلق والأسماك في مقدرتها على العموم والزبرا في مقدرتها على الوثب وتفوق على أكبر مصارع وتبطن بالفم الهاجج » وكل هذه الصفات ترجع لقوة مجموعها العضلي

تتغذى الثعابين بالطيور المختلفة وبيضها وفراخها وبالجرذان والسحالي إذ تبتلعها كما هي وتتغذى كذلك بالضادع والأسماك . وتضع الثعابين بيضا تدفنه في الرمال وأكوام الأسبخة وفي الأراضي ، وقد ترقد بعض الثعابين على بيضها . ويولد البعض الآخر أحياء كبعض أنواع الحيات . والثعابين إما سامة أو غير سامة وتميز الأولى بوجود نابين كبيرين حادين بالفك العلوي يعرفان بالنابين السمين

يفرز سم الثعبان من غدتين موجودتين على جانبي القسم الأمامي من الجمجمة بالقرب من عظام الفك العلوي الذي يحمل النابين السمين . ومن المحتمل أن هاتين الغدتين تقابلان الغدتين النكفيتين اللعائيتين متحورتين . وتخرج من كل غدة سمية قناة تمتد إلى الناب المقابل لها فتفتح إما في قناة مقفلة تمر في وسطه أو في قناة

مفتوحة هي عبارة عن ميزاب بجانبه . وفي كلتي الحالتين يمر السم الى الجرح الذي سببه الناب في جسم الفريسة . ولا تختلف الثعابين السامة ذات القناة المفتوحة في شكلها العام عن غير السامة . أما الثعابين السامة ذات القناة الداخلية فتكون ذات ذيل قصير ورأس مثلث ولونها زاه قليلا كما في الحيات وسم الثعبان سائل رائق مصفر اللون وسريع التأثير اذا حقن تحت الجلد أوفى الدم مباشرة وذلك ما يحصل عند ما يعض الثعبان فريسته . ولا يؤثر سم أغلب الثعابين اذا وصل الى القناة الهضمية لأنه يتأثر بالعصارات الهضمية كباقي المواد الزلالية فيتحلل تركيبه ويفقد خواصه السامة . وتستعمل الثعابين سمها للدفاع عن نفسها وكذلك لتسميم فريستها حتى تتغلب عليها . وسنذكر هنا بضع أنواع سامة وأخرى غير سامة :

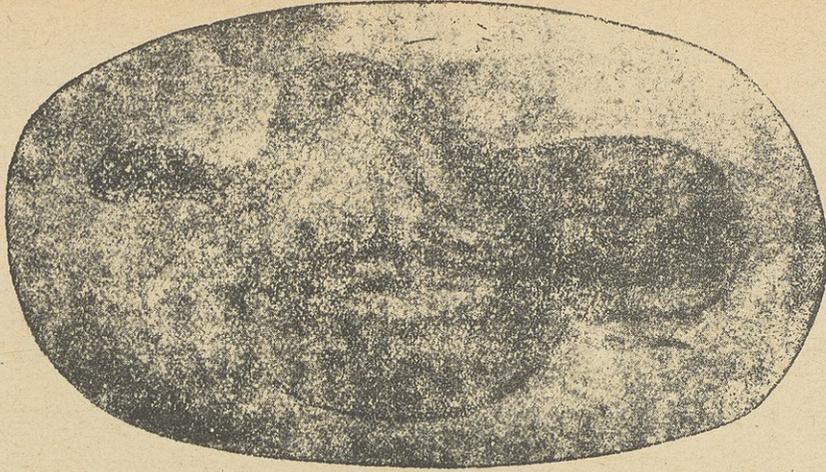
(١) **الثعبان الناشر** واسمه العلمي (ناجا حاجي) . يعرف هذا الثعبان بالكوبرا المصري وسمى بالناشر تبعاً لانبساط رقبتة عرضاً عند انفعاله ويوجد في المزارع في جميع جهات القطر المصري ولونه العام بني في سطحه العلوي وأصفر في سطحه السفلي ويصل طوله الى متر وثلاثة أرباع المتر ويتغذى بالضفادع واليرقان وغيرها وربما بالأسماك لأنه يعبر الترع اذا اضطر لذلك . وتضع الأنثى بيضاً يختلف عدده من ١٨ الى ٢٥ بيضة في حجم بيض الحمام وله قشرة جلدية بيضاء . وسم الثعبان الناشر قتال سريع الفعل ويحدث نوع من الكوبرا في الهند عدداً من الوفيات كل عام (انظر شكل ٥)



( الكوبرا المصري )

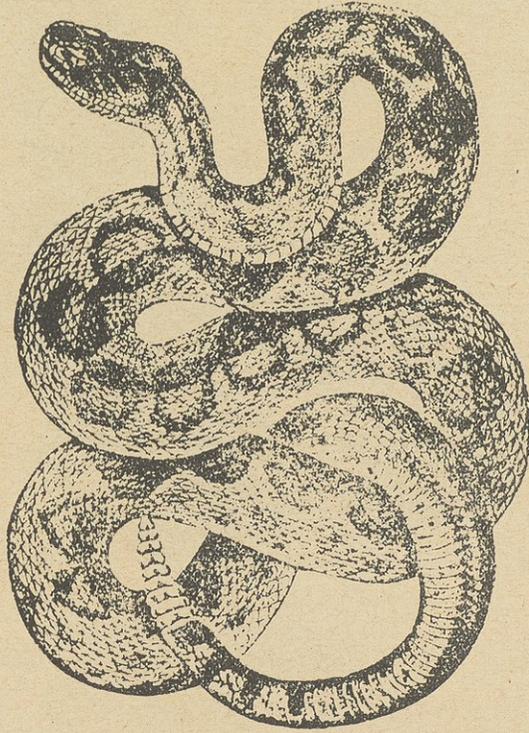
( شكل ٥ - رسم الثعبان الناشر «الكوبرا» )

(٢) **الحية المقرنة** واسمها العلمي (سيراستيس كوزنوتس) وهذا النوع من الثعابين ذو سم قتال للحيوانات الصغيرة ، وليس من المحقق أنه قتال للإنسان ، وتعيش الحيات في الصحارى ولونها مصفر كالرمل وعليها بقع داكنة اللون وتتميز بوجود تتوين صغيرين كالقرون على رأسها وتتغذى بالقران والحيوانات القراضة الصغيرة التي تجدها في تلك المواضع كالجر بوع مثلا ، ويبلغ طولها نصف متر أو أكثر قليلا (انظر شكل ٦ في الصفحة التالية)



( شكل ٦ - رسم الحية المقرنة )

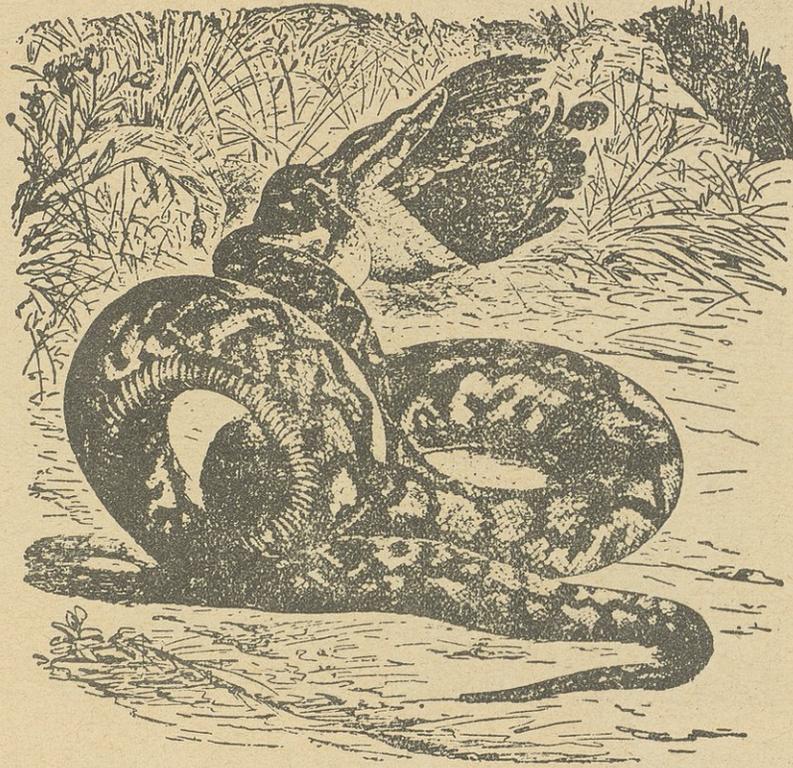
(٣) الثعبان ذوالجرس واسمه العلمي ( كروتالوس أتروكس ) يوجد هذا النوع من الثعابين السامة في أمريكا ويمتاز بذيئبه الذي يغطي طرفه بعدد من حراشيف قرنية جافة ومستديرة تحدث رينا عند احتكاكها ببعضها أثناء سير الحيوان ( انظر شكل ٧ )



( شكل ٧ - الثعبان ذوالجرس بالحجم الطبيعي )

(٤) الثعبان الأرقم واسمه العلمي ( زامينيس دياديما ) . هذا الثعبان غير سام وكثير الانتشار في جميع القطر ولونه العام في سطحه العلوي رملي مائل الى الاحمرار وعليه بقع ذات لون بني ، أما سطحه السفلي فذو لون أصفر ، ويسكن في الجهات الجافة فيكثر وجوده في الحفر العميقة بمجوار الاهرام وعلى حدود الدلتا القريبة من الصحراء وفي الدلتا نفسها في المناطق الجافة الخالية من المزروعات ، ويوجد هذا الثعبان دائما مع الحواة ويبلغ طوله (١٣٠) سنيمترا تقريبا ويتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة

(٥) اليتون هو أكبر أنواع الثعابين إذ يبلغ طول بعضها تسعة أمتار أو عشرة ، وتوجد في كثير من المناطق الحارة في أفريقيا وآسيا وهي غير سامة . وتقتل فريستها بكونها تلتف على جسمها وتضغط عليه حتى تموت الفريسة . وتوجد بهذا الثعبان آثار الأرجل الخلفية تحت الجلد كما سبق القول (انظر شكل ٨)



( شكل ٨ - يتون أفريقي يتلع دجاجة )

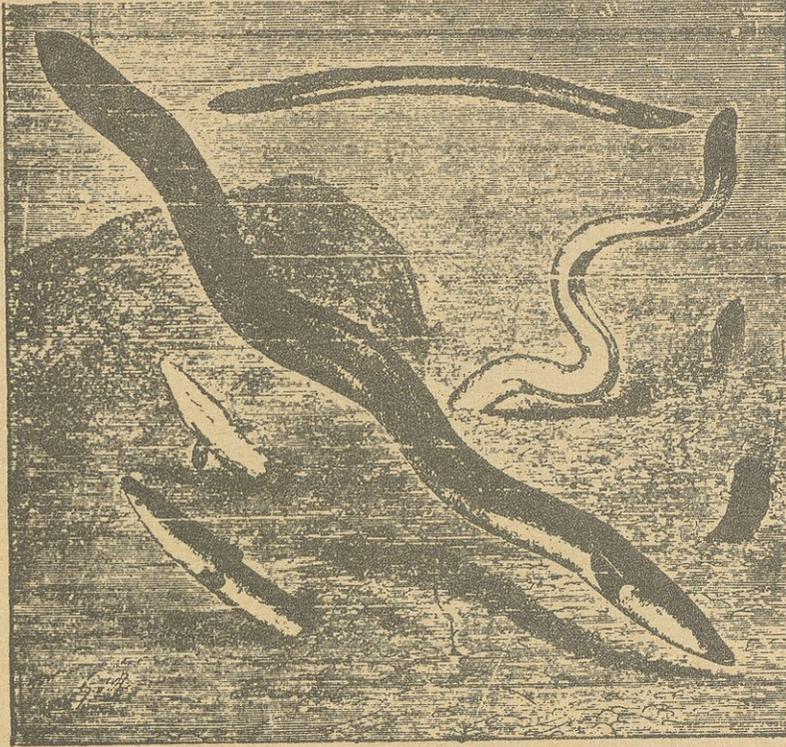
### ﴿ الفصل الخامس في ثعابين السمك ﴾

الأسماك حيوانات مائية تحورت أجسامها بشكل خاص يساعدها على معيشتها الدائمة في المياه ولواستئناسها للأسماك المفرطحة كسمك موسى لوجدنا بقية أنواع الأسماك كلها قريبة الشبه بعضها من بعض . جسمها يشبه القارب ومغطى بقشور متصلة بالجلد من جهة واحدة وسائبة من جهاتها الأخرى . وتغطي القشور بعضها بعضا وكلها في اتجاه واحد . وهذه القشور من أهم مميزات الأسماك كما ان الحراشيف من مميزات الزاحفات والريش من مميزات الطيور . والشعر من مميزات الحيوانات الثديية

من ثعابين السمك نوعان : أحدهما يعيش في أنهار أوروبا وشمال أفريقيا . ويعرف بثعبان السمك الاوروبى الافريقي واسمه العلمى (أنجلا أنجلا) ويعيش الآخر في أنهار الولايات المتحدة التي تصب في المحيط الاطلنطى واسمه العلمى (أنجلا كريزيا)

ويوجد ثعبان السمك بمصر في النيل والترع الخارجة منه بكميات كبيرة . وهو حيوان اسطوائى ذو جلد أملس أى لا قشر عليه ولون ظهره أخضر قاتم و بطنه سنجابى وفه في مقدمة الرأس وبفكيه أسنان حادة قاطعة . ويتغذى الثعبان من اللحوم أى انه يأكل الحيوانات المائية التي يتمكن من افتراسها كالأسماك الصغيرة والضفادع والديدان وغيرها . ويختلف طول الثعابين من (٥٠) الى (١٠٠) سنتيمترا . فالصغيرة

في الطول عادة هي التي تعيش بالقرب من مصب النهر وهي الذكور عادة . أما التي تعيش في أعالي النهر فتكون طويلة وهي الاناث . وهذه الأسماك ليلية أي انها تختفي بالنهار بأن تدفن نفسها في الطين أو بين الأحجار وتخرج بالليل باحثة عن غذائها (انظر شكل ٩)



( شكل ٩ - ثعابين السمك ويشاهد بعضها مدفونا في الطين )

ولا تناسل الثعابين أصلا في الأنهار كبقية الأسماك النهرية ومع ذلك فإنه يوجد بها كميات كبيرة لا تقل سنة عن أخرى ، وكذلك فإنه توجد بين الكميات التي تصاد أفراد كبيرة وأخرى صغيرة ، ويلاحظ في الوقت نفسه أن الثعابين الكبيرة تهاجر من النهر إلى البحر ، أما الصغيرة فتصعد من البحر إلى النهر ويتم نمو الثعابين عادة بعد مدة تتراوح من أربع سنين إلى سبعة ، وفي هذا الوقت يتغير لونها في السطح العلوي من أخضر إلى لون مائل للحمرة ، وفي السطح السفلي من سحابي إلى أبيض فضي ، ويكون ذلك في فصل الخريف ، وعند ذلك تترك النهر مجتمعة في عدد كبير متجهة إلى مصبه ، وفي المساء عادة تنزل إلى البحر فتقوم بنشاط وتبدأ رحلة طويلة فتمت من بوغاز (جبل طارق) إلى المحيط الأطلنطي وتعبه إلى جزائر برمودة القريبة من شواطئ الولايات المتحدة فتصلها في الشتاء ، وتقوم ثعابين أنهر أوروبا الغربية بنفس هذه الرحلة

وعند وصول الثعابين إلى نهاية رحلتها البحرية الطويلة يكون قد تم نمو أعضائها التناسلية فتضع الاناث بيضها في الماء وتفرغ كذلك الذكور مادتها المنوية في الماء أيضا فيتم إخصاب البيض بهذه الطريقة وتضع الأنتى كميات كبيرة من البيض تبلغ المليون أو أكثر

أما مصير الذكور والاناث بعد ذلك فجهول ، ولكن الأرجح أن مصيرها الموت كما هي العادة عند بعض الحيوانات ، وعند ما يفسد البيض تخرج منه الصغار المعروفة باليرقات فتبدأ سياحتها راجعة في الطريق التي أتت منها أبواها ، وتتغذى في طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة ، وفي الوقت نفسه تكون هي معرضة

لافتراس كثير من الحيوانات البحرية ، وتستغرق سياحتها في الرجوع كما يقال سنة ونصف أوسنتين  
ومما يدل على أن قيام الثعابين النائمة النمو بهذه السياحة من الأنهار الى المحيط ورجوع يرقاتها من المحيط  
الى الأنهار فعل غريزي هو أن يرقات ثعابين السمك الأمريكية لا ترجع إلا الى الأنهار الأمريكية التي تربي  
فيها أبواها ، ولا يوجد ثعبان السمك الأمريكي في أنهار أوروبا ولا أفريقيا وكذلك الحال مع الثعبان الاوروبى  
الافريقي ، وعند ما تصل اليرقات الى مصب النهر يكون ذلك عادة في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء ، ويبلغ  
طولها في هذا الوقت تسعة سنتيمترات ، فتصعد النهر ويعيش بعضها بالقرب من مصبه وهذه تكون عادة  
ذكور المستقبل ، أما التي تصعد الى أعالي النهر فتكون أنثى المستقبل وهي التي يبلغ طولها عند نهاية نموها  
مترا تقريبا

أما الباعث لهذا الحيوان على تنقلاته الغريبة من النهر الى المحيط للتوالد ومن المحيط الى النهر للنمو فلا يزال  
غامضا وكل التفسيرات التي كتبت في هذا الشأن ليست شافية

### ﴿ الفصل السادس في دودة الأرض ﴾

اعلم أن الناس يعيشون ويموتون وأمامهم جبال وعلم وحكمة ولا يدرون ماهي ، لقد كنا أيام الطفولة  
نتوجه الى شواطئ البحار مع الأطفال ونبحث عن العلق في الأرض فنستخرجه ونضعه في الشص (الصناره)  
ونصطاد به السمك ونحن لانعقل ولا آباؤنا ولا اخواننا لم خلق الله هذا العلق ؟ الله أكبر ! فأرانا العلم أن  
هذا العلق يصل عدده في الفدان الواحد كما استراه الى (٥٣) ألف دودة جعلت في الأرض لتحرثها حرثا غير  
حرث الانسان . إذن المسلم اذا عاش ومات وهو لا يعرف عجائب هذه الدنيا فقد كفر نعمة الله ولم يشكرها  
ومن كفر النعمة حرمها . وهذا سبب ضعف المسلمين . إذن فلا سمعك الكلام على دودة الأرض من كتاب  
« علم الحيوان » وهذا نصه :

### (١) - ﴿ دودة الأرض ﴾

توجد ديدان الارض بعدد وافر في الأراضي مهما كان نوعها غير أنه يلزم أن تكون رطبة لأن الرطوبة  
من ضروريات حياتها والجفاف قاتل لها . ولذلك ينسدر وجودها في الأراضي الرملية والصحارى . ويكثر  
وجودها في الأراضي المغطاة بالنباتات والخضراوات إذ تقيها حرارة الشمس وذلك كما في أرض الجنائن عادة

### ﴿ شكلها الخارجي ﴾

ديدان الأرض اسطوانية الشكل ويبلغ طولها ١٥ سنتيمترا تقريبا وطرفاها رقيقان ولكن الأمامي  
منهما أرفع من الخلفي وجسمها مقسم بخطوط عرضية الى حلقات يتراوح عددها ما بين ١٢٠ و ١٨٠ حلقة ،  
ولون الجسم قرنفلي وعليه أشواك صغيرة متجهة الى الخلف لتساعد على الحركة دائما الى الأمام وهي أربعة  
أزواج في كل حلقة زوجان منها في كل جانب من الجسم . (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠ - دودة الأرض بالحجم الحقيقي)

تغطي دودة الأرض بجلد لين رطب مخاطي ويشاهد بالسطح العلوي للدودة انتفاخ بسيط واضح في الديدان

التامة النمو يعرف بالسرّج ويمتد من الحلقة الثانية والثلاثين الى السابعة والثلاثين وبه غدد تفرز مادة مخاطية لصنع الكيس الذي تضع الدودة فيه بيضها . وتوجد بالجسم عدة فتحات نذكرها باختصار فيما يلي

(١) الفم فتحة صغيرة بأسفل الحلقة الأولى

(٢) الاست فتحة بيضية في الحلقة الأخيرة من الجسم

(٣) الفتحات التناسلية أربعة أزواج وهي :-

(أ) الوعاآن الناقلان الآتيان من الخصى يفتحان على جانبي الحلقة الخامسة عشرة

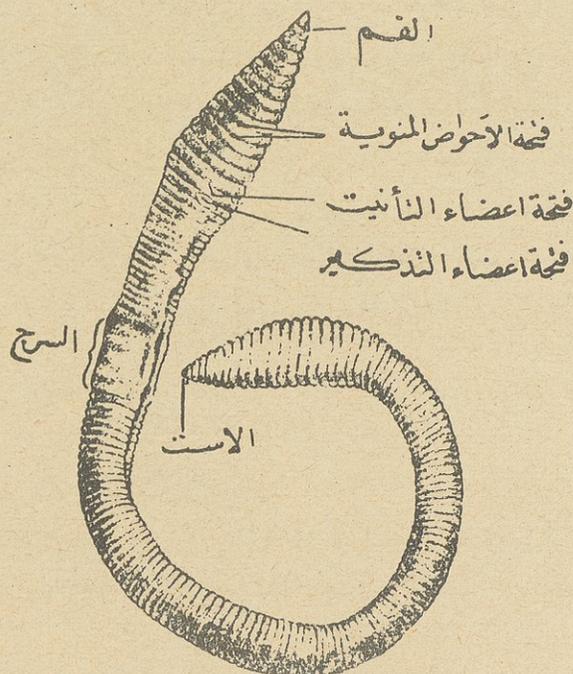
(ب) قناتا المبيض الآتيتان من المبيضين يفتحان على جانبي الحلقة الرابعة عشرة

(ج) للدودة أربعة أحواض منوية لتخزين السائل المنوي الآتي من فرد آخر ولها أربع فتحات على

جانبي الحلقة العاشرة والحادية عشرة

(٤) على جانبي كل حلقة من جسم الدودة ماعدا الثلاث حلقات الأولى والحلقة الأخيرة فتحتان

بوليتان آتيتان من السكيتين . ( انظر شكل ١١ )



( شكل ١١ - دودة الأرض مكبرة )

﴿ عاداتها وغداؤها ﴾

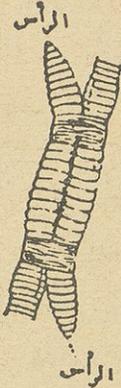
تعيش ديدان الأرض في الأنفاق التي تعملها في الأرض . وكيفية ذلك أنها تأكل جزءاً من الطين لكي تفسح لنفسها مكاناً ويساعدها على ذلك دفع جسمها إلى الأمام . وتكون هذه الأنفاق عمودية عادة . وتبقى الديدان فيها أثناء النهار إلا إذا اضطرها المطر الغزير إلى مغادرتها وعند ذلك تهجرها مرغمة وتشرع في عمل غيرها . وتنشط الديدان أثناء الليل إذ تخرج وتتجول على سطح الأرض باحثة عن غذائها أو أليفها . وكثيراً ما ترى آثارها على الطرق والجسور المبتلة بدرى في الصباح . وبالرغم من أن الديدان عديمة الأعين نجد أنها حساسة للضوء وتتجنبه إذا عرضت له . تخرج الديدان بالليل باحثة عن غذائها وأفضله الأوراق والأزهار المتساقطة إذ عند ماتعثرها تقبض عليها بفمها وتسحبها إلى أنفاقها لتتغذى بها . وتتغذى كذلك ببذور النباتات التي تجدها في التربة والكائنات الأخرى كبعض الجراثيم وبويضات الحشرات والديدان الصغيرة حية كانت أو ميتة .

وتتغذى

وتكتفي الديدان في الأراضي غير المنزرعة بالمادة العضوية التي تستخلصها من الطين الذي تبتلعه

### ﴿ التوالد ﴾

ديدان الأرض خنثى ولكنها لا تلقح نفسها بل يحصل التلقيح عادة بين فردين وذلك بأن تضع الودتان سطحيهما السفليين مقابل بعضهما على أن يكون رأسهما في اتجاهين مختلفين . وعند ذلك تمر المادة المنوية من كل منهما وتدخل في الأحواض المنوية للأخرى حيث تتخزن بها . ( انظر شكل ١٢ )



( شكل ١٢ )  
دودتان في حالة  
الاجتماع التناسلي

وبعد هذه العملية تنفصل الودتان وتفرز كل منهما من السرج مادة زلالية قرنية يتكوّن منها حزام عريض يحيط بجسم الوددة في هذا الموضع . وعند ذلك تنسحب الوددة من هذا الحزام الى الخلف وعند ما يصل الحزام الى الحلقة الرابعة عشرة تنزل فيه الوددة بضع بويضات وعند ما يصل الى الحلقة العاشرة تنزل الوددة في الحزام كمية من المواد المنوية . وعند انسحاب الوددة منه نهائيا ينسد طرفاه فيصبح بشكل حوصلة محتوية على بضع بويضات . وقليل من الحيوانات المنوية كلها مغمورة في سائل لبنى مغذي يحمّل أن تقوم بافرازه غدد جلدية وفي تلك الحوصلة تحصب البويضات وعند فقسها تخرج الأجنة وتتغذى بالسائل اللبني حتى اذا ما تمت قليلا خرجت من الحوصلة لتعيد تاريخ حياتها . ولا يخرج عادة من الحوصلة إلا جنين واحد يشبه الوددة اليافعة بعض الشبه وتضع الديدان بيضها عادة أثناء فصلي الربيع والصيف ولكنه قد يستمر طول العام

### ﴿ الأهمية الاقتصادية لديدان الأرض ﴾

(أولاً) تستعمل الديدان طعاماً في صيد الأسماك إذ يبحث عنها الصيادون على جانبي الترع تحت الأشجار والمواسير وغيرها .

(ثانياً) ديدان الأرض غذاء مهم لكثير من الطيور .

(ثالثاً) تؤثر هذه الديدان تأثيراً عظيماً على حياة النبات وذلك انها تتجول في الأرض فتفككها وبذلك تكون عاملاً مهماً في تهويتها وتصفيتها وتساعد كذلك جذور النباتات على التعمق فيقوى النبات ويكبر لاتساع دائرة غذائه

(رابعاً) عند ماتاً كل الديدان الطين تحدث بمواد المعدنية والعضوية تحليلاً يجعلها أكثر صلاحية لتغذية النباتات

(خامساً) تقذف الديدان الطين بعد مروره في جوفها على سطح الأرض وبعملها هذا تعرض الطبقات السفلية من التربة الى المؤثرات الجوية فكأنها تقوم بعملية حرائة بطيئة

(سادساً) بما أن هذه الديدان تسحب كثيراً من أوراق النباتات تحت سطح الأرض فبذلك تزيد في خصوصيتها عند ماتتغفن هذه المواد العضوية

ولما تحقق الاستاذ تشارلس دارون من فوائدها عنى بأمرها وأجرى تجاربه العديدة لاكتشاف مقدار ما تسببه هذه الديدان من نفع غير مباشر للإنسان فقال ( كانت هذه الديدان بمثابة المحراث الطبيعي للأرض قبل أن يخترع الانسان محراثاً لأنها تؤدي عمله الا أنها أبطأ منه . ومنها في الفدان الواحد من أرض الجنائن نحو ٣٥ ألف دودة يمر من أجسامها عشرة أطنان من التربة في السنة وهذا القدر كاف لأن يغطي سطح أرض الفدان الواحد بطبقة سمكها نصف سنتيمتر )

لهذه الديدان مقدرة غريبة على تجديد أجزائها المفقودة . فثلا اذا قطعت الدودة الى قسمين أثناء عزيق الأرض يعيش كل جزء مستقلا ونهى الجزء المفقود منه فثلا ينمو للقسم الذى به الرأس جزء خلقي

### (٢) - ﴿ العلق ﴾

العلق ديدان مائية تعيش فى المياه العذبة فى البرك والمستنقعات وبعضها فى الأراضى الرطبة . وهى حيوانات طفيلية تعيش على الدم الذى تمتصه من الحيوانات التى تعثر بها وجسمها خال من الأشواك وتعلق بعائلها بواسطة مصمين موضعين على طرفى جسمها ويساعدها أيضا على الانتقال حيث يلاحظ ذلك عند حركتها بتشيب الواحد منهما قبل رفع الآخر . وهذه الديدان خثا وتضع بيضها فى أكياس تصنعها لهذا الغرض وأهم أنواع هذه الديدان هو العلق الطبي

أقول : أفليس من المدهش أن نرى فى فدانا نخسين ألف محراث تحرت أرضنا قبل أن يضع ابن آدم محراثه فى الأرض ، أوليس مما يدهش أن نرى ماهو حقير فى نظر الجاهل عظيما فى نظر العالم ، وأن هذا الود الذى كنا نستخرجه لنصطاد به السمك هو أئمن وأغلى فى العلم من الذهب والفضة لأنه به سعادتنا إذ هو يعين على نماء زرعنا ، ولا معنى للذهب والفضة إلا بعد أن يكون عندنا مزارع تأكلها فإذا عدت الزروع فأى معنى للذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة ، الذهب للعاملة فى البيع والشراء وإذا لم تكن حياة بالغذاء فأى بيع وأى شراء ، والأحجار الكريمة للزينة أى زينة لمن عاش وهو جائع لا يجد فى جوابه مضغعة . إذن الحياة مملوءة بالجهالة . إذن الموت خير لبنى آدم حتى يتفهم من هذه الدار التى فيها قلبت الحقائق الى دار أخرى لتعرفهم تلك الحقائق بعد تمام البحث الممكن هنا . انتهى الكلام على الفصل السادس

### ﴿ الفصل السابع فى الكلام على الحدأة ﴾

الحدأة طير يعرف عند العامة بالحداية وهو من الطيور الجارحة واسمه العلمى (ملفوس اجنيوس) وهو منتشر فى كل القطر المصرى ولكنه لا يوجد فى مناطق الاسكندرية وبور سعيد والسويس ووادى النطرون الامتجولا . وهو كثير فى مديرية الفيوم

ويبلغ طوله نحو ستين سنتيمترا وطول منقاره نحو أربعة سنتيمترات والنصف الأعلى من المنقار متقوس الى أسفل كمنقار كل الطيور الجارحة . ويبلغ عرض الطير وهو باسط جناحيه نحو ١٣٠ سنتيمترا . ولون رأسه ورقبه أبيض رمادى يكون فيه شئ من الاحمرار فى أعلاهما . والخط المركزى لكل ريشة فيهما أسود ولون الريش فى أعلى جسمه قاتم . والريش الرئيسى فى الجناحين أسود . والذيل مشقوق ولونه قاتم مائل الى الحمرة فى أعلاه وأعمق فى جنبيه وفيه نحو عشر ريشات . ولون المنقار أصفر ويشاهد أن الحدأة التى لم تبلغ أشدها يكون منقارها أسود وذيلها غير مشقوق ويكون لون أعلى رأسها ورقبتها لونا أصفر يشبه لون الرمل وكل من القدمين ينتهى بأربع أصابع وكل أصبع بمخالب حاد منحرف قوى والأنتى أكبر من الذكر فى الحجم قليلا

ويعشش هذا الطير على الأشجار العالية فى القرى وفى المدن ويصنع عشه من أفرع الأشجار الجافة ينظمها على شكل حفرة ويطنها من الداخل بالحشائش الجافة وورق الأشجار والورق الصناعى وبعض الخرق البالية وفى بعض الأحيان تحتل الحدأة عشا مهجورا لطير آخر ( مثل الصقر )

وتظهر علامات التنبه الجنسى فى شهر مارس حيث يطير الذكر والأنتى متتابعين متلاعبين فى أعلى الهواء راسمين دوائر كبيرة القطر متتابعة على شكل حلزوني غير منظم . وأثناء ذلك تكاد تكون الأجنحة ثابتة

ولا يشاهد فيها إلا بعض حركات نادرة . فالطير يخلق في الجوق مستعينا بسطح جناحيه الواسع ومستعملا ذيله في الاتجاه . ويشاهد الانسان إذا لاحظ الحدأة وهي طائفة بجناحيها منبسطين أنها ترتفع فجأة في الهواء الى منطقة أعلى دون أن تقوم بأدنى مجهود وسبب ذلك أنها تصادف في سيرها تيارات الهواء الساخن الصاعد من الأرض فترفعها الى أعلى

وتبيض الأنثى نحو ثلاث بيضات ترقد عليها وحدها ويأتي الذكور الى الأنثى بغدائها أثناء ذلك وبعد فقس البيض تبقى الصغار مدة طويلة في العش ثم حين تطير تبقى مدة أسابيع عالة على أبويها متغذية مما يأتیان به اليها منه . وصوت الحدأة العادي مخالف لصوتها وقت التفريخ

ويأكل هذا الطير صغار السجاج والبط والاوز ويأكل أيضا الجرذان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات ولا يجمع عن أكل الرم

ولولم تكن شرهته كبيرة في افتراس صغار الطيور المنزلية لكان من أهم الحيوانات المفيدة للانسان بأكله الجرذان والحشرات الضارة وهو من أفسد الطيور في المدن المصرية لأنه ينقي الشوارع من الرم ومن بقايا الحيوانات وينقى الاسطح من كل بقايا المأكل ومن فضلات المطابخ التي تطرح عليها

وهذا الطير بطيء الطيران ولو أنه يطير عاليا وله كثير من الدهاء . وحاسة النظر عنده نامية جدا كما يشاهد ذلك من يتبع حركته عندما يسقط فجأة من أعلى منزل مرتفع على قطعة من بقايا لحم الجزارة ملقاة في الشارع هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » والى هنا تم الكلام على الفصول السبعة والحمد لله رب العالمين كتب في أول أغسطس سنة ١٩٣٠

### ( خاتمة في الحيوانات النافعة )

أذكر كرك أيها الذكي بما ذكرته في ﴿ سورة يوسف ﴾ من اني كتبت في مجلة « الملاجي العباسية » مقالة في الطيور فخصرتها الحكومة ثم حرمت صيدها ، وانى كتبت في ﴿ سورة طه ﴾ آخر رأى للحكومة المصرية في الطيور النافعة التي يحرم صيدها وهي :

( القنبرة . وعصفور التين . وأبو فصاده . والقلاق . والشحفوت . والجليل . والكروان . والسنوتو . والزرزور . والدخلة . والزريقه . والحسيني . والدح . والكركي . والوروار . والبشون . وأبو قردان . وعصفور الجنة . والمهدد . والبليل الصغير . والخطاف . وأبو بليقه . وأبو اليسر . والزقزاق مطوق . والزقزاق البلدي . والغراب الزيتوني . وأبو صدر (أبو الحناء) والجزيره . والصعو . والهزار . والقمحية . وأم الهوى . وزقزاق شامي )

هذا ما ذكرته هناك ، فلنزد عليه ما ذكرناه هنا وهي السحلية والبرص وغيرها من كل حيوان قاتل للحشرات كالعنكبوت

فيا سبحان الله : أيليق أن نعيش في دورنا ونحن نجهل ما حولنا . ها أنا ذا في العقد السابع من حياتي ولاعلم لي أن البرص يأكل الصرصار وغيره إلا في هذا الشهر فأخبرت أهل المنزل بذلك وقد كانوا متشائمين منه ظانين انه ضار لا نافع فمنعوا عنه الأذى

اللهم إن جهل هذه العوام من أكبر ما أضر بالامة الاسلامية ، هذا ولقد تقدم في ﴿ سورة فاطر ﴾ عند آية - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء - الخ انى ذكرت هناك أن الجراد هجم على مصر أيام طبع تلك السورة وكتبت في جريدة الاهرام أن الجراد تجارة رابحة وانه يعصر زيتا نافعا في الطيارات ، وأن الجراد المهاجم على بلادنا اذا بعناه كان نعمة عظيمة ونقله ينفع اطعام البهائم ، ثم أرسلت الحكومة البلجيكية خطابا

للحكومة المصرية تطلب منها ذلك الجراد فلم ترد عليها . وهاك ماجاء في جريدة الاهرام عند طبع هذه السورة يوم (٨) أغسطس سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

### ( تجارة الجراد في بلجيكا )

والسمى للحصول على مقادير كبيرة منه للمصانع . عدم اكتراث الحكومة بما كتب اليها بشأنه منذ أسابيع كتب جناب قنصل البلجيك في الاسكندرية كتابا الى الحكومة المصرية لمناسبة اهتمامها بمحاربة الجراد يقول فيه مأموداه : « إن في بلجيكا مصانع خاصة تستخدم الجراد لأغراض صناعية . وقال إن بلاده على استعداد لشراء أى مقدار يقدم اليها من جماعات هذا الطير المضر بعد قتل ارجاله ، ( كذا ) ويظهر أن السلطة التي كتب اليها بهذا الشأن لم تهتم بالأمر كثيرا ، ويقال انها أهملت الطلب حتى انها لم ترد على كتاب القنصل بكلمة

وقد فهمنا الآن أن أحد البيوت المالية البلجيكية الكبيرة في الاسكندرية علم أن العراق مازال يحارب الجراد في بعض أرجائه فجعل يسعى للحصول على مقدار منه من تلك البلاد لا يقل عن مئة طن . وهناك شروط معينة لتوريد الجراد أخصها انه يجب على المورد أن يضع الجراد بعد قتله في الماء الحار نحو (١٥) دقيقة وتوضع في الماء كمية من الملح . وبعد ذلك يؤخذ الجراد ويفرش على الأرض أربعة أيام ثم ينظف ويوضع في أكياس أو صناديق ويشحن الى (ميناء أفرس) حيث يتسلمه الطالبون

ولاندرى لماذا لم تهتم السلطة المصرية ذات الشأن بما كتبه اليها القنصلية البلجيكية في هذا الموضوع في أثناء محاربة الجراد في الأراضى المصرية أيام كان الأهالى يهلكون ارجال هذا الطائر ويتلفون كل ما يجمعونه منها . وقد كان بالامكان بيع مقادير كبيرة منه لمصانع البلجيك بواسطة القنصلية البلجيكية والكو بتوار البلجيكي . ولو أن الأهالى كانوا يعرفون أن للجراد فوائد صناعية وأن هناك مصانع تطلبه لاهتموا هم بالأمر وباعوا منه مئات الأطنان وربحوا منه المال الوفير

عسى أن لا يأتى الجراد الى مصر مرة أخرى والبلاد في غنى عن هذه التجارة . ولكن اذا الأقدار ساقته الى مصر جرادا في وقت من الأوقات فيجب أن يكون مفهوما أن في أوروبا مصانع تحتاج الى ما يقتل من هذا الطائر المضر . بالزراعة . انتهى

هذه حال حكومتنا المصرية التي لها في الحكم نحو قرن وثلاث وهؤلاء حكامها يتباطؤون في منفعتها فبالك أيها الذكي بغيرها من حكومات الشرق المتأخرة . الأفليم التعليم النافع بلاد الاسلام فلا يكون تعليما قسريا إن بعض الحكام في البلاد الشرقية ليس عندهم تهذيب تام ولا عشق للعلوم . إن من عشق العلم يجب الأمة والفضيلة ومن خلا من عشق العلم انصرفت همته الى شهواته فعاش خادما لها بحيث تكون جميع أعماله موجهة الى هذا الغرض وحده فلا يبالي برفق الأمة وسعادتها والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو العزيز الحكيم . كل الأمر راجع للتعليم والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأحد ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٠

### ﴿ اللطيفة الثانية ﴾

( في قوله تعالى أيضا - هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - الى قوله تعالى - فاما يقول له كن فيكون - مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - مع قوله - ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأتى تصرفون - التي في سورة الزمر الى قوله هناك - فينبشكم بما كنتم تعملون - وقوله فيها - خلق السموات والأرض بالحق - الى قوله - ألهو العزيز الغفار - )

هذه الآية أولها وحدة النفس التي منها خلقت نفوسنا الكثيرة وفي آخرها وحدة الله تعالى . ولاجرم أن الوحدة الأولى تدل على الوحدة الثانية وهذه من أعاجيب القرآن . يقول الله - خلقكم من نفس واحدة - وخلق من هذه النفس نفسا أخرى . ومن هاتين النفسين خلق نفوسا وهكذا . فالوحدة مبدأ الكثرة وذلك كالعدد أسه الواحد وبانضمام آخر إليه ابتداء العدد لأن العدد يفهم منه التعدد ولا تعدد في الواحد . واعلم أن العلوم الحديثة المنتشرة في كرتنا الأرضية هي التي تفهمنا سرّ هذه الآية . ألا ترى رعاك الله أن وحدة الانسان ظاهرة بأن له روحا وهذه الروح تتصرف في جسمه وفي جميع أعضاء الحس وأعضاء الحركة وهي متعدّدة . ومن عجب أن هذه الوحدة الظاهرة في الروح المتصرّفة في الجسم ظاهرة أيضا في ملكة النحل وبنودها منه . وفي ملكة الأرض ( جمع أرضه ) بوزن سمكة المرسومتين في أول سورة سبأ . والمرسومتين أيضا في سورة النحل إذ قلت ان هذه الآية تفسرها العلوم الحديثة . أقول لك أيها الذكيّ ارجع فاقرا ما كتبت على النمل في ﴿ سورة النمل ﴾ وفيما كتبت على الأرض في ﴿ سورة سبأ ﴾ ثم أزيد عليه الآن فأقول :

هاهم القوم في أوروبا ضغطوا على الزرّ في أوروبا فأوقدوا المصابيح في استراليا ، فدلّ ذلك على أن هذه العوالم كلها متصلة اتصالا وثيقا ، ولقد تكلم السياحون وهم فوق القطب الجنوبي في هذه السنة ( ١٩٣٠ ) مع من هم في الممالك المتحدة بطريق البرق الذي لاسلك له ، إذن هذا الجوّ كله مملوء بالأسرار مفعم بالأنوار موصل جيد للأخبار

إذا علمت هذا فلتعلم علما ليس بالظنّ أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة ( الأرض ) بوزن سمك متصلات مع رعاياها بواسطة هذه الأسرار الخفية في الأثير وهي مع ملكتها كأرواحنا مع أعضائنا ، فذاوصلت أعصابنا أخبار حواسنا الى داخل أجسامنا ، وأوصلت أعصابنا أخبار ملاذنا وآلامنا الى المخ وهو وصله الى أرواحنا فان الجوّ وما فيه من الأثير موصل بلا أعصاب فيه ، فكما وصل أخبار من وصلوا الى القطب الجنوبي لمن هم في الممالك المتحدة ووصل تيار النور من أوروبا الى استراليا في لمح البصر بمجرد الضغط على الزرّ بسر الراديو ، هكذا وصل الأثير أخبار ملكة النحل الى عمالها فكان منهنّ المربية للذرية والجامعة للعسل والشمع والتي تقف على باب الخلية حتى لا يدخلها أحد ، ووصل أخبار ملكة النمل كما تقدم في ﴿ سورة النمل ﴾ فكانت ملكتها كأرقي ملكة في العالم ، فمنهنّ الديدان والعمال الصغير والجندى والضابط والمربي للذرية كما تقدم في سورة النمل ، وهناك ترى مزارع النمل المنظمة البهجة مرسومة موضحة ، فهل يكون ذلك النظام وتلك الطاعة المدهشة تحت أمره الملكة بلا خطاب منها ولا تفهيم ؟ كلا . والموصل هو العالم الخفيّ في الأثير

تباركت ربنا وتعاليت ، أنت جعلت الوحدة فينا أي وحدة أرواحنا ، وهذه الوحدة في أرواحنا جعلت قوانا وأعضائنا فكانت علما واحدا ، وجعلتها نموذجاً تفهم به وحدة ممالك النمل والنحل وممالك الانسان بل ملكة الأرض والمجرات والعوالم كلها كلهنّ متصلات اتصال أعضائنا بأجسامنا التي تقودها أرواحنا واتصال ممالك النحل بملكاتها وممالك النمل كذلك والأرض ( بوزن سمك ) كلهنّ خاضعات لملكتهنّ خضوع أجسامنا لأرواحنا ، هكذا العوالم كلها يا الله خاضعات متصلات متحدات مرتبطات ارتباطا وثيقا وأنت المدبر لها ، وقد ضربت لنا مثلا تفهمه من أنفسنا ومن ممالكنا ومن ممالك النحل والنمل - ولله المثل الأعلى في السموات والأرض - . فاذا دبرت الروح الجسم ودبرت ملكات النحل ممالكها ودبرت ملكات النمل ممالكها وخضعت هذه الممالك كلها لواحد دبرها ، فهأهي ذه مملكته خاضعة لك دبرتها وأنت واحد

بهذا فهمنا - ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة - وفهمنا قولك - خلقكم من نفس واحدة - وقولك في أول سورة الزمر - ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنتي تصرفون - أي فكما لا قدرة للأعضاء

على مخالفة الأرواح ، ولا لأفراد النحل عن الخروج عن أمر ملكاتها . ولا لأفراد النمل عن الخروج عن أمر ملكاتها . هكذا نوع الانسان لاطاقة له أن يخرج عن النظام الأقدس وهو التوحيد الذى أمر به وهو ملزم أن يدرسه ويسير على منواله ويطيع خالقه غاية الأمر ان طاعة الأعضاء للروح وطاعة أفراد النمل لملكاتها وطاعة أفراد النحل لملكاتها وطاعة الأرضات (بوزن سمكات) غريزية طبيعية . وطاعة الانسان ربه يجب أن يكون بالتعليم والتهديب لاغير . انتهى صباح يوم الاثنين (١٥) سبتمبر ١٩٣٠

### ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

( فى قوله تعالى - الله الذى جعل لكم الليل - الى قوله - فانما يقول له كن فيكون - )  
فناء فى هذه الآيات :

(١) ذكر الليل والنهار ، وبيان أن الله له فضل على الناس بتعاقبهما ، وأن الناس قلّ شكرهم على هذا الفضل

(٢) بيان أن الله خالق كل شئ بمناسبة تعاقب الليل والنهار ، وأن ذلك محل اعتبار فمن صرف عنه فهو خاسر

(٣) بيان أن الأرض جعلت لنا قرارا والسماء بناء ، وأن صورنا حسنة ، ورزقنا طيب ، فالله تعالى كثير البركات والخير وهو حيّ فوجب حمده والاخلاص له وترك عبادة غيره والتسليم له هو

(٤) بيان نظام خلقنا وتدرّجه فى النشوء

(٥) بيان حياة كل حيّ وموته وتعاقبهما

فى هذه المسائل الخمس تدخل العلم الإلهى فى العلم الطبيعى والفلكى ، فعلم الفلك فى عدد (١) ان تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب عليه اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار . إذن هو الأصل وما بعده من أن الأرض قرار وأن صورنا حسنة ورزقنا طيب وارتقاءنا فى الحياة من تراب الى نطفة الى علقة وتعاقب الموت والحياة علينا كل ذلك فروع . إذن العلوم الطبيعية خاضعات لآثار الأفلاك ، فهنا علمان : الرياضيات والطبيعات . وهى فروع جمة واضحة فى ثنايا هذا التفسير ، وقد تخلل ذلك العلم الإلهى لأن نوعى الرياضى والطبيعى لاثبات لهما إلا بمدير للعالم ، فلذ كر تجده يذكر فى أثنائهما ، فقد قال قبل ذكر علم الفلك ادعوني أستجب لكم وحذرهم من الكبر وخوفهم من جهنم . ثم يتخلل الكلام على العلمين اظهار فضله على الناس وتبيان انه هو الخالق لكل شئ أى فليست هذه العلوم منفصلة مفككة العرى بل لها من يحفظ كيانها . وأخذ يذم الجاحدين لأن الحركات المنظمة لها منظم . وإذا كان هذا العالم مملوءا نشاطا وحياة فمن أين أتت هذه الحياة إلا من أن الخالق حيّ ، أفلاتحيا نفوسكم بالاخلاص له وحده والاعراض عن سواه

أليس هو الذى ينقلكم حالا بعد حال فى الخلق بل يخلق الموت والحياة فيكم وفى غيركم . إذن فى هذا العالم حركات هائلة ليل ونهار وموت وحياة وأرض وسماء وصور حسان فى الانسان مشتقة من تراب لاهية فيه . هذه نبذة عامة فى مجمل هذه الآيات . فهل لك أيها الذكى أن تسمع ما ألقية عليك الآن من نبأ العمران فى هذه الأرض المبني على الفلك لتعلم أن الاجال فى آيات القرآن يعوزه التفصيل . إن الوقوف عند حفظ القرآن جهل عظيم وفهم المعنى اللفظى والوقوف عنده غرور وموت . وقف المسلمون غالبا عند ظواهر الألفاظ واناموا . لا أيها المسلمون . هذا إجمال أما التفصيل فانما يكون بجميع العلوم وليس معنى هذا أن المسلم يقرأ جميع العلوم تفصيلا . كلا . بل يختص كل جماعة بعلم خاصة واذن يستخرجون منافع أرضهم ويحبون ربهم ويرتفع شأنهم فى الدنيا والآخرة . إن الحرارة والبرودة فى الأرض ترجع الى الليل والنهار ارتفاعا وانخفاضاً وعلى

مقتضاها يكون ظهور النبات والحيوان وتكاثرهما تارة وقتلها تارة أخرى وعدمهما بتاتا. الناس والحيوان والنبات موزعات على الأرض بقوانين كلها ترجع الى سير الشمس. إن الله كما جعل التوسط في الأخلاق من شدة ولين هو الصراط المستقيم هكذا جعل المكان الذي يتوسط فيه وجود النبات على الأرض وبتوسط فيه الحرّ والبرد هو الذي يعيش فيه الانسان. أما المكان الذي كثر حره ونباته أو المكان الذي كثر برده فهما لا يصلحان لسكنى الانسان. إذن القانون واحد قانون الأخلاق بالتوسط فيها وقانون سكنى الأرض. شعنت كتب الديانات وكتب الفلسفة بعلم الأخلاق. لماذا هذا؟ لأن الانسان لا يعيش مع الناس إلا بخلق متوسط فإذا تغالى في الشدة أو تغالى في اللين نبذته الناس في الأولى بالخوف منه وفي الثانية بضعفه. والنفوس الانسانية لا تحب إلا الاعتدال. ذلك لأنك ستعرف قريبا كيف كان الانسان يستحيل عليه أن يعيش في الغابات الاستوائية لوفرة الحرارة فيها التي بها كثر النبات فطرد الانسان منها. ولا في الأقطار الباردة لكثرة البرودة التي منعت أكثر النبات والحيوان فلم يستطيع أن يعيش الانسان هناك. إذن الانسان عالم متوسط في خلقته وحياته. متوسط في أخلاقه رإذن هناك تناسب بين خلقته وخلقه والله حكيم عليم

وستسمع قولاً عاماً على الأرض وسكانها وغاباتها وبدائعها مما لم يسبق له نظير في هذا التفسير، وفيها ترى عجائب هذه الأرض وتعرف فيها ما لا يعرفه السائح حولها لأن السائح بعقله قد يعرف من التفصيل ما لا يعرفه السائح بجسمه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبي: لقد شوقتني الى ماتقول ولكنني أريد أن يكون هذا المقال على سبيل المحادثة بيني وبينك حتى تتجلى الحقيقة واضحة ظاهرة، أنت تريد شرح الحرارة والبرودة وما ترتب عليهما من الحياة على الأرض وهذه كلها فروع لأصل والأصل هو البنية الانسانية، ذلك ان كل منزل من العلم على قلوب الأنبياء أو الحكماء أو العلماء إنما يراد به هذه الانسانية، ولقد ذكرت أنت في تفسير البسملة في ﴿سورة ص﴾ ما ملخصه أن الانسان له أعضاء حسّ وهي الحواس الخمس وله أعضاء حركة وهي اليدين والرجلان، ولقد كان هذا أمراً عجيباً! وهل أعجب من أن خلق الانسان جعل مناسباً للعالم فكان العالم نسخته أو هو نسخة العالم، أركان العالم شجرة وهو ورقتها، وقد تقدم في ﴿سورة يس﴾ في المقالة المنقولة من كتاب ﴿علوم للجميع﴾ كيف كانت الشجرة صورة مكبرة لورقة ساقطة تحتها في بعض الأشجار، أو الورقة صورة مصغرة للشجرة التي سقطت هي منها، ذلك ان الزوايا التي تحدتها فروع عروق الورقة مع الخط المتوسط فيها (المشبه في هذا التوسط فقار الظهر مع الأضلاع في الانسان والحيوان) تشبه من كل وجه الزوايا الحادثة من أغصان الشجرة مع جذعها والحادثة من الفروع الصغيرة مع أغصانها حذو القذة بالقذة، فهكذا نجد وضع هذا الانسان مع العالم المحيط به، ذلك انه (وان غفل جهوره ونام ولم يعقل حقيقة نفسه ولا بهجة جسمه ولا جلال وضعه ولا حكمة خلقه) بحواسه الخمس التي تقدم القول فيها قد استعدت لمشاهدة الأنوار والظلمات والحيوان والنبات والعالم العلوي والسفلي وبأعضاء حركته استعدت لأمرين: أمر الانتقال في الأرض بالرجلين، وأمر العمل في الطبيعة باليدين فيصنع ماشاء صنعه بعقله الذي استمدت الصور من حواسه، إذن العالم كله مقسم على أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة، فأعضاء الحسّ للعلم وأعضاء الحركة للعمل. فمنها ماهي للانتقال. ومنها ماهي للعمل. هذا هو الأساس الذي يبنى عليه كل علم في الأرض وكل عمل. فإلى البناء الذي تريد أن تبنيه على هذا الأساس الآن؟ فقلت أريد أن أبنى بناء حسناً جميلاً كما ان هذا البناء حسن جميل. فقال: ففي أي وجهة سيكون بناؤك في ذلك المقال الذي تريد. فقلت: في وجهة نظام العالم الانساني كله. إنني أرى ولا شك في رأبي وأنا موقن به أن جميع النوع الانساني يجب أن يكون كهيئة هذا الجسم. وأرى أن هذا الانسان كله الآن جاهل كثير الجهل. كثير الغرور لأن من درس هذا الجسم حقّ دراسته ودرس العالم حوله لم يشك أن هذا العالم

بالنسبة لهذا الانسان أشبه بهذه الأعضء بالنسبة للروح والروح واحدة في الهيكل الانساني والأعضء مطبعة لها . فلتكن الانسانية واحدة تطيعها العوالم حولها . فقال : هذا قول حسن وتقدم له نظائر في التفسير . ولكن الاجال يعوزه التفصيل . فقلت : إن الانسان سائر الى ما أقوله . فقال : كيف ذلك ؟ فقلت : اسمع يا صاح : أضرب لك مثلاً رجلاً له أبناء كثيرون فبنى لهم قصراً منيفاً وأبدعه أيما ابداع . فجعل الأبنية فيه لا تبلغ إلا نحو الثلث والباقي من الأرض جعل بركة عظيمة تتخلل تلك الأبنية التي تشبه في وضعها مدينة البندقية (فينيزيا) فان البيوت يحيط بها ماء البحر والناس ينتقلون في السفن من منزل الى منزل ثم انه ملا تلك البركة بالسمك وملا تلك الأبنية بأنواع النبات والحيوان والخيرات . فهو في أول الأمر جعلهم متفرقين في المنازل وجعل الماء يفصل بينهم . ثم أخذ يعلمهم كيف يضعون خشبات في الماء وكيف يركبونها فكان سكان أحد المنازل اذا ركب في البركة وقابل آخر من منزل آخر أخذوا يتحاربون وينقاتلون ثم أخذت كل جماعة تحارب الجماعات الأخرى واستمرت النضال جيلاً فجيلاً وذلك النضال كان هو السبب في بحث عجائب منازلهم وعجائب بحارهم فقرّر قرارهم آخر الأمر انهم يجهلون ما أراد بهم والدهم . ذلك ان أحدهم قال : اني وجدت في حديثي التي في منزلي اني لا أنال حظاً من ثمارها إلا اذا كانت الطيورناً كل السود كأبي قردان وبعض الغربان والعصافير المغنية وغير المغنية وهكذا مما تعدّ بالعشرات ، ووجدت أن البرص والسحلية وغيرها تأكل الحشرات في أرض الحقل ، ومن المدهش اني رأيت العنكبوت تنصب الشبائك في الأشجار ولا تقتصر في صيدها على الذباب بل هي تصطاد حشرات كثيرة . فيأبها الاخوة : ان أبانا ذوعقل وذوحكمة ، انه لم يشأ أن يقول لنا الحقيقة فباعد فيما بيننا ظاهراً وأراد أن نعرف الحقيقة من أنفسنا ولن نعرفها إلا بدراستها ولا دراسة إلا بمقتمات والمقتمات هي العداوات التي كانت بيننا وهي السبب في تعلمنا ، فالعداوة بيننا كانت أشبه بالجوع فالجوع غير مقصود لذاته بل هو مهماز يسوقنا الى الغذاء لنعيش والعداوة مهماز أعلى يسوقنا الى العلم لتخترع مانشاء في المحاربة وفي نهاية العلم اهتدينا الى ما يأتي :

ان كل واحد منا يقتل أخاه ليأخذ ماله ولكنه في الوقت نفسه حافظ على عصفور وغراب وأبي قردان وكروان وبرص وسحلية وزقزاق بلدي وزقزاق شامي وعنكبوت في الحديقة وعلى جاموسة وبقرة وجل . لماذا هذا كله ؟ لأن كل هذه طعام لنا فيمكننا إبادتها بأكلها في أيام قلائل ولكن نحن بالاختبار أبقيناها لتساعدنا في حياتنا . ففما ما نحرث به أرض الحدائق . ومنها ما يجرّ لنا الجملات لأعمال الزرع في الحديقة . إذن بقاء هذه كلها وان كانت تحت تصرفنا خير لنا من إبادتها ﴿ وعبارة أخرى ﴾ إن اللذة الوقتية بأكل هذه الحيوانات شرّ مستطير لأنها تحرمنا من ثمرات لاحدها . إذن ننبذ اللذة العاجلة إذ احرمنا نفعاً عظيماً مستقبلاً

هذه نظرياتنا في منازلنا نحن هكذا نفعل ، فاذا كان بقاء هذه الدواب والطيور خيراً لنا (لأنها وان كانت تحتل الجو والأرض معنا وبعضها يأكل مما نزرع ويشاركنا بعض المشاركة في الأرزاق فبقاؤها خير لنا) أفلا يكون كل واحد منا اذا بقي خيراً لآخوته وان شاركهم في المطعم والملبس كما يشارك كلاً منا دابته في أكل بعض الحبوب وفي سكنى بعض أجزاء المنزل ومضايقتهم ، مع ان نفع الدواب محدود ونفع الانسان أوسع وأعظم قدراً

فلما فكر اخوانه في كلامه قالوا صدقت والله ، وقال آخر منهم : « أيها الاخوان : إن أبانا كان حكماً فلم يفعل معنا ما فعلته الطيور تعيش جماعات من غير تعليم ولا تثقيف ، فهو فرّقنا ظاهراً ولم يشأ أن يجمعنا إلا بجهدنا واجتهادنا وأحاط منازلنا بالماء حتى يكون لنا ميدان تسابق وسهل لنا سبل التواصل والتعقل حتى اذا اجتمعنا بعد الافتراق كان اجتماعنا بعقل فترفع في السعادة الى أعلى منزلة بخلاف الحيوان فانه يقف عند حدّ

واحد وعاشوا بعد ذلك وارتقوا ارتقاء لاحد له

هذا هو المثل الذي أردت أن أضربه لأهل الأرض الآن ، فالأبناء تمثيل لبني آدم ، والأب تمثيل لله عز وجل - والله المثل الأعلى - والمنازل هي القارات والجزائر والبركة المحيطة بالمنازل هي البحر الملح المقسم الى أقسام كل قسم منها سموه محيطا فيقولون المحيط الاطلانطبي والمحيط الهادي والمحيط الهندي وما أشبه ذلك والخشبات التي ركبها الأبناء هي السفن في البحار والعداوات بينهم مثل للعداوات التي بين أهل الأرض ، وبقية القول معقول مفهوم

وبيت القصيد في هذا المقام أن هذه الانسانية جاهلة غاية الجهل وهي اليوم آخذة في رقيها ، ثم انظر الى ما قدمنا في ﴿سورة يوسف﴾ من أن الطيور النافعة كان الاوروبيون يقتلون منها أبا قردان وغيره . وهذه الطيور خلقت محافظة على الزرع تقتات من الدود في الأرض فيسلم الزرع . فلما كان الاوروبيون في بلادنا قوما لارادع ولازاجر لامن ضمايرهم ولا من حكوماتهم عاثوا في الأرض فسادا وقتلوا هذا الطير لتتحلى نساؤهم بريشه فهلك الزرع . فلما كتبت مقالا في إحدى المجلات العلمية وقرأه الوزراء صدر الأمر ببقاء الطيور البالغات نحو (٣٠) طيرا مذكورا أكثرها في ﴿سورة يوسف﴾ كما قلنا وبقاياها في سور أخرى

الله أكبر : اللهم إني أجدك على العلم وأجدك يارب على الحكمة ، أنت المنعم أنت المعلم ، يارب ان العلم واضح والعيون تشهد صورته ولكن القلوب مقفلة

اللهم إنك تعلم أن الأمم كلها أشبه بالأمة المصرية ، والجهل بمنافع الانسان في الأرض كجهل قومنا بمنافع الطيور وظهور حكام في الأرض يعلمون الناس ثمرات بقاء الانسان على الأرض كظهور المقال الذي كتبت في فوائد الطيور آكلة الدود وتحريم الحرب والقتال بين الأمم اجتناء لفوائد الأمم كلها كتحریم حكومتنا المصرية صيد الطيور فانتفعنا بزرعنا ، وهل الانسان الخالي إلا كما قال الله تعالى - قتل الانسان ما أ كفره - هذا هو المثل الذي ضربته من حيث الطيور المصرية وتحريم صيدها استبقاء لمنفعتنا ومضاهاة منفعة الانسان ببقائه بمنفعة الطيور ، فشهوة اغتيال أمة لأخرى شهوة وقتية وبقاء الأمة الضعيفة مفيد للأمة القوية كما أفادت الطيور والدواب الانسان وهي ضعيفة أمامه . إذن النظرية التي شاعت وذاعت في الكفرة الأرضية في القرن التاسع عشر من أن الأقوى يبدا الأضعف وجعلها عمارة نظرية خاطئة ، فلو كان ما يقولون حقا لم يعش حيوان نادر على أكله مع ان الطيور في منازلنا وحقولنا وكثير منها حرمنا أكله لمنفعتنا ، إذن هي نظرية جزئية جعلوها عمارة ، وضلال هذا الانسان أكثره يرجع الى تعميم القضايا والحكم بالجزئي على السكلي - قتل الانسان ما أ كفره -

فقال صاحبي : لقد أجدت والله وأنصفت وأتيت بحكمة شريفة وآية منيفة وعلم تام ، ولكني أتذكر انك قلت لي « ان الانسانية متجهة الى وجهة الاتحاد العام » . فهل تشرح لي ذلك ؟ قلت : « ان أبناء الرجل الحكيم في قصره الواسع أدركوا أن أباهم أراد إسعادهم من طريق نصيبتهم هم لامن طريق المنحة الجانية ، فهل تشرح لي الأمرين معا في شأن هذا الانسان ؟ فقلت : أما الأمر الثاني فهو واضح ألا ترى رعاك الله أن هذا الانسان أعطيت له الأرض وترك فيها وقيل لآدم وذريته - اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو -

وياليت العداوة اقتصرت على أن تكون بين الانسان والانسان بل جعلت بينه وبين ماحوله . الأرض دائرة حول الشمس تقرب وتبعد وفيها مناطق باردة وأخرى حارة . فلاهو بقادر أن يسكن الباردة ولاهو بمستطيع أن يسكن الحارة . فالمناطق الباردة قل فيها النبات والحيوان . والمناطق الحارة اكتظت بالنبات فطرد الانسان منها والأمطار تهطل ليلا ونهارا فلن يقدر أن يوقد النار فيها فلا بد من أن يمشي في الأقطار

المعتدلة . وهذه المعتدلة تكون فيها الغابات القوية وتكاد تمنعه أيضا من ولوجها . ولكن لما كانت تلك الأقطار ينتابها الصيف والشتاء والحريف والربيع . وكان الحريف والشتاء فصلين يجردان الشجر من قوته بعض التجريد قدر الانسان إذ ذاك أن يدخل في تلك الغابات وينتفع بما فيها . فهو اذا طرد من القطبين ومن خط الاستواء لم يهدم وسيلة بها يدخل في غابات الاقطار المعتدلة حيث تساعد أحوال الجو على ولوجها واستعمارها والارتفاع بأشجارها

وما هذا أيها النكبي إلا مثال واحد من أمثلة أعمال هذا الانسان . فهو اذا دحرت غابات البرازيل حيث الشمس حارة في أمريكا وطردته غابات افريقيا الاستوائية فلم يستطع سبيلا لتذليلها أو السكنى في أرضها لقوة النبات ولا السياحة في داخلها إلا بمشقة فانه قدر أن يجمع بذبات المناطق المعتدلة ويغلب الطبيعة هناك . ثم ان الانسان لم يستطع ذلك إلا بالجموع الكثيرة منه . فأما الأفراد فلا

يعجبا : هذا تفصيل جسم الانسان ، انه مفصل على مقتضى هذه الدنيا وهذه الدنيا كلها وجدناها مزروعة له ، ثم ألفينا عقل بعض النظريات العلمية حافظ على كل حيوان نافع له فأبقاه لأنه نافع له في اجتناء الفوائد ، وهاهوذا يرى فوائد غزيرة في الغابات الافريقية والغابات في البرازيل ، يرى منافع ومغائب تحت الأرض في القطبين ، فهناك الفحم وهناك (غزال الرنه) ومنافع كثيرة ، وكلها موصدة أمامه تحتاج الى عناء ونصب وعقول وقوى ، أفلاتكون تلك المنافع القطبية والتي في الغابات الاستوائية ومنافع الهواء والماء وضوء الشمس التي لاتزال كلها لغزا أمام النوع الانساني . أقول : أفلاتكون هذه كلها مضاهية لمنافع زرعنا وتكون الأم التي يسمونها ضعيفة بمنزلة الطيور آكلات السود لحفظ زرعنا . لا لا . والله ان الأمم الأرضية أعظم نفعاً وذخراً في استخراج ثمرات العوالم المحيطة بنا من أبي قودان في حفظ زرعنا ومن العنكبوت في حداقنا المبيد لبعض حشراتنا ، فالانسان الآن جاهل أشد الجهل بهذه النظرية العلمية ، وعلى كل من اطلع عليها وكان من أهل النبل والشرف والجاه والحكمة أن يذبح العلم في أمم الاسلام أولاً ثم يبت فيه روح الجد والنشاط واكتناه العوالم العلوية والسفلية ، ثم إن المسلمين اذا أشربت قلوبهم الحكمة يكونون هم السبب في ارتقاء أهل الأرض لأن أهل أوروبا وأمريكا ينظرون الى الظواهر فيجعلون لون السواد ولون الحجر في أبناء السودان ببلادهم وأبناء أمريكا الأصليين من أسباب العداوة ، فلا يطيقون أن يروه في أماكنهم العامة ، وهكذا أهل (انكلترا) فهم يطردون السود من بعض مطاعمهم ، و بعض تلك الأمم تنقض على الأمم الضعيفة لتأكل خيرها وتذللها كما يفعل الفرنسيون مع أهل صراكش والجزائر وتونس وكما تفعل ايطاليا مع أهل طرابلس وكما تفعل انكلترا مع فلسطين ومصر والهند . وهاهي ذه اليوم قد سجن غاندي الزعيم الهندي الذي قام بالحركة الاصلاحية هناك وطالب بعدم اسراف المال في الملابس الأجنبية وعدم شرب الخمر القاتل للانسانية . إذن هذه الأمم كلها جاهلة قدر الانسانية فهي لاتصلح لرقبها وقيادتها . إن الأسد لا يصلح لقيادة الانسان وانما يصلح لأكله ونحن نريد أن يحكم الانسان ويعلمه انسان مثله لا حيوان !

الأرض قد بخلت بما لديها فلم تفرط فيما عندها من غابات خط الاستواء ونحوها ولا من المدخوات في القطبين ونحوهما إلا اذا كان أبنائها جميعا يدا واحدة في استخراج ذلك . وهؤلاء لقلة تبصرهم يتكون الحقائق الكامنة . ويصدتهم عن هذا النعيم المنتظر للانسانية كلها مظاهر الألوان واختلاف الأديان والأقطار واللغات إذن الانسان جاهل كل الجهل . فليتعلم المسلمون ويعلموا الانسانية . أناموقن أن هذا القول سيخوض البصار ويقرؤه أهل الأقطار وتنقله السفن في البحار والطيارات والبالونات التي يركبها الناس في الجو وتنشر الفكرة ويم الاتحاد وتخرج الانسانية من جاهليتها

إن الانسانية اليوم استعدت لفهم هذا القول . وهذه الطيارات تطير حول الكرة كلها والسياحون يطوفون حولها في السفن والقطرات البرية والعلماء يتسابقون الى الكتابات في السلام العام كما كتب أنا الآن إذن اتحد على هذه الفكرة سير السفن في البحار حول الكرة الأرضية وطيران الطيارات حولها أيضا وكتابة العلماء في الاتحاد العام . وهذا نوبل مخترع الديناميت المشهور قد أعد جائزة لمن ينفع السلام العام . فإقول اليوم جاء أوانه . فليدل المسلمون دولهم في الدلاء . وليقوموا أنفسهم أولا ثم ليقيموا الانسانية ثانيا والله هو الولي الجيد

فقال صاحبي : نعم ما فصلت وحسن ما دبرته يراعك . ثم أذكرك انك تقول : « إن غابات خط الاستواء وغابات بلاد البرازيل لا يمكن اجتيازها لصعوبتها » وذكرت أمورا لا يعرفها إلا القليل . فأحب أن تذكرها لنا من مصدر علمي واسع النطاق يشرح هذه المواضيع كلها وما شابهها شرحا واسعا كما وعدت بذلك في أول المقال فقلت اسمع ماجاء في كتاب « الجغرافيا التجارية الاقتصادية » تحت العنوان التالي وهذا نصه :

### ﴿ الانسان وتوزيعه على المعمور ﴾

( تكاثف السكان )

شروط صلاحية القطر للسكنى ، مغالبة  
الانسان طبائع الاقطار التي يسكنها . أسباب  
قلة سكنى الغابات الاستوائية . مقارنتها في ذلك  
بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية بمد القطر  
للسكنى ، وكذا التغيرات الدهرية ، الحرف  
وتأثيرها في عدد السكان

انظر الى خريطة العالم حيث توزيع السكان على المعمور ترى الانسان منتشرا في متفرق النواحي من غير مساواة في العدد فهذه الصين والهند وما جاورهما خاصة كلها بالسكان وهناك جهات أخرى من العالم الفسيح لا يسكنها إلا النفر القليل حتى في الولايات المتحدة وهي جمهورية واحدة ترى الانسان متجمعا في جهة الشرق ثم برق شيئا فشيئا جهة الغرب وفي جنوب أمريكا تراه كذلك محشدا في جهات منتشرا في أخرى وهاجرا شتى وكذلك في أفريقيا وأستراليا والخلصة أنك بالتأمل في الخريطة لا ترى الانسان موزعا بانتظام في أنحاء الأرض بل ترى منها ما اختصه بسكانه فتراحم عليه وربما كان ذلك لعهد قديم مثل مصر ومنها ما نضب عنده فيه مثل معظم أفريقية فلماذا كان بعض الجهات أصلح لمقام الانسان من البعض الآخر ؟ هذا ما يجب عنه الانسان محتاج الى هواء معتدل فالرطب منه جدا والجاف جدا كلاهما لا يطيبله ومحتاج أيضا الى مقدار معتدل من الحرارة فالأصقاع الباردة جدا والحرارة جدا تضر به ولا تصلح له ومثل ذلك النبات والحيوان ولنا نرى أن الجهات النادرة الحيوان والنبات قل ان تصلح لمقام الانسان ففي أواسط القارة المنجمدة وفي أواسط الأرض الخضراء حيث توجد فلوات الجليد قل أن تدب دابة فلا ينسئ للانسان عيشة فيها كذلك في قلب بعض القارات حيث ترتفع درجات الحرارة وحيث يحب الهواء جدا فينشا عنه الصحارى القاحلة لا ينتظر للانسان عيشة وكذلك سفوح البراكين الحية وأمناها من سطح البسيطة التي لم يستعمرها الحيوان والنبات سبق خلوا من الانسان مفتتة من قبضة يده إلا إذا تغيرت أحوالها وتبدلت أطواره

ومن المعلوم أن لكل صقع مجموعة خاصة من حيوانات ونباتات فكما ساد الانسان في صقع وتكاثر فيه كان ذلك على حساب تلك الحيوانات والنباتات الأصلية بزيجها ويحتمل مكانها . عمر الانسان البرارى الاسكتلندية

مثلا منذ أقل من قرن فاذا تركت قتل جبالها جانبا ونزلت الى حيث يسكن منها وجدت « الجبلنج » قد فنى وليس منه إلا رقاغ صغيرة في المراعى ورأيت حقولا من الشوفان والبطاطا واللفت والسكلا ومثل ذلك وماهى الاحصالات تافهة في جانب مايزرعه الفلاح الانجليزى في الشرق . ولكنها مع ذلك تمثل المطلوب من أن الانسان يكفح الاجناس الطبيعية السائدة بالصقع الذى يستعمره ويضع محلها نباتاته هى التى يختارها غذاء وكساء . وهكذا كلما تنشى في صقع عمدا الى ذلك العمل على نظام ومنوال أوسع . تطوف بانجلترا وتسير في فرنسا فترى الأفدنة الشاسعة من الأراضى الزراعية المخدومة تنبت أنواع الحاصلات المختلفة وهذه هى نفس الأراضى التى كانت في وقت يحسبه الطبيعى غير بعيد تكتنفه كه الغابات الكثيفة وتشوهها المستنقعات المؤذية قد ظهرتها يد الانسان بالجد والعمل ومثل ذلك وقع على الحيوانات فاذا ما سرتنا في الأراضى المنحطة من انجلترا واسكتلنده وجدنا من الأنعام والأغنام والخنازير والدجاج والأوز والبط خلقا كثيرا تملأ الضياع هناك وكل هذه الحيوانات المنزلية قد استنقرت الى الروابى ونجاد « ديفون » و « كورنول » غزلا كانت تجول في الأحرار القديمة في بريطانيا . ومن أجلها أيضا استوصلت شافة الذئب العاتية التى كانت تعيش في الأرض فسادا وتعيش على تلك الحيوانات البرية وقصارى القول أن الانسان لا يمكنه أن يعيش في هذه الدنيا إلا بقلب طبيعتها واختصاص نفسه في محله الذى ينزل فيه ببعض الحيوانات دون الأخرى وبمطاردة التى لا تنفعه لتفسيح مجالا لما يعوزه ويحتاج اليه

قلنا أن الانسان تتعذر عليه الحياة في الجهات التى يسوء فيها نمو النبات وصحة الحيوان ولكن قد تكون غزارة النبات من جهة أخرى سببا في حرمان الانسان من سكنى الجهات الفسيحة فاذا نظرت الى خريطة سكان العالم وجدت جزءا عظيما من البرازيل حيث الشمس حارة وضاحة والمطر وافر غزير يطيب فيه النبات ويزهو ويتكاثر ويعاى فيكون الأحرار الاستوائية ولكنك تبعد عن الانسان في وسط هذا العالم فلا تكاد تجده إلا قليلا ومثل هذا في غابات أفريقيا الاستوائية فليست قلة الحياة النباتية هى التى تعرقل مساعى الانسان في استعمار مثل هذه الجهات بل غزارتها ووفرتها الزائدة عن حد الطاقة اذا الغابات الاستوائية هى ما يسميه النباتى « بالتآف المطبق » أى المكان الذى يكون نضال الحياة النباتية فيه شديدا فاقاسيا لا ينسنى لأجناس جديدة أن تدخل فيه

نعم ان العراك والنضال النباتى كذلك شديد في غابات المنطقة المعتدلة ولكنه تصحبه في كل خريف وشتاء « هدنة من الله » اذ تضعف قوى الأشجار ويجمد ماء حياتها في عروقها فيبقى عليها ساعد الانسان فتكون له الغلبة آخر حتى اذا جاء الربيع الذى تتماثل فيه الأشجار الى القوة والفتوة لم تغلبه ولم تستعص عليه اذ كان قد ذلها من قبل واجتث منها وملك ناصيتها ولا يخفى أن في الغابات المعتدلة تكون المقاومة بين الأشجار الكبار أما النبت على أديم الأرض فليست له مقاومة تذكر خلافا للغابات الاستوائية إذ التفت الساق بالساق بزاحفات من النبات متعددة قد تكس منها على أديم الأرض عالم كثير حتى قال أحد السياح أن في غابة غانة الجديدة الاستوائية اذا سار جماعة فيها ثلاثة أميال في اليوم عد ذلك أمرا عظيما جدا لأنهم في الغالب لا يستطيعون قطع نصف هذه المسافة في اليوم وقال أيضا انه لا يوجد من حاصلات الغابة ما يمكن أن يقتات به الانسان فاذا نفذ ما كله تهلده الجوع بالقتل

النضال في الغابة الاستوائية شديد جدا والظروف الطبيعية هناك توافق حالات النبات لدرجة يتعذر معها وجود حيز فيها غير مشغول فتنفرع الأشجار وتسبق الى عنان السماء تطاول الواحدة جارتها . وكلما تناطحنا وحجبنا الضياء عن الأرض تحتهما تسلفت عليهما النباتات الزاحفة طلبا للعلو حيث الهواء والضياء . وقد لا تصل جذورها الى التربة الأرضية بل تجدد غذاءها الكافى بين الأوراق البالية . ومن الرطوبة الموجودة في هواء

هذا وعلى ضفاف الأمازون الفائرة حيث يطلب الباحثون المطاط ليرساوه الى أوروبا لتتخذ منه اطارات السيارات وغيرها من منافع المدينة يتكبد رواده الشقاء والعناء من تزامم الشجر اذ لا يرجون التسيار والتنقل إلا بقرب الضفاف حيث تبعث الأشجار ويقل عددها نوعا وفي غابات فرموزا واليابان والصين يطلب الرواد أشجار الكافور ليصنعوه بخورا أو كرات للعتة ولكن جهدهم هذا يبذلونه أيضا بشق الأنفس لأن أشجار الكافور توجد في الغابة متفرقة الواحدة عن الأخرى فكلما جمعوا شيئا من بقعة ارتحلوا طويلا الى غيرها وكم في هذا من عناء وعذاب

فما أكبر الفارق بين هذه الغابات وبين أمثالها في المنطقة المعتدلة حيث توجد في بعض جهاتها الرطبة من البحر الأبيض المتوسط مساحات ضخمة كلها من شجر أبي فروة والجوز واللوز والصنوبر والخرنوب وتوجد مساحات ضخمة من الزان والبلوط ويسمى كلها النباتيون « الأجناس المتجمعة » لأنه اذا وجدت زانة وجد من نوعها الكثير فتسنى تربية الخنازير على مقربة يطعمونها من حبه . ومثل هذه الأجناس المتجمعة من الاشجار نادرة الوجود في الغابات الاستوائية . ولذلك لا بد من بذل الجهد في طول الغابة وعرضها للبحث عن النبات الصالح

كذلك تكثر في الغابات الاستوائية الحيوانات ذوات الثدي ولكن أفراد كل نوع منها قليلة فلا يوجد فيها مثلا ما عايناه من وفرة عدد الجاموس البري ببراري أمريكا ولا الغزلان بسهولة أفريقية ولا الحيوانات الأخرى بسهولة آسيا قبل ان تصل اليها قدم الانسان وما يذكر من الأسباب هنا هو ما سبق ذكره عن المطاط والكافور مقارنة بالزان والبلوط ويوجد بغابات البرازيل أنواع كثيرة من القرود ولكن عدد كل نوع منها قليل جدا ويوجد الحيوان البطيء المسمى بالكسلان ولكنه نادر جدا ويوجد بها حيوانات أخرى كالة اللحوم تسلق الأشجار ولكنها قليلة أيضا وحالها هذا مصداق ما سبق قوله

والمقصود من هذا البحث أنه اذا قلت أنواع النبات والحيوان التي من جنس واحد عز بسببها الاستعمار وصعب الاستثمار وقلت السكنى وزد على ذلك أنه يوجد بالغابات الاستوائية الحيات الرقطاء والحشرات السامة ولكنها مع ذلك أقل خطرا من البعوض الذي أغلبه مصاص الدماء ويحمل من فريسة الى أخرى جراثيم الأمراض مثل الملاريا ومرض النعاس ومنه ما يبيض تحت الجلد فيحدث القرع الأليمة . ومن الحشرات ما يعض أو ينخر والكثير من الهوام والبعوض يتأثر من التعرض لضوء الشمس في بعض أدوار حياته فيموت فاذا أمكن للانسان أن يطهر الغابة منه زال الخطر وتست المنفعة ولكنه في الغابات الاستوائية الممطرة يحول الجوّ بينه وبين أعظم مساعده على التطهير وهو « النار » فاذا كان ثمة صقع يتناوبه الجفاف والمطر (مثل غابات غرب أوروبا) أمكن للانسان انتهاز الموسم الأول فيشعل الحشائش الطوال ويبيد جيشا كبيرا من النبات الملتف فيكون الرماد الناعم تربة خصيبة تكون مهاد البذور النبات الصالح الذي متى رعاه وتفقدته أتى بالخير العميم . ولكن اذا كان الجوّ دائما دائما على الأمطار تعذر أشعال النار وغلت يد الموقد

ومن ذلك نرى أن الأصقاع التي يسكنها الانسان يشترط أن تكون عرضة لتغيرات طبيعية صالحة لنمو النبات غالبه مرة ومغلوبة أخرى سواء أ كان التغير في درجة الحرارة كما في مناطق خطوط العرض المرتفعة في المعتدلة الباردة أم في درجة الرطوبة كما في الهند والصين بسبب التغيرات الموسمية أوفيها معا كما في بعض جهات الصين أيضا أعنى أن الممالك التي يكثر فيها الانسان هي التي يروج فيها النبات في مواسم مخصوصة بسبب تغيرات الفصول وعلى ذلك فالأصقاع شديدة الرطوبة غير صالحة لأن موسم الرواج فيها قصير جدا أو منعدم بالمره اذا كانت متفرقة في شدتها . وكذلك بعض الاصقاع الاستوائية حيث درجة الحرارة مرتفعة دائما والمطر

ويدخل في معنى الفصول هذه تلك التغيرات الطبيعية الموسمية التي كانت سببا في إخصاب أرض مصر وإعدادها للسكنى من زمان قديم وهي جزء من الصحراء فدرجة الحرارة فيها دائماً مرتفعة ارتفاعا نسبيا والمطر يكاد يفقد فيها صفة واحدة فتغير الفصول غير مشاهد فيها بالمعنى المراد اذا قارناها « بنيو فونلاند » مثلا حيث الفرق بين درجة الحرارة في الصيف والشتاء قد يصل الى ٥٠ درجة ف . من هذه الأسباب كان مورد الحياة في مصر هو نيلها لاغير يعلو ويهبط سنويا في مواسم معينة فاذا علا فاض بالماء الذي فيه حياة أهلها وحاصلاتهم واذا هبط حل الجذب الذي فيه موت كثير من أعداء الانسان من العشب غير الصالح وبعض الهوام وفي أثناء هذه الفترة القصيرة يتسنى له أن يجمع حاصلاته وأن يغلب على الماء فيحمله بالتقنوات أتي شاء فيترايد الزرع والحاصل ويموت جيش النبات الضار

والخلاصة أن نباتات أى صقع وحيواناته ما هي إلا مجموعات مرتبطة ملائم بعضها لبعض قد هيأها الله لحالة الصقع من أزمان فكل شئ يضطرب بسببه ولو قليلا هذا النوازن الدقيق يصبح فرصة سانحة لدخول الانسان وتحصل الاضطرابات هذه في كثير من أنحاء الأرض بسبب دورة الأرض وتغيرات الفصول الناتجة عن تلك الدورة وكلما حصلت هذه التغيرات على نظام أوسع في صقع ما وسهل على الانسان التدخل كان ذلك الصقع ساحة الوغى التي يجول فيها الانسان ويصل بحيله ورجله ويصل فيها الى أوج المدنية

وقد يكون مع التغير الفصلي تغير دهرى يقع في أثناء الأجيال والدهور فيؤثر في نتيجة الموقعة القائمة بين الطبيعة والانسان من ذلك انه يظهر في فلسطين واليونان وفي معظم أواسط آسيا مثالا أن قد تقلب دهور وعصور تغيرت فيها مع البطء الشديد مقادير الأمطار الساقطة هناك فحال هذا التغير بين الانسان وبين كثير من المنافع التي كانت في حظوته قديما وأمكنت الطبيعة البرية من أن تسترد كثيرا من أراضيها المفضوبة كذلك عملت تغيرات أخرى من قرون لاعدد لها على جفاف تربة أوروبا . وفي أواخر عهد الجليد تحسنت حال المصارف في جزء عظيم من تلك القارة بسبب تأثير الجليد في سطح الأرض وإيجاده البحيرات ثم انتظمت مجارى الأنهار وفاضت بالطمى فانصلحت الأراضي حتى قال أحد الجغرافيين ان مثل هذه التغيرات الدهرية كانت العامل الأعظم في التقدمات الباهرة التي حدثت في القرون الأخيرة بأوروبا وأمريكا إذا كتسح عهد الجليد نوع الانسان القديم كما كتسح معه حيوانات أوروبا وقد جعل الأرض بما أحدثت من التغيرات فيها صالحة لسكنى الانسان المتمدين

ويقولون ان المدنيات القديمة التي يقرؤها على الحفائر وغيرها في مثل أواسط آسيا وبلاد العراق وفي مثل فلسطين وحتى في جهات أمريكا الوسطى كلها تثبت أن الجو في تلك الأيام الحالية كان غيره الآن . ولولا ذلك ما زرع فيها القمح ولا غيره قديما ولا عاش بها انسان في ذلك الزمان وفي هذا المعنى يقولون أن جو أوروبا الآن وفلسطين وآسيا الصغرى الخ . قد قلت فيه درجة الرطوبة عن قبل أمطارا وثلوجا

وينسبون التغيرات الدهرية الى إرسال الشمس شعاعها المتغير كثيرا أو قليلا على حسب طبيعة جوها التي هي فيه فاذا اشتد شعاعها كثرت عليها السفع . ويكون ذلك رمزا على كثرة الحرارة التي تعترى سطح الأرض من جراء ذلك ثم تكون هذه سببا في تسخين الهواء واحداث زواج الأمطار والثلج (أى في رفع درجة الرطوبة) فاذا شعت الأرض حرارتها جميعها صار سطحها باردا جدا وهذا لتعليل برودته ورطوبته قديما وما تعرف به التغيرات الجوية الدهرية أعمار الأشجار القديمة ففي غرب أمريكا مثلا توجد أشجار عمر الواحدة منها ألفا سنة أو أكثر وعمر الشجرة يعرف من دراسة الحلقات الموجودة على خشبها . ومن هذه الحلقات يستدلون على مقادير الرطوبة في تلك العهود وتعرف التغيرات الدهرية كذلك من دراسة مستوى

البحيرات الملحة القديمة في مثل غرب الولايات المتحدة وخص طبقات السود يوم والكورين هناك إذ يرى لدى الشاطئ حروز الطبقات فالعالي منها يثبت امتلاء البحيرات الى حده ويدل على كثرة الرطوبة في وقته والواطيء يثبت انحسار مستوى البحيرة الى حده ويدل على قلة الرطوبة وهكذا

نرى من كل ما تقدم أنه لا نبات برياً ولا حيوان وحشياً قد أظهر من القدرة على الانتشار في العالم مثل ما أظهر الانسان وأنه لا نبات ولا حيوان قد تناسل مثل تناسله فالخلنج على البراري سالفة الذكر قد يكثر حتى يخيل الى الناظر اذا ما وجد هناك أن العالم كله خلنج ولكنه اذا ترك هذه البراري ونزل الى الوهاد أو الى الوديان البسامة لم يجد للخلنج فيها أثراً مرة واحدة . سر على جبال الألب بين أشجار التنوب وغابات الصنوبر فيخيل اليك أن العالم كله تنوب وصنوبر . ولكنك اذا غادرت موقعهما من الجبال مشيت الأيام والليالي دون أن تعثر لهما على أثره تكلمنا على الجاموس الامريكى والرشا الافريقى وذكرناهما أمثلة من وفرة النتاج بجمهه من الجهات وهما مع ذلك لم يشغلا من سطح الأرض إلا جزءاً صغيراً بالنسبة له

انبت الانسان في جهات الأرض وعمرها وهو وان اضطر الى الفرار من غابات الاستواء وهجير الصحراء وبوادي الأقطاب ومن النجاد والوهاد القاحلة فهو مع ذلك فائز منصور حيث لم يحظ غيره من النبات والحيوان بمثل ظفروه وانتصاره سواء عنده جوانب الألب الشاخنة وهضاب تبت الباردة والوديان البسامة والسهول الخصيبة فقد عمرها كلها وانبت فيها مصطحباً معه أينما حل قطعانه المنزلية ونباتاته الزراعية قد ذلها جميعها فدانت له وتبعته الى أقصى الأرض حيث لم توجد أجناسها من قبل

هذا والحرف العصرية التي يجتد العالم فيها وبلغ الآن وغدا لها تأثير عظيم جدا في السكان على المعمور فالأقطار « الزراعية » تجتذب اليها السكان ويزيد عددهم فيها كلما أخصبت الأرض وأينعت محصولاتها فتفيض عليهم بالأرزاق والأقوات في مثل الهند والصين وغيرهما والأقطار « العشبية » التي تقوم فيها حرفة الرعى يقل عدد سكانها عن الأخرى الزراعية كما يلاحظ ذلك من الخريطة الخاصة ويرجع السبب في ذلك الى عدم سخاء الطبيعة بالقوت الكافي للكثير من السكان

وأما أكثر الحرف اجتذاباً للسكان فهما حرفة « الصناعة » وحرفة « التعدين » لما تتطلبه كل من كثرة الأيدي العاملة على استثمار المناطق الخاصة بهما ولما ينجم عن مزاوله الحرف الصناعية الآلية من عظيم الأجر وكبير الربح ولذا ترى المناطق الصناعية من إنجلترا وألمانيا وبلجيكا والروسيا أغص جهات هذه الممالك سكاناً وأكثرها ثراءً ويساراً وبدهى أن المملكة التي يتجمع فيها عدد من الحرف يتجمهر فيها السكان بمقادير عظيمة تمثل ما وصلت اليه هذه الحرف من الرقي كما هو الواقع في شرق الولايات المتحدة ويحسن هنا مطابقة خريطة حرف العالم على خريطة تكاثف السكان . انتهى ما أردته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد وفيت بالمراد . وأتيت بالمعجب العجيب . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم السبت ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٠

### ﴿ أسرار العلوم المخبوءة في هذه السورة ﴾

جاء صديقي العالم الذي جرت عادته أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : لقد فسرت الرحمة في البسملة وطبقها على مافي السورة تطبيقاً تاماً ، ولكن بقي في النفس شيء ، فهل تأذن لي أن أسألك استيفاء لهذا المقام وايضاحاً للأتمام . فقلت : نعم . فقال : إن في السورة ﴿ أولاً ﴾ الذنوب ومغفرتها ﴿ ثانياً ﴾ الكفر والايحاث ﴿ ثالثاً ﴾ محاوره المؤمن من آل فرعون معهم ﴿ رابعاً ﴾ حاجة الكفار في النار من الضعفاء والمستكبرين ﴿ خامساً ﴾ ما يقوله بعض المفسرين في قوله تعالى - خلق السموات والأرض أكبر من خلق

الناس - الخ إذ جعلوا ذلك إشارة الى الدجال ، ألم تر الى ما جاء في كتاب « تنوير المقباس » من تفسير ابن عباس المؤلف في القرن التاسع الهجري إذ جاء فيه : - إن الذين يجادلون في آيات الله - هم اليهود وكانوا أيضا يجادلون مع سيدنا محمد ﷺ بصفة الدجال ورجوع الملك اليهم عند خروجه وقوله - ان في صدورهم إلا كبر - أي عن الحق - ما هم بباليه - أي يبالي ما في صدورهم من الكبر وما يريدون من رجوع الملك اليهم عند خروج الدجال - فاستعد بالله - يا محمد من فتنة الدجال - انه هو السميع - لمقالة اليهود - البصير - بهم وبأعمالهم وبقننة الدجال وبخروجه ، تخلق السموات والأرض أكبر أي أعظم من خلق الناس أي من خلق الدجال - ولكن أكثر الناس - يعني اليهود - لا يعلمون - فتنة الدجال هذا ما رأيته في ذلك ، وابن عباس رضي الله عنه شرفه عظيم وعلمه نبوي وقد دعا له رسول الله ﷺ هذه هي الفصول الخمسة التي أريد منك شرحها وان كان في ذلك مشقة عليك ، ولكن أنت محب للعلم ومحب لرقى العقول ، وحديثنا يقرؤه المسلمون بعدنا ، فالفائدة عامة فأرجو أن تحدثني كيف يكون الله هو الرحمن الرحيم والناس :

(١ و٢) يذنبون أو يكفرون

(٤ و٣) وكيف عصى آل فرعون من آمن منهم ، وأضلّ المستكبرون الضعفاء ، فأين الرحمة ؟

(٥) وكيف يخرج الدجال فيضلّ الأمم ونحن نستعيد بالله منه كل حين والله قادر أن يرفع هذه عن الأمم . ولقد تبين لي أن تفسير ابن عباس مؤيد بما ندعوه به في كل صلاة إذ يقول « وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » فهذه مشا كل نحن في حاجة الى حلها وطرق يعوزها التعييد حتى تكون مدللة لتسير فيها على صراط مستقيم

فقلت : لقد تقدم في تفسير البسملة ما يعني عن الاجابة الآن . انظر رعاك الله الى ما جاء في تفسير البسملة في أول سورة الروم وأول سورة لقمان . فقد ذكرت هناك كيف كانت الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان خلقت لمنفعته هو . وكيف كان الضرب والكسر والصدم والجرح والبرد والأمراض والأسقام وكل ما يضرّ الجسد ويفسده ، كل ذلك انما جعل منذرا لنا لنصلح ما فسد بسبب الأحوال المادية في هذه الدنيا وهكذا ذكرت لك هناك أن قتال الفرس والروم والمسلمين مقيس على أحوالنا المرضية . فهذه أمراض اجتماعية نذرتنا باصلاح ما فسد من مجتمعنا كما ان الجوع وآلام المرض تحثنا على الطعام والدواء . فالآلام رحمة . إذن الرحمة لها جيشان : جيش الآلام . وجيش اللذات . هما جيشان للرحمة . واذا كانت الرحمة موجهة فقط الى لذاتنا فانها تنقلب تقمة . فاجتماع الآلام واللذات إتمام للرحمة . فاللذات نصف الرحمة والآلام النصف الآخر هذا ملخص ما تقدم

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن هذا الكلام إجمالى عام فان في هذه السورة أمورا أخرى . فيها مؤمن آل فرعون . ولماذا يقص الله ذلك القصص علينا ؟ وأي مناسبة بين أمة الاسلام الآن وآل فرعون ؟ ولماذا يقول لهم - فن ينصرونا من بأس الله ان جاءنا - وأي بأس أنذرهم به ؟ وهل نزل بهم هذا البأس وفي أي زمن ؟ ولماذا ؟ كل ذلك أريد أن أعرفه حتى ينتفع المسلمون بحديث هذا المؤمن في زماننا . إن حديث مؤمن آل فرعون لن يتم الانتفاع به لنا في أمراضنا الاجتماعية إلا بمعرفة ما يرمى اليه وماذا كانت نتائجها ؟ ثم لماذا ذكر الله محاجة المتكبرين والضعفاء بعد محاجة مؤمن آل فرعون ؟ وما المناسبة بينهما ؟ ثم لماذا نرى ابن عباس يفهم هنا مسألة الدجال . وما الملك الذي يبتغيه اليهود ؟ وهل هم يحاولون ذلك الآن ثم لماذا نرى المسلم في كل صلاة يستعيد من فتنة المسيح الدجال . كل هذا أمور لاتزال غامضة والمسلمون يصلون وأكثرهم غافلون . والصلاة بلا عقل قليلة الثمرات . واذا لم يفهم المسلمون أديعتهم في الصلاة فالذي استفادوه

إذن ! إن الحياة المبينة على الحفظ بلا عقل حياة أشبه بحياة الجماد . وتكرار الصلوات بلا عقل قد ذمها الله فقال - فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون - وقال في ذم من يقرؤون ولا يعقلون - أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفاها - وقال في اليهود إذ كانوا لا يعقلون التوراة - مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله - الخ

إن بقاء المسلمين على حالهم يصابون ولا يعقلون الصلاة و يقرؤون ولا يعقلون القرآن أو قمعهم في الغرور كإبراهيم عن كابر جيلًا جيلًا وكل جيل ينزل عما قبله حتى أصبح المسلمون اليوم أجهل الأمم التي على هذه الأرض وقد تركوا مواهبهم ، فإذا لم توضح هذا المقام غير مكثف بما قدمت في تفسير البسمة فإن الحال تستمر على ما هي عليه وكل جيل يكون أقل مما قبله وهذا لا يرضيك . فقلت : إني بحمد الله سأوضح المقام على قدر طاقتي وأبينه بما أقدر عليه والله المستعان فأقول :

إن هذه الأسئلة الخمسة التي تريد الإجابة عليها ترجع كلها إلى أمر واحد ومتى عرفناه زال الأشكال . فقال : وما هو ؟ فقلت : هو ما تقدم في ﴿سورة الزمر﴾ في أولها عند قوله تعالى - يكثر الليل على النهار ويكثر النهار على الليل - . ألم أقل لك هناك أن الجنين في الرحم يحيط به ظلمات ثلاث : المشيمة والرحم وبطن أمه . قال بلى . قلت : أليست هذه مع كونها ظلمات جعلت له رجحات . قال بلى . قلت : ألم نقل هناك أن علماء الفلك يقولون إن الغبار في الجو ودخان صنعان فيه (١٦) طبقة حاجبة للشمس عن عيوننا رجحة بنا فيكون ضوءها الواصل لنا صباحاً أقل من الضوء الواصل وقت الظهيرة (١٣٥٠) مرة . قال بلى قد تقدم ذلك . قلت : ومعلوم أن الغبار والدخان ضاران بأجسامنا يدخلان رئاتنا فتضعف أجسامنا وتقصّر أعمارنا . قال بلى . قلت : ولكن هذا الضار بجتماعه مع ضوء الشمس صار نعمة . قال نعم . قلت : ألم أقل هناك أن وسوسة الشياطين للناس نعمة ولكنها في الحقيقة قد جعلت نعمة لهم لأنهم إذا أعطوا العلم دفعة واحدة لا يطيقونه . قال بلى ولكن هذا المقام يحتاج إلى الإيضاح هنا . فقلت نعم أوضحه فأقول : أنالاً أخرج عن هذا المثل وهو مثل الشمس ، انظر ، إذا أشرفت الشمس على الأرض فهل تستوى الأرض والماء في قبول حرارتها ؟ قال : أنا أرجوك أن تسمح لي بفهم ما تقول . فقلت له : أيهما أسرع قبولاً للحرارة الماء أم الأرض ؟ وأيهما أبطأ ، وأيهما أسرع لإخراج حرارته التي كسبها من الشمس ؟ وأيهما أبطأ في ذلك . قال الأرض أسرع قبولاً للحرارة وأسرع تملصاً منها والماء على العكس من ذلك . فقلت : هل تستنتج من هذا شيئاً . قال : لست مستعداً لذلك الاستنتاج في هذا المقام . فقلت ههنا قاعدة ، كل ما كان أتمّ صنعا كان أودم وأحسن فائدة ، وكل ما كان أنقص صنعا كان أقلّ دواماً وأقلّ فائدة ، فهذه الأرض لما أسرع في قبول الحرارة أسرع في التملص منها ، وهذا الماء لما أبطأ في قبول الحرارة أبطأ في التملص منها . فالغنى الذي كسب المال بجدّه وعرق جبينه يكون غناه أتمّ وأودم والذي نال المال بلا جدّ يكون له مبدراً لأنه لا يعرف قيمته . انظر إلى القرع وإلى النخل فذاك لا يثمر إلا بعد سنين وهذا يطول ويثمر حالا ولكنه سريع الزوال وانظر إلى صغار الحيوان كلما كان أسرع نمواً كان أقصر أجلاً . ألا ترى أن الكلب يتم نموه في سنة ونصف ولا يزيد غالباً عن (١٢) سنة كما تقدم . وأن الحصان لا يتم نموه إلا بعد ثلاث سنين ويعيش (٢٤) سنة وهكذا وكل هذا تقدم وإنما نصر به هنا أمثالا وهذا فعل الله والفعل جميل ولا يعرف جماله إلا بالعلم والحكمة فأما المعرفة القولية فلا فائدة فيها . وهذا الهرم المبني في بلادنا المصرية لما كان أتمّ بناء كان نباته ودوامه أتم . وهذه قاعدة مطردة . قال قد فهمتها . فقلت : وقبل أن أرتب عليها الإجابة على ما طلبت أقول إن هذا الاختلاف في الأحوال قد جعل لغايات شريفة . ألا ترى إلى ما تقدم في سور كثيرة أقربها ما جاء في ﴿سورة الأحزاب﴾ عند آية - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \* وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً - فقد وازنت

هناك ما بين قول النابغة للنعمان ابن المنذر \* كأنك شمس والملوك كواكب \* وما بين هذه الآية وأن فضائل النعمان لانسبة بينها وبين الشمس وأن ثمرات فضائل النبوة تشبه منافع الشمس ، وقد ذكرنا هناك الرياح والسحاب ، وكيف كانا ناجين من الحرارة والبرودة ، وكيف كانت سرعة قبول الأرض للحرارة وضدها وبطء قبول الماء للحرارة والبرودة سببين متضادين أنتجا منافع للناس بالرياح المختلفة ، فلولا هذا الاختلاف لم يكن نسيم البرّ ولا نسيم البحر ولا الرياح الموسمية ولا الرياح التجارية الضدية وهكذا . كل ذلك تقدم ، فهذا الاختلاف هو الخير والمنفعة والسعادة للحيوان على الأرض ، إذن اختلاف أحوال المادة جعل لفوائد شريفة . اذا فهمت هذا فأقول إجابة على أسئلتك الخمسة :

ما الذنوب ولا الكفر إلا أشبه بما عرفنا في الماء من أنه لا يقبل الحرارة بسرعة ، فالكافر والعاصي لم يقبل الايمان والطاعة لأن فطرتهم ليست سريعة القبول ، فاذا أسلم الكافر بعد ذلك ، واذا أطاع العاصي بعد اقرار الذنب وبعد الندم الشديد كان ذلك بعد جهاد ومشاق طويلة فيسكون صلاحه أتمّ وهذا معنى قولهم « ربّ معصية أورت ذلًا وانكسارًا خير من طاعة أورت عزا واستكبارا »

وكم من متوسط الذكاء فاق من هو أذكى منه بسبب طول أناته وصبره وجده في التحصيل فيصير أرقى منه وأقدر وأقوى وأعلم

فقال : هذا حسن وقد فهمناه ولكن ماذا تقول في العاصي اذا مات بلا توبة والكافر اذا لم يؤمن ؟ فأين الحكمة إذن في ضلّاهما الهائم ؟ فقلت : هذا أدع الجواب عليه الآن فإنه من المسائل التي ليس يعقلها كل امرئ . ولكن الاجابة عليها في وقت غير هذا ولكني أقول لك الآن إجمالاً لا يعقل حكمة ذلك إلا حكيم قرأ العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، فاذا لم يعلم ذلك فلا يجوز له أن يبحث في هذا لأنه فوق طاقته وأنت تقدر على الجواب من نفسك لنفسك . فقال : إذن نكتفي بهذا في الفصلين الأوّل والثاني . فقلت :

﴿ الفصل الثالث في محاجة مؤمن آل فرعون لقومه ﴾

وملخصها ما يأتي :

- (١) ان كذب الرسول واقع عليه وصدقه ان لم يطع القوم أنزل العذاب بهم ، وهذه الحجّة تنتج أحد أمرين : إما الاقتصار على عدم أذاه ، واما الزيادة على ذلك بطاعته ، والنتيجة التي يقصدها عدم التعرّض له بالأذى
- (٢) الملك لا يدوم فاذا تعدّينا على غيرنا فالله لنا بالمرصاد فمن ذا ينصرنا
- (٣) ان هناك أمما تقدّمتنا فعلموا ما فعلنا فهلكوا أفلا تخاف العاقبة
- (٤) بل هناك يوم الحساب
- (٥) أتم قوم اعتدتم التكذيب والشك كما حصل منكم في أمر يوسف
- (٦) إن هذه الحياة كسراب بقيعة فكيف نقتربها
- (٧) والأصنام التي تعبدونها لا قيمة لها
- (٨) ونتيجة ذلك أن الله تعالى وقاه سيئات مكرهم ووقع العذاب بالقوم

إذن لفصل العذاب الذي حلّ بالأمة المصرية بعد زمن المؤمن الذي قال هذا القول من بلادنا المصرية وهذا يعوزه ﴿ ثلاث جواهر ﴾ الجوهرة الأولى ﴿ في مجمل تاريخ قدماء المصريين وبيان انه ثلاثة أدوار ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في أن هذا الذي قاله مؤمن آل فرعون كان في الدور الثالث . وبيان سرّ التنزيل إذ يقول مؤمنهم - فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - وما هو هذا البأس ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ في بيان الأسباب العقلية التي سببت هذا البأس . وكيف كان التقليد وترك العقل جانبا في أعمال الحياة وفي الدين ينتهي بموت

الأمة وهلاكها . وأن هذا الدرس متى فهمه المسلمون أقنعوا عن جهلهم لأن أكثرهم اليوم يشبهون هذه الأمة المصرية في دورها الثالث وأن هذا التفسير هو آخر انذار لهم وهاك بيانها

### ﴿ الجوهرة الأولى ﴾

جاء في كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين مانصه

### ﴿ لمحة في تاريخ مصر القديم ﴾

ينقسم تاريخ مصر القديم باعتبار الدول الأصلية الى ثلاثة أدوار : الدور الأول يشمل الدولة القديمة . والدور الثاني يشمل الدولة الوسطى . والدور الثالث يشمل الدول الحديثة (١) وتاريخ الدولة القديمة ينحصر في ثلاثة عصور : وهي العصر الصاوى والعصر المنفى والعصر الهراقليو بولوتيني

(١) - « العصر الصاوى » وتنحصر فيه الأسرتان الأولى والثانية من ( من سنة ٥٠٠٠ الى سنة ٤٤٥٠ ق م ) وهو يبتدىء بالملك مينارأس الفراعنة الذى جمع تحت سلطانه الوجهين البحرى والقبلى . وجعل : عاصمة ملكه تانيس أوطينة ( البربة بجوار جرجا حيث توجد قبور الملوك الأولين

(٢) - « العصر المنفى » يبتدىء من الأسرة الثالثة وينتهى الى الأسرة الثامنة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق م ) وكانت عاصمة المملكة فى هذا العصر مدينة منف أو منفيس (المعروفة) الآن بميت رهينة الواقعة على بعد عشرين كيلومترا جنوبى القاهرة . وكانت فى ذلك الوقت محط الرحال . وكعبة الآمال . غنية بعلمها ومعارفها ، متقدمة بفنونها وصناعاتها . وفى هذه المدة توسعت مصر فى الفتوحات حتى استظلت برايتها بلاد سينا والنوبة والواحات ، واشتهر من ملوك الأسرة الثالثة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٤٢٤٠ ق م ) زوسير مشيد الهرم المدرج . وسنفرو مشيد هرمى ميدوم ودهشور . ومن ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٤٢٤٠ الى سنة ٣٩٥٠ ق م ) خوفو وخفرع ومنقرع وهم الذين شادوا اهرام الجيزة . ومن الاسرة الخامسة (من سنة ٣٩٥٠ الى سنة ٣٧٠٠ ق م ) الملوك ساحورع ونوفرارقرع وامرنرع واواناس الذين شادوا اهرام أبى صير . وشيدوا بها المعبد الشمسى . ومن ملوك الاسرة السادسة (من سنة ٣٧٠٠ الى سنة ٣٥٠٠ ق م ) نيتى ويبي الأول ويبي الثانى وممرنرع الأول وممرنرع الثانى الذين بنوا اهرام سقارة ، وقد انتهى عصر هؤلاء الاسر الثمانية بوقوع البلاد فى وهدة الشقاء بسبب الاضمحلال الذى ابتداء بالأسرة السابعة (سنة ٣٥٠٠ ق م ) وأخذ يزداد فى الأسرة الثامنة (من سنة ٣٥٠٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق م ) التى انقرض هذا العصر بانقراضها

(٣) - « العصر الهراقليو بولوتيني » وهو يشمل على الدولتين التاسعة (من سنة ٣٣٥٠ الى سنة ٣٢٠٠ ) والعاشر (من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ٣١٠٠ ق م ) وفى عهد هاتين الدولتين نشبت الحرب بين ملوك الوجه البحرى وملوك الوجه القبلى

### ﴿ الدولة الوسطى من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ق م ﴾

لما كان النصر من حظ ملوك الوجه القبلى . اهتم ملوك الانثيف ومنتحوتب . وهم من الأسرة الحادية عشرة

(١) بتعذر على المؤرخين تحديد تاريخ العاديات القديمة العهد تحديدا صحيحا لأن المصريين لم يكن لهم تاريخ معين بل كانوا يؤرخون الحوادث بسنى حكم الملك الجالس على العرش . فليس لدينا اذن الى الآن كشف تاريخى كامل يجمع أسماء الملوك ويعين مدة الفترات الواردة فى هذا الكشف . فاذا أريد معرفة تاريخ الملوك أو الآثار استعملت أرقام الأسر المالكة حسب ترتيبها

(من سنة ٣١٠٠ الى سنة ٣٠٥٠ ق. م) بحفظ رونق مدينة طيبة (التي من اطلالها الآن الاقصر والكرنك والقرنة ومدينة هبو) واتخذوها قاعدة لملكهم . وجعلوا لإلهم أمون رع سيد جميع الآلهة . وفي عهد الامنحتيين والأوسرتيين . الذين هم من ملوك الاسرة الثانية عشرة (من سنة ٣٠٥٠ الى سنة ٢٨٤٠ ق. م) كانت مصر زاهية زاهرة باهية باهرة . حافظوا على دولة طيبة الأولى ، وحكموا النوبة حتى الشلال الثاني واحتفظوا بملك سينا . وعمروا إقليم الفيوم . وأقاموا بطيبة المعابد الضخمة . والمباني الفخمة وشادوا أهراما بدهشور والشت والفيوم . وبنوا قبور بني حسن والبرشة . وأقام الملك أوسرتسن الأول أمام هيكل الشمس مسلتين من حجر الصوان إحداهما موجودة الآن في المطرية وطولها نحو العشرين مترا وقد بنى الملك امنحت الثالث قصرا شرقى بركة قارون بالفيوم فيه ٣٠٠٠ غرفة وهو المعروف بالتيه المعداد من عجائب الدنيا السبعة . وفي عهد الأسرة الثالثة عشرة (من سنة ٢٨٤٠ الى سنة ٢٤٠٠ ق. م) حافظت مصر على نظامها ومجدها . ثم في عهد الأسرة الرابعة عشرة (من سنة ٢٤٠٩ الى سنة ٢٢٠٠ ق. م) تجزأت مصر الى عدة حكومات . ونقلت عاصمتها الى سخا بالوجه البحرى . وتردّت بأردية التقهر والحول فسقطت في مهاوى الذل والهوان . حتى أنه في عهد الأسرة الخامسة عشرة (من سنة ٢٢٠٠ الى سنة ٢٠٠٠ ق. م) لما هاجم مصر الهكسوس (رعاة آسيا) لم يجدوا مقاومة تذكر من المصريين فاحتلوها . ونقل المؤرخون أن الرعاة حكموا مصر ٥١١ سنة وكان منهم فرعون يوسف الصديق

### ﴿ الدولة الحديثة ﴾

(من سنة ١٦٠٠ الى سنة ٣٤٠ ق. م)

(وهي دولة طيبة الثانية) من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٣٨٠ ق. م

انضم أموزيس أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الى امراء الأسر الملكية المصرية القاطنين بالوجه القبلى بعد أن أخرج الرعاة الى آسيا ، وتوسع في الفتوحات حتى بلغ ملكه نهر الفرات شمالا . والى النيل الأزرق جنوبا . واهتمت هذه الأسرة بالمباني ومظاهر العمران

وفي زمن الأسرة ١٩ (من سنة ١٣٨٠ الى سنة ١٢٢٠ ق. م) التي كان ملوكها ورع عيسى الأول وسبتي الأول ورع عيسى الثاني ومنفتح احتفظوا بملك فلسطين وسوريا القبلية واستمرت بلاد آسيا والسودان تابعة لمصر حتى آخر عهدهم . ثم استقلت بعدهم حين ضعف نفوذ الملوك وسقطت سطوتهم بينما كان كهنة أمون قد أحرزوا الجاه الواسع والثروة من الهدايا والتحف التي كان يقدمها هؤلاء الملوك الى المعابد . فبدأوا غنيمة باردة . وبسبب هذه الثروة الواسعة صار لهم النفوذ . وقويت كلمتهم . واشتدت شوكتهم ، ولم يزالوا يمهدون الأمور حتى تولوا الحكم وخلص الملك لهم .

### ﴿ العهد الصاوى ﴾

(من سنة ٧٢٠ الى سنة ٣٤٠ ق. م)

في هذا العهد كانت مصر في حاجة شديدة الى الوثام والوفاق لاتقاء شر الدول المتغلبة ومقاومة الأمم التي كانت استولت عليها . لأن هذه الأمم كانت نهضت لتحريرها وخروجها من نير العبودية ولكنها انقسمت على نفسها وفسا فيها داء التخاذل والتنافر حتى تنقلت العواصم ما بين تانيس المعروفة بصا الحجر بمديرية الغربية وتل بسطة بمديرية الشرقية . ونتج من هذا الانقسام في مصر أن استولى الاشوريون عليها . وبهم ابتدأت الأسرة الخامسة والعشرون (من سنة ٧١٥ الى سنة ٦٦٦ ق. م)

ثم جاء الصاويون وهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٥٢٥ ق. م)

فأخرجوا الأشوريين من مصر واستولوا عليها . وفي عهدهم أصاب مصر من الضعف والوهن ما أصابها عقب حكم الملك بسامتيك والملك نخاو . واستولى عليها الفرس وخضعت لهم سنة ٥٢٢ ق . م . ثم جاء النقتانيون وهم ملوك الأسرة الثلاثين ( من سنة ٣٧٨ الى سنة ٣٤٠ ق . م ) فنالت مصر على يدهم الحرية ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استولى عليها اسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق . م . وقد اتفق المؤرخون أنه من هذا العهد لم يحكم مصر واحد من بنيها . وهكذا الشأن في كل أمة يسود فيها الانقسام ويروج فيها التنافر والتخاذل وكل نزاع نتيجه الفشل وكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب . انتهت الجوهرة الأولى

### ﴿ الجوهرة الثانية والثالثة ﴾

لقد علمت في الجوهرة الأولى أن أدوار هذه الأمة ثلاثة ، ودورها الحديث كان من سنة ١٦٠٠ ق . م الى سنة ٣٤٠ ق . م

أقول : إن من أشهر ملوكهم (المنحطب الأول) من الأسرة الثامنة عشرة واموزيس الأول وتحوتس الثاني من الأسرة الثامنة عشرة ، وتحوتس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة ، ورعمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة ، ورعمسيس الثالث من الأسرة التاسعة عشرة أيضا ، وهؤلاء كانوا أعظم ملوكهم ، ولكن لا بد أن نذكر أن رجال الدين زاد استيلاؤهم على العقول فاستولوا على الملك ، إن الرعاة الذين جاؤا الى مصر في دورها الثاني كانوا أجانب عنها ، فكانوا يقبلون النازلين بمصر على الرحب والسعة ، ومن هؤلاء ابراهيم عليه السلام لما مرّ بمصر وهكذا يوسف واخوته وهم عشرة فانهم انما جاؤا في أيام الرعاة وبقوا بمصر بعد خروجهم فاضطهدهم المصريون وهذا الاضطهاد حصل في هذا الدور ، ولكن لاننس أيها الدكيّ أن العقول في هذا الدور أخذت ترجع القهقري ، وذلك بسبب وقوف العقول وتمجيدها التقليد المجرد وبعدها عن التحقيق وهل أتاك نبأ مامرّ عليك سابقا في هذا التفسير في ﴿سورة النمل﴾ عند آية - فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا - وآية - إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها - فهناك ترى كيف اشتركت هذه الأمة المصرية الحديثة والأمة الأندلسية في أمر واحد وهو الوقوف على الظواهر والتقليد الأعمى والفسوق ، وهكذا ذكرت لك هناك أمم العرب المتأخرة في بلاد الشام والعراق إذ نقلت عن ابن خلدون أن هذه الأمم العربية لما كانت مستمسكة بالدين حفظت بلاد الله ولما نبذت الدين صارت عالة على الأمم فأزال الله ملكهم إذ ذاك

انظر هذا المقام هناك فانك تجد القوم من مبدأ الأسرة السادسة عشرة اتخذوا الحيوانات (التي كانت دالة على إبداع الخالق ورمزا لجماله) معبودات عبدوها هم وجعلوا المعبود الخلق في الدرجة الثانية فأخذوا يعبدون الطير والسماك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب ، وهناك ترى حريا دارت بين بلدين إحداهما عبدت السمك والثانية عبدت الكلب ، فالذين لا يعبدون السمك أكلوه فاغتاز عباد السمك وأكلوا كلبا إغاظة في عابديه ، فعقول هذا شأنها صارت أسفل من الحيوان في الارض بل هم أضلّ من الأنعام . فلماذا إذن لا يدخل البلاد الأجانب ، وهناك تقرأ النبوات التي أعلنها أنبياء المصريين بزوال ملكهم وخواب دولهم فارجع اليه واقراه هناك فلاسييل لاعادته هنا

فهذه العقول لما حرت خربت الديار . ألا ترى وعاك الله أن الجيش الفارسي لما أخذ يحارب المصريين أحضر ملكهم قططا وجعلها صفوفا بين الجيشين فتحاشى المصريون ضرب القطط لأنها آهلتهم مع ان اسلافهم كانوا يحترمونها لأمر واحد وهوانها تأكل الفيران فأخذوا هذا التعظيم من حيث هو لامن حيث نتأججه وزادوه حتى صارت نفس القطط آلهة . وبهذه الحيلة دخل الجيش الفارسي مصر . لماذا ؟ لأن تلك العقول

لاتنى وانعظت تحت قوّة الحيوان الأعجم  
 هذا هو السرّ في قول مؤمن آل فرعون لهم - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا  
 من بأس الله ان جاءنا - وبأس الله هو دخول الفاتحين من الآشوريين أولاً والفارسيين ثانياً والرومان ثالثاً  
 وهكذا . وكل هذا سببه وقوف العقول على التقليد بلا روية ولا فكر . انظر لقوله - أتقتلون رجلاً أن يقول  
 ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم - الخ إذن هم لا يفكرون لأن عندهم بينات لم يفكروا فيها . إذن هم  
 قوم مقلدون وبهذا التقليد دخل الفرس بلادهم لانحطاط عقولهم  
 ومن العجب أن قول مؤمن آل فرعون يشابه قول (ملا كاتب جلبي) الذى ألف كتاب « كشف  
 الظنون » فى القرن الحادى عشر الهجرى ، وقال فى حق الدولة العثمانية التركية التى هو مستظل بظلمها ناقلها  
 عن الشهاب الخفاجى فى كتابه « الخبايا فى الزوايا » يقول :

« إن الدولة التركية لما أفتى أحد علماء الدين بتحريم العلوم والفلسفة أخذت تنحط . ثم قال : وهذا إبدان  
 من الله بذهاب ملك دولتنا » انتهى بالمعنى . وقد تحقق ذلك فى هذه الأيام فدولة بنى عثمان قد انحلت وذهبت  
 كأمس الدابر

ومن عجب اننى وأنا صرايق كنت أتعلم فى الجامع الأزهر وأرجع الى القرى فأجد أناسا يأتون بهيئة وقار  
 واحترام وهم من آل البيت الكرام ويأخذون من الناس رزقا سنويا وهم أناس يسرون تبعاهم ويبيتون  
 عند الأغنياء ويذكرون ليلا ويأخذون رزقا من الناس يسمونه (العادة) ولقد بطل هذا فى زماننا فى  
 بعض البلاد

فيا عجباً . كل ذلك للجهالة الفاشية ، فالمعطى جاهل والآخذ جاهل . كل ذلك للجهالة الخالصة بأهم الاسلام  
 لا يجوز أن يكون فى الأمة عاطلون ، وما أولئك الذين يعيشون من كسب غيرهم بحجة الدين إلا كذاب أو  
 حشرات أو نباتات طفيلية ، فيجب على العلماء وعلى الأمراء أن لا يسمحوا بهذا ، بل يجب أن يعم التعليم  
 لأن الجهل هو الذى أوحى الى الجهال أن يتزوا باسم الدين ويأكلوا أموال الناس بالباطل  
 إن شرار أمة الاسلام أولئك الذين يأكلون باسم الدين . إن كثيراً منهم يوهمون العامة أنهم يشفعون  
 لهم عند الله فى جلب الرزق والصحة وهم التصرف فى الأنفس فيصرفون عقولهم عن ربهم الى أشخاصهم  
 واذا وجدنا المصريين فى الدولة الحديثة قد جعلوا الحيوانات فى الدرجة الأولى والله المعبود الحق فى الدرجة  
 الثانية فوالله ان الجهل قد أوحى بذلك فعلا الى جهلة المسلمين فما عليك إلا أن تتزوا بزىّ الصلاح والتقوى  
 وتظهر للعامة أموراً توهمهم بها حتى يعتقدوا هذا فيك ولم أر حكماً ولا عالماً فى أمتنا الاسلامية يرضى بذلك  
 والذى يرضى به هو الجاهل لأن العالم قلبه معمور بالعلم والحكمة . أما الجاهل فلخلق نفسه من العلم يتبعه  
 ويفرح بقول العامة انه قطب زمانه كما يفرح كثير من أولئك التعساء اذا تعلموا فى المدارس العالية ولكن  
 الأمة تحقرهم لفسوقهم وسوء سلوكهم فلا يحسون فى نفوسهم بسعادة فيتلمسونها من كلام الناس ويسعون  
 عند الملوك ليعطوهم ألقاب الشرف ويفرحون بقول القائل لهم سعادة فلان وعزته وهو لا سعادة له ولا عزّة  
 لأن السعادة والعزّة إن لم يحس بها القلب غير ممكنة اللهم إلا الرياء والرياء ليس سعادة بل هو كسر اب بقية  
 يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الآلام فوق الآلام والشقاء فوق الشقاء ظلمات بعضها  
 فوق بعض وعذاب أليم

فقال صاحبي : لقد أقنعتنى وفهمت الحقيقة . وأريد الآن أن تأتى بنبذة من أحوال مصر فى عصرنا هذا  
 استطراداً لنقارن بين وعظ الواعظين فى الدولة الحديثة المصرية منذ (٣٥٠٠ سنة) وبين وعظ الواعظين الآن  
 وانما أردت هذا لأفرح بالموازنة بين عقليين بينهما (٣٥٠٠ سنة) والله تعالى لم يذر أمة بلا نذير فى كل زمان له

نذير . فؤمن آل فرعون نذير قومه . فأريد أن تصطفى عبارة أدبية ليكون ذلك من لطائف مجلسنا في تفسير هذه الآية . فقلت :

اعلم أن الأمة المصرية الآن اعتورتها الخطوب واتبثها الصعاب وأحاطت بها الأمم من كل جانب فأول من أذلها في الأزمان الأخيرة الأمة التركية إذ جردتها من سلاح العلم وأخذت صناعتها منذ ( ٤٠٠ سنة ) وحصرت مجموع الأمة في الزراعة وحذفت من البلاد بيوت العلم شيئاً فشيئاً حتى إذا تغلبت دول أوروبا على بعض بلاد الشرق أرساوا المبشرين فزلزلوا العقائد . وزاد الطين بلة أن الانجليز أزلوا أكثر آثار النهضة العلمية التي أحدثها المرحوم محمد علي باشا في القرن التاسع عشر وذهبت ورعة الدين ، وترى أكثر أكار الأمة وعظماؤها لا يحلو لهم جالس ولا سمر إلا في المجال التي فتحها الفرنجة في نفس بلادنا يحتسون فيها أنواع الشراب من البيرة والخمر والشبانيا وأكثر المتعلمين لا يعمل لهم إلا أن يكونوا في مناصب الحكومة لأن التعليم تعليم لفظي لم يخالط بشاشة القلوب ولم يحرك اليدين للعمل . فهل لك أن تقرأ ذلك الخطاب الذي أرسلته أنا لمجلس النواب ولوزارة المعارف وللمجلس الشيوخ فأقرأه في سورة يونس في أولها

إذا عرفت هذا أدركت مضمون ما يكتبه الكتاتيون في بلادنا فان التعليم اذا كان لفظياً لا يملأ القلوب روعة وظاهرياً مخلوطاً بالزيغ والاحقاد فان نتائجه أن لا يكون بعض أهل الحل والعقد في البلاد إلا بمن لا يربحون في الله لومة لائم ولا يقيمون العدل إلا قليلاً ولا يعمرون عملاً صالحاً إلا رياء . أما مراقبة النفس والعمل للصلحة العامة فذلك قليل . ومما زاد الطين بلة أن المحاماة في البلاد أصبحت من أهم الحرف والصناعات . ومبنى المحاماة أمام القضاة انما يكون على أساس الخداع والغش وقلب الحقائق . وبعض هؤلاء يتولون القضاء ثم يصيرون وزراء وحكاما . وقد يكون الرجل منهم سيئ السيرة مخموراً مشتهراً بذلك بين معاصريه . ثم يتولى الرئاسة وهو مفضوب عليه فلا يقيم للحق وزناً ولا للروية قسطاً

والحق الذي لا يحض عنه أن الجهال أصبى نفوساً وأصح إيماناً وأتقى عقائد من بعض هؤلاء الذين لا يتقون ولا هم يدركون

إذا عرفت هذا أدركت ما يرى اليه الكتاب في زماننا الحاضر . فهذه هي الاصول التي تنفرع عليها فروع الكتابة المتشعبة في زماننا ، فإذا كانت نصيحة رجل من آل فرعون في البلاد المصرية على هذا الأسلوب المذكور في الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها فهذه هي الاصول التي يدور عليها محور الارشاد في أيامنا مضافاً إليها ما منيت به الأمة من تهتك النساء والتبرج المزرى والتقليد الضار والسبع على نهج لارأى فيه ولاهدى ولا كتاب منير ولله الأمر من قبل ومن بعد

هذا مجموع ما يقال على أمتنا المصرية من حيث العموم . وقد آن أن أبحث معك أيها الذكي في أمر خاص وهو أن هذه الأمة اليوم غير الأمة أيام مؤمن آل فرعون . هذه الأمة اليوم عربية بحتة نعم فيها أقوام من نسل آل فرعون ولكن أكثرهم أسلموا ثم الدين بقوا على دين النصرانية لا يتكلمون إلا بالعربية وأبناؤهم يتعلمونها ويقرؤون آداب العرب وأشعارهم وعلومهم وغالب الأمة مسلمون والقليل جدا هم القبط . وإذا كانت عربية فلها اتصال بأهل طرابلس وتونس والجزائر وصرا كمش وأهل السودان وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن ونجد واليمن والحجاز وبلاد العراق والموصل . ولكن أصابها الترك فزقوها في قرون مضت حتى فرقتوا أوصالها ومرتقوا أحشاءها . وعلموهم كيف يتدابرون . وأفهموهم كيف يكونون جاهلين فهدوا بذلك للدول الثلاث هم ( فرنسا وانكلترا وإيطاليا ) هذه الدول الثلاث هم الذين اقتسموا أبناء العرب وعلموهم كيف يجهلون وينامون وقالوا لهم أتم وطنيون فليس لكل منكم إلا وطنه . فأهل أوروبا كلهم يفتخرون بأنهم نصارى وعلى دين واحد . ويقولون لأبناء العرب : « دعوا صلة الدين وتفرقوا بالوطنية »

ولما كان المصريون هم الذين اختص بهم هذا المقال أردت أن أذكر هنا رسالة شاب نابغة تعلم في مصر وألمانيا وكان من تلاميذ بالمدرسة الخديوية وله في صلة وهو رئيس تحرير مجلة « الشبان المسلمين » وهو الذي اخترت أن أكتب رسالته في نصيحة المصريين أن يتعاونوا مع اخوانهم العرب والمسلمين عموما لتدرك أيها الذكي الفرق بين النصائح المذكورة في القرآن من مؤمن آل فرعون في بلادنا أيام الفراعنة وبين نصيحة الشاب المصري ، وكيف كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه برهم وعظمته ويدهم على صدق رسالة موسى عليه السلام بمجازاته ، وأن عظمة الملك لا دوام لها ، وأن الله بالرصاد للظالمين ، وكيف أظهر فرعون العظمة واستبد بالأمر ، وكيف حذر المؤمن قومه من غضب الله عليهم كما غضب على الظلمة من الأمم السابقة في الدنيا والآخرة ، وكيف غيرهم بالتمادي في الانكار . وكيف حقر أصنام الأصنام وانها لا تعقل . وكيف فوض أمره الى الله تعالى . وكيف وقاه الله مكر القوم . فاذا وازنا هذه النصائح بنصائح كتابنا كما ستراه في هذه المقالة التي اخترناها ألفتنا أن صديقنا يحيى الدردير يذكر العرب عموما والمصريين خصوصا بتاريخ أمهم وانهم ان جهلوه هلكوا . وذكروهم بالأخلاق الفاضلة والعمل بالدين . وأراهم أن فصل تعاليم الدين عن التعاليم الوطنية مهلك للأمة . وأن المصريين القدماء قبل إلحادهم وكفرهم كانوا أمة موحدة . وأوصاهم بالتحالف مع اخوانهم في العراق ونجد واليمن والشام وشمال افريقيا . إذن النصائح اليوم في مصر متجهة الى الدين أولا وتصحيح العقيدة كنصيحة مؤمن آل فرعون . ولكن هنا زادت أمرا جديدا وهو الجامعة العربية . فهناك نص المقالة المذكورة :

### ﴿ النعرة القومية والفكرة الاسلامية ﴾

قامت في هذه الأيام ضجة حول مبدئ التمسك بالوطنية وترك ما عداها . وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار « الدين لله والوطن للجميع » فقال المصريون منهم نحن مصريون فرعونيون قبل كل شيء . وقال بعض السوريين نحن فينقيون . وقال بعض العراقيين نحن كلدانيون وقس على ذلك . تريد كل فئة أن تملك بمجدها التالذ وتحتبس في حدودها غير ناظرة الى ما يهددها من المخاطر من جراء عزلتها التي تجعلها فريسة سائفة لكل مستعمر قوى مقاتل

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضي الأمة يلعب دورا كبيرا في حاضرها ومستقبلها ولا يمكن أن ننسى الماضي لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه . وهو الذي يكون روح الأمة وشكلها ولذلك كلما كانت الأمة عريقة في المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبيعي لكل تقدم ورفق . قال الدكتور جستاف لوبون « حظ الشعب متوقف على ما يعتقد أنه الحق . وانت التطورات الاجتماعية . وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدنية ناتجة عن قليل من العقائد التي تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهي تمثل مسيرة الشعب الوراثية وفقا لحوادث الدهر

« ان من أخطر الغلطات في العصر الحاضر ترك الماضي . وعدم الاعتراف به . وكيف يمكن ذلك ؟ ان ظل الأسلاف يحكم أرواحنا . وهو يكون الجزء الأكبر منا . كما عليه ينسج القدر حظنا . وان حياة الموتى أكثر بقاء من حياة الأحياء . لا يمكن لأى مدينة أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المعلمين أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية . لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هي الآن المحرك الحقيقي للعالم »

معرفة الماضي يجب أن تكون أداة لا ذكاء روح الحية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ولكن لا يجوز أن تتعداها الى الصلف والكبرياء والعزلة والاعتقار بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحق

قامت في مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول وهي تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة في أيدي أبنائها وأن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم في سبيل تحرير بلادهم . وقد وصف الزعيم الأول للنهضة المصرية مصطفى كامل ما يجب على كل وطني عمله . فقال : ان الأمم لانتهض الا بنفسها . ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها . وان الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة » . « ان قانون الحاكم في معاملته للحكوميين خاضع لدرجة احترامه لهم . فان رأهم أمواتا في أزياء أحياء يقولون ما لا يعتقدون . ويطلبون من الاصلاح كما يطلب السائل الاحسان . لا كما يطلب صاحب الحق حقه استبدت فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الأنعام »

على مثل هذه المبادئ السليمة قامت الدعوة الوطنية الشريفة . ولقيت من الأمة المصرية آذانا صاغية وقلوبا واعية . وأصبحت حرية البلاد واستقلالها عقيدة قوية لا يصح التهاون فيها . وهي كما قال مصطفى كامل « اذا صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة . فان التسامح في الوطنية اعدام لها وقضاء عليها . وان من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » . وقال أيضا « ان الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال انما يريدون أن تموت روح الوطنية في مصر . أي تموت الأمة المصرية . لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب »

الوطنية الصحيحة لا تقوم الا على الأخلاق الفاضلة وهذا بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف . وتاريخ مصر قديمه وحديثه شاهد على ما نقول ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء في المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي ويلقون في روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى . ومحاربة الدين الاسلامي على الخصوص لأنه يبعث في نفوس النشء الاسلامي الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة وهذا ما لا يتفق مع سياسة المستعمر الغاصب في اخضاع الأمم الاسلامية واذلالها

فالذين يدعون الى الوطنية وترك الدين جانبا انما يدعون الى قضية محققة الخسران . لانهم يدعون الى مبادئ لا روح فيها ولا حياة . اذ كيف يكون حال نشء في الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيلة ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن ؟ هؤلاء لا تكون لهم الا سياسة واحدة وهي سياسة المنافع وجو المغانم أو بعبارة أخرى سياسة الهوى وهي سياسة مقضى عليها بالفشل . وقد قال لامارتين : بحق « ان ضميرا خاليا من الله كالحكمة الخالية من القاضي »

ان تاريخ مصر القديم والحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لا تنفصل بل هما بمثابة الروح والجسد في عالم الحياة . جاء في مجلة علم الآثار المصرية في الجزء الأول للمجلد الثاني ص ٣٧ للاستاذ العالم رفيو : « الدين كان له القدح الملقى والمكانة الاولى في نفوس قدماء المصريين الورعة واليه يرجع الفضل في كراهة الاجانب الغاصبين . وتوحيد القوى الوطنية . التي بها أمكنهم أن يطردوا الهكسوس ومن بعدهم الاشوريين . ويشهد المؤرخ اليوناني هرودت وقد زار مصر في عهد العجم أن هؤلاء المغلوبين (المصريين) كانوا يبغضون الغاصب ويحتقرونه بما كانوا يسدون من مقاطعته وقطع كل صلة مع الغاصبين . فلا يجلسون معهم على مائدة ولا يأكلون معهم »

اذا تتبعنا سيرة الحياة المعنوية لروح الأمة المصرية في أطوارها نراها روحا اسلامية بحثة سواء في عهد الفراغة أو غيره لأن روحها روح التوحيد وقد تأصل في قرارة نفسها بالرغم مما طرأ عليها من صروف الحداث والمظاهر الكثيرة التي أولوها في كثير من الأحيان على غير وجهها الصحيح . قال المؤرخ الشهير (شمبليون فيجياك) : « قد استنبطنا من جميع ما هو مدون على الآثار صحة ما قاله المؤرخ (جامبليك) وغيره

من أن المصريين كانوا أمة موحدة لاتعبد الا الله . ولاتشرك به شيئا . غير أنهم أظهروا صفاته العلية الى العيان مشخصة في بعض المحسوسات . وأنهم لما عرفوا في بحر التوحيد . علموا أبدية الروح . وأيقنوا بالحساب والعقاب . ولاعبرة بماقاله بعض مؤرخي الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية . وأنهم لجهلهم لقتهم . وبحقيقة عباداتهم جلاوا الأمور على ظاهرها . وحكموا عليهم بالكفر والالحاد مع انهم لم يفهموا منها المراد . فكأنهم دخلوا في قول الشاعر :

وَمَنْ مِنْ عَائِبِ قَوْلَا صَحِيحًا \* وَأَفْتَهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

راجع كتاب الأثر الجليل لقدماء وادي النيل لأجدبك نجيب ١٢٣ وقال العلامة مسبرو « من تأمل في الآثار الباقية الى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالهياكل وما على الورق البردي هالته كثرة هذه الآلهة المصورة عليها . حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة . وان أهلها ماخلقوا الالعبادتها . وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمة مخلصه في العبادة إما بالفطرة أو بالتلقين أو التعليم . فكانوا يرون الله في كل مكان . فهامت قلوبهم في محبته . وانجذبت أفئدتهم اليه . واشتغلت أفكارهم به . ولازم سلتهم ذكره وشغنت كتبهم بمحاسن أفعاله . حتى صار أغلبها صحفا دينية »

كانوا يقولون انه واحد لا شريك له كامل في ذاته وصفاته وأفعاله . موصوف بالعلم والفهم . لا تحيط به الظنون . منزه عن الكيف . قائم بالوحدانية في ذاته . لا تفسيره الأزمان . ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها في المحسوسات . وكل شئ نافع . وجميعها ترجع اليه . ولأجل التمييز جعلوا لكل اسم تمثالا . فانتشرت هي وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد . »

ان الساعة التي تسرب فيها الالحاد والشرك الى العقيدة المصرية كان ذلك نذير زوال مجد مصر . اذا عرفنا أن تاريخ المصريين يرتبط بعقيدتهم الدينية (قديما وحديثا) بالله عز وجل وأنه تعالى يجب أن يكون قسدهم متبعين أوامره متبهين عن نواهيه فالاسلام عندي هو الدستور الطبيعي الذي يوصلهم الى غاياتهم السامية قال تعالى - ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين -

الدين الاسلامي الخفيف لم يخس الوطنية حقها . بل جعل حب الوطن من الايمان . وان تحرير الأوطان لا يكون الا بالدأب على العمل المنتج « وقل اعملوا فسيري الله عملكم » وان العزم متوقف على بذل الجهد - وأن ليس للانسان الا ما سعى - فلماذا إذا نجد عن هذا الطريق المستقيم الذي يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج . والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل !?

لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح وأذاعوها من أن المصريين هم فرعونيون غير عرب . وان واجب المصريين أن يشتغلوا بشئونهم دون سواهم . اما أن يشتغل المصريون بشئونهم (أولا) فهذا ما يقره عليهم الاسلام حسب قاعدة « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » واما أن ينزلوا عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة لهم فهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادئ الاسلام السليمة . ونحن في عهد تحالف واتفاقات دولية أصبحت احدى وسائل القوة والمنعة ومن عاش منفردا في هذا الزمن عرض نفسه الى السلب والقهر

ان الدعوة القومية المصرية التي ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الاسلامية انما أرادوا بها انتحار مصر الأدي

أريد أن أهدس في أذن هؤلاء النفر الناعر بالقومية الفرعونية . وأنا مصري صميم مسلم موحد . اذا كان حقا ما تدعون من الاعتزاز بالمصرية الفرعونية هل غاب عنكم أن رسول الله ﷺ يتصل بكم في جدته العليا هاجر المصرية أم اسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب المستعربة وان خاتم الرسل عليه السلام تزوج

منكم مارية القبطية . فنحن نتصل بالعرب بصلة الرحم والنسب فهم أقر بأوثان وجيراننا وهم أولى الناس بمحبتنا وعطفنا ومساعدتنا . ان دعوة رسول الله ﷺ يجب أن لا تؤيد من ناحية المسلمين المصريين حسب بل من ناحية المصريين كافة مسيحيين وغير مسيحيين أيضا حسب الأصول المتبعة في الدفاع عن حق القرابة والنسب والجوار

يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لانضل الطريق السويّ فهلك . ان الله جل شأنه هو الذي اختار رسوله الأمين محمدا ﷺ ليبلغ دينه الى الناس كافة فالدين الاسلامي هو دين للجميع لادين عرب أو عجم وان من أكبر قواعده الديمقراطية أنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وقال عليه الصلاة والسلام « خير الناس أنفعهم للناس » الاسلام هو الدستور البشري السليم الذي يعطى كل ذي حق حقه ولا يبخس الناس أشياءهم . وان اشتغال المصريين بمسألتهم القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأي حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما في قدرتهم و - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها -

نحن نربط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين . فيجب أن نحرص عليهما أشد الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلائق الاقتصادية والاجتماعية بيننا وبين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة ونحن في عصر التحالف الذي لا تستطيع أمة أن تنفرد فيه بنفسها . فالممالك الكبيرة تتحالف بالرغم مما يملكه كل منها من وسائل القوة كتحالف انجلترا لفرنسا مثلا وكذلك الممالك الصغيرة فقد قام التحالف الصغير يضم بولونيا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا وبعض بلاد البلقان وقامت تركيا تتحالف مع جاراتها الهجم وروسيا

ان مصر من العالم الاسلامي القلب النابض والرأس المفكر وفلسطين وسوريا والعراق وبلاد العرب والهجم والهند والصين الساعد الأيمن وطرابلس وتونس والجزائر ومصر كض وما اليها الساعد الأيسر فيجب أن لا يشغل مصر حالها عن أحوال جيرانها فانهم حصونها الطبيعية المكيمة وان كل عدوان على أي بلد إسلامي نعتبره معشر المصريين عدوانا علينا في الصميم

يجب أن نحذر سياسة الغاصبين المستعمرين وهي سياسة التمزيق والتفريق وقيام الحوائل الجنسية والقومية بين المسلمين والشرقيين ليشغل كل منهم نفسه فيدوم لهم إذلالهم وخضوعهم ان عمل كل أمة شرقيه كانت أو اسلامية لرد حريتها واستقلالها لا يمنعها بأي حال من الاشتراك مع جاراتها المظلومة في رفع الصوت عاليا بالاحتجاج وبذل ما يمكن بذله لمعوتها الأدبية والمادية لرفع مآحق بها « والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » و - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - انتهى كلامه والى هنا تم الكلام على الفصل الثالث في حاجة مؤمن آل فرعون لقومه وجواهره الثلاث والحمد لله رب العالمين

\*\*\*

وقبل الشروع في الفصل الرابع الآتي قريبا نذكر ما فتح الله به عند طبع هذه الآيات وها هو ذا :

﴿ نور العلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ﴾

( في قوله تعالى - فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعتشى والابكار - )

( كتب ليلة السبت ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠ )

بيننا أنا أصلي في هذه الليلة صلاة الوتر في الساعة الثانية بعد نصف الليل وأنا أقول في الركوع « سبحان ربى العظيم » وأكررهما من ثلاث الى إحدى عشرة خطرتلى أن هذه السورة التي تطبع الآن مبدوءة بقرآن الذنوب وقبول التوبة . ثم ذكر فيها أن حلة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في

الأرض . وأتبع ذلك بأحوال الكافرين وعذابهم . وضرب مثلا لذلك بكفر بني اسرائيل . وأتبعه بذكر مؤمن آل فرعون . ثم لخص الموضوع كله بأن موسى أوتي الهدى والذكرى . وأتبع ذلك بأمر نبينا ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح والتحميد . وهذا التسبيح وهذا التحميد والاستغفار هي التي صدرت من حاملي العرش ومن حوله فيما تقدم . ففي أول السورة ان تنزيل الكتاب من الله وانه غافر الذنب وقابل التوب واذا استغفر الملائكة فأتما يستغفرون للمؤمنين لا لأنفسهم لأنهم ليسوا في أجسام مادية كأجسامنا حتى يستغفروا لذنوبهم بل استغفارهم لأجل أهل الأرض . ورسول الله ﷺ أمر أن يستغفر لذنبه هو أولا . ولا جرم أن الله قابل التوب كما هو مذكور أول السورة . ومتى خلصت نفس الانسان من الذنب سبح ربه وحمده . ولا جرم أن التسبيح والتحميد هما ملخص الحكمة المنجوة في هذه الدنيا وفي الآخرة

يا الله : عجبت لصلواتنا كيف أمرنا بالتسبيح وأمرنا بالتحميد . نكروهما صباحا ومساء . تقول « سبحان ربك العظيم » في الركوع . وتقول « سبحان ربك الأعلى » في السجود . ونسمعك تقول نبينا ﷺ - وسبح بحمد ربك - الخ ونسمعك تقول - فسبح باسم ربك العظيم - ونسمعك تقول - سبح اسم ربك الأعلى - ونسمعه ﷺ يقول « اجعلوا هذه في ركوعكم واجعلوا هذه في سجودكم » فجعلناهما كما أمر . فنحن الآن نسبح كما أمرنا ونستغفر كما يستغفر نبينا ﷺ والخلف يتبعون السلف في هذه الثلاثة ثم اننا نعلم أن نبينا ﷺ معصوم من الذنوب فكيف يستغفر لذنبه ! والملائكة لما كانوا في عالم لامادة فيه كان استغفارهم لمنافع غيرهم شفقة على الذين آمنوا . لكن الرسول ﷺ استغفر لذنبه هو نفسه فأين هذا الذنب وهو معصوم ؟ وهو كما استغفر لذنبه استغفر للمؤمنين كما تفعل الملائكة فهو ذنوب استغفار لنفسه واستغفار لغيره . أما الملائكة فلا يستغفرون إلا لغيرهم لأنهم لا يقعون في معصية ولكنك تقول له - واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات - . هذا ما خطر لي في الصلاة ﴿ الجواب ﴾ ولقد فتح الله عز وجل بما يشرح الصدر في هذا المقام . فلا تجعل الكلام في ﴿ ثلاث مناهج ﴾ في استغفار النبي ﷺ لذنبه . وفي تسبيحه . وفي حمده . فأقول :

اعلم أن الذنب على قسمين : ذنب هو مصدر وذنوب هو فعل ، وبيانه أن هذه الطبيعة البشرية المترجة بالمواد الأرضية والمائية والهوائية معدة للذنوب وللاذنوب إلا ما كان من الانحراف عن الاعتدال في حال من أحوال النفس والذنب لا يصدر إلا عن هيئة في النفس تكون نتيجتها المخالفات والشورور . فهذه الهيئة التي في النفس والصفة القائمة بها والميل الذي اتصفت به هو المصدر ، وأما الفعل فهو ما يكون من آحاد الذنوب ﴿ مثال ذلك ﴾ صبى عاش بين قوم لصوص فاكسبت نفسه تلك الصفة وأشرب حبها . فهذه الصفة هي المصدر الذي عنه تصدر أفعال اللصوصية . فاذا لم تكن الصفة في النفس فلن يكون الفعل . فكل سرقة بالفعل تكتب ذنبا على العبد ولكن لولا ذلك المصدر وهي الصفة القائمة بالنفس بسبب المعايينة واستحسان هذا الفعل من الأهل والأقارب ماصدر ذلك الفعل . هذا معنى المصدر ومعنى الفعل . والاستغفار من الذنب يتبادر الى الذهن انه راجع الى الفعل لا الى المصدر . ولا جرم أن محو المصدر القائم بالنفس والهيئة الشريفة فيها أقوم قولا وأهدى سبيلا . واذا استغفر الانسان وطلب من ربه غفران ذنب من ذنوبه الشهوية والغضبية كشراب الخمر أو الظلم مثلا مع بقاء الصفة في النفس كما فعل شيئا عظيما ولو انه طلب من الله أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيرا له واستغفار النبي ﷺ لذنبه راجع للمصدر لا للفعل إذ لا فعل وذلك من باب تسمية السبب باسم المسبب وهذا في علم المعاني مجاز مرسل علاقته المسببية كما في قوله تعالى - إني أراي أعصر خيرا - أى عنب . فكما يقال عصرت خيرا أى عنب هكذا يقال استغفرت من ذنبي أى طلبت من الله أن يديم لي عدم الصفة التي هي مصدر للذنوب كما تقول في الصلاة - اهدنا الصراط المستقيم - أى أدم هدايتنا . إذن قد حلت مشكلة

- واستغفر لذنبك - وحلت مشككة - إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر -  
ومعنى هذا ليدم لك ذلك الغفران . وقوله - ما تقدم من ذنبك وما تأخر - معناه أن لا يكون هناك مصدر  
لذنب أصلا . فهذه الجلة ترجع الى عدم تلك الصفة التي مصدر عنها الذنب . ويقول الله تعالى - إنا فتحنا لك  
فتحا مبينا - ورتب على هذا الفتح المغفرة أى زوال ذلك المصدر أى الميل والصفة التي بسببها تكون آحاد  
الذنوب أى رتب على الفتح دوام تلك الطهارة التي عبر عنها في بعض الروايات بأن صدره شقّ وأخرج منه  
حظ الشيطان . فهذا هو المصدر الذي تنشأ منه الذنوب . ولا جرم أن من صفت نفسه هذا الصفاء تكون نفسه  
على تمام الاستعداد للمعرفة والعلم والوقوف على الحقائق . ومن نتائج العلم العمل . ومن نتائج الأعمال فتوح  
البلدان لينتشر الاسلام . وكما أن للذنب مصدرا هو المقصود من الاستغفار هكذا لفتوح البلدان ونشر الاسلام  
في الكرة الأرضية مصدر هو امتلاء النفس بالحكمة والعلم إذ القلب المقفل لاسطان له على قلب الغافل فاذا  
عمر القلب بالعلم كان له تأثير على الجاهلين فيتعلمون ويعملون . إذن لفتح للبلدان إلا بعد فتح القلوب ولا  
انتشار للاسلام إلا بعد أن كان الداعي لذلك الانتشار معمورا قلبه بالعلم الذي به يؤثر على سامعيه ولو كان علمه  
كعلم الفلاسفة أو علم العلماء لكان مثلهم فتكون آثاره محدودة كآثارهم . إذن هناك فتوح أعلى وأن نفسه  
تستمد من العوالم القدسية وتشاهد الملك والملائكة وهو لا يعطينا إلا ما يناسبنا . ولولا انه يحس في نفسه  
بالمشاهدة والقرب لتلك المقام الأقدس ما أطاعته هذه الأم في حياته وبعد موته ، إذن الغفران يرجع لمصدر  
الذنب والفتح يرجع لمصدره وهي علو نفسه ﷺ والفتوح العلمي . وكما يلزم من انعدام مصدر الذنب ودوام  
ذلك الانعدام من النفس انعدام نفس الذنب هكذا يلزم من الفتوح بالمشاهدة والقرب بالعلوم والمعارف المستمد  
من ذلك الجنب القدسي ظهور الآثار في المؤمنين بفتح البلدان وانتشار الاسلام ، وكما كان الاستغفار موجها  
الى مصدر الذنب فيدوم عدمه هكذا الفتوح راجع الى مصدر فتوح البلدان وهو فتوح العلوم ويلزم من  
ذلك فتوح البلدان الذي هو إحدى نتائج الفتح العلمي ، واذا روى البخارى انه صلى الله عليه وسلم  
قرأ - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - لما دخل مكة وقد ظهرت عليه هيئة السرور فليس ذلك هذه الظواهر  
وحدها . كلا . بل ذلك لمصدرها وهو الفتح الحقيقي لنفسه ﷺ بالعلوم والمعارف وفرحه بربه ، ألا ترى  
انه ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » والحديث مذكور في  
أول ﴿ سورة الأنفال ﴾ وقد ظهرت أسرار هذا الحديث بذل الأمم العربية التي فتحت تلك البلاد وظهرت  
آثار خوفه ﷺ على أمته فعلا في زماننا وقبله . إذن فتوح البلدان وان كان لانشر الاسلام فيه الخير  
والشر ، فالخير للصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم لما عمروا أرض الله ، والشر لمن بعدهم وقد لحقنا نحن  
وأصبحنا اليوم تحت ضغط أم أوروبا لأننا لم نقم بحق الفتح . إذن فتح البلدان فيه الخير وفيه الشر كما أخبر  
ﷺ وظهرت آثاره فينا . إذن مصدر الفتح هو الذي فرح به رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ سورة الفتح  
عند الكعبة يوم الفتح وكان قلبه مفعما بالسرور لذلك ، وكيف يفرح بفتح البلدان الظاهري وهو يظهر  
خوفه علينا من ذلك الفتوح ويقول ان أكثر خوفه علينا من ذلك كما في الحديث الصحيح . إذن الفتح  
راجع لانكشاف الحقائق العلمية التي لا يخاف من زوالها وهي السعادة التي لانهاية لها إذ لاسعادة لهذا  
الانسان كله إلا بالاطلاع على الحقائق ، وكل ما يصيبنا في الحياة قصد به أن يكون مهمازا نساك به الى العلم  
وهو تمام النعمة وهو النصر العزيز

إن ترتب الهداية على كمال العلم والوقوف على الحقائق أقرب من ترتبها على فتح البلاد لأن الهداية ألصق  
بالعلم وأيضا قد شرح الله صدره ﷺ ووضع وزره عنه ، ورفع ذكره ، وهو لا يزال في مكة قبل فتح مكة  
وقبل صلح الحديبية وهو مهدي الى الصراط المستقيم قبل ذلك فكيف يترتب عليه الهداية إن الفتوح فتوح

العلم وبالعلم جمع القرم وبالعلم فازوا  
وهذا له نظير في لفظ الغنى ، فلفظ الغنى يكتفي هذا النوع الانساني منه بظاهرة وهو كثرة المال ، والنوع  
الانساني أكثره مخطئ في ذلك لأنه ظن أن امتلاء خزائنه بالمال سعادة له وهو وهم باطل إذ لا سعادة إلا  
بغنى النفس ، وكلما أوغل الانسان في حوز المال توغلت نفسه في الطمع والحرص فيزيد ذلة ومهانة . فالغنى  
الحقيقي النفسى هو السعادة كالفتح الحقيقي والغفران الحقيقي . وكما انه لا يلزم من غفران آحاد الذنوب زوال  
مصدرها الذى شرحناه هكذا لا يلزم من فتوح البلدان المعروف بين الأمم الفتوح العلمى بدليل أن القواد  
الحريين يفتحون المدن وهم لا يعلمون إلا فن الحرب . وكما انه يلزم من غفران مصدر الذنوب المتقدم  
ذكرة عدم نفس الذنوب بتاتا هكذا يلزم من الفتح العلمى المذكور الفتح الاسلامى للبلاد فى الأرض  
هذه مبادئ السرّ فى هذه الآية - واستغفر لذنبك - وآية - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - الخ والفتح  
بالمشاهدة يترتب عليه دوام زوال مصدر الذنوب ودوام النصر وتمام النعمة  
هذا ما فتح الله به فى هذا المقام وتمّ الكلام عليه كتابة حوالى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وهذا  
هو المنهج الأول فى الاستغفار

### ﴿ المنهج الثانى والثالث فى التسبيح والتحميد ﴾

لقد قدمت لك أن الذى حفزنى الى كتابة هذا الموضوع هو انى فى الركوع كنت أقول « سبحان ربى  
العظيم » وهناك خطرت لى هذه الخواطر ، ولما رفعت رأسى من الركوع قلت « سمع الله لمن حمده ربنا  
لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال  
العبد ، كنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ  
منك الجدّ »

فما أتمت ذلك الثناء حتى جال فكرى فى هذه المعانى وأخذت أقول : « ياسبحان الله : نحن نسبح  
فى الركوع وفى السجود وعقب الصلوات والنبي ﷺ أمر أن يسبح ويحمد بالعشى والابكار ، ونحن بعد  
التسبيح ترانا نذكر السموات والأرض وما بينهما وما وراءها . إذن الأمر عظيم . إذن هذه الصلاة ليست  
ألفاظا فحسب . كلا . انها متن وشرحه هذه الدنيا كلها . نحن نسبح ونحن نحمد ونستغفر . أما الاستغفار  
فتفتح باب لصفاء القلوب إذ العلم لا يجتمع مع الظلمة فى القلب . فبقى التسبيح والتحميد ولقد كررت معناها  
فى كل مناسبة فى كل مقام بحسبه . وان يفتى ما أقوله فى مقام عما أقوله فى مقام آخر فى معناها إذ العلم  
أشبه بأنواع الزرع وأنواع الطعام . ولا جرم أن اختلاف المزارع والطعوم لمقاصد وفوائد لاحصر لها . فهنا  
أقول : أ كابر المسبحين هم الذين يقفون على حقائق هذه الدنيا . واذا درسوا نفس هذا التفسير حصلت  
لهم ملكة بها يقتدرون على أن يعرفوا أن شرور هذه الدنيا ونكبات الدهر ومصائب الموت والفقر والذل  
وكل مصيبة تحلّ بفرد أو أمة فأنما ذلك موجه للخير العام والخير العام موجه لخير الأفراد . وأ كثر العقول  
الانسانية لن تقدر على تصوّر ذلك ولكن هذه هى الحقيقة التى لا يشك فيها المفكرون

إن السعادة الحقيقية فى الحب . ولا سعادة فى الحب إلا اذا توجه لموجود لا يموت وهو جميل وحكيم وله  
صفات بديعة . وكل ما ينسب له من الاهلاك والتدمير يحدث فى القلوب خوفا لا حبا . فأكثر أهل الأرض  
وقفوا عند درجة الخوف من البطش لا الخوف من انقطاع الحب . والتسبيح الحقيقي به تقف على حقيقة  
هذه الشرور ومتى أدركنا سرّها ( وأن جهلنا هو الذى أفهمنا أن ذلك كله موجه لإذلالنا وتفريق شملنا  
واهانتنا وتفريق جماعتنا ) وعرفنا الحقيقة . هنالك تكون السعادة لأن تلك الذات المقدسة كل أعمالها  
رحمة موجهة لنا . وهذه الرحمة لاتكمل ولاتتم إلا بهذه الشرور والايمان بهذه الأشياء حسن ولكنه لا يعلم

القلب سعادة كما يملؤها الوقوف على الحقائق . وهيئات هيات أن يقف الانسان على هذه الحقيقة أو يكون له بها يقين إلا بأن يجعل حياته وفقا على درس سائر العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وغيرها (وهي التي كان يظنها جهلة المتأخرين من المسلمين كفرا) اذا أمكنه ذلك ويساعد العقل على الفهم الصلوات والتسيبكات فانها لها آثار في القلوب . وهناك يفهم المسلمون مايقولونه في الرفع والاعتدال كماقدمته « لاما نغ لما أعطيت ولا معطى لما منعت . ولا راد لما قضيت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ويفهمون أيضا لماذا كان رسول الله ﷺ يعاهد المسلم على أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله . وسر التسييح فهم أن هذا الشر الذي هو من الله انما هو خير في الحقيقة . وهناك هناك محل الحب الحقيقي من العبد لله ومعها السعادة الحقيقية . وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات -

هذا هو الفرق بين العالم والجاهل . الجاهل أمر أن يؤمن بأن الخير والشر من الله ووقف عند درجة الخوف من الله وعند درجة التسييح اللفظي واعظام الله تعالى إعظاما مصحوبا بالخوف . والعارف هو الذي يعرف بعقله أن هذا الشر موجه للخير وأن هذا الشر مكمل لذلك الخير والخير بدونه ناقص . فهناك يجب ربه جبا لا حد له ويسعد سعادة لا حد لها لاسيما اذا أمته الله بعلوم وحكم وأفاض عليه . فهذا هو التسييح . أما التحميد فهو معرفة جميع العلوم المذكورة من حيث جلالها وكبرها وحكمها . وهذا هو السر في ذكر التسييح غالبا مع الحمد لأنهما في الحقيقة بينهما صلة وهما يرجعان للعلوم . هذا مافتح الله به كتبه عقب ورود هذا الخاطر بعد ما انتهت من نفس الصلاة والحمد لله رب العالمين .

#### ﴿ الفصل الرابع في محاجة الضعفاء والمستكبرين إذ يتحاجون في النار ﴾

ونتيجة المحاجة أن الجميع في النار ﴿

إن هذه المحاجة قد ذكرت بعد نصائح المؤمن من آل فرعون لهم من باب ذكر السبب بعد السبب فان آل فرعون قوم مقلدون للرؤساء والمقلد للرؤساء بلا عقل هالك . إذن هذا من أسرار القرآن فانه بعد أن ذكر آل فرعون (وقد تبين في تاريخهم الذي ذكرناه أن عقولهم إذ ذاك قد أخذت تنحط حتى عبدوا الحيوانات ، وقد ظهر ذلك ظهورا واضحا في آثارهم) أخذ يذكر المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين في النار والمقصود من هذا أن الله كأنه يقول : « أنا لم أذ كر مؤمن آل فرعون ومحاجته مع قومه عناية بالتاريخ كلا . وإنما ذكرتها أشبه بمثال للقاعدة المذكورة بعد ، والقاعدة المذكورة بعد أن وقوف العقول هو البلاء الأكبر . وليس الاتكال على الرؤساء بنافع المرؤسين فان العقول عند الجميع ، وما اتكال المرؤسين على الرؤساء إلا كالاغترار بالسيح الدجال ، فالسيح الدجال يوهم الناس فيتبعونه والرؤساء كذلك . إذن ماسيأتي في الفصل الخامس متم لما في هذا الفصل وعلى هذا تكون الفصول الثلاثة متصلة كل فصل مكمل للآخر فضلال المصريين سببه الاغترار بالرؤساء والمرؤسون لا ينفهم الاحتجاج بالرؤساء مهما أوهموهم ، واذا كان إيهام المسيح الدجال لأتباعه واضلال عقولهم واطهار الامور الجيبة لا يخفى أتباعه من العقاب على أتباعه لما لهم من العقول التي تركوها والمواهب التي أناموها فكيف يفلت الضعفاء من العقاب اذا تبعوا رؤساءهم الذين لا يبلغون في المكر والخديعة عشر معشار المسيح الدجال ! - لكل ضعف ولكن لا تعلمون - وهذه الحجج القرآنية دامغة واضحة وآيات ساطعات قد ظهرت في هذا التفسير ليعلم المسلمون قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية أن دين الاسلام قد أحاطت به تقاليد كاذبة وضلالات خاطئة ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » وعرف ما فيه من الفرق التي تبلغ نحو نيف وسبعين فرقة ودرسها درسا جيدا واطلع على بعض تلك الفرق الباقية الآن أدرك يقينا أن كثيرا من تلك الآراء قد أُلصقت بالدين لغرض واحد وهو الجاهل والثروة والملك

والرئاسة وحوز المال والتعالى والعزة والبطش

إن هذا الكتاب ألقته للمسامين عامة ، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا ، وليس عندي لهذا الداء  
لجميع الأمم الإسلامية إلا دواء واحد وهو دراسة جميع العلوم وتعميم التعليم

### ﴿ الآراء الحديثة وآيات القرآن ﴾

انظر الى ما تقدم في قوله تعالى - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - وقرأ ما نقلته عن  
العلامة ( كانت الألماني ) فانظر كيف يقول : « إن البصيرة متوقفة على التعليم والتعليم متوقف على البصيرة  
وهذا دور والدور محال ، ثم أجب عن هذا الاشكال بما ملخصه أن كل جيل من أجيال الأمة يجد فيما ورثه  
عن أسلافه ويزيد عليه ويسلمه لمن بعده جيلا جديلا حتى يصل الانسان الى السعادة »

ومما قاله أيضا : « إن المعلم اذا اتبع طريقة من قبله بلا تعقل فانه ينقص عنه وهكذا جيل ينقص عما  
قبله حتى تنزل الأمم الى أسفل سافلين »

وملخص آراء الرجل أن العلم لا يؤخذ لإمام أدلته على شريطة أن يعرف الانسان أصول الأشياء فيزيد  
شيئا ويرتقى الخلف عن السلف من حسن التصرف . أما اذا لم يكن هناك إلا التقليد المحض رجعت الأمة  
التقهقرى ، وهل في هذه الآيات إلا هذا ؟

هذا ملخص هذه الآيات ، ومن اطلع على الشبان المسامين في المعاهد الدينية يجد انهم يلقنون في صغرهم  
أن عقولنا أضعف وهمنا أقل وكل جيل يأخذ عن من قبله ويكون أقل منه حتى ان أتباع الامام الشافعي في  
زماننا ينظرون الى الرملي وابن حجر بعين العظمة ولا يقدر أن يفكروا في البويطي من أصحاب الشافعي  
فكيف اذن بالشافعي رضى الله عنه وأبي حنيفة . أما القرآن وأما الحديث وأما أحوال النبي ﷺ فهذه كلها  
ينظر اليها نظرا تاريخيا لا غير أوتبركيا غالبا وهذا هو الرجوع التقهقرى

فليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها لتتسع عقولهم ويدرسوا تاريخ كل علم ليعرفوا  
أصولها ، ثم ليكن في كل قطر جماعة من هذه الطبقة الممتازة ، ولتكن نتائج آرائهم موازنة في مجلس علم  
مع آراء المصطفين من الجماعات المختلفة ، وليكن لهم مجلس عام في مكة أوفى غيرها ، ثم ليقرر ما يجب من  
الاصول المرعية للمسامين ، ولا يصح أن يتولى زعامة المسامين أناس لم يدرسوا تلك العلوم ، فوالله انهم ليسوا  
أهلا لادارة شؤونها سواء أ كانوا ملوكا أم أمراء أم علماء . وهذا هو المناسب لهذا الزمان . ولقد كتبت نظير  
هذا في مواضع كثيرة من هذا التفسير

هذا هو الذي فهمته أيها النكي من هذه الآيات . فقال : لقد أجدت صنعا وأحسنيت وأفدت فله الحمد  
والمنة ، ولكن لا يزال بعض الاشكال قائما بل لا يزال بحاله . فقلت ولماذا ؟ قال : إن الرحمة تقضى أن لا  
يكون شئ من هذا وتكون الحياة سعادة . فقلت : هذا السؤال مكرّر في هذا المقام وفي غيره ولم أجبت عنه  
فقال نعم ولكنني أريد زيادة الايضاح . فقلت : ماذا أوضح بعد ما ذكرت لك في أول هذا المقام من مثال  
الماء والأرض والحرارة فيهما وانها في أحدهما أبطأ من الآخر ، وابطاء تصاعدها على مقدار ابطاء قبولها  
فهكذا الأمم اذا تدهورت بسبب الرؤساء أو شيوخ الدين أو شيوخ الصوفية أو الجهلاء الذين هم غير كاملين أو  
المستعمرين الذين يدخلون البلاد فيجعلوا الشعب أشبه بالحيوان يسخرونه

كل هذا لم يخرج عن كونه تأخيرا للرقى ، وهل هذا التأخير إلا نفس ابطاء قبول الرقى ، وهذا الابطاء  
يجعل الرقى أدوم . إذن الدجالون والمستعمرون والشيوخ الجاهلون كل هؤلاء جعلوا في الأرض امتحانا  
لعقول الأمم يؤخرون رقيهم ، فاذا استيقظوا بأمثال ما كتبه في هذا التفسير وبالآلام والاذلال فانهم يجتدون  
في تثبيت مدنيّتهم تثبيتا أتم . أما اذا شربوا العلم شرابا بدون آلام ولا تأخير فقلما يدوم في أجيالهم ، ولعلّ

قدماء المصريين لم يدم ملكهم خمسة آلاف سنة إلا بعد أن قاسوا حروبا واذلالا آمادا طويلة  
فمثل الأمم التي يصيبها النذل بالاستعمار والشيوخ الجاهلين كمثل الماء فيما تقدم وما أحسن ضرب المثل  
بالماء فقد جعل مثلا للعلم في آيات القرآن وعلماء الطبيعة جعلوه مبدأ لارتفاع سطح الأرض لأن سطحه منتظم  
وجعلوه مقياسا يقاس به الوزن النوعي للجوامد والغازات بحيث يكون الحجم الذي مثل حجم الماء من الزئبق  
يساوي وزن الماء ١٣ مرة و٦ من عشرة ، ومن الذهب ١٩ مرة وثلاثة أعشار المرة ومن الأثير الكبير يني  
سبعة أعشاره لا غير إذن هذا أخف من الماء والهواء أخف من الماء ٧٧٣ وستة أعشار أى ان الهواء المساوي  
لحجم الماء يكون أخف منه بهذا المقدار

أقول : فإذا كان الماء قد جعل مقياسا في علم الطبيعة لوزن كل شيء وزنا نوعيا إذا كان على درجة ٤  
فوق الصفر من سنتجراد وكانت هذه المعادن وغيرها على درجة الصفر منه ، فهو إذن معيار عظيم هكذا هنا  
هو خير معيار يجب به عن ظواهر المظالم والجهالات فنقول انها لم تفعل شيئا أكثر من تأخير الرقي للأمم وهذا  
التأخير لأجل الشوق لذلك الرقي والشوق مثبت له . وهذا هو قوله تعالى - فغسى أن تكروها شيئا وهو  
خير لكم -

هذه هي الحكمة الإلهية في تحمل الضغط والاذلال . وعلى المفكرين في الأمم أن يحملوها على دفع  
هذه المظالم ورفع هذه الأثقال عنهم والله من ورائهم محيط . قال : لقد انشرح صدرى بهذا المقال . فلنبدا  
بالكلام على الفصل الخامس

#### ﴿ الفصل الخامس في المسيح النجال ﴾

فقلت : لقد ذكرت المسيح النجال غير مرة في هذا التفسير . وكل ما أحاول أن أقوله قد مرّ نظيره . فقال :  
ولكني الآن أريد أن تشرحه شرحا عاما لتشرح صدرى وصدور القراء ، فأنا أريد أن أعرف كيف يقول  
ﷺ في حديث أبي داود والترمذي أن الأنبياء أنذروا قومهم به ، وأن نوحا أنذر قومه به ، وكيف نستعيد  
بالله منه في كل صلاة ، وكيف يستعيد رسول الله ﷺ منه في صلواته ولم يظهر في زمانه ، إذن الأنبياء  
يستعيدون بالله ونحن والصحابة والرسول ﷺ من شيء لم يحصل وهذا محال ! فقلت : إن الحيرة في هذا  
إنما تأتي لمن يجهلون علوم اللغة العربية ، فالعامة يجهلون البلاغة في كلام العرب ولكن الأدباء وهم قوم  
أعطوا حظا من علم اللغة هم الذين يفهمون أمثال هذا المقام . إن القرآن في أعلى طبقات البلاغة والبلاغة علم  
فإذا جعلنا تفسير القرآن على يد طائفة تجهل هذه العلوم حصلت لهم الحيرة . أما نحن فلا حيرة عندنا . إن في  
علم البيان (وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة) التشبيه والمجاز والكناية . والكناية باجتماع العلماء أبلغ من الحقيقة  
وأى كلام أحقّ بالبلاغة من القرآن . قال : هذا حسن . فقلت : وما الكناية إلا لفظ له معنى ولكن ليس  
المقصود هذا المعنى بل المقصود الحقيقي معنى آخر مع ان المعنى الأول لا يزال بحاله ويراد أيضا من اللفظ . فإذا  
قال رجل للآخر « إن كلبك جبان » وكان القائل بليغا فان السامع اذا كان بليغا أيضا يفهم منه أن هذه  
الجملة معناها انه كريم لأن جبن الكلب انما جاء من كثرة الأضياف فانهم لكثرتهم لم يتحمل الكلب كثرة  
النباح عليهم . فهذا الممدوح من جهة كريم وهو المقصود . ومن جهة أخرى يصح أن يكون له كلب وذلك  
الكلب جبان فعلا . فهذه هي الكناية . فالمقصود فيها المعنى الذي كنى باللفظ عنه . فهنا نقول : هذا المسيح  
النجال الذي يظهر العجائب وناره جنة وجننه نار وبقته المسيح ابن مريم له معنيان كمسألة جبان الكلب .  
والمعنى المشار اليه هو المقصود والمعنى الأصلي جائز لامانع منه

هذا هو الذي يقتضيه علم البلاغة . واذا لم نستعمل هذا العلم فيما خلق له وهو فهم الدين أفنقتصر في استعماله  
على أشعار العرب ونحوها . فقال : ولكن لا بد للقرينة من كناية فما هي القرينة هنا ؟ قلت : هنا قرائن

لا قرينة واحدة بل قرائن يجب علينا أن ندرسها . فقال : وما هي ؟ قلت : كيف نستعيد من فتنه المسيح ولا فتنه له الآن ! وهل يستعيد رسول الله ﷺ من شيء لا وجود له ؟ وهل ينذر الأنبياء أقوامهم بما لا وجود له ؟ فقال : إذن المستعاز منه كل من كان ظاهره الصلاح وباطنه الخداع والظلم والجور . فقلت : نعم وذلك يشمل الدجال الحقيقي متى ظهر ويشمل كل دجال من المستعمرين للبلاد ومن الشيوخ الجاهلين في الاسلام وغير الاسلام فكل هؤلاء دجالون لأن أحدهم يظهر العلم وليس بعالم ويظهر الزهد وليس بزاهد . والأمم المستعمرة تجعل أنفسها داخلة لاصلاح البلاد اذا هي تمنع العلم عنهم

كل هؤلاء استعاز النبي ﷺ منهم ونستعيد نحن . فهم في ظواهرهم أشبه بالمسيح ابن مريم يريدون السلام العام وفي الحقيقة لا يريدون إلا استخیر غيرهم لهم . ولقد ابتليت أمتنا بقوم من هؤلاء . فكثير من القائمين بالملك في الأزمان القديمة كانوا لا يريدون إلا العلوق على الناس لا أنهم يريدون الخير للأمة . نعم الصحابة رضوان الله عليهم كان لهم اجتهاد ولكن الأمم المتأخرة كثير فيهم طلاب الملك والرئاسة . وأنت ترى آثار ذلك الدجل في الجهلة من الشيوخ الذين يحملون الأعلام ويدقون الطبول . كل ذلك آثار من آثار أسلافهم الذين كانوا يفعلون ذلك لأجل الملك . ولقد أحسن صنعا مصطفي كمال باشا في تركيا إذ أخرجهم فقاموا بأعمال تنفع الأمة ولم يبقوا عالة عليها كما هو حاصل في بلاد الهند . وقد تقدم مقال مطول شارح للاولياء الهنود في ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا - الخ ذكرته هناك ليعلم المسلمون أن هذه الطوائف التي جعلت الدين مصيدة سبقنا بها البراهمة فاقرأه هناك ، ومستحيل أن ترتقي الشعوب الاسلامية إلا بالاطلاع الواسع حتى يزحوا هذه الأوهام ، ولم نر أمة من أهم الفرنجة دخلت بلادا اسلامية كبلاد السودان أو بلاد شمال افريقيا إلا اتخذت هذه الطوائف أعوانا لها . لماذا هذا ؟ لأنهم اخوان شركاء في الصيد . فللمستعمرون من أوروبا كالآساد وكالغور وهؤلاء الشيوخ كالذباب والحدآت فانها تأكل فضلات أولئك المستعمرين . ولقد أخبرت منذ أيام أن رئيس طائفة كبيرة من الصوفية ببلاد المغرب قد تزوج امرأة فرنسية . إن فرانسوا تعرف كيف تؤكل الكتف . إن أوروبا ( كما يقول غاندي مصلح الهند ) أشد خطرا من الشيطان وما أكذب الشيطان اذا نشر شره وهو يذكر الله ﴿ وبعبارة أخرى تقول ﴾ إن الأحاديث الواردة في الدجال يراد منها ما هو حاصل الآن فعلا في بلاد الاسلام ، حتى يقول المسلم « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنه الحيا والممات ، ومن فتنه المسيح الدجال » فهذه الفتن كلها حاصلة والمظهرون الصدق والاخلاص في العالم وهم كاذبون كثير أفرادا وأمما . فهؤلاء الشيوخ يقولون للناس « واطبوا على الأورداء صباحا ومساء فقط » ولكن لا يحبونهم في العلم لأن أكثرهم جهلاء والمتعلمون منهم كالمثقلين من أهل أوروبا يقولون « اذا تعلموا تعالوا علينا » وهذا المقام تقدم شرحه في مواضع كثيرة من هذا التفسير مثل ما جاء في سورة الكهف عند آية - وما كنت متخذ المضلين عضدا - وفي سورة ابراهيم في آخرها ، وفي سورة سبأ عند آية محاجة الضعفاء والذين استكبروا مثل ما هنا وهكذا . فقال : لقد انشرح صدرى لهذا الجواب ، ولكن بقي أمر واحد وهو : « كيف يقول ابن عباس ان اليهود يتخيلون ملكا يكون لهم على يديه » فهل هذا له أثر . فقلت : إن أمر اليهود لا يخرج عما قررناه . إنهم الآن مشقتون في كل أمة من الأمم وهم أذكياء جدا ولهم تاريخ مشهور ، فهم يحافظون على مجدهم ولأمة في الأرض تضارعهم في هذا لأن التوراة قد ملئت بأخبار أسلافهم ، وهم قد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا فتنه الأمم كلها كما نقلته في هذا التفسير منقولاً عن التلمود ، فلا نجد فيهم عالما ولا حكما ولا سياسيا إلا وهم موجه الى خير أمتهم وان هلكت جميع الأمم . وأقرب شاهد على ذلك أن الذي أثار الحرب الكبرى في ألمانيا وأوروبا هم فلاسفة اليهود فان تشبيهه يهودي وهو الذي نشر فيها « ان الرحمة في هذه الأرض خطأ فلا يبقى إلا الأقوياء » وانتشرت آراء كثيرة في هذا المعنى

فقامت الحرب بين الأمم كلها . ثم هم أنفسهم لما رأوا أن ألمانيا أخذت تنتصر نشروا في طول البلاد وعرضها انها أمة متوحشة فثارت الأمة على الحكومة فسلمت ألمانيا لمن هم أضعف منها . وقد مضى على هذا نحو (١٣) سنة لأننا الآن في سنة ١٩٣٠ وايقاف الحرب كان في سنة ١٩١٨ ونسمع أثناء طبع هذه السورة أن ألمانيا قامت تنفض الغبار عن وجهها ويقول رجالها في الحزب الاشتراكي القوي فيها الذي قام الآن فعلا « لا يبقى يهودي في البلاد » لأنه يستحيل أن يكون يهوديا وألمانيا في آن واحد . هذا هو الذي يقال فعلا عند طبع هذه السورة . وهامى ذه ألمانيا يقوم شبانها في هذا الاسبوع فيصطمون زجاج منازل اليهود . إن اليهود يريدون أن يجعلوا لهم السلطان على العالم كله ولو بطريق غير مباشر

ولقد أزاخوا القناع عن أمرهم أيضا في مسألة فلسطين . فبعد الحرب التي ارتجت لها الكرة الأرضية وحصل الصلح أخذه اليهود يطلبون أن تكون لهم دولة في فلسطين . وهذا من مكرهم وخداعهم . وأيضا ان القائم بأمر البلشفية في روسيا هم اليهود ولاندرى ما يتم في ذلك . فالعالم كله اليوم مخدع وأكثرت الناس خداعا اليهود . ونحن نستفيث بالله من هذا الخداع

وعلينا أن نسعى في رقى المسلمين بعلوم الأمم ثم نكمل ما نقص من أخلاق غيرنا بعد كمال أنفسنا نحن . واذذاك نعلم أجيالا وأجيالا يكونون صادقين لخدمة الأمم فيذهب خداع الأمم بعضها بعضا وأكاذيب السياسيين والدجالين وشيوخ الطرق وأكاذيب التجار بل خداع الشهوات واللذات فهي ملحقات بخداع الدجالين لأن الانسان مخلوق مسكين تخدعه شهوته ويخدعه غضبه ويخدعه نقص علمه ويخدعه الأمم ويخدعه الشيوخ الجاهلون . ولست أقول إن شهواتنا من قبيل الدجالين . كلا . بل أقول انها ملحقات بذلك مقيسة عليه . فلنجد نحن المسلمين في العلوم لنساوي الأمم ثم نسير على صراط مستقيم للتمهيد الى السلام العام بين الأمم الذي عبر عنه بزمان عيسى ابن مريم ولن يكون زمان المسيح إلا بعد أن يقتل الدجال . إذن لنقتل الدجل من بلاد الاسلام أولا ، ولن يكون ذلك إلا بالعلم وبعد ذلك نقتله من الأمم ثم يكون السلام العام وهذا هو المقصود ، فليس في هذا أيها الذكي انكار للمسيح على حسب لفظ الأحاديث ولا للدجال على حسب لفظها ، وانما الذي يجب علينا نحن أن نعمل من الآن لهدم أركان الدجالين وترقية النفوس ليصلح العالم ويعم السلام . هذا ما أدين به وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد نطقت بعلم وأفدت بفهم وشرحت صدري ولكن ما تقوله من السلام العام وانه يحصل بامانة الدجالين وتعميم التعليم بعيد الحصول ، فاضرب مثلا مشاهدا أقيسه عليه . فقلت : أذكر كرك بما تقدم في أول ﴿سورة يوسف﴾ . ألم أكتب مقالة أجل فيها على الحكومة المصرية لاهمالها حفظ الطيور النافعة . قال بلي . قلت : ألم تأمر الحكومة بحفظ هذه الطيور . قال بلي وتبلغ فوق (٣٠) عدا منها أبو قردان والكردان والزقرايين الشامي والبلدي الخ . قلت : فأيهما أنفع للناس : أكل أبي قردان وأكل هذه الطيور كما كان ذلك حاصلا قبل منع حكومتنا أم إبقاؤها لتأكل الحشرات والودود فينمو الزرع كما هو الحاصل الآن قال : بل إبقاؤها خير ، ونسبة منفعة أكلها الى منفعة ما تناله من بقائها أقل من نسبة الهواء الى الماء من حيث الخفة إذ تقدم انه أخف منه (٧٧٣) مرة قريبا . واذن تكون المنفعة في أكل تلك الطيور أشبه بالعدم فقلت : وماذا تقول في البقر والجاموس التي تساعدنا في الحرث والسقي اذا فرض أنه ليس لدينا غيرها اذا ذبحناها وأكلناها ، أنا كلها أم نبقها ؟ فقال : بل نبقها كما نبق الطيور ، ومن أكل هذه الطيور أو هذه الحيوانات المذكورة فهو أولى بأن ينسب الى الجنون من أن ينسب للعقل . فقلت أحسنت ، ثم قلت انظر : هنا ماء يسقى الزرع وهواء يتنفس فيه ويأخذ منه الكربون كما تقدم في ﴿سورة يس﴾ عند آية - سبحان الذي خلق الأزواج كلها - . قال نعم . قلت : وطيورنا كل

الحشرات والسود ، وذوات أربع تحوّر الأرض وتسقى الحرث . أليس كل هؤلاء تعاونوا على المزرعة . قال بلى . قلت : وهم مختلفون صفات اختلافاً بينا . قال بلى . قلت : فإذا تقول في الانسانية العامة . أليسوا مختلفين أما وأفراداً اختلافاً كثيراً أو قليلاً . قال بلى . قلت : والاختلاف لغايات كالاختلاف بين صفات الانسان وصفات الطير والهواء والنتائج تبع ذلك الاختلاف . قال نعم . قلت : أفليست الدنيا كلها مزرعة واحدة . وبنو آدم اذا قتل بعضهم بعضاً يكونون في سخافة عقولهم أشبه بهؤلاء الزارعين الذين ذبحوا أبا قردان وأكلوه وذبحوا البقر والجاموس وحرموا الزرع من تلك المنافع فأصبحوا خاسرين . قال بلى والله حسن جداً . إذن الانسانية للآن في غاية النقص . قلت نعم وكماها بذبح الدجل والاستعمار ، فهذا الشيخ الذي يقول للتلميذ « اتبعني وارك كل علم غير ما أقوله لك » مريدا بذلك إيقاف عقله أشبه بالفلاح الذي ذبح أبا قردان لأكله ونسى انه هو الذي يأكل حشرات حقله ، وهذه الأمم المستعمرة التي تذلل الشعوب ليدوم خضوعهم هم أشبه بذلك الفلاح أكل الطيور وذبح البقر والجاموس وقعد يضرب أخماساً لأسداس . قال : ما هذا ؟ إذن الانسانية الآن بهذا البرهان سخيفة غبية . فقلت : حقاً لا انسانية . وهذا لا يزول إلا بأن يفهم المسلمون آيات هذه السورة ويعلموا أنهم هم المقصودون بانتقال الانسانية من حقها وجهلها لأنهم - خير أمة أخرجت للناس - . وأن اليهود لن يرجعوا عن إضلال الأمم ودس الفتن فيها وكذلك أمم أوروبا لن ترجع عن إضلال الأمم فتضع معها ما يضيع الفلاح الغبي الذي يأكل أبا قردان ويذبح البقرة والجاموسة اللتين تنفعانه في نمو زرعها إلا بظهور الحقائق ظهوراً تاماً ونشر الثقافة في الأمم والتعاطف بالأخلاق الفاضلة وحين ذلك يفهم المسلمون سر قول ابن عباس في تفسير هذه الآيات . وأن اليهود وغير اليهود لن يسلطوا على هذه الانسانية وانها لا بد من ارتقاؤها وأن الحرب ستزول ويكسر الصليب لأن ديننا اخترع العقل الانساني واجتلبه من دين البوذية لن يبقى إلا بالمشرى وهم يحملون الصليب

فهذه وأمثالها ستخف وطأتها وتعرف الانسانية الحقائق ويكون الناس إخواناً في نفس الحياة ، انما مثل المستعمرين الذين يفشون الجهل في الأمم والشيخوخ الذين يتاجرون بالدين كمثل من رأى صبياً يرضع من ثدي أمه حكم بأن لا يترك هذا الثدي أمد الحياة وهو يرى ويعلم أن هذا الطفل له أدوار ثلاثة : دور الجنين ودور الرضاعة ، ودور الاستقلال في الطعام والشراب ، فاقتصار المرئد على قراءة الأوراد أشبه باقتصار الطفل على لبن أمه أمد الحياة ، واقتصار الأمم التي استعمرها الأجنبي على أن يكونوا خدماً وقد قتلوا ذكاهم أشبه بذلك الصبي الذي لا يترك لبن أمه ، فهؤلاء وهؤلاء قد حرموا فوائد عظيمة فقدتها الانسانية بتأخيرهم رقي غيرهم ، وكتابتنا العزيز وتفسير ابن عباس يدلان أن الانسانية ستأخذ حظها ولا يتم إلا بالسلام العام وبقتل المسيح الدجال ولا يعيش في الأرض إلا الصادقون المخلصون

ألم تر الى قوله تعالى - إنا لننصر رسلاً الذين آمنوا في الحياة الدنيا - أي النصر ليس قاصراً على الحياة الأخرى ، إذن فلنبشر الانسانية كلها بالنصر وانهم يصلون للسلام العام لأن دين الاسلام وأمة الاسلام المستقبلة ستنصر في هذه العقيدة العيسوية المحمدية وتقتل الدجل وتحبي السلام العام الذي يقوله المسلم في عبادته فلما سمع صاحبي ذلك . قال : ما أجل هذا المقال ، وما أبهج العلم ، وما أسعد العلماء ، ولكنني أريد منك زيادة إيضاح في موضوع الدجالين . فقلت : أيها الذكي اقرأ ما تقدم في آخر سورة المائدة عند قوله تعالى - واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله - ثم انظر كيف كان هذا الدين صورة منقولة من (دين خريستا) ومن (دين بوذا) بالهند أحدهما قبل الميلاد بمئات السنين والآخر قبله بألاف السنين ، وتأمل فيما كتبت هناك تجد أصول الدين منقولة بالحرف الواحد وهي هناك واضحة أيما إيضاح ، وعلى هذا نرى هذا الدين له مبشرون قائلون بأمره ، محافظون على تعاليمه ، ومن عجب انهم

يتصرفون فيها تصرفاً مزرياً ، ومن أفضعه أن الخرافات التي عمت السكرة الأرضية الآن هم المشيرون بها وهم الفاتكون بالأمم وهذا مخالف لنص هذا الدين على خط مستقيم . ولقد جعل مبشروهم الدين آلة لتفريق الأمم وزلزلة العقائد حتى ان فتح مصر لبلادنا المصرية لم يتم إلا بما اتخذوا لذلك من مبشرين زعزعوا العقائد فدخلت جنودهم البلاد بعد أن دخلت شرورهم وسمومهم القلوب

وهاهي ذه فرنسا ترحب بالدين خارج بلادها لاضرار عقائد الأمم ولكنها تضطهده في داخل بلادها علما منها أن تعاليمه ضارة بنظام بلادها . وبالجملة فالديانة المسيحية الآن أحبولة لاصطياد النفوس وقنابل لتفريق الجوع . أليس هذا هو أثر من آثار المسيح الدجال . وأى دجل أعظم من هذا . ونظرة في المقالة الآتية التي سطرها أحد الفضلاء في « مجلة جمعية الشبان المسلمين » تكفي لتبيان ماقلنا وذلك في عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

### ﴿ من كان بيته من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة ﴾

يحكى أن سائحا انجليزيا رأى صينيا يصنع سخنا من الأرز المطبوخ فوق قبر فقال له متهمكا : « متى تظن أن فقيدك يقوم فيأكل هذا الأرز ؟ » فأجابه الصينى بقوله « يكون ذلك متى جاء فقيدكم يستشوق روائح الأزهار التي تضعونها على قبره » هذا الرد الظريف المسكت ذكرني بكلمة لصيني آخر عن أعمال المبشرين في الصين فيها نفس المغزى وهو : « ان من كان بيته من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة » كنت قد قرأتها من زمن بعيد ثم رأيت أن أنقلها اليوم لقراء مجلة الشبان المسلمين كرد ( خالص ) على ذلك الاختلاق وتلك التقارير الوهمية التي يذيعها المبشرون عن انتشار المسيحية في أنحاء العالم وتراجع الاسلام تحت ضغط انتشارها باعتبار أن الكلمة صادرة عن رجل يتكلم بلسان ربع سكان المعمورة وهذه هي : لأى غرض جاء الى بلادنا هؤلاء المبشرون ؟ هم يقولون انهم جاءوا بدين يرون فيه لنا أسباب السعادة في الدنيا والآخرة . ويسمون هذا الدين بالدين المسيحي ولأننا لم نكن في حاجة لمثل هذا الدين بالمرّة لأنه في نظرنا دون شريعة كونفوشيوس وبودا لم يستطع المبشرون مدة أربعة عشر قرنا أن يؤثروا به فينا اذ لا يوجد حتى الآن بين أمتنا التي يربو عددها على أربعماتة مليون نفس أكثر من أربعين ألف مسيحي صيني ولست بحاجة لأن أعرفكم بهؤلاء الصينيين المسيحيين فهم الفقراء الذين لا يقدرّون على كسب قوتهم . ولذلك صاروا مسيحيين لأن المسيحية لديهم هي العيش ولم يستطع المبشرون رغما عن الجهد الجهد استئالة رجل ذي شأن ككاتب مطلع أو موظف أو تاجر أو أى ذى حرفة ولم يجتمع حولهم غير العساء والمبشرين . وكيف يكون الأمر غير ذلك مادام بودا قد علمنا كل مايحاول هؤلاء المبشرون تعليمه لنا مرة أخرى ومادامت فلسفة كونفوشيوس أكمل وأجل قانون عرفناه الفضيلة والأخلاق حتى اليوم . على أن أساس الديانة المسيحية وحده يكفي لابعاد كل ذى تفكير حر عن المسيحية وانى أترك لكم الحكم على صحة قولى هذا . يقول المسيحيون ان الله أراد في يوم من الأيام انقاذ العالم وبما أنه القادر على كل شئ - وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون - كان يجوز أن يظهر رغبته في انقاذ العالم بكيفية بسيطة ولكن الأمر لم يجز بهذه البساطة فهم يقولون ان الله الذى كان واحدا فردا رأى أن يصير ثلاثة مع بقائه فردا فليفهم ذلك منكم من يستطيع . وكانت نتيجة ذلك أن الله رزق بكرا من بنات آسيا غلاما وهذا الغلام صار رجلا والها في آن واحد فها هذه التعقيدات والاشكالات . إني أسألكم هل يوجد صيني سليم العقل يقبل هذه القصة ؟ أليس هذا وحده يفسر لنا لماذا لم يجد المسيحيون سييلا لنشر دعوتهم في هذه البلاد التي تترك الحكومة فيها للشعب حرية تامة في التفكير في مسائل الدين كما أثبت ذلك القسيس هوك . الى جانب هذا نعلم أن المسيح ( نبي البيض ) دعا قومه الى التسامح والرحمة والغفران ( كما فعل

كونفوشيوس من قبل) وأوصاهم بأن يعيشوا مع الناس في سلام وأن لا يعملوا مع الغير ما يريدون أن يعمل الغير معهم . فهل المبشرون يقعون الشريعة التي يريدون ادخالها بيننا . كلا فالدين ماهو الا وسيلة في أيدي هؤلاء القسوس الذين جاءوا لانتقاذ ارواحنا ( كما يقولون ) بغير أن نطلب ذلك منهم لأنهم كانوا الطلائع لغيرهم من مواطنيهم وهم التجار الذين ظننا أنهم هم الآخرون أتوا لتبادل المنفعة معنا فقابلناهم بكرم ولطف ورحابة صدر فهاذا قابوا حسن صنيعنا . قابوه باحتلال الجهات التي يسكنونها من الأراضي الصينية وادّعوا أنهم ملك لهم وحكومة بقوانينهم ومحال انهم كانوا يقبلون ذلك في بلادهم لو ادعى صينيون منا هناك مثل دعواهم فتركتناهم مع ذلك وشأنهم ولكنهم مالبثوا أن أصبحوا لا يطاق لهم وجود لأنهم أرادوا أن يكونوا هم السادة أصحاب الأمر والنهي وأن نكون نحن أرباب البلاد وأسيادها خدما لهم يحكموننا بالقوة والأرهاب الخ » وهي كلمة طويلة نكتفي منها بما تقدم . والذي يلفت النظر فيها بنوع خاص هو أن المسيحية التي يدهي المبشرون أنها تنتشر في أنحاء المعمورة وان الاسلام يتراجع تحت ضغطها لم تستطع ( بعد جهد جهيد استمر نحو ١٤٠٠ سنة ) ان تجذب اليها رجلا واحدا ذاشأن في بلاد الصين وان كانت فازت بعد ذلك الجهد بأربعين ألف مسيحي صيني لأظن ان العالم المسيحي الأبيض يغتبط بأخوتهم لأنهم . كما يقول ذلك الكاتب . أناس ضحكوا على ذقون المبشرين لياكلوا ( عيشهم ) والمبشرون من جانبهم يضحكون بهم على ذقون من يمدونهم بالمال ليعيشوا هم الآخرون . فالاسلام لاخوف عليه من تهديد المبشرين ومزاعمهم

زعم الفرزدق أن سيقتل مر بها \* أبشر بطول سلامة يا مرعب

مادام هذا الدين السمح الذي كفل الحرية الصحيحة للناس في حدود الفضيلة وحرر النفس البشرية وساوى بين الناس فلم يفضل أبيض على أسود أو أحرأ أو أصفير الا بالتقوى والعمل الصالح . لاخوف عليه وهو دين الحرية والديموقراطية من طغيان الدين المسيحي عليه . ذلك الدين الذي يحتفل بأبناؤه البيض ( في بلاد المدينة والعدل والحرية أمريكا . معقل رجال الدين ومصدر المبشرين ) بتعذيب اخوانهم ومواطنيهم المسيحيين السود ونحن نتعدي كائنا من كان من المبشرين في مشارق الأرض ومغاربها أن يكذب هذا الخبر الذي نورده هنا وهو هذا

احتفل أميركيو ولاية نيويورك في مدينة نيايور بتعذيب زنجي اسمه « دان دافيز » فلما شد وثاقه الى شجرة . بعد التعذيب الوحشي الشديد . لاحرقه حيا توسل « دافيز » المسكين الى ذلك الجع المحتشد من الرجال والنساء بعبارة مؤثرة تستدر الدمع أن يتقدم واحد منهم ليقطع عنقه قبل أن يسام ذلك العذاب الأليم فقال اني أرجو أيها السادة أن يكون بينكم رجل عاصر القلب بالمسيحية فيتقدم ليقطع عنقي ويريحني من هذا . فكان جواب الانسانية المسيحية البيضاء على هذا التوسل رنين ضحكات السحرة والاستهزاء من الجنس اللطيف والجنس الخشن سواء

نعم . لاخوف على الاسلام من طغيان المسيحية التي دعاتها المبشرون . انما الذي بهم جماعة الشبان المسلمين أن يقفوا عليه هو أن الدين أصبح وسيلة في أيدي المبشرين يسترون تحت ثوبه مفسدة عمرانية اعتقادية تنتقل مع الأجيال وحسب القراء أن يطلعوا على تصريح رئيس وزراء فرنسا في سنة ١٩٠٠ المسيو ولدك روسو عن هذه الطائفة في خطبة علنية أمام مجلس النواب حينذاك حيث قال : ان اختلاف التربية والتعليم باختلاف المدارس بين أهلية ودينية أحدث في النشء الفرنسيين مفترقين قلبا وقالبا ومبدأ وغاية ففريق يحب فرنسا ويخلص للجمهورية ويعاهد نفسه على الصدق في خدمتها وتأييد ذلك النظام الذي اختاره الشعب وفريق تربي في حجر جماعة اتخذوا لباس الدين رداء رياء ورواء خداع يربون الأبناء على كراهة الجمهورية ويثبون في نفوسهم مبادئ تناقض مبادئنا الخ

واكتفى بهذا البيان على أن يترك التعليم حراً ولكنه أقفل أبواب الوظائف الحكومية في وجوه خريجي مدارس تلك الجماعات ثم ظهر بعده من لم يكتف بذلك بل قضى باقفال مدارس الرهبنة صيانة للأمة مما يهدد حكمها الثوري ونظامها الدستوري الذي أراقت في سبيله الدماء الفزيرة حتى ظهر من انتصر للرهبنة . ولا يهمننا نحن وجهة نظر كل فريق منهم إنما نورد هنا خلاصته . ففهم كاتب من كتاب الفريق الثاني وهو المسيو « دريمون » في جريدة « الليبر بارول » في سنة ١٩٠٢ حيث قال : في ألمانيا التي لا يحكمها أصحاب البدع والحق . يتصرف ولاة أمورها مع الرهبنة بغير ما تصرفنا به ويعملون معانقيض ما عملنا . فان جيراننا الألمان لم يعملوا علم اليقين أن المبعوثين أقوى العوامل السياسية والتجارية تأثيراً وأجدها أثراً أمدهم بعنايتهم وأظلوهم بحمايتهم . الى أن قال : فلم يمهّد للانجليز سبيل فتح مصر الا المبعوثون الانجليكان . فاذا كان باقيا هناك من لم يزل يتكلم باللغة الفرنسية فإنا فضل في ذلك يرجع الى المبعوثينا الفريير أسانذة المدارس المسيحية الذين حافظوا على اجتذاب بعض القلوب الى فرنسا . نعم ليست العبرة بكلام هذا ولا بكلام ذلك من حيث وجهة نظر كل منهما إنما العبرة بمدلول كلامهما حيث كشف لنا كل منهما سوءة من سوائت المبشرين ونهبنا الى جانب من جوانب الخطر الذي يهدد الجنس الشرقي والاسلامي الملقى زمامه الى هذه الطائفة على ظن أنها تقوده الى مراقي العلم والفلاح . فليقت المسلمون الله في أبنائهم وخلفائهم من بعدهم ليتدبروا في كلام الرجلين حيث يظهر بوضوح جنابة المبعوثين الدينيين ومدارسهم على النشء وليس لهم علينا حجة بعد ايراد شهادة شهود من أهل المبشرين عليهم والظاهر أن الفتنة الأخيرة المدافعة عن الرهبنة قد انتصرت فهاهي فرنسا اليوم تشهر في وجه الاسلام سيوف الاعتداء على العقائد بتعطيلها الشعائر الاسلامية في بلاد المغرب واقفالها محلات عبادة المسلمين في نفس الوقت الذي تنشر المدارس التي تلبسها ثوب التعليم ونشر الثقافة وتستر تحت هذا الثوب نفس الفكرة التي أجرى الله بها لسان الميسودريمون فظهرت الحقيقة

أما الدين الاسلامي نفسه ففرنسا ( وغيرها ) تعلم علم اليقين أنه طود شامخ ثابت بمبادئه الانسانية . سام بتعاليمه الروحية . فان جيوش المبشرين الذين تملأ بهم الدنيا لن تقوى على زخزحته عن موضعه قيد شعرة ولكن حب الاستعمار هو الذي يدفعها الى ركوب هذا المركب الخشن لأنها ترى في تعاليم الدين الاسلامي عقبة في سبيل الاستعمار ولكن لتفهم فرنسا أن نيتها مفضوحة وأن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس . انتهى

فلتسمع صاحبي ذلك . قال : لقد شرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على سورة غافر وذلك صباح يوم الخميس ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠



## تفسير سورة فصلت

( هي مكية )

( آياتها ٤٥ - نزلت بعد غافر )

﴿ هذه السورة خمسة أقسام ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة

﴿ القسم الثاني ﴾ في التوحيد وذكر بدء الخلق من أول السورة الى قوله - ذلك تقدير العزيز العليم -

﴿ القسم الثالث ﴾ في ذكر إهلاك بعض الأمم التي كفرت كعاد وثمود الذين هم أقرب الى المرسل اليهم ديارا ولغة وعوائد وتاريخا من قوله تعالى - فان أعرضوا فقد أنذرتكم - الى قوله - فأخذتهم صاعقة العذاب الهون \* بما كانوا يكسبون \* ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون -

﴿ القسم الرابع ﴾ في ذكر الحشر وشهادة الجلود والحواس واختصاص الناس مع أعضائهم والقرناء واضلاهم وانهم يتتابعون في العذاب كما تتابعوا في الاقتداء وتناسى عقولهم ثم اذا ظهرت الحقيقة تناذبوا وتناكروا وتعادوا واتباع ذلك بالتواد والتحاب بين العوالم الطاهرة من الملائكة وعوالم الانس ، وكيف يبشر الأولون الآخريين قائلين لهم وقت الحياة وعند الموت « لاتخافوا مما تردون عليه ، ولاتخزنوا على ما خلقتكم من الأبناء والأهل والأثم ، فستردون الجنات . وتناولون أعلى المقامات ، في ضيافة الله واكرامه ، ثم وصية المؤمن أن يكون هينا لينا ، رحما ودردا عقوا ، يتألف أصحابه ولا يتبرم بهم ليصبحوا أصحابه ، وذلك لا يكون إلا بالصبر والاحتمال وحسن الخلق والتواضع والتآلف ، وأن يستعذ بالله من قرناء السوء من شياطين الانس وشياطين الجن اذا وسوسوا له وقرعوا بينه وبين أصحابه وفتحوا له باب الشر والنزاع والشجار ، وذلك من قوله تعالى - ويوم يحشر أعداء الله الى النار - الى قوله - فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم -

﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى - ومن آياته الليل والنهار - الى آخر السورة ، فذكر الشمس والقمر ومهجهما ومنافعهما ، وأن ذلك لا ينبغي أن يوقف الهمم عندهما عبادة وسجودا لأن الانسان لم يخلق في هذه الدنيا إلا للرقى ولالرقى اذا وقف عقله عند مصنوع أرضى كالأصنام أو مصنوع إلهى كالشمس والقمر ، فاذا وقف العقل عند أحدهما سواء أ كان صنما أم جرما مضيا باهرا كان ذلك المعبود حاجزا بينه وبين ارتقاء عقله ، وكيف يبحث عن الأجرام السماوية البديعة التي شمستنا بالنسبة لها صغيرة جدا ، كيف يبحث عنها اذا كان يرى أن الشمس أكبر وأعظم الأشياء لأنها معبودة والمعبود يفوق كل ماسواه ، فاذن تكون الشمس أعظم موجود ، فاذا عن لعالم فلكى أن هناك شمسا أكبر منها صدته الذين عن ذلك الاعتقاد ، فبالك اذا رأى أن هناك (١٠) آلاف مليون من الشمس أصبحت شمستنا بالنسبة لها كبرتقالة بالنسبة لبطيخة بل قلعة فضلا عن شمس لاتزال محجوبة عن الأنظار ، هذا هو مقصود الديانات ومقصود القرآن ومقصود العلوم ، إن الله قد أرسل ابراهيم الخليل فدك صرح عبادة الشمس والقمر والكواكب ، وتم هذا نبينا صلوات الله وسلامه عليه فانطلقت العقول بعد أن كانت محصورة أيام الصابئين في عبادة كواكب معلومة ، وحجرت العقول ومنعت من الاطلاع على عوالم لانهاية لها ، ثم أتبع ذلك بما يفيد : « انكم يا أهل الأرض لستم شيئا مذكورا بالنسبة

لعوالمنا الأخرى الروحية ، فإذا أبيت يا أهل الأرض أن تعبدوا ربكم ليتسع لكم المجال في رقي عقولكم لتخرجوا من العالم المادى ، فاعلموا أن هذه السموات والشموس والأقمار والنوابع ليست خالية من السكان ، إن هناك عوالم وهى الملائكة والملائكة صفوف وكلهم يعبدونى ، فإذا لم تبلغ صرانبكم هؤلاء فأنتم وشأنكم . فكم هناك من عوالم تسبح ربها عاكفة على السجود له والقيام بأمره ولا يسأمون بل عبادتهم بشوق وتوق وحب لاقترب نفوسهم من ذلك الجمال الأبهى كما ان الشمس والأرضين دارت طاقة بنوع الجاذبية ، وإذا ظننتم أن أرضكم الحقيمة الصغيرة قليلة الشأن هى التى حظيت بالعقول والعلوم وأن العالم كله محروم منها فكبروا أربعا على عقولكم وادفنوها فى الترى ، وكيف تظنون ذلك وأنتم ترون أن البحار التى زاد عمقها عن مائتى قامة وضوء الشمس محجوب عنها قد خلقنا فيها عوالم من سمك وسرطان وأعطيناها كل ما تحتاج اليه ، وأضأنا لها بضوء تصرفه على مقدار حاجتها وتطفئه متى شاءت ، وتوقده متى شاءت ، وتطارده فريستها بهدايته ، وتتخلص من عدوها متى شاءت ، فقطهر نورها الوهاج أمام عينيه كي تبهره ثم تختفي وهى أمامه ، فإذا فعلت ذلك فى قرار بحاركم الذى يصل الى ما يقرب من مائتى قامة ولا أذره يكون بلا حياة فهل أذرت الشمس العظيمة التى شمسكم بالنسبة لها لا تعد شيئا مذكورا فضلا عن أرضكم المحقورة الضعيفة التى خلقتكم فيها زمانا ما لأتقلكم الى عوالم أخرى تستأهلونها بما فطرتم عليه فى هذه الأرض من الأخلاق والأعمال أسمى بعضها بالجنان وبعضها بالنيران . كلا . فأنا لم أدع عالما حقيرا كأرضكم ولا عالما عظيما كالشمس العظيمة وتوابعها إلا أسكنت فيه عالما يليق به ، وكلما كان المسكون أرقى كان الساكن فيه أعلم وأعظم وأقرب الى ربه كما تقرب حاسة العين والسمع من العقل ، وتبعد عنه حاسة اللمس بعض البعد ، إن العين والسمع يعرفان القريب والبعيد ، واللمس لا يفتقه إلا القريب ، فأتم يا أهل الأرض أشبه بحاسة اللمس لأن علومكم مادية والعوالم الأخرى يقرب سكانها من ربهم لبعده نظرهم وكبر عقولهم وتشبههم بربهم ، وهذا ما يأتى من قوله تعالى - يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - . ثم ذكر أن الأرض اذا نزل عليها الماء اهتزت وزادت وتمزخرت بالنبات هكذا تحيا النفوس بالبعث كما تحيا الأرض بانزال المطر عليها . ثم ذكر أن هذا القرآن محفوظ لا يتطرق اليه الخلل تذكرة للام الأرضية الضعيفة لأنه نزل بحكمة وهى نعمة على الناس يستحق مسديها حمدهم له ، وأن الأمم المدعوة لهذا القرآن تقابله بما قابلت به الأمم السابقة أنبياءها لأن أهل الأرض منغمسون فى المادة ضفاف العقول غالبا أهتمهم الشهوات عن الحكمة لاقتربهم من عالم الحيوان والنبات ، فهذه جبة فيهم والله سبحانه سيجازى المسئى والمحسن منهم بما هو أهله من عقاب وثواب ، ثم إن هذا القرآن لو نزل بلغة غير العربية كما يقترح بعضهم لكان ذلك بدعا فيقال نبيّ عربىّ وقرآنه أعجمى فتقوم حجته عليه ويقولون فى آذاننا وقر كلا . بل الأمر واضح نبيّ عربىّ وقرآن عربىّ تسمعه أمة عربية وتنقله الى الأمم ثم تضيع لغتها وينتشر دينها وتقوم دول بها ، ولا يصح ذلك إلا اذا كان بلغة العرب ، ثم أبان أن أمر الساعة كأمر خروج الغمات من أكامها وكأمر وضع الحوامل ، فهذه الأجسام الأرضية الانسانية تحمل أرواحا تربي فى الأرض بالخير والشر وتمتحن بالنم والنقم والبلايا والرزايا وترسل لها الأنبياء ويخلق فيها العلماء فتفتح الأجسام عن أرواحها بالموت كما تفتح الأكام عن الزهر والكفرا عن الطلع والحامل عن الطفل . فالأجسام بالموت تتمخض كتمخض الحوامل وتبرز تلك الأرواح ظاهرة واضحة على حسب ما جبلت عليه كما يخرج الطفل حاملا مارورته من أبويه وذويه ودولته وأمه فى الدنيا فيعيش على ما كان عليه فى الرحم من تلك الموارد ويتلقى كمال علومه فى الحياة ، فإذا مات فقد تمخض جسمه عن روحه وأصبح فى عالم جديد يحمل صفات وآراء وأخلاق حتى اذا بعث برز هناك أمام الله والعالم بأخلاقه نفسه كما برز الطفل فى الحياة بما هو من جبلته . ثم قال وهذه الامور ليست بالطبع بل لا تحمل أتى ولا تضع إلا بعلمه هكذا لا يعمل عامل عملا ولا يحشر الى جنة أو نار إلا بعلمه

لأن هذا نظام له قانون لا يتعداه . ثم أخذ يذكر أخلاق أكثر النوع الانساني فوصفه بأنه لا يجب إلا الامور المادية ، فاذانقص منها شيء يثس مع انه خلق ليهدب ويربى ، واذا أنعم عليه بنعم كثيرة وغمر بها اغتر وظن أن ذلك أمر دائم وأن النعم الروحية والأخروية تابعة للنعم المادية الجسمية ، ثم بشرالله النوع الانساني لاسيا العالم الاسلامي قائلا : « أيها الناس : إني سأفتح لكم أبواب العلوم والمعارف والحكم ، وأبين لكم الحقائق ناصعة واضحة ، وأولا أفتح للمسلمين البلاد شرقا وغربا وهذه دلالة صادقة على النبوة المحمدية ، كيف لا وأن النبوة تستلزم إيجاد الأمم وتربيتها ، فدين يجمع أمة وتعيش أمدا طويلا وهو ثلاثة عشر قرنا ويضم من الشرق والغرب آلاف الآلاف ، إن ذلك لدليل على أنه من عند الله لاسيا اذا كان الذي نزل عليه ذلك الدين أميا لا يقرأ ولا يكتب وهو في أرض حقة لاصلة بينها وبين العلم . وثانيا ان هذا القرآن قد فتح للناس باب قراءة العلوم والمعارف فانتشرت الفكرة في العالم كله وجاءت الحروب الصليبية فاتعشت أوروبا وظهرت العجائب الكونية وظهر علم الأرواح وعلوم النفس وهذه معجزة للقرآن . فهنا معجزتان : معجزة فتح البلاد على أيدي المسلمين . ومعجزة ظهور العلوم في أوروبا التي أدهشت العقول وحيرت الأفكار . وقد ذكرنا كثيرا منها في هذا التفسير . فهذه العلوم هي نفسها آيات الله تعالى أظهرها الله كما أخبر القرآن . والعلوم المذكورة قسمان قسم في العلوم الطبيعية والفلكية وهي علوم الآفاق . وقسم في علم الأرواح وعلم النفس وهو علم الأنفس . وذلك كله معجزة للقرآن . والا فكيف يقول - سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - أوليس ذلك لنا نحن المسلمين الآن !

يقول الله - حتى يتبين لهم أنه الحق - . فليسمع المسلمون في أقطار الأرض كلام ربهم . هذا أوانه . يقول لكم : سأريكم آياتي في أنفسكم وفي الآفاق . أيها المسلمون : هذه الآيات قد ظهرت وبهرت . ظهرت شمس وبهرت العقول . ظهرت علوم الكيمياء . ظهرت عوالم بديعة غابت عن عقول الأمم الماضية . ظهر ذلك كله . ظهرت أسرار النفوس وعلوم الأرواح . كلمت الأرواح الأحياء . كلوهم بما جاء به القرآن . قالوا لهم « انتنا نعذب وننعم » . قالوا لهم : « انتنا نألم لكل ذنب اقترفناه » . قالوا لهم : « ان العلم والأخلاق الحميدة هما المسعدان لنا بعد الموت » . قالوا لهم ملخص ماجاء في القرآن

أيها المسلمون : هذا هو دينكم يأمركم أن تدرسوا كل علم وتقرأوا كل فنّ ويقول لكم الله إى عبادى قدفتحت لكم أبواب الجنات فى هذه الدنيا . فتحنها على مصارعها . انظروا تأملوا ما فيها من جمال . وأين هى الجنان ؟ هى العلوم التى أبرزها الله فى الأرض . إن الجنان نتائج العلوم والأخلاق . واليران نتائج الجهل والذنوب . يقول الله - سريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - ولقد أرانا الله ذلك . كان آباؤنا أشرف خلق الله فلكوا الأمم لاسعادها . ولما سكنت ريجهم وغابت شمسهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا فأذلتهم الأمم . وهذه أيضا من آيات الله التى أراها الله لنا . أرانا آيات فى آياتنا إذ أخضعوا الأمم . وأرانا آياته فى أنفسنا فى مصر والشام وسوريا والحجاز وفلسطين والعراق وبلاد المغرب وفى بلاد روسيا والهند وسائر أقطار الاسلام وفيما وراء البحار . خضعت أكثر هذه الأمم للفرنجية . أذاقها الله النكال . هذه من آيات الله تعالى لأنه هكذا أوعد الله الذين لا يفكرون . أظهر الله علوم الكائنات من شمس وأقمار وكواكب صغار ومعادن وحيوان ونبات وجمال أرضى ومعجائب حكمية وعلوم أرواح . كل هذا من آيات الله فى الأنفس والآفاق ثم أيد ذلك بأن الله شهيد على كل شئ فهو يحقق هذه الامور كما وعد وانه عالم بالأشياء كلها وقد تم ذلك كله فى هذا الزمان وسيزيد فى الازمان المستقبلية

إنى لأدهش أيها المسلمون حينأرى هذا كلام ربنا وأرى انه ديننا وأقول فى نفسى كيف يكون هذا دين أمة الاسلام والناس كلهم يرقون العلم أما هم فأنهم نأمون

عجا لآمة أصبحت أشبه بملك أصم أعمى تقام له المحافل وهو غافل وتضرب له المدافع وهو نائم وتنصب له الحفلات وهو في سبات أو كeros أقيم له الاحتفال ونشرت الزينات وأنشدت القصائد وهوتائه غافل لا يبى ما يقال ولا يدري

يا قوم : يقول ربنا - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - ويقول انه شهيد على كل شئ محقق للوعد والمسامون لا يعامون هذه الزخارف والزينات القائمة في الأرض والمجانب البارزة زفها الله اليكم ، استخرج الله منافع البر والبحر وكلم الأموات الأحياء . كل هذا أخبر به نبيكم ﷺ فكيف تقام هذه الزينات وتنصب لكم الحفلات وأتم في غفلات . نعم إن المسلمين اليوم أشبه بملك العباسيين في آخر أيامهم أو ببعض الممالك في الدولة المصرية إذ تقام لهم الحفلات باسمهم وتنصب لهم الزينات وهم مسجونون هذا ماجاش في نفسى عند تقسيم هذه السورة وهو كمتخصر لتفسيرها فلا بدأ في تفسير هذه الأقسام فأقول مستعينا بالله

### ﴿ القسم الأول في تفسير البسلة ﴾

هذه قد أخرجتها الى اللطائف وهى أول لطيفة من ست ، وذلك لأن فهم الرحمة هناك من حيث شمولها لما في السورة من الجباب يحتاج فيه الى معرفة ظواهر تفسيرها ولذلك أخرجتها

### ﴿ القسم الثانى من السورة ﴾

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم \* تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \*  
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا  
إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّنَا عَامِلُونَ \* قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ  
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ \*  
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَّمْنُونٍ \* قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ  
لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا  
فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ \* ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثَبَا  
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ \* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ  
أَمْرًا وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \*

## ﴿ التفسير اللفظي ﴾

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) هما حرفان وهما الحاء والميم وقد علمت أنهما في سورة غافر تشيران للحمد الذي اكتنفهما والنتيجة أنهما ترشدان الى اقتناص سائر العلوم ، هذا ملخص مامضى في هذا التفسير ، انما لكل سورة منزلة والمزية التي في هذه السورة غير التي مضت ، فانظر الى ما سألتيه عليك ، انظر كيف يذكر الله الحاء والميم المذكورين في قوله تعالى - تنزيل من الرحمن الرحيم - فالحاء والميم في كل من الاسمين ، وكيف يقول - نزلا من غفور رحيم - ، وكيف يقول - تنزيل من حكيم حميد - فالحاء والميم في الحمد والحكمة والرحمة المذكورات في هذه السورة ، ولا جرم أن الحمد أعم هذه المعاني لأنه لا يكون إلا على نعم ولا نعم يحمد عليها إلا إذا عرفت ، ومتى عرف الانسان أن الله رحيم ورحمته شملت العوالم العالوية والسفلية رحمة مصحوبة بالحكمة لا كرحمة الأمهات بل هي كرحمة الآباء مصحوبة بشدة للتوازن والمحافظة عليها . متى عرف ذلك حمد الله فإنه يرجع الأمر الى التنبيه على العلم لاسيما أن الحاء والميم في الحمد قد جا آ في أول الكلمة متالين فأما في الحكمة والرحمة فليس كذلك فرجعت هذه السورة كالتى قبلها مع تفصيل في هذه . ألا ترى كيف ذكر بدء الخلق وانه نظم السموات والأرض وأودع فيها الأقوات والأرزاق وأعطى كل شئ خلقه وانه أمر الأرض والكواكب بالاتباع اليه فأتت له طاعة بطريق الجاذبية لا بطريق القسر والقهر وهذا الدوران مبنى على الحكمة والنظام الجميب . وكيف زين السقف الذى فوقنا بمصابيح مضيئة مشرقة بهجة تسر الناظرين فبينما الانسان ينظر فى حقله فيرى أزهارا وأنوارا وجالا وبهجة وماء اظيفا شفافا تظهر فيه الوجوه والطيور تحوم حوله ويرى أنعاما وأشجارا وأنواعا شتى من الثمار فى الأرض اذا هو ينظر فوقه فيرى سقفا مرفوعا مزينا بالصور الجيلة والقناديل المعلقة والرسوم البارزة والوجوه الباسمة والأوضاع المشوقة والبهجات الشارحة للصدور المنعشة للقلوب المزينة الغيوم المذكورة بالأحباب المبعدة للنصب المزينة للغوب المناجحة لذوى العقول الشريفة الملهمة لهم الجمال السارة المفكرين المذكورة برب العالمين المصفرة لحياتنا الحيوانية المعظمة للحياة الملكية الخاصة بالكبراء المنوعة عن الجهلاء المحجوبة عن ذوى الكبرياء تبرقت عن الأغيار وظهرت للأخيار وازينت وابتهجت وأبهجت . ذلك من الرحمة التى ذكرها فى قوله - الرحمن الرحيم -

ثم انظر الى الحكمة التى بينها فى السورة . الأتراب بين أن قرناء السوء يوسوسون الى أمثالهم وقد زين لهم ووسوستهم كما زين السماء لأصحاب العقول الكبيرة . ثم تراه يجعل الملائكة ملهين للنفوس الشريفة فى الأرض كما يبشرونهم عند الموت وعند البعث ويسلمون عليهم . أليس ذلك للحكمة . فبدء الخلق رحمة . ووسوسة النفوس الشيطانية الى النفوس الشهوية وإلهام النفوس الملكية الى النفوس الفاضلة فى الأرض من آثار الحكمة . ذلك أن الحكمة تقتضى أن يقرن الشبيه بما يشبهه . فالشياطين توحى الى أمثالها من الناس والملائكة تلهم من يقرب لها فى الخصال ليلحقوا بهم بعد موتهم . ثم أفاد أن الملائكة يعرفون ربهم أكثر من أهل الأرض فكأنهم شموس تتبعها أرضون ، فاذا رأينا شمسا قد تبعها السيارات والأرض وتوابعها ونحوها هكذا تلك الأرواح الكبيرة تتبعها أرواح صغيرة فى أرضنا وغيرها فكأنها تدور حولها كما تدور أرضنا حول شمسنا ، وكما أن أرضنا تستمد من الشمس النور هكذا الأرواح الصغيرة فى عالمنا تستمد العلم من أرواح فوقها أعلى منها بالاهام أو الالتقاء فى الروع وهذا هو المقصود من قوله - فالذين عند ربك

يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - وانهم يتزلون على أهل الأرض يقولون لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا . كل ذلك من الحكمة . ومن الرحمة أن الأرض تخرج النبات فينتفع به أهل الأرض . ومن الحكمة أن ينزل القرآن باللغة العربية لمناسبة المرسل اليهم الذين هم أقرب اليه . ومن الحكمة مناسبة خروج الثمرات من الأكام ووضع الاناث لقيام الساعة فكلاهما تتأخر وتمت لمقدمات

وبعد أن ذكر آثار الرحمة وآثار الحكمة وان كان كل منهما مصاحبا للآخر ختم السورة بما يوجب الحمد وهو انه يرينا آياته في الأنفس والآفاق . واذا ارانا آياته فعناه انه يظهر العلوم والأسرار كما ظهر لك منه كثير في تفسير هذه السورة وغيرها وبالعلم وانكشاف الحقائق يكون الحمد فرجع الأمر كله الى معنى (حم) فقوله حم إشارة الى الحمد والحمد لا يكون إلا بمعرفة النعمة والنعمة المذكورة في السورة منها ما غلبت فيها الرحمة وهي بدء الخلق وانبات النبات . ومنها ما ظهرت فيه الحكمة وهي وسوسة الشياطين لأمثالها والهلام الملائكة لتلاميذها واتباعها ونظام الأمر كله انه يرينا الآيات وهذا سبب في الحمد . حقا ان هذه السورة روضات الجنات إن من يقرأ هذه السورة يرى ألفاظها متشابهة ومعانيها متشابهة وكأنه لا يرى شيئا جديدا فاذا أمعن النظر انفتحت له خزائن العلم والحكمة كما يحصل عند ما يسمع الانسان قوما يتكلمون بلغة لا يفقهها فانه يرى أن الألفاظ متشابهة ولا يفهمها إلا ببحثها وكما يشاهد جيشا عمر مرما من بعيد فانه يراه شيئا واحدا لا اختلاف فيه وكما اقترب ظهر له تفصيله . وكما يرى الشمس والقمر وهو على الأرض فانه يرى جسمين صغيرين فاذا ارتقى بالعلم في الدنيا أو بعروج روحه الى السماء وكان من أهل ذلك هاله عظمتها . هكذا هذا القرآن نرى اننا كلما توغلنا فيه ظهرت لنا علوم جديدة تبرز في ثناياها

هذا ما استبان في معنى حم فالعلم والميم يعبران عن الحمد والحمد يستلزم العلم . والمسلمون اليوم مخاطبون وهم الآن أقرب الى العلوم من كل زمان لأن الله أراهم الآيات في أسلافهم وفيهم وفي الآفاق من العلوم والمعارف . فاذا قصر مسلم بعد ما بيناه فان الله عز وجل يخسف به وبأمثاله الأرض وذلك بالنلة والهوان ثم الانقراض وهذا أمر لاشك فيه وأصبحت موقفا به كل الايقان . وقوله (تنزيل من الرحمن الرحيم) أي هذا تنزيل ممن عمت رحمته عظمت الامور ودقيقاتها في أكناف السموات وآفاق الأرضين . وقوله (كتاب) خبر بعد خبر م وصفه بأنه فصلت آياته في معان مختلفة من عجائب خلق وابداع صنع واحكام نظم وانزال الغيث وانزال وحى أو الهام واضاءة سقف مرفوع وتبيان الحقائق واخبار بمستقبل العلوم ووعظ واحكام وأمثال ووهده ووعيد وبهجة للناظرين وهذا قوله (فصلت آياته) أمدح (قرآنا) موصوفا بوصفين : الأول كونه عربيا . الثاني كونه (لقوم يعلمون) ووصفه بأنه عربي من الاشارات الجيبة فان اللغة العربية اليوم لا تخلو وحفل من محافل العالم شرقا وغربا من ذكرها والترحم بحماسها والقيام بشأنها ومعرفة تاريخها وتاريخ دينها والبحث والتنقيب عن أسرارها وآثار أهلها كما تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ وأنت ترى المستشرقين في العالم الغربي مولعون بهذه اللغة ولولا القرآن لم يكن لها هذا الشأن . لقد اشتهرت الأمة العربية وما شهرتها إلا بالقرآن . لقد اشتهرت الأمة العربية وأصبحت لها صيت عظيم ومجد كبير مع اننا اليوم تحت قهر الأمم ولكن القرآن العربي جلال لنا وزينة . يدعوننا الى الرقي والسلام . أليس من العجب أن يخبرني أكبر طابع للكتب في مصر وهو الذي تهدي بطبع هذا الكتاب أن تفسير الطبري لما طبعه لم يقدم على الاكتاب فيه من مصر المسامة إلا ثمانية عشر رجلا ، ولكن ألمانيا النصرانية قد اشترك منها ثلاثون فيه ، ومن عجب أن أول ما طبع المصحف في العالم طبع في ألمانيا وهذا سرّ قوله تعالى - عربيا - مشيرا الى صيت العرب وذكورهم بهذا القرآن حتى طبعوا كتبهم ودينهم في مطابعهم !

فيا ليت شعري اذا كان هذا شأن اللغة العربية عندهم وهم مسيحيون فما بالك لو كانوا مسلمين ! هذا

كله سرّ قوله تعالى - قرآنا عربيا لقوم يعلمون -

إن أوروبا اليوم فيها خول العلماء ، ولقد شاهدناهم وكاتبناهم فوجدناهم يدرسون اللغة العربية دراسة تامة ويعرفون أسرارها أكثر من كثير من المسلمين ، ذلك كله أشار له القرآن بقوله - عربيا - والافعلوم أن القرآن عربي

### ﴿ حكاية ﴾

كان أحد الملوك الاسلاميين وهو في سفره له سمير يحادثه ويلقى عليه الملح والنوادر والفكاهات وكان لا يتكلم معه إلا بحكمة ، فينما هما سائران إذ لمحا بناء . فقال له ما هذا البناء ؟ فقال هذا بيت عاتكة الذي قال فيه الشاعر :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل \* حذر العدا وبه الفؤاد موكل

ولما كان من عادة الخليفة أن لا يسمع من هذا السمير إلا ماله حكمة قال في نفسه . يا عجبا : لم قال هذا البيت ؟ إن الجواب يكفي فيه أن يقال بيت عاتكة فلم ذكر المسبب فسأل خواصه وندماءه هل هناك شيء يلاحظ بالنسبة لهذا السمير ؟ فقالوا نعم انك وعدته وعدا فلم تنجزه فقطن الى أنه يشير الى قول الشاعر :

ولأنت تفرى ماتقول وبعضهم \* ملق اللسان يقول مالا يفعل

فأعطاء كل ما كان وعده به وأجازه لحسن أدبه

فما يشير له لفظ - عربيا - أن القرآن سيصير شرفا للعرب ولو في أيام محنتهم . إن أبناء العرب اليوم أصبحوا أضعف من آباءهم في الجاهلية من حيث السياسة ولكن شرف القرآن ألقى عليهم شعاعا وبارقة أمل نسمعا أيام هذا التفسير وسيكون لهم مجد لأنهم الآن أخذوا ينفضون غبار الكسل والذل عنهم وهم مجدّون وفي آية أخرى - وانه لذكرك ولقومك وسوف تسألون -

يشير الله الى أن القرآن شرف للعرب وللنبي ﷺ والى أننا مسؤولون عنه لأننا أرباب اللغة . إن ذلك توييح لنا في العصر الحاضر . يقول الله اذا كنتم اتم أبناء العرب فكيف تهربون من مجدكم ؟ كيف يقوم أبناء الألمان المستشرقين الذين لا يبلغون ثلاثمائة فيقرءون تفسيره الكبير وهو تفسير الطبري المذكور . وأتم يا أبناء العرب تعرضون عنه . يقول الله القرآن عربي فأتتم يا أبناء مصر والشام والعراق والحجاز عرب فإليك نشره . واذا كان أبناء أوروبا الذين هم ليسوا مسلمين يطبعونه وينشرونه أفلمستم أولى به ؟

وقد أخبرني السيد مصطفى الباني الحلبي الذي طبع ذلك الكتاب . قائلا : طبعت التفسير المذكور فلما أرسلته الى ألمانيا لم يجهم فهرست فوضعوا له هم فهرستا آخر من عندهم . وأخبرني أخبارا كثيرة من هذا القبيل

لقد اطلعت على عجائب في أيام حياتي . ذلك أتى وجدت كثيرا من عظماء أمتي يحقرون الدين والعرب وكل شيء منسوب لآبائهم . لماذا ؟ لأنهم ظنوا جهالة أن الدين واللغة والانتساب للعرب هو الذي جعل الفرنجة يدخلون بلادنا . وظن بعضهم انهم باحتقارهم عاداتهم وتقاليدهم وانهم يندمجون في الأجانب الذين دخلوا بلادهم يرتقون ولكن تغيرت الأيام وظهر في الشرق وفي مصر رجال غيروا الرأي وأخذت العقول تنشط ولكن الى الآن لم تصل الى درجة الارتقاء التي يفيدها قوله تعالى - قرآنا عربيا - فان صبغتنا العربية الآن محجوبة وهي تظهر قليلا قليلا وسيكون لها الشأن الأكبر قريبا كما قلت مرارا في هذا التفسير . إن التعبير بلفظ - قرآنا عربيا - يفيد بقاء اللغة العربية أجيالا وأجيالا لأن القرآن حافظ لشكل اللغة ملزم لجميع الأمم العربية وغير العربية المختصة بدراسة الأمم العربية أن تقرأ النحو والصرف وما أشبههما وذلك الشكل يبقى مابق القرآن

والقرآن باقى الى آخر الزمان وهذا الموضوع مذکور فى أول سورة آل عمران وهناك ملخص رواية منقولة عن أحد الألمان ملخصها أن اللغة العربية هى التى تبقى بارزة الى آخر الزمان وهى التى تحفظ العلوم لأن جميع اللغات بعد مئات السنين تتغير تغيرا كبيرا واللغة العربية تبقى لأن القرآن يحتم أن تبقى هذه اللغة على حالها بخلاف لغات العالم كلها فهى فى تغير مستمر كما هو معلوم فى علوم اللغات . وقوله (بشيرا ونذيرا) أى للعاملين به والمخالفين له (فأعرض أكثرهم) لأنه لم يتدبره (فهم لا يسمعون) سماع تأمل (وقالوا قلوبنا فى أكنة) فى أغطية جمع كنان (بما تدعوننا اليه وفى آذاننا وقر) الوقر أصله الثقل (ومن بيننا وبينك حجاب) يمنعنا من التواصل (فاعمل) على دينك (إننا عاملون) على ديننا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد) لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقى عنه ولست أدعوكم بلغة غير لغتكم فإذا يصدكم عن الفهم فتقولون قلوبنا فى أغطية وآذاننا فيها ثقل وتعرضون هذا الاعراض (فاستقيموا اليه) الى الله (واستغفروه) مما أتم عليه (وويل للمشركين) من فرط جهالتهم (الذين لا يؤتون الزكاة) لبلخلمهم وقلة رأفتهم على الخلق (وهم بالآخرة هم كافرون) لاستغراقهم فى طلب الدنيا فلا علم لهم بالآخرة فيرعون عن الانهماك فى المال فيعطونه للفقراء ولاشفقة تدفعهم الى الاحسان اليهم ، ثم ذكر أصدادهم فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى غير ممنون به عليهم أو غير مقطوع

### ﴿ ذكر بدء الخلق ﴾

قال تعالى (قل) يا محمد (أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) فى نوبتين (وتجعلون له أندادا) أى ولا يصح أن يكون له ند (ذلك) الذى خلق الأرض فى نوبتين : نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ومرة جعلها (٢٦) طبقة فى ستة أدوار ظاهرة فى علوم طبقات الأرض ، فجمودها نوبة ونظام طبقاتها نوبة (رب العالمين) لا ربها وحدها فهو مربي كل عالم ، فلئن رباها فى نوبتين فقد ربي غيرها فى نوبتين أو أكثر (وجعل فيها رواسي) جبالا ثوابت (من فوقها) مرتفعة عليها لتكون أساسها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية التى تقدم الكلام عليها فى علم طبقات الأرض فى ﴿ سورة هود ﴾ وغيرها بمثابة حصن حصين فوق الكرة النارية التى هى عبارة عن الأرض كلها ، وهذه الطبقة التى هى أول ما تكون فوق الكرة النارية هى التى برزت منها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ضاربة فى جميع الطبقات واصله الى أول طبقة وهى الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقر عليها ، فهذه الطبقة أشبه بنظام الأجسام الحيوانية تكون حافظة للمائعات الداخلة من الطعام والشراب والدم والشحم وما أشبه ذلك ويسترها اللحم والظفر والشعر والعروق والشرابين والأوردة والشحم وغيرها ، هكذا كرة النار التى هى عبارة عن أرضنا غطيت بالطبقة الصوانية وفوقها طبقات أطف منها تكوّنت فيها الحيوانات والنباتات على مدى الزمان كما يكون على أجسامنا وأجسام الحيوان الشعر والوبر والصوف ، فأما هذه الجبال فما هى إلا نتوءات تتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات الآلاف من الكيلومترات ثم ارتفعت فوق الأرض وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحبسا للسحاب والهواء حتى تحفظه ولذلك عطف عليه قوله (وبارك فيها) أى وأكثر خيرها وذلك بالأنهار المتسدته من الجبال المذكورة الحافظة من حيث أصلها للأرض أن تتبدد الخازنة لمائها ومعادنها كالذهب والنحاس والحديد (وقتر فيها أقواتها) أقوات أهلها . كل ذلك حصل فى نوبتين فيكون خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها وأكثر خيرها وتقدير أقواتها من أنواع الحيوان والنبات كل ذلك (فى أربعة أيام) فهذا كالفدلكة لما تقدم استوى (سواء) استواء (للسائلين) أى الذين يسألون الأقوات وهو كل حيوان على وجه الأرض قال تعالى - يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى

شأن - فالتناس والحيوان كلهم ساتلون ربهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس ودواء وذلك السؤال طبيعي فيهم مفروس في جبلتهم ، يسأل الحيوان كالفحمة والنحلة والنحلة والشاة والذئب الرب كما يسأله الانسان سواء بسواء ، فالنحلة تطلب قوتها فتجده والنحلة والضكبوت والخنزير والكلب والشاة والذئب ، تطلب الشاة الطعام فتجد الكلاب ، ويطلب الذئب الطعام من ربه فيجد الشاة ، فقد أجاب السكل وكل يحبه ، وقد ألقى بينهم العداوة والبغضاء لیسوم الارتقاء للآكل والمأكول ، فالغزاة تهرب من الذئب فتعطي قوة ونشاطا لولا الخوف ما كانا وذلك يقويها ويرقيها ، والذئب يجوع وقد حرم عليه أن يأكل الحشائش فهو مضطرب أن يأكل الغزاة وهو هو الخفيف المزعج لها ( وعبارة أخرى ) هو المقوى لعضلاتها لازعاجه إياها بصوته وحلاته فيغير على القطيع العظيم فيأخذ منه غزاة واحدة أو شاة واحدة ، ذلك أجرا لفعله لأنه كأستاذ يعلمهم علم القوة وتربية العضلات والحذر ويقوى القوى الخيالية ، وينال مكافأة على ذلك شاة واحدة من قطع يبلغ المئات من الشياه وربما يأخذ الضعيف الهزيل منها لضعفه عن الجري أولتاخره وما تأخر إلا لضعفه ويرجع الجو من التعفن بتلك الجثث التي تقع فيه من الحيوانات ، فهذا من معنى قوله تعالى هنا - سواء للساكنين -

ثم إن الانسان يهتم بحال ماحوله من الأرض فلذلك قدم ذكرها وبين انها هي وما عليها قد كوتها في أربع نوبات : فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فيها معادنها ، والمرتان الأخریان إحداهما للنبات ، والثانية لعموم الحيوان ، ولما فرغ من الكلام عليها أخذ سبحانه يذكر السماء على سبيل الترتيب الذكري أى ان الأرض أولا في الذكر (ثم استوى الى السماء) أى قصد نحوها يقال استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه (وهي دخان) أى مادة غازية نارية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو السديم وتسمى اليوم في العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لاتزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية في غير هذا المكان ، ورأوا أن من تلك العوالم ماهو في أول تكوونه ، ومنها ما قطع مراحل في تكوينه ، ومنها ما قارب التمام وهي عوالم كعالمنا الشمسي الذي نحن فيه ، وسيبرز للوجود كبرزت شمسا وسياراتها وأرضها وكانت في الأصل دخانا وستستمر في التكوين ومدتها نوبتان ، ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من اجل العمامة وفائدته أن التكوين لم يكن في لحظة واحدة لثلا يتطرق الى العقول انه كان كذلك في الأصل بل يريد انه جار على الحكمة والنظام وقد كوّن في غير نوبة وكفى هذا في كتاب مقدس كالقرآن يقول انه خلق الأرض في نوبتين وما عليها كذلك والسموات السبع كذلك . فهذه العوالم كلها التي شوهدت بالمناظير المعظمة ستبرز للوجود في نوبتين بشوئها القشيب كما برزت أرضنا وكوتت شمسا في نوبتين إذ قصد الله اليها والى كل شمس من الشموس التي كشفت والتي لم تكشف وهي تعد بنحو خمسمائة مليون ، بل قدرها بعض الفلكيين في هذه السنة بما يبلغ ألفي مليون ويقولون هذا قطرة من بحر العوالم المجهولة ، فهذه كانت عالما دخانيا فدورها وكورها فدارت آلاف آلاف من السنين ، ثم خرجت منها الأرضون والسيارات كما خرجت أرضنا وسياراتنا من شمسا أثناء دوراتها ثم برزت الأراضي التي قترت على الأقل بنحو ثلثمائة ألف ألف أرض أى ان تلك الأراضي الدائرة حول الشمس وحول نفسها بردت قبل شمسها (فقال الله لها) أى لتلك العوالم السماوية (وللأرض) أى جنس الأرض التي دارت حولها وهي مئات الملايين (اتيا طوعا أو كرها) شئنا أم أبيتنا (قالتا) أى السموات والأرضون (أيتنا طاعتين) وهذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية فهي حركة أشبه بحركة المشوق فهي تجري جري طاعة لاجرى قسر ، والدليل المشاهد على ذلك اننا نرى الحجرالى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل الى الأرض بطريق الجاذبية ، فهو مجذوب الى الجسم الذي هو أكبر منه . هكذا

الأرض مجذوبة الى الشمس التي هي أصلها وهي حركة دورية بالطوع لا بالقسر لأن الحركة القسرية كرمي الحجر الى أعلى وهي سريعة الزوال . أما حركة الطاعة فهي الدائمة مادام المطيع متخلقا بخلقه الذي هو عليه (ففضاهن سبع سموات في يومين) أي نوبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة كما تقدم في خلق الأرضين ومن هذا يفهم كيف قال - فقال لها وللأرض - الخ ، ذلك للدلالة على أن حركة الاثنيان منهما مصطحبة فينما ترى الأرض دائرة حول نفسها وحول الشمس ترى الشمس دائرة حول نفسها وحول شمس أكبر آلاف الآلاف منها ، فهذا هو السبب في ذكرهما معا أي انه قال لهما معا وأجاباه معا وحقيقة الأمر كذلك لأن الأرض لما كانت من ضمن الشمس كانت دائرة من جملة أجزائها ، فالقول كان لهما معا وهو الآن لهما معا ، وانما قدم الأرض في الذكر على السماء للسبب المتقدم أولا ولأنها تم تكوينا بعد البرودة . وأما أكثر الشمس فلا يزال هناك زمن طويل حتى تبرد وتصبح أرضين (وأوحى في كل سماء أمرها) شأنها وما يتأني حملها عليه اختيارا . ثم ذكر ما هو أهم لنا فقال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) فان هذا العالم الذي نشاهده وهو أقرب اليها الذي نراه مرصعا بالنجوم هو الذي نسميه السماء الدنيا ، ولو اننا ارتفعنا الى بعض عوالمه لرأينا سماء أخرى بكواكب غير هذه وهكذا الى آخرها ، فهو سبحانه يقول انه زين سماءنا الدنيا بهذه المصابيح المتلألئة المتوهجة ، ثم يقول (وحفظناها (حفظا) من الآفات ومن أن يدرك سرها من لا يتأهلون لمعرفةا (ذلك تقدير العزيز العليم) البالغ في القدرة والعلم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة

### ﴿ لطيفة في قوله تعالى - وقدر فيها أوقاتها - ﴾

اعلم أن الله لما خلق الانسان قدر أوقاته متفرقة ، وأحوج كلا الى كل بحيث نرى من يسكن بلاد آسيا يحتاجون الى أهل افريقيا ، وأهل افريقيا يحتاجون الى أهل آسيا ، وهذه الترية يراد بها التواصل طوعا أو كرها ، فتجد القطن بمصر وبأمريكا وكل الأمم في حاجة اليه . وترى النخل لا يكون إلا بالبلاد الحارة . وليس للبلاد الباردة فيه من نصيب . وترى النارجيل في الأقطار التي هي أشد حرارة . والبندق في البلاد الباردة . وهكذا جعل لكل قطر خاصية . وأحوج الأمم الأخرى كل منها الى بقية الأمم . وكلما ارتقت الأمم ازدادت الحاجات . وهذا في الحقيقة داعية الى التواصل والتحاب طوعا أو كرها . فتارة يتاجر بعضهم مع بعض وآرنة يتصلون بالسيارات . وطورا بالكتب والمراسلات . ووقتا بالبعثات العلمية . وساعة بالحرب والقتال وهكذا كل ذلك دلالة عملية أن هذا الانسان تقدير قوته يدغوه الى التواصل والتحاب . وذلك يدعوحثنا الى العلم فان تقدير الأوقات لما بحثناه وجدناه يدعو الى البحث عنه . ولا بحث إلا بعلم . فأمة الاسلام أصبحت ملزمة بانساع العلوم في كل آية من كتاب الله والا فكيف يقول - وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام سواء للسائلين - وقد تقدم بقية الكلام اه

### ﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ \* إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ \* فَمَا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ \* فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقِهِمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ  
الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ \* وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ  
فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* وَبَجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ \*

### ﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (فان أعرضوا) عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل أنذرتكم صاعقة) عذابا شديدا وقع  
كأنه صاعقة والصاعقة رعد معه نار (مثل صاعقة عاد وثمود \* إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم)  
أي أتوهم من كل جانب وعمدوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا الاعراض . أو أنذروهم وقائع الله فيمن قبلهم  
من الأمم وعذاب الآخرة . وقوله (أن) هي تفسيرية بمعنى أي (لا تعبدوا إلا الله قالوا) أي القوم (لوشاء  
ربنا لأنزل ملائكة) أي لوشاء ربنا إرسال رسل لأنزل ملائكة . وإذا كنتم أتمم بشرا ولستم ملائكة (فانا  
بما أرسلتم به كفرون) لأنكم لستم على ما شرطناه وهو أن يكون الرسول ملكا فرسالتكم لا تؤمن بها (فأما  
عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق) أي فتعظموها فيها على أهلها بما لا يستحقون فوليتكم عليها بلا استحقاق  
(وقالوا من أشد منا قوة) اغترارا بقوتهم وشوكتهم (أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) قدرة  
(وكانوا باياتنا يمحضون) يعرفون أنها حق وينكرونها (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة تهلك بشدة  
بردها (في أيام نحسات) جمع نحسة أي نكدات مشؤمات (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) أي  
عذاب الذل فيها والهوان في مقابلة استكبارهم في الأرض (ولعذاب الآخرة أخزى) أشد خزيا وهو اسناد  
مجازي للبالغة (وهم لا ينصرون) لا يدفع العذاب عنهم (وأما ثمود فهديناهم) فدللتناهم على الحق (فاستحبوا  
العمى على الهدى) فاختروا الضلالة على الهدى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أي ذى الهوان (بما  
كانوا يكسبون) من اختيارهم الشرك (وبجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والمعاصي وهم صالح  
والمؤمنون . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة

### ﴿ لطيفة في قوله تعالى - فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة - الخ ﴾

جاء في بعض الروايات أن قريشا اجتمع ملاً منهم وقالوا اتمسوا لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر  
فليكم محمدا وليأتنا لعرف ما الذي جاء به فقال عتبة بن ربيعة أنا لها ، فلما دخل على النبي ﷺ قال له  
أنت خير أم هاشم وعدد أباه وقال : كيف تشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا ، ثم عرض عليه المال والنساء والسيادة  
وأن يكف عن ذلك ، كل ذلك والنبي ﷺ ساكت ، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ حم \* تنزِيل  
من الرحمن الرحيم ، الى قوله « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة » فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم  
ثم رجع واحتبس ولم يخرج ، فذهب اليه أبو جهل في جماعة واتهمه بالحاجة للمال من النبي ﷺ لأنه صبا  
اليه فغضب من ذلك عتبة وحلف لا يكلم النبي ﷺ ولكنه قال أقول الحق ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر  
وقص عليهم ماجرى وما سمع وقال اني خفت أن ينزل بك العذاب

وفي رواية أخرى انه وصل الى السجدة فسجد ثم قال أسمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك فقام عتبة الى آخر  
ما تقدم وقال يامعشر قريش خالوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت  
منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وأن يظهر على العرب فلكم ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد  
الناس به فاستهزؤا به ساحرين

## ﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَقَالُوا لَوْلَا جَلُدُنَا مِن لَّدُنَّا لَمَ كُنَّا شَهِدِينَ \* عَلَيْنَا مَا كُنَّا نَعْتَقُ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ \* وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ \* فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ \* وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُمْ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّفْوُ فِيهِ لَعْنَتُكُمْ تَقْلِبُونَ \* فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ \* ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ \* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَحْمِلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ \* إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ \* نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ \* تَرْوَاهُ مِنَ غُفُورٍ رَحِيمٍ \* وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ \* وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \*

## ﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار) أي اذكري يوم يجمعون (فهم يوزعون) يساقون ويدفعون أو يجلس أولهم حتى يلحق آخرهم لكثرتهم (حتى اذا جاءوها) اذا حضروها (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) وذلك بلسان المقال أو بلسان الحال الخاصة التي لا توجد في غيرها

من الممكنات فتكون فيها علامات وشواهد دالة على أخلاقها وأعمالها وآرائها ، وذلك عبارة عن سوائل روحية متباينة كل سائل يدل على خلق من الأخلاق لا يحجب واحد منها الآخر كما يكون في أنواع النبات والشجر وأصناف مختلفة ، وكما يكون في الهواء أنواع الأصوات والروائح ، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة . وتلك السوائل الروحية ملازمة لأربابها مضايقة لهم مشقية أو منعمة لهم مفرحة . وتختلف الناس بتلك السمات اختلافهم في الدنيا بالألوان والأشكال والأصوات وخطوط اليد وخطوط الابهام بحيث لا يشابه أحد غيره ، هكذا الأجسام الروحية بعد الموت تكون على هذا المنوال لا تشبه نفس نفسا أخرى في أوصافها ، فهذه هي الشهادة التي تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وههنا يبدو التجبب منهم قولاً أو حالاً وهو المعبر عنه بالسؤال والجواب وهما (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) سؤال توبيخ (قالوا أنطقنا الله) نطقاً لفظياً أو فعلياً وانحما أوضح من النطق اللفظي (الذي أنطق كل شيء) فكل شيء يدل بلسان حاله دلالة أفصح من الدلالة اللفظية . انظر هذا المقام في سورة النساء فانك ترى الكشف الحديث مجزة للقرآن . ثم قال تعالى (وهو خلقكم أول مرة) وفيكم دلائل واضحة تخطوط اليد والابهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها وظهور آثار الأخلاق على الوجوه ، كل ذلك كان في خلقكم أول مرة ، وقليل من الناس من يفتن له (واليه ترجعون) وتلك العلامات أصبحت أشد ظهوراً عند رجوعكم إليه ، ولقد كنتم في الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار عند ارتكاب الذنوب وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثري الذي هو على صورة الجسم الظاهري قد سطرت فيه جميع أعمالكم كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب ، وهذا قوله (وما كنتم تستترون) خيفة (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) لأنكم لم تكونوا عالمين بشهادتها عليكم (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) أي ولكنكم اجترأتم على ما فعلتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون وهو الخفيات من أعمالكم (وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم) مبتدأ وخبر ، وقوله (أرداكم) أي أهلكم خبر ثان (فأصبحتم من الخاسرين) إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء به (فان يصبروا فالنار منوى لهم) لا خلاص لهم منها (وان يستعجبوا فاهم من المعتبين) أي وان يسترضوا فاهم من المرضين ، أو يقال وان يسألوا العتي وهي الرجوع إلى ما يحبون فاهم من المجابين إليها (وقيضنا لهم) وقدرنا للكفرة (قرناء) اخواناً من الشياطين (فزينوا لهم ما بين أيديهم) من أمر الدنيا وشهواتها (وما خلفهم) من انكار الآخرة (وحق عليهم القول) كلمة العذاب حال كونهم (في أم) في جملة أم (قد خلت من قبلهم من الجن والانس) وقد عملوا مثل عملهم (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لذلك والضير لهم وللأم (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والفظوا فيه واللغظ كثرة الأصوات فكان يوصى بعضهم بعضاً بكثارة الكلام وهو يقرأ حتى يختلط عليهم ما يقول (لعلكم تغلبون) محمداً على قراءته (فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً) وهم هؤلاء القائلون (ولنجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون) أي بأسوأ (ذلك) أي الأسوأ (جزاء أعداء الله) مبتدأ وخبر هي (النار لهم فيها دار الخلد) يقيمون فيها (جزاء بما كانوا بآياتنا يمجحدون) ينكرون الحق (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس) وهما نوعاً شياطين الانس والجن (نجعلهما تحت أقدامنا) نجعلهما في الدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) مكاناً وذللاً انتقاماً ، ولما أنهى الكلام على قرناء السوء وانهم بعد المودة في الدنيا يكونون أعداء في الآخرة أعقبه بالقرناء الطاهرين الخيرين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله) اعترافاً بربوبيته (ثم استقاموا) في العمل مع الثبات على الإيمان والاخلاص (تنزل عليهم الملائكة) عند الموت وعند الخروج من القبر ، ثم فسر ذلك فقال (أن) بمعنى أي (لا تخافوا) مما تقدمون عليه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم في الدنيا من أهل وولد فانا نخلفكم في ذلك

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) في الدنيا على لسان الرسل (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) أي أنصاركم وأجباؤكم نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بخلاف الشياطين كما تقدم (وفي الآخرة) بالشفاعة والكرامة أما الشياطين فانهم يكونون أعداء الكفار (ولكم فيها) في الآخرة (ما تشتهي أنفسكم) من اللذات والكرامات (ولكم فيها ما تدعون) أي تمنونه حال كونه (نزلا) رزق النزيل وهو الضيف (من غفور رحيم) \* قال العلماء : وإذا كان هذا كله نزلا وهو ما يقدم للضيف فما بالك بما بعده ، وأقول : إن اللذات البدنية مهما طال أمدها لا تنفي النفس الانسانية ولا أماني للنفس إلا العالم الروحاني ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أن تصل الى لقاء الله تعالى وترقى فوق طبقات أهل الجنة وهو المشار اليه بقوله تعالى - ولدينا مزيد - وقوله - وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - فكأن الصالحين يكونون في الجنة أمدا على مقدار استعداداتهم ثم يرحونها الى ما هو أعلى منها وهو العالم الأعلى المسمى بعليين كما ورد « أريت الجنة فإذا أكثر أهلها البله وعليون لأولى الأبواب » وفسر الامام الغزالي البله بمن ليس لهم فكر في حب الله تعالى ، فهؤلاء يقفون عند الثواب الجسمي وليس عندهم شوق الى الامور الالهية ، فهؤلاء هم الصالحون الذين يصلون ويصومون لأجل لذات جسمية في الآخرة فينالونها ، ولكن هناك من هم أرقى منهم وهم عشاق العلم في الدنيا أي نظام هذه الدنيا وعجائبها ، فهؤلاء اذا ماتوا طاروا في عالم الجمال وتركوا اللذات الحسية لمن لم يعرفوا هذا النعيم الأعلى . انظر ايضاح هذا المقام في أوائل ﴿ سورة البقرة ﴾ ثم قال تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله الى عبادته) (وعمل صالحاً) فيما بينه وبين ربه (وقال إني من المسلمين) فيعتقد قلبه الاسلام ويتلفظ به (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) في الجزاء وحسن العاقبة ، ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي يعني ان الحسنة والسيئة متفاوتتان والحسنة والأحسن منها متفاوتتان كذلك ، فاذا اعترضت سيئة وحسنة فخذ بالحسنة ، واذا اعترضت حسنتان في دفع السيئة فخذ في دفعها بالتي هي أحسن ، فاذا أساء اليك رجل فليس طريقه أن تسيء اليه وهناك حسنتان : العفو عنه ، والاحسان اليه ، والاحسان أحسن من العفو فخذ به ، فاذا ذمك فلا تكف بالعفو بل امدحه وهكذا (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فانك اذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الجيم مصافاة لك (وما يلقاها) أي يلقي هذه السجية وهي مقابلة الاساءة بالاحسان (إلا الذين صبروا) على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام (وما يلقاها إلا نوحظ عظيم) من الخير وكمال النفس (واما ينزغك من الشيطان نزغ) النزغ يشبه النخس ، والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه أي يبعثه الى ما لا ينبغي أي وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولا تطعه (إنه هو السميع) لاستغاثتك (العليم) ببيتك وصلاحك . تم التفسير اللفظي للقسم الرابع

### ﴿ القسم الخامس من السورة ﴾

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ  
الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ \* فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ  
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا  
الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِن الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* إِنَّا الَّذِي  
يُنزِلُ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ كُرْهُ لِمَا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ  
 عَزِيزٌ \* لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ \* مَا يُقَالُ  
 لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ \* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ  
 قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَبِي وَيَعْرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً  
 وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ \* وَلَقَدْ  
 آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ  
 لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ \* مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ  
 لِلْعَبِيدِ \* إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا  
 تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ \* وَصَلَّ عَنْهُمْ  
 مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْيٍ \* لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ  
 مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُتَوَسَّ قَنُوطٌ \* وَلَنْ أَدْفِنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي  
 وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا  
 عَمَلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ \* وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا  
 مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ \* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَصْلُهُ  
 مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ \* سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ  
 الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ \* أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا  
 إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ \*

### ﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لانسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما مخلوقان  
 مثلكم ، وقد تقدم الكلام بالاسباب على هذا وما قبله عند تلخيص تفسيرها في أول هذه السورة ، وقوله  
 (واسجدوا لله الذي خلقهن) الضمير للأربعة (إن كنتم إياه تعبدون) ولاجرم أن السجود أخص أنواع  
 العبادات ، فمن سجد لشمس أو قمر ظانا انه يتقرب الى الله فهو في ضلال (فان استكبروا) عن الامتثال  
 (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) دائما (وهم لا يسلمون) لا يملون وقد تقدم  
 ذلك فارجع اليه إن شئت (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) يابسة متطامنة (فاذا أنزلنا عليها الماء  
 اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) انتفخت (إن الذي أحيها لمحجى الموتى إنه على كل شيء قدير) فيكون

قادرا على البعث (إن الذين يلحدون في آياتنا) يميأون عن الحق في أدلتنا بالطعن (لا يخفون علينا) وعيد لهم على تحريفهم القرآن عن جهة الصحة وطعنهم (أفمن يلقي في النار خيرا من يأتي آمنا يوم القيامة) تمثيل للمؤمن والكافر (اعملوا ما شئتم) نهاية في التهديد (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم (إن الذين كفروا بالذكر) بالقرآن بالطعن فيه وتحريف تأويله (لما جاءهم) حين جاءهم يعذبون (وإنه لكتاب عزيز) كثير النفع عديم الظير محي - بعناية الله (لا يأتية الباطل) التبديل أو التناقض (من بين يديه ولا من خلفه) بوجه من الوجوه (تنزيل من حكيم جيد) مستحق للحمد (ما يقال لك) ما يقول لك كفار مكة ونحوهم (إلا ما قيل للرسول من قبلك) أي إلا مثل ما قيل الخ من كلمات جارحة ومطاعن (إن ربك لذو مغفرة) لأولياته (وذو عقاب أليم) لمن هم أعداؤهم ، ولما قالوا لماذا لم ينزل القرآن بلغة الجحيم قال الله (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته) بينت بلسان نطقه (أعجمي وعربي) أي أكلام أعجمي ومخاطب عربي (قل هو للذين آمنوا هدى) إلى الحق (وشفاء) لما في الصدور من الشك والشبهة (والذين لا يؤمنون) مبتدأ هو (في آذانهم وقروهو عليهم عمى) أي صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا انتفاع لهم به (أو لئن كان ينادون من مكان بعيد) فهم لعدم قبولهم الحق أشبه بمن ينادون من مكان بعيد للإيمان فلا يسمعون لبعد المسافة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) ما بين مصدق ومكذب (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي فصل الخصومة يوم القيامة (لقتضى بينهم) باهلاك المكذبين (وانهم) أي الذين لا يؤمنون (لن يشك منه) من التوراة أو القرآن (مريب) موجب للاضطراب (من عمل صالحا فلنفسه) نفعه (ومن أساء فعليها) ضرر (ومار بك بظلام للعبيد) فيعذب غير المذنب (إليه يرد علم الساعة) أي إذا سأل سائل عنها يقال له لا يعلم وقت قيام الساعة إلا هو والخلق محجوبون عن معرفة ذلك ، ثم أشار بطرف خفي إلى نظام يوم القيامة وجزاء المحسن والمسيء ليكون علما للمستبصر فقال (وما يخرج من ثمرات من أكامها) جمع كم بالكسر (وما تحمل من أتى ولا تضع إلا بعلمه) إلا مقرونا بعلمه واقعا حسب تعلقه به ، فكما أن الثمر لا يخرج من الأكام إلا وهو عالم به وأن حمل الحامل ووضعها لا يكون إلا بعلمه هكذا لا تكون الساعة إلا بتقديره ومشيئته وكما أن الثمر نتيجة الشجرة وعلى مقتضاها والولد يكون نتيجة أحوال الوالدين جسما وحالا غالبا هكذا تكون النفوس المنسلة من الأجسام الأرضية هناك على مقتضى ما كانت عليه في الدنيا - ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا - وكان هذا العطف أفادنا بطرف خفي أن الناس يوم القيامة على حسب أحوالهم في الدنيا كالثمر على مقتضى شجره والولد على مقتضى أبيه ، وعلى هذا تكون العوالم كلها متوافقة في نظامها متسابقة إلى حسن النظام والنتائج الخاصة بها ، فاذن يكون العالم كله راجعا لمبدأ واحد لأن النظام الواحد مدبره واحد ، ولذلك أعقبه بقوله (ويوم يناديهم أين شركائهم) بزعمكم (قالوا آذناك) أعلنناك (ما منا من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشرك ، وذلك انهم لما رأوا العذاب تبرؤا من الأصنام (وضل عنهم) ما كانوا يدعون) يعبدون (من قبل وظنوا ما لهم من محيص) مهرب (لا يسأم) لا يمل (الانسان من دعاء الخير) من طلب السعة في النعمة (وإن مسه الشر) الضيق (فيؤس) من الخير (قنوط) من الرحمة (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي) أي وإذا أحلنا الصحة محل المرض والغنى محل الفقر قال ان هذا حتى استوجبه بأعماله وهو لا يزول عنى بل هو دائم (وما أظن الساعة قائمة) أي ما أظنها ستقوم (ولئن رجعت إلى ربي) كما يقول المسلمون اليوم (إن لي عنده للحسنى) أي الحال الحسنى والكرامة والنعمة ، فإذا كان الله أعطاني نعمة فهو يوم القيامة يوليني كرامته (فلنبتئن الذين كفروا بما عملوا) فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) شديد لا يفترون عنهم (وإذا أنعمنا على الانسان أعرض) عن النعم وبطرنعمة فنى السكر (ونأى بجانبه) تباعد عن ذكر الله ودعائه

وتكبر وتعظم ، والجانب المكان والجهة فنزلت منزلة نفس الانسان كما تقول كتبت الى جهة فلان والى جانبه العزيز أى نفسه ، فقوله - نأى بجانبه - معناه نأى بنفسه (واذا مسه الشر) الضر والفقر (فدودعاء عريض) كثير أى يقبل على الدعاء والابتهاج والتضرع (قل) يا محمد (أرأيتم) أخبروني (إن كان من عند الله) أى القرآن (ثم كفرتم به) من غير نظر (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضل منكم وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام أى فأنتم ضالون وإنما لم يقل منكم بل ممن هو فى شقاق بعيد أى خلاف للحق بعيد عنه لبيان حالهم وتقريرهم من غير مواجهة بالخطاب (سنريهم آياتنا فى الآفاق) من فتح البلاد شرقا وغربا وظهور العلوم فى العالم الانسانى ، وكشف ما كان مجهولا فى البحر والبر ، وتحليل المركبات الى عناصرها وظهور مخبئاتها وانها مركبات بحسب لاخلل فيها كما بينا فى القرآن إذ قلنا - وأنبئنا فيها من كل شئ موزون - وقلنا - وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم - وقلنا - وكل شئ عنده بمقدار - وقلنا - إنا كل شئ خلقناه بقدر - وقلنا - والسماء رفعها ووضع الميزان \* ألا تطفوا فى الميزان - وقلنا - إن الله سريع الحساب - وهذه كلها سنظهر لكم أيها الناس فتعلمون أن هذا القرآن حق . أقول : قد ظهر هذا كله اليوم وعرفنا أن النبات بحسب فى عناصره الداخلة فيه وكذا الحيوان وهكذا حركات الكواكب والمسافات التى بين كل كوكب وآخر ، كل ذلك ظهر فى العلم اليوم وكله مجزة للقرآن إذ قال الله - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - وهكذا خاطب الأموات الأحياء وكلوهم وتعارف الأحياء والأموات وفهم كل الآخر ، كل ذلك مجزة للقرآن ، وهكذا نظر الناس علم تشريح الحيوان وتشريح الانسان ونظام النبات ، كل ذلك على وتيرة واحدة - ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور \* ثم ارجع البصر كرتين - فانك لا تجد خلا إلا عند الجاهلين ، فهذه العلوم التى ظهرت فى العالم الانسانى يجب على العقلاء أن يدرسوها (حتى يتبين لهم أنه) أى القرآن (الحق أولم يكف بربك) أى أولم يكف بربك أى ألم تحصل الكفاية به ثم أبدل منه قوله (أنه على كل شئ شهيد) أى محقوله فيحقق أمرك باظهار الآيات الموعودة أى ألم تكفهم شهادة ربك على كل شئ أى ان هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق والأنفس سيرونه ويشاهدونه فيقينيون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب (الإنهم فى صرية) فى شك (من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط) عالم بجمل الأشياء ومفصلاتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس من السورة والحمد لله رب العالمين

### ﴿ لطائف هذا القسم ﴾

- (١) فى قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - وقوله - اليه يرد علم الساعة وما يخرج من ثمرات من أكامها وما تحمل من أنتى ولا تضع إلا بعلمه -
- (٢) فى قوله تعالى - لايسأم الناس من دعاء الخير - الخ
- (٣) فى قوله تعالى - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - الخ

### ﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى إزال الماء من السماء . وانبات النبات ، واخراج الثمرات ، ووضع الحملات أطفاهن ، مع قوله تعالى - اليه يرد علم الساعة - )

(١) اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتنمو ولا تعيش إلا فى الظروف الخاصة بها ، فإذا لم تكن الظروف الموافقة فانها تبقى فى حالة لاتغير فيها ولا تنمو ولا حياة ، ومتى لامت الظروف اندفعت ذرات العناصر

وتقاربت وتجاذبت وتحابت ، وبتربكها مع بعضها تنشأ هذه العجائب المنظورة والبدائع المسطورة والزهر والشجر والحدائق والجنات والأعشاب والأنعام والغزلان والآساد والدواب ، فترى النبات بما يعتوره من الحرارة والنور والرطوبة واليبوسة يهب ويرتفع نارة مسرعا وأخرى مبطئا ، كل ذلك لحوزه ما يلائمه أوفقده ذلك وهذه قاعدة مطردة كانت قديما وتبقى الى آخر الزمان وانقطع الدهر وزوال العصور

(٢) يستنتج من ذلك أن مادة الحياة الأولى انما جاءت من تجمع البسائط التي لامتها الظروف والأحوال  
 (٣) تركيب العناصر والمواد التي على وجه الأرض يحصل بثلاث طرق كل واحدة أقل مما بعدها وأرق مما قبلها **الطريقة الأولى** أن تركيب العناصر تركيبا خاليا من صناعة الكيمياء ونظامها كما تركيب الأشجار في الجبال فان تركيبها من عناصر ليس على نظام كيمائى ولا نظام حيوانى إذ ليس هناك قانون الكيمياء ولا قانون الحياة ، وذلك كحجر الجير المسمى أيضا بحجر البناء وهو كتل مختلفة الحجم ولونه أبيض أو سنجابي أو محمر وله أسماء مختلفة فيقال (دبش) و (دقشوم) وهذه الأحجار مكوّنة من كالمسيوم وأوكسوجين ، والكالمسيوم فلز ذولعنان أصفر يتغير بسرعة في الهواء الرطب ، وإذا سخن على صفيحة من البلاتين يحترق بلهب شديد اللعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة ، فهذا الفلز وهو الكالمسيوم مع الاكسوجين يكون مخلوطا بالرمل والطفل (بفتح الطاء) وأوكسيد الحديد وكر بونات المغنسيوم ، فهذه الأشجار جميعها تكون مخلوطة بتلك الأجسام ، فاذن هذا ليس تركيبا كيمائيا بل هو أمر اتفاقي لا قانون له كما يبنى الناس بيوتهم بمواد مختلفة **الطريقة الثانية** طريقة التركيب الكيمائى **مثال ذلك** البوتاسا الكالويه وهى عبارة عن مركب من البوتاسيوم والاكسوجين والايديروجين والكالمسيوم والكربون ، فيكون ثلاثة أجزاء من الاكسوجين وجزء من الكربون ومثله من الكالمسيوم واثنان من البوتاسيوم وجزء واحد من الايديروجين فهذا المركب على هذا النظام يسمى مركبا كيمائيا ، فهذه الأجزاء تغلى فيحصل الاتحاد بغليانها ثم تروق وتصفى وتبعد بسرعة وبعد التصعيد تصهر في جفنة من الفضة وتصب على سطوح من الرخام أوفى قوالب معدنية وهو فى حد ذاته يكون قطعاً بيضاء معتمة ، فالمركب من هذه الأجزاء الخمسة يصبح جسماً جديداً قد عدم جميع صفات الأجزاء التي تركيب منها فلا تجد للكربون وللالكالمسيوم وللپوتاسيوم أثراً فى هذا الجسم الجديد بخلاف ما تقدمت فى حجر الجير فانك تجد الفترات الرملية والفترات الطفلية وهكذا حافظه خواصها . فهذا هو الفرق بين الأول والثانى **الطريقة الثالثة** طريقة الحياة النباتية والحيوانية . هانت ذا أيها الذكى قد تبين لك كيف كان المركب العادى قد حفظت أجزاءه خواصها والمركب المعدنى قد فقد المركب فيه خواصه وأصبح عالم الجديداً بنحواص جديدة تخصه . فانظر الآن فيما أقصه عليك وتأمل فى هذه الأرض التي نعيش عليها . نعيش عليها ونحن لانفكر فى أقرب الأشياء الينا . أقرب الأشياء الينا حياتنا وحياة النبات والحيوان . فاذا أخذنا الاكسوجين والايديروجين والاوزوت والكربون أعنى اذا أخذنا مقادير من هذه الأربعة التي عليها العماد فى تركيب كل نبات وحيوان وانسان أى ان كل شىء لا بد من أنه يتركب منها مع اضافة عناصر أخرى أو أملاح وجعلنا هذه المقادير مع بعضها بلانظام كانت أشبه بتركيب حجر الجير فيما تقدم . واذا ركبناها بطريق كيمائى بنظام تام وأجزاء ثابتة أصبحت لها صفة جديدة وفقدت خواص الأجزاء الأولى ولكن هل يمكنها أن تنمو وهل يمكنها أن تحس وتتحرك . كلا . مم كلا . فليركب الكيمائيون ماشاؤا فانهم لا يقدرّون أن يخلقوا ورقة واحدة ولا دودة ولا زهرة . فعلماء الكيمياء أولئك الذين يركبون العناصر بنظام تام على قوانين خاصة لا يقدرّون أن يذروها عاجزون جميعا عن إحداث حال جديدة للمركب بها يحس أو بها ينمو أو يتحرك ! إذن فلنبعد عن الحياة

### ﴿ الحياة سرّ سار في المادّة الأصلية للكائنات ﴾

لقد تعلم أيها الذكيّ أنّ المادّة تنوّع الى نور والى حرارة والى كهربائية والى مغناطيسية . هكذا تنوّع الى قوّة حيوية وهذا التنوّع سرّ لا يدركه الناس فهو قاسر يقسرها وقاهر يقهرها ينوعها تنوعات مختلفات . فما مثل الحياة إلا كمثل من رمى حجرا الى أعلى فارتفع الى الجوّ ولما بطلت القوّة الرافعة له التي استمدّها من الرامي كوّر راجعا الى الأرض . هكذا كل نبات وكل حيوان وكل انسان فتكسب النطقة في الانسان قوّة وسرا يعطيها حياة فتأخذ في الارتقاء والنمو . وهناك تكون في الجسم عمليتان : عملية الهدم وعملية التجديد ففي أوّل الحياة تقوى عملية التجديد على عملية الهدم كما يقوى الحجر وهو صاعد على مقاومة الجاذبية . فاذا بلغ الانسان أشدّه تعادلت القوتان ثم تغلب قوّة الهدم على قوّة التجديد فيأخذ الجسم في الانحطاط والرجوع الى الوراء فيصير هرما فيموت ، فالنور إذن ناجم من نفاذ القوّة الحيوية كما نفذت القوّة الرافعة للحجر فهبط وليس الموت من أجل تلف الأعضاء وضعف وظائفها بل المسبب الأصلي للموت هو نفاذ القوّة الحيوية يتبعها ذلك الضعف ، فالضعف تابع لأصل ، ولو بقيت القوّة الحيوية بحالها لأمكن أن تقوم بالتجديد باذن الله تعالى

### ﴿ كيف بدأت الحياة ﴾

بدأت الحياة بمادّة هلامية في قعر البحر كشفها العلماء وسموها (بروتوبلازما) وهي مادّة رخوة لزجة تصيب كل الاشكال بسهولة ، ومتى تكاثفت كانت منها (حويصلات) جمع حويصلة ويقال لها (القلالي) فالحويصلة الواحدة تنقسم الى قسمين وكل قسم الى قسمين وتصبح هذه الحويصلات الجديدة متمتعة بحياة ونمو كالحويصلة الأولى ، والأسهل أن نسميها أيضا جمع بيضة كبيضة الدجاجة تسهلا للفهم ، فكل نبات وكل حيوان وكل انسان في الأصل بيضة واحدة تنقسم الى قسمين كل منهما يصير بيضة وهكذا هاتان تقسمان ويترد الانقسام ويصبح كل قسم بيضة كاملة تامة الحياة تتغذى بغذاء خاص ، فكل نبات تراه وكل انسان تراه وأنا وأنت أجسامنا عبارة عن بيضة انفلقت فصارت بيضتين كل منهما كالأولى وهكذا ، وفي أثناء الانقسام صار لنا العين والأذن والقلب والشعر وصار للنبات الزهر والورق والثمار وصار للحيوان الناب والظلف والظفر والقرن والأرجل وهكذا . هذه صورة الحياة على وجه الأرض

### ﴿ صورة ارتقاء الحياة على الأرض ﴾

إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى - ماترى في خلق الرحمن من تفاوت - فالنبات عبارة عن البروتوبلازما وقد تكوّنت فصارت بيضة فاجتمعت البيضات فكان النبات والنبات يولد ويحيا ويموت ويفتدى ويتناسل وهو محتاج الى النور والحرارة والماء وتقله المواد السامة ويتنفس وفي بعض أنواعه إحساس . ثم ان النبات من أعلاه متصل بالحيوان فان نوع النوفيت يربط الحيوان بالنبات فهو على شكل النبات لتثبته بالأرض ولكنه حيوان و يليه الاخطبوط الهلامي وهو لا يمتاز عن النبات إلا بإمكان التنقل وله معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس له نظر ولاشم ولاسمع . وبعد ذلك الديدان وهو أقوى وأقدر وأكمل أعضاء من الاخطبوط . ثم الحلزون والبزاق وذوات الأصداف التي ليس لها فقرات . ثم الحيوانات القشرية التي لها قشر كسرطان البحر . ثم عقرب البرّ وله سمع وبصر وله أعصاب عقدية . وتلك الأعصاب تكون حركة الغذاء ودورة الدم . ثم ذوات الفقرات كالسمك وله دماغ ونخاع شوكي . ثم الدبابات الأرضية . ثم الطيور وأثاها تبيض . ثم ذوات الثديين . ومنها ذوات الكيس وهي تحمل فيها صغارها وهي توجد الآن في استراليا . وهكذا ترتقى الحيوانات حتى تصل الى القرود ثم الانسان فهذه هي السلسلة التي نظمها الله عزّ وجل من أدنى الى أعلى . فبينما تكون الحياة مادّة رخوة في البحر

إذا هي قد ارتقت في النبات من أدناه مرتقية الى أعلاه . وفي الحيوان الأدنى مما يلي النبات وترتقى فيه الى أعلاه حتى تصل الى الانسان . ومعنى هذا أن هذه العوالم أشبه بعقد منظم موضوعة خرازته بنظام مهندم . وليس معنى هذا أن كل خزرة ولدت الخرزة التي بعدها بل معناه أن الذي نظم هذا أحسن صنعه ولم يدع في العقد موضعا خاليا ، فأما كون هذه الخرزة قد انتجت ما بعدها فليس ذلك معلوما بل قال به قوم ولم يقدّم الدليل عليه الآن ، وهذا لا يهم الباحث إنما المهم النظام والجمال

### ﴿ خلق الانسان ﴾

وهنا وصلنا الى مقصودنا من تفسير الآيات ، فها أنت ذا اطلعت على نظام النبات إجمالا وكذا الحيوان وانظر قوله تعالى - وما تخرج من ثمرات من أكمامها وبأحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه - أأنت ترى أن الأكام التي على الشجر والجل الذي في رحم المرأة عبارة عن تلك المادّة الهلامية مضاعفة أضعافا مجتمعة ، فتأمل كيف كان اجتماع تلك البيضات التي لا عدد لها منتها بفوائد متحدة أي كيف كانت نتائج الأشكال النباتية ملائمة لنتائج الأشكال الحيوانية وانها مناسبة لما غذاء ودواء . ثم كيف كان هذا الانسان إذ كان أرقاها يود أن يستولى عليها عقليا وعمليا ، فهو مغرم بمعرفة كل نبات وحيوان وبحوز كل منهما . إذن انظر في تركيبه في بطن أمه . انظر كيف كان خلقه تدريجيا لاطفرة . يقول الله تعالى - اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الانسان من علق - . وانظر كيف رأى العلماء انه يكون دودة صغيرة وهي العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قردا ثم يتوارى ذنبه ويصير انسانا . فالودودة والحلزونة والسمكة والذبابة والقرد هي التي أشار لها الله تعالى فقال : - ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - أي مسوأة وغير مسوأة ، فاقبل الانسانية هي غير المسوأة ، والانسانية هي المسوأة ، واعلم أن هذه الصور التي رآها العلماء ليست يقينية بل هي تخمينية (انظر هذا المقام في سورة آل عمران)

وانما المهم في هذا المقام أن تفكر في أمر حياتنا فانها في أول أمرها بيضة تصلح للنبات والحيوان ثم ترتقى فتصير حيوانا ثم تصير انسانا

هذا درس ألقاه الله الينا . يقول لنا : أنا لم أخلقكم لأهينكم بل أنا أرقبكم . ففي أمد قصير ارتقيتم في بطون أمهاتكم درجات كثيرة وهي النباتية والحيوانية . فاذا عشتم على وجه الأرض رأيتم الحيوان خاضعا لكم . ثم أنزلت عليكم علوما وقلت لكم إن لي ملائكة ولى عرش وعالم أرواح وبعث الى آخره . فاذا تم فاعلموا أن العوالم التي تصالون اليها عظيمة جدا لا تقاس بعالمكم . فألى يردّ علم الساعة لاغبري لأنها عوالم لا تعقلونها لأنكم لم تروها ولا تدركون زمانها إذ جعلته مجهولا عندكم لحكمة أردتها ونعمة قصدتها . ألوان خروجكم من أجسامكم الأرضية كخروج الثمر من أكمامه والولد من بطن أمه . فكلاهما نتيجة لما خرج منه وقد انتهى الى عوالم لم تخطر بباله فهل كان التفاح يشعر أنه يكون على موائد الملوك أو كان الجنين في بطن أمه يدور بخلده انه يوما ما يكون ذا ملك عظيم ويذهب ويجيء في الأرض ويركب الخيل ويدبر الامور . هكذا حياتكم بعد موتكم تكون في عالم نسبتته الى أرضكم كنسبة الدنيا الى بطن الأم هذا اذا كانت النفوس عظيمة . فأما النفوس الضعيفة فاما تكون هناك عبياء أشبه بالطفل الأعمى الأصم في الأرض فتكون السعة هناك على مقدار درجات الأرواح العائشات هناك . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



### ﴿ اللطيفة الثانية ﴾

( في قوله تعالى - لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط - )  
 هذا بيان لحال الانسان اذا لم يتوق العلم والدين عقائده وآراءه . إن الناس قبل أن يهدبوا ويربوا متى أصابهم الشر أخذوا يقلقون ويضطربون ويندبون حظهم ويحزنون ويأسون من روح الله ، ويظنون أنه لا فرج لهم ولا عز لهم ، وأنه قد أقفلت في وجوههم أبواب الفلاح والنجاح ، فاذا سكن جأشهم وخف حلهم ورجعت اليهم عقولهم أخذوا يدعون ويتضرعون ويلحون أن يعطيهم الله تعالى الغنى والسعة ، فاذا أجيئوا الى دعائهم وأعطوا نعمة نسوا ما كانوا فيه من الضيق وظنوا أن تلك النعمة دأمة لهم لا تفارقهم وهم أحق بها بل ربما ظنوا دوامها وأنكروا الآخرة لأن النعم أبطرتهم واللذات أسكرتهم  
 فهذا الانسان أمره عجيب ، يسلب النعمة فيضطرب ويكون مسلوب اللب يأسا خزينا . ثم اذا خفي الأمر عليه دعا الله . فاذا كثرت النعم أصبح أعمى عن الحقائق ناسيا ربه طائبا أن ماله من الصحة والمال والمنصب والقوة دائم وهذا من غفلاته وجهالاته . وليس يخرج الانسان من هذه الجهالة العمياء إلا التذكر والتفكير ودرس العلوم والحكمة والصبر حتى يعلم الانسان أن النعمة والنقمة كل منهما درس له . فكل حال من أحوالنا دراسة لنا . فكما ندرس أطوار حياتنا في الرحم وفي الحياة الدنيا وندرس الحيوان والنبات يجب أن ندرس ما يحجب به الله لنا من المسكاره والنعم لننظر ما فائدة ذلك لنا لأننا نأس تارة ونغتر أخرى فان ذلك فعل الذين عاشوا كالحیوان لا يفكرون ولا يعقلون . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية

### ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

( في قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - )  
 لقد أشبعت الكلام على هذه الآية فيما تقدم . ولكن أقول لك الآن ان هذا الزمان أخص الأزمنة بهذه الآية وأولهاها  
 لتعلم أيها الذكي أن هذا زمان الانقلاب . ان الله قد كشف العلوم وأظهر المجائب في جميع أنواع الحكمة والمساعون لا يعلمون . يقول الله هنا - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - . أنت قرأت في التفسير الى هذا المقام واطلعت على ما أبدعه الله في هذه الدنيا وعلى العلوم التي أبرزها في الأرض وأن ما في هذا التفسير خلاصة العلوم وجاهاها ومهجتها وحكمتها ولن تراه مجموعا في كتاب . هو خلاصة علوم هذه الكرة وثمرتها . ففيه من كل فن وكل علم وكل حكمة . أفلمت ترى بعد هذا انك قد اطلعت فيما تقدم من هذا التفسير على تفسير هذه الآية أعني انك قد قرأت فيه معنى هذه الآية . فاذا سمعت الآن قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - . أفلمت تقول نعم قد تبين لي أنه الحق وأن الله حقق ذلك . وليس معنى هذا أن تقول إني آمنت بالله ورسوله فالإيمان أمر يشترك فيه الجاهل والعالم وإنما أقول انه قد تبين لك أن هذا الدين حق واني واثق انك ستقول نعم . أقول لك : إذن أصبح دين الاسلام ليس هو الذي يعرفه العامة بل هو دين الحكمة والعلم ودين الفلاسفة أي انه هو الدين الذي لما ظهرت العلوم الحديثة كانت مبنية حقيقته . واذا كان كذلك فأنت صرت شريكي في العمل أعني انه حرام عليك أن تنام . قم أيها الذكي وقل للمسلمين اقرأوا العلوم وادرسوها حتى تقوموا بنصيبيكم من إسعاد الأمم فانكم الآن عالة على أوروبا . ادرسوا العلوم وأقيموا الحق فان هذا هو الزمان الذي أظهر الله فيه سر كتابكم وقد قال لكم - حتى يتبين لهم أنه الحق -

فقل للمسلمين إن الاقتصار على قراءة حديث « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله الخ » عار عليكم فلا تقتصروا على ظواهر الدين بل ادرسوا حقائق الكائنات يقول الله لكم - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - فهل رأيتم ذلك ؟ كلا . لا ترونها إلا بدراسة . فليدرس المسلمون كلهم على قدر استطاعتهم ليحدثوا . والله يسأل يوم القيامة وعند الموت من يقرأ هذا التفسير ولا يقوم هو مستقلا بالعمل لرقى الانسانية

أيها المسلمون : أتم خلفاء الله في الأرض ونبينا خير الأنبياء ونحن خير أمة أخرجت للناس . وهذه العلوم يجب علينا أن ندرسها . وهذا التفسير وأمثاله جاء في وقت انتقال الأمم من حال الى حال والمسلمون سيأخذون دورهم وأنتم حتما تأخذون دوركم فان لم تقوموا به طوعا قتم به كرها . وهذا التفسير وأمثاله تنبيه وانذار للأمم الاسلامية . وسيقرؤه النبهاء فيهم بشوق . فان لم يوقفوا الأمم الاسلامية بأقوالهم وأفعالهم فليعلموا أن الله قد أعد العدة لكل متعاس عن العمل من الأمم والأفراد . وسينزل غضبه على كل عالم لا يعظو على كل أمة متعاسة متعاعدة - إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - ، وكل من حض المسلمون على ما ذكرنا من الحكمة والعلم فله أجر المجاهدين . ومن ترك ذلك فهو من المقصرين

إن ورود هذه الآية في هذه السورة الواردة في أواخر القرآن لما يدعو الى العجب فان القارئ لما قبلها من السور ، المطلع على ما حوت من بدائع الحكمة في الأنفس والآفاق يقر إذا وصل اليها بأن القرآن يدعو الى علم الأنفس والآفاق . فاذن تأخرها الى الربع الأخير من القرآن بل الخمس الأخير منه لهذه الحكمة العجيبة ألا وان هذا هو الزمان الذي سيرقى الله فيه المسلمين . فطوبى لمن بادر من العاملين . وبشرى لمن كان من المبشرين الموقظين . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين (٢٦) رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية

### ( تذييل لتفسير هذه السورة )

( وفيه ثلاثة فصول )

( الفصل الأول في إيضاح الكلام على قوله تعالى - اليه يرد علم الساعة - )

بعد أن أتمت الكلام على هذه السورة خطر لي ليلاً أن أحققها بهذه الجواهر الثلاث فلم أدافع الخطر لآتي رأيته خاطر خير . فهذه الأولى في رد علم الساعة الى الله تعالى مع ذكر الجمل والوضع والخمر والأحكام سبحان من أبدع هذه الدنيا وأحكم نظامها . تأمل رعاك الله في الدرر المكنون والياقوت البديع . انظر كيف جعل للانسان هذه المراتب وهو جنين . يتنقل مراتب في الرحم . فمن دودة صغيرة وهي العلقة الى قوقعة الى سمكة وهكذا حتى يصل الى هيئة القرد فهية الانسان

ظن المشرّحون وعلماء الأجنة اليوم أن تلك هي الأدوار التي مرّ عليها وهم بذلك يوضحون نظامه ، يمرّ الانسان على هذه الأدوار وتسكون نفسه في تلك الأدوار مشاكلة لنفوس تلك الحيوانات ولكنها تمرّ عليها مسرعة ثم تقفز قفزة فتكون إنساناً ، فاذا رأينا الطفل يداعب الهرة ويحب الحمامة ويلعب بالصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن المدرّس لا ينجح في تعليم تلاميذه إلا اذا مرّ على أدوار التعليم وكان تلميذاً فيمكنه أن يمثل أدوار التعليم كما مثل أمامه . إن الله لم يجعل في الأرض عظيماً في علم أوفى مال أوفى ملك إلا اذا مرّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرّفها فرجع اليها وعلى ذلك تجد الحكومات في رؤساء اللصوص الذين تابوا خير معوان على التجسس على اللصوص ، فرب البيت أدري بما فيه ، وهكذا نجد الأنبياء عليهم السلام يرفعون الأغنام صفاراً ويرعون الأمم كباراً . وأمهر الأطباء اليوم من يجرب الدواء في نفسه يعرف

أدواره ثم يصفه في كتبه لينتفع به الناس ، هكذا هنا صرّ الانسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين لأنه أولاً سيكون له بها علاقة في الحياة الجثمانية زراعة وركوباً وأكلاً وشرب لبن ولبس صوف وشعر ووبر وجلد وما أشبه ذلك واحتراساً من أسد ونمر وهكذا . وثانياً ليدرسها دراسة علمية اذا كان من أهل الحكمة ورجال العلم . وثالثاً ليدرس نفسه وأحوالها فانه يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها الى عالم ارقى من عالم الأرض ، إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصبة كالكلب والسنور وأخرى بالحيلة كالعنكبوت وتارة بالغبلة كالأسد وتارة بالفرار كالأرانب والظباء والطير وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ وقد يتحصن في الأرض كالفأر والهوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك وغفور كالغراب ، ووحشى كالنمر ، وانسى كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغيم ، وسريع كالغزال وبطيء كالذب ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجلل ، ولص كالعقرب ، وثانه كالطاووس ، وهاد كالقط ، وضال كالعمامة ، وماهر كالتملح ، وحليم كالجلل ، وحقود كالحمار ، وشموس كالبغل . ومستحل كالذب . ومضّر كالفأر . وجهول كالخنزير . وغير ذلك

فهذه وغيرها من صفات الحيوان معرض لها الانسان . فهو يجد بما أنزل من الديات وما سطر من العلوم أن يخرج من هذه القيود الحيوانية ويتحلّى بالحلية الملكية ويخرج من الدائرة الأرضية الى الدائرة الروحية . وهناك يتجلى له بعض قوله تعالى - اليه يردّ علم الساعة -

إن الانسان مادام مغرماً بالأحوال الأرضية فهو أبداً حول هذه الأرض بعد الموت لا يبرحها وكيف يبرحها وهو لا يجد لذّة إلا فيها . ولا سعادة إلا في أكنافها فيصبح اليها مجذوباً مبعداً من عالم أعلى . ومعنى هذا الانجذاب أن يعذب بهذاب جهنم فيكون في حفرة من حفر النار . فان جهنم ملازمة لمن لا يعرف إلا المادة والجنة ملازمة لمن يتزخّر عنها فيقال انه في روضة من رياض الجنان حتى اذا تخلص من ذلك بتاتا صار في جنة عرضها السموات والأرض لا ضيق جهنم الذي هو ملازم لمن كان لا يعرف إلا العالم الأرضي

إن مرور الانسان على العوالم الحيوانية أعطاه أنسه بالحيوان في أحواله المادية ودراسة العلوم التشريحية والحلقية وجهاده في الحياة ليخرج من حال الحيوانية الى الحال الملكية . وهذه نبذة من علم الساعة التي لا يعلم علمها إلا الله تعالى واليه وحده يردّ علمها . وهذه سانحة من ذلك العلم وبارقة من سماء الحكمة . فأما العلم الحقيقي فهو عند الله « وعنده مفاتيح الغيب » وهذه من أسرار القرآن . وسرّ من أسرار عطف الحمل والوضع على علم الساعة . انتهى الكلام على الفصل الأول

### ﴿ الفصل الثاني والثالث ﴾

( في إيضاح الكلام على قوله تعالى - سرّهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - )  
فلأذكر فيه نبئين : النبذة الأولى ما كتبت في كتابي « ميزان الجواهر » تحت العنوان الآتي  
وهذا نصه :

﴿ خاتمة تتضمن فكرة المؤلف في العلوم عامّة وفي فن التوحيد خاصة ﴾

مما أجمع عليه رأى الحكماء انه يجب على الانسان أن يجعل له في حياته غاية يسعى لها والا عاش عيشة مهملة . وقد كنت في ابان تعلّم بالجامع الأزهر أتلقى العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقلات واذا ذهبت الى بلادنا بالشرقية أنظر ماذا فرأ الله من النبات العجيب . وما أودع في الكائنات من الغرائب . وأنا تأمل ماقى الأنهار والغدران من سيال عجيب يذهب فكرى في ذلك كل مذهب وأقارن ما أراه بما أسمع . فلأجد مناسبة . وأقول في نفسى : لماذا لا نسمع في العلوم التي تلقاها شيئاً يحوم حوله ما شاهد كل يوم من

المزارع المحضرة والجنات وبدائع الحكمة الربانية ١ وأجد في نفسي شوقا وتوقا الى ذلك . وأتخى أن يكون له مدخل في معارفنا الدينية ، ثم أكرّ كرتة نحو ما أتلقيه من القنون الدينية فأجدها توسع المجال جدا في احكام المعاملات والميراث والحدود والدعاوى والبيّنات ، ولا أرى لما أشاهد في أرض الله الواسعة إلا ان العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث ونحو ذلك ، وما يذكر في أبواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسلم والتسليم ، وكذلك الكلام في بيع ما بدأ صلاحه أو ما لم يبد صلاحه ، ومع كونه إجماليا فأما يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لامن الوجهة الإلهية

سارت مشرقة وسرت مغربا \* شتان بين مشرق ومغرب

وكنت أسمع كلاما من أفواه أسانذقي وفي كتب التوحيد أن العالم في غاية النظام وأن القرآن في غاية البلاغة ، فاذا توجهت الى بلاد الشرقية وخالت بنفسى وتفكرت في العالم وفي القرآن أجد الأمر صعبا على جدا ، ولا أشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة ، فاذا نظرت رأيت بهائم ترعى ، ونباتا يطلع ، وأنا سا تذهب وتجيء ، وبحارا تجرى من أرض عليا الى أرض سفلى ، فأقول أين النظام الذى يقوله العلماء ؟ حضرت أجلس على شاطئ نهر جار وأنتمل في الحيوانات الصغيرة التى تختفي في الأعشاب وأقول : لورأيت حيوانا عليه خطوط فيها هيئة انتظام لدخل عندى شعور بهذا النظام ، ثم اذا عرفت أن هذا العالم منتظم كما يقول العلماء الأخيار أكون أسعد الناس وأكثرهم نشاطا وجدا واجتهادا إذ يكون إيماني يقينيا . وبينما أنا كذلك إذ فتح لى باب آيات من القرآن . ولم أكن إذ ذاك أعرف تفسيره ، فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات الجنبات وكان أول ما طالعت قوله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - الى آخرها فأتملتتها تأملا صحيحا فانفتح لى باب الفكر ، وصرت أعرض تلك الكلمات على عقلى وأنظر بنفسى في هذه الصنعة الإلهية وهكذا بقية آيات الجنبات ، فأخذ الفكر يطلب والمطالعة تزيد وحلا لى الفهم ، ثم اتصلت بالأزهر بعد انقطاع طويل و حضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محب وله بل عاشق وصرت لا أتلو القرآن إلا بتدبر وفهم ، ثم ساعدتنى المقادير بدخول مدرسة « دار العلوم » فتأملت علومها تأمل من يريد أن يعرف هذا العالم . فكنت أحضر تلك العلوم وأطبقها على العالم الخارجى على حسب ما سبق فى النفس من الشوق الى ذلك حتى اتضح لى أن كل هذا العالم على غاية النظام والاحكام وفهمت آيات القرآن فى تلك الجنبات فهما يقينيا لا تقليديا وصار كل شئ من العالم دروسا توحيدية وكأن المتأمل فيه يطالع عجائب القدرة الالهية والحكم الربانية فمن درس الهندسة والحساب والطبيعة أو التشريح أو غيرها من العلوم ولم يذق منها لذة النظر من وجهة الحكمة العلية فهو صاحب صناعة يعيش بها ولم يمتز عن العامة إلا بالمظاهر الفانية . وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو والصرف فى أى لغة من لغات العالم من العربية أو غيرها ثم لم يستخدمها فى مطالعة ذلك الجمال الالهى فى آيات القرآن العظيم والعلوم العالية مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الفريزى فليبشر بأنه أضاع أيامه ولم يحصل من حياته إلا على مغايسته وانه يأكل كما تأكل الأنعام . فأفّ الحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها نأكل ومشارب تشاركنا فيها الحيوانات والنباتات . أولارى المفرورون من ذوى التصور عن الاطلاع على ذلك الجمال أن الغذاء والتناسل عامان فى جميع النبات . فان كنت فى شك مما أومأنا اليك فاذهب الى الحقول وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلا أو الفرة تجدان الذكران فى زهرة الأول أربعة قد أحاطت بمحل الاناث الذى هو فى وسطها وقد ألقحتها وهكذا النرة يلقح عاليها سافلها على منوال ما يفعله الحيوان بحيث ترى ذلك الطلع الذى فى أعلاه ينزل على شربة الكوز ويحصل الاصلاح ، ثم تلك الجيوب من جميع الأصناف هى المقصودة للانسان أوله وللحيوانات إذ النبات خادم لهما وهكذا الحيوان خادم للانسان ويتمتع باللذتين تمتعا حقيقيا . فاذا استعمل الانسان عقله فيما يحصل به هاتين الشهوتين اللتين قد شاركه فيهما النبات والحيوان

فبُست العلوم وبتت الحياة التي ترجعه من أفق الانسانية الى أفق البهيمية أو النباتية بل الحياة حياة العلوم العالية والنفوس الكاملة الشريفة التي تطالع ذلك الجمال الأبهى من هذه العوالم وهذا الكمال يشا كلها في العوالم العالوية والسفلية

على نفسه فليبك من ضاع عمره \* وليس له منها نصيب ولا سهم

ومن قرأ هذا ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم فذلك داخل في قوله تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وقوله - وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون - وجميع العلوم آيات ودلائل تشفّ عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام . والذي أراه أن الشرقيين لا ينالون مجدهم إلا إذا رجعوا الى حالة التعليم قبل اندراس العلم لتثبت فكرة التوحيد في جميع الأذهان واستحضار الخالق في جميع الحركات والسكنات ، ولا يخفى أن علم التوحيد أخذ في أدوار تعليمه أشكالا وألوانا شتى من ابتداء الوحي الى الآن ، ففي زمن الصحابة والتابعين لم يكن فنا له قواعد وأصول وفروع بل كان باقيا على الفطرة الانسانية المستمدة من آيات القرآن ، وكل يعطيه الله من العلم على حسب استعداده خلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل والفلسفة وانقسموا الى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات وأخذ وردّ تخاف أئمة الدين رحيمهم الله على العقائد فألفوا فنّ الكلام ليكون حصنا يقي من تهويش أذهان الناس بالمشاغبات فلم يكن مقصودا لهم لذاته وإنما هو سلاح وجهاد ونحن في زمان مات فيه ذلك العدو وبادت تلك المذاهب ، فن استعمل ذلك السلاح الآن فهو غرّي يقاتل في غير عدوّ وكيف وقد ظهر عدوّ آخر للعقائد في هذه الأيام ، فيجب على العلماء الآن أن يبذلوا جهدهم للنظر في كلام الماديين الاوروبيين وجميع المخالفين ليردّوا عليهم فان اللغات منتشرة بين الأمم والأفكار تنتقل وجميع ذوى الضعف في الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها ، أما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون - فان قلت كيف يعلم التوحيد ؟ أقول : يجب على المعلمين في المدارس وغيرها أن يتدثروا بذكر غرائب العالم من النباتات الجببية والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة ، ثم ينتقلون من الأغرب الى الغريب الى المعتاد وذلك لأمر :

(١) إن الفطرة الانسانية ميالة الى الغرائب والاحداث أكثر عشقا لها وولوعا بها

(٢) إن دليل الألوهية أقرب الى أذهان البسطاء في الغرائب كالتوحشين حتى ان أهل الهند على نهر

الكنج يعبدون نباتا يتحرك في الدقيقة ستين مرة لاعتقادهم أن فيه قوة إلهية ، وما ذلك إلا

لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح

(٣) إن آيات القرآن كلها ناطقة بأن النظر في العوالم هو طريق التوحيد

(٤) إن المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتنزيه

بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقا على تلك العجائب كان أثبت في الذهن ورسخ

الايمان رسوخا لا تزلزه الرياح العواصف

(٥) إن ذلك مع كونه علم التوحيد هو أيضا تاريخ طبيعي وطبيعة وتشرح وفلك وهكذا فيكون ما صرفه

من الزمن في تعليمه قد اكتسب به التمهيد علوما تنفعه في دنياه وهو لا يشعر - من كان يريد

حرث الآخرة زده في حرثه - فيكون قد أراد معرفة خالقه وهو في الحقيقة يقرأ علوما كثيرة إذ

التوحيد هو جميع العلوم بل مثل من يقرأ توحيدا بهذا الوصف مثل انسان زرع أرضا شجرا مشمرا

فان هذا لم يفته خروج حشائش لنوع البهائم فقد جاء القصد الأدنى مع القصد الأعلى ، إن الله

يعطى الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطى الآخرة مع قصد الدنيا  
 (٦) إن التليذ اذا نظر العلوم العالية يرى في نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة الباري في تشريحه  
 ويطرته وطبه وزرعه وحصاده وهكذا لا يعتياده على ذلك من صفه ، ولا سبب لفساد أخلاق الشبان  
 الذين يتعلمون في المدارس إلا خلق عقولهم من استحضار الخالق فيما عرفوه من العلوم ، ومن  
 المقرر أن الحكمة لا تفيد إلا من يستحضر الخالق بسره ويعرفه بعقله  
 (٧) اذا رأى علوم الدين التي أنزلها الله على نبيه لا تخالف الطوائف الكونية فانه يشب على تطبيق دينه  
 على ظواهر الطبيعة وينفرد ذلك في نفسه ويستشعر استنساخا تاما بذلك كما هو مقصود القرآن ،  
 الأثرى رعاك الله أن آيات الرحمة والعذاب يوثى بعدها بآيات عجائب الكون ، ألم يكن ذلك ليظهر  
 للناس أن العلمين متوافقان ، ومن العجيب أن بلادنا تنقسم الى قسمين : فبعض الذين تعلموا  
 العلوم الدينية وحدها ينكرون العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات ، ويظنون أن الدين  
 برى منها وماهم إلا جاهلون بها ، وبعض من لم يتعلم الدين ودرس في المدارس تلك العلوم ينكر  
 موافقتها للدين ويقول انها تخالفه - ذلك مبلغهم من العلم - و - كل حزب بما لديهم فرحون -  
 بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم يعلم ، ومن جهل شيئا عاداه ، بل الواجب على كل فرد من  
 أهلها أن يأخذ من كل فن طرفا والا صدق عليه قول الشاعر

ومن يك ذا فم مرّ سقيم \* يجرد مرّا به الماء الزلالا

فالذي خلق هذا الكون بنواميس خاصة جارية على نسق بديع جعل من تلك النواميس قوانين وشرائع  
 بين الناس ، فالكون من فعله وتلك القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله . وهل يناقض  
 فعل الرب الأكبر قوله - تعالى الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا - . فبين النواميس الطبيعية والشرائع  
 المنزلة تطابق وتوافق لا يعرفه إلا من عرف العلمين . وأما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو حري بأن  
 يدعى تناق العلمين ، بل كثير من قارئ الشرائع لقصور عقولهم يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على  
 أصل مأخذ النصين وما هو المقصود منهما فكيف يرون موافقتها للأشياء الخارجة عنها من النواميس الطبيعية  
 فالخلق أن الشرائع الالهية والنواتيس الطبيعية متوافقة متلائمة وأن من أنكر فاعلمها ينكر لقصور في عرفانه  
 وضعف في بصيرته

هذا ما أردت ذكره بالنسبة للاهليات . أما النبوات فالذي أراه أن يذكر صفات الأنبياء ومكارم أخلاق  
 سيد الوجود ﷺ وتكون المجزات داخلية في ضمن تلك الأخلاق حتى يشب الطفل على حب النبي  
 ﷺ وعلى التخلق بأخلاقه ويعتقد فيه الصدق حين يسمع المجزات وتكون الواجبات في حق الوصل  
 قد ثبتت في الأذهان عرضا . فهذا فضلا عن كونه علم توحيد علم أخلاق فيخرج قارئ التوحيد من المدارس  
 وقد درس علوما طبيعية وأشياء وفلكا وأخلاقا . ولنا أمل وطيد من المدارس التي تأسست بالقطر المصري مهمة  
 ذوى الثروة والجمعيات أن تسعى في أن تسلك هذا المسلك الجيد وتدرس التوحيد على هذا النمط ليم بها  
 المقصود إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وبهذا تم الكلام على النبذة الأولى  
 والحمد لله رب العالمين

### ﴿ النبذة الثانية ﴾

أذكر فيها ما كنت كتبت في مجلة «نور الاسلام» منذ نحو (٢٥) سنة . وسبب كتابتها أني كنت رأيت  
 في المنام عقب قراءة كتاب نقله المرحوم فتحى باشا زغلول عن أمة الاسلام من الفرنسية الى العربية رأيت

أن ملكاً يعرب لى « بدأ الاسلام غريباً وسيعود كما بدأ » ودام على هذا الاعراب والشرح طول الليل وهو يقول : قوله غريباً صفة لموصوف محذوف ، فالوصف ناب مناب المصدر ، ثم يقول : والمعنى المقصود انه بدأ بدأ غريباً لم يهده له نظير وسيعود كما بدأ أى انه ينتشر انتشاراً غريباً لم يهده له نظير ، وبقيت طول الليل وأنا أسمع هذا القول ويكرر كأنى كنت تلميذاً يعنى الاعراب والمعنى . ولا يفتأ يقول وأنا أسمع وكنت أرى فى هذا التفهيم استعمال الطرق التى كنت ألقها على التلاميذ لأنى كنت أعطى السنة الثالثة والرابعة فى مدرسة (الجيزة) كتاب النحو وأعطيهم باب المفعول المطلق ، وكنت أقول لهم ينوب عن المصدر وصفه وآلته وهكذا فصرت أسمع مثل ما أعطى وهو يقول : غريباً وصف نائب مناب المصدر الى آخره ، وكنت وأنا نائم أعلم أنى نائم وأعلم الحجره التى أنا فيها وأعلم أن هذا ملك وهو يلقى الى هذا القول ، فاستيقظت من النوم وقلت فى نفسى إن هذه الرؤيا عجيبة ولكن هى أشبه بأضغاث الأحلام ومع ذلك وجدت فى النفس وجدانا غريباً ولكن كنت أشد الناس حرصاً على أن لا أكلم أحداً لأن مثل هذه يسخر الناس منها ، فإذا أفعل ؟ كتبت مقالة وضمنتها هذا المعنى باعتبار انه جاء من عندى ابتكاراً وعنوانها « مما أوجب للمسلمين السقوط ، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط » وأرسلتها الى إدارة مجلة «نور الاسلام» التى كانت تصدر بمدينة الزقازيق وطلبت أن لا يكتب اسمى تحتها خيفة القسطنج والوم ، ثم اتى بعد نحو (٢٠) سنة بحثت عن المقالة فلم أجدها فأسف كل الأسف ، ولكنى بعد بحث وجدتها فى مكتبتي بمجموعة فى ضمن أعداد هذه الجريدة فسرت سروراً عظيماً وهأنذا أكتبها هنا بنصها بعد اليأس منها

وبعد أن سبق الكلام على هذا المعنى فى سابق التفسير إذ ذكرت أنى فى هذه السنة اطلعت على مقالة فى الاهرام لكاتب ذكر هذا المعنى وقال انى وأنا صغير قرأته فى كلام أحد الفضلاء وعدت أسما من المشهورين وقال فلا أدري أيهم قائلها ، وشرح نفسى ما ذكرته لك فعرفت أن هذا المعنى وصل الى بعض الناس وقد انتشر فى الجرائد السيارة ، واذن عرفت أن هذه الرؤيا أراد الله اظهارها للأمة وانها بشاره لها ، وأنا وان كنت أكتمها عن الناس وقد ظهرت فان آمالى من ذلك اليوم صارت معلقة برقى الاسلام موقنة به ولكن ليس من هذه الرؤيا وحدها . كلا . بل هناك ما هو أصدق وأبدع وأجمل وأعلى ، وليس هذا مجال القول فيها فاني رأيت أعجب من هذه بما لا يقاس . فهذا هو السبب فى إيقانى برقى المسلمين . ولهذا ألفت هذا التفسير . وهذا كله سرّ قوله تعالى - سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - . فبذلك فليفرح المسلمون . وبذلك فليسعد المسلمون . وهالك نص المقالة المذكورة

### ﴿ مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب القيامة سبب القنوط ﴾

سبحان من أعزّ وأذلّ وشكل الأشكال المختلفة والألوان البديعة والأصل واحد - وأن الى ربك المنتهى - أنزل من السماء ماء فسالّت أودية بقدرها - فازدادت الحلوحلاوة والماء مرارة (١) والغذاء تفضية والرواء مداواة والجليل جمالا والقيح قبحا والعناصر لم تتغير . فيعجبنا لهذا الاحكام . وما أعجب هذا النظام وكيف من الأصل الواحد تستخرج المتناقضات . وتتج المتضادات . إن فى ذلك لآيات . وينزل الخير والجلود الإلهى فيكسب كلا ما يشاء كل طبعه فنشرق الشمس على المحموم والصحيح فتزيد كلا على حسب استعداده وتجمد الطين وتذيب الجليد . فالضوء واحد والقابلية اختلفت - إن ربك حكيم عليم - وهكذا العلم والهدى يصيب القلوب فيعطى كل قلب على حسب استعداده فيفضل ويهدى ويسعد ويشقى ويعزّ ويذل والعلم فى نفسه واحد والقابليات مختلفات

(١) ليست الزيادة عامة فى السكل اه

جاء الدين الاسلامي والناس في جهالة وعمية فأخرجهم من الظلمات الى النور. وبما جاء فيه ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، وانها اقربت وحان وقتها وأن النبي ﷺ بعث هو وإياها كأنهما متلازمان حتى قال ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين »

فكانت تلك الأدلة والآيات والأحاديث من أقوى ما يحث على أعمال الأمة بل هي أكبر باعث على استنهاض همم أبطال وعزائم رجال الى أعمال البر وترك الكسل والخمود إذ انبهاهم وقت موت الانسان وقيام الساعة التي يلاقى فيها ربه يبعث فيه روح نشاط على أن يستعد في كل نفس من أنفاس حياته للخيرات طي حسب استعداده إما لنفسه أو أهله أو وطنه أو بني دينه وجنسه ، ويكون أمام الخالق الأكبر كأنه خليفة على عباده يعمل لهم ما فيه صلاحهم ، فمن هذا عرفنا أن انبهاهم وقت الساعة والموت من أجل سياسة إلهية كبرى كيف لا وهي سياسة ملهم الملوك ومرشد العلماء . وعلى هذا سلف الأمة الاسلامية جتدوا في الأعمال عملا بقوله تعالى - سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين - لا للتكاسلين والعاجزين فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكانوا يعلمون حقا أن من طلب منه عمل الآخرة فإنه طبعاً طلب منه عمل الدنيا معها إذ هي مزرعة لها وطريق إليها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فكأنه طلب منهم بعمل الدنيا وزيادة لنفع نوع الانسان ، وقد ضربوا لذلك مثلاً رجلاً زرع أرضاً أشجاراً مثمرة فإنه لا يعدم حشائش تخرج للبهائم فقد جاء القصد الأدنى مع الأعلى ، أما من زرع البرسيم مقتصرًا عليه فلا تخرج له الثمرات وعلى ذلك قال تعالى - من كان يريد حوث الآخرة زد له في حوثه ومن كان يريد حوث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - فكان وعظ القرآن وحثه داعياً لعلو الهمة وعلو الهمة من الايمان ، ومن سفلت همته فهو معزول عن الفهم والعلم ، ولا تكمل نفس الانسان إلا ببارقة ماء الحياة في سبيل منافع أمته وبلاده مع القصد الأعلى وهو التقرب للخالق الأكبر

هذه أعمالهم وهذه نياتهم ، فانظروا يا قوم كيف تغيرت الأوضاع وانعكس المعنى وأصبح ما كان وسيلة للارتقاء سبباً للذلة والهوان ، ولكن لا غرابة في ذلك فالقرآن لم يزل والقلوب تغيرت - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له - . هذه الفاتحة وأين عمر . سمع سلفنا في الدين القرآن في الساعة وقربها فأطاعوا وصيته وحثهم على العمل ، وسمعتنا ففصينا وأشرب في قلوبنا حبّ عجول الجهل وشبان الخلاعة والأمل ، وباليقينا اقتدينا بأسلافنا في الوطن إذ مع كونهم عبدوا الجبل سارعوا الى العمل وما أشبه العلم بالماء يتلون بلون انائه ويمثل على حسب مادخله في بنيتة وأجزائه وبالنور يظهر على حسب لون الشفاف الذي هو فيه ، فكما هتدى أسلافنا بآيات قيام الساعة ضللنا نحن بها - يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا المفاستين -

أصبح المسلمون الآن في كافة أنحاء المعمورة ولا أمل لهم في شوكه ولادولة ولا عز ولا صولة حيث يسمعون من أفواه الجهال بالدين الذين يقولون ما لا يعلمون ان هذا الدين سيمحي وأن هذا أوانه وأن الكفر يعاوه وهذا حينه ، وتمسكوا بقضايا لا يعرفون معناها إذ هي محل نظر وبحث بين أكابر العلماء ، وانتشرت تلك الفكرة بين العامة والخاصة ، وبما يوجب الأسف والحزن أن الأذهان تطابقت على جمع الفكرتين وهما ان الساعة قربت جدا وأن الاسلام يمحى ، وحيث اتنا في زمان كثير أنصار الجهل فيه وجب علينا أن نبين للناس فنقول ومن الله التوفيق

أما قرب الساعة فهو لا يدل على ما يزعمه الجاهلون إذ يجوز أن تبقى الدنيا قروناً متطاولة بل آلاف من السنين بل ملايين ، وربما استعظم هذا بعض العقلاء واستبعده جدا بناء على ما رسخ في أذهان العموم مستدلاً بآيات كثيرة وأحاديث كما تقدم على أن الساعة قريبة تقول له على رسلك أيها الأخ فان القرب ليس

من المهود بيننا والالقامت الساعة في حياة النبي ﷺ أو بعده بقليل فإن أعمارنا قصيرة ونحن نرى أن أقل من القرن قرب ولكن القرب على حسب علم ذلك القادر القاهر . ألا ترى الى قوله تعالى - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - فالأرض لها ملايين كثيرة وهي سائرة في الفضاء . فإذا نسبنا مائة ألف سنة أو مليوناً الى تلك الملايين الكثيرة كانت قرباً بتلك النسبة . فاذن لا مانع من بقاء هذه الدنيا وهذا العالم الى آلاف من السنين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فكل أمة اتسمت بمكارم الأخلاق وصلحت في أعمالها وكان صلاحها أكثر من فسادها فذلك هي التي تبقى حتى تتغير النيات وتهبط العزمات فتدّ الى أرذل العمر . وهذه الأمة الاسلامية قد أخذت دورها في الضعف . ولقد آن أن ترجع الى صلاحها وتأنس رشدها وتقوم من رقدتها . ومتى برهنت أمام الله والناس انها أصبحت صالحة للقيام بالخلافة في الأرض سلحت اليها أماتها - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون - ولقد علم الله وشهد العالم المتمدين (أى العارفون بمقام الاسلام منهم) أن الاسلام أعظم نصير للدنية كما يعلم بأدنى التفاتة للتاريخ . وان كنت في شك مما قصصنا عليك فاقراً كتاب «خواطرو وسوانح في الاسلام» الذي ترجمه فتحى بك زغلول تأليف الاستاذ هنرى أحد الفرنسيين . أو اقرأ كتاب ذلك العالم المؤرخ الشهير (صديو الفرنسى) ترالعجب العجيب من أمة ودين ومكارم اخلاق هيمنت على العالم أجمع

فجدوا أيها المسلمون واعلموا أن أوان ظهور مجدكم وعوده قد آن . فاسترجعوا مجدكم القديم فقد عرف العالم المتمدين وشهدت الفطر الصادقة بل شهدت العقول ودلت التجارب أن هذا زمن ظهور الاسلام ورجوع مجده القديم فلقد بدا وانتشر انتشاراً غريباً لم يعهد له مثيل في تاريخ الأديان وتم من نحو ١٣٠٠ سنة وهاهو الآن قائم يعود كما كان وينتشر انتشاراً غريباً كما انتشر أولاً وهذا معنى ما قيل «بدا الاسلام غريباً وسيعود كما بدا» أى كما انتشر أولاً انتشاراً غريباً لم يعهد له مثيل في الأمم . هكذا سيعود وينتشر بتلك الغرابة بعينها والسرعة الفائقة حتى تكون معجزة أخرى . فقوله غريباً صفة لمقدر محذوف أى بدأ غريباً . وهاهوذا الآن أوان رجوعه بتلك الغرابة . علم الله وشهد كل عالم من علماء الأرض المحققين أن للاسلام رجعة جائية وتقدماً غريباً قد ظهرت بوادره وجاء أوانه وعلى أيديكم أيها العقلاء يكون ظهوره ذلك ان شاء الله . فجدوا لارجاع مجدكم وحوزتكم . ومتى صحت المقدمات صدقت النتائج

لوتأمل علماءنا اكتشافات القوم الحديثة ومالديهم من العلوم لعلموا انها تفسيرها أجل في الدين الاسلامي وتوضيح لما غمّ علينا فيه ﴿وبعبارة أوضح﴾ ان تلك العلوم والأسرار إيضاح وكشف لمجبات القرآن . وأوضح من ذلك أن ذلك مقدمات ظهور سيدنا عيسى وتمهيدات له حين يأتي والناس قد استعدت فطرتهم للاسلام قاطبة ونصير الأرض كلها اسلاماً بأمر سيدنا عيسى وكأني ببعض اخواني يضحك من سماع مثل هذا الكلام ونحن نقول له أعر استحضار الأرواح هناك لفنة ترالعجب العجيب وتجد مجبات العلوم تظهر على أيدي هؤلاء - ولتعلن نبأه بعد حين -

جاء وعد رسولنا الصادق الأمين بأن عيسى عليه السلام يأتي في آخر الزمان ويحكم بشر يعتنا أو يظن أن ذلك يكون بدون مقدمات للاسلام ومبشرات بين يدي ذلك النبي . كلا . ثم كلا . وهذا الظهور كل من العلماء يفهمه بما يوافق مشربه ولا تتعرض له وانما علينا ذكر النص وكل يفهم ما يناسب معارفه انظروا الى المستشرقين في أوروبا يقرؤون هذا الدين ويحجبون أى اعجاب . انظروا لأولئك المتعربين في أوروبا الذين يجيبهم كل شئ صدرنا وهم نظير المتفرجين عندنا فالقوم في بلادهم لا يعرفون عن الاسلام شيئاً إلا قليل منهم وكل من عرف شيئاً منه تشبث به . ولا بد أن يكون هذا القرن الآتى أوان ظهور شمس حقايقه في ربوع العالم المتمدين حتى تأنس ببعض معارفه الأذهان قبل مجيء ذلك النبي في آخر الزمان يحكم

بشرع خير ولد عدنان . فكيف بعد هذا كله يقنط المسلمون من رحمة الله . وهذا وعد لهم . أم كيف ثبت في عقولهم أن دولهم تنقرض وهم الذين ورد فيهم « لانزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله » فهذا الدين وهذه نصوصه . فمن ظن أن الساعة قد جاء وقتها وأن الاسلام سينقرض فقد جهل وضل وأصل وادعى انه أعلم من رسول الله ﷺ

والله تعالى يقول - يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو قبلت في السموات والأرض لا تأنيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون -

فكيف جاء قوم اليوم جعلوا أنفسهم أعلم من رسول الله وزعزعوا قلوب الناس وأرجفوا وخوفوا وافتروا على الله كذبا في أمر الساعة - إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون - وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير - ولكن إن بحثت عن هؤلاء تجد ان أكثرهم بها لا يعرفون - يستجمل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد -

فتأملوا يا قوم وافهموا القرآن فان إخفاء الساعة سرّ مكنون ومنه أن يقيم الناس دولهم ويأملوا في بقائها ودوامها . ومتى عرفوا قربها اختلت روابط الأمم ووقفت الحركة وانترعت البركة . ولذلك أعقب هذه الآية بما يشير الى ذلك حيث قال - الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز -

وإذا كان إخفاء الساعة سياسة لاصلاح المعاش والميعاد معا ولطفا من الله بالمعاش في الدارين لافي الدنيا فقد أوردنا الى أن الرزق المذكور يؤتى به كالتابع لأعمال الآخرة ولذلك أعقبه بقوله تعالى - من كان يريد حوث الآخرة زدله في حوته ومن كان يريد حوث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب هذا ورجائي من كل من اطلع على هذا أن ينشر هذه الفكرة في كافة أنحاء المعمورة حتى تنزع تلك الضلالة من الأذهان اه

### ﴿ تذكرة ﴾

إني قلت « بدأ الاسلام الخ » بصفة انها حكمة عامة .

### اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

وهي ست لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في تفسير البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور جميلة وبدائع كشفها القوم في زماننا مصداقا لقوله تعالى في آخر السورة - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في قوله تعالى - فصلت آياته قرآنا عربيا - وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وقوله - سترهم آياتنا - الخ وفي هذه معجزتان : الأولى ان الكشف أظهر أن الأرض لم تكون فجأة . الثانية : ان الأيام قد بلغت في علم الفلك مئات الملايين وهذا يقرب من أيام خلق الأرض

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم - مع

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

قوله - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - وكيف ظهر علم الأيدي والأرجل وكشفها للجنايات في الدنيا وإنما إذا قبلت شهادتها عند الله فالقضاة أحرى أن يقبلوا شهادتها وهذه مجزة أيضا لأن الأيدي والأرجل اختصتا بذلك في الكشف دون سائر الأعضاء

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة -

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم -

### ﴿ اللطيفة الأولى ﴾

( في البسمة وذ كر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور

كشفها القوم في زماننا مصداقا لقوله تعالى في آخر السورة - سنريهم آياتنا في الآفاق - )

تجلىت الرحمت العامة في هذه السورة بصورتين اثنتين جيلتين مهيبتين ، صورة الحروف ، وصورة العناصر ورمز هذين بالحاء والميم ، الرحمة وسعت كل شئ ، وتجلىت في هذه السورة في الحروف والعناصر ، والحروف والعناصر يرجعان لشئ واحد هو التحليل ، اللغات التي يعرفها الناس تقدر الآن بنحو خمسة آلاف لغة ذكرت مجملها في ﴿ سورة الروم ﴾ عند قوله تعالى - واختلاف ألسنتكم وألوانكم - فارجع اليه إن شئت ، وكلها راجعات لشئ واحد هو الصوت كما ان العناصر التي وصل المعروف منها الآن حوالى الثمانين عددا منها تركبت جميع هذه المخلوقات ، اللغات حركات في الهواء ، ومجانب الطبيعة حركات في الأثير ، وكلها تحلل الى أصولها الأولى ، باللغات ندرس العلوم ويتعارف الناس ، وبالعناصر وتركيبها تكون حياة الحيوان والانسان

تجلىت رحمت الأصوات والحروف في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - واللغة العربية كما تقدم في ﴿ سورة الروم ﴾ إحدى اللغات السامية التي تدرجت من حال الى حال كما ستره قريبا ، فهي أبدا متقلبة متقلبة ، فبينما ترى قدما العرب في الجزيرة قبل تاريخ الميلاد بيضعة آلاف يكتبون بالقلم السومري الآتي بيانه وصورته اذاهم يكتبون في الجاهلية قبل الاسلام بقلم آخر اذاهم يكتبون في زمن النبوة بقلم أقرب إلينا ، وهكذا نفس الألفاظ تتغير لهجاتها تباعا متطورات تطوّر الأزمان والقرون والسنين ، ولكن لما جاء الاسلام استقرت اللغة العربية لفظا وخطا على أساس متقاربة الى الآن مجزة لهذا القرآن كما ستره موضعا ، إذ انك ستري فيها يأتي سورة الفاتحة والاخلاص مكتوبتين باللغة الصينية ومعهما اللغة العربية ، فذلك التبدل الذي يعتري اللغات لم يجر على اللغة العربية إلا في طريقة التحسين والبهجة ، أما تغيير الحروف لفظا وخطا تغييرا جوهريا كما يعتري جميع اللغات فهذا لم يكن . ولما كان هذه المجزة آثارها التي ظهرت في المسكونة من أقصاها الى أقصاها قال في نفس هذه السورة - ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي - الخ فكانت هذه الآية رمزا الى ما هو حاصل الآن من أن القرآن يكتب باللغة العربية وان كان القراء له أعجميين لأنهم لو قرؤوه بلغاتهم لورد عليهم هذا الاشكال . أنبي عربي وقرآن أعجمي - وهذا هو السر في حفظ نفس اللغة العربية مع القرآن أينما حل

هذه هي الرحمة التي تجلىت في هذه السورة في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لأنه لو كان

أعجميا لقليل هلا فصلت آياته بالعربية التي نزل بها فاذا قرئ بغيرها لم يكن مفصلا بل كان مبهما أعجميا . وبهذا تم الكلام على الآيات المفصلات الناجات من الحروف

### ﴿ الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسموية ﴾

اعلم أن القرآن لا يفرق في الآيات بين كونها متولة بالألسته أو بين كونها مسموعة بالأذان أو مخلوقة في الأرض

والسماوات مركبات من العناصر منظورات بالعيون . الله خلق السمع والبصر . وللمسمع جاءت اللغات ومنها العربية . وبالعربية سمعنا القرآن وبقى الى الآن باللغة العربية لفظا وخطا . وللبصر خلق الكواكب والمركبات الأرضية والبيئات . إذن الآيات مسموعات ومبصرات . وكما جاء في القرآن ذكر السمع والبصر . ويقول سبحانه - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - وما الفؤاد إلا الهيئة النفسية التي بها تفهم وتبصر فيما سمعنا وفيما رأينا ، والسورة مبدوءة بالآيات المسموعة لأن الناس في أول أمرهم يعملون بما يسمعون ، فإذا ارتقوا قليلا فهموا ما يبصرون ، فالناس أولا يؤمنون بما يسمعون بسبب صدق الخبر لهم ، ثم بعد ذلك يفكرون بأنفسهم فيما سمعوه ، فالآيات المسموعات تكون أولا والآيات المبصرات تتلوها . لهذا ذكر المسموعات وتفصيلها أولا ثم تلاها بالآيات المبصرات ، فإذا تلا علينا ؟ تلى علينا أولا اجمال هذه الدنيا وأن الأرض خلقت فيها الجبال والنبات والمعدن والحيوان والانسان ، وكان ذلك كله في أربعة أيام ، وأن السماوات خلقت وربت ونظمت وأعطيت كل سماء نظامها الخاص بها وزينت بأجمل زينة وأبهج منظر . وذلك في يومين . وكان مبدأ أمر السماء دخانا فما زالت العناية بها حتى صارت وصارت الأرضون بالحال التي نراها عليها الآن . ولا جرم أن المذكور هنا إجمال . فهنا سماء وههنا أرض أمرا أن يأتي طوعا أو كرها ولكنهما أقل من أن يعصيا خالقهما فأطاعتا والطاعة إيمان تكون بالخدمة ولا خدمة إلا بحركة والحركة دائمة من أول خلق العالم الى فثاته ، بل نفس العالم هو نفس الحركات كما قررناه في مواضع من هذا الكتاب فالعالم كلها مستخرجات جاريات متحركات وكلهن آيات . وهذه الآيات المبصرات ترجع الى آيتين اثنتين في المشاهدات آيات السماء وآيات الأرض . وكما أن مبدأ السورة فيه ذكر الآيات المسموعات القرآنية في تفصيل القرآن العربي والآيات المبصرات الكونية في خلق الأرض والسماوات ، هكذا في القسم الآخر منها تأييد كون القرآن لا بد من بقائه بالعربية الى آخر الدهر كما قدمنا وذلك في الآيات المسموعات وتبيان الآيتين الكونيتين المذكورتين أول السورة إذ يقول تعالى - ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر - ويقول - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - . إذن ماجاء في أواخر السورة مبين لما جاء في أولها . فكون القرآن لا يصح أن يكون أعجميا راجع لقوله تعالى - كتاب فصلت آياته - الخ وكون السماوات من آياته وخروج النبات من الأرض من آياته راجع لما في أولها من خلق السماوات والأرض ومن قبل ذلك اتبع ذكر الآيات القرآنية والآيات السماوية والأرضية بانذار المشركين وشهادة الجلود ونطقها . والنار المؤلمة لهم . والعداوة التي تقع بينهم إذ يعذبون وتبشير المؤمنين بأن لهم ما يشتهون . ثم ذكر علم الأخلاق . وذكر حسن المعاشرة . والصبر . وجيل الأخلاق . وختم السورة بوعد جميل قائلا : إن الآيات بقسمها سواء أكانت في القرآن أم كانت في السماوات والأرض سأريكموها . فمن آيات القرآن المسموعة ان هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا قد ظهر ظهورا واضحاً فان أهل أوروبا الذين كان هذا القرآن سبب نهضتهم الحديثة أصبحوا اليوم يبسطون بالاسلام وبأهل الاسلام . ومع ذلك غلبهم هذا الدين وبقى محفوظا . والدليل على ذلك ما نراه من أنه مكتوب بالحروف العربية في بلاد الصين كما استراه في الصورة الشمسية في هذه السورة كما ذكرت آنفا . أفليس هذا هو نفس الوعد الذي في آخر السورة . وهل أحد ملزم أن يظهر هذه المعاني أكثر منا نحن الذين نعيش في الأرض الآن . المسلمون المتأخرون قبلنا لم تكن لديهم مواصلات مثلنا . إذن وجب على أنا أن أقول للمسلمين بعدنا أيها المسلمون : وعدنا الله أن يرينا آياته وهذه الآيات منها المسموع مثل ان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد ظهر واتضح . وأن أقول أيضا . أيها المسلمون : إن الآيات المبصرة التي وعدنا الله أن يرينا لنا قد أراها فعلا ونشرها في الأرض . الله وعدنا أن يرينا آياته . والآيات المبصرات المذكورات في السماوات والأرض جعلت اثنتين اجمالاً في السورة

ولكن هذا الاجال فصل . وتفصيل هذا الاجال جاء في علمين اثنين : علم الفلك . وعلم طبقات الأرض  
(الجيولوجيا)

الله أكبر : هاهو سرّ القرآن ظهر ، هاهي العلوم ، هاهي ذه علوم الله وآياته ظهرت وبهرت ، هذا وعد  
الله والله لا يخلف وعده ، الله رحيم ومن رحته أنه لا يدع عباده يتخبطون في دياجير الظلام تأهين حارين  
لا يستقرون . الله سبحانه وتعالى لا يدع المسلم متحيرا يقول يارب أنت قلت انك خلقت الأرض ونظامها في  
أربعة أيام . وخلق السموات في يومين . فأنا يارب في حيرة . يارب أنت أمرتنا بالوضوء والصلاة وبالزكاة  
وبالحج وبالعاملات . وخلقنا لنا المجتهدين كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل والامام زيد والمجتهدين من  
الشيعة . يارب إن هؤلاء ما بينوا لنا إلا الأعمال . والأعمال تصقل النفوس . والنفوس متى صقلت استعدت  
للعلم . وأنت أنزلت في هذه السورة آيات مسموعة وآيات مبصرة وأمرتنا بالاستقامة فيها إذ قلت - فاستقيموا  
اليه واستغفروه - . وبعد ذكر الاستقامة ذكرت لنا آيات السموات وآيات الأرض . وكما أنك أوضحت آية  
المبصرات وآية المسموعات في أواخر السورة بذكر كون القرآن عربيا . وبيان أن السموات والأرض من  
آياتك أوضحت أيضا نتائج الاستقامة المذكورة في أول السورة إذ قلت - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا  
تنزل عليهم الملائكة - الخ . ففي السورة آيات مبصرة وآيات مسموعة وأعمال مشروعة بالاستقامة وكلها  
فصلت في السورة . وهذه الأعمال المشروعة لصقل عقولنا ماهي إلا المقدمات للتبحر في العلوم . وكيف تدخل  
العلوم قلوبا غير صافية لم تصقل وصلقلها بالاستقامة . وزيد ياربنا أن نكون علماء فيعلم نصل اليك  
يقول الله أنا رحيم ، رحمتي وسعت كل شيء ، أنا رحمت الحشرات فجعلت لبعضها آلاف العيون لتبصر  
فكيف لا أعلم الانسان . هاأنذا شرحت وفصلت الآيات في علم الجيولوجيا والفلك ، فليقرأه المسلمون لأنه  
جميل ولأنه بهيج . نعم إن هذه العلوم الأرضية لم تصل الى غاية الكمال لأن نفوسكم لا تحتمل الكمال في العلم  
وأتم الآن عندكم مبادئه بأهل الأرض لأنكم لا تؤتون من العلم إلا قليلا ، ومن هذا القليل علم الجيولوجيا  
والفلك . أقول أنا ولقد جاء في هذا التفسير أن اليوم إما (٢٤) ساعة وذلك بدوران الأرض حول نفسها في  
اليوم والليلة واما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل الى (٣٠٠) مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل ، وهذه  
الثلاثمائة المليون سنة لدوران المجرة التي منها شمسنا على نفسها ، فاذا سمعنا الله يقول - وإن يوما عند ربك  
كألف سنة مما تعدون - أو يقول - في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة - فهذا فتح باب لمعرفة دوران  
الكواكب وأيامها وسننها ، وبه نعرف الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض . وهذا كله لاتساع العلوم  
والمعارف فليست الأيام قاصرة على ألف ولا على خمسين ألف و ٣٠٠ مليون سنة بل تكون أكثر وأقل  
باختلاف الشمس والمجرات والسلم . وأنا أحمد الله تعالى إذ كان هذا التفسير مملوا بهذه العجائب ، فيه  
مقنع لكل من اطلع عليه ، فالحمد لله الذي ألهم وعلم . هذا من حيث الأيام وأن علومها اتسعت في زماننا  
فأصبحنا نعدها بمئات الملايين

بقي علينا أن نبحث من علم الجيولوجيا في نظام هذه الأرض والسموات وتدرجهما من حال الى حال  
وأن السموات كانت دخانا وهذا بيت التصيد

فلاشرح هذا الموضوع بتدر الامكان من علم الجيولوجيا تفسيرا لقوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق  
وفي أنفسهم - ولقوله - قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون لله أندادا ذلك ربّ  
العالمين \* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين \* ثم استوى  
الى السماء وهي دخان - الى آخره  
أيها المسلمون : إن الله تعالى من عنايته بنا ذكرهنا ﴿عشرة أفعال﴾ في هذا المقام : « خلق ،

جعل ، بارك ، قتر ، استوى الى السماء ، فقال ، قالتا ، فتظاهرن ، أوحى ، زينا ، فهذه الأفعال العشرة جاءت على وتيرة واحدة وهى أفعاله تعالى نفسه . واذا كان الأئمة رحيم الله قداعتنوا بآية الوضوء والغسل والتيمم فألقوا فيها كتبنا وليس فيها إلا أفعال خمسة من أفعالنا نحن وهى اغسلوا وامسحوا اطهروا تيمموا فامسحوا هذه أفعال خمسة من أفعال العبد استغرقت كتبنا في المذاهب المختلفة ولم تنل هذه الأفعال العشرة التى هى من أفعال الله جزءا من ألف مما استنفذته نتائج الأفعال الخمسة العملية فى الوضوء والغسل والتيمم . أفليس هذا أعظم تقصير ! أفليس من العار أن يسمع المسلم الله يقول - فقال لها وللأرض - الخ ولا يبحث ولا يفكر ، إن ذلك جهل مبین

إذن لنبحث ونشمر عن ساعد الجد فى كسب أمرين : أمر علمي ، وأمر عملي . أما الأمر العلمى فهو الجلال والبهاء والنور والحكمة والسعادة النفسية لأن علم طبقات الأرض وعلم الفلك يرقيان نفوسنا ، ولا معنى للإنسانية إلا العلم ، ومتى ارتقت النفوس قربت من ربها إذ لا قرب إلا بالعلم ، وما العمل إلا صقل للنفس واعدادها غالبا ، هذا هو الأمر العلمى

أما الأمر العملي ، فإنا لن ننال حظا فى حياتنا إلا بالعلم . وكيف نعرف خواص النبات أو الحيوان إلا بدراستهما . وكيف نستخرج القمح من الأرض والملح والمعادن والسوائل كالبترول والغازات اللاتى عرفها أهل أمريكا فأوقدوا بها مصابيحهم من نفس الأرض إلا بعلم طبقات الأرض التى وعدنا الله بتفصيلها . فأذكر لك فيما يأتى شذرات منه . وعلى المسلمين بعدنا إتمام مابدأناه فان ذلك واجب عليهم شرعا ، فأجعل الكلام على الأرض فى ﴿ باين ﴾ باب العلم ، وباب العمل

- (١) باب العلم . لأبدأ أولا بذكر معلومات عاكمة عن الكرة الأرضية
  - (٢) ثم أتقى بذكر أهم النظريات الحديثة من حيث ان أصل الأرض كانت سديما أى ذرات معدنية
  - (٣) ثم أتبعه بذكر العصر الأول للأرض
  - (٤) وبعده عصر الحياة القديمة
  - (٥) ثم عصر الحياة الوسطى
  - (٦) ثم عصر الحياة الحديثة وما فيه من بقايا خشب وغابات متحجرات
  - (٧) وما يتبع ذلك من العصر الحجري القديم
  - (٨) ثم العصر الحجري الحديث . وعصر البرنز
- ثم بلى ذلك باب العمل ، وهو ذكر نبذة من تاريخ المعادن بالقطر المصرى . فلا شرع فى تفصيل ذلك فأقول ومن الله التوفيق

## ( باب العلم وفيه ثمانية فصول )<sup>(١)</sup>

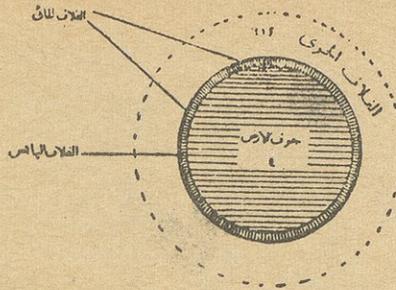
### ( الفصل الأول )

( فى ذكر معلومات عامة عن الكرة الارضية )

تطلق لفظة الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذى نساكنه سواء منه اليابس والماء وعلى ما يحيط به من هواء

ويمكن تقسيمها لسهولة البحث تقسيما طبيعيا الى أربعة أجزاء ( انظر الشكل ١٣ فى الصفحة التالية )

(١) هذا وما بعده فى هذا العلم من كتاب الجيولوجيا تأليف الدكتور حسن صادق مراقب مصلحة المناجم



(شكل ١٣)

قطاع تخيلى يوضح أقسام الكرة الأرضية

وفى الواقع أن الجيولوجيا تبحث فى تكوين وتركيب القشرة اليابسة وما تحدثه فيها العوامل الناتجة من تفاعلات الأجزاء الثلاثة الأخرى

### ﴿ الغلاف الجوى ﴾

يطلق هذا اللفظ على مجموعة الغازات التى تحيط بالكرة الأرضية . ولا اعتبارات عديدة يقدر سمك هذا الغلاف تقديرا تقريبا بنحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ ميل على أنها بحكم قلة ضغطها أو كثافتها كلما بعدنا عن سطح الأرض تكاد لا تكون محسوسة على ارتفاع ٢٥ ميلا من السطح

يتركب الهواء من الغازات الآتية بالنسبة المئوية المبينة أمام كل منها

آزوت (نروجين) ٧٩ فى المائة

أو أكسجين ٢١

ثاني أكسيد الكربون ٠٠٣ ر .

وهذا عدا كميات قليلة جدا من غازات نادرة مثل الأرجون والهيليوم والكريبتون والنيون والاجزينون وكذلك بخار الماء الذى يوجد بكميات متفاوتة بتفاوت سطح الأرض من حيث الرطوبة والجفاف . وهذا عدا الأبخرة والغازات البركانية والأترية الدقيقة وهى مواد وان لم تكن أساسية فى الهواء لها أحيانا أهمية خاصة من حيث أثرها فى العوامل الجوية

وترجع أهمية الهواء كعامل من العوامل المؤثرة فى سطح الأرض اليابسة إلى صفتين :

(أولاً) التأثير الكيمايى لبعض العناصر المكونة للهواء فى المعادن والصخور التى يتكون منها اليابس

(ثانيا) ميعة الهواء وسهولة حركته من جراء تغير الحرارة والضغط وما ينتج عن هذه الحركة من رياح .

ومن الهواء تهطل الأمطار ومن هبوه تتكون الأمواج وهذه كلها عوامل ذات أثر ظاهر فى القشرة

الأرضية اليابسة . وسيأتى وصف كل من هذه العوامل وأثرها

### ﴿ الغلاف المائى ﴾

يطلق هذا الاسم على ما يوجد على سطح اليابسة من ماء فى المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وما يتخلل جفواتها وشقوقها . ولو كانت الأرض كرة ملساء لاتعريج فى سطحها لقطاها ذلك الماء بغلاف سمكه ميلان أما وسطح الأرض بين مرتفع ومنخفض فقد اجتمع الماء فى مناطق الهبوط فتكونت منه المحيطات والبحار والأنهار التى تغطى نحو ثلاثة أرباع من مجموع سطح الكرة الأرضية

### ﴿ أعماق البحار والمحيطات ﴾

يختلف عمق هذا الغلاف المائى من مكان لآخر اختلافا كبيرا فالأنهار والبحيرات غالبا قليلة العمق والبحار قد يبلغ متوسط عمقها بضع مئين من الأمتار بينما المحيطات قد تبلغ من العمق آلاف الأمتار . وقد برهنت

المقاسات التي أجرتها بواخر الاستكشاف وبواخر وضع الأسلاك البرقية البحرية أن متوسط عمق المحيطات من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر وقد بلغ أكبر عمق رصدته تلك البواخر نحو ٩٤٢٠ مترا بالمحيط الهادى قرب جزائر البوليونيز

كذلك يستدل من نتائج أعمال بواخر الاستكشاف المذكورة أن قيعان المحيطات هي عبارة عن سهول ممتدة تكتنفها سلاسل من الجبال مغمورة تحت الماء وقد يصل بعضها إلى قرب سطح الماء أو يعاوه فيتكوّن منها بعض الجزائر في وسط المحيط كجزائر القديسة هيلانه في المحيط الأطلسي وجزائر ساندوتش بالمحيط الهادى والماء هو مركب كيميائى من اتحاد الأوكسجين والهيدروجين بنسبة ذرة من الأوّل وذرتين من الثانى إلا أنه يوجد في الطبيعة دائما مذابا فيه أملاح مختلفة تتفاوت في مقدارها تفاوتا عظيما فياه الأنهار وأغلب البحيرات عذبة . أى لأن الأملاح المذابة بها قليلة بينما مياه البحار والمحيطات مالحة أى مذاب بها كمية كبيرة من الأملاح وتزيد نسبة الأملاح المذابة في مياه البحار المغلقة في المناطق الحارة نظرا لارتفاع نسبة البخر وعدم تعويض المياه التي تفقدها كافي البحر الميت بفلسطين . انتهى الفصل الأوّل

### ﴿ الفصل الثانى ﴾

( في أهمّ النظريات الحديثة من حيث أن الأرض كانت سديما )

اعلم أن العلماء بحثوا في أصل الكرة الأرضية علما منهم بأن المركب ان لم يحلل الى عناصره والعلم ان لم تعرف أصوله ومبادئه وأحواله الماضية لم ينتفع الناس به كما ان اللغات لانكون مفيدة مالم تحلل الجمل الى كلمات والكلمات الى حروف ، والحاء والميم اللذ كورتان في أوّل هذه السور شاهد عدل بذلك لتقوم حجة رمزية على المسلمين الذين يجهلون تحليل العلوم وأصولها لأنهم لا ينتفعون بها ولا بالحياة على هذه الأرض وإذن نشرح في آراء العلماء فنقول .

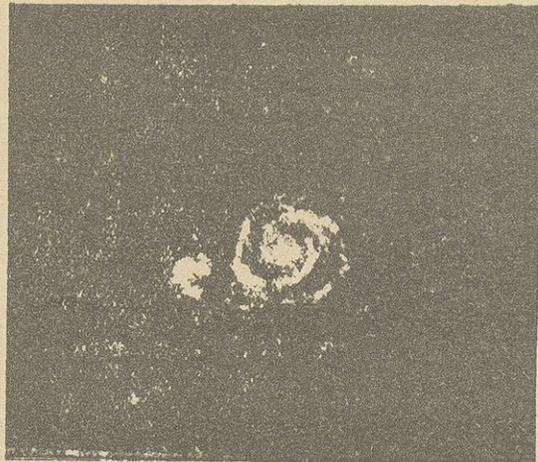
لقد وضع العالم الفلكى الألماني ( كانت ) سنة ١٧٥٥ نظرية لأصل هذه العوالم . فقال « إن الفضاء السماوى كان قبل تكوين الشمس العظيمة وسياراتها ملاءا بسحاب هظيم جدا مركب من مواد غازية مرتفعة الحرارة جدا ، ثم أخذت الجاذبية تلصق بعض أجزائه ببعض بحيث صار كتلا كل كتلة لها مركز خاص يدور بعضها على بعض وتأخذ الحرارة تنقص شيئا فشيئا وهذه هي الشمس التي نسميها نجوما » فلما اطلع على هذه النظرية ( لابلاس ) الفرنسى سنة ١٧٩٦ - ١٨٢٤ اشتق منها نظريته المعروفة وهي « ان المجموعة الشمسية كانت سديما حارا بلاء فضاء واسعا فأخذ يبرد شيئا فشيئا ، وبعد ذلك أخذت ترك حلقات حلقة وراء حلقة وهذه الحلقات تكوّرت وبردت وهي تدور حول نفسها وحول الشمس وهذه هي الكواكب السيارة ومنها الأرض ، فالأرض على هذا الرأى ماهى إلا من ذلك السديم وقد كانت جزءا من الشمس ، والشمس لما أخذت تتقلص وتبرد تركت أجزاء منها هي عين السيارات وعين الشمس الخ » هذا رأى ( لابلاس ) الفرنسى بعد ( كانت ) الألماني . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها في العصور القديمة جدا ( عصور الجيولوجيا ) أى علم طبقات الأرض ، وهذا الرأى هو الذى كنا ندرسه وتلقاه ونحن تلاميذ مدار العلوم منذ نحو ( ٤٠ ) سنة ، ولكن هذا الرأى الآن ظهر بطلانه لأنهم لما نظروا الى الحيوانات التي استخرجوها من باطن الأرض ( وسترى بعضها ) وقد مضت عليها آلاف وآلاف من السنين وجدوها لاتحتمل حرارة أشد من حرارة الأرض الآن وأن حرارة الأرض الآن هي حرارة الأرض قديما .

إذن هذا الرأي بطل الآن وحلّ محله رأى آخر وهو أن السديم ليس غازا بالمعنى المتعارف بل هو معدن وهذا المعدن ذرات صلبة بينها جاذبية فتكون منها سحابة سماوية أو غبار سماوي يخضع لقانون كانه جسم واحد . أقول والقول الأول والقول الثاني في نظر القرآن سواء لأن الله يقول - ثم استوى الى السماء وهي دخان - فنظر السماء دخان ، ولكن كون هذا الدخان شديد الحرارة وليس معدنا أو معدنا له أجزاء طائفة في الجو كالغبار ، فهذان شيان في أنهما يسميان دخانا . فالرأى الحديث الذى استقرّ عليه القوم أن الأصل الأول سديم والسديم كما قلنا ذرات معدنية صلبة طائرات مرتببات بقوانين ، أو هي غبار سماوي ، أو (دخان) وهالك صورته (انظر شكل ١٤)



( شكل ١٤ - منظر السديم المعروف في مجموعة نجوم الجبار كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة )

ثم ان هذا السديم امتدت منه أذرع أخذت شكلا حلزونيا بسبب دوران شكل السديم فأصبح بذلك أشبه بالسديم الحلزوني الذى يرى في مجموعة النجوم المعروفة بالسلاقي (انظر شكل ١٥)



( شكل ١٥ - منظر لسديم الحلزوني في مجموعة نجوم السلاقي كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة )

وهكذا أخذت المعادن أثناء الدوران تقوص وتنزل في وسط هذا السحاب . ولما غاصت تركت وراءها مادة أطف منها . فكانت هذه هي القشرة الأرضية . وهذه القشرة لما جددت بالبرودة انكمشت وصارت

مجمدة فهبطت منها أجزاء وهي المحيطات وبرزت أخرى وهي القارات . وقد أحاطت بالأرض أبخرة صارت ماء . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين

### ﴿ الفصل الثالث في العصر الأول للأرض ﴾

جاء في كتاب الجيولوجيا مانصه

#### ﴿ العصر الابتدائي للأرض ﴾

يبدأ هذا العصر وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجية من صخور جرانيتية . وتجمعت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة فبرزت منها أجزاء هي القارات وانخفضت أجزاء أصبحت أحواض المحيطات بفضل ما تجمع فيها من المياه التي تقطرت بالبرودة من الأبخرة التي كانت تحيط بهذا الكوكب في حالة نشأته الأولى

وتعرضت القارات الى عوامل التعرية فتفتت صخورها ثم اكتسحت المواد المفتتة الى البحار والمحيطات من جواء بعض العوامل التي تقدم وصفها كالرياح والأمطار والأنهار فتكونت الرواسب على قيعان البحار ومن ثم بدأ تكوين الصخور الرسابية

### ﴿ الفصل الرابع : في الحياة القديمة ﴾

يمثل هذا الحقب جزءا كبيرا من مجموع الزمن الجيولوجي يقدر كإقدمنا بنحو ٣٠ في المائة من مجموعته . وتدلت الحفريات الكثيرة التي وجدت دفينة بين صفحات صخوره أن سطح الأرض وجوف البحار كانت وقتئذ مرتعا لأنواع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الكائنات الحية التي تعمر وجه الأرض الآن . فكانت من بينها أجناس وفصائل ورتب قد بادت وانقرضت فليس شئ يشابهها الآن على وجه الأرض كما أن على سطحها الآن من الفصائل الشائعة ما لم تكن قد ظهرت بعد . (انظر اللوحة الأولى) في الصفحة الثالثة

ومن أهم فصائل الحيوانات التي يختص بها هذا الحقب القديم الجرابتوليت والتريلوبيت التي عاشت واندثرت قبل انقضاء ذلك الحقب فلا أثر لها بين صخور الحقب الذي يليه . (انظر رقمي ١ و٤ باللوحة الأولى) والجرابتوليت من فصيلة الحيوانات البحرية المعروفة بالبوريفرا . وهي عبارة عن سلسلة متصلة من الخلايا يربط بعضها ببعض عمود دقيق . وقد تكون فردية مستقيمة أو مقوسة أو حلزونية وقد تكون متفرعة الى فرعين أو أكثر (شكل ١ باللوحة الأولى)

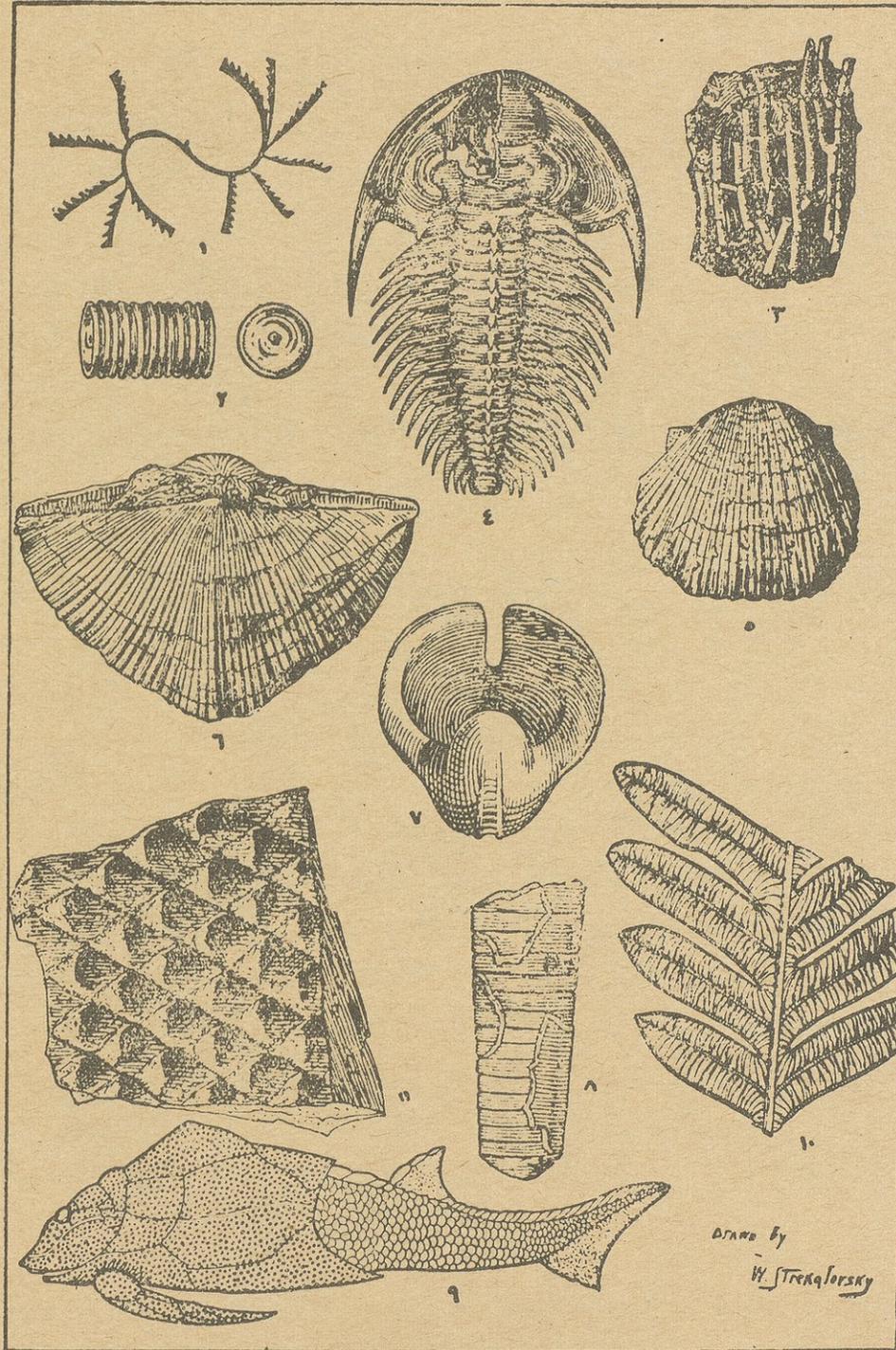
والتريلوبيت من فصيلة الحيوانات القشرية تنقسم طوليا لثلاثة أقسام هي الرأس والجسم والذنب وعرضيا لثلاثة أقسام أيضا (شكل ٤ باللوحة الأولى)

ومن أنواع الحيوانات أيضا الشعاب المرجانية (شكل ٣ باللوحة الأولى) والحيوانات المحارية (الشكلين رقمي ٥ و٦ باللوحة الأولى) وكلهما من أنواع وأجناس بادت قبل انقضاء ذلك الحقب فلم يظهر أثرها بين صخور الأحقاب التالية وليس لها وجود في البحار الحالية

وقد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقرية التي ظهرت في البحار أبان ذلك الحقب . على أنها كانت تختلف اختلافا بينا عن أسماك البحار الحالية إذ لم تكن هياكلها العظيمة قد تعظمت تماما وكان يستعيب عنها الحيوان بدرقة خارجية تغطي رأسه وجزءا من جسمه (انظر الشكل رقم ٩ باللوحة الأولى)

ومن الأسماك نشأت أنواع الأمفيبيا أو الحيوانات البرمائية . على أن ظهورها كان قرب انتهاء ذلك

الحقب ومنها نشأت الزواحف التي كان لها شأن عظيم في حقب الحياة الوسطى ( انظر شكل ١٦ )



﴿ اللوحة الأولى - انظر شكل ١٦ ﴾

(الخفريات المينة بهذه اللوحة حسب الأرقام المينة أمام كل منها). (١) جرابتوليت (٢) كرينويد (٣) شعب مرجاني (٤) تريلايت (٥) برودكتوس (٦) سيريفر (٧) بليريفون (٨) ارثوسوراس (٩) سمك بتريكس (١٠) نبات سرخسي (١١) لبيدودندرون)

## ﴿ الفصل الخامس في عصور الحياة الوسطى ﴾

جاء في كتاب « الجيولوجيا » مانصه :

كان هذا الحقب فترة سكون وهدوء لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ما تعرضت له من حركات أرضية عنيفة إبان الحقب . ولم تكن الأرض في غضون هذا الحقب المتوسط مسرحاً لتفاعلات بركانية شديدة ومع أن البحار قد عدت على بعض أجزاء من الأرض ففهرتها وألقت فوقها برواسبها المختلفة إلا أن ذلك لم يكن نتيجة حركات عنيفة من نوع التي أدت في الأحقاب الأخرى إلى رفع سلاسل الجبال العظمى كذلك كانت هناك براكين في بقاع مختلفة ولكنها لم تبلغ الشأو والانتشار اللذين بلغتهما في العصور السابقة وليس للصخور البركانية شأن كبير بين صخور تكاوين الحقب المتوسط

وقد كانت أنواع الحياة من نبات وحيوان تختلف في مجموعها عنها في عصور الحقب القديم \* فبادت من بينها فصائل كانت قد أئنت وازدهرت في العصور الأولى كالتريلوبيت والجرابتوليت وانتشرت بدلا عنها أجناس اختص بها هذا الحقب كالأمونيت والبلمنيت التي بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فأصبحت من أخص مميزات

والأمونيت (شكل ١ باللوحة الثانية) جنس من الحيوانات المحارية الرخوة محارته مستديرة الشكل مقلطحة في التواءات حلزونية بداخلها تجويف حلزوني مقسم إلى غرف أكبرها الغرفة الخارجية التي كان يسكنها الحيوان . وتفصل هذه الغرف بعضها عن بعض قطاعات مجعدة . وقد كان من هذا الجنس نحو أربعة آلاف نوع يختلف بعضها عن بعض في حجمها وشكلها وزخرفها الخارجي أما البلمنيت (شكل ٢ باللوحة الثانية) فهو حيوان ذو محارة سوداء مستطيلة أعلاها مجوف حيث كان يسكن هذا الحيوان وأسفلها ينتهي بنقطة حادة

ومن أنواع الحيوانات التي تكاثرت في العصور الجيولوجية الوسطى الشعاب المرجانية التي كانت تشبه الشعاب التي تتوالأ في بحار المناطق الاستوائية (انظر شكل ١٧) في الصفحة التالية

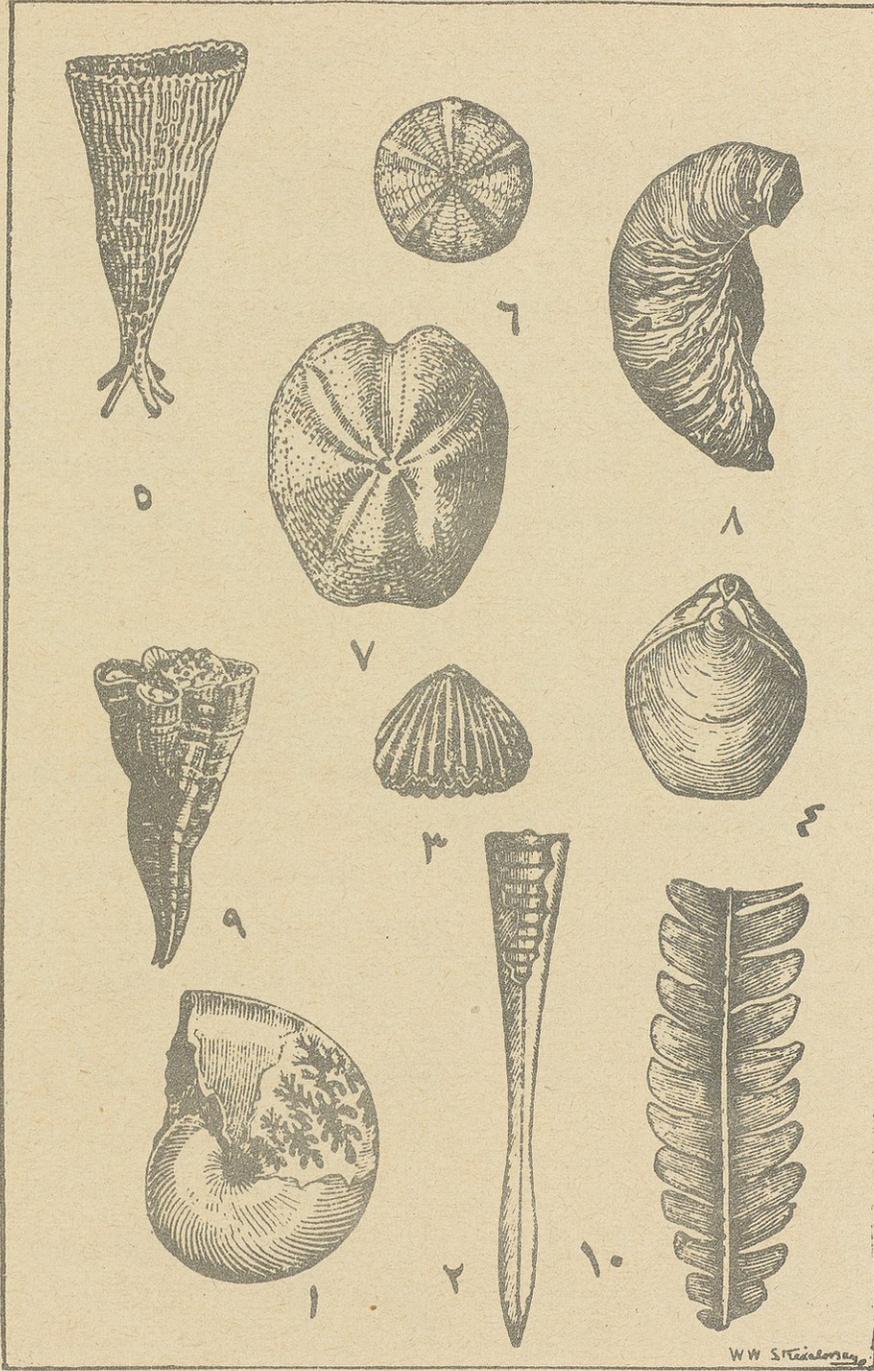
## ﴿ الفصل السادس . في عصور الحياة الحديثة . ( الكاينوزوي ) ﴾

جاء في كتاب « الجيولوجيا » مانصه .

ترجع تسميته إلى الشبه الكبير بين ما كانت تعيش فيه من نباتات وحيوانات وما يعيش منها الآن مع العلم أن كلمة ( كاينوز ) يونانية معناها حديث أو جديد وكلمة ( زون ) كلمة أخرى معناها حياة وقد بدأ ظهور الفصائل والأسر والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات مع ابتداء هذا الحقب وصارت تزايد نسبتها كلما تقدمنا فيه . فكانت مجموعة الحياة تزداد شها بالمجموعة الحالية . وكان في ذلك تدرج من الحياة الوسطى إلى الحياة الحالية

وكانت أجناس الأمونيت والبلمنيت التي اختصت بها العصور الجيولوجية الوسطى قد اندثرت شيئا فشيئا قبل بزوغ الحقب الحديث كذلك بادت الزواحف الكبرى التي تفوقت في تلك العصور على باقي الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هي التي بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالي والثماسيح والأفاعي

ومن أخص مميزات أنواع الحياة في ذلك العهد النوموليت والسريريوم وهي لم تكن قد ظهرت قبل ذلك . ومن الحيوانات الفقرية امتازت الثديية فتفوقت على باقي أنواع الحيوانات جميعا . وبلغت المملكة النباتية



(اللوحة الثانية - شكل ١٧)

(مجموعة أهم الحفريات في صخور حقبة الحياة الوسطى بالقطر المصري)

(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثانية حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هي: (١) أمونيت (٢) بلانيت (٣) رينكونيلا (٤) تريبراتولا (٥) اسفنج فنتريكوليتس (٦) هولكتيوس (٧) هيمياستر (٨) أوستريا (٩) رودستا (١٠) نبات سرخسي)

ما لم تكن قد بلغت قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزيها  
ويقدرون عدد أنواع الحيوانات التي عاشت في عصور الحقب الحديث بنحو ٢٠ ألف نوع أهمها تابع  
للأجناس الآتية

النوموليت وهي حيوانات من فصيلة الفورامينيفراتسكن الى هيكل جيري مستدير مختلف حججه وشكلا  
من حبة العدس الى القطعة ذات العشرين قرشا . وقد كانت استدارتها ورقتها التي جعلتها شبيهة بقطع النقد  
سببا في تسميتها . فاذا قطعت نصفين رؤيت منقسمة في الداخل الى خلايا صغيرة مرتبة في صفوف حلزونية  
يفصل بعضها عن بعض حواجز رقيقة (انظر شكل رقم ١ باللوحة الثالثة) وقد اقتصرت حياة النوموليت  
على العصر الأول من عصور هذا الحقب وتكاثرت فيه وكان من جراء تراكم محاراتها أن تكوّنت الأحجار  
الجيرية النوموليتية ومنها أحجار جبل المقطم وهضبة أهرام الخيرة

ومن القنافذ البحرية جنس الأكينولامياس . ومن الحيوانات الرخوة السريثيوم وهي من القواقع  
ذات المحارات الحلزونية المزخرفة من الخارج بأزرار وخطوط وقد بلغ بعض أنواعها حجما كبيرا . ومنها أيضا  
البلانوريس وكانت تسكن المياه العذبة

ومن الحيوانات الرخوة ذات المحارات المزدوجة الأوستريا (شكل ٦ باللوحة الثالثة) والبيكتن (شكل ٧  
باللوحة الثالثة) واللوسينا (شكل ٢ باللوحة الثالثة)

وقد انتشرت الحشرات انتشارا كبيرا وذلك يرجع لانتشار النباتات الزهرة . فكان من بينها أنواع النحل  
والبعوض والنمل والفراش وقد حفظت حفريات بعضها بحالة جيدة جدا داخل قطع الكهرمان (الكهرمان)  
الذي هو عبارة عن صمغ بعض الأشجار الصنوبرية التي كانت منتشرة في غابات ذلك الحقب

ومن الحيوانات الفقرية الأسماك وكانت تشبه الأسماك الحالية كل الشبه . والأمفيا والزواحف التي كان  
من بينها السحالي والثعابين والسلاحف والتماسيح التي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الوقت الحالي

واندثرت الطيور ذات الأسنان التي كانت قد نشأت في أواخر العصور الوسطى وأخذت مكانها أنواع لاأسنان  
لها تشبه الطيور الحالية

أما الحيوانات الثديية فقد بلغت أقصى حدود السكالك في ذلك الحقب وتفوقت على باقي أنواع الحياة جميعا  
ومن الهياكل العظمية التي وجدت مدفونة في باطن صخور ذلك الحقب أمكن تتبع الحلقات المختلفة في

نشوء بعض الأجناس التي تعيش على الأرض الآن

فالقيل مثلا نشأ في العصور الأولى من ذلك الحقب من جنس الماستودون وهو حيوان بلغ طوله (٥) ونصف من  
الأمطار وارتفاعه ٤ أمتار وله نابان في كل من الفك الأعلى والأسفل (انظر شكل ١٨ أي اللوحة الثالثة) في  
الصحيفة التالية





(شكل ١٨ - اللوحة الثالثة)

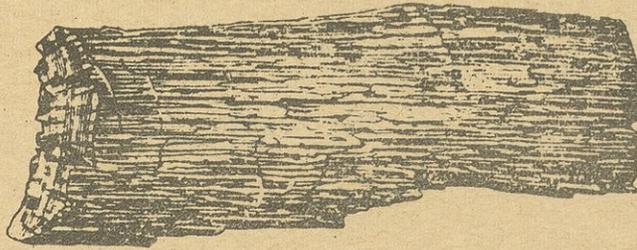
(مجموعة أهم الحفريات في صخور حقبة الحياة الحديثة بالقطر المصري)

(أسماء الحفريات الميمنة باللوحة الثالثة حسب الأرقام الميمنة أمام كل منها هي (١) نوموليت (٢) لوسينا (٣) نانيسكا لونجا (٤) سرطان بحري (٥) فاكهة متحجرة (٦) أوستريا (٧) بكتن (٨) سن الحوت (٩) ورقة شجر (١٠) كليبياستر)

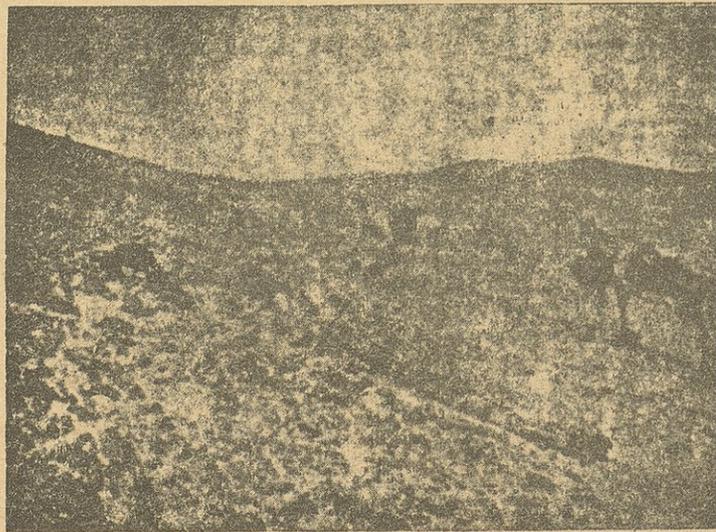
### ﴿ الفصل السابع في العصر الحجري القديم ﴾

اعلم أن عصر الحياة الحديثة المتقدم ذكره قسمه العلماء الى قسمين عظيمين : عصر ثلاثي وعصر رابعي وفي العصرين ظهرت أنواع من الحيوانات الرخوة وهي لا تزال حية الى الآن . وقد وجدوها ستة أنواع في أزمان مختلفة . وفي هذا العصر كانت بعض الغابات المتحجرة وهي الأماكن التي تظهر على سطحها هذه الطبقات الرملية التي تحتوى على بقايا الخشب المتحجرة . وبتأثير عوامل التعرية فيها تكتسح الرمال وتبقى الأشجار المتحجرة ملقاة على السطح . ومن أمثلتها « الغابة » المشهورة الواقعة على بضعة كيلومترات شرق العباسية حيث ترى كثيرا من سيقان الأشجار يبلغ طول بعضها عشرين مترا . وهي محتفظة بدقيق تركيب أليافها حتى إنها تشبه الخشب في شكلها الخارجى إلا أنها مركبة من مادة سيليسية بدلا من مادتها الخشبية الأصلية . وقد استبدلت بالمادة الأصلية مادة السيليس ذرة لذرة في مياه معدنية سيليسية كانت قد تفجرت من عيون في نهاية ذلك العصر ( أنظر الشكل رقم (ا) والصورة الفوتوغرافية رقم (ب) باللوحة الرابعة ) ( انظر شكل ١٩ وشكل ٢٠ )

( اللوحة الرابعة )



( شكل ١٩ ) ( ا ) قطعة من الخشب المتحجر



( شكل ٢٠ ) ( ب ) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة



اذ اعرفت ما تقدم فلنفض الكلام على العصر الحجري وهو العصر الذي كان الانسان يستعمل فيه الأحجار الصلبة ليصنع منها آلاته المختلفة . ولقد كانت هذه الآلات في أوّل الأمر مهذبة تهديبا بسيطا لاتدل على مهارة خاصة ثم تدرجت الى أرقى فأرقي حتى بلغت في النصف الأخير من هذا العصر درجة كبيرة من الاتقان . ولذلك قسم العصر الحجري الى قسمين

(١) - العصر الحجري القديم

وكانت فيه الآلات الحجرية بسيطة الشكل غير مصقولة ومن أمثلتها المجموعة التي ترى في الشكل رقم ٢١



(شكل ٢١)

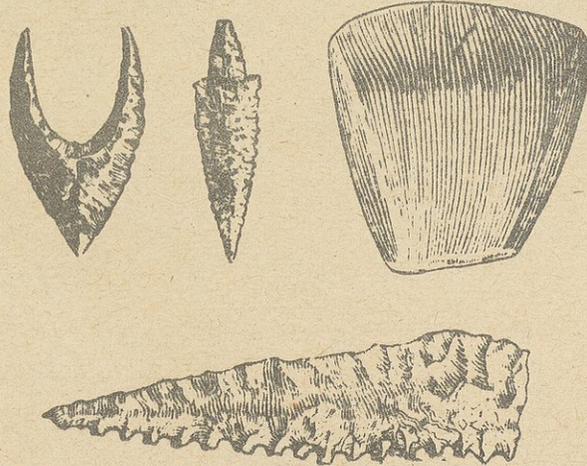
ومن الحالات التي توجد فيها هذه الآلات يتضح أن الانسان كان في أوّل الأمر هائما على وجهه متنقلا في السهول والوديان باحثا عن صيد أو هاربا من حيوان مفترس . و بعد ذلك لجأ الى سكنى الكهوف والمغارات حيث ترك وراءه فيها هياكله العظمية وبعض آثاره من آلات حجرية

ولقد بلغ بعض ساكني هذه الكهوف مبلغا عظيما من الفن فتركوا على حيطانها رسوما متقنة تمثل ما كان يعاصروهم من أنواع الحيوانات البائدة كالماموث وبعض أنواع الفزال

ومن آثار هذه الكهوف يظهر أن الانسان كان في تلك العصور النائية قد فقه فائدة النار في طهي الطعام والتدفئة . كذلك كان قد بدأ يستفيد مما عاصره من حيوانات فكان يصنع من أنياب الفيلة ومن قرون الفزلان سكاكين ورؤسا للرماح الى غير ذلك من آلات بسيطة الصنع

(٢) - الفصل الثامن . في العصر الحجري الحديث ومعه عصر البرنز

تمتاز آلات الانسان في ذلك العهد بصقلها ورقتها ودقة صنعها واختلاف أشكالها . فكان منها رموس الرماح والسهام والبلط ( انظر شكل ٢٢ )



(شكل ٢٢ - مجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث)

ذلك لأنه كان قد تقدم درجات محسوسة في سلم المدنية فزادت احتياجاته والحاجة كما نعلم هي أم الاختراع .  
ومن الرسوم التي تركها على جوانب الكهوف وعلى أيدي السكاكين يظهر أنه كان قد نجح في إخضاع  
بعض الحيوانات الوحشية فصارت أليفة تساعد على كفلحه في الحياة . فكان له منها الثور والحصان والحمار  
والكلب والقط . كذلك كان قد تعلم فنون الزراعة فزرع القمح والشعير لطعامه وزرع التيل ليصنع منه ملابس  
يتق بها عوادي الطبيعة ويستعملها في الزينة . كذلك كان قد علم شيئا عن صناعة الفخار فصنع لنفسه منه  
أواني بسيطة

وقد هجر الكهوف في آخر الأمر الى بناء مساكن بأرضها في أواسط بعض البحيرات ليأمن فيها  
من اعتداء الوحوش الضارية وقد بقيت آثار بعض هذه المساكن في بحيرات بسويسرا وغيرها من البلاد  
ويظهر أنه كانت له وقت ذلك معتقدات دينية فقد ترك وراءه هياكل أو معابد مبنية من جلاميد صخرية  
ضخمة لا بد أنها تطلبت منه مجهودا عظيما في اقامتها

### ﴿ عصر البرنز ﴾

هذا العصر يتفق في أغلب البلاد مع ابتداء العصر الجيولوجي الحديث أي عقب انتهاء عصر البليستوسين  
فكان فاتحة العصور التاريخية المعروفة

ومن الغريب أن ينتقل الانسان من صناعة آلاته من الصوان فجأة الى البرنز الذي هو خليط من معدنين  
وقد يكون ذلك من باب المصادفة

وقد شذ سكان وادي النيل القديما عن هذه القاعدة العامة في التدرج فلم يمرّوا في عصر البرنز بل انتقلوا  
من العصر الحجري الحديث الى استعمال النحاس الذي كانت لهم فيه طريقة خاصة لجمعه شديد الصلابة  
أما عصور الانسان الحجرية في القطر المصري فتوجد آثارها من آلات من الصوان في رواسب الرمل  
والحصى على جانبي وادي النيل وفي الوديان بالصحاري . وقد جمعت أحسن أمثلتها من طبقات الرمال والحصى  
بالعباسية فكان من بينها أنواع تمثل جميع درجات العصر الحجري القديم من ابتدائه الى انتهائه . كذلك  
وجدت آثار العصر الحجري الحديث في بعض بقاع متفرقة في وادي النيل نفسه وعلى مقربة من بحيرة قارون  
ويستنبط من هذا أن الانسان في العصر الحجري القديم كان منتشرا في وادي النيل والصحاري وقد  
يكون ذلك للملاءمة الأحوال الجوية لتقله في هذه المناطق . على أنه في العصر الحجري الحديث قد لجأ الى  
أماكن معينة بوادي النيل واتخذ عيشة أكثر سكونا من الأولى . والى هنا تم الكلام على باب العلم وفصوله  
العثمانية والحمد لله رب العالمين

### باب العمل

ولأذكر هنا نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري الذي هو بعض البلاد الاسلامية وهناك نصها

### ﴿ نبذة عن تاريخ التعدين بالقطر المصري ﴾

يرجع أول اهتمام بالتعدين في مصر الى العصور التاريخية القديمة . فقد كان قديما المصريين يهتمون به  
اهتماما عظيما يظهر أثره فيما فتحوه من مناجم للذهب والنحاس وبعض الأحجار الكريمة . وقد كان لما  
استنبطوه من المعادن بعض الفضل في المركز الممتاز الذي تبوّوه بين باقي الأمم . وقد ظهر من مسطوراتهم  
على البردي وعلى جدران بعض المعابد أنهم كانوا يبعثون الى الصحراء بعوثا مجهزة برجال الفن المعدنيين  
تحرسهم فصائل من الجنود لتصد عنهم عادية أهل البدو المعدنين

واستمر هذا الاهتمام بأمر التعدين طول عصر قدماء المصريين حتى عهد الرومان . ثم تولاها كاتولى باقى مرافق السولة خول تام لم تنفق منه إلا فى عصور متقطعة إبان الحكم العربى الاسلامى فلما أن تبوأ عرش مصر ساكن الجنان محمد على باشا منشئ الأسرة الحاوية الكريمة فقه بثاقب بصره أن المعادن هى أساس الصناعات جميعا ، فوجه عناية خاصة للبحث عنها ونذب من علماء الأوربيين من جابوا الصحارى المصرية باحثين منقيين . على أن المنية عاجلته قبل أن تتم جهوده الثمرة التى كان يرجوها ولم يضع مجهوده سدى . فاتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مسائل التعدين فى مصر ومابداً القرن الأخير حتى كانت جهود قيمة تبذل فى سبيل البحث عن المعادن بالصحارى المصرية . فأعيد فتح مناجم الذهب القديمة واستمر استغلال بعضها سنين عديدة ، وكشفت موارد الفوسفات والبتترول والمنجنيز وبلغ استغلال بعضها شأنًا لا يستهان به . وسقتصر فى الكلام هنا عن أهم المعادن على حسب ترتيب أهميتها

### ﴿ زيت البترول ﴾

أول ما دل على وجود البترول بالأراضى المصرية ما كان يزمنه منذ القدم على سطح الماء عند سفح جبل الزيت على شاطئ خليج السويس . وكان هذا الزسبيا فى تسمية الجبل بهذا الاسم ثم كشف بعد ذلك عام ١٨٨٥ بمنطقة الهمشة (جسا) فى مغارات كانت قد فتحت قرب الشاطئ لاستخراج معدن الكبريت . فأدى ذلك الى البدء فى عمليات البحث التى لم تتم قبل عام ١٩١٠ . ومن ذلك الوقت بدأ استغلال منطقة جسا كحقل بترولى واستمر استغلالها حتى عام ١٩٢٧ حيث نصب أغلب آبارها فأهمتها الشركة التى كانت تستغلها ( أنظر صورة أحد آبار جسا رقم ب باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية ) وفى عام ١٩١٤ كشف الشركة نفسها منطقة الفردقة التى تبعد ٦٠ كيلو مترا جنوب جسا ، وقد تقدمت الفردقة تدريجا حتى بلغت الآن درجة كبيرة من الإنتاج وأصبحت المورد الأكبر لزيت البترول ومستخرجاته بالقطر المصرى (الصورة (١) باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية) . وسنورد بعض الأرقام للدلالة على أهمية كل من هذين المكانين

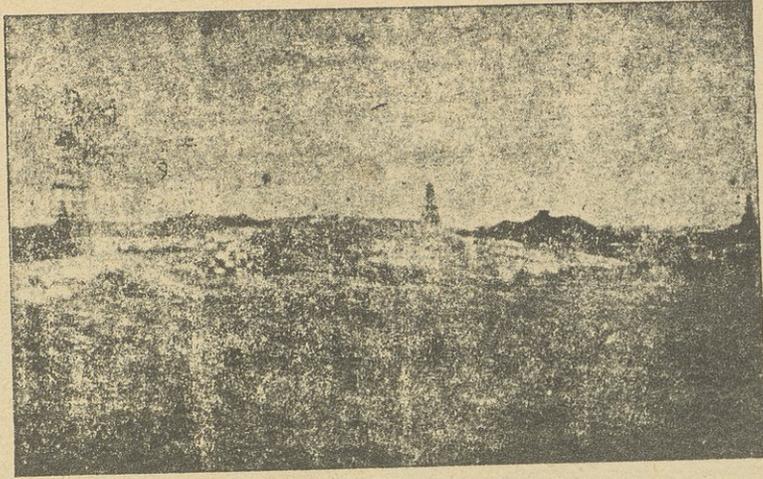
### ﴿ جسا ﴾

بلغ مجموع آبارها	٣٤ بئرا
عدد الآبار المنتجة	١٠ آبار فقط
متوسط عمقها	٤٠٠ متر
ومجموع ما أنتجته من البترول من وقت ابتدائها حتى أغلقت ١٨٢٤٨٨ طنا وكان البترول الذى أنتجته آبار جسا من نوع جيد غنى بالمواد الخفيفة كما يستدل من الأرقام الآتية	
نقله النوعى	٨٢٧ ر .
نسبة البنزين	٢٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	٣٢ فى المائة
نسبة المازوت	٤٠ فى المائة

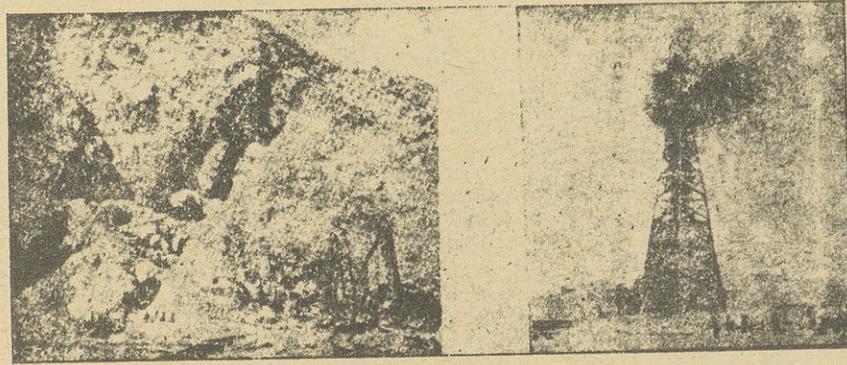
### ﴿ الفردقة ﴾

بلغ مجموع آبارها	٨٢ بئرا
عدد الآبار المنتجة	٦٩ بئرا
متوسط عمقها	٦٠٠ متر
مجموع ما أنتجته حتى نهاية عام ١٩٢٨	٩٥٥ ر ٢٨٦ ٢ طنا

## ﴿ اللوحة الخامسة ﴾



( شكل - ٢٣ (ا) منظر لجزء من حقول البترول بالفردقة )

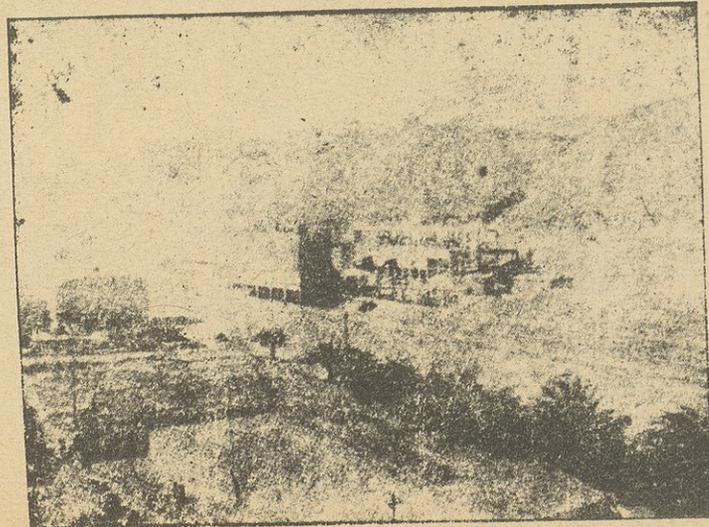


( شكل ٢٤ )

(ب) بئر في أول إنتاجه يتدفق البترول من فوهته بقوة عظيمة - جسا

( شكل ٢٥ )

(ج) أحد عروق الرو الحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية



(ا) - منظر عام لمناجم الفوسفات قرب سفاجه بالصحراء الشرقية (شكل ٢٦)



( شكل ٢٧ )

(ب) - منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا

أما نوع البترول الذي تنتجه الآبار فهو أقل جودة من نوع بترول جسا كما يستدل من الموازنة بين الأرقام الآتية والأرقام التي أوردناها

٩٢٠ ر .	الثقل النوعي لبترول الغردقة
٨ في المائة	نسبة البنزين
١٥ في المائة	نسبة الكيروسين
٥٧ في المائة	نسبة المازوت
١١ في المائة	نسبة الأسفلت
٧ في المائة	نسبة البارافين (الجمع)
٢ في المائة	نسبة الكبريت

وتخرج هذه الزيوت مختلطة بمياه مالحة تحتاج لفصلها عنها الى عمليات خاصة كما أنه تفتت من الآبار غازات كثيرة يقطر منها الجاسولين وهو نوع من البنزين الخفيف . انتهى من كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



## ﴿ اللطيفة الثانية ﴾

( في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - الخ ولقوله تعالى أيضا - سفريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ وهذه معجزة ثالثة )

اعلم أيها الذكي أن في وصف القرآن بأنه عربي ﴿ مبحثين \* المبحث الأول ﴾ لغوي ﴿ المبحث الثاني ﴾ علمي وسياسي

## ﴿ المبحث الأول وهو اللغوي ﴾

جاء في كتاب « الاتقان . لعالم القرآن » في الجزء الأول صفحة ١٢٧ ما نصه :

« وأقوى ما رأيت لنزول غير العربي في القرآن وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التامبي الجليل . قال : « القرآن من كل لسان » . وقال قبل ذلك : وأجابوا عن قوله تعالى - قرآنا عربيا - بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرج عن كونه عربيا ، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية . ثم قال . وروى مثله ( أي مثل ما قاله أبو ميسرة ) عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه . فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن انه حوى علوم الأولين والآخرين ونبا كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لئتم إحاطته بكل شيء فاختره من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب . ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت اليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه لغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير » اهـ

وأيضاً فالنبي ﷺ مرسل إلى كل أمة ، وقد قال تعالى - وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه - فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو اهـ

وهاذا ملخص لك ماجاء في ذلك الكتاب مما ورد من لغات قبائل العرب المختلفة ، ثم أتبعه بما جاء فيه من لغات الأمم المختلفة ليكون ذلك ذكرى لأولى الألباب

ولقد اخترت أن يكون على هيئة جدول لطيف بحيث تكتب الكلمة وأمامها معناها وأمامها في صفهما اسم القبيلة ليكون ذلك أحسن وضعا وأتم صنعا وأقرب فهما وهاهي ذه في الصفحات التالية



القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
هديل	ناحيته	شا كلته	حير	مكتوبا	مسطورا
»	ظنا	رجا	كنانة	الجهال	السفهاء
»	ملجأ	ملتجدا	»	صاغرين	خاسين
»	يخاف	يرجو	»	تلقاه	شطره
»	نقصا	هضما	»	لانصيب	لاخلاق
»	مفبرة	هامدة	»	أحرارا	وجعلكم ملوكا
»	أسرع	واقصدني مشيك	»	عيانا	قيلا
»	القبور	الأجدات	»	سابقين	مجزين
»	مضىء	ثاقب	»	يغيب	يعزب
»	حالمهم	بالهم	»	تميلوا	تركنوا
»	ينامون	يهجعون	»	ناحية	نجوة
»	عذابا	ذنوبا	»	ملجأ	موتلا
»	المسامير	دسر	»	آيسون	مبلسون
»	عيب	تفاوت	»	طردا	دحورا
»	نواحيها	أرجائها	»	الكذابون	الخراصون
»	ألوانا	أطوارا	»	كتبا	أسفارا
»	نوما خفيفا	بردا	هديل	كفور للنعم	كنود
»	خاتقة	واجفة	»	العذاب	الرخز
»	مخاعة	مغفة	»	باعوا	شروا
»	المسرف	المبذر	»	حققوا	عزموا الطلاق
حير	تجينا	تفشلا	»	نقيا	صدلا
»	اطلع	عثر	»	ساعاته	آناء الليل
»	جنون	سفاهة	»	وجههم	فورهم
»	ميزنا	زيلنا	»	متابعا	مدراوا
»	حقيرا	مرجوا	»	مخرجا	فرقانا
»	الاناء	السقاية	»	حصّ	حرّض
»	منتن	مسنون	»	فاقة	عيلة
»	كتاب	إمام	»	بطانة	وليجة
»	يحركون	ينفضون	»	اغزوا	انفروا
»	بردا	حسابنا	»	الصائمون	السائمون
»	نحولا	من الكبرعتيا	»	الائم	العت
»	جعلنا	خرجا	»	بدرعك	بيدتك
»	بلاء	غراما	»	شبهه	غمة
»	البيت	الصرح	»	زواها	دلوك الشمس

القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
ازدشنوة	مكرويين	كاطمين	حير	أفبحها	أنكر الأصوات
»	الحارّ الذي	غسلين	»	ينقصكم	يترك
»	تناهى حرّه	لواحة	»	محاسين	مدينين
مدحج	حراقه	رفث	»	شديدة	راية
»	جاع	مقينا	جرهم	شديدا	ويلا
»	مقتدرا	بظاهر من القول	»	بمسلط	بجبار
»	بكذب	الوصيد	»	النحاس	القطر
»	الفناء	حقبا	»	مجموعة	مخشورة
»	دهرا	الخرطوم	»	محبوسا	معلوفا
»	الأنف	تسيمون	»	زنا	مرض
»	ترعون	صريح	»	استوجبوا	فباءوا
ختم	منتشر	عفت	»	ضلال	شقاق
»	مالت	هاوما	»	ملا	خيرا
»	ضجورا	شططا	»	كأشياء	كدهاب
»	كذبا	نحلة	»	تياوا	نعولوا
قيس عيلان	فريضة	حرج	»	يتمتعوا	يفنوا
»	ضيق	لخاسرون	»	نكل	شرّد
»	مضيعون	تقندون	»	سفلتنا	أرادلنا
»	تستهزئون	صياصهم	»	شديد	عصيب
»	حصونهم	تخبون	»	جميعا	لفيفا
»	تتعمون	رجيم	»	منقطعا	محسورا
»	ملعون	يلتكم	»	جانب	حذب
»	ينقصكم	حفدة	»	السحاب	الخلال
سعد العشرة	أختانا	كل	»	المطر	الودق
»	عيال	جفاجا	»	عصابة	شرذمة
كندة	طرقا	بست	»	طريق	ربيع
»	فنت	تبتس	»	يخرجون	ينسلون
»	تحزن	اخسوا	»	مزجا	شوبا
عذرة	اخزوا	ريون	»	الطرائق	الحبك
حضر موت	رجال	دمرنا	»	الحائط	سور
»	أهلكتنا	لغوب	أزدشنوة	لاوضح	لاشية
»	إعياء	منسأته	»	الحبس	العضل
»	عصاه	طفقا	»	سينين	أمة
غسان	عمدا		»	البئر	الرس

وجاء في صحيفة ١٣٦ من الجزء الأول من كتاب  
الاتقان المذكور أيضا مانصه :

وقال أبو بكر الواسطي في كتابه الارشاد في القراءات  
العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة ، منها لغة قریش  
وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس  
عيلان وجرهم واليمن وأزدشنوة وكندة وتميم وحمير  
ومدين ولخم وسعد العسيرة وحضرموت وسدوس  
والعمالقة وانمار وغسان وفذحج وخزاعة وغطفان  
وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطيه وعامر بن  
صعصعة وأوس ومزينة وتقيف وجذام وبلج وعذرة  
وهوازن والنمر واليمامة

وفيه من غير العربية الفرس والروم والنبط والحبشة  
والبربر والسريانية والعبرانية والقبط ، ثم ذكر في أمثلة  
ذلك غالب ما تقدم عن أبي القاسم وزاد الرجز العذاب  
بلغة بلي طائف من الشيطان نخسة بلغة ثقيف الأحقف  
الرمال بلغة ثعلب . وقال ابن الجوزي في فنون الأفتان  
في القرآن بلغة همدان الريحان الرزق والعيناء البيضاء  
والعقري الطنافس ، وبلغة عامر بن صعصعة الحفدة  
الخدم ، وبلغة ثقيف العول الميل ، وبلغة عك الصور  
القرن . وقال ابن عبد البر في التمهيد : قول من قال  
نزل بلغة قریش معناه عندى الأغلب . انتهى

ثم ذكر في صحيفة ١٣٨ وما بعدها الألفاظ الواردة  
من كلام غير العرب مرتبة على حروف المعجم وهذانصها

القبيلة	معناها	الكلمة
غسان	شديد	بقيس
»	كرهم	سبي ٣٣
مزينة	لا تزيدوا	لا تغلوا
لخم	جوع	إملاق
»	ولتقهرن	ولتعلن
»	تخلوا الأزقة	فجاسوا خلال الديار
بنو حنيفة	العهود	العقود
»	اليد	الجناح
»	الفرع	الرهب
اليمامة	ضائق	حصرت
سأ	تخطئون خطأ بينا	تيموا ميلا عظيما
»	أهلكنا	تبرنا
سليم	رجع	نكص
عمان	الموت	الصاعقة
طيه	يصبح	ينفق
»	خصبا	رغدا
»	خسرها	سفه نفسه
»	يا انسان	يس
خزاعة	انفروا	أفيضوا
»	الجماع	الافضاء
عمان	غيا	خبالا
عمان	سربا	نفقا
عمان	أراد	حيث أصاب
تميم	نسيان	بعدامة
»	حسدا	بغيا
أنمار	عمله	طاؤه
»	أظلم	أغطش
الأشعر بون	لأستأصلن	لأحتسكن
»	مرّة	نارة
»	مالت ونفرت	اشمأزت
الأوس	نخلة	لينة
الخزرج	يذهبوا	ينفضوا
مدين	فاقض	فافرق

الكلمة	معناها	الأمة	الكلمة	معناها	الأمة
أليم	موجع	زنجية أو عبرانية	زنجيل	هوفارسي	
إنا	نضجه	أهل المقرب	السجل	الرجل	الخبشة
أواه	موقن أو الرحيم	(البربر)	سجبل	الكتاب	فارسي معرب
أوب	مسح	الخبشية	سجبل	أو لها حجارة	الفارسية
الجاهلية لأولى	الآخرة	الخبشية	سجين	وآخرهاطين	
		القبطية (فمندهم)	سرادق	هو غير عربي	
		الأولى آخرة	سريا	الدهليز أو الدار	الفارسية
		وبالعكس)	سفرة	نهر	السرمانية
بطانها	ظواهرها	قبطية	سقر	القراء	النبطية
كيل بهير	كيل حار	عبرية	سجدا	مقنى الروس	هي أعجمية
بيع	الكنايس	فارسيان معربتان	سكرا	الخل	الفارسية
تنور	هوفارسي معرب	هوفارسي معرب	سلسبيل		الخبشية
تغيرا	هي بالنبطية	هي بالنبطية	سندس	الديباج	هو أعجمي
من تحتها	من بطها	النبطية	سيدها	زوجها	الفارسية والهندية
الجبث	الشیطان أو الساحر	الخبشية	سينين	الحسن	القبطية
جهنم	أصلها كهنام	فارسية أو عبرانية	سيناء		الخبشية
حرم	الخبشية	وجب	شطر	تلقاء	النبطية
حصب جهنم	حطب جهنم	الزنجية	شهر		الخبشية
وقولوا حطة	وقولوا صوابا	العبرية	الصراط	الطريق	هي كلمة سرمانية
الحواريون	الفسالون أصله	النبطية	صرهن	شققهن	الروم
	حواري		صاوات	كنائس اليهود	النبطية
حوبا	إنما	الخبشية	طه	وأصله (صلواتا)	العبرانية
دينار	هوفارسي	هوفارسي	طه	هو كقولك يا محمد	الخبشية
راعنا	بلسان اليهود	بلسان اليهود	طه	يارجل	النبطية
رانيون	هي عبرانية أو	هي عبرانية أو	طه	يارجل	الخبشية أيضا
	سرمانية	سرمانية	الطاغوت	الكاهن	الخبشية
ربيون	سرمانية	سرمانية	طفقا	قصدا	الرومية
الرحن	عبرانية أصله رخن	عبرانية أصله رخن	طوبى	الجنة	الخبشية والهندية
الزئس	أعجمي	أعجمي	طور	الجيل	السرمانية
الرقم	الرومية	الرومية	طوى	أرهورجل	بالعبرية
رمزا	العبرية	العبرية	عبدت	قتلت	النبطية
رهوا	تحريك الشفتين	النبطية	جئات عدن	جئات الكروم	السرمانية
رهوا	سهلا دمتا	النبطية		والأعنان	
الروم	ساكنها	السرمانية			
	فهذا الجبل من الناس				

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
العزم	المسناة التي	الخبشية	كفلين	صهفين	الخبشية
غساق	تجمع الماء	التركية	كورت	غورت	الفارسية
غيض	البارد الممتن	الخبشية	مقاليد	مفاتيح	الفارسية
فردوس	نقص	الرومية	مراقوم	مكتوب	العبرية
»	بستان	النبطية	مزجاة	قليلة	العجم أو القبط
فوم	فرداسا	العبرية	ملكوت	ملك	النبطية (ملكوتا)
قراطيس	حنطة	غير عربي	مناص	فرار	القبطية
القسطاس	معروف	الرومية	مهل	عكر الزيت	أهل المغرب
القسورة	العدل	الخبشية	ناشئة الليل	قيام الليل	الخبشية
قطنا (بشديد الطاء)	الأسد	النبطية أو	ن	أصنع ماشئت وأصله (انون)	الفارسية
قطار	كتابنا	الفارسية معربة	هدنا	تبنا	العبرانية
الفيوم	١٢ ألف أوقية	رومية وسريانية	هودا	اليهود	الأعجمية
كافور	وبرية	السريانية	هوبا	حكاه	السريانية
كفر عنا	هو الذي لا ينام	معرب	وزر	الحبل والمجأ	النبطية
	معرف	النبطية	يجور	يرجع	الخبشية
	اح عنا		يصهر	ينضج	البربرية

قال المؤلف : هذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعربة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين ولم تجتمع قبل في كتاب قبل هذا . وقد نظم القاضي تاج الدين بن السبكي منها سبعة وعشرين لفظا في أبيات ، وذيل عليها الخافظ أبو الفضل ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظا وذيلت عليهما بالباقي وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة . فقال ابن السبكي :

السلسبيل وطه كورت بيع \* روم وطوبى وسجيل وكافور  
والزنجبيل ومشكاة سراق مع \* استبرق صلوات سندس طور  
كذا قراطيس ربانهم وغسا \* ق ثم دينار القسطاس مشهور  
كذلك قسورة واليم ناشئة \* ويوت كفلين مذكور ومسطور  
له مقاليد فردوس يهد كذا \* فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر

وزدت حرم ومهل والسجل كذا السرى والأب ثم الجبت مذكور  
وقطنا وإناه ثم متكثا \* دارست يصهر منه فهو مصهور  
وهيت والسكر والأواه مع حصب \* وأوتى معه والطاغوت مسطور  
صرهن اصرى وغيض الماء مع وزر \* ثم الرقيم مناص والسنا النور

وقلت أيضا :

وزدت يس والرحن مع ملكو \* ت ثم سينين شطر البيت مشهور

ثم الصراط ودرىء يحور ومر \* جان أليم مع القنطار مذكور  
وراعنا طفقا اهدنا ابلى ووراء \* والأرائك والأكواب ماثور  
هود وقسط وكفر زمرة سقر \* هون يصدون والمنساء مسطور  
شهر محوس واقفال يهود حوا \* ريون ككز وسجين وتبیر  
بعير أزرو حوب وردة عرم \* آل ومن تحتها عبدت والصور  
ولينة فومها رهو واخذ مز \* جاة وسيدها القيوم موفور  
وقل ثم اسفار عنى كتبنا \* وسجدا ثم ريون تكثير  
وحطة وطوى والرّس نون كذا \* عدن ومنفطر الأسباط مذكور  
مسك أبريق ياقوت رروا فهنا \* مافات من عدد الألفاظ محصور  
وبعضهم عد الأولى مع بطائها \* والآخرة لمعانى الضد مقصور  
هذا ما أردته من كتاب «الاتقان في علوم القرآن» وبهذا تم الكلام على المبحث الأول في اللطيفة  
الثانية والحمد لله رب العالمين

### ﴿ المبحث الثاني ﴾

في اللطيفة الثانية وهو العلمى والسياسى في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عزيا لقوم يعلمون -  
وصف الله القرآن بأنه عربى ، ولاجرم أن هذا الوصف لا يحتاج في حد ذاته الى بيان أو تصريح لأن  
النبي صلى الله عليه وآله عربى والسامعون له عرب ، فهو معروف بداهة ، إذن ذكر هذا الوصف قد جرى به لغرض  
سام وحكمة تظهر للأمم جيلا بعد جيل . ولقد ظهرت بعض آثار ذلك في أيامنا هذه . ياسبحان الله : إن  
اللغات لآثارا عجيبة في أحوال الأمم وتطورها وترقيها من حال الى حال  
(١) فلاذكر لك أولا اللغة اللاتينية ، وكيف كان لها السيادة في القرون الأولى بالدول الغربية ، ثم  
تلتها لغات أخرى وحلت محلها كما يقوم الابن مقام أبيه ويرث ما يملكه  
(٢) ثم أتبع ذلك بذكر دولة جورابى وهى الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م  
وكيف اقتبست القلم السومرى القديم على عهد السومريين الذى كان شكله أشبه بشكل الكتابة الهيروغليفية  
(المصرية القديمة) وكيف استخدموا اللغة السومرية فى المسكاتب ، ثم تركوا اللغة وأبقوا الخط ، ثم تغيرت  
هيئة الخط  
(٣) ثم أقفى بذكر اللغة العربية قبيل الاسلام ، وكيف كان خطها النبطى والفرق بين ذلك الخط والخط  
المسارى وبينهما نحو ثلاثة آلاف سنة  
(٤) ثم أتبع ذلك بالنسبة بين هذا الخط النبطى واللغة العربية إذ ذاك فى القرن الرابع بعد الميلاد وبين  
ما حدث من التغيير فيهما أيام البعثة المحمدية  
(٥) ثم أذكر بعد ذلك كيف نسخت اللغة العربية لغات الأمم التى حلت بها فى مصر والشام والعراق  
(٦) ثم أتبع ذلك بما هو المقصود فى تفسير هذه الآية من هذا الموضوع كله ، وهو أن اللغة العربية  
سحرا حلالا وبفضل القرآن دامت قرونا ، أى نيفا و١٣ قرنا ولغة القرآن لم تتغير استبقاء لوصف القرآن  
بالعربية ، حتى ان هذه اللغة كلما حاولت الدهور والقرون تغييرها على السنة العامة على مقتضى قانون التطور  
العام ، أبت أن تفارق اللغة الفصحى واجتذبت أهل الأقطار العربية والجمية المسلمة الى تلك اللغة فأصبحت  
كهرباء تصل ما بين أم وأم فى عصرنا الحاضر ، وهل أعجب من أن ترى الصورة الشمسية لسورة الفاتحة وقل

هو الله أحد مكتوبيتين باللغة الصينية في نفس بلاد الصين واللغة العربية بالخط العربي مصداقا لقوله تعالى هنا - قرآنا عربيا - ولقوله تعالى أيضا - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون -

فهنا إذن ﴿ ستة فصول ﴾ الفصل الأول ﴿ في مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وكيف بحيث مع انها كانت لغة الدين والسياسة ﴾ الفصل الثاني ﴿ في عرب الجاهلية الأولى وهي دولة جوراني فيما بين النهرين ﴾ الفصل الثالث ﴿ في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطي ﴾ الفصل الرابع ﴿ في النسبة بين هذا الخط النبطي وبين الخط واللغة العربية أيام البعثة المحمدية ﴾ الفصل الخامس ﴿ في أن اللغة العربية نسخت لغات الأمم المصرية والسورية والعراقية ﴾ الفصل السادس ﴿ في المقصود من هذا كله في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن في بلاد العرب وأوروبا والصين من أكبر المعجزات

### ( الفصل الأول )

( في مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية ومطراً عليها تمهيدا لما سذك من اللغة العربية ومطراً

عليها تبينا لمعجزات القرآن )

اعلم أن الدولة الرومانية كانت صاحبة السلطان في جنوبي وغربي أوروبا فكانت حضارتها ولغتها ودينها وعاداتها وقوانينها ساريات في تلك الأمم

ومن عادات الله في الأمم أنها اذا استفحلت وكل عمرانها وعظم شأنها أخذت ترجع القهقري كما يكون ذلك في الانسان والحيوان والنبات - وتلك الأيام نداوها بين الناس - . وقيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » فكان الرومان كلما ازدادوا في ترفهم اقتربت منهم الأمم المتوحشة حولهم وهم سكان سواحل البلطيق وأودية الطونه والرين الذين كانوا في شمال وشرق الدولة . وما زال أولئك المتوحشون يتربصون بتلك الدولة الدوار ويشنون الغارات تلو الغارات الى أن كانت سنة ٤٧٦ ميلادية إذ تمكن ادوكر (وهو قائد من قواد القبائل الألمانية الذين يوصفون بالمتوحشين) من إزالة سلطان (رميولوس) آخر امبراطور للدولة الرومانية الغربية وجعل نفسه حاكماً لرومه . وهذه الدولة الغربية غير الدولة الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية ثم احتلها الترك بعد قرون . فلما زالت المملكة الرومانية الغربية انتشرت الفوضى والهرج والمرج والفساد لأن هؤلاء قوم لا قوانين لهم ولا نظام ، فأهملت الطرق وجهلت التجارة والصناعة والزراعة ، وهناك أصبح الناس هناك جماعات كل جماعة لهم رئيس يجمعهم ليصدوا عنهم جيرانهم ، وأصبح هناك نظام معروف باسم (نظام الاقطاع) وهو المعهود في تاريخ العصور الوسطى

ومثل الألمان في الاغارة على تلك الدولة أهل فرنسا وقد عظم شأنها حينما من الدهر أيام شرلمان سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ وسميت إذ ذاك بالدولة الرومانية . والذي يهمننا في هذا المقام هو اللغة اللاتينية التي هي لغة الكتابة بين العلماء ثم انحصرت بين رجال الكنيسة ، وذلك أن هناك لهجات أخرى مؤسست على اللاتينية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا ولهجات أخرى مناسبة لها في شمالي أوروبا ترجع الى الأصل التيوتوني . وفي آخر العصور الوسطى قد ابتداء أولئك الأقوام يتغنون بلغاتهم وان لم تكن مكتوبة ، تغنى قوم من فرنسا باللغة الفرنسية الشمالية ، وجماعة من ألمانيا بالألمانية ، وظهر (داتشي) فألف كتابه المسمى « الكوميديا الالهية » باللغة الطليانية . وكتب شوسر الانجليزى حكايات كنتبري باللغة الانجليزية السكسونية القديمة . وظهرت في اسبانيا أشودة السيد باللغة الاسبانية ، فهناك تكوّنت أصول اللغات الأوروبية الجديدة ، وظهر أثر ذلك في ترقية معارف تلك الشعوب ، ذلك لأن أكثرهم يجولون اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة العلم ، فلما

ألفت الكتب باللغات التي يعرفونها اتسعت مداركهم واستفارت عقولهم ، وساعد على ذلك أمران : الأمر الأول الحروب الصليبية التي بها اختلط القوم بالمسلمين وجاؤا كتبهم وعلاومهم ، فلما رجعوا غيروا أساليب حياتهم وعرفوا الحقائق وتعلموا الصناعات الكثيرة ، وهذا التفسير قد تقدم فيه هذا موضعا في سور كثيرة . الأمر الثاني سقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٧ باستيلاء الدولة العثمانية عليها ، فلقد كانت تلك العاصمة حافلة بالعلماء ، فلما أحسوا بدنو العثمانيين رحلوا منها ومعهم الكتب الاغريقية العظيمة في الفنون المختلفة التي كانت تجمها بأوروبا ودخلوا المدن الإيطالية فصار هؤلاء أسانذة في مدارسهم وجامعاتهم ، وهذه أهم الأسباب في نهضة إيطاليا ومنها انشرت في أنحاء أوروبا ، وهناك سبب ثالث لا ينقص عنهما أهمية وهو أن الأندلس كان سقوطها في نفس ذلك القرن ، وأنت أيها الذكي ربما قرأت في مواضع كثيرة من هذا التفسير أن ابن رشد لما نفي تفرق تلاميذه اليهود في أوروبا ورحبت بهم ألمانيا وترجوا كتبه باللاتينية واليهودية وغيرها ، وأيضا قد كان بعض بابوات رومه كما تقدم قد تعلم في الأندلس ، وبعض علماء الانجيز قبل ذلك التاريخ تعلموا العلوم الرياضية وترجوا كتبها من بلاد الأندلس ومصر

باللجب : إذن هذا القرآن الموصوف بأنه بلسان عربي هو السبب الحقيقي في نهضة أوروبا الحديثة . ذلك لأن الأندلسيين المسلمين لهم يديه والحروب الصليبية ثم الترك المسلمون التابعون لهذا الدين الذي نزل باللغة العربية هم ثلاثة الأثافي . إذن أول النهضة الأوروبية وآخرها هو القرآن العربي وهذا من أسرار وصف القرآن بأنه عربي وقد ثبت بهذه اللغة ولم يتغير تبعا للتغير المستمر في جميع اللغات من قرن لآخر كما يأتي فانك ستري أن اللغة العربية في مدة ثلاثة قرون قد تغيرت ألفاظها واختلفت كتابتها اختلافا بينا ، وهذا القرآن العربي لم تتغير لغته مخالفا في ذلك كل لغة كاللاتينية التي حلت محلها ألسنة أخرى مبنية عليها ولغات أخرى لاصلة بينها وبينها ، وهذا من أسرار ذكر الوصف بأنه قرآن عربي ، فلغة اللاتين لغة دينية ومع ذلك تغيرت ولغة العرب لم تتغير ولو تغيرت زال هذا الدين ثم ان العداوة بين أهله وبين غيرهم كانت سببا في طرد جماعة من القسطنطينية وآخرين من الأندلس ، كان كل ذلك سبب انتشار العلم والنهضة الحديثة ، ولو تغيرت اللغة العربية كغيرها لانمحي الدين ولم يظهر فيلسوف كان رشد ، ولا ملك يهاجم النصرانية كمحمد الفاتح ، ولا ملك يدافع النصرانية كصلاح الدين أيام الحروب الصليبية ، والترك لسانهم غير عربي ومع ذلك تأثروا بذلك اللسان العربي ، وهذا كله كانت هذه النهضة الحديثة

ومن آثار هذه النهضة الثلاثية في أوروبا بفضل القرآن العربي أن التعليم في تلك الأقطار كان مقصورا على علوم الدين والقانون الروماني وقانون الكنيسة وفلسفة أرسطاطاليس ، فماذا جرى ؟ (أولا) قامت مناظرة بين العلماء أشهرها المناظرة التي بين (بطرس ايلارد) وبين (الأب برنارد) فالأول يقول بأن الناس يسرون بمقتضى عقولهم ولا يقتصرون على القوانين الدينية ، والآخر كان ينتصر للكنيسة ويحكمها في كل شيء

(ثانيا) ان الكنيسة قوت (برنارد) ونصرته وخذلت (ايلارد) وحقرت تعاليمه ومع ذلك قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ثم تلتها سلونو وبولونيا في إيطاليا ثم اكسفورد في انجلترا (ثالثا) ظهر هنالك العلماء مثل (توماس اكوناس) وهو من ذوى الابتكار والعبقرية ، ومثل (روجر بيكن) صاحب النظرية المشهورة وهي البحث العلمي واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدات

﴿ ملخص ما تقدم ﴾

ان النهضة التي قامت بأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجع للحضارة العربية الآتية من الأندلس ومن آثار الحروب الصليبية وآثار علماء القسطنطينية الفارين من الترك ، وكل هذا ينطوي تحت هذه الآية

- كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - ونشأ عن ذلك :

### ( الرقي السياسي )

كان البابا والامبراطور لهما السيادة ولا راد لقضائهما فهذا له سيادة الدين وهذا له سيادة السياسة في جميع العالم المسيحي لأن هذه الأمم كانت تخضع لحكم (الاقطاعات) في الممالك المختلفة وكانت السلطات متشعبة في أيدي أمراء مختلفين وكل أمير مقاطعة يناوئ الآخر ويحاربه في تلك القرون الوسطى أي التي بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين سقوط الدولة الرومانية الشرقية المتقدم الكلام عليهما وذلك في مدة نحو ألف سنة كاهو واضح ، ولكن العقول متى تحركت نشطت الأجسام وهبت من رقادها وقامت من نومتها ونفضت غبار نومها ، فترى أحد هؤلاء الأمراء يقوى ويشد أزره ويغلب الآخر حتى ظهرت روح القومية ودب حب الاستقلال التام في الداخل والخارج .

( أ ) فظهرت في فرنسا أسرة (هيوكايت)

( ب ) وفي انكلترا أسرة (الترندين) و (الايخفن)

( ج ) وفي اسبانيا أسرتان وهما (قشتاله) و (ارغونه)

( د ) وقامت أسرة (هفستوفن) وأرادت تكوين مملكة قومية في (ألمانيا) في القرن الثالث عشر فعارضها البابا

( هـ ) وقام الوطني (رينزي) في منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير ايطاليا وتوحيدها

( و ) وظهر « كتاب الأمير » وهو كتاب وضعه (مكيافلي) وهو كاتب سياسي من أهل فلورنسه شرح فيه أعمال الملوك ، وبين أن الأمير الذي يحفظ كيان دولته لابد أن يخالف الذمة والضمير والمروءة والانسانية والدين في بعض الأوقات ، هنالك أخذ الملوك يقاومون نفوذ البابا الذي كان إذ ذاك له النفوذ السياسي والديني

إذن مبدأ نهضة القوم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولكنهم اعتبروها ابتدأت في القرن الخامس عشر حينما ظهرت علوم وأدبيات قديمة يونانية ورومانية أكملت ماجاءهم من الأندلس العربي وعلماء القسطنطينية والى هنا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

### ﴿ الفصل الثاني ﴾

( في عرب الجاهلية الأولى وهم دولة جورابي فيما بين النهرين )

جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » تحت العنوان التالي مانصه

### ﴿ العرب البائدة ﴾

( أو عرب الشمال في الطور الأول )

يقول العرب ان هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجروهم وحضرموت ومن يفتى بهم ويسمونها العرب العاربة وانهم من أبناء سام . قال ابن خلدون « وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب وامتد ملكهم فيها الى الشام ومصر في شعوب منهم ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحهم فيها بنوحام فسكنوا جزيرة العرب بادية تخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام

وقصور الى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان» (١) وقال في مكان آخر « إن قوم عاد والعمالة ملكوا العراق» (٢)

وإذا تدبرت ما نقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين العماليق من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل البائدة من نسل ارم بن سام (٣). قال ابن خلدون « كان يقال عاد ارم فلما هلكوا قيل نمود ارم فلما هلكوا قيل نمود ارم فلما هلكوا قيل سائر ولد ارم ارمان» (٤)

فالعرب يعدون العرب البائدة ساميين من نسل ارم. أي آراميين الا العمالة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخي ارم ويقولون انهم ملكوا العراق «بابل» ثم نزحوا منها الى جزيرة العرب. فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ما وصلنا اليه بعد النظر فيما كتشفه العلماء في بابل واشور من النقوش أو قرأوه في كتب اليونان وغيرهم

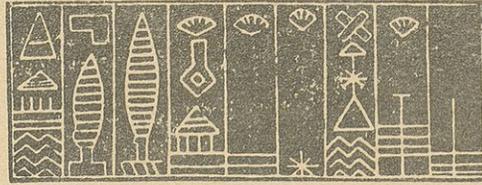
ثم ذكر العمالة الذين فتحوا مصر وكانوا شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سينا، وأن النسابين ينسبون العرب البائدة الى (ارم) والعماليق الى أخيه (لاوذ). والتي بهم في هذا المقام ذكره دولة جورابى أو الدولة البابلية الأولى. وسنورد هنا نبذة من تاريخها. وهالك نصها:

﴿ تمدن دولة جورابى أو الدولة البابلية الأولى ﴾

( من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م )

إذ استولى سامواى أولاً على شمالي بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م وكان الجنوب في حوزة العلاميين، وأخذ الملك ينتقل من ملك الى ملك، وكان السادس منهم جورابى، وهو الذى أخضع دولة العلاميين، واستمر في الفتح الى البحر الأبيض المتوسط. والذى يهمننا في تفسير الآية أن نذكر مدينة تلك الدولة ومن أين اقتبستها، وما قلها الذى كانت تكتب به إيفاء لتفسير الآية فنقول ومن الله التوفيق

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا ديناً ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة. فلما غلبهم الجورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس. وكان الجورابيون في أول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية في الكتابات ثم أهملوها بالتدريج حتى ذهب معها العنصر السومرى. وبقى العنصر السامى كما تغلب العنصر العربى بمصر والشام بعد الاسلام بتغلب اللغة العربية. ولكن الجورابيين استبقوا الخط السومرى وهو القلم المسامرى لانهم استخدموه في تدوين لسانهم وزادوا فيه أحرفاً لم تكن في السومرية (انظر شكل ٢٨)



( شكل - ٢٨ )

( القلم المسامرى القديم على عهد السومريين لا يزال شكله سوريا )

وكان القلم المذكور في أصل وضعه سوريا مثل الهيروغليف المصرى كما ترى في شكل ٢٨ ثم تشوه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير في طبعه على الطين فصار على هذه الصورة شكل ٢٩

(٣) حزمة ١٢٢ و ١٢٨

(٢) ابن خلدون ٢٥٩ ج ٢

(١) ابن خلدون ١٨ ج ٢

(٤) ابن خلدون ٧١ ج ٢

أما المسلمون فأهلوا الأقاليم التي كانت شائعة قباهم في العراق وفارس والشام ومصر وهي الفهلوي والكلداني والقبطي وغيرها ونشروا قلما جلاه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعلى الحجاز هو الحرف النبطي وتكيف بتوالي الأجيال حتى صار إلى الحرف العربي المعروف وعم العالم الاسلامي العربي وغير العربي

أما تمدن السومريين فاقتمسه الجوراييون ورفقوه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس وأكثرهم عناية في ذلك جورابي فإنه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه وقدرتها في ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس منقوشة بالحرف المساري على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبعة أقدام وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الأمة في سلم الاجتماع إلى أرقى ما بلغت إليه تلك العصور ولاسيما في شروط الزواج والطلاق والتبني والارث . انتهى الكلام على الفصل الثاني

### ﴿ الفصل الثالث والرابع ﴾

( في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطي وفي النسبة بين خطها النبطي

ولهجاتها وبين خطها ولهجاتها في أيام البعثة المحمدية )

جاء في كتاب آداب اللغة العربية تحت العنوان التالي مانصه

### ﴿ العصر الجاهلي قبيل الاسلام ﴾

( من القرن الخامس لليلاد الى ظهور الاسلام )

ان الحكم على ما تقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبني على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياح اخبار تلك الجزيرة بجمادى الأيام . ولعلمهم اذ انشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الظنون الستار

( الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية )

وفي كل حال أن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الاسلام لغة ودينا وأدبا وخلقاً . فالجوراييون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن . وأما عرب الجاهلية الثانية فأكثرهم أهل بادية ونجع وكانت لغة الجوراييين أقرب إلى الأشورية منها إلى العربية . فلفة أبوب اذا كانت عربية فهي غير عربية مضر التي وصلت إليها من عرب قريش وسائر الحجاز . وقد يكون الفرق بينهما كثيراً جداً أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن . لأن أهل هذين المصرين قلدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه . فكما ساقته طبيعة النشوء نحو التغيير أعادهم التقليد إلى الأصل . ولولذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيراً

قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في أوائل القرن الرابع لليلاد مما قرأوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة وبين لغة مضر عند ظهور الاسلام . وذلك انهم عثروا في اطلال النخاعة في حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقش في أوائل القرن الرابع لليلاد أي قبل الاسلام بثلاثة قرون وهذه صورتها (انظر شكل ٣٠) في الصحيفة التالية

١  
٢  
٣  
٤  
٥

( شكل ٣٠ )

( رسم كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م )

واليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة

- (١) في نفس امر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج
- (٢) وملك الأسدين ونزرو وماوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
- (٣) بزجو (?) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
- (٤) الشعوب ووكاه لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
- (٥) عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكساول بلسعد ذولاه

هذا لسان عربي تشوبه صبغة ارامية يحتاج تفهمها الى إيضاح وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو

- (١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
  - (٢) واخضع قبيلتي أسد ونزار وماوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
  - (٣) الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل بنيه
  - (٤) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
  - (٥) الى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة
- وكان أهل الشام وهوران ومايليهما يؤرخون في ذلك العهد بالتقويم البصري نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ ليلاد فاذا أضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ ليلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك
- انظر الى الفرق بين الأصل وتفسيره والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون بينهما بضعة وعشرون قرنا؟ والتفسير طبيعي في كل لغة عملا بناموس النشوء . اعتبر ذلك في الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية وماختلف عنها من الايطالية والاسبانية وبين اللغة الانكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك
- فآداب العرب في جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبيل الاسلام وهم أهل بادية لا يقرءون ولا يكتبون . وانما جمعت هذه الآداب بعد الاسلام بالأخذ عن الافواه . انتهى الكلام على الفصل الثالث والرابع والحمد لله رب العالمين

### ﴿ الفصل الخامس ﴾

في أن اللغة العربية نسخت لغات لم تقم لها قائمة الى الآن فقد جاء في كتاب تاريخ أدب اللغة العربية (لجورجي زيدان) تحت العنوان التالي مانصه :

### ﴿ الدولة الأموية واللغة العربية ﴾

أما الدولة الأموية فاهمة كانت متجهة فيها على الخصوص الى الآداب العربية الجاهلية . لأن الأمويين كانوا شديدي الحرص على منزلة العرب كثيرى العناية في حفظ الانساب وهم الذين جعلوا الاسلام دولة فأيدوها

ونشروا اللغة العربية في المملكة الإسلامية بنقل البواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية وهي تعد الآن من البلاد العربية . وإذا نزلها التركي أو الافرنجى أو غيرها من أى أمة كانت وتوالدها عدنسله عربيا

وظل العرب في أيام بنى أمية على بدواتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في أيامهم كالفخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية فكان أشرف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحدثون ويتذاكرون أيام الناس . وأهل البصرة يخرجون الى المر بدلهذه الغاية كما سيحجى . كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في أيام هذه السولة . وقد تكاثروا على عهدهما وانتشروا في ممالك الأرض . انتهى الكلام على الفصل الخامس والحمد لله رب العالمين

### ﴿ الفصل السادس في المقصود من هذا كله ﴾

في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن في بلاد العرب وأوروبا والفرس والهند والصين وبلاد جاوه مجزة من أكبر المعجزات انظر الى هذه اللغة التي تغيرت لهجاتها وصور أشكالها من كتابة السومريين الأولى ثم انها تغيرت ثم تحورت الى أن صارت قبل الاسلام كما رأيت في (شكل ٣٠) المتقدم قريبا ثم انظر الى طورها الرابع وهو ما كتبت به المصاحف ، وكيف بقيت الحروف محفوظة ، وهيئاتها متقاربة نيفا وثلاثة عشر قرنا . ومن أجلى الأدلة وأنصعها ماتراه في هذه الكتابات التي أمامك ، فهامى ذه الحروف العربية واضحة مكتوبة في بلاد الصين ، ومعها الخط الصيني لسورة الفاتحة وسورة الاخلاص (انظر شكل ٣١ في هذه الصحيفة وشكل ٣٢ و٣٣ في الصفحتين التاليتين)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 其 意 我 奉 普 慈 今 世 獨 慈 後 世 眞 主 的 尊 名 起 又 接 哈 法 體

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحِيمِ مَا لِي يَوْمَ الدِّينِ

أَيَادِي نَعْبُدُ وَإِيَادِي سَتِيرِ  
 أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ  
 عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ  
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

其感讚是惟獨  
 接唸阿米勒  
 保養普世普慈  
 今世獨慈後世  
 迷路的人  
 他們也不是一  
 執掌還報日期  
 的主我們惟獨  
 們不受怒惱  
 拜你我們惟獨  
 們上行恩他  
 求你相助哪主  
 路道你在他的  
 你指引我們正  
 道那人的

# امين

其意。准承我們。的。若跟隨。的。以媽同。的。人。也。同。以。媽。母。低。唸。阿。接。唸。米。勒。隨。唸。所。勒。隨。唸。那個不可言。定。或唸這個。

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ  
 اللهُ صَمَدٌ  
 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ  
 لَهُ كُفُوفٌ أَحَدَةٌ

其意。你說。此。主命。聖。事情。人說。如此。主是獨。一的。主是無。求祈的。他不。生人。人不生。他。無。有一物。與他為對。○

فهنا تعاون الصينى والألماني والفرنسى والانجليزى والتركى والهندي والاسبانى والقازانى والعربى والجمي  
والأمم كلها على حفظ اللغة العربية والخط العربى ، فلم يدخله ولم يدخل لغته ذلك التحريف الذى حل بساحة  
لغة وخط العرب البائدة أيام جورابى ولأيام الجاهلية فى القرن الرابع الميلادى قبيل البعثة المحمدية بل هو باق  
كما هو ، فهذا معنى - لا تبديل لكلمات الله - ومعنى - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون -  
وهذا كله تفهم أيها الذكى لماذا وصف القرآن بأنه عربى والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الاثنين  
(٢٠) أكتوبر سنة ١٩٣٠ الساعة العاشرة مساء . تمت اللطيفة الثانية . ويتبع هذه اللطيفة الثانية جوهرتان

### ﴿ الجوهرة الأولى ﴾

( فى قوله تعالى - قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما أهلكم إله واحد - )  
جاء فى مجلة « النهضة النسائية » تحت العنوان التالى مانصه

### ﴿ فى وجود الله تعالى ﴾

(للكاتب الأمريكى الشهير ارثر برزبان)

يرغمون أن العقل البشرى موجه اهتمامه بالأكثر الى المسائل الاجتماعية التافهة مثل جمع الأموال وكيفية  
عقد الزواج وماشاكل ، أما نحن فعلى غير هذا الرأى ونعتقد أن العقل البشرى لا يوجه أخص اهتمامه الى  
هذه المسائل دون سواها ، لو أن محرر جريدة ألقى على قراء جريدته سؤالاً عن « الزواج هل هو أفضل أم  
العزوبة » لوردت عليه الأجوبة الكثيرة بضعة أيام أو بضعة شهور . ثم يضجر الناس من هذه المناقشة وتقطع  
الكتابات

وكل سؤال يكون نصيبه الإهمال بعد اشتغال الناس به زمناً معلوماً محدوداً ، وأما مسائل خلود النفس  
ووجود الله ومصير الانسان بعد وفاته فانها ما برحت تشغل أذهان الناس منذ البداية ، وسوف تبقى موضوعاً  
لاهتمامهم العظيم الدائم

تأتينا الرسائل فى هذه المواضيع كل يوم من كل سنة فى مسائل تشغل خواطر الناس على الدوام  
ينساءلون « هل يوجد إله وهل تكون النفس خالدة ؟ » وهذه الكتابات الكثيرة الدائمة تختلف فى  
لغتها وطبقتها وهى الدليل على مبلغ إيمان كاتبها ، وبعض هذه الرسائل تأتىنا من المرتابين المتشككين والملحددين  
والكتاب ومن سائر الذين أسكرتهم تلك المعرفة القليلة التى جعلوها حكمتهم ودينهم بدلاً من ثقة الأجيال  
الكثيرة تلك الثقة بوجود الله وخلود النفس

ويظن بعض هؤلاء أنهم اهتموا الى طريقة جديدة مبتكرة تساعد على الحياة بالاستغناء التام عن  
الله وأن العلم قد وفقهم الى هذه الطريقة الجديدة

ولكن العلم لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل ان العلم فعل ما هو مخالف على خط مستقيم لظنونهم وأوهامهم  
العلم أثبت وجود الاله وخلود النفس وليسمح لنا القارىء أن نضرب لذلك مثلاً صغيراً :

رجل عنده صندوق ووضع فيه بعض ققط فقدت أمها وهى صغيرة جداً ولم تفتح عيونها بعد . اعتنى هذا  
الرجل بالققط المذكورة وأحسن معاملةها وجعل للصندوق عجالات فكان يجره الى ضياء الشمس لتمتع الققط  
بحرارة الشمس . كان يغذيها باللبن فى مواعيد معينة بجزء التدقيق . كان يطرد الكلب الشرير إذ يحارل الاعتداء  
عليها ويخيفها ويرعبها كثيراً ، كانت هذه الققط تنق بالرجل وشعرت أنها فى حاجة اليه وأن لاغنى لها عنه  
وكان هذا دور الإيمان

وحدث ذات يوم أن كلبا توصل الى قطة منها فقتلها بعد أن قطعها بأسنانه وشوّه جسمها ذلك لأن القطة قد خالفت القوانين والشرائع التي سنّها لها الرجل خرجت من صندوقها فخلّ بها ذلك المصاب . وكانت احدى القطط قد بدأت تبصر قليلا باحدى عينيها فقالت مفرورة بالقليل الذي تراه : « أنا لا أعتقد بوجود الرجل فاذا كان موجودا حقيقة فهو ظالم اذ سمح أن تقتل أختي الصغيرة وأن يمزقها الكلب لأصدق ما تزعمونه من أن أختي قتلت بذنبها لأنها خرجت من الصندوق والحقيقة أن الرجل غير موجود فأنما نحن القطط أولياء أمورنا وسادة الكيان وعلينا أن نحارب عدونا وندافع عن أنفسنا هذه القطة هي قطة « انجرسول » الملحد الأمريكي الشهير

ثم ان قطة أخرى بدأت تبصر بعينيها وهي أرقى من رفيقتها الأولى فقالت (أنا عالمة . وقد وجدت أنني غير مدينة للرجل وعنايته بشيء وانما الشرائع والنواميس ولية أمورنا . هذا الصندوق قائم على عجلات يدور في نور الشمس بمجرد إرادته لا أنكر أنني أجهل ماهو الذي يدفعه ولكن أعلم أن الرجل لا يستطيع دفعه وعلمت أيضا أنه لاوجود لناموس (توزيع اللبن علينا) فأنما يأتينا اللبن في مواعيد معينة بحكم الدور ومحىء اللبن ناموس طبيعي فقد كان يحىء من قبل وهو يأتي الآن وسياى كذلك بعد . دعوني من دعاويكم الفارغة فأنا منقلبة الى فراشى لأنام ولكن لاتذكروا على مسمع منى أمر رجل محب يعتنى بنا . الأمر كله نواميس طبيعية وأنا عظيمة فى ذاتى لأننى أول من اهتدى الى هذه النواميس

هذه القطة هي قطة « اسحاق نيوتن » ولكنها لم يكن لها إيمان نيوتن ويضيق بنا المجال لوأردنا أن نذكر مآلاته قطة « داروين » فقد كانت طويلة اللسان . ولكن اليك ماجرى بعد ذلك كبرت القطط التي بقيت حية بعد أن ماتت تلك التي أصابها الموت جزاء مخالفتها وشرورها عن الصراط المستقيم وانفتحت عيونهن جميعا فصارت تبصر جيدا فرأت الرجل عيانا وعرفته واعترفت به وتوسلت اليه أن يسمح لها بالاقامة فى منزلة . قالت القطط للرجل ( لاتؤاخذنا ياسيدى واغفر لنا حماقتنا وجهالتنا إذ كنا صغيرات جاهلات ولكنك تعلم بأن بصرنا كان ضعيفا واننا كنا لانبصر ولانعلم) فقال الرجل الكريم لأبأس انصرفن الى البدرين فى أسفل المنزل وتمتعن بالراحة والقوت هناك

اتهى المثل الذي ضربناه . وانما نحن قطع عمياء فكلما حاولنا التعمق فى اكتشاف أسرار الطبيعة وعجائبها نزداد توغلا فى خفايا جديدة لاندرکها نكشف أن الأرض تدور حول الشمس ولكن لا بد لأعظم عالم من الاعتراف بحجزه عن الاهتداء الى سبب دورانها يقول هذا العالم « أعطني المحرك الأول وكل شيء سهل بعد ذلك » وهكذا قالت القطط العمياء فى صندوقها قالت ( اذفع صندوقنا دفعة واحدة وعلينا فهم الباقي)

واطلعت القطط على ناموس توزيع اللبن جعلته بدلا من عناية الرجل بها شأن الذى ادعى التمسك بناموس الجاذبية العام فظن أنه يقدر بواسطته على مجود الله . ولكن العقل الكبير الذى اهتدى الى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متدينا تقيا علم أنه ضعيف فى ذاته لاقدرة له على إدارة كل شيء ان نيوتن لم ينكر وجود الله . وكان أدرى الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه . علم وعلم الناس أيضا أن ذلك الناموس ما يبرح عاملا منذ الأزل وهذا كل ما ادعاه وكل ما يقدر أن يدعيه سواه والعالم العصري (لورد كلفين) من أشهر أتباع نيوتن قيل له : ماهوسر الجاذبية ؟ فأجاب : لايجب للعالم أن يحاول كشف أسرارها فأننا نجعلها تماما ولا نعرف عنها شيئا

لذلك تقول للرتابين : ارتابوا اذا كان لابد لكم من ذلك ولكن اجعلوا الحكم أساسا لريكم وارتابوا  
أولا في حكمتكم التي لازيد عن حكمة تلك القطط العمياء  
اذ كروا أنكم لا تعرفون شيئا طالعوا كثيرا ولكن لا تسمحوا لآراء غيركم القاصرة أن تسطو على  
عقولكم وتجعلكم آلة للريب والشكوك مهما فعلتم لاتعرضوا العقائد الآخريين وإيمانهم ، انشروا المعرفة وأذيعوا  
الحقائق . وأما الريب التي تزعج الآخريين وتذهب بسعادتهم فاحفظوها لأنفسكم أذيعوا ما تعرفونه عن يقين  
واكتموا مادون اليقين فهل يسمع الملحدون . وبهذا انتهت الجوهرة الأولى

### ﴿ الجوهرة الثانية ﴾

( في قوله تعالى - وجعل فيها رواسي من فوقها - )

وهي الجبال ، ولقد تقدم الكلام على الجبال في مواضع كثيرة مثل ما جاء في ﴿ سورة الرعد ﴾ عند  
آية - وفي الأرض قطع متجاورات - الخ وهكذا سيأتي في آية - أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت \*  
والى السماء كيف رفعت \* والى الجبال كيف نمبت - الخ ولكن نذكر هنا عجيبة جاءت في مجلة « اللطائف  
المصورة » فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

### ﴿ في أميركا الجنوبية غنى طبيعى ﴾

هناك جبل من فضة لا ينضب له معين

بوليفيا جمهورية صغيرة من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، كانت فيما مضى مستعمرة اسبانية لكنها استقلت  
سنة ١٨٢٥ بعد حروب دموية بينها وبين الجيوش الاسبانية ، وهى صخرية جبلية يتراوح ارتفاع جبالها  
بين ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ متر ، وفى وسطها اجات تسمى لا يونا فيها نزوات معدنية لا يحصى لها عدد ، يقدر  
ما فيها بمئات بل بألوف الملايين من الجنيهات ، من بينها جبل كله من فضة يطلق عليه اسم ( سيرودى بوتوزى ) ، ظل  
مئات السنين يدرّ الأموال الطائلة على الدولة الاسبانية ، فكان لها المورد الأ كبر الذى يأتيها من كل مستعمراتها  
الواسعة . وقد اكتشف هذا الجبل رجل هندي من هنود أميركا الملقين بنوى الجلود الجراء يسمى جوالكا  
فقد كان مسافرا فى أيام الشتاء الباردة فخطر له فوق هذا الجبل ، ولما قرسه البرد أشعل نارا تصطلى ، فما كان  
أشدّ دهشته عند ما أبهر الصخور تذب تحت تأثير الحرارة وتسيل معدنا أبيض جيلا ، فتأمله طويلا لكنه  
لم يدركه ، فأسرع الى سيده القبطان (جون دى فيلارويل) وأطلعه على الأمر ، فاستحوذ هذا على  
جبل الفضة باسم مليكة الأمبراطور شارل كان فى يوم (٢٢) ابريل سنة ١٥٤٥

ولما ذاع خبر هذا الاكتشاف فى اسبانيا تقاطر الى بوليفيا كل مغامر وأخذوا يتقانون وينتأخرون فى  
سبيل الاستحواذ على جزء من هذا الجبل الذى كان يدرّ أموالا يكلّ عن إدراكها الحصر لاسيما فى ذلك  
الزمن الذى كان أقلّ مبلغ فيه يعدّ ثروة . وقد استخرج من جبل سيرودى بوتوزى من سنة ١٥٤٥ أى  
منذ اكتشافه حتى سنة ١٨٢٥ وهى السنة التى خرجت فيها بوليفيا من أيدى الدولة الاسبانية (١٦) ألف  
مليون ريال طيبلى أى ٥١٢٠ مليون جنيه فى ٢٨٠ سنة ، فيكون معدّل غلته فى كل سنة من هذه  
السنين (١٨) مليون جنيه وثلاث . وقد بلغ ماناله التاج الاسباني من هذا الايراد (٦٤٠) مليون جنيه .  
وقد دفع أصحاب منجم واحد من هذا الجبل للحكومة بصفة جزية (١٦) مليون جنيه وثلاثة أرباع الملون  
وقد أراد الأمبراطور شارل كان يوما ما أن يكافئ سكرتيره الخاص الدون فرانشيسكو دى لوس كوبروس  
فطلب منه أن يمنى عليه ما يريد ففهمم الدون فرانشيسكو بين شفقيه : « أريد يا مولاي (ريل) واحدا على

كل رطل» (والرطل يساوي مليمين ونصف من عملتنا) . فأجاب الإمبراطور مندهلا « أهذا كل ما تطلبه ؟ »  
ولما رآه مصمما على طلبه هذا الذي صغر في عيني شارل كان وقع له على الأمر وناولته إياه ، وبعد ثماني  
سنوات أى في سنة ١٥٦١ مات اللون فرانثيسكو وترك ثروة تقدر بأكثر من (٧) ملايين من الجنيهات  
جمعها مما عاد عليه من المليمين ونصف التي كان يأخذها على كل رطل فضة يستخرج من جبل سيرو المذكور  
ولم يزل هذا الجبل الى الآن مملوءا بالفضة لكنها تخرج مزوجة بالقصدير . ولم تمض على اكتشاف جبل  
الفضة سنوات حتى أقيمت بازائه مدينة بوتوزى . وقد بلغ عدد سكانها في القرن السابع عشر ٢٠٠.٠٠٠  
نسمة فكانت أكبر مدينة في أميركا الجنوبية وأكثرها سكانا  
وكان لكل اسباني (هيدالجو) أى منحدر من صلب اسباني صميم ليس في عروقه دم يهودى أو عربى  
مغربى أن يكون له حق بأن يستغل جزءا من الجبل  
والعادة المتبعة في ذلك والتي لم يزل معمولاً بها الى الآن أن يأخذ الواحد له ركنا ويحفر فيه نفقا ويستولى  
على كل ما يجده فيه حتى أصبح في الجبل أكثر من ثلاثة آلاف نفق . وكان الهنود الجرهم القائمون بالحفر  
يشتغلون في الاتفاق المظلمة التي ليس فيها نور ولا يتخللها شعاع من الشمس ، وسيطأ أسيادهم الاسبانيين  
تنهال على أجسامهم اذا بدا منهم أقل وهن وأذى ضعف . وكان المتراحون على استغلال جبل الفضة يتقاتلون  
حتى أدى بهم التناحر الى الانقسام الى حزبين كثير بينهما الاغتيال ثم القتال في صفوف مرسومة . أما اليوم  
فمدينة بوتوزى التي كانت منذ مائتي سنة زاهرة زاهية لم يعد فيها غير ١٥٠.٠٠٠ أو ٢٠٠.٠٠٠ شخص لأن  
سعر الفضة انخفض كثيرا في أوروبا وقل الطلب عليها وكثر من جهة أخرى على القصدير ، ولكن من سوء  
حظ البلاد أن الأرض لم تعد تغل من هذا الصنف إلا كميات أقل مما كانت تغله فيما مضى . وبهذا تمت  
الجوهرة الثانية وبهما تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

### ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

( في قوله تعالى - حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون \*  
وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون  
وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا  
مما تعملون - الآيات )

قد تقدم في ﴿سورة يس﴾ - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون - . فهنا ذكر الجلود  
مع الأسماع والأبصار وهناك خصص الجلود بالأيدى والأرجل ، وفي هذه مجزتان أظهرهما الكشف الحديث  
فتكون مجزات هذه السورة بالكشف الحديث خمسا . ولقد ذكرت لك هناك أيها الذكي حكاية القاتل  
اليابانى الذي قتل معشوقته التي رغبت عن زواجه ، وعرف بعد مدة بسبب آثاره ، وهذه مشروحة هناك  
باسهاب وإيضاح تام ، ولكن هنا أذكر ماجرى من المحادثة بينى وبين صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى  
في هذا التفسير . قال : كيف تنطق الجلود وتشهد ؟ وما معنى كون الأيدى والأرجل تشهد عند الله ؟ فإله تعالى  
يقول في ﴿يس﴾ - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم - ، فلم خص الأيدى والأرجل بهذه الشهادة ؟ وكيف  
تقول الجلود - أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ - . فقلت : أعلم أن هذه المخوقات المادية المشاهدات على  
قسمين : قسم لنا القدرة على التصرف فيه ، وقسم لا قدرة لنا على التصرف فيه . فالذى لنا القدرة على  
التصرف فيه شهوات الطعام والشراب والشقى والكلام ، فهذه خلقت فينا لأجل حياتنا وبهائنا ، وهذه تأتي  
بالحق وبالباطل ، فان الانسان قد يجمع فيأكل كل والأكل قد يضره ، ويعطش فيشرب والشرب قد يضره ، ويشتهى

الوقاع والوقاع قديضته ، ويتكلم والكلام قديضته . ذلك لأن من شهوات الطعام ماتكون شهوات كاذبة ، ومن شهوات الشراب ماتكون كاذبة ، ومن شهوات الوقاع ماتكون كاذبة ، ومن الكلام ما يكون كذبا لاصدق فيه . إذن أحوالنا الحيوانية يعترها الصدق والكذب . فمن الكلام صادق وكاذب . ومن الجوع والظمأ وشهوات الوقاع ما يصدق وما يكذب . فكثيرا ما نرى أنفسنا بعد الطعام بمدة يسيرة نطلب الطعام ، وقد نطلب الشراب قبل مضي ساعة أو ساعتين وقد تتكلم كذبا . هذا هو القسم الأول وهو الذي لنا القدرة على التصرف فيه . أما ما لا قدرة لنا على التصرف فيه من الفاكهة والحب والخضر والمعادن والحجر والشجر . فهذه صوادق في أفعالها ناطقات بالحق ، فلم نر حبة القمح أنبتت ذرة أو يرسيما ، ولم نر بذرة القطن أنبتت كلاً أو بادنجانا ، ولم نر الشمس أصبح تينا ، ولا التين أصبح عنبا ، بل هناك نظام ، ولم نر الهواء أصبح غذاء ، ولا الغذاء صار سما ، بل هذه كلها نواطق بالحق ، لا عوج ولا كذب ولا خداع . وإذا رأى الناس أن في الطبيعة مالم يهدوه كحوادث الزلازل والبراكين فذلك ليس من أكاذيبها ، بل هذه المفاجآت جاءت لغايات صادقة وإن أخذت الناس بغتة فغاياتها شريفة . فأما غايات العواطف الناقصة في الانسان فانها تكون شراء ، فالأكل بشهوة كاذبة والشراب والوقاع كلها مقصرات للحياة جالبات للمرض بخلاف حدوث البراكين في الأرض من حيث لا يشعر الناس بها فقد تكون لها منافع تربو على مضارها مثل انبعاث بخار الماء وغاز الهيدروجين المكرر وغازات أحماض كبريتية أخرى فانها تكون هناك رواسب منها معدن الكبريت حول فوهة البركان وقد تصير طبقات سميكة تصلح للاستغلال كما نرى براكين كثيرة في جنوب ايطاليا إذ هي أغنى مورد لمعدن الكبريت وتنتج كل عام منه (٢٠٠٠٠٠) طن ، فهذه النعم الكبريتية إنما جاءت بفضل البركان . إذن مفاجآت البراكين ليست كمفاجآت الكذب وأمثاله . ومن ذا يقول إن شرور شهوات نفوسنا وغضبنا الغضب المفضي الى القتال والدمار والهلاك والقاطع كغضب الطبيعة بحدوث البراكين . وهل الحرارة الناجمة في (بزولس) بالقرب من نابولي بجنوب ايطاليا البالغة (٣٩٠) بميزان سنتجراد التي حوّلها القوم الى قوة كهربائية يستعملونها في الصناعات المختلفة . وكذلك نظائر هذه البراكين في جزائر (ليباري) وفي (شيلي) يرسب بسببها الكبريت والبوريك والشب

أقول : هل هذه التي وجهت للنافع العامة بالمعادن النافعة والأعمال المفيدة تشبه شرور أنفسنا بالكذب وآثار الشهوات الكاذبة ، فالجوع الكاذب ، والعطش الكاذب ، والعداوة المبنية على سوء الظن ، كلهن جالبات لنا السوء بخلاف ما نراه في الطبيعة ، فهو على قسمين : قسم تتأججه واضحته لاخلل فيه كالفاكهة والأب وقسم لا تعرف أحواله لاشتباهاه علينا كسكون الأرض فنظن أن لبراكين فيها إذا هي نائرة ، فهذه ظاهرها شرٌّ ولكن باطنها نعمة . أما تتأجج الكواذب من طبائنا فهو شرٌّ محض هذه أيها الذكيّ مقدمات لطلوبك ، فألسنة الناس تصدق وتكذب ولكن لسان الطبيعة صادق غير كاذب

فاننا لم نر الذهب يوما زاد وزنه أو نقص فهو (١٩) بوزن حجمة من الماء وهكذا الزئبق (١٣) تقريبا واعلم أنه لا معنى للكلام لإلحركات في الهواء ، وتلك الحركات مختلفات باختلاف الخارج ، وباختلافها امتاز بعضها عن بعض ، وبانضمام صوتين أو ثلاثة أو أكثر تكون كلمة ، وبانضمام الكلمات تكون جمل ، والجمل تدل على المعاني ، وهذه الدلالة تارة تصدق وتارة تكذب . إذن فائدة الكلام انه يدل على المعاني ، ولكن هذه الدلالة قد تخالف الواقع . فلتنظر في مخلوقات أمامنا نرى الماء ونحن ظمأى فنحس في أنفسنا بمعنى . وما هو المعنى ؟ هو انه يبيل ظمأنا . ومثل ذلك الفاكهة والخضر والحب وما أشبه ذلك . فكل هذه لها دلالات ولكن دلالتها صادقة لا كذب فيها بخلاف الكلام الصوتي فيدخله الكذب . إذن الدال إما بحرف وصوت وفيه الصدق والكذب . وأما بلاحرف ولاصوت وهذا لا كذب فيه . وكلام المخلوقات ليس بحرف

ولاصوت . وكلام الانسان بحرف وصوت

واعلم أن الكلام الذي ليس بحرف ولاصوت قسمان : قسم قدسى وهو كلام الله القديم . وقسم مخلوق وهو كلام هذه العوالم . فأما كلام الله فانه فوق عقولنا ولانسبة بينه وبين كلام المخلوق بحرف وصوت . وبلا حرف ولاصوت فهذا فوق متناول عقولنا . ولكن لما تاهت عظمته وجلت قدرته أبرز لنا في الوجود عوالم نكون نتائجها صادقة بدون كلام حرفى أو صوتى حتى سمعناه يقول - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم - كيف كلمته الأيدي وكيف شهدت الأرجل ؟ كلامها ليس بحرف ولاصوت ففيها دلالات ثوابت

ومن باهر الصنع ودلائل الاتفاق وبواهر الرحمة والحب أن الله تعالى لما احتجب عنا فلم نعرف كيف يتكلم بالاحرف ولاصوت وكان رعوفا بالعباد أراد أن يضرب مثلا بالمخلوقات . فكما عرفنا علمه وقدرته بضرب مثل بما نحس به من علمنا وقدرتنا وأن تكن النسبة مفقودة بين صفاتنا وصفاته تعالى هكذا عرفنا كون كلامه ليس بحرف ولاصوت كما نشاهد في هذه المشاهدات من الدلالات الصادقة :

(١) على حكمته وقدرته وعظمته

(٢) وعلى معرفة الجانين بالطرق العلمية في بحث خطوط اليدين والرجلين

(٣) وبما ننتفع به من خواص ما نأكل ونشرب وتتداوى وهكذا . فهذا عرفناه بلا حرف ولاصوت - والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم -

فقال صديقى : لقد فهمت من مقالكم أن هذه العوالم صوادق في دلالتها والانسان قد يكذب وأن هذه الأيدي وهذه الأرجل دلالتها صادقات وفيها علامات مثبتات جرائم أمحبابها وليست كاذبة بخلاف السنة الانسان في الأرض فهى كاذبة . ولكن هل علم الله تعالى بأعمالنا في حاجة الى أمثال الأيدي والأرجل ؟ فقلت : كلا . هو يعلم ذلك . ولكن هذه الآيات موجّهات لاصلاح نفوسنا ولها دلالتان : أولا ان الله عليم بأعمالنا . ثانيا انه ضرب لنا مثلا بأن أيدينا وأرجلنا فيها علامات . ولصدق هذه العلامات الدالات على أفعالنا نسب اليها أن تخاطب بالاحرف ولاصوت من كلامه ليس بحرف ولاصوت . واذا سمع الله منها أفلا يسمع القضاة نطق هذه الأيدي فيحكمون بما تدل عليه ؟ فقال : عجب ! مالنا والقضاة ؟ فقلت : القضاء قضاء الله يوم القيامة . وقضاء القضاة في الدنيا . فاذا كان الله يوم القيامة وهو العليم بأفعالنا يقول على سبيل المجاز أو الحقيقة أن الأيدي والأرجل تكلمنا وتشهد بأعمال العباد وقد قبل شهادتها وسمع كلامها ، أفلا يقبل شهادتها ويسمع كلامها قضاة الأرض ؟ فههنا علمان جليلان : علم الطبيعة الموزونة الجيلة التي تعبر عن جمال مبدعها الذى أبدعها وجعلها بهجة صادقة . وعلم القضاء الذى يترتب على صدق مقدماتها . فاذا سمع المسلمون وقضاةهم الله يقول - وأشهدوا ذوى عدل منكم - ويقول - واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء - فليس معنى هذا أنه لا بينة إلا على هذا المنوال ، فقد أجمع علماء الاسلام قاطبة أن حكم القاضى مبنى على الظن والنبي ﷺ كان يحكم بحسب الظاهر والله يتولى السرائر ، لأننا لانزال في الأرض . واذا وجدنا أن الظن جاء معه يقين ظاهر ألغينا هذا الظن . ألم يقل الله تعالى في ﴿سورة النجم﴾ - ان الظن لا يبنى من الحق شيئا -

فاذا سمع القاضى رجلا يقول ان الشمس لم تطلع مع أنها هي طالعة ، فهذه الشهادة لا تقبل لأنها خالفت الحق هكذا إذا دلت أصابع المجرم على أنه هو القاتل وأن آثار الأصابع ظهرت على صنجة السيف والسيف وجد على رقبة القتيل وجاءت شواهد أخرى على ذلك ، فانا اذا سمعنا شاهدا يبنى هذا نقول له كذبت أيها الشاهد . إن هذه الآيات أيها الصديق نزلت في القرآن ليقترح لنا بها في القضاء باب كان مقلدا إلا قليلا فان الحنفية يقولون : « إن القرائن لها دخل في إنبات الجرائم » ولكن هذا الزمان الذى ارتقت فيه الأمم

ارتقت فيها أسباب الجرائم فأنزله تعالى هذه الآيات تقرأ في كل حين تدينا وذكرا لله ثم استنباطا يعقله ذوالعقول الكبيرة . ولقد تقدم في ﴿ سورة الكهف ﴾ في قصة الخضر وموسى عليهما السلام مالم يخلصه أن قتل الخضر للغلام وخرقه السفينة راجع الى اتلاف النفس واتلاف المال وهذان أهم حقوق الناس . وإذا وجدنا ذلك في القرآن وعلينا أنه قد تم الحقيقة على الظن لأنه عرف أن هذا الفعل المخالف لظواهر الظنون أفضل وأحسن وهذا على طريق الكشف ونحن لا كشف عندنا بل لو كان عندنا كشف لم نحكم إلا بالظاهر ، فلنا طريق آخر وهو أننا متى تحققنا بطرق علمية أن هنا ضررا محققا قام عليه الدليل الظاهر لأهل الحل والعقد فاننا نقدمه على الحكم الذي عرفناه بطريق الظن ، فارجع اليه فالمقام هناك موضع بكلام الأئمة وأكابر علماء الاسلام مع دلائل العقل ، وعليه وجب على علماء الاسلام في الأرض قاطبة أن يجتدوا في جميع العلوم ومن أهمها أدلة اليمين والرجلين التي ورد ذكرها في القرآن لصدق دلالتها

فقال يا عجبا : ولماذا خصت اليمين والرجلين ؟ أليس جسم كل امرئ فيه علامات تدل عليه ؟ فلا فرق بين الأيدي والأرجل وغيرهما . ثم كيف تقول ان لساننا يكذب واليدان والرجلان لا كذب فيهما كما هو شأن العوالم المشاهدة من صدق شهادتها مع أن الله سوى بينهما وبين اللسان فقال تعالى - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون -

فقلت الجواب على هذا يرجع لفصلين اثنين : الفصل الأول في قيمة شهادة اللسان . الفصل الثاني في اختصاص اليمين والرجلين بالشهادة

### ( الفصل الأول في قيمة شهادة اللسان )

يقول الله تعالى في ﴿ سورة يس ﴾ - اليوم نختم على أفواههم - وتكلمنا أيديهم - وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون - فهنا أخص الله اللسان وأنطق اليمين والرجلين وقبل منهما الشهادة . ويقول الله في سورة أخرى - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - فهنا سوى الله بين شهادة الثلاثة إذن هنا اللسان يصدق تارة وبكذب أخرى بدليل انه ختم على الفم تارة وأنطق اللسان تارة أخرى . فاذا كان الانسان بعد الموت ويوم الحساب لا يزال مالكا لقواه وعواطفه كما كان في الدنيا بحيث يتصرف كما يتصرف في هذه الحياة وية تدرك ان ينطق بخلاف ما في ضميره ، فهناك يختم على لسانه وتبقى شهادة الأيدي والأرجل . فأما اذا أصبحت عواطفه غير خاضعة لارادته وليست تحت تصرفه كما ترى في المنوم المغناطيسي ونحوه فهذا لا ينطق إلا بالحقائق فهناك يطلق اللسان فينطق كما تنطق الأيدي والأرجل . إذن اليدان والرجلان لهما منزلة ليست للسان فياظننته يباح مقتضيا المساواة أراه أنا مانعامها . وبهذا تم الفصل الأول والمجد لله رب العالمين

### ﴿ الفصل الثاني ﴾

( في السبب في اختصاص اليمين والرجلين بالشهادة دون باقي الجسم مع أن الأعضاء كلها متساوية في انها لا يظهر تغير هيئاتها الأصلية مدة الحياة )

اعلم أن الاجابة عليها ترجع لعلم اسمه التحقيق الجنائي . وهذا العلم حديث النشأة لم يظهر ولم يبرز لعالم الوجود إلا في هذا القرن أي في الزمن الذي يؤلف فيه هذا التفسير كما ستراه . وأما الآن كتاب في هذا العلم ومؤلفه الاستاذ (محمد بك شعير) وكيل إدارة التفتيش بوزارة الداخلية وهو مدرس بكلية الحقوق . فهناك مقاله في ذلك الكتاب :

﴿ بصمات الأصابع والأيدي ﴾

« ليس ما قرؤه من الوقائع المدهشة عن (شركه هولز) و (كارتر) وأمثالهما وما يكتبه الروائيون أمثال (كونان دويل) و (ليكوك) وغيرهما ومازاه يشخص (بشديد الخاء) في دور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغربية التي يتعقب فيها البوليس السرى الجناة ويتعرف شخصهم ويظهر حقيقة أمرهم من إثناء لمسوه أو وعاه أمسكوه أو كوب شربوا منه أو خزانه فتحوها . ليس كل هذا حديث خرافة وإنما هي ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين أتوا بالمجربات في فن بصمات الأصابع والأيدي »  
الى أن قال « وكان الصينيون والهنود من قديم الزمان يستعملون البصمة في العقود والمشارطات لتقوم مقام الختم والامضاء . وقد أحسنوا في ذلك لأنها لا تنسبه ولا تقبل التغيير والتزوير . فلأضعنا النظر في باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم وجدناها مكسوة بخطوط بارزة دقيقة يتخللها فراغ . ترسم هذه الخطوط أشكالاً وتعاريف وانحناءات مختلفة لا تتطابق في شخصين قط كما نجد نيات تحت عقل الأصابع ونجمدات ناشئة من اطباق اليد وفتحها (انظر شكل ٣٤)



( شكل ٣٤ )

وهذه الرسوم والأشكال تتكون والجنين في بطن أمه من الشهر السادس للحمل ولا تتغير أبداً وتبقى حافظة شكلها واتجاهاتها في سن الطفولة والشباب والرجولة والهرم بل وبعد الممات الى أن يتحلل الجسم ويبيلى كما شوهد ذلك في الموميات المصرية القديمة وفي بعض أجسام القرود المنحطة . وكل ما يبدو عليها أنها تموت وتكبر وتنسج تبعاً لنمو الجسم كلما تقدم الانسان في السن الى أن يصل الى الواحدة والعشرين . وقد ثبت ذلك من مباحث كثير من العلماء وأخصهم (السير فرنسيس جالتون) الذي له فضل كبير في هذا الباب . ومن المجموعات الهائلة المحفوظة بإدارات تحقيق الشخصية بأغلب البلاد الراقية . والبصمات هي الوحيدة في جسم الانسان التي لا تتغير طول حياته بل تبقى حافظة شكلها في أية سن وفي أية حالة كان عليها . اللهم إلا ما يطرأ على الجلد من العوارض كالقطع أو الحرق والمؤثرات الأخرى والنعومة جد أن يصل الانسان الى سن الستين . وذلك بخلاف باقي أجزاء الجسم فانها كلما نما الشخص وترعرع تتغير بسرعة وبدرجة كبيرة بتعذر معها

معرفته بعد بضع سنين ، فالسحنة وتقاطع الوجه والأسنان ولون البشرة والشعر ولونه وكيته حتى لون العينين يتغير . لذلك كانت خاصية البقاء على حالة واحدة في بصمات الأصابع (مع اختلاف شكلها ليس في مجموع الأصابع فقط بل في كل أصبع) الأساس الذي بنى عليه علم تحقيق الشخصية وهو أساس متين غير قابل للنقض ولا للظعن بأي وجه . ويشبهون بصمات الأصابع بأوراق الشجر فانها قد تتشابه في شكلها العمومي ولكنها تختلف في تركيبها وتفصيلها

أما حكمة وجود هذه الخطوط وما يتخللها من الفراغ وما يقاطعها من التجمعات والتثنيات في راحة اليد وباطن القدم فلم يمكن تحليلها بشكل صريح . وقد اختلف علماء وظائف أعضاء جسم الانسان في ذلك ، فبعضهم يرى أن مهمتها تسهيل خروج الافرازات المكونة للعرق ، والبعض الآخر يرى أن لها دخلا باللس والحساسية

ولم يكن استخدام بصمات الأصابع في الجنائيات للتعرف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بهافي استخراج السوابق معروفا في أوروبا إلا حديثا ، فقبل سنة ١٨٩٠ لم يعرف عنها شيء في الحياة العلمية ، ولوأن بعض علماء الألمان بحثوا فوائدها في أوائل القرن التاسع عشر ، وفلا ألقى الاستاذ (بوركنجى) مدرس علم وظائف أعضاء جسم الانسان بجامعة برسا محاضرة نفيسة في سنة ١٨٢٣ باللغة اللاتينية عن بصمات الأصابع وفوائدها ، وقسمها الى تسعة أنواع ، واقترح إيجاد طريقة لترتيبها وحفظها والاستعانة بها ولكن مجهوداته لم تلق ماتستحقه من القبول في ذلك الوقت على أن ماتؤديه من الخدمات في الوقائع الجنائية وفي تحقيق الشخصية وارشاد المحققين والقضاة عن سوابق الجناة واضح لا يحتاج الى برهان ولا أدل على ذلك من تقارير فطاحل هذا العلم المقدمة لؤتمر الجنائى الدولى الذى عقد بمدينة (بورين) سنة ١٩٠٧ فقد وفى الموضوع حقه الأساتذة (لوكار) و (ريس) و (داسكاريللى) و (دى جاستى) و (دى فيرى) وغيرهم . انتهى من كتاب التحقيق الجنائى

فالعجب لأمرين اثنين أيها الصديق ﴿الأمر الأول﴾ قول المؤلف : « إن باطن اليد وأطراف الأ كف والأصابع وباطن القدم ، كل هذه مكسوة بخطوط تختلف باختلاف الأشخاص ﴿الأمر الثانى﴾ انها تلازم الانسان من المهد الى اللحد وأن غيرها مما على جسم الانسان يتغير . حينئذ ظهر أن اختصاص اليدين والرجلين في الآية دون بقية الجسد أصبح معجزة في القرآن ، فاليدان والرجلان فضلا عما ذكرته سابقا من أنهما نافعا في أعمال القضاة هما معجزة قرآنية أنزلها الله في القرآن وأبرزها فعلا في الزمان الذى كنت أعلم فيه في مدرسة دار العلوم وملا بها الكرة الأرضية في أثناء طبع هذا التفسير لأن سنة ١٨٩٠ المتقدم ذكرها هي مبدأ تعلمي في مدرسة دارالعلوم وهذه السنة التى أكتب فيها هذا القول سنة ١٩٣٠ وبينهما (٤٠) سنة . وفى هذه الأربعين سنة ظهر هذا العلم وعملت به الأمم ، فبدأ الظهور سنة ١٨٩٠ وفى هذه المدة انشروا حتى وصل اليها . ومن العجب أن مؤلف الكتاب المذكور كان أحد تلاميذى في اللغة العربية قبل سفره الى أوروبا وذلك في المدرسة الخديوية في أول هذا القرن في العشرة السنين الأولى منه . ومن أعجب العجب أن تختم هذه السورة بما يفيد ذلك إذ يقول - سفرهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم - الخ كأنه يقول : اختصاص شهادة الأيدي والأرجل دون بقية الأعضاء أمر يشكل عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سره في الدنيا وقد أظهره في زماننا ولم يظهره في غيره ، فوجب علينا أن نقول للمسلمين ذلك ونخبرهم بهذه المعجزة التى لم يظهرها الله إلا في زماننا فهى معجزة من وجهين : أولا اختصاص اليدين والرجلين ثم ظهور ذلك فعلا لمكان - سفرهم آياتنا في الآفاق - الخ . وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين

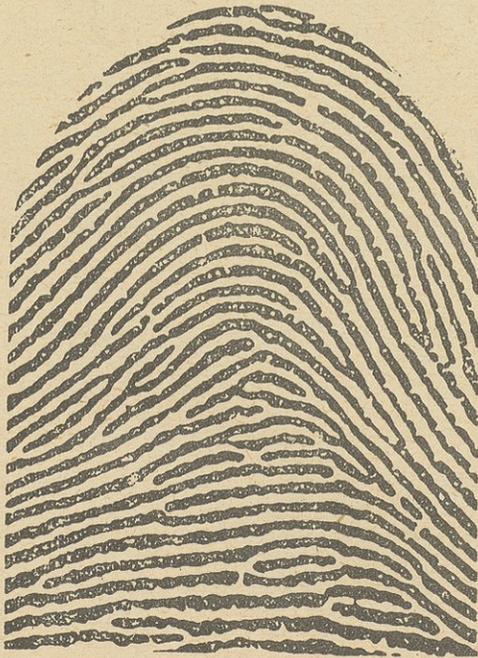
وظهر لك أيها الذكى ظهورا وانحما علميا أن اليدين والرجلين اختصت بخصوصية لم يشرف بها بقية الجسم

وانهما أيضا أصدق من اللسان ، فلم يبق إلا شرح خصائص خطوط اليدين والرجلين ، وكيف كانت الخطوط  
فيهما لامشابهة فيهما بين رجل وآخر . فأقول جاء في الكتاب المذكور أيضا تحت العنوان التالي مانصه :

### ﴿ البصمات الخفية وطرق اظهارها وحفظها ﴾

يكاد الانسان لا يصدق أن أطراف الألف ، وأجزاء راحة اليد ، أو باطن القدم ، اذا لامست جسما  
مستويا أملس كالورق أو الزجاج أو الصيني أو المرآة أو المعادن والأخشاب المصقولة على العموم تترك عليها بصماتها  
بكل تفصيلاتها ورسومها لأن هذه البصمات تكون غير ظاهرة وغير مرئية للعين المجردة وبخاصة اذا كانت  
على الورق ، أما على الزجاج وبعض المعادن المصقولة ، فاذا دقق الانسان النظر فيها وندأها بقليل من البخار  
الذي يخرج من الفم فانه يرى بعض شعاع منها لا يلبث لحظة حتى يزول ، وليس تعليل ذلك من العضلات العسيرة  
التي لا يمكن تصورها بسهولة بل الأمر أبسط وأسهل مما نظن فان بشرة الجلد مغطاة بطبقة دهنية خفيفة ناشئة  
من افرازات العرق ، فاذا لامست الأنامل أو راحة اليد جسما مما سبق ذكره تركت عليه بصمتها وانطبعت  
عليه الخطوط والرسوم باتجاهاتها ومميزاتها ، ولكون تلك المادة الدهنية عديمة اللون تبقى البصمة مستترة  
غير ظاهرة ، لكن قليلا من المواد الكيميائية على شكل مسحوق أو سائل يظهرها للعيان ويخرجها من سترها  
واضحة جليلة كالبصمة المأخوذة بالطرق العادية بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها في التحقيقات الجنائية  
إذ ليس من المقبول عقلا أن الجناة لا تلمس أيديهم بعض هذه الأجسام أثناء ارتكابهم الجرم فتترك عليها أثرا  
غير ظاهر إلا اذا احتاطوا لذلك من مبدأ الأمر بلبس قفاز مثلا أو تعمدوا إزالة ذلك الأثر بعد انتهاء عملهم  
ولانكون مبالغين اذا قلنا انه لا تخلو حادثة من الحوادث التي تقع في الأماكن المتحضرة من وجود تلك  
البصمات التي لو عني بالمحافظة عليها وعدم اختلاطها بغيرها أو ازالتها بواسطة تعريضها للتأثيرات الخارجية كانت  
من أئمن الأدلة المحسوسة وأرجحها

واعلم أن خطوط الأصابع ﴿ أربعة أنواع ﴾  
رئيسية ولكل منها فروع ، فهي منحنيات  
ومنحدرات الى اليمين ومنحدرات الى اليسار  
ومستديرات

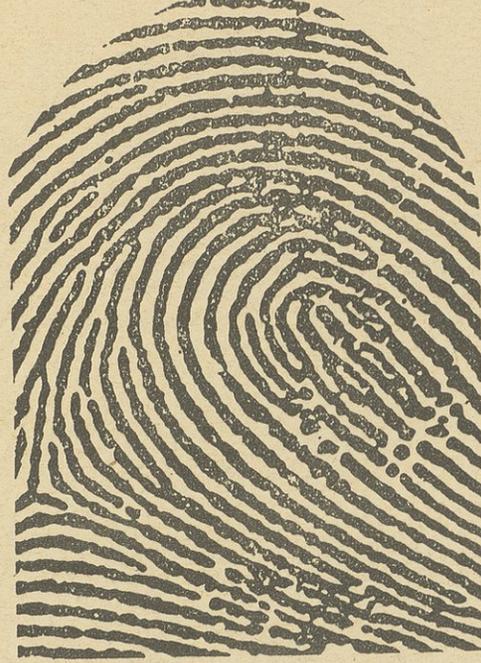


﴿ النوع الأول ﴾ المنحنيات أو المقوسات  
بحيث يكون شكل البصمة فيه عبارة عن  
خطوط أفقية منضبة أو مقوسة الأعلى على الأقل  
وليس فيه زاوية ولا نواة له ، واذا وضع فيه  
زاوية لا يتخللها خطوط ( انظر شكل ٣٥ )  
وهذا يرمز له بهذه العلامة ( ٨ ) في مصر



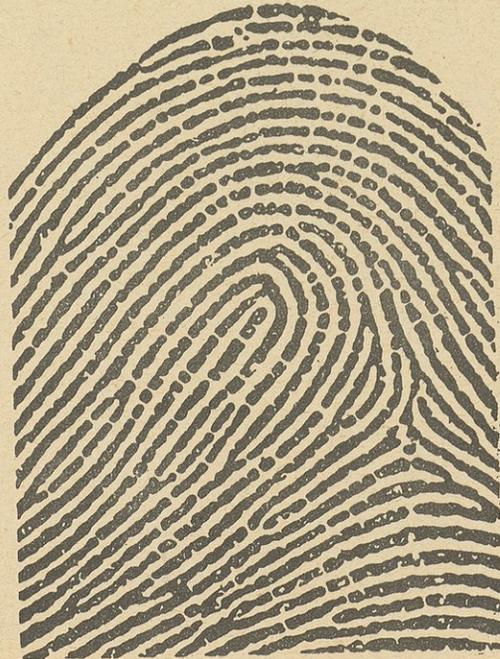
( شكل ٣٥ )

﴿ النوع الثاني ﴾ المنحدرات الى اليمين ورمزه في مصر (ا) وهوماتكون فيه نواة بشكل قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة ، وهذه القناة تنحدر من اليسار الى اليمين وبه زاوية واحدة الى اليسار ، وقد يكون داخل القناة خط منفصل أو خطان أو أكثر (انظر شكل ٣٦)



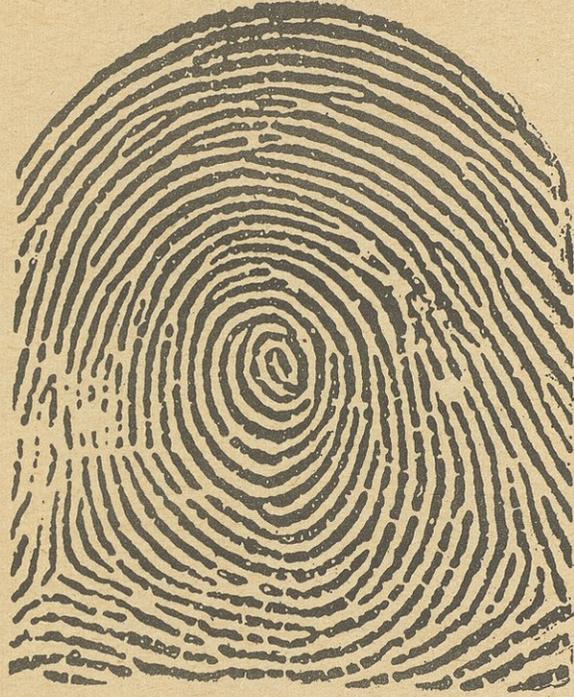
( شكل ٣٦ )

﴿ النوع الثالث ﴾ المنحدرات الى اليسار ويرمز له بهذه العلامة (-) وهوماتكون فيه نواة البصمة عبارة عن قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة . وهذه القناة منحدره من اليمين الى اليسار وبه زاوية واحدة الى اليمين بعكس النوع الثاني (انظر شكل ٣٧)



( شكل ٣٧ )

﴿ النوع الرابع ﴾ المستديرات ويرمز له عندنا بمصر بعلامة (٥) وهوماتكون فيه نواة البصمة على شكل دائري أو يضاوي أو حلزوني بين زاويتين متقابلتين إحداهما الى اليمين والأخرى الى اليسار كما في (شكل ٣٨)



( شكل ٣٨ )

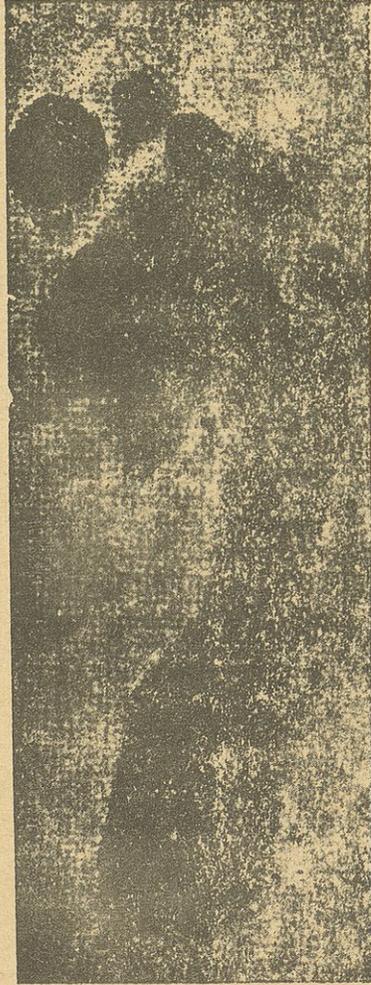
ولما كانت آيات القرآن وتفسيرها يوجب علينا أن نستوفي هذا الموضوع وجب أن نذكر ما ظهر من آثار الرجلين في العلم الحديث كما ذكرنا آثار اليدين فنقول ومن الله التوفيق :  
جاء في كتابه « التحقيق الجنائي » تحت العنوان التالي مانصه :

### ﴿ آثار الأقدام ﴾

قص الأثر معروف عند العرب من زمن بعيد فانهم كانوا وما زالوا يتبعون الإبل والمواشي المسروقة في الصحارى والقفار ويستدلون على محل وجودها ولو كان على مسافات بعيدة ومراحل شاسعة . وجلّ اعتمادهم في ذلك على قوة الباصرة والخبرة والتجربين وقليل ما يخطئ نظرهم فقد أتوا في هذا الباب بالدهشات التي يحار في تحليلها الانسان فينبئك الواحد منهم بما اذا كان تارك الأثر ذكر أو أنثى طويل القامة أو قصيرها سليم النظر أو به مرض باحدى العينين أو ببعض أجزاء جسمه حاملا شيئا أو غير حامل . وفي النساء ما اذا كانت إحداهن حبلى أو غير حبلى وهكذا . ولاغرابة في ذلك فان الاعرابى معتاد منذ الصغر على التجوال في الصحراء وهى أصلح مكان تنطبع عليه القدم وتترك أثرها بشكل واضح يمكن قراءته كما يقرأ الانسان في كتاب . ومما يساعد على بقاء هذه الآثار وعدم محوها واختلاطها بغيرها اتساع تلك البقاع وقلة السكان وندرة المرور فيها وعدم وجود أسباب الرفاهية والعمران بها . فعلى مرّ الأيام يعرف سكان كل ناحية بعضهم بعضا كما يعرف كل منهم أولاد الآخر وناقته وماشيتة . ويمكنه في غير عناء معرفة مشية كل منهم وتمييز آثاره . ويستشهدون بها عند حدوث سرقة أو ضياع ماشية . وهذه قاعدة متبعة للآن في جميع أنحاء السودان وفي الجهات النائية

كلواحات ومصلحة أقسام الحدود. ولما كان هؤلاء القوم مازالوا على الفطرة ولم ينالوا من العلم قسطاً يمكنهم من التعبير عن أفكارهم وتعليل استنتاجاتهم واقناع الغير بصحتها كما ان كل عمل من هذا القبيل مهما بلغ صاحبه من دقة النظر واصابة الرأي عرضة للخطأ. لذلك وجب أن لا يعتمد على أقوالهم اعتماداً كلياً. ولا بأس بأخذها بتحفظ تام وعلى سبيل الاستئناس فقط. وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بفضلهم وخصوصاً في الارشاد عن الاتجاه الذي سار فيه الأثر والطريق الذي سلكه الجناة

ولم تكن الاستعانة بآثار الأقدام بطريقة علمية معروفة في أوروبا الى عهد قريب. فأول حادثة اكتشفت فيها فائدة آثار الأقدام العارية وقعت في (٢٧) نوفمبر سنة ١٨٤٦ م وسترى في الأشكال الآتية صور بعض آثار الأقدام المختلفة (انظر شكل ٣٩ و٤٠ في هذه الصحيفة وشكل ٤١ و٤٢ في الصفحة التالية)



( شكل ٤٠ )  
نفس القدم وصاحبها واقف



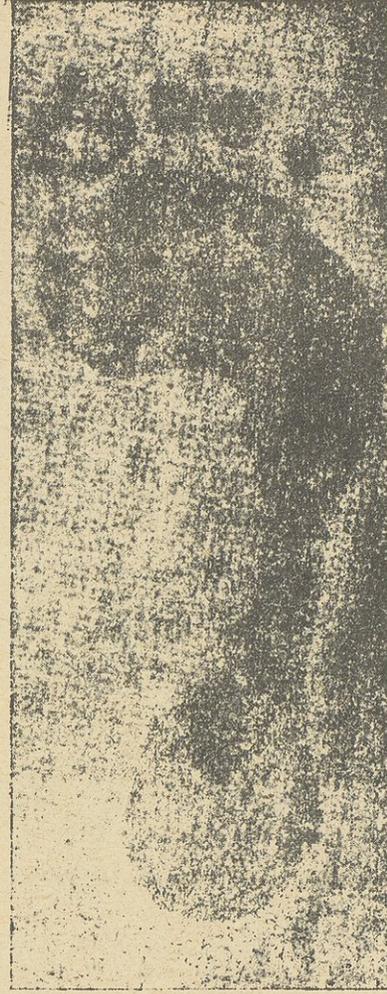
( شكل ٣٩ )  
قدم عارية وصاحبها سائر





( شكل ٤٢ )

قدم منبسطة



( شكل ٤١ )

قدم مقوسة

هذا ما أردته من كتاب « التحقيق الجنائي » لمؤلفه محمد شعير بك تفسيرا لقوله تعالى - حتى اذا ماجءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون - الخ. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

### ﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام

في الأخلاق

تفسيرا لقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألتخافوا ولا تحزنوا - الى قوله - إنه هو السميع العليم -

ولأجعل الكلام على هذه الآية في خمس أمور :

(١) الكلام على الايمان بالله والاستقامة

- (٢) إلهام الملائكة المؤمنين بالخيرات  
 (٣) مساعدتهم في الحياة وبعد الموت  
 (٤) محاسن الأخلاق وملاطفة الأعداء  
 (٥) الالتجاء الى الله في كل شيء

في يوم الجمعة (٢١) نوفمبر سنة ١٩٣٠ بينما أنا جالس أفكر في معنى هذه الآية ، وأنا أعجب من أن الانسان يحس في نفسه مذكرا يذكره بامور علمية وأخلاقية وهذا شائع بين الأمم ، وكيف كان هذا من مضمون الآية إذ جاء فيها - نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة - على لسان الملائكة أقول : بينما أنا كذلك إذ أخذتني سنة غليل الى أني في روضات بهجات ، مزينات بأجل الزينات ، والرياش الفاخر في جوبهيج مضيء مشرق في قصر منيف ، فيه فرش مر فوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوقة ، وهناك من الجواهر مالا أقدر على وصفه وأدرك كنهه

فبينما أنا في دهش مما رأيت وفي عجب عجاب إذ أقبلت فتاة أشرق نورها وأضأت المكان ببهجة جمالها وماتحت به من أجل الحلى ، ومالبست من أبدع الحلل ، وقد عطرت أرجاء القصر بالروائح العطرية ، فسلمت وحيث . فهناك نسيت جمال القصر وبهجة الزينة والرياش وأخذ الجبال يبصرى وبصيرتى حتى نسيت كل شيء إلا ما رأيت من منظر ناضر وطرف ساحر وجمال باهر ونور زاهر ، فما كان إلا كلعج البصر حتى خررت صعقا وغابت الفأكرة ونامت الباصرة وأخذت فؤادي تلك النظرات الساحرة ، فصرت كالسحور الذي لا يبى ماحوله ولا يدري كيف يقول . وهكذا بقيت على هذه الحال مدة . فلما أقفت من غشيتى وقت من غفوتى رأيت الفتاة أمامى وهي تبسم فكلمت آخر صعقا كرتة أخرى إذ لم أر مثل هذا الجمال في الأرض أمد الحياة وخطر لى خاطر قديم . ذلك انى يوما كنت دخلت (دار الصور المتحركة) بمصر فرأيت من تلك الصور التي تظهر فيها صورة ( كليوباترا ) ملكة مصر من دولة البطالسة . وقد لبست أنفرا الملابس التي يقال ان ثمنها يبلغ آلاف مؤلفة . فقلت في نفسى إذ ذاك : يا حسرة على مصر . مصر التي انتهكت حرمتها الدول وأبقوا فيها امتيازات الأجانب فأدخلوا صوراً تفسد الأخلاق وتثير الشهوات . فأما في بلادهم فإن الأكثر في مشاهد (دار الصور) أن تكون معلمة للشعب الفنون والعلوم وأحوال الحياة بأنم مظاهرها . فهذا الخاطر الذي خطر لى قبلا نتجدد لى إذ رأيت هذه الفتاة . فقلت يا ويلتى ماذا أقول الآن وهل مثلى في هذه السن يلعب الجمال بعقله أو يخاطر الغرام بلبه . إن ذلك منمر بالمثيب . وإذا كنت أخاف على الشبان من هفوات الأجسام . أفلا أخاف على أدبى وعقلى من زلات الضمير وفتنة القلوب والصبوة ولو بالخواطر والهفوة ولو بالنواظر

وبينما أنا كذلك إذ رأيتها ازدادت ابتساما وقالت سلاما سلاما لا تتريب عليك ماهذه بصبوة ولا أنت الآن في غفلة . إنك الآن مكين أمين لا إثم ولا حرج . أنت الآن في عالم المثال لا في عالم الأجسام . فأنت روح وأنا مثلك . ثم أمسكت ييدى فكان نورا قبض على نور . ولم أحس بتلك العظام ولا العضلات ولا تقل الأعضاء الغليظة ، فقضيت العجب وقلت في نفسى « أهذا كله في عالم الخيال ؟ » ولم أكد أتم هذا الخاطر حتى أخذت تقول هذا العالم هو الجمال الحقيقي ، ألم تقرأ - وان الدار الآخرة هلى الحيوان - ، فقلت في نفسى : يا ليت شعرى ما اسم هذه الروح ؟ فقالت على الفور أنا اسمى (البصيرة) فتذكرت قوله تعالى - بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره - وخطرت لى خواطر الآية التي نحن بصدد الكلام عليها وأن الذين يعرفون الله واستقاموا يبشرون ويلاحظون في حياتهم الدنيا وبعد الموت وتلهمهم الملائكة ، وقلت في نفسى : هل هذه صورة روحية لبصيرة الانسان ؟ ويا ليت شعرى أهذه تشاكل بصيرتى أنا أم بصائر جميع الناس في الأرض ! وهل بصائر الناس جمال فأن على هذا المنوال ، فأجابت بلا تردد ولا توان وقالت إن جمال أرضكم جزئى

إنه جمال نزل الى الأرض بقدر . ألا ترى أن جمال الرجل أو المرأة لا يبقى إلا ريثما يلدان النرية . فاذا أسنا ذهب الجمال وعوداً بدل الجمال الظاهري محبة ومودة ورحمة بها يشتركان في تربية النرية وفي المنافع المنزلية والامور المادية . إذن الجمال في الأرض ليس مقصوداً بالذات وما جاء بسبب فهو لا محالة ذاهب بذهاب سببه . أما الجمال هنا فهو أرقى من الجمال في الأرض من جهتين : أولاً ان نسبة جمال أهل الأرض الى جمال عالمنا كنسبة نور السراج في الأرض الى نور الشمس . ثانياً ان نسبة دوام الجمال عندنا الى دوامه عندكم كنسبة دوام نور الشمس الى فناء نور السراج . الجمال عندكم مقدمات وعندنا مقاصد وغايات وسعادات . ولقد أخبرتك بأنني أنا البصيرة . إن بصائر أهل الأرض جميعاً قد جعلني الله مثلاً لها ، فأنا مثال البصيرة الكلية وعنوان لها ودليل عليها ، بل أنا هي ولست تتمكن من رؤيتي إلا على هذه الحال . هنالك قلت هذا مقام العائد بالله وبك ألا تدريني أنجذب في ظلام الأوهام ، إلى أودّ المقام بجوارك أمد الدهر . فلقد قضيت دهرى في حياة كلها غرام بك وحباً للنتائج الخلقية والعلمية التي أنت المبرزة لها . فقلت انك لا تطيقني الآن . أولاً لأن مظهرى الآن ربما لا تحتمله اذا طال مقامك هنا ، ألم تر أنك خرت صعقا حين لاقيتني . ثانياً انك الساعة كما ذكرت لك في عالم الروح . ولقد قضت العناية أن ترجع الى عالم الأجسام باليقظة ، وعينك هنا ترى ما لا ترى عينك هناك ، وهذا الجمال الذي ظهر لك إنما هو الجمال الكاسب لهذه الدرجة الروحية ووراءها درجات متتابعات تخلق لها عيون على مقاديرها في عالم الأرواح العالية . ولو أن درجة من درجات الجمال ظهرت لأرواح لم تستعد لمشاهدتها لأهلكتها ، فاذن لا بد من رجوعك الى عالم الحس المادى زماناً لكي تكمل نفسك فلا تصعق كما صعقت الآن حين رأيتني . قلت ولكن لا صبر لي على فراقك . فقلت إن لكل مقام مقالا ، فارجع الى الأرض عالم المادة واشهد مزارعى التي زرعتها في الأرض . فقلت أى مزارع ؟ فقلت مزارع القلوب ، قلوب الحكماء والعلماء والأولياء ، فاقراً ما ألقيته على قلب كوفوشوشوس حكيم الصين وقلب أفلاطون وسقراط وقلوب الرواقين وقلب الاستاذ ( كنت الألماني ) ، فهؤلاء وأمثالهم الذين برعوا في علم الأخلاق قديماً . وهكذا قلب الغزالي والرازي وأمثالهما من علماء الاسلام بل أمثال الشعرائي من الصوفية فهذه مزارعى التي غرستها في قلوب هؤلاء في علم الأخلاق . فتذكرت إنى قرأت في « جريدة الضياء » مقالا يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

### ( المذهب الذي يمتنقه ٥٠٠ مليون من الناس )

الكونفوشيوية هي مجموعة التعاليم التي دعا اليها كوفوشوشوس منذ ٢٥٠٠ سنة ورواها عنه أقدم حكماء الصين ، ولم يكن كوفوشوشوس يميل بطبيعته الى التغافل فيما وراء الطبيعة والتعمق في التأملات الدينية ، ولكنه كان شديد العناية بالفضائل والخلقيات فهو يوجه جلّ اهتمامه الى دراسة المسائل العملية الخاصة بالعلاقات الانسانية ويدعو الى اتباع السبيل القويم في المعاملات . وكان في حياته الخاصة شديد الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والايمن بأن الله منه الحياة وحدد له المهمة التي يؤدّيها ، وانها تحميه كيد أعدائه ومن قوله « ما أعظم قوات الأرواح . اذا نظرنا لانراها واذا أنصتنا لانسمعها . ولكنها تدخل مع ذلك في كل الأشياء ولا يوجد شيء بدونها » وكان لا يصرح بمثل هذه الامور الا الخاصة أتباعه في خلواته ، أما تعاليمه فكانت كلها عملية ، لأنه كان معلم أخلاق ورجل سياسة . وكان يعتقد أن معرفة الله شيء يفوق قوة تصوّره . ومع ذلك فانه اعترف وهو يعزى نفسه بقوله انه ولد في السماء وان الله أوجد الفضيلة التي فيه . وأن تقته بالله لا حد لها ، فهو لا يتذمر من الفضلاء

كما أنه لا يتبرم بالناس . وقوام عقيدته الاعتراف بضعف الانسان وحاجته الى مساعدة الاله ، ومحاولة التمتع بمباهج الحياة ومزايها عن طريق الاتصال المباشر بالله . وتكاد الكونفشيوشية تكون طريقة مرسومة للحياة فهي الصفة الدينية لأنها تحض متبعيها على عدم مخالفة قوانين الطبيعة والتآلف مع بقية الناس ، وتنتهي عن حب الذات وتأسر بتضحية النفس في حب الآخرين . وقد نجح كونفشيوش في اكتساب العقلية الصينية ، بفضل شخصيته القوية ، ومحافظة على التقاليد ، ولأنه اتخذ لنفسه صفة القيادة والزعامة فأمنت تعاليمه مسلما بها من الجميع ، وأض الخارجون عليها في حكم الكفرة

وأساس فلسفة كونفشيوش « التاو » وهي نقطة الابتداء ، والطريق الذي يتحرك فيه الوجود ، والنظام الذي يسير عليه العالم ، أو النظام الطبيعي . وهو السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الناس جميعا . والاتجاه الخلقى لكل انسان . وهناك طرق ثلاثة طريق السماء وطريق الأرض وطريق الانسان وهو أهم الطرق الثلاثة ولكن الطريق شيء غير منظور لا يرى إلا في أعمال الناس فهو مبدأ خلقى مستور تفرع منه فضائل الحياة اليومية . ويؤمن كونفشيوش بثبات الطبيعة على مبدأ خلقى واحد ، فهو يقول بأن السماء والأرض قد أظهرتا ثباتا معنويا في طرفهما المطردة . والكون نظام وليس فوضى . وتتجلى في كل أعمال الطبيعة مظاهر الاخلاص التي يجب أن تعتبر نقطة السير للحياة الخلقية

ويعتقد الكونفشيوشيون بأن الطبيعة هي خير في ذاتها ، وأن مبادئها وقوانينها انما وضعت لارشاد الناس الى التصرف الواجب . ومع ذلك فان تصرفات الطبيعة غامضة ولا يمكن كشفها . وهذا ما جعل تصرفات الناس خاضعة لأحكامها المقدرة من قبل . فسعادة الانسان وشقاؤه ، وتوفيقه ونحسه كلاهما مقدر ، وإذا كانت لا توجد علوم تمكن الانسان من السيطرة والتحكم في الحوادث الطبيعية ، فان وقوع هذه الحوادث يصبح لذلك لا محيص عنه ولا مفر منه . ومع أن وقوع هذه الحوادث التي لا مفر من وقوعها ، ومع ما يبدو لنا من قسوتها وشدها أحيانا . كان وقوعها مرهونا في الغالب بتصرفات الناس أنفسهم . لأن الطبيعة ليست شريرة في أعمالها . وكل ما هنالك أنها عادلة وهي تضع دائما الخير مع الخير ، والشر مع الشر ، فالطبيعة شريفة وتتصرف بطريقة خلقية سامية . وكونفشيوش مثل لوك وعلى عكس هوبز ، يعتقد بأن الأصل في طبيعة الانسان الخير وأنها تلتبس الخير كما يلتبس الماء الانحدار . وأول ما يتعلمه التلميذ الصيني في كتابه الدينى الصغير «الناس عند ما يولدون يكونون خيرين بطبيعتهم»

ويفسر أئمة الكونفشيوشية هذا المبدأ بأن كل انسان يملك في صميم نفسه مبدأ خيرا ، يسوقه الى العطف على الآخرين ومساعدتهم ، ومبدأ عاد لا يشعره بالخجل من كل ما يثير الخجل ، والكراهية لكل ما يستحق الكراهية . ومبدأ لللياقة يحمله على احترام وتمجيد من يستحقون الاحترام والتقدير ، ومبدأ حكيما يعرف به الحق ويؤيده . ويدرك به الباطل ويرزخ عنه

وهذه المبادئ ليست مخالفة للطبيعة الانسانية ولكنها مركبة في غرائز العقل الانساني ولاغنى للبشرية عنها . وليس على الانسان الا أن يطبع هذه المبادئ السكائمة فيه ليأمن العثار ويسلك الخب الذي لاغبار عليه . ويصبح انسانا كاملا . ان الناس يولدون أطهارا بطبيعتهم غير أنهم إذا طعموا غذاء دسما . واكتسوا ملابس تشع الدفء في أجسامهم . وسكنوا أماكن مريحة فانهم يصبحون كالبهايم تقريبا . فغاية التعليم القسوى هي استرداد العقل المفقود ، وأغلب الناس قد فقدوا عقولهم

ومن مميزات الثقافة الصينية العناية بأداب اللياقة ، وهي ظاهرة الأثر في النظام الكونفشيوشى ويضع كونفشيوش نظاما خاصا من العوائد والاقبسة لكل العلاقات الأساسية بين الناس . وكل ما يشاهد في الصينيين من مظاهر اللياقة وحسن التصرف انما منشؤه من هذه العادات . فالآثران الذي يقابلون به أى موقف من

مواقف الحياة يرجع الى استعدادهم الداخلى الذى جرى منهم مجرى الغرائز بفضل مرانهم الطويل مدى العصور المتعاقبة

لذلك لا يحتاج الصينيون الى كتب فى اللياقة لأنهم نشئوا منذ نعومة أظفارهم على اتباع أصولها المتبعة فى تقاليدهم الدينية المنسوبة الى كونفوشيوس . حتى أصبح الثبات واللياقة طبيعة ثانية فيهم . فأنت لا تلمح أثرًا للجلافة عندهم حتى فى أحط الطبقات الجاهلة ، بل تراهم جميعا قوما يحسنون التصرف بلباقة فى الأحوال ويفضل كونفوشيوس فى كتابيه الثالث والرابع المعروفين (بتعليم الوضوء) الكيفية التى يستطيع بها الانسان أن يتمشى فى قوانين الطبيعة لكي تظهر عناصر الخيرية المركبة فى طبيعته . وهالك بعض فقرات من الكتابين التناسب طريق الطبيعة . والوصول الى التناسب هو طريق الانسان . فالذى يتمشى مع الطبيعة يصيب الهدف من غير نصب ، ويفهم الحقيقة بدون تفكير والحكيم من يهتدى بفطرته الى الطريق القويم من غير عناء والتناسب أو التمشى مع طبيعة الكون هو فعل العليم فى الآداب الكونفوشيوية ، فالرجل الذى يصل الى هذه الدرجة من التناسق يصبح انسانا كاملا . ويدعو كونفوشيوس الى الاهتمام بالأمرين (شو) ومعنى الكلمة الحكم على الغير باختبار الانسان الشخصى . لأن التشابه بين الناس فى تفكيرهم يمكن الفرد من الحكم على الآخرين فلأنتى عاملت كلبا أو جوادا بما لا أحب أن أعامل به ، فليس معنى ذلك أن هذه المعاملة لاتباع بالكلب أو الجواد . ولما كنت أنا انسانا واخوتى الآخرون هم أيضا من بنى آدم أعرف ما يسبب لى الأذى فإنى أمكنتى أن أعرف أن الآخرين عند ما يتأثرون بنفس العامل يتألمون مثلى . واذا اتخذت قلبى دليلا لى فإنى لا أعمل لغيرى مالا أراضه لنفسى

ويعرف كونفوشيوس الرجل الراقى ، بأنه الشخص ذوالفضيلة الكاملة ، الانسان الذى رفع نفسه الى مستوى الكمال الخلقى . بعكس الرجل الضيق العطن العادى التفكير ، وجمع الصفات التى تتألف منها أخلاق الانسان الكامل هى : الاحسان . والانسانية والايثار . وإنكار الذات والروحانية والمحبة . أما المحبة فهى فى عرف كونفوشيوس غاية الحياة الانسانية . ومن رآه أن الانسان الكامل يجب أن لا ينسى هذه الغاية ولو مرة واحدة . أثناء تناول وجبة واحدة . أو فى ظرف يكون فيه مشغولا جدا أو عند ما يفشل فى عمل فشلا فاضحا ويأمر كونفوشيوس بحب الناس . أى أن يشعر الفرد بمحبة النوع الانسانى وينظر الى البشر جميعا كأنهم اخوته ويعتبر الانسان اجتماعيا بالطبيعة . ويحمل النظام الاجتماعى الى خمس علاقات : الملك ووزيره والأب وولده . والزوج وزوجته . والأخ الأكبر وأخوه الأصغر . والصديق وصديقه . فالانسان بطبيعته مغمور فى نظام من العلاقات ولا يستطيع أن يعرف نفسه الا داخل هذا النظام . وهذه العلاقات تتضمن فوارق ، فالخضوع ليس معناه تحديده الحرية الطبيعية . ولكنه شىء طبيعى لا بد منه اه

فلما قرأت هذا وهى مصفحة لى (وعجبت إذ رأيت المقالة أممى كأنى أشاهدها) قالت انظر فى الآية التى تفسرها أنت الآن . ألم ترأى ألهمت حكيم الصين أن يقول : « إن الله منعه الحياة وحدد له المهمة التى يؤدىها وانه يحميه كيد أعدائه » . قلت بلى . قالت أليس هذا بعينه ما فى هذه الآية - تنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولا تحزنوا - الى قوله - نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة - . ثم قالت : ألم ترأن ملخص كلامه عن نظام السموات والأرض انه فى غاية الكمال ، وأن نظام النفوس الانسانية فى الأعمال يجب أن يكون على مقتضى هذا النظام (وبعبارة أخرى) إن النفوس الانسانية يجب أن تكون مخصصة وصادقة كالاخلاص والصدق فى نظام الأرض والسماء ، وهذه المعانى هى التى برزت فى تفسيرك للقرآن لأن هذا التفسير سيكون نموذجا يؤممه أمم فى الشرق والغرب يسرون على النظام الطبيعى فى أعمالهم باخلاص وأمانة وحب لربهم . ثم إن تعريف كونفوشيوس للرجل الراقى هو عين قوله تعالى - ولا تستوى الحسنة ولا السيئة

ادفع بالتى هي أحسن - وأما الحب العام الذى ذكره فهو مضمون نفس هذه الآية ومطاب القرآن - إنما المؤمنون اخوة -

إذن آراء كونفوشيوس هي مقاصد القرآن والله أعترك عليها الآن لتكتبها فيعلم المتعاملون من المسلمين الذين قرءوا العلوم الفلسفية الأوروبية . إن آيات القرآن المبذولة للجهال والعلماء على حد سواء ليست هي كما يظنون غير مستحقة عنايتهم بدعوى أن قراء القرآن أكثرهم جهلاء فقراء ، فإن هذا القرآن من عند الله كما أن الماء المبذول لجميع الناس من عنده وهكذا الحب المبذور والنوى فى الأرض الذى تطؤه البهائم هو نفس الذى يصير حبا ونمرا جنية ، فليس عموم النعمة دلالة على قصصها ولا شمولها الجاهل والعالم عنوانا على هوانها . كلا . فليعلم أولئك المتكبرون أن كبرهم فى غير محله وأن القرآن تفسره الفلسفة فى الشرق والغرب وحكمة الحكماء وعلم العلماء - بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم -

ثم انى تذكرت بعد ذلك بعض آراء أفلاطون من المقدمة التى كتبها الاستاذ (بارتلمى ساتهليير) أستاذ الفلسفة اليونانية فى الكولج دى فرنس ثم وزير الخارجية الفرنسية التى ترجمها الاستاذ (أحمد لطفى السيد) مدير دار الكتب المصرية ، فأسمعتها مانصه . قال :

(١) وقد استعار أفلاطون استعارة أخرى ليجود بيان هذا الطبع المزوج للانسان فقال : (فلتتصور أن كل واحد منا هو ما كينة حية خارجة من يد الاله . فالشبهات التى نحسها هي كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل الى ناحيته ، وبتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادة . وهذا هو ما يقرر الفرق بين الرذيلة وبين الفضيلة ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا أن لانطواع الا أحد هذه الخيوط وننزع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ما عداه من الخيوط الأخرى . ذلك هو خيط الذهب المقدس . خيط العقل الذى هو القانون العام للممالك وللأشخاص . ينبغى أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو محل الحكمة وأنه مكلف بأن يسهر على النفس بتمامها ولا ينبغى ألبتة أن يصنى المرء فى نفسه إلا الى صوت العقل ، لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا . ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمو بالمعارف أو بالثروة أو بالجاه والسلطان ، ذلك ليس الا نقصا فيما يجب من تشريف ما فى نفسه من الجهة القدسية ، وتفريطا منه فى إكرام نفسه ، فان إكرامها الحقيقى ينحصر فى الدأب على تمية الفضيلة فيها وحمايتها من الكبرياء واللذات ، ومن الترف الذى يجعلها متجبن عن احتمال المشقات الضرورية ومن الجزع عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجليل ، فان الجليل لا ينبغى أن يؤثر على الخير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ما على سطح الأرض وما فى باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة . وإن المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه ، كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسى - موارد العار والاحتقار (١)

(٢) وقال المترجم أيضا « وبعقضى ذلك كان الواجب الأول على الانسان ، بل الواجب الوحيد الذى يشمل جميع الواجبات الأخرى هو أن يسلك فى الحياة سبيل العقل المستقيم . وإن أكبر خطيئة يرتكبها ، وأكبر جهالة يقع فيها إنما هو أن يعصى العلم والحكمة والعقل ، وهى ثلاثها سادته الحقيقون . إنما هو أن يكره شيئا حكمه بأنه حسن جميل بدلا من أن يحبه . إنما هو أن يحب ويعانق من يحكم هو أنه ردىء . على أن النفس تجد طمأنينة تامة ، وقوة أيما قوة حينما تتفق إحساساتها وأعمالها ، فتقتبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها فى فكرة أو عمل ظالم فى حق الله أو فى حق الناس . وإن أكبر حرب فى الحياة هي الحرب

(١) القوانين ك ١ ص ٥٤ - الجمهورية ك ٤ ص ٢٤٠ وك ٩ ص ٢٣٢ - طبارس ص ٢٣٥ - كريتون ص ١٣٥ - فروطا غوراس (الفسطاطيين) ص ٥٧ - القوانين ك ٥ ص ٢٥٤ - الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٩ - فيدون ص ٢٦٦

التي تقع بصدد صيرورة المرء فاضلا أو شريرا. (١) وقد يقع المرء في الضلالة إذا هو ظن أنه الرجل الذي له قيمة تقضى عليه أن يحسب حسابا للموت أو للحياة ، بدل أن يقصر سعيه على البحث فيما إذا كان ما يعمل هو خيرا أم شرا ، وما إذا كان عمله عمل رجل صالح أم عمل رجل سوء . كل امرئ اختار صركرا ، لأنه رآه أشرف من سواه ، أو لأن رئيسه وضعه فيه ، يجب عليه أن يقيم فيه ثابتا ، ولا ينظر إلى الخطر ولا إلى الموت ، ولا إلى شيء آخر غير الشرف . كذلك كان سقراط ، لما جرى به ليحاكم أمام الشعب الآتينى على نهمة كبرى ، لم يتأخر ألبته عن تنفيذ هذه المبادئ بالعمل . فلما كان يخدم وطنه في ميدان القتال ، احتفظ كما يحتفظ الجندي الباسل بجميع النقط التي وضعه فيها القواد في بوييدة وفي أنفيوليس وفي ديليوم . كذلك لم يكن ليتحول عن المركز الذي خصه الله به . بل دأب على درس الفلسفة على رغم الخطر الهائل الذي كان يتهده ، حتى إنه لما مثل أمام القضاة ، لم يخطر بباله ليتقى الموت أن يتنازل إلى التخضع بسؤال العقو ، ولا إلى التملقات العادية التي اعتاد الناس أن يستدروا بها شفقة القضاة . وما كان الكلام هو الذي يعوزه في هذا الصدد . بل الذي كان ينقصه هو عدم الحياء من نفسه . فلم ينزل عن عزته إلى سكب الدموع . وما يستبيحه المتهمون المستهينون بكرامتهم من الدنيا ، كأن الخطر الذي هوفيه لم يكن في رأيه داعيا إلى إتيان ما هو غير خليق بـرجل حر . فالشأن أمام المحاكم كالشأن في ساحة القتال ، لا يسمح للمرء أن يتسدرع بأى وسيلة من الوسائل المختلفة لحفظ حياته . فكما أنه في الحرب لا ينبغي ألبته أن يلقي المحارب سلاحه ، ولأن يطلب الأمان ، كذلك لا ينبغي ألبته تلقاء غيرها من الأخطار أن يتسفل (٢) إلى حد أن يقول كل شيء ، ويعمل كل شيء . كذلك مضى سقراط ، من غير أن ينحسر من شرفه شيئا إلى الموت الذي حكمت عليه به المحكمة ، وترك الذين اتهموه ملطخين بوصفات الظلم والعار التي حكم عليهم بها الحق . لزم عقابه كما أنهم لزموا عقابهم . والشأن في ذلك كما يقول هو أن كل شيء هو على أحسن ما يكون . ليس المهم أن يعيش المرء ولكن المهم هو أن يعيش عيشة حسنة . ذلك المعنى هو الذي حمل سقراط على أن يرفض خدمة المخلص « كريتون » فلم يشأ أن يهرب من السجن ليخلص من حكم ظالم لأنه يعلم أن هذا الهرب مهما برره الظاهر ، فانه ليس في الواقع إلا مخالفة لقوانين الوطن ذلك هو إذن المبدأ الأول الذي قرره سقراط ، وأيده بالمثل الفعلي . هو أنه لا ينبغي ألبته إتيان الشر بأية حجة كانت ، بل ليس سائعا أن يدفع الشر بالشر ، ولئن قيل : إن العدل إنما هو إتيان كل انسان ماله ، فليس معنى ذلك في عرف الحكيم أن الرجل العادل يجب عليه لأعدائه الشر ، كما يجب عليه لأصدقائه الخير ، فليس عمل السوء لأى انسان من العدل في شيء .

من هذا المبدأ استنبط سقراط نتيجة ضرورية ثابتة لم تكن من قبل ، وهي أن النفس متى كسبت السبب بعامل الجهل أو الضعف ، على الرغم من شدة تحفظها ، فأول ما يجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها ، والذي يمكن أن تشفى منه . وعلاج الخطيئة إنما هو العقاب ، فلا ينبغي للذنب أن يتدمر من العقاب الذي أصابه إما بيد الله أو بيد الناس ، بل يجب عليه أن يقتبط بالبلاء الذي يكفر سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلما . ان العقاب ضرب من الطب المعنوي . وشأن المذنب الذي يحاول اتقاءه شأن المريض (٣) الذي قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب إلى الطبيب الذي يعيد إليه الصحة بالحديد أو النار . ولا يعزب عن سقراط أن هذه المباحي يبين عليها بادية بدء أنها تصادم الرأى العام . وفي الحق أن من النادر في الواقع أن يوجد

(١) أفلاطون - فروطافوراس ص ٣٨ - غرغياس (البيان) ص ٢٦٢ و ٣٦٧ - القوانين ك ٣

ص ١٦٧ و ١٦٥ - غرغياس ص ٤٠٢ - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٦٥

(٢) أفلاطون - تقر يظ سقراط ص ٩٠ و ٩١ و ١١٤

(٣) أفلاطون - تقر يظ سقراط ص ١١٤ و ١١٥ - كريتون ص ١٤٣

جناة يأتون ليسلموا أنفسهم الى العدل الذى يقتص منهم ، ولكن قد يكون ذلك مما لا يعابها ، فانه يلزم أن لا نهم بما ستقوله عنا الغوغاء ، بل بما يقوله الذى يعرف العدل والظلم . وهذا القاضى الوحيد لأعمالنا إنما هو الحق ، إنما هو الله . فاذا جهد المذنب . كما هي العادة . ليخلص من العدل ، قائما هو حقيقى بأن يرى له ، حيث يضيف الى سيئته الأولى التى هي الجنابة سيئة أخرى شرا منها . وهي بقاء تلك السيئة من غير عقوبة تكفرها . لكن القلب المخلص المستقيم متى كسب الخطيئة بالمصادفة محجّل الى طلب العقوبة راغبا فيها ، لأنها هي التى تصلح بينه وبين نفسه وبين الفضيلة (١)

(٣) وقال فى صحيفة ٣٩ وما بعدها مانصه : والخير الأكل كما عرفه أفلاطون فى كتابه «فيليب أو اللذة» ليس كله فى العقل ولا فى اللذة ، بل هو فى مزيج منهما جميعا . ونسبته فيهما مما يدق تعيينه . لكن الفيلسوف مع تقيده اللذة لا يريد إهدارها كما حاولت مذاهب الغلاة من بعده بزمان ، فان لديه سعادة العيش وشقاء مسألة كبرى ليس عنده هم أشد من حلها على الوجه الحسن ، لذلك كان شديد الرغبة فى أن يبين أن الفضيلة لا يقصر شأنها عن أن تكون لأجل شيء فى ذاتها . كما هو مسلم به ، الا عند العقول المريضة بل هي أيضا أنفع وأسهل ما يكون . تلك هي نقطة من الأهمية بأعلى مكان . ولما كانت شرائط الفضيلة فى هذه الدنيا لا تتغير . كان توضيح سقراط إياها يهنا كما يهنا معاصريه تماما . فاننا لانزال نشكو من المحن المؤلمة الفضيلة كما كانوا يشكون . وإليك ما رآته نفس الحكيم الكبيرة التى زهقت فرسة الظلم الصارخ

إنه يستشهد فيها التجربة . أجل ، متى أراد المرء تدوq الفضيلة والتزامها (٢) منذ حداثة سنه ، لا يتركها كما يفعل المرتد عن مذهبه ، فانها تقرّ فى القلب . أجل إنها تولد لنا كثيرا من اللذائذ وقليلًا من الآلام فى جميع مدة الحياة . من ذا الذى يفكر حقيقة ويستطيع أن يؤثر الجنون والجبن والافراط والمرض على العقل والشجاعة والاعتدال والصحة ؟ من ذا الذى تلقاء مشهد الأحوال الانسانية يستطيع أن ينكر على العموم بعد الموازنة ، ان الفضيلة ليست أشمل سعادة من الرذيلة ؟ إنها فوق ما تحفظ على نصرائها من النعم النفسية الباقية تكسب مكافآت الرأى العام وتوزعها عليهم . إنها لا تخدع ألبتة من يعتقدونها باخلاص ، فان الملائكة لا يتخلون عن أى كان يحاول بالمرون على الخير أن يشبه بهم فى الحدود الممكنة ، إذ ليس من الطبيعى أن كائنا على هذا الخلق يتخلى عنه الموجود الذى به يشبهه . فالفضيلة إذن مكفولة بحماية الله . أما من جهة الناس . أفليس الأمر كذلك أيضا ؟ أليس ما يحصل للخبيثين والأشرار هو عين ما يحصل لهؤلاء المستبقين الذين يجرون سراعا عند صدورهم عن مقر حافلة السباق لكن لا عند رجوعهم اليه ؟ يتبون أولا بالسرعة ولكن على آخر الشوط يصيرون فى حال تعسة . آذانهم بين أكتافهم . ينزرون سراعا دون أن يتوجوا . فى حين أن العدائين الحقيقيين يصلون إلى الغرض حائزين قصب السبق ويتوجون بتاج النصر . أليس حظ العادلين عادة هو كذلك (٣) ؟ أليس حقا أنهم متى وصلوا إلى آخر مشروع من مشروعاتهم . يكتسبوا من سلوكهم وعيشتهم اسما حسنا . ويحصلوا من الناس على المكافآت الواجبة لهم ؟ أليس أنهم يصلون متى بلغوا سن الرزاة إلى ما يرجون من علو المناصب ؟ أما الأشرار فانهم وإن أخفوا أمرهم على العيون فى شبابهم . فان أكثرهم ينفضح أمره ويرتدى بالسخرية فى أخريات أيامه . ومتى صاروا أشقياء فى شيخوختهم . باءوا بمسبات الأجانب والمواطنين . بله ما يلحقهم من

(١) أفلاطون - غرغياس ص ٢٥٧ و ٢٨١ و ٢٨٤

(٢) أفلاطون - القوانين ك ١ ص ٣٣ و ٥٣ «فيليب كل المحاورة» الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٠ - القوانين

ك ٥ ص ٢٦٧

(٣) أفلاطون - القوانين ك ٥ ص ٢٦٧ و ٢٦٩ - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

المثلث التي تكاد تصيبهم دائما في هذه الحياة الدنيا . وما يلقاهم يوم القيامة من عدل الله - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه -

ان أفلاطون مقتنع بصدق هذه المبادئ في العمل الى حد أنه كان يظن أنه مستطيع أن يعين بالأرقام المضبوطة مقدار المقارنة بين سعادة الرجل الفاضل وبين الشرير . وجد بحسابه خاص أن أولهما أسعد من الثاني بسبعائة وتسع وعشرين مرة . وإنه ليريد فوق ذلك أن يسحر بهذه القواعد الجميلة التي هي ثمرات تجربة يؤدها العمل اليومي نفوس الصبيان وهي لا تزال لينة مطيعة . ثقة منه بأن هذا الكلام يقر في عقولهم بأسهل من كل ماعده . ولما أقنع قلب شاب شريف مثل « غلوكون » كاد يطلق مناديا ينادى بأعلى صوته في الناس جميعا بهذا الحكم الذي أصدره ابن ارسطون « ان أسعد الناس أعددهم وأفضلهم وان أشقى الناس أظلمهم وشرهم »

الى هذه المشجعات التي لم تكن لتخط مقام النفس أضاف سقراط نصيحة من شأنها أن تطمئنها وتكبرها ان حوادث الحياة لا تستحق منا مثل هذا الاهتمام العظيم . العقل يهدي الى أن من الجليل الاحتفاظ بالشاشة عند المصائب وأن لا يدع المرء نفسه الى الشهوة تلتقي به في اليأس . وذلك لأن الانسان يجهل (١) ما اذا كانت هذه العوارض في حكمة الله خيرات أم شرورا . ولأنه لا يكسب شيئا من وراء الحزن لها ولأن الأمل ليس إلا عاقبا عما يلزم المبادرة بعمله في هذه المواقف . فالرجل العاقل المستقيم الأخلاق اذا حلت به مصيبة كفقد ولد له . أو ضياع شيء آخر عزيز عليه يحتمل المصيبة بصبر لا يطيقه أي رجل آخر . وليس هو في ذلك ألبتة عديم الشعور لأن عدم الشعور في مثل ذلك الموقف حديث خرافة . ولكنه يضع حدودا للألم سواء أكان في جمع من أمثاله أم كان منفردا بنفسه فماذا يلزم اذن عمله في هذه المحن ؟ « أن يستشير المرء عقله فيما وقع . وأن يصلح سوء حظه بأحسن الوسائل التي يحكم بها العقل . وأن لا يروح للصدمة الأولى واضعا يده على جرحه كالأطفال يضع الوقت بالصراخ . بل أولى به أن يروض نفسه على علاج الجرح بأسرع ما يمكن . وأن يرفع ماسقط . وأن يتداوى بدلا من أن يتظير . ذلك هو خير ما يستطيع الرجل عمله في المصائب التي تحمل به (٢) »

(٤) وقال أفلاطون : « وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة إلا بين الأخيار . وإن الفضيلة التي هي شرط للسعادة الفردية هي كذلك شرط للسعادة في الجمعية . إن الأشرار لا يستطيعون أن يأنفوا زمنا طويلا . فاذا فارتبت المنفعة بينهم لحظة . فالتبث أن تباعد بينهم . بل المنفعة التي تساعد الرذيلة « وما الرذيلة إلا أسرع منها انتقالا » تسليحهم بعضهم على بعض وتصبح الجمعية . وليس فيها إلا أشرار . غير مستطيع أن تبقى يوما واحدا . ان هذه القاعدة العتيقة « الشبيه يبحث عن الشبيه » ليست صداقة إلا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لا يستطيع ألبتة أن يعقد صداقة حقيقية . لامع الخير ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لا يبات له على حال متغيرا متخالفا مع نفسه ، ضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشابه غيره ويحبه . وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك (٣) معه ، صار عدوه حتما . لأنه سيعتدي عليه بعض الشيء . وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين

(٥) وقال عن سقراط مانصه : « ولما كان محظورا عليه ألبتة أن يأتي الشر . كان لا يعمل الشيء لأعدائه كما لا يعمل لأصدقائه . ذلك منه بعيد . فانه يعرف أن الشر الذي يقع على الأشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم .

(١) أفلاطون - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٨ وك ٩ ص ٢٢٤ - القوانين ك ٢ ص ١٠١ - الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٤ وك ١٠ ص ٢٥٦

(٢) أفلاطون - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧

(٣) أفلاطون - فورطاغوراس ص ٣٨ - ليزيس ص ٥٩ - فيدر ص ٨٦

شأن تلك الدواب الشمس . يضر بها السائس الأخطل . فتصير بذلك غير قابلة للتذليل . ومافعل الشر حتى بالاشرار إلا قاعدة لايجرى عليها غير الطغاة أو المجانين أمثال «فرديكاس» و«پر يندر» و«اكرز كسيس» أما الرجل الحكيم فانه على الضد من ذلك يلطف الشرير بما يعمل له من الخير . أو على الأقل بما يضره له من المثل الصالح من عدالته . إن الشرير أولى الناس بالشفقة . لأنه مريض النفس قد اعتراه المرض في جزئه النفس حقا أن من القلوب ما قد بلغ في الفساد حدًا لا يمكن معه شفاؤها . بل أخذت منها الرذائل مأخذًا أصبح معه علاجها عسرا جدًا أو مستحيلًا . ولكن هذه هي الاستثناءات التي يندر وجودها . أما أكثر الشريرين وفي شفائهم بقية من الرجاء . فيلزم أن يكظم الغيظ في حقهم . وأن لا يؤخذوا بالعقوبات القاسية التي لا يكون من ورائها إلا أن يركبوا متن الحدة ويتعدوا عن السواء الشافي

إن ما يكسب مبادئ سقراط هذه من رفعة وميزة خاصة بها أنه لم يقصر أمره على تقريرها . بل كان يعانى تطبيقها . وما كانت حياته إلا وقفا على هذا التطبيق الطويل الشاق . فانه منذ تلقى من إله «دلفوس» رسالته المقدسة . واستنارت نفسه بنور الحق ما زال يعلم مواطنيه بأكل ما يكون من الرعاية التي قد لا تخلو من التقرير يحض لهم أنفع النصائح . ويحمل الى السرائر الخالصة نور سيرته الساطع . وقد كان يرى أن نفع الناس وتخليصهم عما هم فيه من الشرور واجب عليه الى حد أنه لو استطاع أن يخلصهم بتقديم حياته قربانًا . لما تأخر في ذلك . فلو قال له أهل آتينا

«ياسقراط إنا نطرح رأى (أينوس) ونحکم براءتك . لكن على شرط أن تكف عن الفلسفة وعن أبحاثك التي اعتدتها . وإنه إن وقع منك ذلك واكتشف أمرك عوقبت بالقتل لما تأخر عن أن يجيبهم بأهل آتينا إني أحترمك وأحبك ولكنى أطيع الله لأطيعكم أتم . وما بقيت أنفاسى تتردد في صدري . وتبقى لى حظ من القوة . لا أفنا أندرکم وأنصح لكم وادعوكل من لقيته باللسان الذى عرفتم منى . ولو أنى كفت في هذه الساعة لما كان هذا خوفًا على نفسى كما قد يبدر للأذهان . بل خوفًا عليكم أن تحاربوا الله بالحكم على هذا هو اعتقاد سقراط وذلك هو إحسانه الى الناس . فلا يجب من يسمع تقريره من أن يراه قد تقدم المسيحية نفسها إذ يقول لأهل جمهوريته : يا أيها الذين تتألف منهم المملكة كلكم اخوان . لأنه هو نفسه لم يفضل لحظة عن الاعتقاد بأنه أخو قاتليه (١)»

كفى بالمذاهب الأخلاقية التي من هذا النوع دليلًا على المذاهب الدينية التي تتوجه . فمن السهل استنباط المعتقدات الدينية لأفلاطون وسقراط من مذهبهما الأخلاقى . فاذا كان الصوت الذى يخرج من أعماق ضميرنا هو صوت الله . واذا كان الله هو الشارع الذى يجب علينا جميعًا طاعته . وإذا كان الناس لا يؤلفون فيما بينهم إلا عشيرة واحدة ، فمن البديهي أن أباهم العام انما هو الله الذى رضى لهم أن يحبوه كما يحبون أنفسهم بعضهم بعضًا . وإن الصلة بينه وبين الانسان دائمة فلا يستطيع أن يفر منه أبدًا . ولو صغر حتى نفذ في باطن الأرض أو كبر حتى (عرج في جوف السماء) . وأبعد من ذلك أن يستطيع التغلب على الاله أبدًا . أو يتخلص من هذا النظام الثابت الذى شرعه والذى يجب احترامه الى مالانهاية . ومن الكفر اليين بعد إنكار وجود الله أن لا يعقد بالعبادة الالهية . فان ذلك يستتبع القول بأن هذه العناية يمكن أن تتخلى عن الانسان لحظة فلا ترعاه . وتسلمه بغير حساب الى سورة رذائله أو عجز فضائله . إن أجل ألقاب الانسان وأحسنها أنه «صنعة صنعها الله يديه» فلا شئ لدينا إلا وهو من فيض إحسانه . ولا نستطيع أن نوفيه الشكر على نعمائه بصاواتنا وما نقرّب من القرابين وما نأتى من العبادات المستمرة إنه هو قوتنا ولولاه لم تكن شيئًا مذكورا . «إن الله على حسب التقاليد القديمة هو الأول وهو الوسط وهو الآخر لجميع الموجودات . وهو يسير على خط مستقيم تبعًا لناموسه في حين

(١) أفلاطون - تقرير سقراط ص ٩٣ و ٩٥ - الجمهورية ك ٣ ص ١٨٦

أنه يحبط العالم . ووراء العدل المنتقم في الجرائم التي تقع ضد شريعته . فأبما امرئ شاء أن يكون سعيدا . فليتصل بهذا العدل الالهي ويقتف أثره خاضعا متواضعا . أما من انتفخ كبرا . وأسلم قلبه الى نار الشهوات . وظن أن لا حاجة له بسيد ولا هاد . فان الله يتركه الى نفسه . ولا يلبث أن يدفع الدين الى العدل الالهي . وينتهي أمره بأن يهلك هو وعشيرته ووطنه (١) «

مادم هذا هو النظام الثابت للأشياء . فبم فكر الحكيم وماذا يعمل ؟ بديهى أن كل انسان عامل يفكر في أنه ينبغي له أن يكون من الذين يتقربون الى الله . لكن ماهو السبيل المقبول عند الله ؟ هو طريق واحد . لأن الله بالنسبة لنا هو المقياس المضبوط لجميع الأشياء . لا الانسان كما زعموا باطلا . فلا سبيل الى أن يحظى الانسان بقرب الله حتى يعمل كل ما في وسعه ليشبهه به . أعنى بمقدار ما يتيح للانسان أن يبلغ من التشبه بذلك المثل الأعلى الذي لا يوافيه أحد . ومتى أمن الانسان على هذا الاتصال وذلك «النسب الالهي» واقتنع بأن عناية الله تحرسه بلا انقطاع كما تحرس بقية الدنيا . وأيده ضميره الذي يرضى عنه لحسن طاعته للنظام العام فماذا عسى أن يخيفه في العالم بأسره ؟ وكيف يتمتع قلبه عن الايمان بهذه الحقيقة المعزية : أن الانسان الخير لاخوف عليه في حياته ولا بعد مماته ؟ فذا منتهى في هذه الحياة سوء . فكيف لا يحفظ الاعتقاد الراسخ بأن الاله سبب له ما لا يزال يهب للأخيار من لطف في المصائب التي تصيبهم ، وتغيير في حاطم الحاضرة الى خير منها ، على أن النعم المعنوية التي اكتسبوها والتي ليست نعمتا زائلة أو منتقلة تبقى لهم الى الأبد ، على أمثال هذه الآمال وفي أمثال هذه الأفكار يجب أن يقطع المرء عمره ، يذكرها بنفسه وغيره في كل فرصة وفي كل مقام من مقامات الجِدِّ واللَّهُو (٢) «

(٦) وقد قال عن سقراط مانصه : «أظن أن سقراط هو أول من حاول من الحكماء إثبات صبغة الله في الطبع الانساني بطريق البحث والتنقيب ، وقد صدر في ذلك عن هذا المعنى العميق الذي قرره «انكساغوراس» وهو أن العقل أصل كل شيء في العالم فاستنتج منه كما ذكر في «فيدون» هذه النتيجة وهي : أن عقلا مدبرا خالقا يجب أن يكون قد أعد كل شيء على أحسن ما يكون . وليس على الباحث لمعرفة طبع أى شيء الا أن يبحث أحسن حالة يمكن أن يكون عليها ذلك الشيء ، فليس على الانسان في كل ما يتعلق به إلا أن يبحث ، كما هو الحال في بقية الأشياء . عمما هو الأحسن والأكمل ولقد كان «هرقليت» يقول من قبل سقراط : إن أجمل القردة إذا قورن بالانسان ظهر قبيحا . كذلك الانسان الحكيم لا يظهر بجانب حكمة الله وجاله إلا كالقرد ، ولكن سقراط عزَّ عليه أن يقف بحمته على درس الجسم كإفعل «هرقليت» فيلسوف يوناني . فتمشى مع مبدأ الأحسن في درس الروح التي جعلها الجهة الوحيدة لدرس الطبع البشرى اه هذه هي المقالات التي تذكركتها في حضرة تلك الروح الشريفة الجليلة ، فلما سمعت هذه المقالات من كلام أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس . قالت نعم هذه من أجل مزارعي في الأرض فيما بلغكم من العلم منذ ٢٥٠٠ سنة الى الآن . وكل هذه هي التي توضح هذه الآية وقد تطابقت كلها على «الأول» الوازع لداخلي والقانون الوجداني وهو . . . فتبسمت بوقار . فقلت (البصيرة) قالت نعم - بل الانسان على نفسه بصيرة \* ولواتي معاذيره - «والثاني» إن هناك قوة عليا تساعد من أطاع هذا القانون وسار عليه . وللناس في أمرك أنت مدكر وموعظة حسنة . ألت تحس في نفسك بما يشد عزيمتك في أوقات الشدائد . قلت بلى والله . قالت : ألت في أثناء هذا التفسير تحس في نفسك بعبادة وهناء لم ترلها نظيرا مدة الحياة . قلت بلى . قالت

(١) أفلاطون - القوانين ك ١٠ ص ٢٥٣ و ٢٦٧ وك ٧ ص ٣٩ وك ٤ ص ٢٣٣ و ٢٣٥

(٢) أفلاطون - القوانين ك ٤ ص ٢٣٤ وك ١٠ ص ٢٥٣ وك ٥ ص ٢٦٦

أليست المعاني والمساعدات العلمية لا تنفتأ تترادف عليك وكلما ازددت في التأليف إيفالا ازددت مددا وعلمنا وانذراح صدر وسرورا . قلت بلى . قالت فهذا هو الذي يقوله كونه نفيشوش وسقراط وأفلاطون وارسطاطاليس ويقوله بعدهم الرواقيون الذين جاؤوا بعد أرسطاطاليس وأغرموا بعلم الأخلاق وقالوا إن سعادة الانسان في الأخلاق وجاها ولهم مذهب خاص بها نقل أهمه علماء الاسلام من الفلاسفة والصوفية ، وقد ملأ الغزالي من علمائكم كتاب الإحياء بعلم الأخلاق وهو معروف مشهور ، هاهي ذه بعض منارعي التي زرعتها في القلوب فاذا رجعت الى عالم المادة فأستوعب ذلك كله وأدخله في تفسير الآية حتى يعلم المسلمون أن كلام الحكماء تفصيل وتفسير لآيات القرآن وأن آية - بل الانسان على نفسه بصيرة - وآية - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الى آخره تفسران بعلم الفلاسفة . اليوم يشهد المسلمون أن دينهم أقيمت علومه على عقول الحكماء قبل نزول القرآن ، فهذه من اعجازه العجيب . إذن أنا أظهر في كل قلب بحسب درجته وتكون الجمل والانشاء على مقتضى اختلاف العقول والأمم . فانظر الى الشيخ الشعرائي رحمه الله الذي جاء في القرون المتأخرة . فهذا قد ظهرت آثارى على قلبه بهيئة أخرى ، أنا واحدة ومظاهري كثيرة كالشمس تختلف أضواؤها فينبو بها كل نبات والاختلاف يكون على حسب القوابل قوة وضعفا ، واذا كان في العوالم المادية نظام جميل :

(١) كقوانين الجذر والتربيع في امتداد النور والحرارة والكهرباء والمجاذبية وفي قوانين الحجر الساقط في بئر (هذا في سورة الرعد عند آية - وكل شيء عنده بمقدار -)

(٢) وكقوانين الذكور والاناث في تلقيح الزرع والشجر ، وفي نظام أوراق الأشجار من حيث هندستها وحسابها (هذا في سورة الحجر في آية - وأرسلنا الرياح لواقح - وآية - وأنبتنا فيها من كل شيء موزون -)

(٣) وكنظام ممالك النحل والنمل والأرض وغيرها (في سورة النحل والنمل وسبأ)

(٤) وكنظام الأزهار والثمار ووجوه الانسان

واذا كان ذلك كله جيلا وبديعا بحسب عجيب كحساب العناصر من حيث وزنها وترتيبها في جداول منتظمات (هذا في سورة العنكبوت) أفلا يكون علمنا الروحي الذي هو أصل تلك العوالم وهو سيدها أجل وأبهى وأبدع نظاما وحسابا من عوالم المادة . إذن فلتعلم أن لنفوسكم نظاما لا تدركون كنهه ولا تنفتأ نصلحه أمد الدهر ، فتارة نظهر في عقول الفلاسفة ، وآونة في عقول رجال الدين ، ووقتا نظهر بهيئة صوفية ، والمبدأ واحد والمظاهر مختلفات ، فهل تذكر شيئا من آراء الشيخ الشعرائي رحمه الله ؟ فقلت نعم . قل في المنن الكبرى مانصه :

«وما من الله تبارك وتعالى به على عدم تكدرى على شيء فأتى من الدنيا وتكدرى من صدها عنى وذلك لعلمي ويقينى بأن كل نبي فليس هو برزق ولا قسم لي فكيف أحزن على شيء لم يقسمه الحق تبارك وتعالى لي أو أنكدر من صدها عنى بالوهم وهذا خلق غريب في هذا الزمان وغالب الناس يحزن ويتكدر ممن سعى في قطع رزقه أو خروج وظيفته عنه وربما عادى من عارضه في رزقه الذي كان يتوهم انه له أبدا ما عاش (وقد رأيت) خطيبا كان يخطب في الجامع الأزهر . فلما دخل السلطان سليم مصر وصلى في الجامع الأزهر قال الناس لا يخطب اليوم الا فلان لفصاحته ومعرفته بالوعظ المناسب للسلطان ومنعوا صاحب النوبة تلك الجمعة لجزه عن مثل ذلك . فلما خطب رسم له السلطان بخمسين دينارا فقال هذه لي ولم يعط صاحب النوبة منها شيئا فثبت في الصلح بينهما فلم أقدر ولم تزل العداوة بينهما الى أن ماتا على العداوة فقلت لصاحب النوبة ابن قولك في الخطبة والله ثم والله ثم والله ما يعطى ويمنع ويضع ويرفع الا الله تعالى فنادى ما يقول وبالجملة فلا يقع في مثل ذلك الا جاهل محجوب عن الله تعالى فان كان ولا بد للمؤمن من أن يحزن فليحزن على ساعة مرت به لم يذكر الله تعالى فيها فان ذلك محمود ولولم يمكن تداركه لمافيه من التعظيم لجناب الله تعالى والحزن على فوات

مجالسته تعالى والوقوف بين يديه جل وعلا كما هو شأن كل محب مع محبوبه ومن لم يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له في مقام المحبة نصيب (واعلم يا أخي) أن الحزن على ما فات من الطاعات إنما هو محمود للعبد مادام محجوبا يختار خلاف ما يختاره له ربه جل وعلا فإذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيئا قسم له ثم فاته أبدا لأن ذلك لا يصح عقلا ولا شرعا (وكان) الشبلي رضي الله تعالى عنه يقول وهو في بداية أمره اللهم ان عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب فلما كمل حاله صار يقول الحمد لله الذي حججني في الوقت القلاني عن شهوده فانه تعالى ما حججني عنه إلا رحمة بي خوفا أن لأقوم بأدب الشهود وتارة يقول اني لأشتهي رؤية الله عز وجل أبدا فقليل له في ذلك فقال ازه ذلك الجمل البديع عن رؤية محدث مثلي انتهى ولكل مقام رجال فافهم يا أخي ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين « اه

وقال أيضا في صحيفة ١٨٨ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ عدم قطع برى وحسنتي للناس اذا كفر واوساطتي في ذلك فاني عبد ليس لي فضل على أحد وانما أنا مستعمل فيما أمرني الحق تبارك وتعالى به وليس لي معه ملك أرى به فضلا على أحد من عبيده مطلقا وبتقدير رؤيتي الفضل على العباد فكما كفر واوساطتي توفرت لي الأجر بخلاف ما اذا مدحوني فر بما كل ذلك المدح يرجع على ذلك العطاء فلا يبقى لي حسنة وقد كان سيدي عليّ الخواص رضي الله تعالى عنه يقول أعظم الناس أجرا من يحسن الي من لا يشكره أو الي من يؤذيه من الأعداء انتهى . وسمعت أياض رضي الله تعالى عنه يقول من أراد النصره على أعدائه فليحسن اليهم وليتأمل في نفسه الذي يعاقب ولده وتلميذه مثلا بقطع الاحسان اليه يجد الحق تبارك وتعالى يرزقه ليلا ونهارا مع كونه مخالفا له فينبغي للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والعفو والصفح وعدم المعالجة بالعقوبة كما يعامله سيده . ثم لا يخفى أن الاثم الواقع لمن يعاقب ولده مثلا بقطع رزقه انما هو من حيث قصده هو والا فالعبد لا يقدر أن يرد ما قسمه الله تبارك وتعالى لغيره أبدا انتهى فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخليق به ترشد والله تعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين « اه

وقال أيضا في صحيفة ١٨٩ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى عليّ حضور قلبي مع الله تبارك وتعالى حال أكل وشربي وشهودي ان ذلك من فضل الله تعالى عليّ لأستحق ذرة منه بل لأقوم بواجب حقه تبارك وتعالى عليّ لو سفت الرماد ثم اذا وقع لي أنني أكلت غافلا عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى يغلب علي ظني أن الله تبارك وتعالى قبل استغفاري فضلا منه وانما لم أقل أستغفر الله مرة فقط لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور في استغفاره الا بعد سبعين مرة وأكثر وسمعت سيدي عليا الخواص رضي الله تعالى عنه يقول ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالاصالة ليحكر بنا وانما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه ولا يخرج من حضرته تبارك وتعالى الا لعذر شرعي وكأن الحق تبارك وتعالى يقول من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التي تحجبه عني بما سخرته له من الرزق علي يد عبادي من حيث لا يحسب ولا تشرف نفسه اليه فلا شيء يخرج من حضرتي (وسمعت) رضي الله تعالى عنه أيضا يقول تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة فكما أن الصلاة ما شرعت الا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالى فكذلك الحكم في مشروعية الأكل والشرب ما شرعا الا ليحضر العبد فيهما مع من أحسن بهما اليه انتهى ✽ واعلم يا أخي انه ما واظب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه الا أورثه الله تبارك وتعالى القناعة والزهد في الدنيا وكفاه شر نفسه انتهى من كتاب لطائف المائت الكبرى

فلما سمعت ذلك . قالت : أي فرق بين هذا القول وما قبله إلا في العبارة على مقتضى الأحوال واختلاف الأمم ، فكل ذلك الاذعان لله والحب للناس . ثم قالت : بقي أن تذكر ما تعلمه من كلام علماء أوروبا في هذا المقام . فقلت : قال الاستاذ (بارتلمي ساتهليلر) المذكور في كتاب « علم الأخلاق » مانصه :

« حينما يريد الانسان أن يختبر نفسه ويدخل في أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذي يكشفه فيها عند الفكرة في بعض الأفعال التي فعلها ، بل التي ينوي فعلها ، يسمع في أعماق عقله صوتا يمدحه تارة ويلومه تارة أخرى ، ويقطع النظر عن أمثاله الذين يمكن أن يجد لديهم أحيانا صدى هذا الصوت الداخلي فان من المستحيل عليه أن لا يلقى اليه سمعه . ونظرا الى أنه يحمل في نفسه هذا الصوت فلا يستطيع أن ينكره ولا أن يلزمه الصمت متى أتم بأمره يشعر بأنه عمل صالحا . ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئا . وإنما في هذا التردد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل حياته الأخلاقية فاضلة في حال وردة في الحال الأخرى ، ولأن يسلم المرء نفسه و بلا رجى الى خدمة هذه الأوامر الداخلية ويخلص لتفنيدها في جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجة وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحي لها بكل الضحايا التي تقتضيها ، ذلك هو القانون الأعلى الذي يشعر الانسان بالخضوع له ولوائه لا يعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التحرج أحكامه الصارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذي لا ينال والذي تتطلع اليه أنظار نفس الانسان وان كان يجيد عنه في الغالب إلا أن مرجعه اليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذي هو بسيط وجليل معا والذي يكون الأخلاقية كلها . هل الانسان وحده هو الذي يعرف هذا القانون ويملكه ؟ كل ما بهم من هذا هو أن الانسان يملكه حقا وذلك هو ما يميزه عن سائر الخليفة التي يعيش فيها والتي لا تتمتع بهذه الميزة

إلى هذا الأمر يضاف أمر آخر ليس أقل منه وضوحا ولا أقل منه عجبا . إن الانسان حيال هذا القانون الذي يناجى ضميره مناجاة علو وقدر في بعض الأحيان يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته ، فعبثا يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل في فعله وعبثا يركى العقل هذه الوصية . فالانسان قادر على أن يرفض تحت مسؤوليته هذه النصائح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما لأنها تستطيع دائما (متى شادت) أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هي الإرادة التي لا تخضع لشيء إلا لنفسها . فوجود مثل هذه الملكة فينا وحاولها محلا من الاستقلال والسيادة في الدائرة الثانوية التي تخصها هو ما تستطيع اللاأدرية التحدى بها حينما تهجم على الحق وعلى النور العام ، غير أن ما نقوله هذا يجمع عليه من الجنس البشرى بل معترف به من جانب اللاأدرية نفسها إن لم يكن بأقوالها التي كان للسفسطة فيها شأن عظيم ، فأفعالها التي منها ينبجس على رغمها وضوح المبدأ الذي تنكره الإرادة في الانسان هي هذه القدرة التي يستعملها للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقدر شيء في الدنيا على إكراهها مادامت لا تقبل هي نفسها ذلك الإكراه ، وبين أن هذه القدرة هي كل الانسان وهي التي تقوم ماهيتنا ، إن هذا الصوت الذي يناجى ضميرنا هو فينا ولكنه ليس إيانا مادام أنه قانون يلزمنا ، نحن لم نضعه مادما غير قادرين على تغييره على رغم وحى المنافع وعماليات الشهوات ، أما الإرادة فعلى ضد ذلك هي نحن نحن وهي شخصنا ، هي نحن وحدنا بعظمتنا وضعفنا وقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان

ذلك هو ما يسمى بالحرية ، تلك الهبة المعجزة الخفية التي هي قوة الانسان والتي يترتب على قدر ما يحسن أو يسيء في استعمالها سعاداته أو شقاؤه أو سقوطه ذلك هو ما يسمى بلفظة (كنت) «حياد الإرادة» ، لا من جهة أن إرادة الانسان كما قد يعتقد (كنت) تضع لنفسها قوانينها ، بل من جهة أن الإرادة يمكنها دائما أن تطيع أو تعصى القوانين التي يملها عليها العقل والضمير ، فعنى حياد الإرادة هو أنها تستطيع أن تقرر ما يجيبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة

يتضح بهذا أن القانون الذي هو في ضمير الانسان يناجى عقله هو المبدأ الأعلى وفوق الانساني . والإرادة الحرة التي تنفذ هذا القانون أو تخالفه هذه هي المبدأ الانساني والتابع وهما اثناهما . صدر علم الأخلاق ومفتاحه . فالانسان يحمل في نفسه قانونا وحكمة بوجه ما تحكم ببراءته أو بآبادهته بحسب الأحوال ، ولها من

القوة التنفيذية إما الرضا الجليل بأنه عمل خيرا وإما الندم ووخز الضمير على كونه عمل شرا . والانسان يحس نفسه رعية لقوة هي أعلى منه منعمة لطيفة إذا أطاعها منتقمة جبارة إذا عصاها . ومتى اقتضى العدل عجلت له العقاب الخارجى بما تسومه من سوء العذاب الداخلى الذى يعرف الأثيم سره الأليم حتى لو تمصص من انتقام الهيئة الاجتماعية

هذان الأمران : القانون الأخلاقى والحريّة ، هما فوق كل مناقشة ممكنة ومن ينكرهما ينزل بذلك عن اسم الانسان وينحط بنفسه (علم أوجهل) إلى ماتحت منزلة البهيمة وان كان أذكى منها بلاشك إلا أنه فاسد الأخلاق والبهيمة ليست كذلك

ليست النتائج ههنا بأقل وضوحا من المبادئ ولا بأقل عجبا فان الانسان متى قبل برادته نير القانون فذلك يرفعه ويشرفه وبعيد أن يكون سببا في خفضه . إنه بطاعته الاختيارية يشرك بمحض إرادته شيئا أكبر منه ويحس أنه مرتبط بنظام أعلى منه يشد أزره . وقلمما يخسر بهذه الطاعة شيئا بل يكسب بهامن العظمة والوقار ما لم يكن له من قبل بدونها . إن العالم الأخلاقى الذى يدخل فيه على بينة من تحديد حريته هو العالم الحقيقى الذى يجب أن تعيش فيه روحه في حين أن جسمه يعيش في عالم مخالف تماما حيث توشك الحريّة أن لا يكون لها عمل . إمامه وفلك من الطهر والسلام حيث لأرجاس ولازعازع إلا ما يسمح لها الانسان بالدخول فيه . فالسكينة والنور فيه لاتتعلق إلا بالانسان وحده ، ومتى شاء استطاع أن يبسط في هذه السماء الداخلية صحو لا يكدر . ويمقدار ما يوغل عقله في الطاعة يكتسب من القوة وقصير الأرض التى يرتكز عليها كذلك أكثر ثباتا وخصبا . إن اعتقادات الضمير تزداد ثباتا بالمران وإن بهذه المعاوضة بين اطاعة الاختيارية من جهة والقوة المكتسبة من جهة أخرى تكبر قيمة الانسان فى عينه الى حد لم يكن يعرفه من قبل كبرا لا يأتباه عليه تواضعه لأنه ينسب أصله الى قوة أسمى منه . من ذلك يستمد ذلك الاحساس الشريف العجيب الذى يسمى احترام الذات وهو الكفيل للبرء بأن يؤدى له أمثاله الاحترام الواجب عليهم والذى يؤدبه هو لهم فى دوره ، ولوعودل بين هذه الخيرات الداخلية التى هي فوق كل ثمن هذه الفيوض القدسية ( كما كان يقول أفلاطون) وبين الخيرات الخارجية لقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك ، ومع ذلك فان هذه الخيرات الداخلية يضحى بها من غير تردد بل من غير ألم فى سبيل خيرات لا قيمة لها ، على أن الثروة والصحة والمجبة والحياة نفسها لا بقاء لها ، فليضح بها عند الحاجة قر بانا للاحتفاظ بما هو أسمى منها إذ لا يستطيع إشارها على الأمر الوحيد الذى يجعل لها شيئا من القيمة .

وقال فى صحيفة ١٧ وما بعدها مانصه : « لا يمكن القوانين الانسانية أن تكون أساسا لقانون الأخلاق لأنها تستمد منه ، وهو الذى يقضى عليها ويدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع ، كذلك التريية التى يتحدى بها بعض الفلاسفة لانفسر قانون الأخلاق الذى هو أكبر سلطانا عليها من القوانين العمومية ، والواقع أن التريية مهما كانت ممتازة فليس لها من صورة إلا التشريع المسنون للطفل بدلا من أن يكون مسنونا للناس ، وهذا التشريع الضيق ليس له قواعد إلا التشريع المدنية ، فن أى ناحية نظر الى علم الأخلاق لم يوجد له من حيث أصله أثر بشرى ، وانه ليدبرشئون الانسان ويلى أمره بسبب أنه ليس من عمله ، ومتى أراد الانسان أن يدرس فيه سبل الله عرف منه بوضوح وجلاء أن الله قدير وأن الله لطيف . « فى العالم المادى بأسره مهما كان جيلا ومهما كان منتظما لا يجد المشاهد اليقظ شيئا يؤتينا أقل فكرة من قانون الأخلاق ، وان الآثار التى نصادفها أحيانا عند الحيوانات الأرقى تركيبا ونظنها آثارا لقانون الأخلاق ليست إلا تخيلات فاننا نغيرها مانحن عليه ، نفترض أن لها طبعنا إما لجهل منا قد يكون إنما متى كان يرمى إلى الخفض من مستوانا الانسانى ، واما لنوع من العطف التافه ، ولكن الحق أن قانون الأخلاق ليس له محل

إلا قلب الانسان ، وأن الذى خلق العوالم والقوانين الأزلية التى تسيروا لم يخلق شيئاً يضارع ضميرنا فى العظم فان الحرية مع ما بها من ضعف هى أحسن من الطبيعة كلها مع ما بها من ثبات لا يتزعزع ، بل إن المقارنة لاحتل لها من الامكان لدى عقل قد فهم ذاته ، لأنها مقارنة سخيفة ، إذ أن رفعة العالم المصنوع لا تقاس بها رفعة على الاطلاق وأن قدرة الله تظهر حينئذ فيما يظهر أجلى من مظاهرها فى الخارج ، وان فى إقامة الدليل على وجود الله بهذا القانون الذى نعمله فى قلوبنا وتعترف به عقولنا لبلوغنا بالاستدلال الى أجل البراهين وأفعالها ، غير أن حلم الله يساوى على الأقل قدرته ، تنظر فى هذه القوانين غير الكاملة التى يسنها الناس مسوقين بدافع الحاجة لاستعمالها ، فترى دائماً فى أوامرها وزواجرها شيئاً من الغلظة والوحشية ، حتى متى كانت غاية فى العدل فان العقوبة التى تقع على المجرم يمكن أن تعدمه ولكنها لا تمس نفسه تخيفه من غير أن تصلحه ، الارهاب يحوله دون أن يحسن حاله ، أما هنا فلا شيء من ذلك ، فى شرع الله المره هو قاضى نفسه مؤقتاً على الأقل ، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه يمكنه أيضاً أن يتق الوقوع فى الخطيئة التى يشعر بأها كبيرة من الكبائر ، فان الصوت الذى يناديه من داخل نفسه قد أذره بادئ الأمر إبه يحض له النصيح قبل أن يقرعه باللوم وإنما هو يعاقبه حينما يصم أذنيه ، ولو أن قانون الأخلاق سلك فى التأديب سبلاً غير معنوية محضة لكان فى ذلك من التناقض ما فيه ، فكف فى هذا التأديب من مجاملة تراعى فى حق الجنائى ! وكف من مجهود ينفق فى سبيل رده الى الخير ولا يشعر بهذا المجهود أحد إلا هو ولا يذاع خبره فى الخارج ! تحفظ ورصانة أيمارصانة ، ولا شك فى أن الانسان يجاوز غير صرمة حدود الاعتدال بهذه الرحمة ، غير أن الشكوى منها إنما هى الجمع بين كفران النعمة وسوء الخلق . حسب الانسان استهانة برحمة الله أنه لا ينتفع بها فان كل قلب هما قسا يجب بها ويشكر الشارع الأسمى على لطفه فى جانب عظيم قدرته

« إليك نتيجة أخرى لهذا النظام القدسي ليست أقل من الأولى صدقا ولا أخف منها وزنا . وهى أن الانسان متى أحسن من نفسه الاختيار فى طاعة قانون العقل أوفى عهده أحسن بذلك أنه مسئول عن أعماله أمام القدير الصانع لهذا القانون ولهذا الاختيار ، فليس عليه البتة أن يخافه الخوف الذى لا يليق إلا بالعبد ، لأن طبيعة طاعته قد تجعله يعامل أبا رحماً لاسيدا ، ولكنه يجب أن يتق غضبه عليه بتعدى حدود القانون الذى يعترف هو نفسه به أنه غاية فى العدل ، ولئن كان الانسان يغضب فى قلبه من الخطيئة التى وقع فيها ، فن باب أولى يجب أن يعتقد أن الشارع يغضب على من يرتكب الخطيئة وهو فى مكنة من اجتنابها ، وان الانسان الذى له بقانون الأخلاق فى هذه الدنيا حظ ممتاز يجب عليه أن يؤدى الحساب عما يكون قد أتفق فيه هذا الخط ، ليس عليه حساب لأمثاله ، لأن غاية ما يعرفون هى أعماله التى يعاقبونه عليها أحيانا ولأنهم رعية مثله ففاهم وهو إلا على حد سواء ، لا يستطيعون أن يكونوا قضاته الحقيقيين ، لأنه يعزب عن علمهم ما يجيش به الصدور من نيات جميع الأفعال ومقاصدها ، على أن النيات والمقاصد وعلى جملة من القول كل ما يخفى بحكم الضرورة على العدل الإنسانى هو مورد الحكم ، فاما أن ننسك قانون الأخلاق وحرية الانسان ومسئوليته ، واما أن نقبل كنتيجة لازمة حياة أخرى تتلوه هذه الحياة الدنيا فيها يقيم الله الوزن بالقسط ويرتب الجزاء الذى أعدّه للذين عموا الصالحات وللذين كسبوا السيئات ثواباً وعقاباً تفرّد وحده بهما . غير أن علم الأخلاق لا يتعدى حدوده اذا هو قرر أن هذا العدل النهائى لا محالة واجب . وأن حياة الانسان الدنيا لا يمكن أن تفهم بدون الحياة الأخرى التى يجب أن تتلواها »

الى أن قال : « فعمل الأخلاق بمجاوزته هذه الحياة الأرضية يتجه من الانسان الى الله ، ويثبت وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب كما يؤكد نظام هذه الحياة الدنيا . ليست هذه فروضا محضة لاسند لها ، ولا هى من مسلمات العقل العملى كما قد يقول الاستاذ ( كنت ) بل هى نتائج صادقة

لازمة عن مقدمات صادقة لأجدال فيها . وفوق ذلك فان هذه النظريات في غاية الوفاق مع الاعتقادات الفرزية للجنس البشرى تؤيدها الديانات المينة وتوضحها الفلسفة »

وقال في صحيفة ٢٢ من المقدمة مانصه : « تحمل الجسم على الاعتدال ورياضته الى حد ما وإيتاؤه حقه من حاجاته وحسبه عن كل مايتعداها ، وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة ممتثة وخداما مطيعا ، تلك هي إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعلم . إن اجتماع الروح والجسم أعنى العقل والمادة هو مسألة خفية ليس لعلم الأخلاق أن يثير نثارها لاختصاصها بعلم ما وراء الطبيعة . غير أن من واجبه أن يبحث عن ظروف هذا الاجتماع ويفسرها على نور القانون ، إنمما هو عمل يدرسه كأعمال الضمير وليس بأقل أهمية منها فاغفاله نقص عظيم وحذفه من علم الأخلاق قد يعرض الى عدم فهم الحياة الأخلاقية حق فهمها مع أن هذه الحياة الأخلاقية ليست في الحقيقة إلا ضربا من المبارزة بين هذين الأصلين المتقابلين »

وقال في صحيفة (٢٤) وما بعدها من المقدمة أيضا مانصه : « إن النقطة الأساسية لهذا العلم هي أنه يبين للإنسان أن قانونه هو عمل الخير دائما مهما وقف في طريقه من العقبات التي يسببها تعقد الأشياء الانسانية ، وأن عمل الخير إنما هو طاعة لا محدودة ولا مقرونة بالتدمير مع استسلام ، بل مع ثبات و بسالة اذا اقتضى الحال ذلك طاعة لأوامر العقل المنشورة في الضمير والتي قبلتها إرادة لها من سلاسة القيادة ما لها من حدة الذكاء ، الأوامر التي يمكن أن تمثل أمام الشخص بأنها أوامر الله . ذلك هو مركز الحياة كما هو مركز العلم ولكنه مع ذلك أيضا ميدان القتال في النظريات وفي العمليات . فان الفرد يأتي الشر على العموم إما عن عدم التفات وإما عن جهل ولا يكاد يقارف الامم أبدا بعد تدبر وروية عالما بأنه يرتكبه وان كان من الطابع ما هو من الشقاوة بحيث إن أجل مواهبها لا تستخدم إلا الرذيلة . غير أنه في العلم لا عنز بالجهل ولا بعدم الالتفات . واذا كان التسامح في ماجريات الحياة يلزم كثيرا حتى بالنسبة للجنة فانه لا يلزم أبدا بالنسبة للنظريات الفاسدة بل يجب دحضها بلاشفقة وإيضاح خطئها ليقول خطرها وتوجب مداعمتها أمام محكمة الضمير التزمية وادانتها نهائيا بلا استئناف ، وليس بجانب نظرية الخير الذي هو الواجب الوحيد على الانسان إلا حل آخر يمكن وهو نظرية المنفعة مع ما يقترن بها من التيه والحنايا التي تشعب فيها شخصيتها وتضل طريقها فان المنفعة تظهر على صور عديدة ، تظهر أولا على صورة من الخشونة بكان ، وتلك الصورة هي الثروة مع كل الخيرات الثانوية التي تؤلفها ثم على صورة مصقولة نوعا وهي صورة اللذة مع جوازها التي لا تقاوم ثم على صورة أقل تعينا وأكثر قبولاً تبدو في رواء حسن خداع وهي السعادة . إنه يجب على القانون الأخلاقي وبالنتيجة أيضا على علم الأخلاق أن ينكر المنفعة ويحاربها على أي شكل كانت عليه من الثروة أو من اللذة أو من السعادة نفسها وأن لا يقبل أي واحد من هذه العوامل على أنه عامل لسلك الانسان ، لاشك في أن هذه العوامل هي المتسلطة فعلا في الغالب بل قد يكون من الحسن أن تسلط الى حد معين ، ولكن ليس لواحد منها أن يدعى السلطة ولأن يغتصب لنفسه السيادة دون مبدأ الخير صاحب السيادة وحده . إن قانون الأخلاق الذي تتمله القلوب الجاهلة أو الضعيفة بألوان قاسية ، هكذا لكي تسهل مخالفته لا يحرم الانسان من الثروة التي هي ثمرة عادية يستحقها لعمله ولان اللذة وهي حاجة طبيعية له ، ولان السعادة التي هي راند جميع مجهوداته ، ولكنه يهديه الى أنه يجب عليه في بعض الحالات على ندرتها أن يضحي للخير بالثروة وباللذات وبالسعادة بل بالحياة ذاتها ، وأنه اذا لم يعرف أن يقرب هذا القربان فانما هو يعبد الأصنام ولا يعبد الله الحق ، وأن هذه التضحيات على ندرتها عند الذي يفهمها تكفي لكشف القناع عن قانون الأخلاق في أسنى بهائه . وبما أن الخير هو الذي ينال الظفر عند أكبر المنازعات وأشدّها علانية يكون بذلك هو السيد الحقيقي للإنسان . ولا تكون جميع العوامل الأخرى المتولدة عن المنفعة على درجات مختلفة كالثروة واللذة والسعادة إلا كما يكون الظالم لرعيته ، انتهى

مأردته من مقدمة المترجم لكتاب ﴿ علم الأخلاق ﴾ وهو الاستاذ بارتلمى ساتهليز والحمد لله رب العالمين فلما أُلقيت عليها ذلك . قالت : فهذه أنوارنا أُلقيت إليكم وأنا أهنيك بها إذ تطلع المسلمين على خلاصات علم الأخلاق فتشرح صدوركم وبها تعلمون أن حكماء أُمم الشرق والغرب يجمعون على خفوى هذه الآيات القرآنية . فعلماء اليونان والفرنسيين وحكماء الصين جميعاً أيقنوا بأن لهم داعياً في نفوسهم يحاسبهم إذا قصرُوا و يبشرهم إذا أطاعوا و بهذا يعرف الناس عظمة القرآن ، وهذا الزمان مبدأ ظهوره لحكماء الأُمم شرقاً وغرباً ، فهذه هي آثارى ، أنا البصيرة والقرآن بصائر للناس . فهذه المقالات التي قرأتها على من هؤلاء الحكماء هي آرائى وهذا الجمال الذى شاهدته فى وراء ما هو أجل منه ، وهناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولن يرى الله إلا نفوس حازت صفتين : علما كاملاً بهذا الوجود . وإخلاصاً وخدمة لنوع الانسان مع أخلاق كاملة . الجمال يحيط بالناس فى المادّة وفى النفوس . وما أسعد من اعتاد النظافة والاتساق والنظام ودرس فنون الجمال فى الكواكب والبحار والأنهار والزرور والأشجار . فهذه المناظر كلما ازدادت عنده تمكنا ازدادت نفسه شغفا بالجمال الحقيقى . وهناك يشاق للذات الروحية وهى أبهى وأبهرو أجل وأكمل . وهذه الطائفة أقرب الناس الى طبيعتى فاذا أسديت لهم النصائح استمعوا لها بلاتوان . لقد شاهدت فى قلبك أنت ﴿ ثلاث صفحات مكتوبات ﴾ صحيفة الكواكب فى سماها . و صحيفة الزرور والأنهار والأشجار والعوالم الأرضية . و صحيفة آراء العلماء والحكماء قديماً وحديثاً ، فقرأ على من صحيفة الحكماء مامنه يكون القبس ثم تبسمت ، وهذه الابتسامة إشارة الى قوله تعالى - وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً على آتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى - ( وقد كنت فى الليلة السابقة أرددها فى الصلاة ولها صلة بآراء الفلاسفة سأوضحها ) . فأسمعى من اللوحة الثالثة من قلبك آراء حكماء بعد من ذكروا الآن ومتى أتبعته بالقبس يتضح المقام أتمّ إيضاح . فقلت :

### آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس

﴿ أولاً ﴾ آراء أتباعه مثل ( فافرسطس ) المتوفى سنة ٢٧٨ واستراقون المولود سنة ٢٨٨ المجهولة وفاته وغيرهم ممن كانوا خلف أرسطو فى رئاسة دار التعليم بأثينا ، فهؤلاء عدلوا عن الإلهيات ، ذلك لأن أرسطو اعترض على أفلاطون أستاذة وقال له : « إن المثل التى استدلت عليها بأدلتك العقلية وقلت انها معان معقولة تكون أصلاً لكل موجود فى الخارج غير واضحة ولا ظاهرة هى خفية ، وخير لنا أن نبدها بما هو خير منها من المادّة والصورة وانهما أصل العلم لأن الصورة فى المادّة أقرب الى الفهم من تلك المثل والمعانى التى لانعرفها »

فردّ هؤلاء العلماء التابعون لأرسطاطاليس قوله وقالوا : « إن الصورة متغيرة لا ثبات لها فى المادّة ، فكيف نسند العلم الى ما هو متغير ! » وأدلة كثيرة من هذا القبيل أوجبت رجوعهم عن الإلهيات ﴿ ثانياً ﴾ هنالك ظهرت فرقتان : فرقة ( أبيقورس ) وهؤلاء قالوا باللذة أى ان الانسان يقرأ الفلسفة لأجل اللذة المستفادة من فهمها ، وهو مولود سنة ٣٤١ ق.م ومات سنة ٢٧٠ ق.م . وفرقة الرواقيين ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م وكريزيوس المتوفى سنة ٢٠٨ ق.م ومذهبهم انه ليس هناك إلا جوهر واحد هو المادّة والله يلتقى عليها شعاع نوره ، والالهيات والطبيعات عندهم علم واحد . فهناك عقل يضبط المادّة ألطف جدا له قوّة تحرك العالم . فالعالم كحيوان وهو كروح . والانسان عالم صغير فى مءابل العالم الكبير . والانسان له من ذلك النور الالهى أكثر من غيره . والأخلاق عندهم عليها مدار الفلسفة . وإذا كان نور الله مشرقاً على الانسان أكثر من غيره وجب عليه أن يتلقى ذلك بالترحاب . وهل يكون ذلك إلا

بالأخلاق الشريفة . وما الفلسفة إلا بستان المنطق سياجه وعلوم الطبيعة أشجاره ومحاسن الأخلاق ثمرته . فلا علم إلا بعمل ولا حكيم إلا من بلغ من العلم والعمل الدرجة العليا . ولا قصد للحياة إلا التخلق بأخلاق الله ولكنهم جعلوا الانسان مجبوراً لا مختاراً فصار مذموبهم فيه بعض الانتقاص . وأيضاً رجعوا الى غيبوبة النفوس وأهموا الأعمال الظاهرة نوعاً ما وأخذوا يبحثون في معرفة ما وراء الحس والكشف . وتبعهم في ذلك بعض الأئم الإسلامية وهم كثير من فرق المتصوفة . ولم يحدث بعد هاتين الطائفتين ارتقاء في العلم هناك

(٣) ثم جاء في أواخر القرن الثاني للمسيح أمثال (نيقوماخس الجهرسيني) الذي عاش الى سنة ١٤٠ بعد المسيح القائل بأن الأعداد هي أصول الموجودات وهو صاحب كتاب الارتماطيق ومن فلاسفة هذا العصر جالينوس الطبيب . ولقد ظهر بالاسكندرية إذ ذاك (امونيوس سكاس) ومعنى سكاس (الجمال) لأنه كان في أول نشأته يحترف بتلك الحرفة وكان نصراني الأصل ثم انتقل الى ملة اليونان العتيقة وهي الوثنية وتعاطى الفلسفة واشتهر فيها . وقد ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد وتوفي سنة ٢٤٢ وجاء بعده تلميذه أفلاطين المتوفى سنة ٢٦٩ م. وبعد أفلاطين تلميذه بروقيريوس ولد بصور الشام سنة ٢٣٣ م. وتوفي سنة ٣٠٤ م. وهؤلاء ومن تبعهم يسمون الفرع الاسكندري . وبعدهم بيليخوس ومن تبعه ويسمى الفرع الشامي إشارة الى مولد بيليخوس إذ كان باحدى بلاد الشام وتوفي سنة ٣٣٣ م. ثم سريانوس وبرفلس ومن تبعهم وهم يسمون الفرع الأثيني لكون دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت الى أثينا . ولد بروفلس سنة ٤١١ م وتوفي سنة ٤٨٥ م كل هذا من كلام (سنلانه التلياني) في كتابه (تاريخ الفلسفة) والى هنا انتهى دور اليونان ومن تبعهم

فهذه أمم خلت ثم جاء الاسلام وكان عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبنى أمية . ويحسن أن نذكر هنا نبذة من كتاب « مبادئ الفلسفة » المترجم من اللغة الانجليزية بقلم الاستاذ أحمد أمين في الكلام على عصر العباسيين فقد جاء فيه ما يأتي :

فلما جاءت الدولة العباسية « ١٣٢ - ٦٥٦ هـ » عظمت حضارة المسلمين ، وهضموا ما أخذوه (بالفتح) عن الفرس والروم والهند ، ونقلوا علوم الأمم التي سبقتهم في المدينة ولاسيما الهند واليونان . وفي زمن أبي جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم ، ولاسيما المأمون توسع الناس وخاصة السريانيين (في ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان ، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق) الى اللغة العربية فترجموا في القرن الثاني والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة ويختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بعد فلاسفة وكان أغلب مؤسسي الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء في الطبيعيات أكثر منهم رجال دين ، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب في القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الإلهيات بل كان البحث في الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنباً لجنب مع البحث في الإلهيات وما وراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس في الطب وأقليدس في الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو في الإلهيات (١)

غير أنه يظهر أن ما ابتكروه من عند أنفسهم قليل اذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم انهم في بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين ما لم يصل اليها اليونان قبلهم ، ولكنهم في غير ذلك من فروع العلم كالنطق والنفس والأخلاق كانوا نقلوا أكثر

منهم مبتكرين ، وكانوا في طريقهم العلمية ونظامهم في البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثراً عظيماً بفلسفة أرسطو والافلاطونية الحديثة

ولهم الفضل على الغرب بكل مما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم إياها . كما أن كثيراً من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد ( بحق ) من أسس المدنية الغربية

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة « الافلاطونية الحديثة » (وهي مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر في أواخر القرن الثاني لليلاد ، وكان مقره الأصلي الأسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحي والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة » ومن أشهر دعائه ( أفلوطين ) ولد في مصر سنة ٢٠٤ م قيل انه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم في رومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ وكانت تعاليمه مزيجاً من الفلسفة العلمية والتصوف الديني) والذي دعا المسلمين الى اعتناقهم هذا الضرب من الفلسفة انها كانت فاشية لعهدهم في الشام وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر في فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد في فلسفة أفلاطون . وأرسطو نظروا اليها بعيون متأثرة بالافلاطونية الحديثة

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي ويلقب (بفيلسوف العرب) لأنه عربي صميم تبحر في الفلسفة . وقد كان تابعاً للافلاطونية الحديثة وتعالم أرسطو أكثر منه فيلسوفاً مستقلاً . وأكثر ماله من الفضل جاء من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له في عهد المأمون والمعتمد كتب كثيرة بعضها ترجمة وبعضها تأليف وصل اليها من أسماؤها نحو ٢٥٦ كتاباً عنها صاحب أخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هجرية

وجاء بعده أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ عاش تحت كنف سيف الدولة بن جردان وكان يعرف لغات كثيرة وبرز في الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندي تابعاً للافلاطونية الحديثة ( وإن لم يعرف هو هذا الاسم ) وتعالم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد ( كتاب النفس ) لأرسطو وعليه بخط الفارابي ( إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة ) وقد لقب بالمعلم الثاني ( والمعلم الأول هو أرسطو ) حلله معميات الفلسفة اليونانية ، وكان الفارابي كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وستة حق . وأن الفلسفة حق . والحق لا يتعدد فوجب أن يكون الفلسفة والاسلام متفقين . غير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية ( كما كان ينبغي أن ينظروا اليها ) من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضاً . وأن ما يذهب اليه أرسطو في مسألة قد يكون مناقضاً لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتزمة ، وقالوا ان أفلاطون قد يختلف مع أرسطو في طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما في الفلسفة واحدة ، وصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاهما فورفريروس (وهو من أصحاب مذهب الافلاطونية الحديثة) وتعالم أرسطو كما حكاهما متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان ، ولا سيما فلسفة أرسطو ، خلط وتشويش . يدل على ذلك أنه في زمن المعتمد ترجم أحد نصارى لبنان جزءاً من أيده أفلوطين الى العربية وسماه (لاهوت أرسطو) وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول ، وعدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحاً لحقيقة واحدة فبدلوا جهداً عظيماً في التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو ، وزاد عليهما المتدينون ( القرآن ) وهذا ما فعل الفارابي ، فقد كان مؤمناً بأقوال أرسطو وأفلاطون منزهاً للقرآن عن الخطأ ، فزج

اللوح والقلم والكرسى والعرش والملائكة والسماوات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع ما بين أجزاءها من التناقض ، ومحاولة ذلك تستدعي ذكاه نادرا وتصوفا و ( كسفا ) وغموضا وسبحا في الخيال وبحث الفارابي كذلك في السياسة في كتابه ( آراء أهل المدينة الفاضلة ) واختار من أشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية وصرح في هذا الكتاب بين آراء أفلاطون في ( الجمهورية ) وبين أقوال الشيعة في الامام المعصوم اذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرب الفارابي وحاميه شيعيا

ومن لهم أثر كبير في الفلاسفة الاسلامية جمعية شبه سرية تسمى ( اخوان الصفا ) اجتمعت في البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الأذى بالفلاسفة ، وقد عد القفطي في أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين في جميع الأقطار الاسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية . قالوا ( ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولاسييل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال (١) فألفوا احدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم فهي ( دائرة معارف ) تشتمل على معارف العرب اذ ذلك باختصار ، قالوا في أول هذه الرسائل : ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في علم النفس ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انقلق على الناظر فيها فهم معانيها ، ونحن قد أخذنا بل معانيها وأقصى أغراضهم فيها وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ والاختصار في إحدى وخمسين رسالة اه )

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزججا من أبحاث ( الافلاطونية الحديثة ) والتصوف ومقالة ارسطو في العلوم الطبيعية ومقالة الفيثاغوريون في العدد ( الرياضة ) وقد كان لها أثر كبير في العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والنشويش ما ذكر قبل . وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية ( اسماعيلية ) لما بين ما يجيء فيها أحيانا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت ( وكانت في يد الاسماعيلية ) على كثير من نسخ الكتاب

وكان لأبي علي بن سينا البخارى ( ٣٧٠ - ٤٢٨ ) شهرة فائقة في الفلسفة ، وفلسفته تقرب من الفلسفة الارسطاط ليسيبة الصرفة ، وربما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها ، وكتابه ( القانون ) كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معا وله فضل كبير في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولاسيما الاهليات والمنطق . هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيروني وابن مسكويه وابن الهيثم وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سببا في حركة جديدة قام بها المتكلمون ( علماء الكلام ) يريدون بها مقاومة تعاليم ارسطو وأفلاطون والافلاطونية الحديثة المتعلقة بالاهليات أو الرد عليها ودحضها فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة فبحثوا في العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها ، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلاسفة فحسب بل الى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ، ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري وامام الحرمين والباقلاني ، ولكن أحدا منهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولارد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالي ( ٤٠٥ - ٥٠٥ هـ ) فدرس الفلسفة اليونانية درسا دقيقا ( كما حدث هو عن نفسه ) ، ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها وألف في ذلك كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالي من الفلسفة

(١) أخبار الحكماء

ورغب في التصوف وأبان أنه الطريق الحق إلى الله ، وكان بليغا في قوله مخلصا في حديثه سهل العبارة قوى الحججة ، فأثر ذلك في المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم إلى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية وحبب ذلك إلى الناس . وسار على طريقة الغزالي كثيرون من بعده هذا مجمل حال الفلسفة في الشرق ، أما في الغرب أعنى في الأندلس وشمال أفريقيا فقد أظهرت الفلسفة (حينئذ) أكثر من أزهارها في الشرق . وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ، وكان ينسدر بين مسلمي الأندلس الخلاف في العقائد والمذاهب كالذي كان عند المشارقة ، فكلمهم الاقليل مالكي سني ، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رحل إلى رحلوا عن طريق القاهرة وأمعنوا في الرحلة حتى إلى فارس وانتفعوا بعلومهم ، وجاء الحكم الثاني « ٣٥٠ - ٣٩٦ هـ » فبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار فجمعوا إليه كتبا جمة ، فاشتغل الأندلسيون بالرياسة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطلب بعد أن نقلت إليهم كتب الفارابي ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا . وقد تعاون المسلمون واليهود معا على الاشتغال بالفلسفة في الأندلس . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون . مع مقاومة العامة وأشياهم مقاومة أشد من مقاومة المشارقة

ومن أشهرهم (١) ابن باجه وقد اتبع تعاليم الفارابي (٢) وأبو بكر بن طفيل ( مات سنة ٥٣١ ) وصل إلينا من تأليفه رواية (حى بن يقطان) وكان بطلها (حى) يعيش في جزيرة لا يسكنها أحد من الناس وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى . بحث بعقله بحثا منطقيًا متدرجا من البسيط إلى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله . وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل . وقد ترجمت إلى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبرتو كروسو (١) و (٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الأندلس على الإطلاق (٥٢٠ - ٥٩٥) كان يعد أرسطو أكبر الفلاسفة . وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت إليه . ودافع عن الفلسفة وألف كتابه (تهافت التهافت) ردا على الغزالي في طعنه على الفلسفة ، وأبان في كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين . وألف في ذلك كتابا صغيرا سماه (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال) وأكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وإنما موجود ترجمتها . من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي رتب وطبع باللاتينية في البندقية سنة ١٥٦٠ م في أحد عشر مجلدا . وترجم له كتاب في الطب طبع كذلك في البندقية . وله كثير من المؤلفات مترجم إلى اللغة العبرانية . وكان لفلسفته شهرة في الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)

وباتهاء القرن السادس الهجري تقريبا وقف المسلمون عن البحث الفلسفي والنظر في العلوم الكونية . ولم يكن العلم الانتقال . فالأولف ينقل عن من قبله فحسب ، حتى لا تكاد تجد في كتاب جلة ذات معنى جديد ، والعلم إنما يعلم ما سمع من أساتذته ، والاختلاف الذي يظهر بينهم إنما هو اختلاف في الشكل لا في الجوهر (وليس تمت مجال البحث في أسباب ذلك) ولم يفيج منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة إلا ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) فإنه باجاع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيه في الشرق والغرب إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، فبحث في (أحوال العمران ، في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية) وكما قال هو في مقدمة كتابه ان كثيرا قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصده ولا استوفوا مسأله (وأمل ممن يأتي بعده أن يستمروا في البحث ويضعوا أمافاته من المسائل وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذي حققها هم المسلمون بل أوجست كومت وسبنسر وأمثالهما

(١) فندلند - ورواية روبرتو كروسو إحدى الروايات الإنجليزية الشهيرة لمؤلفها (ديفو) فرض فيها بطل الرواية قد عاش في جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله إلى كثير من الأمور

(وكما كان ابن خلدون في هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين للاحق  
وأما من عداه فداروا في دائرة ضيقة وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصرُوا نظرهم على  
كتب المتأخرين محدودة لا تبعث شوقاً إلى علم ولا تهيج العقل إلى بحث ، قد ألفوا في معانيها وركزوا ألفاظها ،  
فوجه المتعلمون أعظم جهدهم إلى حل معيياتها وتفسير أغراضها وقليل من الجهد (إن كان) إلى نفس الموضوع  
وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطاً بعيداً في الغرب ، والشرق جامد في مكانه ، وبدأ الشرق يقالب النوم  
والنوم يغلبه ويصارع الكسل والكسل يصرعه ، حتى أزعجت الحوادث وأقلقت راحته ضواء احتكاك  
الشرق بالغرب ، فانتبه متأخراً وحس بتأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره في شؤون  
الحياة ، وما أحوج اليوم إلى هداية يضيئون له السبيل . ويأخذون بيده في هذا المعترك اللجب . وينقلون  
إليه زبدة ما وصل إليه الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرقي . ويكون له مدينة وعلماء تنفق مع  
ذوقه وجوه ودينه - والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - انتهى من الكتاب المذكور

فلما سمعت ذلك . قلت : لقد أجدت في اختيار النقل وحسن الاختيار ولكن للكلام بقية لابد من  
ذكرها . فقلت : وهل بعد ما أجلته قول في هذا المقام . فقالت : لا تنس أنك تفسر قوله تعالى - إن الذين  
قلوا ربنا ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة - الخ وأن المواضيع هنا ثلاثة : معرفة الله ، والعمل الصالح ،  
والمكافأة عليه في الآخرة . وأنت تعلم أن معرفة الله لابد منها أولاً بطريق علمي حتى يعرف العاقل أنه في  
هذه الحياة له مشرف يشرف عليه لا أنه مطلق من كل قيد ومجرد السماع من الكتب الدينية ليس يكفي العقلاء  
فوجب عليهم البحث بأنفسهم وما تقدم من تاريخ الفلاسفة إنما هو تمهيد وتوطئة المقصود ، وهل المقصود إلا  
تبيان الحقائق واضحة ، أزل الأشكال لجميع الناس ولكل الأمم ، اذ كرهم أمثلة من أنفسهم ، بين اختلاف  
المذاهب أولاً في معرفة الله وفي الأخلاق ، أوضحه أيضاً تاماً ، لا تقصر في الإيضاح . بين آراء الملحددين وآراء  
الموحددين . وبين آراء من يقول « إن أصل كل شيء هو المادة وأنه لا إله لهذا العالم » . وبين آراء من  
يقول « إن العالم له إله » وأوضح مذاهبهم . ثم اذكر مذهب من يقول « إن الإنسان خلق لمصلحة نفسه  
وحده » ومن يقول « إن الإنسان خلق لمنفعة غيره وأن ذلك سعاده » . وبعد هذا البيان أوضح برهانك  
أنت بحيث تظهر الحقيقة لكل عاقل في هذه الأرض أنك إذا لم تظهر هذه الحقيقة بالبرهان الذي يدركه كل  
امرئ متوسط العقل من نفسه يبقى الناس حيارى فيقولون من نتبع ؟ أنتبع من يؤمن بالمادة وينفي وجود  
إله ؟ أم نتبع من يؤمن بالله وعقله لا يفرق بين البراهين وأيهما هو الحق ؟ أم أعمل لنفسي فقط وأترك الناس ؟  
أم أعمل للناس وأصحى ببعض مصالحى . فإذا برهنت على الحقيقة في الأمرين : أمر معرفة الله . ومعرفة العمل  
الصالح ظهر معنى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ومتى ظهر ذلك المعنى بوجه علمي صحيح أخرجت  
العقلاء في هذه الأرض من حيرتهم وأصبحوا موقنين بالحقائق وهناك يفهمون معنى - تنزل عليهم الملائكة -  
بسبب الإيمان والعمل الصالح بل يصبحون فاهمين هذا النزول ويحسون به من أنفسهم

فكر في هذا الموضوع وأنا سأعينك لأنني أطلع على قلبك وأشاهد فيه اللوحتين تتقابلان لوحة الكواكب  
وأنوارها وجالها . وهي اللوحة الأولى ولوحة آراء العلماء وقد ارتفعت الثانية من أحد طرفيها وتقابلت مع  
الأولى بهيئة نورية مشرقة واتحاد المناظر السماوية المشرقة مع المعارف القلبية التي هي مزارعي في القلوب بنجم  
عنه اليقين وهذا اليقين الذي تحس به الآن وأشاهده في قلبك بعد امتحانك لآراء أوروبا في القرون الحديثة  
سينتقل منه إلى قلوب شريفة في الشرق وفي الغرب وبه يخرج الناس من التخبط والانحلال في الأخلاق  
الخالصة وفي السياسة العاقمة . واعلم أن قولك هذا سيكون له أنصار في كل مكان . فقلت : إني منشراح الصدر  
لما أمرتني به ولكن المقام بطول . فقالت : ليكن القول مختصراً والمهم هو برهانك أنت عند الفصل

بين علماء الأمم في العلم النظري والعملى بمد أن تبين للناس القبس الذى قبسته . فقلت : سأذكر ذلك بفاية الاختصار وليكن في ﴿ ثلاثة فصول \* الفصل الأول ﴾ في آراء علماء أوروبا في الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴿ الفصل الثانى ﴾ في القبس الذى فى آية - وهل أتاك حديث موسى - الخ لشدة مناسبتة لهذا المقام وكيف فهمته فى أثناء الصلاة ليلا ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى تبين الحقيقة فى الحكمتين العلمية والعملية وبهذا يظهر معنى قوله تعالى هنا - إن الذين قالوا ربنا الله هم استقاموا - الخ

## الفصل الأول فى آراء علماء أوروبا

### فى الحكمة العلمية والحكمة العملية

القائلون بالمادة . والقائلون بالروح . والقائلون بالمادة والروح معا

إن الانسان اذا خلا بنفسه . وأخذ يفكر فى هذه الدنيا لا يخرج تفكيره عن واحد من ثلاثة لارابع لها . إما أن يقول إن أصل العالم المادة . وإما أن يقول إن أصله الروح . وإما أن يقول إن أصله الروح والمادة معا (١) ذلك ان كلا منا ينظر فيرى له جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وعضلات وشحم ودم وأعضاء مختلفات ، ثم ينظر حوله فيرى الأرض والحجر والشجر والماء فيقول أنا لا أشك أن هذا هو الأول وهذا هو الآخر ، وما هذه الحركات ولا العقول ولا الاحساس إلا نتائج هذه المادة ، وهل الفكر إلا حركات فى المادة كحركات النجوم والذبول ، وهل الموت والحياة إلا أحوال تعترى المادة ، وبالتأمل فى تاريخ الفلسفة نرى أن هذا الرأى دائماً يكون مبدأ التفكير عند الأمم سواء فى ذلك اليونان والعرب والاوروبيون

(٢) وتارة يقول القائل . كلا . ماهذه المادة ؟ إن هى إلا عدم محض ، وكيف لا تكون عدماً محضاً وقد عرف الناس اليوم أن العالم لامادة فيه ، وهل المادة إلا وهم وكذب صراح ، من أين جاءت هذه المادة ؟ المادة لم توجد ولن توجد ، نحن لاشىء عندنا سوى الأثير وهوليس مادة ، والأثير إن هو إلا عالم أشبه بخيالنا لا نحس به وإنما أدركته عقولنا ، وهذا الأثير بالحركات المتتابعات فيه المختلفات كثرة وقلة يكون ضوءا وحرارة وشجرا وحجرا وشمسا . فالضوء يحتاج الى حركات فى الثانية من (٤٠٠) مليون مليون الى (٧٠٠) مليون مليون والجوامد تحتاج الى نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية . هذه هى المادة أوها وأخرها ماهى إلا حركات فى شىء يشبه خيالنا . إذن العقل هو المسيطر على هذا العالم . جسمى والأجسام حولى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فسميناها بأسماء مختلفات - إن هى إلا أسماء سميتوها أتم وأباؤكم - لا غير والافهى لارجود لها ولادوام

(٣) وتارة يقول الانسان - الحق أحق أن يتبع - إن هنا مادة وروحاً تدبرها والعالم كله لم يخرج عن مادة وعن شىء آخر يحركها

هذه هى الصور التى تجول بأفكار الأمم كلها قديما وحديثا . واذا كانت العوالم لا يخرج عن هذه الثلاثة فلا جرم ان اختلفت العقول باختلاف أنظارها . ولأذ كر هنا ما كتبتة فى كتابى ﴿ جوهر التقوى ﴾ فى علم الأخلاق وأنا أدرس هذا العلم لطلبة دارالعلوم أولا وأتبعه بزموز المصريين ورموز الرومانيين فى هذا المعنى (١) فأما ما كتبتة فى ذلك الكتاب فهذا نصه :

## تحليل الأخلاق والأمور النفسية

### التربية الجسمية

لقد أفضنا فيما سلف فى اثبات النفس ، وأبنا كيف بايفت الجسم وان جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى

فليبين في هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما بالآخر وظهور آثار فعله فيه حتى عسر التمييز بينهما ،  
ودق الفارق على الناظر الحنابق . فقتسابها وتشاكل الأمر حتى ضربهما الشاعر مثلا لتزواج المعنى بالكلم في قوله

وكم معنى بديع تحت لفظ \* هناك مزاج كل ازدواج \*  
كراج في زجاج أو كروح \* سرت في جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزواجهما وتعسر التمييز بينهما على خيال الشعراء ، بل تخطى الى أفكار الحكماء فتفرقوا  
طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون » ففريق أهمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال ما الانسان  
إلا نفسه فهي القوامه عليه المدبرة له الحافظة لشكله . الساعية لتنميته تدبر احشائه وتعذى أعضائه وتتولى  
شأنه وان هو الا عناصر مؤلفة وعمما قليل يلحقها الردى ويعروها البلى ولقد يموت المرء بكلمة تؤذيه ويفرح  
ويبش بخبر يسره ويرضيه فالجسم وجوده عدم . وأخرون نبذوا الروح وراءهم ظهريا كأنهم لا يعيشون ،  
واتبعوا في سيرهم أمر جسمهم وقالوا ما الانسان الا الجسم وما الروح إلا عرض من أعراضه كسواده وبياضه  
ولئن لحقه مرض أو ألم به ألم أو نقص أو تلف تعدى للنفس أثره فهو حاملها وحافظها بل جوهره عرضة

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجوهرين وآمنوا بالزوجين وجعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين  
فلم يغمطوا الروح حقها ولم يسلبوا الأجسام حظها بل راعوا الجانبين وتربصوا الحسنيين ونظموا إدارة الجسم  
كما أداروا مملكة الروح وانا لذلك مختارون

لذلك نظمنا جوهر الجسم في سبط عقد الأخلاق لثلاث نبخسه حقه فلا يقولن امرؤ انى اذا هذبت نفسى  
وجعلتها عنوان درسى كفانى ذلك في التهذيب . إلا أن له أثرا في نفوسنا وسلطانا في عقولنا ألا ترى أن المرضى  
أسوأ الناس أخلاقا وان للأغذية والماء والأجواء الممدة لأجسامنا آثارا تصل لنفوسنا كالقبض والبسط والفرح  
والحزن فانها اذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار ردامتها وان كانت سالحة فالصلاح اليه واصل  
وعليه وارد . سرفى نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك وتصف روحك . فلعمرك ما العلوم التى  
بها جلب الغذاء من صناعة وتجارة وزراعة ولانسلك الذى ترجوه بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع ما ولا نظام  
أمتك في اجتماعها وسياستها الا بعد حفظ صحة جسمك وإدارة نظام هيكلك فى الرتبة وما الأموال المجموعة ولا  
الاخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئا وانما من ذلك مدده واصلاحه فلا وربك لا أمة الا من الاسرات  
وانما الاسرات مركبات من أفراد فاذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا اتلاف ولا أخلاق ولا آداب . تهذيب  
النفس شرع لتجاذب القلوب . وتحاب النفوس واتلاف الأفراد . ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين . فالتهذيب  
مؤخر فى وجوده عن وجود الافراد والافراد قوامها الصحة

وإياك أن يبلج فى خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام فى علم الأخلاق أو تقول نتركه لعلم قانون الصحة  
فانك عرفت قبلا علاقتهما وآثار أحدهما فى الآخر فلئن ذكره الأطباء فانما ذلك لأنه مقصود فى علمهم بالذات  
والنفس تبع . فأما علماء الأخلاق فانهم يبحثون عنه كمركب للنفس وسفينتها السائرة فى بحر الحياة اللعجى .  
ودابتها التى تركيبها للجسم فرس . والنفس راكبها والسعادة قنيتها ولاقنيصتها لمن كلت فرسه كما لاسعادة ولا  
أخلاق لمن ضعف جسمه إلا من رحم ربك . ولقد أودع الله فى فطرة الانسان من الغرائز والمشاعر والادراكات  
وأحاطه بالمنذرات للتهلكة ما ان عمل به وسار فى سبيله بنظام هدى الى طريق رشاده . ألا ترى الى الحر والقر  
والجوع والعطش وما جبل عليه الأطفال من حب اللعب وتنشيط الأعضاء بالحركة ومصادمة الأجسام ومقارعة  
الأبطال ان كل ذلك إلا مرشد للعاطلين كم من امرئ جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كالقمة  
يزدردها بلا كثير مضغ والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة  
فأحاطت به خطوط الزمان ومن عجبات الأمراض أولم يعلم ما للانسان من الحكمة وما لآلام الحر والبرد من الانذار

والاعلام إلا أن الغفلة عن الصغائر في أمور الأجسام تجر الى الكبائر في أمر النفوس والعقول فكم يحدث فساد الصحة من تغير في طباع المرء كسرعة الغضب والتهبج المزرى ويقعده عن تأدية الواجبات الاجتماعية والمرض اذا حل بالجسم فزال أبقي له أثره الخالد فيه حتى يمحن أجله ويذهب عمره . لا بد من ارادة قوية يصد بها الشهوات البهيمية وعزم صارم يكبح به تلك الضاربات الهاججة حتى لا نشترى الذي هو أدنى من اللذات الخسيسة بالذي هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالاخوان وبهجة الجمعية القومية ونعيم العباد في البلاد فاعتدل في مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ونومك ويقظتك واجعل لكل وقتا خاصا به ، ونظم أوقاتك كما نظمت الأفلاك في سيرها والنجوم في جريها والشمس في أبراجها وأقلل من الشرب وحرمه بعد انقضاء الأكل حتى يهضم الطعام واجعل لك وقتا للرياضة الجسمية كالتمشي والأعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات عطلتك ليكون أجمل نشاطا لعقلك وأتم قوة لجسمك وكالحركات الرياضية في المدرسة فلعمرك انها تحرك من نشاطك وانها تفتح لك شهوة الطعام

الآن المستبصر الحاذق من سار على منهج قانون الصحة فقل مرضه . فذلك خير ممن يهمل الجسم فيقع في قبضة المرض فيضطره لتعاطي الدواء فالخير في تدبير الطعام والشراب في الصحة . وقد أثنى الله على بعض عباده الأصحاء العلماء فقال (وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء) . انتهى ما أردته من كتابي جوهر التقوى

(٢) وأما ما كان بمصر فانه قد كان بها هرم في هيكل (إيزيس) وهي إلهة مصرية زوجة (اوزيريس) انتشرت عبادتها من مصر الى اليونان ورومه وكانت عبادتها تنافس النصرانية . وكانت في بلدة (صالحجر) من أعمال مركز كفر الزيات تبعد عن رشيد قليلا . وقد كتب على ذلك الهرم ما يأتي : « أنا كل شيء كان وكل شيء يكون ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى »

(٣) وأما ما كان من رموز الرومانيين فذلك انه كان في إحدى حجر الفاتكان صورة شهيرة في حائط صورها (روفائيل) اسمها مدرسة (أثينا) وفي مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون ومع كل أتباعه وأفلاطون يشير الى السماء بأصبعه وأرسطو يصنع بفتور مشيرا الى الأرض بيده اليمين ، والحق أن هذه الصورة وإشاراتها تمثل جميع أفكار الانسان من أوله الى الآن

فاذا عرفنا أن أفلاطون قد قال : « إن الشمس المشرقة المضيئة سبب ظاهري لما على الأرض من نبات وحيوان الخ » من حيث إيجادها ومن حيث هداية الحيوان والانسان بها الى السير في الأرض ، وأن ذلك يهدي الانسان الى أن هناك إلهما للعالم في مقابلة الشمس وقد خلق عالما لطيفا في مقابلة هذا العالم السئف وألقى من لدنه نورا على ذلك العالم اللطيف فعرفناه وهو متعلق العلم وبه عرفنا الكليات في عقولنا وصور الجبال المجردة والكمال والحكمة والعدل كما ألقى الشمس نورها على حواسنا فعرفنا طرقنا وسرنا في الأرض . واذا عرفنا أن أرسطو يقول . كلا . فنحن لا نزيد قط أن نجعل العوالم المعنوية وهي المثل الأفلاطونية متعلق العلم لدوامها بل نقول العلم يتعلق بالصورة والمادة والقواعد المستنتجة من ذلك هي كليات قأتمت بالذهن ليس لها وجود في الخارج

أقول اذا عرفنا ذلك عرفنا أن هذين الرأيين هما أول العلم وآخره لا غير فاما أن نعول على المادة واما أن نعول على الروح وأما المذهب الثالث فقد جمعهما

القائلون بالمادة منهم الاستاذ (كارل غت) ومن قوله : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التي يفرز بها الكبد الصفراء والكلى البول » . ومنهم الاستاذ (بخنر) الألماني وقد ألف كتابا اسمه القول الفصل في المادة . وهؤلاء لا يقولون بالروح ولا بالملانكة ولا بالشياطين ولا بالله

(١) وعلماء الجواهر الفرد قديما من أنصار هذا المذهب مثل ديموقراطيس سنة ٤٢٠ ق.م وهو من الإيرانيين يقول إن المادة تتحرك من نفسها  
 (٢) وجاء أبيقور سنة ٣٤٠ ق.م وقال « إن النفس والفكر والعقل والقوة أعراض للمادة » ومثله ليوكاروس سنة ٩٩ ق.م المؤلف الروحاني الشهير ومن أنصار هذا المذهب  
 (٣) ثم توماس هويوز سنة (١٥٨٨ - ١٦٧٩) في إنكلترا وهو يقول : « إن الروح جسم طبيعي ارتقى ولم تدركها حواسنا »

(٤) ثم (لامتريه) في فرنسا سنة (١٧٠٩ - ١٧٥١)

(٥) ومثله (باردن هليك)

(٦) ومثله (كاياني) أيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٥٧ - ١٨٠٨

(٧) وفي ألمانيا ظهر (مولشت) في القرن التاسع عشر وقال « لاقوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة »

(٨) وتبعه (كارل جنت) وله ويح بنجر المتقدم ذكره

فأما القائلون بالروح ، والقائلون بالروح والمادة معا . فالأولون منهم يقولون « إن المخ آلة الفكر ولكنه هو ليس سبب الفكر . وقالوا : ليس من المعقول أن يكون الفكر الانساني العجيب مستنتجا من مادة ميتة لا تحس ولا تعقل . فالشاعر يفكر في المادة والحكيم كلاهما لا يمكن أن يكون فكرهما مادة . فهل مادة تفكر في مادة ؟ » . وقد قال شاعر فرنسي ما يأتي

إن امرأ ظنّ المعارف أشرفت \* أنوارها من مظلم لجهول

وهذا المذهب الروحاني ظهر بعد المادى

(١) وقد أوضح أفلاطون نظرية المثل وقال إن لها وجودا حقيقيا والظواهر تتبعها

(٢) وجاء (ديكارت) فأخيا عقيدة الروحانية

(٣) ثم (لبينتز) سنة ١٦٤٦ - ١٧١٦ وهو الذي ضبطها يقول : « إن أساس الموجودات شيء واحد وهو الروح وهناك تقطر روحية لا عدد لها وكل نقطة من هذه تسمى (الذرة الروحية) وهذه

الذرة خلقها الله ، وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرات وعدم قبول الجوهر الفرد للقسمة أمر ظاهري لا غير والا فهو يقسم الى ما لا نهاية له لأنه مركب من أرواح حية وكل جسم مركب من ذرات روحية . وهذا الامتداد الذي نراه في الأجسام ناشئ من اجتماع ذرات روحية وحقائق الأشياء هي هذه الذرات الروحية . وقد جعل الله تلك الذرات مراكز للقوة ومنحها قوة إدراكية وهي مختلفة الأشكال والأحوال كثيرة التغير

فلاندوم على حال تكون به \* كما تلون في أنوارها الغول

وهذه الذرات مرآة العوالم الحية وهي ان شعرت فهي الحيوان وان لم تشعر فهي الجاد . وقال كل

ذرة لها جسم وروح فالروح هي الحقيقة والجسم مظهرها

(٤) ومثل هؤلاء (جورج بركلي) سنة ١٦٨٥ - ١٧٥٣ وهو مؤلف جرماني يقول : « المادة لا

وجود لها في الخارج ، وإنما ذلك خيال ، ولا وجود إلا للروح والعقل ، ولا فرق بين الصور التي

تتخيلها والتي زاهها ، والعقل يتصور الشيء ويسمى فيبرزه في الخارج ، وليس هناك شيء خارج عن

العقل . ويقول : إن الشمس والقمر والجبل والشجر لا وجود لها اذا لم يكن هناك عقل يدركها

وادراك الانسان مستمد من الله . ومتى طبعت الصور في عقولنا سمينا ذلك أشياء حقيقية . وله

كتاب سماه « السلسلة » جعله خاصا بمنافع القطران وتكلم في نهايته على الموجود المطلق . قال :

« لم تكن المعاني التي ندركها أوهاما بل هي حقائق لا تتغير ، ألا ترى أن وجودها أثبت في نفوسنا من الأشياء الخارجة . المحسوسات الظاهرة تتغير وهل المتغير يصلح مناطا للعلم . وكلا يصلح موضوعا للعلم لا يصلح للإدراك

( ٥ ) وفقى على آثاره هؤلاء ( هرمان لوتز ) فنسرح في كتابه المسمى « العالم الصغير » هذا المذهب

( ٦ ) ومثله ( شو بنهور ) إذ يقول : « إن الإرادة هي حقيقة الأشياء »

( ٧ ) وهكذا نغفر إذ يقول : « إن كل شيء في الوجود حي »

والذين يقولون بالروح والمادة معا هم مثل :

( ٨ ) انكساغورس سنة ٤٥٠ ق.م

( ٩ ) وأرسطاطاليس

( ١٠ ) والرواقيون

وقد يعد هو بارت ولوتز ونفخه من هؤلاء . وهناك طوائف يسمون ( المؤهلين ) يعتقدون بالله وبالأنبياء . وآخرون يسمون ( العقليين ) يرون أن الله يعرف بالعقل وحده ولا يحتاجون الى وحى . وآخرون يعتقدون الحلول الذي برهنا على منافاته للعقل فيما تقدم في تفسير البسملة في السور السابقة والعالم عندهم مظهر الله . وآخرون يسمون « أصحاب مذهب الجوهر الفرد » إذن المذاهب المذكورة أربعة :

( ١ ) مذهب الجوهر الفرد

( ٢ ) « المؤهلين

( ٣ ) « العقليين

( ٤ ) « الحلول

فالأول قال به ليوسيبس وتلميذه ديموقراطيس ، وقال بالثاني أرسطو وأفلاطون الخ ، وقال بالثالث تولاندوم وتندال وستانيسيرى وهم يقولون : إنه يدير العالم بنظام ، وقال بالرابع كتاب (ريك فيدا) وهو كتاب الهنود المقدس وهكذا جوردانو برونو وسبينوزا من امستردام ( ٢٦٣٢ - ٢٦٧٧ ) وهذا أعلن إعلانا مدعيا فيه إغراق وغلو . فقال : « إن في العالم جوهر واحد وهو الله وهو مطلق لا يحد وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروقة فيه وليس لها إلا وجود زائل صائر الى الفناء . والله صفتان يظهر بهما لنا نفسه الامتداد والعلم . فبالامتداد المتنوع تتكون الأجسام . وبالعلم المتنوع تتكون العقول . وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهم المكونة الدائمة الحركة في نول الزمن العاصف ، وتبعه شلوجوته وهرد وشلوما كره وهينى وشلى ولسنج

\*\*\*

صمت طويل وضيق صدر وألم نفس . كل هذا حصل لى بعد هذا الحديث الطويل . فلما حثت ذلك تبسمت ونظرت لى طويلا وقالت : لقد قرأت في صفحات قلبك انك الساعة مشمئزمن سرد هذه المذاهب المختلفة وضاق صدرك ؟ فقلت حقا اننى حالما شاهدت جالك أذهب عنى الحزن وشرح صدرى ونسبت كل ألم وبه نلت كل أمل فكل ما فاتنى غير قربك لا قيمة له وطلبت البقاء لديك . فقلت لى . كلا . إنك سترجع الى عالم الحس وأنت الآن فى عالم الخيال ، فوطن نفسك على أن تدرس مزارعى فى القلوب ، فهأى ذه مزارعك فى القلوب قرأت منها صفحات ، قرأيت تناقضا فى الآراء ، وتباعدا فى المعانى ، فهددت فى صدرى اقباضا لم أعده ، فأين صحائف هذه القلوب التى بها ظهر تاريخ الفلسفة فى العالم من صحائف هذه الدنيا ، تلك الصحائف التى أقرؤها متى خلوت بنفسى وأنا مستيقظ فأشاهد جمالا بارعا وحسنا باهرا وبهجة فى النجوم وفى مناظر المواليد الثلاثة

وقد أصبحت في الحال الاعتيادية أطرب لتمايل الأغصان وترنح العيذان وغوير الأعشاب وخزير الماء  
وصرير الباب ، وأشاهد في الليل اذا عسعس أوانس الكواكب ونواعس النجوم ، وألظ في الليل  
البهيم سكونا مهيبا ولألاءا بهيججا في مناظر السماء ، وآنس في النهار نضرة النعيم في كل مادب وطار ، وهل  
الحشرات المنبذات اللواتي يحمل بعضها من العيون مئات في نظري إلا لآلي وقناديل وحسن وجمال ،  
ألايت شعري هل تحسن أقوال هؤلاء الفلاسفة واختلافهم في الفبارة وقول (اسبينوزا) قولاً موهما في  
المقام الأعلى الأقدس كما تقدم « انه ظرف العالم ومنه الامتداد ومنه العقول وبالآول كانت الأجسام وبالثاني  
كانت العقول » . نعم إن العبارات ضيقة عند أهل الأرض حين يعبرون عن ذلك المقام القدسي . ولكن  
أليس هذا بعينه هو الحلول ؟ والحلول معلول معلول

يفرم الانسان بربه فراما لاحد له فيصل للتطرف والاغراق والافراط ويقول هو كل شيء . نعم اذا أصبح  
الانسان في حال لاصحو فيها فانه لايعقل ولايفهم ولايدرك ولايبصر ولايسمع إلا مايدكره بربه . ولكن  
لن يكون ذلك للعاقل . إن العاقل لايسعه إلا أن يفرق بين الخالق والمخلوق . أما هذا التهويش والاغراق  
والتطرف في القول فهو محل محزن وهو في ديننا الاسلامي كفر وأى كفر ! ألم أ كذب هذه النظرية فيما تقدم  
في موضعين بالبرهان العقلي . وكيف يكون الرب هو نفس العبد ! نظرية خضع لها كثير من علماء أوروبا  
والهند والمسيحيين وبعض الصوفية ، وهؤلاء كلامهم موهم أيما إيهام

أقول : هل يقوم كلام هؤلاء في نفسى مقام الجمال الذي ألظته في بهجة الكون والشمس عند شروقها  
وغروبها والنجوم إبان طلوعها وأفولها ، والنجم اذا هوى ما حل تاريخ الفلسفة الحديثة ولا القديمة في قلبي  
محل هذا الجمال المنسوب والطرز الممتد في السماء والأرض

إن قراءة علم ما وراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق وعلم  
الاجتماع وتاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والفلسفة الاسلامية والوقوف على ذلك كله  
(وهذه هي أقسام علم الفلسفة المتعارف الآن) ليس ينتفع به إلا أفراد يقودون الأمم وهم قليل جدا ولن  
ينتفعوا بهذه إلا بشرطين اثنين : الأول أن تكون قلوبهم قد أحست بالجمال في هذه العوالم الأرضية  
والسماوية مع الذكاء المتوقع . الثاني أن يكونوا قد درسوا جميع علوم الطبيعة والعلوم الرياضية ثم دراسة على  
أحسن نظام . فهؤلاء اذا قرءوا تلك المذاهب الفلسفية ودرسوا فروع الفلسفة فانهم يكونون قادة للأمم الشرق  
فأما قراءة كتاب مختصر أو مطول في تلك العلوم . والاطلاع على أقوال الماديين كالذي قلته أنا الآن .  
وأقوال الروحيين . وأقوال الذين يجمعون بين الروح والعقل . وهكذا يرون قوما عقليين لا يهتمون بالوحى .  
وآخرين إلهيين يهتمون بالوحى . وآخرين يقولون بالجزء الذي لا يتجزأ وغيرهم يقول : إن الله حل في كل شيء  
فانها لا تفيد إلا ضياع الذهن وتشفيت العقل والكفر الصراح والشك المستمر . وكيف لا يكون ذلك والشاب  
حين يسمع ذلك وهو جاهل بعلوم هذه الدنيا . ويرى أن هؤلاء يسمون فلاسفة . يقول : فاذا كان الفلاسفة  
أصبحوا مختلفين إذن المسألة ترجع للشك . فأنا أيتها المحبوبة أقول هذا رأيي في قراءة المذاهب الفلسفية . انها  
تضل كثيرا ولا تهدي إلا قليلا . فكيف أمرتني أن أرجع عن الصور الجميلة في السموات والأرض التي أنا بها في  
أنس وحبور ، وأن أفكر في أقوال متضاربات وأحوال متضادات لاسيما اني آليت على نفسي أن لا أكتم  
عن أحبابي قرءاء التفسير جملة واحدة ، وكيف أكتم أعظم محاورة وأعجبها بيني وبين محبوبة جميع النفوس  
وقرة أعين الفضلاء والحكماء والعلماء والأنبياء ، أأنت أنت قررة كل عين ، أأنت جمال النفوس ، ألم  
أكن ألظك في كل ذرة وقطرة وكوكب ونجم وشجر ، أأنت أنت رفيقة قلبي وشارحة صدرى ، أأنت أجل  
مافى الوجود . وكيف أكتم جمال علمك عن أعز الناس عندي قرءاء التفسير ، ومتى استيقظت من هذا

الخيال كتبت مدار بيننا ومدار بيننا حديث الفلاسفة واختلافهم وانهم فرق متشاكسون ، نعم انك لما أمرتني أن أقرأ آراء القوم قام بنفسك اني الآن لا أصلح لمجالستك ولا أقوى على محادثتك طويلا وان نفسي لم تزل يعوزها التصفية كما قلت لي من قبل ولكن ألا أستحق مساعدتك والأخذ بيدي وشد أزري والقيام بنصري ، ألسنت اليوم في جهاد ، ألسنت اليوم في أم أريد أن تسقيظ ، وخير العلم ما جاء في دور الانتقال ، والشرق الآن قد جاء دوره ، فهل من نظرة بها أسعد ومنك الجمال والكمال ، واذا كان الله جعل صور الجمال في أرضنا سريرة الزوال وأوقات اللذات كبرق خلب ، وكانت الحكمة في ذلك أن يذكر قلوبنا بالجمال الدائم والحسن الباقي الأكل ، فالظهور للذكري وسرعة الزوال لنكون في مأمن من تعلق القلب بها والعكوف عليها والحنين اليها وذلك في صحيفتي السماء والأرض ، فهل هكذا الصحيفة الثالثة وهي صحيفة القلوب وآراء الفلاسفة ، إذ نرى في القول جلالا ثم يعقبه الاضطراب والاختلاط والتهويش وضياح الوقت . إن طريقي في العلم أن أقرأ صحيفة الوجود ثم صحيفة نفسي ، فهناك أرى اشراقا وجمالا . أما صحائف القلوب فاما تجمع الغث والسمين والصحيح والهزيل (وبعبارة أخرى) إلى أخاف أن أقرأ التفسير بعدى يسوءهم ماساهني ويؤذيهم ما آذاني . وأنا أحب أن يكونوا في بهجة وجمال

\*\*\*

سمعت ذلك كله وهي صامته تبسم وهناك رأيت وجهها قد زاد جمالا ونورا وبهجة فلم أقول على النظر اليها كما ان عيني لا تقوى على التحديق في ضوء الشمس . وهناك أخذت تقول : لقد قلت قولاً جيلاً ونطقت بالصدق . إن الفلسفة وتاريخها لن يعقلها إلا أناس صفت نفوسهم وهم أذكيا وقد قرؤوا علوم الرياضيات والطبيعات بحب وشغف . إن الفلسفة لا يهتأ بها إلا أفراد قلائل في الأمم وماقلته في الجمال الأرضي وسرعة زواله حق وهكذا ما أبديته في مجال العلوم المنزلة على أفئدة العلماء . كل هذا أقرت عليه وأنا معينة لك فكن منشراح الصدر قويا متينا . أما أمرى لك بقراءة آراء القوم فان أم الاسلام اذا اطلع خواصهم على آراء العلماء في الأمم انقضت عن قلوبهم سحائب الجهالة وأضاءت نفوسهم بأضواء الهداية وحلوا المبهمات وأنسوا بجمال المدرجات . ولولا اني مطلعة على قلبك وانك في الفصل الثالث (الذي بعد فصل القبس وهو الثاني) ستحل المشكلة العلمية أحسن حل وتقيم الدليل الذي يعرفه كل امرئ من نفسه في القوة العلمية والقوة الخلقية . ما أمرتك بقراءة الآراء المتضاربة فإذا لم تقدم هذه الآراء أولا لا يكون للفصل الثالث كبير مزية . وكيف تفصل في مشكلة قامت في أعظم العلوم النظرية وأعظم العلوم الخلقية من غير أن تقدم ذكر ذلك الخلاف . وكيف يقضى القاضي في نزاع بين الخصوم وهم لم يطلعوه على وجوه الدعوى وهيئة النزاع . فكن اليوم أيها الجوهرى (بمتحنا) لمختلف الآراء . وانك قد أسمعتني آراء العلماء في معنى قوله تعالى هنا - إن الذين قالوا ربنا الله - فأسمعي خلافهم في قوله - ثم استقاموا - ومتى تم هذا الفصل بسميه فحدثني بالفصل الثاني وهو القبس الذي خطر لك وأنت في صلاة التراويح قبل الفجر لأنه أشبه بضرب مثل لآراء الفلاسفة في الأرض . فقلت : لأجمل الكلام على ذلك في (مقامين \* المقام الأول) في مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة (المقام الثاني) في الغاية من سلوكنا الأخلاق . فقلت : قل وأنا أحادثك . فقلت :

### المقام الأول في مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة

كما ان شعور النفوس الانسانية بالجمال غريزي في كل الأمم هكذا شعورهم بالحسن والقيح في الأخلاق ، إن الجمال وان اختلفت مظاهره باختلاف الأذواق والأشخاص والأمم والأحوال والبيئات ثابت الأصل في النفوس . فاذا تعددت المظاهر واختلفت فالغريزة حية ثابتة ثبات الحياة . فكما اختلفت أحوال الأحياء وهي

ثابتة هكذا اختلف مظاهر الجمال والغريزة ثابتة . ومثل ذلك يقال في الحسن والقيبح . فأهل الشرق وأهل الغرب كل يعرف الحسن والقيبح في الأفعال الانسانية وان اختلفت المظاهر . وهذا المذهب قال به كارليل و بطلر . وقال به من الألمان نغته والاستاذ كنت . وقال آخرون : « كلا . إن الحسن والقيبح في الأفعال لا سبيل لمعرفة إلا بالتجربة . واذا كان مذهب النشوء والارتقاء ظاهرا في الحيوان والنبات أفلا يكون كذلك في الحسن والقيبح ؟ أفنغش على آراء من سبقنا في معرفة الحسن والقيبح . كلا . بل ننظر الى الفائدة من أعمالنا ونحكم عقولنا ونكون أعمالنا على مقدار فوائدها . هذا هو السبيل الأقوم »  
وقال بهذا القول وهو مذهب التجربة كارنوبى ومل و بين وهر برت سبنسر . تم الكلام على المقام الأول والحمد لله رب العالمين

### المقام الثانى فى الغاية من سلوكنا الأخلاقى

هل الغاية من سلوكنا سعادتنا الذاتية ؟ أم السعادة العامة ؟

يقول قوم : « إننا لم نخلق فى هذه الأرض إلا لمنفعتنا الخاصة ، فكل امرئ إنما خلق لاسعاد نفسه هو ، والمسألة كلها هى حب الخير لنفس الانسان » ومن هؤلاء (هوبز) ويقول آخرون : كلا . ثم كلا (مثل هيوم وآدم سميث) إن فى الانسان عاطفة الحب العام ومن ذا الذى ينكرها فى نفسه . لقد غرست فى نفوسنا عاطفة حب الناس واسعادهم وحب الخير لهم وتكميلهم . وهذه تسمى نظرية الايثار

ومن أتباع المذهب الأول (ماكس سترز) و (نتشيه) ومن أتباع الثانى وهو الايثار (كنت ونغته وشوبهور) . وفوق ذلك يقول آدم سميث وجون ستورث ميل : « إن الانسان عليه أن يضحي بنفسه اذا كانت تلك التضحية سببا فى سعادة غيرنا »

ويقول الاستاذ (مل) « ما أنقص هذه الدنيا وما أخل نظامها إذ كان من سننها أن أحسن طريق فى تحصيل السعادة هى التضحية التامة . واذا كان هذا هو شأنها فإني أقر بأن الاستعداد للتضحية أكبر فضيلة يتصف بها الانسان » . وههنا مسألة ثالثة وهى :

### ما الذى يسوقنا لحسن السلوك ؟

عرفنا أن هناك غرائز أو تجارب للتمييز بين الخير والشر . وعرفنا ما الذى تقصده من السلوك . ولكن ما الذى يبعث فىنا النشاط لحسن سلوكنا ؟ ويكون مهمازا يسوقنا الى الغايات ؟ فقال الاستاذ (مل) « إن القانون الأخلاقى مقيم فى أعماق نفوسنا يساعدنا على كشف حجب الامور حتى نصل الى إدراك ما يجب علينا وله سلطان قوى وتأثير وجاهزية . وهذه نظرية (القانون الذاتى) . وهذا سموه (صوت العقل) ومن القائلين بهذا القول الاستاذ كنت »

وقوم يقولون : « إن الشعور والعواطف لها سلطان أيضا » وهذا قول هيوم وشوبهور وآدم سميث فالعقل والشعور يرجعان الى القانون الذاتى

ويقول آخرون « إن الخوف من الله . أو من الناس . أو من الذم . أو الرغبة فى المدح . أو تحصيل الثواب . كل هذه قوى خارجية لها السلطان علينا تسوقنا الى فعل الخير »

وأنا أرى أن هذه كلها لها سلطان بدرجات مختلفات وتختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والتربية والى هنا انتهى الكلام فى ذكر الآراء فى علم الأخلاق ومناهج السلوك وبه انتهى الفصل الأول فى معرفة معنى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - وبه فهمنا آراء الأمم فى معرفة الله وآراءهم فى الاستقامة

## الفصل الثاني في القبس المذكور في سورة طه

ههنا أذ كر ما وعدت به بمافهمته أثناء قراءتي آيات من ﴿سورة طه﴾ في صلاة الوتر بعد نصف الليل منذ أيام إيفاء بوعدى لك وقياماً بحقك وليكون ذلك مثلامضروباً لاقتباس عقولنا من آراء عقول العلماء والحكماء من الأمم جهاء

كنت أقرأ قوله تعالى كما قدمت - وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى \* فلما أتاها نودى ياموسى إني أنا ربك - الخ ، فأخذت أكرر هذه الآيات مراراً وقد استحضرت في ذهني الحجر والشجر والبرّ والبحر والايقاد واللهب ، كل ذلك حصل في نفسى كلعج البصر ، وهذه المظاهر أصبحت كأنها مشاهدات أمام بصري وأنا أكرر الآية وكأني في عالم غير عالمنا ، عالم الجبال ، عالم الحكمة ، وخيل لى انى خرجت من كل هم وغمّ وخزن وألم لأن هذه عوارض عالم الحس والآية أحضرت لى عالم الخيال ، أو عالم المثال ، أو عالم البرزخ ، عالم لا كدر فيه ولا شقاء ولا أعداء ولا منافسين ، وما أجل قيام الليل ، فإذا لم يكن فيه إلا هذا الجمال كفى ، وما أحسن الصيام فهو يصنى النفوس ويذهب عنها البؤس . وما أجل الذكر . وما أحسن الفكر

ف نظرت فى الأجار اذا هى لا تقبل الا لتهاب مع انها مشحونة بالنار . كيف لا وفى كل مائة رطل من الأجار (٤٨) رطلا من الاكسوجين ولن تكون نار ولا لهب إلا بالاكسوجين وهذا مصداق قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - وانما لم تحترق الأجار لصلابتها ومتانتها . ثم نظرت فى نحو الحديد من كل جسم يعاوه الصدا فوجدت أن ذلك فيه احتراق فان الاكسوجين يأخذ فى التزواج والاتحاد والائتلاف مع الحديد ولكن ذلك الاتحاد والائتلاف والزواج لا تصعبه زينة ولا فرح . فالزينة هى اللهب والفرح هى الحرارة وهذه هى التى اعتادها الانسان متى أراد البناء بعروس أظهر الزينة والسرور والفرح . هكذا اذا أراد إيقاد النار زوج الاكسوجين بعروس فتلك العروس إن كانت عجوزاً شمطاء كالحديد لم يكن فرح ولم تكن زينة بل يتم التزوج ببطء فيكون الصداً وذلك كعاشرة هذه الجوز . وان كانت العروس خفيفة الروح شابة فهناك الحرارة وهناك اللهب . وانما يحصل اللهب بازدياد الاكسوجين مع الاودروجين ومع الفحم . وهذان العنصران يقيمان معا فى كل نبات وكل حيوان . فهما فى الحطب والخشب والفحم الحجرى والزيت والدهن والورق . فتفى قربت النار من الورق اشتعلت الحرارة وظهر اللهب وأخذ الاودروجين والكربون الساكنان يظهران ويريدان التخلص ولكن هيهات هيهات فيقعان فى قبضة الاكسوجين ولا يفلتان وهناك يتم الزواج

الاودروجين المذكور جزء من أجزاء الماء وهو متحد مع الاكسوجين فيه فهو يحبه اذا صادفه فى الورق والخشب وغيرهما . والايدروجين أيضاً داخل فى تركيب الغاز (الايدروجين المكرين) أعنى أودروجين مزدوج بالفحم واسمه (غاز الاستصباح) وهو الذى تناربه الشوارع والأزقة والحارات والمخازن والحوائط وهو يجرى فى أنابيب تستمد من احتراق الفحم فى أفران معدة لذلك وهذا معروف مشاهد . والاودروجين أخف من الهواء (١٤) مرة ونصف مرة ولذلك يجاونه فى الطيارات فتخف وتطير فى الجولانها أخف من الهواء . هذه هى النار وهذا سرها . والنار من أعجب العجيب فى هذه الدنيا والناس يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون جلالها وبهجتها . والسبب فى ذلك انها مبدولة لهم بلاتعب ولا نصب مع ان ما تقدم فى آخر سورة ﴿يس﴾ من الصور المرسومة لقوم متوحشين يوقدون بها بشق الأنفس يدل على أنها كانت مستعصية على النوع الانسانى وكانت أتمن مما على الأرض وما فى باطنها من جواهر وما فى البحار من لآلى حتى ان زرادشت قال انه جلبها من السماء ومصرّ فى طريقه بجبال هماليا وكانت هذه معجزة له عند أتباعه فى بلاد الفرس .

وأخذوا يعبدون النار وهي مقدسة . لماذا هذا ؟ لعزتها ونفاستها إذ ذاك . وهكذا زعم الروم أن بروموطيه اختلست النار من عبادها (بشديد الباء) وسترتها عن أعينهم وأهدتها لأناس غيرهم ، فكان الرومانيون يقدسون النار كما يقدسون الفرس ، ولها سدنة يقومون بخدمتها ويحافظون على دوامها ، فلما أن صارت اليوم سهلة الحصول زالت تلك الهيبة من النفوس والعظمة

هذه هي النار ، وهذا تاريخها ، تاريخ النار تاريخ الحياة ، فلهب النار وحرارتها يرجعان للتفاعل والتزواج ونتيجة اتحاد العناصر أن يكون هناك نبات وحيوان وانسان كلهن ناشأت من ذلك الاتحاد ، ويدوم ذلك التفاعل مدة ، ومتى بطل التفاعل بطلت الحياة . إذن النار سر الله في أرضه

### العلوم والمعارف

ليس في الأرض علوم ولا معارف إلا على نمط إيقاد النار ، وهل المعارف إلا ازدواج بين القضايا الذهنية إذ تكون مقدمتان ومنهما تكون النتيجة ، أليس ازدواج القضيتين في النفس يعطى فكرة كأنها حرارة وتكون النتيجة كاللهب ﴿ وبعبارة أقرب لما نحن فيه ﴾ ان آراء علماء الغرب والشرق متى ازدوجت في نفوسنا حصل لعقولنا نتائج وهذه النتائج يصحبها نشاط في مقابلة حرارة النار ويكون سرور في مقابلة اللهب إن انشراح الصدر بالمعارف خير من الدنيا وما فيها ، واذن يكون مافي الأرض من دهن وزيت وخطب كل هذه نشبه بها آراء علماء اليونان والرومان والألمانيين والفرنسيين والانجليز الذين تقدم ذكرهم . ثم إن قلب هذه الآراء وبحثها واستخراج نتيجة تفهيمها العقول واحدة ويفرح بها أهل العلم في العالم كما سيأتي في الفصل الثالث إن شاء الله أشبه بازدواج هذه المواد وظهور الحرارة واللهب منها واشراقها للعيون ثم انى بعد أن فرغت من فهم هذه المعاني في الآية أخذت وأنا لا تزال أكررها في الصلاة أفكر في معناها وأقول : إن موسى قال لأهله امكثوا إني آنست نارا ، ورجا أن ينال منها أحد أمرين : الأمر الأول لأهله ، والثاني له هو . فأما الذي لأهله فهو القبس لأجل الاستدفاء بالحرارة . وأما الذي له هو فهو أن يرى هاديا يهديه للطريق في الجبل ولله فيعرفه طريق الوصول اليه كما قاله بعض المفسرين . إذن موسى عليه السلام قسم فوائد النار بينه وبين أهله ، فهكذا المفكرون في المسامير بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله عليهم أن يتخذوا علوم الأمم كلها مباحث لهم ويستخرجوا منها أولا المنافع المادية في مقابلة القبس الذي ذكره موسى وثانيا المنافع العلمية والهادية الخلقية في مقابلة هداية موسى . ونتائج ذلك لأم الاسلام أن يعيشوا بسلام وسعادة واذا ماتوا لقوا ربهم وقد آتموا ما عليهم ، وهذا في مقابلة قوله تعالى - فلما أتاها نودي ياموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى -

كل هذا أقوله وهي مصغية الى سامعة لى وكلما ازددت إضاحا ازداد وجهها إشراقا . هناك قلت لى : هل هذه المعاني تفسير لآية ؟ وضع هذه الفكرة . قلت كلا ، إنما هي معان تخطر للنفوس عند قراءتها ، والا فعنى الآية يعرفه العامة والخاصة ، وهذه تسمى المعاني الاشارية أو الرمزية التي تخطر للنفوس على حسب استعدادها . واذا كان هرون الرشيد قتل البرامكة وأمعن في ذلك حينما سمع المعنى يقول :

ليت هذا أنجزتنا ماتعد \* وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة \* إنما العاجز من لا يستبد

فهكذا تفهم العقول الحكيمة المعاني التي تناسبها حينما تسمع القرآن من باب أولى ، والقرآن أولى من كتاب ﴿ كليله ودمنه ﴾ بالحكمة والعلم وهذا أمر واضح لأولى الألباب . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في القبس وفهمه من الآية في الصلاة والحمد لله رب العالمين

### الفصل الثالث

في جلاء الحقائق العلمية وتبيان الصواب في آراء هؤلاء العلماء العلمية والعملية أى النظرية  
والخلقية أى معرفة الله تعالى وعلم الأخلاق ﴿وبعبارة أخرى﴾ - إن الذين قالوا ربنا الله ثم  
استقاموا - الح وهي آيتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

ههنا أخذت أستعرض آراء علماء أوروبا الحديثة وآراء القدماء وأفكر في الماديات والروحيات . وكيف  
نسمع قوما يقولون « لا وجود إلا للمادة » ويقول آخرون « لا بل الموجود هو الروح »  
وبينما أنا أفكر وهي إلى شاخصة إذ لاحتلى التفاتة إلى وجهها الجليل فأخذتني الدهشة واعترتني الغشية  
وغابت عنى الحواس ولم أشعر بما حولي ، فلعمرك ما أدرى كم ساعة قطعتها وأنا في غشيتي ثم أحسست بيد  
ناعمة تمر على وجهي ورائحة عطرية لم أشم مثلها مدة حياتي عطرت المكان ، إذا هي قد أخذتني بين يديها  
لتوقظني ، فما أنستها بعد الغشية حتى قلت ما قاله ابن الفارض

ما بين معترك الأحداق والمهج \* أنا القليل بلا إثم ولا حرج  
ودعت قبل الهوى روحى لما شهدت \* عيناي من حسن ذلك المنظر البهيج

فقلت نعم لا إثم ولا حرج - لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلا سلا - . فقلت ياسيدتى  
أخبريني بالحق ؟ أنا الآن في عالم الآخرة ، أنا لا أعرف ما أنا فيه ، إن هذه المعاني التي تجول بخاطري لم أعهد لها  
في أيام حياتي ، فلعلى مت ؟ فقلت هذا صفاء نفس لاموت ، وعند الموت تكون حالك أرقى من هذه الحال  
بملاحدته . فقلت : ولكن ما هذه الحال ؟ قالت : ألم أقل أنك في حال البرزخ والمثل والخيال . فقلت :  
وهل هذه الحال لها وجود ؟ قالت : هي أصل الوجود والصور الأرضية فرع . فقلت : أنا إذا استيقظت وأخبرت  
الناس بذلك طالبوني بالبرهان . فقلت : أتذكر أنك أيام الشباب رأيت صوراً جميلة . قلت نعم . قلت فهل  
ذو تلك الصور الآن لا يزالون يحاومونها . قلت : كلا فهم من أصبح في القبر ربما ومنهم من أصبح عجوزاً  
وشيخاً هرماً أكل الدهر عليه وشرب وبيض شعره وبيس جلده وانحلت عراه . قلت فهل تغيرت هذه  
الصور الجميلة في خيالك ؟ قلت كلا إنى أراها في نفسى تامة الجمال كما كانت لم تتغير . فقلت هذا مثل واحد  
ضربته لك لتعلم أن جميع الصور التي ترونها في المادة التي تتخيلونها باقية في عقولكم إلى أمد الدهر ،  
وبترا كمها تنتج أخلاقاً وعوائد وسعادة وشقاء على حسب ما تقورت - كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً -  
- بل الانسان على نفسه (بصيرة) - وهنا ابتسمت ابتسامة وأضاء المكان بالنور وعميق العبير . ثم قالت :  
إن الوجود الأصلي إنما هو محافظته النفوس ، فأما وجود المادة فهو تبعي لأصلى ، ألم تركيف لا يكون عمل  
إلا بعد فكر ، فهل الهرم ظهر في الوجود إلا بعد رسم في الخيال ، وهل الكرسي والباب والشباك والآلة  
البخارية والقطار السائر في الأرض والسفن في البحار والمنطاد في الهواء وكذا الطائرات والجيوش المنظمة  
في الجو وفي الأرض وفي البحر برزت في الوجود إلا بعد أن رسمت في صحائف الفكر فكان إبرازها للعيان  
بعد ظهورها في الأذهان . فاذا حرق الكرسي والباب والشباك وحطمت الطائرة وهزم الجيش وتفرقت  
جوعه فان صورها تبقى في الأذهان . ألا ترى أن أخبار معارك هنيبال وحروب رومه وقرطاجنه تنقلها القلوب  
وتداولها الألسنة وتلقاها الأجيال مع ان تلك الأمم قد زالت من الوجود وخلقتها أمم آخرون من نسلمهم  
أومن أمم أخرى ، إذن الأشباح المنظورة نتائج الصور المعقولة لافرع لها ، أولست انك قد ذكرت في التفسير  
في غير ماموضع أن هذا العالم كله حركات في عالم يسمى الأثير ، وما الأثير إلا اسم تجهلون معناه ، وما هو إلا  
أشبه بالخيال ، ويؤيد هذا نظرية (اينشتين) إذن لامادة ، وغاية الأمر أن هنا حركات مختلفات الأعداد

والأحوال بها ظهر للعيون وللحواس أشباح . فقلت : إذن هذا تأكيد لمذهب الروحانيين . قلت هنا أرواح  
وهنا أجسام ، إن المواد لها وجود في درجة الحواس فهي موجودة معدومة هي مترددة بين الوجود والعدم  
فأما عالم الصور العقلية فهي موجودة أبداً - وإن الدار الآخرة هي الحيوان - . فقلت : وهل هذه آخرة ؟  
فقلت : إن عالم المثال الذي أنت فيه الآن مقامة لعالم الآخرة ، ثم تبست وقالت : ولكن أنت الآن لم تمت  
فأنت حي . ثم انها فجأة قالت استودعك الله ، فراعتني هذه المفاجأة وقلت .

أملت حيث هم قامت فودعت \* فلما تولت كادت النفس تزحف

فقلت أنا ما ودعتك إلا وأنا واقفة بما لديك من الهبات العلمية ، وما منحك الله من الحكمة ، وانك  
ستلقى للناس حقائق ورفائق حتى يعلموا أن آراء الفلاسفة ليست مقدسة وأنا مطلعة على قلبك أقرؤه كالصحيفة  
أمامي ، وانك ستقول للناس قطعية « إن كل فيلسوف له رأى » فهذا الرأى راجع لحال خاصة \* وبعبارة  
أخرى \* ان أنظار هؤلاء الفلاسفة جزئية لا كلية ، ومتى أوضحت كل قول وأرفهت سببه عرف الناس أن كل  
واحد له حق من وجه واحد ولكنه باطل من وجوه عدة ، هذا كله ستقوله أنت ، فأنصرتي الآن يكون  
بعد ما خبرت قلبك وانك ابن مجدتها (١) وأخو عذرتها ، وجذيلها المحكم ، وعذيقها المرعب . فقلت : ولكني  
لا أطيق فراقك ، ومتى تمت وأنا لم أتم ما شرعت فيه من انى أسمعك ما سأكتبه في هذا المقام ينالني ما لا يطاق  
من إهم ، وان إصفاك لى وسماحك لكلامى وان كنت مطلعة على ما فى قلبى يحدث فيه مسرة لأن إصفاء  
المحبوب لقول المحب أشهى اليه من الحياة وأعز عليه من روحه كما فرح موسى عليه السلام بقوله لرب العالمين  
وهو يعلم ما فى نفسه - هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها ما رب أخرى - ويجتد فى  
قلبي حكمة إذ أطمئن على ما سأكتبه وأثق بما ألقى في هذه المسألة التى حار فيها أهل الشرق وأهل الغرب .  
فقلت : لاترع قد أجبنا طلبك ورجنا تضرعتك فأتهم ما شرعت فيه

وهنا حوت من شدة الوجد والهيام ، كأنى فى أضغاث أحلام ، وتذكرت قول ابن المعتز فى الشرق :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا \* على الجود كنا والحواسى على الأرض

يطرزا قوس السحاب بأصفر \* على أخضر فى أحر تحت مبيض

كهيئة خود أقلت فى غلاثل \* مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول إبراهيم بن سهل الاسرائيلى فى الأندلس

أشمس فى غلالة أرجوان \* وبدر طالع أم غصن بان

وتفر ما أرى أم نظم در \* ولحظ ما حوى أم صارمان

وقلت فى نفسى هذا أوان الجذل والغزل فى صور لا تفتى ولا تزول ، فأما فى الأرض فاتها صور زائلة وهذه هي  
السعادة التى لانهاية لها ، فان هذه الحسناء الهيفاء قد ازداد جمالها بضع مرات وهي تزداد بهجة وجمالاً وحسناً بهاء وورقة  
إن الجمال فى أهل الأرض لم يجتمع لاصريء قط ، فاذا أشرق وجه الشباب بالجمال ، فالهيام إنما يكون  
بالظواهر غالباً فيه ، واذا أضاء قلب الحكماء والعلماء أحبهم تلاميذهم وأغرموا ذلك الغرام بيوطنهم لا  
بظواهرهم لأنهم لا يستأهلون لذلك الهيام والحب إلا بعد استكمال قواهم الداخلية وتمام عقولهم وعلومهم ،  
ولكن لم ير أحد من أهل الأرض جمالا كما أرى أنا اليوم ، فالوجه مشرق والروائح عبقه لم أرهما نظيراً على  
الأرض ، والجمال يزداد على مدى الساعات ، والحكمة والعلم يضاحيان حكمة أ كبر الحكماء وعلم العلماء  
هنالك أشارت لى ان أشرع فى تحقيق الحق فى الآراء المتقدمة كما تقدم . فقلت : « إن الناس اذا

(١) هذه أربعة أمثال تضرب لمن هو كفه للشئ ، وهو به جدير بحجة كسجدة ، وعذرة بوزن غرفة

وجذيل مصغر جذل ، وعذيق على وزنه

أرادوا أن يقفوا على جلية الحق فليظنوا لأنفسهم ، وذلك من ﴿ وجهين \* الوجه الأول ﴾ من جهة الحواس الخمس والعقل وذلك للمعرفة ﴿ الوجه الثاني ﴾ من جهة العواطف والشعور وذلك للأخلاق

### الوجه الأول معرفة الانسان من جهة حواسه الخمس والعقل

إن حواسنا خمس : أذناها اللمس ، وأعلاها البصر ، وفوقها كلها العقل :

(١) أما اللمس فأنما يستمد معرفته من المواد المحيطة به مباشرة ، فهو إذن كالأعمى يتلمس ما يحيط به  
(٢) وأما الذوق فأنه وإن كان كاللمس ففيه مزية أرقى ، وهوانه يصطفى ما هو أليق للغذاء ، ولا يقبل إلا ما اختاره بخلاف اللمس فهو أعم

(٣) وأما حاسة الشم فهي أبعد مدى وسلطانها يكون على المسموعات اللاتي هي ذرات منفصلات من المواد والهواء السفير بين حاسة الشم والمشموم ، إذن هذه واسعة الأفق ممتدة الأكناف شريفة فيها لطف به اقتربت من عالم الأرواح

(٤) وأعلى منها حاسة السمع فهي أبعد مدى ، وأشرف مرتبة ، وأعلى منزلة ، وسلطانها يحكم في الهواء وحركته لاني ذرات متناثرات من المادة فهي إذن أقرب من الشم الى عالم الأرواح

(٥) وفوقها حاسة البصر فهي لاسلطان لها على عالم المادة ولا صلة بينها وبينه فلا تتصل بنفس المادة كحاستي النوق واللمس ، ولا بذرات طائرات منها كالشم ، ولا بلطف الهواء كالسمع بل سلطانها في عالم متوسط بين المادة وبين الروح وهو عالم الأثير الذي يحمل الصور الضوئية من المادة ويوصلها اليها . فتري الأشباح والصور والأشكال وقد امتد سلطانها الى أبعد غاية . فإذا كان السمع لا يعلم إلا ما كان في عالم الهواء والهواء محدود لا يتجاوز (٥٠) ألف كيلومترا فإن البصر يمتد سلطانه الى أبعد ما كان في هذا الجوّ الفسيح . فهو يرى الشمس على بعد هائل عظيم بحيث تصل القبلة لها في ١٢ سنة ويصل لها القطار السريع في (٣٥٠) سنة . وبعد الشمس الهائل لا يقطعها النور في أكثر من (٨) دقائق و (١٨) ثانية . ووراء الشمس كواكب وشموس وسدم رأت العين أنوارها في أبعاد شاسعة تقدر بسير النور لابسير القطار ولا بسير قلة المدفع مائة ألف سنة بل مائة مليون سنة وأكثر . إذن تبين أن العين أعظم الحواس سلطانا وهي تحكم في عالم الأثير الحامل للنور فعالمها أقرب الى عالم الأرواح

### قاعدة

وهنا ظهرت لنا قاعدة هامة جدا « إن كل حاسة وهبت لنا لن تنفصل عن عالمها فهي به متصلة اتصالا يناسبها . فاللمس متصل بعالم عظيم وهي المواد المحيطة بنا وهكذا الذوق وهكذا الشم دائماً ملاصق للهواء وكذا العين والبصر يشرف على عالم أوسع وأوسع . وكلما ارتقت الحاسة عما قبلها اتسع عالمها والعين بلغت النهاية في اتساع عالمها حتى أمانا بالمنظير المعظمة لم تقدر المدى الذي تراه العين في الاتساع والعظمة والاطافه المتناهية وهي لطافة النور في عالم الأثير

### (٦) - العقل

وهنا أن نبحث في حاسة فوق هذه الحواس . نعم هذه الحواس تحضر الصور وهذه الصور تخزن في خزائن الدماغ وهناك يحصل ازدواج الآراء وتحصل نتائج . فياليت شعري أي عالم اتصل بالعقل فأعطاء نور المعارف الخاصة به وقل له : « خذ الظواهر البسيطة الآتية من الحواس الخمس وتصرف فيها واستخرج في الحساب وفي الهندسة وفي الجبر وفي الكيمياء آلاف القوانين » . إن هذه القوانين لا وجود لها في صور المادة الواصلة للحواس الخمس . فن أين أتى ذلك العلم للعقل ؟ أجا له من تلقاء نفسه ؟ إذن فلماذا نرى الحواس

كلها لاعلم لها إلا بما حو لها ولكل حاسة عالم يناسبها ويشا كلها وهي درجات بعضها فوق بعض وأرقاها البصر وعالمه وسط بين المادّة والروح - وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا - . إن العقل حقا له اتصال حقيقي بعالم عقلي وهو أوسع من عالم النور بملاحد له بل هو عالم لانهاية له قياسا على ما قدمنا ، إذن الانسان يجلس وقد وضع القلم في يده وأخذ يكتب ما يعلى عليه عقله ، فالقلم متصل باليد والعقل متصل بعالم عقلي وينبوع منه يستمد الفكر ، واتصال العالم العقلي بعقولنا كاتصال القلم بأيدينا ، وكما أن اليد جسم كثيف اتصلت بجسم كثيف يليق لها وهو القلم هكذا عقولنا متصلات بعالم لطيف تستمد منه استمداد العين من الضوء والأذن من الصوت وحاسة الشم من الروائح في الهواء

وهذا البرهان لا يرد عليه ما روود على أفلاطون إذ استدلى على عالم المثال وجوده كما تقدم بأنه مقيس على المحلوقات الأرضية التي كانت الشمس سبب وجودها وسبب ظهورها لعيوننا وهدايتنا لها . فالتة في مقابلة الشمس وعالم المثال في مقابلة المحدثات بسبب ضوئها وهداية الله لعقولنا كهداية الشمس لعيوننا وعالم المعاني كالجمال والخير والعدل والعظم والقوة وغيرها عالم لا يتغير باق كما ان الله لا يتغير و باق ، والحوادث الأرضية تفتى لأنها وجدت بواسطة عالم يفتى ويتغير وهي الشمس . وهذا البرهان الذي قاله أفلاطون لم يكن مقبولا عند أرسطاطاليس ففتى عالم المثال كما قلناه فيما تقدم . وقال كلا ، مم كلا . إن عالم المثال لا وجود له والعالم العقلي غير موجود وإنما الموجود عالم المادّة ، ومجرد النظر للمادّة والصورة كاف في أن عقولنا تدرك القوانين ، وهذا هو السبب فيما وجد مرسوما في الصورة التي رسمها الرسام الايطالى التي تقدم ذكرها من أن أرسطاطاليس يشير الى الأرض وسقراط يشير الى السماء ، وبسبب هذا اختلف الأحزاب بعد أرسطاطاليس . وقد تقدم الكلام على الرواقين والأيقوريين وكيف وقع هؤلاء في الحلول وشكت (بتشديد الكاف) طائفة وألحدت أخرى وهكذا مما تقدم في هذا المقام

وبقى العلم على هذا المنوال حتى جاء العصر الحديث وظهر العلماء في أوروبا وفيهم يقول الاستاذ (بارتلمى ساتهليز) مترجم أرسطو من اليونانية الى الفرنسية في القرن الماضى وهو التاسع عشر في صحيفة (١٠٣) من المقدمة المترجمة ما يأتى

« بعد الرواقية وبدون أن أقف على شيشرون ولاعلى سنيك الرومانى أقتحم عشرين قرنا وأمضى الى (كنت) أكبر أخلاقي في الأزمان الأخيرة ، اننا نجد من نظرياته خليطاً من المذاهب الثلاثة الخ » أى مذهب أفلاطون ، ومذهب أرسطو ، ومذهب الرواقين

أقول : ولقد قدمت في هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (سنتلانه التليانى) ومثله (سبنسر) الانجليزى يقولان كما يقول جميع العلماء منهم : « إن فلاسفة القرون المتأخرة بالنسبة لسقراط وأفلاطون كالبقية بالنسبة للفيل في مثل هذه المواضع الشريفة الراقية » وهاهوذا الاستاذ (بارتلمى) يقول كذلك في مواضع كثيرة من كتابه حتى جعل علماء أوروبا مدينين لليونان . كما ان العلامة (سديوالقرنسى) المؤرخ جعلهم مدينين للأهم العربية الاسلامية ، وكل قال على مقدار ما وصل له من العلم . إذن (بارتلمى) لا يرى علماء نبغوا في علم الأخلاق بعد عشرين قرنا إلا الاستاذ (كانت) ، فاذا يقول فيه ؟ يقول في صحيفة (١٣٦) مانصه : « اذا كان من اللازم ترتيب هؤلاء العظماء الذين حلت أفكارهم فاني لا أتردد في أن أضع العلامة أرسطاطاليس في الصف الثالث والاستاذ (كنت) في الثانى وأفلاطون في الأول ، وبني ذلك الترتيب على الاعتقاد لأن أرسطو لم يتكلم في مستقبل الروح ولا في علاقتها بالله وجعل لسعادة الانسان مدخلا كبيرا في الأخلاق مع ان الفضيلة وعمل الواجب هو الأولى بالرعاية . وقال : إن (كنت) وان اعترف بالله وبيقاء الروح فان دليله ضعيف جدا أقل من دليل أفلاطون ، فان (كنت) يقول : اذا كان الانسان يسعى لاسعاد

نفسه من جهة ولعمل الواجب لغيره من جهة أخرى فان العمل للواجب قد يتعارض مع العمل لنفسه ،  
وهناك لاينال مطالبه في الحياة الدنيا . إذن الحياة قاصرة هنا فلا بد من حياة أخرى يرقى فيها ويكون الخلاود  
وهناك يكافئ الخالق كلا بما فعل ،

إذن الاستاذ ( كنت ) جعل الاقرار بالله وبقاء الروح تابعين للقانون الأخلاقي ، وهذا ضعف ظاهر  
ولكنه على كل حال أرقى من آراء أرسطاطاليس وان كان أقل من آراء أفلاطون . هذا مجمل الكلام الذي  
ذكره وأوضحه أيما إيضاح في المقدمة المذكورة

وأنا أقول : ههنا آراء أفلاطون وهي الصف الأول ، وآراء ( كنت ) في الصف الثاني ، وآراء أرسطو  
في الصف الثالث . وقد عرفنا فيما تقدم أن آراء أفلاطون وهو في الصف الأول لم يعبأ بها أرسطاطاليس .  
وبسبب ذلك تحجبت الانسانية نحو عشرين قرنا من رواقية وأبيقورية وملاحدة أوروبية ، وظهر أمثال  
ليوكاروس وتوماس هوز في انكلترا ولامتريه في فرنسا وهكذا من الماديين ، لماذا ظهر هؤلاء ؟ لأن العلماء  
تحجبتوا من أيام أرسطاطاليس وهاموا فلم يجدوا من يحدثهم عن الحقيقة بأكثر مما قاله أفلاطون ، وأفلاطون  
عارضه أقرب الناس اليه وهوتليذه ، فأين يذهب الناس ؟ فلما جاء ( كنت ) أتى بمذهب وسط وترك برهان  
أفلاطون وتزل الى برهان ضئيل

هذه هي الآراء المنتشرة في أم الأرض ، وهذا آخر العلم فيها . فأما البرهان الذي قلته أنا الآن فليس  
يرد عليه من الطعن ماورد على برهان أفلاطون فضلا عن ( كنت )

لقد برهنت ببرهان لايقبل النقص وأقل ما فيه انه برهان الاستقراء فقد استقرينا الحواس فوجدناها  
متصلة بعوالم تحس بها ، فلماذا يكون العقل وحده هو الذي يقوم بعملية الاحساس من ذاته بلا عالم يحده  
مناسب له ، وهل يمد العقل إلا عقول تماثله وتناسبه ونسبته اليها نسبة الشم الى الهواء والسمع الى الهواء  
والعين الى الضياء

وأزيد عليه برهانا آخر وهو ان الأرض لم يكن في استطاعتها وعجزت أن تعطي النبات نموًا والحيوان  
هداية . إن النبات لن ينمو إلا بحرارة وبماء ، والماء لن يكون إلا ببخار ، ولابخار يشور إلا بحرارة ، وهذه  
الحرارة لم تستطع ابرازها الأرض فأرسلتها الشمس . ثم ان الحيوان محتاج الى أن يرى سبله في الأرض .  
والأرض لم تقدر أن تهديه نورا من لديها . إذن الأرض قد برهنت على عجزها في الحرارة وفي الضوء لنمو النبات  
والحيوان ولهداية الأخير . والضوء أيضا مساعدة في نمو النبات ( كما تقدم في سورة يس عند آية - سبحانه  
الذي خلق الأزواج كلها - لأن ضوءها يساعد المادّة الملونة في تعاطي الغذاء من الهواء )

وإذا عجزت الأرض عن أحسن الأمرين أي الحرارة والضوء لترقى أبنائها فهي عن أشرفهما أعجز وهو  
الادراك والعقل وغرائز الحيوانات . فاذا كان الضوء استعارته من عالم السماء فهي الى استعارة العقول والغرائز  
أحوج من عالم أطف من عالمنا

فهذان برهاتان قطعان يثبتان عالم الأرواح الثابتة ويرفهان هذا الانسان من الحضيض الذي وقع فيه  
واذن لايرد على هذين البرهاتين ما أورده أرسطاطاليس على أفلاطون ويبقى هذان سديمين من الطعن .  
وإذا كانا أثبت من برهان أفلاطون فهما من برهان ( كنت الألماني ) أكثر متانة وقبولا . واذن ظهر معنى  
قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - الخ . وثبت بالبرهان العقلي الركن المهم في علم الأخلاق وهو بقاء  
الأرواح ووجود الله تعالى . وذلك ان هذه النفوس الأرضية متى ثبت اتصالها بعوالم روحية تناسبها قاتا نقول  
هذه العقول الروحية لا بد من اجتماعها كلها بوجود أعظم منها ولا بد أن يكون واحدا كما ان أضواء الشمس  
مهما تكاثرت عددها فلها منبع واحد

وههنا تسقط تلك المذاهب المادية لأوّل وهلة وتقول لأمثال الاستاذ (كارل غت) القائل : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التي يفرزها الكبد الصفراء والكلية البول »  
 لقد أخطأت المرمى ولم تصب المحز ، لقد نسيت أن المخ عضو الاحساس الأعلى والأعضاء الحساسة لها أحكام غير أعضاء التغذية ، ذلك ان أعضاء الحس متصلة بعوالم خارجية وهذا عضو في داخل البدن . ثم قول له ولأمثاله : « نحن لانكذبكم لأنكم أشبه بحاسة اللمس فأحكامكم موجهة الى الدرجة التي وقفتم عندها والرجل الأصم الأعمى ينكر الصوت والضوء »

إذن ظهر أن فلاسفة الأمم كل يقول ما وصل اليه عقله لا غير ، وعلى الحكماء في الاسلام أن يدرسوا هذه العقول في هذه الأمم ويستخرجوا الزبد ليرفعوا هذه الانسانية المسكينة فقالت : لقد أحسفت كل الاحسان وأجدت كل الاجادة وبهذا ثبت البرهان على أساس متين ، فشكرتها . والى هنا تم الكلام على الوجه الأوّل وهو معرفة الانسان من جهة الحواس وما يتعلق بها وبه ثبتت المعرفة النظرية ، وهذا المقام سيزيد إيضاحا في ﴿سورة محمد﴾ ﷺ عند قوله تعالى - فاعلم أنه لا إله إلا الله - في الرسالة التي سميتها «مرآة الفلسفة»

### الوجه الثاني

البحث في الانسان من جهة عواطفه وشعوره

وههنا أقول : قد تبين بالوجه الأوّل أن حواس الانسان وعقله أشبه بمدرسة يتعلم فيها الناس الارتقاء في الأحوال والسعادات ، فن وقف عند الطعام والشراب وحب المال فهو من الطراز الأدنى لأنه لم يجاوز حاسة الطعام . ونرى الناس يسارعون الى السفر برا وبحرا ، لماذا يهجرون الأوطان ويتجشمون المشاق ؟ ليطلعوا على عجائب الأمم والبر والبحر ، وآخرون يتكون الفراش الوثير والطعام اللذيذ والروائح العطرية في بسايتهم ودورهم ويترددون على دور الصور المتحركة ومحال الغناء مفضلين لذة البصر والسمع على لذات اللمس والشم والذوق . إذن المحسوس كلما كان ألطف كان أشرف وألذ . إذن المحسوسات بالعقل ألطف المحسوسات وأشدّها وأشرفها ، فن قصر في فهمها ولم يشق الى ذلك العالم الأعلى فهو غيبي لم يدرس نفسه بهذا وبهذا وحده يفهم النوع الانساني كله أن الآخرة والأولى ندرسهما من أحوال أجسامنا ، وهذا من سرّ قوله تعالى - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وهذا الذي عرفناه في الوجه الأوّل تبعه بما وعدنا به في الوجه الثاني فنقول :

إن الطفل بعد ولادته نراه لا يعرف إلا نفسه ، ويظن أن كل من حوله مسخرون له ، ثم يأخذ جسمه في النماء وشعوره وادراكه في الازدياد . فاذا تكامل شعوره وتمّ نماءه أدرك أن له أمّا وأبا واخوة ومدينة وأن عليه حقوقا وواجبات فيكون له ذرية وتلاميذ وعشيرة وأمة ، ويحس في نفسه بحب لهم غريب ، وكلما ازداد عقلا ازداد شعورا بحب الناس حتى ان الفلاسفة والحكماء بعد الأنبياء أحبّ بنى آدم للناس يحبون لهم الخير على مقدار علمهم . وعلى مقدار ازدياد العلم يزداد الحب . وعلى مقدار النقص يكون نقص الحب للناس . ونرى هناك تناسبا عجيبا بين الأم نحو أبنائها وبين النبي والحكيم نحو أمتهم . فهذه تحنو على طفلها وتسهر عليه وتعطى للطبيب ما تملكه من مال وما عندها من حلي ولاتنام ولاتأكل ويلحقها الضنى وتبيت على الطوى مع انها قد تكون شابة فتية جميلة . ولولا هذا الطفل لأخذت زينتها وتبرجت بجلاها ولكن الرحمة الآخذة بمؤاذاها قهرتها وأخضعتها لهذا الطفل . ومحبو الأمم من الحكماء يعطفون عليهم هذا العطف عينه . وهكذا القواد الصادقون يقدون أوطانهم بأنفسهم . ونرى العالم يزهد في لذية العيش ويبيت ليله ساهرا ونهاره عاملا

ليفرح باسعاد أمته ورقى أبناءها ونجاحهم وفلاحهم . ولقد كنت في أول زمان شباني أقول في نفسي « أتخني أن  
أقف على الحقائق وأكون مجهولا لا يعرفني أحد ويكون ذلك مسرة لي » . ولما صارت سني أربعين سنة  
فأكثر كنت أتخني لو اني جلست في مكان وسمعت الأمة حولي فرحة قد أقامت الأفراح لانتصارها وارتقاها  
وأنا جالس لا يهلون مكاني وتكون غاية أمنيته أن أعلم ذلك وأستلذ به وإن كانوا لا يهلون

وعلى هذا الذي ذكرناه الآن تعرض آراء الفلاسفة . فإذا سمعنا (كارليل) يقول : « إن الانسان  
يعرف قيمة الخير والشر بمجرد الاطعام والشعور بدون حاجة الى تمرين » فذلك ظاهر في حال المرأة إذ تربي  
طفلها وفي حال الحكماء وعظماء الرجال . ومامن رجل أو امرأة إلا وعنده أثر من هذه الفريضة قليلا أو كثيرا  
فيقل في الجهلاء ويكثر في العلماء غالبا . فإذا رأينا (كارنزي) و(مل) و(بين) يقولون ذلك إنما يكون  
بالتجربة والتمرين فنقول : نعم إن معاشره الكرماء وقراءة توارثهم وما أشبه ذلك وكذلك تعود على  
الكرم . كل ذلك يزيد فيما انصف به الانسان بفطرته وهكذا بقية الأخلاق

وإذا قيل إن المقصد من الأخلاق هو سعادة الانسان نفسه وهي الاثرة كما يقول (ماكس سترنوتش)   
قلنا لا غرابة في ذلك ، وهذا حق لأن الطفل هذا شأنه ، ولكن المرأة تفدى طفلها بنفسها والحكيم والقائد  
كذلك . إذن هذان نظرا نظرا جزئيا كما تقول لأمثال (كارل نخت) القائل فيما تقدم : « إن المخ يفرز  
المعقولات كما تفرز الكبد الصفراء والكلية البول » إنك صادق بحسب ما وصل اليه عقلك وعقلك لم يترق عما  
يلمسه الأيدي بحاسة اللس ولو كنت مبصرا أوسمعا لعلمت ما علمنا . فأمثال (ماكس سترنوتش) نظروا  
نظرا الصبي في أول حياته يرى أن الناس مسخرون له

له حق وليس عليه حق \* ومهما قال فالحسن الجليل

هذه هي أخلاق الانسانية وآراؤها ذكرنا نموذجاً لتحليل قضاياها العلمية والعملية ورددنا كل رأي الى  
مقره ، فأراء العلماء في هذه الأرض أكثرها واجبات لأحوال خاصة . أما النظر العام فهو الذي يكون على  
نسق ما بيناه « وما كل مصقول الحديد يماني »

وإذا قيل : « إن السائق لسلكنا في أعمالنا هو الخوف من التعبير والذم أوجبنا مدح الناس فذلك  
قص . وإذا كان الخوف من الله أو الرغبة في ثواب الآخرة فهو أكمل ولكنه ليس في المرتبة العليا . أما  
إذا كان العمل لأحد أمرين إما حب العمل نفسه مع النية من حيث انه جميل ومحجوب ونافع كأولئك الذين  
يفدون الوطن بأرواحهم ، فهؤلاء يجدون في هذا الاقدام سعادة ، فهنا اجتمعت سعادة الناس مع سعادة  
الانسان نفسه . والمرأة التي تسهر ليلها على ابنها ترى في ذلك انها عملت واجبا أرضاها ولا ترضى به بديلا . وإما  
حب الله وطاعته بدون نظري ثواب أو خوف من عقاب . فهذا العامل هو الذي يكون كأنه في جنة عرضها  
السموات والأرض لأنه في كل حين يكون مستحضرا ذلك المقام الأقدس فرحاً به في غدوه ورواحه لا ينالي  
بالمستقبل بل يفرح بأنه قائم بواجب في حضرة ربه ويكون إذ ذاك كأنه بين يدي الله تعالى وتحدثه نفسه أن  
رب الدنيا هو نفسه رب الآخرة . ومثل هذه النفس تهجل لها السعادة في الحياة الدنيا فتكون الأعمال  
ممزوجة بالسعادة . وهذا الفريق موجود في الأرض الآن ولكنهم مجهولون ، يحسون أن الله ناظر اليهم ،  
وإذا وقفوا في العراء ظنوا انه أغرى النجوم الثاقبات لتتير الأرض فتذكرهم بجماله فيكونون حالا في حضرة  
وان كانوا في أجسامهم الظلمانية . فالسالكون للخوف عبيد مسخرون والسالكون للحب هم المقربون  
هذا تحقيق المقام . كل ذلك وهي صامتة لا تبدي حرا كما

فلما آتمت هذا المقال . قالت : لقد أجدت ووفيت المقام حقه على قدر ما يسعه ، وقد أذن الله بظهورها  
في هذا الزمان لأن الأمم منذ أكثر من عشرين قرناً لم تكن تستعد لها . أما الآن فان الانسانية أخذت  
تتقرب والعقول أخذت تنقيظ . وأنت من المهديين لرقبها والمجدين لاسعادها . ثم قالت : استودعك الله .

ووضعت يدها على صدرى وقرأت كلمات فلم أحس بشدة ألم لفراقها . ثم غادرت المكان وأنا لا أزال في عالم الخيال ، وهناك استيقظت فألفيتني في مكاني لم أبرحه ، وقضيت العجب مما رأيت ، وكتبته ليلة أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

وفي صباح يوم الاثنين أول ديسمبر حضر صاحبي الذي اعتاد أن يباحثني في هذا التفسير واطلع على ما كتبته . فقال : حيا الله هذه الروح التي ساعدتك على إبراز هذه المعاني ، فلقد حوت كل ما يعوزنا من الحكمة ، فهأى ذهجت آراء علماء اليونان وعلماء أوروبا وبها أدركنا ما وصل إليه فلاسفة العالم أجمع في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - وبهذا فهمنا معنى ماورد « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا »

فإذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمهما إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ووجدنا الآخر يعول على المادة في العلم والأخلاق ، ولكني أسألك في معنى السعادة عند أرسطاطاليس . فلذا كان هو لم يسلم بنظرية العالم المجرّد وخالفه الاستاذ (كنت) الألماني بعض المخالفة إذ أثبت الثاني العقل المجرّد ورتبه على أن قانون الأخلاق والسلوك يؤدي في نتيجته الى أن هناك عقلا مجردا لينال جزءه جزءا وفاقا ، فهل يكتفي الأول في السعادة بمجرد عمل الواجب واللذة العقلية به . قلت . كلا . ان أرسطاطاليس يقول : « إن السعادة يلحظ فيها جانب الأهل والأصحاب حتى جال الانسان نفسه » . فالسعادة عنده رأسها سلامة العقل ووفور الحكمة . ويدها ورجلاها الزوجة والولد والأصحاب والمال

وقد قرر ذلك الامام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه الاحياء وفصل السعادة الى ستة عشر نوعا وجعل للعقل أربعة وللأصحاب والولد والأهل أربعة وللأمور الخارجة عن هذا كله أربعة كالتوفيق والتأييد وما أشبه ذلك . ولاجزم أن ذلك يرجع الى رأى أرسطاطاليس . فقال : وما الرأى في هذا ؟ فقلت : إن الرأى عند الفلاسفة قد قدمته وهو أن الفكرة العاتمة الايثار وأن يجعل المرء نصب عينيه إسعاد المجموع . فأما هذه الأقسام التي زادها هو على السعادة النفسية وتبعه الامام الغزالي فيها فهي صالحة للسعادة والشقاء . فالولد والمال والأصحاب . كل هذه صالحات لخير الانسان وشره وهي تعين على عمل البر كما تعين على عمل الشر . إذن هذه آلات صالحة للسعادة فتزيدها وصالحة للشقاوة فتزيدها . وخير من أفصح عن ذلك هو (لغز قابس) الذي لخصناه في مواضع من هذا التفسير . وعلى ذلك لانصالح هذه الخيرات الأرضية للفرح بها . وكيف يفرح الانسان بها وهي معرضة للزوال فيكون الحزن والحزن شر وهذا سرّ قوله تعالى - إن الله لا يحب الفرحين - لأن الفرح يدل على قلة المعرفة بالحقائق . وهذا هو السبيل الذي انتقد بسببه بعض فلاسفة أوروبا الأخلاق عند أرسطاطاليس ، فنجد أن (بارتلمي) الذي تقدم ذكره في صحيفة (٩٨) من المقدمة التي ذكرها في النسخة المترجمة يقول : « انى أضع أخلاق أرسطو مع ما بها من عظم في مقام أنزل بكثير من أخلاق أفلاطون وسقراط . وان (بروكي) أقسى منا في حكمه إذ يرى أن أخلاق أرسطو إنما جرّه اليها مظهر معيات الملوك التي عاش فيها وليس صالحا إلا الى تكوين بطانة تهمهم ثروتهم أكثر مما تهمهم سعادتهم ، وأمراء كالاسكندر أشغف بالمجد منهم بالفضيلة » اه

وأقول أنا : فما ذكره الامام الغزالي في الاحياء تابعا أرسطاطاليس قد لطفه هو في الاحياء كثيرا واضطر لذلك فيه لأن فلسفة أرسطاطاليس هي الشائعة إذ ذاك . ثم ان أرسطو كما تقدم جعل العلم ليس راجعا إلا الى المادة لالى المثل الأفلاطونية . وقد تقدم شرحه مرارا . وهذان سببان فيما تقدم من أن روفائيل المصور صوروه في الفاتيكان مشيرا الى الأرض كما صور سقراط مشيرا الى السماء . إذن أرسطو كما أنزل العلم النظرى الى عالم المادة وجعله مرتبطا به هكذا جعل السعادة في الأخلاق لها ارتباط بالمادة

وأذكر كأيها الفكي بما كتبه في ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى - وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون - الخ فهناك ترى ملخص ﴿لغز قابس﴾ اليوناني الذي عاش في زمن سقراط قبل أرسطاطاليس بزمن ، وكان ذلك في نحو القرن الخامس قبل الميلاد

ويقرب منه من حيث هذا المعنى كتاب «الكوخ الهندي» المؤلف في القرون الأخيرة بالفرنسية وقد لخصته سابقا في هذا التفسير . فقال : «أى الفريقين يؤيد القرآن ؟ فريق القائلين بأن السعادة مادية ، أم القائلون بأنها معنوية ؟ فقلت : الفريق الثاني . فقال مادريك ؟ فقلت : - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - ، فقوله - ويؤثرون - الخ هو عين ما يقوله علماء الفرنجة فيما تقدم (التضحية) . ومن هذا القبيل الجهاد في سبيل الله ومنه - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم - الخ وكيف يكون المال والولد سعادة (كما يقوله أرسطاطاليس) في القرآن والله يقول - ولاتنجبكم أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كفرون - فإذا كان المال والولد عذابا كما في القرآن وفي صريح قول سقراط وقابس فكيف يكون سعادة ! فقال باللعجب إن حكم القرآن وأسراره هي نفس آراء أعظم الفلاسفة . وهنا أود أن سمحت أن أسألك في معنى بقية الآية فان ما تقدم كله في معنى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ لأن النظريات العلمية ترجع لقوله تعالى - قالوا ربنا الله - والنظريات الخلقية كقضية أرسطاطاليس وكنت وغيرهما ترجع الى - ثم استقاموا - فما معنى قوله تعالى - تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون \* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون تزلزالا من غفور رحيم - قلت : هذا المعنى تقدم في أول هذه المقالات . ألا ترى الى ما يقوله حكاء الأمم قبل الاسلام وبعده وقد نقلناه قريبا والمنقول عن علماء الصوفية بحر لاساحل له في مساعدة الله تعالى للصالحين والمسلمون قد برعوا في هذا والسبب في تلك المساعدة والمدد هؤلاء الصالحين انهم متى صلحت أعمالهم ، واستنارت عقولهم ، وعرفوا أن نفوسهم متصلة بعوالم مجردة غير مادية صاروا أقرب اليها وأصبحت عند عقولهم قريبة كقرب المادة من أجسامهم ، فهناك يحسون بالهام وبتحباب وبشائر ، ولا يعرف هذا إلا هم ، أما غيرهم فانهم محرومون من ذلك ، فمثلهم كمثل أكثر النوع الانساني من حيث مشاهدة الجمال ، فالجمال حولهم ولكنهم لا يفرحون به لأنهم محجوبون عن جمال النجوم والشجر والأنهار والبحار والأزهار ، ذلك لأنهم من يوم أن أتوا الى الأرض لم يسمعوا عن سعادة إلا سعادة المال والسلطان ولم تفتح لهم أبواب سعادة الجمال ، فأغلب النوع الانساني محرومون من هذا الجمال والاحساس به مع انهم يرونه بعيونهم وهم محرومون منه . ولا ريب أن المحسوسات بالحواس أقرب الى عقول الجمهور . فاذا كان الأقرب لعقولهم وهو الجمال لم يدركوه ولم يسعدوا به فكيف بما هو أبعد من حواسهم وان قرب من عقولهم وهو عالم الالهام والبشارة في عوالم عقلية متصلات بعقولهم وهذه العوالم صلة بينهم وبين ربهم . فهؤلاء هم المحجوبون بسبب أن أبواب عقولهم أقفلت بينهم وبين الأرواح العالية . فاذا أحسوا بالهام أورأورا أو رأوا فرأوها صباحا مثل فلق الصبح ثم رأوا مثلها صارا وتكرارا فانهم يقولون هذه مصادفات . واذا أغشيوا في حال الضيق أو ألهموا أصرا نافعا فانهم قلما يكثرثون له ويقولون هذه مصادفات وهم يجهلون انهم مغمورون في رجة الله وهو قريب منهم وهذه علامات قر به ولكن استعدادهم الناقص حجبتهم عن ربهم فلم تفتح لهم أبواب السماء . وهذا الباب يفتح للعامة بطريق الذكر والتقوى وللخاصة بذلك وبالتفكير والعلم

واعلم أن كثيرا من قرءاء هذا التفسير سيفتح لهم هذا الباب وهم المتوسطون في الفهم الذين لهم صفاء به يدركون البرهان الذي فتح الله به علينا فان أحدهم يجلس وقد أغمض عينيه وفكر فيرى أن روحه لطيفة

متصلة بعالم روحى تستمد منه . وهناك يحس أحدهم بأنه في عالم قدسى . وهؤلاء هم الفريق الذى ورد فيه الحديث « اعبد الله كأنك تراه الخ » فهذا باب من أبواب كأنك تراه . وهذه من أعظم درجات الناس فى الدنيا . فنحن لانرى الله بعين البصرة ولكن بهذا البرهان نراه بالبصيرة . وهناك درجة أقل من هذه وهى أن نعبد الله ونعلم أنه هو يرانا . وهذه درجة أقل من تلك لأنى اذا كنت أخطأ الله وجاله فى نفسى وفى كل ما هو حولى فان ذلك أشرف من أن أكون عبدا سوء فأعبده خوفا من ناره أو طمعا فى جنته وتكون عبادتى مبنية على تلك الأسباب مرتقبا منه إزاحة ناره عنى أو أن يدخلنى جنته . وخير من هذا أن أكون كأنى أراه فى الحياة فاذا مات فأتى أراه بعد موتى ورؤيتى له فى الآخرة أجل من الجنة وهو المعبر عنه بقوله تعالى - وللهنا مزيد - والمقول فيه - وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة -

ولما وصلت الى هنا فت وتوضأت وسجدت لله شكرا على نعمة العلم فى هذا المقام وصاحبى يشاهد ذلك فقال : لقد شرحت صدرى ، وصرت موقنا إيقانا تاما ، وأصبح المصور ميسورا ، والمجهول معلوما ، وعلمت أنا ما لم أكن ولا كثير من أمثالى نعم وكان فضل الله علينا كثيرا . فقلت : الحمد لله رب العالمين

### تذكرة

إنى غادرت القاهرة وتوجهت الى مزرعتنا بالمرج يوم الاثنين أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م وسرت على قدمى نحو أربع ساعات لجرّد الرياضة ، وهناك خطرت لى هذه الخواطر فكتبتها يوم الثلاثاء ٢ منه وهى :

### نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس

فى خلاصة ما تقدم هنا من الحكمة العلمية والعملية

ذلك إنما مثل النفس الانسانية مع حواسها كمثل الشمس مع سياراتها ، فكما أن للشمس سيارات عليا كزحل والمشتري تدور حولها ، وسيارات سفلى كالزهرة وعطارد ، هكذا للنفس مدركات عليا كالعقل والعين ومدركات سفلى كاللسان والذوق ، وباعتبار آخر ان المدركات ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قسم أعلى كالعقل . وأوسط كالعين . وأدنى كبقية الحواس ، فباعتبار التقسيم الأول كان الفلاسفة على قسمين : قسم أقرب الى المادة وهم المادويون ، وقسم هم أقرب الى العقل وهم الروحيون ، وكل لم يقل إلا ما وصل اليه جده واجتهاده لأقل ولا أكثر ، فالمدويون أشبه بالصم العمى لم يعرفوا إلا ما تلمسه أيديهم ويشمونهم ويذوقونه ، والآخرون لهم عيون ولهم عقول . والصورة التى رسمها روثايل فى القاتيكان مظهر لذلك التقسيم . فأرسطو للقسم الأرسطو وسقراط للقسم السقراطى . وباعتبار التقسيم الثانى يكون أفلاطون كالعقل والاسناذ كنت كالبصر وأرسطو كالحواس الملائسة لعالم المادة . ذلك ان برهان الأول فى إثبات وجود الله وخلود الروح أرقى من برهان الثانى وبرهان الثانى لا يحتمل المصادمة لأنه علقه على قوانين الأخلاق وأن من الناس من لا يتناولون مكافآت فى الحياة فلاجرم تكون للناس حياة أخرى وإله يجزى بالعدل . وبرهان أفلاطون رجع الى الشمس وما خلقه الله بسببها وهدايتها للحيوان وأن ذلك يقاس عليه وجود الله ووجود عالم المثال

وهذا هو خلاصة عقول الناس منذ (٢٥) قرنا ، فأولهم أفلاطون مع سقراط ، وهذا هو برهانه الذى نبذه أرسطو وعوّل على المادة والصورة فى برهانه بغافه تلاميذه ، فأخذت الانسانية كلها تتخطى الى وقتنا هذا فكان الرواقية والأبيقورية قبل الميلاد ، فالرواقية وقعوا فى الحلول ، والأبيقورية قالوا باللذة الروحية بالفلسفة . وتعالى الرواقية فى الفناء وفى البحث عن كشف ما وراء الحس

فأما بعد الميلاد فقد نشأت الفرق الثلاث . الاسكندرية والأثينية والسورية . وأشهرهم أفلوطين وشيخته بمدينة الاسكندرية وهؤلاء هم الأفلاطونية الحديثة

ثم انتقلت الفلسفة الى الأمم الاسلامية والأمم الاوروبية ولم يظهر بعد الرواقين في الأخلاق عند أوروبا إلا الاستاذ (كنت)

هذه خلاصة الأمم تجلت واضحة جلية ، وقد عرفت أهم آراء هذه الأمم كلها ، وعرفت براهينهم بغاية الجلاء والوضوح

أما تفسير الجواهر فقد أتى ببرهانين (الأول) المدركات كلها مغموسة مغمورة ومتصلة بعوالم تناسبها ، وهذه العوالم تكون أعظم وأطف وأجل وأوسع كلما كانت أرق ، فاذا وصلنا من أدنى الحواس الى أعلاها وهي الجنس ووجدنا هذه القاعدة مطردة فمن الجهل ومن البله ومن الحق أن نحرم المدرك السادس وهو أعلاها بل سيدها على هذه المزية وأن يكون متصلا بعالم يشاكله ويكون أعظم وأطف وأجل وأوسع من العالم المتصل بالمدرك الذي يليه مباشرة وهو العين . وهذا البرهان حديث النشأة لم يذكره أحد من هؤلاء الفلاسفة ، ولن يرد عليه أي اعتراض مما ورد على الاستاذ (كنت) ولا مما ورد على أفلاطون وسقراط ، واذن تستأنف الانسانية اليوم دورا جديدا في العلم والحكمة بعد هذا البرهان (البرهان الثاني) يساوي البرهان الأول في القوة ان لم يكن أقوى منه ، وذلك أن تقول ان الأرض عجزت عن إيجاد حرارة بها تثير البخار من البهار وتثير الرياح فيكون مطر من السحاب المحمول بالرياح ، وعجزت أيضا عن ضوء يساعد النبات على التغذية والحيوان على الاهتداء في فجاج الأرض ومسالكها والانتفاع بالحياة فيها ، ونجدها استعارت الحرارة واستعارت الضوء من الشمس ، فاننا نجد الحيوان لا يرى غذاءه ولا يميز عدوه من حبيبه إلا بالضوء ، وزى المطر والرياح لا يكونان إلا بحرارة باعثة ، وزى أوراق النبات لا تجذب غذاءها من المواد الغذائية في الهواء إلا بمساعدة ضوء الشمس لها (انظر ما تقدم في سورة يس عند آية - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها - الخ فهناك ترى الأوراق مرسومة مشروحة وتفهم ذلك هناك فهما تاما)

فاذا رأينا أرضنا عجزت عن إمداد أبنائها بالحرارة والضوء واحتاجت الى الشمس في ذلك فهي عن إمداد ما يكون عليها من حيوان بالادراك والفرائز والعوطف والعقول أولى ، ومن عجز عما هو أسهل وهو المحسوس بحواسنا من الحرارة والضوء فهو عما فوق ذلك مما تدرك عقولنا أشد عجزا . فثبت بهذا البرهان أن المادة لا تقوى على إحداث نفس أو عقل أو غريزة أو شعور في الحيوان لأننا وجدناها قد أظهرت عجزها ولم تسعنا بما هو أسهل وأقل عناء

فهذان البرهانان اللذان وضوحا تاما بهما طاحت تلك المذاهب البائدة وبهما تخرج هذه الانسانية من خطل الرأي والاعتزاز بالأقاب الفخمة العريضة الطويلة التي يفتخر بها الأحداث في المدارس فيظنون يمهون بسبب سوء التقليد بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير

هذا هو نهاية الكلام على الحكمة العلمية . وبما يلحق بهذا مسألة الحرية وهل نحن أحرار في أفعالنا واذا لم نكن أحرار فم العقاب ! واذا كنا أحرارا فأين هي تلك الحرية ! فأفلاطون أجل في هذا . وآخرون استدلوا على وجودها بما اتفق عليه العقلاء من التمييز في العقاب بين العاقل وغير العاقل وهكذا فدل ذلك على أن هناك حرية تتمتع بها ولا أطيل في هذا الآن

### الحكمة العملية

ملخص ما تقدم

(أولا) إن في الانسان إلهاما يميزه بين الحسن والقبيح في الأعمال كما يميز بين الجليل وغير الجليل في الأجسام والتجربة تعين الانسان على ذلك

﴿ثانيا﴾ إن غاية سلوكنا إما أن يكون فقنا الخاص بنا وهي الأثرة وأما أن يكون النفع العام  
 ﴿ثالثا﴾ ما الذي يحمينا الى تلك الأخلاق ؟ أهو صوت باطنى فى نفوسنا أم هو أمر خارجى كالخوف من  
 الله أو من الناس ، أو حب المدح ، أو حصول الثواب

هذه آراء الأمم ، أما ما جاء فى تفسير الجواهر فهو أننا كما فعلنا فى القسم النظرى إذ عوّلنا على النظر فى  
 المدركات الست للانسان هكذا فعلنا فى القسم العملى الخلقى وقلنا لننظر الفرق بين طفل يستخدم جميع مواهبه  
 فى الاستعانة بما حوله وبين حكيم ومحب لوطنه وأم ترضع ولدها وأب ينفق عليه ، فهؤلاء فى الثروة العليا من  
 العطف والاشفاق والرحمة والايثار وذلك فى الدرك الأسفل فى الحياة ، وطى ذلك يزول خلاف الفلاسفة إجمالا  
 فمن قال لا أعمل إلا لنفسى قلنا له : ها أنت ذا عرفت درجتك ، فأنت إما طفل ، وإما صبي ، وإما صراحق ،  
 والناس درجات لا حصر لها كدرجات الانسان فى حياته ، فهذا المثال لا يفرمذهبا إلا دخل فيه ، فمن قال  
 بالهداية الذاتية فهى مشاهدة ، ومن قال بالتجربة فكذلك ، ومن قال أخدم المجموع . فهامى ذه الأم مع  
 ولدها وهكذا فللمثال واضح جلىّ وقيمة الفلاسفة تختلف باختلاف معارفهم . وأذ كياه قرءاء هذا التفسير هم  
 الذين يكونون شهداء على الناس . ذلك لأنهم يقرؤن علوم الأمم لكنهم هم الذين يحكمون على الفلاسفة  
 بقولهم على منوال ما جاء هنا فى تفسير الجواهر . أما ترك هذه الانسانية تتخبط فى ديجور الظلام فهذا لا يجوز  
 ولا يصح ونحن خلفاء الله فى أرضه

### ﴿ جمال العلم فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴾

أقد ضربنا المثل بالانسان فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ورأينا أن قوته العقلية كما تتخذ الحواس  
 الخمس آلات لها فى اكتساب المعارف الجزئية تستمد من العالم العقلى الكليات والكليات هى العلوم الحقيقية  
 أما مدارك الحواس فهى قليلة جزئية ويعتريها الخطأ فان العين قد ترى الكبير صغيرا كالشمس . وترى الصغير  
 كبيرا كالأصبع فى الماء . وكم للحواس من خلع ولا يصلح تلك إلا العقل السليم  
 إذن كل ما عندنا من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها مستمد من عالم عقلى وهو مستمد من المبدأ الأعلى  
 الفيض القدسى كما تشرق الشمس بأنوارها على أرضنا وعلى السيارات الأخرى . فهكذا فى أخلاقنا وأعمالنا  
 وشعورنا وعواطفنا نقول ما قلناه فى القسم النظرى : « اذا عجزت المادة عن أن تمتد الأجسام بالحرارة  
 والعيون بالضوء فما أشد عجزها وأضعف قوتها وما أوهى حيلتها فى إلهام الأم حب ولدها والهايم الاستاذ حب  
 ارتقاء تلميذه وشوق نفوس الحكماء الى التأليف للأجيال المقبلة التى لم يروها ولن يروها ، فمن أين أت محبات  
 الأقارب والأصدقاء والأزواج والنزيرة ؟ بل من أين أت هذه الشهوات الطالبات ملابس وأغذية وأزواجا  
 وذرية ومساكن وملسكا عظيما ، ومن أين أت هذه البواعث الشديدة فى نفوسنا من المحافظة على العرض  
 والشرف والنجدة وحماية التمار ، فاذا قلنا ان ذلك من نفس المادة التى خلقت هى فيها ، وأن تلك العواطف  
 والحب والغرام والشوق كلها ناجت من نفس الطبيعة يكذبه أن هذه الطبيعة الميتة عجزت عن إحداث الحرارة  
 اللازمة لها وعن إحداث الضوء وبالأولى عجزت عن إحداث عقل وادراك ، فهكذا هى أشد عجزا عن إثارة  
 الحب والغرام والعواطف والشهوات

فثبت إذن أنه كما ان الحرارة تثير البخار من البحار وتثير الرياح ويحمل الأخير الأول فيكون مطر  
 ويحدث نبات وحيوان هكذا هناك فينا شهوة فى مقابلة الماء وغضب فى مقابلة الرياح ، وهناك لهث من أعلى  
 لامن الطبيعة يثير أنواع الشهوات لتتغذى وتلد وتلبس ونسكن ، ويثير الحمية فنحافظ على الشرف والمال  
 والعرض ، وهذا الباعث المسلط على نفوسنا أت من العالم الأعلى كما ان الإدراك فى القسم النظرى صدر منه ،  
 فصدور هذا الباعث هنا من العالم الأعلى القدسى فى مقابلة صدور الحرارة من الشمس فى العالم الهيسى والضوء

وإتارة السحاب والرياح ثم هداية الحيوان على الأرض ، ونتيجة ذلك كله البهجة والجمال والحسن والكمال  
 فإذا جلست أيها الفكي في خلوتك وفكرت في نفسك وأيقنت أن عقلك وجميع علومك لها اتصال بعالم  
 عقلي أنت فرع منه وهذا العالم العقلي أوسع من عالم النور وهو مستمد من الله ، فهناك تحس بأنك في عالم  
 جميل بهيج ، وإذا لم تتنهج بذلك ففكر حالا في جمال النجوم ليلا والشجر والزهر والأنهار نهارا وهكذا ترجع  
 الى ما ألهمت من عواطف ، وما منعت من شرف وحاسة وعفة وكال وحب عام لرقى نوع الانسان ورقى  
 أهلك وعشيرتك . وقد علمت أن هذه إن هي إلا قبس من ذلك الفضل العميم والحب الأعلى والاحسان  
 الكامل وأن إحسانك وحبك وعطفك كل ذلك مقتبس من العالم القدسي وأن العوالم التي يستمد منها عقلك  
 هي نفسها التي تستمد منها عواطفك الحب والاحسان والرفق والغرام بالنفع العام . فترى نفسك إذن كأنك  
 عالم صغير وتفرح بأن لك صلة بجمال لاحد له وكال لانهاية له فترقب الموت ارتقاب الفرح بالكمال المقبل على  
 سعادة لانهاية لها . ولن يتم لك ذلك الحب والغرام إلا باطالة التفكير والبحث وتصفية النفس وكثرة الصيام  
 والقيام . هذا هو سر هذا الانسان . وهذه هي سعادته . وهذه هي النفس المطمئنة التي نوديت فقيل لها  
 - يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي -

### خطاب الله عز وجل شكر اله

لك الحمد اللهم على الاطعام والالهام والحكمة والجمال ونعمة العلم والنور . علمتنا وأثرت بصائرنا فنحن  
 نعلن شكرنا ونثنى عليك الثناء كله . أرىنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا . نظرنا في قفوسنا وفي الآفاق فألفينا :

(١) أولا صورا جميلة في الكواكب وفي الزروع والشجر والنهر والقمر وفي المعادن والحيوان وفي الانسان

وجمال وجهه في محاسن الخدين والعينين والأنف والقم

(٢) ثانيا أثرت في أنفسنا شهوات لا قوام لحياتنا إلا بها . وهل نعيش إلا بالطعام والشراب واللباس

والمسكن . وهل نحافظ على هذه الهياكل الجسمية إلا بحفاظ يحفظها وهي القوة الغضبية التي بها

ندافع الأعداء من الخارج ونهذب أنفسنا من الداخل ولا نفرط في حقوق الجسم والحفاظة عليه

بإتارة الحية لأجل حب البقاء

(٣) ثالثا جعلت لنا عقلا ينظم القوتين السابقتين فهو نبراسهما ومعلمهما ومهندسهما ومنظمهما

ولما عز علينا فهم تلك الدقائق ومعرفة تلك القوى العاملة فينا أرىنا ما في الآفاق فعرفنا الحقائق . أرىنا

الماء وأرىنا الهواء ومنهما تثير الحرارة البخار وترجي الرياح ويحمل الريح الماء على منته ويسوقه الى الأرض

البعيدة مرغما لسقي الأرض فيكون النبات والحيوان ، فيكون الضوء مساعدا على تغذية النبات أولا وعلى

هداية الحيوان ثانيا

فهما عالمان : عالم حامل ، وعالم محمول أثارتهما الحرارة وجاء دور الضوء فكان الغذاء لتمام الاشكال

وللهداية للسبل

فلما نظرنا في هذه الحرارة وفي هذا الضوء وجدناهما جاءا من عالم الأثير بسبب الشمس وعالم الأثير وسط

بين عالم المادة وعالم الأرواح . والضوء في هذا العالم الوسط يجري بسرعة هائلة بحيث يدور حول الأرض نحو ٧

مرات في ثانية واحدة . هذا هو العالم الوسط بين المادة وبين الروح الذي أثار السماء وأثار الهواء ونظم الغذاء

والهداية في فجاج الأرض . والأرض لا قبل لها بالحرارة ولا قبل لها بالضوء

فلننظر فيما هو أبعد مدى من ذلك فإنا نجد أمرا عجيبا . نجد أولا قوى تبعث على الغذاء . وأخرى تحافظ

على هذه الهياكل داخلا وخارجا وهي الغضبية وأخرى هادية مرشدة . وهذه تقابل الحرارة والضوء في عالم المادة

فن أين أنت هذه القوى الثلاث؟ أمن المادة أنت؟ كلا. لأنها عجزت عن احداث الحرارة والضوء وهما وسط بين الحسى والعقلى، أ جاءت من عالم النور الآتى من الكواكب وهو العالم المتوسط بين العالمين - كلا. فأين النور وأين العقل مثلا الذى هو أ لطف منه. إذن هذه القوى بريئة من المادّة وهكذا القوى المنظمة للعوالم الكوكبية والنباتية والحيوانية اللاتى تحدث التزويق والجمال

فهذه كلها لن تكون إلا من عالم فوق عالم النور وهو عالم الأرواح، وهذا العالم فاض من النبات القدسية كما فاض النور من جرم الشمس. إذن كل جمال فى الانسان والعوالم حوله، وكل قوّة فيه علت أو سفلت فأنها من عالم روحى متصل بالقدس الأعلى

وبهذا نفهم قوله تعالى - الله نور السموات والأرض -، فكل جمال فى شجر أو زهر أو كوكب روجه فهو قبس من العالم القدسى وهكذا قوانا الباطنية من عقلية وغذائية والقوى المحافظة على ذلك فكلها نور معنوى وزرع على منافعنا من ذلك الجمال الأقدس

وهذه الأنوار الداخلة فى أجسامنا، الظاهرة فى جمال ماحولنا، وفى وجوهنا يشملها قوله تعالى - مثل نوره كمشكاة فيها مصباح - . إذن يارب أنت فى علمك القديم علمت عجزنا عن أن ننظر أنوارك فملاّت أرضنا بأنوار جعلتها فى مقابلة نورك، وكل نور منها مشكاة، فعواطفنا وعلوّمنا وجمالنا والقوى الداخلة فينا وبهجة القمر والنجوم والأزهار كل واحدة منها كأنها مشكاة من نورك، ولكن لم تبسح لنا أن ننظر نورك نفسه لأننا لا نقدر عليه غاية الأمر أننا نغفرك أو ننظر جمال الشجر أو الزهر أو الوجه الجميلة، أما وجهك فلا. أنت يارب بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لأبصارنا، عجزت أبصارنا عن أن تنظر إليها فهكذا عجزت عقولنا عن أن تراك ففرحت بالمشكاة إذ لا تطيق أكثر منها، المشكاة فى أرضنا مستمدة من الشمس وعقولنا وجميع الجمال الداخلى والخارج عندنا مستمد من أنوارك الجميلة

إن نبينا ﷺ رأى وهو فى حال الاحتضار ذلك الجمال والحكم والحب العام والرحمة، وغاية الجمال الذى كل جمال فى الأرض ما هو إلا مشكاة، فإذا قال؟ « قال اللهم الرفيق الأعلى »

رآك بعين بصيرته ولكننا الآن عرفنا ذلك بمجرد الفكر، ونحن الآن نطبق الفكر فى هذا ولكننا لا نطبق جمال « الرفيق الأعلى » ولا أنواره إلا اذا كملت نفوسنا، إن جمال عقولنا وكامل نفوسنا أشبه بنا فنحن نطبقه، ورسولك لما رآك وقدر أن يراك فغاطبك قائلا « اللهم الرفيق الأعلى » لأنه رأى جمالا نسبته الى جمالنا كنسبة نور الشمس الى نور السراج فوصفك بالأعلى يعنى ونحن رفقاء ولكننا أدنى، وإنما كنا أدنى لأن علمنا وجمالنا وحلمنا وجمال صنع صناعتنا ورحمتنا لعبادك ضئيلة جدا، فيرحم أحدنا طفلا وله له ومريضاً أشرف على الهلاك. ولكن لضيق الرحمة عندنا وضيق الحب لم نبذلها إلا لعدد محصور لأن رحمتنا محصورة وحبنا محصور على مقدار ضعف نفوسنا لأن، كلا منا مشكاة. فاذن كل منا رفيق أدنى. ولما رآك ﷺ واطلع على رحمتك وجمالك وحبك لكل مخلوق وأنت منع على الكل ترك هؤلاء الرفقاء الضعاف واشتاق الى الرفيق الأعلى. انتهى والحمد لله رب العالمين. كتب ليلة الخميس (٤) ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

\*\*\*

وقبل الفراغ من هذا المقام يحسن بنا أن نختمه بما يناسب الآية التى نحن بصدد الكلام عليها وذلك ﴿ بزهرتان: الأولى ﴾ فى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - وهى الحكمة العلمية ﴿ الثانية ﴾ فى قوله تعالى - ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون \* نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تنتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم - وهى الحكمة العملية. فلا شرع فى ذكرهما فأقول مستعين بالله

## زهرتان في بستان الحكمة العلمية والعملية

الزهرة الأولى في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - وهي الحكمة العلمية

جاء في جريدة الضياء بتاريخ يوم الأحد أول شعبان سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي مانصه :

التوفيق بين العلم والدين

رأى العلامة سرجيمس جينس

إن عقولنا تتحيز للتفسير الآلي ، ويرجع بعض السبب في ذلك الى طريقة نشأتنا العلمية الأولى كما يرجع السبب فيه أيضا الى أننا ننظر كل يوم الامور تسيير آليا ميكانيكيا . لذا كان التفسير الميكانيكي هو التفسير الأسهل الذي لا يحتاج الى كثير عناء أو الى مجهود فكري عنيف ، وهو علاوة على ذلك تفسير طبيعي ، ولكن اذا نظرنا الى الحالة العامة نظرة دقيقة وثاقمة غير متأثرين بنوع تربيتنا العلمية والى شعورنا الشخصي نرى أن المادة قد فشلت فشلا مروعا سواء أكان ذلك في العلم أم في الفلسفة ، ويوجد الآن شبه اجماع بين العلماء أن العلم يتجه نحو الحقائق غير الآلية وصار ينظر الى العالم كأنه يمثل فكرة عظيمة بعد أن كان يعتبره آلة ضخمة وابتدأ العلماء يشعرون بأن المادة ليست غريبة عن العقل ، ثم أخذوا يرحبون بالعقل ويعتبرونه منظما للمادة لا يقصد بذلك عقل الانسان ولكن يقصد العقل الذي منه تمت عقول الناس إن العلم الحديث يلزمنا أن نغير موقفنا الذي اتخذناه بدون طویل بحث أو روية ، ذلك الموقف الذي كنا نجاهر فيه أن العالم مادي لا أثر للحياة فيه ولا علاقة له بالعقل ، ذلك الموقف الذي كنا فيه نعتقد أن بين المادة والعقل عداوة قائمة ، يجب أن نغير ذلك الموقف لأنه لا عداوة أو خلافا بين المادة والعقل بل هما يتفقان وذلك لأن المادة وليدة العقل وهو سببها ومن هذا يتبين أن التفسير المادي للكون قد صار قديما وأن العلم قد ارتقى فترك هذا التفسير أثرا بعد عين ، ويشعر علماء النفس الآن أن في العالم حقائق روحية ونفسية لا يمكن ادراكها إلا اذا اعتقدوا بسحة الدين وضرورته . انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة . تمت الزهرة الأولى

### الزهرة الثانية

جاء في كتاب اخوان الصفاء ما يأتي :

« ذكر أن رجلا من المترفين وأرباب النعم ممن قد بسط له دنياه ومكن فيها جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلا ونهارا في تنعم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه واصلاح شهواته حتى لم يكن له في طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وخلق رأسه وتمرح بدنه أو تغيير لباسه أو تبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه أو تنقله من مجلس الى مجلس في تجديد لذاته واصلاح شهواته حتى لم يكن يأكل ولا يشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب ، ولا يلبس إلا أنعم اللباس ، ولا يقعد إلا على أوطأ المراكب وألين القرش ، وكان لا ينام إلا على سرير معلق في الهواء في وسط قبة له مخافة ديب يعرضه أو غبار يصيبه ، فعاش على هذه الحال زمنا طويلا حتى شهور في الناس بطيب عيشه ولذيد شهواته ، وجعل الراغبون في شهوات الدنيا يتمنون حاله ويغبطونه فيما فيه ، ويتشبه به المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم كل واحد بحسب امكانه واتساع حاله حتى صار قودة لطالبي اللذات في اتباع الشهوات ، وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئا من اصلاح نفسه ولا تحسين أخلاقه ، ولا تفقهها في الدين ، ولا تزودا لآخرته ، ولا تفكرا في أمر معاده ، ولا رغبة في علم ، ولا طلبا لأدب

ولافكرة في زوال الدنيا ولاذكرا للموت قبل كان مقبلا على طلب شهواته محتقرا لأمور الناس مزريا على من  
دونه معرضا عن الفقراء مهاجرا لأهل العلم متهاونا بأمر الدين ثم أراد الله تعالى أن يذمهم من نوم غفلته ورقدة  
جهالته ويرى للعباد قدرته ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن سواه فبينما هو ليلة نائم على فراشه فوق سريره معاظما  
لحييته وأبواب داره مغلقة وستوره مسبلة وحولى سريره شموع تزهو وعلى أبواب داره خدمه وغلمانه مستيقظين  
إذ رأى فيما يرى النائم كأنه في بركة قفرة وحده وهو عريان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده  
ملوث برجيع مافي جوفه وعلى ظهره ثقل ثقيل وإذا هو بأسودين منكر خلقتهما طويل قامتها وعيونهما  
تبرق ومن مناخرهما يخرج الدخان ومن شديهما تلتبب النيران وبأيديهما حواب حداد وهما يقربان نحوه  
ليأخذه فلما رأهما ولي هاربا من بين أيديهما وهما يتبعانه حتى إذا أمعن في هربه إذا هو بجبل شاهق فيسه  
طريق ضيق وعر مسلكه سلكه بمشقة شديدة وعناء طويل حتى إذا انتهى إلى قلته هوى من الجانب الآخر  
في واد منكسا على رأسه حتى وقع في بئر يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس وهب يشوي الوجوه  
والاسودان في أثره لا يفارقانه . فمن هول ما رأى وعظم ما عاين وشدة ما لقي صرخ في منامه صرخة واضطرب اضطرابا  
شديدا ووقع من سريره إلى الأرض وانقبه كل من كان في داره ومن حوله من جيرانه من شدة زعقته وطاش  
عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وانفلق لسانه واجتمع حوله كل من كان في داره من خدمه وغلمانه  
وأقربائه يسألون ما الذي أصابه فلم يطق جوابا بقية ليلته حتى أصبحوا وجعت له المعزومون والراقون وظنوا أنه  
أصابه لم من الجن أو سحر من الأعداء ووسواس من الشيطان . فقال لهم ليس بي ما تظنون ولكن رأيت رؤيا  
هالتي وأفزعني وأدهشتني فجمعت له المعبرون وقصت عليهم رؤياه (فقال) بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم  
هذا من خلط سوداوى ومزاج غليظ . وقال آخر لا بل فكر ردى وتخييل فاسد . وقال آخر لا بل هو من الجن  
وجعلوا يرجون الظنون حتى جهنم الليل فجمع خدمه وغلمانه وأقرباءه في مجلس واحد حول سريره ونام هو  
بينهم فوق فراشه وجعلوا يقرؤن الرقى والعزائم والعود ويبخرون الدخن حتى كان من ذلك الوقت من الليل  
فاذاهو برؤياه ذلك بعينه بل هو أعظم وأهول وأصرخ ففر من فراشه وأفرغ كل من كان حوله . ثم أدركوه  
وجعلوا يسألون عنه وهو مرعد مرعوب لا ينام ولا ينامون توجهوا له إلى الصباح وتسامع الناس بخبره وجعلته  
الأطباء فوصفت له الحمية والاستفراغ والشربة وظنوا أنه نافع من هذا العارض ففعل وما نفع شيء . فلما كان  
من الأسبوع الداخل في مثل ذلك الوقت من الليل فاذا هو برؤياه بعينه بل هو أعظم وأهول فانتبه مرعوبا مرعوبا  
إلى الصباح مانام . فلما كان من الغد جمعت له المنجمون والمعزومون والعرافون وسئلوا عن موجبات أحكام  
النجوم فذكروا أن مثل هذا العرض إنما يعرض للإنسان من أجل أنه يكون في أصل مولده من اسقياء  
النحوس على درجة طالعه أو أحد الأوتاد في نحويل السنين والشهور . فقيل لهم فما الدواء النافع فيه والمنجى  
له فقالوا تختاره يوما يكون القمر متصلا بالسعود وطالعا جيدا يكون السعود في الأوتاد والنحوس سواقط عنها  
ويتحول من ذلك الوقت من بلد إلى بلد أو من محلة إلى محلة أو من دار إلى دار ففعل ذلك وما نفع الدواء له  
وشاع حديثه في الناس وتسامعت به الأخبار في البلاد وصار في موضع رحمة بعد أن كان بحال غبطة وأصبح الذين  
تمنوا مكانه بالأمس خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلوى والمحن وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث في  
مجالسهم ومحافلهم الأحديثة ولا عظة إلا ما أصابه فينما يوما جماعة من جيرانه يعود على الطريق في حديثه إذ مر  
بهم رجل يعرف بالناسك وكان من أهل العلم والدين والسر قد رزق العلم والإيمان . فقيل له كيف غمك على  
فلان جارك قال كتم أب مشفق طيب على ولد عليل فقيل له وكيف ذلك قال لأن عندى تأويل رؤياه ودواء  
دائه . فقيل له لم لا تقصده وتعرفه ما عندك قال لانه لا يسمع قولى ولا يقبل نصيحتى فقالوا ولم ذلك قال لأن أزهده  
الناس في علم الرجل جيرانه ولكن أخبركم انا وعرفوه أتم ولاتذكرونى عنده فأتى خائف ألا يقبل استصغارا

لما أقول أو يفعل من غير يقين فلا ينفعه قالوا له عرفنا نسمع ما نقول ، فقال أما رؤيته البرية القفرة فهو براءته من الدنيا وبرائها منه يوم يموت وأما فقره فهو فقره بعد الموت وشدة الحاجة في الآخرة الى الزاد ، وأما عريه فهو عري من الأعمال الصالحة التي لها ثواب الآخرة ، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحوصه في طلب شهوات الدنيا وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله لسوء أعماله وأما طول شعره فهو شعور حزن طويل في الآخرة وأما تلويث بدنه برجيع مائي جوفه فهو خوف واكتئاب يناله في الآخرة يتمنى الرجعة الى الدنيا ولا سبيل له الى ذلك . وأما الثقل الحمى رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله ، وأما الشخصان المنكران فهو منكر أفعاله ونكير أخلاقه وسوء عاداته لا يفارقان نفسه حيث ماذهبت يتبعانها . وأما الجبل الشاهق فهو جبلته وعادته التي هو عليها مشقة والشاهق شقاء يناله بعد الموت الا أن يتوب ويرجع الى الله عن أثمه . وأما المسلك الوعر فهو طريق الآخرة التي لا بد له من سلوكها بنصب وعناء ، وأما الوادي فهو وادي جهنم والبئر المهوى هي الهاوية التي اليها تصير نفوس الأشرار وأرواح الفجار فقولوا ان هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت فسيكون مصير نفسه الى هناك بعد الموت فان الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه ويذكره ليتوب ويرجع عما هو فيه من الغفلة في أمر الآخرة والحرص على الدنيا ، فقالوا له فمادواؤه ، قال ينوي نية صادقة ويعزم عزمًا صحيحًا ويرجع الى الله ويتوب مما قد سلف ويتصدق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين ويلبس الخشن من الثياب ما يورى العورة ويصوم في كل أسبوع يومين ويمشي الى المساجد خاضعًا وينفقه في الدين ويستعمل القرابين ويصلي في ظلمة الليل ويستغفر في الأسحار ويسأل الله تعالى أن يكشف ما به وانه تعالى يفعل ذلك ان شاء فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرفوه بما أصابه وبما هو خائف مترقب له ثم أخبروه بما قال لهم الناسك فقال لهم من أين لكم هذا التأويل ومن وصف لكم هذه الرؤيا فقالوا أخبرنا العالم في الدين الناصح الذي لانسك فيما قاله فقبل قولهم وجمع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين فأخبرهم بما قيل له ، فقالوا حقًا ما قيل وصوابًا ما وصف فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان وثواب الأخيار وأين يكون منقلب الأشرار فوصفوا له ما هو مذكور في كتب الأنبياء عليهم السلام فقبل ما قالوه وفعل ما أمره بين شك ويقين وخوف ورجاء ، فلما كان في الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام نهاره وصدق عند افطاره وأكل يسيرًا من الطعام وقام يصلي ليلته ، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد إذ غلبه النوم فرأى في منامه كأنه في تلك البرية بعينها وقد اخضرت من العشب والكلأ وقد تفتحت زهر الرياحين وفاح نسيمها فاذا هو على رأس قلة عليها عين من الماء الزلال وكأنه قد اغتسل من مائها فتناثر عن بدنه ذلك الشعر والدرن وقد ألبس ثيابا جددا تفوح منها رائحة الطيب واذا هو بشخصين قائمين أمامه كأنهما صورتان من النور تشف أبدانهما عليهما زى الجلال ومحاسن الكمال ورواق الشباب وهيبة الوقار ومهما تسميان في وجهه كالمستبشرين له يشيران اليه بالنظر الى قدام فتأمل اذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف وبأنوار قدملات الآفاق من الضياء واذا في ذلك الفضاء رياض خضر كان بينها نسج الديباج من الزهر والنور والزعفران واذا في وسطها أنهار تجري على أرض بيضاء كان حصباءها الدر والياقوت والمرجان ، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان واذا هب نسيم تخشخت أوراقها كأنها أصوات نغمات أوتار العيدين وبين تلك الأوراق ألوان الثمار متفتنة الأشكال والطعوم والألوان واذا بين ذلك قصور شاهقة كأنها جبال من رخام أبوابها مفتحة ومخون واسعة وايونات متقابلة فيها سرر موضوعة عليها فرش مرفوعة ونمارق مصفوفة وبينها سادة كرام متكئين متقابلين عليهم زين الجلال ومحاسن الكمال وهيبة الوقار بأيديهم التحف يسعي بينهم ولدان وغلمان وجوار حسان أتراب مبرقات بالمحاسن والجمال ، فلما رأى تلك المحاسن قال لصاحبيه ماهذه قالوا هي الجنة دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار

فان أنت دمت على ما أنت عليه الى الموت فسيكون مصيرك الى هناك بعد مفارقتك جسديك فتجد لذة العيش  
وسرور النعيم صافيا بلا تنغيص ما بقى الدهر فمن فرح ماسمع وسرور مابشر استنزه ذلك فانتهى دهشا متفكرا  
يتمنى عسى أن ينام فيرى تلك الرؤيا ثانيا بعد أن كان كارها للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى ، فلما أصبح  
تصدق بجميع ماله وأعتق كل عبده ولبس المسوح وكان طول نهاره صائما وسهر ليله قائما مجانبا للناس لا يكلم  
أحدا بل يصلي نهاره با كيا حزيننا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة حتى فشاخه في الناس وتسامعت به في المدينة  
والبلاد فقصده الناس من الآفاق يسألونه رؤياه ويسمعون تأويله ويتعظون به ، ثم صار بعد ذلك يتكلم على  
الناس في المجالس بالحكمة والموعظة ويضرب لهم الأمثال ، ويدلهم على طريق الآخرة ويرغبهم في ثواب الجنة  
ويزهدهم غرورها وأمانيتها ويحذرهم الاغترار بها . فقيل له من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب  
الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب ، قال أجد قلبي كالترجان تسمع من وراء الحجاب وتعدى الى أبناء جنسي  
على الصواب من غير تكلف مني وأجد نفسي كالترجان تسمع من وراء الحجاب وتعدى الى أبناء جنسي  
عما تسمع بلا تصنع مني . فعلم عند ذلك أنه مؤيد بملك من الملائكة يلهمه باذن الله جل ثناؤه ، ثم صار ذلك الرجل  
قدوة في الدين لأهل زمانه فبينما هو يوما في محفل والناس حوله يسألونه عن أمر الدين وهو يقفهم والناس ما بين  
مستمع مصدق وشاك ومتعجب منه كيف كان بالأمس أرغب الناس في الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات وكيف هو  
اليوم في أمر الدين امام لطالبي الآخرة إذ وقف في المجلس رجل من أولئك الذين دخلوا عليه يعودونه  
فراى ذلك الناسك في مجلسه يسأله عن مسائل من أمر الدين ويستوصف منه طريق الآخرة فدنا منه وقال له  
شبه المتعجب هذا صاحبك الذي فسرت منامه ووصفت دواؤه وأنت اليوم تسأله عن أمر الدين وطريق الآخرة  
قال نعم ولكن قد جاءه من العلم ما لم يأتني وقد قبل نصيحتي أمس فنفته اليوم وأنا أقبل منه اليوم ما عسى  
أن ينفعني غدا وكانت صفته له أمس تعليما بشريا وصفته اليوم تعليما ملكيا ، ثم ان ذلك الرجل التائب بقى مدة  
من الزمان مجتهدا في عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقتة فراى في منامه كأن روحه قد خرجت  
من جسده واذا هي على صورة مثل شكل الجسد وهيئته سواء غير أن هذا الشكل جسماني وتلك صورة  
روحانية شفاقة لا ينالها لمس ولا حس واذا هي قد ثبتت في الهواء حيث شاءت وكيف شاءت بلا كلفة ولا عناء  
وهي تجرد من ذاتها خفة وراحة وسرور ادر وحوالدة وفرحا لا يوصف بمثلها حال الأجسام ونظرت الى جسدها اذا  
هو مطروح لاحرك به فحنت اليه لطول الصحبة وإلف العادة . فلما دنت منه وتأملته فاذا هو كأنه قد أتى عليه ثلاثة  
أيام بعد الموت وهو متفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد ويجرى بين لجه ودمه الديدان ويخرج  
من فيه ومنخريه وأذنيه الديدان والقمل . فلما رأته ذلك الهائل اشجارت منه وتأخرت عنه وأنفت من الدنو  
اليه وجعلت تغطط حالها حين فارقته وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله ثم التفت فاذا  
هي أبواب السماء قد فتحت والمهراج قد امتد من السماء الى الأرض والملائكة نزلت وامتلأت الآفاق من  
النور والضياء وسمعت مناديا ينادى - يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي  
وادخلي جنتي - فانتهى من نومه ذلك ، ثم أخبر بما رأى وأوصى وصيته وما مكث إلا أياما حتى توفى ومضى  
لسيله : انتهى ما أردته من اخوان الصفا والحمد لله رب العالمين

ويتبع هذا ﴿ حكمتان : الأولى ﴾ بعنوان ﴿ حكم عامة ﴾ في موازنة عطف الأم على ولدها بنفع  
الحكيم لأمتهم ﴿ الثانية ﴾ في السعادة المزيفة وهاك نصهما في الصحيفة التالية

## حكم عامة

الحكيم	الأم
الحكيم يفتدى الأئمة والأمم بعلمه مع شفقة ومحبة	الأم تغدي ولدها مع شفقة ومحبة بلبنها
.....	.....
الحكيم يسهر على الأئمة والأمم ويكلؤها بعطفه	الأم تسهر على ولدها وتكأه
.....	.....
الحكيم لا يبالي بالمشاق في سبيل إسعاد أمته	الأم لا تبالي بالمشاق في سبيل تربية ولدها
.....	.....
الحكيم يبذل ماله وما يقدر عليه من عمل ووقت في إسعاد أمته	الأم تبذل مالها وكل ما تقدر عليه وتصرف وقتها في إسعاد ابنها
.....	.....
الحكيم يستلذ النصب والتعب في إسعاد أمته	الأم تستلذ النصب والتعب في تربية ابنها
.....	.....
الحكيم يحسّ بلذة رقيّ الأم بعلمه أعظم من لذة الأم ، نسبتها إلى لذتها بولدها كنسبة الجوع الكبيرة التي هداها إلى الولد الواحد الذي ربته الأم	الأم تحسّ بلذة تضاهي ما تراه من رقيّ ولدها

## السعادة المزيفة

- (١) القائمون بأمر الأم أغلبهم ذوو سعادات لفظية
- (٢) الملوك منهم والأمرء اكتفوا بالنساء وكثرة المال والحصول على الشهوات
- (٣) هؤلاء الحكام يثقون بمآظنوه سعادة ، مع ان القوى الجسمية كلما ازدادت تعاطيا للشهوات ضعفت وقلت لذاتها ثم فقدتها
- (٤) فإذا ضعفت شهواتهم أخذوا يستعوضون عنها بالرتب والنياشين من الملوك ، وما كان لرتبة ولا نيشان ولا ألقاب تعظيم أن تنيل القلب سعادة ، أو تصرف الغم عن القواد
- (٥) وإذا ملئت خزائهم بالمال وقد ولى العمر وحالت الحال رجعوا إلى أنفسهم فوجدوها خاوية على عروشها فازدادوا انقباضا وبئس المصير
- (٦) إذن مكافأة الجهلاء من نوع الانسان أشبه بمكافأة الأطفال بالدسم واللعب والأثواب المزرکشة ، والولدان يعلمان أن ذلك وقتي قليل القيمة . هكذا العناية الإلهية كافأت أطفال الرجال بما يشبهه مكافأة الأطفال استصغارا لعقولهم ورحمة بهمهم ، فهم أشبه بفداء لأعمهم يسهرون على راحة المجموع ويكافئون بما أكثره شؤم عليهم لأنهم لا يعقلون اه

واعلم أيها الذكيّ أن هذا المقام العام ملخص في تفسير البسمة في سورة الدخان ، وفي رسالة عصاة الفلسفة في سورة محمد صلوات الله عليه عند آية - فاعلم أنه لا إله إلا الله - فانظره هناك إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى - إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة - الخ والحمد لله رب العالمين

### اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى - ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - الخ وفي قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ في هذه اللطيفة فصلان

### الفصل الأول في قوله تعالى : فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

جاء في مقال في جريدة الاهرام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي مانصه :

#### وحدة الحيوانات والنباتات

يعتقد أغلب الناس أن بين الحيوانات والنباتات تباينا كلياً واختلافاً تاماً ، وأن كل فريق منهما مستقل عن الآخر . وقد كانوا يعلموننا في المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات أو ما يعبر عنه الغريون بمملكة الحيوان ومملكة النبات . وبما لاشك فيه أن من يلقي نظرة سطحية على الحيوانات والنباتات الراقية يجد أن بينها اختلافات ظاهرية . فالحيوان يتحرك ويتغذى ويتأثر . أما النبات فهو ثابت في مكانه ولا يظهر أنه يتحرك أو يتغذى أو يتأثر على أن من يعين النظر ويحقق في البحث يتضح له أن هذه كلها اختلافات ظاهرية لاحقيقة لها

ذلك لأن كل مميزات الحيوانات مثل الحركة والتأثر والتغذى والتنفس والتولد توجد كلها في النباتات . وهي في الواقع تعتبر إلى حد ما مميزات جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات فالحركة لا يختص بها الحيوان . فان هناك حيوانات عديدة ثابتة منذ نشأتها إلى موتها مثل كثير من الحيوانات المسماة بالجوفاء كالمرجان . وكذلك الحيوانات التي تعيش في قاع البحار وتشبه في شكلها النباتات والأزهار . ومنها الحيوانات المسماة بالتونيسية أو القميضية السابقة للحيوانات الفقرية أو بالأحرى إحدى الحلقات المتوسطة بين الفقرية واللافقرية . فانها تكون عند ولادتها متحركة مثل سائر الحيوانات . ولكن صغارها لا تلبث أن تثبت على صخر في البحر وتظل هكذا باقى مدة حياتها إلى أن تموت

كما أن هناك من جهة أخرى نباتات متحركة مثل النباتات المقترسة فان لها أعضاء خاصة تنقض على ما يقع عليها من الذباب والحشرات والحيوانات الصغيرة الأخرى وتنطبق عليها وتفرز حولها عصيراً هضمياً مثل عصير الحيوانات فتضم ما يقبل الهضم منها وتمتصه ، ومن النباتات المتحركة النبات المعروف للعامية باسم «المستحيه» ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلبية المائية المسماة «أوسيلير» فانها في حركة اهتزاز مستمر مثل رقص الساعة ، وأبلغ من هذا حركات بعض النبات الأولية ذات الخلية الواحدة فان لكثير منها شعراً صغيراً عديداً ولها أوشرة واحدة طويلة في مؤخرها مثل الذنب تستعين بها على العوم في الماء فتذهب وتجيء مسافات تذكراً لفرق بينها وبين الحيوانات ، وكذلك بذرة أو بويضات النباتات الطحلبية المائية وبذرة صف «الموس» وصف النباتات ذات التولد الخفي . فان تلك البذور تستعين بذنبها . أي بالشعرة التي في مؤخرها للتحرك في الماء بحيث لا يستطيع الانسان أن يميز من أول وهلة بينها وبين الحيوانات الصغيرة التي من حجمها . ولهذا سميت بالبذرة الحيوانية

هذا كله في الظاهر أما اذا حققنا النظر في الأمور فانا نجد أن الحركة نتيجة لازمة للمادة الحية على الإطلاق سواء أكانت نباتية أم حيوانية . وتفصيلاً لهذا الاجمال ، نقول ان أنسجة جميع الحيوانات لا ترى إلا

بالميكروسكوب ، وشكل هذه الخلايا وتركيبها واحد في الحيوانات والنباتات فالخلية مكونة من مادة زلاية أو بالأحرى من خليط من مواد زلاية مختلفة ومواد دهنية . ومواد سكرية أو نشوية . وقليل من بعض مواد معدنية . وفي وسط كل خلية نواة تركيبها واحد في الحيوانات والنباتات . وللخلية في معظم الأحيان غلاف خارجي من مادة زلاية أخرى مرنة عند الحيوانات ومن مادة جامدة تسمى بالسيليولوز عند النباتات . وهي مادة القطن وورق الكتابة

ومدة الخلايا التي يسمونها بروتوبلسما أو المادة الحية (خليط من المواد الزلاية والدهنية والسكرية) من أهم خواصها الحركة أي أن أجزاءها في حركة مستمرة مادامت حية . ولاشك في أن هذه الحركة نتيجة تفاعلات كيميائية دقيقة مترتبة على حرق المواد الغذائية . التي تصل الى الخلايا بعد الهضم والامتصاص ومثل حركة المواد الحية حركة السوائل . وهي تقلى والآلات الميكانيكية بسبب حرق الفحم أو البنزين أو الزيت وغيرها

ولافرق في ذلك بين الخلايا الحيوانية والخلايا النباتية . ولكن لما كانت أغشية الخلايا الحيوانية من مادة زلاية مرنة كما تقدم كانت الحركة التي تبدأ في راحة منها تنتقل الى جارائها وتأخذ في الامتداد فيتحرك المجموع بعكس الخلايا النباتية فان مادة كل خلية منها محبوسة داخل أغشية صلبة من السيليولوز . فالحركة التي تقوم في بعضها لا تستطيع الانتقال الى مجاورها من الخلايا ولا الانضمام اليها . ولهذا كانت مواد كل خلية نبطية تتحرك في مكانها داخل غلافها ومجموع النبات ثابت . والحلاصة أن الحركة من خواص جميع المواد الحية النباتية والحيوانية على السواء

وفي الحقيقة والواقع ليست الحركة وقفا على الأحياء ولكنها تعمل في الجداد وجميع المواد المعدنية . وتعم كل مافي الكون من أكبر الأجرام الفلكية الى أصغر ذرات المادة أو الجواهر الفرد . وما هو أصغر منها مما اكتشف أخيرا ونفى اليون أو الالكترن . فاذا رفعا نظرنا الى السماء نجد أن جميع الكواكب والشموس والسيارات ( بما فيها أرضنا ) والأقمار وذوات الذنب في حركة مستمرة لا تعرف الكلال . وكل ما يحيط بنا على الأرض متحرك كذلك بلا انقطاع من أمواج البحار ومياه الأنهر وهواء الجو والزوابع والزلازل وتساقط الأمطار والثلج والبرد ودوى الرعد وانقراض الصواعق وغير ذلك من العوامل الطبيعية التي دكت الجبال الشاهقة وغيرت من شكل الكرة الأرضية مرات عديدة في الأعصر الجيولوجية القديمة مدة ملايين من السنين الغابرة . وكذلك الحال بالنسبة لجزئيات المادة وجواهرها الصغيرة وذرات هذه الجواهر فانها في حركة مستمرة تزداد بارتفاع الحرارة وتنقص بانخفاضها . وبالجملة فان الحركة هي الناموس الأساسي الذي يدير الكون بأسره منذ الأزل والى الأبد

وما يقال عن الحركة يقال عن التأثير فانه صفة لازمة للمواد الحية الحيوانية والنباتية على السواء . فاذا لملمس الانسان بسلك رفيع مثلا خلية من الخلايا الحيوانية أو النباتية . وهي تحت الميكروسكوب يراها تتأثر وتتحرك فتتكمش أو تمتد . وهذا الذي يحدث عرضا بفعل الانسان يحدث عادة وعلى الدوام بفعل المؤثرات الطبيعية والكيميائية التي تعمل في أجسام الحيوانات والنباتات او في البيئة التي تحيط بها وتؤثر عليها ولا فرق في خاصة التأثير بين الحيوان والنبات ، وكل مافي الأمر أن أغشية خلايا النباتات تحول دون انتقال التأثير من خلية الى خلية نظرا الى جودة تلك الأغشية فيظهر النبات في مجموعه كأنه لا يتأثر . والحقيقة أن مواد خلاياه تتأثر . ولكن يحجب هذا التأثير مادة السيليولوز الجامدة

على أن التأثير ليس في الحقيقة من مميزات المواد الحية دون غيرها ، بل يشترك فيه كثير من الجداد مثل المواد المفرقة ومثل المواد الكيميائية غير الثابتة التي تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي (الفوتوغرافيا)

أو بالرطوبة أو بالحرارة أو بالكهرباء وغيرها . ومن الأمثلة على تأثر الجادات أمر معروف في علم الصوت (جزء من علم الطبيعة) وهو أنه إذا دق انسان دقة على وتر من آلة موسيقية وكانت في الغرفة آلة أخرى مثلها فإن الوتر الذي يقابل فيها الوتر الذي دق عليه بالآلة الأولى يهتز من تلقاء نفسه اهتزازا خفيفا ولكنه يظهر جليا بواسطة الآلة المكبرة للصوت

أما من جهة التغذية فمن المعلوم أن النباتات تتغذى مثلها في ذلك مثل الحيوانات فإدتها الخضراء (الكوروفيل) تستعين بضوء الشمس لتحليل حمض الكربونيك (ثاني أكسيد الكربون) المنتشر في الجو وتأخذ منه الكربون اللازم لغذائها وتمزجه بالماء فتكون أولا السكر والنشاء والسيليلوز (مادة القطن وورق الكتابة) ومادة الخشب وغيرها . ثم تكون أحمضا عضوية تركب منها المواد الدهنية . وتمتص من الأرض الماء وبعض المواد المعدنية المشتملة على الأزوت مثل الأزوتات أو النترات وتمزج هذه بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون المواد الزلالية وهي أهم غذاء لها وللحيوانات . وبالجملة ان النباتات تتغذى كالحيوانات . وتناول لغذائها نفس المواد التي تتغذى منها الحيوانات وهي المواد الزلالية والدهنية والسكرية فضلا عن الماء وبعض الأملاح

والتغذى ليس قاصرا في الحقيقة على الاحياء من حيوان ونبات بل يحدث لكثير من الجادات بقعة الصدا التي تبدو صغيرة على قطعة من المعدن ثم تكبر الى أن تنتشر على سطح المعدن كله انما هي تغذى في الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيك المنتشرين في الجو ومن مادة المعدن القائمة هي عليه فتتنام وتوسع كما ينمو ويكبر الجسم الحى والبلورات الصغيرة المغطسة في ماء مشبع من محلول موادها تتغذى من المادة الغائبة في الماء فتتنام وتصبح بلورات كبيرة . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم أو البنزين أو الزيت . وليست مواد الوقود الاغذاء تلك الآلات الميكانيكية تحرق فيها فتولد القوة اللازمة لحركتها وقيامها بأعمالها ويلحق بالغذاء التنفس . وغير خاف على كل من درس علم الفسيولوجيا النباتية أن النباتات تنفس مثل الحيوانات ولها مسام صغيرة في أوراقها وغصونها يدخل منها الهواء ومعه الأوكسجين الذي هو العنصر الأساسي في التنفس أن الغرض من التنفس واحد في الحيوانات والنباتات وهو احراق (أى تاكسد) المواد الغذائية داخل الخلايا لتوليد القوة اللازمة للحياة وقد عرف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حريق أى تاكسد مستمر . وما الأجسام الحية الا آلات لتحويل القوة الكامنة داخل مواد الغذاء بواسطة احراقها الى حرارة وحركة حركة انتقال . وحركة افراز . وحركة نمو . وحركة تولد وما الى ذلك من القوى الحيوية . مثلها مثل الآلات الميكانيكية التي تتغذى بالفحم أو البنزين أو بالبتروول

وقد أثبت علماء الفسيولوجيا هذه الحقيقة بتجارب حاسمة حيث وضعوا حيوانات داخل كالوريمتر دقيق (آلة لقياس كمية الحرارة . وهي خلاف الترمومتر الذي لا يقيس الا درجتهدون كيتها) وكانوا يقيسون حرارة ما يتناوله الحيوان من الغذاء وما ينتجه جسمه من الحرارة . بعد خصم الكمية التي لم تهضم ولم تمتص من الغذاء فوجدوا أن الكميتين متعادلتان وقد طبق اثنان من العلماء الامر وكان هذه التجربة على الانسان وهما توتر وبنيدكت فصنعا كالوريمتر كبير حجمه كالغرفة المتوسطة واتخذوا كل الوسائل الدقيقة والاحتياطات الشديدة ، وكانا يقيسان مقدار الهواء الداخل من جهة والخارج من جهة أخرى ودرجة حرارتهما وما يشتملان عليه من اوكسجين وحامض الكونيك . وقيسان في كالوريمتر صغير على حدة ما تنتجه من الحرارة كمية الطعام الذي يتناوله الشخص الذي تعمل عليه هذه التجارب وغير ذلك من الاجراءات . فكانت النتيجة تعادل كمية القوة التي تدخل جسم الانسان في هيئة غذاء وكمية القوة التي تخرج منه في شكل حركة وحرارة . ومعنى هذا أنه لا توجد في الجسم الا القوى الطبيعية ولا تعمل فيه الا القوى الطبيعية

أما التلقيح والتولد والنمو والتطور وكافة مظاهر الحياة فلا حاجة للقول بأنها مشتركة بين الحيوانات والنباتات. ويطول بنا المقام لو أردنا أن نثبت أن هذه المظاهر كلها مع التفاوت في الجاد أيضا ينتج مما تقدم أنه لا يوجد أي فارق جوهري بين الحيوانات والنباتات. وقد حار العلماء في إيجاد حد فاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الأحياء السفلى المتبسة في أمرها وهل هي حيوانات أم نباتات فلم يجدوا أمامهم سوى فاصل واحد بقرون بأنه سطحي ظاهري وهو مادة السيليلوز المكوّنة منها أغشية الخلايا النباتية فإن هذه المادة لا وجود لها في الحيوانات

ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات في جميع أدوار حياتها لأن هناك بعض نباتات سفلى من صف النباتات الفطرية من الفصيلة السببية ميكروميسست تقضى حياتها كلها أو معظمها وخلاياها شائعة بلا أغشية تفصلها عن بعض. ولكن إذا ساءت الأحوال الجوية واشتد البرد وتهاطلت الأمطار أو الثلوج تفرز هذه النباتات حولها أغشية سيليلوزية لتحبس نفسها داخلها فتتقي هكذا خطر تقلبات الجو. أما في الفصول المعتدلة فإنها تعيش خالية من هذه المادة. فهي تشبه من وجوه كثيرة. وهي على هذه الحالة بعض الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة مثل الأميبا التي يسبب نوع منها مرض الدوسنطاريا

ومن جهة أخرى في بعض الحيوانات مادة تقرب كثيرا كيمياويا من مادة السيليلوز وهي الحيوانات التونيسية أو القميضية المتوسطة بين الحيوانات الفقرية وبين اللاققرية مما تقدم لنا الإشارة إليه. كما أنه في جميع الحيوانات مادة هي شقيقة السيليلوز من الوجهة الكيماوية وأغني بها السكر فكلاهما مكوّنة من غم وماء. ولذا أطلق على مجموع هذه الفصيلة الكيماوية اسم هيدرات الكربون

وهناك فاصل فسيولوجي بين الحيوان والنبات قد يكون أوجه من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذية. قلنا فيما تقدم أنه لا بد لغذاء الحيوانات والنباتات من مواد زلالية ومواد دهنية ومواد سكرية. ولكن الفرق بين الحيوانات والنباتات هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة جاهزة ككاهي من أجسام النباتات أو الحيوانات الأخرى التي تأكلها بعكس النباتات فإنها لا تجد أمامها. هذه المواد الضرورية لغذائها كما تجدها الحيوانات (مع استثناء النباتات المفترسة) فتضطر أن تتركبها على الوجه المتقدم بيانه. قبل أن تتناولها. وبالجملة فإن الحيوانات تتناول طعامها جاهزا أما النباتات فتكده وتنقي في تركيبه قبل أن تتغذى به. على أن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات فيوجد صف نباتات هي النباتات الفطرية لم تجد عليها الطبيعة بالمادة الخضر (الكوروفيل) فلا تستطيع أن تتركب غذاءها بنفسها لهذا هي تتصرف في الحياة كالحيوان بمعنى أنها تتناول طعامها جاهزا من حيوانات أو نباتات أخرى ومن أجل هذا نجدها كلها طفيلية تعيش على غيرها من الحيوانات والنباتات الحية أو على أجسامها الميتة. وعلى هذا فتكون الفصيلة الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات وبين النباتات. ولولا وجود السيليلوز فيها لجزم العلماء بأنها حيوانات فهي نبات من جهة السيليلوز وحيوان من جهة كيفية تغذيتها

وفي هذا برهان واضح على وحدة الحيوانات والنباتات وتسلسلها من أصل واحد وهو الجاد. وقد جاءت المباحث والتجارب الجليلية التي قام بها العالم الهندي الكبير السربوز مؤيدة لهذه الحقيقة التي أصبحت الآن أساس العلوم الطبيعية. وقد كان لاختراعه للآلة التي تكبر حجم الخلية الحية عشرة آلاف مرة تأثير كبير وتأتي هائلة في العلم. وعلماء أوروبا يتحدثون في جامعاتهم وفي مؤلفاتهم باكتشافاته ومباحثه الأخرى منذ أكثر من عشرين عاما ومع ذلك نرى قومنا يحملون على هذا العالم الشرقى الجليل لأغراض بأبائها العلم وشرف النفس

نصيف المنقبادي المحامي

خريج كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

ويلحق بهذا ما جاء في جريدة الاهرام أيضا يوم الجمعة ٤ يولييه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه

### رأى في صلاح الأزمة المالية

كاد ينقضى على انشاء وزارة الزراعة عشرون عاما . ومع ذلك لم يتم بشئ من المهمة التي أقيمت على عاتقها بينا نرى اختصاصات وزارات الزراعة في الدول الاخرى لا تقتصر على تبخير الأشجار وعمل الاحصاء السنوي لكمية المنتظر من محصول القطن . أو الارشاد الى ادخال تحسينات نافهة على الزراعات القائمة . أو مقاومة بعض الآفات مقاومة لا تجدى ولا تنفع . أو الحصول على بعض الأسمدة والبذور الخاصة بالنباتات التي تزرع عادة . لو أن مهمة وزارة الزراعة اقتصرت على ذلك لكان الأمر على الجمعيات الزراعية الأهلية . ولا كتفت الحكومات بمعاونتها دون انشاء وزارة خاصة بالزراعة . ولكن المهمة أجمل وأسمى من ذلك . المهمة خاصة بانماء الثروة الأهلية بادخال زراعات جديدة تستثمر فيها رؤوس الأموال المتجمدة من الزائد عن النفقات الزراعية والنفقات المعاشية للفلاح . المهمة خاصة بايجاد مشتل من صنع الاخصائيين بنمو ويكبر على توالي الايام داخل معامل التحليل والابتكار والتطعيم لتزويد البلاد برأس مال جديد في كل عام لا أن يقتصر الأمر على ايفاد بعثات زراعية سنوية الى مختلف البلاد ليعود أعضاؤها ويشغلوا الوظائف الكتابية أو وظائف التفتيش الرئيسية فتخدم فيهم الحمية وروح الابتكار ولا ان يكونوا في مكاتبهم وفوق كراسيهم كالدبلوماسيات وشهادات الامتياز جعلها الاطوار الراحل ولا قيمة لها الا في أعين جملتها . مع ان الواجب كان يقضى أن تكون قيمتهم في نظر الأمة وللأمة حتى تستطيع أن تقرر بحق انها استثمرت ما أنفقته عليهم من أموال في تخصصهم وتعمقهم . ويستطيع الآباء أن يعلنوا مباهاتهم ثمرة كدّهم وتعبهم في سبيل تربية أبنائهم . والا فإذا أدخلت وزارة الزراعة المصرية على زراعاتنا من جديد يعاون في سبيل الاحتفاظ بثروة الأمة بعيدا عن تهديد الازمات والأخطار التي تصيب محصولا لا تعول الا عليه ، لتقل لنا الوزارة ماذا صنع مع عمل زراعة المناطق الحارة حتى الآن وأي نتيجة لتجارب أدت الى ادخال عامل زراعي جديد في مصر مع أن زراعة المناطق الحارة قد درست في مصر قبل الآن درسا عميقا أيام حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوي الأسبق والمؤلفات والتقارير الزراعية عن نباتات المناطق الحارة في عهده تكاد تزيد عن الضروري . وما كنا في حاجة الا الى مراجعتها لنعلم أي الزراعات تدخل في مصر حتى تتعدد الحاصلات وتجنب الأضرار الجسيمة التي يلحقها القطن بثروتنا العامة بين آونة وأخرى وتكرهنا على البكاء والعيول مادامت مصر في عهد اسماعيل هي مصر الآن جواً وتربة وماء مع مراعاة ان العمار قد ازداد والسكان قد تضاعفوا والأيدي العاملة قد ربت وطرق المواصلات قد تعددت والمسالك الزراعية نظمت والترع كثر . لقد تكلمنا فيما تقدم عن زراعة الكاوتش في مصر ورجونا من المصريين أن لا ينتظروا الا نتيجة جهدهم وكدهم في ادخال هذه الزراعة الغنية بحاصلاتها في مصر حتى ينقدوا أنفسهم بأيديهم من مخالب الافلاس الذي يتهدهم دائما أبدا بسبب تحكم مستهلكي القطن أو زيادة المحصول الأمر يبيح الخ واليوم نقول كلمة أخرى عن زراعة المناطق الحارة الصناعية وما يجوز ادخاله في مصر بناء على آراء الاخصائيين ولما كنا قد بدأنا بزراعة الأشجار في سبيل أحياء عصر الغابات في مصر وجب علينا الاستمرار في هذه السبيل مقتصرين في بياننا على الجهات التي تستورد منها هذه النباتات ومنافعها

(شجرة البقرة) ان هذه الشجرة من « كرا كاس » وساقها معتدل باسق . وطول أوراقها بين ٢٥ و ٣٠ سنتيمترا في عرض عشرة سنتيمتر . وثمرتها كالبنديقة الخضراء . وترجع شهرة هذه الشجرة الى طبيعة ألبانها التي تحاكي من كافة النواحي لبن البقرة ولذلك فان اهل « كرا كاس » يتغذون منه . ويمكن الحصول عليه بحزّ ساق الشجرة في عدة نواح . ولقد أثبت المسيو « ريفيرو » والمسيو « بوسينجو » ان صفات هذا العصير

السكرى كصفات لبن البقرة مع فارق بسيط هو أنه لزج قليلا وله رائحة كرائحة البلسم أما خصائصه الكيميائية فاتها تختلف عن خصائص ألبان البقر إذ الأحماض لا تؤثر فيه أما «الاسبرتو» فإنه يؤثر فيه الى درجة معينة حيث يجمد قليلا اذا أضيف له قدر منه واذا وضع في «حمام ماري» استخرج منه عطر كذلك الذي يستعمل في ايطاليا لتطيب القفازات . ولكنه مع ذلك يختلف مع سائر العصارات اللزجة لانه لا يشمل أى كمية من الكاوتش وقد زرعت هذه الشجرة في بروكسل . ومن باب أولى أن تزرع في مصر لاستعمالها غذاء وواسطة لاستخراج عطرها . وتصديره وتصدير هذه الألبان في زجاجات خاصة

﴿ذات اليد﴾ وهي شجرة يغطي قم فروعها وبر أشقر اللون وتستعمل ثمراتها المحمرة في اسوداد لعلاج الصرع ويمكن استيراد هذه الشجرة من البرازيل كما يمكن استيرادها من أوروبا بأبخس الأثمان ومن السهل شتلها بواسطة الفسائل في فصل الربيع ﴿حشيشة الورق﴾ وهي شجرة صغيرة من بلاد الصين ترتفع الى خمسة أوسنة أمتار ويستخرج لباب ساقها ليصنع منه الورق الناعم في الصين التي تصدر في العام ورقا بما قيمته ٦٤٩ و ٩٧٧ و ٣ (هاى لوان تايل) أى ريال ولكنه غير ثابت القيمة . وداأما يتراوح بين ٦٦ في المائة من الدولار وبين دولار وثلث . ولقد أدخلت هذه الشجرة الجميلة ضمن الزراعات المصرية في سنة ١٨٦٨ ونجحت نجاحا عظيما ولكن لسوء الحظ لم تستخدم في الغرض الذي جلبت من أجله وهو استخراج لبابها لصناعة الورق الناعم مع أن زراعتها في مصر من السهولة بمكان إذ يكفي وضع عقل الفسائل في بطن الأرض وتغطيتها بقليل من التراب فلا يمضي وقت قليل حتى تنبت

﴿شجرة الحرير﴾ وهي شجرة من نوع الأشجار العملاقة . وليس هذا التعبير لمجرد الخيال وإنما هو الحقيقة فإن المنيو (برتران بوكانديه) قد حكى أنه رأى في كازامانس مراكب طولها ١٥ مترا في عرض مترين ونصف تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار وتسع كل مركب من هذا النوع ثلاثين ثورا وستة عشر بحارا للتجديف وثلاثة رجال للعزف على الموسيقى . فضلا عن هذا فهي تحتوى على غرف ومطبخ وحمام الخ . أما نوعها فهو من المراكب السريعة ذات الشراعين والمجاديف . وهذا ما يكون عندنا فكرة من محيط ساق هذه الشجرة . غير أنها لا تعيش أكثر من قرن . ولذلك فإن الأهالي يزرعون شجرة منها عند ميلاد كل ولد من أولادهم فاذا ما بلغ الطفل السن التي تبيح له الاستقلال بمعيشته وجد في هذه الشجرة كل ما يلزمه لبناء منزله دون أن يمس باستمرار ثمنها

واذا ما بلغت هذه الشجرة سن الاتاج أثمرت فاكهة يخرج منها بر قطنى حريرى في كمية جسيمة تترامى على الأرض الى مسافات بعيدة تراها وكأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا . ويستخدم هذا الوبر في صنع الوسادات والسكبات وغيرها ويمكن غزله لاستخدامه في صناعات مختلفة . ولقد أدخلت هذه الشجرة في مصر بواسطة الدكتور فيجارى بك ويوجد منها نوع في قصر العينى ﴿أما حشيشة الملوك الشوكية﴾ فإن ارتفاعها يصل الى عشرة أمتار وساقها ضخمة وشائك . وتزرع هذه الأشجار بصنفها بذرة أو عقلة

﴿شجرة الدهن﴾ وهي شجرة متوسطة الطول وتزرع في الأراضي الرطبة من الصين . ولها لوز تحوى كل واحدة منها ثلاث حبات وأهميتها فيما يغطيها من طبقة دهنية بيضاء سميكه صلبة الى حد ما ويضيف الصينيون واليابانيون الى هذه المادة قليلا من شمع النحل وزيت الكتان لصنع الشمع الأبيض الذي يضىء مدة طويلة ، ولإستخراج هذا الدهن يجب سحق البذرة وإبقاء مسحوقها في ماء على درجة الغليان حتى تطفو المادة الدهنية على وجه الماء فيسهل استخلاصها ﴿ومن جهة أخرى﴾ هم يستخرجون من هذه الحبوب نربعا من الزيوت الصالحة للوقود ، وقد وجدت شجرة من هذه الأشجار بمدرسة الطب ، ولكننا لاندرى ماذا صنع بلوزها ، كذلك زرع في حديقة الروضة شجرة من هذا الصنف ، ولاندرى لماذا لا تزرع

هذه الأشجار في مصر مع أن زراعتها سهلة سواء من ناحية البذرة أو العقلة  
 ﴿ شجرة البهار ﴾ هي شجرة من مدغشكر طويلة جميلة المنظر، وتستخدم أوراقها وجلدها كبهار  
 ودواء. وهذه الشجرة تنمو في الحدائق المصرية. وتوضع أوراقها في الطعام خضراء. ولا بد لزراعتها في مصر  
 من الحصول على بذرتها من مدينة مدغشكر أولاً فأولاً  
 ﴿ شجرة الثعابين ﴾ وهي شجرة صغيرة في البرازيل طولها يقرب من متر. وتستعمل جذورها دواء  
 للشفاء من لسعات الثعابين. وهذه الشجرة تصلح في مصر فقط لأنها لا تزرع إلا في الطينة الصالحة للزراعة  
 والمناطق التي جهزت بمعدات الري وتزرع عقلاً  
 ﴿ شجرة الاراروت ﴾ وهي شجرة ذات جذور سكرية لها ساق طولها يقرب من متر ونصف متر.  
 وجذوع هذه الشجرة غذاء قوي للأطفال على ما نعرفه جميعاً. وهي تزرع على الخصوص في جزيرة الاتي  
 وأمريكا الجنوبية. وهي صالحة للزراعة في التربة المصرية  
 ﴿ السكثري الأمريكي ﴾ أو كثرى المحامي: وهي شجرة تدرّ اللبن الذي يتجمد في صلابة القشدة  
 ويستخدم في التأثير على القماش بإشارات لا تمحى، أما الفاكهة ذاتها فانهاء غذاء جيد، وتدخل هي والأوراق  
 في كثير من الأدوية، وهي تزرع بطريق البزور التي تجلب من البرازيل. ويمكن استخدام العقل (بضم  
 العين وفتح القاف) في زرعها بعد أن تنبت وتشتد في مصر. انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة

### بهجة العلم

في قوله تعالى أيضاً - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت  
 إن الذي أحيانا لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير -

يقول الله تعالى في أول هذه السورة - كتاب فصلت آياته - ويقول في سورة أخرى - يدبر الأمر  
 يفصل الآيات لعلكم تفلحون - ، إذن الايقان ببقاء الله تعالى مرتب على تفصيل الآيات ، فلايات  
 المفصلات في هذه العوالم هي التي تعطينا اليقين ، واليقين هو الذي لا يعتريه شك ، فهل لك أن أريك اليقين  
 في هذه الآية بعينك حتى تتمكن من نفسك كنص الآية ، وتعلم الى أي مدى وصل هذا القرآن اليوم ،  
 وهل تفصيل الآيات المورث لليقين إلا ما قام عليه البرهان أو ثبت بالمشاهدة . فهناك ﴿ عجبتين ﴾ إحداهما  
 من علم الحيوان ، والأخرى من علم الأرواح

### ﴿ العجبية الأولى التي هي من علم الحيوان ﴾

جاء في كتاب (بول بيرت) العضوبالاً كاديمية العلمي وأستاذ السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا  
 المترجم بقلم زوجته الاسكتلندية الى اللغة الانجليزية (وقد نقلت عنه في هذا التفسير كثيراً) فقد جاء فيه في  
 صحيفة (٧٩) و(٨٠) تحت عنوان « أنفاسوريا » مانصه :

« إنى سأريك نبأ عظيماً عن مخلوق مدهش غريب يختلف اختلافاً كثيراً عن سابقه ، وأين يكون هذا  
 الحيوان ؟ إنه يكون فيما تعافه النفوس وتحقره العيون مما يكون على جسم الحيوان الذي فسدت جنته  
 بالتفنن والنبات الملقى المزدرى ، وهذه المخلوقات أكثرها يسمى في علم النبات باسم (أنفاسوريا) وسترى  
 صورته قريباً . ولكن هناك حيوانات ليست منه عجبية الأشكال ومع ذلك ليست قليلة الفائدة . انظر الى  
 هذه الزباجة التي فيها الماء التي أحضرت فيها بعض اليريس (أى مثل البرسيم الخفاف المعروف في بلادنا)  
 أمسك الزباجة واجعلها بينك وبين ضوء الشمس حتى ترى بوضوح وتفصيل كل ما تحويه ، أنت ترى فيها

أشياء صغيرة تتحرك في الماء (انظر شكل ٤٣ الآتي قريبا) . إن المنظار الزجاجي يجعلك قادرا أن تبين هذه المخلوقات بطريق أوضح ، ولكن (المكرسكوب) يجب الاستعانة به لتكون الرؤية أكمل ، إن هذه كأنها نقط غير متميزة صورها ، وفي الحقيقة هي حيوانات تعيش وهي آلاف مؤلفة ، هأنت ذا ترى في الزجاجية حيوانات صغيرة ذات صور مختلفات وأشكال متباينات بعضها قد صغر جدا ، وليس يظهرها لعيوننا إلا الآلات الزجاجية المكبرة بمقدار عظيم جدا ، وآلاف مؤلفة منها تعيش في قطرة ماء . وهنا أخذ يسأل التلاميذ قائلا : من أين جاءت كل هذه الأشياء اللاتي أعشت أبعاركم ؟ ثم أجاب قائلا : إنها جاءت من العصف المأكول والتبن والبريس . ثم قل : كيف كان كل هذا ؟ وأجاب بقوله : هذه المخلوقات جافة كأنها بيض فهي تعيش هكذا وهي بهيئة طحلب لا يشعر به فوق سقوف المنازل وهي جافة أثناء الصيف ، فإذا نظرناها بالآلة المكبرة فانها تظهر لنا بهيئة حبوب صغيرة من رمل أخضر ، ولكن اذا أنزلنا عليها قطرة ماء وهي على هذه الحال فاننا نراها قد تحوّلت حالا وامتد جسمها وأخذت تبحث عن رزقها ومابه حياتها ، فإذا غاض ماؤها أو صار بخارا رجعت خامدة لا حركة لها ، جامدة لا حياة لها كما كانت من قبل متربصة هطول آخر من الماء ينزل عليها فتحيا به . هذه مخلوقات عجيبة ! ألسنت ترى ذلك ؟ وهذه تريك أن أعظم مايسرّ النفوس وأبدع العجائب ليس خاصا بالحيوانات الكبيرة (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)



(شكل ٤٣)

(أفلسوربا) لا ترى بالعين المجردة  
وقد طاشت في قطرة من الماء الآسن



(شكل ٤٤)

حيوان البكتريا وهو لا يرى بالعين المجردة

### العجيبة الثانية التي هي من علم الأرواح

نذكر في هذه العجيبة ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة « كل شيء » بعدد ٢٣٤ في يوم السبت (٣) مايو سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

#### توفيق دوس باشا يخاطب روح والده

##### زيارته لكيية علم الأرواح في لندن

لما سافر الوفد الحكومي المصري الرسمي إلى لندن برئاسة عدلي يكن باشا لمفاوضة الحكومة البريطانية في حلّ المسألة المصرية . رافق الوفد يومئذ سعادة الاستاذ الكبير توفيق دوس باشا بصفة مستشار قضائي وسعادة شريف صبري بك وحضرة الاستاذ عبد الملك حمزة بصفة سكرتيرين . وبعد وصول أعضاء الوفد الى لندن بقليل أخبر الاستاذ عبد الملك حمزة صديقه توفيق دوس باشا وشريف صبري بك انه من المهتمين بدرس علم الأرواح وأنه يود أن يدعوها الى زيارة « كلية علم الأرواح » التي تديرها المستر ستيد ابنة المستر وليم ستيد الصحافي الانجليزي المشهور الذي غرق في الباخرة « تيتانك » في سنة ١٩١٢ فسألاه عن هذه الكلية وأغراضها فقال لهما انها معهد علمي يؤتمه الأشخاص الذين يأنسون في أنفسهم قوّة الوساطة فيستحقن المعهد هذه القوّة فيهم بين الأرواح التي في الآخرة وسكان هذا العالم ككثيرين من العلماء الذين

يستغلون بعلم الأرواح يترددون على هذه الكلية لاجراء تجاربهم العلمية فيها فهمي ليست والحالة هذه دارامن دور النصب التي يدخلها بسطاء العقول ليدفعوا جنبها أو جنبيين مقابل (مخاطبة الأرواح) وهنا ندع الكلام لتوفيق دوس باشا لكي يصف لنا زيارته لتلك الكلية ، قال :

ولما سمعت هذه المعلومات من الاستاذ عبد الملك حمزة تولدت في رغبة في زيارة كلية علم الأرواح لأميظ اللثام عن حقيقة ما كنت أعتقدته تدجيلا ، فرافقني حضرته اليها ومحبنا شريف صبرى بك ولما بلغناها قدمنا للسزستيد فطلبت منها أن تحيلنا الى وسيط من القادرين على مخاطبة الأرواح فمرتفتنا بشخص اسمه المستر بيتر ولما اختلينا به طلب إلى أن اضمر الشخص الذي أريد أن يستحضر لي روحه بدون أن أسر اليه باسمه فاضمرت والدي جلس الرجل على كرسي أمامنا وماهى الاثوان قليلة حتى أخذت عضلات وجهه وشرايين حلقه تنفخ انتفاخا أزعجني منظره ثم لم يلبث أن نام نوما عميقا وأخذيتكم باللغة الانجليزية وهى اللغة التي كان والدي يجهلها تماما فقال لي : « أنا والدك » فقلت له « وما ذلك على ذلك ؟ » فقال « أنا أطول منك قليلا » فقلت : (هذا لا يكتفى) فقال (وأخف قليلا) فقلت « وهذا لا يكتفى أيضا » فقال (ولى لحية خفيفة لعب الشيب بجزء منها) فقلت له (وكيف انتقلت إلى العالم الثاني ؟) فقال . (بعملية عملت لي هنا) (وأشار الى مكان الأمعاء والمثانة والكبد) فقلت له . (هذا لا يكتفى) فقال . (عمل لي العملية طبيبان وفي أثناء انهما كهما بعملهما دخل عليهما طبيب ثالث وعاونهما . ولما انتهوا من مهمتهم قالوا لكم ان العملية نجحت ولكنني توفيت في اليوم التالي) فقلت . (وهل تعلم لماذا نحن في لندن ؟) فقال (لأجل مسألة كبيرة) وفتح ذراعيه على وسعهما فقلت . (وهل تنجح فيها ؟) فقال ( كلا وبجانبى سيدة تزاحنى لكي تخاطبكم بدلانى . ) وهنا أخذ الوسيط يتكلم بلسان هذه السيدة فوصفت نفسها وصفا ينطق تماما على عمه زوجتي فقلت . (وهل لك أولاد ؟) فقالت لي . ( ابن وابنة ) فقلت . (وهل هما بعيدان عنك ؟) فقالت ( بيني وبينهما بحر كبير ) فقلت . (وهل هما في مصر ؟) فقالت . ( كلا )

قال لنا توفيق باشا . (واذا استئنينا هذا الجواب الأخير (أى هل هما في مصر فأجابت كلا) فان جميع الأجوبة السابقة والبيانات التي تضمنتها تطابق الواقع . وقد عزوت ذلك في بادىء الأمر الى مايسمونه علم قراءة الأفكار وقلت في نفسى ان هذا الوسيط له قوة قراءة أفكارى فيسترشد بها على الاجابة على أسئلتى ولكن هذا الاعتقاد زال عني لما قال لي الوسيط . (ان هناك سيدة تزاحم والدي لتتكلم معى) فاني لم أكن أفكر قط في عمه زوجتي ساعتئذ لكي يقال ان الوسيط قرأ أفكارى في صدها أيضا ولذلك لأعرف كيف أعلن هذا الحادث على الاطلاق

ومضى توفيق باشا في حديثه معنا فقال . (وقيل لي بعد ذلك ان في الكلية وسطاء لهم قوة استحضار وجوه الأرواح بحيث يستطيع تصويرها بالفوتوغرافيا فذهبت الى الكلية في يوم آخر مع شريف صبرى بك وعبد الملك حمزة بك وأخذت معى زجاج التصوير (البلاك) منعنا لكل تلاعب ولما قابلنا المسزستيد قلت لها . اننى أريد تصوير وجه والدي) فقادتني الى أحد الوسطاء القادرين على استحضار وجوه الأرواح فدعانا الى قاعة طليت جدرانها باللون الأبيض وأجلسنا على ثلاثة كراسى متلاصقة وأخذ يرتل بعض الصلوات والأناشيد الدينية ثم فتح آلة التصوير وصور بها ولما انتهى من عمله أخذت زجاج الصورة وكان شريف بك قد وقع عليها بامضائه لثلا تستبدل بلوحة غيرها وعينت بتحميمها في محل للتصوير باشرافى فاذا بالصورة التي ظهرت فيها تختلف عن اللاح والدي تماما فقصدت في الغد الى المسزستيد وقلت لها : (انكم تسخرون منا فان الرسم الذي ظهر في الصورة ليس رسم والدي) مطلقا فقالت « قدي يحدث ذلك أحيانا ويكون سببه أن شخصا أقوى من والدك على تصوير نفسه بواسطة الوسيط يزاحه على الصورة فينجم عن ذلك أن يظهر رسمه بدلان من رسم والدك

قلت لها : اننى سأعطيك الآن فرصة أخرى لاقامة الدليل على صحة كلامك فهيا بنا الى الوسيط ولما اجتمعنا به قلت لهم ( اغلقوا الباب ) فأغلقوه فناولتهم زجاج التصوير فوضعه في الآلة أمامي ، فقلت للمسترسيد عندئذ : ( اننى سأطلب من الوسيط رسم وجه والدك المسترسيد وأظن انه أقدر الأرواح على تصوير نفسه ولا يستطيع أحد أن يزاحه على ذلك وقد أمضى حياته في درس علم الأرواح ، فأخذ الوسيط يرتل وينشد الاناشيد الدينية وبعد قليل التقط الصورة ولما حضاها ظهر فيها رسم المسترسيد فجزت في تحليل هذا الحادث فقلنا لتوفيق باشا : ( هل لاحظتم في أثناء التقاط الصورة أن هناك شبعا غريبا ظهر في القاعة ؟ ) فقال : ( لا مطلقا ) فقلنا . ( إذن كيف يظهر على زجاج التصوير رسم لوجود لصاحبه في القاعة ) فقال ( سألتهم عن ذلك فكان جوابهم أن عدسة آلة التصوير أقوى من العين جدا وانها لذلك تستطيع رؤية شبح الروح الذي لاتراه العين العادية ) فقلنا . ( وهل أتم واتقون من أنه لم يقع تلاعب في زجاج التصوير ؟ ) فقال ( أنا واثق من ذلك ولا فائدة ، من أن تتعبوا أنفسكم بالأسئلة فقد اتخذت يومئذ جميع التدابير التي خطرت لي لمنع أى غش كان ) فقلنا له ( وكيف تعلقون ذلك ؟ ) فقال ( اننى لأؤمن بعلم الأرواح ولكنني لأجد تعليلا لما روئته لكم ) فقلنا . ( ألم تسألوا المسترسيد عن التعليل ؟ ) فقال . ( سألتها فكان جوابها لوجاءك رجل من عشر سنوات فقط وقال لك انهم سيخترعون تليفونا لاسلكيا أفلا كنت تقول عنه انه مصاب بمس في عقله فلماذا لا يعقل أن تقتنع بعد سنوات بصحة علم الأرواح وحقيقته ) وهنادفع اليها توفيق دوس باشا بالصورة التي صورت يومئذ بحضوره في كلية الأرواح فنشرنا اثنين منها مع هذا الحديث ، وهاك صورتها . ( انظر شكل ٤٥ و ٤٦ )



( شكل ٤٦ )

توفيق دوس باشا والى يساره شريف صبرى بك  
والى يمينه عبدالملك حمزه بك وفوقهم الرأس الذي ظهر في الصورة  
عند استحضار روح والد توفيق باشا . وترى في أعلى إضاء  
شريف بك على زجاج الصورة



( شكل ٤٥ )

رأس المسترسيد كما ظهر في الصورة التي صورت لوجهه بحضور  
توفيق باشا دوس

ولما كتبت هاتين الجيميتين حضر صديق العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : وما يفيدنا في هذه الآية من هاتين الجيميتين ؟ أنت أوضحت لنا في الجيمية الأولى كيف تكون الحيوانات الدقيقة معدودة بالآلاف في قطرة ماء ، وانها تموت اذا فارقتها الماء وتحيا اذا وصل اليها ، فالموت والحياة يتناوبانها ، وقصصت علينا في الثانية نبأ رجل مصري في البلاد الانجليزية خاطب والده الميت واحدى قربياته واحترس أشد الاحتراس في المحاورات وفي أخذ الصور وتصويرها . فأى علاقة لهذين بالآية ؟ الله تعالى يقول - ومن

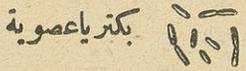
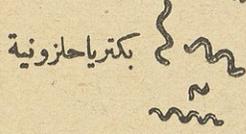
آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحبي الموتى انه على كل شيء قدير - . فقلت : إن هاتين الحجبتين مناسبتان للآية أشد المناسبة . لقد تجلى في الحجبية الأولى أن الحياة شاخصة أمامنا في كل ما يحيط بنا . فهذه الأوراق والخطب والوقود وكل ما يحيط بنا تعلق به مواد لانهاية لها . وهذه المواد الدقيقة تحيا اذا جاءها الماء وتفارق الحياة اذا تحلى عنها . إذن الموت والحياة في المواد المحيطة بنا كالنوم واليقظة ، فواتها وحياتها أشبه شيء بنوم النحل والزناير مدة الشتاء واستيقاظها في زمن الربيع ، وهكذا نوم أمثال الحيات والثعابين شتاء واستيقاظها في زمن الربيع وبعض السمك في الطين اذا جف وفي الثلج اذا تراكم عليها ثم تقوم هذه اذا نزل الماء على الطين وذاب الثلج . ولقد تقدم في آخر سورة الأعراف أن بعض حبوب القمح تحتوي على أكثر من عشرة آلاف حيوان ، نجف هذه الحيوانات بعض العلماء وبعد التجفيف نذاهها بالماء فرجعت لها الحياة ، بل تمدى العلامة (بيكر) فندى القمح بالماء بعد ما جف (٢٨) سنة فرجعت الحياة ، وقد جزم العلماء بأن تلك حياة جديدة . إذن الحياة والموت أمران عاديان حولنا ، وهذه الحيوانات التي لانها تموت ثم تبعث ثانيا والحياة والموت عندها أمران عاديان ﴿وبعبارة أخرى﴾ ان الموت ليست له تلك القيمة والخوف التي جسمها الانسان

هذا ما نقرؤه في تلك الحيوانات المحيطة بنا الصغيرة ، وهذه الحال بعينها هي حالنا ، فاذا رأينا الحيوانات الضعيفة تحيا وتموت ولا حاجز بين الموت وبين الحياة إلا شفاف رقيق ، هكذا رأينا الأمر بالنسبة لأنفسنا نحن ، يعيش الانسان أمدا ما ويكون له أصدقاء وذرية فيموت أو يموت أهله أو ذريته أو أصدقائه فيخلع اليأس قلبه قائلا «إني مفارقهم الى الأبد» فنتسمع أولا أرباب الديانات وكبار الفلاسفة يقولون . كلا . لا موت وإنما هو ثوب نزعتموه ولبستم ثوبا آخر ، فيشك أكثر الناس ويقولون . كلا . لم نر شيئا من ذلك فاقتضت الحكمة أن تحضر الأرواح فتظهر فيشك قوم أيضا ، فيبحثون حتى يصل بعضهم الى الحقيقة فيطمئن لها ويبقى آخرون حتى يعرفوا أن نتيجة القارورة والماء الذي فيها في الحجبية الأولى وحضور الأرواح في الحجبية الثانية واحدة ، ومعنى ذلك أن الانسان لا يموت لأن روحه المتصرفة في جسمه هي التي تبقى بعد الموت في جسم شفاف كجسمه الحالي لأن هذه الأجسام التي نعيش بها أنوار متراكمة قد أظلمت بهذا التراكم ، فاذا تركنا هذه الظلمات رجعنا الى أنوار أخف منها ولكن على هيئة هذا الجسم فصرنا في حالة إطلاق لا غير ، غاية الأمر أن هذا الجسم الذي هو مدرستنا يكسبنا العمل به نتائج نراها في حياتنا في الجسم الآخر اللطيف وليست هذه الظاهرة التي قدمناها في الحجبية الثانية فريدة في بابها ، فلها نظائر تعد بالآلاف المؤلفة ، وم في عالم الأرواح من عجائب ، وأن هذه الروح التي حلت محل روح ذلك المصري وظهرت صورتها في الصورة روح من الأرواح المتأخرة لأن هذا فعل صياني لا أثر للعقل فيه ، فقد ظهر عند العلماء اليوم أن الأرواح السخيفة في هذه الحياة هي أنفسها سخيفة بعد الموت ولها أربع درجات مشروحات في كتابي «الأرواح» ولعلك ترى هذا المقام مشروحا في آخر ﴿سورة الاسراء﴾ . فالروح السخيفة الطفلة في الدنيا هي نفسها السخيفة السمجة بعد الموت . وقد ثبت بظهور نفس صورة (استيد) المتوفى ثبوتا لا يشك فيه من صدق الخبر به أن الأرواح تكون بهيئتها بعد الموت ويعرفها الناس في الدنيا . أي ان الأرواح بعد الموت بتلك الهيئة الدنيوية لا أقل ولا أكثر . وبالاختصار ان العلم الآن قد قرب لنا مسافة الحياة بعد الموت لنفهم سر قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحبي الموتى انه على كل شيء قدير - . وذلك ليرجى قلوبنا من مخاوف العدم المحض . فالحياة إذن مستمرة والسعادة بالأعمال الصالحة . كتب صباح يوم الخميس (٨) مايو سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الفصل الأول من اللطيفة الخامسة

## إيضاح لما تقدم

ثم حضر عندي صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير . فقال : لقد شاقني حديثك في الخلوقات الخافية الدقيقة ، وأبهجني ما شاهدته منها الآن في الرسم والشرح ، فهل تشرح صدرى بالاقاضة في هذا الموضوع فانه جيل . فقلت : إن أكثر النبات هو الملائم ، وما نراه قليل بالنسبة لما لا نراه . فقال : فهل ترى بعض الملائم بالعين المجردة ؟ فقلت : انظر شكل ٤٧ وشكل ٤٨ وهذه صورتها

بكتريا كروية %



(شكل ٤٨)



(شكل ٤٧)

فقال ما هذا ؟ فقلت هذا هو أصغر نبات وهو مركب من خلية واحدة . فقال ما معنى خلية ؟ قلت الخلية لها :

(١) غشاء رقيق يحيط بها

(٢) وفي داخلها مادة تسمى (البروتوبلازم)

(٣) وفي هذه الثانية نواة هي أصل الحياة

فقال : هي إذن أشبه بالبيضة لها قشر وها

بياض ولها ع وهي المادة الصفراء ومن هذه يكون الفرخ . قلت : والله لقد أصبت الحزن ونظقت بالصواب ، ما الخلية التي أمامك إلا بيضة ، حسن جدا . فقال : إذن هذه البيضا التي يسمونها خلايا التي هي أممي الآن ومنها الكروية والحلزونية والعصوية هي أصغر الأحياء في العلم . قلت : كلا فإن هناك ما هو أصغر منها ولم يدركه الناس . فقال عجبا ! فقلت لا تعجب فإن المناظر المقربة لما رصدت الكواكب العظيمة ، ورأت أن المسافات في البعد قد وصلت إلى مئات الملايين من السنين في بعد الكواكب عنا أخذوا يخترعون مناظير مقربة بحيث يكون قطر عدسة المنظار (٢٠٠) بوصة ، وسيتم قريبا ، ومتى تم يجدون من الكواكب ما لا نحلم به الآن . فهام أولاء لم يصلوا لأقصى ما هو عظيم وبعيد كما لم يصلوا إلى أصغر ما هو قريب ، وكلما عرفوا مخلوقا منها بحثوا عما وراءه ، وهذه الخلايا النباتية التي أمامك تصل في الصفرا إلى واحد من الألف من المليمتر . وقد قلت لك ان هناك ما هو أدق من ذلك والمناظير المعظمة لم تستطع رؤيته . فقال : أنت قلت انها نبات . فقلت نعم . فقال النبات يتنفس وينمو ويتغذى ويتوالد . فقلت : هذه تتغذى بالسوائل والغازات وتعيش في كل مكان ، تعيش في الهواء وفي الماء وفي التراب ، فهي مقيسة على العوالم التي حولنا والتي في الهواء تنفس منه والتي في غيره تستخرج منه ما تحتاجه ، ومنها ما يتغذى بأجسام حية تسمى طفيلية ، ومنها ما تعيش على الأجسام العسوية غير الحية فتسمى (الرمية)

وأما التي تعيش على ماليس مادة عضوية فانها قليلة ، وأما توالت هذه الأنواع فإما يكون بالانقسام متى وجدت أفرادها ما يلائمها . فقال : يظهر لي أن النبات المعلوم لنا كالقمح والقطن أسرع نموًا من هذا . فقلت كلا . فقد قال العلامة فيشر : « إذا تكاثرت بيضة واحدة أي خلية واحدة في مكان ملائم فانها تنتج في مدة (٢٤) ساعة (٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) و يبلغ زنة هذا نصف مليون رطل ، فقال : يا عجبا هذه الخلية التي أمامي التي لا تزيد عن واحد من الألف من المليمتر تتكاثر في ٢٤ ساعة فتصير نصف مليون رطل أعني خمسة آلاف قطار . فقلت نعم . فقال : إذن إذا كانت في الماء والهواء والتراب فعني هذا أن هذا الموت يحيط بنا من كل مكان . فقلت نعم والحياة ، ففي هذه الخلوقات منافع ومضار . فقال هل هذه تتحمل الحرّ والبرد كالنباتات المعروفة . فقلت انها أقوى منها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت انها اذا كانت في

حالة حياتها تتحمل البرودة تحت الصفر الى الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلا وهي درجة (١٩٠) تحت الصفر ، ومعنى هذا أننا كما نرى البخار اذا قلت حرارته صار ماء ودرجة حرارته فوق الصفر ، هكذا اذا نزل الهواء تحت الصفر الى درجات تبلغ (١٩٠) فانه يصير سائلا ، فهذه الخلايا التي تعيش بيننا لاتموت في هذه الدرجة ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من (٥٥) درجة فوق الصفر ، فهي إذن ذات قدرة عظيمة تفوق قوة النبات والحيوان المعروفين . فقال : أنت قلت انها لاتموت في هذه الدرجة ، فهل معنى هذا انها تكون كالنباتات المعروفة ذات حياة . فقلت نعم . فقال : ومتى تخمد تلك الحياة . فقلت تخمد وتصير أشبه ببيضة الدجاجة اذا صادفت وسطا لا يلائمها . فقال : فاذا يحصل ؟ قلت يحيط بها غلاف سميك يحفظها كقشر البيضة وهناك تعيش سنين كما تقدم في المقال الأول موضعنا وتبقى الحياة كاملة ، ومتى صادفت وسطا مناسباً رجعت لها الحياة ورمت القشرة الحافظة وعاشت حالا كما تقدم . فقال ماصورتها ؟ فقلت هاهي ذه (انظر شكل ٤٩)



(شكل ٤٩)

فقال : ههنا أريد أن تبين كيف تكون هذه نافعة ؟ فقلت لولاها لم نعش على الأرض . فقال أوضح . فقلت إن هذه يسمونها (البكتيريا) وهذه منها نوع يسمى (بكتريا التعفن) وذلك انها هي التي تحلل المواد المركبة المنبثقة في الأرض وترجعها الى عناصرها الأولى ، وبهذا يمكن النبات أن يمتص من الأرض غذاءه . فهذه الجنود المجندة هي التي تعين على نمو النبات . فهي أشبه بالطحانيين والمجانين والحبازين لنوع الانسان عليهم تتوقف حياة كثير من الناس . فقال : والله إن هذا لعجب ! فقلت إن النبات كالعطن والقمح لا يستطيع أن يتعاطى عنصر (الاوزوت) مثلا وهو من أهم العناصر المكونة للنبات إلا بحالة خاصة وهذه الحال الخاصة لا تحصل تكوين الجراثيم في البكتيريا إلا بعمل هذه الخلايا في المواد العضوية المعقدة التركيب . إذن هذه نعمة من الله على الناس - إن الله ليرفض على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون - وكيف يشكرون وهم يجهلون . وبهذا ظهر السر في أن هذه النباتات في حال خودها كما في (شكل ٤٩) تقدر أن تتحمل الحرارة الشديدة وتأثير المواد السامة أكثر من التي هي غير خامدة بل حية ، ويسمون الحية خضرية . والتي خدت يسمونها بالجراثيم . فقال إذن هذه النباتات التي لا ترى تقوم بتحليل العناصر والنبات المعروفة عندنا تقوم بتركيبها . قلت : لقد أحسنت ، فلولا صحة التحليل وصدقه ما أمكن التركيب . فقال : وهل لها فعل غير هذا ؟ قلت كثير :

(١) بعض أنواعها يكون سببا في الخلل ، ذلك كما قلنا انه يحيط بنا : فهو ينزل في نحو النبيذ والجمعة فينمو ويتكاثر فيكون الخلل

(٢) ولا يمكن دبع الجلود إلا بعد قيام نوع آخر منها بعملية خاصة فيها ، وهذه الزبدة التي نأكلها لا يحسن طعمها ولا رائحتها إلا بعد أن يختمر اللبن بنوع من هذه المخلوقات الخفية . وهكذا اللبن ان يكون (لبناز باديا) إلا بواسطة هذه المخلوقات . فهي التي تتكاثر فيه حتى يختمر . إذن هي تحضر لنا غذاءنا كما تحضر للنبات غذاءه

فقال : إذن فاذ كر لي ضررها ؟ فقلت هي تدخل امراضا كثيرة في الانسان بطرق مختلفة ويجب على الانسان أن يتقيها وأول من أوضحها الاستاذ (باستور) فيهما :

(١) مرض التسمم

(٢) والاطاعون

(٣) والتيفود

(٤) والتيفوس

## (٥) والالتهاب الرئوي وهو السل

ويدخل للإنسان بالأول من طريق الجرح في الجلد ، وبالثاني من طريق البراغيث ، وبالثالث من طريق القمل ، والرابع من طريق الغذاء جريا في القناة الهضمية ، فيكون هنالك الاسهال الشديد والسل الرئوي والتيفود كما قدمنا . كل هذا سببه هذه الحيوانات . وبالخامس من طريق الرئتين وللوقاية من هذه نجب النظافة واستعمال المطهرات والمعقمات في الأول ، والنظافة وابادة الحشرات في الثاني والثالث . وابادة الذباب واستعمال الماء النقي وتعقيم اللبن وحفظ الأغذية في أما كن نظيفة وهكذا في الرابع ، وتجنب الأما كن التي فيها التراب ، ومعالجة الزكام والبرد بسرعة ، وتجنب البصق ، والابتعاد عن المرضى ، وتناول الطعام الجيد ، والمحافظة على الصحة بوجه عام في الخامس

فما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد أحسنت وشرحت صدري ، ولكن هل هذا نعمة ؟ قلت أجل نعمة فهذا يعطي الناس دروس الجِدِّ والاجتهاد في الحياة . فإذا كان بعض هذه الجرائم الخضر والحيوانات الدنيئة تقوم بتحليل المواد العنصرية ليعيش زرعنا ويدرّ ضرعنا فهما هي ذه بعضها تقوم بتقويم العقول وتنمية الملكات وتهذيب الأخلاق ، فهي التي تدعونا لتنظيف أمكنتنا وثيابنا وطعامنا وشرابنا ونكون رجالا نشطين لا خامدين . إذن هذه جيوش مرسلة من الله لاطعامنا ولاحداث النشاط فينا بسبب مقاومتنا لها ، ومماثل هذه النباتات النورية التي تحلل العناصر لتغذية النبات فعيش بها ، والتي تحدث الأمراض من طريق الجلد والقناة الهضمية والرتة إلا كمثل النحل ودودة الحرير وهكذا الحيات والعقارب فكما أن الحيات والعقارب والحشرات الأخرى تحمنا على تنظيف أفئتنا ومنازلنا وثيابنا ، والنحل ودود القز تفيدنا غذاء وملبسا هكذا هذه النباتات فيها القسمان الضار والنافع ، فبالضار يكون الاحتراس والابتكار والاختراع وتقدم الطب وانشاء الكليات ومدارس الطب وارتقاء علوم كثيرة ، وبالنافع يكون نمو النبات ومنافع أخرى كصلاحية الزبدة والحل للتعاطي فقال : لقد استوفيت هذا المقام ، فأرجو أن تبين لي هل هذه الجرائم والخلايا النباتية التي شرحتها الآن ذات ألوان كالنباتات المعروفة ؟ فقلت هي ثلاثة اقسام ، قسمان منها لالون لهما ، والثالث له لون وهو الطحلب واللذان لالون لهما أحدهما يسمى الفطر والثاني يسمى البكتريا ، فقال

البكتريا ماترى في (شكل ٥٠) الذي أمامك الآن



(شكل ٥٠)

رسم العقد التي تشاهد على جذور النباتات البقلية

هأنت ذا شاهدت العقد المحيطة بهذه البكتريا العقدية ، أتدري من أين أتت هذه العقد ؟ أتت من تلك الجرائم ، فانها تعيش وتتكاثر فوق النبات وتتغذى بطعامين اثنين : طعام هو الكربون الذي في الشجرة ، وطعام هو الاوزوت الذي هو أحد أجزاء الهواء فلا يزال يتكاثر حتى يموت بانتهاء آجاله ومن الذي يرث هذا الميت ؟ يرثه نفس هذا النبات الذي قبله في ضيافته فخلّ بساحته ، فإذا يجد النبات عند حصر التربة ؟ يجد أن الكربون الذي تمثل في جسم تلك النباتات الصغيرة موفرا بحاله ومعه أمر آخر وهو الاوزوت الذي حصله ذلك الضيف من الهواء وهو كان قبل ذلك محتاجا اليه ليقوى به . إذن هذه النباتات نافعات للنبات من جهة ومن جهة أخرى تكسب الأرض خصوبة باضافة أوزوت جديد الى تربتها

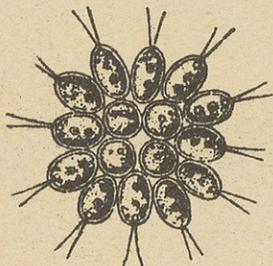
فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أودّ أن توضح لي مسألة الطحلب . فقلت سأريك الآن العجب العجيب في مسألة الطحلب . وذلك ماستراه من الأشكال البديعة في الصفحات التالية . فهناك ماجاء في كتاب «علم النبات» وهذا نصه

## الطحالب

الطحالب نباتات ثالوسية مركبة من خلية واحدة أو من خلايا عدة ، وهي بسيطة التركيب لا تتميز فيها جذور أو سوق أو أوراق ، وتحتوى خلاياها على مادة الكلوروفيل ، وتعيش في الماء المالح أو العذب ، والقليل منها يعيش في التربة أو على جذوع الأشجار

والطحالب أهمّ غذاء للأسماك ، ويستخرج من بعضها اليود والبوتاسا ، ولدراستها أهمية عظيمة من الوجهة العلمية إذ أنها في بساطة تركيبها وطرق معيشتها تساعد على تعريف طرق معيشة النباتات المائية . ومن المتفق عليه أن الكائنات الحية نشأت في الماء . والطحالب على أنواع تختلف في ألوانها وأحجامها :

{ الطحالب الخضراء } تعيش طافية على سطح الماء أو مثبتة على الصخور الواقعة على الشواطئ معرضة للضوء . وهي في الغالب صغيرة الحجم . وحيدة الخلية . أو كثيرة الخلايا . مكوّنة خيوط متفرّعة أو غير متفرّعة أو مستعمرات (انظر شكل ٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ٥٤)



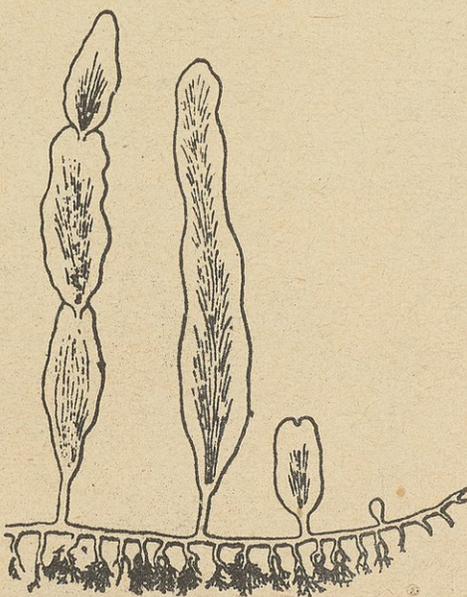
(شكل ٥٢)

مستعمرة من الطحالب الخضراء



(شكل ٥١)

طحالب خضراء وحيدة الخلية



(شكل ٥٣)

طحالب أخضر وحيدة الخلية أعضاؤه تشابه أعضاء النباتات الراقية

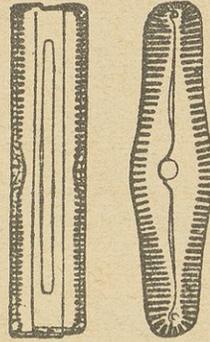


(شكل ٥٤)

طحالب زرقاء مخضرة

(الطحالب)

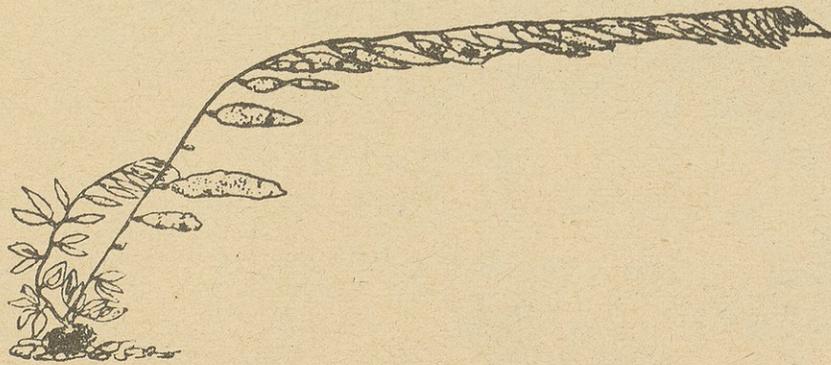
﴿ الطحالب البنية ﴾ تعيش على عمق يسير من سطح الماء . أوطافية عليه . ومن هذه أنواع مركبة من خلية واحدة يحيط بها هيكل سيليسي (انظر شكل ٥٥) وعند موتها ترسب هياكلها وتتكون منها طبقات سيليسية



شكل ٥٥ - طحالب بنية وحيدة الخلية (دياتومات)

وفي الغالب تكون الطحالب البنية مثبتة على الصخور الموجودة على مستوى ماء الجزر فتعرض للضوء مدة الجزر وتحتفي قليلا مدة المد . وهي تختلف في أحجامها من طحالب صغيرة الى طحالب كبيرة الحجم ﴿ الطحالب الحمراء ﴾ تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر . وأغلبها صغير الحجم خيطي التركيب . وكل الطحالب على ألوانها المختلفة تحتوي على مادة الكلوروفيل ولكنه يوجد في الطحالب البنية والحمراء فضلا عن الكلوروفيل مواد ملونة تخفي لونه الأخضر

ومن الطحالب ما يماثل النباتات الراقية في وجود مثبتات لها تشبه الجذور يعلوها جزء اسطوانى يشبه الساق ويخرج منه ما يشبه الأوراق . وقد يبلغ الواحد منها أحيانا حجم شجرة كبيرة . وتتكاثر بعض تلك الطحالب الكبيرة كالسرجاسوم (انظر شكل ٥٦) في مناطق معينة . منها منطقة في المحيط الأطلسي تعرف ببحر سرجاسو . ولشدة تكاثرها وكبر حجمها تعد خطرا على الملاحة في هذه المنطقة . وبعض الطحالب الحمراء يفرز هيكلا خارجيا من كربونات الكالسيوم يحيط به ويساعد على تكوين الشعب المرجانية (انظر شكل ٥٦)



( شكل ٥٦ - السرجاسوم : أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم )

### الفُطْر

الفطر تشبه الطحالب في بساطة تركيبها . غير أنها كالبكتريا خالية من الكلوروفيل . ولا تعتمد الكلوروفيل فيها تأثير كبير على طرق معيشتها . فهي غير قادرة على تمثيل الأغذية غير العضوية . ولذلك تحتاج الى مواد عضوية مجهزة . وتنقسم الفطر بالنسبة لمصدر غذائها الى قسمين :

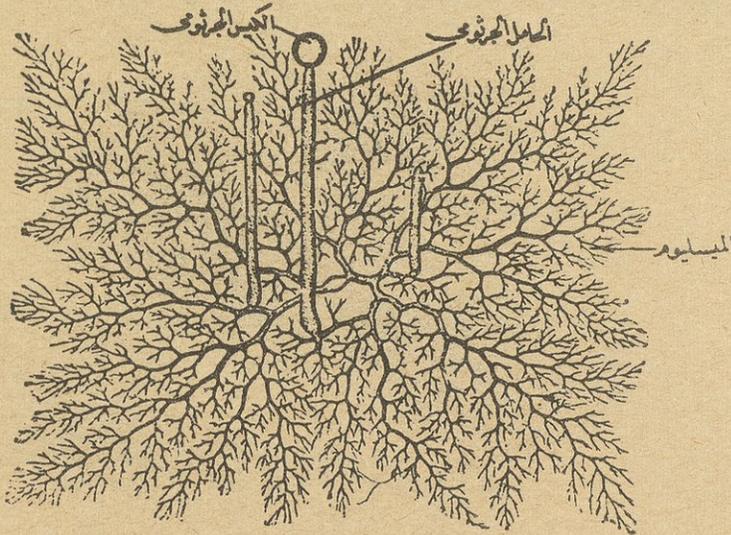
(١) فطر رمية وهي التي تتناول غذاءها المجهز من المواد العضوية الميتة . ولهذا الفطر أهمية كبيرة في الطبيعة إذ أنها تساعد البكتيريا على تحليل المواد العضوية الميتة وتحويلها الى مركبات بسيطة . وبعضها يسبب فساد كثير من المواد الغذائية . فتعفن الحبوب والمربات وكثيرا ما يتسبب عن إصابة هذه المواد بأنواع مختلفة من الفطر

(٢) فطر طفيلية . وهي التي تتناول غذاءها من (بروتوبلازم) الكائنات الحية مباشرة . ومنها ما يصيب النباتات فيسبب لها أمراضا مختلفة قد ينجم عنها خسائر فادحة في المحاصيل الزراعية

ومن الفطر ما يصيب الحيوانات والانسان . فالقراخ مثلا يتسبب من إصابة جلد الرأس بنوع من الفطر الطفيلية . والفرق بين الفطر الرمية والفطر الطفيلية غير واضح في بعض الأحوال لأن بعض الطفيليات قد يستمر على التغذى من عائله بعد موت ذلك العائل كما ان بعض الفطر الرمية قد يتحول الى طفيليات في ظروف خاصة

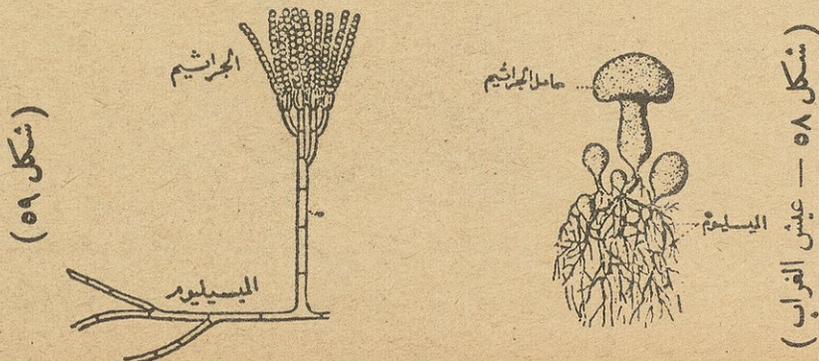
### ﴿ تركيب الفطر ﴾

يتركب جسم النبات الفطري إما من خلية واحدة كالحجيرة . وإما من أنابيب رفيعة كثيرة التفرع تسمى كل منها (هيفا) ومجموعة هيفات الفطرة الواحدة تعرف بالميسليوم كافي (شكل ٥٧) وقد تكون الهيفات مقسمة بحواجز عرضية (شكل ٥٨) أو غير مقسمة (انظر شكل ٥٧)



( شكل ٥٧ )

وقد تتكاثف هيفات بعض الفطر وتلاصق فتتكون منها كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما هو الحال في «عيش الغراب» (انظر شكل ٥٨ و ٥٩)



( شكل ٥٩ )

( شكل ٥٨ ) — عيش الغراب

﴿ جمال العلم في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدر فيها

أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين - ﴾

سبحانك اللهم شملتنا باحسانك . وبهرتنا بجمالك . ونحن الى جالك أشوق . والى علمك أكثر بهجة وأفرح قلوبا

سمعناك يا ربنا تقول - وقدر فيها أقواتها - . فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات . فوجدنا عجبا ! وجدنا أن أسبابها هي المشرقات الجيبات من الشمس والكواكب والأقمار . أدركنا الطرف الى تلك المشرقات فألفيناها لاتفتأ تلتقي الأشعة والأنوار على أرضنا الجميلة البهجة الحسنة . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لاخلل فيه ولاخطأ ولاخطل . ورأينا صيفا وشتاء وربيعا وخريفا وليلا ونهارا كلهم بحساب . ثم إن الأنوار الواصلة الى الأرض مختلفات ضعفا وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات في الأرض فقلنا لعل الحساب في تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلاحساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكننا لما نظرنا في أمر النبات وأخذنا نستقرئ أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأيناه موضوعا أيضا بدقة لأنه معمول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج في اليوم والليلة من الغذاء الى مقدار أقله نحو نصف كيلوجرام وأكثره نحو كيلوجرام . وسأئتي تفصيل هذا المقام في أول ﴿ سورة الجانية ﴾ فراجعه ولا تعول إلا على التفصيل هناك ولنسجل بعضه هنا فنقول

رأينا أن الانسان يحتاج الى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية ( آزوتية ) . ونوع هو مواد غير عضوية كالألاح المختلفة والماء . والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطا فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها ( كالورى ) أو ( سعر ) وبمجموع ما يحصل من جرام الدهن ( ٩ ) كالورى . وما يكون من جرام النشاء ( ٤ ) كالورى . وما يكون من جرام الزلال ( ٤ ) كالورى ، فإذا كان في الطعام ( ٣ ) كلوجرامات من كل واحد جرام كان فيه ( ١٧ ) كالورى ( سعر )

﴿ غذاؤنا لا بد فيه من مواد دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية ﴾

فالدھنية كالزيوت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه في طعامنا أليفنا في النبات وفي الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوة وطى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء . وتارة نكثر من الدهن . وتارة نكثر من الزلال . ثم اتنا لبا بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضا ففررنا أن ههنا حسابا موضوعا بدقة لنستعمل ما يوافقنا منه بعد التروى والبحث والتقيب . وهالك مثلا لذلك :

﴿ المواد النشوية ﴾

رأينا المادة النشوية تكثر في الارز والذرة والقمح والبرلة الناشفة والبقول الناشف واللوية الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرنب والطماطم والسبانخ والخمض وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقل من عشرة في المائة مواد نشوية . ونرى البقول السوداء والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروه وجوز الهند والفسدق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة في المائة .

### ﴿ المواد الدهنية ﴾

وترى المواد الدهنية تكثر في اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر فهني في هذه أكثر من النصف . وترى الدهن في الديك الرومي والأوز والضاني والبقري والبقول السوداني والبيض أكثر من عشرة في المائة . وزاه في القمح والتمر واللبن والبطاطس والبطاطة واللوية الخضراء وما أشبه ذلك قليلا جدا

### ﴿ المواد الزلالية (الآزوتية) ﴾

اننا نرى المواد الزلالية في الديك الرومي والأوز والفراخ والضاني والبقري والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والبقول السوداني والعدس واللوية الناشفة والبقول الناشفة والبرلة الناشفة في كل هؤلاء أكثر من عشرة في المائة . وزاهما أقل من عشرة في المائة في البرلة المقشرة وفي الكرنب والطمطم وهكذا عجبا يار بنا : وزنت سير النيرات . وأدهشتنا بعلم الفلك . ولكنك في خلق الحيوانات والنباتات وجدنا حسابك مر كبا مضاعفا . فانك جعلت أجسامنا مركبة من مواد دهنية ومواد آزوتية ومواد نشوية . وفس هذه المواد وجدناها بمقادير مختلفة . ثم سمعناك تقول في كتابك - وقدرفها أقواتها -

يارب تبا للجهالة . تبا للجهال . يسمع المسلم - وقدرفها أقواتها - فتمر عليه الكلمة غالبا كأن لم يسمعها . أوآه لأم الاسلام النائمة . أفلم يدبروا القول إذ جاءهم !

إن هذه المآ كل قد وزنتها الأمم حولنا ونظروا فيها نظراتهم . فهل يبقى المسلمون مكتوف الأيدي . إن للمسلمين بعد انتشار هذا التفسير لجولة ودولة وصوله واسعادا لنوع الانسان . هذه النباتات طلاسم وألغاز لايجلها إلا علماء جميع النوع الانساني لابهضه . والمسلمون يلفون نحو الجنس أوالربع من نوع الانسان ، فعملهم أن يقوموا بما عليهم حتى اذا درسوا ما أنتجته قرائح آبئهم . ثم ما أنتجته قرائح الأمم المتأخرة بعدهم قاموا إذن بنصيبهم من البحث في الأغذية وأنواعها قيما بحق قوله تعالى - وقدرفها أقواتها - إذ وضعها بوضع مقدر فكانت المواد النشوية والمواد الأزوتية والمواد الزلالية كل منها له نسب خاصة في المواد العضوية وذلك لاختلاف الآكين والأمرجة والأمكنة والأشخاص ، وذلك يعوزه كثرة البحث والتنقيب حتى تكون هناك نتائج بها يخص لكل قبيل ولكل امرئ ما يناسبه زمانا ومكانا ، هنالك تقل الأمراض وترقى العقول وتسدع الانسانية . ولن يتم ذلك إلا اذا ساعد الغربي الشرقي ، والشرقي الغربي ، في درس هذه الدنيا ونظامها ورموزها

### خطاب المؤلف لربه

يارب في القلوب حبك ، وفي العقول شكرك ، وعلى الألسنة ثناؤك ، لاسعادة في الحياة إلا بالحب ، ولاحب

إلا بعد العلم

تحبك الدواب والأنعام لأنك تسدى اليها الغذاء ، وتحبك العائمة من نوع الانسان لأنك تطعمهم من جوع وتغنيهم من فقر ، وهذا حب كح عبيد العصا يحسون بحب ساداتهم اذا رفعوا عنهم ضرب العصا ، فهو حب على دفع الألم بعد حصوله ، وهل اللذة إلا بعد الألم . ويحبك بعض آخر من العائمة لأنك فوق ماغذيتهم بالطعام ملكتهم منه كثيرا ، وأنعمت عليهم بالمال الوفير والخيرات والبركات وآتيتهم ملكا في الدنيا . ويحبك الأطباء لأنهم اطلعوا على أسرار الأغذية وخواصها فشفت بها مرضاهم . ويحبك الحكماء وحجهم لك أعلى من حب السابقين

### ﴿ تذكرة ﴾

اذا أردت أن تعرف كيف ترتب غذاءك فاقرا ماتقدم في آخر سورة ص عند قصة آدم عليه السلام ،

وفيه أيضا في آخر سورة طه ، وفي سورة الشعراء عند آية - وإذا مرضت فهو يشفين - وفي سورة الحجر وفي سورة الأعراف عند قوله - وكلوا واشربوا - الخ وفي سورة البقرة عند آية - أنسقبلون الذي هو أدنى بالنبي هو خير -

انهم يحبونك لعلمك الذي ظهرت آثاره في نحو تقدير الأقوات ولرحمتك التي تجلت في عنايتك باستيفاء أنواع أغذية الحيوان ، ولجمالك الذي تجلت آثاره في صور النبات وأشكاله وبدائع الحيوان ، ولحبك الذي أمد بعضه القلوب فأجبت الاحسان والجمال والكمال . إن سعادتنا بالحب . ولا كمال للحب إلا على مقدار العلم بالمحجوب . يصلي المسلم فيقول « الحمد لله رب العالمين » ويسبح ويكبر . فبالسبح يتصور أن ذلك المحجوب أرفع من كل ما يعلمه . وبالتحميد يتذكر إحسانه وعلمه فيزداد حبه . وبالتكبير ينسى كل مخلوق ويفرح بذلك الوجود الأكمل ، وهناك يفهم - وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا -

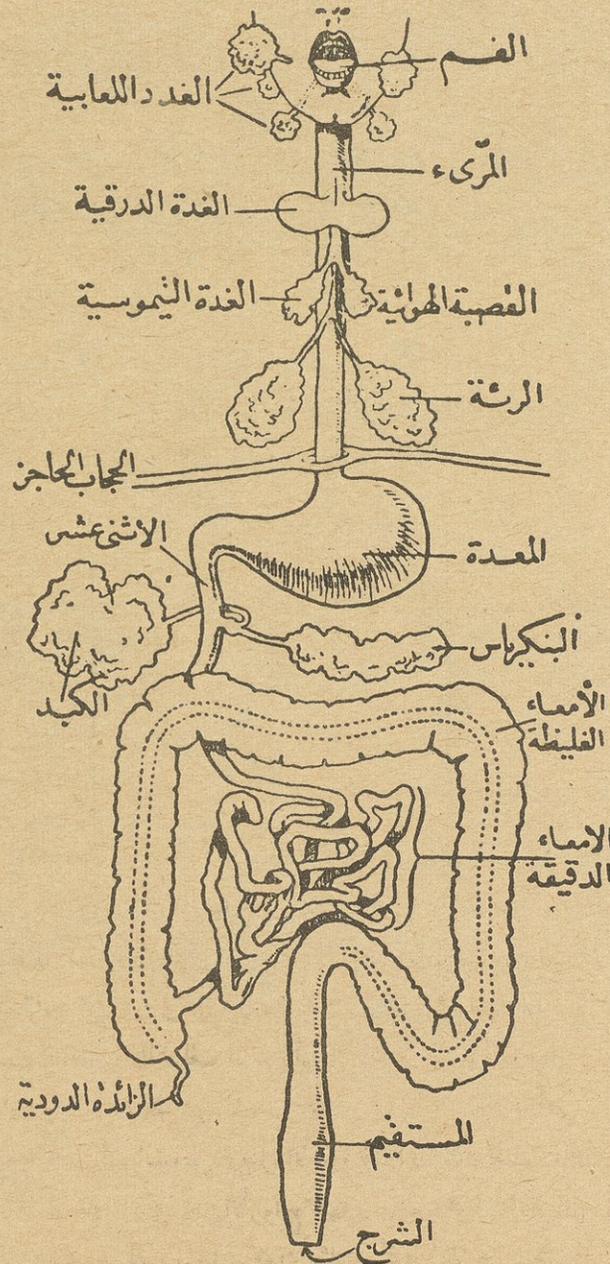
بازدياد العلم يزداد الحب . وبازدياد الحب تزداد السعادة . وأفضل سعادة الدنيا هو الحب . وأفضل سعادة الآخرة هو الحب

﴿ نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلبس القلوب حبا ويملؤها جلالا ويبرها أنوارا ﴾  
أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقها للجهاز الهضمي . ياسبحان الله : ترى الانسان يعوزه في اليوم ( ١٨٠٠ ) سعر اذا كان في فراشه . وقد عرفنا ما هو السعر فيما تقدم قريبا أن الذي يحده في الجسم هو المادة الدهنية والنشوية والاوزوتية . وهو يحتاج الى ( ٤٠٠٠ ) سعر إن كان في شغل شاق والى نحو ( ٣٠٠٠ ) اذا كان في شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث ( ٤ ) سعر ( كالورى ) ومن المادة الدهنية يحدث ( ٩ ) كالورى فلننظر في الذرة والقمح والسنوبر والفول السوداني فإذا نجد ؟ نجد الجدول التالي

القيمة الغذائية للطل المصري	نشوية	دهنية	آزوتية زلالية	ماء	الصف
١٥٦٤	٧٤ر٨	١ر١	١٠ر٨	١٢ر٨	قمح
١٥٤٧	٧٦ر٣	٢ر٨	٩ر٩	٩ر٣	أذرة
٣٠٤٠	١٧ر٣	٦١ر٩	١٤ر٦	٣ر٤	سنوبر
٢٤٣٤	٢٤ر٤	٣٨ر٦	٢٥ر٨	٩ر٢	فول سودانى

إنما اخترت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت في مقدار السعر وفي المقادير الدهنية والاوزوتية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السوداني في المادة الاوزوتية ، والسنوبر في الدهنية ، والقمح والذرة في النشوية وارتفع السنوبر في قيمة التغذية . ويليه الفول السوداني وأقل منهما الذرة والقمح  
هذه صورة تظهر لنا مقادير الأغذية في النبات ، إن كل نبات لا يتخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفات كما تختلف الناس أوطانا وقوى وأجساما وقبائل وعادات فاختلفت النباتات كما اختلفوا . وهنا مدهشات وعجائب هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه والجهاز الهضمي للانسان مثلا . أليس من العجب أن الشمس ترسل الأشعة ف تساعد تلك المادة الملونة التي تقدم وصفها في ﴿ سورة يس ﴾ عند آية - سبحان الذي خلق الأزواج كلها - يارب عجبا ( انظر الموضوع هناك إذ ترى صور الورقات ، ووصف الحجرات في كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوف وملايين في الورقة الواحدة والمادة الملونة في تلك الحجرات يساعدها ضوء الشمس في اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا

نرى جنود الأشجار والزرور ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافا على مقتضى اختلاف النبات بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التي يشمل بها النبات ، وفتحات هذه الأنابيب هي مفاتيح سرّ النبات ، فتكون في الصنوبر غيرها في الفول السوداني غيرها في النرة والقمح بحيث لو اختلت أو اضطرت فدخلت مواد تزيد في المادة الدهنية أو الفسوية أو الأوزوتية عما هو مقرر لكل منها لم يكن في الأرض فول سوداني ولا ذرة ولا قمح ولا صنوبر ، فنظام هذا العالم نظام أدبي عجيب ، لو اختلت الأوراق في حجراتها أو الجذور في فتحاتها فدخلت ذرات لا توافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يعيش حيوان ولا إنسان قال تعالى - وكل شيء عنده بمقدار - . والأمر الأعجب أمر الجهاز الهضمي (انظر شكل ٦٠)



( شكل ٦٠ - رسم الجهاز الهضمي )

تجب لهذا الجهاز . انظر كيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة في النبات ، فكما نرى في كل نبات :

- (١) مادة نشوية وتغلب في الحبوب كالقمح والشعير والأرز ، وفي الخضراوات كالبطاطس والبطاطة واللفت والجزر والبنجر ، وفي البقول كالفول والعدس واللوية والبرزلة (الجافة)  
 (٢) ومادة زلالية أوزوتية وتغلب في البقول والحبوب  
 (٣) ومادة دهنية وتغلب في الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور)  
 هكذا نرى في هذا الجهاز المرسوم في الصحيفة السابقة :

﴿ أولا ﴾ - (١) مصانع في الفم وهي (٦) يتابع تهضم بعض المواد النشوية (٢) ومابقى من النشاء بلاهضم يهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه المادة هضمها (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

﴿ ثانيا ﴾ المواد الدهنية وهي تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس ، وثانيهما مايفرزه الكبد من الصفراء

﴿ ثالثا ﴾ المواد الآزوتية وهي تهضم بالعصير المعدي والبنكرياس

المواد	الهواضم
النشاء . . . . .	(١) لعاب الفم وهوست يتابع
الآزوتية . . . . .	(٢) العصير المعدي
الدهنية . . . . .	(٣) الصفراء
النشاء . . . . .	(٤) البنكرياس
الآزوتية . . . . .	(٥) عصير الامعاء الدقاق

فإذا نحن جاوزنا لعاب الفم أفينا عجبا ! أفينا البنكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، وأفينا العصير المعدي والصفراء والامعاء قد وزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعا عادلا فساعد كل مصنع في هضم مادة من المواد ، إذن لكل مادة نوعان من الهواضم اذا استثنينا لعاب الفم للمواد النشوية ههنا ننظر في ضوء الشمس ، وفي حجرات الأوراق ، وفي فتحات الأمايب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حسابا متقنا حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم نبعث في الجهاز الهضمي فنجد المصانع فيه موزعات على هذه المواد اتى عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجذور الشعرية

﴿ نظام الأم الأرضية ، والشوق الى مبدع النظام ﴾

فياليت شعري يامعاشر بني آدم ، أغفتم عن هذا النظام ، ألم تعلموا أن هذا مثل فضله الله للناس بنفس نظام ماآكلنا ، وقال لكم : « لولم يكن هناك البنكرياس مع العصير المعدي ، ولولم يكن البنكرياس مع الصفراء ، ولم يكن البنكرياس مع عصير الامعاء لم تهضم المواد الآزوتية والمواد الدهنية والمواد النشوية » - يدبر الأمر يفصل الآيات لعليكم بلقاء ربكم توقنون -

فهذا هو التفصيل ، وهذا هو التدبير ، وبهذين يكون الايقان ، واليقين هو العلم الذى لا يدخله الشك . لوأن مصنعا من هذه المصانع الهواضم للمواد لم يكن في الجهاز الهضمي لاختل نظام الهضم . ألم يعلم هذا النوع الانسانى أن الأرض جيعها أشبه بالجهاز الهضمي وأن عقول بني آدم أشبه بهذه المصانع الهواضم لهذه المواد وأن اختلال عقول أمة أضعف قوتها يحرم المجموع الانسانى مما تنتجه تلك العقول كما يحرم الانسان من هذا

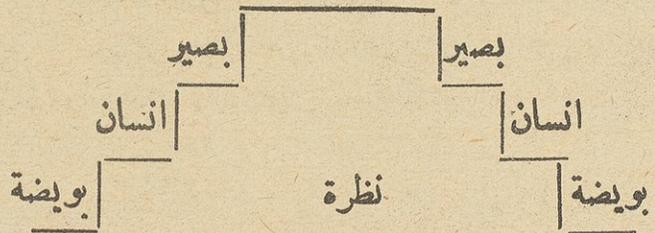
الانتفاع بنشاء وبدهن وبزال لم يجد ما يهضمه . أى فرق أيها الناس بين القوى الهاضمة المواد والأغذية المختلفة وبين العقول المختلفة الموزعات على الناس ، أليس هذا النظام الجسمي العجيب مشاكلا كل المشاكلة للنظام العام . اللهم إني أكتب هذا القول في كتابك وأخطب عبادك جميعا في الأرض ، وأقول : «مادامت هذه الأرض فيها أمة واحدة لم يستخرج ما عندها من القوى العقلية وما في أرضها من القوى المادية فأهل هذه الأرض جميعا معذبون على مقدار ما نقصهم من فوائد تلك العقول كما تنقص سعادة الانسان الواحد بما نقصه من القوى الهاضمة لمواد طعامه ، وهذا القول أنا به موقن

عروج النفس الى العالم الأعلى

لقد قدمت في غير ما موضع من هذا التفسير لاسيا في آية - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ في هذه السورة أن المادة عجزت عن إمداد عواملها بالحرارة والضوء فهي عن إمدادها بالتصوير والادراك والعقول والفرائز والقوى أشدّ عجزا ، وأقول الآن : إن العلم اليوم في العالم الانساني أثبت أنه لا وجود للمادة لأنها عبارة عن حركات تتوعدت فان كانت من ٤٠٠ مليون مليون في الثانية الى ٧٠٠ مليون مليون فيها فذلك هو الضوء ، وان كانت نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي العناصر ومركباتها ، فليحذف النوع الانساني من صحائفه ذكر الفلاسفة الماديين ، فاذا لم تكن مادة فكيف يكون لها فلاسفة . ولكن الناس يذكرونهم وهم غافلون عن ريق العلم اليوم .

فلم يبق إلا ان هناك علما ورجة وجمالا وحبا استمدت منه الناس علمهم ورحمتهم وحبهم وصورت العوالم بالصورة الجميلة التي لا تقدر عليها المادة الموهومة ، فهنا نتيجتان : نتيجة سياسية ، وهي ان الأمم الأرضية لا تزال مضطربة معذبة حتى يستقر قرارها بنظام يشمل جميع نوع الانسان فيكونون كجهاز هضمي واحد يقوم بجميع ما في الأرض من الأعمال ، ونتيجة علمية ، وهي ان أسعد حياة للانسان أن يدرك هذه الحقائق بعقله من غير تقليد ، وهناك يرى أن عقله والرجة التي عنده ، والجمال المبدع في العوالم حولنا ، والحب المنبت في العوالم كل هذه آثار لعلم ورجة وجمال وحب واسع ، فبني أحسن ذلك دخل في عداد السعداء في هذه الحياة ، ويكون ممن قيل فيهم - لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون -

## عاقل



وسياتي تفصيل هذا المقام في تفسير البسملة في سورة الدخان ، وسقري هناك كيف خيلت لي درجات ترقى الانسان أولا في بطن أمه وثانيا في درجات إحساسه ثم في عقله ، وهناك ترى رسما أظهر من هذا الرسم إذ يكون بويضة في الرحم فيرتقى الى أن يصير ذبابة وقردا وانسانا ، ثم بعد الوضع يلمس ويدوق ويشم ويسمع ويصير ثم يعقل وهناك وصلت في الخيال الى الذروة العليا ، وعلوت الى ذلك المستوى الرفيع ، وغادرت عالم المحسوسات ودخلت في عالم العقولات ، عدوت ولى نظرتان : نظرة الى أعلى ، ونظرة الى أسفل وبعبارة أخرى نظرة الى عالم العقل والروح والحب والجمال ، ونظرة الى عالم المادة كالأرض ومن عليها وأشجارها وزروعها وأحجارها ورمالها وجبالها وبحارها ، هنالك تبينت لي الحقائق ، وابتهجت نفسي بالمعارف ، وأخذت أوازن ما بين هذين المنظرين وبين الصلاة في الاسلام ، فتارة كنت أحصر الفكر في العالم اللطيف الذي أسكرتني غشيقته

وأبهجتى حكمته ، وأسعدتنى بهجته ، فأعرف إذ ذاك كيف يكون الحمد على النعم والشكر عليها والرحمة العامة ومبدأ الهداية الى الصراط المستقيم ، وتارة أنظر الى العالم الأرضى أسفل هذا المعراج ، فأفهم لماذا يسلم المسلم على الأنبياء وعلى الصالحين وعلى نبيه ﷺ وعلى نفسه تارة ، ويصلى على نبينا ﷺ وعلى الأنبياء قبله تارة أخرى ( وعبارة أخرى ) ان النظرة الأولى لعالم الأرواح والجمال والعقل منبع للنظرة الثانية وأصل لها ، فالأنبياء هم الذين يفشون السلام فى الأرض مما اقتبسوه من ذلك العالم ، فالفاتحة أقرب الى عالم الجمال والعلم وماعهما والشهد فى الصلاة مفرع عليها ، فاذا كان هؤلاء الأنبياء هم مبدأ السلام فى الأرض اقتبسوه من عالم العلم والجمال ، فالمسلم يسلم عليهم ليقلدتهم بسبب كثرة استحضارهم فى نفسه فيصبح ذلك ملكة راسخة فى نفسه فيفشى السلام فى الأمم كما أفشوه ويستعمل أهم الطرق لذلك ويتبدى بتحية الله عز وجل وهذا سر السلام على كثير من الأنبياء فى ( سورة الصافات ) وانتهت السورة بتسبيح رب العزة والسلام على المرسلين كلهم واعلان الحمد لله لأن هذا الحمد الذى تشمله الفاتحة المبني على العلم والرحمة الخ مبناه وأصله سبب فى أن الأنبياء أفشوا السلام فى الأرض ، ومن هذا يفهم المسلمون سر قوله ﷺ « افشوا السلام » وسر تسليم المؤمن على أخيه كلما قابله . انتهى مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ والحمد لله رب العالمين

### بهجة الحكمة وجمال العلم

فى قوله تعالى أيضا - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت -  
أنا الساعة أظن انى نجحت فى مشاركتك أيها الذكى فى فهم مقادير النبات ونسبتها الى جهازنا الهضمى  
والى الشمس والضوء والأنابيب الشعرية وفتحاتها المختلفة ، فحق لى أن أريك الآن جدول الأطعمة من  
كتاب « الغذاء فى الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر . فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مانصه :

### تحليل الغذاء كيميائيا

إن معظم المواد التى يتغذى بها الانسان إما أن تكون عضوية أو غير عضوية . فغير العضوية هى عبارة  
عن مختلف الأملاح التى يأكلها الانسان فى غذائه ومشربه . أما المواد العضوية فهى غالبا مركبة من مادة  
نشوية ودهنية وزلالية ( آزوتية ) . هذا وسترى فى الجدول الآتى قائمة فيها تحاليل معظم ما كولاتنا فى المائة  
مع ذكر قيمتها الغذائية للجسم فى الرطل المصرى الواحد ( انظر هذا الجدول )

القيمة الغذائية للرطل المصرى بالسعر	نشوية	دهنية	أزوتية ( زلالية )	ماء	الصف
١٥٦٤	٧٤٨	١١	١٠٨	١٢٨	قمح
١٥٤٠	٧٩٤	٠٤	٧٤	١٢٤	أرز
١٥٤٧	٧٦٣	٢٨	٩٩	٩٣	أذرة
٣٢٥	٥٠	٤٤	٣٣	٨٧	لبن
٦٨٥	٠	١٠٥	١٤٨	٧٣٣	بيض
٢٩٧	١٤٧	١	١٨	٦٢٦	بطاطس
٤٥٠	٢١٩	٦	١٤	٥٥٢	بطاطه
١٣٦	٤٧	٣	٢٣	٨٩٣	لوبية خضراء

القيمة الغذائية للرطل المصري بالسعر	نشوية	دهنية	آزوتية (زلاله)	ماء	الصف
٣٢٠	١٣٣٧	ر٤	٣٣٤	٨١٣٨	بزله بقرونها
٤٦٧	١٦٣٩	ر٥	٧٣٧	٧٤٣٦	بزله مقشره
٢٤٥	٩٣٨	ر٢	٣٣٦	٨٥٣٣	بزله في العلب
١٥٧٨	٦٢٣٠	١٣٠	٢٤٣٦	٩٣٥	بزله ناشفة
١٥٨٩	٦٥٣٥	١٣٥	١٨٣١	١٠٣٤	فول ناشف
١٥٢٧	٥٩٣٦	١٣٨	٢٢٣٥	١٢٣٦	لوية ناشفة
١٥٣٧	٥٩٣٢	١٣٠	٢٥٣٧	٨٣٤	عدس
٢٤٤٣	٢٤٣٤	٣٨٣٦	٢٥٣٨	٩٣٢	فول سوداني
١٥٠	٥٣٨	ر٤٠	١٣٨٠	٨٩٣٦	كرب
١٥٠	ر٤	ر١٠	٥٣٦٠	٩٧٣٤	» مطبوخ
١٢٠	٥٣٠	ر٢٠	١٣٣٠	٩١٣٩	طماطم
١٢٠	ر١	ر٢٠	١٣٠٠	٩٤٣٥	طماطم مطبوخة
١٣٢	٣٣٨	ر٥٠	٢٣٥	٩٠٣٦	سبانخ
١٨٩	٢٣٦	ر٤٠	١٣٤٠	٩٤٣١	خص
٩٨	٢٣٩	ر٢٠	٢٣٢٠	٩١٣٧	كشك الماز
٥٨	٢٣١	ر١٠	ر٨٠	٩٥٣٩	خيار
٢٥٠	١٢٣٥	ر٥	ر٤٠	٨٢٣٥	تفاح
٢٣٨	١١٣٥	ر٦	ر٤٠	٨٣٣٩٠	كثري
٢٥٧	١٣٣٤	ر٢	ر٥٠	٨٨٣٨٠	خوخ
٥٢٤	١٥٣٤	٥٣٧	١٣٣٠	٨٤٣٧٠	توت
٣٣٣	١٥٣٥	١٣٠٠	١٣٠٠	٧٩٣٠	عنب
٢٦٦	٧٣٦	٣٣٠٠	ر٧٠	٨٩٣٨٠	شمام
١٢٤	٦٣٥	ر١	ر٣٠	٩٢٣٩٠	بطيخ
٤٦٢	٢٢٣٩	ر٧	١٣٥٠	٧٤٣٠	موز
١٩٥	٨٣٧	ر٦	ر٩٠	٨٦٣٧٠	برتقال
٢٠٠	٨٣٣	ر٩	١٣٠٠	٨٣٩	ليمون
١٣٢٨	٦٥٣٧	٢٣١	٤٣٤٠	٢٣٠٨	بلح ناشف
٣٩٥	١٨٣٨	ر٩	١٣٥٠	٧٣٩١	تين
١٥٥٨	٧٤٣٧	٤٣٧	٢٣٥٠	١٣٤٠	زيب
٢٨٧٣	١٧٣٣	٥٤٣٩٠	٢١٣٠	٤٣٨	لوز
٣١١٦	١٣	٦٥٣٣٠	١٥٣٦	٣٣٧	بندق
٣١٣٣	١٤٣٨	٦٤٣٤٠	١٦٣٨	٢٣٨	جوز
١٠٧٤	٤٢٣١	٥٣٤٠	٦٣٢	٤٥٣٠	أبوفردة

القيمة الغذائية بالرطل المصرى بالسعر	نشوية	دهنية	آزوتية (زلاليه)	ماء	الصف
٢٦١٩	٢٧٢٩	٥٠٠٦٠	٥٧	١٤٠١	جوز هند
٢٨٥٦	١٥٠٦	٥٤٠٥٠	٢٢٢٦	٤٠٢	فسدق
٣٠٤٠	١٧٢٣	٦١٢٩	١٤٢٦	٣٠٤	صنوبر
٩٨٥	٠٠	١٧٢٥	١٦٠١	٥٢٢٥	بقري بيت الكلاوى
٨٤٨	٠٠	١٢٢٨	١٩٠	٦٧٠	بقري نخذه
٥٩٠	٠٠	٧٢٩	١٥٢٥	٦٠٠١	بتاو نخذه
٨٥٥	٠٠	١٤٢٧	١٥٠١	٥١٢٢	ضاني »
١٣٧٠	٠٠	٢٨٢٣	١٣٢٥	٤٢٢٠	ضاني كستلية
٢٨٣	٠٠	١٢٤	١٢٢٨	٤٣٢٧	فراخ
١٤٢٩	٠٠	٢٩٢٨	١٣٢٤	٣٨٢٥	أوز
١٠٢٠	٠٠	١٨٢٤	١٦٠١	٤٢٢٤	ديك روى

﴿ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ﴾

يقول عمرو بن كلثوم

فآبوا بالنهاج والسبايا \* وإنا بالملوك مصفدينا

ويقول عنتره العبسي :

لى النفوس وللطير اللحوم ولا \* وحش العظام وللخيالة السلب

يقول إني عظيم القدر شريف المنزلة ، لا أجعل نفسى وقفا على الامور المادية ، واذا قنعت الطيور بلحم من أجندلهم فى الميدان ، وقنعت الوحوش بالعظام ، ورجالى بما على القتل من دروع وملابس ، فاني أكبر نفسا وأعز شرفا ، فكفاني أنى أنا القاتل . فهؤلاء مقاصدهم مادية ، فأما أنا فأرى أشرف قدرا وهوانى قاهر الأقران موصوف بالشجاعة والعلو والقهر ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لذاتى روحية ولذات هؤلاء حسية ، واللذة الروحية أعلى مرتبة وأشرف غاية وأكمل سعادة

واذا رأينا هذا الشاعر فى البداية يفخر باللذة الروحية ولا معارض له مع انها لم تمتاز عن لذة اللحم ، ذلك لأنه قد يقتل الحيوان لمجرد القتل لا لسد جوعه ، ولولا استلذاذه بالقتل ما فتك لغير داعية الجوع ، فهذه إذن لذة سبعية لا لذة عقلية شريفة . أفلا يحق لنا أن نقول للأطباء : « أيها الأطباء لكم المرضى فافرحوا بشفتهم اذا عرفتم هذه المقادير ولكم الأصحاء فعلموهم مقادير الأطعمة ليحترسوا من الوقوع فى المرض . أيها الأطباء هذا هو النبات وهذه مقاديره ، وهذا علم الطب بقسميه : علم حفظ الصحة ، وعلم مداواة المرضى ، فقوموا بهما واشفوا المرضى من علالهم وأمراضهم ، ونسأل الله نجاحكم »

ولكننا نحن نريد مقاما أعلى لهذه الانسانية بعد أن تكونوا أتم قتم بصحة أجسامهم وحفظ صحتهم ليفهموا كلامنا لأن المريض قلما يفهم ما نقوله ، وهناك حقول مختلفات فى الدماغ تتوفر فيها أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية والأدبية والسياسية وهكذا كما دل عليه الكشف الحديث ، ذلك ان فى الدماغ محال مخصصات لكل علم قامت عليه الأدلة التشريحية بحيث تنمو تلافيف خاصة باستعمال علوم معلومة ، وباهمال تلك العلوم لا يكون لهذه المحال فى الدماغ نمو . فاذا كان الجهاز الهضمى قد اقتسم المواد النشوية والدهنية

والاوزوتية ، فهكذا نجد المخ اقسام المواد العلمية من رياضية وطبيعية وأدبية وهكذا . وكما وجدنا أن للأغذية مبدأ وهي الشمس أشرف الموجودات المحسوسات هكذا نجد لأغذية العقل المتصرف في الدماغ الذي هو أشرف من الجهاز الهضمي مبدأ وهو أشرف الموجودات الغائبة عن الحس وهو الذات القدسية ومنه انبعث العلم في نفوس هي وسائط توصل لنا الادراك والفهم والعلم على وزن توسط النبات بيننا وبين ضوء الشمس وحرارتها . وإذا كانت كل حاسة من حواسنا الظاهرة متصلة بعالم يماثلها . فلتكن عقولنا متصلات بعوالم عقلية هي مستمدة من الله عز وجل

إن هذا البرهان يقيني كالبرهان الذي تقدم في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ في هذه السورة

### { هذا زمان ظهور الحقائق }

هاهي ذه براهين أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون ومن بعدهم من الأمم الى وقتنا الحاضر قد شرحتها لك واضحة فيما تقدم وأبنت طرقها . ولقد اختلفوا خلفاء تلك البراهين على الذات القدسية أن الله عز وجل لم يشأ أن يظهر الحقائق للأمم مرة واحدة . إن الله نظر الى الأمم كلها نظره الى نفس واحدة . وهذه النفس الواحدة أخذ يعلمها بالتدرج والطفرة محال فألمهم سقراط ما عرفته هناك . وألمهم أفلاطون تدوينه . وأوحى الى أرسطاطاليس أن يرد البرهان . وكان ذلك سببا في ظهور فرق متشاكسات من أبيقوريين ورواقيين قبل الميلاد والى الأفلاطونية الحديثة . ثم الى فرق متعددة في الاسلام وفي أوروبا . ولكن اليوم إذ ظهر سرّ النبات وانتشر واستعدت قلوب الأمم للعلم

ظهرت البراهين الآن في هذا الكتاب جلية واضحة بحيث يسهل على المتوسطين فهمها وسيقل الاختلاف فيما كتبناه في هذا المقام وأوضحناه في هذه السورة . ولقد جاء في كتاب « المذهب الروحاني » لمؤلفه عبدالله أباحي أحد الروحانيين الشرقيين في صحيفة ١٤١ أسئلة تناسب المقام . وهاك نصها :

(س) هل يمكن للطبيب أن يستحضر المرضى الذين ماتوا على يده ، ويستوضح منهم بعض الدلائل يزداد بها خبرة ومعرفة ؟

(ج) قد يصبح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن ينكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء لابنية حشد المال وكسب المعارف من دون جد ولاعناء

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح في المباحث والاكتشافات العلمية ؟

(ج) إن العلم هو صنع العقل ، ولا يكتسب إلا بالعمل ، وبالعمل وحده يتقدم المرء في طريقه ، أى فضل يبقى للإنسان اذا أمكنه أن يعرف كل شيء باستنباط الأرواح ؟ ألا يصبح الغيب الجاهل بهذه الطريقة عالما ؟ ثم ان لكل شيء وقتا معينا يأتي في حينه أى عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله وأما بتلك الطريقة فيقلب الانسان نظام الأشياء ، إذ يقطف الثمرة قبل نضجها

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع عوناً من الأرواح في مباحثه ؟

(ج) إن العون لا ينقصه عند ما يكون أوان الاختراع قد دنا فتوافيه وقتئذ الأرواح وتلقى اليه بعض الإلهامات الفكرية فينقرها هو ويشغل بها الى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون معظم الفضل راجعاً له ، فإياكم إذن والزيف عن محجة الروحانية والتطرف الى أمر لا يلحقكم منه إلا الخداع والسخرية (١) اه

(٧) اتصل الجهل ببعض عند ظهور الحوادث الروحانية الى أن يتطلبوا من الأرواح نسخة في صبغة الشعر ، وعلاج الدمامل فأصبحوا موضوع السخرية عند ما أشاعوا فيما بعد التراكيب التي تلقنوها من الأرواح المبكرة

أقول : فبناء عليه نقول إن هذه البراهين التي جاءت في هذا التفسير قد استعدت لها الأذهان . ألا ترى أن طائفة الماديين اليوم لا وجود لهم لأن المادة لا وجود لها عند علماء القرن العشرين ، وإذا سمعت عنهم كالذي نقلناه فيما تقدم فإنما هو أمر تاريخي لا غير ، لأنك علمت أن علماء عصرنا أجمعوا أنه لا مادة ، فالمادة كلمة تطلق على كل ما محسّ به وليس هو بمادة ، بل هو حركات في أمر خيالي سموه (أثيرا) وهذه الحركات باختلافها ظهرت لنا أنوار وحرارة ومغناطيس وعقاقير ومركبات أخرى وعناصر بسيطة ، وإذا سقطت المادة باجماع العلماء في عصرنا فقد سقط معها المذهب المادي اللهم إلا عند المدرّسين في المدارس النظامية في الشرق الأدنى كعصر والعراق وسوريا وما أشبه ذلك لأن هؤلاء يكرّرون على مسامع تلاميذهم ما قرعوه في كتب منقولة عن علماء القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، أما قرّاء هذا التفسير فأنهم علموا أن النوع الانساني كانت معارفه مبعثة قبل النبوة . فلما أشرفت النبوة المحمدية قال الله على لسانه ﷺ - سر بهم آياتنا في الآفاق - الخ وقال - وقل الحمد لله سيريك آياته فتعرفونها - فهم سيقولون عرفنا يارب ووصلنا إليك بعقولنا وآمننا بيسارتك ، ياربنا قبلنا البشارة التي بشرتنا بها . إذن لتكن أعمالنا ياربنا من الآن موصولة برحمتك ، مستمدة من نور علمك ، موقنين بأننا معك واننا سنكون خير أمة أخرجت للناس . و بمن الذين يوقنون برهم وتكون أعمالهم في الحياة أعمال قوم كأنهم في حضرة ربهم . فاذا رأوا النمل والنحل وحشرات الأرض كل من أفراد هذه الممالك تعمل وهي فرحة بأنها أرضت الملكة الجالسة على عرش الملك المرسومة في السور المتقدمة . فهكذا نحن قرّاء هذا التفسير ومن نحأ نحوهم نعمل وقد أيقنا إيقانا أشبه بالعيان بأن الله مع كل نفس منا ومطلع على أعمالنا ، فنحن جزاؤنا في نفس عملنا لأننا نعمل بحسنة وإخلاص . وإذا وجدنا الصبي مخلصا في عمله لأبيه ، فرحا بأن أباه راض عنه . فهكذا نحن أصبحنا موقنين بأننا نعمل والله راض عن أعمالنا ونحن نحسّ في أنفسنا بسعادة وانسراح صدر صادرين من صانع العالم المطلع على سرائرنا وتلاحظه عقولنا كما تلاحظ الشمس وضوءها عيوننا ، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور

الناس وإن كانوا أحرارا فهم إما هائمون بالجمال إن كانوا سعداء ، ولما مستعبدون بالشهوات إن كانوا أشقياء . قال ابن الفارض :

أنت القليل بأى من أحبته \* فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

اللهم انك أرىتنا الجمال في زروعك وشجرك وزهرك وفرك ونجمك وشمسك . اللهم انك ملأت قلوبنا جلالا وأبهجتنا بصنعك ومنحت بصائرنا التمتع بالجمال في هذه الحياة وكشفت الغشاوة وأحطتنا بالأنوار ورأيناك ألهمت الشيخ الدباغ فيما نقله عنه الشيخ أحمد بن المبارك إذ يقول : « إن فتح الحواس الظاهرة عبارة عن لذة تحصل في الحواس الظاهرة ، وذلك بفتح العروق بما أدركته الحواس ، وبهذه اللذة يكمل البسط ، ففي البصر لذة بها يحصل الميل الى الصور الحسنة وعن ذلك ينشأ العشق والانقطاع الباطني للنظور ، وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنعمة المستقيمة وقد ينشأ عن ذلك اضطراب واهتزاز في الذات وهكذا سائر الحواس ، ففي كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الإدراك ، والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذي هو من البسط وبين كمالها أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق فان فتح العروق زائد على الإدراك الذي هو في كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل في العروق والتكيف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع الى المدرك . فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة الى كل ما يراه وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الإدراك فإنه لا يحصل معه هذا الانقطاع . فكم امرئ يرى أمورا حسنة ولا يتأثر بها . وكمن آخر يسمع أصواتا حسنة ولا تقع منه على بال . وبهذا الفتح والتكيف يحصل كمال البسط »

انتهى كلامه بالحرف

هذا كلام ذلك الأمي وهو الشيخ الدباغ ، ذلك الذي لم يتعلم أتى لنا بسر وهذا السر يحيط بنا ولكننا لانفطن له . هذا السر هو أن جمال هذه الدنيا وشموسها ونباتها مباح للناس . نحن جميعا نراه فنا من هو مغمور بالحماسن فرح بها سعيد مبتهج . وهذا الابتهاج وهذا السرور أمر آخر وراء مطلق الادراك . نحن ننظر . نحن نسمع . نحن نتعلم . نحن نقرأ العلوم الرياضية . نحن نقرأ العلوم الطبيعية ولكن النظر والسمع والقراءة والفهم والتفكير وحوز العلوم والفوز في الامتحان والتفوق على الأقران في العلم . هذا كله شيء وذوق المسموع والبصر والمعلوم الرياضي والطبيعي والالهي والفرح بها والاستلذاذ والابتهاج بها شيء آخر ، فأول الرجلين وهو الذي لا يحسن قلبه بجمال مدرسته الحسية والعقلية نجده دائما يبحث عن حبيب يبهجه ويفرح به فلا يجد له مناصا من حبيب يأسرفؤاده مادام ذلك الممرك ليس حبيبا له ولا معشوقا ولا هوهايم به . واذا كانت المدرسات العلمية بقسميها ليست محبوبة له ولا جميلة فهو لا محالة يختار ضدها وهي الشهوات فيبحث عن الجليل للشهوة الحسية وعن المال للاستمتاع الجسمي والفخر الظاهري وعن السلطة التي بها يرهب الناس . وبالجملة ان المحبوب إذ ذاك شهوة البطن والفرج وشهوة الغلبة والصيت والولد والمال . وهذا كله أمر آخر غير الجمال . إذن صدق قول ابن الفارض « اننا قتلنا من نحب » فان أحيينا الجمال انقطعنا اليه وكفانا . وان لم نحب الجمال أحيينا الشهوات وعلى هذا الثاني أكثر هذا النوع الانساني وعلى المبدأ الأول القليل أو النادر منهم وهؤلاء هم أشرفه وساداته وعظماؤه وحكامه

فلننظر في حال المسلمين اليوم وفي عالم النبات الذي كلامنا فيه . النبات بتحليلة أرانا انه جيل ومحكم مشوق لتلك الذات القدسية هام بها عند رؤيته قوم وكفاهم حبه والغرام به يبهجم أتى سارولو يكونون في الحياة سعادة لأعمهم . ولكن أكثر الناس في الاسلام كان هذا النبات سببا لاستعبادهم وشقايمهم مثل سائر عرض الحياة الدنيا ، فاذا كان الأولون قتلوا الجمال ، صرعى الحب والغرام ، يهيمون بالذات القدسية الرفيعة العلية ، مغرمين بتعليم الأمم وارشادها قد أعدوا أنفسهم خلفاء الله في أرضه ، قوامين على عباده ، يبشرونهم بالخير وينذرونهم بالشر فان الآخرين وقد حرموا من الاستلذاذ بذلك الجمال يقعون لا محالة في الهيام بظواهر الشهوات فيكونون عبيدا لها ، ومن استعبده الشهوات استعبده الناس

مثلا نحن في مصر نزرع القطن ولكننا قوم محرومون من النبوغ في الصناعات وكثرتها ، فنحن نبيع القطن بأبخس الأثمان ويصنع في أوروبا ونشتره ملابس بعشرات بل بمئات أضعاف ما بعناه به وقد رجح لنا ملونا بألوان زاهية فرحنا بها . إن بلادنا المصرية المسكينة هائمة بملابس الفرنجة وتقليدهم في كل شيء وخزينة الحكومة مفتحة الأبواب للعاملين فيها ، فهؤلاء يأخذون ثلثها بصفة مرتبات لهم ويصرفونها في الملابس والمآكل والخمر واللهو واللعب وهكذا نساؤهم ورجال ونساء ذوى القصور والضيعات والعقارات الواسعة ، فهؤلاء وهؤلاء لما حرموا الاستلذاذ بالحكمة والعلم لم يجدوا لهم مناصا من غشيان أبواب الفجور والتباهي بالثياب الملونة المصبوغة بألوان من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم تفصيله في أول سورة سبأ ، وكأني وأنا أكتب هذا أشاهد أكثر قومي ومن على شاكتهم مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، تراه بصيرتي

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت محسن رحيم جليل حكيم . حبست أرواحنا في هذه الأرض لأنها ليست أهلا لمكان أرقى . وحبستنا في لذاتنا وشهواتنا . وكلما ازددنا شهوة انقلت الأغلال على أعناقنا . ذلك بما كسبت أيدينا . أفليس الناس اليوم مبعدين من الأغلال . اللهم لا وأي غل أشد وطأة من غل الأخلاق والآراء والعادات . تعس الانسان ما أجهله

يأتى التجار من أوروبا بالملابس المصبغة والتياب الملوّنة والخراقاتة والشهوات الفاتنة ، فتسكب عليها ولا تقوم نحن بعمل ما ولا صناعة ما ورجالنا ونسأؤنا ووجهاؤنا مقتنعون بأن ذلك هو الرقى ، فتذهب الثروة للأجانب وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الشعب ويمنعونه من الرقى ومن العلم ومن الاستعداد الحربى . فاذا عجز الناس عن فك أغلاطهم فى الدنيا فهم عن فكها فى الآخرة أعجز - ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا -

هذا ما خطر لى وأنا أصلى الصبح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وأنا أقرأ هذه الآية - وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب - فأتى أثناء القراءة كنت أشاهد بالبصيرة أن هذا منطبق انطباقا تاما على حال كثير من أم الشرق الأدنى ومنهم كثير من أهل بلادى اللهم إنى أشاهد الأغلال من الآن موضوعة فى أعناقنا فى أرضك ومن أشدّها الملابس المصنوعات المزخرفة التى قتلت المسلمين لجهلهم وقلة الدعاة والوعاظ فيهم وكثرة جهلهم حتى ان القطن الذى نزرعه نحن فى مصر ينسج فيصير أغلالا لنا واستعبادا والاستعباد اليوم راجع للتجارة . إن التجارة اليوم هى الأغلال فى الأعناق وهى السبيل التام لذلك . فأخرج المسلمين فى مصر وغيرها من هذه المآزق . إنك أنت الرؤوف الرحيم . انتهى فى صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى - فاذا أنزلنا عليها الماء اهترت وربت - والحمد لله رب العالمين

### ﴿ الفصل الثانى ﴾

من اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى - سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم -

فى هذا الفصل ثلاث مباحث

(١) فى المخاطبة على بعد عشرة آلاف ميل

(٢) فى الصلة بين علماء الشرق والغرب

(٣) فى أحوال نفس المؤلف

### ﴿ المبحث الأول ﴾

جاء فى إحدى المجلات العلمية تحت العنوان التالى مانصه :

### بين القطب الجنوبي ونيويورك

فى غرفة فى الدور الثالث من إحدى ناطحات السحاب النيويوركية القائمة فى قلب المدينة عند ميدان التيمس جلس شاب على أذنيه سماعتان سوداوان . وعلى وجهه أمانر تدل على انه سمع شيئا مع ان السكون سائد فى الغرفة حتى تكاد تسمع دقات القلب . ولاشئ أمامه إلا صندوق أسود قائم على طاولة . وإذا بيده تمتد الى قضيب نحاسى فى نهايته عقدة سوداء فيلمسها لمسا لطيفا فيلمع النور فى غرفة مظلمة فى الدور السابع عشر من ناطحة السحاب ذاتها ويسطع من صف من المصابيح من غير أن يحدث انفجار كهربائى أو أى صوت آخر . ليس فى الغرفة أحد . فاذا انقطع لمعان المصابيح اتسحت الغرفة بسود حالك أنفت الرجل الذى فى الدور الثالث قليلا ثم أخذ قلما بيده وكتب العبارة التالية ؟ « اصغ الى الطيارة » النجوم والخطوط » فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة صباحا ، ولعت المصابيح ثانية ناقلة الى مصدر

الرسالة السابقة جواب الشاب « اننى حاضر »

في القارة المنجمدة الجنوبية على عشرة آلاف ميل من نيويورك - من العرفتين اللتين يقيم فيهما الشاب وتلمع  
المصابيح - مقر البعثة التي أعدها الأدميرال برد الأميركي لزيارة المناطق المنجمدة الجنوبية والوصول الى القطب  
الجنوبي عن طريق الجوّ. انه يعدّ طيارته الآن - أي حين وردت الرسالة الى العامل اللاسلكي في نيويورك  
قاصداً أن يحلق بها فوق مفاوز الجليد بفرض الوصول الى القطب الجنوبي

الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة ! ونيويورك نائمة ولكن العامل اللاسلكي الفتي مستيقظ ، مقيم في  
غرفته منتظر انباء الاميرال برد وطيارته

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة . لقد انحنى الفتي والتقط قامه وكتب « الطيارة على وشك الارتفاع  
من سطح الجليد . انتظر »

ويجلس مفتاحاً آخر أمامه فيدوى في اذنيه - وهو في نيويورك - صوت محركات الطيارة وهي تستعد  
للتحليق في الجوّ فوق مفاوز القطب الجنوبي .

وتحلق الطيارة في الجوّ فينتقل الاتصال اللاسلكي من محادثة تدور بين المحطة اللاسلكية في مقر بعثة  
برد وبين العامل اللاسلكي المذكور - الى محادثة تدور بين العامل اللاسلكي في الطيارة المحلقة في الجو ثلاثة  
آلاف قدم فوق مفاوز الجليد والعامل اللاسلكي المذكور التابع لجريدة نيويورك تيمس . هذه هي أول مرة في  
التاريخ تمكن فيها رجل محلق بطيارة أن يخاطب صديقا له على بعد عشرة آلاف ميل كأنه يخاطبه على بضعة  
أقدام في مكتبه أو صالونه . ان صوت العامل اللاسلكي في طيارة برد كان ينتقل أمواجاً لاسلكية فوق مفاوز  
الجليد القطبي وجانب من المحيط الباسيفيكي ثم فوق أميركا الجنوبية وخط الاستواء الى أميركا الشمالية والولايات  
المتحدة - من عواصف القطب الثلجية الى صيف أميركا الجنوبية الى قيطظ خط الاستواء الى نيويورك المعطاة  
بالثلج . كل هذا كان يتم في غفلة عين أو أسرع أي بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الساعة

وارتفع ستار الليل وأخذ الفجر ينبثق وأخذت الاشارات اللاسلكية في المحادثات المذكورة تضعف  
رويدا رويدا ولكنها تتراوح بين الضعف والقوة حتى بادت تماما عند شروق الشمس وهكذا ضرب النور  
ستارا بين ممثلي الرواية القطبية وسائر العالم . وصدرت صحف المساء - بعد الظهر - وعلى صفحاتها الأولى عنوان  
بحروف ضخمة سوداء مؤداها « ان كلمة واحدة لم تسمع من الرواد الشجعان في اثناء عشر ساعات » فاضطرب  
الجمهور وقلق ، مع ان رجال اللاسلكي كانوا يعلمون ان الصمت ليس دليل الفاجعة ولكنه ناشئ عن تعذر  
التخاطب في اثناء النهار بالأمواج القصيرة . وظل الجمهور مضطربا قلقا حتى وافت الساعة الرابعة مساء فأخذ  
ستار الليل ينسدل رويدا رويدا وأخذت الاشارات اللاسلكية تزداد وضوحا كلما زاد انسداد الستار . وما  
أقبلت الساعة الخامسة حتى كان العامل اللاسلكي النيويوركي يتلقى نبأ من الجنوب يفيد أن برد وصحبه حلقوا  
بطيارتهم فوق القطب الجنوبي وحاموا حوله ، وان برد أول رجل بلغ القطب الشمالي عن طريق الجوّ هو  
كذلك أول رجل بلغ القطب الجنوبي عن طريق الجوّ . فيبعث العامل بالنبأ الى محرر نيويورك تيمس . وهذا  
يستعمله ليحرز لجريده فوزا صحافيا عظيما . انتهى ما أردته من مجلة المقتطف

### المبحث الثاني

بين الشرق والغرب . حول زيارة ناغور لانجلترا

جاء في جريدة الاهرام في يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ مانصه

لندن في ٢٠ مايو - لمراسل الاهرام الخاص - أثارت زيارة رابندرات طاغور ، شاعر الهند وفيلسوفها

الكبير اهتماما كبيرا في إنجلترا لأنه مضي وقت ليس بالقصير على زيارته الأخيرة لهذه البلاد ولأن لمؤلفاته مقاما كبيرا بين رجال الأدب الإنجليزي . وقد ألقى ناغور مساء أمس المحاضرة الأولى من محاضراته الثلاث في قاعة المحاضرات بجامعة أكسفورد التي ازدجت حتى الأبواب بينما لم يستطع الكثيرون الدخول بالمرة ومن الملاحظات التي تسترعى الاهتمام أن الفيلسوف الهندي يقابل بمظاهر الترحيب أينما حل على الرغم من الحالة في الهند والانباء التي ترد كل يوم عن انتشار الاضطرابات والقتل فيها . وكما ان دوائر الأندية الرياضية ترحب بدوليب سنهجن بطل الكركيت الهندي وتطلب أن يكون واحدا من الأحد عشر الذين سيمثلون إنجلترا . في المباريات التي ستجرى مع استراليا ، كذلك ترى رجال الادب . والعلماء يتهافتون على سماع طاغور ويقدمون فروض التحية والاحترام الواجبة لهذا العبقري العظيم وربما كان الكثيرون على رأى جريدة المانشستر جارديان فيما قالته اليوم وهو : ان خير سفير للهند ليس المهاتما غاندى وانما هو طاغور الشاعر والمفكر فن الصعب معاملة غاندى سياسيا لأن السياسة من أعمال الرجال العاديين أما غاندى فقدس ، والقديسون رجال شواذ أما طاغور فني وسعنا أن نتفاهم معه لأنه ليس قديسا بل شاعرا ومفكرا ، فهو من هذه الوجهة يستطيع أن يفهمنا ويعطف على أفكارنا نحن الرجال العاديين ، واذا قرأنا مؤلفاته أو سمعنا أقواله رأينا أن الهندي العادى لا يختلف عن الأوربي العادى ، وان النزاع الأبدى بين الشرق والغرب ليس قضاء الطبيعة المحتم انتهى من جريدة الاهرام . تم المبحث الثاني

### المبحث الثالث

آيات الله في صحة جسمي بسبب تديير الأغذية

في هذا اليوم (١٥) مايو سنة ١٩٢٩ صباحا نظرت في عضدى وفي جنبي وفي صدرى فرأيت أمرا عجبا ! وهذا العجب لا تعرفه أيها الذكي إلا بمقدمة فهاهي ذه :

لقد كانت أيام حياتي سلسلة تجارب في الطعام والشراب ، واقدتركت اللحم منذ نحو (٨) سنين ، ولما تركته وجدت تحسنا مطردا في جسمي ، ولكنني وجدت هناك أمرا عجبا ! وجدت أن في عضدى وفي جنبي وفي صدرى بقعا جلدية مخالفة للجلد في اللون ، وهذه تارة تظهر وتارة تختفي ، وقد كانت كذلك قبل ترك اللحم ولكن لما تركته زاد ظهورها وتارة تختفي ، فأذهلني هذا المنظر ، وقابلت الأطباء فوجدت أقوالهم لا تشفى من عله ، ولا تروى من غله ، فقال قائل منهم : « خذ هذه الأعشاب واشرب منقوعها كل يوم » فلم يفد . وقال آخر : « كل الزيت الطيب وادهن به » . وأخيرا فخصني طبيب أعلم ممن قبله . فقال : « هذا داء ليس معديا ، وليس له دواء ، وهذه البقع إنما تظهر في الأعضاء التي لا تظهر للشمس وأكثر ظهوره في زمن الصيف ، وسببه نقص في التغذية » وبعد ذلك عملت تجارب كثيرة فلم تقدر . ثم انى لم أعرف ما سبب نقص التغذية المذكور الى أن اطلعت على الكتب الطبية الحديثة . ورأيت في كتاب الاستاذ ويلسوكس ما يفيد أن الناس يأكلون الخبز من دقيق القمح الذى نخلوه . وأن ترك النخالة نقص في التغذية . وأن الدم مركب من (١٦) عنصرا . وهذه العناصر كلها ثابتة في البر . واذا ترك الناس النخالة ونحوها فغناهم انهم تركوا عناصر من دماهم . إذن الناس بنيد النخالة والمادة الأخرى المسماة سنا (بنشديدالنون) من القمح إنما يتبنون قوى أبدانهم وصحة أجسامهم وسعادتهم

فلما قرأت هذا وأيقنت انه مبنى على العلم عرفت جهل هذا الانسان وغفلته وأن عقول الناس في ناحية وأعمالهم في ناحية فلم أتردد في العمل بالعلم كما تقدم في سورة طه وفي سورة الحجر فهذا المقام مستوفى هناك هنالك أكلت الخبز الذى يصنع من دقيق البر كاملا غير منقوص . وهاهي ذه سنة مرتت على تلك الحال .

هذه هي المقدمة

فلما أقبل الحرّ هذا العام نظرت في جسمي وأعضائه المغطاء ، فرأيت أمرا عجبا ! رأيت البقع الملونة التي كنت أراها كل سنة لم تظهر . فقلت : ياسبحان الله هاهوذا الحرّ أقبل وتلك البقع التي عودتني الزيارة كل سنة بالظهور على جسمي في العضد وفي الظهر وفي الصدر وفي الجنبين لم تترني هذه السنة بعد أن أقبل الحرّ ، ولقد كان من شأنها أن تقبل اذا أقبل فصل الربيع والصيف وبعض الخريف ، فهذه هي ذمة لم تحلّ بساحات جسمي ولم يكن لقدمها علامات ولا مقدمات ، ذلك اني كما قدمت الآن أخذت آكل الفواكه والخبز المذكور وزيت الزيتون والتمر غالبا ، وهذه الأغذية مستوفية ما يجب لجسم الانسان فليس يعوزها مواد أخرى ، فالبرتقال الذي آكله ومع بعض الطماطم في بعض الأيام فيه مادة الفيتامين من درجة عالية وهكذا الخبز المذكور فيه جميع مواد التغذية . هاأنذا تركت اللحم والخضراوات هذه السنة . والابن واقتصرت على الفواكه والحبوب فصحّ الجسم وصحّ التفكير بحسب ما أعرفه وما أحسّ به من نفسى الآن وههنا أقول ياسبحان الله : أرىنا يا الله آياتك في أنفسنا وفي الآفاق ، ذلك ان هذا الجسم الذي سكنته نفسى مكون من مواد مخلوقة في أرضنا ، وهذه المواد لها حساب وجهلنا بما تقبل منها وما نترك هو الذي جعلنا مرضى الأجسام تارة والعقول أخرى

سبحانك اللهم . أنت حكيم وقد ملأت أرضك بالحكمة وعلى مقدار نقصنا في فهم مصنوعاتك تنقص صحتنا وعقولنا ومدنيتنا . هذا المثال الصغير مثال جسمي مع العوالم الأرضية المحيطة بنا يبين لنا أحوال هذا الانسان . يظهر لي اننا لو عرفنا الحقائق حق المعرفة لكننا إنما راقية سعيدة سعادة تامة في الأرض تبين لي أن نقص سعادتنا في الأرض مبني على نقص معرفتنا وعلومنا . تبين لي أن أم الأرض لم يظهر فيهم حكماء وعلماء يظهرون جميع الحقائق ، ولو أن الأرض برز فيها أناس على هذا النمط لأصبحوا جميعا سعداء فأول الشقاء وآخره الجهل ، وأول السعادة وآخرها العلم ، فبكاء الباكيات على الميت ، وحزن الحزين على الفقر والذلّ وما أشبه ذلك كل ذلك للجهل الذي غطى على العقول

يظهر لي أن هذه الانسانية يوما ما يفيج فيها نابغون يظهرون ما كمن في هذه الدنيا ، ومتى ظهر ذلك سعد الناس في هذه الحياة نفسها ، وأكبر الحزن يكون للموت أو للمرض أو للفقر أو للذلّ وكل ذلك مبناه الجهل بهذا الوجود ، فلو عرف الناس ناموس الموت وأيقنوا بأن الميت انتقل الى عالم أعلى ، وهكذا لو انهم عرفوا الأسرار الخبوءة في الأغذية والأدوية والفواكه والملابس ودرسوها حتى دراستها عرفوا ما في الطبيعة من عجائب واستعملوها لقلّ المرض والفقر وبطل الاستعمار وصار الناس أصدقاء

لا تجب أيها الذكيّ من أن أقرن حال جسمي وصحته بحال الأمم والأفراد وأوصابهم وأحوالهم فانه لافرق بين الأمرين . نحن نعيش في عوالم تجهلها وعلى مقدار جهلنا نحسّ بالألام . إذن نقصنا مبناه جهلنا لا أقل ولا أكثر ، ودليلي على ذلك ما عرفته في نفسى ، فاني لما أكلت المواد التي استوفت شرائط غذاء الجسم زالت البقع من جلدي ، ولما كنت آكل بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير كانت هذه البقع تظهر تارة وتختبئ أخرى . ولا فرق بين جسمي وجسم العالم الانساني كله فهو لما فيه من جهل يحارب بعضه بعضا غباوة وجهلا بحال الوجود وحال الانسانية . ومتى ظهر فيه حكماء وأعلموه بأن المعاونة العائمة خير وأبقي وأن يكون كل امرئ في عمل خاص ينفع المجموع الانساني فان هذا النوع الانساني يصبح سعيدا ومتى حلت السعادة في أهل الأرض لم يحسوا بحزن لأنهم يكونون قد عرفوا ماهو الموت وتقل الأمراض والعداوات بينهم لأنهم قسموا الأعمال في الأرض على مواهبهم التي خلقت في أجسامهم وعقولهم . هنالك يعلم أهل الأرض قاطبة أن المصائب التي تحلّ بالأمم وبالجماعات أشبه بالبقع التي كانت تظهر على جسمي وأن قيام كل فرد من أفراد الأمم

بعمل نافع قائم مقام أخدى لجميع عناصر التغذية بطريق العلم . فهنا أمران ثانيهما مركب على أولهما فى جسمى وفى الأمم . فإذا قامت الأمم كلها فى الأرض كل منها بعملها الخاص لها وجميع أفرادها فإن المجموع الانسانى يصبح سعيدا كما ان جسمى لما أعطيته الأغذية الكافية لتغذيته ذهبت عنه تلك البقع التى تظهر على ما هو مستور منه ، وإذا قصرت الأمم فى ذلك أو بعضها فإن المجموع الانسانى تظهر فيه نقائص على مقدار التقصير كما ان جسمى أصابته البقع لما كنت أجهل أصول التغذية ، إن الأمم اليوم والأفراد سيان يتبعون شهواتهم وعاداتهم ، فالنفس يأكلون ويشربون مقلدين لأبائهم أو متبعين حواسهم هكذا دولهم فى سياستها يتبعون التاريخ حذو القذة بالقذة ، والتاريخ مملوء بالكيد والخبث والمكر فليكن فى الأرض حكما ، وليكن فيها نظم سياسية أرقى مما كان قبلا وذلك هو قوله تعالى - سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - . جسمى الذى حلت نفسى فيه ما هو إلا ذرات مجتمعات من الآفاق وله ارتباط وثيق بهذه الآفاق فإن جمعت ذرات جيدة باختيارى وعقلى كان جسما نافعا حسنا وان جمعها بهيئة غير حسنة ولا مرتبة ولا منظمة ضعف الجسم وتبعه العقل ، والسياسة العامة فى الأمة كالسياسة الخاصة فى الجسم يؤخذ من هذا كله اننا جئنا هذه الأرض لأمر واحد وهو العلم ، فلا حرب ولا مرض ولا فقر ولا لذة ولا ألم إلا لأجل حسنا على العلم وعلى مقدار علمنا تكون أرواحنا فى درجات لها بعد مغادرة هذه الدار . انتهى الكلام على المبحث الثالث والحمد لله رب العالمين

### اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى - سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - الخ

### إيضاح بعض كلام الشيخ الدباغ

فى مسألة الجنة والنار والتوحيد

هنا سألتى صديق العالم . فقال : يقول الشيخ الدباغ إن على وجه الأرض عجائب لو شاهدتها أر باب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل ، فمنها ما يعرف بالوحدانية ، ومنها ما يعرف بوجود الجنة ، ومنها ما يعرف بوجود النار ، وكل ذلك بلا إقامة أدلة على ذلك . فأنا أرجو أن تشرح لى هذا المقام . فقلت : ياسبحان الله أو تظن اننى فى مقام الشيخ الدباغ حتى أطلع على ما يعرفه ! نحن قوم كلفنا بالنظر والبحث العقلى . فقال : ولكن أرجو أن أسمع منك ما توجه نفسك اليه فى هذا المقام ، ولست أطلب منك ما هو فوق متناول عقولنا لأننى أعلم انك تخاطب العقلاء عموما لا أهل الكشف وحدهم ، ثم إن أهل الكشف وان كثروا فى الاسلام فانهم لم يحدثوا فى الأمم الاسلامية رقا عاما ، فعلمهم خاصة بطائفتهم . فقلت : أما اذا أردت هذا فانى أقول ما يفتح الله به الآن . فقال : أى العجائب تعرفنا التوحيد بلا إقامة دليل ؟ فقلت : جميع العجائب التى وردت فى هذا التفسير وأمثاله تعرفنا الله بلا إقامة دليل . فقال عجب هذا ! إن نفس العجائب أدلة أو مقدمات لأدلة فقلت : إنه يريد ان بعض العجائب حين نشاهدها تكاد تحترق القلوب ويحصل للنفس انفعال برؤيتها وتنقل النفس من هذا الخلق الى خالقه وهذا هو مقصوده فيما أظن أنا . فقال : مامثال ذلك ؟ فقلت : مثاله أعين الذباب وأعين النمل . هذه حشرات صغيرة يذريها الانسان وهى تعيش على ما تعافه النفس من القاذورات والعفونات والقمامات والفضلات ، وعلى ما هو منبوذ من الحبوب وفضلات الخبز والقطع المشورت فى الأرض وقد جعلت أشبه بالكناسين والزبالين لأنها تنظف الأرض من عفوناتها ومن بقايا فضلاتها وتحيلها الى أجسامها ومع هذا كله تراها قد أعطيت عيوننا كثيرة ، فللملة فوق (٤٠٠) عين كل عين مستقلة عن الأخرى ،

وللذباية نحو أربعة آلاف عين كل عين مستقلة عن الأخرى . ومعنى هذا أن للنملة خمسة عيون ثلاثة منها مفردات موضوعات على هيئة مثلث واثنتان منها موضوعتان في مقدمة الوجه بهيئة أعيننا نحن وفي كل واحدة منهما نحو مائتي عين ، ومثل ما قلنا في النملة تقول في الذباية ، ولكن نذكر أربعة آلاف عين فيها بدل (٤٠٠) عين . فقال : هذا عجب ! وهل العقل يتصور ذلك ؟ فقلت : إذن أنت لم تقرأ ما تقدم في ﴿سورة النمل﴾ وأن هناك رسالة سميتها «عين النملة» وفيها هذا المقام موضح . فقال : ورأيت بنفسك عين النملة انها مركبة من مائتي عين والعينان معا فيهما نحو (٤٠٠) . فقلت إى ورى رأيتها بعيني رأسى أراها لى صديقى شوقى بك بكبرى فى منزله بمدينة حلوان تحت المنظار العظيم وهو من كبار علماء التاريخ الطبيعى ، وصلتى به انه كان قبل ذلك تلميذى بالمدرسة الخديوية . فاذا رأى العاقل ما رأيت أنا فى النمل أوفى النحل أوفى الدباب فانه لا يسمعه إلا أن يتذكر الخالق عند النظر الى هذا الجمال فى المخلوق . فقال : أريد أن أسأل سؤالاً آخر ؟ فقلت : سل ما بدا لك . فقال : لم جعل الله هذه الجباب التى فوق طوق البشرى فى أحقر حيوان . فقلت : ذلك من مقصود كلام الشيخ الديبغ . قال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن الإبداع والاعراب اذا ظهر فى جميل بهى الطلعة حسن الشكل مرغوب فيه لم تكن له روعته فى الخبير المنبوذ . النفس الانسانية يدعشها أن ترى فى الخبير المنبوذ حكماً لا حد لها بل ترى أعظم جمال وأجل حكمة فى الخبير

ترى أربعة آلاف عين ، وكل عين لها طبقات وورطوبات وألوان فى داخلها وعجائب ونظم مدهشة ، واذا فقت إحداها لم تعطل البقية كما هو واضح هناك . فهذه عند العقلاء أشبه بمن كان يحفر فى منزله فخر على كنز جفأة فهذه المفاجأة فى الكنز يقابلها المفاجأة فى أمر عجائب الحشرات مثلا . فكما أن الفقير اذا عثر على كنزدهش وحصلت له حال غريبة وانفعال ، هكذا العاقل اذا اطلع على هذه الجباب فى أحقر المخلوقات فانه يجد فى نفسه حالا عجيبة تذكره بالصانع من غير استدلال ببديل وذو العقول الصافية فى نوع الانسان لا يسعهم تلقاء هذه الجباب المدهشة (فى الامور الخفية التى ليست محلا للجمال بحسب العادة) إلا التعجب وهذه الحال لا يحلم بها ذلك الذى قرأ علم المنطق وعرف الاشكال وقرأ علم التوحيد المعروف وأخذ يقرأ تلك البراهين فيدخل فى ساحات وأحوال عويصة ويتسرب الشك الى قلبه من حيث لا يشعر لاسيما اذا قرأ أدلة الحدوث والقدم التى نقلت عن اليونان . وقد تبين فيما نقلته عن علماء الفرنجة فى نفس هذا التفسير أن أ كابر فلاسفة اليونان كانوا يقولون أيام سقراط « ان العالم حادث » بطريقة مشوقة تقدمت فى هذا التفسير ببعض ما جاء فى كتب علماء التوحيد والفلاسفة صربك للعقول مهوش للأذهان نقلوه عن علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر وهؤلاء كانوا مقلدين . أما طيماوس الحكيم الذى كان أيام سقراط فقد شرح هذا المقام ونقل بعضه فى مواضع فارجع الى بعضه فى سورة الروم وغيرها . فقال الآن فهمت كيف كانت تلك الجباب مذكرة بالله فكيف تكون تلك الجباب مذكرة بالجنة والنار وبها يعرف الانسان أن هناك بعد الموت جنة ونار مع ان الجنة والنار من السمعيات . واذا كان العقل لا يصل الى السمعيات فكيف توصل اليها مناظر الجباب . فقلت : ما الجنة ولا النار إلا داران ممتازتان . فأحداهما فيها كل محبوب . وثانيتها فيها كل مكروه . ونحن فى هذه الأرض لانعرف المحبوب إلا ما وافق حواسنا الخمس من صور جميلة ونفحات لذيذة وروائح طيبة وطعوم لذيذة وملموسات موافقة كأن تكون ناعمة مثلا . ذلك للبصر والسمع والشم والذوق واللمس وهكذا اذا تخيلنا تلك الصور ولكن حضورها فى الخيال أقل لئلا من حضورها فى الحس . وهكذا المعانى الشريفة الموافقة لعقولنا من العلوم البهجة وانكشاف الحقائق بالبراهين واقتناع النفس بالمعلومات . فهذه بهجتنا . فلكل قوة فينا بهجة تناسبها . فالمعقولات بهجة للعقل . والمحسوسات بهجة للحس . والصور الخيالية بهجة لخيالنا . فهذه المذكورات هى مجامع ما نحبه فى هذه الدنيا . والذى نكرهه يقابل ذلك فكل قبيح صورته مشوه خلقته أو غيرطيب الرائحة أو غيرمتزن النغمات

أوغير لذيد الطعم أو غير ناعم مثلا فاننا نكرهه كما نكره تصوّره في خيالنا . وهكذا خلق عقولنا من العاوم وجهلها وغباوتها وعدم معرفتها حقائق الأشياء وتخطيها في المعارف تجبها بزرى بها . كل ذلك مكروه عندنا . إذن الجنة دار تجمع مانح وجهنم دار تجمع مانكره ، ولكن الحياة الدنيا فيها مانح ومانكره معا ، فيها امتزج المحبوب بالمكروه . وأصحاب العقول النيرة اذا طافوا في هذه الأرض ودرسوا هذه الجنايا يدهشون من نحو ما أذكره ويحصل لهم علم من غير كد ولا نصب بالجنة والنار . فقال : هذا هو الذى سألتك عنه وكيف ذلك ، فقلت ان ترجع الى مثال الذباب والنمل مع جميع الحشرات ، ألت ترى أن الذباب والحشرات خلقت لتنظيف الجو كما تنعم لأنها هي وأمثال الناموس والخناس وغيرها تعتدى بالمواد الفاسدة التى لو بقيت هلاك الانسان والحيوان . فقال بلى . فقلت ألت ترى أن الأغذية على قسمين : قسم هو طعام شريف مثل الحبوب واللحوم والحشائش وأمثالها وهذه يأكلها الانسان وذوات الأربع من نحو الأنعام والسباع . قال بلى . قلت وقسم هو قاذورات تعتدى بها الحشرات كما أوصحتك الآن . قال بلى . قلت ألت ترى أن ماهو قاذورات على قسمين : قسم هو بقايا الرم الملقاة فى الفلوات عقب الغزوات والحروب والاهلاك والتدمير وافتراس الحيوان فى البرارى والقفار . وقسم ليس كذلك بل هو عفونات وقاذورات ليست ناشئة من افتراس الحيوانات المعروفة ولا من قتال الانسان . قال بلى . قلت : لننظر فى أمر هذا الانسان الذى يسمع بالجنة والنار فاننا نجد له عقلا وهذا العقل لا تخلو حاله من حالين لثالث لهما ، فهو إما أن يتحلى بالحكمة وادراك الحقائق ، وإما أن تكون سلوته بالغبية والنيمة والشماتة وتتبع العورات والفتك بالأعداء ومسابقة الأقران وحوز الصيت والمال والملك وما أشبه ذلك

فاذا أغرم العقل بالحكمة والعلم وادراك الحقائق فان غذاءه أشبه بالغذاء الشريف فى المحسوسات كالفاكهة والحب والخضراوات من كل ماهو غذاء للحيوانات المعروفة والانسان . فأما اذا كانت لذاته خاصة بتفوقه على الأقران أو شماتته فى الأعداء أو انتقامه منهم ، فهذا الغذاء العقلى يشبه غذاء الحيات بالضفادع وغذاء الصقور والنسور والشواهين والكلاب بالرّم الملقاة فى الفلاة ، وتكون منزلة هذه العقول لا تزيد فى معقولها على منزلة الصقور والكلاب فى تعاطى ريمها ، واذا كانت لذات العقول لا تغادر حوز العقار وبناء الدور وشراء الحقول وحوز المال والرهيم والدينار ، فهى فى درجة الذباب فى أكل القاذورات والعفونات

وبهذا الايضاح صارت الدرجة الثانية درجتين : درجة القوّة الغضبية ، ودرجة القوّة الشهوية . هذه هى الدرجات الثلاث للعقول فى هذه الأرض . فهى إما عقول تحب الحقائق ، وإما عقول يغلب عليها الفخار والانتصار ، وإما عقول لا تفرح إلا بالمال والشهوات الحيوانية فى مقابلة الأغذية الثلاثة المتقدمة لذوات الأربع ولنحو الطيور الكواسر ولنحو الذباب . ولن يخلو عقل على هذه الأرض من هذه الحاصل الثلاث اجلس مع من تشاء وحادثه فانه يهشّ ويضطرب لما يناسبه من حكمة ، أو من ذكر الحرب والضرب ، أو من ذكر لذات الأجسام الحيوانية

فاذا سمعت الرجل غفورا يرفع القضايا والانتصار أمام القضاة فهومن الفريق الثانى ، أو بحوز المكاسب والمال فهومن الفريق الثالث ، أو بالعلم والحكمة فهومن الفريق الأوّل هذا هو نوع الانسان أوّله وآخره عقولهم جميعا موزعة على المعقولات الثلاثة كما وزعت أنواع الحيوان على أنواع الأغذية

فقال : أحسنت لقد فهمت هذه الثلاثة وقد كانت فى أوّل مقالك لى غامضة علىّ ولكن الآن وضحت لى وضوحا تاما مع ملاحظة أن ذكر الحيوانات وأغذيتها فى هذا المقام مجرد تنظير لتقريب الفهم ، ولكن الى الآن لم نصل الى الحقيقة التى سألتك عنها وهى ان النظر فى هذه الجنايا يكون معرفا بالجنة والنار . فقلت

كل ما ذكرته الآن مقدمة لذلك ولولا مبادرتك لي بالاستحسان لأتيت بالنتيجة . فما أذا الآن أقول  
لوانك أخذت الجمل ووضعت أمامه لحما أفياً كسه ؟ قال لا . قلت : فلوانك أتيت بأسد ووضعت أمامه  
حشائش أفتراه يأكلها ؟ قال لا . قلت : فاذا وضعنا الذباب في مكان نظيف لارطوبات فيه أيعيش . قال كلا  
قلت إذن ما أنتنتج من هذا ؟ قال أستنتج نتيجة واحدة وهي معنى هذا المثل « إن الطيور على أشكالها  
تقع » ومعنى هذه الآية - قل كل يعمل على شاكلته - ، وبصريح العبارة كل حيوان لا يغادر عاداته في  
طعامه . فقلت : حسن وهكذا في العقول بطريق قياس التمثيل ، فلا عقل يستلذ إلا بما عرفه كما لا حيوان  
يستلذ إلا بما ألفه . قال حسن جدا . قلت : اذا عرفت هذا فانظر في هذا الانسان اذا فارقت روحه جسده  
وبقى العقل وحده في الجسم الأثيري بعد الموت فأى معان تحل فيه ؟ فقال : طبعا المعاني التي غلبت عليه  
في الحياة . قلت : وهذه غذاء عقلي له كما ان للأجسام غذاء ماديا . قال نعم . قلت : فاذا كان الشرير في  
الحياة لا ينعم تنهما عقليا إلا بمزاولة الشر ثم مات فان هذا الخلق يلزمه ويريد أن يفتك بمن اعتاد الفتك بهم  
أو يقاضيههم فلا يجد منهم أحدا فيكون ذلك عذابه ، واذا وضع مع أقرانه وعاش معهم في عالم الأرواح فانه  
يفعل معهم ما كانوا يفعلونه في الدنيا لأنهم لا يعرفون غير ذلك ، واذا كنا نجد المصوم وقطاع الطرق  
لا يفرحون إلا بأخوانهم . ولا يألون مجالس العلماء والحكماء ، فهكذا تكون أرواحهم بعد الموت لا تألف إلا  
أبناء جنسها لأنها اعتادت الاجرام وهم مجرمون وهي بهم فرحة وهناك تكون مسرات وقتية بعدها آلام  
وهكذا . قال : حقا لا يكون غير ذلك . قلت واذا رأينا الذباب لا يفرح إلا بالقاذورات فهكذا فليكن أولئك  
الذين انغمسوا في المادة وحرمت عقولهم من الأدب والكمال لا يلد لهم إلا مثل ما كانوا فيه في الدنيا ، فهم  
لذلك يعيشون مع أمثالهم وأصحابهم ويفرح بعضهم ببعض وقتا ويلعن بعضهم بعضا في وقت آخر كما كان  
شأنهم في الدنيا . فقال : حقا لأن الطباع لا تتغير . فقلت إذن بهذا القول انضحت الحقائق ، وأن الدنيا  
دار امتزج فيها المحبوب بالمكروه ، والآخرة دار امتاز فيها المحبوب من المكروه وهناك يكون الناس في مراتبهم  
وكل طائفة لا تعاشر إلا أقرانها ، ومن كانت أخلاقهم وعقولهم كاملة في الدنيا يكونون في لذة ذات نظام وسعادة  
ومن تغلبت عليهم شهواتهم الحيوانية أوقواهم الفضية ، فهم في الدرك الأسفل كل على مقتضى خلقه وطبعه  
(وبعبارة أخرى توضح هذا المقام) ان الجحائب المشاهدة في هذه الحيوانات أرتنا تفاوت الأغذية بتفاوت  
أنواع الحيوان ونظيره العقول ، فكل عقل له غذاء يناسبه فان كانت صور الغذاء العقلي شريفة فيها والا  
فهى خسيسة ويوضع في مرتبته هناك

وكما اننا نرى في الحياة الجرذان والحشرات ذليلة هكذا نرى بعد الموت النفوس التي تشابهها ذليلة ، ولو  
قيل لامرئ في الدنيا أيهما خير لك أم تموت أم تصبح فأرا ، فانه لا يتردد في أن يقول العدم خير من الوجود  
اذا كان على هذا المثال ، ومن هذا قوله تعالى - قلت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا - . إذن  
درجات النفوس بعد الموت ظاهرة واضحة في الحيوانات المشاهدة ، وهذه العقول قد تربت في هذه الأجسام  
وصارت درجاتها مختلفة اختلاف هذه الحيوانات فمن عقولهم في تنزها تشبه الحشرات تعيش معا في المكان  
المسمى بجحيم ، ومثلها النفوس التي أشبهت الصقور ، ولكن اذا كان هذان القسمان قد هذبا وألتي العقل  
عليهما والدين نصائح فانهما يكونان في الجنة بشروط خاصة

وبالجملة فان أحوال أهل الجنة لها نظير في العالم المشاهد ، وهذه المعاني التي ذكرتها الآن مع طولها  
تمر ببعض العقول في وقت قصير جدا ، ومن النفوس الصافية ماتخطر لها هذه الخواطر حالا ، ولكن عدم  
مزاولة العلوم واللغات يقعدها عن التعبير . هذا ما أمكنني أن أجيبك به الآن . فقال لقد فهمت حق الفهم  
وأنا لك شاكر ، ولكن هل من قوائد تترتب على ما تقدم في أحوالنا المدنية ؟ فقلت : اذا تفضلت بإيضاح

السؤال أمكنني الاجابة . فقال : لقد ذكرت أن أمثال الذباب تعيش على العفونات والرطوبات ، وجعلت هذه مثالا للنفوس الشهوية ، وذكرت أمثال الصقور والشواهين وجعلتها مثالا للنفوس الغضبية ، ولقد اتينا من تفسير كلام الشيخ الدباغ وأن هذه تذكرة لأحوال النفوس بعد الموت ، فهل من سبيل الى الانتفاع بهذه العلوم اللطيفة في مصر والشام والعراق وبلاد السودان وافريقيا . فقلت حسن ماتقول ، نعم انظر الى الأمم المستعمرة تدخل بلاد الشرق وتعطيهم من العلوم قشورها ومن الصناعات أضعفها وتمنع عنهم نور العلم وتعدهم أشبه بالحيوانات الذليلة ، فهي تسهل ادخال المشروبات الروحية من الخمر والمخدرات ، وتسهل لهم أحوال البطالة والكسل بما شجع أرباب المحال التي تستهوي العقول فيجلس الشبان أكثر النهار بلا عمل فيها ، وتوعز للذين يأتون بالصور المتحركة (السينما) أن تكون كلها أوجلها حافلة بالشهوات والمخازي وكل ما يسقط النفوس في المهامى ، فهذه المناظر وتلك المشارب جعلتها الأمم المستعمرة شبكات لاصطياد العقول القوية بها يصادونها فلا تقدر بعد ذلك على الخلاص ، وهذا هو الذي يبقى الاستعمار ، وهكذا يذيعون الروايات المملوءة بما يحط قيمة النفوس الانسانية ، فتتحول العقول في تلك البلاد الى حال تشبه حال الحمامات . ولكن الأمم الحرة لا تدخل شريطا للسينما إلا اذا وجدته مهذبا للأخلاق رافعا للنفوس معلما للأمة ماتعيش به كالفلاحة والصناعات المختلفة ، فبدل أن تكون السينما والروايات لتشويق النفوس الى كل ما يهدم الانسانية تكون لاعلاء شأنها ورفع قدرها وتعليمها الصناعات وشوقها الى المعاني والمعالى ، فالروايات والسينما وأمثالها إما مهيئات نفوس الناس الى منزلة من منازل الجنة ، واما الى حفرة من حفرة النار . والسبب في ذلك هم المستعمرون من الفرنجة الذين هم خلفاء المسيح الدجال لأنهم يظهرون أنهم مصلحون وهم يفسدون . هذا هو الذي كنت تريد أيها النكي . فقال نعم هو والله جزاك الله خيرا . قلت : هل بقي لك سؤال ؟ فقال سؤال واحد وهو انه ظهر لي أن قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - ظاهراً أكثر ظهور في علوم عصرنا الحاضر . فقلت حقا فان مشاهدة عين النبوية وأعين النملة مثلا ونحو ذلك من المجانب المذكورة في هذا التفسير تدعش العقول وهو هو من مصداق انه يرينا ، فهنا رأينا ذلك بالبصر بالمنظار العظيم والكشف المتتابع ، وذلك لم يكن فيما مضى . واذا كان البرهان مبني على المشاهدة كان الى اليقين أقرب . واذا كان الله شهيدا على كل شيء والملائكة يشهدون العوالم . فهام العلماء في زماننا يشهدون في عالم الحس عجائب الصنع وهذا قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط - . فهل بقي لك سؤال أيها الصديق ! فقال إن أذنت لي . فقلت : سل ماتريد . فقال : لقد ذكرت أن الدنيا امتزج فيها الخير والشر . أليس كمال الشيء أن يكون تاما لاناقصا والوجود لا يكون تاما إلا اذا كان فيه الأمران معا فانك أثبت في هذا التفسير أن الرحمة لا تتم إلا بوجود الضدين معا والضدان هاهما الآن في الدنيا إذ الخير والشر امتزجا فيها . فقلت : إن العقول الشريفة في أرضنا جل اهتمامها بالبحث والنظر وأفعال الله في كل وجود كاملة وعقولنا اليوم تعيش في وسط الكمال والجمال غاية الأمر ان أكثرها لا يكشف له عن ذلك الجمال لغلبة المادة عليه . فاذا خلصت الروح من المادة ظهر لها الجمال فتكون أشبه بالمحبوس لم يرب في السجن إلا صورة ضئيلة مما في الخارج فاذا خرج منه كان في حالة أشرف وأجمل . واذا شبهناه بالجنين حين خرج من بطن أمه صح التشبيه . فقال قد اكتفيت ولم يبق في نفسي شيء . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة في قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ كتب في صباح يوم الاثنين ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

( تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء التاسع عشر من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم  
وبليه الجزء العشرون . وأوله تفسير سورة الشورى )

## فهرست

( الجزء التاسع عشر )

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ تقسيم السورة أربعة أقسام
- ٣ القسم الأول في تفسير البسملة . وتبيان أن الرحمة فيها موجهة الى العرش والخافين به المذكور في آخر سورة الزمر وفي أوائل سورة المؤمن ، إن العرش ذكر في سورة التوبة ويونس وهود وهونك مشير الى أن عروش الأمم القاطنة في بلاد عاد وثمود والأرض التي كان يقطنها ابراهيم ولوط وشعيب وموسى المذكورة في تلك السور كلها اليوم بلاد اسلامية ولا تزال الى الآن في أيدي المسلمين ، فعروش تلك البلاد في قبضتهم الى الآن وهكذا ذكر هنا في السورتين لمكان العلم والتعليم ، والعلم راجع للتسبيح والتحميد والتعليم راجع للاستتفار ، لا عرش في الأرض يقوم إلا على دعامين من العلم ودعامين من العمل ، ودعامتا العلم هما العلوم الطبيعية والحياة السياسية ، والعمل بالقدرة ، والقدرة بالمال والرجال ، فهنا أربع دعائم لكل عرش في الأرض ، والعمل والقدرة المذكوران في شرح الكرسي المذكور في آية الكرسي ، والذي يهم في مقامنا هذا أن يكون المسلم متبعا للملائكة الخافين من حول العرش فيكون عالما مفيضا للعلم على الناس ، والعمل إن لم يحقق المحسوس المشاهد فما أعجزه عن ادراك المعقول الغائب وذكر الغفران والتوبة مع العرش لصفة العلو والعظمة ، وفي هذه السورة مباحث ، مباحث رحمانية كفضجج الأرض الواسعة ، والسموات والأرض والأنهار ، وتدرج الانسان من تراب ثم من نطفة ، والالتجاء اليه ، وقبول دعوته اذا أخلص ونصر المصلحين وهكذا
- ٦ ﴿ القسم الثاني من السورة ﴾ فيه آيات السورة من أولها الى قوله تعالى - إن الله هو السميع البصير - ثم تفسيره اللفظي
- ١١ لطائف في قوله تعالى (حم) وقوله - الذين يحملون العرش ومن حوله - وبيان أن (الم) في أول سورة البقرة سبقت للجهاد ، وفي العنكبوت سبقت لكشف نسب العناصر بعضها لبعض وهكذا بقية السور أفلا تكون هنا الحاء والميم إشارة الى حمد الملائكة ، ولامعنى للحمد ولالتسبيح لإبدراسة صفات الجلال والاكرام ، ولن يتم ذلك إلا بدراسة علوم الأمم حولنا ، إن من ينكر الملائكة الخافين حول العرش جاهل بما عرفه علماء الشرق والغرب كالامام الغزالي والرازي وأصحاب اخوان الصفاء إذ قالوا : « إن أرواح الناس التي فارقت الأجساد تعين الأحياء على الأعمال » . وهكذا يقول أكبر عالم طبيعي انجليزى « إني ناجيت الأرواح وحادثتهم وهم يهتمون بنا »
- ١٣ ذكر الأحاديث الواردة والآثار في هذا المقام كقول كعب وكقول جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه ، وبيان معنى كون العرش يكسى كل يوم بألف لون من النور وأن ذلك واضح لمن قرأ العلوم اليوم ، وكقول وهب بن منبه : « إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف » وأن تلك المعاني يعرفها إجمالا من درس علم الفلك ، وبيان أن الحاء والميم فتعا هذا الباب
- ١٤ الكلام على صلاتنا نحن معاشر المسلمين وأن تسبيحنا فيها متبوع بذكر السمع والبصر والمنح والعظم

- والعصب الخ ولا معنى لهذا كله إلا العلم ، إذن تسبيحنا في الصلاة ومأمعه يراد به التشويق للعلم . فاذا سبح الملائكة فنحن نسبح والنتيجة هي العلم بنظام هذه العوالم الجيلة
- ١٥ ﴿ القسم الثالث من السورة ﴾ من قوله تعالى - أولم يسيرا في الأرض - الى قوله تعالى - بالمشى - والإبكار - والتفسير اللفظي
- ١٩ ﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله تعالى - إن الذين يجادلون في آيات الله - الى آخر السورة وتفسيره اللفظي
- ٢٣ لطيفة في قوله تعالى - ويريك آياته فأى آيات الله تنكرون -  
تذييل التفسير في سورة حم غافر ، والسكلام فيه على مقصدين
- ٢٤ ﴿ المقصد الأول ﴾ فيه السكلام على التنفس الرئوي لأنه في الانسان والحيوان . وبيان صفة الرئة العامة وعلاقتها بالقلب وما فيه من طبقتي الأذنين والبطينين
- ٢٥ ﴿ المقصد الثاني ﴾ في قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدواً وعشيا - وبيان ما جاء في كتابي المسمى (الأرواح) الذي ألقته بعد أن منعت موانع السياسة من مواصلة درسه في دارالعلوم . وفي تلك المدة تمكنت من تأليف كتاب الأرواح المذكور . وفيه جاءت عجائب هذا العلم الذي منه ذكرت ما في التفسير مقدمته لمناسبتها لهذه الآية وأن الأرواح قد نطقت في المحافل العلمية بأمرىكا وشرحت ما شاهدته في عالم البرزخ . وأن المسلمين سيحبون من الحاكم الألماني الذي استعانت روحه من اضطهاد يقيمين ومن روح محاسب في مدينة (ونسبرج) ارتكبت خيانة فطلبت المساعدة ومن روح غني بجيل عذبت روحه بالمال وأن ذلك كله هو مقتضى آيات القرآن بل هو محور دين الاسلام وأصوله
- ٢٧ ويوافق هذا ما قاله الغزالي إذ يقول : « إن الميت في أول أمره يعذب بفرقة المشتبهات وثانيا بالخجل من الفضائح وثالثا بالحسرة على فوت ما هو محبوب من الأعمال العظيمة » وبيان أن العذاب والنعيم أمران لازمان للطاعات والمعاصي . فالله لا ينتقم وإنما هو عدل . وهنا كلام (اخوان الصفاء) الموافق للغزالي من وجه . وبيان معنى الحيات والعقارب والتنانين الواردة في عذاب القبر وانها إما أن تكون صوراً حقيقية لا تظهر إلا لأهلها تعذيباً لهم كما يظهر الملائكة للأنبياء تعليماً لهم لا لعيرهم . وأما أن تكون أشبه بحال النائم . وأما أن يكون المقصود الآلام المشبهات آلام العقارب ومأمعها لأن المقصد هو العذاب وهو حاصل . وبيان أن الآلام جسمية وروحية الخ وههنا شرح طويل وبيان للإمام الغزالي
- ٢٨ ﴿ المجلس الرابع ﴾ في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه وفي قلة علم النوع الانساني وموازات شتى بين أقوال الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف . وذكر القليل الألماني الذي مضى له (١٧) سنة وأخبر بموته وطابقت الحكومة على قوله
- ٢٩ اللطائف الهامة لأقسام السورة كلها ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة - مع قوله - الله الذي جعل لكم الأنعام - الخ وبيان أنه لا معنى لشكر النعمة وللحمد عليها إلا بتقديم العلم بها ، فاعلم هو الأس الذي يبني عليه الحبّ وثناء اللسان ونشاط الجوارح في الأعمال والعلم بهذه الأنعام وعجائب خلقها قد تقدم في سور كثيرة مثل النحل والحج وطه والنور والنمل وسبأ والروم والمؤمنين وفاطر والسجدة ، ومع ذلك فأننا هنا نزيد مسائل لم تذكر في تلك السور مثل السحالي والبرص والحرباء ، أضرارها هي فقتلها أم نافعة فنبقيها ؟ وأي فرق بين الثعابين السامة وغير السامة ؟ وهل ما يحمله الحوأة (المشعوزون) من الثعابين سام أم غير سام ؟ وما هو الحيوان الذي يولد في ماء ثم يهاجر الى المسكان الذي خرج منه أبواه وهو لم يره ! وهل الحدأة ضارة ؟ وإنما ذكرت هذه هنا لأن الآية فيها

٣٠ ذكر الأنعام وانها ثمانية أزواج ، وهذا يقتضى تقسيم الحيوان الى أنعام وغير أنعام ، فهذا من القسم المقابل لما في الآية ، وفي هذا المقام يقسم الحيوان الى ناقص الخلقه وتام الخلقه ، والأول مقدم على الثانى ويقسم أيضا الى أشرف وما هو أقل شرفا وذلك بحسب الحواس ، فهو إما ذوحاسة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس ، فذو الحاسة كاللود في حب الثمار ، وذو الحاستين كاللود الذى على ورق الشجر وزهره ، وذو الثلاث فلا سمع له ولا بصر وهو الحيوان الذى فى قعر البحار والأمكنة المظلمة غالبا وذو الحواس كلها ماعدا البصر وهو الهوام والحشرات التى تدب فى المواضع المظلمة مثل (الحلمه) والكامل مافوق ذلك وبيان أن منها المتدحرج والزواحف والذى ينساب أو يدب أو يهدو أو يطير أو يمشى ، وهذا له رجلان أو أربعة أو ستة أو ثمانية أو أكثر ، والذى يطير من الحشرات ماله جناحان وأربعة وستة أجنحة ، ومنها ماله حمة وقرون ومشافر ومخالب وخرطوم ، ومنها ماله فكر وروية وتمييز وتديير وسياسة ، ومنها ماله أعضاء مختلفة مهندسة مفصلة مغطاة بالجلد وعليه الشعر والوبر والصوف والريش والصدف والفلس خارجا ، وفى الداخل الدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتان والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكبرى والحوصلة والقانصة ، وفى الظاهر الأرجل والأيدى والأجنحة والأذنان والمخالب ، وههنا الفرق بين البهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح والهوام والحشرات . وبيان أن كبير الجثة يمكث فى الرحم طويلا لتدور الشمس دورتها فيستكمل فى الرحم ، وهذه خلقت أولا عند خط الاستواء ثم تناسلت وانتقلت الى مواطن أخرى ولكن أرحام الاناث حفظت تلك الحرارة . وبيان أن الناس يتعجبون من خلقه الفيل وهم لوعلموا لتعجبوا من خلقه البقرة أكثر لأن لها أرجلا أكثر وتزيد الأجنحة وغيرها ومع ذلك هى تؤذيه . هذا بالاجال تقسيم المتقدمين . أما تقسيم المتأخرين فهم يقولون إن الحيوان إما ذوخلية واحدة وهو الأذى ، وأما ذوخلايا ، والأول كحيوان الملايا الذى لا أعضاء له ويعيش فى الكرات الحراء فى الدم ، وذو الخلايا الكثيرة منه الاسفنج وحيوان المرجان وذو الجلد الشوكى وقنفذ البحر والديدان المفرطحة كدودة السكبد والبلهارسيا والديدان الاسطوانية كدودة الانكاستوما وكالدودة الحلقيه والمفصليه ومنها الحيوانات الرخوة والفقرية ومنها السمك والضفادع والزواحف والطيور وذوات الثدي . والحيوانات السبعة المتقدمة من ذوات الفقرات فهى مشاركات للذكورات فى الآية وهى الأنعام . فأولها السحالى وهى من أنواع الورل (شكل ١) صحيفة (٣٤) وهى حيوانات نافعة للانسان لا ضرر منها . وثانيها الأبراص جمع برص وهى حيوانات نراها فى منازلنا ونظن جهلا انها ضارة وهى نافعة فوجب أن لا تقتل (شكل ٢) صحيفة (٣٥) وكذلك الحرباء (شكل ٣) صحيفة (٣٥) وهى حيوانات نافعة أيضا

٣٦ الثعابين منها ماهوسام (شكل ٤) صحيفة (٣٦) وشكل ٥ صحيفة ٣٧ والثانى هو الكوبر المصرى أى الناسر . والحية المقرنة (شكل ٦) صحيفة (٣٨) والثعبان ذوالجرس (شكل ٧) صحيفة (٣٨) وهناك ثعبان غير سام وهو فى القطر المصرى كثير وهو رملى يميل الى الاحرار عليه بقع ذات لون بنى وسطه السفلى أصفر وهذا هو الذى يحمله الحواة (الشعوذون)

٣٩ (شكل ٨) صورة ثعبان يسمى (البيتون) وهو أيضا غير سام الكلام على ثعابين السمك وهى قسمان : قسم يعيش فى أنهار أوروبا وشمال افريقيا . وقسم يعيش فى أنهار الولايات المتحدة التى تصب فى المحيط الاطلانطيقى . ومن ثعابين السمك نوع بمصر (شكل ٩) فى صحيفة (٤٠) وأكبر مدة يتم فيها نمو ثعبان السمك سبع سنين . ومتى تم نموها تجتمع وتهاجر من الأنهار

وتترك مصابها وتنزل في البحر الى بوغاز جبل طارق فالمحيط الاطلانطيقي جزائر برمودة القريبة من الولايات المتحدة وتعاين أنهار أوروبا تفعل هذا كله ، وهناك تضع الاناث بيضها وتفرغ الذكور مادتها المنوية عليها في الماء فيتم اخصاب البيض وربما تضع الأنثى أكثر من مليون بيضة ، ثم يموت الذكور والاناث وتخرج الذرية وترجع الى المحال التي خرج منها آبؤها وأمهاها وهي لم ترهن  
٤١ ولن تضل ذرية تعاين السمك الأمريكي ولا الافريقي طريقها بل كل يرجع الى المكان الذي خرج منه الآباء والأمهات

٤١ الكلام على دودة الأرض (شكل ١٠) وهي ذات أشواك صغيرة ولها جلد رطب مخاطي  
٤٢ وترى في (شكل ١١) حجمها مكبرا والذي تقدم هو حجمها الطبيعي ، وهي تخرج أثناء الليل لتبحث عن غذائها فتأكل الفضلات من الأوراق والأزهار الساقطة وتسحبها الى داخل الأرض ، وكذا بذور النبات والبويضات والحشرات والديدان وهي تتوالد

٤٣ (شكل ١٢) رسم دودتين في حالة الاجتماع ، وهذه لها منافع للناس ، فهي تصيد السمك ، ولغذاء الطيور ، وهي تحرث الأرض فيدخل الهواء فيها ، وتساعد الجذور على التعمق فيها ، وبأكلها الطين يدخل فيه مواد عضوية فيكون سمادا ، وهي بقذفها الطين ترفعه الى سطح الأرض فيقابل الشمس فهي أشبه بالحرات ، وتسحب الأوراق الى بطن الأرض فيكون سمادا ، وقد يكون في الفدان الواحد من أرض الحدائق (٥٣) ألف دودة يمر من أجسامها (١٠) أطنان من التربة وهو يقطى نصف سنتيمتر تقريبا

٤٤ ﴿ العلق ﴾ تعيش في المياه العذبة في البرك والمستنقعات وبعضها في الأرض الرطبة وهي تعيش في الدم وهي خنثى وهي تتعلق بكل حيوان تعثر عليه ، وأهم هذا النوع هو العلق الطبيعي  
٤٥ الكلام على الحداة ، وبيان انها تأكل صغار الدجاج والبط والأوز والجرذان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات والرمل ، وهي مفيدة جدا في تنظيف الشوارع من الرمل وسطوح المنازل من بقايا الماء كل ، وضررها أقل من نفعها  
خاتمة في الحيوانات النافعة مثل المذكورة في يوسف عليه السلام

٤٦ تجارة الجراد في بلجيكا ، وبيان أن الحكومة المصرية اليوم لم تستيقظ لمنفعة الجراد الذي هجم على مصر مع ان في بلجيكا شركة تصنع منه زيتا ، ولم تبال بالطلب الذي قدم اليها ، فعلى من بعدنا أن يربوا الحكام تربية أرقى من هذه لأنهم لو باعوه لعوضوا النقود الضائعة في مطاردته

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة - الخ مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - وقوله - لا إله إلا هو - فهنا وحدة النفس المتصرفة في الأعضاء ووحدة الله ، ولا فرق بين وحدة نفوسنا مع كثرة أعضائنا وبين وحدة ملكة النمل وملكة النحل وملكة الأرض (جمع أرضة) . وقد وصل نيارمن وصلوا الى القطب الجنوبي الى الذين في الممالك المتحدة في لمح البصر بمجرد الضغط على الزر . إذن اتصال الخبر بين النمل والنحل بنفس طريقة كطريقة الراديو  
إذن العالم ذو وحدة لها محرك واحد وبه نفهم - ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة -

٤٨ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - الله الذي جعل لكم الليل - الى قوله - كن فيكون - وفيها ذكر الليل والنهار ، وخلق كل شيء بسبب هذا التعاقب وأن الأرض قرار ونظام خلقنا وتدرجه وحياة كل حي وموته ، في هذه المسائل الخمس تدخل العلم الطبيعي والإلهي والفلسفي

٤٩ إن الحرارة والبرودة في الأرض يرجعان الى الليل والنهار ، والحيوان والنبات موزعان على مناطق الأرض المختلفة بسبب سير الشمس ، ثم إن المكان الذي كثر نباته أو قل لا يعيش فيه الانسان ، أما الذي اعتدل نباته فهو الذي يمكن عيش الانسان فيه ، فالغابات الاستوائية والأقطار الباردة لا يصلحان لسكنها ، فالانسان كما وجب الاعتدال في أخلاقه وجب الاعتدال في محل سكنه ، ومن عجب أن جسمه مفصل على مقتضى هذه العوالم حوله ، فأعضاء الحسّ للعلم بالموجودات ، والرجلان لحركة الانتقال ، واليدان لحركة العمل فكأن الانسان الورقة المصوّرة بصورة الشجرة وهي هذه الدنيا . إذن العالم مقسم على أعضائه علما وعملا كما تقدم في أول ﴿ سورة ص ﴾ وهذا الانسان اليوم جاهل لم يدرس جسمه ومن درس جسم الانسان وجسم العالم عرف أن الانسان والعوالم حوله أشبه بالروح والأعضاء الجسمية فكما أن أعضائه مطيعة لأرواحنا هكذا العوالم حولنا يجب أن تطيع الانسان والانسان سائر الى هذه الحال ، وأضرب لذلك مثلا : رجلا بنى لأبنائه بيوتا منفصلة بماء البرك وهم ينتقلون الى بيوتهم بالسفن والأبنية لا تبلغ إلا الثلث والباقي ماء ، وبهذه الطريقة كانوا يتحاربون ، وهذا القتال هو السبب في نشاطهم ومعرفة أسرار الماء والأرض وهكذا ، وفي آخر الأمر قرر قرارهم على ما يأتي :

ذلك ان أحدهم . قال : أيها الاخوة إن أبانا حكيم لأنه لم يشأ أن يعطينا مجانا بل أراد أن نفكر بأنفسنا . انظروا . ألسنا نحافظ على الطيور كالزقراق البلدي والشامي وأبي قردان ونحافظ على البقر والجاموس ، فهذه قد أجمعنا أننا اذا أكلناها ولم نبقها لتنفعا في زرعنا إما بالتقاط الديدان واما بالحرق والسقي فانتانهلك لاحالة ، وهذا برهان يقيني واذا حافظنا على العنكبوت لأكله الذباب وعلى الحشرات لمنفعتنا أفلا نحافظ على الانسان نفسه الذي اذا أبقيناه ساعد مساعدة أتم من مساعدة الحشرات وغيرها وبهذه زال الحرب بينهم ، الأب ضرب مثل لله تعالى والاخوة بنو آدم والمنازل هي القارات والماء هي المحيطات المعلومة . إن الانسان لم تقتصر العداوة على أن تكون بين أفراد بل انه حرم من المناطق الباردة القطبية والحرارة الاستوائية المملوءة نعما وخيرات لاحد لها . انه لم يحظ بالإسكنى المناطق المعتدلة أما غيرها فلا . إذن هذه المناطق محبوبة لهذا الانسان وهي عاصية عليه حتى يجتمع كله ويتحد ويصبح جميع الناس أمة واحدة وهم أولى بالاتحاد في هذه الأعمال من اتحادهم مع أبي قردان والجاموس والبقر تلك الحيوانات التي اتحدت معهم في المنفعة ، فهل منفعة الانسان أقل من منفعة الحيوان ! إن الانسان جهول والأنعام اليوم أرق منه . اللهم إني أشكو اليك هذه الأمم ، وأهل أميركا يقتلون السود جهلا وخبثا لمجرد اللون . وأهل انكرا يطردونهم من مطاعمهم لمجرد اللون

٥٣ الانسان وتوزيعه على المعمور . شروط صلاحية القطر للسكنى . مغالبة الانسان طبائع الأقطار التي يسكنها أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية وموازنتها بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تعد القطر للسكنى وهكذا التغيرات الدهرية . الحرف وتأثيرها في عدد السكان

٥٧ أسرار العلوم المحبوبة في هذه السورة ، وذ كرخسة أسئلة (١) الذنوب ومفترتها (٢) الكفر والايمان (٣) محاور مؤمن آل فرعون (٤) محاجة الكفار في النار من المستكبرين والضعفاء (٥) ما يقوله بعض المفسرين في آية - خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس - فان ابن عباس يقول : إن ذلك اشارة الى الدجال وأن الآية رد على اليهود الذين يقولون إن الدجال يرجع لهم ملكهم . والاجابة على السؤال الأول والثاني أن الآلام كالضرب والكسر والصدم والجرح والأسقام كلها منذرات . واللذات نصف الرحمة والآلام نصفها الآخر . ثم ان ما تقدم في أول سورة الزمر من أن في الجوّ (١٦) طبقة سببها

الغبار والدخان ، وهذه الطبقات تحجب ضوء الشمس صباحا بحيث يكون أقل (١٣٥٠) مرة منه وقت الظهيرة . وهذه الحجب ودخانها الضار بأجسامنا المقصر لأعمارنا أصبح نعمة ، فنفعه أكثر من ضرره ، فهكذا الذنوب فهي منعت أفاضة العلوم على عقولنا دفعة واحدة لئلا نهلك . ثم ان الأرض أسرع قبولا للحرارة من الهواء وأسرع تخلصا والماء بالعكس وهكذا كل حيوان أو نبات أبطأ في النمو كان أكثر نفعاً والعكس بالعكس . فهناك فرق بين النحل والقرع وبين الحصان والكلب . وهكذا هناك فرق بين الهرم وبين أبنيتنا من حيث الاتقان المناسب للدوام . هكذا الكافر والمذنب اذا صلح حالهما بعد العناء الشديد كان صلاحهما وإيمانهما أتم لأنه بعد عناء . وهذا هو السر العام في كل ما نحن فيه من الشفاء والنصب في هذه الحياة

٦٠ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وفيه ثلاثة جواهر

٦١ الجوهرة الأولى في لمحة من تاريخ قدماء المصريين وهذا التاريخ ثلاثة أدوار: الدولة القديمة ، والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وتاريخ الدولة القديمة يبتدئ بالملك (مينو) الذي جمع ملك الوجهين البحري والقبلي وعاصمته (تائيس) أو طيبة بجوار جرجا ، ثم انتقلت العاصمة بعد ذلك الى منفيس عند ميت رهينة بقرب القاهرة ، وهناك شيد (زوسير) الهرم المدرج وسنفر وهرمى ميدوم ودهشور وخوفو وخفرع ومنقرع اهرام الجيزة الثلاثة وساحورع ونوفراقرع وامرنع وأونس وتبتي وبيبي الأول والثاني ومرنع الأول والثاني ، فهؤلاء منهم من شيد اهرام أبي صير والمعبد الشمسي ، ومنهم من شيد اهرام سقاره . ثم تلت هؤلاء حروب وجاءت الدولة الوسطى ، وهؤلاء من الوجه البحري ، وجعلوا مدينة طيبة مقرهم ، وحكموا النوبة ، وأقاموا المعابد بظبية ، وشادوا اهرام دهشور والشت والفيوم ، وبنوا قبور بني حسن والبرشه ومسلتين من حجر الصوان إحداهما بالمطرية ، والقصر الذي هو شرفى بركة قارون . ثم نقلت في الأسرة الرابعة عشرة الى الوجه البحري في (سكخا) ثم سقطت الدولة ودخل الهكسوس وجاءت الدولة الحديثة فرجعت الى طيبة وعظمت مصر وعظم سلطان الكهنة ، ثم أصبحت العاصمة (صالحجر) بالقرية وتل بسطة بالشرقية . وفي هذا الوقت ابتدأ الانقسام فدخل الآشوريون وضعفت مصر ثم دخل الفرس ثم دخل اسكندر المقدوني . كل ذلك بالانقسام . والمهم في الآية أن هذه الأمة وأمة العرب في الأندلس مقسما في الانقسام فالمصريون عبدوا الطير والسماك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب كما تقدم في ﴿ سورة النمل ﴾ واقتتلوا على ذلك ومتى خربت العقول ضاعت الأمم . وهكذا الأندلسيون افترقوا عشرين دولة صغيرة فأهلكهم الآشوريون . وهذا هو السر في قول مؤمن آل فرعون لهم - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - الخ فبأس الله هو التفرق والانحلال الذي جاء بعد هذه النصيحة لأنه كان في الدولة الوسطى . وأعقب ذلك الزمن الدولة الحديثة التي كانت هي انتهاء دولة المصريين كما انتهت دولة العرب في الشرق والغرب بنفس هذا الانقسام بعينه ومينه مع خراب العقول وضاعها بالتقليد الأعمى . وهذه هي حال المسلمين اليوم . ولقد فعل الفرنجة بأهل مصر في زماننا ما حصل لهم أيام الفراعنة . فأوثك لما أراد الله اهلاكم سلت على عقولهم الخرافات فجعلوا الحيوانات في الدرجة الأولى من الالهية والمعبود الحق في الدرجة الثانية فتفرقتوا . وههنا تفرقتنا نحن بسبب المبشرين المنبئين في البلاد الذين زلزلوا عقائد الأكارب فأضاعوا البلاد ودخل الانجليز مصر وأصبح المتعلمون إلا قليلا منهم يقشبهون بالفرنجة في كل أحوال حياتهم . فما أشبه الليلة بالبارحة . إذن قصة مؤمن آل فرعون منطبقة على حالنا اليوم . إن الرياء والخداع هما الرائجان . وقد

يقوم بأمر البلاد أخسّ النفوس وأضعف العقول والسفهاء وأحباب الماضي الخبيث والسيرة القبيحة ،  
وقليل من يتولاها من ذوى النفوس الشريفة الصادقين ، والمصريون اليوم عرب لهم صلة بالعرب في  
شمال افريقيا والحجاز واليمن والعراق الخ

٦٦ فهناك نصيحة الدكتور يحيى الرديري إذ رفع صوته في صحيفة الشبان المصريين قائلا : « لابد من اتصال  
المصريين بالأمة العربية ، فأما الاقتصار على الوطنية المصرية وحدها وعدم اتصالها بالوطنيات الأخرى في  
العراق والشام الخ فغناه الموت والهلاك ومعناه الانقسام ( وبعبارة أخرى ) ذكر المصريين بروابط  
الدين واللغة والنسب مع العرب الآخرين . فهذه نصيحة مصرى في عصرنا لماوازناها بنصيحة مؤمن  
آل فرعون وجدنا بينهما مشابهة ما ، وعسى أن تكون هذه النصيحة بعقبها ارتفاع الأمة وان كانت  
نصيحة مؤمن آل فرعون أعقبها هوان الأمة لأنهم لم يتظنوا

٦٩ نورالعلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ، ههنا ذكر المؤلف معنى الاستغفار ، فمستغفر رسول الله  
ﷺ ؟ أمن ذنبه وهول ذنبه له . كلا . إذن استغفاره ﷺ هنا راجع الى إزالة سبب الذنوب أى  
دوام ذلك الزوال كما تقول اهدنا الصراط المستقيم ، والفتح المذكور في سورة الفتح ترتب عليه الغفران  
بهذا المعنى إذ الفتح هناك راجع لفتح العلم وهو يحدث الأثر في نفوس السامعين فينشرون العلم بفتح  
البلدان ، إذن الفتح والمغفرة راجعان للفتح العلمى واصفاء النفس وخلوصها من سبب الذنب . أما  
التسبيح والتحميد فهما أمران عجيبان : ان النعم التي نشاهدها غزيرة ولكننا نراها مزوجة بالشرور  
وهذه الشرور تحدث عندنا خوفا من الله ويكون الحب لله على مقدار ما يكون من اللطف الذي نحس  
به بعد كل شرّ يصيبنا فنكون عبيد سوء لانعرف النعمة ولانحسب بها إلا اذا أصابنا الشرّ لنفرق بين  
النعمة والنقمة ، ولكن اذا أدركنا بعقولنا ودراسنا العلوم الرياضية والطبيعية ، وتحققنا بعقولنا أن  
الشرور لا بد منها لتمتعنا أصبح حبنا لله لاحد له وهناك فقط نفهم معنى الرضاء بالقدر ومعنى « الايمان  
بالتقدير خيره وشره من الله » وهناك هناك فقط تكون سعادة هذا الانسان ويكون الحب الحقيقي ، وهل  
السعادة إلا الحب ، والحب هو النعيم كله والسعادة كلها ، فلادنيا إلا بالحب ، ولانعيم في الآخرة بحق إلا  
بالحب . هذا هو سرّ الاستغفار والتسبيح والتحميد

٧٣ الفصل الرابع ( في حاجة الضعفاء والمستكبرين في النار . وبيان أن ذكر المسيح الدجال بعد محاجة  
الضعفاء والمستكبرين للدلالة على أنه اذا كان المسيح الدجال (مع ماله من السكر والدهاء التي لا يباقيها  
في الخديعة الرؤساء الضالون والشيوخ التماشون) لا يخلى أتباعه من العقاب لأن لهم عقولا فأولى بالعقاب  
هؤلاء الذين يتبعون المضلين من الشيوخ والأمراء المضلين . إن المحاجة بين المستكبرين والضعفاء في  
الآية تقرير للمسلمين الحاليين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم ونسوا أن كتاب « الفرق بين الفرق »  
الذي اشتمل على (٧٣) فرقة من فرق المسلمين ، كان كل اختلافهم المذكور فيه غالبا لا يرجع إلا الى سبب واحد  
بحسب الأصل وهو الجاه والثروة والملك ، ولادواء لهذه الأمة عندهى إلا دراسة العلوم الرياضية والطبيعية  
وجميع علوم أهل الأرض ، ولا يصلح لقيادة هذه الأمة رجال يجهلون هذه العلوم ، فلارجال الدين ولارجال  
السياسة ولا الأمراء ولا الملوك ولارؤساء الجمهوريات في أمة الاسلام بنافعين مالم يتحلوا بهذه العلوم .  
وكفى كل واحد من هؤلاء أن يلم بأكثر مافى هذا التفسير . فأما غير من أنصفوا بذلك الوصف فهم  
لا يصلحون لرقى هذه الأمة لأنهم جهلاء غالبا جهلا مركبا

٧٥ الفصل الخامس ( في المسيح الدجال . لقد تكلمنا على المسيح الدجال في مواضع كثيرة من هذا

التفسير، وفي كل موضع فائدة ليست في الموضوع الآخر. فاختلاف العبارات باختلاف المواضيع كاختلاف الزروع. لكل وجهة وفائدة، إن المسيح الدجال أنذره الأنبياء قومهم، وليس من المعقول أن يندروا بالذي لا يحدث لأنهم، وليس من المعقول أن يستعبد المسلمون ١٣٥٠ سنة من شيء لم يكن له أثر، إن الدجل والغش والخداع محيط بأهم الإسلام من جميع الجهات، فمن شيوخ لاعلم عندهم يعرفون الأمة ٧٧ ويقولون «لاموجب لقراءة العلوم» فتنام الأمة، ومن قوم يأتون بتجارة أجنبية تبتز الثروة والأمة نائمة عن الصناعات، ومن أمم أوروبية أو مسلمة شرقية تحتل بلاد الإسلام. وتذل الرعية، فالأولون بحجة الإصلاح الكاذب، والآخرون بحجة أنهم على ديننا، فكل هؤلاء من أتباع المسيح الدجال، ولا ينافي هذا أنه يظهر في آخر الزمان، ولكن نحن ننظر لما هو حاصل الآن، فليكن هو كناية وهي معروفة في علم البيان. فكل هؤلاء استعاذ منهم النبي ﷺ ومنهم نستعين نحن فظواهرهم كالمسيح ابن مريم وبواطنهم أنهم دجالون، فاستن الصحابة والتابعين وأمثال صلاح الدين وعمر بن عبدالعزيز وضع يدك على من تشاء تجدهم مترفين منعمين دجالين إلا قليلا كانوا مخلصين. إن المستعمرين ما دخلوا أمة من أمم الإسلام إلا أصبح شيوخ الطرق غالبا دعاة لهم. وأما قول ابن عباس «إن الآية واردة في اليهود فهو حق وظهوره الآن والافاذ نرى. ان الحرب العظمى ما أشعلها إلا ألمانيا بسبب الفلاسفة اليهود ٨٠ مثل نيتشه والبلشفية في روسيا رؤساؤها اليهود مثل لينين وفتنة فلسطين وطعمهم في الوطن القومي ظهرت في هذه الأيام وهي من اليهود. أليس هذا هو عين قول ابن عباس بل هو مجزة وهو أنهم سيتكلمون في ملكهم على المسيح الدجال وهاهي ذه الدول المستعمرة هم الدجالون وعليهم انكل اليهود وابن عباس قال لا يبالون شيئا. فعلى المسلمين أن يرقوا تعليمهم ليزول خداع الأمم وتفك أغلال العالم على أيدي المسلمين والا فان نفع الانسان لأخيه الانسان أقوى ألف مرة من نفع (أبي قردان) الذي حافظنا عليه لزرعنا، فهل (أبو قردان) أنفع من الانسان للانسان؟ إذن الانسانية اليوم بلهاء جاهلة، وعلينا نحن أن نرقها لنقتل الدجل منها، ومن أهم الدجل إبقاء الأمم جاهلة بسبب الاستعمار تارة وبسبب الشيوخ الجاهلين تارة أخرى، ومن أهم الدجالين المبشرون الذين يزلزلون العقائد لاصطياد الأمم، وجاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة «النشيان المسلمين» مقالة بهذا المعنى عنوانها «من كان بينه من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة» وأن الصينيين يقولون: تعاليم المسيح عرفناها من قبل إرساله لكم ولم نتالوا من الصين أكثر من (٤٠). ألف نصراني يكسبون منكم رزقهم، وههنا سرد حكاية عيسى وهم مع أنهم يدعون الى السلام ما دخلوا أمة إلا أحدثوا فتنة وادعوا ملكا وثارت الحرب فهل هذا هو السلام. ولما علمت ألمانيا أن رجال الدين هم الذين مهدوا للانجليز دخول مصر بسبب بث العقائد الزائفة أخذوا يستعملون هؤلاء المبشرين لما يريدونه

٨٢ ﴿سورة فصلت﴾ وهي خمسة أقسام: تفسير البسملة والتوحيد. ذكر بدء الخلق. وذكر إهلاك بعض الأمم كعاد وثمود. وذكر الحشر. وشهادة الجلود والحواس الخ والخامس في ذكر أن الليل والنهار آيتان الى آخر السورة

٨٥ ﴿القسم الثاني﴾ من السورة الى قوله - العزيز العليم - قد كتب مشكلا

٨٦ التفسير اللفظي لكلمة (حم) وهذان الحرفان يرجعان للحمد والجد على نعم، وههنا سرد المؤلف نعم الله التي في هذه السورة

٨٩ ذكر بدء الخلق - قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - الخ

- ٩١ ﴿ القسم الثالث ﴾ من قوله تعالى - فان أعرضوا - الى قوله - وكانوا يتقون - وتفسيره اللفظي
- ٩٣ ﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله تعالى - ويوم يحشر أعداء الله - الى قوله - فاستعد بالله - الخ قد كتب مشكلا ، ثم تفسيره اللفظي
- ٩٥ ﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى - ومن آياته الليل والنهار - الى آخر السورة قد كتب مشكلا وبعده التفسير اللفظي
- ٩٨ لطائف هذا القسم : هي ثلاثة . الأولى في إنزال الماء من السماء وانبات النبات الخ
- ٩٩ اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتتكامل إلا في وسط موافق لها وأقل درجات الاجتماع أن تكون العناصر لافيهما تركيب كيميائي ولانظام حيواني كحجر الجير ويسمى حجر البناء (والدبش) و(الدقشوم) فهذه مركبات من كالسيوم وأكسوجين ، وأرقى من هذه التركيب الكيميائي كالبنواتسا الكاوية ، ففيها البوتاسيوم والاكسوجين والادروجين والكالسيوم والكربون ، فباتحاد هذه بنظام خاص تصبح جسم له خواص جديدة ، وأرقى منهما طريقة الحياة النباتية والحيوانية ، فلنأخذ الاكسوجين والادروجين والآزوت والكربون التي لا بد من وجودها في كل نبات وحيوان ، فهذه يركبها الكيميائي ولكنه لا يقدر أن يخلق فيها الحياة ، ان الحياة فيها سر البناء والهدم كرفع الحجر الى أعلى فيرتفع الى حد خاص ثم ينزل الى الأرض . إذن الموت ناجم من نقاد القوة الحيوية ، وأصل الحياة مادة هلاميه (بروتوبلاسم) تصير حوصلة والأحسن أن تسمى بيضة والبيضة تنقسم بيضتين وع ٨ و ١٦ و ٣٢ وهكذا (انظر هذا في سورة مريم مع الموسيقى ومع حساب بيوت الشطرنج) فأنا وأنت وكل نبات وحيوان أصلنا هذه البيضة ويحصل الانقسام وفي أثنائه تكون العين والأذن والقلب الخ الحياة سلسلة والنبات من أعلاه متصل بالحيوان كنوع (الذوفيت) فهو على شكل النبات ولكنه حيوان ، ثم الاخطبوط الهلامي ، ثم الديدان ، ثم الحلزون والبزاق وذوات الأصداف ، فالحيوان القشري فعقرب البر وذوات الفقرات كالسمك ، فالديدان الأرضية ، فالطيور فذوات الثديين وهكذا الى القرد فالإنسان
- ١٠٠ ﴿ خلق الانسان ﴾ انه يخلق تدريجيا في الرحم فيكون دودة حلزونة فسمكة فذبابه فقردا فالإنسان سويا وهذا هو معنى قوله - مخلقة وغير مخلقة -
- ١٠٣ ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في آية - لا يسأم الانسان من دعاء الخير - . أمر الانسان بحب ١ يسلب النعمة فيضطرب ، فاذا خف الأمر عليه دعا الله ، فاذا كثرت النعم أصبح أعشى ، وليس يخرج من جهله إلا العلم ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق - الخ فها هو ذا قد تبين الخ في زماننا ، وأنت أيها النكي اذا قرأت ماتقدم في التفسير أيقنت أن ما فيه خلاصة علوم الأمم في أرضنا . إذن أنت اطلعت على معنى هذه الآية بقراءة ماسبق في هذا التفسير . إذن أصبح دين الاسلام دين الحكمة والفلسفة . إذن أنت شريك في الفكرة فحرام عليك أن تنام
- ١٠٣ أيها المسلمون القارئون هذا التفسير : أتم خلفاء الله في أرضه تذييل لتفسير هذه السورة وفيه ثلاثة فصول : الفصل الأول في إيضاح قوله (اليه برد علم الساعة) المحب ان الانسان يرتقي في الرحم كما تقدم في درجات الحيوانية ، فاذا رأينا الطفل يلعب الهرة ويجب الحماية ويداعب العصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن التلميذ يجب أن يمر على جميع درجات التعليم حتى يمكنه أن يعلم (لذلك لم يكف المسلمين أن يعلمهم قوم من الذين نالوا الكشف لأنهم لم

يمرّوا على الدرجات كلها كما صرّ الجنين)

١٠٤ ﴿ الفصل الثاني والثالث ﴾ في إيضاح الكلام على آية - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ  
وذكر نبذة من كتابي « ميزان الجواهر » تتضمن البحث في نظام علم التوحيد في بلاد الاسلام  
وأن المؤلف وهو في حال الصبا كان يتمنى لو أن المسلمين درسوا هذه المشاهدات في المعاهد الدينية .  
وأنه شاهد بعض الحيوانات الصغيرة المرقشة فأدهشته ، وأخذ ينظر بعقله ، ويقرأ التفسير في الحقول  
وهو بعيد عن دور العلم ، فإلا له الفهم ، ثم اتصل « بدارالعلوم » وأصبح موقنا بأن هذا العالم له نظام تام  
ففرح بذلك فرحا شديدا وأخذ يقول : « تبالمن تمرّ عليه هذه الحياة وهو لا يعقل هذه العجائب ،  
أما التناسل والماء كل فأمران عامان . فن استعمل عقله في هاتين الشهوتين فقط فالبهائم خير منه  
وهو أعمى » وههنا سبعة أمور : - (١) ميل الفطرة الانسانية للفرايب (٢) دليل الاوهية في  
الامور الغريبة أقرب الى أذهان البسطاء (٣) آيات القرآن ناطقة بذلك (٤) ويجب أن يطبق العلم  
على صفات التنزيه والتحميد عند كل عجيبة (٥) فذلك مع كونه علم توحيد هورقي للانسانية (٦)  
مطالعة العلوم على هذا النمط ازدياد علم بالله (٧) بهذا يشبّ الطفل على حب الله

١٠٧ ﴿ النبذة الثانية ﴾ ما كتبه المؤلف في مجلة « نور الاسلام » لأنه رأى رؤيا وأن ملكا في النوم كان  
يعلمه معنى « بدأ الاسلام غريبا » وأخذ يفهمه طول الليل أن الاسلام سيظهر وينتشر انتشارا غريبا  
اليوم كأنفشاره أولا . فأخذ المؤلف هذه المعاني وجعلها من عنده في مقالة تحت عنوان « مما أوجب  
للمسلمين السقوط . جعل اقتراب الساعة سبب القنوط » . جاء في القرآن أن الساعة آتية لا ريب فيها  
وانها قريبة وذلك لاحداث النشاط للعمل . فالسلف كانوا مجتدين في العمل بهذا السبب ولكن نفس  
هذا السبب اتخذته جهال المسلمين سببا للبطالة إذ يقولون : « قربت الساعة فلماذا نعمل » وهناك  
جاء الكسل . ولكن قرب الساعة ليس يفهم كما يفهم الجاهل . ان أعمارنا قصيرة فالقرب عندنا عشرات  
السنين . أما القرب بالنسبة لصانع العالم فهو مبني على النظام العام القديم الزمان . واذا نسبتها مائة ألف  
سنة أو مليون سنة الى مئات الملايين كان ذلك قريبا . وهذا معنى - أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا -

١١١ الطائفة العامة لأقسام السورة كلها وهي ست لطائف

١١٢ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في البسطة ومناسبتها لما ذكر في السورة من الرمز الى طبقات الأرض وما فيها من  
صور كشفها القوم . الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسموية . للسمع جاءت اللغات . وللبصر خلقت  
المشاهدات . والسورة بدئت بالآيات المسموعة ثم تلتها الآيات المبصرة والأرض وما عليها كلها في (٤)  
أيام . والسموات في يومين . العوالم كلها ترجع الى سماء وأرض . وتفصيلهما يكون بعلمين : علم الفلك  
وعلم طبقات الأرض . يقول الله : « أنارحيم رحمت الحشرة بالآلاف العيون ورحمتكم أنتم بعلم الجيولوجيا  
والفلك لتقرموا الجمال »

١١٥ وسيكون في الجيولوجيا بابان : باب العلم . وباب العمل . أما العلم فبذكر معلومات عامة وأهم النظريات  
الحديثة . والعصر الأوّل للأرض . وعصر الحياة القديمة . والحياة الوسطى . والحياة الحديثة . والعصر  
الحجري القديم فالحديث وعصر البرنز . في ذكر معلومات عامة

١١٦ قطاع تخيلي يوضح أقسام الكرة الأرضية (شكل ١٣) الغلاف الجوى والغلاف المائي وأعماق  
البحار والمحيطات . ويبان أن سمك الغلاف من (٥٠٠) الى (٦٠٠) ميل . ويبان تركيب الهواء الخ

١١٧ الكلام على أهم النظريات الحديثة من حيث ان الأرض كانت سديما . آراء الاستاذ ( كانت ) سنة

- ١٧٥٥ « انه كان هناك سحب مركب من غاز » ومنها اشتق (لابلاس) مذهبه . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها قديما ، وهذا الرأي باطل الآن
- ١١٨ منظر للسديم المعروف في مجموعة نجوم الجبار (شكل ١٤) منظر للسديم الجزوي في مجموعة نجوم السلاقي بالمنظار الفلكي ، والأول يمثل كون الشمس دخانا والثاني يمثلها وقد امتد منها ذراع
- ١١٩ (الفصل الثالث والرابع) في العصر الأولي للأرض . العصر الابتدائي والحياة القديمة . وفيه الكلام على أشكال الحيوانات البحرية القديمة
- ١٢٠ لوحة فيها (١٢) صورة لحيوانات قديمة في ذلك العصر ونباتات وأنواع من المحار
- ١٢١ عصور الحياة الوسطى ، وفيه وصف البحار وقد طفت على اليابسة . وكيف ظهرت حيوانات واقترضت أخرى . وذكر انه كان هناك بعض الحيوانات الرخوة المحارية (الامونيت) وكان من هذا الجنس وحده (٤٠٠٠) نوع مختلفات وقد كثرت فيه الشعاب المرجانية . والكلام على عصور الحياة الحديثة
- ١٢٢ لوحة فيها (١٠) صور فيها أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصري
- ١٢٣ وهنا وصف القنافذ البحرية والاوزتريا وأن الحشرات انتشرت انتشارا كثيرا الخ
- ١٢٤ لوحة فيها أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصري فيها عشر صور منها فاكهة متحجرة وسرطان بحري وسنن الحوت وورقة شجرة وغيرها
- ١٢٥ العصر الحجري القديم . وهنا اللوحة (٤) فيها (١٩) رسما تشتمل على (١) قطعة من الخشب المتحجر و(ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة . وههنا ذكر الغابة المتحجرة القريبة من العباسية فيها أشجار تبلغ عشرين مترا
- ١٢٦ العصر الحجري القديم والحديث . وعصر البرنز . وههنا ستة أشكال منها آلات من الصوان الحجري القديم بالقيوم ومجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث
- ١٢٧ وهنا ذكر أنهم وجدوا رسوم أيدي السكاكين التي أخضعوا بها الحيوانات والوحش كالثور والحسان والحمار والكب والقط . وقد عرفوا الزراعة والصناعة ثم هجروا الكهوف وسكنوا وسط البحيرات خوفا من الحيوانات
- ١٢٨ (عصر البرنز) ومن الغريب الانتقال من آلات الصوان الى البرنز والمصريون وحدهم انتقلوا الى عصر النحاس وهو محجب !
- (نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري) اهتم قدماء المصريين بالمعادن وفي زمن الرومان ثم أيام المغفور له محمد علي باشا وفي هذه الأيام اتجهوا ككرة أخرى
- (زيت البترول) كان ينز عند سفح جبل الزيت على شاطئ الخليج وكشف عام ١٨٨٥ في جسا في مغارات قرب الشاطئ كانت معدة لاستخراج الكبريت
- ١٢٩ هنا أشكال : شكل ٢٣ منظر لجزء من حقول البترول بالفردقة (شكل ٢٤) بئر في أول الانتاج يتدفق البترول من الفوهة بقوة عظيمة من جسا (شكل ٢٥) أحد عروق المرواحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية (شكل ٢٦) منظر عام لمناجم الفوسفات بسفاجه بالصحراء الشرقية (شكل ٢٧) منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سيناء . موازنة بين أنواع البترول بهذه الجهات
- ١٣٠ اللطيفة الثانية في آية - كتاب فصلت آياته - الخ وهو مبحثان : مبحث لغوي ومبحث علمي سياسي والمبحث اللغوي جاء فيه قول ابن النقيب : « إن القرآن وان كان كله بلغة العرب قد دخل فيه من

لغات الأمم ألقاها لأنه صلى الله عليه وسلم مرسل للجميع ،

١٣٢ وهنا جدول بالألفاظ قرب من (١٥٠) لفظة من قبائل العرب المختلفة مثل : مسطورا أى مكتوبا بلغة حير ، ومثل السفهاء أى الجهال عند كنانة ، ومثل كنود أى كفور للنعم عند هذيل ، ومثل : أنكر الأصوات أى أقبحها عند حير ، ومثل : بجبار أى بمسلط عند جرهم ، ومثل لاشية أى لاوضح عند أردشنوة . ومثل رفت أى جماع عند مذحج . ومثل مريج أى منتشر عند خثعم . ومثل نخلة فرضة عند قيس عيلان . ومثل حفدة (أختانا) عند سعد العنيزة . ومثل فاجا أى طرفا عند كندة ومثل اخسوا أى اخزوا عند عنزة . ومثل ربيون أى رجال عند حضرموت . ومثل طفقا أى عمدا عند غسان . ومثل لاتفلوا أى لاتزيدوا عند مزينة . ومثل أملاق عند نهم . والعقود عند بني حنيفة وحصرت أى ضاقت عند اليمامة . ومثل تيمالوا عند سبأ . ومثل نكص عند سليم . والصاعقة لعمان . وينفق عند طيء . وأفيضوا عند خزاعة . وخبالا عند عمان . وأمه أى نسيان عند تميم . وطائره عمله عند أعمار . ولأحتسكن عند الأشعريين . ولينه نخله عند الاوس وهكذا . هذاني قبائل العرب . وهكذا لغات الأمم مثل : أباريق فارسية . ابلهي حبشية . وأسباط لغة بني يعقوب . واستبرق عجمية . وأسفار أى كتب (سريانية وقبطية) . اصرى أى عهدى (نبطية) . أليم أى موجع (زنجية) . وإناه نضجه (أهل المغرب) . وأواه موقن (حبشية) . الأولى أى الآخرة بالعكس (قبطية) . بطائنها ظواهرها (قبطية) . كيل بعير (حار) عبرية . جهنم فارسية . حرم أى وجب (حبشية) والحواريون الغسالون (نبطية) . وراعا بلغة اليهود وهكذا . وغساق : البارد المنقن . وفردس (رومية) والقيوم سريانية . ويصهر ينضج بربرية

١٣٦ وهنا نظم لأربعة وعشرين لفظا أوله (السلسيل وطه الخ)

١٣٧ {المبحث الثانى} وهو السياسى العلمى فى قوله تعالى - كتاب فصلت آياته - الخ وهذا المبحث فيه الكلام على العرب أيام جاهليتهم الأولى وجاهليتهم الثانية . فهم فى جاهليتهم الأولى أيام حوراني إذ كانوا بالعراق تغلبوا على السومريين حوالى سنة ٢٤٦٠ ق.م وكتبوا بالقلم السومرى وهو أشبه بالقلم الهيروغليفى المصرى . وفى أول أمرهم لما تغلبوا على السومريين استعملوا لغتهم وقلمهم ثم أهلوا لغتهم وحفظوا قلمهم . وله صورة بديعة فى صحيفة ١٤١ (شكل ٢٨) وهذا الخط لازال يتغير حتى كانت سنة ٣٢٨ ب.م إذ أصبح بشكل ما كتب على قبر اصرى القيس بن عمر . وهو خط يفاير الأول (شكل ٣٠) فى صحيفة ١٤٣ ولاجزم أن هذا كان قبل البعثة بثلاثة قرون . ومن زمن البعثة الى الآن بقى الخط العربى بهيئته الأصلية ومعه التحسين والخط واللغة محفوظتان (انظر شكل ٣١ و٣٢ و٣٣) وهى رسم لسورة الفاتحة وقل هو الله أحد باللغة العربية والصينية وذلك فى صحيفة ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ ومن يقارن ما حصل فى اللغة العربية من حفظها بجده مخالفا لما حصل فى اللغة اللاتينية التى كانت لغة الدين والعلم والسياسة . فان الدولة الرومانية صاحبة تلك اللغة لما هجم عليها المتوحشون وهم آباء هؤلاء الاوروبيين ونبتت منهم أمة الألمان وحكمت رومه وكانوا همجيين سنة ٤٧٦ ب.م واختل الأمن أخذت كل أمة تكتب بلغتها وأصبحت اللغة اللاتينية لغة تاريخية لاغير وحلت محلها الألمانية فى ألمانيا والانجليزية فى انكلترا وهكذا . وهذا بخلاف اللغة العربية فانها لم تحل محلها لغة أخرى . فقد أعدمت لغة القبط بمصر والروم بالشام والنبطية أو الكلدانية بالعراق وحلت محلها الى الآن ولما نشأت منها لغات أخرى وهى لغات العامة بمصر والمغرب والشام بقيت هذه الأمم تحافظ على العربية

الأصلية . وكلما تباعدت عنها أخذ القرآن يقرّبهم منها . إذن هذه الآية ظهر سرّها الآن إذ رأينا اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في أوروبا دينا وسياسة بطلت والعربية بقيت . هذه هي المعجزة القرآنية المذكورة في هذه السورة - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - مع قوله - سرّهم آياتنا في الآفاق - الخ وهذا من مدهشات القرآن

١٤٧ ههنا جوهرتان : الأولى في مقالة للكاتب الأميركي إذ يقول : « إن جميع المسائل يكتب الناس فيها أياما وشهورا ويسكتون ، ولكن معرفة الله وخلاص النفس لاتقف الكتابة فيهما في الماضي والحال والاستقبال ، وضرب مثلا للعلماء بالقطط العمياء التي وضعت في صندوق والرجل يرفعه ويغذي القطط باللبن ولكن إحداها قتلها الكلب لأنها خرجت من الصندوق ، فقالت قطة منهم : أين الرجل ؟ لو كان موجودا ، لارجل هنا ولاحتو ولاشفقة ، فهذه تشبه (أنجرسول) الجاحد الأميركي ، وقالت أخرى إن الصندوق يجري على نواميس طبيعية . أما الرجل فلا وما هذا اللبن إلا أمر نظامي طبيعي لاغير . أما الرجل فلا وهذه القطة تشبه ( اسحق نيوتن ) ولكنه هو مؤمن ولكن القطط بعد ذلك أبصرت فرأت الرجل فاعتذرت له فقبل عنرها

١٤٩ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في آية - وجعل فيهما رواسي - وان من الرواسي وهي الجبال جبل الفضة بأمريكا الجنوبية الذي عثر عليه رجل أمريكي أصلي تابع للقبطان (جون) فاستولى عليه باسم ملكه سنة ١٥٤٥ وبقى معهم ٢٨٠ سنة ، وهذا الجبل بمملكة بوليفيا وقد خرجت من يد الاسبان سنة ١٨٢٥ وقد كسبوا منه ١٦ ألف مليون ريال أي ٥١٢٠ مليون جنيه ، فيكون الكسب منه كل سنة ١٨ مليون جنيه وثلاث ، والفضة اليوم قلت قيمتها ، وفي الجبل قصدير ، ولا يصدر منه إلا قليل الآن

١٥٠ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - حتى اذا ماجعوا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم - الخ ، وذكر آيات أخرى مع هذه مثل آية - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - هنا علم عجيب ، ذلك انه لماذا ذكرت الأيدي والأرجل وحدها في الشهادة ، ولماذا شهدت مع اللسان تارة وتارة وحدها والقم مختم عليه ، وجواب ذلك أن اللسان يشهد معها اذا كان الانسان أشبه بالنوم تنويما مغناطيسيا لاحوية له ، فأما اذا كان مستكملا قواه فانه يكذب فاذا كذب شهدت هي وحدها ، واختصاص هذين العضوين بالشهادة لسرّ قد ظهر في عصرنا ، فان الناس سنة ١٨٩٠ وهي التي دخلت فيها دارالعلوم استندوا في علم المباحث الجنائية الى هذين العضوين لأنهم وجدوا هذه الخطوط لاتتغير أمدالحياة من المهد الى اللحد ، فهي ترسم في الجنين وتبقى الى ما بعد الموت بخلاف بقية ظواهر الجسم فهي كلها متغيرات تغيرا تاما . وهذا هو الذي عليه الاعتماد اليوم في تحقيق الجنايات . وهذا الذي يجب أن يعمل به قضاة الشرع الاسلامي . فاذا تعارض قول الشاهد مع هذه الآثار التي تركتها الأيدي والأرجل على ثياب القتائل أو على السيف أو نحو ذلك . فهذه يقينية وشهادة الشهود ظنية بالاجماع . واليقين مقدم على الظن . واذا قبل الله شهادتها وهو ليس في حاجة اليها فالقضاة أولى بقبولها مع حاجتهم اليها . وهذا السرّ ظهر الآن في هذا التفسير وأنا أعلنه للمسلمين بعدنا . وههنا (٩) أشكال للأيدي والأرجل من نمرة (٣٤) الى (٤٢) وهي مرسومة في الصفحات من ١٥٤ الى ١٦٠ وهي تبين بوضوح أشكال الأيدي والأرجل . وتبين أن خطوط الأصابع أربعة أنواع رئيسية فهي إما منحنيات واما منحدرات الى اليسار . واما منحدرات الى اليمين واما مستديرات . ثم الاقدام إما أن تكون لرجل

صاحبها سائر. واما أن تكون لرجل صاحبها واقف. ولكل واحد من هذه الأحوال شكل من الأشكال المتقدمة، ومن الأرجل ما هي مقوسة، ومنها ما هي منبسطة. هذا هو الاجال

١٦٠ ﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ في آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام في الأخلاق تفسيرا لقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وذلك ان المؤلف بينا هو جالس إذ أخذته غشية فأحس كأنه في عالم آخر وقد رأى فرشا مرفوعة وأكوابا موضوعة، وهناك فتاة رائعة الجمال. فلما رآها خوسريرا لهدهشته من الجمال، ولما اشتاق وأشفق أن يكون ذلك حراما عليه لأنه هام بالجمال الحسى. قالت له هذا ليس حراما عليك، انك في الحال الروحية، وأفهمته أنها هي البصيرة، فهي رمز لبصائر الناس جميعا في الأرض، فاستغاث بها أن لاتفارقه، وأخذ يقول لها: أنا مغرم بك، إن كل حياتي فكر والفكر منك وفيك. فقالت له. كلا. ولكن انظرالى من ارعى في عقول علماء الأمم. فهناك امثلي أمرها. وأخذ يقرأ عليها آراء كونفوشيوس الصينى قبل ٢٥٠٠ سنة، ويتبع مذهبه ٥٠٠ مليون نفس، وهذا المذهب ملخصه أن يحب الانسان جميع الناس شرقا وغربا، وأن الطبيعة موزونة، وأن الانسان له بالله صلة، والله يرحاه ويرعى كل مخلص في الأرض، ويقول هو: « إن تقته بالله لاحد لها وهو يساعده، وهو الذى عين له الوظيفة التى يقوم بها الآن، والطبيعة التى خلقها الله لاسر فيها، والانسان له بجميع الناس علاقة، والحب هو نهاية المقاصد فى الدنيا فيحب جميع الناس كما يحب العلم ويحب ربه. وفى كل انسان مبدأ للخير. ومبدأ للعطف على الناس. ومبدأ لما يثير الخجل من عمل الشر. ومبدأ يميزه الخير من الشر. والحق من الباطل. والناس يولدون أطهارا. والترغ والنعيم وكثرة الطعام والدمس والدفء تجعلهم بهائم. على هذه الأخلاق درج الصينيون. هذا ملخص آراء كونفوشيوس

١٦٥ وهاك آراء أفلاطون فهمى قريبة منها. يقول: « إن الشهوات والأهواء تتنازعنا فعليا أن نسمع صوت العقل واكرام النفس فى شىء واحد وهو الفضيلة. إن الفضيلة تمتع الروح. ان الفاضل وان تعثر فى أول أمره فانه يسعد سعادة حقيقية داخلية فى أول أمره. وداخلية وخارجية فى آخر أيامه إذ يسمع الثناء الحسن والاحترام من الناس جميعا. إن الفضيلة فوق المال والمتاع وكل ما يقتنيه ونجيب به »

١٦٦ ومثال ذلك سقراط قام بما عليه فى ميادين القتال وامثلي أمر رؤسائه. وهكذا لما صار يعلم أبناء أثينا العلم ووقف موقف الموت اختار الموت ولم يترك العلم والعدل ولم يرض بالهروب من السجن لأنه يعتقد أن ذلك شر والذى يقابل الشر بالشر لئيم. وعلق الاستاذ (بارتلمى سانتيلير) على هذا بما يفيد أن المصائب ما هي إلا عقوبات والعقوبات يجب قبولها بالسرور ولا يجوز الهرب منها

١٦٨ ونقل عن سقراط ما أتى: « إن محبة الأشرار ليست محبة. ومحبة الأخيار هي المحبة. إن الأشرار يخون بعضهم بعضا. فأين المحبة إذن؟ ومادام الانسان يرى انه يمتاز عن صديقه بمال أو بكرامة أو غيرها فلا صداقة بل هناك أحوال متغيرات واضطراب. ثم ان عمل الشر مع الأشرار يزيدهم شرًا فيجب أن لا يفعل الشر معهم »

١٦٩ وقال أيضا: « أصحاب النفوس الشريرة لا يجوز للفاضل أن يقابل شرهم بالشر لأنهم مرضى. وهذه المقابلة تزيدهم شرًا. وأكثرهم يرجع بالدين. والنادر ليس كذلك. فيجب كظم الفيظ والعفو » وقد ضرب سقراط نفسه مثلا لذلك. فانه لما علم من الكهانة انه أعلم الناس شمر عن ساعد الجد وقام بفشر

- العلم امتثالا لأمر الله وتم نفسه للقتل ولم يهرب من السجن مع تمكنه حفظا للفضيلة . إن في القلب صوتا من الله يأمرنا بالأعمال الفاضلة مع الجميع ، فكيف نفرّ من هذا الصوت والله هورب الجميع ، الله صنع الانسان وهو معان به يراعى من يلبي هذا الصوت ، ولا سعادة لاصري إلا بذلك . فأما من أسلم قلبه للشهوات فان الله يتركه لنفسه . ليقنع كل اصري بأن الله يحرسه دائما فهو إذن لا يخاف شيئا في حالنا ، لا خوف على الانسان الخير في الدنيا ولا في الآخرة ، وإذا مسه الشرّ فانه يرى لطفا فيه متعاقبا
- ١٧٠ ليقطع المرء عمره بهذه الآراء . وقال عن (سقراط) انه قرّر ما قاله أنكساغورس : « إن العالم صدر عن عقل ، فالعقل أصل كل شيء » . وعليه رأى سقراط أن نبحت عقولنا حتى نعرف طباعها . وههنا ذكرت الروح التي تحدث مؤلف هذا الكتاب أن الله يساعده دائما في هذا التفسير ، وأخذت تسمع منه ما يقوله الشيخ الشعرائي في العفو عن الشرير وعن الذي يسي في قطع الرزق عنه . وذكر ما حصل بين خطيبين لأجل دنائير أهداها السلطان سليم لأحدهما . وذكر أيضا أدبه في الأكل وانه فيه يحضر قلبه مع الله تعالى . وأطنب في العفو عن المذنبين
- ١٧٣ ههنا ذكر المؤلف آراء أهل أوروبا في الأخلاق وخص بالذكر (الاستاذ بارتلمي) الذي قرّر أن ههنا أمرين في داخل نفوسنا : أمر فوق مستوانا . وأمر هو عملنا ، أما الأول فهو أن الصوت الذي نحسّ به في كل وقت يؤنبنا نارة ويمدحنا أخرى ، وههنا ليس منا بل هو من الله بدليل انه يورثنا الندم ويعاقب نارة ويفرحنا ويمدحنا أخرى . إذن هو أعلى منا . أما الأمر الثاني فهي الإرادة . إن لنا في داخلنا اختيارا ، فلنا أن نطيع ذلك الصوت ، ولنا أن نعصيه ، فهو معلم ولكن الإرادة منفذة فهي تعصى وتطيع كما نشاء هي لا كما يشاء ذلك الصوت الداخلي ، وليس في العوالم حولنا هذه الحرّية ، بل كل العوالم تسير بقوانين أو بواعث لانعرفها . فخاصية الانسان إذن هي الإرادة التي هي المتمتعة بالحرّية . إذن الضمير والإرادة هما أصل علم الأخلاق ، وقبول الإرادة ذلك القانون يشرف الانسان ويرفعه في أعين الناس والله أيضا يرعاه ، وليس في العوالم المشاهدة أشرف من ضمائرنا وهي مؤدبة لنا تأديبا شريفا تهجز عنه قوانيننا . وبهذا يعرف الانسان انه مسؤول أمام خالقه ، وعلم الأخلاق يقرّر عدلا إلهيا بعد الموت وخلودا للروح لتنال جزاءها الذي لم يتم في الدنيا خيرا أو شرا
- ١٧٦ سعادة النفس والسرور الوجداني بالفضيلة أحبّ الى نفوسنا مما دون ذلك من المتاع والمال والبنين أولا ، ومن اللذات ثانيا ، ومن السعادة ثالثا ، بل الانسان قد يختار أن يبذل هذه كلها ليحيا حياة السعادة النفسية ، وما هذه المذكورات إلا أمور ثانوية
- ١٧٧ آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس . آراء أتباع أرسطاطاليس بعده . وهم أولا قادوفرستس والستراتون ومن نحما نحوهما ، فانهم لما وجدوا أدلته وأهية في اسناد العلم الى الصورة القائمة بالمادة وانها سبب في حضور الكليات في أذهان الناس تركوا التكلم على الإلهيات . وثانيا الايقوريون . وأولهم أيقورس القائلون باللذة (أى في الفلسفة خلافا لما هو مشهور) . وثالثا الرواقيون ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق م القائلون : الله والعالم جوهر واحد (وهذا كفر في ديننا) والإلهيات والطبيعات علم واحد والمدار عندهم على الأخلاق ليحلّ النور الإلهي في جسد كامل بالأخلاق
- ١٧٨ مم (نيقوماخس) صاحب علم الأعداد سنة ١٤٠ ب م . وههنا ثلاثة فروع : فرع أثيني ، وآخر شامى ، وثالث اسكندري . وأشهر الاسكندريين بعد الميلاد أفلوطين . وأشهر الشاميين بيليخوس . وأشهر الفرع الأثيني سريانوس . وبهذه انتهت الفلسفة القديمة اليونانية وفعروها

ثم جاء الاسلام وفتحوا الفرس والروم والهند وقرأوا علوم الأمم وترجموها وكان المترجمون رجال علم بخلاف فلاسفة أوروبا في القرون الوسطى فهم كانوا قسيسين ، فبحث فلاسفة الاسلام في أكثر العلوم بخلاف الآخرين ، ان ما ابتكره العرب قليل بالنسبة لما ترجموه ولكن لهم الفضل فلولاهم لم ترتق أوروبا على هذا النمط

١٧٩ المسلمون درسوا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة أولاً ، ولما عثروا على آراء أفلاطون وأرسطو كانت الأولى قد تمكنت فيهم وفيها مزج العلم بالدين ، وأول الفلاسفة يعقوب الكندي والفارابي الذي اتبع الأفلاطونية الحديثة ، ويظن انها تعاليم أرسطو ، وقد قرأ كتاب النفس (١٠٠) مرة ، والفلسفة اليونانية متناقضة ومناقض بعضها للدين ، ففيها خلط وتهويش

١٨٠ والرواقيون أغرموا بالكشف ومعرفة ما وراء الحس ، والصوفية في الاسلام مشتقون من هؤلاء ، وكتاب الفارابي المسمى « آراء أهل المدينة الفاضلة » له مزج بين آراء الشيعة وبين آراء جمهورية أفلاطون واخوان الصفاء ظهر في القرن الرابع بالشرق ، وانتقل الى بلاد المغرب ، وهو دائرة معارف والواضع لها جمعية سرية كانت بالبصرة عند القفطى من مؤلفيها خمسة ، وقصدتهم أن ينقوا الفلسفة من الخلط والصعوبة ، وأن يهذبوا الدين ويصلحوه بها . ومن الفلاسفة أبو علي بن سينا في القرن الرابع الهجري على رأى أرسطاطاليس وكتابه « القانون » عمدة في الطب وأن علماء الاسلام ردوا على الفلسفة ، ولكن الامام الغزالي هو الذي صد الناس عنها بقوة بيانه ورجعهم الى التصوف

١٨١ ولما انتقلت الفلسفة الى الأندلس وساعد في رواجها الحكم الثاني الأموي في القرن الرابع وتبع ابن باجه وابن طفيل مؤلف (حج بن يقطان) الذي ترجم الى اللاتينية وظهر سنة ١٦٧١ سنة ١٧٠٠ وبعد عشرين سنة من ظهوره ظهر رواية (روبنسون كروزو) ثم ان ابن رشد أشهر فلاسفة العرب تبع أرسطو ورد على الغزالي ، ومن كتبه فصل المقال المشهور ، وأكثر مؤلفاته بغير العربية ، ولكن الموجود ترجمتها مع شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي في ١١ مجلداً وكتابه في الطب لاتيني ، وله كتب بالعبرية ، وطارت شهرته بالمدارس والكنائس الى ابتداء القرن السابع الهجري أى الثالث عشر المسيحي . ولما انتهى القرن السادس عشر وقف المسلمون فلا يبحث لهم . وبقى المسلمون في الألفاظ تقديمها وتأخيرا وذكرا وحذفا ولكن نبغ ابن خلدون في مقدمته في علم العمران وطلب أن يتمه من بعده . فأجاب طلبه (أوجست كومت) أما المسلمون فلا . ولم يظهر بعد ابن خلدون نابغة اسلامي ولكن بقي الشرق نائما حتى أيقظته الحوادث اليوم . فها هو ذا قائم ينفض غبار الكسل

١٨٢ فلما سمعت هذا المقال . قالت : لقد أحسنت . وأخذت تذكر المؤلف بقولها : لاتنس انك في تفسير آية من القرآن - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وأن تاريخ الفلسفة تمهيد للتحقيق في ذلك التفسير . فلا بد من تحقيق آراء الفلاسفة في معرفة الله وفي علم الأخلاق . وهنا أجاب المؤلف تلك الروح قائلا : سأبحث هذا الموضوع في ثلاثة فصول

١٨٣ وشرع في الفصل الأول في الحكمة العلمية والعملية مبينا أن المذاهب الثلاثة في الانسان : أهو الروح ؟ أم الجسم ؟ أم هما . ناقلا ما كتبه في كتابه ﴿ جوهر التقوى ﴾ في ذلك

١٨٤ ذا كرا أن الروح والجسم متحدان فيشتهبان على الناس كالزجاج والحجر . وهذا هو السبب في الخلاف إذ يقول بعضهم : « الانسان هو الروح والجسم لاشيء » وعكس آخرون الخ وعلم الطب ينظر لهم الصحة نظرا تاما . إذن الطيب يهيم الجسم . فهو إذن يقول بالروح والجسم . ذلك لأن آثار النفس

تعطى الجسم صحة وسقما كما يفعل الجسم في الروح انقباضا وانبساطا  
 ١٨٥ وههنا بقية المقال كمنصحة الانسان أن يعتدل في مأكله ومشربه وهكذا ، ثم ذكر المؤلف ما كان  
 بمصر من العبادة المصرية التي كتب على قبرها « أنا كل شيء » وهكذا صورة أرسطو وأفلاطون  
 واختلاف اشارتهما الى السماء والأرض ، كل ذلك له آثار في علم الأخلاق ، فاذا أيقن الانسان بقول  
 أفلاطون وبرهانه على أن الله بالنسبة لعقولنا نظير الشمس بالنسبة لعيوننا فانه يكون سعيدا بهذا الايقان  
 وأن الصورة التي رسمها روفائيل الدالة على سقراط وأفلاطون هي نبراس أول العلم وآخره لأن الأمر  
 دائر بين الروح والجسم .

١٨٨ من القائلين بالمادة (كارل نخت) وبخفر وديمقراطيس . وههنا ذكر أبيقور وتوماس ثم (لامتريه)  
 وكيايى وغيرهما . وبالجملة في هذا المقام سر العلماء القائلين بالروح والقائلين بالجسم من أيام اليونان  
 الى الآن إجمالا مثل أنكساغورس وأرسطو والرواقين وأصحاب الجوهر الفرد والمؤهلين والعقليين  
 وأصحاب الحلول . أما سينيوزا فقد أعلن أن هذا العالم جوهر واحد وهو الله وهو إعلان مدهش والعالم  
 فرع منه

١٨٩ وههنا تألم المؤلف من سرد هذه المذاهب ، واعترض على الروح وقال لها : كيف أمرتني بسر المذاهب  
 الفلسفية وهي مملوءة بما هو مهووس صربك للفكر مع ان قلبي فيه محيقتان أجل من ذلك وهما صحيفة  
 جمال السموات وجمال الأرضين . إن قراءة تاريخ الفلسفة صار فواقته على ذلك ، وإنما نفعها  
 يكون لأناس قليل عددهم وقالت انك لا بد من اطلاعك عليه لتبين الحقيقة للناس ، وهل القاضى  
 يحكم بغير معرفة أقوال الخصمين ، وفي أثناء ذلك يقول المؤلف انه برؤيته وجهها انشرح صدره بعد  
 انقباضه بقراءة هذه الآراء ، وأجابته قائلة : أنا أعلم من اطاعنى على قلبك انك ستحل المشكلة للعالم  
 كله فقل وأنا معك . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في آية - إن الذين قالوا ربنا الله -

١٩٠ فأخذ يتحدثها عن المقام الأول في مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة ، وبكل قال علماء ، فبالأول  
 قال (كارليل) وبالثانى قال (كارنوى) وغيره ، والمقام الثانى في الغاية من سلوكنا وفيما يسوقنا الى  
 ذلك السلوك ، فهل الانسان خلق لمنفعة هوأم لمنفعة العموم ؟ بكل قال قوم ، وخيرهم من يقول  
 بالتضحية مثل الاستاذ (مل) ، والذى يسوقنا لحسن السلوك إما القانون الأخلاقى في أعماق نفوسنا  
 واما العواطف ، واما الخوف من الله ، أو ذم الناس ، بكل قال قوم . والمؤلف يقول : « إن الناس  
 درجات فلكل وازع يناسبه »

١٩١ ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى القبس المذكور فى سورة طه وايضاح أن الحجر والشجر والزرع كلها مملوءة  
 بالنار . فالحجر فيه (٤٨) جزءا من مائة جزء كلها اكسوجين . ويمنع اتقاده بالنار وجوده . والحديد  
 يحصل فيه التأكسد أى الصدا وهو نوع من الاحتراق بطى . وأما الخشب والنحم والورق والزيت والدهن  
 ففيها كربون وأودروجين . ومتى قربت النار منهما أخذتا يفران فيقبض عليهما الاكسوجين . فههنا  
 زواج وارتباط . والحجارة أشبه بالفرح القلبي . واللهب أشبه بالزينة التي تقام فى العرس

١٩٢ إن ازدواج القضايا العلمية ، وآراء علماء الشرق والغرب أشبه بازواج الكربون والودروجين مع  
 الاكسوجين ، والمسلمون بعد قراءة هذا التفسير سيقرءون غلوم أم الشرق والغرب ويصطفون منها  
 ما هو حسن وتكون النتائج مستعملات فى المنافع المادية فى مقابلة القبس عند موسى لأهله ، وفى  
 المنافع العلمية فى مقابلة قول موسى - أوأجد على النار هدى - . إذن منافع القبس العلمى متوجهة

للماديات والمعنويات كقبس موسى عليه السلام حذو القذة بالقذة

١٩٣ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في جلاء الحقائق العلمية والعملية ، وامتحان آراء علماء الأمم الخلقية : أخذ المؤلف يفكر في آراء الأمم أمة أمة ، وكيف يقول قوم بوجود الروح وحدها ، وآخرون بالمادة وحدها ، وكانت تلك الروح الجيلة البهجة تبسم وهي صامته ، فنظر المؤلف الى جمال وجهها ، فرآه ازداد جمالا وبهجة وحسنا ، فأغشى عليه ، فأخذت هي تلافقه وتمرّ يدها عليه حتى استيقظ ، وأخذ يتغزل بكلام ابن الفارض : \* ما بين معترك الأحداق والمهج \* الخ وأخذ يسألها : أنا الآن في حال البرزخ وقد مت ؟ فقالت كلا بل هو صفاء نفس ، فسألها : هل هذه الحال لها وجود مع انها خيال ؟ فقالت : هي أصل الوجود مستدلة بدليلين : أحدهما اننا نرى الصور القديمة في عقولنا لا تتغير بخلافها في المادة ، ثانيهما ان كل عمل نعمه في الخارج أصله من الآراء التي تجول بأذهاننا ، بل المادة لا وجود لها لأنها نتيجة حركات الأثير الواقعة على حواسنا . إذن هي موجودة في مرتبة الحواس لا غير فهي وجود عدم ، وههنا أخذ المؤلف يتغزل فيها ككرة أخرى لبهجة جاهلها والأنس بها وأن صورتها أجل صورة رآها لأن المعشوق في الأرض إما حسن الظاهر خاوي الباطن ، واما بالعكس ، وهذه جاهلها ظاهر باطن معا ، وأرادت أن تنصرف ، فاستغاث بها ، فقبلت البقاء معه ليتمتع بسماعها لكلامه ، فأمرته إذن أن يحقق الأدلة للناس في مقام العلم والعمل في علم الأخلاق فأرجعها معا الى الانسان ، فالنظر الى حواسه الخمس والى عقله يفهمنا أن هناك عالما روحيا ، كما ان نظرنا الى عواطف الأطفال من حيث انهم يرون جميع من حولهم مسخرين لهم ، وفي عواطف الحكماء والقواد الذين يرون انهم مسخرون للعطف على سائر الناس ويقذفون بمهجمهم في منافع أمهم ، فهذا النظر يعرفنا لماذا خلقنا ويوقفنا على حقائق الأعمال الخلقية ، وهاتان النظريتان اللتان ظهرتا للمؤلف في حضرة تلك المشوقة هما معيار علم الأخلاق الذي ابتكره المؤلف ، وكل نظرية ، أو رأى مؤلف قديم أو حديث تندرج فيهما ٢٠٠ فاذا سمعنا أن أفلاطون وسقراط ثم أرسطو ثم الاستاذ كانت ، قد أتوا بأدلة في إثبات الله ، فدليل الحواس الانسانية والعقل أقرب الى اليقين لأن كل حاسة من لمس أو ذوق أو عين لها محسوسات ترتقي بارتقاء الحاسة والعقل الذي هو أطفها تكون مدركاته لها اتصال به وهي تناسبه . إذن عقولنا متصلات بعقول كبيرة . إذن نحن سعداء الآن حتما ، فلا اعتراض على هذا كما اعتراض أرسطو على (المثل) التي قالها أستاذه أفلاطون . واذا وجدنا علماء أوروبا وغيرهم يختلفون : هل نحن مخلوقون لنفوسنا أم مخلوقون للمعوم ؟ فانا نقول لهم لا خلاف . فمن كان كالأطفال فهو لنفسه . ومن كان كالحكماء فهو لغيره . والأمير ظاهر واضح . بهذين البرهانين خرجت الانسانية من مأزقها في العلم والعمل الخلقين وهذه نهايات علوم العلماء (٢٥) قرنا . وهذا هو الامتحان الذي قدمه المؤلف لأمم الشرق والغرب ٢٠٢ ﴿ نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس ﴾ هذا مقال موضح لما قبله ، يشرح صدور القراء ويهيج نفوسهم يقول المؤلف فيه ان براهينه قد وصلت الى تمام الحكمة في هذا المقام بعد دراسة الحكمة السابقة في (٢٥) قرنا . ويقول ان برهانه لا يحصل فيه خلاف كالذي حصل لبرهان أفلاطون ولأرسطو إذ قامت بعد ذلك فرق وهي الأبيقورية والرواقية وفرقة الاسكندرية والأينية والسامية قبل الاسلام ، وفرق الصوفية بعد الاسلام ، وههنا استعرض برهان الاستاذ كانت وبرهان أفلاطون ، وأفاد أن برهان « تفسير الجواهر » أثبت ، فان الانسان اذا علم أن عقله متصل بعقول أكبر منه كاتصال العين بنور واسع المدى فانه يوقن إيقانا تاما بعالم الأرواح . واذا وجدنا أن الأرض قد عجزت عجزا تاما عن

٢٠٤. إمداد أبنائها بالضوء والحرارة للحياة وللهداية ، واستعارت لهما ذلك كله من الشمس فهي إذن عن إمدادهن بالعقول والعواطف والفرائز أشد عجزا . وهذا برهان آخر واضح ، فلاحاجة إذن إلى برهان الاستاذ ( كانت ) الألماني ولا أفلاطون اليوناني لأن هذا البرهان أيضا يقيني . هذا في الحكمة العلمية أما الحكمة العملية فأمرها ظاهر في الموازنة بين طفل وحكيم في عواطفهما . إذن سقط خلاف علماء الأمم الأوروبية

٢٠٥. ثناء المؤلف على ربه لأنه ألهه الحكمة وعلمه هذه البراهين وأن هذه البراهين التي علمها الله للمؤلف جعلته ينظر إلى الجمال في الصور السماوية والأرضية ، وإلى الشهوات التي في النفوس ، وإلى العقول الانسانية ، وإلى الماء والهواء والحرارة التي تثيرهما فيحمل الهواء الماء ، وإلى الضوء ، وأن الله لما علم ضعف عقولنا عن فهم المنبع الذي وردت منه هذه الصور الجميلة وهذه العواطف والقوى والعقول أي المادة نفسها أم شيء آخر أظهر لنا الحرارة والضوء من الشمس وقال لهما : يا أيها الحرارة ويا أيها الضوء : لتقم الأولى بانارة البخار من البحار وبانارة الرياح فيكون سحب ، وليساعد الضوء في التغذية وفي هداية الحيوان لطرق معاشه ، وأتما لستما من الأرض بل من عالم آخر غيرها . ليقول نوع الانسان اذا عجزت أرضنا عن الضوء والحرارة وهما حسيان فهي أعجز ألف مرة عن إحداث صور الجمال وخلق العقول والعواطف والقوى الشهوية والغضبية والفرائز الحيوانية ، وهنا يفهم المسلمون ما معنى قوله ﷺ « اللهم الرفيق الأعلى » عند الاحتضار

٢٠٧. زهرتان في بستان الحكمة العلمية والعملية . الزهرة الأولى : رأى الاستاذ ( سرجيس ) في أن الناس فكروا في المادة لأنهم متأثرون بها ، والحقيقة أن المادة وليدة العقل ، والعلماء اليوم عندهم شبه إجماع على هذا ، فالتقول بالمادة قديم ، والتقول بالعقل قول حديث

الزهرة الثانية فيما جاء باخوان الصفاء ، وذلك أن رجلا من المترفين الذميين أمحباب القصور والخور والولدان والثياب الفاخرة والمجالس والشراب ممن يقدمهم المترفون ويتزيا بزيتهم الغافلون رأى رؤيا أفزعته وتكررت هذه الرؤيا ، إذ رأى انه في أرض مقفرة وهو مشوه الوجه عار كئيب جاثع شعره طويل وجسده ملوث بالقاذورات ، ووراءه أسودان منكران يخرج الدخان من شديقيهما وبأيديهما حراب وهما يطاردانه فهرب منهما ، فعارضه في طريقه جبل شاهق ، فطلع عليه ، وسلكه بمشقة ، ثم هوى منكسا في حفرة عميقة فيها دخان معتكر ولهب ينشوي الوجوه ، فصرخ صرخة أفزعته أهل القصر ، فحضر العلماء والمنجمون والأطباء ، وكل قال ما خطر له ، فلم تنجح العزائم ولا البخور ولا الأشربة ولا الأدوية ، فان الرؤيا رجعت بهيها كرة أخرى بأشد من الأولى وهكذا مرة بعد مرة ثم انه أخيرا عبرها له عالم فقال : ان ذلك كله انما هو إشارة الى سوء أعماله وسلوكه وحرصه على الدنيا وزهده في الآخرة ، وأن كل وصف من أوصاف المنام راجع الى وصف من أوصاف حاله يوم القيامة وبعد الموت من الهوان والعقاب والحساب والعرض والنذل والهوان . ثم وصف له العواء وهو التصديق بفضول ماله والصوم نهارا والصلاة والتهجد ليلا ، ففعل ذلك وصار قدوة في الدين بعدما كان قدوة في الشهوات ، وصارت الحكم تلتقي على لسانه من غير تكلف وهناك ملك موكل به يلهمه هذه الحكم حتى ان ذلك العالم الذي وصف له ذلك صار يلقى العلم عنه ، وهذا هو معنى قوله تعالى - تنزل عليهم الملائكة - الخ

٢١٠. وهنا ست حكم عاتمة في الموازنة بين الأم مع ولدها والحكيم مع أمته والأم كلها . وبيان أن سعادة

الحكماء حقة وهناك سعادة مزينة للأمرء والملوك الذين لم ترتق عقولهم فان الحكمة الإلهية عاملتهم  
معاملة الطفل مع أبيه ، فانه يضحك عليه بالصور الملوّنة التي لا قيمة لها ، هكذا الله يفعل ذلك مع صغار  
العقول من بني آدم في الأمم الجاهلة ، فيعطى هذا الأمير مالا كثيرا ، وقصورا ونساء ، ويفتح له باب  
الشهوات ، ويجعل هذا مغريا له على أن يحفظ البلاد ، ظانا المسكين أن ذلك هو المكافأة ، وما يرى أنه  
هو نفسه تضعف قواه الصحية والتناسلية بكثرة مزاولتها ، وبعد ذلك يرى نفسه خاليا من تلك العظمة  
اللفظية ومن تلك اللذة الجسمية

٢١٢ ﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ في آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ وفيها بيان الكلام على وحدة  
الحيوانات والنباتات ، وأن الفصل بين هذين الجنسيتين عسر فالحركة والتغذية والتناسل والنمو وغيرها  
مشتركة ، فأين الفاصل إذن بينهما ؟ ففي النبات نبات مفترس ، والافتراس معه حركة ، والنباتات  
المستحبة تتحرك ، وبذرة بعض النباتات الطحلية ، وبذرة صف الموس لها شعرة تتحرك بها ،  
وهكذا بعض النباتات ذات الخلية الواحدة تعوم بشعر كثير أو بشعرة واحدة ، بل الأمر فوق ذلك كله  
٢١٤ إن الحركة لازمة للمادة الحية على الاطلاق ، إن خلية النبات ، وخلية الحيوانات مركبتان من مواد  
مختلفة ، ولكل خلية نواة ، وللخلية غلاف خارجي زلالي في الحيوان جامد في النبات من المادة التي  
يكون منها القطن وورق الكتابة . والفرق بين خلايا الحيوان وخلايا النبات أن الأولى غلافها مرن  
فحركتها الدائمة فيها تنتقل الى جاريتها فيتحرك الحيوان ، وغلاف الثانية جامد فلا تنتقل الحركة من  
الخلية الى جاريتها ، إذن الحركة دائمة عامة ، والفرق إنما هو الانتقال وعدمه فيهما ، على أن هذا الفارق  
بين النبات والحيوان ليس عاما ، فن الحيوان ما يترك الحركة ، ومن النبات ما يتحرك كما تقدم . فان  
بعض النباتات الفطرية تكون خلاياها شائعة بلافاصل بينها كخلايا الحيوان . ثم ان التغذي في الحيوان  
معلوم . ويستعين النبات بالمادة الخضراء (الكوروفيل) على التغذية إذ يتحدد بضوء الشمس  
لاستخلاص الكربون من الجو فيمزجه بالماء فيكون السكر والنشاء والسيليلوز ومادة الخشب ثم  
يكون أحيانا عضوية تكون منها المواد الدهنية . ثم النبات يأخذ الماء من الأرض وكذا المعادن التي  
فيها أوزوت وتمزج كلها بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون المواد الزلاية التي هي  
أهم غذاء للحيوان . ثم إن التغذي ليس قاصرا على ملكتي النبات والحيوان فبقعة الصدا على سطح  
المعدن تتغذى من بخار الماء ومن المعدن وغيرها . والبلورات الغموسة في ماء مشبع من محلول  
موادها تتغذى من المادة الذائبة في الماء فتكبر . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم ونحوه  
وهكذا الحركة لا تختص بهاتين الملكتين فان الكواكب والزواج والأمواج وجميع الجزئيات والجوهر  
الفرد كلهم متحركات . وهكذا التأثير فاذا تأثر النبات والحيوان فان المواد المفرقة والكمائية غير الثابتة  
تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي وبالحرارة وبالرطوبة . واذا دق على وتر آلة موسيقية وفي الفرفة  
نظيرها تحرك الوتر المماثل لذلك الوتر

٢١٦ ههنا موضوع في علاج الأزمة المالية في مصر . ولكن المقصود منه ما فيه من عجائب النبات مثل :  
شجرة البقرة ذات الثمرة الخضراء كالبندق ولينها يحاكي لبن البقرة وأهل كرا كاس يتغذون منه وله  
عصيرسكري . ومثل : شجرة ذات اليد . وشجرة الحرير . وشجرة الدهن . وشجرة البهار . وشجرة  
الثعابين . وشجرة الأرابوت . وشجرة الكمثرى الأمريكاني . فهذه الشجرات من أولها يصنع  
الورق الناعم في الصين . ومن ثابنها يخرج وبر حري قطني ينزل على الأرض كاللؤلؤ والتلج وينزل

٢١٨ ويدخل في صناعات مختلفات . ويبلغ طول الشجرة (١٥) متراً فأكثر وعرضها على الأقل متران ونصف متر تستعمل مسكناً وهي لاتزال مزروعة ، ومن الثالثة تستخرج حبات لها دهن يساعد في صنع الشمع الأبيض الذي يضيء مدة طويلة . وفي استخراج زيت صالح للوقود ، ومن أوراق الرابعة وجلدها بهار ودواء ، ومن جذور الخامسة دواء للشفاء من لسعات الثعابين ، ومن جذوع السادسة غذاء قوى للأطفال ، ومن السابعة يدر لبن يتجمد في صلابة القشدة

٢١٩ بهجة العلم في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ وفيها عجبتان : العجينة الأولى من علم الحيوان ، آلاف مؤلفة من حيوانات صغيرة تعيش في قطرة ماء ، وهي تتخلق على الورق الجاف والتبن والدريس وهي هيئة طحلب فوق سقوف المنازل وهي تجف أثناء الصيف وتظهر بالآلة المكبرة هيئة حبوب رمل أخضر ، ومتى نزل عليها الماء تحوّلت حيواناً حلاً ، فإذا غاض الماء أوصار بخاراً رجعت ميتة لاجراك لها ، فإذا نزل عليها الماء تحركت حالا (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)

٢٢٠ العجينة الثانية : زيارة توفيق دوس باشا لكلية علم الأرواح ، وانه كلم روح والده وعرفه بعلامات ، وذكر له أحوالاً يعرفها ، وطلب أن يأخذ صورته فأجيب الى ذلك ، ولكن لما صورته وجد صورة أخرى في الرسم ، فسأل بنت الاستاذ (ستيد) عالم الأرواح المشهور فأجبت أن روحاً أخرى أقوى من روح والدك تقدّمت للصورة ، فطلب تصوير روح والدها واحترس أشد الاحتراس فأجيب لذلك وظهرت صورة والدها ، فحجج لذلك ! وسأل : كيف أمكن تصويرها وهي لاترى ؟ فقبل له ان عدسة الآلة المصوّرة تصل الى مالاتصل اليه عدسة عيوننا . وههنا شكل ٤٥ و ٤٦ يبينان الصورة التي جاءت غشاً من عالم الأرواح وصورة (ستيد) في صحيفة ٢٢١

٢٢٢ وههنا ذكر المؤلف أن مسألة العجينة الأولى تذكرنا بنوم النحل والزناير مدة الشتاء واستيقاظها أيام الربيع ، وكذلك الحيات والثعابين ، وبعض السمك الذي يكون في الطين اذا جف ، وفي الثلج المتراكم ، وهذه كلها تقوم اذا زال المانع . اذا عرفنا ذلك فهمنا أن الموت والحياة في هذه الحيوانات النورية أشبه بالنوم واليقظة في الحيوانات الكبيرة . إذن الموت أمر مبهود لا أهمية له ، فكيف أعظم أمره هذا الانسان ! إن العجينة الأولى في الحيوان والعجينة الثانية في الأرواح من واد واحد كلاهما أظهر أن الموت ليس أمراً عظيماً ، فاذا كانت الحيوانات الدقيقة تموت وتحيا بكل سهولة ، والأرواح ظهر أن لها وجوداً بعد الموت . إذن الأمر سهل

٢٢٣ إيضاح لما تقدم . إن أكثر النبات هو مالانراه (انظر شكل ٤٧ و ٤٨) مثل بكتريا حلزونية وبكتريا عضوية وبكتريا كروية . فهذه أصغر النباتات مركبة من خلية واحدة . فهي كبيضة لها غشاء ومادة داخلية فيها . وهذه الثانية لها نواة هي أصل الحياة . وهناك ما هو أصغر منها ولكن لانراه . وأحدها يكون واحداً من الألف من المليمتر . وهذه تتغذى وتنفس وتموت وتلد وتموت

٢٢٤ الكلام على ماتعيش على مادة غير عضوية . والبيضة الواحدة اذا وجدت مكاناً صالحاً تنمو وتصير في ٢٤ ساعة نصف مليون رطل وهي تعيش على درجة ١٩٠ تحت الصفر وهي الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلاً كالماء . ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من ٥٥ درجة فوق الصفر . إذن هذه نباتات أقوى على التحمل من كل نبات نعرفه . ومتى جمدت يصير لها غلاف سميك يحفظها وتبقى سنين حتى اذا صادفها وسط مناسب رجعت لها الحياة كرة أخرى (شكل ٤٩) رسم تكوين الجراثيم في البكتريا

إن البكتريا تعين على نمو النبات . فهي كالطحائين والجمائين والخبازين . إن القمح والقطن وكل نبات كبير لا قدرة له على امتصاص عنصر الآزوت من الأرض إلا بحال خاصة ، وهذه الحال الخاصة لا تتم إلا بتحليل البكتريا الصغيرة له فيسهل على النبات الكبير تناوله . والبكتريا أيضا تكون سببا في الخلل ودبغ الجلد وقبول طعم الزبدة ورائحتها واللبن الزبادى فهذه من منافعها ، ومن مضار البكتريا مرض التسمم والطاعون والتيفود والتيفوس والالتهاب الرئوى والسل

٢٢٥ والوقاية من الأمراض المتقدمة بالنظافة واستعمال المطهرات الخ وبيان أن هذه المخلوقات (البكتريا) من حيث ضررها ونفعها أشبه بالنحل ودودة الحرير والحيات والعقارب ، فمنها يكون العسل والملابس ومنها يكون الضرر . والجراثيم النباتية ثلاثة أقسام : قسمان منها لالون لهما . والقسم الثالث له لون وهي الطحالب . ثم ان الذين لا لون لهما أحدهما يسمى الفطر (بضم الفاء والطاء) والثانى يسمى البكتريا (انظر شكل ٥٠) فهذه البكتريا تتغذى بالكربون الذى فى الشجرة وبالأزوت الذى هو جزء من الهواء ، ولا تزال هذه تتكاثر على جذور النباتات البقلية حتى تموت بانتهاء آجالها فيرث النبات هذه البكتريا وينتفع باليراث ، فقد كسب منه أمرا فوق الكربون الذى أخذه منه وهو الأوزوت الذى أخذه من الهواء ، فهذه البكتريا أعطت للأرض أمرا جديدا هو الأوزوت الذى حوّلته من الهواء الى الأرض

٢٢٦ ﴿ الطحالب ﴾ من شكل ٥١ الى ٥٤ وهى أشكال جميلة بهجة تبين الطحالب الخضراء والزرقاء المنخضرة ، والتي أعضاؤها تشبه أعضاء النباتات الراقية ، ومنها ما هو مستعمرة من الطحالب  
٢٢٧ (شكل ٥٥) طحالب بنية وحيدة الخلية ، (وشكل ٥٦) أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم ومن الطحالب ما هى حياء تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر  
٢٢٨ ﴿ تركيب الفطر ﴾ (شكل ٥٧ و ٥٨ و ٥٩) ههنا تتكاثر بعض الفطر فتتكوّن كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما فى عيش الغراب

٢٢٩ جمال العلم فى آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها - الخ مخاطبة المؤلف ربه ، يقول له : « ياربنا أخذنا نستقرى هذه الأقوات التى قدرتها فجئنا من أن المشرقات تجرى بحساب ، ووجدنا نفس النبات الذى ظهر بسبب أنوار المشرقات أيضا بحساب ، ورأينا اننا نحتاج فى طعامنا الى مواد دهنية وآزوتية ونشوية ، وهذه الثلاثة وجدناها فى النباتات بنسب مختلفة ، فمنها ما زاد فيها الدهن ، ومنها ما زاد فيه المادة النشوية وهكذا ، إذن أنت كما حسبت شمسك وكواكبك حسبت قيمة الغذاء الداخلة فى كل نبات من دهن ونشاء وآزوت »

٢٣٠ خطاب المؤلف لربه أيضا ، يقول له : « يارب فى القلوب حبك ، تحببك النوايا لعلفها ، والعامه لطعامها أولامواهم ، وهؤلاء عبيد العصا . والأطباء لاطلاعهم على أسرار الغذاء . والحكماء جهيم أعلى من السابقين . انهم يحبونك لعلك الذى ظهرت آثاره فى تقدير الأقوات ولرحمتك وجمالك »

٢٣١ نور على نور . وذكر بعض أنواع النبات كالقمح والذرة والصنوبر والفول السوداء . وأن منها ما مادته الآزوتية كثيرة أو الدهنية أو النشوية . وهذا الاختلاف تابع لاختلاف الفتحات الشعرية فى الجذور وعند امتصاص الغذاء واختلاف الأوراق أثناء امتصاص الكربون من الهواء عند مقابلة نور الشمس وتعاونهما على ذلك الامتصاص . وهكذا هيئة الجهاز الهضمى المرسوم فى محيقة ٢٣٣ (شكل ٦٠) فيه آلات وأدوات لهضم المواد النشوية ، وأخرى لهضم المواد الدهنية ، وأخرى لهضم الآزوتية .

إذن يار بنا ههنا عجب اشمس تضيء وتساعد الورق بفتحات تختلف باختلاف الأشجار ، وهناك يمتص من الهواء كربونا وتمتص جذور الأشجار بفتحات أخرى أغذية من الأرض فيكون حب على مقتضى هذه المقدمات له تركيب خاص من أنواع الأغذية فيحصله الانسان فيأكله فيتلقاه الجهاز الهضمي فتكون الأغذية موزعة على الآلات الهاضمات في الجهاز الهضمي ، إذن يار بنا هناك مناسبات تامات بين الضوء والنبات وفتحات أوراقه وجذوره ثم حبوبه والآلات الهاضمات في الحيوان ، إذن أكثر النوع الانساني في جهل عميق

٢٣٣ نجب لهذا الجهاز الهضمي الذي حوى ما يهضم المواد الثلاث التي في النبات بحيث كانت فيه مصانع للنشاء وللآزوت وللواحد الدهنية ، ولكل واحد من هذه الثلاث نوعان من المصانع ماعدا النشاء فله ثلاث مصانع في نفس الجهاز الهضمي ، فاذا جاوزنا هذا الجهاز الى ضوء الشمس وفتحات الأوراق والحجر التي فيها والى فتحات الأنابيب الشعرية في الجذور ألقينا الحساب هناك متقنا اتقانا بديعا بحيث نرى الأنابيب الشعرية والفتحات كلها لا تدخل في النبات غير المواد المخصصة له

٢٣٤ نظام الأمم الأرضية والشوق الى مبدع العالم ، وبيان أن بني آدم غافلون عن هذا النظام ، والافأى يقين لهم بعد هذا التفصيل ، إن المجموع الانساني أشبه بالأجهزة الهضمية ، والأرض وما عليها أشبه بالحب والنبات وما فيهما من المواد الثلاثة المختلفة ، فاذا لم تسلط مجموع العقول على جميع المنافع في الأرض أصبحت بعض المنافع عاطلة لم تجدد من يستخرجها وهذا قصص للجميع وهذا هو قوله تعالى - من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا - الآية

﴿عروج النفس الى العالم الأعلى﴾ وبيان أن في تفسير قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - إضاح أن المادة لججزها عن إحداث ضوء وحرارة لما عليها برهنت على أنها عن إحداث عقول وعواطف وغرائز أشد عجرا ، وتزيد على هذا أن المادة اليوم ثبت عدم وجودها ، إن هي إلا حركات في الأثير إذن الفلاسفة الماديون سقطوا من قوائم الفلاسفة ، إذن هناك علم ورحمة وجمال وحب منها استمدت الحيوان والانسان مالدبهم من ذلك العالم القدسي ، والانسان متى أحس أن علمه ورحمته مستمدة من هناك أحس بالسعاد في هذه الحياة ولا يجزئه الفزع الأكبر ، والانسان اذا وصل الى ذلك المقام نظر الى أعلى والى أسفل فاستمد وأمد

٢٣٥ بهجة الحكمة وجمال العلم في آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ . يقول المؤلف انه نجح في أن القارىء شاركه في فهم مقادير النبات وفي نسبتها الى الجهاز الهضمي ، فهنا يبين أن المواد غير عضوية كالأملاح وعضوية وهي النسوية وأختها ، فهنا ذكر الجدول لبيان أكثر النباتات : قمح أرز ، ذرة ، بطاطس ، بطاطه ، لوبية الخ . وبالجملة ففي هذا الجدول (٥١) أكثرها نبات وبعضها حيوان ، وهذه المواد هي التي يتعاطاها الناس غالبا ، وقد ظهر لكل مادة قيمتها الغذائية في الرطل المصرى الواحد

٢٣٧ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ، الطيب يفرح بهذه المقادير ليحافظ على الأصحاء ويشفي المرضى ، ولكن الحكيم يرتقى فوق ذلك فيقول : « أمها الأطباء ، لفرحوا بشفاء مرضا كم وبقاء صحة أمحاء الناس ، ولكن نحن ننظر في توزيع العلوم على مناطق الدماغ كما وزعت آلات الهضم على مختلف النبات ، واذا كانت الأغذية لها مبدأ وهي الشمس ، فهكذا للدراكات مبدأ وهي الذات الغائبة عنا القدسية ومنها انبعث العلم في نفوس هي واسطة بيننا وبينها كما كان النبات واسطة بين ضوء الشمس

وبين أجسامنا

٢٣٨ وههنا أبان المؤلف انه أوضح آراء الأئمة من أيام سقراط الى الآن ، وقد عاملها الله كلها في (٢٥٠٠) سنة معاملة نفس واحدة ، وأنزل العلم قليلا قليلا ، وفي هذا التفسير صار أقرب الى عقول الأمم الحاضرة ، والاستثناس على ذلك بما تقوله الأرواح ، وهو أن العلم لا يلقي الى الناس إلا اذا استعدوا له ، وبيان أن هذا التفسير جاء في زمان استعدت له الأذهان فيها . فاذا قلنا ان المادة التي ثبت أنها لا وجود لها بسقوطها سقط الماديون . فقد بنينا كلامنا على إجماع علماء العصر الحاضر . فأما هؤلاء المدرسون في مصر وسوريا والعراق ونحوهم فانما يكررون على مسامع تلاميذهم صدى صوت العصور الفاتية في القرن الثامن عشر . وههنا خاطب المؤلف ربه . انه يحسن في نفسه بالشرح وسرور عظيمين . وانه موقن أن المسلمين سيكونون خيرأمة أخرجت للناس بعد ظهور هذا التفسير . وههنا أردف هذا القول بشرح قول الشيخ الدباغ . وهي ان الاحساس بالشيء غير الانتهاء به . فكم من جميل نراه ولا يتأثر بجماله إلا قليل وهذا سار في جميع الحواس . والمؤلف يقول : إن جميع المعلومات والمحسوسات يشترك كثير من الناس فيها ولكن ادراك الجمال قليل . وأكثير الناس إذا عجزوا عن ادراك الجميل اهتموا بشهواتهم التي كأنها ظلمن يحموم لبارد ولا كريم لأنهم مترفون . إذن الانسان مغرم بما أحبه . فان أحب الجمال العلمي فهو منهمك فيه . وان أحب الشهوة فهو منهمك فيها . ولما كانت الشهوات مسطرة مع الكسل على كثير من المسلمين ككثير من أهل مصر كان القطن الذي نزرعه سببا في إذلالنا إذ نبيعه بثمن بخس ونشترى منسوجه بأعلى الأثمان . هذه أغلال في أعناقنا . بل هذه هي السراويل التي من قطران المشبهات ما في الآية - سراويلهم من قطران - لأنها مصنوعة بقطران الفحم كما هو معلوم . وذلك خطر للمؤلف وهو يتلو الآية في صلاة الصبح

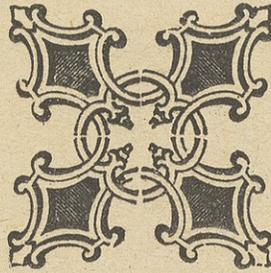
٢٤١ ﴿ الفصل الثاني ﴾ من اللطيفة الخامسة في آية - سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ وبيان أن الأيمرال (برد الأمريكى) الذي زار المناطق الجنوبية الجامدة . ووصل الى القطب بالطيارة . وصلت الرسائل منه بالتلغراف الذي لاسلك له الى نيويورك . والمسافة عشرة آلاف ميل . وكأنه يخاطب عامل التلغراف على بعد أقدام فقط ﴿ المبحث الثاني ﴾ ان الانجليز قابلوا تاغور الهندى بالاكرام مع ان الأتئين بينهما عداوة واضطراب شديد . فهذا يدل على أن نوع الانسان قابل للسلم ﴿ المبحث الثالث ﴾ فيما شاهده المؤلف في صحة جسمه . كانت في جسمه بقع ملونة تظهر وتختفي وقال له الأطباء انها ليست معدية . ولكن لا يعرفون دواها . وأخيرا قالوا سببها نقص في التغذية . ولما أكل الفواكه والحبوب وزيت الزيتون والخبز الذي لا ينخل والبرتقال ونحوه ذهبت تلك البقع . وههنا يقول المؤلف : « إن نقص السعادة الانسانية لنقص العلم بطرقها قياسا على صحة جسم المؤلف بالعلم ومرضه بسبب الجهل .

فعلى الأمم الاسلامية أن تتصافروا وتتعاونوا في البحث عن طرق سعادة هذا الانسان

٢٤٥ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ في آية - سرهم آياتنا - الخ وفيها تبيان معنى كلام الشيخ الدباغ : « إن في الأرض عجائب تعرف الوحدانية بلا دليل . وتعرف وجود الجنة كذلك والنار » ويقصر المؤلف ذلك بأن التوحيد يعرف بالعجائب المذكورة في هذا التفسير بلا حاجة الى براهين علم التوحيد كعيون النمل والذباب والنحل وتعداده بالملئات . فان هذه العجائب لما ظهرت في حشرات منبذات فيما تعافه الناس كانت عجبا ! أشبه بكنز ظهر فجأة

٢٤٦ هذا ولما كانت النفوس الانسانية إما مفرمة بالحكمة . واما مفرمة بالقهر والغلبة والنزاع . واما مفرمة بالشهوات . والأولى أشبه بمن يأكل الفواكه من الانسان . والثانية أشبه بكل حيوان يأكل الرمم والثالثة أشبه بالنسب آكل العفونات . كانت جهنم تؤخذ اعتبارا من القسمين الأخيرين . والجنة تؤخذ من القسم الأول . إذا تفاوتت الأغذية بتفاوت الحيوان . هكذا تتفاوت أغذية العقول على مقتضى درجاتها . وبالجملة أحوال الآخرة لها نظير في العالم المشاهد

( تمت )



## ﴿ التقر يظ ﴾

لما كان هذا التفسير قد قرظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا في مدحه  
رأينا أن نشرها تباعاً تيمناً للفائدة

### التقر يظ الأول

جاء في جريدة المقطم يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ هـ جريه تحت العنوان التالي مانصه :

### كتاب (الجواهر)

في تفسير القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الفيلسوف حكيم الاسلام الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس سابقاً بدار العلوم والجامعة المصرية

اذا كنا بحاجة الى كتب مفيدة نافعة تناسب حالات العصر وتنسق وما نحن عليه من اختراعات واستكشافات  
وظهور مافى الطبيعة من مكنونات . فان حاجتنا أعظم الى تفسير كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسوله عليهم  
الصلاة والسلام لما فى ذلك من تثقيف العقول وتفجير ينابيع الرحمة فى قلوب الخلق . ولقد طالعنا كتب التفسير  
فلم نوفق الى تفسير يشفى العلة وينقع الغلة حتى صادفنا « الجواهر » وهو تفسير للقرآن الكريم وضعه الأستاذ  
الجوهري فاذا به يمتاز على غيره من التفاسير بكثير من المزايا . منها ان عبارته سهلة مشوقة لا يملها المطالع . وانه  
جمع فأوعى فكأنه دائرة معارف جامعة . وفيه أكثر من مائة مسألة من مسائل العلم الحديث تضمنها القرآن  
وسبق اليها وهي مجزة النبوة . وانه ألمّ بقصص الأنبياء فأظهر أن المقصود منها تتأججها والاتعاظ بها . وأنه  
نظر الى المسلمين نظرة حكيم وحضهم على الاكباب على العلوم العصرية والأخذ منها بقسط وفير . وانه لم يفسح  
على منوال أولئك الذين يبدلون جهدهم فى الجدل اللفظى وشرح الكلمات شرحاً عملاً . وانه راعى تطبيق الآيات  
على خلاصة الفلسفة العصرية والعلوم الحديثة وما تضمنت من الرياضيات والفلكيات والمعدنيات والنباتيات  
والحيوانيات . وانما سبيله فى التفسير أن يبدأ السورة بحصر مقاصدها ثم يبينها اجلاً ثم يأخذ فى تلخيص تلك  
المقاصد اجلاً حتى ان المطالع بهذا يدرك ملخص السورة . ثم هو من بعد ذلك يشرع فى تفسير تلك المقاصد  
مبتدئاً بكتابة المقصد من القرآن بخط مشكل ليقراها المطالع قبل تفسيرها ثم يفسر مافى المقصد من ألفاظ ثم يعقب  
على ذلك بمافى الآيات من أحكام شرعية عامة وما تضمنت من العلوم جميعها فنعم العمل وحذا اللهم

### التقر يظ الثانى

جاء فى مجلة (المرشد) وهى مجلة علمية أدبية دينية تصدر بمدينة بغداد بتاريخ (١) محرم سنة ١٣٤٦  
هجريه تحت العنوان التالي مانصه :

### تفسير الجواهر

لا ينكر ما لعلماء المسلمين اليوم من النزعة الى تفسير القرآن واطهاره بشكل يلائم روح العصر الحاضر ،

وما لهم من الرغبة في استكشاف ما قره العلم ووصل اليه من آي القرآن المجيد كالاتسرك حاجة المسلمين الشديدة الى ذلك . ولقد سبق للأستاذ الشيخ محمد عبده أن فسر القرآن تفسيراً كان في بابه فاتحة دور جديد في التفسير ولما لم يكن وافياً بالمقصد تماماً ولم يستوف الأجزاء والسور القرآنية مقتصر في أكثر أبحاثه على السياسة ومعارضة الوثنيات المتعلقة في طوائف المسلمين بحسب ما اعتقد مما جعل النفوس تشرب الى وجود كتب تفاسير أخرى تلائم العصر الجديد وعلومه بصورة أوسع

ولقد قام العلامة الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى الأستاذ بالجامعة المصرية بمهمة تفسير القرآن فجاء بتفسيره المسمى (الجواهر) فكان آية من آيات العصر لأنه أفاض في ذكر الخترعات والمكتشفات الحديثة واجتهد في ذكر الأحاديث الناطقة بها والآيات الدالة عليها سواء في مباحث السياسة وال عمران أو في مباحث العلم والفن . وقد امتاز مع ذلك كله بأسلوب أخلاقي أدبي نفيس ينفع جدا وعاظ المسلمين وخطبأهم . وقد أثبت هذا التفسير مقاله سماحة العلامة الأستاذ السيد هبة الدين الشهرستاني الأنظم في مؤلفه الأستاذ الجوهري (انه رازى عصره ، وغزالي مصره) . وقال أيضا : « وهذا التفسير على ما هو عليه من الامتياز قد جاء بطبع متقن وعلى ورق صقيل . فخرى بأن لا تخلو منه مكتبات رجال العلم والفضل فانه كاف عن اقتناء مئات من الكتب الممتازة »

### التقريظ الثالث

جاء في مجلة (المرشد) أيضا في غرة شهر رمضان سنة ١٣٤٦ هجرية تحت العنوان التالي مانصه :

كتاب تفسير الجواهر

الجزء ١ - ٥

ان للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى أيادي يضاء على الأمة الاسلامية بمقام به نحوها من الخدمات العظيمة التي لم يحرز قصب السبق في مضمارها سواء فهذه تآليفه الكثيرة في شتى العلوم والفنون وكلها شهادة على فضله وجلال قدره وطول باعه ، وهي اما تخدم الأمة الاسلامية مباشرة أو بواسطة . وان النزعة التي كانت تخالج ضمائر علماء المسلمين وتغلغل فيهم هي تفسير القرآن الحكيم على نمط يلائم روح العصر الحاضرة ويخلو من شوائب الدس والخرافات التي ليست من الدين الاسلامي في شيء . وقد وفق اليها العلامة «طنطاوي» فتفسيره هو التفسير الوحيد الذي جاء على هذا النمط وهو الذي يطلعنا على أسرار الشريعة الاسلامية وحقائقها الناصعة وما خفي قبلا على المفسرين

### التقريظ الرابع

جاء من صاحب الفضيلة مفتي إيران في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه السالكين على منواله وسلم انه من عبد الله مفتي الديار الايرانية السيد أبي القاسم الكاشاني عفا الله عنه الى روضة العلم التي أربعت أزهارها ، وشجرة الفضل التي أينعت أثمارها ، الفاضل النحرير ، والكامل العديم النظير ، من اذا قيس عليه قس لفصاحته كان ازدرابه به ، وان شبه بأدبه أدب سبحان كان تنقيصا في أدبه الامام الأعظم ، والهمام الأقوم ، حضرة الأستاذ الحاروي ، أعزّ المفاخر الشيخ الجوهري الطنطاوي ، لازال كوكب فضله مشرقا وشجر نبله مورقا .

وبعد فن فضل الله علينا ، وإحسانه الأسمى إلينا ، ان سرّح أنظارنا في تصديقاتكم الشريفة . ونور  
أبصارنا بتأليفاتكم المنيفة ، التي هي للعيون جلاء ونور ، وللقلوب بهجة وسرور ، فوجدتها بعدما انتقدتها ، والحق  
يقال عديمة المثال ولاسيما التفسير الذي هو فقيده النظر فكم بدت به نجوم مجتلى زهرها ، وزهت فيه نجوم  
مجتلى زهرها ، يقتبس منها ما يرام من الأنوار ، ويقتطف منها ما يشاء من الأنوار ، كأنه مسك به الأرجاء تمسكت  
وروح به الأرواح تمسكت ، يلوح منه شعاع يجمع كل شعاع دائم ، لك فضل استباق الغاية في تفسيرك البديع  
الجليل الغاية .

فسرت وحى الله في حسن النسق \* فراق لفظه ومعناه ورق  
أطربت في تفسيرك المثاني \* من لم يكن يطرب بالمثاني  
راق بيانه وما أرقه \* اذ احتوى من البيان حقه  
سحر حلال حلّ في البيان \* فأبهرت آياته ياني  
فما فؤاد واع إلا اعتلقا \* بها اذ الناطق فيها نطقا  
يتلوها القراء سورة الفلق \* حفظا لما حازته من حسن النسق  
بديع تفسير به المعاني \* راققة فاققة البيان  
لابدع في مبدعه ولا عجب \* فانه رب الكمال والأدب  
سما المعارف العليم الحاوي \* صحاح جوهر الهدى الطنطاوي  
شمس سما الفضل والفقاهه \* وبدر أفق النبل والنباهة  
العلم الفرد الذي به اجتمع \* شمل العلوم وسناؤها اتسع  
منار مجتلى الرشد والعلم \* ومفرد الفضائل الفر العلم  
علت مزايه النجوم عددا \* وانها هيات أن تعدا  
في وصفها الرائق ما أقول \* فجمل الوصف له فصول  
أقصرت عنه لقصور في القلم \* عن وصف تفسير حوى جم الحكم  
فالمدح كل المدح إيدا العجز \* عن أن ينال بالأقل المجزى  
دمت منارا للورى ومجتلى \* نور الهدى لمن سناؤه اجتلى

وفي الختام نهدي جزيل السلام

السيد أبي القاسم الكاشاني

خادم الشرع الشريف ومفتي الديار الإيرانية

عنى عنه

(٨) ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هجرية



### التقريظ الخامس

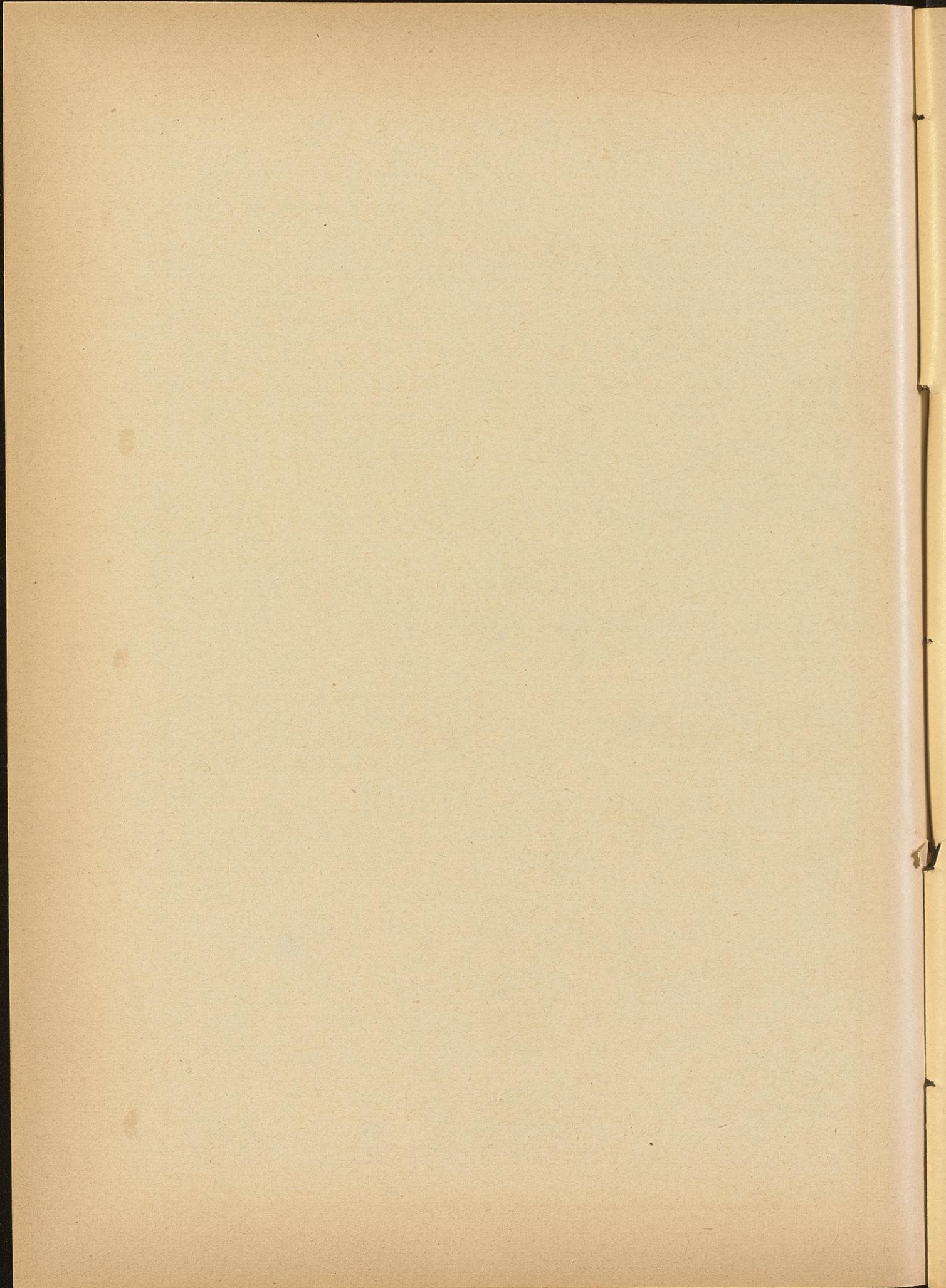
جاء في مجلة المجمع العلمي العربي الشهرية التي تصدر في دمشق في الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر بتاريخ ١ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتي

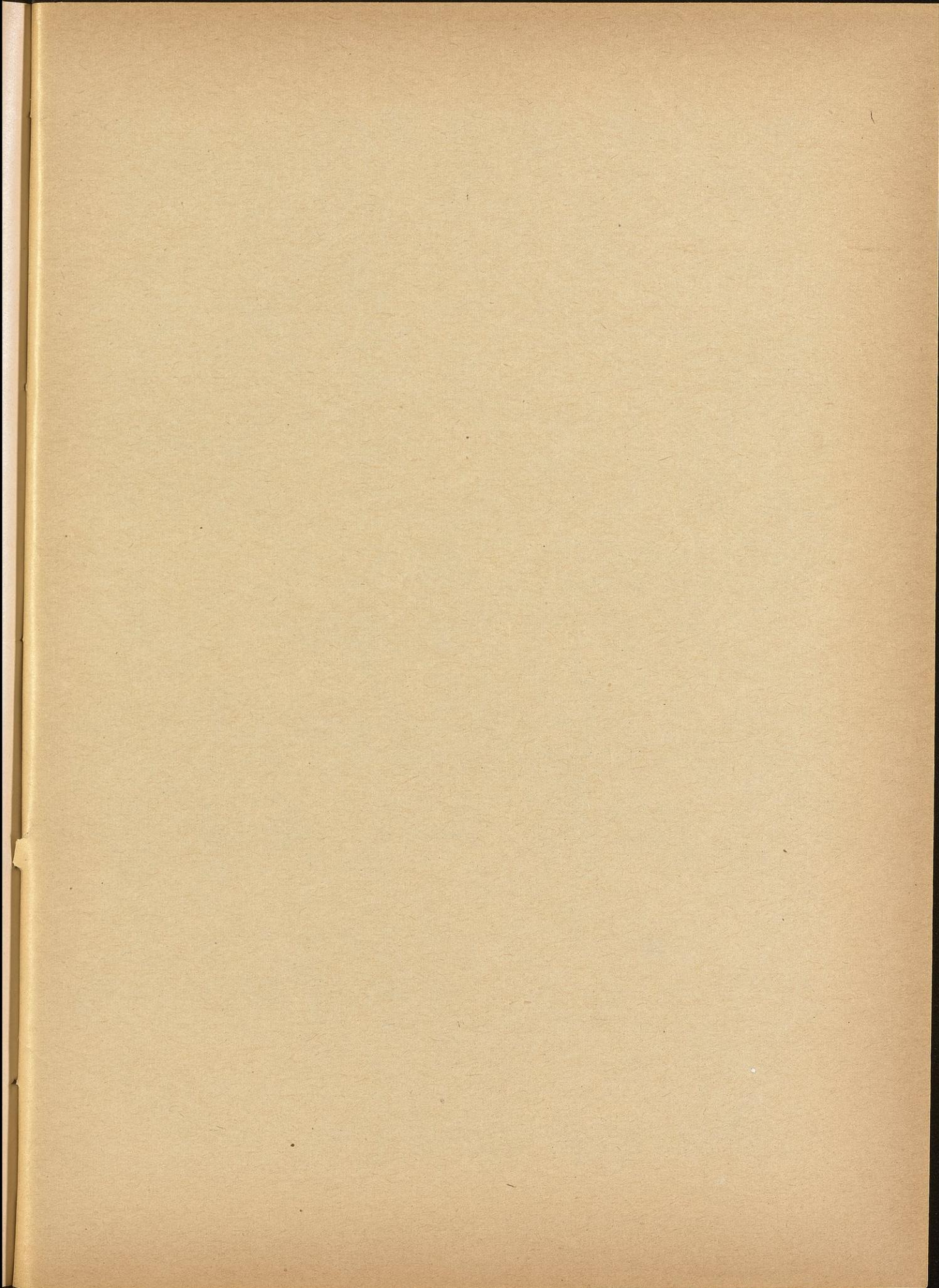
#### الجواهر في تفسير القرآن الكريم

أهدانا السيد مصطفى الباني الحلبي صاحب المطبعة المشهورة بمصر الأجزاء التي صدرت الى اليوم من التفسير النفيس المسمى (بالجواهر) وهي ستة عشر جزءا تأليف العلامة الأستاذ «طنطاوي جوهرى» وقد قضى الأستاذ سنين طويلة في تحرير هذا التفسير ولما يتم . وقد بلغ فيه سورة فاطر . ومن تصفحه أدرك سعة علم الأستاذ كما أدرك مبلغ العناية الذي كابدته في وضع هذا التفسير والعناية التي بذلها في جمع مواده ، وتنسيق مباحثه . وأول ما يخطر للناظر فيه أنه لا ينظر في تفسير قرآن وإنما هو ينظر في « دائرة معارف » على القرآن تضمنت شرحا لآياته ثم تاريخا وأدبا وأخبارا وفلسفة وسياسة واجتماعا وزجرا ووعظا وتنبيها وتحذيرا حتى أنه لم يخل من ذكر نظرية « انيشتين » والاستشهاد بها على ما هو بصدده من تفسير الوحي الالهي ، وكثيرا ما يقع نظرك على بحث في ثنايا الكتاب فتعجب لذكر مثله في تفسير القرآن حتى تراجع صفحات كثيرة سبقت فيقنن لك اذذاك وجه المناسبة ولو ضئيلة بين هذا البحث وبين الآية المفسرة . افتح مثلا الجزء العاشر ص ٢٢٩ يقع نظرك على مسائل تحت أرقام متسلسلة ثم تقرأ تحت الرقم الأول مانصه (الشعوب التي هي جديرة بالاستقلال التام . ويجب أن تتمتع به في الحال . وبينها الصين ومصر وسورية والعراق) فلا تكاد تصدق أنك تقرأ تفسيراً للقرآن فترجع أدراجك الى ما سبق من المباحث مبحثا مبحثا فتجد نفسك في تفسير قوله تعالى (والتي أحصنت . . . . . وجعلناها وابنها . . . . . ان هذه أممكم . . . . . كل الينارجعون)

فتفسير (الجواهر) لم يؤلف للطالب الجول . ولا للضجر الملول . وإنما ألف لازمة الوقور . الجليل الصبور . وزوجو أن يكثر أمثال هؤلاء بين أبنائنا . وانا لنشكر للمؤلف الفاضل خدمته كما نشكر للطابع الناشر هديته جزاها الله عن أمتهما خير الجزاء







الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المترجم على عماد الدين الكوثري وغازي الألبان

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
مع الله المسلمين بجماعة أمين

الجزء العشرون

الطبعة الثانية

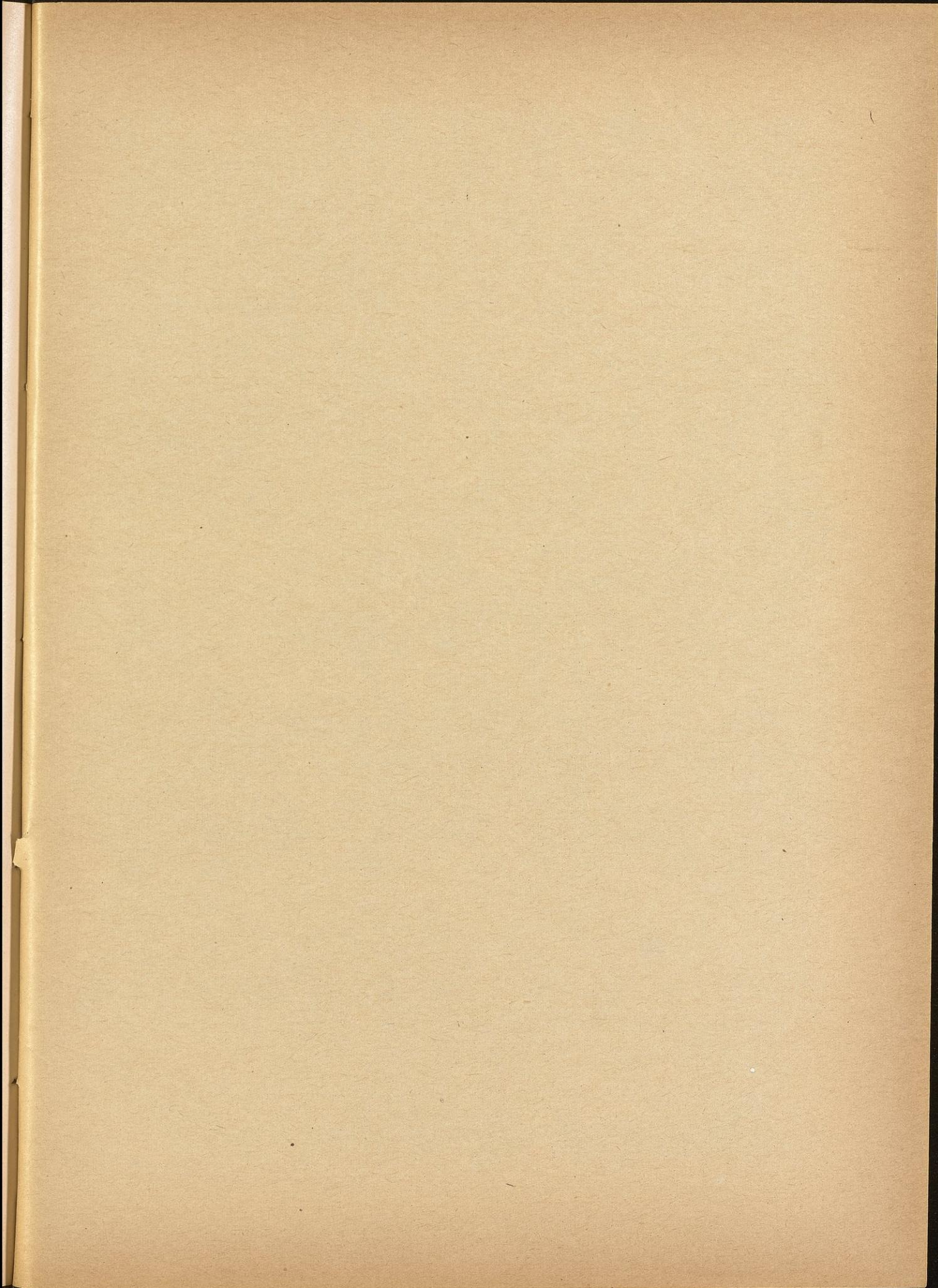
١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة محمد أمين عمران



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المترجم على عماد الدين الكوثري وقراب الألبان الباهر

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
متع الله المسلمين بحجته أمين

الجزء العشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى الباقى الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة محمد أمين عمران

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(قرآن کریم)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسیر سورة الشوری

هی مکیه

إلا أربع آيات من قوله « أم يقولون افتري على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك » إلى قوله « والكافرون لهم عذاب شديد » مع قوله « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد » فمدنية

آياتها ٥٣ - نزلت بعد فصات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم \* عسق \* كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \*  
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ \* تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ  
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ هُوَ  
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ  
بِوَكِيلٍ \* وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ  
الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْحَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ \* وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ  
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ  
مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ \* فَاطِرُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ  
 إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا  
 وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ  
 مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ \* وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ  
 مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ  
 الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ \* فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا  
 أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ  
 اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا  
 وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ \* وَالَّذِينَ يَحْجُجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتِهِمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ  
 رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ \* اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ  
 وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ \* يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ  
 مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ \* اللَّهُ لَطِيفٌ  
 بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ \* مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ  
 فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ \* أَمْ لَهُمْ  
 شُرَكَاءُ أَشْرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ  
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ  
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ  
 الْكَبِيرُ \* ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ  
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
 شَكُورٌ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ  
 الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ

عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ \* وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ \* وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا  
 فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ \* وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ  
 مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ \* وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ \* وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا  
 كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ \* وَمَا أَتَمُّ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ \* إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ الرِّيحَ  
 فَيَظْلَمَنَّ رَوَا كِدَّ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ \* أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا  
 كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ \* وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ \* فَمَا أُوتِيتُمْ  
 مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \*  
 وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارًا لِلْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ \* وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا  
 لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ \* وَالَّذِينَ إِذَا  
 أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ \* وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ  
 اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ \* وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ \* إِنَّمَا  
 السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \*  
 وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ \* وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ  
 وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ \* وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا  
 خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا  
 أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ \* وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ  
 يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ \* اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَأْتِي يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ \* فَإِن  
 أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلاَّ الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً  
 فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ \* لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ يَلْقَى مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِئِنَّا وَهَّابٌ \* أَوْ يَزُوجَهُمْ  
 ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ \* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ  
 إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ \*  
 وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن  
 جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* صِرَاطِ  
 اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

اعلم أيها الذكي أن هذه السورة تشتمل على قسمين : القسم الأول من أول السورة إلى قوله « لهم عذاب شديد » وفي هذا القسم :

( ١ ) أن لله ملائكة يقومون بتدبير شؤون العالم المادي من جماد وحيوان وإنسان . وأيضا يقومون بإلهام الناس ما ينفعهم في أمورهم الدينية والدينية تكميلا لقوله « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » فان ما يعرفه البشر من العلوم والمعارف يكون بإلهام ، فإذا استعد الإنسان لعمل نافع دينوي أو أخروي أحس في قلبه بفكرة ، ثم هو نفسه بعد ذلك يتصرف فيها بعقله ، لأنهم لا يلهمون إلا من وجدوا عنده استعدادا للإلهام .

( ٢ ) وأنه صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قرآن عربي لينذر أهل مكة ومن حولها . وذلك بالوحي الذي أنزله الله عليه بواسطة الملائكة المذكورين كجبريل . وليس الوحي لقوم والإيمان والكفر لآخرين إلا على مقتضى الاستعداد . وهذا العالم لا يمكن أن يكون جميع أفراده على حال واحدة . فهم مختلفون في جميع الأحوال وهذا الاختلاف نجم منه الاستعداد للإيمان والاستعداد للكفر . فعالمنا هذا لا يصح إلا على هذا الضرب من الاختلاف .

( ٣ ) وكما اختلف الناس في أحوالهم كالإيمان والكفر اختلف كل شيء في السموات والأرض كالذكر والأنثى والإنسان والأنعام ، فأما هو فليس كمثل شيء ، وإنما مفاتيح العوالم بيده ؛ فمن شاء وسع له في رزقه ومن شاء ضيق عليه ، فاذا اختلف الناس إيمانا وكفرا ، واختلفت المخلوقات ذكورة وأنوثة ؛ وتنوعا في الخليقة فهكذا اختلفوا في الأرزاق بحسب الاستعداد والنظام ضيقا وسعة .

( ٤ ) ثم رجع القول إلى الوحي والدين والنبوة ، فأفاد أن الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء جميعا كنوح ومحمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وموسى وعيسى يدعو إلى أمر واحد وهو الإيمان بالقلب والطاعة بالعمل

وأن لا يختلفوا في هذا الأصل ، ثم إن شرائعهم تتفرع كل بحسب زمانه كما تفرعت الحيوانات إلى أنواع  
 وذكران وإناث والأصل واحد وهى الحركة والنمو ، ثم إن الأمم بعد ما عرفوا أن التفرق ضلال وأن رسلمهم  
 حق وقد قرءوا كتبهم وعقلوها تفرقوا ، وهكذا هؤلاء الذين دعوتهم كبر عليهم ما تدعوهم إليه وكذا أهل  
 الكتاب في زمانك أصبحوا في شك مقلق .

(٥) فاصدع بأمرك ، وادع للدين ، واستقم على الدعوة ، ولا تتبع أهواءهم ؛ وكلهم في القوة العلمية  
 والقوة العملية ، وحججهم لا تقوم ضد الحقائق الثابتة .

(٦) ثم إنه سبحانه أبان أن نظامه كامل والعالم كله موزون منظم ، وهذه الكتب الدينية إنما نزلت  
 لإقامة العدل بين الناس بحسب الظاهر ، فمن كان باطنه غير كامل وهو ظالم فأمامه العدل العام في السموات  
 والأرض يتلقاه يوم القيامة ، وهذا برهان إما خطابي وإما عقلي على اليوم الآخر كما ستراه بعد ، والناس  
 فريقان : في أمر الساعة ، فريق مستهزئ بها ، وفريق مصدق خائف . إن الله وسع في ملكه البار والفاجر  
 والصالح والطالح ، فلم يهلك المستهزئ ، بل أمهله إلى يوم القيامة . وإن أمر الرزق ليس تابعا للعقائد بل  
 هو تبع للمشيئة والمصلحة المعلومة عنده تعالى . وأمر الآخرة يرجع إلى إرادة الإنسان نفسه . فمن جعل همه  
 العاجلة نالها لا غير . ومن جعل همه الآجلة أعطى نعمتين . وذلك على حسب النظام العام . والعدل أن  
 لا يعطى الإنسان إلا على مقدار ما يستحقه وما يقبله استعداده . ولذلك يكون الظالمون يوم القيامة وجلين خائفين  
 من ذنوبهم والصالحون منعمين . وهذه هى البشارة التى بشر الله بها عباده الصالحين . ثم أمر نبيه صلى الله  
 عليه وسلم أنه لا يسألهم على التبليغ أجرا وإنما يسألهم أن يودوا الله ورسوله في تفرهم إليه بالطاعة والعمل  
 الصالح وذلك ليكونوا في روضات الجنات .

وأما القسم الثانى وهو من قوله تعالى « ولو بسط الله الرزق لعباده » إلى آخر السورة ففيه أن  
 تسخير العباد في جلب الرزق لم يكن عبثا بل هو لتدريهم على العمل ، ومن فوائد ذلك عدم التكبر  
 والبطر والظلم ولأجل ارتقاء نفوسهم وتدريهم على الصبر جعلهم بين رجاء وخوف وضيق وسعة ، فلا ينزل  
 الماء عفوا بلا طلب بل يجعل الأرض يابسة ليطلبوا الماء ويشتاقوا إلى المطر ، ثم ينزل ليكون ذلك  
 أدعى للتفكير والتدبر والاستبصار والشكر ، وإذا ركبوا في البحر جرت الرياح جريا غير متصل ليحصل  
 لهم الخوف والرجاء كما حصل في المطر .

على أنه إذا نزل المطر وعم الخصب واستقامت السلامة ، فليس كل هذا له معنى في نفسه إن ذلك متاع  
 الحياة الدنيا ، ولكن الفضائل النفسية والأخلاق والعلوم هى الباقية ؛ فمن تلك الفضائل الشورى بين المسلمين  
 والإحسان ، والجود بالمال على مستحقه ، والعفو عن المذنب ، وأن لا يكون عقابه إلا على قدر ذنبه ، وخير  
 من هذا العفو ، فهو خير وأبقى .

ثم ختم السورة بما يفيد اختصاصه بالملك ، وأنه يفعل ما يشاء على مقتضى حكمة يعلمها ، وأن الناس  
 مختلفون في الذرية من حيث الذكران والإناث والتنعم وعدمه ، وهكذا في القرب منه حتى خص الوحي  
 بفريق مستعد لذلك ومع ذلك فلكلام الله معهم شرائط وأحوال ثلاثة . انتهى إجمال المقال على السورة .

## التفسير اللفظي

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( حم . عسق ) الحاء والميم يرجعان للحمد كما تقدم في السور السابقة، والحمد يرجع لأمر الدنيا والآخرة فهو متضمن معرفة النعم وذلك يستوجب سائر العلوم، وقد جاء الحمد في السورة السابقة في قوله تعالى « تنزيل من حكيم حميد » وفي هذه السورة في قوله « والملائكة يسبحون بحمد ربهم » والعين في العزيز والعظيم والعلی ، واقاف من قدير في قوله « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » والسين من الساعة ، فهذه الحروف داخلة فيما تقرر في أول « آل عمران » وغيرها، وتختص بما اختصت به آل حم في أنها حاضرة على الحمد وازدياد العلم والحكمة ، لاسيما بما سيأتي من البرهان على الساعة وقيامها . فإن هذا البرهان عقلي أو إقناعي تروح إليه النفوس وتطمئن القلوب كما ستراه لأنه مستمد من علوم الخليقة والنظم الطبيعية . فانه يقرر في النفوس قدرة الله على جمع النفوس البشرية يوم القيامة . وهذا دلالة السين والقاف . أما العين فمرجعها جلال الله وعظمته وكبرياؤه وعزته وعلوه فهاهنا محامد وعلوم يراد بها القربى من ذى العزة والعظمة . وبهذه العلوم تعرف البراهين الدالة على عدله وأنه لا يدع أمر العالم سدى بل لا بد من بعثهم وحسابهم ، وكأن هذه المعاني التي تشير لها هذه الحروف أهم ما في السورة فإن العلوم جميعها وأخصها ما تعلق بالله وباليوم الآخر ليس بعدها مزيد لمستزيد . قال تعالى : ( كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ) أى مثل ما في هذه السورة من المعاني يوحى إليك الله العزيز في ملكه فلا يكلم أحدا إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، ذلك لعلوه وعزته وحكمته ، فلعزته ترفع عن أحوال الحوادث والحكمته كلمهم على مقدار حالهم . ثم وضع عزته وعلوه فقال ( له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم ) هذه الجمل كلها لتبيان عظمته وعلوه وكبريائه وحكمته ( تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ) أى ينفطرن من علو شأنه وعظمته أى تكاد كل واحدة تنفطر فوق التي تليها من عظمة الله تعالى . ولذلك ترى هذه العوالم التي نعيش فيها واشتقت منها المادة ماهى إلا أثير أى عوالم لا لون لها ولا طعم ولا وزن فهي في الحقيقة عوالم ذائبة منفطرة بل تكاد تكون حركات مضطربات لامستقر لها ومنها كونت الشموس . فهذه الشموس السارحات في عالم الأثير تكاد تنفطر وذلك من عظمته ، إنه على ، وإنه عظيم ، وعلوه لا تتناوله الحواس وهكذا المادة التي خلقها هو ودبرتها الملائكة لاتصيها الحواس وإنما الشموس والأقمار والأرضون هي التي تناهها الحواس . وهذه على شفا جرف هار ، فهي أيضا مستعدة للانفطار والانشقاق كما ثبت في علم العصر الحاضر ، فما من كوكب أو شمس أو قمر إلا وهي مستعدة يوما ما لأن ترجع أثيرا ، فهي تكاد ترجع للطبيعة كرة أخرى لأنها مغروسة في العالم الأثيرى اللطيف فتكاد ترجع لأصلها ، وإنما الذي يحفظها ويقوم أمرها هم عوالم الملائكة بإذن ربهم وهذا قوله ( والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ) فهم يحافظون على هذه العوالم خيفة أن يتطرق إليها الخلل بنواميس منها لهم ، ويلهمون الناس ما يحتاجون إليه ، فما مثل الملائكة إلا كمثل الضوء يعطى الحياة بحرارته ويعطى الهدى بنوره ، هكذا هؤلاء الملائكة يحافظون على الشموس والأرضين بقوتهم المستمدة من ربهم ، ويلهمون الخير لمن استعد لذلك . فالشموس التي تراها والأرضون لولا الملائكة لندابت في الأثير والحافظ لها الملائكة . وإنما نبه الناس على ذلك ليفكروا في ذلك ويعلموا أن هذا العالم الذي نعيش فيه كله حياة وحكمة . فعلى الإنسان أن يفكر في أن يكون عضوا نافعا في جسم

هذا العالم الكلى حتى يلحق الملائكة الأعلى . فليكن من المصلحين في الأرض على قدر طاقته . ولا جرم أن  
إلهام الملائكة ومحافظتهم على الناس بأمر ربهم مفيدة للناس ، وذلك دلالة على أن الله كثير المغفرة والرحمة  
يذسخر الملائكة للاستغفار لمن في الأرض فغفر لهم ورحمهم وذلك قوله ( ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين  
اتخذوا من دونه أولياء ) شركاء ( الله حفيظ عليهم ) رقيب على أعمالهم فيجازيهم ( وما أنت عليهم ) يا محمد  
( بوكيل ) بموكول إليك أمرهم ( وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ) أى مثل المعنى الذى فى الآية التى قبل  
هذه من أن الله رقيب عليهم لا أنت ، بل أنت منذر ؛ وقد تكرر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، أوحينا إليك  
قرآنا عربيا ( لتنذر أم القرى ) أى أهل أم القرى وهى مكة ( ومن حولها ) من العرب ( وتندريوم الجمع ) يوم  
القيامة يجمع الخلائق فيه والأرواح والأشباح والأعمال والعامل ، وقوله ( لا ريب فيه ) جملة اعتراضية وهم  
بعد جمعهم ( فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ) مهتدين أو ضالين ( ولكن  
يدخل من يشاء فى رحمته ) بالهداية ( والظالمون ملهم من ولى ) يدفع عنهم ( ولا نصير ) يمنهم من العذاب  
( أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي ) هو وليك يا محمد وولى من اتبعك ( وهو يحيى الموتى وهو على كل  
شئ قدير ) وكيف يستحق أحد أن يكون وليا إلا من كان بهذه الصفة ( وما اختلفتم ) أتم والكفار ( فيه  
من شئ ) من أمر من أمور الدنيا أو الدين ( فحكمه إلى الله ) مفوض إليه ، فهو عيّن الحق فينصره من المبطل  
فيخذه ( ذلکم الله ربى عليه توكلت ) فى مجامع الأمور ( وإليه أنيب ) أرجع فى المعضلات ( فاطر السموات  
والأرض ) خبر آخر لذلکم ( جعل لکم من أنفسکم ) من جنسکم ( أزواجا ) حلائل ( ومن الأنعام أزواجا )  
أصنافا ذكرانا وإناثا ( يذروکم ) يخلقکم أو يكثرکم ( فيه ) فى الرحم ( ليس كمثلہ شئ ) كلمة التشبيه  
كررت لتأكيد نفي التماثل أى ليس مثله شئ ( وهو السميع ) لسائر المسموعات ( البصير ) لسائر المبصرات  
( له مقاليد السموات والأرض ) مفاتيح الرزق فيهما ؛ ففي السماء بالمطار وفى الأرض بالإنبات . ولذلك  
أعقبه بقوله ( يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ) أى يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، ذلك لأن مفاتيح  
الرزق بيده ( إنه بكل شئ عليم ) من البسط والتضييق ( شرع لکم من الدين الدين ماوصى به نوحا والذى  
أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ) أى شرع لکم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب  
الشرائع أى الأصل المشترك بينهم وهو المبين بقوله ( أن أقيموا الدين ) الإيمان والطاعة ( ولا تتفرقوا فيه )  
ولا تختلفوا فى هذا الأصل ، فأما فروع الشرائع فىمى مختلفة ( كبر ) عظم ( على المشركين ما تدعوهم إليه )  
من التوحيد ( الله يفتي إليه من يشاء ) يحتلب إلى الدين ( ويهدى إليه ) بالإرشاد ( من ينيب ) يقبل عليه  
( وما تفرقوا ) أى الأمم السابقة ( إلا من بعد ما جاءهم العلم ) بأن التفرق ضلال ( بغيا بينهم ) عداوة وطلبا  
للدنيا ( ولولا كلمة سبقت من ربك بالإمهال ( إلى أجل مسمى ) هو يوم القيامة ( لفضى بينهم ) باستئصال  
المبطلين ( وإن الدين أورتوا الكتاب من بعدهم ) يعنى أهل الكتاب المشركين فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم  
فان هذين القسمين أوتوا القرآن وشكوا فيه بعد ما تفرق قدماء أهل الكتاب وهم يعلمون أن التفرق ضلال ،  
فقوله ( لئن شك منه ) من الكتاب أى القرآن ( مريب ) مقلق ، أو مدخل فى الريبة ( فلذلك ) فلاجل  
ذلك ( فادع ) إلى الاتفاق على الملة الحنيفية ( واستقم كما أمرت ) واستقم على الدعوة ( ولا تتبع أهواءهم )  
الباطلة ( وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ) أى جميع الكتب السماوية ( وأمرت لأعدل بينكم ) فى  
الحكم إذا تخصمتم فتحا كتمت إلى ( الله ربنا وربكم ) أى كلنا عبده ( لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ) كقوله  
« لکم دينکم ولى دين » ( لا حجة بيننا وبينکم ) لاختصاصنا لأن الحق قد ظهر والحجة قائمة عليكم  
( الله يجمع بيننا ) يوم القيامة ( وإليه المصير ) المرجع ( والذين يحاجون فى الله ) يخاصمون فى دينه ( من

بعد ما استجيب له ) من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوهم إلى الجاهلية ( حجتهم داحضة )  
باطلة ( عند ربهم وعليهم غضب ) بكفرهم ( ولهم عذاب شديد ) في الآخرة ( الله الذي أنزل الكتاب بالحق )  
ملتبساً به بعيداً من الباطل ( والميزان ) أي العدل والتسوية وهو النظام العام ، ولا جرم أن الكتب السماوية  
من نوع الميزان العام والعدل الشامل الذي ظهر في عالما الأرضي والسماوي . ولما كانت الأحكام القضائية  
لا تعتمد إلا على الظواهر وكان هناك مواطن مجبوءة أُرجمت لقيام الساعة حتى يكون الميزان الإنساني تاماً  
كالميزان العام فكان سائلاً يقول : يارب إنا نرى الناس في الدنيا يعشون ويكذبون ولا عدل بينهم والقضاء  
يحكمون بالظاهر ، وأيضاً ربما رأينا الصالح حقيراً أو الشرير عظيماً فأين الميزان في عالمتنا ؟ فأجاب ( وما يدريك  
لعل الساعة قريب ) منك أي لعل الساعة قريب وأنت لا تدري ( يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ) استهزاء  
( والذين آمنوا مشفقون منها ) خائفون منها ( ويعلمون أنها الحق ) الكائن لا محالة ( ألا إن الذين يمارون  
في الساعة ) يجادلون فيها ( لفي ضلال بعيد ) عن الحق ( الله لطيف بعباده ) في إيصال المنافع وصراف البلاء  
من وجه يلطف إدراكه ( يرزق من يشاء ) يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته ، وفي الحديث : « إن  
من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من  
لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ثم قال ( وهو القوى العزيز ) الباهر القدرة المنتيع الذي  
لا يغلب ( من كان يريد حرث الآخرة ) أي كسب الآخرة ، أي من كان يريد بعمله الآخرة ( نزل له في حرثه )  
بالتضعيف ( ومن كان يريد حرث الدنيا ) أي يريد بعمله الدنيا مؤثراً لها على الآخرة ، سمي ما يعمله العامل  
مما يتغنى به الفائدة حرثاً مجازاً ( نؤته منها ) شيئاً ( وماله في الآخرة من نصيب ) إذ الأعمال بالنيات ولكل  
امرئ ما نوى ( أم لهم شركاء ) أي بل لهم شركاء ( شرعوا لهم ) بالزينة ( من الدين ما لم يأذن به الله )  
أي لم يأمر به ( ولولا كلمة الفصل ) القضاء السابق بتأجيل الجزاء ( لفضى بينهم ) بين الكافرين والمؤمنين  
( وإن الظالمين لهم عذاب أليم ) أي وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة وإن لم يعذبوا في الدنيا ( ترى  
الظالمين ) المشركين ( مشفقين ) خائفين ( مما كسبوا ) من جزاء كفرهم ( وهو واقع بهم ) نازل بهم لا محالة  
( والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ) والروضة أطيب بقعة في الجنة وأزهرها ( لهم ما يشاءون  
عند ربهم ) أي ما يشتهون ثابت لهم عند ربهم ( ذلك هو الفضل الكبير ) على العمل القليل ( ذلك ) الفضل  
الكبير ( الذي يبشر الله ) به ( عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه ) على التبليغ  
( أجر ) نفعاً منكم ( إلا المودة في القربى ) أي لكن أسألكم التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل  
الصالح وهذا قول الحسن ويدخل فيه مودة النبي صلى الله عليه وسلم ومودة قرابته ومودة القرابة من المسلمين ، فمن  
تقرب إلى الله أحب رسوله وأكرم قرابة الرسول وقرابته هو من المسلمين ، وهكذا يكرم أبويه إذا كانا  
كافرين ، فهذا القول يجمع سائر الأقوال ؛ ومن إكرام قرابته صلى الله عليه وسلم تعليمهم إذا جهلوا ، وتذكيرهم  
إذا غفلوا . وأما إكرامهم بمعنى التعظيم وحده فهو قصور معيب وجهل بديننا القويم ( ومن يقترف حسنة ) ومن  
يكتسب طاعة ، سيما حب آل الرسول صلى الله عليه وسلم ( نزل له فيها حسناً ) أي في الحسنات بمضاعفة الثواب ( إن  
الله غفور شكور . أم يقولون ) بل يقولون ( افترى على الله كذباً ) افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن  
( فإن يشأ الله يختم على قلبك ) أي إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجتريء بالافتراء عليه . ثم استأنف  
فقال ( ويمح الله الباطل ) حذف الواو من يمحو خطأ ولفظاً وهي مثبتة في مصحف نافع ، فهو فعل مرفوع  
بضمه مقدر على الواو ( ويحق الحق بكلماته ) أي بما أنزل من كتابه على لسان نبيه . وهذا وعد قد  
تحقق . فهو محاط لهم وأثبت حق الإسلام . وأيضاً لو كان ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم مفترى لحقه الله جرياً على

عادته أنه يمحو كل باطل (إنه عليم بذات الصدور) فهو يعلم المبطل والحق فيعامل كلاهما هو أهل له (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه ، والتوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب وأن لا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره (وبعفو عن السيئات) وهى مادون الشرك ، فهو يعفو عن شاء بلا توبة (ويعلم ما تفعلون) من التوبة والمعصية (ويستحب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) إذا دعوه استجلب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطالبهم (والكافرون لهم عذاب شديد) فى الآخرة (ولو بسط الله الرزق لعباده) أى لو أغناهم جميعاً (لبغوا فى الأرض) أى لبغى هذا على ذلك . وذلك على هذا . فالغنى يبطر أو يتكبر (ولكن ينزل بقدر) بتقدير (ما يشاء) ما اقتضته مشيئته (إنه بعباده خبير بصير) يعلم خفايا أمرهم وظواهر حلهم فيعطى كلا ما يناسبه (وهو الذى ينزل الغيث) المطر الذى يغيثهم من الجذب (من بعد ما قنطوا) أيسوا (وينشر رحمته) فى كل شئ من مخلوقاته (وهو الولى) الذى يتولى عباده بإحسانه وينشر رحمته (الحميد) المستحق للحمد على ذلك (ومن آياته خلق السموات والأرض) مع عظمهما (ومابث فىهما من دابة) أى وما فرق من الدواب فى الأرض وحدها والتعبير بهذا كالتعبير فى قوله « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح كما يقال بنو تميم فيهم شاعر مجيد وإنما هو فى فخذ من أخذهم . هذا إذا وقفنا عند النظر السطحي . فأما إذا فكرنا فإننا نجد هناك من العوالم ما تستحق أرضنا بالنسبة له . ولقد يظن علماء الهيئة الآن أن أقل عدد يظن من الأرضين لا يتقص عن ثلثمائة ألف ألف أرض فيها سكان قياساً على أرضنا التى نحن عليها ، هذا ما يقوله علماء الفلك فأما علماء الأرواح فإنهم لما استنطقوها قالت : « إن هناك عوالم فى هذا الكون مسكونة تستحق أرضكم بالنسبة لها ، وما أنتم بالنسبة لهم إلا كالنمل بالنسبة لكم » .

وهاك جملة من كلام روح غاليلي لما استحضروها قال : « إن الملايين من الشمس المؤلف منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة ، فمنها ما يماثل نجم (سيريس) الذى يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفا من المرار والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبرا وسناء ، ومنها شمس مشاة : أى نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ، فى السيارات المحيطة بتلك الشمس المئنة لاعداد السنون والأيام كما فى أرضكم ، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصورها ، ومن الشمس مالا سيارات له إنما أحوال سكنها خير الأحوال » انتهى المقصود منه .

فها هو ذا (غاليلي) لما استحضروا روحه أفادنا أن من السيارات ما هو خير من أرضنا كما أن شمسها أحسن من شمسنا ، ومن السيارات ما يسكن نفسه وتكون السكنى فيه والحياة خير آمن سواه ، وأن السيارات التى تتبع الشمس التوائم تكون الحياة فيها كأنها جنة بالنسبة لأرضنا . وعلى ذلك أصبح ما كان عند الفلكيين ظاهراً عند علماء الأرواح يقينا ؛ وإذن يكون هذا تفسيراً للقرآن [وبعبارة أخرى] هذا هو سر القرآن إذ يقول الله تعالى « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فى السورة السابقة . وأى آيات أبداع من هذه . يقول الله « وما بث فىهما من دابة » ويقول العلم الحديث ظاهراً وإقناعاً أخرى ؛ إن أرضنا لا قيمة لها والحياة فيها حقيرة . والحياة هناك أجمل وسعادتها أتم ، بل جاء فى مقال هذه الروح أيضاً أن هناك عوالم أقل من أرضنا استعداداً وأهلها أكثر شقاء من أهل الأرض ، إن ذلك معجزات القرآن قد أرانا الله آياته فى الأنفس والآفاق ، والمسلمون مقصرون فى البحث والعلم والتفكير . فليجدوا فى علوم الفلك والطبيعة والأرواح ، وقوله تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) أى فى أى وقت يشاء متمكن منه . ثم إن قولنا فى هذا المقام إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من البحر الملح كذب العلم الحديث أيضاً فسيأتى فى سورة [الرحمن]

أن الماء العذب يخرج منه اللؤلؤ ، فهذه معجزة ثانية للقرآن ( وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ) المراد بالمصائب الأحوال المكروهة من الأوجاع والأسقام والقحط والغلاء والعرق والصواعق ، والذي كسبته أيدينا هي الذنوب والمعاصي ( ويعفو عن كثير ) من الذنوب فلا يعاقب عليها . وهذه الآية في المجرمين . أما غيرهم فإن مصائبهم لرفع درجاتهم بالأجر لصبرهم عليها . وفي رواية عن ابن عباس : « أنه ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر » . وروى عن علي كرم الله وجهه « ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وسأفسرها لكم يا علي : ما أصابكم من مصيبة أي مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني (بتشديد النون) عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فإله أحلم من أن يعود بعد عفوه » ، وروى عن غيره ما يفيد أن المصائب إما لرفع درجة أو لمغفرة ذنب . هذا ملخص ما عليه جمهور أمتنا الإسلامية . وقالت طائفة تميل إلى التناسخ . [ لو لم يكن للأطفال حال كانوا عليها قبل هذه الحالة ماتلوا ] . وأجاب العلماء بأن الآية مخصوصة بالمكلفين كما هو السياق . وإذا أردت تحقيق المقام عقليا فارجع إلى ما في هذا التفسير في [ سورة البقرة ] عند قوله تعالى « وبشر الصابرين » الخ فإنك ستري كيف كان القرآن معجزا . وكيف كان الفيلسوف قابس ألف كتابا على هذا المعنى يسمى [ لغز قابس ] وأما اللثام عن هذا المقام . هناك تعرف سر القرآن وأن العلوم كلها له برهان . فوالله ما قلت لك هذا وأنا من المتكلمين وإنما أنا من الموقنين . وإلا فكيف تتحد العلوم الفلسفية والآيات القرآنية . وكيف يقول قابس في رسالته التي ترجمت إلى جميع لغات أوروبا إنه لا ينال السعادة في هذه الدنيا إلا الذين عرّكهم الدهر وطحنهم بكلكله ومرنهم على تحمل المصائب وأذاقهم العذاب المون حق صقلهم بصقاله وآذاهم بنباله وقتلهم بسيف رجاله وحوط بساحاتهم ونزل بديارهم وأجلب عليهم بخيله ورجله وشاركهم في الأموال والأولاد ولم يعبأ بالعلوم وفهمها ولا بالآداب ودرسها ولا بالنعم وحوزها ولا بالأموال وكنزها . وجعل ذلك كله يصيب البار والفاجر والعالم والجاهل كالليل والنهار والحرب والبرد والحسن والقبح فأى علاقة لسعادة الإنسان بما يعتريه من الأحوال أنه لا سعادة له كاملة إلا بأن تصقله المصائب صقلا وتنزل عليه تفصيلا وجلا حتى يتكامل عقله ويكظم غيظه ويتم احتماله ويظهر جماله بهذا يظهر جمال القرآن ويعرف الناس سر الفرقان ، ولكن بعد أن تدرس ما كتب في سورة [ البقرة ] وكأن الإنسان خلق وفيه نقص كثير بطبعه ، وهذا النقص لا يذهب إلا بأعمال شريفة وعلوم منيفة ومصائب تساعد على ارتقائه . فالكسب ربما كان لما هو أعم مما جبل عليه الإنسان من النقص وما فعله بيده من الذنوب « والله هو الولي الحميد » ثم قال تعالى ( وما أنتم بمعجزين في الأرض ) أي فائتين ما قضى عليكم من المصائب ( وما لكم من دون الله من ولي ) يحرسكم منها ( ولا نصير ) يدفعها عنكم ( ومن آياته الجوار ) السفن الجارية ( في البحر كالأعلام ) كالجبال ( إن يشأ يسكن الريح ) التي تجرى بها السفن ( فيظللن رواكد على ظهره ) أي فييقين ثوابت على ظهر البحر ( إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ) لكل مؤمن كامل صبر على المصائب وشكر على النعم وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتمسك في آلائه الذي هو نوع من الشكر ( أو يوبقهن ) أي أو يهلك أهلهن ( بما كسبوا ) من الذنوب بإرسال الريح العاصفة المغرقة ؛ والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ( ويعف عن كثير ) من الذنوب فلا يحازي عليها أي إن يشأ يهلك قوما وينج آخرين على طريق العفو عنهم ، وإنما يوبق من يوبقهم بما كسبوا ليعتق منهم ( ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ) في إبطائها ( ما لهم من محيص ) مهرب من العذاب ( فما أوتيتهم من شيء ) من زينة الدنيا ( فمتاع الحياة الدنيا ) أي ليس هو من زاد المعاد ( وما عند الله

من الثواب (خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وحينئذ يكون المؤمن والسكافر مستويين في متاع الحياة الدنيا فإذا صار إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خيرا وأبقى للمؤمن (والذين يجتنبون كبائر الإثم) كالقتل والزنا والسرقه (والفواحش) ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) أي يكظمون الغيظ ويحملون (والذين استجابوا لربهم) أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من الطاعة (وأقاموا الصلاة) المفروضة (وأمرهم شورى بينهم) يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا ينفردون برأي أشده تيقظهم وحذرهم ، يقال « ما تشاور قوم إلا هودوا لأرشد أمرهم » (ومما رزقناهم ينفقون) في سبيل الخير (والذين إذا أصابهم البغي) الظلم والعدوان (هم ينتصرون) ينتقمون من ظالمهم من غير تعد . قال النخعي كانوا يكرهون أن يذلو أنفسهم فإذا قدروا عفوا . فالمؤمنون إذن قسمان : قسم يعفون فبدأ بذكرهم وهو قوله « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » . وقسم ينتصرون من الظالم وهو المذكور في هذه الآية . ثم لخصهما فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سمي الثانية سيئة للآزدواج (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وفي هذا تعظيم للعفوود به (إنه لا يحب الظالمين) المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) بعد ما ظلم (فأولئك ما عليهم من سبيل) بالمعاقبة والعاقبة (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبتدئون بهم بالإضرار (ويبعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) على ظلمهم (ولمن صبر) أي لم ينتقم (وغفر) تجاوز عن ظلمه (إن ذلك) الصبر والتجاوز (لمن عزم الأمور) أي مما ينبغي أن يوجهه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه ، وحذف الضمير الراجع لأنه مفهم أي إن ذلك منه الخ . واعلم أن هذه الآيات كلها لإيضاح المقام وتبيانها ، ففيها ذم الظلم بالابتداء أو مجاوزة الحد ، وفيها أنه لا عتاب على من عاقب بمثل ما عوقب به ، وفيها إعظام أمر العفو ، فهنا ظلم وانتصار وعفو (ومن يضل الله فإله من ولي من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) يوم القيامة (يقولون هل إلى مرد من سبيل) أي إنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا (وتراهم يعرضون عليها) على النار (خاشعين من الذل) متذللين خاضعين (ينظرون من طرف خفي) يسارقون النظر إلى النار خوفا منها وذلة (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) بتعرضهم للعذاب الخلد (يوم القيامة) ظرف الخسروا (ألا إن الظالمين في عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فإله من سبيل) أي وصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى (استجيبوا للربكم) أي أجبوا داعي الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) لا يردده الله بعد ما حكم به (مالكم من ملجأ) مفر (يوئذ وما لكم من نكير) إنكار لما اقترتموه لأنه مكتوب في صحائفكم وتشهد به أسنتكم وجوارحكم (فإن عرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) رقيباً أو محاسباً (إن عليك إلا البلاغ) ليس عليك إلا البلاغ . وفيه تسليية له صلى الله عليه وسلم (وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة) كالغنى والصحة (فرح بها وإن تصبهم سيئة) قحط أو مرض (فإن الإنسان كفور) لنعم الله المترادفة عليه كأنه يقول : إن هذا الجنس موسوم بكفران النعم أي إنه إذا مسه الشر يكون جزوعا كما إذا مسه الخير فإنه يكون منوعا . ولكن تهذيب نفسه بالعلم والدين يجعله محتتملا صابرا . ومن تأمل النفوس الإنسانية وجدها كالمحبولة على اليأس ونكران النعمة وقت هجوم المصائب ، ولا يخرج الناس من هذا المأزق إلا الدين والعلم والصبر ، وما ابتلى به الناس فيجعلهم يكفرون النعم أمر الذرية ، فيقول من لا ولد له ياليت لي ولدا ، ويقول من رزق نبات ياليتي أعطيت ذكرا ، ومن عنده ذكور يقول ياليت لي من البنات ولو واحدة ومن عنده القسمان ربما اعتراه أحد أمرين ؛ إما الإعجاب والطفيان ، وإما كفر النعمة من الفقر والنصب في تغذيتهم وتربيتهم ، فليعلم الناس أن ذلك منهم رعونة ، فليرض كل بما قسم له فإنهم إنما

خلقوا في الأرض ليتعلموا الصبر والقناعة ، وهم لا يطيطرون إلى العالم الأعلى إلا بقواهم النفسية ، فلا ذكر ولا أنثى عند الموت ولا مال ولا جند ولا أعوان ، إن الله رب الجميع وهو مالك السموات والأرض ويعلم المصاحبة ويعطي زيدا مامن عمرا لحكمة أرادها ، ويخص كلا بمنزلة ، فيعطي من لا ولد له منية أخرى ، ويحرم من له ولد من بعض المزايا وهكذا (لله ملك السموات والأرض) فله أن يقسم النعم والثقم كيف يشاء (يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) فلا يولد للأول ذكر ولا للثاني أنثى (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) يجمع بينهما فيولد له الذكور والإناث (ويجعل من يشاء عقيما) فلا يولد له ولد (إنه عليم) بما يخلق (قدير) على ما يريد أن يخلق فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم ، هذا في تقسيم النعم البدنية . وأعقبها بتقسيم النعم العقلية وأفاد أنها أيضا على مقتضى الحكمة ولا اعتراض على القسمة فيها . فالتناسل محجوبون عن ربهم لأنهم في عالم المادة وهو منزه . ولكن منهم من رق حجابها وخلصت نفسه .

(١) فيحس بمعاني تلقى في قلبه وهو معنى النفث في الروع كما روى (نفث في روعى) أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل عليه السلام بدخ ولده .

(٢) أو يسمع كلاما من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه . فالعبد هنا سمع كلاما ولم ير المتكلم .

(٣) أو يرسل الله ملكا فيوحى الملك إلى النبي بإذن الله ما يشاء . ومن النوع الأول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في ابتدائها فإنها كانت في المنام ستة أشهر ؛ ومن الثالث ما بعد ذلك ، فقد كان جبريل ينزل عليه بالوحي . وأما الثاني فهو ما حصل لموسى عليه السلام . وهذا قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) أى وما صح أن يكلم الله أحدا إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا . وقوله (إنه على) أى عن صفات المخلوقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه الحكمة (وكذلك) وكما أوحينا إلى سائر الرسل (أو حينا إليك روحا من أمرنا) نبوة أو قرآنا فهو به حياة الأرواح (ما كنت تدري) قبل الوحي (ما الكتاب) أى القرآن (ولا الإيمان) أى شرائمه (ولكن جعلناه نورا) أى جعلنا القرآن أو الإيمان نورا (نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي) أى لتدعو (إلى صراط مستقيم) دين الإسلام (صراط الله) دين الله الذى شرعه لعباده (الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) أى أمور الخلائق فيضع كلا في درجته من جسيم ونعيم . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها .

### لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى «تسكاد السموات يتظطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض» .

(٢) وفى قوله «جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا» مع قوله «يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور» النخ وقوله «ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» .

(٣) وفى قوله «الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان» النخ .

(٤) وفى قوله «الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز» .

(٥) وفى قوله «وأحرمهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون» .

(٦) وفى قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا» النخ .

(٧) وفى قوله «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» .

## الطيفة الأولى والسادسة

( ١ ) في قوله «تسكاد السموات يتفطرن من فوقهن» الخ .

( ٢ ) وفي قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا» الخ .

لقد جاء في هذه الآية الثانية وجه آخر غير ما تقدم . فيقال : لا يكلم الله البشر إلا بأحد طرق ثلاث : إما أن يوحى إلى الأنبياء بالملائكة ، وإما أن يكلم الأمم بواسطة هؤلاء الأنبياء الذين تلقوا عن الملائكة ، وإما بأن يكلم الأنبياء من غير أن يروه كسأله موسى عليه السلام : وإذن نشرع في عجائب هاتين الآيتين فنقول :

اعلم أن الله عز وجل جعل العالم المادى والعالم الروحى بينهما تشابه كما قال تعالى «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» وقال «ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان» فالعالم الروحى والعالم الجسمى مختلفان جوهرًا ويتحدان في النظام العام . فانظر أولاً في هذا العالم الشاهد ، وتأمل تجد الناس يعيشون في وسط الأنوار فأما الظلمات فهي قليلة . إن الشمس لا تسكاد تعد ولا تحصى ، فأما السيارات حولها فهي مستضيئة بها . وكذلك التوابع : فأرضنا وقرنا يستضيئان بنور الشمس . وكذلك السيارات . ويظن أن للشموس سيارات ولكن لا يستضىء منها إلا ما كان جسمه معتماً كالأرض أي بردها وبقسطها مثلها . وجميع الأقسام تنقسم إلى ثلاثة أقسام : أجسام مضيئة كالشموس التي هي هذا العالم كله ، حتى إن أرضنا كوكب مضيء لولا قشرتها ، فأما باطنها فانه نار على حاله ، فأكثر أجسام عالمنا مضيئة ، والنادر جدا مالا ضوء له وهي أمثال قشرة أرضنا الصغيرة ، وأجسام معتمة كسطح الأرض والقمر والنبات والحيوان والأحجار ، وأجسام شفافة كالهواء . فالأول يفيض النور ، والثاني يستضىء ، والثالث يقبله ولا يحجبه عن المعتم . والأجسام المعتم منها ما هو صقيل كسطح المرآة فانه يقبل النور ويحجبه عما وراءه ولكنه يعكسه على ما أمامه . هذا هو العالم المشاهد وأقسامه ، فلننظره نجد أن الشمس تفيض النور والهواء شفاف منفصل وجرم العين شفاف متصل بالأجسام فلننظر في عالم العقل والروح نجد أن في العالم الإنسانى من يقبلون العلم بالتعليم وهم جمهور الأمم ، فهم في قبولهم العلم أشبه بهم حين يقبلون الصور التي وردت من طريق العين الواردة من الخارج ، ونجد الأنبياء والعلماء فيهم أشبه بالعيون المركبة فيهم ، فكما قبلت العيون الصور بسبب ضوء الشمس وأدتها إلى النفوس هكذا قبل الأنبياء وهم عيون الأمم العلوم ووصلوها إلى أممهم . فإذا تبين لنا أن العالم المشاهد أوضح لنا ست مسائل من ثمانية ، وإيضاحه أننا نقول : في العالم الروحى نفس متعلمة وأنبياء معلمون وملائكة موصولون والله مبدأ الفيض ، فنحن لا نعلم من هذه الأربعة إلا اثنين : نعلم النفس المتعلمة ، والنفس المعلمة ؛ ولكن الإثنين الباقيان محجوبان عنا ، وهما الله والملك ، فأرانا الله هذه الأقسام الأربعة في العالم المادى وقال : انظروا تجدوها واضحة ، أجسام مظلمة تستضىء ، وأجسام شفافة متصلة تقبل ، وأجسام شفافة منفصلة ، وأجسام مفيضة للنور . فهذه القسمة تامة في العالم المادى وقد رأيت اثنين في العالم الروحى ، فبطريق الإقناع تعرفون أن هناك ملكاً وراء الملك إله كما كان وراء العين هواء ووراء الهواء شمس ، وهذا لمن لم يقرأ علم الأرواح ، فالله تعالى هو المعلم وهو الذى يكلم الناس بالملك وبالأنبياء كما أن الشمس تضيء على الأرض وتتضح لنا الصور بطريق الهواء الشفاف وبطريق العيون والفضل كله راجع للشمس ، هكذا العلوم الدينية والعلمية والصناعية ؛ وجميع ما فى الأرض من علم مكمل لأهلها مصدره الله تعالى ، غاية الأمر أنه تارة يكون بوصف

للجمهور وبغير وسط للنفوس الشريفة . وهذا يوضح لنا قول علمائنا : [ إن الله عميم الجود ليس يمنع له عن أحد ، ولكن الفيض يكون على مقدار الاستعداد ] .

فإذا سمعنا أن زيدا قد ألهم العلم ونشر الحكمة ، فلنعلم أن في نفسه صفاء استعد به أن يتقبل الحكمة العامة المغروسة في قلوب نفوس الأرواح الحائمة حولنا وهي مستمدة من الله كاستمداد الهواء النور من الشمس ، وإذا سمعنا أن عمرا أتبع هواه وأغراه الشيطان فلنعلم أن النفوس التي ألهمته منحرفة وهو يشابهها في الانحراف كما نرى الزجاج الملون تلون الماء الذي وراءها فنراه أصفر أو أخضر أو أحمر تبعاً لها مع أن النور عام والناس مطلعون عليه ولكن لا قدرة لهم على تغيير الطباع ، فالأرواح الشريفة يرون الشياطين أمامهم أشبه بذلك الزجاج الملون ، ويرون الأحياء الذين يشاكلونهم مغرمين بأرائهم عاكفين على الإصغاء إليهم .

هذه مجامع الحكمة في هذه الآيات . إذا عرفت ما ذكرته لك . فانظر في هذه الآيات . ذكر الله السموات والأرض وأن عظمة الله تكاد تنفطر فيها السموات . ثم أتبعه بذكر الملائكة مشيراً إلى ما ذكرنا كأنه يقول انظروا إلى السموات والأرض وإلى عظمي فيهما فإنكم ترون الظلمات والأنوار الخ فانظروا إلى الملائكة إنهم يسبحون ويحمدون . فهم يعرفون جلال الله وإكرامه أي صفات التقديس وصفات الإكرام فهم يعرفون بعده عن مشابهة الخلوقات ويقدمونه تقديساً ويقروون عجائب صنعه وحكمته وقدرته المعبر عنها بالحمد . فهم يعرفون أن ذاته كاملة تفيض الخير . فقدم التسبيح لأنه يرجع لكمال الذات وأخر الحمد لأنه يرجع لتكميل الغير وإفاضة النور فالقدس ذات منزهة كاملة ، والقدس المحمود ذات كاملة مفيضة الخير والكمال على غيرها وبهذه العلوم والعارف كانت الملائكة أرقى من أهل الأرض لأن أرواحهم لطفتم فلم تلامس هذه المادة ولا تعيش فيها فأصبحت كالهواء من حيث قبول النور العلمي وإفاضته ، وليس يمنع الناس عن ذلك السكال إلا الجهل كما قال سقراط : [ الناس لا يعذبون إلا لجهلهم ، ولولا سعة علم الملائكة ما ارتفعوا عن المادة وما كانوا مسيطرين عليها ، وعلى مقدار جهل الإنسان يكون بعيداً عن العالم الروحي ] .

فهذا ملخص ما يفيد قوله « يسبحون بحمد ربهم » . وأما قوله « ويستغفرون لمن في الأرض » فهو إفاضة الخير ، فهم من حيث التقديس والتحميد يفاض عليهم من الله ، ومن حيث الاستغفار مفيضون الخير على الناس . ولما كان الإنسان لا يقدر أن يرى النور إلا بآلة متصلة به وهي العين هكذا لا يقدر الجمهور من الناس أن يدركوا العلم إلا بنفس تكون منهم تشبه العين في جسم الإنسان ، فهي تتصل بالملائكة من وجه وتتصل بالناس من وجه آخر ، أي أن الأنبياء بروحانيتهم متصلون بالملائكة وبماديتهم يتصلون بالناس كما اتصلت العين بالضوء من جهة الهواء واتصلت بالبخ من الداخل واتجهت الصور منها إلى النفس فأدركتها فهي قابلة موصلة والأنبياء قابلون موصولون ، فالله كلم الأنبياء بالملائكة وكلمنا بالأنبياء ، ويشير إلى هذا المقام أيضاً ما جاء في [ سورة النبأ ] « رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

وبهذا نفهم الآيتين في أول السورة وآخرها ، وهذا المقام من عجائب العلم والحكمة ، إن الناس يرون هذا كله بأعينهم الجهال والعلماء ، ولكن لا يدركه إلا من انفتحت بصيرته إليه . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى والسادسة .

## اللطيفة الثانية والرابعة

(١) في الكلام على التناسل واختلاف الذكور والإناث في الحيوان والإنسان .

(٢) ولطف الله في تغذيته .

فمن الثاني ماجاء في كتابي [جواهر العلوم] في صحيفة ٩١ وبعدها وهذا نصه :

فقال إبراهيم : اعلمى نورك الله بنور العلم أن الخالق جل اسمه جعل تركيب الأسماك مناسبا للمعيشة في الماء كما جعل للطيور أجنحة تساعدها على الطيران في الهواء . فقالت : وكيف ذلك ؟ فقال : إن الأسماك تحتاج في تصرفها في معاشها وتقلبها في أطوارها إلى أن تعوم في الماء من جهة إلى أخرى أو تنخفض تارة وترتفع أخرى أو تنجس يمينا ويسارا لتبحث عن غذائها أو تهرب من عدوها أو تطلب صيدها فجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاذيف السفينة تشاهد في الأسماك في الجوانب وعلى الظهر ومن خلقها وحوصلتها تسمى حوصلة العوم، وهي عبارة عن كيس مملوء هواء خالصا تضغطه إذا أرادت أن تغوص في الماء فيصغر حجمها وتمده إذا أرادت أن تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستعدا لأن يديرها يمينا وشمالا في البحر فكما أن السمكة عوامات تمخر بها الماء كذلك جعل للسفينة مجاذيف وشرعا تسيرها حينما أراد الإنسان وكما أن لها ذنبا يكون موادنا لجسمها عند الانحراف يمينا وشمالا كذلك جعلت الذفة (السكان) للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنا ويسرة، فلو انقطع ذنب السمكة مثلا ما أمكنها أن تنحرف إلى إحدى الجهتين بل تنجس دائما جهة الأمام ولو انعدمت عوامتها التي في جوانبها وعلى ظهرها لوقفت في مكان واحد وتعطت عن اكتساب معيشتها ومن العجيب أن الأسماك جعل شكلها على هيئة تناسب احتراق الماء فلم يجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجاج المياه فتعوقها عن السباحة، فما أدق صنعه سبحانه وما أعظم رحمته وكل حي يغدو ويروح في بحار نعمه مشمولاً بسوابغها قال عز وجل « وما كنا عن الخلق غافلين » فمجاذب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلداتهم وشهواتهم . قال عليه الصلاة والسلام : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض » فالإبل مثلا قصرت أذنانها لاستغنائها بطول أعناقها وعكس ذلك في البقر، وكمن حكم ضربنا عن ذكرها صفحا ليراجعها محب الحكمة في العلوم الطبيعية « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

### ﴿ فصل : في حكمة خلق الحشرات ﴾

فقلت ياسيدي إنى أعتقد أن كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحارفيها العقول ولكن إلى الآن لم أصل إلى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنايبير والذباب والبعوض فهل عثرت على ذلك في كتاب ؟ قال نعم إن الله عز وجل يخلق الشيء لحكم كثيرة منها ما يعرف ومنها ما لا يعرف . أما هذه الحشرات كالزنايبير والذباب وغيرها فإن حكمها كثيرة؛ منها أن العفونات الفاسدة التي على وجه الأرض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر المهلاك وعم الخراب، فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لحمها ولا يعرض لها الفساد الذي هو سبب الوباء وهلاك الحيوان ولذلك ترين الزنايبير والديدان والخنافس في دكان القصاب (الجزار) والذباس<sup>(١)</sup>

(١) الذباس: هو صانع الدبس، وهو ما يسيل من الرطب .

أكثر مما يرى في دكان البراز (القماش) والحداد فاقترضت الحكمة الإلهية صرف العفونات إليها ليصفوا الهواء منها وتسلم من الوباء . ومن الحكم العجيبة والأسرار الطبيعية الإلهية أنك ترى أن نحو الحيات والعقارب تسكن عادة وتكثر في الأماكن العتيقة والمحال الفاسدة وهكذا خشاش الأرض من الحنافس والضراسير وغيرها ، وترين (الناموس) لا يتولد إلا في المحال المستنقعة وكذا الذباب يكثر في المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلا عن كونها تحيل إلى جسمها المواد الفاسدة وتنقي الهواء فهي من جهة أخرى مؤذية بطبعها ينفر منها الإنسان فتحمله على إزالة ذلك السبب فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول إن لم تصلح هذا المكان أو تخرج منه وإلا لدغتك .

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرّة لا يحس الإنسان بضرره فيحدث الضرر في الأجسام أو يميت الإنسان وهو لا يشعر به جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها سما يحس بألمه الإنسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه وهو مع ذلك لم يقصد منه إلا البعد عن تلك الأماكن العفنة فضلا من الله ونعمة .

وهكذا ترى أن من على وجهه قدر يعلوه الذباب لينقى ما عليه وخلق في الإنسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر أن يغسل وجهه فيزيل ذلك القدر فكأن الذباب شرطي ( جندي ) يلزم أهل القدر ويأمرهم بالنظافة وإلا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة ، فسبحان من أودع في كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب ما يحمله أكثر الناس وهو نافع لهم ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات الأمثال حتى قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيوت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فأنكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم بين أن الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال في آية أخرى ( وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ) فأفاد بهذه الآية أنه لا يفهم تلك الحكم إلا أصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرون في ملكوت السموات والأرض الذين عبر عنهم بالعالمون بكسر اللام . هذا ؛ ومن عجب الحكم أنه عز وجل جعل صفارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلا وجه الأرض منها فليس في ملكه ذرة إلا وفيها من الحكم ما لا يحصى ، وأعجب من هذا أن كل ما جعل سببا لهلاك حيوان جعل لحمه سببا لدفع ذلك السم فإن الأطباء الأقدمين قالوا إن في لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فأدخلوا اللحم في الترياق والتجربة تشهد أن من لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها في الحال ، ثم إن هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث ؛ ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئا كالحيات والعقارب ، ومنها ما يدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل ، فتأمل تلك الأفعال العجيبة واعلم أن هذا العالم كله حكم ومصالح (وما يعقلها إلا العالمون) فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة وظهر للخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة فإن من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدرك في خلقه أن لها بعض تلك المنافع والحكم من تلقيح الأشجار وإصفاء الجو من العفونات فهي من المعينات على ما كنا وبقاء حياتنا ، وإن من أجل الحكم والطفها وأدقها أكل الحيوانات بعضها بعضا فكيف في الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثتها لفسد الهواء ثم هبت الرياح إلى ما جاورها من البلاد وعم الخراب ولذلك قال الشيخ كالدين الدميري في [ حياة الحيوان الكبرى ] إن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والأفعى تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد

فياً كله والجراد يلتمس فراخ الزناير فياً كآها، والزبور يصيد النحلة فياً كآها والنحلة تصيد الذبابة فتأ كآها والذبابة تصيد البعوضة فتأ كآها اه على أن في ذلك فضلا عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سدى بلا فائدة فلو ترك بلا أكل لتعطلت حكمته إذ ليس في الملك ما تضيع حكمته ألبتة ففيه دفع مضار وجلب منافع اه .

ومن الأول ما جاء في كتاب جواهر العلوم أيضا وهذا نصه :

« ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التي ليست على نمط واحد ، فإن من الحيوانات ما يتم جنينه في داخل جسده ثم يلد كالحوانات اللبونية ، ومنها ما تخرج بيوضها منها ثم يتخلق الجنين فيها مهيئاً له داخلها جميع ما يلزم من الغذاء وذلك كالطير وبعض الحيات ومن ذلك كيفيات الإلقاح وتغذية الجنين فإنها كيفيات متباينة تؤدي إلى مقصود واحد فبعض الحيوان لا يتم تلقيح ذكره إلا إذا وصل المنى في باطن الأنثى ولو تعرض للهواء لفسد كالإنسان وكثير من الحيوان ومنه ما يلقى منه على بيض أثنائه بعد خروجه منها فلا يفسده الهواء ، ومنه ما سفاده في وقت معين ، ومنه ما لا تعين لوقته ، ومنه ما يعلو أثنائه عند السفاد ، ومنه ما يدابرها ومنه ما يلصق جنبه بجنبها ويحما كآها حتى تلقى بيضها وهو يلقى منه على تلك البيوض فيلحقها وذلك كبعض الأسماك ومنها ما يغذى صغاره بلبن أعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم في ثدييه أو أئذيته التي تكون على عدد أولاده في الغالب ، ومنه ما يزرق أولاده زقا كالحمام ، ومنه ما يسعى بأولاده ويدلها على أفواتها كالدجاج ؛ ومنه ما يشترك في تربية أولاده الذكر والأنثى وذلك عندما تكون أولاده غير قادرة على السعى من أول ولادتها وذلك كالعصافير والحمام والإنسان لأن انفراد الواحد بالتربية مع سعيه على رزقه أيضا يكلفه فوق طاقته ، ومنه ما تنفرد أثنائه بالتربية وذلك عندما تكون أولاده قادرة على السعى وذلك كالدجاج والحجل فإذا تأمل العاقل في هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لإرادته متجهة لنظام السكون متعاونة على إكآله ، فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطا تاما بقواتين الجذب العام والثاقل وعقول بني آدم وإدراك الحيوانات وما بينها من المحبة والألفة والشوق فالجذب العام كمحبة عمومية بين جميع أجزاء العلويات والسفليات وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين أجزاء صغيرة من هذا السكون فكل ما تراه في الحقيقة إنما يسعى للنظام التام وهو يظن أنه يسعى لمصالحته الخاصة ، انتهى ما أردته من كتابي جواهر العلوم .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى « الله ألدنى أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ<sup>(١)</sup>

اعلم أن هذه الآية قد كنت رأيت في المنام منذ نحو ٢٧ سنة حينما كنت أؤلف كتاب جواهر العلوم وأنا مقيم بالجيزة أن قائلاً قرأ هذه الآية أمامى ؛ وألقى في نفسى أن معناها ما تقدم من أن النظام تام في هذه الدنيا ، وأن الأحكام الشرعية والقضاء تكون على حسب الظاهر ولم يبق إلا الباطن فيرجع إلى النظام العام وهو يكون يوم القيامة ، ولذلك لما استيقظت من النوم كتبته ثم أدرجته في الكتاب ، فأنا اليوم أحمده عز وجل إذ حيت على هذه الأرض حتى أتبيح لى تفسير القرآن ووصلت إلى نفس الآية ، وأقول الآن إنى لما استيقظت من النوم إذ ذاك وفكرت في الآية ؛ لم أكن لأصدق أن الآية كما رأيت في النوم ،

(١) سيأنى في اللطائف العامة دلائل بقاء الأرواح ألقاها خطيب مصرى على سبيل الخطابة وهكذا آراء أ فلاطون والمؤلف مع بدائع التفسير هناك .

بل ظننت أنها حصل فيها تغيير ، فلما سألت مدرس القرآن بالمدرسة قرأها لي كما رأيت ، ونظرت  
المصحف فوجدتها كما هي طار قنبي فرحاً ، وكتبت للمعنى في كتابي « جواهر العلوم » ، وقد  
كشتمته في نفسي ، وها أنا ذا اليوم أكتب لك ما جاء في « جواهر العلوم » وإن لم أذكر فيه من أين جاء  
وهذا نصه :

### ﴿ الفصل السادس عشر ﴾

في الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة

ثم قال إبراهيم : قد تكلمنا في مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل ، وهي  
في الحقيقة أدلة عقلية ، فهل عندك من دليل غير ما يذكرونه في كتب علم الكلام بحيث يكون مقنعاً للعقول  
فأنا كثيراً ما أسمع قولهم في كتب التوحيد إن دليل الآخرة سمعي ، أي إننا نأخذ من الأدلة الشرعية لا من  
العقل . قالت الفتاة : أنا لا يمكنني أن أقول غير ما سطر في كتب التوحيد . فقال إبراهيم . أنا قد خطر لي  
دليل لا يفهمه إلا أولو الألباب والراسخون في العلم . فأشرق وجه الفتاة وقالت هات ما عندك :

فقال من نظر بعين البصيرة ، فيما أودع في هذا العالم من الحكم والعدل والقوانين السارية في العلويات  
والسفليات والحيوانات ولغاتها وإدراكاتها وعقولها حكم بالبداهة على أنها جارية على نواميس حقة وحساب  
منتظم دقيق لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها هذه الكواكب والشمس والقمر ساجدة في مداراتها  
على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل ثم لننتقل نظرنا إلى السفليات نجدها حذت حذو العلويات في النسق  
والترتيب والنظام فأى حيوان تعدى طوره وأى نبات تجاوز سنته ثم لنتظر العقول البشرية نجدها مفطورة  
على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الأعلى فلا ترى إنساناً على وجه الأرض إلا واستحسن العدل  
واستقبح الجور ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الإنسان بل المستنبطين لها في الحقيقة من  
الشرائع الإلهية يبحثون على بواطن القضايا كظواهرها هذه الدول الغربية أمامنا كم ينفقون الأموال ويرسلون  
إلى الجهات المتباعدة من يبحث على الجاني ولو أنفقوا ما أنفقوا وكل ذلك لئيل العقول إلى العدل ، وأن يجازى  
المحسن بإحسانه والسيء بإساءته ومالنا ولأرباب القوانين والسياسة فلنتظر إلى سيد العائلة فإنه يعاقب على  
ذنوب أهل منزله ويجازى كلا بما فعل بل أى إنسان ولو من أضعف الناس عقلاً وأقلهم إدراكاً . رأى رجلاً  
يضرب آخر فإنه لا يتالك نفسه أن يأخذ بناصر الضعيف « فطرة الله التي فطر الناس عليها » دعينا من الإنسان  
وانظري الحيوانات فإنه مركز في جبلتها العدل أيضاً لما شوهد كثيراً فيها بل كثيراً ما علم أنها تعاقب بالقتل  
على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد فثبت أن هذه الفطرة منبثة في كل حي على وجه البسيطة بل هي من  
الموازين التي قامت بها السموات والأرض واستقر بها كل موجود ، ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك  
والنبات والحيوان والإنسان وعلوم الأحكام والمنطق وعلوم الأدب كاللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان  
والبيدع وغيرها أن هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سرى النظام في كل شيء من الموجودات وعلى نهجها  
وضعت قوانين للمجرمين في هذا العالم وتجري على يد الإنسان ولكنها مهما بلغ العقلاء فيها لا تحمى إلا على الظواهر  
ولا يمكن وصولها إلى الحقائق بوجه ما ، فهي أشبه شيء بالجمال الظاهري فإنه يدل في الغالب على الجمال الباطني ومن  
غير الغالب قد تختلف القضية فكذلك الأحكام بالقوانين الشرعية أو الوضعية تابعة لأقوال الشهود والقرائن  
ودلائلها ظاهرية فقط وقد قدمنا أن كل شيء في العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل فلا بد أن  
يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها في وقت آخر حتى يكون ميزانها على حسب الموازين الأخرى الصادقة

من العلويات والسفليات وأيضاً قد تقرر أنه لا يضيع شيء سدى في هذا العالم كما هو مقرر في العلوم الطبيعية فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية قط بل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تسكون حرارة ثم ضوءاً فهكذا تنقلب هذه الأعمال في الآخرة نعيماً أو عذاباً أليماً فتذكروا يا أولى الألباب، فلم تضيع أفعال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم أو الذين أحسنوا في هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر :

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الشر إبان

وقول الآخر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألا ترين أن زارع الورد لا يجني الشوك وزارع النخل لا يجني الذرة . وعلى هذا القياس ترين النفوس تتأثر بأقوالها التي تصدر منها حسناً وقيحاً فمن أكثر من ذكر شيء أحبه بل خاطر الإنسان يؤثر على أخلاقه شرفاً وضعة فعلمنا أن هذه القاعدة مطردة في المحسوسات والعقولات وجميع الموجودات ومن فهم ما قدمنا جزم يقيناً أنه لا بد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط لما ثبت أن كل هذا العالم قائم بالعدل وبقيت أفعال الإنسان لم توزن إلا وزناً ظاهرياً فلا بد من وزن آخر ليكون فصلاً حقاً بميزان عدل لا يخس شعيره وكيف ينتقم رئيس الأسرة وسيد العشيرة من السوء ويحسن إلى المحسن ولا يفعل ذلك رب الأرباب ( أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ) ( أفنجعل المسلمين كالحجر مين ما لكم كيف تحكمون ) ( أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ) ( أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ) ثم إن كل ما صرحت به أو لوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهي قوله تعالي ( الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ) قد فسر بالعدل والتسوية كما في الحازن والنسفي ( وما يدريك لعل الساعة قريب ) فليتأمل العقلاء وما يدريك لعل الساعة قريب بعد قوله « أنزل الكتاب بالحق والميزان » وليلاحظوا ما ذكرناه في هذه المقالة يظهر وجه هذا التعقيب العجيب، ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه ( يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة ) يخاصمون فيها أو يشكون ( لفي ضلال بعيد ) عن الحق لعدم فطنهم وإدراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ما أنزل في الكتب السماوية المطابقة تمام المطابقة لما يرى في العوالم بالعقل والنظر الصحيح على أن لنا وجهاً آخر في ذلك وقد عرضته سابقاً على أكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جدا وهو أن كل بني آدم على أي دين تراهم يحبون تخليد أسمائهم إما نقشاً على الأحجار أو في الكتب المؤلفة أو على ألسنة الناس وأيضاً يحبون الخلود وطول الأعمار ولا نرى أحداً يحب الفناء إلا من شد شدوذاً بيننا ثم ذلك الشدوذ لا يدوم وأيضاً نرى جميع أهل الأرض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم وإذا نظرنا إلى هذه الفطر الثلاث المنغرس في نفوس البشر دللتنا دلالة واضحة على أن لنا بقاء بعد موتنا إذ جميع فطرنا التي فطرنا عليها صادقة وليس فيها كاذبة ألبتة ولعمري لا يفهم ما قلناه إلا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها ألا يرى شهوة الغذاء والتناسل والغضب وما فينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة وكلها فطر صادقة كما يعرفه أهل العلم فكذلك هذه الفطر فبنا البقاء وتخليدنا أسماءنا دليل على أن لنا بقاء بعد الموت وزيارة الأحياء للأموات وعموم هذه العادة في جميع بني آدم دليل على وجود أرواح الأموات وإلا

فما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الأموات ولنا وجه آخر وهو أننا لا نقنع في هذه الدنيا بما لا علم مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر في نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات في العالم المشاهدها بدليل أنها لا تقف عند حد محدود بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت إليه وأحبت أعلى منه وما سمعنا بأن أحداً قال غير هذه العبارة (هل من مزيد) فهذا لاستشعار النفوس جميعها بأن لها لذة أعلى من هذه فلا بد أن تكون في عالم آخر الذي يطابق وصفه ما أحبته النفوس وحنّت إليه .

وهذه الأدلة كلها لم أرها في كتاب وإنما هي سوانح (١) ويقرب من هنا أن كافة بني آدم يميلون إلى عبادة الخالق في كل صقع من أصقاع الأرض حتى أهل جزائر المحيط الهادي الذين تباعدت ديارهم عن المتمدينين وإنما اختلافهم في تعيينه فمنهم من ظنه شجراً ومنهم من ظنه تمثالا ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع ولا شك أن هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم . فأعجب الفتاة ما قال إبراهيم وقالت ما سمعت أدلة أوضح وأبين من هذه اه ما جاء من كتابي جواهر العلوم .

فالحمد لله الذي وفقني إلى تأليف هذا التفسير والشكر له على أنى عشت حتى وصلت إلى تفسير هذه الآية وذكرت ما كان خطر لي منذ ربع قرن فأكثر . وما كان ليخطر لي إذ ذاك أني سأكتب هذا وأنشره بين الناس فالحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى «وأمرهم بينهم»

أذكر في هذا المقام ما اتفق لي أثناء هذا التفسير إذ ألغى الترك دولة الخلافة وأقاموا الجمهورية مقامها وكتب المسلمون في ذلك . وطلب مني بعض أصحابي أن أكتب في هذا الموضوع فكتبت رسالة في جريدة «المقطم» وقد تقدمت في سورة النساء .

هذا ولندكر هنا ما جاء في جريدة «وادي النيل» يوم الخميس ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٤٧ هجرية الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٨ م في معنى هذه الآية . وإنما ذكرناه هنا لما فيه من الأخبار لزيادة الفائدة ، فقد جاء فيها مانصه :

### الدين والدستور

جاءتنا هذه الرسالة ونحن ننشرها عملاً بحرية النشر محتفظين برأينا الذي أبديناه من قبل في هذا الموضوع ثارت مناقشات عنيفة بين الشيخ محمد شاكر والسيد وحيد الدين الأيوبي في مرجع الضمير من قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» وقوله تعالى «وشاورهم في الأمر» فجعله الأول خاصاً بأولى الرأي المعتمد بهم في الإصلاح

(١) اطلمت بعد هذا على استدلال أفلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة على أن هناك أمراً ثانياً وهي صورنا الدائمة في عالم آخر ثم اطلمت على بقية هذه الوجوه في كلام الحكماء بعد تأليف هذا الكتاب بستين فحمدت الله حمداً كثيراً اه المؤلف

وجعله الثاني عاما لجميع الأفراد ، ومع كثرة المقالات في أعداد المقطم واتساع نطاقها خرج الفريقان من الميدان على غير نتيجة للقراء .

ولما كان البحث دينيا يجب تمحيصه لخلوص العقيدة انتظرنا العودة إليه من غيرها فلم يكن ، فكان حقا علينا وعلى جريدة وادى النيل بالأخص - لأنها المدافعة عن الدين الإسلامي والشرق - أن نفتتح هـذا الباب مرة أخرى لفحص علله وضائرته فنقول : إن المشاورة في الأمر هي المشاركة في الآراء للحصول على النتائج النافعة لاقتنائها أو الضارة لاقتنائها . ولن تكون كذلك إلا من أهل الحكمة والفقه والتقوى والأمانة قال تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » وروى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان - أي وزيران - بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى » قال في القسطلاني فيؤخذ من هذا الحديث مشروعية أن يكون عند الحاكم أهل مشورة من أهل التقوى والعلم والأمانة اهـ .

وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم خواص أصحابه في غزوة بدر ثلاث مرات ولم يستشروهم كلهم . وفي ثالث مرة قال له زعيم الأنصار سعد بن معاذ : يا رسول الله كأنك تعرض بنا ولعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطمن حيث شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تابع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عمان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك ، وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وإني قد رأيت مصارع القوم اهـ » .

وروى البخاري « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين أذن له المسلمون في عتق سبي هوازن وكانوا جاءوه مسلمين وطلبوا منه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم ، فمن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيته إياه من أول ما بقى الله علينا فليفعل فقال الناس قد طيبنا فقال صلى الله عليه وسلم إني لا أدري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فارجع الناس فكلهم عرفاؤهم فرجعوا ( أي العرفاء ) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا له أن يعتق السبي اهـ من الفتح . وكان هؤلاء العرفاء زعماء المجاهدين وكلمتهم نافذة ولم يرجع العرفاء لكافة المسلمين في هذا الحكم الديني بل إلى البعض ويشترط في العريف أن يكون كفؤا عالما فطنا وقورا له رأى بارز لأنه عضو عامل في المملكة كالعضو العامل في الجسد ولكل عضو من الجسد خاصية يمتاز بها عن غيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالا يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين فأبعث ابن أبي كعب وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم عليهما السلام فقالوا يا رسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقال صلى الله عليه وسلم هما لا بد لي منهما ، هما مني بمنزلة السمع والبصر » اهـ يعني أن يستشيرهما في الأمر وهما خواص من خواصه في الشورى ولو كانت عامة لاستغنى عنهما بغيرهما .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم » رواه مسلم والمناصحة هي المشاورة في الأمر ، والناصح لا يكون جاهلا أو مفسدا . وقال صلى الله عليه وسلم « العرافة حق ولا بد للناس من عريف والعرفاء في النار » رواه أبو داود ، قال في الفتح ( قوله ) والعرفاء في النار يشعر بأن العرافة على خطر ، ومن بشرها غير آمن

من الوقوع في المحذور وترك الإنصاف المنفص إلى الوقوع في المعصية فلهمنا يجب أن يكون من ذوى الأمانة والعلم والتقوى .

ولما طعن سيدنا عمر رضى الله عنه قيل له استخلف ، قال إن هذا الأمر شورى بين ستة رهط من قريش وأرسل إليهم وهم على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله (وكان غائبا) والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وحينما اجتمعوا لديه (ماعدًا طلحة) قال يامعشر المهاجرين الأولين إنى نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم بالله لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التي تتشاورون فيها فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة وأرجو البركة لكم من حضورها وليس لهما من الأمر شيء ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء . ثم قال : إن الناس لن يعدوكم أيها الثلاثة ( يعنى عثمان وعليا وعبد الرحمن) ثم قال : فإن كنت يا عثمان في شيء من أمر الناس فاتق الله ولا تحملن بنى أمية وبنى أبي معيط على رقاب الناس وإن كنت يا علي فاتق الله ولا تحملن بنى هاشم على رقاب الناس وإن كنت يا عبد الرحمن فاتق الله ولا تحملن أقاربك على رقاب الناس ومن تأمر من غير إمرة فاقتلوه اه .

خضر سيدنا عمر الشورى في ستة رهط فقط والتس منهم إحضار بعض من يوثق بأرائهم وتلتمس بركاتهم مع أن الأمر في الخلافة هو أهم ما يستشار له ويهتم به كافة المسلمين اه .

أمين إبراهيم الأزهرى

### اللطيفة السابعة

في قوله تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» الخ

لقد عرفت مجمل ماقاله العلماء في الآلام التي تصيب الأطفال والبهائم والإنسان . وأزيد الآن أن بعض علماء الإسلام يقول : ( إن الأطفال والبهائم لا تألم ) وهذا القول قال به بعض علماء أوروبا من الفلاسفة وعملوا تجارب على ذلك ومنهم فيلسوف ألماني عظيم كان يقطع عضوا من أعضاء الكلبة بلاشفقة ولارحمة وهي ترضع ولدها ولم يلهها قطع رجلها عن إرضاعها ولدها فكان هذا بعض أدلتهم .

ولأذكر لك الآن طرق النوع الإنساني في حال الإنسان . فإن القرآن قد فتح المجال ليرقى العقول . أعلم أن أمم الهند ترى أن الناس بعد الموت يبقون في حال أشبه بما كانوا عليه في الدنيا من الأخلاق فإن كانوا أشمرا عاشوا عيشة بطريق التناسخ تكون عقابا لهم . والأخير يعيشون في حال أجمل حتى إذا خلصوا من المادة رجعوا إلى ربهم .

إليك خلاصة ما أثبتته العلامة (جاكوليو) و (ديبوا دى جانسيني) و (هالهدوسيسه) و (برونوف) و (روديه) و (بونسن) وكثير غيرهم . أثبت هؤلاء أن الهنود تركوا تعاليم عجيبة وفلسفة وحكمة . ومما كانوا قد اعتادوه أنهم كانوا يؤرخون موت ملك أو انتخاب (براهمتما) أى بابا البراهمة . أن يسطروا على كتاب خاص النقطة التي بلغتها الشمس في منطقة فلك البروج في الدرجة والدقيقة والثانية .

يقول مؤلف الكتاب : إن معنى هذا أنهم كانوا يراعون مبادرة نقطة الاعتدال التي تتقدم كل نحو

ألفي سنة برجا واحدا. وفي نحو (٢٥) ألف سنة (١٢) برجا. ويقول علماء الهند إنها (٣٦) سنة لا (٢٥) سنة فلنرجع إلى ما نحن فيه فنقول :

إن هؤلاء الهندوس لهم أربعة أسفار مقدسة عندهم ، يقولون إن الله واحد ، قيوم بذاته . موجود في كل الكائنات لاتصبيه الحواس المادية . بل الروح وحدها وهو المنزه عن كل ما يرى .

وقال كولوكا الهندي : « إن المؤمنين الأقدمين مع أنهم ألخوا الطبيعة المتعددة لم يعتقدوا إلا إلهها واحدا مبدع الكائنات ، أزليا غير مادي حاضرا في كل مكان . منزها عن كل كدر وهم . وهو الحق بذاته ومنبع كل عدل وحكمة . مدبر الكل ، والمرتب نظام العالم . لاشكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة » .

وكان البراهمة يقولون لمن دخل عندهم في الدرجة الثانية هكذا : « يا بني إنه لا يوجد إلا إله واحد فقط رب الجميع ، وعلّة الكائنات ، والواجب على كل برهمن أن يعبد في الباطن . وهذا سر يجب عليك كتمه عن العامة والجهال » .

ومن تعاليمهم : « إن الكائنات نشأت من الله ، وإلى الله سوف تعود بواسطة الترقى والنشوء الدائم ، والنفس عند انفصالها من البدن لاتفقد المادة تماما وإلا لهلكت في السكون العظيم ، بل يبقى لها جسم مصوغ من النار ، والإنسان شرارة أو شعاع من النار الإلهية تبقى مع جسمها اللطيف البهيم ، ثم بعد زمن تتحد بجسد جديد منظور عند ما يأتي وقته » اهـ .

فانظر وتعجب كيف وحدوا الله كما نوحده نحن ، وكيف يقولون : « إن الميت تكون روحه في جسد نارى بهي جميل » ولعل هذه النفس هي الصالحة وتكون الشقية معذبة بذلك الجسم النازي ، كما أن حرارة الشمس تمنعنا تارة وتؤذينا تارة أخرى . وانظر كيف يقولون : « إنه يرجع بعد زمن جسما منظورا » وهذا هو البعث عندنا في دين الإسلام إما إلى جنة وإما إلى نار على حسب الأعمال . وكانت لهم عبادة قلبية وأخلاق ذكرها ( مانو ) المشرع الفيلسوف قبل موسى عليه السلام بألاف السنين : « الصبر ومقابلة الإساءة بالإحسان ، والقناعة ، والاستقامة ، والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ومعرفة الكتب المقدسة ، ومعرفة الله ، والصدق : واجتناب الغضب » . فهذه هي الوصايا العشر عندهم ، وبها يخرج الإنسان من العذاب بعد الموت .

وكان للهندوس نساك ينفردون في الغابات . ويعبدون الله . ويفسرون الكتب الدينية . ويعرفون أسرار الطبيعة ، ولهم بقية الآن . وعلى هؤلاء تعلم ( خريستا ) وهو أول مؤسس دين ظهر في التاريخ سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد المسيحي ، فهناك بعض تعاليمه مما يخص ما نحن فيه أو ما يقرب منه . قال : « إن الجسد فيه النفس وهو زائل وهي باقية ، النفس سمرمدية لا وزن لها ، ونصيبها بعد الموت يرجع لسر التماسخ إذا انحل الجسد عن الروح ، فإن غلبت الحكمة على النفس طارت إلى الأقطار العلوية ورأت الله ، وإن كان الهوى متمسكا رجعت إلى الذين هم متعلقون بالأرضيات ، والولود شقيا كان أو سعيدا نتيجة عمل سابق » .

وهنا سر أعظم من هذا ، وهو أنه « من رام بلوغ الكمال فليكسب علم الوحدة التي هي أجل من الحكمة أي يلزمه أن يتعالى إلى الكائن الأسمى الذي هو فوق النفس المستقر في كل منا ، إن في باطنك صديقا إليها لاتعرفه لأن الله مستقر في باطن كل امرئ ، ولكن قل من يعرف أن يجده ، فمن يضحي رغباته وأعماله للكائن الأزلي الذي منه نشأت مصادر الأشياء كلها وبه تكون العالم ، ينال بهذه التضحية الكمال لأن من يجد في ذاته سعاده وفرجه ونوره فهو واحد مع الله ، فاعلموا إذن أن النفس التي وجدت الله تعنى من المولد والموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود » ؟

ثم جاء قبل التاريخ المسيحي بستائة سنة ( بوذا ) المسمى ( ساكيا موني سودوا دانا ) ملك كايلافاستو فلما بلغ العشرين من عمره أخذ يتأمل في حال شعبه ، وما دخل في الدين من الطقوس والخرافات ، وله وصايا عشر وتعاليم أشبه بما تقدم ، ووصاياها هي :

« لا تقتل . لا تسرق . كن عفيفا . لا تشهد بالزور . لا تكذب . لا تحلف . تجنب كل كلمة نجسة . كن خالي الغرض . لا تأخذ بالثأر . لا تعتقد اعتقادات باطلة » اهـ .

لملك تقول : ها نحن أولاء اطلعنا على الدرجات الثلاث لدين البراهمة ، فما فائدة ذكرها هنا ؟ أقول لك ذكرتها لتنظر في تعاليم الأمم وتفكر في العقائد والأخلاق ، انظر إلى عقيدة التناسخ فإن الدين القديم قبل ظهور ( خريستا ) لا نص على التناسخ فيه ، بل قال إن الروح لها جسم نارى بهى وتبقى أمدا حتى تلبس جسما منظورا متى قضت بذلك شريعة الله ، ولم يقل جسما بعد جسم ؛ فلا تناسخ ولا أجسام . فهذه الشريعة أشبه بشريعة الإسلام إذ جاء فيها : «إننا نعذب أو ننعيم إلى يوم البعث ويكون لنا أجسام منظورة» .

ثم انظر . لما جاء خريستا ، ماذا فعل ؟ تكلم عن التناسخ . أى أن الإنسان بعد الموت إذا كان مذنبا يدخل في جسم أرضى ويعيش مثل ما يعيش نحن . ويعتبر هذا قضاءا للذنوب ارتكبها . وكل مصيبة تصيبه تكون لأجل ذنب مضى .

انظر كيف يتوسع صاحب الدين المتأخر في المعنى الذى قاله المتقدم : ثم انظر من جهة أخرى إلى وصايا (خريستا) وإلى وصايا (بوذا) ، فوصايا خريستا أرقى لأنها ترجع إلى العلم والأخلاق الباطنة ، ووصايا بوذا ظاهرية كالحلف وما أشبهه . فكان القوم أيام (خريستا) كانوا أرقى ، وانظر إلى أمتنا الإسلامية كيف كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يراعون البواطن من الإخلاص والصدق ، وكيف تأخر المسلمون اليوم فلم يعرفوا إلا العبادات الظاهرة وأكثرهم عن البواطن معرضون فلا يحاسبون عليها .

ثم انظر نظرة إجمالية في قول الهنود : «ان الله في باطن كل امرئ» وانظر كيف يقول الله تعالى : « وهو الله في السموات وفي الأرض » ويقول «وهو معكم أينما كنتم» وكيف يقولون : « إن الإخلاص لله هو الذى يعقنا من العذاب » وانظر إلى القرآن كيف كان كله على هذا النمط .

ثم انظر إلى علماء الإسلام رحمهم الله تعالى ووازن بين آرائهم وآراء الهنود لتقف على الحقائق : انظر كيف يقول علماء الهنود المتأخرون فيما تقدم : (إن المولود يكون على حسب ما كان له في التجسد السابق . إن كان شريرا يكون هنا في ذل ، وإن كان صالحا يكون في حال سعيدة) .

وانظر إلى علمائنا رحمهم الله تعالى كيف نظروا الآية التي نحن بصددنا وهي «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» الخ ؛ فقال قوم منهم ، (إن الإسلام لا تناسخ فيه) وهم جمهور الأمة ، فحصل هذه المصائب ليس بذنوب سابق وإنما هو امتحان وتكليف لاعتقوبة ، ومعنى قوله تعالى « فبما كسبت أيديكم » أى إن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هي دار تكليف .

وقال أهل التناسخ من أمة الإسلام : (إن هذه الآية تفيد التناسخ ، ألا ترى أن الأطفال والبهائم يحصل لهم الأم فلا بد أن يكون لهم وجود سابق ، والأم نتيجة ما كانوا عليه سابقا) .

وقال الذين ينفون التناسخ : كلا . فالبهائم والأطفال لا ألم عندها . والقول بالتناسخ فاسد . وقالت طائفة : (دعونا من هذا كله) يقول الله «فبما كسبت أيديكم» هذا الخطاب للعقلاء ، فأى دخل للبهائم والأطفال ! .

### ﴿ رأى المؤلف ﴾

اعلم أن الأمم من هنود ومسلمين وغيرهم إنما يكامون الناس على قدر عقولهم حتى نفس الأرواح كما سيأتي وإلا فالنتيجة واحدة . وإيضاحه أنه إذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه . فما الذنب إلا من النقص في النفس . ولو كانت كاملة ما أذنبت . فلو قيل نقصها نشأ من الذنب السابق نقول يلزم التسلسل وهو مستحيل . فالأصل هو النقص ، والله سبحانه وتعالى يرقى النفوس بالألم كما يرقىها بالعلم والعمل وغاية الأمر أن علماء الأمم لا يريدون أن يزيدوا على ما ورد في كتبهم والله أعلم .

### ﴿ آثار هذه الآية في الأمة ﴾

عن الحسن رحمه الله قال : دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد فقبل له ، إننا لنغتم من بعض ما نرى فقال : لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلى ، وقرأ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فهذا بما كسبت يداي ؛ وسيأتي عفو ربى اه .

ولعلك تقول : وما رأيك في هذا المقام ؟ أقول لك : أمارأي الذي ألقى الله عليه فهو أمر عام واحد لا غير وهو أن النفس الشريرة تلاقى ألما . والنفس الفاضلة تلاقى خيرا ، وهذا هو المعبر عنه بجحيم والجنة ، وجحيم ليست خاصة بالنار بل ورد فيها الزمهرير ، وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم . « إنهم يحرقون بالزمهرير كما يحرقون بالنار » وهو عجيب جدا لأن العلم الطبيعي أثبت هذا وهو أن البرد الشديد يحرق الأجسام كالنار وهكذا فيها الحيات والمقارب . وجميع أنواع العذاب الروحي والجسمي ، والجنة بالعكس فيها جميع أنواع اللذات يقول الله : « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » ويقول : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

فالمسلم عليه أن يعتقد الاعتقاد العام وهو سهل بسيط أن يفعل الخير بقدر الإمكان ويحترس من الشر ويرتقب رضاء الله .

### رأى الأرواح

واعلم أن العلماء الذين يحضرون الأرواح يرونهم مختلفين في هذه المسألة فمنهم من يقول هناك تناسخ ومنهم من يقول : كلا وهذا إما أنهم حججوا عن الحقيقة وإما أنهم عرفوا : ولكن كل يعطى تعاليمه على حسب ما يرى من السامع . ونحن نقول : مالنا ولهذا كله لانهم بالتفصيل فلنجد لنخلص من المادة ونرجع إلى الله ونخلص نفوسنا من الطمع والغل والحسد وما أشبه ذلك ونملأ القلب بالمعارف والعلوم اه

### ﴿ اعتقاد قدماء المصريين ﴾

إن اعتقاد قدماء المصريين مشتق من اعتقاد الهنود وكما رأيت أن (خريستا) صرح بالتناسخ ولم يكن صريحا في دينهم القديم لأن الشعب كانت حاله تقضى أن يقال لهم ذلك ، ترى قدماء المصريين لما أخذوا هذه العقيدة ألبسوها لباسا آخر ، فماذا فعلوا ؟ اعتقدوا أن الروح لها جسم ، وهذا الجسم اسمه ( خات ) وبعد الموت يتحول إلى جسم روحي ( سحور ) وهذا الجسم يعيش مع الملائكة في السماء . وبالاختصار الإنسان عندهم :

( ١ ) جسم فان .

( ٢ ) جسم روحي .

(٣) قلب .

(٤) ازدواج .

(٥) نفس .

(٦) ظل .

(٧) روح (أى مادة أثيرية لطيفة مضيئة غير ملموسة) .

(٨) (شكل إلهى) .

(٩) اسم .

ويقولون : (إن الإنسان بعد الموت يأكل مواد لا تتعفن ، ويشرب خمرا لا يفسد) وبالجملة فعقيدتهم أشبه بالقرآن من حيث النعيم .

﴿فتوح الرحمن الرحيم ، ونور الدين الإسلامي﴾

انظر أيها الدكى تعجب من أمر الأمم ودين الإسلام ، انظر واضع لما أقول ، وتعجب من العلم وكيف أضاء الله للمسلمين الدنيا ، وأشرفت الأرض بنور ربها .

ألا تتعجب معى فيما أقول لك ؟ أقول لك ما فتح الله به الآن فقط . أنا الآن أقرأ ماسطره علماء أوروبا يوم (٢١) أغسطس سنة ١٩٢٤ ومنه مقالة عن عقيدة قدماء المصريين . انظر كيف جاء فيها أن شريعة التحنيط إنما جاءت سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، وانظر إلى ما ذكرته لك ، وهو أن (خريستا) جاء قبل المسيح بنحو سنة ٤٨٠٠ وتأمل ما قلته لك ، وأن التناسخ لم يكن مصرحا به فى كتابهم المقدس وصرح به (خريستا) . وانظر إلى قدماء المصريين . فإنهم استعملوا التحنيط خمسة آلاف سنة أى من سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة بعد الميلاد . أفلا ترى معى أن عقيدة (خريستا) انتقلت إلى مصر فى ثلثمائة سنة وأنهم فهموها فهما معكوسا فقالوا : «إن الإنسان إذا مات يبقى زمنا طويلا فى السماء منعا ، أو فى الجحيم معذبا . وذلك بما غلب على نفسه من صلاح أو طلاح» مثل ما قال البوذية سواء بسواء ، ولذلك جعلوا هناك ٤٣ قاضيا ولهم ميزان يزنون به قلب الميت وأعماله فتغلب الحسنات أو السيئات ويكون الجزاء على مقتضى تلك الغلبة كما رأيت فى تعليم الهنود وكما جاء فى القرآن سواء بسواء . فكأن العالم كله يفهم شريعة متشابهة من حيث الأصول . ثم انظر كيف يقول الهنود قبل المسيح بأربعة آلاف وثمانمائة سنة : (إن الإنسان يرجع بعد أمد إلى الأجسام ويولد ثانيا ، ويكون فى حال على مقتضى حياته السابقة ، ولا يزال يعود مرارا حتى يظهر وبعد ذلك يرجع إلى الله مع الملائ الأعلی) .

وقد قلنا لك إن هذه جاءت من (خريستا) لا بمن قبله أشبه ببدعة دينية . ثم انظر كيف نقلها المصريون بعد ثلثمائة سنة محرقة . فقالوا : (يرجع الإنسان إلى جسمه الأسمى) .

يا عجباً ! إن الأمم تأخذ العلوم على مقتضى أخلاقها . قد كان قدماء المصريين يعالجون عظام موتاهم بالقار لأجل حفظها من الفساد ؛ فلما سمعوا هذه الفكرة عن الهنود قلبوها إلى عاداتهم وقالوا : يرجع الإنسان لنفس جسمه الأسمى ، فأخذوا يحنطون الأجسام خمسة آلاف سنة .

إياك أن يهرك الفلسفة والعلم والحكمة عند قدماء المصريين ، فتقول : لم خرفوا ؟ فاعلم أن فلاسفة كل أمة ينشأون على العقائد التى عندهم ، فإذا رأيت الزخرفة والنقش والحكمة ، وما إذا عته الجرائد عن قبر الملك (توت عنخ أمون) وأن فيه مسرجتين من مرمر لما أوقدوا المصباح فهما ظهرت صورة الملك والملكة بألوان باهرة ، فلما انظفا المصباح ظهرت المسرجتان بحالهما تماما لا صورة فيهما ، وقد قيل إن هناك (٣٠)

صندوقاً محتومة بحتم الملك لم تفتح ومستفتح فيما بعد ، والسائحون من سائر أقطار العالم يفدون على بلادنا لمشاهدة هذه العجائب .

وظهر قبر آخر بجوار الهرم على بعد (٣٠) متراً من سطح الأرض ، ويقال إنه كشف عظيم الأهمية أقول : إذا سمعت ذلك فلا تدهش لأن الأمم كلها أشبه بعالم عند صاحب العقيدة . فترى الفيلسوف والصانع والأمير والمزارع ، كل هؤلاء ينطقون بفكرة واحدة . أعنى أن أكبر فيلسوف عندهم لا يقدر أن يقول إن هذا خرافة بل يقدمه كما يقدمه القوم . والمهندس والصانع وأمثالهما . كل هؤلاء يتقنون الصناعات وهم عند الفكرة الدينية أشبه بحاشية الملك والرعيه كلهم يقدمونه ولو كان فاسقاً ويطيعونه . هكذا عقيدة التناسخ التي ظهرت في الهند وغيرت وجهتها في مصر إلى رجوع النفس إلى جسدها نفسه بقيت أمداً طويلاً حتى جاء دين المسيح ودين الإسلام فغيرت العقيدة .

تميش الأمم آلاف السنين ولا تتزحزح عن عقائدها . حتى إذا جاء مصلح غيرها ، فهاهنا جاء الإسلام ونزل في القرآن أننا بعد الموت نعذب أو ننعيم ، وأننا نحشر على مقتضى سابق حياتنا ، وأن منا من ينظرون ربهم . ومنا من يحجبون عنه وهكذا . فلم يذكر رجوع الجسم للولادة مرة أخرى ولا رجوعه لجسده ثانياً ثم انظر إلى الأمة الإسلامية كيف احتجبت أنظارها الآن عن أسرار الكون وبدائعه وغاب عنها ذلك وتشبثت بالوقوف على الظواهر ، وأن الله اليوم يريد رجوعها إلى أصل دينها ، وما أصله إلا النظر في عجائب العلم والحكمة ، ودراسة الكون الذي نسكنه حتى نلاق ربنا ونحس نعرفه ونحبه ، ونكون في الدنيا قد قضينا ما علينا لأمتنا وللأمة حولنا ، فإننا نحن - خير أمة أخرجت للناس .

ليكن المسلم خليفة الله ، ليكن العالم كله تحت رعايتنا . لنسكن خلفاء الله فندرس نظامه ونكفل عبادته لأنهم إخواننا ، فمن دخل في ديننا فيها ، ومن لم يدخل أعناه ، وراعيناه وأحطناه ، وإن اعتدى أديناه ، هكذا جاء ديننا ، ولنرجع إلى أخلاق السلف الصالح من الشفقة والإخلاص ومراعاة أحوال القلوب ، وذلك هو الذي يرمى إليه الإسلام ، بل هو مستقبل الإسلام والمسلمين .

#### ﴿ سؤال ورد على المؤلف ﴾

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال لي أحد الفضلاء : كيف يعقل أن يحنط المصريون موتاهم بمجرد ما سمعوا التناسخ عن ( خريستا ) بالهند . قلت له : إن للقوم قصة خيالية لهذا الغرض قد تقدم ذكرها في هذا التفسير ، يزعمون أن ( أوزيريس ) كان محباً للمصريين ولنوع الإنسان كله ، وأخذ معه ( توت ) وسار بجيوشه وفتح الأرض كلها باللطف لا بالحرب ، فلما رجع إلى مصر حسده أخوه ( سيت ) ، فصنع صندوقاً جميلاً ، وصنع وليمة ، وقال : من كان هذا الصندوق على قدر جسمه فليأخذه لنفسه ، فكان ذلك على قدر ( أوزيريس ) فأطبق الصندوق عليه خيانة ورموه في النيل ، فقامت زوجته إيزيس وجزعت وقصت شعرها وبجثت عن الصندوق فوجدته على شاطئ فينيقية ، فأزلوه في سفينة إلى آخر ما تقدم ، وإنها وضعتها عند غابة ، فعثر عليه ( سيت ) فقطع أخاه أربع عشرة قطعة ودفنها في مواضع كثيرة ؛ ثم جمعها هي وحنطتها وهنا بيت القصيد ، فكانت إيزيس حنطت أوزيريس زوجها هي التي أنارت هذه الثائرة . ولكن الذي أقول إن هذه الخرافة لا تكفي في هذا العمل الشاق ؛ فلا بد أن تكون العقيدة هندية لانفاق التاريخين . فأما هذه الخرافة فهي لا تستعبد أمة بتامها . انتهى والله أعلم .

## اللطائف العامة للسور كلها<sup>(١)</sup>

### اللطيفة الأولى

بهجة العلم في الحكم المودعة في بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق

بدائع أسرار التنزيل

( بسم الله الرحمن الرحيم )

في ليلة الجمعة ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ استيقظت قبيل الفجر . ولكني لم أستطع أن أقوم بعمل ما من عبادة أو علم لعارض جسمي طارئ على ، فخيلى لي كأنى انسلخت من هذه العوالم المادية ، وكأنى أنظر إلى المجرات وشموسها ، والسدم وأحوالها . ولا جرم أن الخيال نكل امرئ لا يعدو ما عرفه . ونحن نعرف أن مجرتنا التي شمسنها فيها قد عرفت الأمم أن شموسها بحسب ما وصل إليهم تبلغ عشرة آلاف مليون شمس وهذه مجرة واحدة من آلاف الملايين منها . وهكذا خيل لي أيضا أنها كلها دوائر وحولها سياراتها وأراضيها وأقمارها . وكل شمس لها حركة خاصة كما أن كل سيار له حركة خاصة حول شمسه وكل قمر حول الكوكب السيارة فإذا اجتمعت هذه كلها مرة واحدة ولا حظها الإنسان خيل له كما خيل لي أن العالم كله موسيقى فوق ما يتصوره المفكرون . ونعمت بهجات فوق ما يبتهج به المبتهجون .

الله أكبر . هنالك ازددت في الخيال تعمقا . وتوغلت النفس في صورها . وابتعدت عن العالم المحسوس إلى عالم الخيال المحض ، فهنالك هنالك خيل لي كأن إنسانا تراءى لي ، وجسمه من النور ، ولكن له جميع خصائص الإنسان الجسمية ، إذا هو يمدق ببصره إلى ؛ فأخذ فكري يحول في أمره ، وفي نظراته ، وفيم يتفرس من أمرى ، وأى الأمور يريد أن يحدثني بشأنه ؟ فابتدرني قائلا : ( وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ) فقلت : خبرني ماذا تريد رحمتك الله ؟ فقال : أحدثك في أمر نفسك وأمر المسلمين في الأرض ، فقد اتبع خيالك علمك ، وراح يحول في ساحات واسعات ، وباحت صفت فيها الصور ، وظهرت فيها الحكم ، وبهر النور ، هذا الخيال الذي تبدى لك اليوم تابع لما قرأت من كشف الحقائق ، ولكن هناك بعد مفارقتك هذا البدن ستري ما هو أعجب وأبدع ، نظراً حقيقياً لا خيالياً ، وإذا كانت المسرة التي تحس بها نفسك الآن تكاد تكون فوق طاقتها ، فذلك لأنها محبوسة في المادة ، ولكن إذا انطلقت منها ستحتمل من اللذات ما لا حد له ويكون ذلك على مقتضى العلم ومقتضى العمل « ولكل درجات مما عملوا » .

أنت الآن تتخيل الموسيقى في العالم العام تخيلاً وهناك سيكون ذلك حقيقة . فقلت وكيف تقول إن هذا العالم موسيقى ، وهل هذا المنظر الذي يخيلى لي له مناسبة ما بالسور التي تطبع الآن في التفسير ؟ إن الله عز وجل عودنى أثناء طبع هذا التفسير أن لا يمر بخاطري ففكر قوى إلا كان مناسباً أشد مناسبة لما أنا بصده فهل هذا الخيال من هذا القبيل ؟ فقال إى وربى . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن هذه المناظر سيتجلى بها بعض أسرار « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق » ، فازداد عجبى ! وقلت : فلا تتركنى يرحمك الله . فقال : كلا لا أتركك فاستبشر وقر عيناً ، فأنى مرسل من عالم آخر لأقر عينك في هذا التفسير ولكنى لم أحضر في خيالك إلا الآن . فقلت ؛ كيف أعرف أن هذه المناظر مفسرات لما ذكرت . فقال لأسألك أولاً :

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة . المؤلف

- (١) ما صفة الموسيقى عند القدماء .  
 (٢) وما هيئتها عند علماء العصر الحاضر .  
 (٣) ثم ما صفة الموسيقى في العالم كله الذي تخيلته أنت الآن ، وهل هذا النظام البديع تابع لعلم عالم حكيم أم هو مصادفة .  
 (٤) ثم ما تتأج هذه النظم كلها من الرحمات .  
 (٥) ومق أحس العقلاء بالرحمة وعلوها حمدوا مسديها .  
 (٦) وهنالك يتجلى معنى البسملة والرحمة فيها ، ويتجلى معنى الحاء والميم والعين والسين والقاف ، إذن في المقام ستة فصول ، فيها أناذا سائلك في :

## الفصل الأول والثاني

ما صفة الموسيقى عند القدماء ، وما صفتها عند علماء العصر الحاضر  
 فقلت يا سبحان الله . أنا لست من علماء الموسيقى حتى تسألني هذا السؤال . قال نعم . أنت لست من علماءها . ولكن لك إلمام بها إلماما علميا ، فاذا ذكر ما تعرفه . فقلت أنا أتذكر أن ( فيثاغورس ) الفيلسوف سمع مطارق حداد فأطربته رناتها ، وسرته مناسبتها ، فوزنها فكانت نسبتها هكذا ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ فأتى بأوتار أربعة متساويات طولاً وسمكا ، وعلق فيها أثقالا على هذه النسبة ، فكانت مطربة مفرحة تشرح صدور البائسين . هذا كان أول ما خطر له ووضعه . فقال هذه العبارة بالحرف من كتابك «الموسيقى العربية» ولكن هناك أمر آخر أقرب من هذا . فقلت نعم في كتاب [ إخوان الصفاء ] فإن أوتار العود لها نسب غير هذه والأوتار عند القدماء أربعة وهي ( الزير والمثنى والمثلث واليم ) وهي مرتبة من أعلى إلى أسفل ، وقد كانوا يظنون أنها مناسبات لكرة الأثير والهواء والماء والأرض بهذا الترتيب ، الأعلى مماثل للأعلى والأدنى مماثل للأدنى ، وقد قالوا :

« إن وتر الزير مركب من ( ٢٧ ) طاقة من الحرير ، والمثلث يزيد عليه الثلث فهو ( ٣٦ ) طاقة والمثنى يزيد عليه ثلث ( ٣٦ ) فهو إذن ( ٤٨ ) واليم يزيد على ما قبله ثلثه وهو ( ١٦ ) فيكون ( ٦٤ ) وبهذا انتظمت النغمات وابتهجت النفوس » .

قال هذا هو الذي كنت أريد أن أسمعه منك ، هذا في القديم ، فهل تذكر نظير ذلك في الموسيقى الحديثة . فقلت : لا أذكر الآن . فقال عجباً ! تتذكر ما في كتابك في الموسيقى وقد مضى على تأليفه سنون ولا تتذكر ما كتبت في ﴿ سورة مريم ﴾ من الموسيقى الحديثة، فقلت نعم أتذكر الآن أنني ذكرته هناك وهو « إدراك الإنسان للأصوات ينحصر في ( ١٠ ) دواوين أي أبعاد كلية موسيقية ، فاذا ورد على الأذن ( ١٦ ) موجة في الثانية ، فهذا أقل الأصوات ثم ٣٢ — ثم ٦٤ — ١٢٨ — ٢٥٦ — ٥١٢ — ١٠٢٤ .  
 ٢٠٤٨ — ٤٠٩٦ — ٨١٩٢ — ١٦٣٨٤ » .

ومعنى هذا أن أسماعنا تفرح بنظام الحركات بأى شكل كان ، ففي العود العربي القديم تفرح نفوسنا بالنظام المبني على ازدياد الطاقات بالثلث ويكون ذلك منتظماً . وهاهنا تفرح النفس بما تحس من نظام المتوالية الهندسية البديعة . فنفسنا هي هي قديماً وحديثاً لانفرح إلا بما هو منظم ، وأقرب شيء لها الأصوات التي يعرفها الجهلاء والعلماء . فقال أحسنت أحسنت ، أعم القول . فقلت : أما نظام الأفلاك وحركاتها وعجائبها ونظام الطبيعة فليس يدركه إلا الأقلون . فقال هذا هو الذي أريد أن أختبرك فيه .

## الفصل الثالث

### في النظام العام في العالم

فدثني إذن: هل النظام العام على مثال ما رأيت الآن في الموسيقى القديمة والحديثة. قلت نعم. فقال: فاضرب لي أمثالا. فقلت:

﴿أولا﴾ إن أبعاد السيارات تتبع نظاما معلوما، فإذا أخذنا الأرقام التالية وهي (٣ و ٦ و ١٢ و ٢٤ و ٤٨ و ٩٦) ثم أضفنا (٤) إلى كل رقم كانت سلسلة متتابعة تفهمنا نسبة مسافات السيارات وأبعادها عن الشمس وهي (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل) فهي على هذا الترتيب في بعدها عن الشمس أي أنها على مقتضى المتواليات الهندسية (وبعبارة أخرى) هي أشبه بالدواوين المتقدم ذكرها في الموسيقى الحديثة التي يدرسها الفرنجة الآن في قسم من أقسام العلوم الطبيعية، فأما الأقدمون فكانوا يدرسونها في العلوم الرياضية ولكل وجهة صادقة، فالموسيقى ترجع للصوت أولا وحسابه ثانيا، فالقدماء جعلوها في علوم الرياضة لمكان حسابها، والمتأخرون جعلوها في العلوم الطبيعية لأن الصوت أمر طبيعي لأنه حركات في الهواء.

﴿ثانيا﴾ إن الحجر إذا نزل من أعلى الجبل إلى أسفل البركان حسابا هكذا: في الثانية الأولى يقطع (١٦) قدما إنجليزية، وفي الثانية الثانية يضرب هذا العدد وهو (١٦) في (٣)، وفي الثانية الثالثة يضرب هذا العدد في (٥) وهكذا (٧) و (٩) و (١١) و (١٣) إلى ما لا يتناهى. وإذا ربعنا الثواني وضربنا المربع في (١٦) يكون الحاصل ما قطعه الحجر جميعه، فإذا مضت ثانيتان ضربنا ٢ في ٢ يساوي ٤ ونضربها في ١٦، وإذا مضت ثلاث ثوان ضربنا ٩ في ١٦ وهكذا، فهذه كلها مضاعفات منظمات كما انتظم ما قبلها.

ثم توقفت عن القول برهة. فقال: فكر فيما كتبت في [سورة الرعد] عند قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار »:

﴿ثالثا﴾ وذلك في أمر الصوت والنور والحرارة والجاذبية، فهذه الأربع تقل بمقدار ما يزيد من البعد عن الجسم الحار والجاذب والمنير والذي منه الصوت فتذكرت ذلك، وهناك أمثلة تبين المقصود فلم أشأ أن أكتبها هنا خيفة الإطالة، وهناك نظام وحساب في سير الأجرام الفلكية أقرب ما تقدم في [سورة يس] وفي [سورة الزمر] وتجد في [سورة يس] أيضا موازنة ما بين الشعر والموسيقى وحساب الفلك، كل ذلك تقدم موضعا.

فهذه النظم في أبعاد السكواكب، وفي سقوط الأحجار، وفي سرعة الأصوات والأنوار الخ تحيط بالمادة وكلها منظمة أنظمة جميلة حسابية موسيقية، فإذا ترقينا قليلا رأينا نفس النور على هذا النمط: أي أنه جار على حساب باعتبار ألوانه السبعة، ذلك أن العين لا تتأثر من توج الأثير الذي يزيد عدد درجاته في الثانية عن (٧٩٠) مليون مليون، أو ينقص ذلك العدد عن (٤٠٠) مليون مليون. فأقل الألوان وأولها الأحمر وأكثرها تموجات وآخرها البنفسجي وبقية الألوان بينهما، إذن حاسة السمع آلة لسماع حركات في الهواء، وحاسة البصر آلة لالتقاط حركات الأثير فتظهر لها بهيئة نور، إن هذه العوالم كلها حسابية موسيقية عجيبة. فما وافقنا سميناه جميلا لنبدأ، وما لم يوافقنا سميناه قبيحا مؤلما، فهذه الحركات في الهواء المحصور ما بين الهاتين الكبرى والصغرى فيما تقدم، وهكذا عددها المحصور ما بين الهاتين

في الضوء كلاهما قد أحدث آثارا في أسمعنا وفي أبصارنا ، والمسألة ترجع إلى نفس الآلة ، وهكذا نقول في نعومة الحرير وخشونة الخيش ورأحة الورد والروائح الكريهة وطعم التفاح والحنظل ، فهذه منها المكروه ومنها المحبوب ، ولا حب ولا كره إلا على مقتضى الملاءمة والنافرة ، ولا ملاءمة إلا على حسب النظام المحسوب حسابا جاريا على قوانين توافق حواسنا ، ولا منافرة إلا على مقتضى اختلاف القوانين المذكورة فإما هذا العالم كله إلا حركات ، وغاية الأمر أنها باعتبار الآلات القابلة فينا أصبحت هذه نورا وهذه صوتا وهذه رأحة وهذه ذوقا الخ .

ألا ترى رعاك الله إلى ما قررناه سابقا أن كل الجوامد وكل السوائل مثلها كمثل الأنوار في أنها حركات وتلك الحركات تمثلت لنا أجساما وأنوارا ، ومن الأجسام سوائل وجوامد وغازات ، كل هذا واضح في مواضع كثيرة من هذا التفسير .

فلما سمع ذلك . قال : أحسنت كل الإحسان ، فلنشرع في الكلام على :

### الفصل الرابع ، والخامس ، والسادس

وهو الكلام على نتائج هذا كله وهي الرحمت ، ثم ما يترتب عليها من المحامد

ثم معنى الحياء والميم ، والعين والسين والقاف .

فقلت : أما هنا فيأني أرجو أن تفتح لي الباب حتى أفهم هذا المقام . فقال انظر انظر بالبصيرة ، فنظرت . فقال ما ترى ؟ قلت أرى المجرات والشموس والسيارات كلها كأنهن حفلات ذات بهجات ، وكأن النور انقلب أصواتا ونغمات ، بل هذه العجائب ألد عند عقلي من أن أسمع نغمات العود والمغاني ، فهأنا جمال وإبداع وحسن وكال . فقال من الذي يدير هذه الكواكب ؟ فقلت : نفوس عالية وهي الملائكة . فقال فإذا سألك أهل الأرض وقالوا لك ما البرهان ؟ فقلت : أقول لهم قد تقدم في سورة ( حم السجدة ) عند آية « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » الخ أن النبات على قسمين . قسم يحل المواد في الأرض . وقسم يركبها فالحمل للمواد هي ( الفطر والبكتريا ) وهذه وإن جلب بعضها الأمراض فإن أكثرها لولاه لم نعش يوما واحدا لأنها تخضر الأغذية في خبايا الأرض وتجهزها للنبات الذي يقيتنا ، بل أزيد على ذلك أن هذه الفطر ( بضم الفاء والطاء ) ونحوها تعيش في الأمعاء الغلاظ تتربص الأغذية التي تمر في الجهاز الهضمي وقد عجز عن هضمها أنواع الهاضمات من الينابيع الستة التي في الفم ومن البنسكرباس ونحوها ، فتلتقاها تلك الفطر التي لا تراها العيون ، فتحلل ما بقي فيكون بذلك تمام أغذيتنا ، ولولا هذا لم يكمل غذاؤنا ، بل نموت جوعا وإن كنا آكلين . فإذا كان غذاء النبات وغذاء الحيوان وغذاء الإنسان لا يتم الانتفاع به إلا بهذه المخلوقات التي لا ترى وما كان أحد في الخلق يظن أن ذلك يحتاج لفاعل يفعله فكيف تكون شموس وكواكب وأرضون وأقمار ومجرات تجرى ولا مجرى لها ؟ فإذا كانت الأمراض كالسكوليرا والتيفوس والجدرى ، وإذا كانت الأغذية كل هذه لفعالها أسباب موجودة ، فكيف يحتاج أحقر المخلوقات إلى فاعل ولا يحتاج أعظمها إلى فاعل ؟ إن ذلك يخالف العقل والمنطق والصواب .

وعليه أقول : إن هناك ملائكة هي التي تدير هذه الكواكب والمجرات والشموس وبسبب هذا الدوران المختلف حصلت لنفسى مسرات أكثر مما تسرها نغمات الموسيقى . فقال : حدثني ، أهؤلاء ليس لهم قائد ؟ فقلت بلى وهو قاهر فوقهم . فقال إذن أنت فهمت الجواب . فقلت لم أفهم . فقال بل فهمت والله ، ألا تذكر أن الرحمة في البسملة . قلت أذكرها ، فقال هذه الكواكب والعوالم هي آثار هذا النظام والحساب فهي رحمت والرحمة لا تكون إلا مع علم كما تقدم في آية « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » ، فالرحيم

لا تتم رحمته إلا إذا كان عالما بمواضع الحاجات لمن يرحمهم . قلت أى وربى . قال الحاء والميم فى ( حم ) تذكرة بالرحمة أولاً وتذكرة بالحمد ثانياً ، ألا ترى أن مبدأ الخلوقات علم الله ، ثم إنه على مقتضى العلم خلقها ، ولما أحسنا بالنعمة وعلمناها حمدناه . فقلت حسن . قال هذا هو ملخص الآيات ، علم الله فرحمة منه فعلمنا حمدنا ؛ الرحمة فى البسملة والحمد فى قوله « يسبحون بحمد ربهم » فالرحمة مبدأ والحمد نهاية ، ولا رحمة إلا مع علم ولا حمد منا نحن إلا مع علم . ثم إن هؤلاء الملائكة المدبرين لهذه الكواكب مسكنهم فى السموات ، وهم عارفون بجلال الله فهم يسبحون ( السين ) وبهذا نزل الوحي وهو القرآن ( القاف ) وملخص هذا أنك لما تخيلت هذه العوالم :

(١) عرفت الرحمة السابقة والحمد اللاحق ، ويشير لهما الحاء والميم .

(٢) وتفكرت فى أن الملائكة فى السموات يعرفون جلال الله وهم يدرون هذه الكواكب بهذا النظام الموسيقى ، وهذا ظهر فى قوله « السموات والتسبيح » لأن كلا منهما مبدوء بحرف السين (٣) ولا حظت فى عقلك أن الله فوق الجميع علماً وقدرة ، وهذا فى قوله « العزيز . العلى . العظيم » كلها مبدوءة بحرف العين .

(٤) وهذا الوحي نزل فى القرآن ، وهذا حرف القاف ، وأيضاً هذه العوالم كانت فى أزمان سابقة وهى لا تزال كذلك إلى الآن ، وهذا فى لفظ من قبلك ( القاف ) .

ولاجرم أن قوله تعالى « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » أصبح وانحما بما تقدم ، لأن العوالم حركات لا غير كما أثبتته أنت فى التفسير مراراً ، وما الأثير إلا كالحيال فى النفوس البشرية ، والحيال متى تركه صاحبه طاح وذهب ، والأثير أشبه بهذا الحيال لأنه ليس مادة ، فهو يكاد يتفطر لأنه فى الحقيقة لاشئ والحركات هى التى تتجلى لكم . ثم إن الملائكة لهم [ صفتان ] صفة معرفة الله ، وصفة تعليم الخلق ، وللأولى « يسبحون بحمد ربهم » وللثانية « ويستغفرون لمن فى الأرض » وفى كليهما السين ؛ وهذه هى الخصلة التى تجب على كل عالم فى الإسلام علم بجلال الله وجماله ؛ ثم أن يكون مفضلاً منبعا للخير فيأنا نافعا للناس . هنالك قلت يا ليت شعرى . إذا كانت هذه الحروف لم نفهم منها الآن إلا ملخص الآية من حيث إنها رمز لها فإذا أفادتنا ؟ فقال إنها جمعت العوالم العلوية والسفلية فى نظر النفس وأصبحت كأنها هيئة بهجة تشرح الصدور وتعرف جلال الله وجماله . وهذه تأنس بها الأرواح والإشارة أبلغ من العبارة ، وهذه لا تدرك إلا بالذوق ، وإما الفرق بين هذه المزايا التى جاءت فى هذا التفسير وبين المزايا التى فهمها المتقدمون أن مزايا هذه الإشارات هنا تحث على التعقل والتفكير ، فأما ما جاء عن بعض المتقدمين أن هذه الحروف مقتطفات من اسم الله ، أو أنها تشير إلى أعداد خاصة كالجمل ( بتشديد الميم ) كما زعم اليهود ، أو أن تكون إشارة إلى مافى العوالم العلوية من المنازل كما تقدم فى أول (سورة آل عمران) فإن ما ذكر هنا أقرب منه إلى رقى الأمم الإسلامية ، وأى بهجة ونعمة أبهج وأكمل من استحضار صور العلوم كلها وكأن الله مشرف عليها والنفس تطالع ذلك وهى مغتبطة أى اغتباط وذلك عند النطق بخمسة حروف جمعت العوالم ، ثم فصلت تلك المعانى بعد ذلك فى السورة .

## منافع الموسيقى العلمية

### وضرر الموسيقى العملية

فقلت له : لقد طال المقال في نظام الموسيقى العالمي في السموات والأرض . وإن المطلعين على هذا التفسير ربما يرون أن الموسيقى في الأرض عند العامة والجهلاء كالموسيقى التي أبدعها الله لأنني وازنت ما بين العود ونظامه والسموات ونظامها . فقال : حقا إن هذا يتبادر إلى الذهن . فبين هذا المقام هنا؟ فقلت : لقد ذكرت في أول ( سورة الصافات ) ما في التعليم العربي في الأمم الإسلامية من النقص الفاضح والجهل المريع من حيث الشعر العربي . ولا جرم أن بين الشعر والموسيقى صلة نسب وإتقان واتصال . إن الأمم الإسلامية منيت بأشعار العرب قبل الإسلام وبعده وفيها الغث والسمين . ولقد سرت هذه الفكرة سريان النار في الهشيم . وظنوا أن هذه الأشعار على علاتها تعرف أسرار القرآن . والحق الذي لا مفر منه أن كل ما أخل بالأخلاق من الأشعار . وما كان منه فيه مجون أو غرام فهو لغو بل ضار . لأن ذلك يعلق في النفس من صباها فلا يتركها فيصبح خلقا فيها ، وتلازم الغرام والصبوة في الشباب فعلا وفي الشيخوخة قولا وأمانى . وإني ليدهشني والله أن أرى هذه الأمة في الأندلس وفي الشرق لا تفرق بين الشعر المخرض على العفاف والشعر المزرى بالمروءة ولم أجد من يحذر من ذلك الخلط ، لا في زماننا ولا في الأزمان السابقة ، وهكذا أجدهم فعلوا ذلك في الموسيقى وفي الأغاني ، فكل هذه أباحها القوم ولا نكير إلا عند الفقهاء ، وأسمعهم يرون جميع الأشعار في كتبهم وفي سمرهم وفي مجالسهم ، بل أرى الصوفية رمزون بالغزل إلى الذات العلية ، وأجد العلامة الغزالي يبيح السماع بشروط ، والعلامة ابن سينا يجعله هو وطائفة من الصوفية مرقيا للنفس بشرائط خاصة كما هو واضح في آخر ( كتاب الإشارات ) .

والحق الذي لا محيص عنه أن أكثر الأشعار وأكثر الأغاني وأنواع الموسيقى ضارات بمجموع هذه الأمة . إن ما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله من جوازها بشرائط ، وهذه الشرائط ترجع إلى أمر واحد وهو أنها إذا سمعها الإنسان لم تتوجه نفسه إلى محرم بل تتوجه إلى إدراك المعاني وشريف الحُصَال .  
أقول : إن ما يقوله حق ، ولكن أكثر الناس غير مستعدين لذلك ولا هم يذكرون ، فأكثر الأشعار وأكثر الموسيقى ضارة بمجموع هذه الأمة ، والتقليل منهما هو النافع ، إذن ليست موازنة الموسيقى في الأرض عند الناس بالموسيقى في السماء عند الله من حيث الحساب تفيدنا أنهما سيان في الكمال . كلا . فهناك الموسيقى نظام جميع العلوم ، وهنا استعمالها أكثره مزر بنوع الإنسان وهكذا الأشعار .

ولقد أنحى (سقراط) في الكتاب العاشر من الجمهورية على طائفة الشعراء ، وأخذ يلوم (هوميروس) الشاعر ويحط من أقدار هذه الطائفة ويقول إنهم لاهم في العير ولا في النفير ، قوم لا حقائق عندهم ولا علم ، وما هم إلا مقلدون للحقائق ، وما مثلهم إلا كمثل الرسام الذي رسم لحام الفرس واللجام صنعه صانع وهذا الصانع وضعه بالهيئة التي طلبها ركب الفرس ؛ فراكب الفرس هو الذي يطلبه والصانع يعمل على مقتضى الطلب ولكن الرسام يقلد الصانع ، هكذا الشاعر فما هو إلا راسم للمقولات ، لا متعقل ولا عالم ، إذن الشعر خيال والخيال غير الحقيقة .

عجب أن تكون أكثر الشعراء هذه قيمتها ، والله يقول « والشعراء يتبعهم الغاؤون » . وهاهنا عجب وألف عجب أن نسمع القرآن يذم الشعر . وقد وافق في ذلك الفيلسوف من قبله . وهذا قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .

ثم إن المسلمين في الشرق والغرب طاحت دولتهم وذهب مجدهم في الدولة العباسية والدولة الأندلسية بما تركوا مواهبهم ، ولم يكن لهم هم في الأكثر إلا في الشعر ونسوا المعقول وتركوه للأعاجم . لذلك ذهبت ريحهم وأصبحوا أثرا بعد عين .

إن « حم . عسق » جاءت رمزا لنظام العالم العلوي والسفلي وهو الموسيقى الجميلة والعلم والحكمة . أما شعر الشعراء في الأرض وغناء المغنين فضرهما أكثر من نفعهما ، فليفكر العلماء في الإسلام بعدنا في قوانينهم للشعر النافع وللموسيقى ، وليحتاطوا في ذلك ، وليفرقوا بين النافع والضار ، فلا تكون الموسيقى إلا حيث يكون إنعاش النفوس للمعالي والعلوم وأشرف الأخلاق ، وكذلك الأشعار . فأما إذا كان كلاهما لتيسيح النزوات فليحرم بتاتا . إذن هناك فرق بين ما دلت عليه « حم ، عسق » وبين ما يعرى بأخطاط النفوس الإنسانية .

فلما سمع ذلك قال : أجدت ووفيت المقام حقها . وبعد أن سمعت هذه الجملة منه انصرف الخيال من أماني ، ونظرت في نفسي ، فوجدت أنني لا أزال في الفراش ، وعجبت من نفسي كيف كان حوارى مع خيالها النورى تخيلته هي ، ثم أخذت أفكر في هذه المعاني فوجدتها معقولة ، بل فرحت بها فسطرتها تبصرة وذكرى لى ولأصدقائى قراء هذا التفسير والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأحد ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

### إشراق شمس هذه المقالة

في سحر ليلة الإثنين ٣ من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٠ استبان لى من خوى هذه المقالة أن ( حم عسق ) رسمت للحكماء والعلماء في هذه الأرض أربعة منازل وهي :

( ١ ) انبعاث النفوس من الخلق إلى أنوار الحق .

( ٢ ) ثم ائتناسها بتلك الأنوار .

( ٣ ) ثم يكون الاقتباس بعد الائتناس .

( ٤ ) ثم الإفاضة على الناس من تلك الأنوار .

فالمنزلة الأولى هي الانبعاث ولها ( حم ) وذلك أن تشاهد أنفس أهل العلم بهجة هذه الكرات السماوية وتطلع أنوارها وحسابها وأعدادها وعظمتها ، فإذا امتلأت بتلك الأنوار وأشرفت بها أيما إشراق تكون المنزلة الثانية ، وهذه المنزلة الأولى تشير إليها الحياء والميم لأن تجليات العوالم وظهورها من العدم سر الرحمت والرحمة يسبقها العلم والعلم به النظام وتقدير الحركات والدرجات . ويدراك ذلك الجمال ترتقي النفس إلى المقام الأعلى وهو المنزلة الثانية ( ع ) الائتناس إذ تنجلي للفكر تلك العزة والعظمة والعلو اللاتي أشرفت بها أنوار العين في ( عسق ) . وهنا ارتقت النفس من المقدمة إلى النتيجة ، ومن الخلق إلى الخالق ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الرحمة إلى الرحيم ، ومن الجمال إلى الجميل ، ومن الصنعة إلى الصانع ، وهناك تتجلى أعمال الملائكة الحافين حول العرش ، وهم يشاهدون العوالم كلها ، مطلعين على بدائعها ، منظمين لحركات السموات ولم يتم ذلك إلا بعد إشراق نفوسهم بما استمدوا من علم وما استفادوا من حكمة من العلى العظيم العليم ، وهذه هي المنزلة الثالثة وهي الاقتباس ( السين ) من ( عسق ) فإذا كانت المنزلة الأولى ارتقاء من الصنعة إلى الصانع ، والثانية تفكير في أوصافه ومشاهدة أنوار الآثار ، فالثالثة الاقتباس ؛ ألا ترى أن المؤثرين

الذين لم نرهم شاهدنا آثارهم ، وعلى مقدار اختلاف الآثار يكون اختلاف المؤثرين ، وهم الذين سميناهم ملائكة ويضرب لهم المثل في نظام العوالم بنظام أعضائنا ، فكما أن في كل عضو قوات خاصة ، هكذا في كل عالم ملائكة مختصون به يديرونه ، وكما أن أعضاءنا تطيع القوات المدبرة لها هكذا العوالم المشاهدة تطيع الملائكة المدبرين وكما أن الإنسان منا له نفس واحدة ، وهذه النفس لها قوى كثيرة لا تقدر أن نحصيها نحن والله يحصيها هكذا الله واحد وله ملائكة ينفذون أمره وهم كثيرون ، وكما أننا نحس في أنفسنا بأن هناك في عقولنا قوى مختلفة مثل : ( الخيلة ، والمفكرة ، والحافظة ، والذاكرة ) وفي أجسامنا قوى أخرى أقل منها درجات من القوة الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والمنمية والمولدة ، ومثل الغدد المختلفة كغدة الصفراء والبنكرياس وغدة اللعاب الآتية في الفم وهي ست ، وهكذا مما تقدم إيضاحه في ( سورة فاطر ) هكذا في العالم :

( أولا ) ملائكة سماويون يدبرون العوالم تديرا محكما بنظام متقن ، وهم يستمدون ذلك من المقام الأقدس كما تستمد الحافظة والمفكرة ونحوها من الروح الإنسانية معارفها واختراعها ، إذ لولا أرواحنا ما كانت هذه القوى الآتية تحت سيطرتها ولا كانت معارفها ولأعمالها .

( ثانيا ) ملائكة أرضيون يدبرون الزرع والشجر والبر والبحر كما نرى الماسكة والهاضمة الخ والغدد المختلفة تفعل في أجسامنا أفعالا مختلفة وأطوارا متباينات وهي أقل منزلة من قوى الدماغ لأن تلك للعلم والتدبير وهذه للعمل وإحداث الآثار .

وما هذا الذي ذكرته إلا ضرب مثل « والله المثل الأعلى » فإذا ضرب الله لنوره مثلا بالسراج للعموم فما أسهل ، وما أبدع ، وما أجمل أن نبين لذوى العقول السليمة والحكام والعلماء في الإسلام قاطبة .

( ١ ) إن نفوسنا وأجسامنا وقوانا توضح هذه الآيات إيضاحا شافيا ، وأن وحدة النفس مثال لوحدة الله تعالى وإن كان الفرق شامعا بين المثل والممثل له كالبعد ما بين نور الله ونور السراج .

( ٢ ) وأن قوانا في الدماغ ضرب مثل للملائكة السماوية الحافين حول العرش .

( ٣ ) وأن قوانا الجسمية من البنكرياس والصفراء وأمثالها ضرب مثل للملائكة الأرضيين .

إذن ظهر بضرب المثل معنى قوله « وترى الملائكة حافين من حول العرش » في سورة أخرى ، وإياك أن تظن أن المشبه كالمشبه به ، فقول القائل (وجهه كالقمر) ليس معناه أنه هو نفس القمر أو أنه مثله من كل وجه ، فهذا أمر واضح هكذا هنا ، فإذا كانت قوانا الجسمية لا عقول لها مستقلة فالملائكة ليسوا كذلك فهم ذوو عقول مستقلة بها يدبرون ، ولكن لهم صلة برهبهم صلة القمر بالشمس يستمد منها .

هذا معنى كونهم حافين من حول العرش فهمناه فهما إجماليا ، وأما كونهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ، فهذا موضع الاقتباس . فإن قوانا المختلفة في الدماغ الآتية لها وظائف عامة من فكر وحفظ وذكر وهكذا لم تتركها أرواحنا سدى بل لها صلة بها ولن تكون أعمالها إلا على مقتضى ما وصلت إليه أرواحنا ، فليس حفظ ولا فكر ولا تذكريز يد مشابها كل الشبه لهذه الثلاثة عند عمر وومعنى هذا أن هذه القوى مستمدات الاستمداد التام من نفوسنا بدليل أنها مناسبة لها لا غيرها . فكذا نقول في الملائكة « والله المثل الأعلى » إنهم لم يكن لهم عمل إلا على مقتضى علومهم المستمدة من ربهم . ولذلك نجد النتائج منتظمة . فهم إذن عارفون بصفات الجلال وصفات الإكرام أى الصفات السلبية من أنه مخالف للحوادث ، وأنه لأول له الخ وبصفات الإكرام وهي صفات المعاني كالقدرة والعلم الخ والأولى تدخل تحت التسبيح والثانية تدخل تحت الحمد . فقول « يسبحون بحمد ربهم » دخل فيه العلم بالجلال والإكرام (وبعبارة أخرى) صفات التنزيه وصفات الإفاضة والحلق والرحمة .

ليس من المعقول أن يكون للسمع عالم الأصوات ، وللبصر عالم الأضواء ، وللذوق عالم الطعوم وللشم عالم الروائح وللمس عالم الحشن والناعم النخ ثم لا يكون للعقل عالم يناسبه وهو عالم كله عقول ؟  
 ليس من المعقول أن كل فعل من الأفعال الطبيعية له فاعل من جنسه كما تقدم في النبات وفي الحيوان من أن هناك ( الفطر والبكتريا ) التي تحلل المواد الأرضية لغذاء النبات والمواد التي في الأمعاء الغلاظ لإكمال الهضم كما تقدم قريبا ثم تكون آراؤنا وأفكارنا لم تستمد من عالم عقلي يشبهها ؟ إذن هنا ملائكة وهؤلاء هم الذين يمدوننا على حسب قوانا . وسيأتي إيضاح هذا المقام إيضاحا تاما في كتابي المسمى «مرآة الفلسفة»  
 أذكره عند آية «فاعلم أنه لا إله إلا الله» وهناك يزول ذلك الإشكال الذي بقي ٢٤ قرنا في أمر العقول والنفوس والمادة وعلاقتها بصانع العالم ، وقد وصلت بحمد الله لحل هذا الإشكال المعقد ، وسترى هناك مراتب الفلاسفة في العالم ، وكيف كان أفلاطون يقول بالمثل الأفلاطونية ، وكيف رد عليه تلميذه أرسطاطاليس بأن هذه المثل ليست محل المشكلة ، والصواب عنده أن العلوم مرجعها غير تلك المثل وهي الصورة القائمة بالمادة ؛ ولما جاء بعدهم قوم آخرون رأوا الخلاف عسيرا والحل صعبا . توقفت العقول عند هذا الحد . فتركوا الإلهيات واقتصروا على العلوم الأخرى . وسترى أن (سبنسر) الفيلسوف الانكليزي والاستاذ ستقلانه الفيلسوف الثلياني يقولان . «إننا بالنسبة لأصول الفلسفة أمثال هذه المسألة لا قدرة لنا على حلها . ونحن بالنسبة لأمثال سقراط ومن معه كالبقعة بالنسبة للفقيل .

وأنا أعلن المسلمين خصوصا والعالم الإسلامي عموما أن الله عز وجل قدمن على بالتوفيق في تلك الرسالة وسترى فيها طريقا غير طريق هذين الحكيمين خاليا مما ورد عليهما من الإشكال . فقد بينت لك هناك إثبات برهان وجود الملائكة ومعرفة الله بطريقة كطرق الهندسة يفهمها الخاص والعام من أهل العلم . وهناك ثبت عالم الملائكة بثبوتها هندسيا .

وفد تقدم في السورة السابقة في آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » بعض ذلك واضحا وتامه سيأتي في الرسالة المذكورة إن شاء الله تعالى .

وبناء على ذلك نفهم قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» فالعلم منه وهو يفيضه على الملائكة والملائكة يفيضون على الناس . فقوله تعالى «والملائكة يسبحون بحمد ربهم» راجع ذلك لاستمدادهم منه بالبرهان الذي ستره في (سورة محمد) عليه الصلاة والسلام والناس يستمدون من الملائكة . فاستغفروهم لمن في الأرض لن يتم لهم إلا لما نالوا من العلم بجلال الله وإكرامه . والناس من الملائكة يستمدون وهذه هي المنزلة الرابعة من المنازل المتقدمة .

فالمنزلة الأولى نظام العوالم . والثانية إدراك صانعه . والثالثة إدراك الملائكة . والرابعة العلماء في الأرض فهم يعرفون العوالم كلها ثم يفيضونها على الناس . ولهذا الإشارة بقوله «يوحى إليك وإلى الذين من قبلك» فالوحى هو القرآن وهذا هو حرف القاف (وبعبارة أخرى) « يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض» فهم يتبعون الملائكة حذو القذة بالقذة والملائكة يستمدون من الله .

هذا ملخص (حم ، عسق) فهي أربعة منازل : هي نظام هذه الدنيا وعقولها وعلومها وهيام القلوب بصانعيها ، وهل هذه المنازل الأربعة إلا أشبه بما جاء في (جمهورية أفلاطون) من المغارة والنار .

## حم . عسق . ومغارة أفلاطون

اعلم أن ماقررناه من المنازل الأربعة في ( حم . عسق ) هو نفسه الذي قرره أفلاطون في جمهوريته كما تقدم في هذا التفسير . ألم تر أنه تصور جماعة في مغارة وجوههم متجهة إلى مؤخرها . وأمامهم ضوء نار على ذلك المؤخر وهم مسلسون بحيث لا يرون ماوراءهم من النار التي تضيء وراء سور ، وهناك أناس يسرون وهم يحملون أنواعا من الحيوان والنبات والنار ترسم تلك الصور في مقابلة وجوه هؤلاء الذين في المغارة . وهؤلاء سموا هذه الصور بأسماء وقالوا إنها هي الحقائق بعينها . ثم إن أحدهم خرج منها وأخذ يتمرن على نور القمر في الماء وكذا النجوم ليلا ثم يراها بأنفسها ، يرى صورة الشمس في الماء ، ثم يراها بنفسها (وبعبارة أخرى) أنه أخذ يتدرج في النظر فأدرك أن هذه الصور التي على الحائط ماهي إلا آثار صور الحيوانات الحقيقية وأن النار نفسها ماهي إلا أثر من آثار الشمس . وبه تعرف الفصول والسنون والشهور والأيام . فإذا جعلنا الشمس بدل النار ، وجعلنا سكان الأرض بدل سكان المغارة ، وجعلنا النبات والحيوان بدل الصور التي على الحائط تم لنا المقصود وظهر المثل بأوضح معانيه ، وعليه تكون الشمس ضربت مثلا لله والنبات والحيوان يكونان على مقتضى عالم المثل الذي يقول به أفلاطون ، وسكان أهل الأرض كسكان المغارة . فهم جهال وليس يدرك الحقائق إلا أناس تركوا آراء الجمهور وبحثوا فعرفوا العلوم . ثم إن ذلك الذي خرج من المغارة وعرف الحقائق في مثال أفلاطون رجع ثانيا إلى إخوانه وقاسى الشدائد في تفهيمهم كما قاسى المشقات في تمرين عينيه على نظر الأنوار الحقيقية ، إذن هنا صعود من المغارة ؛ ثم تعلم ثم رجوع إلى من فيها وتعليم لهم .

أفليس هذا كله هو عين ( حم . عسق ) ارتقاء عن المادة ، معرفة بالله والملائكة ، ثم رجوع إلى الناس وتعليم لهم على مقتضى ما تتعلم .  
هذا هو معنى قوله «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض» فالحمد لله على نعمه الوافرة ؛ وآلائه الفاخرة اه .

## جوهرة في آية : الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان

### وما يدريك لعل الساعة قريب

إن المتعلمين أكثرهم نبذ الكلام على الآخرة والدين وإن ذلك تقدم في التفسير . وهذه أول مرة قام فيها رجل له همة وله احترام من المتعلمين بهذه الخطبة ، وهذه بشارة أزفها بأن الجو في متعلمي الشرق الأدنى أخذ يتغير إلى الأحسن بعد أن كانوا يحتقرون هذه الآراء ؛ وهذا الإحتقار أصاع بلادهم . وهاك نص الخطبة المذكورة .

## بأي ميزان تزن الحياة ؟

﴿ محاضرة الأستاذ توفيق دياب ﴾

ألقاها في ألف ومئتي مستمع

أخواتي وإخوتي :

ذلك السر الغامض الذي يبدأ بالميلاد وينتهي بالوفاة . ذلك السر الغامض الذي نسميه الحياة ، ونرى أنفسنا في غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء . ذلك البحر الحضم الذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطاً قصر أو طال ، نزعنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل ، هذه المعركة التي نساقي إليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين . هذه الحياة ما هي ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ؟ ولماذا نموت ؟

ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال في كلمة أو كلمتين . إذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة في كنهه الحياة . فقد يما كان ، وإلى اليوم مازال هذا السر الرهيب موضوع البحث والملح ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين . وليس عجباً أن يفكر الفلاسفة في مرمى الحياة ، وإنما العجب ألا يفكر في مرمى الحياة جميع الناس .

نولد أجنة وندرج أطفالاً وننشأ صبياً ونراهق فتياناً ونستوى رجالاً ونبليج الكهولة وتدركننا الشيخوخة إن قدر لنا أن نعر ؛ ثم ماذا ؟ ثم تحف الشجرة وتذوي الأزاهير ويتساقط الورق ، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فإذا نحن رفات . وذلك دون أن نفكر يوماً لماذا ولدنا ولماذا حينئذ نموت ، ودون أن نفكر من أين جئنا وإلى أين نعود ، وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم أو جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟

وأنت مع ذلك إذا أخذت سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك في غرفة لا عهد لك بها ، فلن تستقر على حال من الدهش ؛ حتى تعرف ما هذا المكان ومن ذا جاء بك إليه وكيف جاء بك ولماذا ؟ ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أية حديقة أو فناء تشرف ، ستفتح الباب فإن كان موصداً عاجته حتى يفتح أو ينحطم ، فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة ويسرة في ذهول وحيرة . ثم جعلت تطوف بأرجاء الدار متسائلاً نفسك أين أنا وما هذه الدار ولمن هي وفي أية مدينة؟ ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة هي أشبه ماتكون بالمرضات فتنبئك بأن هذه الدار (عافاك الله) مستشفى ، وإن إغماءة طارئة غشيتك تخاف عليك والدك فأسرع بك إليه ، حتى إذا بشر الطبيب أبك بأن الأمر هين لا خطر فيه . آثر لك الإقامة هنا أياماً إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سليماً معافى .

حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك إليه وما السبب؟ فإذا عرفت أن الغاية هي استشفائك بما بك ، لم يزدك علمك بهذه الغاية إلا أخذاً بأسبابها واستيفاء لشرائطها ، حتى يتم لك منها ما أراده والدك وما أصبحت تريده لنفسك .

هذا شأننا من الدهش والتساؤل إذا طوحت بنا الطوائح إلى مكان مجهول . فما بالناس تبعثنا إلى هذه الدنيا قوة خفية على غير قصد منا ولا اختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار ، نظهر ونختفي على

سطح هذا المحيط الهائل . كالفقاييع تنتفخ وتنفجر في مثل ملح البصر ، دون أن يأخذنا دهش يدعوننا إلى الحيرة والتساؤل والتفكير .

لماذا بعثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة إلى هذه الدنيا . ألقضى في هناها أو عنائها ، في صحتها أو مرضها في غناها أو فقرها ، في عدلها أو ظلمها ، في إختائها أو ولددها ، في رفقها أو جفائها ، أو في مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاما إذا طال بنا العمر .

وما ستون أو سبعون عاما في امتداد الأزل الذي لا أول له . وفي امتداد الأبد الذي لا نهاية له . إن العلماء ليحصلون السنين التي سلحتها الإنسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالألوف ، ويقدرون لها البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الإحصاء . فما أنا وما أنت ، وما نصيبي وما نصيبك في هذا السرمد الذي تحار فيه الألباب . ذرة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هينة من محيط مترام .

وإذن فما حياتك وما حياتي وما حياة هذا الجيل كله وما حياة الأمم الحاضرة كلها ، حتى نجعل موضوع هذه المحاضرة ( بأى ميزان تزن حياتك ؟ )

إن التاريخ المدون أو المكتوب لا يعد وستة آلاف من السنين . وهي التي شغلت أقلام المؤرخين ، وهي التي ظهرت فيها حضارات واخفت حضارات . وارتقت أمم وانحطت أمم ، وهي التي وقع فيها من الظالم والحروب ، وطغى فيها من الرق والاستعباد ، وتقلب فيها من العقائد والأديان ، واختلف فيها من طرائق الخير والشر ، وتعاقب فيها على الجماعات والأفراد من السعادة والشقاء . وأظلم فيها من الضلالات والجهالات ، وأضاء فيها من المعارف والعلوم ( ماتضيق عن الإحاطة به مئات الألوف من المجلدات ومئات الألوف من العقول . وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين . وما هي من ماضي الإنسانية المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب ، وما هي من مستقبل الإنسانية الذي لا تتراعى إلى حدوده عين الخيال ) إلا بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الأعوام .

إذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتي وعن ميزان حياتك وميزان حياتي . ما حياتك وما حياتي إذا قستها بهذا المقياس الخفيف . إنك لو نظرت إليها بالميكروسكوب لعز على الميكروسكوب أن يكشفها لمن ينظر إليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد .

ألا تصدق ؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذي عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين وسيعيش فيه أحفادك ملايين أخرى لا يحصيها المد ، إن لم يصطدم به جرم سماوي آخر فاذا أراضك هباء في مثل قصف الرعد أو خطف البصر ( ألا تعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هي شظية تطايرت من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر ، فحالت شرارتك في الفضاء حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسي واستحالت حصة ( مستقلة ذات سيادة ) .

أنا وأنت وهو وهي وهم وهن آحاد في عداد ملايين الأمة المصرية . والأمة المصرية إحدى العشرات الكثيرة من أمم هذا العصر . وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع إلى ماض لا يدرك الخيال مبتداه وتمتد إلى مستقبل لا يدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض وهذه الأرض شظية كانت ملتصبة تناثرت من الشمس فدارت من نظام الكون حيث تدور فماذا عسى تكون حياتي وماذا عسى تكون حياتك ، لاسيما وأنت تعلم أن نظامنا الشمسي ليس إلا واحدا من نظم كثيرة تماثله . لو أطلنا التفكير في كنهها وفي تلك القوة الخفية التي تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين في التفسير ، دون أن نزداد في تفهمها إلا ذهولا وحيرة .

سيداتي وساداتي :

هل تحتملون منى كلمة جريئة ؟ إذن تفضلوا فاسمعوها :

إذا كانت الحياة هي الأعوام الستون أو السبعون التي نعيشها في هذه الدنيا ، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هي التي بمثلنا الحكمة ، ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هي التي استدعتنا إليها الحكمة ، إذا كانت الحياة مصدرها العدم ومصيرها العدم ، إذا كان مولدنا في هذه الأرض مصادفة لم تقصدها قوة مريدة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، إذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية لا أقل ولا أكثر ، إذا كانت أيامنا في هذه الدنيا برزخا تعسا بين بلقيين : بلقع الماضي قبل أن نولد ، وبلقع المستقبل بعد أن نموت ، إذا كنا في هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة ، إذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التي نشاهدها أو نتحملها أو نكافحها في سبيل الإنسانية ، إذا كانت كل هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التي تسمو إليها الأمم جيلا بعد جيل ، إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد ( هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاما محدودة بحدين : عدم مطلق منذ الأزل وعدم مطلق إلى الأبد ما عدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين ) . إذا كان الأمر كذلك ، فما أحق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون . إن الانتحار أولى بهم وأجدر ، أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت . إن هذه الأعوام الستين التي يعيشها المرء في هذه الدنيا لا تساوي في ذاتها عضة الفقر ولا ذلة الحاجة عاما واحدا . إنها في ذاتها لتساوي برحاء المرض المعض نصف عام . إنها في ذاتها لا تساوي احتمال ظلم الظالمين ولا جبروت المتجبرين . إن المرء ليصادف في هذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى ما لا يحتمله إلا لشعور واحد ، هو أن الحياة سر قديم خالده . لا حياة الجماعة فحسب بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أو صغر ، جل في نفوس الناس أو هان .

إذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبقة بعدم منتهية إلى عدم ، إذا سألتهم لماذا يعيشون . قالوا نعيش طوعا لغريزتين : غريزة الحرص على بقائنا ، وغريزة الحرص على بقاء النوع . أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى في الطفل يتجنب السقوط من عل ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة . وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح في الأم تسهر على ذرايعها . والأب يعول أبناءه ، حتى ولو كانت الأم حيوانا أعجم .

ونحن نفهم هذا التعليل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء . فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز ، فقد كان الأولى بهم إذا لم يؤمنوا بأن الحياة الفرد اتصالا وثيقا بالخلاود كان أولى بهم أن يدركوا هذه الأعوام القليلة التي ستسلمهم عما قريب إلى فناء لا وجود لهم بعده . هذه الأعوام لا تستحق منهم عناء البحث والتنقيب في مظاهر كاذبة وزبارج باطلة ؛ ولا تستحق منهم هذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر والتعليل والتحليل والكدح بالليل والنهار للوصول إلى حقائق مهما تكن في نظرهم جليلة فهي تافهة مادامت هذه الخلائق الإنسانية والسادة العلماء في طبيعتها كائنات تافهة تظهر اليوم من ظلام العدم لتنتهي في الغد إلى ظلام العدم . كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء ، وأن يقولوا للناس فيم الكد وفيم العناء في سبيل غاية مقفرة مظلمة ، إلى العدم العاجل بيدك أنت أيها الإنسانية مختارة طائعة ، فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحمل بك العدم غير طائعة ولا مختارة .

يقولون إن حياة الإنسانية شيء وحياة الفرد شيء آخر ، حياة الفرد إلى العدم . فأما حياة الإنسانية فإلى البقاء ، لذلك يخدمون الإنسانية بالعلم والفن والأدب ، ليحيى الجيل اللاحق خيرا من الجيل السابق ، ولتجيب الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية ، وهذا في الحق سخف عظيم ، لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج ، أو مطايا وبرازع ، يعلوها في النهاية آخر جيل تتمضخض عنه الإنسانية ، فإذا استوى الجيل الأخير على قمة الجبل لم يكن مجده خالدا ، بل كان مجده زائلا كذلك ؛ ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم ألف سنة . ثم ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة ، وانتهت الدنيا إلى غايتها ، وفنيت حضارة الشمس ، وانطفأ ضياؤها ، واستحالت البحار جليدا والشجر والنبات هباء أمست الإنسانية عدما مطلقا إلى آخر نسمة فيها ، ولم يبق للإنسان المسكين حتى ولا الذكرى ، إذ من ذا يذكر الإنسان وقد انمحي من صفحة هذا الكون آخر إنسان . وانمحي لا ليسمو إلى عالم آخر ولكن ليبقى غريفا في غمرات الفناء ، خالدا فيها أبدا أبدين .

هل هذه إذن غاية الإنسانية ؟ هل غايتها أن تقضى مئآت الملايين من السنين لتنتضج جيلا واحدا هو الجيل الأخير . ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير ؟ أتعرف الساحر الذي يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف الثانية . والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتى تعد عشرات من اللعب يخرج بعضها من جوف بعض حتى ينتهي بك إلى علبة لا تتكاد تراها لضئولتها . ثم يوهمك بأن فيها قطرة من سائل هوماء الحياة . فاذا تناولها المتناول وأسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خر على الأرض فاقد الروح . تلك صورة فكاهية من الحياة الإنسانية كما يفهمها أولئك الماديون .

سيداتي وسادتي :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ هذا الإنسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التي تمتد إليها حياته في الدنيا . لسكن هذا الإنسان متناقض عجيب . أتذكرون أيامه الغابرة ؟ أيام كان يأوى إلى السكوف ويأكل الصيد نيئا . ويضرب في الغابات عاريا . ولا تتكاد تميزه من سائر الحيوان .

هذا الإنسان ما الذي هداه إلى ماهو اليوم فيه ؟ ما الذي صعد به إلى المستوى الذي بلغه في القرن العشرين معجزة القرون ؟ في الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها آفات وفيها عيوب . ولكنها عيوب الصاعد إلى المثل الأعلى رويدا رويدا ، ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضي وغرائز الأناية الأولى كل النجاة في ألف عام كذلا ولا في عشرة آلاف . قد يشن الحروب ويعتدى على الحقوق . ولكن لطيفة خفية تنزع به إلى السلام والانصاف بعد النزوع . له اليوم قوانين وشرائع إن طغت عليها يدالعدوان يوما . فان الجماعة كفيلة بردالحق إلى نصابه وإن كره المعتدون . له اليوم علوم قيمة وفنون جميلة وآداب أفسحت أمام عقله سبحات الهناء المعنوية . له تعاون على البر والاحسان . يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والاساءة . له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة . له طائرات في الجو وغائصات في البحر وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكاً برقية أو تلفونية أو لآتراها ، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات وتخفي عن النظرات .

وهو مع ذلك متناقض عجيب . ذلك الذي دوخ الأرض وسخر الجو والبحر ونفذ في الصخر وكشف من الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين في عداد المعجزات . ذلك الذي يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة فإذا هي أطلال . ذلك الذي كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم . وعرف مزاج بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره وقاس أبعادها وحدق حسابها حتى ليتنبأ لها بحوادثها وبجرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام . ذلك الذي اتخذ من الغاز سموما . ومن الهواء غذاء . ومن

حرارة الشمس وهدير الماء قوة مستعملة أو مذخورة . ذلك الذي أضاء الليل بثريات مكهربة فكأنها شمس وأقمار ، ذلك الذي يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه البدوي مناخ قبيلته على ظهر البعير . ذلك الذي كشفت له الأشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب فأصبح يرى ما لم تكن تراه العيون .

ذلك الإنسان تقتله البعوضة وتمرضه نسمة الهواء ؛ وتشرقه جرعة الماء . ويصرفه الهوى عن الجادة ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل ! ذلك الإنسان يعدل ويظلم ، ويقسو ويرحم ويتخذ العلم للخير ، فما هذه القوة وما هذا الضعف ؟ وما هذا النور الساطع وما هذا الخلك الدامس . وكيف يجتمعان ولأيهما الغلب آخر الأمر . وهل نستطيع أن نستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة ، والمظاهر المتناكرة حقيقة الحياة وغاية الحياة وميزان الحياة ! نعم وأبيك يجب أن نستطيع .

سيداتي وسادتي :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ نحن تلاميذ القوة العظيمة التي بعثتنا إلى هذه الدنيا يوم ولدنا . والتي تتوفانا يوم يحل الأجل نحن تلاميذها وهي تعلمنا من حيث لا نراها ؛ وقد أودعنا سرا يسميه الفلاسفة عقلا ، وتسميه الأديان روحا . وأنا لايمنى ماذا نسميه ، هو قبس من هذه القوة العظيمة وشعاعة من نورها وليس يولد إنسان إلا وينطوى على هذا القبس أو هذه الشعاعة كامنة ! وإنما توقظها تجاريب الحياة من ألم ولذة وحرمان وإحراز ومرض وصحة وإخفاق ونجاح ! فالألم يوقظ هذا السر السكينة ، ويروضه على النظر كيف ينجو من الألم . واللذة تبعث فيه حب الاستزادة فحب الحركة في سبيل إحراز تلك اللذة والحرمان يبعث فيه حب التحصيل والإحراز ، ولذة الإحراز تدفعه إلى طلب المزيد ، والمرض يعلمه التوق ويعلمه الصبر والجلد ، والصحة تشعره الهناء ، والإخفاق يغريه بالكدح ومعاودة العلاج ، والنجاح يزيد به همة وعزيمة .

كان هذا منبت الغرائز في الإنسان الأول ، ثم رأى ذلك التلميذ الناشئ على كر الأجيال أن في بعض لذاته إيلا ما لاخوته ، وأن في بعض سعادته شقاء لسواه . فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلا بين سعادته وشقاء الآخرين ، فانصرف قليلا قليلا عن الأنانية المطلقة ، ومازج تقديره شيء من العطف على سواه .

السر الدفين يستيقظ ، الشعاعة الكريمة ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة ، بذرة الإنصاف والعطف والغيرية تستحيل نبتة مزهر ، التلميذ يتعلم في مدرسة الحياة درس العدالة ، فيحاكي المعلم الأعظم الذي بعثه إلى مدرسة الحياة ، التلميذ يدرس منهاج الفضائل في مدرسة الدنيا مكرمة بعدمكرمة ، ومحمدة بعدمحمدة . أليس المعلم الأعظم كريما حميدا ؟ وهذا تلميذه أودع فيه قبسه لينقذ بزمام الحوادث والتجارب . أهى البسالة والإقدام ؟ إن المعلم الأعظم يعلو عن المخاوف فهو القوى المتين ! أهو الدأب والكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط . إن المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة والوهن ، أهو البر والإحسان ؟ إن المعلم الأعظم هو المحسن البار وهو ينبوع البر والإحسان .

وما من فضيلة ولا مكرمة الا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم . ولكن المعلم الأعظم لا يعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والإحسان إلا عن طريق الحوادث والتجارب ، فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاعة المعلم الأعظم في التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء ؛ وقبل الوفاء ساد القدر ، وقبل البر والإحسان سادت القسوة والجفاء .

وفي هذه المدرسة مازال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا ؛ وإلى جانب الأخلاق التي تروضهم عليها حوادث المدرسة ويقظة السر السكينة ، يتجه ذلك القبس إلى محاكاة المعلم الأعظم في العلم والقدرة والإرادة فلا

تفتأ الأشعة الأزلية الخالدة التي تصل قلوبنا بعظمته ، لا تفتأ تبحث وتنقب في أسرار هذا الوجود ، فتستكشف اليوم قانونا من قوانين الطبيعة وتستكشف غدا جوهرها من جواهرها الخفية ، حتى استطاع التلميذ بحركة من أصبعه أن يحيل العرفة المظلمة نورا وهاجا ، لأنه عرف سر الكهرباء ، فما كان بالأمس معجزة يرتاب في جوازها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوقة لا يدهش لها الأطفال .

واستطاع التلميذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الألسن وتسمعها الآذان ، هذا في جنوب المعمور وذلك في شماله من غير حاجة إلى أسلاك . واستطاع التلميذ أن يشارك الطير في ارتياد الجو فكان كل مخلوق في الجو مسلما . وغاص مع الأسماك في مساربها . وتبعها إلى مهابها .

ذلك أن المعلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته في العلم والإرادة والقدرة ، كما يريد لهم أن يحاكيوه في المحامد والمكارم ، أليس المعلم الأعظم قد يرعى كل شيء ؟ أليس فعلا لما يريد ، أليس يقول للشيء كن فيكون ، وها هو ذا تلميذه ، هاهو ذا سره وقبسه في هذه الدنيا الإنسان قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء ، وكثيرا مما نرى ولا نرى من قوى هذه الطبيعة العنراء .

سيداتي وسادتي :

إذن لا يرو عنكم أن تكونوا ذرات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار في هذه الدنيا ، إذن لا تستهينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما خلفكم منها حتى إذا رجعت الماضي إلى الأزل وامتد إلى الأبد ، ولا يهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشمس ، فكل واحدة منكم سيداتي ، وكل واحد منكم سادتي يحمل بين طواياه سر الوجود . هذه الأرض متفتحة . والشمس التي هي أصل الأرض متفتحة ؟ والنظم الشمسية على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصورا جديدة لإرادته لكن ذلك القبس الذي هو نفحة من روحه جلت روحه وعلت عن الأرضين والشموس والأقمار ، ذلك القبس الذي يصلكم به صلة أزلية خالدة لا تنفصم ، ذلك القبس هو سر الوجود .

فبأي ميزان تزن الحياة ، أميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والقصور والبنخ والمناعم والوظائف والمناسبات ، أم بميزان المحامد والمكارم والعلم والإرادة وكبريات الصفات التي تحاكي بها معلمك الأعظم ؟ نحن لا نحتقر الطيبات من الرزق ولا نبغض إليكم كسب المال وإنفاقه في سبيله الخيرة ، بل نحض على ذلك ففيه حفز للهمم وعود على النفس وذوى القربى وأهل الخصاصة بالمتاع الحلال . ولكن الأمر كل الأمر الذي أريد أن أذكر نفسي به وأذكركم ، هو أن كل مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات ، ومن مطاعم ومشارب ومساكن ، هي أدوات ووسائل لا بد منها ولكنها ليست غاية الغايات أذكر نفسي بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم لاغضا من الوسائل ولا صرفا لكم عن اتخاذ الأدوات ، ولكن لأنك لو أحصيت في زماننا هذا أولئك الأيقاظ الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ، لألقيتهم نورا يسيرا لا يبلغ عددهم فيما أحسب واحدا في كل ألف .

أولئك يزنون الحياة عامة ، ويزنون حياتهم خاصة بما تحوى جيوبهم من مال ، لا بما تحوى نفوسهم من خصال ، وبما يشغلون من مناصب لا بما يخدمون من مبادئ .

سيداتي وسادتي :

هذه الأرض مدرسة بعثنا إليها بديع السموات والأرضين . وهذه حقيقة الحياة ، حياة الأفراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هي أن نحاكي صفات المعلم الأعظم ، نحاكي عظمته في غير

صلف ؛ نحاسي رحمته في غير ضعف . نحاسي علمه وقدرته في غير زهو ولا نخار . نحاسي إرادته في غير تجبر ولا غرور .

سيداتى وسادتى :

في هذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم فمنهم المبرز ومنهم المتخلف ، فلا تعجبوا إذن لبعده ما بين الناس من تفاوت في الأخلاق والعزائم والعرفان ، لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ وأنهم لم يرسلوا إلى الحياة لعباً ولا لهواً . وأن معلمهم هو ينبوع النور والعرفان والفضائل في كل قلب مضى ورأس عامر بالعلم ونفس خفاقة بالشعر أو ببدائع الفن الجميل . حين يعلم كل ذى موهبة . وكل ذى فضيلة وكل صاحب اختراع وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة ، أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس المستمد من قوة الله حينئذ يبطل الغرور حياءً من الله . وتتضاعف المهمم مرضاة للمعلم الأعظم . ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكاة لصفات المصدر لكل عظمة من عظام الصفات .

\*\*\*

هذه هي الخطبة التي ألقاها الأستاذ توفيق دياب ونشرت في الجرائد . كتبها لأنها تمت إلى الحقائق بسبب (وبيانه) أن الناس قسمان : قسم لا يعرف من الوجود إلا الظواهر . وهذا القسم هو أغلب نوع الإنسان . وقسم يبحث عن حقائق الوجود . وهذه الخطبة ، تمت إلى القسم الثاني ، لسبب ذلك كتبها في هذا التفسير . وهل لك أيها الذكي أن أحدثك حديثاً عجيباً . إن هذه الخطبة ذكرتني بجوهرتين : الجوهرة الأولى أنها تقرب من كلام أفلاطون في جمهوريته في الكتاب الخامس : الجوهرة الثانية : أنها تقرب بعض الاقتراب بما خطر لي وملاً قلبي جمالا وبهجة وسرورا وانشر احاصباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الأولى في موازنة هذه الخطبة بآراء أفلاطون في جمهوريته

ترجع هذه الخطبة كلها إلى أن كثيرا من الناس لا يقيقهون إلا الحياة الحاضرة وهي في ظاهرها مسبوقه بعدم وبلحقتها عدم . فسواء أ كان اجتهاد الناس في الدنيا موجها لأنفسهم هم ، أم كان موجها لأبنائهم وأحفادهم ، أم كان موجها إلى مواطنهم ، أم كان موجها للأمم كلها ، أم كان موجها لأجيال سيأتون بعد آلاف آلاف السنين ، فهذا كله ما هو إلا وبال وسعى لغير فائدة ، فالوجود الذي يعقبه الفناء وجود خير منه العدم والفناء .

هذا ملخص الخطبة ، وعادة هذا الإنسان المتدين والملحد أنهم لا يفكرون على هذا الأسلوب ، وغاية الأمر أن المتدين يقول : « أعمل خيرا ليكون لي ثواب ، فأتمتع باللذات بعد موتي » أما أمثال هذه الآراء فإن عادة الإنسان في الأرض عدم خطورها بباله خطوراً يبعث على البحث ، وإذا خطرت يذرونها بلا بحث ويكتفون بدياناتهم التي نشأوا عليها وهم لا يفهمون منها إلا قشورها ، فهناك ما قاله أفلاطون في جمهوريته . إن هذا الفيلسوف كما تقدم كثيراً في هذا التفسير لا يرى أحداً يصلح لحكم الأمم إلا الفلاسفة ، ذلك لأنهم وقفوا على الحقائق فصاروا كأنهم خلفاء الله في أرضه ، وبهذه الخلافة يقلدونه في صنع ما هو كامل ويحفظون الأمم كما يحفظ هو الكون كله ، وعلى هذا أخذ يصف هؤلاء الفلاسفة ، ويدور محور كلامه على أمرين اثنين لا ثالث لهما ، وهما أن الوجود إن كان دائماً فالقائم به المتحقق به هو الفيلسوف ، وإن كان

الموجود غير دائم فالمكتفى به ليس فيلسوفاً لأن علمه متعلق بما ليس له دوام ، فهو يبني أساس عقله وعلمه على ما ليس بثابت ؛ فهو أشبه بمن يبني قصوره على شفا جرف هار ، أو على أرض بركانية يشور فيها البركان وقتاً بعد وقت ، أو كمثل من يركب الأسد ، فهو في جميع أحواله خائف يرتقب الهلاك وهكذا مصاحب الكاذب الخائن ، فهو في جميع أوقاته يرتقب غدره وإيقاعه في الهلاك وهكذا .

إن ما هو معدوم يكون تصويره جهلاً ، وما هو موجود دائم يكون إدراكه علماً ، وما يكون متردداً بين الوجود والعدم يكون إدراكه تصوراً ، فهو متردد بين العلم والجهل .

هذا إجمال كلامه وإن أردت يا صاح إلا الإفصاح ، فدونك الصور الجميلة والأنعام الشجية والقصور الفخمة والأطعمة اللذيذة والثياب الملونة والأشربة المفرحة والمزارع النضرة والبساتين الجميلة والممالك الواسعة التي يملكها الملوك ، والأرض الواسعة التي يملكها الأفراد ، وأمثال ذلك مما يعرفه جمهور الناس وهو شائع بينهم .

هذا كله موجود مشاهد ، والناس في الشرق والغرب قديماً وحديثاً لا يرون لهم سعادة ولا عزاً ولا مجداً ولا لذة إلا في التمتع بهذه وأمثالها ، فتجد الإنسان مفتوناً بمعشوق جميل ملك قياده كغادة هيفاء أو بنوع من الشراب يفتنى فيه أوقات فراغه ، أو قصصى يقص عليه أخباراً مسلية ، أو جوقة تمثل رواية غرامية ، أو السينما ( دار الصور المتحركة ) التي تعكس صوراً بهجة غريبة .

وبالجملة إن هذه كلها هي التي يفرح بها الناس ويظنون أن هذا وجود حقيقي وهذا خطأ . إن كل هذه مترددات بين الوجود والعدم . فمن وقف نظره عليها خانه عقله وأخطأه جده فإن هذه كلها لها وقت فيه تتغير ولا تبقى . فالقصور والبساتين والمزارع والغادات الفاتنات والصور المتحركات في السينما إذا أخذناها باعتبارها هي وأنها مقصودة لذاتها وأن هذا الجمال الذي فيها لا نطلب شيئاً وراءه فإن عقولنا إذن تكون في غاية الخطأ . والدليل على ذلك أن حياتنا محدودة . وكذلك وجود كل هذه المشاهدات التي فرحنا بها . إذن وجودها عدم وأى عقل يفرح بما ليس بدائم . العقل الذي يفرح بما ليس بدائم عقل مخبول . فهذه الصورة الجميلة التي سلبتني لبي وأخذت على مشاعري . وهذه الحديقة الجميلة . وهذا الملك الواسع . وهذه السلطة ، سيحصل أحد أمرين : إما أنى أنا أضعف عن التمتع بها بموت أو مرض أو غيرها . وأما أنها هي تزول أو تفارقني أو تأتي عوارض تحول بيني وبينها . فترى هذه العادة الجميلة أغرمت بغيري أو ماتت . وهناك ينقلب العشق مرضاً ولهما وحزناً . وهكذا يقول أفلاطون : كل هذه الأشياء مترددة بين العدم والوجود فالفرح بها والاعتداد بوجودها والوقوف عندها عدم عقل وضعف في البصيرة ، إذن ماذا يفعل هذا الإنسان المسكين الذي كله لا يعرف إلا هذا ؟ فقال : يتخذ هذه الصورة الجميلة ، وهذه اللذات المختلفة والقصور والدور والممالك والأبهة وسيلة للتوصل بها إلى إدراك أن هناك جمالاً مطلقاً ومسلماً كبيراً وعدلاً تاماً ونظاماً دائماً لا يعتريه الفناء ، ومعنى ذلك أن الفيلسوف يبحث بالطرق العلمية ويدرس جميع العلوم وجميع هذا الوجود . وتقوده تلك الصور الجميلة والنظم البديعة إلى ما وراءها من جمال دائم وملك واسع وماهذه إلا صور تشف عما وراءها : ويكون كل ما يصبو إليه الجهال من صور جميلة ومال عند الحكيم مذكراً ووسيلة لترقى عقله إلى جمال أتم وملك أوسع ولذة أكمل مع الدوام يلحظه بعقله ويعيش قرير العين بحيث إذا غاب ذلك الجميل أو غدر أو زال ذلك الملك أو المال فإن نفس الفيلسوف سعيدة . ذلك أن محبوبها لم يغب عنها . فإن محبوبها هو الجمال المطلق والملك المطلق . فأما هذه الصور التي ظهرت له فما هي إلا ظواهر مذكرات بما وراءها لاحقائق ، فأمثال هؤلاء الفلاسفة هم الذين يجب أن يقوموا بنظام الأمم .

أنا الآن أعتقد أنى قدمت لك أيها الذكي فكرة عامة عما يريد أفلاطون في جمهوريته ، وهذا القول الوجيز هنا يكفيك الآن .

فإذا عرفت هذا فهت ماقاله مترجم الكتاب في صحيفة ١٢٢ وهذا نصه: «الفيلسوف الحقيقي هو المغمم كل الغرام ، بالحكمة في كل فروعها ، وعلينا أن نميز في هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعى حب الفلسفة تدجيلا ، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتفى بدرس الموضوعات الجميلة مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد بل يتجاوز به إلى إدراك الجمال المطلق ويمكن وصف حال الأول العقلي بأنه (تصور) وحال الثاني أنه (معرفة حقيقية) أو (علم) فهناك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم . واللاوجود أو العدم الذي نسبته إلى الجهل نسبة الوجود الحقيقي إلى العلم . ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور . فنتنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهري . فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدعون محي الحكمة أو (فلاسفة) والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون محي التصور (لا فلاسفة) . وفهمت ماجاء في المتن . وأذكر لك بعضه في صحيفة ١٤٨ من الجمهورية إذ سأل سقراط غلوكون .

فلسقراط (س) ولغلوكون (غ) وهالك نصها :

(س) إن الراغب في تذوق كل أنواع المعرفة فيكب على دروسه بسرور ورغبة ولا يكف أن إنسانا كهذه بحق ندعوه فيلسوفا ألا ندعوه .

(غ) إن وصفك هذا يشمل عددا عديدا . ويضم طائفة مستهجنة ، ويحسبه كل عشاق الطلب فلاسفة لأنهم راغبون في المعرفة . وكذلك المنصبون على سماع القصص هم طبقة خاصة بين الفلاسفة . أعنى بهم الذين لا يشهدون محاوراة فلسفية . ولا غيرها من أنواع المحاورات على أنهم سامعون مواظبون لا يغيبون عن حفلة ديونيسية<sup>(١)</sup> في مدينة أو قرية . فكأنهم آجروا آذانهم للسمع لكل جوقة في وقتها ، أفنهب لهؤلاء لقب فلاسفة ولأمثالهم ممن لا ذباى نوع من الدروس ولأساتذة الفنون الصغرى :

(س) مؤكد لا بل ندعوهم فلاسفة زائفين .

(غ) فمن هم الذين ندعوهم فلاسفة حقيقيين ؟

(س) هم الذين يحبون أن يروا الحقيقة .

(غ) لا يمكن أن تخطيء في هذا ولكن هل تريد أن توضح ماتعنيه .

(س) ليس ذلك سهلا مع غيرك . أما أنت فتجود على بالتسليم الذي أنشده .

(غ) وما هو ذلك التسليم .

(س) هو فيما يأتي : لما كان الجمال ضد القبح فهما شيئان .

(غ) مؤكد أنهما شيئان .

(س) وإذا كانا شيئين فكل منهما واحد على حدة .

(غ) وهذا أيضا حق .

(س) ويتمشى هذا الحكم نفسه على العدالة والتعدى ، وعلى كل التصورات العمومية فكل منها شىء واحد ، لكنه يظهر متعددا باعتبار علاقاته المتبادلة بالأشياء والأعمال التي بها يتجلى في كل مكان .

(غ) أنت مصيب .

(١) أو مختالية : نسبة إلى باخس ، وهى حفلة شرب ومرح .

(س) واستنادا إلى هذا المبدأ أميز بين الدين وصفناهم الآن أنهم عشاق النظر والصناعة ومحبة الفنون ورجال العمل من جهة واحدة ، وبين الذين نحن في صددهم وهم وحدهم نسميهم فلاسفة في الجهة الأخرى .

(غ) أوضح ماتعنى .

(س) أعنى أن محبي النظر والسمع يعجبون بالجمل من الأصوات والأشكال والألوان والصور ، وكل ما دخلت في تركيبه هذه الأشياء من منتوجات الفن ، ولكن فهمهم يقصر عن إدراك كنهه الجمال واعتناقه .

(غ) نعم إنه كما تقول .

(س) أو ليس القادرون على التفكير الحر في الجمال المطلق هم قلائل .

(غ) حقا إنهم قلائل .

(س) فإذا أدرك امرؤ وجود الأشياء الجميلة ولكنه جحد الجمال المطلق وعجز عن اتباع من تقدمه إلى إدراكه ؛ أخلصها تحسب حياة إنسان كهذا أم يقظة ، تأمل أليس الحالم ، في يقظة أو في منام ، هو الذي يخلط بين الحقائق وبين الصور المنعكسة عنها .

(غ) اعترف أن امرأ كهذا حالم .

(س) وما قولك فيمن غايره ، ففهم الجمال المطلق ، وامتلك قوة التمييز بين هذا الجوهر وبين الأوساط التي يتجلى بها فلا يخطيء في حسابان المجال جوهرها ولا الجوهر مجالي ، أخلصها تحسب حياة هذا أم يقظة ؟

(غ) يقظة دون شك .

(س) أفلسنا مصيبين إذ ذاك ، في تسمية فعل الشخص الثانى العقلى معرفة لأنه أدرك الحقيقة ، وفعل سابقه تصورا لأنه تصور فقط .

(غ) غاية في الصواب .

(س) حسنا ؛ فإذا امتعض من سميناه متصورا لآعارفا ، وغضب علينا مدعيا أن ما قلنا ، غير صحيح ، فهل لنا من سبيل لتلطيف غضبه وإقناعه برقة ولين ، ساترين عنه حقيقة حاله ، وهى أنه ليس في حال الصحة .

(غ) ذلك أمر مرغوب فيه .

(س) فانظر فيما يلزم أن نقول له ، أنستحسن أن نحادثه مسلمين أنه لو عرف شيئا لما حسدناه على علمه أقل حسد ، بل كنا نسر بأنه كما يدعى ، ولكننا نقول له أجب عن هذا السؤال إذا عرف ذو الحجى فهل عرف شيئا أو لا شيئا أجب عنه يا غلوكون .

(غ) أجب أنه عرف شيئا .

(س) أموجود ذلك الشيء أو لا موجود ؟

(غ) بل موجود ، لأنه كيف يمكن غير الموجود أن يعرف .

(س) أفتثبتون نحن من هذه الحقيقة ، في أية صيغة نظرنا فيها أى أن الموجود حقيقة يعرف معرفة تامة ، أما المعلوم فجهول بتاتا .

- (غ) إنا متثبتون منها كل التثبت .
- (س) حسنا . فإذا كان هنالك شيء متردد في الوقت نفسه بين الوجود وبين العدم أفلا يوضع في رتبة متوسطة بين الموجود يقينا وبين المعدوم بتاتا .
- (غ) يلزم أن يوضع .
- (س) فإذا خصت المعرفة بالموجود والجهل بالمعدوم ، أفلا يلزم أن نجد حالة متوسطة بين العلم والجهل تختص بما هو متردد بين الوجود والعدم .
- (غ) يقينا .
- (س) أقول أن التصور شيء .
- (غ) بلاشك
- (س) أفنحسبه قوة متميزة عن العلم أم نحسبه العلم نفسه .
- (غ) هو شيء متميز عن العلم .
- (س) فنخص العلم بدائرة نفوذ ، والتصور بدائرة أخرى بطبيعة ما في كل منهما من قوة .
- (غ) تماما .
- (س) أفليست طبيعة العلم المختص بالموجود هي معرفة كيف وجد أولا ؛ وإلا فهناك فرق واضح يلزم تحديده .
- (غ) وما هو ؟
- (س) إن القوى . كمجموع قائم بذاته . هي ما نعمل به نحن ، وكل أحد ما يمكن عمله مثلا : إنى أدعو السمع والبصر قوتين . إذا كنت تدرك الفكرة الخاصة التي أروم أن أصورها .
- (غ) إنى أدركها .
- (س) فاسمع ما أراه فيها . لست أرى في القوة شكلا ولا لونا . ولا غيرها من الأعراض التي أراها في مختلف الأشياء . وبها أميز (أى بالأعراض) بين شيء وشيء ؛ أما في القوة فأعتبر وظيفتها ودائرة نفوذها وبذلك توصلت إلى تسميتها فأدعو القوى التي من نوع واحد وتعمل عملا واحدا . ولها وظيفه واحدة (قوى واحدة) ولكن القوى التي تختلف دوائر نفوذها وتتفرع وظائفها فادعوها (قوى متنوعة) فما قولك .
- (غ) هكذا بالتام
- (س) فأخبرني يا صديقي الفاضل في أية رتبة تضع العلم أتخسبه قوة .
- (غ) نعم أدعوه قوة : وهو أعظم القوى كافة .
- (س) وهل التصور قوة أو ندرجه في سلك آخر .
- (غ) لا آخر . لأن ما به تتصور لا يكون إلا تصورا .
- (س) وقد اتفقنا الساعه أن العلم والتصور غيران .
- (غ) وهل يجمع العاقل بين الخطأ والصواب .
- (س) أحسنت فنتفق في أن التصور شيء غير العلم .
- (غ) غيره .
- (س) فلكل منهما بطبيعته ميدان نفوذ خاص وتأثير خاص :

- (غ) الاستنتاج قاطع .
- (س) فميدان نفوذ العلم هو معرفة طبيعة الموجود .
- (غ) نعم .
- (س) وميدان نفوذ التصور هو (الظن) .
- (غ) نعم .
- (س) أفيتناول التصور حتماً وفعلاً مادة العلم . وبعبارة أخرى هل مادة التصور هي نفس مادة العلم . أو إن ذلك محال .
- (غ) إنه محال : بناء على ماقررناه أى أنه إذا سلمنا أن للقوى المتنوعة دوائر نفوذ مختلفة . وأن العلم والتصور قوتان متميزتان . وقد جزمنا بذلك ، فهذه المقدمات تجعل توحيد مادة العلم ومادة التصور محالاً .
- (غ) طبيعي .
- (س) فإذا كان الموجود مادة العلم فمادة التصور هي حتماً شيء آخر غيره .
- (غ) يلزم أن يكون غيره .
- (س) فهل يتناول التصور المعلوم ؟ أو أن تصور المعلوم غير ممكن إصالة . افترض من يتصور ألا يوجه أفكاره نحو شيء . أفيمكن أن يكون تصور في الاشياء ،
- (غ) غير ممكن .
- (س) فمن يتصور فقد تصور شيئاً .
- (غ) نعم .
- (س) ولكن المعلوم لا يدعى شيئاً بل هو لاشيء .
- (غ) بالتمام .
- (س) وقد الزمنا أن نخص الجاهل بالمعلوم والمعرفة بالموجود .
- (غ) وبالصواب فعلنا .
- (س) فموضوع التصور ليس الموجود ولا المعلوم .
- (غ) لا هذا ولا ذلك .
- (غ) فليس التصور معرفة ولا جهلاً .
- (س) أفيستقر وراء أحدهما ، فيفوق المعرفة يقينا ، ويفوق الجهل إبهاماً .
- (غ) يظهر أنه ليس كذلك .
- (س) فقل : آتخسب التصور أقل وضوحاً من المعرفة ، وأقل خفاءً من الجهل .
- (غ) نعم وهو متميز عن الاثنين كثيراً .
- (س) فهو إذاً بين هذين الطرفين .
- (غ) نعم .
- (س) فنتحسب التصور إذن شيئاً بين الاثنين .
- (غ) بالتمام .

(س) أو لم نقل الساعة إنه إذا بان لنا شيء أنه موجود وغير موجود في وقت واحد ، فيجب وضعه بين الموجود الحقيقي وبين المعدوم المطلق . فلا يكون إذن مادة علم ولا مادة جهل . بل هو مادة قوة نالمة بين العلم والجهل يجب اكتشافها .

(غ) قلنا ذلك .

(س) وقد اكتشفنا الآن قوة بين الاثنين دعوناها تصورا .

(غ) واضح أنا اكتشفناها .

(س) بقي أن نكتشف ما يشترك في الموجود والمعدوم ، وليس هو أحدهما بكليته فإذا ظهرت لنا ماهيته دعوناها بحق (مادة التصور) ناسبين للطرفين ماهو لهما ، وللوسط ماهو له ألتست مصيبا .

(غ) إنك مصيب .

(س) فإذا وضعنا هذه الفروض ، فإنني أسأل ذلك الرجل المعتبر الذي يذكر وجود شيء كلي ، أو أي صورة من صور الجمال المطلق ، التي تظل إلى الأبد كما هي غير قابلة للتغير ، مع أنه يعترف بوجود أشياء عديدة جميلة ، ذلك الذي يحب المنظورات ، وهو لا يحتمل أن يقال له إن الجمال واحد وأن العدالة واحدوهم جرا ، فأقول له ؛ ياسيدي العزيز أوجد بين كل الأشياء الجميلة شيء واحد لا قبس فيه ، وبين كل الأشياء العادلة عادل واحد لا ظلم فيه ، وبين كل الأشياء الطاهرة طاهر واحد لا دنس فيه .

(غ) كلا بل تظهر كلها بلا تخلف ، جميلة وقبيحة ، عادلة ومعتدية بارة ودنسة باعتبارين

(س) وأيضا . ألا يمكن اعتبار الضاعفات الكثيرة إنصافا علاوة على أنها مضاعفات .

(غ) تماما كما أنها أيضا مضاعفات .

(س) وجريا على الأسلوب نفسه هل للأشياء التي ندعوها كبيرة ، وصغيرة وخفيفة وثقيلة حق في أن تدعى كذلك أكثر من أصدادها .

(غ) كلا بل كل منها يمكن أن يدعى بالإسمين على السواء .

(س) فسيكون أقرب إلى الصحة إذا وصفنا كلا من هذه الأشياء بأنه قد يكون وقد لا يكون كما وصف

(غ) إنك تذكرني بأحجية التضاد التي تتلى على موائد الطعام (للتسلية) ولغز<sup>(١)</sup> الأولاد عن الحصى

الذي رمى الخفاس بما رماه به ، هو جاثم على ماهو جاثم عليه . لأن الأشياء المشار إليها فيها الغموض

نفسه فلا يمكن الإنسان أن يميز هل هي موجودة ، أو غير موجودة معا .

(س) أفيمكنك إفادتي ماذا تعمل بها ، أو هل عندك رتبة لها أفضل من الرتبة الوسطى بين الموجود

والمعدوم لأنها في مذهبي ليست أخفى من المعدوم لتكون أكثر عدما منه ، ولا أوضح من الموجود

فتكون أثبت منه وجودا .

(غ) إنك مصيب كل الاصابة .

(١) تقول الأحجية : قيل إن رجلا وليس برجل ، رمى ومارحي ، طائرا وليس طائرا جاثما وليس

جاثما . على غصن وليس بغصن . بحجر وليس بحجر . وهكذا وقد فسرت هذه الحكاية

نوعا في اللتين .

- (س) فقد اكتشفنا أن الأفكار الشائعة في الجمهور في العدالة والجمال وأخواتهما هي تأهية بين الوجود المطلق وبين العدم المطلق .
- (غ) اكتشفنا .
- (س) وقد سلمنا سابقا أنه إذا ظهر شيء من ذلك دعى تصورا لامعرفة . وإن ما يتراوح بين الأمرين يفهم بقوة متوسطة .
- (غ) قد سلمنا هذا التسلم .
- (س) ولذلك حين تقع عين الناس على شتى الأشياء الجميلة ، ولكنهم لا يقدر أن يروا الجمال بالذات ولا أن يتبعوا من يقودهم إليه . وحين يرون أشياء عديدة عادلة ولا يرون العدالة بالذات . وهكذا في كل مثل . فإننا نقول أن لهم في كل موضوع تصورا . لا معرفة حقيقية في الأشياء التي يتصورونها .
- (غ) الاستنتاج ضروري .
- (س) ومن الجهة الأخرى . ماذا يجب أن نقول في أولئك الذين يفكرون في الأشياء على ما هي في ذاتها كائنة دون فناء ولا تغير ؟ أفلا نقول إنهم عارفون وليسوا متصورين .
- (غ) وهذا أيضا استنتاج ضروري .
- (س) أفلا نقول أن هؤلاء يعجبون بمواضيع المعرفة ويحبونها وأولئك يعجبون بمواضيع التصور لأننا لم ننس أننا قلنا إنهم يحبون ويطلبون الأصوات والألوان البديعة ونحوها من الأعراض ولكنهم لم يسمعوا بوجود الجمال المطلق .
- (غ) لم ننس .
- (س) أفنخطيء إذا سميناهم محي التصور . بدلا من تسميتهم (فلاسفة) أو يستاءون كثيرا إذا أسميناهم كذلك .
- (غ) كلا إذا قبلوا رأيي . لأنه من الخطأ أن يسوءنا الحق .
- (س) فالذين يحبون الوجود الحقيقي . في كل موضوع لاندعوا محي التصور بل فلاسفة .
- (غ) نعم . من كل بد . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

### الجوهرة الثانية

في ذكر ما خطر بقلبي وملأه جمالا وبهجة وسرورا صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ . ذلك أني بينا أنا بين اليقظة والنوم صباحا إذ تجملت لي هذه الدنيا بهيئة جميلة . وازينت بزينة بهجة بديعة . وخيلت لي الأرضون والسموات وما بينهما بهيئة غير ما أراها ببصرى . وهذه حال يعجز قلبي عن التعبير عنها . فما أسرع خاطري للتفكير فيها . وما أبهج قلبي بمشاهدة مناظرها الخيالية فهناك هناك خيل لي كأن قائلها يحدث عقلي ويقول : «يا عجباً لهذا الجمال المصون عن الجهال . إيه أيها الإنسان . إيه يا أهل الأرض ، واهالكم ، هذه الشمس وهذا القمر ، وهذه النجوم ، وهذه الأنوار مرسلات اليكم وأتم لاتبصرون . لا لا ، أنتم أرواح من الطراز الضئيل ، يظهر أنكم كنتم في عالم غير هذا ولم تصلحوا لقيادته

ولا لسيادته ، فأقصيتم عن المكان الرفيع ، وأنزلتم إلى هذا المكان ، أصلكم شريف ، أتم من علم أعلى أتم من نور ، أتم من أصل كريم ، أتم نور من الله ، ولكنكم ضعفت عن أن تسيروا على سننه فكانت هيئتيكم كهيئة ماتعافونه من قمامات المنازل ، وماتسمدون به الأرض من كل مالا يصلح لغذائكم ولا انتفاعكم فأتم يجعلونه سمادا لزرعكم فيكون الحب والخضر والفاكهة : إن السماد من مادة النبات والجاهل يحقره ، ولكن العالم الدارس يرى المادة واحدة ، ولكن السماد تنزلت مرتبته عن الفاكهة ، فما هي إلا شهور معدودة فيزول وصفه القديم ويكسب وصفا شريفا يؤهله أن تقبله نفوسكم ، فنفوسكم شريفة من العالم العلوى ، ولما عجزت عن أن تسير على القانون الإلهي أنزلت إلى هذه الأرض ( وتشير لذلك قصة آدم ) والقانون الإلهي يرجع إلى أمرين اثنين . وهما حب العلم ، وحب الأمم . الله لا حد لعلمه ، ولا حد لإنعامه على مخلوقات ، ولكن أرواحكم لم تقو على السير على سننه فأرسلت إلى هذه الأرض . ومن درس هذه النفوس البشرية اعتراه العجب منها . ذلك أنه يجد أنها مجبولة على حب ذواتها تريد أن تجعل العالم كله خادما لها . وجميع السحرة في هذه الأرض وكل رجال السياسة هم والشحاذون على حد سواء كلهم يريدون أخذ مال الغير بسهولة أى يريدون أنفسهم لا غير . فالساحر وقارىء العزيمة ورجل السياسة الذى يحكم الأمم لمجرد شهوات أمته لا لرقى تلك الأمم . كل هؤلاء قوم شحاذون أو لصوص أو قطاع طرق ، بل كل شيوخ الدين ورجال الصوفية ( غير الصادقين ) أى الذين يحبون الشهرة لا غير أو جمع المال فهؤلاء وهؤلاء كلهم شحاذون وقطاع طرق ولصوص .

وبالجملة كل من لا يريد إلا نفسه فإن نفسه لا تزال ضعيفة ، لا فرق في ذلك بين الفرد وبين الأمة وبين السوقة والملوك ، فهؤلاء جميعا لم يخرجوا عن أنهم في هيئة أطفال ، فشيوخهم وشبانهم وكهولهم كأطفالهم على حد سواء .

خلقت هذه الصفة في الإنسان في حال صباه ، وألهم أن يسعى لرزقه ويكد ويكدح ، وفي أثناء ذلك قرأ العلوم وعرف الصناعات ، كل ذلك لشهوته الخاصة لأن روحه لم تقدر على أكثر من ذلك ، ولكن بعض هذا الإنسان في أثناء بحثه تظهر له أنواع الجمال والعلوم فيقتنع نطاق عقله يوما فيوما فيرى شمساً وأقماراً وأراضى ومعارف وأما ، ويرى دائرة وجدانه تتسع فيرى زوجة وولداً وعشيرة وقرية وأمة ، فيحس في نفسه بحب واتصال بهؤلاء ، فكما اتسع وجدانه زاد إحساسه بهؤلاء ، فلا يزال الإنسان في استكمال قواه حتى يصبح فيجد نفسه يحب سعادة جميع نوع الإنسان ، وأن يكونوا أمة واحدة أو ما يشبه ذلك بقدر الإمكان .

هذا من حيث العمل ، أما من حيث العلم فإنه يرى هذه العوالم كلها جنته وسعادته ، فيكون مغرماً بالعوالم كلها فهما وبصيرة لا تمتعاً زائلاً ، هنالك تصل هذه الأرواح الأرضية إلى عالم أرقى من هذه الأرض وتقرب من ربها وتكون رياضتها في أرضنا مشابهة بعض المشابهة لما يحصل في القمامات المزدرة في الأرض من انقلابها تقاطعاً وموزاً وتمراً .

وها هنا أخذ يقول وأنا أسمع : « هذه الأرواح الأرضية يحيط بها الجمال وهي لا تعقله ، شمس وأقمار وأرضون وأنوار تحيط بهم أفلا يعقلون ! ها هنا رحمة لا حد لها ، وجمال لانهاية له وعناية تامة تحيط بكم ، والدليل على رحمة الله القى لا حد لها وعلمه وعنايته أن نفوسكم مع قصورها وضعفها واقتصرها على لذة نفسها وما ينفعها في حياتها وتغاضيها عن منفعة الآخرين أحيطت بكل جمال وكمال من أنوار الكواكب والأقمار والشموس والهواء والماء والعلماء والنعم ، ولما كانت لضعفها . لا تقوى على النظر إلى وجه ربها ، وهو لشدة رحمته لكم

ونعمته عليكم يحب إنكم ترونه لتبتهجوا به لأنه كريم أراكم صوراً جميلة وبث زينته في كل مكان ، وأودع في قلوب الآباء والأمهات رحمة ، وفي قلوب الملوك والحكام غيرة على ممالكهم بالمحافظة عليها ، وفي قلوب المرين والأساندة والأمهات والمراضع عطفًا وشفقة على من يقومون هم بتربيته أو تغذيته ، وعمم الرحمة في كل حيوان كل ذلك إن هو إلا مظاهر لجماله ولرحمته ولعنايته ولعلمه ، أرسلها لهذه الأرواح من وراء حجاب لما عجزت نفوسكم أن تنظر إلى ربها فعلا ، ومن الرحمة العظيمة أن الصور الجميلة لا تبقى على حال واحدة وهكذا الأمهات والآباء وكل ما تملكون ، فهذه كلها تسلب منكم ولا تبقى ، فإله يقول لكم : « يا أهل الأرض . فهمم عطف الأمهات وعشق العادات والتمتع باللذات والمناظر السارات . ها أناذا أريتكموه ولكن أسلبه منكم رحمة بكم لتفكروا ، أهذا المنعم به المسلوب منا هو الذي تقر به عيوننا ، أم هناك ما هو دائم ثابت نفرح به بلا انقطاع » فبين الإعطاء والمنع يكون التفكير ولا وصول لكم إلا بهذا . أنا سلطت بعضكم على بعض وكل يحارب الآخر أفراداً وأماً . وفي أثناء ذلك تحدث المعرفة فيعرف الغربي الشرقي والعكس . ذلك لأن نفوسكم خامدة ولا وسيلة لإنعاشها بحسب ضعفها إلا بأن يقال لها حاربي لتغنى . وهامى ذه الحروب الصليبية جرت مغنم العلم والمعرفة وبها عرف الصليبيون علوم المسلمين مع أنهم جاءوا لإبادتهم . هذه الحرب العظمى وضعت لإشباع الشهوات ولكن أعقبتها منافع عامة ككثرة الكلام في السلام العام وكرتقاء فن الطيران . وبعض ما استعمل للحرب أصبح نعمة في السلم مثل الآلات المهلكات المستخرجات من نفس (الأوزوت) الذي هو أحد عنصرى الهواء فإن ألمانيا حولتها بعد الحرب إلى سماد . وللحرب الفضل في انتشار هذا الاختراع . كل هذا ناتج من قصور هذه الأرواح فإنها مجبولة على حب النفس وتجهل غيرها ولكنها هذه الآتانية استخدمت وسيلة للمنفعة العامة . هذه أخلاق هذه النفوس . فسياسة الأمم العامة هي بعينها سياسة الله في الأجسام . فالمرء يأكل للذته وإزالة جوعه ، ولكن المقصود بقاء حياته . ويقرب الأثني لمجرد اللذة ولكن الحكمة العامة تريد الولد لدوام نوع الإنسان .

فنتيجة هذا كله أن النفوس الأرضية لما ضعفت عن اللحاق بالأرواح الإلهية من حيث عموم العلم وعموم الرحمة وعموم الجمال ، تجلى الله لها بالجمال في عوالم تناسبها كالأقمار والشموس ، ونسبة جمال هذه العوالم إلى جمال مبدعها كنسبة ضوء أنوار الشمع والبترول إلى ضوء الشمس ، ونسبة هذه العوالم إلى كمال مبدعها كنسبة الساعة التي نعرف بها الوقت إلى الشمس العظيمة التي تدور أرضنا حولها وتنظيم الأوقات العامة .

الإنسان معمور في الجمال ، وفي الكمال وفي العلم ، وهو لضعفه قصير النظر والله لعطفه وكرمه يأخذ بيده والإنسانية كلها سائرة إلى هذا الخير في عالمنا وفي عوالم أخرى إلا ما شاء الله . كتب صباح يوم الأحد (٦) رمضان سنة ١٣٤٩ هـ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٣١ م

### هذا كله سر من أسرار القرآن

مخبوء في حرفين : حاء ، وباء

وما إن كتبت هذا العنوان حتى حضر صديق العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : ما هذا العنوان ؛ أتريد أن تقول أن ما ذكرته أنت وما ذكره الخطيب المصري من أمر النفوس الإنسانية وأن الحياة التي لها نهاية لا تستحق العناية وهكذا ما ذكر أفلاطون أن كل ما لابقاء له من الصور والمتاع لا قيمة له أتقول إن هذا كله في حرفين اثنين في القرآن وهما حاء وباء ، وإني أخاف أن أحدا ممن يسمعون هذا أو

يقراءه من المسلمين ( لا أنا طبعاً ) يقول إن هذه مجازفة وإغراق ، فأى حرفين في القرآن يفيد أن هذه المعاني ، وأى حاء وباء تريد . إن هذا القول أمره عجب . فقلت : أيها الأخ المفضل ماذا جرى ، لعلك اليوم فعلت ما يفعله بعض الناس إذ يسمع « لا تقربوا الصلاة » فيقول الصلاة منهي عنها ، أفلا تصبر حتى أخبرك الخبر بعد المبتدأ . فقال : ولكن هذا العنوان نفسه هو الذي حفزني أن أقول هذا القول لأنه عنوان غريب ، وأنا مشفق على التفسير أن يطعن فيه الطاعنون . فقلت : ها أنا ذا أشرح لك أيها النبي ما تريد ، أتذكر آية إبراهيم في الأنعام . قال نعم . قلت ماذا فيها ؟ فقال إنه أيقن بالله ، وهذا الإيقان بسبب أنه ظن أولاً أن الله هو الكوكب ، ثم لما أفل قال أنا لا أحب الآفلين ، ولما رأى أن القمر أبهى من النجم قال هو ربي . ولما أفل أظهر الحيرة تعليماً لقومه ورجع إلى ربه ، ولما رأى الشمس بازغة فعل كما تقدم ، ولما أفلت وجهه وجهه لله ، هذا هو ما خصها . فقلت له : ألم تعترف أثناء هذه القصة التي ذكرتها على هذا السر فقال : وأى سر أهو الحياء والباء ؟ فقلت إى ربي . فقال : أى حاء وباء ؟ فقلت : ارجع وفكر في الآيات فقال : لا أرى شيئاً . فقلت : ألم تعلم أنه نفى الإلهية عن الكوكب وعن القمر وعن الشمس لأنها متحركات والإله لا يتصف بالحركة لأن ذلك فعل الحادث ، ولأنها غابت بعد الظهور ، والإله لا يغيب بل معنا أيما كنا وما يغيب لا يكون إلهاً ، فاللوهية يناقضها الحركة ويناقضها غيوبتها . فقال : هذا حسن ولكنه لم يأت بالفائدة المرجوة وهي بعيدة عما تريد أن تبرهن عليه . فأين الحياء والباء ! فقلت : أنا أتركها لبحثك أنت لأن العلم إذا جاء عفواً لا يفيد ، والرزق كذلك ، بل نفس الآية معناها أن معرفة الله إذا جاءت عفواً لا تثبت لها ، وإلا فلماذا نرى إبراهيم يفكر في الكوكب فالقمر فالشمس ! أليس هذا معناه البحث ، فأنا أفعل معك ما فعله الله مع إبراهيم وإذا كان إبراهيم نبياً وعمول هذه المعاملة تعليماً لقومه أفلا أعاملك أنا كذلك ؟ فلتبحث أنت عما رمزت لك به . هنالك أخذ يكرر الآية مراراً ويقول : « الحياء في ( حنيفاً ) ولكن أين الباء ، والحياء في ( حاجه ) ولكن أين الباء ، والباء في ( إبراهيم ) ولكن أين الحياء ، ثم رجعت ثانية وقال ، أهما مجتمعتان أم مفترقتان ؟ فقلت ففكر بعقلك ولا تسألني ، وأضع زمناً قال : نعم ( لا أحب الآفلين ) فقلت نعم . فقال : أنا والله إلى الآن لا أفهم في « لا أحب الآفلين » معاني تتضمن كلام أفلاطون وكلامك وكلام الخطيب المصري ، فإذا تفضلت بشرح هذا المقام كنت لك من الشاكرين ، ويشكرك المسلمون بعدنا أجمعون . فقلت : أيها الصديق : إن إبراهيم لما رأى الكوكب والقمر والشمس كان عند كل واحد منها يقول في نفسه انه مسخر مقهور لأنه متحرك وهو يغيب ويحضر والإله لا يكون كذلك . قال نعم . قلت : فكان مقتضى الظاهر أن يقول أنا لا أعبد الآفلين لأن المقام مقام العبادة ، ألا ترى أنه قال « هذا ربي » ولما رأى أنه لا يستحق الربوبية حصل له شك فيه بل إنكار ، فمقتضى الظاهر أن يقول مثلاً « هذا ليس ربي » لأنه على خلاف صفات الرب وإذا لم يكن ربي فلا أعبد ، فهو قال هذا ربي ، وعند الإنكار يقول هو ليس ربي ويلزم من ذلك انه لا يعبد فهو لم يقل هذا ولا ذاك ، ولكنه عبر بعبارة عجيبة وهي أنه نفى الحب عمن لا يتصف بصفات الرب ، وهذا هو السر ، فقوله « أحب » المنفي بلا مشتمل على أربعة حروف الهمز وهي زائدة والحياء والباء مضاعفة فرجع الأمر إلى الحياء والباء . فقال : أنا فهمت الآن ولكن لم أصل للمقصود . فقلت : نعم سأوضحه .

اعلم أيها النبي أن العابد إما أن تكون عبادته من أجل الرهبة ، وإما أن تكون عبادته من أجل الرغبة ولم يكن عابد في هذه الأرض يعبد الله إلا لأحد أمرين : إما أنه خائف من الله لئلا يدخله جهنم ، وإما أن يعبده لأنه طامع في دخول الجنة ، أو لمجرد الحب . فالعبادة إما لحوف وإما لرجاء ، فلا عبادة إلا

على هذا النمط وخير الجميع أن يعبد حبا له وغراما به وشوقا إليه وعشقا له ، وهذه العبادة هي المبنية على الحب ومستحيل أن يحب الإنسان أحدا إلا بعد معرفة أعماله وصفاته فيعشقه . قال نعم هذا التفسير كله على هذا النمط . فقلت فكل عابد في الأرض لا تكون عبادته إلا عن رغبة أو رهبة ، وعبادة العابد الذي أحب ربه أحد قسمي الرغبة . فقال نعم . فقلت : إذن المذكور في الآية من أحد شقي سبب العبادة وهو الحب والعبادة فرع الاعتقاد في الربوبية . فقال حسن . فقلت : هاهنا وصلنا إلى المقصود . فانظر رعاك الله إلى ما أقول : أليس ترى أن كل ما تقدم من كلامي وكلام أفلاطون وكلام الخطيب المصري راجع إلى أمر واحد وهو أن مالا بقاء له ولا دوام يحب علينا أن نحقره وأن هذه الحياة الدنيا القصيرة ليس من المعقول أن تكون لها قيمة عند المقلد أصلا إذ لم يكن لها دوام ، وهذا هو قول الخطيب المصري المقدم ، واستنتج من هذا أن الحياة تدوم وإلا كان كل هذا عبثا ولهوا وجهالة . فقال بلى . فقلت : ألم تر أن كلام أفلاطون يرجع برهانه إلى أن العقول الصغيرة تتقف عند ظواهر الجمال والمال والزينة ، وحقر هذا كله وحكم على أكثر عقول الإنسان أنها خاوية جاهلة إذ تظن أن هذه الصور الجميلة والأغاني وكل ما في هذه الأرض من زينة محل للتمتع ومناطق السعادة وهي كلها ذاهبة ، وكيف يفرحون بما لا يثبت له ، ثم أفاد أن ماله ثبات وهو الجمال المطلق الثابت الذي لا تدركه الحواس وإنما يدركه العقل هو الذي إليه تتجه الهمم والعقول فقال بلى والله . فقلت إذن الحياة التي لا بقاء لها لا يصح أن يحب ولا يبول عليها ، وكل ما هو جميل أو نافع ثم هو آفل وذاهب لا ينبغي أن يكون محط الرحال ولا هو مناط الآمال . قال نعم . قلت : أليس هذا كله معناه أن المحبوب الحقيقي هو الذي يبقى فقال بلى . فقلت إذن ثبت أن العلم والحكمة أثبتا إثباتا حقيقيا لا تشوبه شائبة أن كل هذه الحياة الدنيا وكل صورها لا ينبغي أن تكون مقصودة لذاتها بل مقصودة لغيرها ، وذلك الغير هو الذي يحب وتكون هذه المحبوبات الوقتية مذكرات بالمحجوب الدائم ، وهذا المحجوب الدائم يعبد لحيته هو لاجئ أونا . إذن أصبح هذا النوع الإنساني بعد برهين الفلسفة التي خضعت لها جميع حكما ، أوروبا والشرق وهي فلسفة سقراط وأفلاطون وما يوافقها من كلام غيرها ، كله إلا قليلا وإياها في أمر المحبة ؛ فالمحبة التي على غير هذا النمط محبة جاهلة . فقال نعم فقلت : إذن قد وصلنا إلى المقصود وهو أن التعبير بقوله « لا أحب الآفلين » قد حوى تلك المعاني . فإذا كانت حياة الناس على الأرض ليس لها إلا هذه المدة الوجيزة ثم تنفض فهي حياة لا تستحق الاهتمام فلا يصح الحرص عليها لأنها لا تستحق الحب ، وهذا كلام الخطيب المصري ، وإذا كان كل ما في هذه الدنيا من المال والولد والصور الجميلة ، وما نملك من عقار ومال ومتاع ، وما نسمع من الألمان ، وما نستلذ به من أنواع المشمومات والمدوقات والمهوسات والمسموعات والمنظورات ، جميعه متغيرا لا بقاء له وما لا ينبغي للمعاقل أن يحبه بل يحب سببه الدائم الذي يعرف بالعقل لاهو كما يقوله سقراط ، أقول : إذا كان كذلك أفليس هذا هو معنى « لا أحب الآفلين » أي أن ما يغيب وما لا يبقى لا يصح حبه ، فقال الله أكبر . الله أكبر جل العلم وجلت الحكمة . وهنالك اعترته دهشة وقال والله لم يكن ليخطر لي أن هذه المعاني يحويها القرآن وهذه أسرار غريبة ، هذه أوروبا وهذه أمريكا وهذه الأمم حولنا يعظمون سقراط وأفلاطون ويتخذون الجمهورية نبراسا لهم ويقرونها بوابا لتربية الجيوش والأسرات ويقدمونها ويقولون إن الله لم يخلق مثلها في العالم الإنساني . فهذان المقدسان عندهم الماظمناهما اللذان أتيا بهذه النظرية أي نظرية الحب وأنه لا ينبغي أن يكون لغير الباقي وهذه شملت كل ما جاء في الجمهورية وهانحن أولاء وجدناها في معنى الحب . ثم أخذ يقول : فليحضر علماء البلاغة قديما وحديثا وليقولوا ماشاءوا ، فهذه هي البلاغة ، وهذه هي الحكمة وهذا هو العلم . الله الله الله ، هذه هي المعجزة التي لا نظير لها .

أيها المسلمون : انظروا فلسفة أفلاطون وسقراط . وملخص الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون دخلت في القرآن بل في حرفين اثنين .

يا إخواني أبناء العرب أبناء مصر وبلاد شمال أفريقيا وسوريا والعراق والموصل ونجد واليمن تعالوا انظروا ديننا ، انظروا قد حوى جميع علوم الأمم ، ها نحن أولاء نرى حرفين ابتلعا أعظم الفلسفة .

لتشعروا عن ساعد الجد ، ولتدرسوا علوم المشرقين وعلوم المغربين ، ها ها ، ها أنا ذا عرفت ، عرفت ما يشيع على الألسنة أن القرآن فيه علوم الأولين والآخرين ، فذلك من هذا الوادي يكون ، فإذا سمع المسلم « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » علم أن كل العلوم مطلوبة ، وإذا بحث وفكر في عجائب العلوم استخراج جزئياتها من بعض الكلمات أو الجمل ، اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة . فقلت الحمد لله الذي أقر عينك ، عرفت أني ما كتبت عنوان المقالة مجازفة أو غلوا أو إغراقا ، فأنا كنت في أول حياتي أشك في كل شيء ، فكيف أكتب مالا أوقن به أو ماليس مبنيا على برهان .

هنالك ذرفت عيناه بدموع الفرح . وقال : أريد أن تفيض بعض القول في عوالم السموات وجمالها . فقلت ياسبحان الله ، إن هذا الكتاب أ كثره في عالم السموات ، فقال ولكن لماذا نسمع الله يقول في آية الكرسى ( بعد ذكر السموات والأرض ) « وهو العلى العظيم » . فقلت : حسن . اعلم أن هذه من الأسرار التي تجلت للخليل عليه السلام وهي تتجلى لبعض النفوس الشريفة الإسلامية ، وذلك أن الإنسان إذا فكر في النجوم واستحضرها بخياله - لاسيما إن كان دارسا لعلم الفلك ، وقد درس قبل ذلك العلوم الرياضية التي تعرفه عجائبها - تحدث في نفسه روعة وإعجابا ويحس بحالها ورفعتها وعلوها وعظمتها ، فيقول في نفسه [ إن خالقها على عظيم وجميل أيضا ] ، فالعلم والعظمة ذكرت في آية الكرسى تذكيرا بما يخطر لافكرين من العقلاء فضلا عن الأنبياء . فقال : وهذه أيضا من أسرار البلاغة التي لم يعلمها أحد قبل هذا الزمان . ثم قال : ولكن هنا أمر يؤسف له . لماذا لا نرى في النوع الإنساني أثرا عظيما يحب الله المذكور في الآية « يحبهم ويحبونه » و « لا أحب الآفلين » فإن مقتضاه أن الإنسان يحب غير الآفل وهو الله ، وهذا الحب قليل أو ضئيل ؟ فقلت : أيها الحبيب . أ كثر الناس في هذه الأرض يحبون ربهم ، وهذا الحب غير واضح لهم وعلى قدر اكتناه العجائب يزداد الحب ، إن حب الله مغطى بألف غطاء ، فإن الشهوات والآلام والعداوات والأمراض والحسد ، كل ذلك قد غطى على هذا الحب ، ولو ظهرت هذه العجائب للناس لتقطعت قلوبهم من العشق والحب ، كيف لا ونفس الجسم الإنساني لا حد للكمال الذي فيه ، وهذه النفس الإنسانية العجيبة ، هذه التي جعل هذا المخ لها مزرعة تزرع فيه أنواع العلوم والمعارف وفي كل منطقة من مناطقه يزرع علم مخصوص من رياضيات وطبيعيات وإلهيات حتى إن العلماء عرفوا تلك المناطق بعض المعرفة اليوم وفوق هذا علم النفس الذي جاء بطريق التجربة في عصرنا وسترى بعضه في أول [ سورة الجاثية ] عند آية « وفي خلقكم » الخ .

فهذا العلم أظهر أن في النفس عجائب لا تزال محبوبة وستعجب مما ستقرؤه هناك فهذه العجائب في نفوسنا وفي أجسامنا وفي العوالم حولنا لو أنها كشفت لنا ولم تغط بالمرض والحسد والعداوات والحروب لهلك الناس من عشق مبدع هذه العوالم ولكن هذه الأغطية من النعم العجيبة التي أنعم الله بها على الناس حتى يقدروا أن يعيشوا في الأرض وإن كانوا معذبين فحياة مع هذا العذاب خير من العدم .

إن الله مزج الضار بالنافع رحمة بنا ليصرف عقولنا عن هذا الكثر الخبوء في الدنيا وهو الجمال الباهر حتى تتسع عقولنا وإذ ذاك يسلمه لنا في عالم الأرواح وفي الفاتحة تراه يذكر الرحمة ويتبعها بقوله « مالك

يوم الدين» فهنا شدة ولين كما نراه جعل في النبات قوة امتصاص السكر بون من الجو بمساعدة المادة الملونة في الورق مع ضوء الشمس وهذا السكر بون يتحد مع الماء فيكون هناك النشاء والسكر ومادة (السيلولوز) التي منها القطن والكتان، وهذه المادة تجعل في الحويصلات التي يتركب منها النبات غطاء يغلف كل خلية من الخلايا التي يتركب منها النبات، فجميع الخلايا مغلفة بهذه المادة كما تقدم مرارا فها هنا في النبات مادة الحياة داخل كل خلية وكل خلية يحيط بها غلاف يحفظها فهذا الغلاف فيه معنى الملك والحفظ «مالك يوم الدين» وداخل الحويصلة مادة وهو معنى «الرحمن الرحيم» فهكذا كل العالم فيه ما يسرنا وفيه ما يؤلمنا، فالوالم أشبه بغطاء حافظ لما يسرنا فهذه الشرور مانعات حياتنا من الانحلال لأننا لو عرفنا جمال هذا الوجود لم تتحمل نفوسنا هذا الجمال فغشى عليها بالمصائب والبلايا والمرض والموت حتى لا تعرف الحقائق دفعة واحدة بل تتلمسها شيئا فشيئا بالتعلم والدرس والرياضة والعبادة فالعجائب أشبه بمادة الحياة في حويصلات النبات وخلاياه، وحوادث الدهر أشبه بما يغلفها من مادة السيليلوز الحافظة للخلية الواحدة، ومن الخلايا كان كل حيوان وكل نبات، فهذا هو السبب في عدم ظهور حب أكثر النوع الإنساني لصانع هذا العالم الحكيم العليم، فقال: الحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى كتب يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ، ٢٩ يناير سنة ١٩٣١ م.

### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى «وهو الذي ينزل الغيث» الخ

جاء في جريدة الأهرام في يوم ٦ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتي:

### أشجار يرجع تاريخها إلى قبل ١٥ مليون سنة

«اكتشف في غربي كندا بقايا أشجار يظن أنها مما نبت في أمريكا الشمالية قبل خمسة عشر مليون سنة وقد أحدث اكتشافها ضجة في المقامات الجيولوجية لأنه يعث بالنظريات الحالية فيما يتعلق بالأزمنة السابقة للأزمنة المعروفة في التاريخ. وهي قد اكتشفت في السنة الماضية في بطن الرمال بجهة (فورد مكوراي) فأرسلت إلى علماء الجيولوجيا الذين في خدمة الحكومة، وهم بعد بحث طويل دقيق يقولون الآن: إن وجودها يعث بالنظريات المشار إليها، ويؤخذ من التقارير الأولى أنها نبتت ونمت على ما يظهر في العهد الذي كانت فيه طبقة سطح الأرض في دور التكوين. ويقول الدكتور (بيلاي) وهو عالم كبير معروف: إن هذه الأشجار هي من نوع الأشجار التي كانت تنمو في أرض اليابان. وهذا القول يعزز نظرية القائلين إن شمالي أمريكا وآسيا كانا في غابر الأزمنة قارة واحدة، وسيقوم العلماء بمباحث جديدة في المكان الذي اكتشفت فيه بقايا تلك الأشجار» انتهت اللطيفة الثانية.

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظلمن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)

اعلم أيديك الله بالعلم أن هذه العوالم كلها آيات الله ، ولكن ليس يدرك ذلك إلا أناس امتازوا بأمرين : الصبر والشكر ، والصبر أقسام كثيرة ، صبر على البأساء وهو الفقر ، وعلى الضراء وهو المرض ، وعلى البأس وهو الحرب ، وعلى طلب العلم ، وعلى القناعة والاكْتفاء باليسير ، وعلى الصدق في القول والعمل والعبادة ؛ وجميع أنواع الطاعات . وهذا الصبر يتحد مع الشكر في كثير من مواطنه ، والشكر لا يتم إلا بمعرفة النعم ولا تعرف النعم إلا بالدراسة ، وكيف تتم الدراسة إلا بالصبر عليها ، فهاهنا صبر وهاهنا شكر اتحدا عملا واختلفا تسمية ، فقل لي رعاك الله ، أيعرف نعمة الرياح الجريات للسفن وللسحاب كل إنسان وكل حيوان . كلا . فإن كل ذي عينين يدرك الحقائق ، وكيف يدرك الإنسان الحقائق إلا بالفهم والعمل ، فهناك مسألة جرى الرياح هل تعرف إلا بالصبر عليها ، ومن ذا يصبر إلا القليل من الناس ! هذا بعض السر في قوله تعالى « لكل صبار شكور » .

فانظر رعاك الله إلى الهواء الجوي ، ينظر الجاهل إلى الهواء الجوي فيراه يهب تارة ويسكن أخرى فلا يدري من أين جاء ، ولكن إذا درس وصبر على الدرس علم أن أسباب الرياح كلها ترجع إلى (سببين اثنين) كما قال تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » .

خيالي يوم الأحد ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٩ م

كأني أسمع رب العزة لما خلق الهواء واليابسة والماء يقول : « أيتها اليابسة ، وبأيها الماء ، اسمعا ، ها أنا ذا أريد أن أخلق نباتا وحيوانا وإنسانا ، وهؤلاء لاجياة لهم إلا بسحب مطرات ، والسحب الماطرات لا بد لها من رياح ، والرياح لا تتم إلا بأمرين : حرارة وبرودة ، هذان زوجان جعلتهما سبب الرياح والرياح تحمل السحب وتسير السفن . فقالت اليابسة والماء : نحن لك يارب مطيعون . فقال : أما أنت أيها الماء فعليك أن تكون بطيء الحرارة بطيء البرودة . وأما أنت أيتها اليابسة فعليك أن تكوني سريعة البرودة سريعة الحرارة ، ومتى تم ذلك حصل في الهواء اختلاف كثير فهبت الرياح ، وهناك يدور الهواء عليك كما يدور الدولاب وكما تدور السواقي وكما تدور الطواحين ، إن الساقية تدور بحيل صنعها عبادي :

(١) فيدور الثور ، وبدورانه في مدار الساقية

(٢) يدور (النير) الذي فوق رقبته

(٣) والنير يجر الحبل

(٤) والحبل يجر خشبة أخرى متصلة بعمود خشبي

(٥) والعمود الخشبي يدور آلة خشبية مدورة كبيرة لها أضراس أقمية الوضع

(٦) وهذه الأضراس تدير آلة مدورة أصغر منها رأسية الوضع

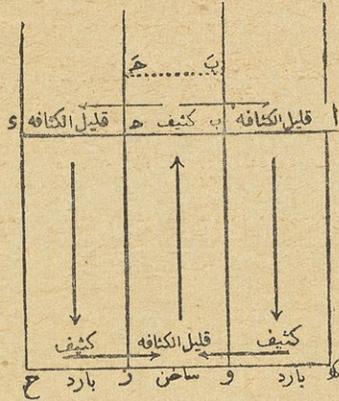
(٧) وهذه تدير عمودا أفقي الوضع

(٨) وهذا العمود يدور دائرة خشبية عليها قواديس رأسية الوضع

(٩) وهذه القواديس تملأ ماء عند نزولها وتفرغه عند طلوعها ، وهناك تسقى الزرع .

هذه حيل العباد في إخراج الماء ، أما حكمتي أنا في الهواء فإني حرركته فوق الكرة الأرضية وجعلته رياحا بالحرارة والبرودة ، إنني لو جعلتك أيها الماء وأيتها اليابسة بطبيعة واحدة في الحرارة والبرودة لم تسكن رياح فلا يكون لي خلق ، لذلك أمرتسكا أن تكونا مختلفتين حرارة وبرودة ، وباختلافكما كانت هذه النعم وهذه المخلوقات ، إن اختلافكما نعمة ، بل هي أصل النعم في الأرض» وهاك إيضاح هذا المقام بالرسم من كتاب [الجغرافيا الرشيدة] فقد جاء فيه ما يأتي :

### تأثير الحرارة في الضغط الجوي



(شكل ١)

أول أسباب اختلاف الضغط الجوي توزيع الحرارة على وجه الأرض بدرجات متفاوتة ، ففي شكل (١) مسطح وجه الأرض (هوزح) مقسم إلى ثلاث مناطق (هـو) و (وز) و (زح) ونظرا لسقوط الأشعة العمودية في المنطقة (وز) تشتد عليها الحرارة فيسخن الهواء الذي فوقها ويتمدد ويصعد في اتجاه السهم إلى الطبقات العالية من الهواء وهي التي فوق الخط الوهمي (ابج د) وبارتفاع هذا الهواء يضغط على الطبقات الفوقية المحصورة بين المستويين (بج) و (بجـ)

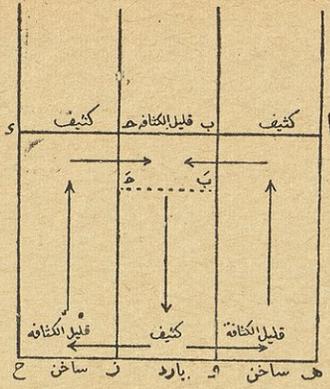
فتصبح كثيفة ويشتد ضغطها على الأهوية المجاورة لها فوق (اب) و (ج د) لأن هذه الطبقات مازالت قليلة الكثافة ، ويترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية فوقية إلى الجانبين في اتجاه السهمين المرسومين في أعلى الشكل .

وفي أثناء ذلك يتخلخل الهواء فوق (وز) وتقل كثافته ، على حين أن الهواء لا يزال على جانبيه في (هـو) و (زح) كثيفا فيترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية سطحية في اتجاه السهمين في أسفل الشكل وباستمرار هبوب هذين التيارين واستمرار تسخين الهواء فوق منطقة (وز) يستمر طلوع الهواء وهبوب التيارات الفوقية تجاه (اب) و (ج د) . ويثول أمر هذا الهواء إلى السقوط في اتجاه السهمين الجانبين على (هـو) و (زح) ليسد النقص الحادث من انتقال التيارات السطحية .

وهاك توضيحا آخر لهذه المسألة بعينها : كما تراه في شكل (٢) الآتي في الصحيفة التالية ففيه رقعة من سطح الأرض (هـوزح) مقسمة إلى ثلاث مناطق (هـو) و (وز) و (زح) والمنطقة (وز) مشغولة باليابس والمنطقتان (هـو) و (زح) مشغولتان بالماء .

ونظرا لإقبال فصل البرد قد برد اليابس قبل الماء فبرد الهواء فوق (وز) وتقلص وتكاثف وهبط سطحه من (بج) إلى (بجـ) على حين أن الهواء لا يزال فوق (هـو) و (زح) عاليا كما كان ، فيترتب على ذلك تياران فوقيان في اتجاه السهمين المرسومين في أعلى الشكل .

وفي أثناء ذلك يزيد الضغط عند (وز) ويخف عند كل من (هـو) و (زح) فينشأ عن ذلك تياران سطحيان في اتجاه السهمين المرسومين في أسفل الشكل (انظر شكل ٢) .



(شكل ٢ نظرية هبوب الرياح)

فيتضح من المثليين السابقين أن التيارات الهوائية السطحية تنتقل من الجهات الشديدة البرودة إلى جميع الجهات المجاورة . وهذه التيارات السطحية هي التي تؤثر تأثيرا مباشرا في المناخ وهي التي نخصها بالكلام فيما يلي :

وينتج من ذلك نظريا انتقال الرياح من الجهات القطبية إلى خط الاستواء ، فيكون اتجاهها من الشمال إلى الجنوب في نصف الكرة الشمالي ، ومن الجنوب إلى الشمال في نصف الكرة الجنوبي .

### نسيم البحر ونسيم البر

كأن الله يقول : أيتها الأرض ، إذا طلعت الشمس عليك فلتسرعي بقبول الحرارة ، وأنت أيها الماء عليك أن تكون بطيء الحرارة ، فإذا فعلتما ذلك فإن الهواء الذي يكون فوقك أيتها الأرض يكون أسرع سخونة بمجاورتك ، ومق أسرع إسخانه خف وعلا ، ومق خف وعلا أسرع الهواء الذي فوق الماء يجري فوقك لأن الأثقل يحل محل الأخف ، فإذا جاء الليل فلتكوني أيتها الأرض سريعة البرودة . ولتكن أنت أيها الماء بطيء البرودة فتكون الحرارة فوقك أكثر منها فوقها وإذن يجري الهواء من فوق اليابسة إليك كما كان يجري منك إليها نهارا . فهذا هو المسمى نسيم البحر ونسيم البر ، فإن النسيم يهب من البحر إلى البر نهارا ومن البر إلى البحر ليلا ، ولذلك يخرج الصيادون في القوارب وقت الفجر مع نسيم البر وفي الضحى يعودون مع نسيم البحر إلى الساحل ومعهم السمك ، فهذان النسيان يلطهان مناخ السواحل ومثلهما .

### الرياح الموسمية

وكما يخيل لي خطاب الله للبر والبحر يخيل لي خطابه للقارات والمحيطات . فالقارة بدل البر والمحيط بدل البحر . والصيف كالنهار والشتاء كالليل . فمثلا تشتد الحرارة على جبال آسيا الوسطى مثل جبال ( همالايا ) فتقل كثافة الهواء فوقها . ولكن المحيط الهندي لا يكون مثلها . فهب الرياح من المحيط المذكور إلى آسيا كل ذلك في زمن الصيف . وهذه تسمى الرياح الموسمية . وبسببها يكون الري والخصب في سهول الهندستان وهناك يعيش نصف سكان الأرض في الهند والصين واليابان . وذلك بفضل غزارة الأمطار وتولد الأنهار العظيمة ذات الفيضان السنوي . وتكون هناك سهول ( غرينية ) خصبة تتوافر فيها المواصل والري وأسباب العيش والرفاهية ، وهكذا يحصل في بلاد الحبشة بالرياح الموسمية أيضا إذ ينشأ بسببها في أول الصيف فيضان النيل وهكذا ساحل ( ناتان ) في شرقي أفريقيا ، وساحل الولايات المتحدة الجنوبية الشرقي إذ تسقط عليهما أمطار صيفية بمثل هذه الرياح وهكذا الساحل الشرقي لآستراليا . فإذا جاء الشتاء تنعكس الحال فتبرد هضبات اليابس ويظل البحر دافئا ، فتنشأ رياح تنتقل من البر إلى البحر وهي جافة لصدورها من الجاف وهو البر .

فاعجب أيها الذكي لأمرين اثنين : حرارة وبرودة نشأ عنهما سعادة سائر الناس والحيوان على الأرض

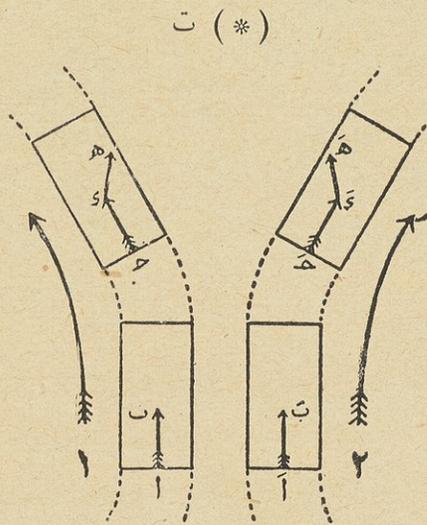
فهذا الهواء فعل الله به مافعلناه نحن في النواعير والسواق والآتنا ، ولكن هو أدار الهواء بأمرين اثنين : حرارة وبرودة ، وجعل الأمر عدلا ، نسيم من البر إلى البحر وبالعكس ورياح موسمية بحيث يكون مداها ستة أشهر ، فهاهنا ليل ونهار لنسيم البر ونسيم البحر ، وهاهنا صيف وشتاء للرياح الموسمية . وهاهنا عاشت الأمم بهذه الرياح : وهذه الرياح مبنها الحرارة والبرودة .

### التيارات البحرية

وقبل الدخول في الكلام على تلك التيارات وخطاب الله عز وجل لها أقدم مقدمة من كتاب الجغرافيا الرشيدة يتضح بها المقام وهاك بيانها .

### تأثير دورة الأرض على محورها

تنحرف الرياح في أثناء حركة الأرض على محورها عن اتجاهها الأصلي ، وتوضيح ذلك نضرب المثل الآتي في شكل (٣) :



( شكل ٣ )

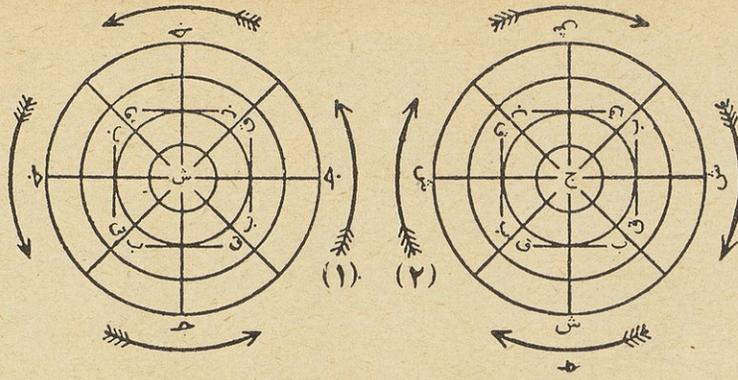
انعطاف مركبة الترام في طريق منحني

راكب ترام ينظر إلى التمثال أمام الترام وينتقل متجها نحوه في العربة في الاتجاه ا ب ثم ينعطف الترام يسارا كما هو موضح في القسم الأول من الرسم (١) فإذا كان الراكب مصمما على السير تجاه التمثال فإنه ينحرف نحو اليمين ويكون جملة سيره في اتجاه السهمين (ج د) و (د ه) .

وبالعكس من ذلك إذا انعطف الترام يمينا كما هو موضح في القسم (٢) من الرسم فإن مجموع سيره نحو التمثال يكون في اتجاه السهمين (ج د) و (د ه) .

ففي كلتا الحالتين يحدث انحراف بعكس انعطاف الترام

وكذلك الحال على الأرض ، إذ تنحرف الرياح بسبب الدورة اليومية : ففي شكل ٤ شطران : يمثل الأول منهما نصف الكرة الشمالي ويمثل الثاني النصف الجنوبي .



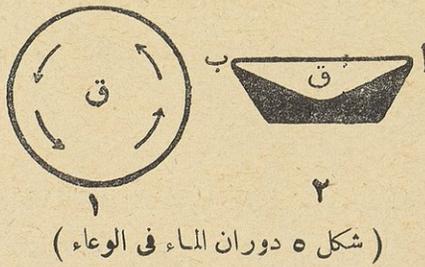
( شكل ٤ دورة الأرض على محورها )

(١) ففي مركز الدائرة في الشطر الأول القطب الشمالي ، وكل اتجاه يبعدنا عنه جنوب وبتعيين الشمال والجنوب يكون الشرق إلى اليمين والغرب إلى اليسار ؟ وبذلك تكون دورة الأرض في اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

(٢) وفي مركز الدائرة في الشطر الثاني القطب الجنوبي ، وكل اتجاه يبعدنا عنه شمال ، وبذلك تكون دورة الأرض في اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

فإذا وازنت بين شكلي (٣ و ٤) تعرف أن الرياح تنحرف إلى اليمين في نصف الكرة الشمالي وتنحرف إلى اليسار في نصف الكرة الجنوبي ، وتسمى هذه القاعدة (قانون فوكل) وبمقتضاها تصبح الرياح الشمالية في نصف الكرة الشمالي رياحا شمالية شرقية ؛ وتصبح الرياح الجنوبية في نصف الكرة الجنوبي جنوبية شرقية .

### مناطق الضغط العظيم خلف المدارين



( شكل ٥ دوران الماء في الوعاء )

في الشطر الأول من شكل (٥) وعاء فيه ماء فإذا دار الماء في الوعاء حول القلب (ق) باستمرار لا يلبث أن يهبط سطحه في الوسط ويرتفع عند الحافة ، فيكون سطح الماء كما ترى في الشطر الثاني من الشكل عند (ا ق ب) .

وكذلك حال الهواء على وجه الأرض إذ تزيجه

دورة الأرض على محورها بعيدا عن القطب ، وتعمل على تكشيفه عند خط الاستواء . ولولا الحرارة عند خط الاستواء لأصبح الهواء عنده كثيفا جدا ، وبالعكس من ذلك مخلخلا عند القطبين بسبب دورة الأرض على محورها .

لكن هنا عاملان متعاكسان : فالحرارة تعمل على إبعاد منطقتي الضغط العظيم عن خط الاستواء ودورة الأرض على محورها تعمل على إبعادها عن القطب . ونتيجة منافسة هذين العاملين وجود منطقتي الضغط

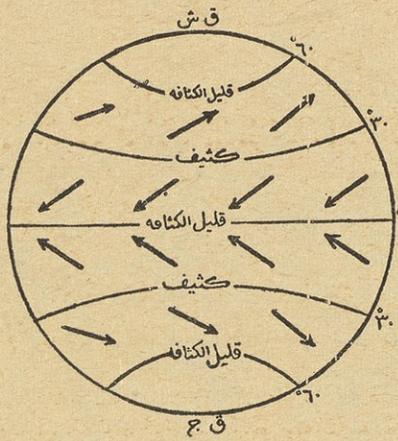
PLEASE REPAIR BINDING.

thank you.



العظيم حوالي خط عرض ٣٠ شمالا و ٣٠ جنوبا .  
أما خطا عرض ٦٠ شمالا و ٦٠ جنوبا فيكون الهواء عندهما قليل الكثافة بسبب فعل الدوران في إبعاد  
الهواء عن القطبين .

### الرياح الدورية علي وجه الأرض



( شكل ٦ )

الرياح التجارية والرياح العكسية  
مناطق هبوبها واتجاهها

ينتج مما تقدم ما تراه في ( شكل ٦ ) فعند  
خطى العرض ٣٠ شمالا و ٣٠ جنوبا تزيد كثافة  
الهواء فتهب الرياح منهما إلى خط الاستواء وتسمى  
بالرياح التجارية .

وتهب من كل منهما إلى خط عرض ٦٠  
الرياح العكسية .

وتتحرف الرياح التجارية نحو الغرب بسبب  
دورة الأرض على محورها ، وبذلك يكون  
انحرافها إلى اليمين في نصف الكرة الشمالي وإلى  
اليسار في النصف الجنوبي .

وتتحرف العكسية نحو الشرق أيضا لهذا  
السبب :

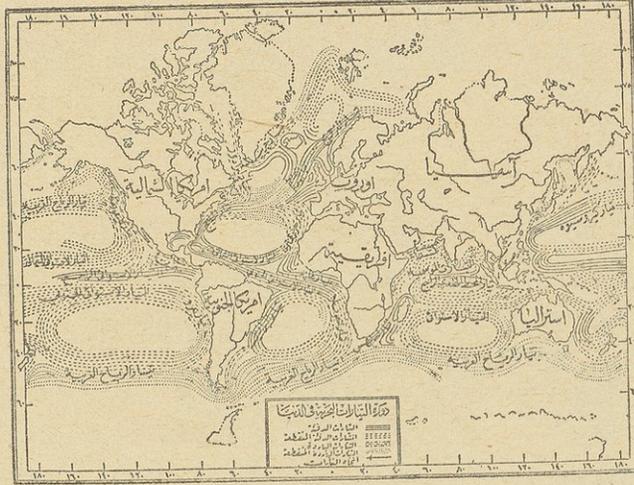
فتهب الرياح التجارية من الشمال الشرقى

في نصف الكرة الشمالي ، ومن الشرقى في النصف الجنوبي ، وتهب الرياح العكسية من الجنوب الغربى  
في نصف الكرة الشمالي ، ومن الشمالى الغربى في النصف الجنوبي . وحول كل من القطبين منطقة ساكنة .  
وعند خط الاستواء منطقة سكون يرتفع عندها الهواء بفعل الحرارة إلى الطبقات العليا من الجو ، وعند  
خطى عرض ٣٠ شمالا و ٣٠ جنوبا منطقتان من السكون تسقط عندهما الأهوية من الطبقات العليا انتهى  
ما أردته من كتاب الجغرافية الرشيدة .

### تلخيص ما تقدم

ها هنا أن أذكر ما يخيل لى من خطاب الله عز وجل للماء كأنه عز وجل يقول : أيتها المياه ، اسمعى  
هأنذا جعلت الحرارة من الشمس الساقطة على الأرض سببا في إثارة الهواء ، فباختلاف قبول اليابسة والماء لها  
أدرت الرياح فكانت نسائم البر وكانت نسائم البحر ، فإذا كان الليل هبت النسائم من البر إلى البحر لأن  
جو اليابسة يكون أبرد وجو البحر يكون أقل برودة ، فتجري الرياح من البارد المتقلص وهو البر إلى  
الحار المتمدد وهو البحر ، فإذا كان النهار قلبت الوضع وأجريت الرياح من البحر الذي لم تسرع الحرارة  
فيه إلى البر الذي أسرع فيه الحرارة ، فهما متعادلان نسيم من البر إلى البحر ونسيم من البحر إلى البر ومثله  
الرياح الموسمية ، ثم إنى أدرت الكرة الأرضية على محورها من الغرب إلى الشرق والمحور متجه من الجنوب  
إلى الشمال ، وبسبب هذا الدوران يفر الهواء من القطبين إلى ناحية خط الاستواء لكن خط الاستواء

يُطرد الهواء بـجـرارته ، فلا يحـص للهـواء إلا أن يـلتجىء إلى نـقطة معيـنة وهـي هنا درجـة (٣٠) شـمـالا ودرجـة ثلاثين جنوبا ، وهـناك منـطقة سـكون تتجـه منـها ريـحان : ريـح تتجـه إلى جـهة خط الـاستواء راجـعة وهـي المسماة تجـارية ، وأخرى تتجـه إلى نـاحية القطبين وتسمى ضـدية أو عـكسية ، ولا بد من انحراف كل من الريح التجارية والرياح العكسية أو الضدية لأجل تأثير دوران الأرض ( انظر شكل ٧ ) .



( شكل ٧ )

فها هنا يقول الله للرياح التجارية : أيتها الرياح التجارية الجارية في المحيط الأطلسي عليك أن تحركي تيارين : أحدهما في جنوب خط الاستواء ، وثانيهما في شمال خط الاستواء ، يتجهان معا من سواحل أفريقيا إلى سواحل أمريكا ، فأما التيار الاستوائي الجنوبي فعلى بلاد البرازيل أن تصده ومتى صدته ينعطف محاذيا للساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية . وأنت أيتها الرياح العكسية أرجعيه ثانية إلى مقره الأول فيرجع إلى سواحل أفريقية ثانية ، ويتم دورته حول منطقة ساكنة ، وهكذا ليفعل التيار الاستوائي الشمالي ، فليتوجه من سواحل أفريقيا إلى خليج المكسيك ، وليس محاذيا للساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ، وأنت أيتها الرياح العكسية وجهيه إلى خليج المكسيك ( يسمى تيار الخليج ) وهناك يجب أن يقطع قطعتين فيكون هناك تار أوروبا الغربية وتيار آخر للترويج ، وهكذا ليسكن ذلك في المحيط الهادي ؛ فلتتحرك الرياح التجارية تيارين على جانبي خط الاستواء كهندين ، فأما التيار الاستوائي الذي جهة الجنوب فعليه أن يتوجه من سواحل أمريكا إلى سواحل استراليا ، وأنت أيتها الرياح العكسية رديه ثانية إلى أمريكا ، وأما التيار الاستوائي الذي جهة الشمال فعليه أن يتجه من أمريكا أيضا إلى ساحل آسيا عند اليابان وهو التيار الأسود ( كوروسيوه ) بالرياح التجارية ، وعليك أيتها الرياح العكسية أن ترديه إلى أمريكا ثانية ، وهكذا لتفعل الرياح التجارية والرياح العكسية حول استراليا في المحيط الهندي ، فلتتحركي أيتها الرياح التجارية تيارا واحدا جنوبي خط الاستواء فقط . لأن نصف الكرة الشمالي مشغول بقارة آسيا ، وليس التيار من ساحل استراليا إلى سواحل أفريقيا ، وعلى الرياح العكسية أن تردده إلى استراليا ثانية .

هذا هو الخطاب الإلهي الذي يخيل إلى كأنه حقيقة ، وكأن الله عز وجل يقول في منافع هذه التيارات

فيا تيار الخليج ، وياتيار البرازيل في المحيط الأطلسي ، وياتيار (كوروسيوه) ، وياتيار شرقي استراليا في المحيط الهادي ، وياتيار موزنبيق في شرق أفريقيا في المحيط الهندي . أنا نقلت بعضكن من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة عن خط الاستواء لمقصد سام وحكمة بالغة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون - يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » أنا نقلتك من الجهات الحارة إلى الجهات الباردة لأجل تلطيف كل مناخ تمرين عليه ، إنني بالتيارين اللذين عند غرب أوروبا وعند النرويج أذبت مياه بحر الشمال مع أن بحر البلطيق الذي يساويه في درجات العرض يكون جامدا خمسة أشهر في السنة . والرياح العكسية لحرارتها أثرت في تيار الخليج فأدقأته فوصل إلى سواحل أوروبا دافئا فكان المطر الكثير والدفء العظيم .

ثم كأنه عز وجل خاطب البحار القطبية والبحار المدارية قائلا ؛ إنك أيتها البحار القطبية لم أسلط عليك حرا كثيرا لذلك كان ماؤك محفوظا فلم يكن منك بخار كثير بل زدتك ومددتك بكثير الثايج فزادك ماء . وأما البحار المدارية فان الحرارة ترفع ماءها إلى الجو بهيئة بخار ؛ فعليك أيتها البحار الشمالية أن ترسلي تيارات مائية إلى الأقطار الاستوائية لأنني عدل ، فلما سمعت هذا الخطاب البحار القطبية الشمالية أرسلت من لديها مددا وهو تيارات بحرية إلى خط الاستواء .

(١) مثل تيار (لبرادو) الذي يحاذي سواحل (جرينلنده) و(لبرادو) و(نيوفندل) ثم يقابل تيار الخليج وهو دافئ فيتلاشى فيه .

(٢) وتيار شمالي شرق اليابان الذي يحاذي شبه جزيرة (كشكتكا) وجزيرة (يسو) ومق يقابل تيار (كوروسيوه) يتلاشى فيه .

(٣) وهكذا المحيط المتجمد الجنوبي أرسل تياره حول الدنيا من الغرب إلى الشرق دائما سائرا مع الرياح العكسية الغربية ؛ ومق قابل الأطراف الجنوبية لأفريقية واستراليا وأمريكا الجنوبية يتفرع منه تيارات في المحيط الأطلسي وفي المحيط الهندي وفي المحيط الهادي ، وهذه كلها تقابلها تيارات دافئة لتخفيفها وتعدمها ، فأنت أيتها التيارات الباردة لك آثار حسنة . فإنك تؤثرين في جهات (جويسو) في اليابان فتكون أبرد من (جوهنشو) وفي مناخ جهات (بيرو) في غرب أمريكا الجنوبية فإن حرارتها تكون ألطف مع قربها من خط الاستواء الموجب لشدة الحرارة ، ولقد جعلتك أيتها التيارات الباردة أشبه بالفعلة والصناع إذ ينقلون التراب والحجارة من مكان إلى مكان لإصلاح البقاع والبناء ونحو ذلك ، فأنت تحملين الثلج ومعه صخر ، فمق وصلت بشجك وصخرك إلى شواطئ القارات تكون هناك مساحات واسعة مرتفعة عند سواحل (نيوفوندا لاند) بالمحيط الأطلسي وعند سواحل الشمالي الشرقي لليابان ، وما هي إلا صخور ذات الثايج الذي كان معها أصبحت هي محال لتربية السمك فيصطاده الناس عند تلك السواحل ، إذن أنت أيها التيارات الباردة تحملين برودة معك لتلطيف الحر وتصنعين صنع البنائين والفعلة ، فإنك تبنين أماكن للسمك يصطاده الصيادون .

### خطاب الله للناس

وكأنني أسمع خطابه للناس إذ يقول : يا بني آدم ، أين عقولكم ، وأين أحلامكم ؟ أليست هذه آياتي ؟ فمن آياتي الرياح في البحر ، ولو أني أسكنت الريح بسبب اتحاد الحرارة على الماء واليابسة لم تكن رياح ولم تكن تيارات . انظروا يا عبادي ، فمن أين تكون تيارات حارة تنفذ إلى غرب أوروبا وعند النرويج . فتذيب بحر الشمال لمنفعة عبادي في أرضي ، ومن أين تكون تيارات باردة تذهب إلى (بيرو) في غرب

أمريكا الجنوبية فتلطف حرارتها . سياسة أبدعت ، وحكمة نظمت ، وآيات وعجب ! هذه عجائب صنعى ماخلفتها لكم عبثا . أنتم قلدتم الطيور فطرتم فى الجو بطيارتكم ، وقلدتم النمل فى الحرب ، والأسود فى الاقتراس . تفرحون وتمرحون وتقولون قد امتطينا الطيارات وقتلنا الأمم بالقذائف النارية وتظنون أنكم بهذا مفلحون . كلا ، ثم كلا . وعزتى وجلالى إن هذه إلا أساليب الشياطين وأخلاق الحيوان والسباع . فإذا لم يفهم أهل الأرض حكمتى فإنى سأهلكهم أجمعين أكتعين أبعين .

أيها الجهلاء . أيها الغافلون : ألم يأتكم نبأ تيارات الماء المذكورة . ألم تروها تجرى من الجهات الباردة إلى الحرارة ومن الحرارة إلى الباردة لإصلاح أحوال عبادى . فها هى ذه التيارات القطبية تجرى إلى جهات الاستواء لتلطف الحرارة والتيارات الاستوائية تتجه إلى الجهات الباردة فتقلل برودتها . ألم يكن هذا درسا لكم ؟ ألم يأن لكم يا أهل الشرق ويا أهل الغرب أن تكون سياستكم كسياستى ؟ هذه سياستى فمن الذى يقلدها ! أعوام السمك أم عوام الدواب ؟ كلا . بل أنتم المقصودون بتقليدها ، نعم أنتم قلدتم فى الأمور الشهوية ، فطرتم فى الجو لتغيروا على غيركم ، أو لتسافروا لأغراضكم الخاصة ، ولكنكم قط لم تدركوا حكمتى ولم تقلدوني فى صنعى . أنا بالحرارة واختلافها أجريت الرياح وأجريت التيارات شرقا وغربا ، هكذا فلتكن حرارة العلم متأججة فى قلوب الناس شرقا وغربا ، ولتكن منها جاذبية فى قلوب الأمم كلها فى نظام السياسة والاتحاد كما سرت الجاذبية فى التيارات وانتظمت بها تيارات تشبه الأقطاع الناقصة التى تسير فيها الكواكب فى السماء ، فأصبحت التيارات البحرية من أفريقيا إلى أمريكا ومن أمريكا إلى استراليا وآسيا وهكذا كلها متجهات إلى تكوين قطع ناقص تشبها بنظام الكواكب فى سيرها لأن كل أم يتبعها ولدها ، وكأنها إشارت أن نظام الإنسان فى المستقبل سيكون أشبه بنظام هذه التيارات والرياح التى يمد الحار منها البلاد الباردة والبارد منه البلاد الحارة ؛ ألم يأن لكم أيها الناس أن تجعلوا أممكم أمة واحدة ، فقومها يواسى ضعيفها وتتلطفون فى الهداية والسياسة بحيث يكون المتوحشون فى كنف المتعلمين من جيرانهم ، ليكن مسلمو أفريقيا نورا لمتوحشها ، وهكذا ليكن الناس بعضهم لبعض معين ومساعد كما ظهر فى التيارات البحرية باردة وحارة .

ومن عجب أن تكون هذه الآية فى سورة الشورى ، فإن لم يكن العالم كله أمة واحدة الشورى أفلا يكون المسلمون وهدمهم أمة شورى ؛ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ٣ مايو سنة ١٩٣١ .

### جوهرة فى قوله تعالى

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره »

نظرة راكب السفينة فيما حوله من الماء والأرض

لراكب السفينة نظرات فيما حوله ، فتارة ينظر فى الرياح واتجاهها واختلافها وتتأججها كما تقدم هنا ، وتارة أخرى ينظر فى جوهر الماء والبحر والبر وصور الخلوقات البرية والبحرية ، يرى أشكالا وألوانا وعجائب وهذا تفرؤه فى ﴿ سورة الروم ﴾ فى قوله تعالى « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وإنهم مفسطرون على البحث فى الأشكال والأحوال والحكم على هذه المادة بأشكالها وبيان مساحاتها ونظمها المختلفة وإن هذه العقول بقوتها العظيمة لم تحتج فى مساحة محيطات الدوائر ، ولا فى مساحة الدوائر ، ولا فى مساحة سطح الكرة ولا فى معرفة حجم الكرة إلا أن تسمح نصف القطر ، دلالة على

حكمة مبدعها وقدرته وعلمه ونوره الذي ألقاه على هذه النفس فنفذت إلى سويداء الأجسام فاخترقتها وحكمتها وحكمت عليها بنصف القطر وحده بحيث تربعه تارة وتكعبه أخرى وتضربه في أعداد معلومة محفوظة ، كل ذلك تقرؤه في سورة الروم ، ولكن المقام الذي يليق أن يوضح هنا أبهج رونقا وأبهى منظرا وأشرق نورا وأليق بهذا المقام ، لأن ذلك عام في كل ذى شكل في بر أو بحر ، أما ما هنا فإنه يختص بالماء والسماء .

### الماء والسماء

إن راكب السفينة يرى بعينه نجوم السماء وأمواج الماء ، فهو بين نجوم وماء ، فلا جرم يجب أن يقرأ عجائبها ، ولتعلم أن هذه العلوم مبينة بالبراهين معروفة بالقوانين فلا يصدك عنها قول كثير من المتظاهرين بالعلم إنها ظنون أو أوهام . كلا فلا علم إلا وله براهين أفنعت أهله وكل من دخل معهم اعترف بصدق نظرياتهم ، فإذا قرأت ما سأقصه عليك فلا يخذعك عنه خادع ، ولا يصدك عنه مارق ، يقول لجعله ولحسده : ما هذه إلا ظنون ، فلتقرأ ولتدرس ولتعلم أن هذا هو الذي يطلبه الله ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم .

إن العلماء كما بحثوا الأشكال وعرفوا مساحتها أدرکوا أيضا أبعادها ، فعرفوا أبعاد الشمس والقمر والكواكب ووصلوا إلى أن عرفوا أن من أبعاد الكواكب ما وصل إلى مائة مليون سنة بحيث إن نور تلك الكواكب لم يصل بعد خروجه من كوكبه إلى أرضنا إلا بعد أن قطع في سيره مائة مليون سنة وهذا واضح في غير هذا المكان من التفسير ، وهذه المقادير وإن كانت تقريبية قام عليها البرهان : أى البرهان الهندسى بحيث يستعملون في ذلك المثلثات التي لها أحوال خاصة . وعلم الهندسة علم يقينى ، غاية الأمر أن المقادير تزيد وتنقص على حسب آلة الرصد لا غير ، فلا يصدك عن ذلك قول القائل : إن علم الفلك علم يخطئ كثيرا ، فإن هذا القول صادق في علم أحكام النجوم وهو العلم الذى يخبر بالحوادث المستقبلية ، فهذا العلم يكذبه العقل ويخطئه النقل ، فأما حساب السنين والشهور وأبعاد الكواكب فذلك قامت عليه البراهين إذن فلا شرع فى الكلام على السماء ثم أتبعه بالكلام على الماء .

### الكلام على السماء

إن راكب السفينة بعد أن يدرس الرياح المتقدمة يخطر بباله ما يرى فوقه من النجوم ، وهذه النجوم قد تقدم الكلام عليها فى مواطن كثيرة ، ولكن الذى أذكره هنا هو الكلام على مدة دورانها فى الفلك كما أذكر فى الماء القوانين العامية التى بها غاص فيه أجسام وعام على سطحه أجسام أخرى ، فإن ثقل الأجسام وخفتها يؤثران فى صعودها على سطح الماء وسقوطها فى قاع البحار ، كما أن السيارات تختلف مدة دورانها حول الشمس باختلاف أبعادها وأحجامها وقوتها الطاردة والجاذبة ، وسأوضح هذا ليعجب الأذكىاء من نجوم باهرات سائرت بقوانين لا تختلف على مدى الأزمان ، ومن ماء جميل يستقبل الأجسام فى أسفله تارة وفى أعلاه تارة أخرى بقوانين بحيث يخرج المطلع على هذا بعد فهم هذا الموضوع وقد تحملت نفسه بحلية العلم وابتهجت بزينة الجمال وعرفت سرا من نبا قوله تعالى « ولقد جعلنا فى السماء رجوازيها للناظرين » وأدرکت قبسة من نور قوله تعالى « والسماء بئناها بأيد وإنا لموسعون » ومن قوله أيضا « والسماء رفعها ووضع الميزان : ألا تطغوا فى الميزان » .

ينظر راكب السفينة فى السماء فيجد الكواكب تنقسم قسمين : سيارات وثوابت ، فالثوابت هى

كل ما تراه في السماء من الكواكب إلا قليلا ، والقليل هي السيارات والسيارات تسير حول الشمس ، فمنها :

( ١ ) عطارد يدور حول الشمس في ( ٨٨ ) يوما تقريبا ، ويبعد عن الشمس ( ٥٧ ) مليون كيلومترا

( ٢ ) الزهراء تبعد عن الشمس ( ١٠٧ ) مليون كيلومترا ، وأبعادها وأحجامها تقرب مما للأرض عنها .

( ٣ ) المريخ : السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وهي معروفة فيما تقدم في أجزاء هذا التفسير والذي يليها هو المريخ ، وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة ومقداره ( ٢٢٥ ) مليون كيلومترا تقريبا ، والقطر الظاهري من المريخ يساوي ( ٠.٥٤ ) من قطر الأرض تقريبا أعني ( ٦٨٠٠ ) كيلومترا ، وحجم المريخ ( ٠.١٤٧ ) من حجم الأرض ، ودورته السنوية مركبة من ( ٦٦٩ ) يوما نجميا للمريخ .

( ٤ ) المشتري هو قدر حجم الأرض ( ١٣٠٠ ) مرة وقطره يساوي ( ١٤٠٠٠٠ ) مليون ، فهو قدر خط الاستواء الأرضي ( ١١ ) مرة ، وبعده المتوسط عن الشمس يساوي ( ٧٧٠ ) كيلومترا ، وسنته ( ١٢ ) سنة من السنين الأرضية .

( ٥ ) زحل : البعد المتوسط لزحل عن الشمس هو قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف ، أعني ( ١٤٠٠ ) مليون كيلومتر تقريبا ويقطع الفلك في ( ١٠٧٥٩ ) يوما أعني ( ٩ ) سنة ونصف تقريبا ، وحجم زحل قدر حجم الأرض ( ٧١٨ ) مرة وقطره الاستوائى هو ( ٩٢٩٩ ) .

( ٦ ) أورانوس : مدة دورته حول الشمس ( ٨٤ ) سنة تقريبا أو ( ٣٠٦٨٧٧ ) يوما بالضبط وبعده عن الشمس ( ٧٠٨ ) مليون فرسخ ، وحجمه قدر حجم الأرض ( ٦٩ ) مرة ، وقطر كرتيه ( ٤٢٥ ) بأخذ قطر الأرض وحده .

( ٧ ) نبتون : بعده المتوسط عن الشمس ( ١١٠٧٠٠٠ ) فرسخ وهو أبعد السيارات ويتم دورته في ١٢٥ سنة وقطره ( ٣٨٠ ) بالنسبة لقطر الأرض .

هذه هي السيارات المعروفة التي عرفها الإنسان الآن ، اختلفت أحجامها وأبعادها وأضواؤها ومدد دورانها ، والمهم في هذا المقام أنها مع هذا الاختلاف قد حفظت أبعادها ومدد دورانها فلم تتغير ، فلا فرق بين أرضنا وبين تلك الكواكب في حفظ مدد دورانها .

اللهم أزل العشاوة عن عقولنا ؛ هذه المعلومات البسيطة التي ذكرتها هنا ليست إلا شيئا يسيرا جدا مما تقدم في مواضع هذا التفسير ، ذكرتها ليتفكر راكب السفينة في عجائب الكواكب ، تلك الكواكب التي لا تخطى في سيرها ولا تتعدى مارس لها من مداراتها تذكره لقوله تعالى « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين » فهذه سبع سيارات منظمات سواهن الله عز وجل ونظمهن وأحكهن وقال لمن : سرن أيتها السيارات في طرفكن ولا تتعدين مارسه لكن ، سارت هذه السيارات وهي طائعة مختارة ولم تخطى في السير ولم تنقص في سيرها ولم تزد ثانية واحدة وهذا هو السبب في بقاء هذا العالم منظما آمادا وآمادا . إذن فلننظر في :

## عالم الماء

هانحن أولاء نظرنا عوالم السماء فرأيناها منظمة سائرة بحكمة وعلم تامين ، فلننظر في عوالم الماء التي تسير السفينة فوقها فهل نجد لها قوانين تشبه تلك القوانين بحيث نفهم به قول الله تعالى «فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» .

هانحن أولاء عرفنا من هذا المقام ومن غيره كيف كانت عوالم السماء قد أتت لربها طائعة ، فهل فعلت مثلها عوالم الأرض وأتت طائعة ؛ نحن لانعرف ذلك إلا بالدراسة فنقول :

إن في علم الطبيعة تعرف الكثافة والوزن النوعي ، يقولون إن كثافة الجسم هي كتلة وحدة حجومه وهذه الجملة في ظاهرها غير مفهومة ولكنها لا بد من ذكرها وفهمها والسير في هذه المباحث حتى نعرف أن عوالم الماء كعوالم السماء لها قوانين وقد أطاعت الله كما أطاعته الكواكب . وكل منهما يحتاج إلى دراسة تامة . يقولون إن كتلة السنتمتر المكعب من الحديد تساوي (٧٨) من الجرامات . وكتلة السنتمتر المكعب من الزئبق تساوي (١٣٦) من الجرامات . وكتلة السنتمتر المكعب من البلاتين تساوي (٢١٥) من الجرامات ، فكثافة هذه الأجسام هكذا بالترتيب (٧٨) و (١٣٦) و (٢١٥) من الجرامات .

ومعنى هذا أن الحديد والزئبق والبلاتين إذا أخذنا منها مقادير مساوية لحجم السنتمتر المكعب من الماء فإن أوزانها تزيد عليه بهذه المقادير فيكون الحديد أثقل منه (٧٨) والزئبق أثقل منه (١٣٦) والبلاتين أثقل منه (٢١٥) وهذا هو الوزن النوعي ، لأن الوزن النوعي لجسم هو النسبة بين حجمين متساويين منه ، ومن الماء المقطر وهو في درجة (٤) فوق الصفر من الميزان المتوى (مستغراد) .

وهنا لا بد من ذكر قاعدة (أرشميدس) وهي كل جسم مغمور في سائل يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي وزن مقدار من السائل حجمه يساوي حجم الجسم . (وبعبارة أخرى) وزن السائل الذي يحل محله الجسم . وينتج من هذه القاعدة ما يأتي :

إذا طفا جسم على سطح سائل كان وزنه مساويا وزن السائل الذي يحل محله الجزء المنغمس فيه ، ولهذا السبب يطفو الرخام والحديد على سطح الزئبق ، ويمكن أن تطفو الأجسام الكثيفة جدا على سطح الماء إذا كانت مشكلة بشكل يمكن معه أن يكون وزن السائل الذي يحل محله الجزء المنغمس فيه مساويا لوزن الجسم كله ؛ فمثلا الكرة المعدنية الجوفاء التي حجمها (١٠٠) سنتمترا مكعبا ووزنها (٦٠) جراما لا ينغمس منها في الماء إلا مقدار يحل محل (٦٠) سنتمتر مكعبا فقط ، وفي هذه الحالة يكون وزن الماء مساويا وزن (٦٠) جراما وهو وزن الكرة المعدنية ، والسفينة التي تزن (٥٠٠٠) طنولاته لا يمكن أن تطفو فوق الماء إلا إذا زاد حجمها على (٥٠٠٠) متر مكعب حتى يحل الجزء المنغمس منها محل هذا القدر من الماء ولذلك تطفو السفن التي من الحديد فوق الماء ، مع أن كثافة هذا المعدن أعظم كثيرا من كثافة الماء .

ومن العجيب أن العلماء أوجدوا الوزن النوعي للأجسام بطريق الطفو ، فيضعون مثلا من البلوط متوازيا مستطيلا في وعاء فيه ماء فيطفو فوق سطحه ، ويحسبون الجزء الطافي والجزء المنغمس في الماء ويترحون الطافي من المنغمس ، فالباقي يكون هو الوزن النوعي للبلوط وهو طبعاً أخف من الماء بعكس الحديد والزئبق والبلاتين والذهب فإنها أثقل من الماء .

أليس هذا عجبا ! أن الماء يصبح حكما في معرفة كثافة الأجسام ( وكتلتها ) المندمجة في أحجامها ، فالكتل المندمجة في الأحجام التي تعرف بها كثافة الجسم يظهرها الماء ، فإن كانت الأجسام أخف من الماء طفت أو أثقل انغمست ، وهناك درجات معينات لثقل الأجسام وخفتها قد أظهرها نفس الذي جعله الله ميزانا يوزن به ثقل الأجسام وخفتها .

هاهنا علمت أيها الذكي لماذا ذكرنا هنا كواكب السماء ، ومقادير أبعادها وأحجامها وعدد حركاتها فإن أجسام المعادن والخشب وغيرها ثلث وخفت بمقادير معينة عنها الماء وأوضحها أيما إيضاح كما تعينت الأبعاد والأحجام في السيارات ونسبنا أحجامها وسنينا إلى حجم الأرض وسنينا ، والنسب الكوكبية في السيارات لا تتغير والنسب الوزنية في الأجسام الأرضية ووزنها النوعي لا يتغير ، وهذا قوله تعالى « قالنا أتينا طائعين » فهذه هي الطاعة ، طاعة الكواكب وطاعة الأجرام الأرضية ، بل الطاعتان ترجمان لأمر واحد هو الجاذبية ، والحديد ثقيل وخشب البلوط المتقدم خفيف ، فغاص الحديد في الماء وطفا الخشب على الماء ، ذلك لأن الحديد أكثر كثافة من الخشب ، فلذلك انجذب إلى الأرض على مقدار كثافته ، فكان أسرع نزولا إليها ، فقلنا هذا ثقيل ، فلكل من الخفيف والثقيل حركات تخصه نسبيها ثقلا وخفة كما اختلفت حركات الكواكب بالنسبة لاختلاف أوصافها وأحوالها وأبعادها ، ولقد بنوا على قاعدة ( أرشميدس ) تطبيقات أخرى وهالك بيانها :

- ( ١ ) منها أن انغماس السفن في مياه البحار الملحة أقل من انغماسها في مياه الأنهار العذبة .
- ( ٢ ) ومنها أن السمك يتمكن من الغوص في الماء إذا ضغط حوصلته ويصعد فيه إذا مددها فالتسعت ، فبالضغط والتمدد لحوصلة العوم فيه يضم جسمه فيغوص في الماء أو يكبر فيرتفع ، وهذه الحوصلة يراها الإنسان وهو يأكل السمك .
- ( ٣ ) ومنها أن السفينة إذا مست قرار البحر أو غاصت في رماله ، فلنجاتها وإنقاذها تربط في سفينة أخرى عائمة ثقيلة الحمل ، ثم يلقى حمولها فترتفع وترتفع معها السفينة الغائصة الغارقة .
- ( ٤ ) ومنها أن جثث العرقى تطفو على سطح الماء بعد أيام لأنها تحللت مادتها فتكونت فيها غازات تصيرها أقل كثافة من الماء فتطفو عليه .

\*\*\*

هنالك حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يسألني في مسائل هذا التفسير . فقال : هاهنا سمعت كلمات ربما تكون غامضة على كثير من قراء هذا التفسير ؛ وأنا رأيت أنك تريد أن تجعله سهلا لجميع القراء ، ذكرت السفينة التي تزن ( ٥٠٠٠ ) طونولاته ، وذكرت الجرام ، وذكرت الستيمتر المكعب ، فكل هذه ألفاظ تحتاج إلى إيضاح . فقلت : أعلم أن الله عز وجل كما جعل الماء في الأرض حياة لأجسامنا ونماء لزرعنا وأنعامنا جعله ميزانا لأعمالنا ، والموازين على قسمين : موازين طبيعية ، وموازين صناعية . فالموازين الصناعية هي التي سألتني عنها . فأما الموازين الطبيعية فهي الوزن النوعي ، ومعنى هذا أننا نعرف تراكم المادة في الرصاص أكثر من تراكمها في النحاس ، ونعرف تراكمها في النحاس أكثر منه في الحديد وفي الحديد أكثر منه في الخشب بموازنته بالماء ، فالماء هو الذي يحكم بينها . ولقد وجد العلماء ما يأتي :

الاردواز : وزنه النوعي ٢٧ والبلائين : وزنه النوعي ٥ ر ٢١ والحديد ٨٦ ر ٧ والحارصين ١ ر ٧ والنذهب ٣٢ ر ١٩ والرغام ٨ ر ٢ والرصاص ٣٧ ر ١١ والعاج ٩ ر ١ والفضة ٥ ر ١٠ والفلين ٢٦ ر ٠

والفولاذ ٧٩٩ والقصدير ٢٩ ر ٧ والكهرمان ١ ر ١ واللبخ ٥٨ ر ٠ والماس ٥٢ ر ٣ والنحاس المطروق  
٩ ر ٨ والنيكل ٩ ر ٨ .

هذه أشهر الموازين النوعية ، فإذا أتيت بالعاج وعينت منه حجما خاصا فإنك تجد وزنه يساوي الحجم  
الذي يساويه من الماء مرة ٩ من عشرة من ذلك الوزن ؛ وإذا فعلت مثل ذلك في الذهب رأيت كتلة  
الذهب أثقل من نظيرتها من الماء أى المساوية لها في الحجم ١٩ مرة ونحو ثلث المرة وهكذا .

فهذا هو الماء الذي جعل معيارا للوزن النوعي لهذه الخلوقات ، الماء معيار للوزن النوعي ، ولماذا كان  
كذلك؟ ذلك لسر الربوية ، سر خفي ، سر يحمله الناس ، الناس يركبون السفن وهم تسير من قطر إلى  
قطر ، ولا يعرفون منها إلا أنهم بها يصلون لأغراضهم ، وفاتهم أن حياتهم قصيرة ، وأنهم خلقوا في الأرض  
للدراسة ، وأن هذه العقول لم توضع في أدمغتهم إلا للدراسة ، يركبون السفن ويفعلون عن السر الذي  
حفظها ، ويفعلون عن قول مجرى السفن في البحر « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن  
الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

إذن الآيات على قسمين : آيات في نفس السفن ، وآيات في هبوب الرياح . أما آيات الرياح فقد تقدمت  
قبل هذا المقام مستوفاة . وأما آيات نفس السفن فهي التي نحن بصدد الكلام عليها .

العقول النائمة لاتعقل أن في السفن آيات ، ولكن العقول المفكرة تدرس السفن وتعقل الوزن النوعي  
لها ، وتدرس قوانين صعودها فوق سطح الماء ، وتعرف أن هذا الماء أمره عظيم . إن أمر الماء وبقائه  
متناسب الأجزاء محفوظ القوام هو الذي به بقيت السفن وحفظت وجرت ، ولو أن أجزاء الماء اختلف نظامها  
لغرقت السفن ؛ كما أن الكواكب التي تقدم وصفها لبقاء لها في مداراتها إلا بمسك أمسكها بقيت في مداراتها ،  
إذن هنا مسك يمسك الكواكب في مداراتها ويمسك ذرات الماء فتبقى متلاصقة متماسكة ويمسك ذرات  
الحديد والنحاس والذهب فتبقى متماسكة ثابتة ، ولولا هذا المسك لم يستقر قرار لهذه الموجودات .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أثرت السبل بالعلم ، وحفظت هذه الدنيا ، وأقمت نظامها . هذا العالم الذي  
نعيش فيه كله مركب من مادة في غاية الصغر وأجزاؤها الدقيقة وهي الجواهر الفردة بينها مسافات في غاية  
الصغر ويسمونها المسافات ( الجزيئية ) ولم ير أحد الجواهر الفرد المذكور ولم يرق دليل على وجوده ولكنهم  
اقتنعوا به في تعليل الظواهر ، ولقد أظهر المنظار المعظم أن آلاف الآلاف من الخلوقات الحية تعيش في قطرة  
ماء كما ذكرناه كثيرا في هذا التفسير ، وهذا القول يدرس الآن في مدارس الشرق والغرب فلا خلاف فيه  
ولا منكر له ، وهذه الملايين من الأحياء تنمو وتكثر هناك ، ولا يخلو منها مستنقع ، وهي تتعذى بدقائق  
أصغر منها لاتتكاد تدرك لصغرها . ومع ذلك يعتبر الجواهر الفرد أصغر من هذا كله .

إن العلامة الانجليزية (وليم تمسن) توصل بطريق الحساب إلى ما يأتي : « إذا تصورنا قطرة ماء تمددت  
حتى تبلغ حجمها حجم الأرض ما بلغ حجم الجزيء فيها حجم رملة » .

فإذا كانت هذه حال المادة من الصغر والكثرة ومسافات الصغيرة بين تلك المواد الدقيقة فليس يحفظها  
متلاصقة مجتمعة إلا أمر آخر هو الذي يسمى « قوة التماسك » .

يقول علماء الطبيعة ، « إن كل جزئين من نوع واحد يجذب كل منهما الآخر بقوة تتغير تبعاً لطبيعة  
مادتهما وتقوى تبعاً لصغر المسافة بينهما ، وخاصة التجاذب هذه المسماة « قوة التماسك » واضحة جدا في  
الأجسام الصلبة ، وأقل وضوحاً في السوائل ؛ ومعدومة في الغازات . فقوة التماسك المذكورة هي القوة التي

بها حفظت دقائق الماء متلاصقة بحال واحدة ، وكرات الكواكب في السماء في مدارتها وهو المعبر عنه بقوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .

فبهذا عرفنا بعض آيات الله في السفن الجارية في البحر كالأعلام ، فهي جرت في البحر لأن ذرات الماء الدقيقة جدا ذات المسافات الصغيرة بقيت متماسكة بحال واحدة في جميع الأزمان فعاش الناس آمنين ؛ يسافرون عليها ولا يخافون افتراق هذه الأجزاء فتغرق السفن لأن الله لا يخلف وعده « وعد الله لا يخلف الله وعده » فإله لا يخلف وعده في حفظ الكواكب في مداراتها وفي سيرها منظمة ، ولا في انتظام أجزاء المادة وتلاصقها وبقائها محفوظة كما حفظت الكرات السماوية ، فبقى الناس آمنين على انتظام أزمانهم وساعاتهم ، وآمنين من الغرق فلا تتفرد أجزاء الماء المتصقة ؛ إذن هنا قوة حافظة لهذه العوالم كلها ، وكذلك الله لا يخلف وعده في حفظ أجزاء الحديد والنحاس والذهب والفضة والخشب ، فهو يبقها بالقوة التي تمسكها فتبقى بوزنها النوعي ، فيعيش الناس بها بسلام مطمئنين على ذلك الوزن النوعي وهم سالمون آمنون ، كل ذلك سر قوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » الخ وبهذا تم الكلام على الموازين الطبيعية .

أما الموازين الصناعية التي سألتني عنها ، فاعلم أيدك الله أن الماء كما كان بثباته سببا لمعرفة الوزن النوعي للأجسام صار أيضا سببا لمعرفة الموازين الصناعية التي اصطلح عليها الناس أجيالا وأجيالا ، وذلك أن المتر وهو المقياس الفرنسي المشهور ينقسم إلى مائة جزء كل جزء منها يسمى سنتيمترا ، وهذه المائة إذا رُبعت تصير عشرة آلاف ، وإذا كُعبت تصير ألف ألف من ضرب مائة في مائة في مائة ، فهذا هو المليون .

فإذا كان لدينا إناء طوله متر وعرضه متر وعمقه متر وملائناه ماء مقطرا درجته أربعة فوق الصفر فإن هذا الإناء يكون قد حوى ألف ألف سنتيمتر مكعب ، وكل واحد منها طوله سنتيمتر وعرضه كذلك وعمقه كذلك وكل واحد منها سموه جراما . إذن هو يحتوى على ألف ألف جرام أو ألف كيلوجرام ، ولا جرم أن هذه تبلغ فوق (٢٢) قنطارا ، ومعلوم أن الكيلوجرام (٣٢٠) درهما وبضرب الألف فيها تبلغ (٣٢٠) ألف درهم . والقنطار (٤٥) كيلوجراما .

إذن القناطير (٢٢) قنطارا ، ويضاف إليها (١٠) كيلوجرامات ، وهذه أيضا (٨٠٠) أقة ، وكل ٣٦ أقة قنطار فيكون الباقي بعد (٢٢) قنطارا (٨) أقات .

إذن الطنلاته تبلغ (٢٢) و(١٠) كيلو جرامات أو (٨) أقات . إذن الماء بثبات دقائقه وتلاصقها حفظ لنا أوزان الأجسام النوعية أي التي نسب ثقل أحجامها إلى ثقل حجم الماء المساوي لها في الحجم بحيث يكون مضاعفا له مرتين أو عشرة أو عشرين أو مساويا لبعض أجزائه كالثلث والربع كما تقدم . وحفظ لنا موازيننا المعتادة من الجرام ومضاعفاته وما يوازنه من الدرهم والأرطال والقناطير . ذلك كله يدعو إليه فهم قوله تعالى « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ولقد تبين لك من هذا المقام أن هذه المعاني لا يمكن أن يعقلها إلا من يصبر عليها صبرا مستمرا وإلا فكيف يتسنى للرجل الشهواني الغر الجاهل أن يصبر على ما ذكرناه هنا من عالم الكواكب المناسب للمقام وعالم الماء وعوالم المعادن ونحوها ، ويستمر في بحثها ويصبر على دراستها ، ولا جرم أنه إذا صبر هذا الصبر أصبح شاكرا لأن الشكر يرجع إلى فهم النعمة ، وفهم النعمة لا يعقل إلا بالصبر على دراستها وتعقلها وكما كان الصبر على الدراسة أتم كان الشكر أوفر . ولذلك يقول الله « لكل صبار شكور » وكلاهما صيغة مبالغة فمن بالغ في الصبر كان أكثر شكرا وعلى مقدار الصبر ودراسة النعمة يكون شكرها ، وشكرها أن يحس

الإنسان في نفسه بحب لمسدى النعمة ، وينطق لسانه بالثناء في المدارس والجامع والمواظ ، وتنطلق جوارحه بخدمة الأمم التي يعيش الشاكر فيها ، فهو كما يعشق مسدى هذه النعم ويحبه لإتقانه صنعه وإبداعه يكون مصدر العلم والخيرات لعباده ، بل يكون خليفته في الأرض ، وذلك بأن يكون مقتدياً بالأنبياء سائراً على نهجهم في الإصلاح وإسعاد الناس ، وهذا الشكر هو الذي ورد وجوبه في قوله تعالى « واشكروا لي ولا تكفرون » فعلى مقدار العلم يكون هذا الشكر .

ولا جرم أننا مأمورون بازدياد الشكر وبازدياد العلم ، وهذا وجوب عيني على كل قادر نص عليه علماء الأصول . فقالوا : « شكر المنعم واجب » وقد علمت معناه .

أما إسداء النعم للناس بهذه العلوم فهذه فروض كفايات ، والأمم الإسلامية اليوم قصرت في ذلك كل التقصير . فأمثال هذه الموازين النوعية الطبيعية ، والموازين الاصطلاحية لا بد لها من رجال مختصين بها ويكون عددهم على حسب احتياج الأمم الإسلامية ، فلتدرس هذه العلوم جميعها ، ولتوزع على جماعات تكفي نظام الأمم الإسلامية وحياتها ، هذا تحقيق المقام والحمد لله رب العالمين ، تم هذا الموضوع مساء يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٩ م .

### إيضاح بعض أسرار قوله تعالى

« ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » إلى قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »

مع قوله تعالى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الآية

هاهنا جعل الله السفن الجاريات من آياته ، وهذه الآيات لا تظهر إلا لمن صبر وشكر ، فأما الصبر فعلى العمل والتنظيم ، وأما الشكر فلا يكون إلا بعد فهم النعم ، وكيف تفهم إلا بالدراسة ، ومن عجب أن آية سورة فاطر مثل هذه الآية في ترتيب نظامها إذ يقول تعالى « وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فالابتغاء من الفضل إنما يكون بالعمل ولا عمل إلا بصبر ، فالابتغاء هناك في مقابلة الصبر هنا والشكر مشترك بينهما ، ولقد بينت هناك بعض تعميم السفن من حيث تسهيل النقل مع وصف البحار وأعماقها ، وذلك كله موجب للشكر ، فإنك ترى هناك أن في البحر عجائب مثل الكاشالوت ذو الأنياب المحددة والروكال الذي يبلغ طوله (١٢٠) قدماً ، ومثل عمق البحر (٢٧٥٠) قامة مع أن النور لا يبعد أكثر من (٢٠٠) قامة ، فهناك في الظلام حيوانات تعيش بلا نور خارجي ، بل إن النور يخرج منها نفسها ، فهو تحت أمر السمكة ، إذن هناك في (٢٢٥٠) قامة في الظلام أحياء ، ومنها ماله نور فسفوري . وفي البحر المرجان يبني جزائر كثيرة كما بنت الأرض في اليابسة مباني عالية ، إذن الأرض برا والمرجان بحرا فعلا ما عجز عنه الناس ؛ فإن المرجان أحدث في البحر آلافاً من الجزائر عاش فيها الحيوان والنبات ، ومن العجائب أن قوة الحصان تجر (٣٠٠٠) رطل في البر بسرعة ثلاثة أقدام في الثانية ، وعلى السمكة الحديدية (٣٠٠٠) رطل للمسافة نفسها والوقت نفسه ، وفي البحر (٢٠٠٠) رطل ، إذن الماء أكسبنا تسهيلاً فوق السير المعتاد (٧٠) مرة ، هذه سر آية « وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » إذن المسلمون عليهم أن تكون لهم يد في البحار عظيمة ، هذا ملخص ما كتبه هناك .

وأزيد هنا ما جاء في كتاب (الجغرافيا التجارية الاقتصادية) لمؤلفه الأستاذ محمد حمدي بك ناظر مدرسة التجارة العليا . فقد جاء فيه ما يأتي :

## الإنسان ومغالبة البحار والمحيطات

في موضوع ترقى الملاحة

ملاحة الأنهار . علاقتها بالسكك الحديدية والقنوات .  
ملاحة البحار والمحيطات . مراكز التجارة . الموانئ  
وأنواعها وأشهر الموانئ التجارية . الموانئ المصرية  
تأثير القنوات الملاحية في تجارة المحيطات . قناة  
السويس . قناة بناما .

الملاحة غريزية في الإنسان من القدم إذا كان يدفع بنفسه في الأنهار والبحيرات لصيد الأسماك وكان ولا يزال يأوى للسكنى على سطح البحيرات في مساكن يقيمها هنالك أمانا من الأخطار التي يمكن أن تحمل به من البر فكان دائما في حاجة شديدة إلى أي نوع كان من الزوارق .

ولا يخفى ما للأنهار من الأهمية في اجتياز الممالك الغاية أو المستنقعات ، كذلك لا يخفى أن قواعد المدينة الأولى كانت راسخة في وديان الأنهار العظمى وإذن كانت هذه الأنهار سبل التجارة بين أرجاء البلاد مثل مدينة المصريين القدماء على تلك السلخة الأرضية التي يغمرها النيل بحيره ومثلها بابل وآشور في الوديان السفلى لدجلة والفرات ومما نلاحظ في نظام تجارة مثل الممالك سابقة الذكر أن تقوم المملكة بسد حاجاتها بنفسها خصوصا فيما يتعلق بمواد الغذاء الرئيسية التي هي موضوع التجارة الدولية في العالم في الوقت الحاضر على منوال لم يسبق له مثيل . وإذا كانت قد قامت حركة تجارية بين تلك الأمم القديمة بواسطة الطرق البرية فإما كان ذلك في أواخر أدوارها من الرقي وكانت قاصرة على المواد الصغيرة الحجم الغالية الثمن من اللذائذ لا الضروريات التي لا مندوحة عنها ولم يسمع في عهدها بالتجار في المواد الأولية والصناعية ( بكميات طائلة ) لأن طريق البر كانت تستخدم فيها الناس والدواب للنقل فكانت الأحمال على قدر طاقة هؤلاء فضلا عن أن التجارة كانت عرضة في الزمان القديم إلى سطو اللصوص وقطاع الطريق إذا انتقلت إلى مسافات بعيدة برا أو بحرا .

ولقد كان التدرج في بعض الممالك من ملاحة الأنهار إلى ملاحة البحار طبيعيا وفي أمم أخرى كانت ملاحة البحار هي الخطوة الأولى لها كما بين سكان الجزر في المحيط الهادي أو الاسكيمو في القطب ، فترقى الملاحة إذن ليس أمرا قديما فحسب بل هو أمر عام في أنحاء الأرض ولا يقع طبعاً في الأصقاع الجافة الحالية من الأنهار كما يفهم من حال العرب في بدء مدنيتهن حتى لقد كان يكره سيدنا عمر البحر ويهابه مع أنه كان يرى فضل النقل بالماء إذ أمر بحفر خليج أمير المؤمنين بمصر ، ولا في الأصقاع المحوطة بالبحار الخطرة الطلقة الساحة كما في الجنوب الغربي من أفريقيا .

وترقى صنع الفلك يمكن تفصيله في التاريخ ابتداء من الخشبة الطافية فالبوص المخزوم مما يتسنى له أن يحمل رجلا وحمله ثم الكتل الخشبية المفرغة فالهيكل السبقى المحوط بالجلد فالتقارب المصنوع من الأخشاب المسعرة ثم إلى تهيئته (بالدفة) وهكذا .

والبوص هو أشهر ما صنع منه الفلك قديما في الممالك الخالية من الأشجار في مثل أراضى النيل وبحيرات العجم، وأول ما ظهر من القوارب على شكل الأسيات الملقوفة في الجلود كان في نهر الفرات ثم امتد التقليد والترقى في ذلك تدريجيا .

وفي الأدوار الأولى للرقى التجارى تقتصر المملكة على استخدام أنهارها الملاحية وتكون هذه في غاية الأهمية لأهلها ولكنهم في أدوارهم الأخيرة يعمدون إلى استعمال السكك الحديدية مع الأنهار التى ربما قد يقل استعمالها بترقى هذه السكك ولنضرب لهذه الأدوار أمثلة :

ففى حوض « الأمازون » تجرى جميع المواصلات تقريبا بواسطة الأنهار والنهر الرئيسى قابل للملاحة بواسطة البواخر الضخمة المحيطية إلى مسافة ٣٠٠ ميل لغاية بلدة « ايكويتوس » ثم ما فوق هذه مسافة ٥٠٠ ميل قابل للملاحة بواسطة مراكب أقل حجما مما تسحب الواحدة أربع عشرة قدما ثم يصادف النهر شلالات كثيرة مثل « بنجودى مانزريكى » وغيره، وهى من خصائص نهيراته أيضا لاسما فى كثير من جهاتها العالية وفى أواسطها وأحيانا فى أسفلها فتجرى الملاحة بواسطة الأنهار فى كل جهات البرازيل إلا إذا اعترضتها الشلالات فيلجئون إلى نقل البضائع برا، وليس بالبرازيل سكك حديدية إلا ما ندر منها على الشواطىء ولقد شرعوا حديثا فى مد خط على نهر ما ديرا من سان انطون على مقربة من شلالات متواليه (١) .

وحوض « الكنفو » من أحسن ما يمثل ارتباط التجارة النهرية بالسكك الحديدية إذا تعذر تسيارها بسبب الشلالات تدخل مراكب المحيط من المصب إلى « ما نادى » ومن بعدها شلالات هى من خصائص جميع الأنهار العظيمة لأفريقية حتى فى مجاريها الواطئة وهى التى كانت سببا مهما فى تباطؤ كشف أفريقية ورقى تجارتها، لأنه يتعذر سلوك الأنهار إلى الداخل لذلك توجد سكة حديدية طولها ٢٦٠ ميلا من مانادى إلى « ليوبولدفيل » على بركة « ستانلى » فيتجنبون بواسطتها شلالا عظيما اسمه « يلالا » وبعد ذلك يوجد نحو ١٠٠٠ ميل من النهر صالحة للملاحة لغاية شلالات استانلى فتوجد سكة حديدية أخرى تبلغ ٣٠٠ ميل لتحاكى هذه الشلالات أيضا وهى من « ستانلى فيل » إلى « بونثير فيل » ثم يعقب هذه ٣٠٠ ميل من النهر قابلة للملاحة وبعدها سكة حديدية ثالثة من « نيانجوى » يصلون بها إلى جزء آخر من النهر قابل للملاحة فى « لوالايا العليا » (٢) .

وكذلك هو الحال فى « وادى النيل » إذ ترى مثل هذه الخصائص من عدم وصول السكة الحديدية فيه إلى حد السككال فهى تمتد فى حوضه الواطىء من البحر الأبيض المتوسط إلى الشلال الأول على مدى ٧٠٠ ميل تقريبا ثم تنقطع لضيق الوادى وتبتدىء ثانية من وادى حلفا فى حوضه الأعلى إلى السودان المصرى الإنجليزى فيبقى النهر الوصلة بين الشلال ووادى حلفا وهكذا يجب تتبعها لدراسة سيرها مع النهر .

وفى « كولومبيا » بجنوب أمريكا أمثلة كثيرة للسكك الحديدية التى وظيفتها مجرد إيصال بعض المدن الشهيرة على الأنهار بالمدن الواقعة خارجة عنها ، ويحسن لذلك دراسة حوض « المغدلىنا » . وترداد فوائد الأنهار بشق الترع والقنوات فى أحواضها، والقنوات إما أن تشق وتكون حافظة مستوى واحدا على طول مداها فيتبع فى نظام حفرها مستوى سطح الأرض وإما أن يكون من نظامها تغيير ارتفاع سطح الماء فتجهز « بالأهوسة » وقد تبنى الأهوسة كذلك على الأنهار نفسها إذا كان تيارها سريعا لا تيسر

( ٢٠١ ) يجب تتبع هذه المعلومات فى خريطة طبيعية سياسية .

معه الملاحه أو إذا اعترضته الشلالات في مثل قناة «سولت سان ماري» .

وبما أن مجرى الأنهار والترع تكون عادة متعرجة فقد يصيب جوانبها التلف إذا سارت فيها المراكب بسرعة ودفعت بالمياه يمينا وشمالا فضلا عن أن الأهوسة تكون معطلة قليلا لتوالي سير المراكب لما تقتضيه . من الانتظار في رفع الماء وخفضه لذلك ولأسباب أخرى كانت الملاحه بالأنهار والقنوات بطيئة غير مسعفة ولكنها مع ذلك ذات شأن في نقل الأحمال الثقيل كالفحم وغيره من المواد الضخمة نظرا لرخص الحمل على الماء فيكون ذلك أرجح أحيانا من سرعة القطارات الحديدية ولما تجمد «السين» في سنى الحرب دأبوا على قطع الجليد منه ونسقه بالديناميت ليتسنى استخدامه مع أنه في سنى السلم كان ملهى انزلاق .

ونظام القنوات الملاحية في وسط أوروبا وغربها عجيب جدا ومفيد من الوجهة التجارية الفائدة العظمى إذ يشتبك جميع الأنهار العظمى بعضها ببعض «الرين والرون والألب والأودر والفيسستولا والطنونه والسين واللوار» بقنوات في غاية العظمة والمنفعة وبين ألمانيا وبلجيكا وهولانده وفرنسا قنوات ملاحية من الدرجة الأولى في الحركة التجارية وعليها تمر الحمولات العديدة الضخمة .

ولبعض الأنهار والقنوات في شمال أمريكا أهمية عظمى في التجارة؛ فالمسيبي ونهراته عماد حركة تجارية في طول البلاد وعرضها وقناة هادسن وإيرى التي تصل نيويورك بالبحيرات العظمى - والبحيرات العظمى - نفسها ، العليا وميشيغان وهورون وإيرى وإنتار يوقطب رحي الحركة التجارية في كندا والولايات المتحدة وعامل من عوامل رقي التجارة الداخلية لتلك الجهة ، ولقد أقيمت الأهوسة تحاشيا لشلال سولت سان ماري وتسمى «سو» بين البحيرة العليا وهورون ومن وقت ما أخذت هذه القناة الطبيعية في الحركة التجارية إلى الآن بلغت محمولاتها من البضائع آلاف الآلاف بالنسبة لعهد بدءها ولم يمض عليها إلا نصف قرن كذلك يوجد بين ميشيغان والمسيبي قناة تجارية عظمى وتوجد أخرى بين بحيرة إيرى وأنتاريو تحاشيا لشلال نياغرا ونهر سان لورانس قابل للملاحه من بعد بحيرة أنتاريو إلى المصب . هذا ، ويوجد في كندا قناة ملاحية أخرى من خليج جورجيا في بحيرة هورون إلى بحيرة أنتاريو ، وستشق أخرى بين خليج جورجيا المذكور ونهر أتاوة لتقصير المسافة وعدم ضرورة مرور تجارة هاتين الجهتين في البحيرات كما يتضح من الخريطة .

هنالك يحمل قح كندا في المراكب التجارية من فورت وليام وبورت أرثر على البحيرة العليا ويحمل قح الولايات من موانيه ديوت وشكاغور إلى بافاب ثم يوزع منها ويحمل الغنل من الحديد من بعض الموانئ على البحيرة العليا وميشيغان إلى جهة بحيرة إيرى ؛ والحركة التجارية في الفحم عظيمة جدا وأكبر محمولات المراكب التجارية لهذه البحيرات تباع ١٣٠٠٠ طن أو أكثر - من الفحم والحديد وماضخم حجمه ومراكب ظهر الحوت للقمح حمولة الواحدة ١٠٠٠٠ طن .

وأنهار الملاحه العظمى هي التي يتوافر من شروطها أن تصب في المحيطات التجارية العظمى لأن المالك القابضة على زمام التجارة واقعة على المحيطات خصوصا الأطلسي وله ثلث الحركة الخاصة بأنهار العالم التجارية وللهادى سبعا وللهندي ثمنها والباقي للمحيط المتجمد وداخل القارات .

## مراكب التجارة

كانت التجارة البحرية تترقي تدريجياً متباطئاً فلم تظهر مراكب التجارة في أشكالها وأحجامها الضخمة إلا من عهد ليس ببعيد، فقد كانت أقصى حمولة المراكب الرومانية في البحر الأبيض ٥٠٠ طن أو أكثر من ذلك بقليل. وفي عهد الاكتشافات وعبر المحيطات بلغت حمولة بعض المراكب المستخدمة ١٠٠٠ طن وعبر كولمب الأطلنطي في مركب حملتها في ٢٣١ طن لاغير، ولما اكتشف البخار أحدث تغييرات عظيمة جدا في حمولات المراكب فعبرت أول مركب بخارية المحيط الأطلنطي سنة ١٨١٩ ثم اشتهر بعد ذلك صنع المراكب من الحديد وفي سنة ١٨٧٥ صنعت من الصلب وتفوقت هذه الصناعة على الأولى وازداد عدد المراكب البخارية من هذا الحين حتى تساوت في إنجلترا حمولة الشراعية والبخارية بين سنة ١٨٦٥ - ١٨٧٠ وأخذ عدد المراكب البخارية من ذلك الحين يعلو عدد الشراعية، ففي خلال سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٤ زيد سنويا على الأسطول التجاري الإنجليزي ٢٤٠ مركبا شراعية متوسط حمولة الواحدة ٦٥٠ طن ولكن في خلال سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٩ لم يزد سنويا عليه إلا ١٥٠ مركبا فقط بينما ازداد عدد المراكب البخارية سنويا من ٥٠٠ - ٦٠٠ مركب ولا يوجد الآن من المراكب الشراعية إلا رابع أسطول العالم.

ولقد أدخل حديثا في المراكب الشراعية الكبرى آلات بخارية بغرض إخراجها من الميناء أو تسييرها في مناطق السكون وزاد عدد المراكب التي من هذا النوع على أنه لا تزال الحاجة إلى المراكب الشراعية ماسة في التجارة في بعض النواحي فهي تحمل للآن غلال كاليفورنيا وبرتات أمريكا الجنوبية ويتجر بها على ساحل البامبيك لأن هذا الساحل لا توجد على مقربة منه مناخ فخم يمكن للمراكب البخارية أن ترسو عليها ولا يزال جزء عظيم من التجارة بين مصر وسوريا والأناضول والبلقان تحمله المراكب الشراعية وغير هذه الجهات كثير.

وكان للإمبراطورية البريطانية قبل الحرب  $\frac{1}{3}$  من مراكب العالم البخارية وقسط كبير من هذه النسبة تابع لبريطانيا نفسها لأن بريطانيا جزيرة في الاطلنطي كثيرة الموانئ البحرية وهي في حد ذاتها مملكة شهيرة بالصناعة شهرة فائقة وواقعة بين أسواق أوروبا وأمريكا فهي من كل هذه الوجوه أسعدت جهات العالم بصلاحيه موقعها للتجارة البحرية وبريطانيا وأرلندا كانتا تبنيان ثلثي مراكب العالم وكان للولايات المتحدة أكثر من  $\frac{1}{8}$  من أسطول العالم التجاري وكان لألمانيا  $\frac{1}{4}$  منه وكلتا المملكتين تترقي في الصناعة ترقيا سريعا وبمهما أن تملك أساطيل تجارية جرارة ومن بعدها تأتي النرويج وكان لها تقريبا  $\frac{1}{13}$  وهي نسبة عظيمة بمراعاة عدد السكان فهي ليس لها صناعات عظيمة مثل المالك الأولى وهي جبلية قفرة ليست غنية بالمزارع الكثيرة ولا بالمعادن الوفيرة ولكن لها شاطئاً كثير التعرجات تحميه على مداه جزر عدة خالية من الجليد في فصل الشتاء بالرغم من وقوعها على خطوط عرض مرتفعة وهي غنية بالأسماك والنرويجيون مشهورون بالملاحة من بدء تاريخهم يساعدهم على ذلك فيوردانهم والطرق بين الجزر المنتشرة على شاطئهم وعندهم كثير من الموانئ الطبيعية وهم دائماً على أهبة أن يزجوا بأنفسهم في البحر، فلا غرابة إذا كانت مرتبتهم الرابعة في ملاحة العالم ويأتي بعد النرويج في حمل تجارة العالم فرنسا وإيطاليا واليابان والأراضي المنحطة.

وفي نحو سنة ١٨٩٠ كانت المراكب التي حملتها أكثر من ٨٠٠٠ طن قليلة ولكن سنة ١٩١٠ كان ملك الشركات المختلفة أكثر من ٨٠ مركبا محمول الواحدة منها أكثر من ١٢٠٠٠ طن والمركب الكبيرة

ذات الحمل العظيم من البضائع قد تكلف في الصنع أقل من تكاليف مركبين محمولهما مثلها ولكن يراعى في الأولى من حيث حجمها الضخمة عمق الموانئ المستخدمة واتساع الأهوسة .

### خطاب المؤلف ربه شاكر له نعمه

قبيل صلاة الفجر يوم الخميس (١٠) رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية ، و ٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

رباه في العيون جمالك ، وفي القلوب حبك ، وفي السماء عظمتك ، أريتنا جمالا في النجوم والشموس والأقمار ، وأريتنا جمالا في الوجوه الحسان في أرضنا ، وظهرت عظمتك في الشمس الكبيرة فشمسنا أكبر من أرضنا نحو مليون وثلاث مليون مرة ، ونجمة من نجوم الجوزاء بلغت في العظم مقدار الشمس (٢٥) مليون مرة ، رباه أنت جميل ، وأنت عظيم ، رباه حرنا بين جمالك وعظمتك ، نهايك لعظمتك ونحبك لجمالك ، أنت جميل ، وأنت عظيم ، وصفان عجيبان : وصف الجمال ووصف العظمة . بالجمال أسرت قلوب الحكماء فتاهت في حبك ، وأشرقت نفوسهم إثرا قاضاهي إشراق الشمس .

أرسلت ضوء شمسك على الأرض فأعان النبات في تغذيته ، والحيوان في هدايته لسبله ، وأرسلت الحرارة من لدنك فأثارت الرياح فجرت السفن .

يارب ذاتك لأنزاهنا مخلوقون من المادة ، والمادة ماهي إلا حركات في الأثير ظهرت لنا بهذه الأشكال فقلنا مادة وماهي إلا كلماتك ؛ والكلمات غير المتكلم ، وأخلاق المتكلم والمؤلف تظهر في كلامهما ، والعالم كلماتك ، وهو تأليفك وتصنيفك ، ونحن منعنا من النظر لجمال ذاتك ، ولسكنك لرحمتك لم تمنعنا من مشاهدة تأليفك وتصنيفك وصنعتك ، ومن هذه الصنعة التي فيها كنهت أسرار آثار جمالك وبهائك ، أنوار الشمس المشرقات على الأرض ، وقد صحبتها الحرارة المنبعثة على الأرض المثيرة للرياح الحاملات للسفن .

كلما كان الجمال أدوم كانت نتائجه أغزر وأتم ؛ وكلما كان أقصر مدى وأسرع زوالا كانت نتائجه أقل عددا هذه المشرقات في السماء دام جمالها فكانت نتائجهما هذه المواليد من نبات وحيوان وسفن ماخرات في البحار ، وهذه الأوانس الحسان من نوع الإنسان قصر أمد الجمال فيهن إذ يصبحن عجائز إذا بقين في هذه الحياة ، لذلك كانت نتائجهن محدودة ضئيلة نبات وبنون .

إن نسبة دوام جمال النجوم والشموس المشرقات إلى سرعة انقضاء جمال الغواني الحسان كنسبة ما أنتجت الشمس على الأرض من نبات وحيوان وإنسان إلى من تلده المرأة من البنات والبنين ، الضوء والحرارة أرسلتهما الشمس إلى الأرض وبينهما ارتباط واتصال ، وبالحرارة جرت السفن في البحار ، فسير السفن بعض آثار الشمس الدائمة الجمال بالنسبة لجمال الفتيات . فإذا كانت هذه الحرارة والضوء المنبعثان من ذات الجمال البديع التي استمدت جمالها من جمالك وهي الشمس قد كان من آثارها كل حيوان وكل نبات فهكذا نجد من آثار الحرارة الرياح الجارية المزجيات للسفن في المحيطات السهلات للحمل بحسب العادة (٧٠) مرة .

فهذه نعم دائمة مادام الإنسان على وجه الأرض ، إنه مادام الإنسان في الدنيا اليوم وغدا وأمس يرى نعمًا مترادفة في سير السفن في البحار والأنهار ويكسب راحة فوق ما اعتاده سببين ضعفا كما تقدم . بهذا يعرف الإنسان نعمة ربه وبالتالي يشكره عليها ، وأول الشكر بعد المعرفة هو الحب ، تجرى السفن

في البحار فتحملنا لطلب المعاش أو العلم أو الحرب ونحن غافلون عن منبع الرحمة والجمال . نحن في الأرض نجد ونسعى برا وبحرا ، جارين من آسيا إلى أفريقيا إلى أوروبا إلى الشرق إلى الغرب تحت رعايتك أنت ، نحن في جوف هذه الكرات الهوائية والأرضية والمائية المعموسات في الأثير أشبه بالجنين في بطن أمه وأنت تتكأنا في أحشاء هذه الكرات والفلك بنا سائرنا بحرا والقطرات جاريات برا والقواصات محترقات بنا لججا والطائرات طائرات بنا في جو السماء ما يسكنهن إلا لطفك وحنانك ورحمتك . غرست فينا عقولا وغراز ، وأطلقتنا في هذه الأرض وأبحتها لنا ، وقلت لنا : إياكم أن تخرجوا من أقطارها ، إياكم أن ترتفعوا إلى كوكب آخر . الكواكب عليكم محرمة ، أتم هنا محبوسون كما يحبس الجنين في بطن أمه ، هو حر له أن يروح ويغدو في بطن أمه كما يشاء ، ولكني حظرت عليه أن يغادره إلا إذا بلغ الكتاب أجله ، فهكذا أتم من شيب وشبان لا تفارقون هذه الأرض إلا في أجل معلوم ، ثم قلت لنا : أنا لم أعط لأحد في هذا العالم حرية غيركم ، فلكل حيوان غريزته ، ولكل كوكب مداره ، ولكل نبات نظامه : أما أتم فاني متمتكم بنعمة الحرية التي صحبت عقولكم ، فها أتم أولاء يا عبادي .

( ١ ) أولا آخذتم البوص سفنا .

( ٢ ) فالكتل الخشبية .

( ٣ ) فالهيكل المحوط بالجلد .

( ٤ ) فالقارب من الخشب .

( ٥ ) ثم ألهمتكم صنع القطار في البر ، فأتم لكم أعمالكم التي لم تقوم بها سفن البحار لاسيما إذا صدها الشلال في وسط الأنهار .

وهكذا أخذتم تزيدون سفنكم اتساعا؛ فبعد أن كانت تحمل ( ٥٠٠ ) طن في زمن الرومان ازدادت فصارت تحمل ( ١٥ ) ألف طن فضوعف المحمول ( ٣٠ ) مرة وتزيد ، وذلك بما ألهمتكم أن تصنعوا السفن من الحديد والصلب وتقووها بآلات بخارية ، ومن فضلى عليكم أن سفنكم البخارية على قسمين : قسم منها يجري في خطوط معلومة يحمل ركابا وبضائع ، وقسم منها جوال في البحار والمحيطات لفوائد غزيرة لا يلتزم خطا خاصا ، وقد أعددت أماكن من شواطئ أنهاركم وبحاركم لتكون « موانئ » ولا تصنع السفن إلا على مقتضى هذه الموانئ :

( ١ ) فأمثال موانئ ( لندن ) و ( لفربول ) و ( همبرغ ) و ( أنقرس ) و ( روتردام ) و ( فيلادلفيا )

موانئ جاءت عند مصب الأنهار ، فهي بوقوعها على البحر تصدر منها البضاعة إلى الممالك الأجنبية وبوقوعها على النهر تصرف البضائع في الداخل والعكس .

( ٢ ) وأمثال موانئ نيويورك وسان فرانسيسكو موانئ طبيعية ، وهكذا موانئ بلاد النرويج ، فهذه

كلها اتسع داخلها وضاق مدخلها والموانئ الطبيعية جعلتها لكم نموذجا لتتخذوا لكم نظيرها بضاعاتكم .

فكما أنكم رأيتم خشبا وورقا يعوم فوق الماء فمقرتهم بعقولكم أن هذا الماء يحمل السفن فصنعتموها

هكذا هذه الموانئ الطبيعية التي صنعها لكم فتمت لكم بابا للموانئ الصناعية فصنعتم بأنفسكم ميناء

الاسكندرية وميناء دوفر ، أن الثلج يعوق سفنكم أن تدخل ميناء ريفا على البلطيق المسماة ( أوست دفتسك )

في فصل الشتاء ، وهكذا في الموانئ الواقعة على سان لورانس في كندرا ( كوبيك دمنترال ) فهاتان

تعلقان من نصف ديسمبر إلى إبريل ، فهذه كلها وإن صدكم عنها الثلج شهورا فإنها موانئ مشهورة

ونظامها كنظام الليل والنهار . فكما أنكم بالليل نيام وبالنهار تعملون ، هكذا جعلت هذه الموانئ ذات

نوبتين : نوبة للسكون ، ونوبة للعمل لأفتح لكم باب النظر والفكر ، ولقد ألهمتكم أن وصلتم البحر الأبيض بالأحمر بحفر قناة السويس فزادت حركة التجارة بين الشرق والغرب ، وفتحتم الطريق البحري الغربي إلى الهندي بحفر قناة ( بناما ) ذات القناطر الست المزدوجة التي تقطعها السفن في نحو عشر ساعات وتمرفها (٤٠) مركبا في (٢٤) ساعة وبهذه القناة سهلت تجارة بريطانيا وألمانيا وفرنسا الخ مع بعض الولايات المتحدة وكندا ومع المكسيك وجواتيالا وزيلانده وشيلي وبيرو وهكذا. هذه يا عبادي أعمالي ورحمتي لكم الواسعة ولكن ليس معنى هذا أن تعيشوا كعيش السمك في البحر ، أو الطير في الهواء ، أو الهوام في التراب ، أو الأنعام فوق الأرض ، هذه كلها لحرية عندها كحريتك بدليل أنها لزمتم الخطط التي رسمتها أنا لها ، أما أتم فإني منحتكم الحرية وجعلت الأرض والأنهار والبحار مدارسكم فتعيشون إلى أمد ثم تموتون ، وقد ظهرت حريتك في أعمالكم البرية والبحرية المذكورة وبهرت ، فكما ظهرت آثار حريتك في الأعمال الحيوية في الحياة الدنيا فلتظهر ولتظهر فيما هو أبعد مدى وأشرف منزلة من شرف نفوسكم وإسعادها وترقيتها ، إنني خلقت في أرضكم فلاسفة وأوحيت إلى أنبياء وقلت لهما : أفهموا عبادي أن ما يفنى لا قيمة له ( كما تقدم في مقال سقراط قريبا في آية « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ ) لا يعرفنكم ما تصنعون وما تملكون ، ألم تقرأوا الآية التي بعد هذه الآية وهي « فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » فهذه السفن الجارية والمصانع والمتاجر والممالك لابقاء لها ، كلها زينة لكم وجمال ولكنها فانية كما يفنى جمال فتيانكم وفتياتكم ، إذن فليكن حرصكم على الجمال الدائم ، والجمال الدائم ملازم للحياة الدائمة التي منها امتدت الشموس طول بقائها وأضاءت أرضكم بأنوارها ، إن جمال الإنسان وكل ما أوتي من زينة الحياة الدنيا لا قيمة له بالنسبة لجمال الشموس والأقمار والكواكب ذوات الزينة الدائمة نوعا ما . وهذه المشرقات لانسبة بينها وبين الجمال المقدس وهو جمالي ، هذه البحار ، وهذه السفن ، وهذه الممالك ، وهذه الأرضون ، وهذه الشموس المشرقات كلهن آثار من رحمتي المصحوبة بعلمي وحبي وقدرتي وجمالي ، كل ما هو جميل فهو من آثار جمالي سيزول العالم وتروني ، وهناك تنسون هذا الجمال بما يسي عقولكم ، فاستعدوا لذلك المقام .

إن الجمال ( ثلاثة أقسام ) قسم أدنى وهو زينة الأرض من جمال الفتيان والفتيات وكل نبات وحيوان ومعادن ، وقسم أوسط وهو جمال النجوم والشموس ، وجمال أعلى وهو جمال ذاتي ، والأول جمال نارى حاد سريع الزوال ، والثاني جمال نوري بطيء الزوال ، والثالث جمال روحي إلهي لا يعتريه الزوال . ويتبعه المشق فهو نارى ونورى وروحي إلهي ، فالأول ما اختص بالوجوه الجميلة وزينة الأرض ، والثاني ما تعلق بجمال العوالم العلووية وتتبعه الفلسفة ، والثالث ما تعلق بجمال مبدع الكائنات . والأدنى الخاص بالجمال النارى صاحبه بعد الموت في جهنم مؤقتا أو مؤبدا . والأوسط في الجنة والأعلى يرى ربه .

هذا ما خطر لي في معنى آية « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » مع الآية بعدها « فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » كتب صباح يوم السبت ٧ فبراير سنة ١٩٣١ .

## اللطفية الرابعة

مباهج العلم ومناهج الحكمة

في ملخص سورة الشورى

اللهم إنك أريتنا العجب في مباهج آياتك المصنوعة ، كما أريتنا مناهج الحكمة في آياتك المقروءة ؛ ها توأمان ورضيعة لبان ، وفرسا رهان لا يفترقان .

بدأت سورة الشورى بآئك :

( ١ ) أوحيت قرآنا عربيا ، وأنت عزيز حكيم .

( ٢ ) وأنت مالك السموات والأرض ، وأنت على عظيم . فأنت عظيم بما خلقت ، على بما أنعمت وغالب وحكيم فيما أنزلت . وهذه العوالم خاضعات لك مدبرات بعوالمك الروحية العالية وهم المملأ الأعلى بأمرك وأنت خلقت هذه العوالم على صراط مستقيم . ونظام محكم بتدبيرك كما قلت في آخر السورة « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » كما جاء في أول السورة . هذا ما في أول السورة وما في آخرها فرجع العجز إلى الصدر .

( ٣ ) وشرحت في وسط السورة تتأجج السموات وتتأجج الأرض .

( ٤ ) فأثبت لنا أنك لم تبسط لنا الرزق بسطا تاما لحكمة بالغة ، ذلك أنك حكمت أن تكون حياتنا كلها مبنية على العمل والحركة المباركة كما نرى الشمس والقمر وجميع الذرات متحركات ، فلو أن حركاتنا سكنت وأعمالنا وقفت بما تبسط لنا من الرزق لكان الوبال والخبال . فلذلك جعلت العيث بعد القنوط . واليسر بعد العسر ، والرفعة بعد الخفض كل ذلك تدريب وتعليم وتربية بالحكمة والعزة والعلو والعظمة المذكورات في أول السورة .

( ٥ ) وذكرت لنا مالدينا من الحيوان الذي بثثته في الأرض ، وما حبوتنا من الذرية ذكرانا وإنانا ومن البحار والرياح والسفن الجاريات في البحار العظيمة .

هذا مجمل ما جاء في عالم الخلق في هذه السورة . أما مجمل ما جاء فيها من آيات الوحي فذلك أنك :

( ١ ) أنزلت قرآنا عربيا .

( ٢ ) وأول من يتعلمه وينذر به أهل مكة ومن حولها .

( ٣ ) وهذا الدين ليس بدعا بل هو كالأديان السابقة . فما نزل دين إلا للاجتماع ، أما الافتراق فإنه

آت من الأهواء والأغراض والشهوات وحب التملك والاستعباد والترف .

( ٤ ) وهو صلى الله عليه وسلم مأمور أن يدعو إلى هذا الدين ، ويستقيم كما أمر . وأن يعدل بين

الناس ، والعدل على مقدار ما يظهر له من الحجج والبيئات في القضايا . فعليه أن يحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر .

( ٥ ) إن الله أنزل الكتاب المقروء للعمل به ، ونحكم بأحكامه . ونصب ميزانا في العوالم

العلوية والسفلية ، وذلك الميزان توزن به هذه العوالم كلها في الدنيا والآخرة ، وبه توزن أيضا أعمال العباد . فما لم تقم الحجج الظاهرة والبيئات أمام القضاء فهناك يكون فصل القضاء

فيه يوم القيامة وذلك قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب » .

(٦) والله كما اتصف بصفة العدل اتصف بصفة اللطف . فليس لطفه بمطمع الظالم في الخروج عن العدل فيجعل كالمصالح ، بل الظالمون مشفقون مما كسبوا ، والآخرون في روضات الجنات . فاللطف إذن لا ينافي العدل . هذه خلاصة مما جاء في هذه السورة من آيات السموات والأرض وما بينهما وآيات الوحي . فلا جعل الكلام في بسط هذا المقام على قسمين .

(القسم الأول) في نظام السموات وضوء الشمس وآثاره في النبات والإنسان . واتصال عوالم السموت بهذا الإنسان ، بحيث تدرك أيها الذكي أن هذه العوالم كلها كأنها حيوان واحد أو نبات واحد كما تقدم مفصلا في مواضع من هذا التفسير .

(القسم الثاني) في هذا القرآن المنزل بالحكمة . ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام ، مع أن أهل مكة كانوا أشد الناس إنكارا للوحي وللقرآن . وما الحكمة التي تظهر في هذا الزمان؟ وهناك نذكر تعداد المسلمين الذين حول أم القرى من الأمم والأجناس ثم نبين الأجر الذي حصر النبي صلى الله عليه وسلم سؤاله فيه ، وأى أجر له ؟ وأى أجر للمصلين بعده؟ أهو أجر يجر لهم مغنا دنويا أم أمرا أدبيا دائما تقر به نفوسهم ويفرحون به عند ربهم في دنياهم وآخرتهم؟ وبيان قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » وقوله أيضا : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » وموازنة هذه المعاني بقوله تعالى « إلا المودة في القربى » في هذه السورة فلا بدأ بالقسم الأول وشرحه فأقول :

### الكلام على السموات وعجائبها

اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ، ونشكرك شكرا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . أريتنا ياربنا جمالا تراه عيوننا ، وحكمة تبصرها نفوسنا في سمواتك ، وذلك له علاقة بأجسامنا وعقولنا، وزنت حركات الأفلاك ، وأنعمت ببياناتها في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، فلك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أرسلت الأضواء لأرضنا بالحكمة وقدرتها بالميزان . فها هو ذا عطارد يدور حول الشمس في ٨٨ يوما لإقليلا والزهراء تدور في ٢٢٥ يوما لإقليلا ، والأرض في ٣٥٦ يوما ٢٥٦ من الألف من اليوم . والمريخ في ٦٨٧ يوما لإقليلا . والمشتري في ٤٣٣٢ يوما ونصف يوم تقريبا . وزحل في ١٠٧٥٩ يوما وخمس يوم تقريبا : وأورانوس في ٣٠٦٨٧ لإقليلا . ونبتون في ٦٠١٢٧ يوما لإقليلا .

هذه هي السيارات المعروفة أبعادها ومنها أرضنا، أنت يا الله نظمتهما وفصلت حركاتها؛ وجعلت بين الأرض والقمر والشمس علاقات أخرى غير الحركات المذكورة وتلك هي حوادث المد والجزر ، فإن البحر

د س

يرتفع وينخفض كل يوم مرتين بل كل ٢٤ ٥٠ عن تسوية متوسطة ، فحينما يرتفع البحر يزحف على الشواطئ<sup>٤</sup> ويدفع بالثاني مياه الأنهر فترتفع حينئذ في مجاريها وهذا هو المد ، ومدة الارتفاع ست ساعات ومتى أخذ البحر نهايته العظمى من الارتفاع يستمر سبع أو ثمان دقائق ثم يتبدى<sup>٥</sup> في الانخفاض زاحفا عن الشواطئ<sup>٤</sup> التي كان علاها شيئا فشيئا وهذا هو الجزر وبعد الجزر يحصل مد جديد وهكذا .

د س

والمسافة بين المدين ٢٥ و ١٢ ومدة المد تزيد عن مدة الجزر لأن البحر يستعمل زمنا في الصعود أكثر

من النزول ، والفرق ليس واحدا بالنسبة لجميع المين فمقداره في هافر وبولوني ٢٢٨ وفي مينة بردست  
١٧ فقط .

تغير أوقات المد والجزر ، التأخير اليومي لحادثة المد والجزر هو ٥٠ دقيقة وهذا المقدار هو مقدار  
تأخير مرور القمر بمستوى الزوال كل يوم ، وحيث إن تأخير ٥٠ دقيقة كل يوم يحدث تأخيرا قدره ٢٤ ساعة  
بعد ٢٩ يوما وثالث أعنى بعد شهر قمرى فيجب حينئذ أن تنقلب أوقات المد والجزر كل نصف شهر قمرى  
من صباح إلى مساء وبالعكس ، وبعد شهر قمرى كامل يعود المد والجزر إلى الأوقات الأولى بعينها وحينئذ  
فهناك ارتباط بين الأوقات التي يحصل فيها المد والجزر وبين أوقات مرور القمر بمستوى الزوال .  
تغير الارتفاع ، كلما كان ارتفاع المياه في المد كبيرا كان انخفاضها كثيرا في الجزر التالي له ويأخذ المتوسط  
بين جزر ومد متتاليين يتحصل على نتيجة ثابتة تقريبا ولهذا التسوية تناسب الارتفاعات في عمليات الميزانيات  
ويسمى مدا كليا متوسط مدين أحدهما يلي جزرا والآخر يسبقه ، والمد السكلى في الوقت الواحد متغير على  
حسب المين بسبب اختلاف شكل الشواطىء وفي المينة الواحدة يتغير على حسب أوجه أشكال القمر وعلى حسب  
أبعاد الأرض عن القمر والشمس وعلى حسب ميل هذين الكوكبين . ففي وقت الاجتماع والاستقبال يصل المد  
نهائيه العظمى والجزر نهائيه الصغرى ، وأما في وقت الترتيبين فيأخذ المد نهائيه الصغرى ، ولعلم أن أعظم مد  
لايحصل في نفس لحظة الاجتماع أو الاستقبال بل بعدها بقدر ٣٦ ساعة ، فالمد الثالث الذى يلي الاجتماع والاستقبال  
هو الذى يكون أكبر مد وكذلك المد الثالث الذى يلي الترتيب الأول والأخير يكون هو أصغر مد وهذا  
التأخير ينسب لاحتكاك العناصر السائلة بعضها على بعض وعلى قاع البحر ، وينشأ عن هذا الاحتكاك بطء في  
حركتها وفي ( برست ) يصل المد السكلى للاجتماع والاستقبال في المتوسط ارتفاعا قدره ٦٢٥ متر والمد  
السكلى للترتيبين فيها هو ٣١٠ متر فقط .

وبعد الأرض عن القمر يحدث تأثيرا على مقدار المد السكلى الذى يزداد باقتراب القمر من الأرض  
ويتناقص بتباعده عنها وفي مينة ( برست ) تغير البعد المذكور يحدث تغيرا مقداره ١٧٧ في ارتفاع المد السكلى  
وكذلك تغير بعد الشمس عن الأرض يؤثر على مقدار المد السكلى غير أن ذلك التأثير قليل بالنسبة لتأثير القمر .  
وكذا ارتفاع المد والجزر يتغير على حسب ميل الشمس والقمر ، فحينما يكون القمر قريبا من دائرة المعدل  
في وقت الاعتدالين يكون المد المقابل للاجتماع والاستقبال هو أكبر مد ، وينتج من جميع ما تقدم أن هناك  
ارتباطا أصليا بين حادثة المد والجزر وحركات القمر والشمس .

وسنبين أن المد والجزر هما نتيجة تأثير جاذبية القمر والشمس على الأرض أعنى نتيجة من قاعدة  
الجذب العام اه .

فهذا إجمال الكلام على علاقة الأرض بالشمس من حيث حركاتها حولها مع السيارات الأخرى ومعها  
ومع القمر باعتبار المد والجزر ، وهذا معناه أن هذا العالم كله أشبه بالجسم الواحد ( انظر المجموعة الشمسية  
مرسومة في سورة الأنعام وفي سورة سبأ وآثار الأضواء في الأرض ) .

إن الأضواء تصل إلى الأرض منتظمة فكان الصيف والحريف والشتاء والربيع فماذا رأينا ؟ رأينا النباتات  
موزعات على أيام السنة ( وبعبارة أخرى ) إن هذه النباتات قد تبعت في زرعها وترتيب أوقاتها نظام حركات  
الأرض حول الشمس ، سبحانك اللهم وبحمدك . أنت الحكيم ، أنت العلى ، أنت العظيم ، أنت العزيز . فبالعزة  
قهرت الأرض فدارت ، وبالحكمة قدرت حركاتها . وأنت لاتلابس المادة التى غرقنا فيها بل نحن فيها

محبوسون . ياربنا ، وأنت منزّه عنها ، فأنت على وأنت عظيم ، فلك العلو على هذا النظام ، ولك العظمة . اللهم إنا رضينا أن نكون مغمورين في هذه المادة تحت عظمتك وعلوك والأرض تجري بنا حول الشمس بنظام محدود وأوقات لا تتغير ولا تتبدل . وإنا رضينا بهذا لأننا نعلم رحمتك الواسعة التي غمرتنا بها ، فنحن لما شاهدناها رضينا بكل ما تحكّم به فينا في هذه الدنيا وفي الآخرة . فاذن نتوكل عليك . وليس يصح التوكل ولا يتم إلا بأن نسير على نهجك ونكون صالحين مصلحين لعبادك جارين على صراطك الذي نصبته في سمواتك وفي أرضك .

ومن هذا الصراط وهذا الميزان أوقات الزراعة . فلكل فصل من فصول السنة بل لكل شهر شمسي أنواع من الزرع تنبت فيه ( اقرأ هذا المقام مفصلاً في أول سورة الزمر ) وهالك بعضه هنا وبقيته هناك . ( شهر هاتور ) فيه زرع القمح ويطع البنفسج <sup>(١)</sup> والمنثور . وأكثر البقول . ويجمع ما بقى من الباذنجان وما يجرى مجراه . ويحمل العنب من قوص . وفي ثانيه يبتدىء حصاد الأرز . وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهور السريان . وفيه يبتدىء برد المياه . وفي سادسه أول المطر الوسمي ، وفي سابعه يبتدىء أهل الشام الزرع . وفي ثامننه يبتدىء هبوب الرياح الجنوبية . وفي تاسعه يبتدىء زرع الحشخاش <sup>(٢)</sup> وفي حادى عشره يبتدىء اختفاء الهوام . وفي ثالث عشره يبتدىء غليان البحر ، وفي رابع عشره تعمى الحيات . وفي سادس عشره يجمع الزعفران ، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش . وفي الثاني والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمتّع السفن من السفر فيه لشدة الرياح . وفي الثالث والعشرين منه تبتدىء سخونة بطن الأرض . وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهور الفرس .

( شهر كيهك ) فيه تدرك الباقلاء وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب ، ويدرك الرجس والبنفسج ، وتتلاحق الحمضات . وفي أوله ابتداء أربعينيات مصر . وفي ثالثه يبتدىء موت الذباب . وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السريان . وفي سابعه آخر الليالى البلق وأول الليالى السود . وفي حادى عشره يبتدىء الشجر فى رعى أوراقه . وفي ثانى عشره تظهر البراغيث . وفي سابع عشره أول فصل الشتاء ، وهو أول أربعينيات الشام . وفي ثامن عشره يتنفس النهار . وفي الحادى والعشرين منه يكتر الطير الغريب بمصر . وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه <sup>(٣)</sup> من شهور الفرس . وهو نوروزهم وأول سنتهم . وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم . وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل . وفي السابع والعشرين منه يكتر شرب الماء فى الليل وفي الثلاثين منه يبتدىء تقليم الكروم .

يا سبحان الله . هذا هو ميزانك الذى شاهدناه فى هذه الدنيا أو هذا هو صراطك المستقيم . رأينا فى الحياة قبل أن نموت . فأنت لم تدر حركة ولا ذرة إلا وزنتها . فأما الحركة فى علم الفلك . وأما الذرة فى علم الكيمياء .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم . علمتنا يارب أنك ذو نظام جميل ففهمناه ، وعلمنا أنك لم تقف فى الوزن عند العوالم العظيمة كالسواكب السيارة . كلا ، بل تراك راعيت هذا الميزان فى خلق النبات وأريتنا جذوره

(١) بسكون الفاء وفتح بقية الحروف .

(٢) بفتح أوله .

(٣) سياتى قريباً أن نرور الفرس وأول سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج

الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية .

مفصلات تفصيلا بديعا ، بحيث كانت ملائمة كل الملائمة لما خلقت له بحيث تجذب الجذور من الأرض بأنايبها الشعرية ما يوازي الثمرات التي خلق ذلك النبات لها والحبوب والخضر وهكذا . فترآك كما قدرت حركات السيارات ولم يكن فيها خطأ هكذا قدرت ووزنت تلك الأنايب الشعرية والفتحات التي تعسر مشاهدتها فكانت مناسبات لنتائج النبات من حب وفاكهة وزيت ونشاء وهكذا . وهذه الفتحات لا تجذب من الأرض إلا الملائم لها . ولو أن نباتا اتسعت فتحاته أو ضاقت عما يلائم ما تجذب به لم يخرج لنا تمر ولا بر ولا خروج بل هناك يختلط الحابل بالنابل ويموت الإنسان والحيوان .

اللهم أنت اللطيف بنا « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » فأى لطف أعجب من هذا ؟ عجب يارب دقة الحركات في الشمس ، ودقة فتحات الجذور أمران عجيبان . هذه أعظم رحمة لك . ولكننا لانفطن لها ولا نفكر فيها . ذلك لأن شهواتنا الصغيرة حبست عقولنا قلم تتنبه إلى النظر في دقة هذا الصنع لأن شهواتنا استحوذت على عقولنا فمنعتها من التغلغل في هذا الجمال .

هذا ، ولم يقف الأمر عند دقة الحركات ونظام أوقات الزرع على مقتضاها ولا عند نظام الفتحات بل الأمر فوق ذلك . فقد رأيناك أبدعت في خلق الورقات بأن جعلت لكل ورقة حجرا داخلية فيها ، ولكل حجرة سقف وحيطان ووضعت في كل حجرة سائلا وهذا السائل فيه مادة ذات لون . وهذه المادة باتحادها مع ضوء الشمس ( الواصل من بعد عظيم يبلغ بسرعة القطار ٣٥٠ سنة . وبسرعة قلة المدفع ١٢ سنة وبسرعة الضوء ٨ دقائق و ١٨ ثانية ) تكون سببا في أن النبات يتغذى من الهواء بمادة الكربون ( الفحم ) وهذه المادة الكربونية تدخل النبات فتكون منه أنواع الخشب ، والتبن ، ونحوهما . أليس من العجب أننا نراك تحسب حركات الأرض التي لو اختلت لاختل نظام زرعنا .

يارب ما أجهلنا أهل الأرض ما أضعت عقولنا ياربا . أنت رببتنا بانتظام حركات أرضنا وانتظام الزرع على مقتضى تلك الحركات وبالفتحات المواقفات في الجذور وبالحجرات المقدرات في الأوراق . تلك الحجرات انني قد تبلغ في البوصة المربعة ١٢ حجرة و ٢٤ و فوق ذلك إلى آلاف وآلاف . هذا في البوصة فما بالننا بالورقة الواحدة ، وما بالننا بالورق ، وما بالننا بالشجرة كلها ، وما بالننا بالحقل كله .

بهذه ياربنا عشنا في الدنيا هذه هي الحياة المنظمة ونحن جميعا في الأرض علمنا وجاهلنا لانفكر فيها وهذه الأوراق مغذيات للنبات ( انظر هذا المقام في سورة يس وانظر شرحه وصور الورق المذكور ) إذن لو أن هذه الورقات لم تكن فيها الفتحات منظمة لم يكن نبات ، ثم لم يكن حيوان ولا إنسان لأن هذه الفتحات التي تعد بالآلاف المؤلفة عليها قوام حياة النبات وحياة الإنسان . أليس هذا هو قوله تعالى في سورة أخرى « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » أليس هذا الذي نذكره في هذا التفسير هو من التفصيل الذي وعد الله به ، وإذا فصلت الآيات في نفس الخلق ولكنها لم تفصل في عقولنا فمن أين يأتي اليقين لنا ؟ هذا هو اليقين . وهذه هي السعادة أي السعادة التي أحس أنا بها الآن ويحس بها جميع المغرمين بهذا التفسير وما فيه من عجائب الصنع المفصلات المورثات اليقين .

ثم إننا لم نجد الأمر وقف عند هذا الحد ، فإن بين كل ورقة وأخرى حسابا هندسيا ونظاما متقنا . فنرى الأشجار والأوراق عليها متقابلات مثنى وثلاث ورباع وخماس وهكذا . وهذه الورقات قد رسمت شكلا هندسيا من حيث وضعها ( انظر هذه الأشكال في سورة الحجر ، وتعجب مما نقرؤه هناك من ورقتين على الغصن بينها ١٨٠ درجة من الدائرة على الغصن وثلاث ورقات وخمس ورقات قد رسمنا شكلين حلزونيين وهذان

الشكلان يتمان دائرة منتظمة بديعة عجيبة وتكون الدوائر التامة متتابعات والأوراق الخمس منظمات قد اقتسمن تلك الدائرة اقتساما صادقا بحيث ترى بين كل ورقة وأختها ٧٢ درجة من الدائرة البالغة ٣٦٠ درجة من ضرب ٥ في ٧٢ وتجدر كل ورقة من الخمس في دائرة موازية لنظيرتها في الدائرة الأخرى ، جل الله وجل العلم وجلت الحكمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الدوائر المنتظمة في نبات بينهما وبين الدوائر الأخرى في نبات آخر مناسبات عجيبيات حتى إننا بالبحث نجد أن جميع أوراق النبات بينها علاقات حسابية وهندسية كالعلاقات الحسابية والهندسية في نظام النجوم الثوابت والسيارات والأرض .

وهذا النظام كله نتأجه هو ماياً كله الحيوان والإنسان مما ذكرناه قريبا في السورة السابقة . فإنك تجد هناك الجدول المبين لأنواع النشاء والمادة الأوزوتية والمادة الدهنية . وهذه الأنواع الثلاثة لم تتم إلا بنظام الأوراق والجدور والأضواء والأيام التابعات حركات الأرض حول الشمس ، وينتهي الأمر بالجهاز الهضمي الذي شاهدت صورته في سورة فاطر وفي سورة فصلت قبل هذه السورة فهناك تجد الحساب مفصلا والنظام متصلا ، وأن القوى والعصارات المختلفة الموضوعات في جهازنا الهضمي موزعات على تلك الأنواع الثلاثة الناجمات من نظام النبات المنتظم الأوراق ، الجارى على سنن الأضواء في وصولها إلى الأرض .

أليس هذا معناه أن هذه العوالم كلها أشبه بجسم واحد ( وبعبارة أخرى) أليس معنى هذا أننا على هذه الأرض ملزومون أن ندرس الكواكب والأرضين والأضواء وحسابها والنبات وحسابه وشرح أجسامنا وتشریحها ثم نفوسنا .

### خطابى للمسلمين

يامعاشر المسلمين : الحق أحق أن يتبع . نحن نعيش في الأرض عالة على الأمم في هذه القرون المتأخرة يامعاشر المسلمين أكتب كتابى هذا ، وقريبا أفارق هذه الأرض . وأصعد إلى الله وأبرأ من السكتان وأقول يارب قد اجتهدت أن أبلغ المسلمين ما عرفته من صنعك وما فهمته من كتابك وما على إلا أن أبين ، وفوق ذلك أقول : إنكم ستبلغون شأوا عظيما في سعادة الحياة وسعادة الممات ، إنكم ستدرسون كل ماترونه في السموات والأرض ، وهناك تفهمون لماذا يكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية في كثير من آى القرآن ، وبهذا تم الكلام على القسم الأول في نظام السموات والأرض .

### القسم الثانى

هذا القرآن المنزل ، ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها

ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام الخ

لنجعل هذا القسم في (فصلين : الفصل الأول) في أن القرآن عربى (الفصل الثانى) في ذكر أم القرى

ومن حولها .

### الفصل الأول

في أن القرآن عربى

فأقول : قد تقدم الكلام عليه في (سورة فصلت) وهى السورة السابقة . وسيأتى للكلام بقية

في (سورة الزخرف) .

## الفصل الثاني

في تبيان تخصيص أم القرى ومن حولها

اعلم أيها الذكي أن الله عز وجل قبيل نزول القرآن قد كان نظم أمتين وهما فارس والروم ، وهاتان الدولتان قد اقتسما الأقطار المحيطة بجزيرة العرب قبيل النبوة . فكان للروم البلاد الجنوبية ، قدملكوها نحو (٦٠٠ سنة) وللفرس البلاد الشمالية، كان لهم عليها بعض السلطان نحو نيف وثلثمائة سنة ، ولم يبق إلا مكة والبلاد المجاورة لها بنجوة من نفوذ هاتين الأمتين .

وأنت عليم أيها الذكي بما كان لهذه الأمة العربية بسبب القرآن من السطوة والنفوذ ، وكيف أزلت ملك هاتين الدولتين . ثم كيف بقيت قرونا ، ثم كيف تولاهما الخور والضعف حتى أصبحت أم أوروبا على أبواب مكة ، والمسالمون في مكة وحول مكة الآن بعد ١٣٤٩ سنة قد بلغ تعدادهم ما بينته في كتابي المسمى [القرآن والعلوم العصرية] وقبل أن أذكر ما كتبت في ذلك الكتاب وما خاطبت المسلمين به أذكرك أيها الذكي بما تقدم في أول سورة (العنكبوت) من الرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء العرب والعجم ، وبعد أن تقرأ ذلك أكمل القول بحادثتين تاريخيتين لم يذكرها هناك (الحادثة الأولى) هي التي وردت في (أبلة) أيام النبوة (الحادثة الثانية) هي التي جاء ذكرها في قبائل البجة الذين كانوا يسكنون مصر ، وإنما نذكر هاتين الحادثتين هنا لأننا في مقام إنذار أم القرى ومن حولها بالقرآن العربي وهذا الإنذار تبعه رقي أم القرى وما حولها حتى تعدي العرب حدود آسيا وأفريقيا واحتلوا ربوع أوروبا ولما بلغوا العلم لتلك الأمم ورفعوا شأن الإنسانية جمعوا ثانيا إلى ما يشبه حالهم الأولى . فإذا ذكرنا الحادثتين فإنما نريد بهما كيف كانوا يعاهدون الأمم ، وكيف يحافظون على النفوس والأرواح ، وهم إنما خلقوا في جزيرة قاحلة لا علم فيها ولا حضارة ولا مدنية وأن هذه السيرة سترجع لهذه الأمم كما ابتدأت.

### الحادثة الأولى هي حادثة العقبة

إن الإنسان يصعد إليها بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل إلى قمتها ، فإذا أردت أن تنزل إلى الجهة الشرقية صرت نازلا صاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة، وأخرى رملية ناعمة، وأخرى خشنة أو زلطية إلى أن تمر في مضيق لا يسع إلا جملا جملا، ويسمى قطع لاط ، وطريق هذا القطع حلتوني تقريبا أصلحه ابن طولون ، ثم محمد بن قلاوون ، ثم عباس باشا الأول ، ومع ذلك فإن المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولا وضعفها صعودا ، ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها (أبلة) وهي بلدة قديمة جدا ، وكانت عامرة من زمن مديد ، وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبيرة للعراكب التي كانت تفتد إلى الشام من اليمن والهند وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن إلى بطره ، ولما مات سليمان رجعت الطريق الأولى إلى ما كانت عليه في نقل التجارة برا ، وكان فيها أسواق كبيرة؛ بل كانت مركزا للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن ربيعة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهدا هذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمانة من الله ومحمد

النبي رسوله لتحية ابن رؤبة وأهل أيلة أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر» هذا كتاب جهم بن الصلت وشرجيل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة ٥٧٦ هـ كان الإفرنج قد استولوا عليها في الحروب الصليبية، فصار إليها من مصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال، حتى إذا وافي مياهاها أصلح مراكبه وأنزلهما في البحر، وحاصر المدينة برا وبحرا، حتى أخذها عنوة وطرده الإفرنج منها، وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بعض الجنود لحراستها، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس، وفي هذه القرية نخيل وأشجار، وماؤها حلو؛ ويزرع في أرضها الخضراوات، وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقا، والطريق فيها صعبة، وتخرق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء؛ وبينها وبين بيت المقدس شمالا بغرب نحو (٣٠٠) كيلو متر في صحراء قليلة المياه طريقها وعرة، وبينها وبين السويس نحو (٣٠٠) كيلو متر. وبهذا تم الكلام على الحادثة الأولى.

#### الحادثة الثانية في قبائل البجة

جاء في كتاب «الرحلة الحجازية» لمؤلفه الأستاذ محمد بك لبيب البنتوني تحت العنوان التالي مانصه:

#### الطريق القديم والحديث

##### من مصر إلى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام، في نصف الكرة الأرضية الغربية، باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار إلى محيط جميع دائرة الأقطار، فالأندلسي الذي كان يسكن في غرب أوروبا، والمغربي الذي في غرب أفريقيا ومادونه من مسلمي البربر فالسنغال وبلاد التشكروور والسودان الغربي والشرقي كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحرا أو برا، وكذلك كان يقصدها كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الأبيض المتوسط ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسرون منها إلى قوص برا أو النيل (٦٤٠ كيلو مترا) في نحو عشرين يوما، ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عيذاب مدة ١٥ يوما يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلوا مترا إلى القصير على البحر الأحمر، وكانت من قديم ميناء مصر الشرقية: أي أنها كانت من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن، وكانت هذه القرية في أيدي عرب البجة الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على إبلهم في صحراء عيذاب.

وقبائل البجة أو البجة يقال إنهم من البربر وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحزية في صحراء قوص، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها. وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين، وبعضها من عمل الغفور له محمد علي باشا وإلى مصر، وكانت العرب تستخرج منها المعادن، وخصوصاً التبر في القرن الأول والثاني

للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجة الذي كان مقره أسوان ، وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير فأرسل المأمون إليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بيته وبين كنبون رئيسهم كتابا نذكر لك طرفا منه لتعرف مقدار التسامح الإسلامي مع أهل الذمة ، وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان . إنك سألتني وطلبت إلى أن أومنك وأهل بلدك من البجة وأعد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا ، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمر المؤمنين إلا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجة وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنه داخله في بيت المال ، والخيار في ذلك لأمر المؤمنين ولولواته ، وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به ، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذرائعهم ، وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دل على عورة من عورات المسلمين أو أثر لغبتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحدا منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا أو عبدا أو أحدا من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ببلد البجة أو ببلاد الإسلام ، أو بلاد النوبة أو في شيء من البلدان برا أو بحرا ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات ، وفي قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم ، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرا أو مقما أو محتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا تؤووا أحدا من أبقى المسلمين ، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك ، وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو محتازين لاتظهرون سلاحا ، ولا تدخلون المدائن والقري بحال ، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا ، ولا تخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ، ولا أهل الذمة ، ولا تسرقوا مسلم ولا ذمي مالا ، وعلى أن لا تهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ » وباقى الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى . وبهذا تم الكلام على الحادثة الثانية .

### تعداد المسلمين في بلاد الإسلام

أذكر في هذا المقام ما جاء في كتابي [ القرآن والعلوم العصرية ] من تعداد المسلمين في بلاد الإسلام والخطاب الذي وجهته لهم ، فقد جاء فيه في صحيفة ١٥ وما بعدها تحت العنوان التالي ما نصه :

## المسلمون كثير عددهم

أيها المسلمون : ما أكثر عددكم على وجه الأرض

٧٠	ملينا	إن منكم في بلاد الهند الصبني والصين :
٧٥		وفي الهند وما جاورها :
٥٠		وفي ماليزيا والاقيانوسية :
١١		وفي ولاية الحجاز واليمن بأقسامها المستقلة وغير المستقلة وعسير وعدن والنواحي التسع وعمان ومسقط والبحرين وحضرموت ونجد والكويت والربع الخالي وعنزة وشمر الخ .
٦٥٥		وفي سوريا وفلسطين والعراق العربي والعراق العجمي :
١٨		وفي مصر والسودان المصري :
١٨		وفي طرابلس وتونس والجزائر ومراكش :
٢٠		وفي الصحراء الكبرى والسودان الفرنسي :
٥		وفي السنغال وما يتصل به والسودان الأوسط وواداي وباكومي وما حوالها :
٠٥		وفي جمهورية ليبيريا :

الجميع ٢٧٤

٨		وفي السودان الإنجليزي والنيجر وما حولهما :
١٠٥		وفي مستعمرات الكمرون الألمانية والكونغو والكاب وموزنبيق ومدغشقر وشرق أفريقية الألماني وزنجبار وشرق أفريقيا الإنجليزي وأوغندا والحبشة وأرتريا وما يتصل بها :
١٥		والأتراك في روملى وجهات الأناضول والبلقان والولايات العثمانية التي معظمها من غير المسلمين :
٣٥		وفي ولاية روسيا الأوروبية ، ومنها التتر الذين هم أهم قسم من الأتراك وفي قفقاسية وآسيا الوسطى وفرغانة وسيريا وخبوة وبخارى :
٢٥		والترك في الشمال والشمال الغربي من بلاد الصين :
١٠		وفي بلاد أفغانستان وفي بلاد إيران والعجم :

فيكون جميع المسلمين في أقطار الأرض ٣٧٧٥ مليوناً ، وللتأمل في هذا يجد عشرين مليوناً مكررة  
وإذن نقول إن المسلمين ٣٥٠ مليوناً تقريباً فسألتكم بالله أيها المسلمون كيف يغلب هذا العدد الكبير والجم  
الغفير وكيف يصادرون في حريتهم وينزلون في عقر دارهم ويسامون سوء العذاب . كل ذلك من الجهل والتفرق  
وعدم الاتحاد ، وقد آن أوان أن أشرح طرق الاتحاد عسى أن يكون فيه ذكرى لإخواني المسلمين .

## طرق الاتحاد

﴿ كيف يتحد المسلمون ﴾

أيها المسلمون هذا المجموع الكبير العظيم الممتد من بكين في الصين إلى رأس الرجاء الصالح ، ومن طنجة إلى المحيط الهندي. هذا المجموع جسم له رأس وأعضاء ، وقد ذكرنا الحديث الشريف إذ جعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى هذا بعينه ما يحصل الآن في أطراف المعمورة فإن المسلم الإفريقي يتألم لما يصيب أخاه الصيني ويسره ما يسره قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولا جرم أن الأخ الأرشد واجب عليه وقاية الأصغر ، والمحافظة عليه وتربيته وترقيته ، فعلى العقلاء والعلماء والأمراء والأغنياء من العرب والفرس والترک والمهوند والصينيين أن يكونوا جماعة تتخذ لها مركزا خاصا ولعلها الآن موجودة .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شبه الأمة كلها بالجسم ، فلننتهج منهجه عليه الصلاة والسلام ، ولنسج على منواله مبينين بالعقل صحة ماتواخينا والطريق التي ارتضينا ، فنقول :

إن في الجسم رأسا هو مركز الحواس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ومنه تصدر جميع الأعصاب الحساسة وإليه ترد بما نقلت من أخبار السمع والبصر الخ ، فالرأس هو القائم بأعمال الجسم المنظم لحركاته ، فلو تخلى الرأس عن الجسم لأصبح جثة هامدة لاتغنى ولاتسمن . هكذا العلماء في هذه الأمة والأغنياء والأمراء والعقلاء المفكرون المستبصرون ، هم المسئولون في الدنيا والآخرة ، وهم وحدهم الذين يقفون بين يدي الله تعالى يسألهم عز وجل عن إهمالهم أمر هذه الأمة ويسأل الله عز وجل المفكر والعالم والأمير والغني ويقول لهم أتم رأس هذه الأمة وقوتها فإذا فعلتم ؟ تركتم هذا المجموع يئن تحت نير العبودية والنذلة وهذه الطوائف الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها جعلتها أمانة عندكم فكيف تشاغلتم عنها حتى أصبحوا أذلاء وأتم شاركتهم في ذلهم وقاسمتهم ضعفهم وانكسارهم . ألم أنزل عليكم في كتابي « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » فهأنذا لا أكلف الزارع المسكين ولا الجمال ولا البغال هذا الأمر ، أولئك عيالكم وإخوتكم الصغار وإنما كلف أرباب العقل ورجال الحكمة وأهل المال أولئك هم المسئولون « وقفوهم إنهم مسئولون » ألم أنزل في كتابي على نبيكم « لولا ينهائم الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » ومعنى هذا أن الله يوبخ علماء أهل الكتاب من الأخبار والرهبان على عدم نهيمهم الأمة عن قولها الكذب الذي يأثم به الإنسان وعن أكلها السحت أي الحرام ؛ ثم بالغ في ذمهم فقال « لبئس ما كانوا يصنعون » مبتدئا بلام القسم ، وهذا مبالغة في التوبيخ ، أفلا تعلمون أني قصصت عليكم ذلك لتعتبروا ولتتذكروا . أيها المسلمون ألم يقل لكم نبي محمد صلى الله عليه وسلم « لاتزول قدما ابن آدم من عند ربه يوم القيامة حتى يسأل عن خمس عن شبابه فيم أفناه وعن عمره فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم ؟ » ألم يكن في هذا الحديث دلالة على أن العالم والغني شريكان في المسؤولية كلاهما مسئول ، العالم مسئول والغني مسئول ، وفي حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس » .

والمراد بالחסد الغبطة وهي تمنى مثل ما عند الغير ، فإلى الأغنياء وإلى العلماء والمستبصرين من الأمة أوجه قولي ، فلقد اتضح أنهم هم المسئولون يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فأقول :

لتسكن منكم جماعة خاصة تكون بمنزلة الرأس ، ولتتخذ لها مكانا ؛ وليكن لها فروع تمتد إلى أقاصى المعمورة أشبه بالأعصاب فى الجسم ، ولتسكن أعمال تلك الجمعية مقسمة إلى قسمين : القسم الأول يأمر بنشر الأخلاق والعبادات والعلوم والصناعات فى سائر أقطار الإسلام وينشر الكتب والرسائل ويعلم فى الجرائد ويوعز إلى أهل البلاد بإذاعة ذلك كله مع المحافظة التامة على العوائد الإسلامية ، وليجيبوا إلى الناس أن يعرفوا ما ذرأ الله فى الأرض وما أبدع فى السماء وما أفاد من صناعة وما بث من حكمة حتى يضارعوا أوروبا ويفوقوها اقتصاديا وماديا .

والقسم الثانى يكون قصارى أمره ومنتهى رأيه أن يدرس أعمال أوروبا مع الأمم الإسلامية فى أقطار العالم وينشر ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية ليعرفوا إخوانهم النابهين من الترك والفرس والعرب والصين والهند تلك الأمم القديمة الشرف العظيمة القدر ، ومتى انتشر ذلك فى الأقطار الإسلامية عرف المسلمون إذ ذاك للجاهل جهله وللفاضل فضله ، وإذ ذاك يقرءون « وجزاء سيئة سيئة مثلها » فيقاطعون الدولة المسيئة فى التجارة سواء أكانوا فى الصين أم فى أفريقيا أم فى تركيا . ذلك شأن هذه الطائفة ، ولعلكم تقولون من أين عرفت أن هذه الجمعية بها يتحد المسلمون وهل هذا دواء شاف ؟

أقول : عرفت من نفس القرآن ، فانظروا الآية المتقدمة ، الحاضرة على الاجتماع ، وهى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » هذه الآية أمرت المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق ، ولكنها لم تبين كيف السبيل إلى ذلك ، ولذلك أردفها بآية أخرى لبيان ذلك فقال « ولتسكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف » وهذا هو الفريق الأول الذى ينشر العلوم والمعارف والصناعات ويحض على العبادات الدينية ثم قال « وينهون عن المنكر » وهذا هو القسم الثانى ، فالنهي عن المنكر هذا يشمل الذنوب الخاصة بين المسلمين والكفر والمعاصى والمظالم الواقعة عليهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، فأولئك هم الذين يجمعون تلك المظالم ويوصلونها إلى الجمعية الكبرى ، وهى بسبب هذا القسم وبعملة تنشر أخبار تلك المنكرات فى أقطار الأرض حتى يعرف المسلمون من هذه المظالم ويقاطعوا تجارة الأمة الظالمة ، وإذن يحق لهم وعد الله إذ قال « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » هذه الآية ذكرناها مرة أخرى فى الكتاب وأعدناها هنا بعد أن بينا طريق الاتحاد بين المسلمين ، تلك الطريق التى هدانا الله لاستخراجها من الكتاب العزيز لا سبيل إلى إسعاد المسلمين بغيرها ولا سبيل لراحتهم وتمكينهم فى الأرض واستخلافهم فيها وتبديل خوفهم أمنا إلا بهذه السبيل وحدها فليفكر المسلمون ماشاءوا ، فهم والله لا ينجون من شر الفرنجة إلا بهذه السبيل وحدها ، ولنقرأ الآية على وجهها فنقول « ولتسكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . فانظروا يامعاشر المسلمين كيف قال « ولتسكن » فاللام لام الأمر للوجوب ، فالمسلمون فى أنحاء المعمورة : أى الأغنياء والعلماء منهم آثمون مذنبون إن لم يقوموا بهذا الأمر ، وبعد أن بين القسمين وهم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال « وأولئك هم المفلحون » إشارة إلى ما ينالون فى الدنيا من الطمأنينة والسعادة والثناء الحسن عليهم من الأمة الإسلامية ، وفى الآخرة من علو الدرجات ومنتهى السعادات والقصور والحدود والولدان فهذا قوله « وأولئك هم المفلحون » ولما كانت الآية مبينة كيف يكون اتحاد المسلمين ، وسهلت الطريق وأبانت حقيقتها الناصحة أردفها بالإنذار فقال

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وهذا إنذار من الله للمسلمين إذا أغفلوا أمر هذه الجمعية المركزية ذات الفروع إذ قال احذروا أن تكونوا متفرقين كالأمم السابقة التي بينت لها السبيل ومهدت لها الطرق فتفرقوا طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون » لأنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم الآيات البينات الواضحات .

ولقد أبت لكم يا معشر المسلمين كيف تكونون متحدين وعلمتكم طرق الاتحاد وعدم التفرق فإذا خالفتكم وغفتم بعد هذا البيان كنتم كأولئك الذين عرفوا الطرق فتركوها فتفرقوا فكان لهم من ذلك عذاب عظيم في الدنيا بالذلة وفي الآخرة بجهنم أما من ساروا على طريق الاتحاد فأولئك هم الفائزون .

### ﴿ فصل : في أن الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة ﴾

وعلى هاتين الطائفتين المصلحتين في الإسلام المرسلتين من الجمعية الكبرى التي أشار الله لها في كتابه العزيز أن يجتمعوا كل سنة عند البيت الحرام بمكة شرفها الله فإن للحج أكبر نصيب في هداية المسلمين النازحين إليه من أطراف البلاد ؛ ولقد علم الله قبل أن يخلق الإسلام والمسلمين حاجتهم إلى بيت يحجونه ويكون مثابة لهم : أم مرجعا وأمنا فقال « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » وقال « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم » فانظروا وتعجبوا كيف ختم الآية بقوله « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض » وقد زاد على ذلك فقال : « وأن الله بكل شيء عليم » .

فتأملوا كيف جعل أن علمنا بأن الكعبة قيام للناس يورثنا علم أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض بل يعلم كل شيء ، ذلك لأن الأمر اتضح في هذه الأيام أن المسلمين ينتفعون سياسيا برجوعهم إلى هذا المكان وجعله دار ندوة كل عام يتشاورون فيه ويتباحثون وهم في مأمن في ذلك الوادي السحيق فضلا عن فريضة الحج . إن ذلك أمر لم يكن في علم أحد من الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن ذا الذي يعلم الغيب إذ ذاك فيقول إن الكعبة ستكون مرجعا للمسلمين يعرف بعضهم بعضا ويقضون في الأمور السياسية العامة ويتعارفون ويتحدون ويكون من وراء ذلك سؤددهم وعزهم ومجدهم وخروجهم من تحت نيرذل العبودية ، لاجرم أن الذي عرف ذلك هو الله الذي فرض الحج ورسم البيت وعرف مستقبل المسلمين وما يؤول إليه أمرهم فهو يعلم ما في السموات وما في الأرض الخ إلا أن لكل شيء سببا فلا يكون الحب بلا زرع ولا الثمر بلا شجر ولا النيل بلا مطر ولا الرى بدون سقي ، هكذا لن يكون اتحاد المسلمين ، إلا بالطرق التي رسمناها والبيئات التي أوضحناها ، والله هو الولى الحميد . وبهذا تم الكلام على القسمين : قسم السموات والأرض ، وقسم إنزال القرآن باللغة العربية وإنذار أم القرى ومن حولها . وأختم هذا المقال بخطاب أوجهه لجميع المسلمين فأقول :

أيها المسلمون : قد شرحت لكم نظام العوالم إجمالا ، ولا جرم أن أولها عالم المجرة الذي يدور مرة واحدة في ( ٣٠٠ ) مليون سنة ، وهناك دوران الكواكب السيارة في أوقاتها المعينة والأرض ثم النبات وأوراقه وثمراته واتصال هذا كله بأجسامنا ثم نفوسنا ، ثم بعد ذلك شرحت اتصال الأمم الإسلامية على الأرض في مكة وما حولها ، وهذه أمة العرب جمعها الاسلام ، وجمعها اللغة العربية ، وجمعها تقارب الأوطان ، فهي إذ لم تبادر بالاتحاد فهي لا محالة معاقبة على تفریطها ، وبينها وبين الفرس والترک علاقات الدين والجوار ، فليكن اتحاد بين هذه الأمم وعلاقات متمينة وهكذا سيكون ، إذن فليعمم التعليم الآن في بلاد العرب

وبلاد الإسلام ؛ ثم لتدرس العوالم كلها ، وتدرس الكرة الأرضية من حيث الجغرافية ، وليدرس التاريخ دراسة تامة ، وليخصص لكل علم طائفة ، ولتقراء وعلوم كل الأمم ، ثم ليكن منكم حكماء وعلماء بكل علم وبكل فرع . هناك هناك أيها المسلمون تكونون شهداء على الناس كما أن الرسول شهيد عليكم ، وهناك فقط تتبوءون مركزكم في الأرض ، هناك أنتم تعلمون أمم الشرق وأمم الغرب كيف يكون السلام ، وكيف تكون السعادة المستقبلية ، ولأختم هذا المقال بإيضاح أجر المصلحين وأجره ﷺ فوق ما تقدم في التفسير اللفظي ؛ فأقول مستعينا بالله :

لا مخلصا في هذه الأرض ، عارفا بصانع العالم ، دارسا لنظام هذه الدنيا إلا وله قلب متقد حرارة وصدقا ، وإخلاصا وبهجة ونورا وحباً لرفي هذه الإنسانية المسكينة المضطربة المعذبة .

هذه حال الدارسين العارفين في جميع أمم الأرض ، فإذا كانت هذه حال الدارسين المفكرين فكيف تكون حال الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . إن للأنبياء سعادة في نفوسهم يحسون بها ، ولقد ضرب لنا الله مثلهم المحسوس بالأم ترضع ولدها والأب الشفيق ، فالأب والأم يريان ولدهما لا يبغيان جزاء ولا شكورا ، بل هما يجعلان حياتهما واقفا على تنمية هذا الطفل . فإذا كانت هذه حال العامة في الأمم بالنسبة لأبنائهم فكيف بالأنبياء بالنسبة لأمتهم . إن للأنبياء لحبا علويا لرهبهم ، وهذا الحب يقودهم إلى كل قول وفعل جميلين ، وصدورهم منشرحة لما يصنعون . ثم إن الصالحين من أمتهم يقول الله لهم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » فهذا الود الذي يليق في قلوب الناس لهم ود الله ولهم نتيجة مرتبة على الأعمال الصالحة ، إن الأجر لا يسأله إلا الرجل المتكلف ، أما الأنبياء فليسوا متكلفين « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين ؛ ولتعلمن نبأه بعد حين » .

الذي لا تكلف عنده يكون عمله قريبا من السليقة ، فنفس العمل محبوب ومن نتأجه المودة ، والأنبياء لا يسألون أجرا على التبليغ والله برأ رسوله من ذلك ، وغاية ما يحبه الأنبياء ويكرمون به أن يكون أتباعهم مقربين إلى ربهم ( وبعبارة أخرى ) أن الذي يسرهم هو ارتقاء أمتهم في الصلاح والتقوى ، فلو كان هناك أجر لم يزد على ذلك ؛ ومعلوم أن هذا ليس أجرا وإنما هو نجاح رسالتهم وتمام أمرهم ورجبتهم في إسعاد الناس وهذا قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » إذا قرأ عينه صلي الله عليه وسلم أن يرى أتباعه يتقربون إلى الله تعالى ويطلبون الزلفى لديه بالإيمان والطاعة ، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله وهو ليس بأجر وإنما هو حب للإسعاد العام للناس ، وهذا المعنى هو الذي جاء في الآية في هذه السورة على قول من أقوال العلماء غير الجمهور « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » أى إلا أن تودوا الله ورسوله في التقرب له تعالى بالطاعات والأعمال الصالحة وهذا المعنى لا ينافي المعنى المشهور . إن المعنى المشهور داخل في هذا بطريق التبعية لأن المودة للأشرف مقربة لله كجميع الأعمال الصالحة ، وهذا المعنى العام هو الذي يطابق آية الفرقان المتقدمة « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » .

## تحقيق لمقام الود

وتبيان عام لمودة الأنبياء والمصلحين

اعلم أنه لا سعادة في دنيا ولا في أخرى أجل من سعادة الحب والود ، إن الله هو الغفور الودود ، فإذا وجدنا بعض الكتاب في عصرنا في صحيفة [ الضياء ] يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣١ م ،

يصف الحب الخاص والود المحدود بأوصاف منطبقة علي ما نشاهده في أحوال الناس من التضحية والإيثار والفرح بكل ما يبتهج به المحبوب فما بالك بالحب العام الذي يسع العوالم كلها ، فانظر كيف ضرب مثلا :

( ١ ) لسعادة الحب بما يبدو من محبوه وقد شبه ذلك بانعكاس نور الشمس على القمر .

( ٢ ) وبالكاتب الفكاهي الذي يتلمس سعادته من السامعين لسكنايته .

( ٣ ) وبالمرء يجد لحديثه سامعا جديدا .

( ٤ ) وبالرجل يجد امرأته تحبه .

( ٥ ) وبالرجل أتى بالمشمش لأطفاله الفقراء فسعادته بفرحهم .

( ٦ ) والعاشق مع من عشق في الفقر وقد أكل المحبوب العنب والمحب فرح به ، وهالك نص

المقال المذكور :

### خواطر في الحياة

انحصار المرء في ذاته وتقييد شعوره ففكره بنفسه من دواعي الألم والشقاء ، وأما سعادته وغبطته فهي في الخرج بمعونة الخيال عن دائرة نفسه وحدودها . والسعادة وإن كان ينبوعها كائنا في نفوسنا إلا أننا لا نتعرفها ولا نتذوقها إلا إذا انعكست علينا من شيء خارج عن أنفسنا كنور الشمس المنعكس عن صفحة القمر ، وهذا العنصر الأجنبي الذي يمتزج بالسعادة يكسبها في شعورنا حلاوة وغرابة مثلما تفعل عناصر القمر بنور الشمس . انظر إلى الكاتب الفكاهي مؤلف الكوميديا ، إنه يجهز ملحه وطرائفه في الخلوة ، فهل يتذوق حلاوتها إذ ذاك ! كلا ، إنما يتذوق لذاتها ، ويجني ثمراتها من بريق السرور في أعين الجماهير الشاهدة تمثيلها ومن هتاف الطرب في أصواتهم المتصاعدة . ألا ترى إلى الحديث المملول من طول الإعادة كيف يخاع ملالته ويكتسب رونقا ورواء إذا صادف سامعا جديدا ؛ وأنت قد تكون مثيرا من الحامد والمناقب حامل الجم من المحاسن والمزايا ولكنك لا تشعر بهذه تمام الشعور ولا تغتبط بها حق الاغتباط ولا ترقص طربا لها وجدلا حتى ترى لألاءها منعكسا عليك من وجه غادة ألوف ، وتبصر جمالها يتألق في ألحظها الضاحكة . ففي هذا الظرف ولا في غيره تحس السعادة حقا وتعرف حلاوة مذاقها ؛ والرجل الفقير يعود إلى داره بقراطس المشمش أو البرتقال ، فإذا دخل على أولاده فأيقظهم فاستوا جالسين على فرشهم الرثة المهلهلة وتناولوا منه الفاكهة يلتمسونها التهاما والعصير يتجلب من أفواههم المنهومة الظمئة ، والفرح يتوقد في عيونهم المحرومة المتشوقة عاد لشدة الفرح والجذل كأنه قد ملك حقائق يافا وبساتين دمشق وحماة ، فهل يجدن مثل هذه اللذة في أكلة برتقالة ؟ وأنت إذا كنت مع حبيبة لك في قفار وفياف وقد آذاك السغب والصدى ثم رزقت عنقودا من العنب فأى الحطتين أحب إليك أن تقسمه على السواء بينكما أو تؤثر بها ( إلا عنبه واحدة تطفئ بها نار ظمئك ) وتظل ترنو إليها وهي تلتقطه حبة حبة كما تفعل المصفورة بالقرطم ، وفي هذا المنظر الجميل والمشهد البديع ما يشبعك ويرويك ويملأ بطنك ويكظ أضلاعك وأى طعام ( عمرك الله ) أشبع من الجمال وأروى ، وأى شراب أمتع من الحب وأشهى ؟ والحق أنه لا سعادة في الدنيا إلا ما كان مزاجها الحب ، وما الحب إلا استكشافنا أنفسنا في خلاننا وأصفيائنا ، وسرورنا بهذا الاستكشاف ، والإنسان منفردا عن الجماعة لا يستطيع أن يدرك السعادة كالذي يعيش بعيدا عن المرأة لا يستطيع أن يعرف صورة وجهة : قيمة المرء ما يحسنه وآثاره عنوان ما يمكن فيه من الفضل ، وهي السراج الذي به نستطيع أن نسرغور شخصيته ونقيس أعمقها

وأبعادها ولا جدال في أن كل امرئ يخرج إلى الدنيا منطويا على قدر معلوم من القوة أو الكفاية لا يزال متماسبا مع مقدار إنتاجه . وكذلك نرى أن كل كلمة أو فعلة تصدر عن امرئ تكون مطبوعة بطابع شخصيته ، بل تكون حلقة في سلسلة حياته ، ولقد كذب من حسب الإنسان متناقضا متباينا إنما هو متجانس متناسق متشابه الأقوال متماثل الأفعال . وما صدق من قال عن رجال الأدب إنهم عقلاء أذكيا على الورق : أما في ميدان الحياة فحمقى أغبياء ، يغرغون في شبر من الماء ، هذا كذب وبهتان . ولا يعقل أن ترى الرجل الواحد فيلسوفا على مكتبة وحمارا في الشارع . ولا أن يكون فردا بعينه أعرج في الطرقات ثم أربع رقاص في الحفلات الساهرة . أجل إنه على قدر قوة المرء وبحسب حذقه ومهارته في استخدام هذه القوة تكون قيمة عمله . كما أنه على قدر قوة الدفع يكون مرمي قذيفة المدفع وعلى قدر قوة البأس وامتداد الأنفاس تكون سرعة العداء والمشاء وإذا رأيت شعرا خاليا من حسن النسق والانسجام فاعلم أن ذلك لاختلال النسق وقلة الانسجام في روح الشاعر . وكذلك إذا عثرت على الكاهنة أو الفعلة لرجل مادلتك عليه وساققتك إليه كما يرجع بك شعاع الشمس إلى الشمس .

معظم الناس لا شخصية لهم ، أولئك لا وزن لهم ولا قيمة ، وأهميتهم في كثرة عددهم ، ومن أجلهم يشتغل العدادون وكتاب الإحصاء ، ومنهم تتألف الجماعات والجمهير والأغليات الساحقات ، وهم الذين يجمعون الأموال ويؤدون العادى المعروف من أعمال هذه الدنيا ولن تكون لهم قيمة إلا تحت إشراف القادة الزعماء فهم كالعجينة يشكلها الصانع الحاذق كما يشاء ، ويشيد بهم البناء كما يشيد بالبنات ، وهم في الجملة يكونون الرأى العام وإن كنا نعرف أن الرأى العام في كل عصر وجيل إنما هو زبد أفكار ستة أو سبعة من الرجال يتوسدون صفائح قبورهم في طمانينة وسلام ، والجمهير تحتفظ بأفكار أولئك الموتى كما يحتفظ هواء الجو بحرارة الشمس ونورها بعد الغروب .

ولا مشاحة في أن الشخصية البارزة أو التفرد أو قوة الخلق أو الرجولة الشاذة المتينة أو ما شئت أن تسمى تلك الميزة التي اصطالحنا على تلقينها (العبقرية) هي أفضل هبات الطبيعة للإنسان وأجزل آلتها وليس مقدم الرجل القوى إلى هذه الدنيا إلا بحسن البشارة بسعادة المستقبل ، فهو نبوءة خير ، وبشرى فلاح مثله في ذلك كالريح تهب الآن هاهنا ولكن الموجه التي هي من فعلها وأثر هبوبها لن تلبث بعد ركودها أن تفيض وتطغى على الساحل القصى الواقع على مسافة ألف ميل .

إن الرجل الشاذ يعد نعمة عظيمة في مثل دنيانا هذه السخيفة السمجة الاعتيادية ، وكفى أرباب الشذوذ والانحراف وأهل الجون والهزل وذوى الخلاعة والتهتك فخارا أنهم يذهبون من وحشة الحياة الاجتماعية وينفون من سأمها وملابها بتنويرهم من تماثل هيئتها وصورتها وتكسيرهم من استواء أديمها الجامد الميت ، وجدير بالإنسان أن يصبح معروفا بين الملا بشيء خلاف اسمه ولقبه .

وهذه الثمرة الشخصية والطابع الذاتي أو (الماركة) الذاتية تكون في عالم التأليف جليلة القيمة ، من حيث إن عظمة المؤلف لا تتوقف على ما يشرك فيه غيره بل على ما يفرد فيه بنفسه ويستأثر به وحده ، والرجل العظيم هو المبتكر الذي يصنع الشيء لأول مرة ، لقد كان استكشاف القارة الأمريكية من أصعب المشاق ، فلما استكشفت أصبحت الرحلة إليها من أسهل الأمور ، وتلك الميزة الخاصة المنفردة التي تمتاز بها القطعة الفنية من شعر أو نثر أو نقش أو غناء هي الأساس الذي يقوم فوقه الحكم النهائي عليها وتسجل كلمة التاريخ ، وعلى أية حال فالعمل الفني المشتمل على هذه الميزة الخاصة الفردية يكون حائزا لعناصر الخلود .

انظر إلى الطبيعة تنبعث الحياة من جميع أنحاءها وأرجائها ، وتعيش الحياة في جميع جزئياتها وذراتها وكأنها

بلورة صافية شفافة تتجلى من ورائها الروح الأبدية السرمدية في مليون شكل وهيته ويلوح من دونها السر المقدس الإلهي ، الظاهر الخفي في آلاف الآلاف من الصبغ والألوان ، والنغم والألحان ، والصور والأشباح والأجراس والنبرات ، والروائح والنفحات وكل شيء في الطبيعة تنبجس منه الحياة وتتفجر حتى الصخر الأصم إن هو في كنهه وحقيقته إلهية تجسمت وروح تجسدت ، كتلة من الروح الكلى وثوب تنسجه الحضرة القدسية الإلهية . في تلك اللحظة انعدمت المادة في نظري وتلاشت . والواقع أنه لا مادة في الكون للعين الشاعرية الملائكية ، النافذة الثاقبة الجليلة .

وكما أن الريح الجواله على البحر تستل من كل موجة جزءا خفيا فتحمل منه إلى أهل الساحل روح المحيط الأثيرية فكذلك النسيم الخطار على العشب والكلأ ، والشجر والنجم والدوح ، والنهر والجدول والغدير يسرق من الزمان ، صيفا كان أم خريفا ، جزئياته وذراته إذ يستلب من الأذن والأعصاب ومن الورق والأكام والأزهار ، ومن سائر النبات والأعراس ذرات ضوء الشمس فيحملها إلينا ويمزجها مع الأنفاس بنفوسنا . وكذلك يروح تيار الهواء بعد انغماسه في كؤوس النوار والأزهار تحت موسيقى النحل والأطياف ، تدب فيه الروح وتجيئ الحياة ، فما هو بالجماد ، ولكنه كائن حي يترنم بذكر الله ويسبح بحمد المانع الوهاب .

في هذا الوادي المقدس أمام ذلك المشهد الرائع ، بين أكناف الطبيعة البديعة وقفت أحسنى كأس الخلود وقد تفتح صدري وانفسح جنائي لأبعد أغوار الحريف وأسحق أعماقه ، حتى وسع قلبي ما امتد أمامي من ذلك المنظر الفتان إلى الأفق المسديد القصى . إلى أدنى حشرة في الثرى ، إلى أسمى طائر في الجو .

وكذلك بهرني مشهد الطبيعة الرائع ، وسحرنى ومملك على مشاعري فاندفعت على ضفاف النهر تجذبني وشائج الأعصاب ولفائف الألفان وتحديني أعجيبات الألحان ، على عذبات الأيك والبان ، وذوات الأطواق على منابر الأوراق ، وأحس حميا الحياة تتدفق من ضياء الشمس ومن نسبات الشمال في كياني ووجداني وكأن العشب والكلأ المنبسط أمامي بلانهاية . والدوح الباسق المنتشر القوى ومطارب البلابل والقبارى . كأن هذه كلها تنصب في روحي ، وتمتج بأجزاء نفسى . وتلك الأزهار التي تلتق لثام الصباح على الآلاف المؤلفة من وجناتها ، رأيتني أشاطرها حياتها وسرورها وفرحها .

وأبصرت الجمال ينبثق من كل ورقة وزهرة ، والحسن ينسكب من كل موجة وقطرة ، وعجائب صنع الله تتجلى في كل هباءة وذرة . ووجه الأرض صحيفة كتبت عليها سورة الجلال ، ولوحة نقش بها صورة الفتنة والجمال .

ولتعلمن « علمت الخير » أن الساعات التي تظل فيها الروح مستغرقة في الجمال لهى وحدها الساعات التي نعيشها والجديرة أن تحسب من العمر ، وكل برهة نقضيها بين الجميل والجليل والرائع والبديع إيماء هي فرصة تختلس من الدهر ، وغنيمة تنتهب من مخالب الزمن . هذه الساعات التي تستغرق الروح وتفعمها جمالا هي الحقيقة حقا بأن يقال إنها لم تذهب ضياعا ولم تطح جبارا ، هذه هي الحياة المحضة الصريحة وكل ما عداها خدع وأضاليل وأكاذيب وأباطيل .

بين أرجاء هذا المشهد الرائع الذي كله روح تجميش وحياة تتفرز . محال أن يذكر الإنسان الموت وتمر بياله ففكرة الفناء ، وكيف يتأتى له الجمع بين الضدين والنقيضين ، صورة الحياة في أكمل معانيها وأنصع مجالها وصورة الموت . لقد جعلت أقول لنفسي وأنا أنظر إلى الطبيعة كأنها عروس قد تبرجت لزفاف وتزيئت وأرنو إلى الوادي العشب بهتز نعمة وريا .

## ورياض من مخايل الأرض فيها خيلاء الفناة في الأبراد

لقد جعلت أقول في نفسى وأنا أتأمل ذلك المنظر الحى المتألق الخفاق ، ولكأن الموت لم يهتد قط إلى هذه البقعة البهجة ولم يدر السبيل إليها . وأكبر ظنى أن علمنا الأرضى قد كان هكذا قبل هبوط آدم وحواء على أديمه النقى بذنوبهما وخطاياهما وذريتهما الباغية الطاغية المجرمة ائيمة بشرورها وآفاتهما ومصائبها ونكباتها وحاشيتها وبطانتها من الأبالسة والشياطين على رأسهم إبليس ، وزبانيته من العلل والأمراض والأوبئة على رأسها الجلاد الأكبر عزرائيل .

أجل ، لقد كانت هذه البقعة البديعة قبل ظهور الأمم صنوف الحيوان أعنى الإنسان . وتالله إن الناظر إلى هذا الوادى الأنيق لا يكاد يتصور أن رسول المنية قد جاس قط خلاله ، وخاض ظلاله ، ولا أن الأرض الطويلة العريضة تحتوى قبرا واحدا أو تنطوى على رمة ؛ ولا أن السكون بأسره قد تصعدت قط فيه زفرة أو تحيرت عبرة ؛ أو علت أنة ، أو دوت رنة ، أو قام فيه حداد ، ولبس سواد أو شقت جيوب وأبراد .

الحب وحده هو الذى يشقى غلة النفس الصادية ويشبع نهمة الروح الجائعة . الحب وحده هو الدواء وهو السعادة وهو البغية والغاية والمراد ، وليس فى سواه من ملذات الحياة ما يسد مسده أو يقوم مقامه وماذا ترى فى مسرات العيش يعنى غناه .

اللهو ، اللهو لا يشبع روح ذى الروح السامية ولا يطرب نفس ذى النفس الشريفة العفة العالية ولا ترضيه أذهان ذوى الأذهان الثاقبة النيرة ، إذن فماذا يقوم مقام الحب ، السواصر والحفلات والأندية . هذا كتاب سرعان مات قرؤه وتحفظه حتى تملئه وتسأله : العلم أو الفن . هذا أو ذاك لا يمكنه أن يملأ من عواطفنا إلا جزءا معيناً .

القراءة أو الثقافة ، هذه لا ترد لهفة ولا تبرد غليلا ، ولكن هنالك شيئا واحدا هو الكفيل أن يخلع على الحياة ، ذلك النور الذى لم يشاهد قط فى أرض ولا سماء ولم ير قط فوق بر ولا بحر وذلك هو الحب .

الحب أبعد غاية من أن يقاس وأعمق من أن يسبر وأكثر من أن يحصى ويحصر ، وأعمق الحب وأشده مانعاضى عن معائب المحبوب ومعايره مهما عظمت .

والصدقة قد تحتاج إلى أن تدعم على أساس من الاحترام المتبادل ، ولكن الحب لا يحتاج إلى أى أساس أو سد أو دعامة ، الحب يكتفى بنفسه وحدها ويعيش على نفسه دون سواها .

وشرارة الحب تقدر من نظرة أو لمسة أو همسة . أما الاحترام فليس فى طاقته أن يوجد الحب ، كما أن قلة الاحترام لا تستطيع أن تمحو الحب . ولا جرم أن العاشق ليظل وهذه الملايين التى تملأ الأرض أموات فى عينه ولم يبق حيا على ظهر الأرض إلا عينان مشرقتان تنظران فى روحه وتحرقانها فتتركانها رمادا ، أتفهم ما أقول ؟ . كلا ؟ إذن أنت لانفهم الحب ، أتقول الاحترام أساس للحب ؟

تزعم أيها القارىء أنك لن تحب المرأة إلا إذا كان لها من الصفات ما يستدعى احترامك ؟ كأن الحب قرش فى جيبك لن تخرجه إلا لمن أعجبك من الشحاذين وراققتك طباعه ؟ إن كان هذا رأيك فأنت أجهل الناس بالحب وأولى لك إن فتح موضوعه أن تسكت أو تنسحب .

والواقع أن العاشق لا يحيا إلا بروح معشوقته ، ولا يجد فى العالم إلا شخصية واحدة ، هى وحدها المحبوبة وهى الجميلة وهى الضرورية وهى البغية والغرض والأمنية ، شخصية واحدة من بين الملايين التى تملأ الدنيا وهذه الشخصية مهما هفت وأخطأت ومهما جنت وأجرت ومهما أسفت وسفلت ، ومهما لقيت من تحقير الناس وإصغارهم وسخريتهم وازدرائهم لتبقيت فى عين عاشقها كما هى لا يؤثر فيها ذاك شعرة ولا ينقصها مثقال

ذرة ، هذا لا يستطيع أن يغير الحب ، بل كلما زيد الأذى على تلك الشخصية وضعف البلاء تبين لعاشقها أنها أحوج ما تكون إلى الحب ، ومن ثم ما زارها كثيرا من العشاق من مكافأة خيانة حبايبهم بالأمانة وغدرهن بالوفاء ، ما أعجب الحب وما أعجب حاله ؟ ترى مليون وجه ، ونسمع مليون صوت ونلقى مليون أنثى حالات الثغور بالآلىء والعيون بالألاء ، ولسكنهن لا يمسسن أرواحنا ، ولا يحركن شعورنا ، ثم نصادف من بينهن واحدة فإذا هي تحمل لنا الحياة أو الممات في يدها ، وتلعب بهما كما يلعب الطفل بلعبه ، يا للعجب ! بماذا تمتاز هذه الواحدة عن تلك الملايين ، بلاشئ ؟ وماهى أفضل ولا أجمل ولا أنبل ولا أكمل ممن شاهدنا قبلها ، ومع ذلك تجدنا نرى الدنيا من غيرها صحراء مجدبة انتهى . وفي هذا المقال الجميل بعض المعاني السقيمة الساقطة .

ها أنا ذا أيها الذكى كتبت المقالة جميعها وفيها وصف الحب ، وهذا الحب هو الحب الأدنى الذى لا يعرف الشبان إلا إياه وقيمه ضئيلة ، ولقد ذكرت في هذا التفسير كثيرا أن الحب ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط ، وأعلى ، فما ذكر هنا هو الأدنى لأنه معروف ، والأوسط عشق العلوم ، والأعلى حب الله تعالى وعشقه ، وهذا لا يتصوره كثير من الناس ؛ وقليل جدا من النوع الإنسانى من يفهم حب الله تعالى الذى يشير له أكثر القرآن ، وترى الحمد فى الفاتحة يشير له إذ الحمد والمدح لا يكونان إلا بعد نعمة عرفها الحامد ، وهذه المعرفة أولا تحدث فى قلب الحامد حبا للمنعم فينطلق لسانه بالثناء وأعماله للخدمة ، والخدمة هنا بالجوارح للأمم الأرضية الذين هم تحت رعاية المحبوب الممدوح ، ولا جرم أن الله عز وجل منبع كل جمال وعلم ورحمة وشجاعة ، فخصر الكاتب الحب فى المرأة راجع إلى الطبقة المعروفة والحكام يرتقون طبقات ويفرحون فرحا لاحدله بمحبوبهم ، ويذكرهم بذلك المحبوب كل شمس وقمر ونجم ونهر وبحر وشجر وحجر وحيب متبسم ، وتصبح حياة هذه الطائفة سعادة دائمة ولا يحس بسعادتهم أحد إلا هم أنفسهم ولا قدرة لهم على التعبير عنها .

هذا هو الود الذى ورد به القرآن أنه للصالحين ، فهؤلاء هذه حالهم وهذا هو نموذج الود المذكور فى قوله تعالى فى آيتنا هنا « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » أى إذا كان لى أجر فهل هو إلا أن تودوا الله ورسوله بالتقرب بالطاعات .

فهذا هو التفسير الذى تؤيده آية الفرقان كما تقدم ، هذا هو الذى جاش بخاطرى ووافق تفسير بعض علماء الإسلام ، وفسر بمنطوق آية الفرقان . وذلك ليلة الخميس ثالث يوم من رمضان الأغر سنة ١٣٤٩ هـ بعد نصف الليل .

يامعاشر المسلمين : كفى غفلا وجهلا ، لم ينزل هذا الدين إلا لإنعاش الأمم وإيقاظها وإحداث حركة فكرية جديدة أما إذا ظن المترفون المنعمون وهم على فرشهم أن الأنبياء يتنغون من النبوة أن يقال فى أبناءهم ما قاله النصرارى فى المسيح ، فيقول الباطنية فى كرام آل البيت إنهم آلهة ، كما تقدم [فى سورة الكهف] عند آية « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وعند آية إبراهيم فى آخر سورة إبراهيم وهكذا ، فذلك جهالة تؤدى إلى بطالة . إكرام آل البيت مطلوب مرغوب ، ولكن مما لا سبيل إلى قبوله أن يتخذ ذلك ذريعة إلى أن تناط أمور المسلمين بمن لا وسيلة عنده إلا النسب . كلامهم كلاما . ديننا يراعى الكفاءة للأعمال ، إن نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فلا يوسد عملا إلا إلى أهله .

أيها المسلمون : أيها الأذكاء . لاسعادة إلا بالحب ، والحب الدائم حب الحى الذى لا يموت ، وهذا دونه خراط القتاد لأكثر نوع الإنسان . ولن يصل إليه إلا الأقلون . انتهى ليلة الخميس الموافق ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ .

## جمال الحكمة والبهجة

في هذا المقال

يا الله أنت أرببتنا جمال وضعك ، وحسن صنعك ؛ وأنستنا بنور وجهك ، وأشرقت علينا بهجات نورك وأنوار شمسك وأقمارك . رأينا ياربنا علاقات تامة بين أرضك وشمسك ، مدا وجزرا ، وكذلك مع قمرك . ورأينا الحركات منتظمة . ورأينا أجسامنا وتربيتنا منوطين بالحرارة والضوء الساريين في النبات الموصل لنا الصحة والقوة من عالمك الأعلى . وهانحن أولاء رأينا علاقتنا بالأمم حولنا كهلاقتنا بالشمس والقمر وكل معدن ونبات وحيوان .

### نظام خالق الإنسان

هانحن أولاء ياربنا فهمنا وضعك ، وشرح صدورنا فملك ، وقد بهرنا ما رأينا في خلق أجسامنا . ياربنا هانحن أولاء نرى أجسامنا مصنوعة بشكل يخالف كل حيوان في بر أو بحر أو هواء . إن هذا الجسم كتاب مفتوح هو رق منشور ، هو حكمة . هو علم . هو رمز . ومق ملكنا هذا الرمز عشنا في الأرض اسداء . ربنا رأيناك جعلت الحيوانات مقسمة أقساما : فمنها الفقرية ، ومنها الحلقية ، ومنها المفصليية ، ومنها لرخوة ، ومنها النباتية .

( ١ ) إن الحيوانات النباتية هي التي تراها تعيش في البحار كأنها نبات ، إذن فيها حياة كحياتنا ولكنها لم تعط قوة كقوتنا وعقولا كعقولنا (انظر صورتها في آخر سورة الحج ، فبعضها ذات خمسة أشعة منتظمة جميلة ، وهي عند آية الذباب) .

( ٢ ) والحيوانات الرخوة مثل المحار والصدف الذي فيه اللؤلؤ ، وأم الخلول (وقد شرح بعضها في سورة مريم في أولها شرحا وافيا فانظره ) فهذه مع ما قبلها لما قبلنا صنعك فيها بصنعك في أجسامنا دهشنا أشد الدهش من إتقان وإحكام فينا وارتقاء مرتفع عن تلك الخلوقات اللاصقات بالأرض المحبوسات في البحار . ولم تعط يدين بهما تصنع ما تشاء كما تصنع نحن من جميل الأعمال .

( ٣ ) ولم تسكن الحيوانات المفصليية ( مثل العنكبوت والعقرب والسرطان . ونحو أم أربعة وأربعين رجلا ، وذوات مائة الأرجل ، وأمها ذوات ألف رجل المتقدم ذكرها في سورة النور ) بتمتع بقوة الإنسان وعقله ويديه القويتين المفصليتين تفصيلا بديعا تصنع أعمالا لا قبل للعنكبوت بها ولا السرطان ، فأولهما أعطى حرفة النسيج وهو يعيش في البر ؛ والثاني يعيش في البحر مقيدا بقيود خاصة . فأنى له بقوة الإنسان .

( ٤ ) وهل الحيوانات الحلقية ( ومنها دود السباح ، ودود العلق ، وحيوان البلهارسيا ، والانكلستوما والدود السكوى ) إلا عاجزات عجز ما قبلها من المفصليية . فكل منها لاصقات بالأرض لا حول ولا قوة لها إلا غرائز بها تعيش ثم تفنى من الوجود .

( ٥ ) وليست جميع الحيوانات الفقرية ( التي شاركت الإنسان في فقراته ولها هيكل عظيمة وبعضها له دم أحمر كدمه ) إلا أقل من الإنسان تفصيلا في أشكالها ، ونظاما في أفعالها .

وهل السمك في البحار قامت شوكانه التي يعوم بها مقام يدي الإنسان في شيء اللهم إلا أنها تعينه على السباحة وإن شارك السمك الإنسان في الفقرات والهيكل العظمي ، وهل السلاحف بدرقاتها والورل والثعابين

بسمومها بجانب الإنسان إلا عواطل من القوى الشريفة والأعمال المنيفة ، ولعمرك ما يغني جناح ( الدجاج والطاووس والحجل والبط وأبي قردان والنعام والبلبل والبيغاء والنسر والحدأة والعقاب ) فتبلا ولا قطميرا ، وهل لذلك الجناح إلا أنه يحمل الطير في جو السماء ، وهل للجناح إلا عمل واحد هو حمل الطائر ليصل إلى أعماله ، وفرق عظيم بين الأجنحة وأيدي الإنسان القامات بأعمال غير محصورات ، وما القيطس العائش في البحار الذي يستخرج منه الإنسان الزيت ، ولا الدلفين الذي ينفع الإنسان بحفظه من الغرق ولا الكشولو الذي يستخرج منه الناس العنبر السنجاني ، ولا الحيوانات المجترة ( المشروحة في سورة النحل بصور بعضها ) ولا ذوات الظلف الواحد ( كالفرس ، ولا ذوات الأرجل المشقوقة مثل الخنزير وجاموس البحر ، ولا ذوات الخراطوم كالفيل ، ولا الحيوانات الثديية آكلة الحشرات مثل القنفذ والفأر الغيطي ، ولا الحيوانات آكلات اللحوم كالأسود والنمور ، ولا القرودة ) لها ما للإنسان من قوة اليدين والمقل العظيم .

يا ربنا ها نحن أولاء نظرنا فوجدنا اليدين اللتين وهبتهما لنا أعطتنا ما لم يعطه الأسد في عرينه ولا القيطس في مائه ، ولا النسر في جوه ، ولا الفيل بقوته ، ولا الفرس بسرعه .

نظرنا هذه الخلوقات فألفيناها مقيدات مقدمات لما غرست فيها من الغريزة ، وأحطتها بالطبيعة ، كاهن مقيدات ناقصات . فهن أقل من هذا الإنسان قوة معنوية وقوة مادية .

رباه : نحن بنظرنا في هذا الوجود ألفيناك وضعتنا في مركز هام عجيب . فإن نظرنا للشموس والأقمار وعالم النبات والحيوان والبحار والهواء وجدناها كلها كأنها جسم واحد ونحن في داخله ولنا به اتصال عجيب ، بل يكاد كل جسم من أجسامنا يكون أشبه بعضو في الجسم العام في السموات والأرض . وإن نظرنا إلى ما فيه الحياة مثلنا من كل حيوان وجدناك قيدهن جميعا . فقيدت ذا الظلف وذا الجناح وصاحب نصف الجناح ، وقيدت الزاحف والملثني وكل ما في هواء أو على الأرض أو في لجج البحار ، فكاهن مقيدات . ولم يفك من العقال إلا هذا الإنسان ، فإن أيدينا وعقولنا تفعل ما لا يقدر عليه الجناح ، ولا يسمو له الخراطوم في الفيل ولا القوة الأسدية ، والافتراس النمري .

إذن أنت يا الله فضلتنا بعقل وبيدين فضلا عن سواها . إذن أنت يا ربنا جعلت أجسامنا مفصلات تفصيلا كأنها كتاب نقرؤه ، وهذا الكتاب مفصل أبداع تفصيل . إذن يارب أنت أنعمت علينا بما وهبتنا من الحرية العقلية ، وبالبيدين اللتين بهما تقدر على الاختراع والإحكام والتدبير وإدارة كل عمل في أرضنا من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وإبداع واختراع . كل ذلك ابتكرته عقولنا وصنعته أيدينا . إذن هذا الكتاب الذي قرأناه في أنفسنا وتفصيلها وفي الحيوانات حولنا وفي العوالم العلوية والسفلية يوجب علينا أن نكون خلفاء لك في أرضك ، ولن تحقق هذه الخلافة إلا بالعلم والعمل ، وأنا الآن يارب أكتب هذا القول للمسلمين . تلك الأمة التي برزت في الوجود منذ ( ١٣ ) قرنا وغيرت معالم الكرة الأرضية . وبسببها ظهرت أمم وأمم في الشرق والغرب . فأنا أكتب هذا لهم وللأمم . وأسألك يارب يا رحيم أن يقوم فيهم مجددون يقومون للنوع الإنساني بما قام به أسلافهم كل بحسب زمانه ، وأخاطبهم قائلا :

« أيها الأمم الإسلامية ، ويا أيها الأمم العربية ، طالع نومكم ، ألم تسمعوا قول ربكم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . فأين خيريتكم الآن . ألستم لما نتم عن وظيفتكم تولى بعضها غيركم من الأمم . أتم خلفاء الله بنص الآية وبما يفهم من تفصيل الجسم الإنساني . أتريدون أن تكونوا في الأمم أشبه بالعناكب والذباب وهم يكونون أشبه بالإنسان . أتريدون أن تتجاهلوا مالككم من العقول والأيدي فيجعل بعضنا نفسه كذئب الجناح أو ذئب الحافر ( حاشا لله أن يكون ذلك ) .

وهل يرضى أبناء العرب الذين هم أصل هذه الأمم الإسلامية أن يكونوا في مؤخر الأمم ويتزلوا عن مجدهم الرفيع وشرفهم الكبير ، ويدروا عقولهم بلا تفكير وأيديهم بلا عمل ، ويجهلوا ما عرفت الأمم حولهم من العلوم والصناعات ؟ لا لا . يا أمة الإسلام ها أنا ذا وصلت لكم القول ليعلم المفكرون منكم قوله تعالى « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » والله كما فصل القرآن فصل آيات هذا الوجود . ومن هذا التفصيل تفصيل جسم الإنسان ، فهو مفصل تفصيلا عجيبا . فها هو ذا القرآن وها هو ذا جسم الإنسان يقضيان بحرمان الجاهلين الكاسلين الذين يذرون مواهب العقول وابتداع الأيدي عجائب الصناعات وابتكارها غرائب المنافع في الدنيا والدين . كتب في ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ و ٢٢ يناير سنة ١٩٣١ .

### نظرتي أمس ( ٣ رمضان أيضا ) في بلدة البركة

#### امرأة تطحن على رحاها

يا سبحان الله : مررت على هذه البلدة كعادتي لأنها في طريقى إلى مزرعتنا بتلك الجهة قرب القاهرة فما رأيت المرأة تدير رحاها تطحن بها برا تصنعه لأهل منزلها ( وقد كان هذا الموضوع أى موضوع السموات والأرض ، وانتظام هذا المجموع واتصاله بجسم الإنسان وأمم الأرض مرتما في ذهنى محضرا في عقلى لا أقدر على التماس منه ) حتى كانت هذه الرحى إناما للموضوع وشرحا وتطبيقا على ذلك كله .

الله أكبر : دارت الأرض حول نفسها فكان الليل والنهار ، الأرض دائرة في يد صانعتها مجذوبة حول الشمس فكانت لها نتائج لا عدد لها ولا حصر . وبدورانها كان الصيف والشتاء والخريف والربيع وهناك ما لا حصر له من الخلوقات ، فهى رحى كبيرة . إن رحى المرأة التى رأيتها أمس مدورة والأرض كرة . إن رحى المرأة دائرة بيد المرأة والأرض دائرة بيد الصانع الحكيم . ولكن فرق ما بين الدورتين ، فدورة الأولى لغذاء بيت واحد . ودورة الثانية لغذاء أمم وأمم .

إيه أيها المسلمون . كلما كانت الأمم فى صناعاتها أقرب إلى صنع ربها كانت أسعد بالا وأنعم حالا ، وكلما ابتعدت عن صنعه كانت أقل وأذل ؛ أفلا ترون الآلات الطاحنة ذوات العجلات المنتظمات الدائرات دوران هذه الرحى عملتها أيدي أناس مثلكم فقامت مقام آلاف رحى كرحى المرأة التى رأيتها فى بلدة البركة . أفلا ترون الآلات الحازبات والحارثات والجاريات فى البر والبحر فقد عملتها أيديكم بإرشاد عقولكم فاعنت أمما وأمما .

كلما كانت صناعات الأمم أقرب إلى البساطة كانت الأمم أقرب إلى التفرق فيكون الانحلال ثم الفناء ، وكانت بالنسبة للأمم ذات الصناعات العظيمة أشبه بالحيوانات الرخوة بالنسبة للإنسان ، وكلما كانت صناعاتها أقرب إلى صنع الصانع الحكيم مبدع الكون كانت أقرب إلى الاجتماع والاتحاد والكمال فى الإنسانية ، والإنسان اليوم سائر إلى هذه الحال شاء الجهال من المسلمين أم أبوا ، وسيكون هذا النوع الانسانى أشبه بأمة واحدة تعمل لغاية واحدة ومنفعة للجميع وتكون سعادة الإنسانية بتلك الأيدي والعقول فوق ما هو عليه الآن آلاف آلاف مرة ، وتكون نسبة سعادتهم اليوم إلى سعادتهم فى المستقبل كنسبة الحيوانات المفصية والحلقية كالعلق والعقرب إلى نوع الإنسان ، أو كنسبة هذه الرحى التى تديرها المرأة التى شاهدتها فى بلدة البركة وغيرها إلى آلة بخارية عظيمة تطحن لآلاف من الأسرات فى القرى والأمصار . هذا ، وإنى

أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والعرفان والحكمة والتبيان ، كتب يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الرابعة ، والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم »

حضر أخى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال : لقد جاء ذكر الشيخ الدباغ ذلك الأمى فى آية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » الخ ولكن للقول هناك بقية . ولقد أذكرنى بها هذه الآية لأن البشر ليس لهم أن يكلمهم الله إلا بالوحى أو من وراء حجاب أو إرسال رسول الخ فى آيات شعري أمثال هذا الأمى من هؤلاء حتى يأتى لنا معلوم عجيبة بعضها نعلمه وبعضها لا ندركه . فقلت : أيها الأخ . الشيخ الدباغ وأمثال الشيخ الدباغ لا تأخذ العلم عنهم وإنما هؤلاء مذكرون لنا بالوحى . فإذا سمعنا من هؤلاء حكلم ندركها نحن وبحسنا فوجدناها موافقة للوحى المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم قبلناه وإن رأينا ما يخالفه نبذناه . فلنا عقول ولنا دين . ولكن ليس معنى ذلك أننا نترك هذه الينايع التابعة من فيض الله كما لاندع الينايع الظاهرة من الأرض بلاعمل منا . إن المسلم فى مستقبل الزمان غير المسلم الماضى فى القرون المتأخرة . إنه إنسان غير جامد . إنسان فيه حقيقة الإنسانية ، لا يدع نعمة تصل إليه ولا حكمة يسمها إلا بحث فيها . فإذا كان الماء النابع من العيون لا ينبغى للمسلم ترك الاستفادة منه . هكذا لا يلقى به أن يذر حكما تصدر على لسان إنسان بدون أن ينقدها ويفكر فيها . بل فوق ذلك يعلم أن الله هو نفسه الذى ساقها إليه اختبارا له لينظر أيشكر بقبولها وبحسها والاستفادة منها أم يكفر بتركها واحتقارها فيقول لا لا أنا لم أقرأ نص هذا القول فى الدين . بل أقول فوق ذلك كل قول يسمعه المسلم من أى عالم فى أقطار الأرض فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية إنما هو نعمة من الله ساقها إليه فنبتناها إنما هو نبت للنعمة الرسالة من الله إليه . وعليه أقول : إن المسلمين بعد انتشار هذا التفسير ( وقد انتشر فعلا ) سيكونون نورا للأمم لا يدرون قوة فى الأرض وما عليها . ولا حكمة صادرة من رجل فتح عليه وهو لم يتعلم كالشيخ الدباغ . ولا علما جديفه عالم صينى أو يابانى أو ألمانى أو فرنسى الخ بعقله ونضبه وآلاته الرصدية أو السكياثية أو غيرها إلا سارعوا إليها ودرسوها وعصوها . واصطفوا ما هو نافع ، وتركوا ما هو ضار .

هذا هو الحق الذى لا يحصى عنه . أليس هذا هو قوله تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

فآية عامة وتخصيصها لا معنى له ، والأرض أرض الله والناس عباده . وإذا انتفعنا بماء الأرض الذى هو من صنع الله وفيضه فإن الانتفاع بما تنتجه العقول أولى لأن العقول أفضل من المواد ، والماء مادة والعلم ينتج من العقول . إذن ترك ذلك كله أو بعضه جهالة وقلة دين وعس .

لك الحمد اللهم على نعمك ، ولك الشكر ، ولك الفضل العظيم علينا وعلى الناس أجمعين . أنت الذى خلقت الإنسان وجعلت جسمه فى هذه الأرض محوطا بالخير والشر وحجبتة عن المعارف والعلوم بماسلطات عليه من شهوة وغضب ، فأخذت الأمم موج بعضها فى بعض ، وبلغن بعضهم بعضا ، جعلتهم معذبين

في صورة منعمين ، وجهلاء في صورة علماء ، وأرثيم بصيصا من العلم ، وبصيصا من الجمال ، وهيأت أرواحهم لقبوله بدرجات مختلفات بحيث لا يتفق اثنان من الناس في درجة واحدة ، فهم في معارفهم مختلفون باختلافهم في ألوانهم ولغاتهم ، واختلافهم في خطوط أيديهم التي ظهر سرها فيما تقدم في السورة السابقة ؛ واختلاف استعدادهم الفطري :

( ١ ) فهانحن أولاء نجد القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد فهمه الصحابة رضى الله عنهم والتابعون فنشروه في السكرة الأرضية ، وكان لهم فيه فهم غير مانعهم ، وآراء غير مانعهم ، والدليل على ذلك نتائج أعمالهم في الأمم التي حكموها والممالك التي أحكموها والمظالم التي منعوها وأنواع العدل التي سلكوها والمبرات التي أظهروها والسعادات التي نشروها .

( ٢ ) ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبعثوا في الأرض الفساد وقطعوا الأرحام فحق عليهم قول الله «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» فلذلك استرد الله منهم ممالكة وأورثها قوما آخرين قرونا وقرونا وهم يتدلون في حضيض الجهالة والمذلة . وكلما نبغ نابغ ذموه وحقروه ، وكلما ظهر عالم ازدروه ، واكتفوا من العلم بقشوره ، ومن القرآن بلفظه ، ومن العبادة بظاهرها ، ومن الدين باسمه ، واستحلوا الجمل واستندبوه واستبشعوا العلم ونبدوه ، لذلك حرقوا كتب الامام الغزالي في بعض بلاد الغرب في القرن الخامس ودموا ابن رشد وكفروه أيام دولة الموحدين ، فلم تقم في أمم العرب خصوصا وأمم الإسلام عموما للعلم قائمة بعد ذلك كما ذكرته سابقا في هذا التفسير في مواضع كثيرة وأوضحته أيما إيضاح .

ولما تم ذلك قبض الله للخلف قوما آخرين ليسوا علماء كالذين نعهدهم ، بل خلقهم على شاكلة تلك الأمم لم يتعلموا علما ولم يحفظوا ديننا ولم يقرأوا القرآن وأنطقهم بعلوم فوق طاقة نوع الإنسان ، وإنما فعل ذلك رحمة بهم ؛ ذلك لأن رحمة الله عامة ، فإننا نراه لم يذر حشرة ولا طيرا ولا حيوانا ذريا لآتراه العيون إلا أحاطه بالنعيم وملأه بالحكم ، وأنت أيها الذي تعرف ذلك من العجائب المتقدمة في هذا التفسير . فإن العلوم التي ملأ الله بها أرضنا والمسلمون كانوا محرومين منها وقد كتبت ثمراتها في هذا التفسير ، تملأ القلب روعة وحباً لله تعالى وإيقانا بأنه لم يذر ذرة إلا ملأها بالحكم ولا حيوانا دقيقا أو عظيما إلا أحاطه برحمته فهو كذلك سبحانه أحاط آباءنا الذين جهلوا القرآن وكرهوا العلوم برحمته ولم يذرهم يتخبطون في دياجير الظلام بالمرشدين بل بث فيما بينهم هؤلاء الأقوام وهم أرباب القلوب والصالحون ، وكانوا كلما أوغلوا في الجهل زادهم الله من هذه الطائفة ، ومن هؤلاء من ذكرته سابقا في هذا التفسير وهو الشيخ الدباغ الذي ظهر في بلاد مراکش منذ نحو قرنين اثنين ، فإنه كان في القرن الثاني عشر الهجري ، فهل لك أيها الذي أن أحدثك عما جرى بيني وبين بعض علماء مراکش في عصرنا الحاضر في أمر هذا الشيخ ، وذلك أن هذا التفسير أثناء طبعه أخذ أفاضل العلماء في مدينة فاس وغيرها يقرءونه لتلاميذهم ، فأنا حمدت الله عز وجل وزدت إيقانا بما سيكون لهذه الأمة من السعادة والفضل العظيم .

والحديث الذي جرى بيني وبين هذا العالم الفاضل هو ما يأتي : قال [إنما اطلعنا على تفسير الجواهر انشروا صدورنا وازدادت مسرتنا ووالله لقد سرت روح هذا التفسير أثناء طبعه في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وأصبح العلماء والطلاب والعامة الذين يتعلمون منهم يفكرون في منافع أرضهم ومعادن جبالهم ومصادر أنهارهم ومواردها ، وفي الصناعات والعلوم على اختلاف درجاتها ، وقد انفتحت بصائرهم وانشرحت صدورهم بسبب ما يلقى العلماء من الحكمة التي أودعها الله في هذه الدنيا ، فأصبحوا يرون حكم الله في الحجر

والشجر والنهر والبحر والجبل مع أن تفسير القرآن كان العلماء يحرّمونه قديما على التلاميذ باعتبار أنه فوق طاقة المخلوقات ، وهذا القول سمعته من كثير من علماء تلك البلاد .

ثم قال: والله لقد أحسنت وأجبت وشرحت الصدر ، وهذا موافق لأقوال أكابر علماء الإسلام الذين لا يعولون في أقوال أهل الكشف إلا على ما وافق الدين وأنت صرحت بذلك ؛ إذن هذا يشجعني أن أسأل في بعض كلام الشيخ الدباغ وما مقصوده حتى نستفيد منه ، فقلت : سل ما بدا لك ، فقال إن الشيخ عبد العزيز الدباغ ذلك الرجل الأبي قد أتى في تفسير الحروف التي في أول السور بأمور عجبية جدا تفوق طاقة الإنسان ؛ ولما اطلعنا على تفسير الجواهر وجدنا بصيصا من نور كلامه فيه وبقية معناه فوق متناول العقول في زماننا ، فأريد منك إيضاح هذا المقام حتى أبته بين إخواني العلماء إذا رجعنا إلى تلك الأقطار . فقلت : إذا تفضلت بإيضاح السؤال فإني أرجو من الله أن أوفق للإجابة . فقال : إنه يقول في معنى (ص) إنها تشير إلى الفراغ الذي يتلون على ما تقتضيه أفعال كل ذات من الدوات . فتراه على كافر عذابا وعلى مؤمن إلى جنبه رحمة من الرحمت وعلى كافر آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن عذابا ولكن لا من جنس العذاب الذي للكافر الأول بل من جنس آخر ، وعلى مؤمن آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لا من جنس الرحمة التي للمؤمن الأول بل من جنس آخر اقتضته أفعاله وهكذا حتى يأتي على جميع من في المحشر ولا تجد فيه حيزا يشبه حيزا أبدا مع أنه فراغ واحد في رأى العين ، وعلى ما تقتضيه طبيعة الدنيا . والمفتوح عليه يرى هذا عيانا ، فيرى زيدا في فراغه على ما كتب له ، ويرى عمرا في فراغه على ما كتب له ، وكأهم الآن واقفون فيه بين يدي الله عز وجل ، فلهذا قلنا : لو علم الناس ما أريد بصّ وما أشير إليه به ما جترأ واحد على مخالفة أمر الله عز وجل ، فإنه لو فتّح للناس على مكاتبتهم في ذلك الفراغ لا غتبط المطيع ولمات المخالف أسي ، ولا يخفى أنه يكون في ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون والأنبياء والملائكة والجن والشياطين ، وقد أشار إلى الكفار في صدر السورة بذكر طوائف منهم ، وإلى الأنبياء بذكر طوائف منهم ، وإلى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء ، وإلى الملائكة بذكر الملائكة الأعلی آخر السورة ، وإلى الجن والشياطين بالإشارة إليهم في آخر السورة وذكر أحوالهم في الدنيا وإن لم تكن لهم في المحشر لأنها هي السبب في اختلاف أحوالهم في ذلك الفراغ الذي يحشرون فيه وبقيت أسرار آخر تتعلق بما في السورة لا يحل إفشاؤها ، والله تعالى أعلم .

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم على معنى « كهيعص » وغيرها فلا أطيل به ، ثم قال : « وقد رأيت نفس هذا الشيخ لما سأله الشيخ أحمد بن المبارك في سبب كون تكبير العيد سبعا في الركة الأولى وستا في الثانية أجابه مسرعا قائلا : إن التكبير الأولى يشاهد فيها العبد الكبير ولا سيما سيد الوجود صلى الله عليه وسلم المكونات التي في الأرض الأولى والتي في السماء الأولى ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ؛ والتكبير الثانية ويشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثانية والتي في السماء الثانية ، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبير الثالثة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثالثة والتي في السماء الثالثة ويشاهد المكون سبحانه لأن أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبير الرابعة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الرابعة والتي في السماء الرابعة ويشاهد فيها المكونات التي في الأرض الخامسة والتي في السماء الخامسة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السادسة والتي في السماء السادسة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السابعة والتي في السماء السابعة ويشاهد فيها المكونات التي في الأرض السابعة والتي في السماء السابعة ويشاهد فيها المكونات سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى .

هذا في الركعة الأولى، وأما الركعة الثانية فإن التكبيرات الأولى منها يشاهد فيها ما خلق في اليوم الأول وهو يوم الأحد ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة الثانية يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثاني وهو يوم الاثنين ويشاهد المكون سبحانه، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الخامس وهو يوم الخميس ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم السادس وهو يوم الجمعة ويشاهد المكون سبحانه وتعالى. فقلت: وهذه المخلوقات في هذه الأيام الستة هي التي في السموات السبع وفي الأرضين السبع. فقال رضى الله عنه يشاهد عند رؤيته إلى الأيام أصول المخلوقات التي كانت في بدء الخلق، وأما عند نظره إلى السموات والأرضين فيشاهد المخلوقات الموجودات على ظهرهما. فقلت: فتكبير العيد سبعا وستا شرع في حق كل مكلف وأين كل مكلف من هذه المشاهدة؟ فقال رضى الله عنه من فتح الله عليه فلا كلام فيه ومن لم يفتح عليه فينبغي له أن يستعمل هذه المشاهدة ويستحضرها ولو على سبيل الإجمال والله تعالى جواد كريم، فإن استحضر العبد ما ذكر في هذا العيد وفي العيد الذي بعده وهكذا وفرح بربه ودام على ذلك فإن الله تعالى لا يخيبه ولا تخرج روحه من جسده حتى يريه تعالى هذه المشاهدات تفصيلا لأن الله على كل شيء قدير، والبعد والانقطاع إنما حصل من ناحية العبد لا من ناحية الرب سبحانه وتعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين».

ثم لما أجابه عن ذلك سأله عن سر التكبير ثلاثا إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع. فقال: التكبيرة الأولى يستحضر فيها ويشاهد تصوير الذات نطفة ثم علقة ثم مضغة، والتكبيرة الثانية يستحضر فيها ويشاهد تمام التصوير وكاله وحسن خلقه ونفخ الروح فيه وصورته خلقا آخر فبإذن الله أسن الخالقين، والتكبيرة الثالثة يستحضر فيها ويشاهد فساد الصورة ورجوعها ترابا حين تكون في القبر، فإن هذه الأمور الثلاثة من عجائب قدرته تبارك وتعالى، ومن غرائب ما أبدعه في مصنوعاته سبحانه وتعالى لا إله إلا هو، وهذا التكبير لا يختص عند الصوفية بما ذكره الفقهاء بل يستعملونه دبر كل صلاة ولكن قبل السلام منها. قال رضى الله عنه: والمتفوح عليه يشاهد هذه الأحوال عيانا ويراها جهارا، فيشاهد من باهر قدرته تعالى ما لا يكيف، وكمن عجائب الله تعالى في مخلوقاته، فإذا حصل للمتفوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من النوحيد والاعتبار ومحو ما نزل به ما لا يكيف، فغير المتفوح عليه يدفعه بالرؤية والعيان (كذا). قال رضى الله عنه: وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل، من تلك العجائب ما إذا شاهده العبد علم بوحداية الله تعالى من غير دليل وتكفيه مشاهدة ذلك الأمر، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود الجنة، ولا يحتاج إلى إقامة الدليل على وجودها، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود جهنم ولا يحتاج إلى دليل، إلى غير ذلك من عجائب مخلوقات الله تعالى والله أعلم. انتهى من [كتاب الإبريز].

هذا هو الذى أسألك عنه. ثم قال: ولست أقول إنك تجيئني من ذلك المقام الواسع فإنه فوق طاقة أهل الأرض ولكني أسألك لتجيئني بما يفتح الله به عليك أنت مما يناسب زماننا الذى خلقنا نحن فيه. فقلت: اعلم أيها الأخ الفاضل أن الله عز وجل خلق أرباب القلوب وجعل بعضهم كالشيخ الدباغ من الطبقة التي لم تتعلم، والسبب في ذلك رحمته بالعباد، فإن المسلمين لما كرهوا العلوم وحرموها وطردها أهل العلم فذهبوا إلى أوروبا وهو سبحانه وعد، ووعدته حتى إذا قال «ورحمتى وسعت كل شيء» فلم يشأ

أن يذره بلا علم لأن الإنسان هو الحيوان الناطق . فقال لهم : [ يا عبادى أتم كرهتم المفكرين والعقلاء الذين يجتهدون بعقولهم ، فأنا أرسلت لكم من ينطقون بالعلم بلا كلفة ولكنى عدل ولم أخلقكم فى الأرض ليكون علمكم بلا مشقة . إن العلم الذى يعطى للإنسان بلا مشقة لا فضل فيه له ، وكل ما كسبه الإنسان بنصبه وتعبه كان كلاله ، وكل ما أعطى له بلا مشقة ولا نصب كان أشبه بالمال الذى يرثه الولد عن أبيه ، فهو لا يعرف له قيمة ولا وزنا .

فهؤلاء الصالحون بهم الله فيهم ، فمنهم الصادقون وهم قليل جدا وأكثرهم يعيشون ممتعين بالراحة على نفقة هؤلاء الجهلاء ، وقد جعلوا الدين شبكة يصطادون بها حطام الدنيا ، وهم هم الذين يساعدون الفرنجة فى إذلال الشعوب ، ومثلهم بعض أمراء الإسلام ، فهانئنا ثلاث طوائف : بعض رجال العلم والتصوف وبعض الأمراء والمستعمرون ، فهؤلاء هم الذين يحبون أن يبقى المسلمون فى الذل والجهل ليعيشوا معاً على حسابهم ومن كد أيديهم ، وهذه الطوائف الثلاث كالعنكبوت تصطاد الذباب بالشبكات ، فالذباب هم جهال المسلمين والعنكبوت الصائد هم المستعمرون وبعض أمراء الإسلام وأكثر رجال التصوف وأهل العلم الذين يعملون لإرضاء المستعمرين .

فإذا خلق الله أمثال الشيخ عبد العزيز الدباغ وأنطقه بالحكمة التى فوق متناول عقول أهل الأرض فذلك لحكم :

(أولاً) أن هذا الشيخ لم يقرأ مثلهم ، وليس فيلسوفاً ولا حكيماً حتى يكفروه فهذا به يأتسون وهذه رحمة بهم .

(ثانياً) هو ينطق بالعلوم المدهشة التى يقف أكبر حكيماً أمامها حائراً لعلوها وهذا يجعل أولئك الجهلاء مصدقين بالدين الإسلامى فيكون أرباب القلوب إذ ذلك أشبه بأوتاد وجبال ، فكأن الأوتاد تحفظ الخيام من أن تزعزعها الرياح ، والجبال تحفظ الأرض من أن تميد ، هكذا أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص ومن على شاكلتهم بهم الله فى الأرض كما بث الجبال الرواسى فثبتوا قلوب آباينا علماء وجهلاء وثبتت العقائد ، وآمن الناس واستاتوا فى الدين استاتة حفظته من الضياع حتى سلموه إلينا .

ولادين فى الأرض يبق بلا دعاة ، وهذه التصرائفة لولا جميعات البشرين (الذين يملكون من المال مئات الملايين ويجمعونه من سائر الأقطار ، وبهم زلزلوا عقائد بعض المسلمين) لم يبق لها وجود ، والدين الإسلامى لاجمعيات له والله يريد بقاءه كما وعد ، فخلق هؤلاء الذين هم أرباب القلوب فنطقوا بالحكمة التى تجرى على ألسنتهم كما ينطق المنومون (بالفتح) تنوعاً مغناطيسياً ، وهؤلاء وهؤلاء يشاهدون عوالم لم نشاهدها نحن فى أجسامنا هذه ، غاية الأمر أن أرباب القلوب من المسلمين وصلوا لذلك بأنوار بصائرهم والمنومون (بالفتح) وصلوا لذلك بطرق صناعية ، والأولون أرقى منهم ، والعوالم كلها فى يد الله وهو الذى فعل ذلك رحمة بآباينا حفظ هذا الدين ثم وصل إلينا فنظرنا فيه وفرحنا بنعمة الله .

## حكم أرباب القلوب

( كالشيخ عبد العزيز الدباغ ) وتفسير الجواهر

كلاهما من مصداق قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحيا أو من وراء حجاب » الخ ، وقوله أيضا في السورة السابقة « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

فقال الأستاذ : إن في الأمر لعموضا فأرجو إيضاحه حتى أفهمه فقلت له : ماذا قال الشيخ عبد العزيز الدباغ ألم يقل إن كون تكبير الركعة الأولى في العيد سبعا وفي الثانية ستا يرجع إلى مشاهدة عجائب السموات السبع والأرضين السبع في كل تكبيرة سماء وأرض من تلك الأرضين والسموات ، قال بلى . قلت ألم يرجع هو رحمه الله تكبيرات الركعة الثانية الست إلى مشاهدة المخلوقات التي خلقت فوق الأرض في كل يوم عالم من العوالم كالذي تقدم في علم طبقات الأرض إجمالا موضحا بالصور الفوتوغرافية في السورة السابقة . قال بلى والله قلت رجح كلامه في تكبير الركعتين إلى عجائب السموات والأرضين في الركعة الأولى وإلى ما كان عليهما في مبدأ الخلق في الثانية ، ولما كانت الأمم تعرف السبع والست وأن الأولى سموات وأرضون والثانية أيام أنزل هو التكبيرات على ذلك بإلهام من الله تعالى :

ومعلوم أن عوالم الأثير الذي لا وزن له قد قرر علماء عصرنا أنه عالم أثقل من الذهب والحديد بما لا حد له كما تقدم في أول ( سورة الصافات ) وإن لم يكن مادة ، وإذا كان الذهب أثقل من مقدار حجمه من الماء نحو ١٩ مرة . فإن اللبم الواحد من هذا الجو أثقل من ألف طن كما تقدم في أول ( سورة الصافات ) ثقلا ماديا فاقرأه هناك مفصلا . فالسموات السبع والأرضون السبع اقتصر عليها لأن الناس لم يسمعوا إلا بها ولكن من زماننا ظهر أن المجرة فيها عشرة آلاف مليون أرض ، وكم في السكون من ملايين المجرات إذن هذا ما هو إلا قول على مقدار ما يفهم السامعون .

ثم قلت : انظر زادك الله علما ، وشرح صدورنا وصدور العلماء في الإسلام لانقاذ هذه الأمة المسكينمة من الجهالة ، أفلمست تراه لما سئل في التكبير ثلاثا إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع ، قسم أطوار خلق الإنسان إلى ثلاثة أقسام : فجعل أطوار النطفة والعلقة والمضغة قسما ثم عمم التصوير والحسن والجمال والكمال وانتشار الروح فيه وحياته قسما ، وهلاكه وفساد صورته ورجوعه ترابا قسما وجعل كل قسم لتكبير من التكبيرات الثلاث . قال بلى . قلت : ثم إنه لما أتم ذلك أتى بالمقصود الحقيقي ، وأبان أن ذلك ليس هو كل شيء وإنما هو ضرب أمثال . فقال : « إن المفتوح عليه يشاهد من باهر قدرته تعالى مالا يكيف ، وكم من عجائب لله تعالى في مخلوقاته فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار وسحو ما نزل به مالا يكيف .

ثم قال : وعلو وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل من تلك العجائب الخ » .

أفلا تمجى معنى من هذا المقال ! أليس هذا هو عين ما قلته في هذا التفسير مرارا : « إن العبادات يقصد بها فتح باب العلوم » .

ومن أعجب العجب أن يقول في التكبير « إنه يقصد به التفكير في السموات والأرض وما خلق عليها »

وهذا هو تفسير قول المصلي « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » الخ وعين أذكاره في ركوعه وسجوده إذ يذكر السمع والبصر الخ . إذن هذا سر أظهره الله في أيامنا هذه ، بل ألا تعجب من أنك أنت سألت هذا السؤال أيها النكبي . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت إن هذا المقال كله تفسير لآية « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » فأما الآفاق فهو ما ذكره الشيخ الدباغ من السموات والأرض في تكبيرات العيد ، وأما الأنفس فهو ما ذكره رحمه الله في تكبيرات أيام التشريق في (١٥) فريضة ، إذن هذا كله تفسير لآية « سنريهم آياتنا » الخ في السورة السابقة .

وإنما أبرزه الله على السنة هؤلاء الذين يخلقون في زمن اضمحلال العلم وشيوع الجهل ليكون ذخيرة للمسلمين يقرءونه وهم معجبون فيؤمنون كما تقدم ، ولكنهم طردهم العلماء وفرحهم بالجهل يعكف الصالحون منهم على العبادة ويذرون عقولهم تتخبط في ديجور الظلام .

إذا ما لم تكن إبل فعزى كأن قرون جلتها العصي

ويكتفون بأنوار الصلاح مع حرمانهم من أنوار العلوم . وغاية الأمر أن أناسا منهم يفتح عليهم وهؤلاء قليل نفعهم للأمة ونحن جئنا في الأرض ليكون بيننا رابطة ودية ، ولن تتم تلك الرابطة بيننا إلا بأن نعرف العلوم التي بها الله في أرضنا بعقولنا ، وهذا هو مقصود القرآن ، أما الفتح فأمر آخر يختص بالإنسان نفسه والسعادة الحقيقية في إسعاد الأمة ولاسعادة لها إلا بتعميم التعليم ، ولن يكون ذلك إلا بالعقل والفهم والجرى على سنة الله في أرضنا . إذن أرباب القلوب :

( ١ ) نفعوا القدمات بالإيمان بسبب مشاهدتهم ، ولكن هؤلاء الأتباع لاعلم عندهم وعقولهم تقف عند حد خاص لأنهم يرون جميع علماء الإسلام جهلاء ، فالفقه والأصول ونحوها كلها لا فائدة منها وهكذا التفسير ، إذ تفسير هذه الطائفة فوق طاقة المفسرين .

( ٢ ) ونفعوا الذين في زماننا وهم قراء أمثال هذا التفسير . ذلك أن قراءه في أقطار الإسلام سيكونون جميعا على مشرب واحد لأنهم يحبون معرفة العوالم العلوية والسفلية ، ويرون حكم الله في كل ماجل ودق ، ويفرحون فرحا لاحد له ، ويرقون رقيا لا أعرف أنا منتهاه الآن ، فيكون الشافعي والحنفي والحنبلي والزيدى والمالكي والجمعي وكل شيعي على سنن واحد في حب ربهم وحب الأمة الإسلامية وحب العلوم ، ويرون هذا الخلاف البسيط في عدد الركعات أو التكبيرات أو نحو ذلك أمرا سهلا عمليا ويتجلى لهم الجمال في كل هذه الدنيا ويزدرون تلك العداوات في القرون المتأخرة الناشئة من الجهل بنظام الله تعالى في العوالم كلها . فهؤلاء سيذنبون ما في هذا التفسير من العلوم بين أمم الإسلام قاطبة . وهناك يقابلهم طوائف من العباد والنسك وتلاميذ صغار مشايخ الطرق ، فيقولون لهم إن هذه العلوم التي في هذا التفسير ما هي إلا بدعة ولم ترد عن المتقدمين فيقولون لهم أرايتم إن أعظم أمرها أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص فماذا تصنعون ؟ فهناك يخضعون ويكون ماتقدم من كلام الشيخ الدباغ حجة عليهم ، ومتى سمعوه يقرون بأنهم جهلاء وأنهم يجب عليهم أن يتعلموا ، وغاية الأمر أن الأغبياء منهم يقولون هذا أمر لا يصح إلا بالفتح ، فيرد عليهم بما تقدم في سورة الحج بما نقلته أنا في هذا التفسير عنه نفسه وهو أن الفتح ليس مقصودا بل الحجاب لأكثر الناس خير منه . فقال الأستاذ: حقيقة أنا قرأت هذا في تلك السورة منقولا عنه .

فقلت : إذن ملخص كلام الشيخ الدباغ تفسير لهذه الآية وهو مقدمة جعلها الله مخزونة في السكتب

حتى ظهر تفسير الجواهر وأمثاله في زماننا موافق شرحه طبقته . ذلك ليأس بهذا الكتاب جميع أفراد الأمة وأكثرهم أتباع مشايخ الصوفية ، وهؤلاء متى عرفوا أن ذلك أهم مقصود الصوفية فرحوا به وأحبوه وتعلموا العلوم بعقولهم . وإذن لا يكون هناك تعطيل لعقول المسلمين كما كان في القرون المتأخرة ، إذن لم يبق إلا أن أذكر معنى (ص) في كلام الشيخ الدباغ .

ثم إن مقاله في معنى (ص) وغيرها فكله على هذا النمط ، فهو للأمة الإسلامية الجاهلة في القرون المتأخرة إيمان وثبات عقيدة وللأمة الإسلامية المستقبلية المستنيرة بصائر ونور إذ يعرفون أن كلامهم هو إجمال لعلوم الأنفس والآفاق ، وأمثال هذا التفسير تفصيل يدركه العقل ، وترى الأمة الإسلامية المستقبلية والحاضرة التي قرأت هذا الكتاب وهو (تفسير الجواهر) أن هذا ليس بدعا بل أرباب القلوب قد ألمعوا إلى ما فيه وأتوا برموز وإشارات . فهم في المسلمين أشبه بحروف أول السور في القرآن . فكما أن حروف أول السور مفاتيح لعلوم تلك السور ، وقد فتح الله في هذا التفسير في معاني هذه الحروف بما أرادته على مقدار طاقة المؤلف وطاقة الأمم الإسلامية . هكذا جاء أولئك الصالحون وكأنتهم رموز وكلامهم رموز قد حفظها المسلمون ولم يدركوا مقصودهم ، فجاء أهل عصرنا وقرأوا أمثال (كتاب الجواهر) فأدركوا التفصيل وهذا معناه أن تتصل الأمة سلفها وخلفها ، فالسلف الأول وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالشريعة والعلوم الإسلامية وخلفهم الجهلاء في القرون المتأخرة بالرموز والإشارات وكلام أرباب القلوب والمسلمون بعدنا بالعلم والحكمة وظهورهم في الأمم المستقبلية وسعادتهم أولا وإسعادهم لأهل الأرض ثانيا ، وكل ذلك مع حبهم لربهم وخدمتهم للإنسانية العامة .

ولا جرم أن المعاني التي ذكرها الشيخ الدباغ في معنى (ص) لم تخرج عن آيات الله في الأنفس . وإذا رأيناه في التكبير وراء الصلوات أيام التشريق الثلاثة من أول ظهور يوم النحر يرجعها هو إلى أحوال الأنفس من حيث حياتها الجسمية في الرحم وفي الدنيا وفي حال الموت وجعلها من العجائب والغرائب . فهذا هوذا معنى (ص) يقول «إنها تشير إلى الخلاء النخ» .

ومعنى هذا أننا نحن في الأرض اليوم متفقون بحسب الظاهر في الحيوانية والناطقة . وإننا نأكل ونشرب ونلبس . والحقيقة أننا الآن أشبه بقوم في أحلام ، فإذا رأيت جماعة في مجلس وهم يتحدثون فظاهرهم واحد ، ولكن الحقيقة أن أحدهم بين جنبه نار ، والآخر بين جنبه نار أخرى ، وثالث في قلبه مسرة ، ورابع في قلبه مسرة أخرى وهكذا ، فهم إذن أشبه بالنائم . فهذا يحلم حلمًا مفرعا والآخر يحلم بحلم يرى أنه لابس تاج ملك ، أو أن عروسا تزف إليه . فإذا تشابه النائم أجساما واختلفا نفوسا من حيث المسرة والمساءة . فهكذا هؤلاء الجالسون المتشابهون في مجلس واحد أكثرهم في نصب وتعب وشقاء في الحياة الدنيا والآخرة ، ولا شقاء هناك إلا من الشقاء هنا ، لأن من يملك قسطارا من الذهب في غاية الحزن لأنه لا يملك قنطارين ، وهذا ظاهر واضح . إذن هذه الحياة أشبه بنار جهنم ولكن الناس لا يعلمون أنهم في تلك النار الجهنمية ، فهي وإن لم تكن نارا ظاهرة فهي عذاب شديد ونحن لأنحس به ولا نظن أنه عذاب .

هذا معنى كلامه . ومثل ما قلنا في الشقاوة نقول في السعادة . فالسعيد أقوام تخلت نفوسهم عن الطمع والحسد والغل . وهؤلاء يعيشون بيننا ولكن الناس حولهم لا يعرفون سعادتهم وصفاءهم وهم بين ظهرانينا ، إذن هذه الأنفس فيها عذابها الآن ونعيمها الآن . وينبوع العذاب والنعيم هذه الأنفس الإنسانية في الأرض والله هو المتجلى على الجميع . وكأن الناس اليوم واقفون أمام ربهم والله سبحانه يعذب ويرحم كل نفس بما أودعه فيها والوقوف يوم القيامة تابع للوقوف في الدنيا .

هذا معنى كلامه وقد جعل جميع ما في السورة راجعا إلى هذا الأصل كما تقدم . فهذه المعاني التي يقولها الشيخ الدباغ راجعة كما قلت لك الآن إلى عجائب الأنفس ، كما إن عجائب قلب الإنسان في أطواره راجعة إلى عجائب جسم الإنسان .

إذن معنى ( ص ) الذي ذكره مؤيد لما ذكرناه من أن هؤلاء القوم وإن كانت علومهم ليست من المستوى الذي نسير عليه في أمثال هذا التفسير بل ترجع إلى مقام آخر فإنها ترجع إلى عجائب الأنفس والآفاق ، وإذن سؤالك أيها الذكي جمعت فيه ما يتناول الآفاق في السموات والأرض وما يتناول الأجسام الإنسانية وعجائب النفوس الإنسانية .

وبهذا ظهر أن الأمة الإسلامية متحدة المشارب سائرة على نمط واحد أولها وآخرها . فقال ماشاء الله كان . لقد شرحت صدرى وأبنت الحقيقة وتجلت . لله الحمد والمنة . وله الشكر على هذه النعمة . ولكن عندي سؤال واحد . فهل لك أن تأذن لي به ؟ فقلت سل ما بدا لك . فقال : لقد سمعت في أثناء الإجابة على ما سألتك عنه تقول : إن هؤلاء الصالحين وأرباب القلوب يخلقون في أيام اضمحلال العلم وشيوع الجهل ، فكيف يكون ذلك ؟ فقلت إن الله عز وجل قال « والله أنبتكم من الأرض نباتا » ولا جرم أن الإنسان نبات له قلوب . فرأسه في الهواء والنبات رأسه في الطين ويده ورجلاه كفروع الشجرة وأغصانها وصدره وظهره كجذع الشجرة ولذلك يسمونه في علم التشريح الجذع ، قال نعم فهمت . هذا واضح . فقلت إن النبات على قسمين : نبات يخرج بلا زرع ولا حرث حارث كما ترى في الغابات والأودية والبرك والمستنقعات والأنهار وفوق الجبال . ولقد مر عليك في هذا التفسير أنواع المرجان التي تظهر بهيئة نبات وإن كانت حيوانات كثيرة اجتمعت بصورة نبات . وبالجملة هذه الأرض ينبت فيها نبات نافع بلا زرع له وتخرج منه ثمار بهجة بهية نافعة . فإذا سكن تلك الأرض الإنسان فإنه يزيل تلك الغابات ويبيد الحشائش ويقطعها فينتفع بالحشب والأعشاب ، ثم يستعمل الأرض لما يزرعه هو على حسب حاجته فلا يخضع للطبيعة بل شرفه هو أن يخضعها هو بعقله الذي هو أشرف من الطبيعة .

هذا هو المثل الذي أردت ضربه ؛ فلننظر إلى المسلمين فإنهم لما تركوا عقولهم ومواهبهم كانت نفوسهم أشبه بالأرض التي ظهرت فيها أنواع الطحلب والحشائش والشوك والحسك والأشجار المثمرة وغير المثمرة . فأما الطحلب والشوك والحسك فهم أولئك الدجالون من الشيوخ الذين يجتمع الناس حولهم وهم لا علم عندهم ولادين ، وما أكثرهم في بلاد الإسلام ، وعلامتهم أنهم يأخذون المال إما من الحكومات الأجنبية المستعمرة وإما من أهل البلاد ثمنا لولايتهم وصلاحتهم .

وأما الأشجار المثمرة ونحوها فنظيرها في المسلمين أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص وهؤلاء قليل . فإذا ما ازدهرت البلاد الإسلامية بالعلم وعمرت العقول بالحكمة وترعرعت العلوم وارتقت ، فهناك تقل هذه الطوائف إذ لا حاجة إليها كما يقل الحسك والشوك والأعشاب الضارة بالزرع والبرك والمستنقعات الضارات بنوع الإنسان إذا انتظمت البلاد وعم الأمن وحفظت الأنهار والقنوات ، هنالك يحل زرع الزارعين من الناس محل مزارع الطبيعة ، وترى النخل والزيتون والرمان والعنب والقمح بدل الشوك والحسك والحشائش الضارة . هذا هو المثل الذي ضربه الله في أرضه لهؤلاء الصالحين بقسمهم ، فإنه إذا ارتقى التعليم في بلاد الإسلام يقل هذا الفريق صادقهم وكاذبهم . فقال : لقد تم ما أردت أن أعرفه وانشرح صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الجمعة ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

## جمال العلم وبهجة الحكمة

هاهنا قال صديقي : هل تأذن لي أن أسأل سؤاليين يلذ لي وللمسلمين الإجابة عليهما ، فهذا المقام وإن طال فإن القول فيه جميل والحكمة بهجة والسعادة ترفرف بأجنحتها على هذه الأمة الإسلامية بإظهار هذه الحكم التي كانت خافية على العقول ولم تكن إلا رموزا ، والدين يسر والقرآن شفاء ، والله يقول « ثم إن علينا بيانه » ويقول « ويريك آياته » ويقول « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وإذا كان تبيان أن القرآن حق لا يكون إلا باليقين . فأذن أن أطلب منك الإجابة على السؤالين الآتين فما طلبت إلا اليقين الذي وعد الله أن ينشره في المسلمين ، وقد صدق الله وعده في زماننا وجاء اليقين لا سيما في هذا التفسير ، فعلى بعد هذا البيان أحظي بأن تأذن لي بإيراد هذين السؤالين . فقلت حبا وكرامة . فقال :

( ١ ) أولا إن ما أوردتموه في تفسير كلام الشيخ الدباغ من حيث إن العجائب الكونية وأنواع الجمال تعرف الناس أن هناك جنة وأن هناك نارا يحتاج إلى إيضاح أو في وعلم أوسع ، فلقد ذكرت أمثال الذباب والقاذورات وأمثال الصقور والرمل وأمثال البهائم والمزارع من حيث اختلاف الأغذية باختلاف المعتديات . وفي المقام طول . والاستنتاج يعوزه العقول الممتازة . فنحن في حاجة إلى برهان يسهل على كل قراء هذا التفسير .

( ٢ ) ثانياً إن الكلام في العفونات والرطوبات وما يقابلها من الشهوات يعوزها زيادة إيضاح وبيان أتم من حيث الحكمة بحيث يكون باضمامه إلى ما تقدم كافيا وافية لإشباع هذه النفوس المشرببة للحكمة في بلاد الإسلام .

فقلت نعم أبين هنا عجايب آخر وهو اختلاف النبات ورقا وزهرا وعمرا . إن في اختلاف النبات ثمارا وروائح وطعوما وجمالا وصغرا وكبرا لعبرا تفتح لنا باب العقولات على مصراعيه . ألم تر أن معلوماتنا وعلومنا وعقولنا وعواطفنا تترى في معاهد ومدارس مخلوقات في داخل أجسامنا . وتلك المدارس والمعاهد الداخلات في نفوسنا تشبه من وجه المصانع والمعامل التي وزعت على قناتنا الهضمية واختلفت باختلاف مناطقها . ففي النمل ترى ستة أنهر جعات لهضم المواد النشوية ، وهناك ترى غدة البنكرياس وغدة الصفراء وعصارات المعدة والأمعاء وحركات القبض والبسط لأعضاء الهضم ، فهذه في هذه الأغذية المادية التي يتعاطاها الإنسان التي يمكنك أيها الذكي الرجوع إلى دراستها ككرة أخرى في ﴿ سورة فاطر ﴾ عند قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا » الخ وترى أشكالها مرسومة تسر قلبك بالتعقل وروحك بالفهم وجليستك بالأنس . فهذه هي التي شهنباها المدارس والمعاهد الموزعات في مناطق عقولنا المرسومات في مخنا فهذه إذا وردت لها علوم إما بواطة الحواس كالبصر والشم والذوق ؛ وإما بواسطة كلام محمول في الهواء داخل في الصماخ دال على نفس تلك المعاني المنقولة بتلك الحواس مباشرة ، فإن تلك المعاهد التي شهنباها بمناطق القناة الهضمية تتلقاها ، وكل معهد من معاهد المخ يعمل في تلك المعاني عمله ، فمعامل مجمع تلك المعلومات جمعاً كأنه مخزن الرسوم وهو الحس المشترك ، ومعامل للتحليل والتركيب كالمعامل الكيميائية في المدارس وهي القوة الخيلية ، ومعامل لإصدار الأحكام وهي القوة المفكرة ، ومعامل جعل لمجرد الحفظ ، وهناك آخرا جعل للتذكير وهي « الذاكرة » . وهناك معامل جعل لإبراز آثارها كمن في تلك المعاهد كلها بهيئة ظاهرة غير

خافية ، فهو بصور ما تخويه تلك المعاهد كلها ويظهر للعالم الخارجي بحيث يستبين للناس أن وراء هذا المعهد معاهد جمعت صوراً لكل ما هو ظاهر للناس في أقطار الأرض ، وهذا المعهد الأخير هو اللسان ، فهو يعبر عن تلك القوى كلها ويبرزها بهيئة حروف ، فهو يعبر عن كل ما في خزانة الخيال والحس المشترك والقوة المفكرة إلى آخره ، فهذه هي المعاهد أو المعامل التي في نفوسنا الموزعات على مناطق أدمغتنا المطابقات للعوالم الخارجية المشابهة كل المشابهة لمعامل المناطق الهضمية المشروحة سابقاً .

إذا صح هذا فنقول : إذن هنا تربية للمعلومات في نفوسنا تربية حقيقية كما ربينا الغذاء في القناة الهضمية فخرجت ثمرة الغذاء بعد الهضم على مقتضى القناة الهضمية من ضعف وقوة وإجادة وإهمال ، وأى فرق بين نتيجة الغذاء من حيث الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والجمال والقبح ، والذكاء والبلاهة ، التي ترتبت جميعها على هيئة الغذاء الذي ربيناه وهذبناه بآلاتنا في معاملنا الموزعات على مناطق قناتنا الهضمية وبين علومنا ومعارفنا التي ربيناها في مناطق مخنا وترعرعت وشبت وبلغت أشدها وصارت فتيمة قوية ، كل ذلك بما لنا من معاهد قائمة في مناطق أدمغتنا ، فمنها معهد لجمعها ، ومعهد لتحليلها وتركيبها ، ومعهد لاصطفاء ما هو أجمل ، ومعهد هو خزانة لما ينبغي بقاءه ، ومعهد هو دار لذكرى ما نحن في حاجة إليه ، ومعهد لنشر ما في الخارج ، إن في الدماغ أماكن لعلوم اللغات ومناطق للعلوم الرياضية وآخرى للطبيعة وهكذا ، ولو أن منطقة من هذه أصابها العطب ، وحل بها الوصب ؛ ونزلت بها الكوارث ، وانتابها الخطوب تعطلت تلك المنافع المترتبة عليها ورسب في الامتحان تلاميذ معاهدها ، فلا ترى ذلك الإنسان يحسن أن يعد الآحاد فضلاً عن العشرات ، فضلاً عن الطرح والقسمة والضرب إذا اضطلعت مناطق علوم الرياضة من الدماغ كانتكون الأمة الأمية لا علم لها بالحساب إذا لم يكن فيها علماء به ، وعلى هذا فقس ، فالنتيجة أن المعارف تربي في نفوسنا تربية منتظمة وتماذجها تكون على مقتضى مناطق تربيتنا لها في عقولنا كما كانت نتائج الأغذية تابعة لمناطق القناة الهضمية سواء بسواء .

هذا ، ولا جرم أن هذا عين ما يكون في النبات . فزهرة وورقه وأثماره تابعة لتلك المعامل الكامنة في باطنه ؛ فلنبات معامل في داخله تتربي فيها جراثيم الأزهار والأنوار والأوراق والثمار وتكون الثمار الناتجات تابعة لمزاج ذلك النبات في الداخل ، فيكون حلوا ومرًا وعفصا وحريفاً ومسهلاً وقابضاً ومغذياً ومنعشاً ورديثاً وحسباً وذو رائحة جميلة ورائحة غير جميلة وساماً وشفافياً ومسكناً ومخدرًا وهكذا من الصفات والأحوال المختلفة ، إذن عندنا ( ثلاثة أنواع ) من المناطق ( النوع الأول ) القناة الهضمية في كل حيوان ( النوع الثاني ) المناطق التي في النبات ، ولا جرم أن هذين النوعين من واد واحد ، لأن النبات والحيوان في هذا المعنى متشابهان ، لأن في كل منهما مناطق هضم واختلفت ظواهرها واتحدت وجهتها ( النوع الثالث ) مناطق الفهم في الدماغ التي فيها تربي العلوم ، وهذه تحذو حذو القسمين الأولين في أن النتائج لا تعدو المقدمات ، وهاهنا أن أن نظهر نتيجة هذا كله فنقول :

المعارف والآراء والمواظف التي رزقها الإنسان في هذه الحياة تكون نتائجها تابعة لما أدته مصانع عقله ومعامل ذهنه كما تعمل قناته الهضمية وكما يكون ثمر النبات . أليس هذا هو البرهان اليقيني على الجنة والنار وما هي الجنة ؟ ، وما هي النار ؟ أم تقدم أنهما يرجعان لكل محبوب ولكل مكروه مهما كانت هيئته ، أم تر أن ثمرات النبات تختلف مموماً وأغذية . قال صاحبي بلى ، وحلاوة وحموضة . قال بلى وربى . قلت : وأحدهما محبوب والثاني مكروه . قال بلى . قلت فأحدهما يمثل الجنة والثاني يمثل النار . ومعنى هذا أن جهاد النبات في معاملة الداخلية أنتج ما هو محبوب لنا وما هو مكروه على حسب المصانع التي تربت فيها الثمرات ،

هكذا جهاد الإنسان في معاملة الداخلة أنتج ما هو محبوب له ومكروه على حسب تلك المصانع إن خيرا غير وإن شرا فشر ، وإذا كانت علومنا ومعارفنا ما هي إلا نتائج معاملتنا الداخلية مادمننا في هذا الجسم ، وإذا نبذناه وألقيناه شاهدنا النتائج عالقة بأرواحنا ظاهرة في نفوسنا ، تراها رأى العين ، فهذا نظير ما إذا درسنا القمح وفريانه وغربلناه فألقيناه حبا لاتبن معه ولا طين ، ويكون الحب نتيجة لذلك الزرع شرفا وضعة كما أن عواطفنا وعلومنا نتأجج مصانعا شرفا وضعة وصحة ومرضا .

وإذا كان لكل نبات ثمرات لها مصالح تتبعها ، فمن الجهل والغباوة أن نقول إن هذا الإنسان وعقله وعواطفه التي رباهها في نفسه لا نتيجة لها ، أليس من الغفلة أن نعرف أن الإنسان والحيوان والنبات كلها أجسام نامية؟ ثم إننا نعلم علم اليقين أن ثمرات النبات نتأجج تختلف باختلاف مزاجه ونسكرك ذلك في نوع آخر من أنواع الناميات وهو الإنسان ، وإذا كان حب النبات يبقى متميزا بعد تمام تربيته وهلاك زرعه فكيف لا يبقى نظيره في الإنسان بعد فناء جسمه ، فإذا رأينا حبا اختلف غذاء ودواء وسما بعد تحليل ماتربي فيه وهلاكه هكذا نحكم بأن هناك علوما ومعارف وعواطف وأخلاقا تبقى بعد فناء الجسم وتفرق عناصره وتبدده في العراء .

أفلا يكفيك هذا أيها الدكي في شرح ما قاله الشيخ الداغ بقدر الإمكان ، في أن العجائب في هذه الدنيا تعرفنا الجنة والنار ، فقال والله لا أقدر أن أقول كم تنبى في هذا فحسب ؛ ولكني أقول إنها كفتنى وحدها في قرله تعالى « ثم إن علينا بيانه » وفي قوله « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ولو لم يكن بيان سوى ما قلتهموه الآن لكفى . ولقد تجلت لنفسى الآن معان في هذا المقام ، ذلك أن هذا الذى ذكرتموه هو عينه تفسير الآية « إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » فهذه الآية أثناء شرحك المسهب الجزل كانت ترد على خاطرى وأراه شرحا لها . فقلت : هذا إلهام ألقاه الله على قلبك وأنا أقرك عليه لأن ذكر خروج الثمرات من الأكمام بعد ذكر علم الساعة أشبه بذكر الدليل بعد المدلول أو الحجة بعد الدعوى . فقال : إذن أرجو الإجابة على السؤال الثانى . فقلت اعلم أن الحكمة عامة في المقام المتقدم والذى سنذكره ، فكما أن نتأجج الزروع وحبوبها مختلفات اختلاف أصولها بحيث لا يستوى الشجر المرمدقاقتة والشجر الحلو طعم ثمرته كالحنظل والنخل ، ولم تر من العقلاء من نفر من هذا النظام ، بل جميع نوع الإنسان مقر بفضله معترف بكاله فرح بهيجته ، لا فرق بين جاهلهم وعالمهم ، وناهم وخاملهم ، فكل هؤلاء وهؤلاء يرون أن نتأجج الزروع والأشجار كمال من حيث المنافضات فمنها المغدى والسهل والخدر والمنعش والسام المهلك الخ .

فإذا صح ذلك فيما نراه ، فهكذا يسوغ فيما لا نراه من نتأجج العقول الإنسانية ، فإذا تجردت أرواحنا وآنست نفوسا اختلفت أوصافها اختلاف ثمر الزرع ، فكان منها من هو أحق بأن يكون مع الملائ الأعلى ومن هو أحرى بأن يكون مع الشياطين في جهنم تبعالحواس نفوسهم وأمزجة عواطفهم ، فإنها تأنس بذلك الاختلاف ولا تفرق بينه وبين اختلاف الحنظل والتمر من حيث إنه نظام حسن .

أقول : فإذا صح هذا في نتأجج الزروع والعقول به مطمئنة في ثمرات النبات في الدنيا وفي ثمرات النفوس في الآخرة ، هكذا فنقل في شهوات النفوس وأخلاقها الغضبية : إن هذه القوى السكمنة في نفوسنا اللصقة بها المهيجة للأعمال الحيوانية والبهيمية والسبعية إذا تجردت الروح من الجسم بعد الموت وجب هناك أن لاتكون معطلة ، وإذا كنا نشاهد العفونات والجراثيم التي تجلل وجه بعض الأرض ، وكذلك الرمم الملقاة فيها لم تعطل بل كان لها من الخلوقات الحية مقام بأكلها فتغدى بها رحمة :

- ( ١ ) بالأحياء من الحيوانات لئلا يهلكها الهواء الفاسد .  
 ( ٢ ) ورحمة بالحشرات لأنها تتغذى به .  
 ( ٣ ) وإظهارا للحكمة القائلة : ( إنه لامعطل في الوجود ) .

فهذه العفونات وهذه الرمم بعد أن كانت مصدر الوباء أو معطلة لافائدة منها أصبحت رحمة للحشرات التي تأكلها ، فهكذا يحكم على خصال الشر الشهوية الباقية في نفوس الناس بعد الموت ومثلها خصال الشر الغضبية كالبغي والسرقة ونحوها ، فهذه تعيش بها تلك النفوس التي أشربت حبها ، فهي على وزن نظائرها من قاذورات الأرض تعيش بها أرواح ألقها بعد الموت كما عاشت بنظائرها في الأرض أشباح لازمتها فيحصل هنا :

( ١ ) أنه لامعطل في الوجود .

( ٢ ) وأن الشر يشترق منه الخير .

وما الخير هنا إلا بقاء تلك النفوس بسبب بقاء تلك الشهوات ممثلة في أفكارها ، ولو أزيلت تلك الأفكار الناقصة من تلك الأرواح لم يكن وجود ، ولا وجود لروح إلا بما يقوتها من الآراء والعواطف كما لا تعيش الأجسام إلا بما يقوتها من أغذيتها ، وهذه ليس لديها من الآراء الشريفة ما به تعيش ، وليس لديها إلا تلك الآراء الرديئة التي اعتادتها في الحياة الدنيا . فهذه الآراء تعيش تلك النفوس ولا مقر لها إلا في جهنم فهم معذبون بتلك الحال ، فهاهنا رحمة عامة «ورحمي وسعت كل شيء» وهاهنا أيضا عذاب ، فالعذاب هنا راقته الحكمة والرحمة ، فحياتها في نفسها رحمة .

( ١ ) بدليل أننا إذا قلنا لتلك النفوس في جهنم أترضين بالموت فإنها تقول لا .

( ٢ ) وهي حكمة لأنها أنتجت من شرور النفوس حياة لها كما يعيش الدود في القاذورات والفيران في المراحض .

( ٣ ) وذلك من عجائب النظام المفيد أنه لامعطل في الوجود .

فكما أن الله لم يعطل القاذورات في الأرض ولا الرمم بل اشتق من شرها خيرا ، هكذا لم يعطل الشهوات المغروسات في النفوس بل جعلها غذاء لها بعد الموت لأنها لا تعيش بغيرها كما لا يعيش الدباب بغير القاذورات .

هذه هي الحكمة البديعة ، والآية الطريفة ، والحكمة العالية . اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ونشكرك شكرا كثيرا . لقد أريتنا ونحن في هذه الدنيا محبوسون ممنوعون من الاطلاع على الحقائق . إن في مزارعنا وحيواننا من العلم ما به نعرف أن هناك نارا وأن هناك جنة ، وأن تلك النيران وتلك الجنان لوازم لما زاوله تلك الأرواح في هذه الحياة من الأعمال مع حكم أخرى شرحنها ، وعجائب كبرى بينهاها . فالحمد لك في الأولى والآخرة ، ولك الشكر والفضل العظيم . كتب بعد صلاة يوم الجمعة ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .  
 وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الخامسة من اللطائف العامة ، والحمد لله رب العالمين .

## فذلكة: في قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم»

آثار القرآن لآسيا سورة الشورى في أمم الأرض

أولا انظر أيها الذي ما تقدم في (سورة البقرة) عند الكلام على قوله تعالى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» لترى النظام العام في العلوم الواجبة على أمة الإسلام، وفي (سورة النساء) عند آية «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فهذه الآية ونحوها من آيات الشهادة «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم» الخ وهكذا فيها ذكر الخلافة الإسلامية والعدل، وكيف كان قائما، وكيف عدل قوم وظلم آخرون، وهكذا في (سورة المائدة) ذكر العلوم الواجبة أيضا، وفي (سورة التوبة) بيان أن قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل» الخ. كان إيقاظا للمسلمين أن يكونوا سببا في إظهار أحكام الإسلام للأمم ليقوم العدل في بلادهم، وهناك ترى شهادة سيدة أوروبية أسلمت تقول: [إن فولتير وروسو اللذين كانا سبب الثورة الفرنسية لم يتعلما ما كتباه إلا من آراء ابن رشد وعلماء الإسلام وهناك تقرأ مظالم رجال الدين المسيحي في أوروبا واضحة مهينة للشعوب، وفي (سورة النحل) تقرأ نظام الدولة في آية «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» وفي (سورة الإسراء) تقرأ في أوائلها كيف حاد بعض ملوك الدولة الإسلامية في الأندلس ونحوها عن جادة الصراط السوي فذلوا، وفي (سورة الكهف) تقرأ عند آية «وما كنت متخذ المضلين عضدا» كيف ظهرت في الإسلام طوائف حرمت انتشار التعليم، وكيف ظهر قوم من الفرس آلمهم ظهور مجد العرب بالإسلام، فكادوا للمسلمين كيدا عظيما، وكيف حرم حسن ابن الصباح على أتباعه حرية الفكر والتعليم، وكيف كان كثير من رجال الصوفية يفعلون فعل ابن الصباح، وأوروبا اليوم تهيج مع المسلمين هذا النهج عينه، وتقرأ في (سورة النمل) بمناسبة آية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ مع آية «فقلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» فذلكة عن ظلم الأمم المتأخرة الإسلامية، وكيف كان ذلك سببا لهلاكهم، وتقرأ في (سورة القصص) عند آية «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض» كيف هلك الظالمون ونصر الضعفاء، وفي (سورة سبأ) عند آية المحاورة بين الضعفاء والذين استكبروا قصة (محمد بن تومرت المهدي) وكيف أقام ملكا ولكن لم يدم أكثر من مائة سنة، وبيان منافع الذين ادعوا الهدوية وضررهم، وهناك تبيان القول الفصل في هذا المقام وإظهار الحقائق لأمم الإسلام بعدنا حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم، وهكذا في (سورة المؤمن) نماذج علمية وعملية تتخلل السورة، وقبلها في (سورة الزمر) عند آية «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» الخ نماذج التربية التي أثبتتها الأستاذ (كانت) الألماني في كتابه، وبيان أن الأمراء والملوك وحدهم لا يرقون الشعوب، بل يجب على المفكرين أن يجدوا في ذلك كما حصل في ألمانيا.

فإذا اطلعت على ذلك أو أكثر، فانظر الآن في أمر أمم الأرض نظرة إجمالية فإنك لا تجد الشورى ظهرت في أمم الأرض إلا بعد ظهور الإسلام، فانظر أولا في أمر الأمم الانجليزية، فهو أول كانوا أول من فكر في التخلص من ظلم ملوكهم، وتبعهم فرنسا ثم بقية الأمم، وامتدت الحركة إلى أهل آسيا وأمريكا، وزلزات الأرض زلزالها، ومادت عروش، وهلكت جيوش وقامت جمهوريات، وجاءت

الحرب العظمى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ م وظهر هذا التفسير ليوقظ الله المسامحين من سباتهم به وبأمثاله .

فانظر ماذا جرى أولا في انكلترا ؛ تلك الأمة التي لم تكن في أول أمرها إلا أقواما من الجنس (الساكني) من سكان مقاطعة (برطانية) شمالي غربي فرنسا ، جاءوا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها (بريطانيا) باسم بلادهم الأصلية ، ومنها انتقلوا إلى (إيرلنده) وبقي هؤلاء القوم أصحاب الشأن في تلك البلاد إلى أن دخلوا في (الأمبراطورية الرومانية) بعد حروب طويلة بها خضعوا خضوعا تاما حتى اضمحلت (الدولة الرومانية) وتركت البلاد لأهلها ، هنالك أغارت عليهم قبائل الأنجليز والسكسون والجات ، وهم كانوا في شمالي ألمانيا ، وكان ذلك في أثناء القرنين الخامس والسادس المسيحي أي قبيل ظهور الدين الإسلامي بقليل ، فتغلب الفاتحون على أهل البلاد وسموها (أنجلند) أي أرض الأنجليز ، فصارت هنالك ممالك متنافرة .

وفي سنة ١٠٦٦ م أغار على بلادهم (دوق نور منديه) وهزمهم في موقعة هاستنجس ، وتوج ملكا على انكلترا ، وهنالك امتزج النور منديون بالسكان الأصليين فكان هذا الشعب الأنجليزي الحديث الذي يعتبر من ابتداء الفتح (النور مندى) وظهر إذ ذاك ملوك انكلترا شأن في فرنسا بطريق المصاهرة ، ثم كانت حرب المائة سنة التي تمت سنة ١٤٥٣ وبه خرجت انكلترا من فرنسا ، وفي مدة النور منديين المذكورين ظهر الدستور الأنجليزي الذي سقنا الكلام هنا لأجله ، ولم يكن ذلك إلا بآثار الإسلام كما تقدم ووليم الفاتح المتقدم ذكره وإن دخل البلاد فاتحا قد خضد من شوكته بعض قوانين النظام الإقطاعي الذي كان عاما في أوروبا إذ ذاك . ولاحكم (هنري الثاني) في القرن الثالث عشر المسيحي نشأ النظام المعروف بنظام المحلفين وهو أشبه بمبدأ لرقى الشورى في البلاد . ولما تولى جون ابنه قاوم الأشراف ورجال الكنيسة الملك المذكور وحاربوه فاحترم حقوقهم ، وهكذا أخذ البرلمان يقوى ويشدد وقتا بعد وقت ، وأخذ يراقب المالية ويحاسب الملوك .

وفي عهد أسرة (لنكستر) زاد نفوذ البرلمان إلى أن ضعف الملك وقامت حرب سميت (حرب الوردتين) في (١٤٥٥ - ١٤٨٥) إشارة إلى الوردة الحمراء التي كانت شارة بيت (لنكستر) ، والوردة البيضاء التي كانت شارة بيت (يورك) فمات أكثر الأشراف وانتصرت أسرة لنكستر ، وتوج هنري تيودور (دوق تشمند) ملكا على انكلترا باسم (هنري السابع) وبقيت هذه الأسرة من سنة ١٤٨٥ إلى سنة ١٦٠٣ وفي أثناء هذه المدة ظهرت حركة إحياء العلوم وذلك في زمن (هنري الثامن) في القرن السادس عشر الذي أخذ يقطع العلائق الدينية مع رومة ، وفي هذا القرن ظهر الإصلاح الديني ، هناك أخذ (الدوق سمرست) الذي لقب نفسه (حامى المملكة) إذ كان رئيسا لمجلس الوصاية على (إدورد السادس) يهدم التماثيل والصور من الكنائس ، وألقى الصلاة اللاتينية ، وأخذوا يصلون بالإنجليزية ، وصودرت الأديرة وأملاكها ، وكل ذلك أتباع لمذهب (لوثر) وهو المذهب البروتستنتي ، ذلك المذهب الإصلاحى الذي امتد إلى أوروبا من آثار دين الإسلام كما تقدم .

وارتقى البرلمان والشورى في أيام اليبابات ؛ تلك الملكة التي كسر جيشها جيش الأسبان وقهرهم ، وفي أيامها أيضا ظهر (شكسبير وبتسون) و (فرنسيس بيكون) .

وقامت بعدها أسرة (استيورت) ومنها شارل الأول سنة ١٦٢٥ إلى سنة ١٦٤٩ وثار البرلمان عليه ففر منهم إلى الشمال ، وأخذ يحاربهم مجنود وهم قابله بالمثل ، ثم أخضعوه وحبسوه ، واتهم البرلمان الملك

بالحيانة وحاكمه ، وأعدموه سنة ١٦٤٩ ، وكان المطاع في البرلمان أقوى رجل فيهم وهو ( أولفر كرمول ) وأصبحت إنكلترا جمهورية ، وهذه هي الحادثة الأولى في العالم الجديد التي بها عرف الناس أن الملوك لاحق لهم في اضطهاد الشعوب ، وأن الشورى هي الحق والعدل ، وهذا صدى صوت هذا الدين الحنيف « وأمرهم شورى بينهم » .

اللهم إنك أنت تخفض وترفع ، أنت رفعت العرب الأولين بالشورى ، ولما قصروا فيها بعثتها إلى أوروبا فانتهت الحال بقتل ( شارل الأول ) ملكهم أي ملك الإنجليز . كل ذلك سر (سورة الشورى) .  
وبقيت البلاد جمهورية من سنة ١٦٤٩ إلى سنة ١٦٦٠ ثم عينوا شارل الثاني سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ فرجعت ملوكية ولكنهم قيدوها إلى الآن .

وجيمس الثاني من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٦٨٨ ولكن البرلمان كان يكره هذا الملك فعزله وولى ( ماريه ) وزوجها (وليم) وفرجيمس إلى فرنسا وهاهنا لم يسفك دم وساد البرلمان في إنكلترا إلى الآن ، وبعد ذلك أصدر البرلمان ( قانون الحقوق ) وهذا القانون بنيت عليه الحرية الإنجليزية وذلك سنة ١٦٨٩ وأعلنوا فيه أن حق الملك في العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل في البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج حسب المصلحة ، وبهذا قضاوا قضاء مبرما على فكرة « الحق المقدس للملك » وبهذا منع الملك من التدخل في السلطة القضائية ، ومن جمع الجيوش وقت السلم ، ومن جمع الضرائب بدون إذن البرلمان ، هذا كله سر هذه السورة ( الشورى ) .

### فرنسا بعد إنكلترا

قلنا إن سبب الثورة الفرنسية إنما هو ما كتبه فلتير وروسو ، وقانا إن هذا كما قلنا في سورة التوبة إنما كان بسبب ما قرأوه في كتب المسلمين لاسيما كتب ابن رشد . وأنضج الفكرة عند الفرنسيين ما سبقهم به الإنجليز من قتل ملكهم ( شارل الأول ) وطرده ملك آخر وهو جيمس ، كل ذلك على مرأى ومسمع من فرنسا جارتهم ، فكانت الثورة الفرنسية أشد وأنكى ، فهي على قاعدة : إن كل مجتمع سياسى له حق الدفاع عن نفسه ، فهو يقاوم كل مجتمع يريد به بسوء . وهذا الحق إنما يستمده من نفسه لا من حاكمه « وأمرهم شورى بينهم » .

ولقد بدأت حركة الدين فالسياسة في الشعب الفرنسى في النهضة الأوروبية الحديثة التي بها نالوا الحرية الدينية وتبعها الحرية السياسية ، وأشهر الكتاب ( فلتير ) للمقدم ذكره و ( روسو ) . أما فلتير فكان من سنة ١٦٩٤ إلى سنة ١٧٧٨ فتهكم بأسلوبه العجيب بنظام عصره السياسى والدينى مناديا بإبادة القديم الذى لا يصلح ، وحارب الكنيسة وامتياز الأشراف وسوء تصرف الملوك وفساد القوانين الجنائية ، فجاء ( جان جاك روسو ) من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧٧٨ وهو متشبع بروح فلتير ، فألف لهم كتاب [ العقد الاجتماعى ] الذى أبان فيه طريق الانتخاب وأن تنيب الأمة عنها رجالا يتولون شؤونها ، وهذا معناه « وأمرهم شورى بينهم » . وأساس نظريته أن الشعب هو صاحب السلطة الحقيقية ، وأن الحكومة منه تستمد قوتها وسلطتها والتشريع يجب أن يكون بيد الشعب ، وآراء ( روسو ) صارت كأنها إنجيل وكتاب مقدس تسير على مقتضاه زعماء الثورة الفرنسية . وهكذا كتب ( روسو ) فى التربية والموسيقى . وهو يعيل للرجوع للحال الطبيعية .

وجاء بعده الفيلسوف ( مونتسكيو ) فكتب موضحا الدستور الإنجليزى ومزاياه ففتح أذهان الشعب

الفرنسي وعرف مزاي الحرية التي يتمتع بها الانجليز ، ثم فصل السلطات الثلاث بعضها من بعض وهي التشريعية والتنفيذية والقضائية . فالأولى بيد البرلمان . والثانية بيد الوزراء . والثالثة بيد القضاة . وهؤلاء مستقلون عن السلطتين السابقتين . فمرفوا بذلك فساد حكومتهم إذ كانت هذه السلطات الثلاث في يد فرد واحد وهو الملك . وظهرت حركة إصلاح أخرى في الاقتصاد . فقام أمثال (كسناي) و (ترجوت) وأمثالهما ينقدون طريقة توزيع الضرائب في فرنسا وإرهاق الشعب بها فكسدت التجارة وبارت الصناعة وماتت روح الاختراع ووقعت المجاعات المحلية . وقد كانت فرنسا ثلاث طبقات : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت الحكومة تخص الطبقتين الأوليين بامتيازات لا نصيب للشعب فيها . فكانوا يعفونهم من ضريبة الخراج ومن المكوس ، وكان كل شريف من الأشراف له حق أخذ جزء من محصول الفلاح وإلزامه بطحن غلته في طاحونة وعصر نبيذه في معصرته بأجر عظيم ، وله حق الصيد في حقول الفلاحين وإن لحق الضرر بزراعته ، ووظائف الحكومة خاصة بالأشراف فهم السفراء والقواد والضباط في الجيش ، وللكنييسة خمس أرض الدولة ولا تدفع عنها ضرائب ؛ ويجمعون الأعشار من الشعب ، وأكثر ما يجمعونه يدخل حيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة . أما الشعب وهو الطبقة الثالثة فكان (٢٥) مليوناً ، والطبقتان الممتازتان كانتا (١٧٥) ألفاً .

إن الملك يتصرف كما يشاء ويهوى لا قيد له ، فيحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء ويقتل ويعطي ويمنع ، وكان معه برلمان صوري .

ولقد كانت فرنسا عند موت لويس الخامس عشر في سنة ١٧٧٤ على شفا جرف هار من الافلاس بسبب ما خسرت من المال والمستعمرات في الحروب التي أدخلهم فيها لويس المذكور ، فلما تقلد الحكم لويس السادس عشر أراد تخليص فرنسا من الضيق المالي ولكن حاشيته لم تساعد على ذلك مخالفين رأى العالم الاقتصادي (ترجوت) الذي أشار بتقليل تلك الحاشية الملكية التي تأخذ كثيراً من مال الدولة . ولما نشر (نكار) العالم الاقتصادي الذي حل محل (ترجوت) تقريراً عن حال المالية المرتبكة بسبب القروض التي اقترضتها الحكومة لمساعدة الولايات المتحدة لتخلص من حكم انكرا ، وبسبب ما يصرفه الملك على نفسه وعلى حاشيته عزل الملك (نكار) وولى (كالون) مكانه فقال للملك : يجب أن يرغم الأشراف ورجال الدين على دفع الضرائب وأن تلغى الجمارك الداخلية ، فلم يقبل ذلك منه رجال الدولة ، فعزله الملك وتولى هو تقرير الضرائب بنفسه ، فلم يوافق البرلمان على تلك الضرائب ، وأكرهوا الملك على عقد الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ فرفض النواب من الطبقتين الممتازتين أن يجتمعوا معهم ، وقد كان لكل طبقة (٢٠٠) نائب فصاروا جميعاً (٦٠٠) نائباً وأربعائة من الأشراف ، ورجال الدين هم الذين استكبروا أن يجتمعوا مع هؤلاء العامة ، اللهم إلا بعض أفراد تسللوا لوإذا وحضروا مع نواب الشعب في مكان آخر غير قاعة الاجتماع وهو ملعب (التنس) وهناك أعلنوا أنهم هم (الجمعية الوطنية) .

ولما اجتمع جميع النواب لسماع خطبة العرش ، وانصرف بعض الأشراف ورجال الدين شدد أمين الملك في طلب انصراف نواب الشعب فقال له (ميرابو) وهو أقوى النواب : «نحن هنا بأمر الأمة ، ولن نفارق مكاننا إلا بأطراف الأسنة» . وهناك أمر الملك أن تكون الجمعية الوطنية مشكلة من الجميع بحيث يجتمعون معاً ، ولكن العامة أوجسوا شراً من الملك بإشاعات تخيلوها ، فاتفقوا على (حصن الباستيل) وهدموا وأطلقوا المسجونين فيه ، وكان ذلك في (١٤) يولييه ، وقد أصبح ذلك عيداً تاريخياً ، وهذا اليوم هو أحسن أعياد فرنسا . وازداد الجوع في فرنسا فدخل الشعب لاسم النساء في شهر أكتوبر على قصر (فرساس)

يطلبون الحزب من الملك ، ولولا الحرس لدخلوا على الملك والملكة . فانتقل الملك إلى باريس وهكذا الجمعية الوطنية أيضا . وأصلحت الجمعية الوطنية القوانين . ونظمت كل شيء . وأزالت كل ظلم . ولكن العامة بعد ذلك تطرفوا وتغالوا وفقدوا رشدهم . فهرب الملك . فكشفوا أمره عند بلدة (فارن) في يونيه سنة ١٧٩١ فقادته العامة إلى باريس ووافق على النظام الجديد الذي أسسته الجمعية الوطنية وأعلنت انحلالها . ولكن في أثناء ذلك هاجر الأشراف خارج فرنسا واتفقوا مع النمسا وبروسيا على محاربة الثورة الفرنسية وإرجاع حقوق الملك إليه . ودعا الأمبراطور ( ليوبولد الثاني ) وهو أخو الملكة ملوك أوروبا لإخماد هذه الثورة . وهذا الأمبراطور وملك بروسيا أصدرامذشورا للملوك فخواه [ إنهما مستعدان أن يكسرا ثورة فرنسا مع من ينضم إليهما ] .

وقهرت الأمة الملك على أن يعلن الحرب على النمسا ولكن جيوش فرنسا تقهقرت أمام المغيرين فاتهموا الملك بالحيانة ، وكما قربت بروسيا من فرنسا ازداد غضب الفرنسيين على الملك ، هنالك أعلن القائد الروسي [ أن كل من مس شعرة من رأس الملك يقتل ] فزاد ظنهم السوء به ، فهجموا عليه ، فهرب إلى الجمعية الوطنية سنة ١٧٩٢ . والحرس قاوموا ولكن الملك أمرهم أن يسلموا ، وهنالك كثرت المذابح ، ذلك أنهم قد اتهموا كثيرا بالحيانة كما اتهموا الملك وقتلوا نحو ( ١٥٠٠ ) نفس ؛ وفي هذه الفترة أصلحوا الجيش فقاوم البروسيين وأعلنوا الجمهورية في ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وألغوا الملكية ؛ وأخطر العامة المؤتمر أن يحاكم الملك بتهمة الخيانة فحاكوه وأثبتوها وحكوا عليه بالقتل ، ونفذ الحكم في ( ٢١ ) يناير سنة ١٧٩٣ م وهذه الجمهورية لم تطل إذ تولى العرش نابليون سنة ١٨٠٤ وجعل نفسه أمبراطورا .

### خطاب المؤلف لله عز وجل

اللهم إنك أنت الحكيم العليم العدل ، آتسنا عدلك ونظامك في نجومك وشموسك وأقارك ، نظام بديع ، لا يخس شعيرة ، حركات منتظمات ، وعجائب واضحات ، أتحدت أضواء الشمس السبعة وهي الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي والبرتقالي والنيلي ، أتحدت فكان اللون الأبيض ، وأتحدتها سعدنا في الحياة ، وشاهدنا سبلنا ، وتغذى نباتنا بمواد الكربون الطائر في الهواء ( انظره مشروحا مرسوما في سورة يس ) وهذه الألوان هي التي ظهرت بها أفاين الألوان في الأزهار والأشجار وبدائع الجمال في عوالمنا الأرضية ، انتظمت النجوم في سيرها واتحدت في أنها لاخلل في حسابها ، فماذا كان ؟ ظهرت بها سعادتنا على الأرض ، أما في البر فمعلوم ، وأما في البحر فإن ربان السفينة العظيمة لن يفتأ ليلا ونهارا وهو فوق متن الماء ، ينظر الكواكب السيارة ويحسب حسابا دقيقا معقدا لا يعرفه سواه ، ولو أنه تواني لحظة لضل الطريق ولم يعرف أين هو ، فوق سطح البحر نجوم منظمة وأحوال كاملة ، وهذا عمالك ؛ وأنت على صراط مستقيم ، لقد خلقتنا في وسط هذا النظام الجميل العجيب ، وأعطينا عقولا وقلت لنا « وأمرهم شورى بينهم » فيارباه هاهو ذا نوع الإنسان آخذ في التقليد لنظامك ، نظامك العجب البديع ، نظامك الذي لاخلل فيه ، هذه هي النجوم رأيناها في أماكنها دوائر منتظمات ، لاتصادم ، لاتهافت ، لاخلل .

أما نظام أمنا وجماعاتنا فهو جاهل غير مبني على التجارب المتعاقبة لأننا لاغريزة لنا نتبعها كغريزة النحل وغريزة النمل وغريزة الأرضة ، غرائز صافيات كاملات بها عاشت تلك الجمهوريات بغاية النظام . أما جماعاتنا وجمهورياتنا فإنك جعلتها مبنية على تجاربنا نحن ؛ فهاهو ذا القرآن يأمرنا بالشورى فقام بها أسلافنا ثم تركها أبوانا وأجدادنا فتولاها قوم آخرون وكان رائدهم التجارب ، إنك أردت بذلك أن تكون سعادتنا ورقينا

مبنيين على جدنا واجتهادنا ، وأنت تعين المجتهدين في أي أمر كان ديني أو دنيوي ، وهاهي ذه فرنسا وانكلترا لهما مجالس شورية ( البرلمانات ) وهكذا أمريكا وبقية أوروبا ، وقد لحق بهؤلاء أهل الصين والفرس والترك .

اللهم إن عبادك لا يزالون ضعافا فإن فرنسا التي أعلنت الحرية في بلادها وهدمت حصن الباستيل وقتلت لويس السادس عشر وانكلترا التي قتلت (شارل الأول) لأجل ظلمهما هاهما معا قد انقضا على بلاد الإسلام ونزى فرنسا تريد تغيير دين البربر في مراكش وتذل المسلمين في شمال أفريقيا ، وانكلترا تعبت بحقوق مصر وبعض بلاد العرب .

اللهم إن الإنسان لظلوم كفار ، قتل الإنسان ما كفره إنه كان ظلوما جهولا ، إن الأمم حلت محل ملوكها المقتولين في ظلمهم ، فهم يفعلون مع الأمم في الظلم ما فعله معهم ملوكهم ، وقد جهلوا أن هذه الأمم المظلومة ستفعل معهم لظلمهم ما فعلوه هم مع ملوكهم عاجلا وآجلا .

اللهم إنك أنت حكيم . إن النوع الإنساني قد جبل على أنه لا يعرف قيمة شيء إلا إذا تعبت في تحصيله فهذه الأمم الشرقية سلطت أنت عليها دول الغرب لإذلالها ليكون ذلك باعثا لهم أن يتخلصوا بقوتهم هم ويخرجوا من قبضة الظالمين كما تخلصت تلك الأمم من ظلم ملوكهم الذين جعل الله ظلمهم وسيلة لجهاد شعوبهم وارتقائها ونيل حريتها .

### خطاب المؤلف للأمم الإسلام وأمرائهم

ياأمم الاسلام : اسمعوا . هاهو ذا كتاب الله ينادى بالشورى . وهاهم أسلافكم كانوا قدوة الأمم . وهاهو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : [ من رأى منكم في أعوجاجا فليقومنى ] وهاهو أحد آبائكم يقول له : [ والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناك بحد سيوفنا ] .

فهل فعلت انكلترا وفرنسا مع (شارل الأول) ومع (لويس السادس عشر) غير ذلك . عمر بن الخطاب الذى كان يلبس ثوبا مرقعا بضع عشرة رقعة بعضها من ليف . عمر بن الخطاب الذى منع ابنته من أن تضحخ إزارها بالروائح العطرية من بيت المال . هذا هو الذى فهم الدين وعرفه . وفهم معنى الشورى فدانت له المشارق والمغرب هو والخلفاء الراشدون . وأتم يا أصدقائى قراء هذا التفسير لاتتوانوا في إرشاد هذه الأمة فوالله إنى لأعتقد فى نفسى بأن أي خاطر يخطر لى فلا أكتبه للمسلمين يجر على جسمى وعلى عقلى أذى كبيرا فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

إياكم أن تتوانوا فى بث فكرة الإصلاح العام الذى فى هذا التفسير وفى غيره الذى يكون على شاكلته . على كل منكم أن يكون أمة بنفسه لا يتكل على غيره . إن المصلى منا يقول فى افتتاح الصلاة « وأنا أول المسلمين » . فلتكن أول مسلمى قريتك فى أمثال هذا الإصلاح وإعلانه ؛ أو مصلحى أمتك . إن الإنسانية آخذة فى الارتقاء والاتحاد على منوال ما فعله الله فى السموات والأرض ، وذلك لا يتم إلا بالجهاد ، وليس الجهاد خادما بقتل الأعداء ، بل محاربة العدو جهاد أصغر : أما الجهاد الأكبر فهو ما ترونه فى أمثال هذا التفسير فإن نشر هذه الآراء يصلح جميع مرافق الحياة ومنها نظام الجيوش الذى لا يتم إلا بإصلاح جميع أحوال المملكة ، وإن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء ، والعلم أعظم النعم فى الإسلام ، لياخذ المسلمون عموما وأبناء العرب خصوصا مكانتهم العلمية ، وليقودوا هذه الأمم

المتخبطة الآن في ديجور الحياة ، ولتسكون وجهة المسلمين اليوم أنهم يكونون أقوى من جميع الأمم ، ليقودوهم إلى معنى قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وذلك بالسلام العام ؛ وهل يعم السلام إلا إذا ساوتهم الأمم في جميع أعمالها .

وأتم يا أمراء الإسلام اسمعوا مني نصيحة أنا ملزم أن أعلنها . من كان من بيت الملك منكم فليفكر في أمبراطور اليابان جد الأمبراطور الحالي ، ذلك الذي لما عرف أن أوروبا تحاول إذلال مملكته تنزل عن تلك العظمة التي جعلته هو وأباه لا يرى الشعب لأنهم فوق الناس ، بل هم من نسل الآلهة ( في خرافاتهم ) فسار في الطرق وقال للناس : « ها أنا ذا الأمبراطور ، أنا مثلكم وأعلن التعليم العام فعلم الشعب وارتقت بلاده ، وهو وأبناؤه لا يزالون ملوكا بعظمتهم وملكتهم ، والشعب هو الذي يتولى إدارة الشؤون ، ولهم كما لملك الإنجليز حقوق لا تضر الشعب والشعب راض بهذه الحقوق » .

هذا هو ما أوصيكم به ، إن جهل الشعوب كان غير ضار بالملوك قديما ، أما الآن فإن الأمم بالمرصاد فهي لا تدر أمة ضعيفة إلا استعبدتها . وهذا هو العدل الإلهي ، فإذا كان قوم يعطون نعم الله التي خلقها لعباده . وهناك قوم يقدرون على استخراجها . فمن عدل الله في نظامه أن يرسل الآخرين ليسيظروا على هؤلاء الجهال الذين لم يستخرجوا نعمة لمنفعة عباده بصناعة أو زراعة أو تجارة . هذا قولي وأستغفر الله لي ولكم . كتب قبل فجر وفي ضحى يوم الاثنين ٢١ فبراير سنة ١٩٣١ م .

### موازنة بين سيرة عمر وجمهورية سقراط

وتطبيق نظام الأمم العربية والتركية والفرنجية عليها

أيها المسلمون : قد ظهر الحق وانفلق عمود الصباح . أيها المسلمون : بهذا يفهم النوع الإنساني معنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

أيها المسلمون : عمر وأمثال عمر هم الذين فهموا معنى قوله تعالى « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ومعنى « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » . عمر رضى الله عنه رحيم بالعبد والحر والدمى والمسلم . قرأت في بعض كتب الزيدية المطبوعة حديثا عن آل البيت « أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلا وامرأة في السبي منكسى الرأس ذليلين ، فسأل عنهما ، فقيل إننا بعنا ابنتهما لأجل طعام السبي ؛ فأمر برده إليهما » .

قد تقدم في ( سورة النحل ) عند آية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان الخ » آراء ( سقراط ) في الحكومة ، وأنه رتبها خمسة أقسام ، وأن كل نام فإنه يندبل ، ونظام الحكومات والأفراد كنظام كل ماله حياة فهو شاب فكهل فشيخ فهرم وهكذا .

وها أنا ذا أوضحه هنا بعض الإيضاح ، وأعجب والله كل العجب من سياسة عمر رضى الله عنه ومن فراسته الحكومة خمسة أقسام : أروستقراطية ، وتيموكراسية ، واليقاركية ، وديموقراطية . واستبدادية ، ومعلوم أن الأمة كالفرد ثلاث طبقات : طبقة الفلاسفة وأولى العلم ، وطبقة الجند ، وطبقة بقية الشعب .

وهو يقول : « إن هؤلاء الحكماء هم الذين يحكمون القسمين الأخيرين ، كما أن قوة العقل في الإنسان تحمكم قوة الغضب المقابلة للجند في الأمة وتحكم قوة الشهوة المقابلة لبقية الرعية . ثم إن كل قسم من الثلاثة في الأمة

وفي الفرد يجب أن يقوم بعمله ، فالجند تطيع الحكام ، والعامه يطيعون القسامين كما تطيع قوة الغضب عقولنا والشهوة تطيع العقل وقوة الغضب ، ولا معنى للعدل إلا هذا . فهذا معنى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . فاذا تولى حكم الأمة الحكماء فهذا معنى ( أروستقراطية ) وإذا مضى الجيل الأول فترت هممة الجيل الثاني عن الفلسفة والعلم واكتفوا بقوة الجند وحكموا الأمة بمجرد القوة التي لاتصحبها الحكمة المستمدة من الله تعالى ، فهناك تسمى الحكومة ( تيموكراسية ) والثانية أقل من الأولى درجة ، ولكن إذا تمادى الجند في الحكم رأوا أنفسهم هم والأمراء الذين لاعلم عندهم ولا حكمة مغرمين بالمال إذ يقتسمون مال الطائفة الثالثة ، وهناك يتنزل الأبناء عن منزلة آبائهم ، وتكون الحكومة إذ ذاك ( اليفاركية ) وهي حكومة الثروة . فالحكمة في الأولى تنزلت إلى حماسة في الثانية ، وهذه تنزلت إلى مطامع الشهوة وجمع المال ؛ وهناك تزيد غلات فريق الحكام ويصبح الناس طبقتين اثنتين لاغير : أغنياء يملكون أكثر ما في الدولة وهم قليل جدا وفقراء وهو جميع الشعب فلا مناص من قيام الشعب على طبقة الحكام وإذلالهم والاستحواذ على أموال الدولة وهذه تسمى ( ديموقراطية ) وهي دولة التهتك والخلاعة وعدم الحياء والصيانة فيصبح الأمر في يد العامة والجهلاء ولا يحترم الابن أبويه ولا المحكوم الحاكم وهكذا ، ونظير هذا في المرء الواحد التهتك والخلاعة وعدم الحياء والمجاهرة بكل موبقة وعدم الاكتراث بالعار والشنار ، والأمة إذا وصلت لهذه الدرجة فلا بد من ظهور واحد فيها يستبد بها ويذلها ويقهرها وهذه هي الحكومة الخامسة وهي الاستبدادية ، وخير هذه الخمس أولها وشرها آخرها ، والثلاثة التي بينهما مرتبات ترتبها تنزليا .

هاهنا فلننظر ، أليس ما قاله أفلاطون في الجمهورية ( التي ألقاها الله على قلبه وعلى قلب سقراط أستاذه قبل ظهور النبوة المحمدية بمدة تزيد على تسعة قرون ) أصبح نموذجا لنا نفهم به قيمة الحكومات ومنتحنها ونبحث فيها بمجد .

سبحانك اللهم وبحمدك ، علمت قلة علومنا ، وعلمت انقطاع سند العلم بيننا ، فأطلعتنا على آراء سقراط ففهمنا أنها أشبه بمقدمة لهذا الدين الخنيف .

أقول هذا وأنا موقن به ، إن عقلاء أمم الأرض وحكامهم في عصرنا وبعده كلهم يقصدون سقراط وأفلاطون من حيث التفكير ، ومتى عرفوا أن هناك تلاؤما وتوافقا بين المدينة التي اختطها عمر رضى الله عنه وبين مارسه هذا الفيلسوف أيقنوا بمعنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

إن الذى يأمر جنده أن لا يأخذوا أرضا ليزرعوها من فلاجى الأمة التي دخلوها ويقول أنتم أيها الجند عليكم حفظ البلاد ولكم أرزاقكم على بيت المال وكففاكم ماتأخذون منه ، ويقول : أنتم إذا ملكتم الأرض تنازعتم وفشلتم وتذلون عباد الله ويذلون ملككم ، ولما خالف بعض رجاله هذه الأوامر بمصر أرسله عمرو ابن العاص إلى عمر فها به هيبة شديدة كما تقدم ، ولما أظهر التوبة عفا عنه .

أقول : إن الذى يفعل هذا في ذلك الزمان الذى كان الفرس والروم فيه قد انتهوا في الحكم إلى الدرجة الخامسة وهي الاستبدادية وهي أدنى الدرجات ؛ ثم نراه يحكم الناس بالطريقة التي مدحها ( سقراط ) في الجمهورية وهي أن الجند لا يجوز لهم أن يكون لهم ملك لثلاثا يميلوا إلى جمع المال وكفاهم رزقهم الذى يفرض لهم من الخراج الذى تدنعه الرعية .

أقول : إن الذى يفعل هذا كله وهو لم يقرأ تلك الجمهورية ولا غيرها بل هو في أمة كلهم أميون وليس عنده من العلم إلا أعماله صلى الله عليه وسلم والقرآن الذى جاء فيه « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وجاء فيه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

أقول: أمثال هذا إنما جعله الله نموذجا للأمم الأرض قاطبة في الشرق والغرب . والإنسانية العامة لا بد يوما ما ماصارة إليه ، إن الله عز وجل أبى جمهورية أفلاطون في الأمم وهي مترجمة لجميع اللغات وفيها هذه المراتب ولم يظهر لاعلى يد أفلاطون ، ولا على يد أستاذه سقراط ، ولا على يد دولة اليونان ولا الرومان حكومة تكون مثلاً أعلى للأمم الأرض وإنما ظهرت في (٣٠) سنة وهي مدة الخلافة وبقيت في التواريخ ، وهذا مصداق حديث «الخلافة بعدى ثلاثون» وإذن نفهم معنى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فهذه هي الرحمة العامة : أليس من العجب أن الأمم الإسلامية بعد عصر الخلافة اعترافا ما اعترى الزرع وكل حى من أنه آيل للتفريق والانحلال ، ألم تحصل هذه المراتب الخمسة التي رتبها (سقراط) في الحكومات وقال إنها أمور طبيعية لا يمكن اجتبابها ولا تلافيا ، ورأينا أبناء العظماء بعد تلك الخلافة وبسد الصحابة (الذين كانوا مجتهدين) قد نزلوا إلى الحكومة (الديموقراطية) ونرى ذلك في أوائل حكم بنى أمية وبنى العباس وهي حكومة الجند لا حكومة العلماء الذين يسرون بالحلق التام . ألم نر أن بعض أواخر دولة بنى أمية قد نزلوا عن أخلاق آباءهم إلى درجة (الاوليغاركية) كما نزل ملوك بنى العباس بعد المأمون والمعتمد ونحوها إلى تلك الدرجة وعكفوا على الغاني والشرب واللذات ، هكذا نرى الفرس الذين استعان بهم بنو العباس لسكس شوكة العرب قد تغلغوا في الدولة الإسلامية ، وأخذ الملك يرجع القهقري ، وأذلوا الرعية كما أذلوا الملوك وهكذا الأتراك . أليس ذلك قريبا من المرتبة الرابعة وهي (الديموقراطية) وهي التي يثور فيها المحكومون على الحاكمين ولا يبقى للحكومة هيبة ، ثم ظهر في الأمة مستبدون من القواد فحكموا الأمة بيد من حديد . ويمثل الديموقراطية أيضا (قيام طائفة الانكشارية) في الترك على ملوك بنى عثمان ، وكم سمل الجند أعين الخلفاء العباسيين كما فعل أمثالهم من الانكشارية مع ملوك بنى عثمان ، ولتعجب مما تقدم قبل هذا من أمر ملوك فرنسا أيام لويس السادس عشر ومن قبل لويس ، وكيف رأيت فيما تقدم هنا أن الأشراف ورجال الدين ما كانوا يدفعون الضرائب ، وكانت الرعية أذلة للطائفتين « أليست هذه هي الحكومة الثالثة وهي (الاوليغاركية) وهي حكومة الثروة وجمع المال ، وهي أدنى من الحكومة الارستقراطية ومن الحكومة التيموكراسية أى حكومة الفلاسفة وحكومة الجند . وانظر كيف اضطربت الأمة كلها على بكرة أبيها وقامت ققتلت (١٥٠٠) من محبي الملك وقتلوه على مرأى ومسمع من أوروبا كلها والملوك كلهم بالمرصاد» وقد اتحد الروس وأهل بروسيا على قتال فرنسا ، أليست هذه هي الحكومة الديموقراطية التي هي أسفل وأدنى منزلة من الثلاثة قبلها وهي الحكومة التي تكون بيد الأمة كلها . ثم انظر بعد ذلك ، أليست ترى أن نابليون ذلك الضابط الصغير لما ضرب الثائرين بالمدافع خضعت الأمة إذ أمسكها بيد من حديد ، أليست هذه هي الطبقة الخامسة وهي أدنى الحكومة باعتبار عمومها لأنها هي حكومة المستبد وإن كان نابليون له مزايا لطف الاستبداد .

اللهم إني أشكرك على نعمة العلم ونعمة الحكمة ، اللهم إن العلم الذي لا تطبق عليه أحوال الأمم لا يفيد الفائدة التامة المرجوة .

اللهم إني أشكرك إذ كشفت لي حقيقة أئمتنا الإسلامية . وعرفتني بطرق إصلاحها . وكيف غشت الجهالة على أقوام وأقوام من أسلافنا ، فابتدعوا أحاديث ، واختلقوا لها أسانيد ، وجعلوا حكم الأمم منشؤه الأنساب في حد ذاتها . كلا والله . كذب والله .

اللهم إنك شرحت صدرى للعلم وأنا أكتبه لأئمتنا الإسلامية ، فأنا أشكرك حمدا كثيرا وأشكرك . أشكرك أن وفققتي ، وجعلت لي أصدقاء في جميع أقطار الاسلام ، وهم هم الذين سيطلون الباطل ويحققون الحق ، أنت يارب أردت ذلك ، هم سيشرحون هذه المسائل العلمية ويدينونها للناس ، هم الذين سيدرسون علوم

الأمة وعلوم الإسلام وعلوم النبوة - التي نحن معاشر المسلمين أكثر الأمم جهلاً بحقائقها - وذلك بما انتشر بيننا من الدعايات لأهل الأنساب بحيث يرث الابن أباه في حكم الأمة وإن كان جاهلاً غيباً ، عاكفاً على الخمر والمغاني فهلك وتهلك أمته معا ، لاسيما في زماننا .

هذا ، وقد يتخذ أمثال هذا الأمير الدول الأوروبية وسيلة لاستعباد الأمم الإسلامية ويذلونها باسمه ، وليعلم الملوك والأمراء المسلمون أني لست أقول أعطوا الملك لغير أنبائكم فإن ذلك ليس في الإمكان ولكني أقول : ( يجب أن يتعلم الشعب كله لأن الملك وحده لا يقوم مقام الأمة ، وإذا كان ولي العهد صالحاً للملك فهو أحق من غيره ، ولكن لسنا على يقين من أن الأعقاب يكونون على منوال الآباء بدليل ماتقدم من حوادث التاريخ ومن نفس طبيعة النوع الإنساني) .

فلينظر علماء الإسلام الذين يقرءون هذا التفسير وملوك وأمراء الإسلام ، فإذا أنسوا من بيت الإمارة والملك علماً وكالاً وسياسة وحكمة فهم أولى بالحكم ، ولكن لما كان علمنا الذي نعيش فيه يسير على طريقة تنازلية بحيث يكون كل جيل أضعف مما قبله وهكذا وجب ( لأجل الاحتراس ) أن يجعل الأمر بيد مجلس الأمة ، وهؤلاء الملوك ينفذون ما يقرره المجلس وللملك مزايا خاصة تقرر بينهم وبينه ، فهناك يحصل الغرض المطلوب ، فالأمة كلها تجتهد في التحصيل وتحس بالنبعة الملقاة على عاتقها ويخف الحمل عن الملك وأعوانه ، ويبقى الأمير أو الملك موضع الإعزاز والإعظام والإجلال ، وذلك كما في بلاد اليابان وبلاد الانجليز ، حتى إذا كان أحد الأبناء منحرفاً عن الجادة فإن الأمة والوزراء هم المسئولون وكفى .

وقد ذكرت هذا من قبل وأكرره في كل مناسبة ، هذه طريقة سهلة ، فإذا لم توفق أمة من أمم الإسلام إلى ذلك فلتجعل الإمارة بالانتخاب والشورى كما فعل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وكما تفعل الولايات المتحدة ، ومتى انتظمت إمارات الإسلام وجب على الأمراء أن يجتمعوا ويختجوا واحداً منهم يكون خليفة للمسلمين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويكون انتخابه لمدة معينة نحو خمس سنين ، وذلك خيفة أن تتغير أطواره فتحصل الفتنة . هذا ما فتوح الله به في معنى « وأمرهم شورى بينهم » .

أما أن نسمع أن أمم الإسلام تتخذ رجلاً لأجل نسبه وتقول إنه إله أو الإله حل فيه ويجعل له أعواناً يشيدون باسمه ، أو تتخذ آخر لاجل صلاحه وقد اجتمع حوله تلاميذه فجعلوه فوق جميع الأولياء والصالحين وذكروا له كرامات ، ثم يحكم الناس بهذه الوسيلة فيقولون هو المهدي ( اقرأ ما في أول سورة الحج من الكلام على المهدي ) أو نحو ذلك فهذه أشبه بأمواج في بحر السياسة تروج فيه ثم تضمحل عند الشاطئ . اقرأ ذلك في أخبار المهدي محمد بن تومرت في سورة سبأ وفي سورة الكهف عند آية « وما كنت متخذ المضلين عضداً » . اللهم إني كتبت ما فتحت به على اليوم ولك الحمد على نعمة العلم .

إن الرجال الذين اشتهروا بالصلاح وهم حريصون على المال لهم منافع ومضار وضرهم أكثر من نفعهم أما الذين وصفناهم وقررناهم فهم الذين يجب أن يتولوا الملك لأن نفعهم أكثر من ضرهم .

\*\*\*

ولأختم هذا المقام بحديث دار بيني وبين أحد مشايخ الطرق بمصر . ذلك أني كنت أسكن بجهة طولون عند قلعة الكيش ، وكان بيتي بالقرب من شيخ طريقة معظم في بلاد الصعيد ، وهذا الشيخ له مريدون وأكثرهم من البرابرة . وكان إذا نزل الصعيد وعلم مريدوه قابله ٥٠٠ خيال احتراماً له واتخذوا يوم حلوله عيداً لهم ؛ وهناك يكسو الرجل زوجته وأبناءه وبناته . ويكون الفرح والهناء بمقدم الشيخ والبلاد

التي يعظمه أهلها تفل فيها السرقات . وقد شرح ذلك شرحا بينا فقال : أنا إذا قدمت القرية يحضر زيد فيقول لي يا أستاذي أنا أخطأت لا تغضب علي فيقول له من كان معك ؟ فيقص القصص إنه هو وفلان وفلان وفلان سرقوا بقرة أو تقبوا حائطا أو قتلوا رجلا . فهناك يقطب الشيخ وجهه وقد حفظ أسماء الشركاء . فتي حضر أحدهم يأمر الشيخ بعدم دخوله عليه . فهناك يزيد الاعتقاد في الشيخ .

فهذه هي منافع هؤلاء الشيوخ . فأما مضارهم فإن هذا النفع لا قيمة له لأنه لم يكن من نفس الفرد بل إنه خائف من الشيخ ، والشيخ لا ينال هذا إلا بجهد أتباعه . وأمة هذا شأنها تكون عالة على المجتمع الإنساني . وبعض هؤلاء الشيوخ يمثلون عجل السامري . وهذا العجل يجب أن يحرق ويذرى في الهواء كما فعل موسى فإن التقوى المبنية على الرعب من نفس الشيخ تقوى لا بقاء لها وهذا هو الانتكاس وضياح الأمم بل لا بد من الإرشاد والتعليم .

وهذه المسألة الجزئية تفسر لنا الطريق التي منها حسن بن الصباح في قلعة الموت هي مذكورة في (سورة الكهف) فلا يظهر لأتباعه وقد حرم عليهم دراسة العلوم وحكمهم بمثل هذه الطريقة ثم انقرضت تلك الدولة . فمهما كانت نية القائم بالأمر من الإصلاح فهي مخالفة لدين الإسلام وضارة بالأمم وفساد للمجموع .

\*\*\*

وهالك حديثا آخر حدثه لي هذا الشيخ وأنا معه في منزله وأتباعه يذكرون الله والمنشد يعني . قال : إن أحد أتباعي بالصعيد (وكان أعمى) أخذ يجد في العبادة والذكر على حسب طريقي ، فأخذ الناس يذكرون له كرامات وسمع هو بذلك فصار يتظاهر بما يدل على ذلك حتى أشاعوا أنه ارتقى فوق مرتبتي أنا ، وأنه نال فوق ما نلت . فلما نزلت ببلدتهم وكان الجمع محتشدا وهو بينهم وقفوا جميعا أما هو فإنه بقي جالسا ليحقق قولهم وأنه أعلى من شيخه في الولاية ، فسلمت عليهم جميعا . ولما لم يقم لم أسلم عليه مع أنه لو كان غيره من الناس لضر بوه وأهانوه ، ولكنهم احتراموه لأنه أصبح أعلى في مقام الولاية مني ، فأوعزت سرا إلى أحد أتباعي أن يسرق حذاءه . فلما أخذنا ننتقل من ذلك المكان وقام معي هذا الجمع المحتشد لم يجد حذاءه . وظهر للناس أنه لا علم له بمن سرق نعله . إذن هوليس بولي فتركوه فمشى حافيا ، ثم أتى لينذكر مع الذاكرين فأخرجه أتباعي بأمرى ، فشكاهم إلى ؛ فقلت له : إن الولاية لي أنا فكيف تتكبر على بها ، وأخذ يوبخه على فعلته ثم عفا عنه ، فرجع فردا من الأفراد والتلاميذ المعتادين .

وإنما ذكرت هذا لأنه مهود في أكثر ديار الإسلام والمحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس

٢٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية و ١٢ يناير سنة ١٩٣١ م .

## بيان العدل العام في السموات والأرض

وأن الشورى مفتاح العدل ، وأن العدل والجمال يرجعان لأمر واحد فيكون جمالا في المحسوسات أو موسيقى ، وغريزة في الحيوان ، وعدلا عند الإنسان ، ثم ذكر أبناء الشورى في زمن النبوة والخلافة وبقاء الملك ، ثم بيان تركها وذهاب الملك ، وتبيان أن المسلمين بسبب ما ذاقوا من حلاوة الشورى في زمان أبي بكر وعمر قتلوا عثمان غيلة لما ظنوا أنه يفضل بنى أمية ولم يلم بهم من الظلم عشر معشار ما ألم بالانجليز حين قتلوا ( شارل الأول ) في القرن السابع عشر ، ولا ما ألم بالفرنسيين إذ قتلوا ( لويس السادس عشر ) في القرن الثامن عشر ، ولا بالألمان إذ ثاروا على أمراءهم في القرن التاسع عشر

بعد ما كتبت ما تقدم من أمر الشورى في بلاد فرنسا وانكلترا ( تطبيقا على آية « وأمرهم شورى بينهم » ) وبيان أن هذه الثورة السياسية في الأقطار الأوروبية لم تكن لديهم إلا من آثار الهضة الاسلامية الأولى ، جاشت النفس بخواطر في أمر الشورى في مدة الخلافة الاسلامية وهي ( ٣٠ سنة ) وكيف كانت إذ ذاك ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي بين الشريعة للناس ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج لولا فعله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه ما عرفنا شيئا منها ، فأية الشورى آية جملة والإجمال لا يغني عن التفصيل والله يقول « وزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ونحن إذا اكتفينا في تفسير هذه الآية بما تقدم نكون قد خالفنا منهج الحق وهذا الكتاب اليوم بين يدي المسلمين ، فحق على أن أذكر جملة صالحة توضح أمر الشورى في عصر النبوة وفي عصر الخلافة حتى يعرف الناس السبب في هذا الملك العظيم الذي امتد شرقا وغربا ولماذا أزال الله ذلك الملك ومزق أبناء الذين قاموا بهذا الأمر تدريجا بعد العصور الأولى ، وأقدم قبل ذلك مقدمة في النظام العام في السموات والأرض . فأقول :

اعلم أن العدل والجمال يرجعان معا إلى النظام العام ، فكل ما كان منظما فهو مرغوب فيه محبوب ، وما فقد النظام فهو منفور منه ، إن النظام حليف الدوام ، والاختلال يتبعه التفرق والاخلال ، إن من اطاع على هذا التفسير أو أكثر فإنه يوقن أن نظام الكواكب والشموس والأقمار نظام تام عجيب لا خلل فيه فكانت نتائجه لاحصر لها ، إن التناسب وحسن النظام إذا فارق الأجسام الحيوانية والنباتية لم تكن لها حياة ، وإذا لم يكن متناسبا بين الحديد العينين والمخربن والفم في الوجه فقد الجمال ، فالجمال يتبع التناسب والقبح يلزم عدم التناسب ، هكذا كل عضو من أعضاء الإنسان والحيوان ، وكل غصن أو ورقة من نبات لها نسب خاصة ، وبغير تلك النسب لا تكون حياة للنبات ولا للحيوان .

تقدم في هذا التفسير في غير ما موضع أن شبر الانسان مقياس لأعضائه ، فهو ثمانية أشبار بشبره ربعها من الركبتين إلى القدمين ، وربعها من الركبتين إلى الحقوين ، وربعها من حقوية إلى رأس فؤاده ، وربعها من رأس فؤاده إلى مفرق رأسه ، وإذا مد يديه يمتد ويسرة كان امتدادهما ( ٨ ) أشبار أيضا ، وإذا مديديه إلى فوق رأسه فإنه يجد أن المسافة من السرة إلى أطراف أصابعه ( ٥ ) أشبار كالمسافة التي بين السرة والقدمين ، أنا لا أطيل في هذا لأنه تقدم ولكنه تذكير بجمال الوضع في العالم المشاهد والكمال فيه ، وهذا في المشاهد المحسوس بحاسة البصر ، ومثله المحسوس بحاسة السمع كما تقدم كثيرا في غير ما موضع فإن الموسيقى القديمة المبنية على نسب ( البم والثنى والثالث والزرير ) والموسيقى الحديثة المبنية على قاعدة التوالية الهندسية ( ١٦ - ٣٢ - ٦٤ ) وهكذا لم تخرج عما تحبه النفوس من النظام والجمال .

الله أكبر . اللهم إنك أنت الجميل الحكيم العليم . أنت الذي أحكمت ملكك ، ونظمت خلقك . عجبنا يارب من إبداعك . أنت واحد ونظامك واحد ، ولكن اختلفت مظاهره . أنت سريع الحساب فإن كان ذلك الحساب في المشاهدات بحاسة البصر كهجة الأشجار وجمال الأزهار والزررع ، وجمال الوجوه سميناه جمالا ( وإن هو إلا تناسب بين الألوان والأغصان والأوراق والأعضاء بحساب لا خطأ فيه البتة كحساب سير الكواكب ، انظر بعضه في سورة الحجر عند آية « وأنبئنا فيها من كل شيء موزون » فهناك تعرف أيها الذكي لم فرح الناس بالأشجار وعدوها جميلة ، وهناك تشاهد رسم الأوراق والهندسة في الدوائر التي تكونت على الأغصان وأكثر أهل العلم عنها غافلون ) وإن كان في السموعات سميناه موسيقى واستلذت النفس به ، وإن كان ذلك الاتقان في جماعة الحيوان كما تقدم في جمهورية النحل وجمهورية النمل وجمهورية الأرضة ( المذكورات المصورات في سورة النحل والنمل وسبأ ) سميناه غريزة ، وإن كان ذلك الاتقان في سياسة الإنسان العامة وحفظ الجماعة سميناه عدلا .

عجبا ياربنا ؛ أيما قلبنا الطرف وأدرنا وجوهنا يمينا ويسارا وفوق وتحت لا نجد إلا نظاما واحدا ، وهذا النظام له مظاهر مختلفة ، فهو جمال ونعمات وغريزة وعدل ، وأقرب الخلوقات إلينا هذه الحيوانات التي نظمت ممالكها نظاما أدهشنا ، عجز الإنسان والله عجزا ظاهرا أن يجارى النمل في جمهوريته أو يساوى النحل في مملكته ، أو يجارى الأرضة العمياء التي تحك مئات الألوف من تلك الحشرات التي هي عمياء مثلها فهذه يارباه حكومات منظمات على منوال ما نظمت أنت من جمال وجوهنا وبدائع أشجارها وأزهارها والأثمار . نعم الإنسان لم يقدر أن يجارى هذه الحشرات ولا غيرها ، فإن عدل يوما ظلم سنين ، وإن علم شيئا جهل أشياء ، أنت أعطيتة الحرية ، ووهيته معها عقلا ، وقلت له : دونك التجربة ، ولم تذر نفسك ، بل أرسلت له أنبياء فعلموه ، وخلقتم قوما حكما ففهموه ، ومع ذلك لا تزال الشقوة تحيط به ، والذل يشاه وآخر من أرسلته من الأنبياء نبينا صلى الله عليه وسلم وجاء في وحيك « وأمرهم شورى بينهم » . فها نحن أولاء نبحت في سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الخاصة بالشورى ، فنجد أنه روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه من قبل ، فاستشاره فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : « أكثر الأنصار يار رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم يار رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين » وكان صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأي . وقال بعض أصحابه « اخرج بنا إلى هذه الأكيلب لثلا يروا أنا جينا عنهم وضعفنا وخفناهم » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني قد رأيت في منامي بقرا فأولتها خيرا ، ورأيت في ذباب سيفي ثلما فأولتها هزيمة ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعهم » فقال رجال فاتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : « اخرج بنا إلى أعدائنا » وبالغوا حتى دخل فلبس لامته . فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم . وقالوا : اصنع يار رسول الله ما رأيت ، فقال : « لا ينبغي لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل » . اه ( اقرأ بقية الكلام على هذا المقام في [ سورة آل عمران ] في المجلد الثاني من هذا التفسير ) . إذن هانحن أولاء رأينا صلى الله عليه وسلم كان يميل إلى أن يبقى في المدينة لأنها تأويل الدرع الحصينة التي رآها في المنام . ولكن لما أشاروا عليه لبس لامته ولم يرجع عما أشاروا به وإن كانوا هم ندموا على مبالغتهم في طلب الخروج

للقاء . وهكذا نجد عمر رضى الله عنه هو من خلفائه يجد في العدل والعفة . ولا يبرم أمر إلا بمشورة أصحابه حتى ما يختص بأمر نفسه ، وما يقوم بأمر معاشه .

(أولاً) - ذلك أنه جمع الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق ، فقال إني كنت امرأة تاجرا وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت ، فقال : يا على ماتقول؟ قال ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره ، فقال القول ما قال على بن أبي طالب .

وأخرجا عن أسلم قال : قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما يحل لك من هذا المال ؟ فقال ما أصلحتني وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحواجهم وجهاده . وروى الطبرى أن هذا العطاء الذى رضىه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة زيادونها لعمر في رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فأتوا بينته حفصة وأمروها أن تجربه بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماء فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها : من هؤلاء؟ قالت لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسؤت وجوههم أنت بينى وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس ( وكانت زوجته ) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت خبزنا خبزة شعير فصبنا عليها وهي حارة أسفل عكة<sup>(١)</sup> فجعلناها هشة<sup>(٢)</sup> دسمة فأكل منها وتطعم استطابة لها ، قال فأى مبسط كان يبسطه عندك كان أو طأ<sup>(٣)</sup> قالت كساء لنا تخين كنا نربعه في الصيف فنجعلها تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغهم عنى أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية؛ وإني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأبلغن بالترجية<sup>(٤)</sup> وإنما مثلي ومثل صاحبي كمثلثة سلخوا طريقا فمضى الأول وقد تزود زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

هكذا كان شأن عمر رضى الله عنه في العفة والقناعة والرضا بالكفاف مما يسد الجوع ويستريح العرى . وروى في المناقب عن الحسن قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة وفي المناقب أيضا عن أبي عثمان النهدي قال : رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأدم (جلد) أحمر . وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه وقال : إنما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره .

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبست ثوبا هو ألين من ثوبك هذا وأكلت طعاما هو ألين وأطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير ، فقال إني سأخاطبك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش ، فما زال يذكرها حتى أبكها .

(ثانيا) - جاء في (كنز العمال) عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار : أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا ، فقال بشير

(١) قرية السمن الصغيرة .

(٢) طرية .

(٣) ألين .

(٤) قال في القاموس : تبلغ بكندا ا كتنفى به . والترجية والرجاء بمعنى واحد : وهو ضد اليأس .

ابن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح (وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل) فقال عمر: أتم إذن أتم إذن (استحسانا لقولهم). وفي المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي قال: قال عمر رضي الله عنه وهو على المنبر: أنشدكم الله لا يعلم رجل مني عيبا إلا عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تدبيل بين البردين وتجمع بين الأدمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقي الله. وقوله تدبيل بين البردين أي يلبس قميصا ويخليه ويلبس غيره. وذكر بعض المؤرخين أنه خطب يوما فقال: أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه، فقام رجل فقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

(ثالثا) - قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر بن الخطاب فلقه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فإنه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فحقيق بها رأسه فقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني. قال فانصرف الرجل وهو يتذمر قال «أي عمر» على الرجل «أي ردوه علي» فألقى إليه الحففة. وقال امثل «أي اقتص بمثل الضربة» فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك؛ قال ليس هكذا أما أن تدعها لله إرادة ما عنده أو تدعها لي فأعلم ذلك، قال أدعها لله قال «أي الأحنف» فانصرف ثم جاء يمشى حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال «يخاطب نفسه» يا ابن الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضرته ماتقول لربك غدا إذا أتيته؟ قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبه حتى ظننا أنه خير أهل الأرض.

(رابعا) - من إنصافه للرعية، ماروى أنه أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم، قال عدت معاذا. قال سأبقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالتقدم عليه ويقدم بابه عليه فقدم، فقال عمر ابن المصري خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصري ضع على صلعة عمرو: قال يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمر: منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتي (يعني) المصري.

(خامسا) - ومن معاملته لأهل الذمة وشفقته عليهم ما جاء في نفس هذا الكتاب وهذا نصه: «ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياهم للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامهم بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوى أمانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوى الرأي والبصيرة فأرسل إليه وفدا فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلما أو حيفا فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم.

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء في (كنز العمال) أن عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال: ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شيتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

(سادسا) ومن حسن سياسته تقدمه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من أربعة أشهر وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقنى أن لا خليل ألاعبه  
فلولا حذار الله لاشيء مثله لرحز من هذا السرير جوانبه

فكتب عمر إلي عماله أن لا يغيب أحد بالغزو ونعم الرأي .

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك ، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم  
ابن عمير قال : كتب عمر بن الخطاب : ألا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحدا الحد حتى يطلع الدرب لثلاث تحمله  
حمية الشيطان أن يلحق بالكفار .

ومن سياسته أنه كان يجبس عن العمل كثيرا من كبار الصحابة فمنهم من كان لا يستعمله خوفا على دينه  
من أن يندسه بالولاية ، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أبي بن كعب لعمر بن الخطاب  
مالك لا تستعملني ؟ قال أكره أن تدينس دينك .

ومنهم من لا يستعمله خشية أن يحمل على رقاب الناس أو خشية أن تحدته نفسه بالإمارة إذا بعد عن  
مراقبته وهؤلاء هم بنوهاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة ففي (مروج الذهب) للسعودي عن  
عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال يا ابن عباس : إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير  
قليل وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل ؟ قال إن  
أعمل حتى تجربني بالذي في نفسك ، قال وما تريد إلى ذلك . قال أريده فإن كان شيء أخافه على نفسي خشيت  
منه عليها الذي خشيت وإن كنت بريئا من مثله علمت أني لست من أهله فقبلت عملك هنالك فإنني قلما رأيت  
أو ظننت شيئا إلا عاينته ، فقال يا ابن عباس إنني خشيت أن يأتي على الذي هو آت وأنت في عملك فتقول لهم  
إلينا ولا لهم إليكم دون غيركم . إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم . قال ( أي  
ابن عباس ) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك ؟ قال ( أي عمر ) والله ما أدري أضن بكم عن العمل فأهل  
ذلك أتم أم خشى أن تبايعوا بمنزلكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد قرعت لك فما رأيك ؟ قال : ( أي ابن  
عباس ) أراني لا أعمل لك ، قال ولم ؟ قال إن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك قال : فأشر  
علي ، قال إنى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك .

(سابعاً) جاء في (كنز العمال) عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط  
عليهم أن لا يركبوا برذونا ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس إن فعلتم شيئا  
من ذلك فقد حلت بكم العقوبة . ثم يشيعهم ، فإذا أراد أن يرجع قال إنى لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على  
أعشارهم ولا على أبشارهم (١) ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسّموا  
فيهم فيأثم وتحكموا بينهم بالعدل ، فإن أشكل عليكم شيء فارفعوه إلى الأفلان تضرّبوا العرب فتدلوها ولا تجمروها (٢)  
فتفتنوها ولا تفتلوا عليها فتجرموها ، جودوا القرآن (وفي رواية) وأقلوا من الرواية .

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال ، ففي (الناقب) لأبي الفرج بن الجوزي  
عن ابن سعد قال : كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحتم

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم .

(٢) قال في القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الأرض تجمعوا إلى أن قال والجيش حبسهم في أرض

العدو ولعله هو المراد :

في أبيات يقول في ختامها :

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال : نعم والله إنه ليسوءني ، من لقيه فليخبره أني قد عزلته ، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئا مما قلت ولستكن كنت امرأ شاعرا وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت . وفي رواية عن عثمان الخزامي عن أبيه قال : لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان بن نضلة « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب . وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » أما بعد فقد بلغني قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله إنه ليسوءني وعزله .

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه . ومن هذا ما رواه الطبري أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال ، فقال له ما هذا يا عتبة ؟ قال مال خرجت به معي واتجرت فيه ، قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه ؟ فصيره في بيت المال .

وروي أن خالدا لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم انتجمه من العراق رجال منهم الأشعث ابن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب إلى أبي عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادر على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحدا وترك له الآخر .

( ثامنا ) - شاطر عمر سعد بن أبي وقاص على ماله ، وشاطر أبا هريرة ولما أبي أن يشاطره ضرب به ، وصادر غيرهم أيضا ورد أموالهم لبيت المال .

( تاسعا ) - وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال : قال عمر بن الخطاب : لو استقبلت من أمري ما استقبلت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين .

( عاشرا ) - ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلظ القلوب ما جاء في ( كنز العمال ) عن أبي عثمان النهدي قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلا من بني أسد على عمل نجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله ، فقال الأسدي : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبلت ولدا قط ، قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة ، هات عهدنا لا تعمل لي عملا أبدا .

( حادي عشر ) - تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدى عليه فقال : اللهم إني لأحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم ( أموالهم وأجسامهم ) كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دوني ثم أقاده منه ( أي أخذ له القود ) .

وقال المغيرة بن شعبه وذكر عمر فقال : كان والله له فضل يمنعني أن يخذع وعقل يمنعني أن ينخدع . في كنز العمال عن طاوس أن عمر قال : أرأيتم ان استعملت عنديكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما علي ؟ قالوا ، نعم قال لا حتى أنظر في عمله أععمل بما أمرته أم لا ؟

وفيه عن عمر قال « الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الإمام رفعوا » ( أخرجه

ابن سعد ) .

(ثاني عشر) - (حكاية عمر مع جبلة بن الأيهم ملك غسان) فإنه لما أسلم ووفد على عمر ابن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترخيب وبينما هو يطوف يوما وطىء على إزاره أعرابي من بني فزارة فصر به على وجهه فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة؟ قال لا، قد جمع بينكما الإسلام، فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع.

(ثالث عشر) - ما ذكره الطبري في تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند في أخبار سنة ٢١ قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه، فيما بين ترأسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم مادهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدى في نفر فقال عمر إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد، وإيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا (يعنى الفرس) بكم، نبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم والأعاجم في الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذين يقتص آثار من شكى زمان عمر<sup>(١)</sup> فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه في السر وليست المسئلة في السر من شأنهم إذ ذاك. وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا لا نعلم إلا خيرا ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه إلا من مالا الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءا إلى أن قال الطبري وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردد عمر وخشى إذا أبقى سعدا على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطا وسأله من خليفتك على الكوفة؟ فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره.

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقبا لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل في أمرهم إذا جاءت شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فإن ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله.

(رابع عشر) - كان رضى الله عنه لا يحب أن يفرق بين عماله في المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القوى والضعيف. أخرج ابن جرير الطبري عن الأسود بن زيد قال: كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول هل يعود مرضا كم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنع به بالضعيف وهل تجلس على بابيه فإن قالوا لا عزله.

(خامس عشر) - لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حال النمة في ولاية البصرة وصرفه كتب معه كتابا إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل النمة، هذه صورة (عن تاريخ الطبري).

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لعذر يكون منكم أو بغى، فإنكم إنما أدرتكم بالله ما أدرتكم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصرًا.

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد.

وبلغه مرة : أن حرقوصا عمله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه والجبل كيشود يشق على من رامه فكتب إليه ماصورته نقلا عن تاريخ الطبرى في حوادث سنة ١٧  
أما بعد : بلغنى أنك نزلت منزلا كيشودا لا تؤتى فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد  
وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك  
وتذهب آخرتك .

(سادس عشر) - وأخرج عن أبى فراس قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس إني والله  
ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبقاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم  
(وفى رواية : ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى فولدى نفس  
عمر بيده لأقصنه منه (١) فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرايت إن كان رجل من أمراء المسلمين  
على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه . قال إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصه  
منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلواهم ولا تجمروهم  
فتفتنواهم ولا تمنعواهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلواهم الغياض فتضيعوهم .

وعن أبى رواحة قال : كتب عمر بن الخطاب إلى العمال ، اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبيهم  
كبعيدهم وبعيدهم كقريبيهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق  
ولو ساعة من نهار .

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله : اللهم إني لم أبعثهم ليضربوا أبقارهم ، من ظلمه أميره فلا إمرة  
عليه دونى . ومع كل هذا التشديد على العمال فإنه رضى الله عنه كان دائما قلما على الرعية خائفا من أن يجار  
عليهم بأمر لا يصله خبره لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية  
ويقضى حاجاتهم . فقد أخرج الطبرى عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب : لئن عشت إن شاء الله  
لأسيرن فى الرعية حولا فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى أما عملهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون  
إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين  
ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها  
شهرين ، والله نعم الحول .

(سابع عشر) - كان من عماله سلمان الفارسى وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد  
والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار يبرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر  
بالمداين قال له سعد بن أبى وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله (٢) عند همك إذا هممت وعند لسانك إذا حكمت  
وعند يدك إذا قسمت ، فجعل سنان يبكى فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول « إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا الخفون » وأرى هذه الأساودة (جمع سواد وهو المال الكثير)  
حولى فنظروا فلم يحدوا فى البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة .

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى فعذل على ذلك وقيل

(١) يعنى يمكن خصمه من الاقتصاص منه ، أو يقتص له منه .

(٢) لعل الصواب : قد كنت تذكر الله .

له إنك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله ، فقال عمر اللهم لاتقل فراستي فيهم ، ماذا تشكون منه ؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحدا بليل وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا ، فقال عمر على به فلما جمع بينه وبينهم ، فقال ما تنقمون منه . قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار فقال ما تقول ياسعيد ؟ فقال يأمر المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجبني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم ، قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا لا يجيب بليل ، قال قد كنت أكره أن أذكر هذا إنى جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم ، قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا له يوم في الشهر لا يخرج إلينا . قال نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسى ، فقال عمر الحمد لله الذي لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيرا . ثم إن عمر بعث إليه بألف دينار وقال استعن بها ، فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه قالت بلى فصرها صررا ثم دفعها إلى من يشق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وبهذه إلى يتيم بنى فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه إلى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادما ، فقال سيأتيك أحوج ماتكونين إليه . انتهى من كتاب [أشهر مشاهير الإسلام] .

ها نحن أولاء اللهم شاهدنا جميل صنعك وبديع إتقانك في عوالمك المشاهدة والمسموعة والتي أوحيت بها للحيوانات وما علمت به الإنسان وها نحن أولاء نقرأ آثار (سورة الشورى) في آخر الأديان المنزلات إلى الأرض . كل جمال في كوكب أوزهر أو وجوه حسان في نوع الإنسان . وكل نظام في جماعة الحيوان أو عدل على يد نبي أو خليفة أو صالح داخل تحت آية « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض »

أما صراطك الذي في السموات والأرض ، فهذا التفسير قد ألم بصور كثيرة منه . وأما الصراط المستقيم الذي يدعو إليه رسولك ، فبعضه ماجاء في هيئة الشورى المقدمة أيام النبوة والخلافة .

اللهم إن هذه الأعمال الشريفة ، والمعاني المنيفة ، لم يبق عند كثير من أمم الإسلام إلا أخبارها ، اللهم إني بينت باعانتك وأنت الحكيم العليم ، فاشرح صدور المسلمين لدرس تلك الأعمال الشريفة ليرجعوا مجددهم ويقوموا بنظام أمهم ويساعدوا الأمم على النظام العام .

هاهم أولاء المسلمون بعد ٣٠ سنة وهي التي كانت فيها الخلافة أخذوا يرجعون القهقري تدريجا فما كاد عثمان رضى الله عنه يقتل حتى قرعت القارعة واشتد الخصام والنزاع على الخلافة ، نعم كان ذلك باجتهاد من أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم فأما بعد ذلك فإن الأمر كله راجع للملك وحده ، وأخذ بنو أمية وبنو العباس يتنافسون على الخلافة ، وأدخل الآخرون الفرس معهم لإذلال العرب فذهبت ريحهم على ممر الأيام ، ولا زالت الأمة تتقهقر بالتدريج حتى يومنا هذا .

لا ملاذ ولا ملجأ للمسلمين إلا أن يرجعوا لنفس النبوة ونفس الخلافة فيدرسوها درسا تاما مفصلا . ها نحن أولاء لم نجد في أمننا الإسلامية حولنا ولا في أمم أوروبا حكومات تشاكل حكومات الخلفاء الراشدين .

تبين من كلام عمر مع ابن عباس أنه يضمن بالمسلمين أن يكونوا تحت إمرة من يتولى الخلافة بحق النسب خفية أن تترك الشورى ويحل النسب محلها وذلك الذي خاف منه عمر رضى الله عنه قد حصل عند الأمويين

وعند العباسيين ، فالنسب صار أصلا للخلافة ، وعمر يقول : كلا . إنما يكون بالشورى ، شاطر عمر بعض العمال في أموالهم وكره من آخر كما تقدم ما أعطي من المال للناس ودم ذلك سواء أكان من ماله هو أم من مال الأمة ، وعده على الأول إسرافا ، وعلى الثاني خيانة ، فيها هو ذا تاريخ ملوك الإسلام قديما وحديثا إنهم جميعا إلا قليلا منهم مسرفون في مال الأمة إسرافا فاحشا ، وكان الشعراء لا يعيشون إلا من عطاء الأمراء والملوك وكل هذا مال الأمة ولا نكير عليهم ولا رقيب .

قتل المسلمون عثمان رضى الله عنه بما ظنوا من ميله لقومه بى أمية ، وبما اتهم به مروان بن الحكم من تزوير كتاب فيه إراقة دم لمسلم ، وهذه لا تبلغ معشار عشر ما ابتليت به أمم الفرنسيين والإنجليز والألمان فعصوا ملوكهم ، فلقد علمت كيف ظلم الإنجليز ملوكهم ظلما فاحشا ، وكيف ظلم رجال الكنيسة والأشراف الأمة الفرنسية ، فكان لا يدفع الضرائب إلا الطبقة الثالثة وهى أيضا لاحق لها فى أن تمنع الطائفتين الغالبتين عن إفساد الزرع بصيد الأشراف فيه كما تقدم .

أيها المسلمون : هاهو ذا كتاب الله ، وهاهى ذه سنة رسوله والخلفاء من بعده ، فوالله لاجحة لكم بعد هذا ، قامت حجة الله على أمراء المسلمين وعلى العلماء وعلى العامة ، أما العلماء فبنشر الفكرة بحيث تصبح كالعقيدة الجوهريّة فى الإسلام ، فوالله إن خطاب المسلم لربه فى الصلاة إذ يقول «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» يتضمن ما تقدم عن الخلفاء ، إذن هذا الصراط وهو العدل والشورى هو «صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض» المذكورين فى أول هذه السورة «حمّ عسقّ» إلى قوله «له مافى السموات ومافى الأرض» الخ . عدل الخلفاء الراشدون لإشراق نور النبوة عليهم ، ولكن ذلك النور أخذ إشراقه يتضاءل على من بعدهم ، وخير لعلماء الإسلام وملوك الإسلام أن يدرسوا مع السيرة النبوية والخلافة نظام العالم أيضا . ( كالذى نشرناه فى هذا التفسير ، فذلك مفتاح لمعرفة نور النبوة فى مستقبل الزمان ) .

وأما الملوك فعليهم الاجتهاد فى اتباع سيرة الخلفاء ، وأما العامة فعليهم الانقياد للوالى النافع ونبذ الظالم وذلك لا يكون إلا بتعميم التعليم ، وأنتم يا أمم الأرض المحيطين بالإسلام ، هاهو ذا نظام الإسلام والأرض الذى أبدعه الله وهو الذى ألهم الحشرات ( وكل حيوان يعيش بهيئة جمهورية ) كيف تنظم الجماعات وتعطى كل ذى حق حقه ، فأنتم محاسبون جميعا على ماترون من هذا النظام ، أنتم جميعا بعد الموت سترون النقص فى نفوسكم وهذا النقص نفسه عذاب لكم ولا بد لكم من قطع عقبات فى عوالم أخرى حتى تصلوا إلى تمام النظام ، وذلك بأمرين : علم تام بهذه الكائنات ، وإخلاص تام للجماعات بحيث تصبح نفس الإنسان فى المساعدة لأخواتها بعد التروى والتفكر أشبه بما طبعت عليه النحل فى جماعتها والنمل فى قريتها وهناك يكون الوصول إلى الله والنظر إلى وجهه الكريم وتكون السعادة التامة ، أما قبل ذلك فلا ، هذا ما عنى لى اليوم كتبتّه فى تاريخه ، والحمد لله رب العالمين . الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٣١ م - ٢٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ .

## عدل عمر وإنصافه

جاء في (كنز العمال) في كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) مانصه :

كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة ، فقال عمر : اجعل بيني وبينك رجلا ، فجعل زيد بن ثابت فأتيه ، فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال هاهنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت في حكمك ، ولكن أجلس مع خصمي ، فجلس بين يديه ، فادعى أبي وأنكر عمر ، فقال زيد لأبي : أعف لأمر المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألهما لأحد غيره . فخاف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء . وفيه عن عبد الله بن حكيم قال : قال عمر بن الخطاب : ( إنه لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه ) اهـ .

## جمال الحكمة والعلم

في آية « وأمرهم شورى بينهم » وآية « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى »

اللهم إنك أنت الحكيم العليم ، أنت الرب الشهيد . يا الله ، ما أجل صنعك في السموات والأرض ، وما أبدع نظامك في العقول الإنسانية ، حارت الأمم الإسلامية ياربنا في دين الإسلام . هذا الدين الذي أنزلته منذ ١٣ قرنا ونصفا . المسلمون يرون في هذه السورة أنك تحب إليهم الشورى . ثم هم يجدون الأمم الإسلامية أكثر حكوماتها جاهلة غافلة . فيقرءون سيرة عمر فيعملون إلى أي حد وصل العمل بهذا الدين أيام سنى الخلافة فيفكرون في السير على منواله . ويرون في هذه السورة « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » ويرون المفسرين مختلفين في تفسيرها كما قدمناه ، ويجدون آية أخرى تؤيد أن القربى هي التقرب لله كما قدمناه إذ يقول : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ولكنهم يجدون تفسير الجمهور وهو أن المراد بالقربى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم هو المشهور بين الناس ثم يرون لآل البيت مقابر جعلت محل الإعظام والإجلال . وأخذ الناس يقدمون لها في بعض أقطار الإسلام النذور ، يريدون بذلك قضاء الحوائج ، وفوق ذلك يرون كثيرا من العلماء في الإسلام يقرون ذلك ، فهم في شدة الحيرة من ذلك . فهذه الحيرة أفضت مضاجعهم ، وفرقت وحدتهم ولكن رحمتك التي وسعت كل شيء تداركت الأمة بمثل ما جاء هنا في محاوراة ابن عباس مع عمر في سبب عدم إسناد العمل إلى آل البيت ، وقول الثاني للأول كما تقدم : « إني خشيت أن يأتي على الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم إلى ولا هلم إليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم » ثم أشار عمر إلى أن سبب ذلك خشية أن يبايع الناس آل البيت بمنزلتهم فيقع العقاب ، ولا بد من عتاب . ثم قال : فقد قرعت لك فما رأيك ؟ إلى آخر ما تقدم .

اللهم إنك أنت الحكيم العدل ، وأنت الرحيم . ظهر السر الذي كان محبوبا ، ظهر في ثنايا الكتب المتروكة . أنت أمرت بالشورى ولكن الناس يتأثرون بدوى البيوتات والمجد والشرف ولا يراعون العلم

والقوة ، وكثيرا ما ولوا طفلا صغيرا لمنزلة والده الراحل إلى ربه . فإذا صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك ولاية بعض بني هاشم خيفة أن يبايعوا الناس بمنزلتهم . وإذا صح أن عمر فعل ذلك أيضا وقد ظهر صدق فراسمته إذ تقلد ابن عباس ولاية لعلى رضى الله عنه ، وأخذ ما في بيت المال لنفسه فأحزن أمير المؤمنين عليا بذلك فضلا عما يلقاه من معاداة معاوية بالشام . أقول : إذا صح هذا فقد ظهر الحق واستبان السبيل .

اللهم لاحجة للمسلمين في مخالفة الحقائق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فهاهنا أمران : (أولا) الإمارة لا يجوز أن تكون إلا بالكفاءة وهذه يعرفها أهل الحل والعقد . والعبرة بالأغلبية . (ثانيا) : إكرام آل البيت رضى الله عنهم ، إن هذا الإكرام لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ، ولكن هذا الإكرام ليس معناه (أولا) أن نولى أحدهم ولاية وفي الأمة من هو أجدر منه ونضيع المسلمين ونطمع فيهم الكفار بهذا السبب ، ولعمري لأن تحفظ بلاد الإسلام من عدوان الأعداء وآل البيت محترمون فيها خير من أن يأخذها العدو فيعم النذل آل البيت وغيرهم (ثانيا) أن تنذر لهم النذور فنقول : إن شفي مريضى أو جاء غائبى فإنى أضع فى صندوق السيدة زينب رضى الله عنها أو فى صندوق سيدنا الحسين رضى الله عنه كذا كذا من النقود فإن هذا من أوضاع الجاهلين من أمم الإسلام

اللهم إن قراء هذا التفسير المغمى به لا يعوزهم إيضاح هذا المقام ، ولكن سأقل لهم ماجاء من أقوال الشيخ الدباغ لأنه من كبار الأولياء والصالحين وبقوله يحتاجون على كل من ادعى الولاية من المسلمين ، أولئك الذين يقولون : [ إن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر ] فهذه خديعة كاذبة خاطئة ، فانظر ما قاله وهذا نصه :

قال ابن المبارك : [ وسألته رضى الله عنه ؟ لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل ؟ فترى الواحد إذا جهد فى يمينه يقول : وحق سيدى فلان كسيدى عبد القادر الجيلانى أو سيدى يعزى أو سيدى أبى العباس السبى وغيرهم نفعنا الله بهم . وإذا أراد أن يحلف أحدا ويؤكد عليه فى يمينه يقول : احلف لى بسيدى فلان ، وإذا أصابه ضر وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكفون الناس صرح باسم سيدى فلان وهم فى ذلك كله منقطعون عن الله عز وجل ، وإذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعا ، فما السبب فى ذلك ؟ فقال رضى الله عنه : أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمدا لقوة الظلام فى الدوات وكثرة المنقطعين عن الله عز وجل فصارت ذواتهم خبيثة ، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالفهم سبحانه أن تكون ذاته ظاهرة لأنه تعالى يحب من دعاه إذا انقطع إليه باطنا وقت الدعاء ، وإجابته تكون بأحد أمرين : إما أن يعطيه ما سأل ، وإما أن يبين له سر القدر فى المنع إذا منعه وهذا لا يكون إلا للأولياء ولا يكون للبعداء المحجوبين ، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمرا ومنعها ولم يطلعها على سر القدر فى المنع لربما وقع لها وسواس فى وجود الحق سبحانه فتقع فيما هو أدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها ، فكان من المصلحة ما فعله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين لأنه إذا وقع لهم وسواس فى كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم . قال رضى الله عنه : وبما يدل على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام فى ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره بعشرين موزونة مثلا وينهب بها إلى ضريح ولى من أولياء الله تعالى فيطرحها عنده ليقضى له حاجته ، وكم من فقير محتاج يلقاه فى الطريق ويطلب منه متاع الله فى سبيل الله لوجه الله فلا يعطيه درهما واحدا حتى يبلغ للولى فيطرحها عند رأسه ، وهذا من أقبح ما يكون ، وسببه أن الصدقة لم تخرج

لله عز وجل وعظمته وكبريائه ووجهه الكريم ووجوده العظيم ، إذ لو خرجت لذلك لدفعها صاحبها لكل محتاج لقيه ؛ لكن لما كان الحامل عليها والداعى إلى إخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه وحظوظه خص بها موضعا دون موضع لظنه أن النفع يتبع ذلك الموضع وجودا وعندما قال رضى الله عنه : وقد رأيت في هذا اليوم ما أهدى للصالحين من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء فإذا هو من الدنانير ثمانون دينارا ومن الغنم ثلثمائة وستون شاة ، ومن البقر اثنان وسبعون ثورا ، أخرج هذا كله في يوم واحد للصالحين وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم . قال رضى الله عنه : وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها وهي منحصرة في ثلثمائة وستة وستين سببا كلها موجبة لانقطاع العبد عن ربه عز وجل . فقلت : وهل حضر كم الآن منها شيء ! فقال رضى الله عنه اكتب . ( الأول ) : الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله عز وجل . ( الثانى ) : التوسل إلى الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة ، فيقول الزائر : « قدمت لك رجاء الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي » وإنما كان سببا للانقطاع لأن الزائر قلب الواجب وعكس القضية ، فإنه كان من حقه أن يتوسل لله عز وجل بأوليائه لا أن يعكس . ( الثالث ) : زيارة الصالحين وعلى الزائر دين فرض كهدد صلوات وجب قضاؤها عليه فترك قضاءها الذى هو حق الله وفيه نور الله وسره تعالى الذى يرحم به وذهب إلى زيارة صالح ، ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام . ( الرابع ) : الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرهما فيقول في نفسه : « لا أعصى هذا الظالم لأنى إن عصيته قتلتى أو منع رزقي » أو غير ذلك مما يوجب الخوف منه ولو تحقق بوجود الحق تعالى معه وتصرفه فيه وفى ذلك الظالم لعلم أنه هو الفاعل وحده ، لا يشاركه ذلك الظالم ولا غيره فى فعل من الأفعال ، وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى ، وبقدر ما يقوى هذا النظر فى العبد يقوى قربه من ربه تعالى ، وبقدر ما يقل أو ينعدم يكون بعده من الله عز وجل وانقطاعه ( الخامس ) : الطمع فى الظالم فيتقرب إليه لينال منه رزقا ، ولو تحقق بأن الله سبحانه هو الرزاق لم يصدر منه ذلك ( السادس ) : النصرة للكافرين فيلهمهم مصالحهم فى دنياهم بأن يرى لهم طريقا ونحوه فإنه من أسباب الانقطاع عن الله عز وجل . قلت : وما رأيت من نصح ظالما إلا وكانت عاقبة أمره خسرا . ونذكر هاهنا قصة سفيان الثورى رضى الله عنه مع الذى أراد أن يوقظ حرسيا للصلاة ، فقال له سفيان : لا توقظه دعه هذه الساعة نسترح منه ومن شره فيها . ( السابع ) : عدم النصيحة للمسلمين ، فيرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه ، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له ( الثامن ) : استحلاء التعب والمشقة فى طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل ، فمن أحس بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سببا من أسباب الانقطاع . ( التاسع ) : طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر ، وقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب الحلال . وأما من طلب الدنيا بالزور والكذب والفجور والأيمان الحائثة فقد طلبها بمعاصى هى أحس منها أى من الدنيا ، فمن أحس بذلك من نفسه فليتب إلى الله عز وجل فإن الدنيا لا تدرك إلا بما هو أعز منها . ( العاشر ) : أن تكون أعمال العبد وطاعاته بقصد أن يرحمها الله بها وبقصد نفع نفسه وتحصيل أغراضه وحظوظه لا بقصد وجه الله الكريم ووجوده العظيم ، وهذا سبب قد عم أكثر الناس إلا من رحم الله عز وجل جعلنا الله منهم بمنه وفضله . قال رضى الله عنه : ولو لم يخلق الله الجنة ولا ناراً لتبين من يعبد من لا يعبده وكانت عبادة الذى يعبده خالصة لوجهه الكريم ، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده ، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوها فضلوا عن

السبيل ( الحادى عشر ) المعاصى فى حرمت الله تعالى كالمسجد ونحوها فإن العبد لو تحقق بإضافة البيت إلى ربه وقال فى قلبه ( هذا بيت الله ) لم تصدر منه فيها معصية ( الثانى عشر ) اللواط وسنأتى مفسدته وأنه لا مزيد عليها ( الثالث عشر ) ضرب الرجل أمرأته من غير ذنب فلذلك الضرب سبب فى الاقطاع لما لها عليه من الحقوق ( الرابع عشر ) المنة على العيال والأهل بالنفقة فيقول : ( أنفقت عليهم كذا وكذا ) بقصد المنة ( الخامس عشر ) الحسد ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ما فيه من المفسد وأن غالب المعاصى منه . ( السادس عشر ) الإقدام على المعصية مع معرفتها ، وسيأتى إن شاء الله ببيان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذابا يوم القيامة ( السابع عشر ) جمع الدنيا من الحرام . قلت : ولا يتكرر مع الوجه التاسع كما لا يخفى ( الثامن عشر ) عقوق الوالدين : فسمعت رضى الله عنه يحكى عن شيخه سيدي عمر بن محمد الهوارى ، وذكر أنه كان جالسا معه عند السدرة المحررة التى هى خارج روضة سيدي على بن حرزهم فجاءه ولده يودعه وأراد الذهاب إلى الحج فأبى عليه أبوه سيدي عمر . قال : وكان عاقا لأبيه ، فذهب وأبوه غير راض عنه ، فقال لى سيدي عمر : نتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور : أحدها أن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم . ثانيها أنه إذا جلس فى موضع من المواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين فى شىء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه ، وينزع الله تعالى البركة والنور من كلامه ويصير محموتا بينهم . ثالثها أن أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرف لا ينظرون إليه نظر رحمة ولا يرقون له أبدا . رابعها أن نور إيمانه لا يزال ينقص شيئا فشيئا ، فمن أراد الله به الشقاوة والعياذ بالله لم يزل كذلك إلى أن يذهب نور إيمانه ويضمحل بالكلية فيموت كافرا ، نسأل الله السلامة ، ومن لم يرد به ذلك مات ناقص الإيمان أعاذنا الله من ذلك . قال : ونتيجة رضاهم أربعة أمور هى أضداد لهذه الأمور : تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة ، ويحلو كلامه بين الناس ، ويحس عليه أولياء الله تعالى ، ولا يزال إيمانه يزيد شيئا فشيئا والله الموفق . فانظريا أخى هذه المفسدات الأربعة التى فى عقوق الوالدين ، والمحاسن الأربعة التى فى بر الوالدين .

( التاسع عشر ) مخالطة المحجوبين كذوى الرياسات فإن فى ذات اليد المؤمن خيطا من نور يخرج من ثقبه من ذاته يتصل ذلك النور بعطية الحق سبحانه يزيد بمخالطة أوليائه تعالى ويقل بعدمها ويخاف عليه من الاقطاع أصلا ، وانسداد الثقب بمخالطة أرباب الرياسات ، فإنهم برياستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته فتكون تحت أسرهم وفى حكم قبضتهم ، فلا يزال يصغى إليهم بقلبه وقالبه ، ويبقى على ذلك المدة الطويلة ولا يقع الحق سبحانه فى فكره ولا فى خاطره ، فلا يزال كذلك مسترسلا فى أغراضه وانقطاعه حتى تنسد الثقب أصلا والعياذ بالله ، وهذه آفة حاصلة من ذوى الرياسات . نسأل الله السلامة ( العشرون ) التفريق بين الخلفاء الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما قاله الشيخ الدباغ رحمه الله تعالى ، ومن عجب ما ذكره الشيخ الشعرانى فى كتابه المسمى ( درر العواص ) فى هذا الموضوع ، فقد سأل شيخه الخواص ، فقال مانصه :  
وسألته رضى الله عنه : هل أقرأ أو أصوم وأجعل ثواب ذلك لآدم عليه الصلاة والسلام ليكون ذلك وصلة بينى وبينه فى المعرفة فى الآخرة بسبب أعلمته به ؟ فقال : لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبي أو غيره . فقلت له : كيف ؟ فقال لأن الرسول إنما هو واسطة بين العبد وبين الرب فى الدعوى إلى الله لا إلى نفسه ، فاذا وقع الإيمان الذى هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله ولم يبق للرسول إلا الحكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع كما فى حال المناجاة فى السجود سواء ؛ فنفس الرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون

الله تعالى فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك كما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» الحديث . انظر يا أخى إلى غيرة الحق تعالى على عباده لقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم «وإذا سألتك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذ دعان» فأعلمنا تعالى بأنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى واسطة لنا فى كل خير مع أنه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله وبقوله «إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله» ومع ذلك قال له «ليس لك من الأمر شئ» أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم وأثبتته معه فى البراءة عن المثلية وعن مشاركة أحد منهم له فى كماله أو رتبته صلى الله عليه وسلم فافهم والله أعلم . انتهى كلامه .

### درة يقيمة

حضر صاحبى الذى اعتاد أن يحدثنى فى هذا التفسير . فقال : هل تسمح لى أن أنقد هذه المقالات . فقلت حبا وكرامة . فقال : أين الثريا وأين الثرى ؟ ذكرت سيرة عمر رضى الله عنه لمناسبة آية الشورى وأتبعها بأقوال الشيخ النباغ ، فأين المناسبة بينهما ؟ فقلت يصاح الأمر سهل ، إن فى السورة آيتين وهما آية الشورى وآية المودة فى القربى وبينهما صلة ما . ألاترى أن المسلمين أبوا أن يسيروا بالشورى بعد سنى الخلافة وهى ٤٠ سنة كما تقدم ، ولقد ظن الناس أن الانتساب لعظيم أو لملك كاف ، وهذا فى الحقيقة انحراف عن الجادة فى الخلافة ، فأية المودة فى القربى باعتبار التفسير المشهور جعلت سببا فى إبطال الشورى فى زمان ما من أزمان التاريخ الإسلامى ، ولقد تغالى الناس فى التذلى والتنزل والتغاضى عن الحقائق الإسلامية حتى نذروا النذور لمن مات من الأولياء شرفاء أو غير شرفاء ، فلذلك ذكرنا أقوال الشيخ النباغ ليظهر للمسلمين الحقائق التى يقول بها علماء الإسلام وظهرت على لسان صالح من صلحاء الإسلام . ولو أنهم أدركوا الحقائق لرجعوا إلى ربهم فى صغيرات الأمور وكبيراتها والله يقضى بالحق . إن الذى أضل كثيرا من المسلمين هو الجهل الفاضح ، ولعلك تذكر ما قدمته من حديث عمر مع ابن عباس : فقال : أذكره ولكن أريد ما هو أوضح . فقلت اسمع ماجاء فى كتاب ( أشهر مشاهير الإسلام ) وهذا نصه :  
ومن عجيب فرائسه التى كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه فى العقد . قال : قال أبو بكرين أبى شيبة : كان عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكارب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط ، فقال له يوما كدت أستعملك ولكن أحشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استعمله على البصرة فاستحل الفىء على تأويل قوله الله تعالى «واعلموا أن ما غنمتم من شئ فأن لله خمسة وللرسول ولدى القربى» واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل . هكذا كان مبلغ فرائسه عمر رضى الله عنه خصوصا فى بنى هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوما لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذى كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملاكى لا يحدثوا أنفسهم بشئ من الإمارة لأنها غير النبوة ، ومن ذلك ما ذكره فى العقد أن العباس رضى الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له : «يا عم نفس تحمىها خير من ولاية لا تحمىها» .

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع إلى الإمارة لا يستعمل أحدا منهم كما لم يستعملهم رسول الله ﷺ وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم ، وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مرارا ، ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته إذ قال له : « يا ابن عباس إني خشيت أن يأتي على الذي هو آت وأنت في عمرك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم » .

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعد إذ قضا عصورا طويلة في مكافئة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشباع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية ، وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الإسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم . على أنهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرف أسلافهم عن الإمارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا إذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع إلى الخلافة سلكوا إليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الأنظار إليهم ساعية بنفسها لإسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يوفق إلي جمع كلمة الأمة على الرضا بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وإنما هو لما وقر في نفوس الأمة يومئذ من أن الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الإدلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الإسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والإخاء التي حشرهم إليها الإسلام بقوله تعالى « إنا المؤمنون إخوة » ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فبتوهم أن يسلمهم بنو هاشم شيئا من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم ، كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم ، يدلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس . قال : « ماشيت عمر بن الخطاب يوما فقال لي : يا ابن عباس ما يمنع قومك منكم وأتم أهل البيت خاصة ؟ قلت لأدرى ، قال : لكنني أدرى أنكم فضلتموهم بالنبوة ، فقالوا : إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئا وإن أفضل النصيين بأيديكم بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم أنف قريش ( يريد الخلافة ) انتهى ما أردته من كتاب ( أشهر مشاهير الإسلام ) والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : لقد وضع المقام وضوحا تاما ، فالحمد لله ، فإذا تقول في الأمم الإسلامية الحاضرة ؟ هل ظهرت في بعضها بوادر الشورى . فقلت : إن هذا هو الزمان الذي سيظهر فيه نور النبوة وتظهر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة عمر وغيرهما ، وهناك تبدل الأرض غير الأرض ، والمسلمون مقبلون على هذه الحال طوعا أو كرها ، والذي منعه من ذلك هو الجهل ، أما اليوم فإن الله قد أذن بانتشار العلم في الإسلام ، وستكون الحكومات كلها شوروية ، فهل لك أن تسمع ما جاء في جريدة الأهرام يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

## الحياة النيابية في أفغانستان

جلالة الملك نادر شاه يمنح البلاد مجلسا نيابيا  
حفلة الافتتاح وخطاب العرش

نشرنا في الأهرام الغراء منذ أسبوع كلمة عن جلالة الملك نادر شاه ملك أفغانستان الحالي بمناسبة تتويجه واليوم جاءنا البريد الأفغاني طارحا بوصف حفلة افتتاح المجلس النيابي الجديد الذي أنعم به جلالة الملك نادر شاه على بلاده التي تعشق الحرية وتتفانى في الذود عن حياضها من قديم الزمان رغبة في أن تسود العدالة والرفاهية في تلك البلاد .

وقد ألقى جلالته خطابا ضافيا بحث فيه عن حالة المسلمين وقارن بين تاريخهم الماضي وتاريخهم الحاضر بشيء من الإيجاز وخرج من بحثه بنتيجة هامة هي منح بلاده الحياة النيابية الصحيحة لتمكين في صراحة وإيمان من إدارة شئونها بنفسها . وقد قامت الأمة الأفغانية المحيدة على بكرة أبيها تهمل وتكبر لهذا الحادث السعيد . وإنما لا ترى مندوحة من أن ننشر للقراء الكرام وصف حفلة الافتتاح كما شرحتة الجرائد الأفغانية وترجمة خطاب العرش الكريم . قالت جريدة ( إصلاح ) التي تصدر في كابل « كان يوم ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ يوما مشهودا في كابل تطاولت إليه أعناق الأفغانيين وتطلعت إليه أبصار الشاهدين منهم والغائبين لأنه فاتحة عهد جديد وغرة عصر سعيد، وهل هناك أعظم من نعمتي الحرية والشورى المليية فجدير بهذا اليوم أن يحتفل به الأفغانيون احتفالا جديرا بهم وهم الأبطال الأماجد .»

— ففي هذا اليوم غصت ردهة قصر جهل ستون ( الأربعين عمودا ) بمجموع وكلاء الأمة وعظماؤها والكثيرين من العلماء والموظفين العسكريين منهم والمليكين وذلك لمشاهدة الاحتفال بافتتاح المجلس النيابي الأفغاني الذي يعد أكبر حادثة تاريخية في أفغانستان في العصر الحاضر لأن أفغانستان التي نشأت من القديم على حب الحرية كانت محرومة من نعمة الشورى بطريقة رسمية تخضع لها الحكومة المركزية وتكون رهن إشارتها ، وقدما كان القول الفصل فيها هو للحاكم الأعلى لا رقيب عليه ولا حسيب ، وكثيرا ما تسبج عن ذلك مضار لا تحصى وأخطار كبدت الأمة ضحايا كثيرة وخسائر جسيمة ، وفي الوقت نفسه يجدر بالحاكم العظيم خصوصا في بلد كأفغانستان أن يعول على عضد شعبه ورضاه بدلا من أن يستقل برأيه الشخصي ويتبع هواه ويستخر من مواطنيه ولو تصفحنا تاريخ أفغانستان لوجدنا أن الحكام الذين ساروا وفق رغبة الأمة كانوا في مركز أعظم ضمانة وأكثر حرية وأكبر كرامة وأبعد نفوذا وبالعكس فإن الذين فسقوا عن أمر الأمة واستهانوا بكرامتها طردوا ولم يجدوا لهم عوناً ولا نصيراً .

وهاهو جلالة الملك نادر شاه الذي نفخ في بلاده تلك الروح العالية التي نشلتها من الكارثة التي كادت تؤدي بها إلى الهلاك وتحمل في سبيل ذلك كل ما يتحمله المخلصون مستعينا في ذلك بما وهبه الله من قوة الذهن وسعة العقل وحسن البصيرة، يفتتح عهده السعيد باعطاء البلاد حريتها التامة وحقوقها الكاملة فأنشأ المجلس النيابي ( لويه جرگه ) رغبة في جمع كلمة الأمة وتوحيد الوجهة الوطنية توحيدا صادقا لخدمة الصالح العام كما يتضح من خطاب العرش وهذا ترجمته :

(أعزائي المحترمين : أحمد الله الذي أتاح لنا هذا الاجتماع الأخوي بعد أن قاسينا ما قاسينا في سبيل تبديد تلك الشدائد والمخاوف التي كانت تحيط بنا وبالبلاد من كل جانب ، فاجتماعكم أيها النواب في هذا المجلس المقدس

وأتم على أمم ماتكونون اتحاداً وأخوة إسلامية عملاً بقول الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » إنما هو المقصد شريف وهو ترقية أفغانستان والعمل على إسعادها ورفاهيتها وتقوية أركانها وفقاً للأمر الإلهي القائل (وشاورهم في الأمر) « وأمرهم شورى بينهم » لهذا اجتمعتم في مكان واحد وفقاً لرغباتنا الصادقة، وإني أشكر الله تعالى على ذلك شكراً عظيماً وأحبيكم من صميم قلبي وأتمنى أن تكونوا أتم وكافة أفراد الأمة بخير وعافية، وبعد فإنكم تعلمون أن النجاح والسعادة في الحياة هما في الاتفاق، كما أن الخراب والعبودية في النفاق، وقد شاهدنا ذلك ببيوتنا في مدة لا تتجاوز السنة فتأكدنا أن النفاق عذاب إلهي كما أن الاتفاق رحمة سماوية وتفصيل هاتين الحقيقتين واضح في التاريخ في كل زمان ومكان وأثرهما يعرفه كل إنسان .

وإنكم تفهمون لماذا وكيف انتشر الإسلام وعم الآفاق ونشر ألوية الأمن والسعادة البشرية والترقيات العصرية خفاقة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن سلك مسلكهم؟ لم يكن ذلك بقوة السيف وحده وإنما بالأصول الصحيحة والقواعد السليمة التي جذبت الجماعات المختلفة والأقوام المتباينة إلى حظيرة الدين الحنيف الذي انتشر بقوة البرق الحاطف أينما حل وسار، ومن أكبر دواعي نجاحه انعدام الفوارق الجنسية والاجتماعية بينهم، فالمسلمون إخوة مهما اختلف لونهم وتعددت أجناسهم وتباينت أوضاعهم فلا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى فهل تراهم تمسكوا بأهداب المساواة وحافظوا على الشورى في أمورهم وأعمالهم، إن رقى المسلمين في الماضي لم يكن له من سبب الإجماع حفظهم على هذه الصفات السكريمة والمزايا الحميدة فلما انحرفوا عنها وهي في الحقيقة أساس الرقي والتقدم سقطوا إلى الحضيض، لقد عرفت الدول المتمدينة بعد طول التجارب أن الأصول الإسلامية كالحرية والمساواة والشورى أفضل الأصول وأرقاها ولذا اتخذتها أساساً لحكوماتها بعد أن أراقت في سبيلها الدماء الغزيرة ولم يكن قبل الإسلام حرية بمعنى الكلمة حتى يمكن أن يشير إليها .

ومن أحسن أنواع المساواة في الإسلام مسألة ترتيب الصفوف في الصلاة؛ فالخادم يقف بجانب الملك في حضرة الإله يؤدي الفرض بلا كلفة ولا حرج . ونفس صلاة الجماعة أعظم مثل في المساواة الإسلامية ، ولكن لسوء الحظ فإن الحكومات الإسلامية مالت إلى الاستبداد وعكفت على الإفساد والتفرقة فتأخرت وانحطت حتى أصبح يضرب بها المثل في الذلة والمسكنة .

فما سبب هذا التذني وذلك الترتي؟ ياترى الدنيا عالم أسباب : فإذا كانت الأسس التي تبني عليها الأعمال والاصلاحات مبنية على التجارب الصحيحة والقواعد الثابتة كانت النتيجة في أي زمان ومكان لا شك مفيدة منتجة .

وإذا كانت الأسس غير صالحة والتجارب غير ناضجة جاءت العاقبة وبالاً بلا مراء ، هذا هو القانون الأساسي الذي لا يتبدل ولا يتحول إلى قيام الساعة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ففي الزمن الأول كان المسلمون أهل استقامة وعلم بالسياسة وحزم وشجاعة عملاً بقانونهم الإلهي القويم فوصلوا بذلك إلى ما وصلوا إليه من الرفاهية والسؤدد ، فلما ابتليت الأمة الإسلامية بالملوك الأنانيين والعلماء المفسدين وساءت سيرة الحكام مع انتباز قانونهم المبين وصلت إلى ما هي فيه الآن من العجز والانحطاط .

ومن دواعي الأسف أنه كلما ظهر في هذا العصر رجل بصير حازم غيور على دينه وبلاده سواء أكان من الحكام أو العلماء قام في وجهه المعارضون فلا يهدأ لهم بال إلا إذا نكسوا رأسه فيخلو الجو لنوى الأغراض والمصالح الشخصية وهذا ما يتباهى به المسلمون والتاريخ شاهد عدل على ذلك .

ولما كان لا بد من قوة تنظم وتؤيد المعاملات والأحكام أعنى حكومة عادلة تسير على منهاج الشرع الإلهي

يكون فيها الحاكم هو المسئول الأول في تنفيذ القوانين التي شرعتها الجماعة التشريعية ويكون مسلكه قدوة للرعية إذ (الناس على دين ملوكهم) كان من الواجب أن زمام أمر كل أمة دائماً أبداً بيد شخص عاقل صادق يسهر على مصالح الأمة ويعمل على محو الفوضى والحرب وجلب السعادة والرفاهية .

هذه هي نظريتي التي توصلت إليها أعرضها عليكم أيها الأعزاء .

وفيما يختص بوطننا العزيز ، فإنني لأسف بأن الانقلاب الذي وقع أخيراً لم يكن وحده هو سبب خراب أفغانستان بل أيضاً عدم وجود أساس حكومي ثابت كان أكبر عامل في ضعف وتأخر البلاد .

فإذا لم نتخذ بالرغم من كل شيء الاحتياطات اللازمة والوقايات الضرورية إزاء أمثال هذه الصدمات المفجعة والنكبات المدهمة فإننا نعتبر مقصرين في خدمة الوطن الخدمة الحقة اللائقة به إن لم نعتبر خائنين له :

وإنني كما تعلمون حقاً أحب بلادي من صميم فؤادي ولست أرغب في شيء أكثر من أن أعتبر خادماً من خدام الدين والوطن ، ولهذا وبالرغم من المشاكل المالية التي وقعت عقب الانقلاب الأخير أرغب في أن تكون حكومة أفغانستان على أساس صحيح وأمن رغبة في تقدم البلاد وإيهاضها إلى مدارج الفلاح ، وكل من يساهم في هذا المقصد النبيل لاشك يفوز برضا الوطن المقدس وإحراز السعادة الأبدية الخالدة .

ولهذا المقصدين الذي أعتبره مفتاح السعادة طلبتكم أيها الوكلاء لأعرض عليكم رغباتي الخالصة وهي أنا منحنا رعيتنا الحرية الكاملة التي لم يحصل عليها أكثر الأمم رغم إراقة الدماء وأمرنا بالجلس النيابي رغبة في أن تسود العدالة والرفاهية في هذه البلاد ، ولتعلموا أنكم إذا أحسنتم استعمال حقكم الخول لكم أمكنكم الحصول على فوائد حمة خير وطنكم وحكومة بلادكم .

وإنني لأرجو أن تقوم في أفغانستان الشورى المليية التي هي دواء المرض ومفتاح السعادة على خير الأسس وتحوز كافة الصفات والعناصر التي هي في الإسلام .

وإنني أشكر الله الذي وفقني إلى تحقيق ما وعدت به وها هو المجلس النيابي ينعقد لهذا المقصد السامي وبذلك أشكر الله شكراً كثيراً على ما هداني إلى إحياء سنة كانت متروكة إلى هذا اليوم .

وسيتباحث معكم في هذا الباب الصدر الأعظم ومجلس الوزراء في جو ودي للوصول إلى طريقة الانتخاب وعدد الوكلاء وفقكم الله وسدد خطاكم حتى يكون عملكم هذا موضع إعجاب ورضا العالم أجمع آمين «  
وإننا لنبتهل إلى الله بالدعاء بأن يجعل هذا العمل محمود النتيجة مبارك الأثر على البلاد وأن يفيء به عليها ظلال الأمن والرفاهية وأن يحفظ للبلاد ذات جلالته الكريمة وهو من شهد له التاريخ بعمله الموفق في إنقاذ البلاد من الفوضى ومن عرفت له البلاد مآثره الكريمة في نشر ألوية الحرية موبدة بتوفيق الله . انتهى ماجاء في الجريدة المذكورة .

فلما أتممت هذا المقال قال صاحبي : لقد شرحت صدري فأحمد الله عز وجل ولسكن ماذا تقول في بقية بلاد الإسلام . فقلت : هي إلى هذا سائرة ؛ فأهل مصر بلادي وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وكذا أهل الشام والعراق وغيرهم ، كل هؤلاء مستكون حكوماتهم شورية صادقة ، وستزول الأمم الأوروبية من بلادهم فلا تبق انكلترا في بلادنا مصر وفلسطين والعراق ، ولا إيطاليا في طرابلس ، ولا فرنسا في الجزائر ومراكش وتونس والشام ، ولا إسبانيا في مراكش ، بل هذه الدول سترحل من تلك البلاد لأن الذي أدخلها فيها هو جهل المسلمين وغفلتهم ، والقوم اليوم استيقظوا ، وستكون الحكومات محلية صادقة بعيدة عن الترف والنزوات والشهوات القاتلة .

إن الذي أخرج المسلمين بعد الصدر الأول ظنهم أن الحاكم هو الذي يفعل ما يشتهي ويتمتع ويأكل كما

تأكل الأنعام في هذه الحياة ؛ وهذا مرض وجهل ، فليتعلم المسلمون تعلماً أرقى ، وليعلموا أن ذلك كله مرض وجهل فاضح وخزي عظيم ، الملك والأمير والحاكم والقاضي يجب أن يكونوا أزهدي الناس في مال الدولة وأرفعهم نفساً وأعفهم ، والله هو الولي الحميد ، انتهى تفسير سورة الشورى .

## تفسير سورة الزخرف

( هي مكية )

إلا قوله تعالى « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » فمدنية

آياتها ٨٩ - نزلت بعد الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم \* وَالكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ \* وَإِنَّهُ فِي أُمِّ  
الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ \* أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا  
مُسْرِفِينَ \* وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ \* وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِئُونَ \* فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ \* وَاتَّبَنَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ  
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ \* وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً  
مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ \* وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ  
مَا تَرَكُونَ \* لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا  
سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ \* وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ \* وَجَعَلُوا لَهُ  
مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ \* أَمْ اتَّخَذَ مَا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفًا كُمْ بِالْبَنِينِ \*  
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ \* أَوْ مَنْ يَدْعُو  
فِي الْخَلْقِ وَهُوَ فِي الْإِخْصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ \* وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا

أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ \* وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاَهُمْ مَا لَهُمْ  
 بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ \* أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ \*  
 بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ \* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ  
 قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ  
 مُقْتَدُونَ \* قَالَ أُولَئِذٍ ثَلَاثُ أَجْمَعِينَ \* بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ  
 كَافِرُونَ \* فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمُ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ \* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ  
 لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ \* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ \* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً  
 بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ  
 مُبِينٌ \* وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ \* وَقَالُوا لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ  
 عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ \* أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ  
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ  
 رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ \* وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ  
 لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ \* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ \*  
 وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ \* وَمَنْ يَعِشْ  
 عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ \* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ  
 وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا آيَاتُ يَنْبَغِي وَيَنْبَغِي لِيَأْتِيَنَّكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ  
 الْقَرِينُ \* وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ \* أَفَأَنْتَ  
 تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ \* فَإِنَّمَا نَذَرْهُنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ  
 مُنْتَقِمُونَ \* أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ \* فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي  
 أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ \*

وَاسْتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ \* وَلَقَدْ  
 أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ  
 بآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ \* وَمَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةِ الْإِلَهِىِ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ  
 بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا  
 لَمُهْتَدُونَ \* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكَبُونَ \* وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ  
 قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ \* أَمْ أَنَا  
 خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ \* فَلَوْلَا أَلْتَقَىٰ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ  
 مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ \* فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ \* فَلَمَّا  
 آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ \* فَجَعَلْنَا هُمْ سَلْفًا وَمِثْلًا لِّلْآخِرِينَ \* وَلَمَّا  
 ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ \* وَقَالُوا آه لَيْتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ  
 إِلَّا جِدْلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي  
 إِسْرَائِيلَ \* وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلِفُونَ \* وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ  
 فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ  
 مُّبِينٌ \* وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى  
 تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ  
 مُسْتَقِيمٌ \* فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْاِيمِ \* هَلْ  
 يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ  
 عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ \* يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا  
 بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ \* ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ \* يُطَافُ عَلَيْهِمْ  
 بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا اشْتَهَى النَّفْسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \*  
 وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا

تَأْكُلُونَ \* إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ \* لَا يُفْتَرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ \*  
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ \* وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ  
إِنَّكُمْ مَا كِتَابُونَ \* لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ \* أَمْ  
أَبْرُمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ \* أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا  
لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ \* قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ \* سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* فَذَرُهُمْ يُخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي  
يُوعَدُونَ \* وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ \* وَتَبَارَكَ  
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَلَا  
يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ \* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ  
مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ \* وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ \*  
فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ \*

### ( تفسير البسملة )

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة وعلى ما أوليتنا من الجليل ، وشرحت صدورنا لتبيان بعض  
أسرار كتابك الكريم . هذا ، ولما كتبت هذه الكلمات حضر صديق الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير  
فقال ما الذي تريد أن تكتب في البسملة بعد ما تقدم في بضع عشرة سورة ، وكيف تعيد القول  
فيها ؟ وهذا إلى التكرار أقرب ، والتكرار في التأليف غير محمود ؛ فقلت : أيها الصديق لقد  
تعجبت على وما كان لك أن تحكم حكماً قاطعاً من طريق الظن . فقال : ليس بالظن . إن البسملة معروفة  
المعنى يفهمها الخاص والعام ، فأعادة القول فيها جار على المثل « توضيح الواضحات من المشكلات » .  
فقلت تسمح لي أن أبدي رأياً ، فقال وهل تجاسرت على الإسراع في الاعتراض إلا لأسمع مقالك ،  
وأفهم بيانك ، إيضاحاً للأمر ، وتبييناً للحق فقلت : إن هذا النوع الإنساني ما أوقعه في الأثم وأضاع  
منه معظم سعادته فأصبحوا في الأرض متقاطعين متدبرين إلا اغترارهم بعقولهم وظنهم أنهم يعلمون كل شيء ،  
فهم يرون الجمال في الوجوه الإنسانية والصور الحيوانية والنباتية والكواكب المشرقة ؛ ولكن أكثرهم  
عن الجمال مسحورون وفي ذنوبهم وهمومهم الوهمية محبوسون مغمورون ، وما يدرك حقائق الجمال  
إلا أولوا الألباب .

ومثل الجمال في شيوعه وعدم تعقله المآكل والمشرب ، فالناس جميعاً يأكلون ويشربون ويعيشون

ويعوتون ولا هم يدكرون حقائق ما يأكلون ، فهم عن معرفة حقائق المآكل مسحورون كما أنهم عن بدائع الجمال والفرح بها مبعدون .

وعلى هذا القياس تسمع المسلمين من نوع الإنسان يقرءون الفاتحة في الصلاة ويسبحون ويحمدون ويظنون أنهم يفهمون حقائق الرحمة التي يقرءونها في البسملة ، وهذا الظن استوى فيه علماءهم وجهلاؤهم وشيوخهم وصبيانهم ، وهم جميعا إلا قليلا منهم مغرورون لأنهم لا يعلمون .

إن الإنسان اعتاد أن يظن أن ما ألفه عنده معروف ، ألا لا فرق بين الشمس والقمر والنجوم التي اعتدنا رؤيتها وألفنا منظرها وبين البسملة والمآكل والمشرب والجمال العام ، فهذه جميعا يظن الجاهل بسبب ألفتها أنه بها عليم وما هو بعليم . لا يعقل الجمال من نوع الإنسان إلا القليل وهم الحكماء وما أندرهم في هذا الإنسان ، وقد مر الكلام في هذه وحدها في (سورة السجدة) عند آية «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» الخ فارجع إليها إن شئت ، وبقى الكلام في الطعام والشراب والبسملة . فقال صديقي : أما البسملة فنعم ولماذا تذكر عجائب الطعام والشراب ، فقلت بإضاحا لسؤالك ، ألم نسويين هذه الثلاثة في أن أكثر الناس يجهلون بها وما هم بعالمين ، قال بلى . قلت : ألم أقل إن أمر الجمال تقدم في (سورة السجدة) . قال بلى ، قلت إذن تشرح القسمين الباقيين ، فأما أحدهما فن باب التنظير ، وأما ثانيهما وهي البسملة فهي المقصود ، وهذا الأسلوب الذي سلكته في هذا التفسير وإن كان فيه إطناب سيكون من بواعث إنهاض الأمم ، وبعث العزائم ، وشرح الصدور ، وإبراز همم كانت خامدة ، وعقول كانت نائمة . قل لي رعاك الله : أيهما أقرب إلى إيقاظ الهمم ، وبعث تلك النفوس الشريفة التي أودع الله فيها قوى يعوزها الإيقاظ والتنبيه ؟ إعراب البسملة الذي كان كثير من المؤلفين يكررونه في أول كل كتاب وتطبيقها على العلوم الاثني عشر المشهورة عند المتأخرين من أمم الإسلام وموت النفوس في قشور العلوم فيكون الجهل التلم والموت الزوام ، أم الغوص على الدرر والجواهر في بحار العلوم واستخراج خلاصاتها في أول كل سورة بمناسبة ما في نفس السورة كالذي فعله الآن ، إن تفسير البسملة في هذه السورة لا تكرر فيه ألبتة ، هي فوائد مستخرجات من نفس القرآن ، بل من نفس السورة التي فيها البسملة ، وسترى في هذه السورة عجبا فإن الرحمة مكررة في سورة (الزخرف) هنا ثمان مرات اثنتان على هيئة المصدر «أهم يقسمون رحمة ربك» الخ «ورحمة ربك» الخ و (٦) بهيئة الصفة المشبهة :

(١) «وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا» الخ .

(٢) «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» .

(٣) «وقالوا لو شاء الرحمن» الخ .

(٤) «ومن يعش عن ذكر الرحمن» الخ .

(٥) «أجعلنا من دون الرحمن آلهة» الخ .

(٦) «قل إن كان للرحمن ولد» الخ .

فالرحمة وما اشتق منها كررت في السورة وذكرت في البسملة ، والحاء والميم في أول السورة حرفان من الرحمة ، وهذه الآيات التي بها الرحمة فيها أسرار لا بد من إظهارها ، وسترى هنا من عجائب العلم وبدائع الحكمة بما ففتح الله به في ليلة الجمعة الفاتحة وفي ليلة السبت بعدها قبل الفجر أي في ليلتي (١٤) و (١٥) نوفمبر سنة ١٩٣٠ م ماتقر به أعين أرباب البصائر ويبرز علم مخزون تفتح به أفقال كانت موصدة قبل ألفي سنة على كنوز خباها سقراط وأفلاطون في كتاب الجمهورية عند الكلام على المثل الأفلاطونية وما اعترض به عليها أرسطاطاليس

بعدهما ، وما قاله الفلاسفة بعد تلك القرون وأغلق الأمر عليهم ؛ فأرجو أن أوفق في هذا المقام لتحقيق هذا المقام وذلك بطريق العقل تفسيراً لهذه الآيات وتطبيقاً عليها . فقال : إن هذا القول الذي سمعته منك الآن غريب . وكيف يدخل ما يقوله سقراط ومن بعده في هذا المقام . وكيف أرجو أن تحل مشكلة عسر فهمها على فلاسفة اليونان والرومان والأمم بعدهم فقلت : أنا قلت لك أرجو وستكون معي وقت المباحثة في هذا الموضوع والله يقول « وأمرهم شورى بينهم » ، أنا إذ ذاك سأعرض في المناقشة آيات السورة التي فيها الرحمة وسنحاول بطريق مبادلة الفهم والمناقشة معنى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً » الخ ، وقوله تعالى في سورة أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وندرس هذا الموضوع ، وننظر هذا المقام في قول سقراط سيد فلاسفة أوروبا الحاليين والسابقين بإقرارهم وماذا قال في هذا المعنى قبل نزول القرآن ثم نذكر الشبهات التي وردت عليه وهكذا ، ثم نبين ما عن لنا في ذلك فإن زالت الشبهة فقد نصرنا الله وفتح علينا وإن لم تزل فقد نلنا نعمة الاجتهاد وقتنا بالواجب علينا . فقال والله لقد أقنعتني وشفيت صدري ، فأنا الآن أوافقك على البحث في هذا الموضوع ، ولقد انشرح صدري فيه لاسيما أن هذه الآيات لا تحظر في بال علماء الإسلام فضلاً عن الجهال . إن الأمم السالفة خطر لهم الكلام في معانيها قبل نزولها ، فالكلام في ذلك يكون من أعجب الأعاجيب . فقلت الآن اتفقنا على أننا سنبحث في البسملة من هذه الوجهة . قال نعم . قلت إذن لنبحث في المسألة التي كنا أخذنا نشرع فيها قبل البسملة بعد الكلام على عموم الجمال وهي مسألة المسائل والمشارب من حيث إن الناس لما كانوا معتادينها لم يتفطنوا لها كما لم يتفطن أكثر المسلمين منهم للبسملة من أجل شيوع ذكرها في كل أمر ذي بال . قال : أنا موافق على ذلك . فقلت :

### المسائل والمشارب

قدمت لك أيها الصديق في هذا المقام أن أكثر الناس يتوهمون أنهم يعرفون ما يأكلون وما يشربون وهم في ذلك مغرورون ، فإذا سألت صبياً أو رجلاً جاهلاً وقلت هل تعرف الماء ؟ استهزأ بهذا السؤال ووطن المسائل غيباً . هذا معنى ما قلته . قال نعم . فقلت : ألسنت تظن أن هذا الوهم خطأ ، وكيف لا يكون خطأ ونحن نعلم أن هذا الماء الذي نشربه وهو من السوائل مركب من عنصرين كل منهما يشبه الهواء وبعبارة أخرى ﴿ إن هذا الماء الذي في النهر والبر والبحر إذا وضعناه في زجاجة وسلطنا عليه الكهرباء وجدناه أنحل حلاً ولم يبق أمامنا ماء وإنما نرى عندنا جسمين يشبهان الهواء وكل منهما له صفة تخالف الآخر ، فأحدهما إذا أدخلنا فيه قطعة خشب طرفها فيه آثار النار فإنها تشتعل حلاً ، والآخر جسم خفيف جداً يصلح لارتفاع الطيارات في الجو ، وأولهما الأكسوجين ، والثاني الأدرجين ، والأكسوجين ٨ على ٩ من الماء . إذن معظم الماء أكسوجين والأكسوجين يكون غازاً كالهواء ويكون مع الأدرجين ماء وهو داخل في الدبش الذي نبتى به مساكنتنا وفي الحجارة ، فلو أننا وزنا الحجارة بعد تحليلها لوجدنا أن في كل مائة أقة منها (٤٨) أقة من الأكسوجين كما أننا إذا وزنا الماء بعد تحليله وجدنا في كل تسع أقات منه ثمانية أوقات ، فهو مكون لأكثر الماء ولما يقرب من نصف الحجارة ، وهو داخل في الهواء مع الأوزوت ، وهذا الأوزوت لا يخلو منه جسم إنسان ولا حيوان بل هو ثلاثة أرباع وزن جسم الحيوان [اقرأ كتاب تنوير الأذهان في تغذية الأجسام] لأستاذنا على باشا مبارك ؛ إذن الماء الذي نشربه ( ويظن الصبيان والجهال منا أنهم يعرفونه كما يظن المسلم أنه يعرف معنى البسملة ) يعوزه درس وتفصيل . إذن المعرفة يعوزها التفصيل والإيضاح ، أما الإجمال فالوقوف عنده غرور .

أوليس من العجب أن نرى أكثر من ٨ على ٩ من الماء مادة تكون في نحو نصف الأحجار وثلاثة أرباع الحيوان ، ونراها في الماء شرابا ، وفي الأحجار بيوتا صلابا ، وقلاع حصينة ، وفي الحيوان عظاما ولحمادما . نشرب الماء ونعسل به البلاط وهو في الوقت نفسه نصف نفس البلاط المغسول ، إذن هو غاسل وهو مغسول وهو شارب وهو مشروب ، فإذا كان ثلاثة أرباع الإنسان أ كسو جينا فالأ كسو جين المتجمد شرب الأ كسو جين السائل ، ومعلوم أن الهواء فيه أ كسو جين ؛ فإذن الإنسان أيضا يأخذ بالتنفس الأ كسو جين الذي في الهواء . اجلس في أي مكان شئت ، فالبلاط تحت الجالس نصفه أ كسو جين ، والهواء فيه أ كسو جين ، ونفس الإنسان فيه أ كسو جين ، والماء أكثره أ كسو جين ، إذن هذه مسائل أعجب وأبداع من سحر السحرة ، هذا الإنسان يمتطي الغارب ويركب القارب والسفين في اليم والقطار في الأرض ويسير إلى القطبين ويرصد النجوم ليعرف العجائب .

يا أيها الإنسان : أنت عجب ، وشرابك عجب ، وجسمك عجب ، وتنفسك عجب ، ومجلسك عجب ، أنت مغمور في بحر لحي من النور .

سبحان الله الجميل البديع ؛ عجب وألف عجب ! أ كسو جين يصير حجرا وعظما ودماء وهواء ، فهو جامد وغاز وسائل ، وهو هو نفسه يطهر نفسه ، فهو من حيث إنه ماء يطهر نفسه من حيث إنه إنسان أو بلاط أو غيرها ، كما أنه هو يدخل في الرثة فتلقفه هي من الهواء فيطهر الدم في أجسامنا ، جل الله وجل العلم وجات الحكمة وجلت نعمة العلم .

#### ما الناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الحمج

فلأكتف أيها الصديق من الكلام على الشراب بما ذكرناه في الأ كسو جين ، ولنذكر مقالا وجيزا في المآكل . وإني ليسرني إذا كنت على ذكر مما تقدم في هذا التفسير ، فأجاني قائلا : نعم لقد جاء في سورة فاطر عند آية « والله خلقكم من تراب » ما ملخصه أن في الفم ستة مجار تفرز مواد تهضم المواد النشوية ، فإذا وصل ما بقي منها وهي الذي لم تؤثر فيه تلك القنوات الست إلى المعدة تلقاه العصير المعدي فأذابه ، وجملة ما يتعاطاه الإنسان إما مواد عضوية ولكنها ليس فيها مواد زلالية وذلك كالنشاء والسكر وكالزيت والشحم والسمن فهذه يدخلها الفم ولا يدخلها الزلال كزلال البيض ، وإما مواد عضوية وفيها المادة الزلالية كزلال البيض والمواد المستخرجة من العظام المغلية ومادة الجبن ومادة أخرى من نوع ذلك في اللحم ، وفي بذور البقول كالقول والعسل والبسلة وفي الحبوب كالقمح والذرة ، وبهذا عرفنا المواد العضوية بقسميها .

وهناك مواد غير عضوية مثل كربونات الجير ، وذلك في العظام والأسنان ، وفوسفات الجير في العظام أيضا وهي نصف وزنها تقريبا ، وهذان يدخلان في الأغذية النباتية والحيوانية وملح الطعام وأملاح أخرى ، هذا هو ما يتعاطاه الإنسان . فقلت : إذن طعامنا مفرق على البر والبحر وما فيهما ، فهذا الملح مستخرج من البحار ومن الجبال ، والمواد الدهنية تستخرج من الحيوان ومن الأشجار كالزيتون ، والمواد النشوية مستخرجات من النبات كقصب السكر والحبوب أمثال القمح ونحوه ، والمواد الزلالية تستخرج من الحيوان ومن الحبوب أيضا ، ولعلك تذكر المواد الفحمية الطائرة في الهواء التي هي المخزن العظيم الذي إليه ترجع المواد الفحمية الخارجة من أجسامنا مع الزفير الناهبات إلى النبات لتغذيته الراجعات إلينا ثانيا بطريق تعاطيه من أوراق النبات وثماره ، فهناك تبادل بين الحيوان والنبات في ذلك ، فبينما النبات يتنفس مادة الأ كسو جين في الهواء ويرسله إلى المخزن العظيم في الهواء إذ الحيوان يقبل ذلك الأ كسو جين ويعطى

الجو بدله مادة خمّية تصل إلى ذلك المخزن الطائر في الجو وهو يوصله إلى النبات . فقال أتذكره فهو مذكور في (سورة يس) كما أن القناة الهضمية وجميع رسومها وما يوضحها مذكورة في (سورة فاطر) وهناك أن الفحم الصافي في الجو نحو ١٣٨ ألف مليون ونصف مليون طن ، والطن معلوم أنه نحو ٢٢ قنطارا والقنطار ٣٦ أقة . فقلت نعم إذن نحن بنى آدم في الأرض أكثرنا في غرور عظيم إذ نظن أننا نفهم الطعام والشراب ، فها نحن أولاء ذهبنا كل مذهب في طعامنا وشرابنا ، لقد فرق على السكر الأرضية وطار في الجو وغاص في البحر ، وأدهشنا أن نرى أسناننا قد ركبت من الجير الداخل في بناء منازلنا وهو الذي التقطه النبات من الأرض فأكلناه ومن (الفسفور) تلك المادة البيضاء ذات الرائحة المشبهة رائحة الثوم ، وهي تباع في مربعات من البلور مملوءة بالماء للوقاية من إيذاء تلك المادة لأنها تلتهب سريعا بمجرد ملامسة الهواء ، فإذا لامست الأصابع التهبت حالا ويعسر إطفائها وتحدث جروحا خطيرة ، وهذه المادة إذا كتب بها على حائط في محل مظلم لانور فيه ظهرت الكتابة كأنها نار تفرع منها الأطفال والشيوخ والنساء ، فمجب أن يكون الجير في منازلنا وتلك المادة النارية التي تراها في أعواد الكبريت التي نوقد بها النار داخلين في أسناننا بأنواعها الثلاثة لتمزيق أغذيتنا وقطعها وطحنها « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

فهذه الأسنان تهرس الطعام، والعيون الست النابتات في الفم تتخلله لتمضمه، ثم يمر فيصل إلى الاثنا عشر هل تتذكره أيها الصديق . فقال أتذكره مرسوما في (سورة فاطر) . فهناك تقابله عصارتان إحداهما آتية من الصفراء والأخرى من البنكرياس المرسومين هناك ، وهاتان العصارتان يتقابلان فيغيران تلك المادة تغيرا عجبيا ليحصل لها اقتراب من أن تكون من جملة الدم .

ولنرجع إلى الفحم الذي يخرج من الزفير . قال أنا أتذكره جيدا من هذا المقال ومن سابق التفسير فقلت : أزيدك فيه علما إنه في السكر وفي الورق وريش الطيور وفي العظم واللحم والجلد والشمع والدهن والزيوت فإن الفحم يظهر في آثار ما يوقد منها وهو تلك المادة السوداء الظاهرة للعيان وكل شيء لا يخلو من الفحم وهو في الحجر الذي في المباني وفي الرخام والمرمر ، إذن هو في كل ما نضعه على المائدة إلا الملعق فهو لا فحم فيه ، ولقد قالوا « إن الفحم أمير والأكسوجين المتقدم شرحه سلطان » ولا جرم أن الهواء مركب من الأكسوجين والأوزوت ، وهذا الأوزوت هو نفسه المواد الزلالية المتقدم شرحها الداخلة في الجيوب واللحم والبيض وقد تقدم شرح ذلك فأجسامنا مركبات من أكسوجين في الهواء وفي الماء ومن فحم فيه وفي غيره ومن مادة الزلال السابجة فيه ومن شحم الحيوان ولحمه والزيوت ونشاء الجيوب وغير ذلك ، وهذه كلها يحملها الدم وهو يجري في الشرايين ، والشرايين تصل بدقتها المتناهية في كل جزء من أجزاء الجسم وتعطيه ما يستحقه من تلك المواد بعدل وإنصاف ، فإذا وصل الدم إلى الأسنان مثلا أخذت حقمها وهو المواد الجيرية والفسفور كما تقدم ، وإذا وصل إلى العين أخذت المواد التي تليق لها بحيث تصلح للإبصار وهكذا الأذن والجلد والأعصاب ، إذن هذه حكومة عجيبة مدهشة . وإني ليحزني أن أرى أكثر هذا النوع الإنساني يعيش جاهلا بهذه الكرة الأرضية ، ويعيش جاهلا بنفسه وهو مغرور جهول « قتل الإنسان ما أكفره » .

فيا ليت شعري متى يرتقى هذا الإنسان وينظم أممه على مقتضى نظام جسمه البديع الجميل المتقن ، يجري الدم في الشرايين فتتلقاه الأعضاء فيأخذ كل عضو حقه ولا يتعداه ، ويترك ما ليس له بحق ، كأن هذه الأعضاء قرأت « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو

على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» أو كأنها قرأت جمهورية أفلاطون ، أو كأنها قرأت « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

الله أكبر . أجسامنا بديعة التركيب ، حسنة الوضع ، ونحن نعيش فيها ، ونحن بها جاهلون ، نتعاطى الطعام ومثلنا معه كمثل من قال الله تعالى فيهم « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . وإذا جهلنا الطعام والشراب فإننا أعرق في الجهل بمعنى البسملة التي كلامنا فيها ، ومتى أخذ كل عضو حظه من مواد الغذاء الدائبة في الدم نما وكبر على مقتضى قوانين مجهولة لنوع الإنسان في الأرض ، ثم يكون هناك عالم آخر وهو عالم لأعصاب المتصلات بالنخاع الشوكي المرسومات المشروحات في ( سورة فاطر ) والنخاع الشوكي يوصل الأخبار إلى المخ وهناك عالم التعقل والتفكير . إذن طعامنا في القناة الهضمية كيموس وكيلوس ، وفي الدورة الدموية دم ؛ وفي أعضائنا المختلفة أعصاب وعظام وعضل ودهن الخ . وآثاره في أعصابنا ونخاعنا الشوكي ومخنا علوم ومعارف وفكر وذكر وحكمة ، فكيف نقول إننا بما نأكل عارفون أو لما نشرب دارسون ، وهذا من أسرار قوله تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا الجهل كما تقدم يضارعه جهلنا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » . إذن فلنفض الكلام على معنى الرحمة الذي هو المقصود في هذا المقام فنقول :

### الرحمة

لقد قدمت لك أيها الذكي في أول هذا المقام أن الرحمة في هذه السورة قد ذكرت ٨ مرات فوق ما جاء في البسملة ( ٢ ) فالجميع ( ١٠ ) والحاء والميم تشيران إلى الرحمة أيضا فلا بد لما إذن من فهم الآيات المذكور فيها الرحمة مثل « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » الخ ، ومثل « ومن يعش عن ذكر الرحمن » الخ ومثل آية « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة » الخ ، ولكن لا بد لما قبل فهم معاني هذه الآيات من تحقيق معنى الرحمة فوق ما تقدم .

فقل لي أيها الذكي : أيهما أحق باسم الرحمة ؛ أهذه النعم المتغيرة المتبدلة التي لا ثبات لها ، أم النعم الثابتة ؟ قال بل الثابتة . قلت حسن . قلت : ثم إن النعم المتغيرة أيها أحق باسم الرحمة أعلها أم أدناها ، قال : كل ما كان أعلى كانت الرحمة فيه أوفر ، وكل ما كان أدنى كانت الرحمة فيه أقل . قلت إذن وجب الآن أن نشرح أنواع النعم ونبتدى من أدناها إلى أعلها حتى نفهم الرحمة ونبين أنواع الرحمت المذكورة في هذه السورة إذ ذلك . فقال : يا للعجب ! وهل النعم لها نهاية حتى تبين عددها ودرجاتها ، إنها يعوزها علوم الأمم وأعمار جميع العلماء في الأرض . فقلت : إننا لا نعرف من جميع النعم إلا ما أدركته حواسنا وعقولنا ، إذن فلندرس درجاتها باعتبار إدراكنا لها ، وحواسنا معروفة محصورة عندنا والنعم مقسمة عليها ، فالبحث في النعم سيكون في تفصيل ما يدركها لافي تفصيل المحسوسات والمعلومات . قال : أما هذا فهو حسن فأريد أن تذكر لي أدنى درجات النعم . فقلت : هي كل ما كانت تستلذه حاسة اللمس كنعومة الحرير فإن لابس الحرير والنائم على الفراش الوثير يحس كل منهما بلذة اللمس ، وهذه اللذات سببها النعومة الحاصلة في اللباس والفراش قال ولماذا كان هذا أدنى الرحمت ؟ قلت لأن حاسة اللمس عامة في كل حيوان حتى الدودة في الماء وفي الطين لها حاسة اللمس ، وهذه الحاسة لا تعرف إلا ما يلاصقها فهي كالأعمى لا يدرك إلا باللمس . قال ثم ماذا ؟ قلت : اللذة التي هي من هذه المحسوسات بحاسة الذوق كالأطعمة والأشربة ، فإذا رأينا أقواما يفخرون بالطعام ولذته ، والشراب وسورته ، عرفنا أن هؤلاء في درجة اللذة الثانية . فقال ولم جعلتها ثانية ؟ قلت لأن المذوق

من الطعومات أشرف من بقية المموسات ، فحاسة اللمس عامة ولكن الطعم خاص بمواد مخصوصة ، فنحس نحن بكل ما يمس جلدنا ، ولكن حاسة الذوق اصطفت خلاصات المادة كالفواكه والحبوب وليس لها علم بالحجر والمدر والطين والتراب وهكذا . قال : ما الذى فوق هذه ؟ قلت حاسة الشم ، ذلك لأنها لا تتقيد بشم مالاصقها بل تشم المادة عن بعد وليست مضطرة إلى ملاصقتها وملاقاتها وإنما تلاقى ذرات لطيفات لائزها العيون يرساها المشموم كالورد والمسك تسير في الهواء وتصل إلى الخيشوم فتؤثر في الأعصاب فالشرف هنا من حيث إن الحاسة لم تلاق نفس المادة ، بل لاصقت ذراتها اللطيفات والواسطة في ذلك الهواء .

وأرفع من هذه حاسة السمع لأنها ليست في حاجة إلى ملاقة المسموع بل الهواء هو الواسطة بينها وبين الجسم الذى خرج منه الصوت وليست الأصوات كالمشمومات التى هى عبارة عن ذرات مادية . كلا . وإنما هذه حركات في الهواء ، ولا جرم أن الحركات ألطف من الذرات في حاسة اللمس .

وفوق ذلك يكون البصر وهو أرقى ، فهو كما لم يكن في حاجة إلى ملاصقة الجسم للنظور ، ولا إلى ذرات منه هكذا لم يكن في حاجة إلى حركات في الهواء كالسمع بل يحتاج إلى صور تسير في النور والنور حركات في الأثير وهذا عالم أعلى مما سبقه ، فهل فهمت في هذا الترتيب حكمة أيها الذكي ؟ قال نعم . قلت إذا تفضلت بذلك أكون شاكر لك . فقال : قد ظهر لى هنا قاعدتان : القاعدة الأولى أن الحاسة التى هى أشرف يكون تركيبها أتم ، القاعدة الثانية أنه كلما كانت النعمة أتم كانت أبعد عن المادة وأقرب إلى التجرد منها . فقلت ما برهان ذلك ؟ فقال : أما كون الحاسة تكون أتم كلما كانت أعلى فان ماتقدم في ﴿ سورة آل عمران ﴾ يحدثنا عن ذلك فإن تركيب الأذن هناك أتم من تركيب مادونها من الحواس ، فهناك في تركيبها ١٤ عجيبة من عجائب الإتيان ، وذلك مذكور في أول السورة عند قوله تعالى « هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء » فهناك الأذن الظاهرة والأذن المتوسطة والأذن الداخلة ، وهناك عجائب لاعد لها مثل السائل الذى في داخل الأذن وفيه خيوط دقيقة شعرية وهكذا ثلاثة آلاف جسم صغير ظنوها آلات البرق ( التلغراف ) بحيث يتلقى كل واحد منها نوعا من الأصوات يناسبه ويرسل ذلك إلى المخ ، وبالجملة ففي الأذن « الصيوان والصماخ والطبلة والمغزات الثلاث والدهليز والقنوت الهلالية والقوقعية والسائل المتقدم ذكره والرمل الحافظ للصوت وعصى كورتى والشعرات القوقعية والأعصاب السمعية ، فهذه هى الأربعة عشر جهازا في الأذن وتفصيلها هناك ، وهذا الإتيان لم يكن في صنع اللسان ولا الجلد ولا الخيشوم

وإذا تركينا إلى تركيب العين وجدنا وصفها هناك أتم من تركيب الأذن ، كيف لا وقد عدت الحكم هناك فوجدت ٣٦ حكمة ، فهناك :

- ( ١ ) القرنية .
- ( ٢ ) والعنبية .
- ( ٣ ) والعنكبوتية .
- ( ٤ ) والشبكية .
- ( ٥ ) والشيمة .
- ( ٦ ) والصلبة .
- ( ٧ ) والملتحمة .
- ( ٨ ) والجسم الزجاجى في وسط الشبكية .

(٩) والرطوبة الجليدية وتسمى العديسية .

(١٠) والرطوبة البيضية .

فالسبع الأول طبقات والثلاث الأخيرة رطوبات ، وهناك تفصيل لا محل لذكره ، والمقصود هنا أن الحاسة التي هي أشرف يكون تركيبها أتم ؛ وأما كون النعمة أتم كلما كانت أبعدهن المادة فبرهانه واضح ذلك أننا نرى نوع الإنسان يفارق النوم على الدمقس والحريير والفراس الأثير ( ومعلوم أن هذه لذة الملامسة ) ويركب القطار ، لرؤية الأقطار ، وجوب البحار ، وتجشم الأخطار ، ويركب متن الهواء ، ويخترق بغواصاته لجج البحار ليشاهد أنواع السمك والنبات ، وصنوف المخلوقات التي في قاع البحار ، ونرى الجهلاء والعلماء يغادرون حدائقهم وفيها الروائح اللطيفة وأنواع الفواكه ويتوجهون إلى دور الصور المتحركة مع أنهم في تلك الحديقة قادرين أن يضربوا العود ويتمتعوا بأصناف الطرب وصنوف اللذات المختلفة . فدل ذلك على أن البصرات عند الإنسان أرقى من جميع المحسوسات . لذلك كان البصر أدق وهكذا . ولم تر حاسة غير البصر لها قدرة على مشاهدة الشمس ، فأما البصر فهو الذي اختص بها . قلت والله لقد نطقت بفهم وأجبت . ثم قلت أيها الصديق إننا نريد أن نتوغل في البحث ، فقال حبا وكرامة ، فقلت : إذا كانت الشمس أعظم ما يشاهد بحواسنا ، وأشرف حواسنا هي العين وتركيبها أتم ، والواسطة بينهما هو النور فهذا آخر لذة يعرفها الحيوان والإنسان نوع منه ، وأريد أن أسألك أيها الصديق : ما أقصى سعادة عند الإنسان من هذه المحسوسات . فقال : السر والذات . فقلت اللذات أقصى ما يسعى إليه الناس . قال نعم ؛ فقلت تذكر قليلا في عاشق مات معشوقه وفرح بماله فقده ، ومغرم بحميل فذبل الجمال .

لعلك نسيت أيها الصديق ما قررناه أولا في أول هذا المقام وهو أن الثابت أتم نعمة والمتغير نعمته أقل فالسعادة به تكون أنقص ، قال حقا كان ذلك ولكن السر والجزئية بالعوامل المتغيرة لا ينكرها العقلاء قلت : ولكننا الآن في مقام الفلسفة والحكمة وفي تفسير القرآن ، ونريد أن نصل للحكمة في ذكر الرحمة في قوله تعالى ( ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة النخ ) فهذه نعم متغيرة والقرآن والحكمة يطلبان النعم الثابتة ولا ثبات للمادة ، فقال إذن كأنك تريد أن أسعد ما يناله المرء في الحياة الدنيا هي البصائر ، فقلت : حسن ولكن هذا المقام يعوزه إيضاح وإفصاح ، فقال يسرني أن أسمعه منك فقلت : إن هاهنا عينا وضوءا وشمسا ، فالعين أرق حاسة والشمس أرق محسوس والضوء أجمل واسطة ، قال هذا صار مبرهنا عليه . قلت ولما رأى حكماؤنا قبل الإسلام أن هذه المرتبة يشاركون فيها البهائم فكروا فقالوا : إن الشمس بالنسبة لعوالم المولودات الثلاث على الأرض أشبه بنار متقدة والناس في الأرض أشبه بقوم في مغارة ظهورهم نحو الشمس وجوههم متجهة إلى الضوء الذي على جدار المغارة أمامهم ، وهذه المواليد الثلاثة أشبه بالصور المرسومة على حائط المغارة بواسطة ضوء النار ، وهذا المثال تقدم غير مرة ولكن ذكرناه هنا لنوضح به المقام . إذن وراء هذه الشمس الله الذي برأها ، ولهذا المواليد الثلاثة عوالم سماها أفلاطون عالم المثال وهو عالم ثابت ، وعالم المواليد عالم متغير كما أن الله ثابت دائم والشمس متغيرة ، فالله بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لعيوننا ، وكما أن للشمس ضوءا يصل إلى العين هكذا عالم المثال ينير على بصائرنا ، فإذا لم تضيء الشمس فإن عيوننا لا ترى البصر وإن كان أمامها هكذا عالم المثال الثابت يرسل أشعته إلى عقولنا ولولاه لم نعقل ولم نعلم ، وإلى هذا المقام انتهت عقول الحكماء في الأمم قبل الإسلام .

ولما ترجمت الكتب إلى الأمم الإسلامية حصل عندهم القول بالاتحاد والحلول . هل تتذكر في أي مقام أوضحنا هذا أيها الصديق ؟ فقال : قد تقدم في (سورة فاطر) نقلا عن الإمام الغزالي إذ ذكرت هناك

في تفسير البسملة البراهين التي ذكرها موضحة وبان بها وظهر أن ما يقوله متأخر والصوفية من الاتحاد والحلول  
 عار عن البرهان العقلي بل هذا أشبه بكلام الصبيان . قلت : ولكن أريد هنا أن أبينه بطريق أوضح مما نقلته  
 فيما تقدم لأن الأدلة هناك مطولة وفيها بعض الصعوبة . فقال : أحب أن أسمع ذلك . فقلت أي حاسة في  
 الجسم أشرف . فقال : طبع العين . قلت ، هل يمكن أن يقول أحد إن العين هي الشمس . فقال وهل تخطر  
 بعقل عاقل . قلت : اسمع يا صاح رعاك الله . إن العين في الحقيقة مضيئة لأجسامنا والشمس تضيء العالم .  
 إذن العين شمس صغرى . ألم تر أن تركيبها كما قلنا سابقا أتم ، ولماذا هذا ؟ لأجل أن تكون أقرب كالأ  
 من الشمس ، ولولم تكن على هذا النمط لم تر النور ، فالعين مخلوق بديع عجيب والشمس كذلك والعين في  
 أجسامنا أقرب شيء إلى الشمس فلذلك تقبلت منها النور ، ثم إن العين والجسم والأجسام كلها في الأرض  
 مخلوقات لم تكن لولا الشمس ، فبالشمس ثار السحاب من البحار وهبت الرياح بالحرارة ، فإذا لم تكن  
 شمس لم تكن رياح ولا سحاب فلا إنسان ولا حيوان ، وبالتالي لا عيون ولا أبصار . قال نعم هو ذلك .  
 فقلت : إذن الشمس سبب في العين ، والعين أقرب عضو في أجسامنا إلى الكمال والكمال هي الشمس .  
 قال حسن ذلك . فقلت : إذن يتوجه السؤال : هل العين هي الشمس ؟ قال . كلا ، لأن إحداها سبب  
 والأخرى ، مسبب غاية الأمر أن العين أقرب إلى الشمس لأنها أخذت وتركيبها ساعدها على ذلك . قلت :  
 حسن جدا . ثم قلت هكذا نقول لجميع علماء الصوفية السابقين واللاحقين ونعلن الحقيقة واضحة للعالم قاطبة  
 فنقول : « أيها الناس إن ما سمعتموه من أقاويل الصوفية من وحدة الوجود وما جاء في كتاب الأستاذ  
 الكبير محي الدين في ( الفتوحات المكية ) كل ذلك عبارات موهمة يجب الإقلاع عنها حالا لأنه ثبت بالبرهان  
 اليقيني اليوم أن النفوس الإنسانية كالعيون والله « والله المثل الأعلى » كالشمس والعوالم الروحية كالضوء ،  
 وعالم المثال كعوالم المواليد الثلاثة ، ولن تبصر العين ما لم يكن النور ، وكما أننا لا نقول إن العين هي الشمس  
 وإن كانت أقرب إليها وهي تتلقى عنها الصور والأشكال بواسطة ضوئها ، هكذا لا يعقل أن يكون الأنبياء  
 أو الحكماء أو الأولياء مهما علت درجاتهم وبلغوا أقصاها أن يكونوا هم نفس الله تعالى مع أنهم بالنسبة للناس  
 كالعين والناس من ورأهم كالحواس الأخرى أدنى منزلة وهم يستضيئون بالنور الإلهي فيلهمهم الملائكة  
 ويوحون إليهم المعلومات الثابتات في العالم الروحي ، فقال : ما أجمل هذا البرهان ، إنه لقريب سهل المثال  
 يعقله كل متوسط الذكاء ، فقلت : فإذا عرفنا هذا وقد امتحننا آراء أسلافنا وقد وضحت الحقيقة فلنتجاوز  
 ذلك إلى ما وراءه وهي آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، فذكر أول ما قالوه ، وما آثار كلامهم في الأمم التي  
 بعدهم ، ثم نتبعه بما نراه مما فتح الله به ليلة الجمعة كإقدمته قريبا . فقال ما أشوقني إلى ذلك . فقلت : إن أفلاطون  
 بعد أن ذكر مثال الشمس المتقدم . قال : « على الإنسان أن يترقى من الأخص إلى الأعم ، ثم يترقى من المحسوسات  
 إلى المعقولات حتى يرجعها كلها إلى ذات الله وهو الكمال المطلق والخير المحض ، وجميع المعاني هي صفاته وهي حكمته »  
 وهنالك أعلن للملأ أن هناك عالم المثال وهو ثابت وعالمنا هو المتغير ، ولقد عارض هذا المذهب أرسطاطاليس  
 تلميذ أفلاطون . فقال : « أنا أسلم أن الكليات هي أصل العلم ، ولكن لا أسلم أنها مفارقة للمادة ، وهل  
 هناك كليات إلا في أذهانتنا ، فالذهن مخزن الكليات ، أما أن هناك عالما نسميه عالم المثال وهو أصل للمنافق هذا  
 لا أسلم به ؛ وكيف أسلم به وهو إذا كان ثابتا لا يتحرك فكيف صدر عنه هذا العالم المتحرك ، ثم إنه إذا كان  
 مفارقا فكيف يؤثر فيما فارقه ، وكيف يكون جوهر مفارقاله وإن كان متصلا بالعالم فقد دخله التغير بتغير  
 ما اتصل به ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على الأفراد المختلفة مع أنه لا يقبل الانقسام » وأطال في ذلك  
 ثم قال : « إن العالم مكون من مادة وصورة ( وكيفية معينة من الوجود ) والمادة لا تحقق لها إلا بهذه

المعينات وهي في نفسها إمكان محض أى قوة واستعداد لقبول الصورة ، والصورة كل ما به يتعين وجود المادة من شكل ووضع وبعد وكيفية كاللون والطعم والرائحة والثقل والخفة ، وهذان لا يكونان متميزين إلا بالعقل أما في الخارج فلا، وما الحركات لإشوق المادة إلى الاستكمال، فهي أبداً مجردة للاستكمال وذلك بالحركات في المقادير (الكم) كالتمو والزيادة والنقصان والذبول والحركات في الكيف كالأستحالة من صفة إلى أخرى وبالحركات في الأين وهي النقلة من مكان إلى مكان.

وقول أرسطاطاليس المذكور فيه لبس ، فقد رد عليه حكاء اليونان بعده فقالوا : ﴿ أولاً ﴾ إن المادة عندك أمر سلبي وعدم محض ، وإذا كانت عدما فكيف تشتاق إلى الاستكمال بالحركات ، وإذا لم نقل ذلك بل قلنا إنها (إمكان محض) فهل يعقل أن للإمكان وجوداً . إن وجود المادة يناقض ما يقوله هو أنها مسلوبة الوجود ، وإذا سلمنا بوجودها بعد هذا كله فقد أصبح للوجود إعلان معاً وهو مناقض لأصل مذهبه . ثم هو يقول : « إن الطبيعة ماهي إلا المادة والصورة والحركة والمجتمع من هذا كله يسمى طبيعة ، ولم يبين هذه الطبيعة ، ماهي ؟ هل هي ذات موجودة ، أم هي معنى موجود باعتبار العقل » .

فلما مات أرسطاطاليس ترك تلاميذه هذه المباحث وأخذوا يفكرون في علم الطبيعة والأخلاق وجدوا في هذه العلوم ، وهنا لك نبغ (أبيقورس) المولود سنة ٣٤١ ق . م . المتوفى سنة ٢٧٠ ق . م . ورجع إلى مذهب (ديموقراطيس) القائل بالجزء الذي لا يتجزأ وهو يقول : « أجل المقصود من الحياة إدراك الحقائق وذلك بالفلسفة واللذة الناجمة عنها أهم مقاصد هذه الحياة » ثم نبغت فرقة الروايتين ويسمون أصحاب الأسطوانة وأصحاب المظال (وهو اسم المحل اجتماعهم بأثينا) وهم شيعة (زينون) المتوفى سنة ٢٦٤ ق . م . وهؤلاء يقولون : « إن العالم جوهر واحد ، فهو من جهة قوة عاقلة ، ومن جهة أخرى مادة » ومن صحابه (كريزيون) المتوفى سنة ٢٠٩ ق . م . وعلم الطبيعيات هو علم الإلهيات عند هذه الطائفة .

### ملخص هذا المقام

هنالك قال صاحبي : لقد طال المقال فأرجو تلخيصه ثم كيفية ارتباطه بالرحمة أولاً ، ثم كيف تفسر الآيات التي فيها الرحمة في سورة الزخرف بهذه العلوم المذكورة هنا . فقلت : ألا تذكر أن أصل المقام :

- (١) إنك قلت إن البسملة معروفة وتفسيرها هنا تكرر .
- (٢) فأجبتك بأن الجمال المذكور الموضح في سورة السجدة أكثر الناس يزعمون أنهم يعرفونه وما هم بعارفين ولا يعقله إلا الحكماء .
- (٣) وأن الطعام والشراب يظن الصبيان والعامة أنهما معلومان وهم جميعاً لا يدركون بالتفصيل عجائب توزيع المواد النشوية والمواد الزلالية والمواد المعدنية والماء كالأرز والبطاطس واللحم والبيض والكلح وكاء الأنهار .

فهذه موزعات على مناطق الأرض في أنواع النبات والحيوان والبحار ، وهكذا تقسمها أجزاء القناة الهضمية فتحتملها وتخالط الدم فيأخذ كل عضو حظه من الحياة وهكذا .

ثم يكون الفكر والعقل ، فهذا إجمال الكلام على الطعام والشراب ، وبقي الكلام على الرحمة المذكورة في البسملة التي كررت (٨) مرات في سورة الزخرف ، فلما أخذنا تفصلها وجدنا أمراً عجيباً ! وجدنا أن

حواسنا كلما كانت أقرب إلى محسوسها كان ذلك المحسوس أحس . وكانت نفس الحاسة أقل درجة وكنا نحن بذلك المحسوس أقل اهتماما : ذلك أن المحسوس الناعم كالحرير لا نعرفه إلا إذا لاصق أجسامنا وذلك يعطينا لذة ضئيلة إذا قسناها بلذة المشموم والمشموم يبعد عن حاسة الشم ويرسل من لذته ذرات لطيفة فهو ألطف من المطعم كالحلو الذي يلامس حاسة الذوق التي هي أرقى من حاسة اللمس . فإذا ارتفعنا إلى السمع وجدنا الحاسة أتم تركيبا والمحسوس ألطف يكاد يفارق المادة ولا يحتاج في تعرفه إلى الملاصقة . أما المبصرات فإنها أبدع وأعجب ورسولها الأمين أشرف من الهواء وهو الضوء والضوء في عالم الأثير فجلى الله ، جل الله الذي أعطى الإنسان درسا لن ينسى : فهاهو ذا يقول له . « أيها الإنسان : ألسنت تعقل ؟ ألم يكن أشرف حاسة عندك هي البصر ؟ أليس المبصر بها يبعد عنها ولا يلاقي حاستك إلا النور . إذن هذه الحياة الجسمية نفسها كشفت لك القطاء عن السعادة . تقول لك بلسان طاق : أيها الإنسان : أما تخجل وكيف تجهل نفسك تلمس السعادة في جوانب المادة وأنا رسمت لك الخطة : إن المادة ماهي إلا مبدأ كالذي رأيت في عالم المموسات ولسكن لا بد من ارتقائك في المعاني كارتقاء العين في محسوسها عن حاسة اللمس في ملموساتها . ألا إن الفرق ما بين الحشن والناعم من حيث ملاصقة الجسم وبين الشمس والعين من حيث شدة البعد التي تصل إلى مسافة ( ٣٥٠ ) سنة يجرى القطار السريع ليلا ونهارا . يجرى فيها النور بين عينك والشمس وكأن الله يخاطب المسلمين في الأرض قائلا : « المادة مبدؤكم فلا بد من دراستها وإتقانها كما درست حاسة لمسكم ما حولكم وإياكم أن تفقوا عندها لثلاثا تذلوها بل ارتقوا في دراستها طبقا عن طبق لتحكموها وأنتم فيها كما ارتقت حواسكم طبقا عن طبق فحكمت الأذن على الأشياء البعيدة فأخذت عليها بطريق الحركات في الأصوات . وكما حكمت عيونكم على السكواكب البعيدة فاقترنت صورها من الجو وهي جارية في الضوء الساري في ألطف موجود وهو الأثير ثم كأنه عز وجل يقول : ( أيها المسلمون : هاهم أولاء الأمم قبلكم وإن لم أرسل لهم رسولا فكفروا في هذه العوالم وارتقوا في الأسباب وقالوا « إذا كانت السعادة تتبع الارتقاء عن المادة وكل من ارتقى عنها خضعت له وكل من خضع لها أذلته . فهاهم أولاء من قبلكم بحشوا بأرائهم وعقولهم وقالوا إن هناك صورا معنوية هي أصل لهذه المواليد على الأرض وربكم مشرق نوره على تلك العوالم المثالية التي على مثالها خلقت عوالمكم ، وهناك تجلى الله على عقولكم بالإلهام كما تجلى الشمس على عوالمكم بالضوء . وكما أن الضوء يأتي لأعينكم بصور الخلوقات الأرضية ، هكذا أتجلى أنا على عالم المثال فيشرق على عقولكم بسبب إمدادى لكم .

هذا ، ثم جاء آخرون بعد هؤلاء فأنكروا عالم المثال وقالوا : ( إن الكليات العلمية لهذه المحسوسات كالإنسان والحيوان لن تكون إلا في الذهن ) إذن ليس هناك عالم مثال وهناك يقول أرسطاطاليس : ( إن العلم إنما يتعلق بالحقق والمحقق هي المسادة وصورتها المعينة المعروفة ) وجاء بعده الأبيقوريون والرواقيون وهم أصحاب المظال . فقالوا : « إن كلامه في المادة غير منتظم » وأدركوا أن هذه الأقوال غير مجدية ، فتركوا هذه الارتبكات ورجعوا إلى دراسة علم الطبيعة وعلم الأخلاق .

هذا أيها الصديق ملخص ما تقدم ، وأنا أحمد الله حمدا كثيرا على التبيان وتعليم البيان ، ولم يبق إلا أن ألخص المقام كله في كلمتين اثنتين : وهما أن دراسة هذه الخلوقات التي هي آثار الرحمات عرفتنا أمرين : أحدهما محقق . والثاني يعوزه التفسر . أما المحقق فهو أن سعادة أهل هذه الأرض لا تكون بالانغماس

المادة بل في التجافي عنها والترقي في إخضاعها لا تركها، فيكون الناس في هذه الأرض بالنسبة للمادة كالعين بالنسبة للشمس .

فهذه قضية محققة أظهرتها دراسة رحمة الله المذكورة في البسملة في حواسنا وفي المخلوقات حولنا فكما كان الناس معمورين فيها ذلوا ؛ وكلما ارتقوا فأخضعوها إخضاعا معنويا سعدوا ، والدليل على ذلك أن استعمال الكهرباء التي هي ألطف من الأجسام الأرضية أسعد الناس سعادة ما ، وذلك أقرب إلى استعمال العين للشعاع الواصل من الشمس فإن بين الكهرباء والنور مشاكلة ، ففرق ما بين استعمال غارب البغل والحمار والفرس التي هي أجسام كشيعة وبين استعمال الكهرباء التي هي عوامل لطيفة شريفة فالثمرات على مقتضى المقدمات كثافة ولطافة ، وهذه بعينها دروس يعطيها لنا ترتيب أجسامنا . هذه هي الكلمة الأولى المحققة . أما الكلمة الثانية التي يعوزها التفكير فهو ما يقوله أرسطاطاليس وأبيقوروزينون مما تقدم فهذا راجع لأصل العالم ومنشئه .

وسترى إن شاء الله في (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم تحقيق المقام في رسالة سميتها (مرآة الفلسفة) التي وعدت بذكرها سابقا مرارا في هذا التفسير ، ولكني أقول قولاً إجمالياً الآن تذكرك لك أيها الصديق وللأذكياء من قراء هذا الكتاب .

اعلم أننا نحن على هذه الأرض لن نصل إلى غاية العلم ، وغاية الأمر أننا نتلمس الممكن منه ، فهذه هو البرهان اليقيني الذي عرفناه من دراسة جسمنا أثبت لنا أن سعادتنا في اللطائف لا الكثائف ؛ وأن هذا الإنسان عليه أن يجد في المعنويات في هذه الحياة حتى يتمرن عليها ويرتقي فيها كما ارتقت عينه عن لسانه ، فهذه ترى الشمس في الأقطار البعيدة ، وهذا يلامس التمرة فتكون قيده وسجنا ، فإذا تلمسنا علم ما وراء ذلك ونظرنا نظر سقراط الذي اعترض على العالم المثالي الذي قرره فإننا نقول إذا كان علماء الطبيعة لما عجزوا عن إثبات مادة تحمل الضوء الساري في الجومن الكواكب وتحمل قوة الجاذبية التي بين الكواكب وبين الشمس والأرض والقمر .

أقول لما عجزوا عن ذلك قالوا نفرض أن هنا عالماً خفياً نسميه (أثيراً) ولقد تقدم شرح عالم الأثير في أول سورة (الصفات) وتحقيق الكلام فيه ، فهذا الفرض قد اضطرروا إليه اضطراراً ، ليكنهم به حل النظريات الطبيعية وفهم القوانين ، فإذا جاز هذا في علم الطبيعة التي هي أقرب إلى عقولنا ، أفلا يجوز نظيره في علم ما وراء الطبيعة ونقول : إذا كان الضوء لا يصل إلى عيوننا إلا بعالم سميناء أثيراً ونحن لم نتحققه ، أفليس من حقنا أن نقول إن العلم لا يكون له ثبات إلا بأمور ثابتة ، والأمور الثابتة هنا نسميها عالم المثال وهو نماذج لعالمنا هذا وعلى مقتضى عالم المثال الذي صورت فيه جميع القضايا الكلية التي نحس بها في أذهاننا خلقت العوامل للمشاهدة فأما كل ما ورد من كلام علماء اليونان على عالم المثال فإنه يرد نظيره على عالم الأثير فإذا كان معدوما فكيف يحمل المعدوم الموجود ؟ فالقول هناك كالقول هنا .

## امتحان آراء علماء الإسلام

وآراء علماء اليونان

إذن نحن الآن امتحنا آراء علماء الصوفية من حيث وحدة الوجود فظهر لنا أن دراسة أجسامنا تحل المشكلة كما تقدم في العين والشمس ، وامتحننا آراء فلاسفة اليونان فرأينا أن عالم الأثير المقبول عند علماء الطبيعة يرد عليه ماورد على عالم المثال ومع ذلك اضطر له العلماء في زماننا اضطراراً وقنعوا بإثباته لحل النظريات

لتسهيل حل النظريات العامية. وهذا الذي قلته الآن برهان إقناعي، ولكن البرهان اليقيني ستراه في سورة محمد صلى الله عليه وسلم كما أنبأتك .

### تفسير الآيات

لاجرم أنك بعد هذا أيها الصديق تفهم حق الفهم قوله تعالى « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً » إلى آخره إذ يرى الإنسان أنه محصور الفكر في أن الولد ذكر وأنثى وهذا انغماس في المادة، والانغماس فيها عذاب أليم في الحياة الدنيا والله منزه عن المادة فكيف يجعله متصفاً بما كان عذاباً له ؟ وهناك يظهر سر « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليُعذِّبهم بها في الحياة الدنيا » ودراسة علم الحواس المتقدم يظهر لنا أن الخضوع للمادة صغار، وهكذا قوله « وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » فالذكورة والأنوثة صفات أهل المادة الذين هم أقرب إلى العذاب في الحياة ببرهان دراسة الحواس المتقدم والملائكة مبرءون من المادة وهم مختصون بالعلم، وقوله « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » فهؤلاء جهلاء ولكن الله لسعة رحمته لهم لم يهلكهم، فهو وسعهم كما وسع البهائم في الأرض وكما عاش الإنسان بين عين تنظر الشمس ولمس يلمس الحجر، فإله يرحم الأدنى والأعلى كل في مركزه الخاص به. وأما قوله « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » فهو المقصود من هذا البحث كله. ذلك أن السعادة كما قدمنا ترجع إلى إدراك ما هو ثابت ولا ثبات للمادة. والثابت الحق هو الله عز وجل. وكل مال وولد وسلطان وجمال وأرض وسماء لا ثبات لها. فالفرح بالمتغير غرور. ولا فرح ولا سرور إلا بما هو ثابت. ويظهر هذا في قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن » الخ، فالقصور المزخرفات والذهب والفضة والسرور اجتمعت كلها إلى المادة الغليظة وقد برهننا يقينياً أن السعادة في الابتعاد عنها الرحمة الحقيقية في إدراك ما هو ثابت ولا ثابت إلا لصانع العالم، فهل لك أن أسمعك ما قاله نفس أفلاطون عن (سقراط) لتعجب من أن القرآن قد جاء تفسيره على السنة الفلاسفة، بل على لسان أكبر فيلسوف تخرله فلاسفة أوروبا الحاليين باعترافهم سجداً فانظر ماذا يقول ؟ يقول معنى نفس هذه الآيات ؛ فهو يقول في الكتاب السادس مخاطباً (اديمينتس) .

« أولست من رأيي أيضاً أن سبب استياء الجمهور من الفلسفة راجع إلى تصرف الذين كالسكارى يقتحمون مالا يعينهم ويسبى بعضهم بعضاً، ويسرون بيت الفن والاعتياب، وبالاجمال الأشخاص الذين لا تفقه تصرفاتهم مع الفلسفة، ثم قال : وحقاً يا اديمينتس أن من وجه أفكاره نحو الأشياء الموجودة حقيقة ليس له متسع من الوقت للاشتباك بمصالح الآخرين ومنازعتهم فتتسرب إليه عدو أذاهم بل على الضد من ذلك يقف أوقاته على التفكير بأشياء صحيحة ثابتة وإذ يرى أنها لا تضر إحداها الأخرى ولا تنى خاضعة للنظام وهي على أتم وفاق مع العقل يجتهد في درسها والتشبه بها، أو تظن أن الإنسان يستطيع ألا يتمثل بما يلزمه ويحترمه. فأجاب : غير ممكن. فقال سقراط : فالفيلسوف الذي يلزم ما هو إلهي مترن يصير إلهياً مترناً مع أنه هنا كما في كل موقف آخر مجال واسع للترفيف » .

وقال في صحيفة ١٨٨ مانصه : « إن بحثنا أراناً أن في كل منا آلة تساعد في تحليل العلم كما أنه لا يمكن تحويل العين من النور إلى الظلام بدون أن يتحول الجسم كله، هكذا أمر هذه القوة مع النفس فيلزم

تحول النفس كلها عن العالم الفاني ليكنها التفكير في عالم الحقيقة وفي أبهى قسم منه وهو ما ندعوه صورة الخير» انتهى .

يقول طنطاوى : أفليس مما يدهش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن آيات هذه السورة التي ذكرت فيها الرحمة كالتى تصف الكافرين بأنهم لو كانت لهم قصور مزخرفة وسرر الخ لم يكن ذلك نافعاً لهم وكالتى تبين أن من أعرض عن ذكر الله تسلمه الشيطان وأضله وهكذا .

أقول إن هذه الآيات قد جاء تفسيرها قبل أزمان النبوة بنحو ثمان قرون على السنة الفلاسفة . إذن هذا القرآن كما وصفه الله آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . إذن المفكرون في جلال الله المتعلمون الحكمة هم أرقى الناس وهم أولى بإدارة الأمم لأنهم يزهدون في المال وفي أعراض الدنيا وليسوا كـ بعض الزهاد يعزلون الناس ويكونون عالة عليهم . وهذا يعرف المسلمون أن الزهد في الدنيا ليس معناه تركها ، بل أن يكون الإنسان عالماً بالجمال الأقدس موقناً أن السعادة في المعرفة والعلم أى العلم بالله والملا الأعلى وهذا لن يمكن بمجرد قراءة القرآن ولا تفسيره ، ولكن بدراسة علوم هذه الدنيا وينتقل من الخلق إلى الخالق ثم يكون خليفة له على عبادته ، ولم أجد من سار على منواله سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جري على طريقه فهو الذى ينطبق عليه الآيات المذكورة من احتقار المادة والقيام بخدمة الأمة وتنظيم الدولة . ذلك هو الحق الصراح ، فأجل أنواع الرحمة في الحقيقة يرجع إلى إدراك جمال الله عز وجل وصفاته وفهم الوجود تبعاً لذلك . ثم أن يكون الإنسان زاهداً في المادة متخليقاً بالأخلاق الجميلة ، خليفة على عباد الله . منظم الأئمة نافعاً لدولهم ، فهو في العالم ولكنه غير مغرم به بل بالعلم وبالله وهو مساعد للمجموع منظم للحكومات وللأمم بقدر طاقته ، هذا هو الحق الصراح والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

### مقاصد السورة

- ( ١ ) تأييد النبوة إلى قوله «ومضى مثل الأولين» .
- ( ٢ ) وإثبات الألوهية بالأدلة الطبيعية إلى «وإنا إلى ربنا لمنقلبون» .
- ( ٣ ) بعض سيئات كفر القوم إلى قوله «فهم به مستمسكون» .
- ( ٤ ) سبب كفرهم إلى قوله «وإنا على آثارهم مقتدون» .
- ( ٥ ) شدة جهلهم وجود عقولهم إلى قوله «بما أرسلتم به كافرون» .
- ( ٦ ) الانتقام منهم إلى «عاقبة المكذابين» .
- ( ٧ ) تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بذكر قصة إبراهيم إلى قوله «وإنا به كافرون» .
- ( ٨ ) ليست المظاهر المادية من أسباب الدرجات العلمية والدينية إلى قوله «عند ربك للمتقين» .
- ( ٩ ) من ترك عقله فلم يشغله بالحكمة تولاه الشيطان .  
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه إلى قوله «مهتدون» .
- ( ١٠ ) من تصادق على المعصية تعادياً عند القضاء إلى قوله «إنكم في العذاب مشتركون» .

- ( ١١ ) إنما تنفع الذكري من استعد للفهم إلى قوله «ومن كان في ضلال مبين» .  
 ( ١٢ ) عدة الله نبيه بالنصر وعلو أمره وإنه مسئول عن الدين والقرآن هو وقومه إلى قوله « وسوف تسألون » .  
 ( ١٣ ) قصص موسى لتأييد أن المظاهر المادية ليست سببا للمعارف العقلية إلى قوله « ومثلا للآخرين »  
 ( ١٤ ) شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق إلى قوله «إنه لكم عدو مبين» .  
 ( ١٥ ) ذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ووعيدهم إلى قوله « وهم لا يشعرون » .  
 ( ١٦ ) معاداة قراء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين إلى قوله «فأنا أول العابدين» .  
 ( ١٧ ) تنزيه الله تعالى ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك ، وبالاختصار ووصفه بصفات الجلال والإكرام وهو المقصود إلى قوله «لا يؤمنون» .  
 ( ١٨ ) سعة الصدر والصفح والمسالمة خير الأخلاق اه .

## مجمل تفسير الألفاظ

### في المقاصد الأربعة الأولى

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السورة السابقة (والكتاب المبين) القرآن ، أقسم به من حيث نظمه وإعجازه ، إن الله صيره كذلك ، فاقسم كالأستشهاد على القسم به (لعلكم تعقلون) لكي تفهموا معانيه (وإنه) عطف على «إنا» (في أم الكتاب) في اللوح المحفوظ (لدينا) عندنا (لعلي) رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزا (حكيم) ذو حكمة بالغة . أو محكم لا ينسخه غيره (أفضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين؟) أفندود الله ذكر ونبعده عنكم صالحين فلا تأمرم ولا تنهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان (وكم أرسلنا من نبي في الأولين) إلى قوله (يستهبئون) أي كاستهزاء قومك بك (ولئن سألتهم) أي المشركين (من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) أي أنهم أقرؤا بأن الله خلقهما ، وأنه ذو عزة وعلم ، ومع ذلك جمعوا بين النقيضين إذ عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث (الذي جعل لكم الأرض مهذا) قارة يمكن الانتفاع بها . والمهد موضع راحة الصبي ، والخلق كلهم يتربون على الأرض وهي موضع راحتهم فلذلك جعلت مهادا لعدد العباد (وجعل لكم فيها سبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) إلى مقاصدكم في أسفاركم ، فلم تكن تلك المهادر رمية من غير رام (والذي أنزل من السماء ماء بقدر) بقدر حاجتكم إليه ، فلم يكن كثيرا حتى يهلككم (فأنثرنا به) بالمطر (بلدة ميتا كذلك) كما أحيينا بلدة ميتا (تخرجون) من قبوركم أحياء (والذي خلق الأزواج كلها) أي الأصناف والأنواع أو الذكرا والإناث أما هو فهو فرد لا ثاني له . (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) في البحر والبر (لتستووا على ظهوره) على ظهور الفلك والأنعام (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتبتم عليه) أي بتسخير ما ركبتموه في البحر والبر (وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا) ذلله (وما كنا له مقرنين) مطيقين أو حافظين (وإنا إلى ربنا لمنقلبون)

لمصرفون في العباد (وجعلوا له من عباده جزءاً) أي بعد الاعتراف بأن الله هو الذي اتصف بالخلق والعزة والعلم الخ جعلوا له من عباده ولدا وهم الملائكة، والولد جزء الوالد وبعضه لأنه بضعة من الوالد (إن الإنسان لكفور مبين) ظاهر الكفران ومنه نسبة الولد إليه تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتعجب، يقول: اتخذ ربكم لنفسه البنات (وأصفاكم) أي أخلصكم (بالبنين) فاختار لنفسه المنزلة الدنيا ولكم المنزلة العليا (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً) أي بالجنس الذي جعله له مثلاً إذ الولد لا بد أن يماثل الوالد (ظل وجهه مسوداً) صار وجهه أسود في الغاية لما يعتريه من الكآبة (وهو كظيم) مملوء قلبه من الكبر (أو من ينشأ في الحلية) أو جعلوا له من يتربى في الزينة يعنى البنات (وهو في الخصام) في المجادلة (غير مبين) سقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي (وجعلوا الملائكة الذين عباد الرحمن إناثاً) أي حكموا بهذا وأثبتوهم إناثاً، وقد جمعوا بهذه القرية بين الضدين: العبادة والولادة (أشهدوا خلقهم) أي أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثاً (مستكتب شهادتهم) التي شهدوا بها على الملائكة (ويسألون) عنها يوم القيامة (وقالوا لولاء الرحمن ما عبدناهم) أي لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) أي وقال بنومليخ بوجه غير ماتقدم: لو نهانا الرحمن وصرفنا ما عبدناهم استهزاء ولكن أمرنا بعبادتهم ولم ينهنا عنها، ما لهم بما يقولون من حجة، ما هم إلا يكذبون على الله (أم آتيناهم كتاباً من قبله) من قبل القرآن (فهم به مستمسكون) بذلك الكتاب.

### ذكر سبب كفرهم

ولما بطلت جميع الحجج رجعوا إلى التقليد (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) أي دين، وهي من الأم وهو القصد، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد (وإنا على آثارهم مهتدون) أي إنهم مهتدون باتباع آباءهم وتقليد منهم من غير حجة، وهذه في الحقيقة حجة الغافلين من الأمم الحاضرة والفائتة. ومن ذلك قوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في ذلك ضلال قديم والأمم في ذلك متشابهة والعلة في ذلك التعم والكسل والبطالة. ولذلك أكثر الله في نوع الإنسان من الحروب والأمراض والعداوات ليستحشهم على العمل ولتنشط العقول وليفكروا حتى يقل الترف الجالب للتقليد والنوم في ظل الجهالة العمياء.

### شدة جهلهم وجور عقولهم

قال تعالى (قل) أتبعون آباءكم (أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) أي بدين أهدى من دين آباءكم: وقرأ ابن عامر وحفص «قال» أي النذير، فقل حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير وحينئذ يقال فماذا أجاب أهل القرية؟ فأجاب (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) وإن كان أهدى: وذلك ليقنطوا نذيرهم من أنهم يفكرون.

## من المقصد السادس إلى المقصد التاسع إلى قوله (مهتدون)

قال تعالى (فانتقمنا منهم) بالاستئصال (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) ولا تسكثرت بتكذيبهم (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء أي بريء مما تعبدون ؛ إلا الذي فطرنى) أي إنني أتبرأ مما تعبدون إلا من الله الذي خلقني (فانه سيهدين) أي يرشدني إلى دينه (وجعلها) أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تسلك بها وهي لا إله إلا الله (كلمة باقية في عقبه) في ذريته فيكون فيهم أبدا من يوحد الله ويدعو إلى توحيدهم (لعلهم يرجعون) أي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحده (بل متعت هؤلاء وآباءهم) يعني أهل مكة وهم من عقب إبراهيم ، فمددت أعمارهم ، وأكثرت نعمهم ، فشغلتهم النعم والترف والشهوات وأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، وجريت على عادتي أن أجعل في بني إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم لعله يرجع ، فاخترت محمدا ليدعو هؤلاء فقالوا هذا سحر الخ ، وهذا قوله تعالى (حتى جاءهم الحق) أي القرآن (ورسول مبين) الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله «مبين» أي واضح الرسالة بما معه من الآيات (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا) فيه متحكمين بالباطل (لولا نزل هذا القرآن) العبارة تفيد الاستهانة (على رجل من القريتين عظيم) أي رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» وإنما يخرجان من الملح وحده على قول بعض القدماء ، ولكن ظهر في العلم الحديث أن اللؤلؤ يخرج من الماء العذب كما ستراه في (سورة الرحمن) وهذا من معجزات القرآن ؛ والقريتان مكة والطائف ، والرجلان الوليد بن المغيرة عظيم مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف ، وكان كل منهما ذاملا وماذا جاء مع أن العظيم في العقل والعلم والدين غير العظيم في اصطلاحهم (أهم يقسمون رحمة ربك؟) أي النبوة ، والاستفهام للانكار والتجهيل والتعجب كأنه يقول : أيها القوم عجباً لكم ، كيف جهلتم قدر أنفسكم ، أو بلغ من شأنكم أن تصطفوا من تشاءون للنبوة التي لا يصلح لها إلا من له رتبة عظيمة روحانية تستدعي عظم النفس ، فتكون ذات فضائل قدسية . وكالات خلقية ، وتكون مستهينة بالزخارف الدنيوية التي اتعستم فيها ، فليست أهلاً لأن تفاض عليكم فضلاً عن أن تهبوا لمن تشاءون . (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) يقول تعالى : نحن فاوننا بينهم في الرزق ، فمنهم الغني ، ومنهم الفقير ، ومنهم السيد ومنهم العبد ، ومنهم الملوك ، ومنهم السوقة ، ومنهم الأقوياء ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم ذوو الجمال ، ومنهم ذوو الدمامة ، ولم يقدر أحد من عبادنا أن يغير ما حكمنا به في أحوال دنياهم مع قلتها وذلها ، فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا فيما هو أرفع درجة ، وأعظم منصبا ، وأشرف غاية ، وهو النبوة ، فنحن رفعنا بعضهم على بعض بمشيئتنا وخصصنا من نشاء للنبوة كما أردنا ، فكما لم يغيروا ما هو أدنى هكذا هم أعجز عن التغيير فيما هو أعلى . ثم أتى وصف حال تفاوتهم في الدنيا فقال (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) أي أوقفنا بينهم التفاوت في الرزق (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ليصرف بعضهم بعضا في حوائجهم ويستخدمهم في مهتهم ، ويسخروهم في أشغالهم ، حتى يعيش بعضهم مع بعض ، وينفع بعضهم بعضا ، فهذا بماله وهذا بأعماله ، لأننا حكمنا أن هذه النفوس تعيش في الأرض لتتعاون ونحن قادرين أن نطعمهم وهم قاعدون كما أطمعنا النبات والدود ، ولكن هي الحكمة أن الأعمال التكليفية التي يتعاطاها الناس سواء أكانت طبيعية أم شرعية تصير فيما بعد الموت معينة للنفوس فيسهل عليها التعارف والتعاون في عالم الأرواح ، وعلى قدر تهذيبها ومحبتها لبعضها يكون ارتقاؤها ، وكيف تتعارف في الدنيا إلا باللقاء والاختلاط فأحوجناهم إلى القوت

وأغنيا وأقربنا ، وجعلنا ذكرا وأثني ، كل ذلك ليتعارفوا ويتعاونوا . وأنزلنا العبادات وفرضناها ليتجدوا في الصلوات ، ويتعاونوا في الصدقات . وأنزلنا القرآن والعلم لتجمعهم جامعة الحكمة والأخلاق وهي أقوى الجامعات وأمتن الروابط وهذا قوله تعالى ( ورحمة ربك ) بالنبوة وما يتبعها ( خير مما يجمعون ) أي مما يجمع الكفار من الأموال ، فالدنيا على شفا جرف هار . إن المادة والمظاهر الفانية لا قيمة لها في حضرتنا ، فنحن أغدقنا النعم على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بني الإنسان ، ولولا أن تتطلع أعين المؤمنين إلى زهرة الدنيا وزينتها إذا غمرنا الكافرين بها وأوسعناها عليهم سعة مطلقة وأن تهلع قلوبهم وتتخلع حينما يرون الكافرين في أنعم حال وهم في شظف العيش لجعلنا كل كافر في أرغد عيش وأنعم حال ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بالمؤمنين وهذا قوله تعالى ( ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ) أي ولولا أن يصيروا كلهم كفارا فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا سعة الرزق عند الكفار ( لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج ) ومصاعد إلى المعارج جمع معرج ( عليها يظهرون ) يعلون السطوح لحقارة الدنيا وقوله « لبيوتهم » بدل احتمال ( ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكثون ) أي أبوابا وسررا من فضة . يقول لجعلنا للكفار سقفا من فضة ومصاعد وأبوابا وسررا من فضة ( و ) جعلنا لهم ( زخرفا ) أي زينة من كل شيء ويقال : الذهب أيضا فيكون عطفًا على محل من فضة : أي سقفا من فضة وذهب أي بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، وإذا كانت المعارج والأبواب والسرر كالسقف كما تقدم يكون بعضها من فضة وبعضها من ذهب على هذا التقدير أيضا ( وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ) أي ما كل ذلك إلا متاعها القصير الفاني وليس مما تقدر به قيم النفوس الإنسانية فكيف يقولون لولا أنزل هذا القرآن على رجل الخ والعظمة المادية لالعلاقة لها بالمناصب النبوية ( والآخرة عند ربك للمتقين ) الكفر والمعاصي . ولا جرم أن هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة لو أعطيت للمؤمنين حتى يصبح الناس كلهم مؤمنين لأخلت بالمقصود من الإيمان لأن الترف والنعيم يحجبان أكثر العقول عن عالم الروحانية والرقى العقلي . وقل من يتخلص من شرك هذه الآفات . فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات بالنسبة للأجسام . وكما أن الأجسام القذرة يحوم حولها الذباب فيلقى فيها بيوضه لتفرخ في القروح والعيون ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات فتكون آلام وآلام هكذا تلك النفوس الضعيفة تعشعش فيها النفوس المعانلة لها من عالم الشياطين وتلقى إليها بذور الفساد فتزرع في تلك العقول وتخصدها النفوس خزيا وعارا في الدنيا والآخرة ، ولذلك أعقبه بقوله ( ومن يعيش عن ذكر الرحمن ) يتعام ويعرض عنه بانهما كه في المحسوسات واشتغاله باللذات ( نقيض له شيطانا فهو له قرين ) أي نسب ونضم له شيطانا ونسلطه عليه ، وذلك على مقتضى سننا الكونية كما سلطنا الذباب على الأجسام القذرة وخلقنا الحيات والعقارب والحشرات في الحال العفنة لتلطيها للهواء ورحمة بالناس والحيوان هكذا النفوس . فإذا قتلت الحيات أحدا أو أصاب الحيوان الذرى الذرى لا يرى المسمى بالمكروبات أحدا ، أو عم الوباء من ذلك ، فمن مات فقد كان هكذا استعدادا ، ومن عاش فإنه يكون أقدر على الحياة لقوة تحمله فلم يؤثر فيه الوباء ، هكذا هذه النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم فينالون جزاءهم من عقاب الحكومات ، أو احتقار الناس ، أو الأمراض في الدنيا فيكون ذلك عبرة لهم وزجرا لغيرهم ، وتكون نتيجة ذلك الرحمة ، ويشير لذلك قوله تعالى « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » . فالعذاب بالأمراض الفتاكة والموت والشياطين المضلة . كل ذلك إيقاظ من الله للإنسان ، وإياك أن تدخل في هذا عذاب الكافر فوالله إن فيه سرا يحرم إفشاؤه تحريما قاطعا ، فإذا عرفته فلا تقله بل ليدفن معك لأن الأمم اليوم لا تستعد لفهمه . واعلم أن هذا المقام هو نتيجة العلوم كلها

دينا وحكمة وتصوفا، فمن عرف الحقيقة في هذا المقام فقد وصل لله ونال غاية الحكمة، فإذا عرفت فالزم. قال تعالى ( وإنيهم ) أى الشياطين ( ليصدونهم ) ليمنعون العاشين ( عن السبيل ) عن سبيل الهدى ( ويحسبون ) أى العاشون ( أنهم مهتدون ) لأنهم تلقوا من الشياطين ما يلائم أمزجتهم ويوافق أخلاقهم وألفوه فلم ينكروه اهـ.

### الكلام على المقاصد من العاشر إلى الثالث عشر

إلى قوله : « ومثلا للآخرين »

يحسب كفار بنى آدم أنهم على هدى وقد أغواهم الشيطان ( حتى إذا جاءنا ) الكافر منهم ( قال ) لقرينه الشيطان ( يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ) أى بعد المشرق والغرب ، ففيه تغليب أحدهما ثم التثنية ( فبئس القرين ) أنت ( ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ) أشركتم ( أنكم في العذاب مشتركون ) أى لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف عنكم شيئا ، إن الكافر يتمنى هنا شدة البعد بينهما ، وجاء في آية أخرى « ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا » الخ . فأجيبوا بأن الاشتراك في العذاب لا يخفف عنكم شيئا ( أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ) فقومك كالصم البكم فلا يقبلون الهداية ، فمن عجب أنك تقدر على هدايتهم ، وعطف على العمى قوله ( ومن كان في ضلال مبين ) في ضلال لا يخفى ، فهو لاء لا يقبلون الهداية ( فإما نذهبن بك ) بأن نمتك قبل أن نعدبهم ( فإننا منهم منتقمون ) بالقتل بعدك ( أو زينك ) في حياتك ( الذى وعدناهم ) من العذاب ( فإننا عليهم مقتدرون ) قادرون على ذلك متى شئنا عذبناهم وقد انتقم منهم يوم بدر ، وهذا فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم لأنه وعده الانتقام منهم على كل حال ( فاستمسك بالذى أوحى إليك ) من الآيات والشرائع ( إنك على صراط مستقيم ) لا عوج فيه ( وإنه ) أى القرآن ( لذكر ) لشرف عظيم ( لك ولقومك وسوف تسألون ) عن حقه وأداء شكره ومعنى هذا أن القرآن نزل بلغة العرب ودين الإسلام وعد الله بنشره في الأرض وأبناء العرب هم العارفون باللغة ، فعلى هذا هم الملتزمون بالقيام بنشر اللغة العربية ودراسة هذا الدين للأمم الأخرى ، فالأمة العربية متى قصرت فيما أزمها الله به أظها الله في الدنيا ، وأدخل المقصرين منها النار يوم القيامة ، ولذلك لما قصرت في واجبها انطمست معالمها ودخلت في حوزة الأمم الأوروبية ، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب من إخواننا ويفهموا مركزهم في الأرض أنهم هم المعلمون للأمم ؛ فليشروا هذا القرآن وليتعلموا هم لغات الأمم وليكتبوا المصاحف بالعربية ويكون على الهامش تفاسير بلغات مختلفة كالإنجليزية والروسية والألمانية وهكذا حتى تعرف الأمم هذا الدين . هذه الآية توجب على أبناء مصر والشام واليمن والحجاز والعراق أن يكونوا ناشري هذا الدين ، ولكن هم اليوم في الجهالة تأمنون ، وسيقوم مجدهم كرة أخرى وترجع أيام عزهم ، وإذا ورد في حديث البخارى ومسلم أن الخلافة في قريش ؛ وفي البخارى أيضا حديث « إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » وأيضا يقول بعض المفسرين القوم هم العرب والقرآن لهم شرف .

إذا عرفت هذا فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم « ما أقاموا الدين » فكأن الخلافة جعلت لهم ليحافظوا على الدين فكأن المحافظة على الدين هي المقصودة من خلافتهم ، فالمحافظة أصل والخلافة فرع ، وهذا يشير لمعنى الآية ( واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ) أى واسأل أممهم وعلماء دينهم ( أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ) هل حكمنا بعبادة الأوثان ، والمراد تقرير أن جميع الأنبياء على التوحيد فليس يبدع ما جاء به

محمد صلى الله عليه وسلم حتى يعارض (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين) أتى بهذا القصص ذا كرا فيه ما يناسب المقام من تفاخر فرعون بعظمة ملكه ، ومن اتهامه لموسى عليه السلام بالسحر كما فعل القوم مما هو مذكور في هذه السورة ، إذ تمنوا أن تكون النبوة لرجل من القرئتين العظيم وجعلوا النبوة سحرا ( فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ) يسخرون ( وما زعيم من آية إلا هي أكبر من آيتها ) من قرئتها ( وأخذناهم بالعذاب ) كنعص الثمرات وإرسال الطوفان الخ ( لعلمهم يرجعون ) عن الكفر ( وقالوا يا أيها الساحر سموه ساحرا أي عالما ماهر ابهرا إنكارا للنبوة ( ادع لنا ربك ) فيكشف عنا العذاب ( بما عهد عندك ) أي بما أخبرتنا عن عهده إليك ، أنا إن آمنا كشف عنا العذاب فأسأله أن يكشفه عنا ( إننا لمهتدون ) لمؤمنون ، فدعاه به فكشف عنهم فلم يؤمنوا ( فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ) يتقضون عهدهم ( ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ) أنهار النيل تجري من تحت قصرى وبين يدي في جناتى ( أم أنا ) بل أنا ( خير من هذا الذى هو مهين ) ضعيف حقير فكيف تكون له رئاسة مع المهانة ( ولا يكاد يبين ) الكلام لما به من الرقة فكيف يصلح للرئاسة ( فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ) جمع أسوار ، وقرى أساوره جمع أسورة ، وقرى أساور جمع أسوار ، أى هلا ألقى مقاليد الملك إليه . ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب ( أو جاء معه الملائكة مقترنين ) مقرونين به يعينونه أو يصدقونه ( فاستخف قومه ) أى فاستخف أحلامهم بما بيده من عظمة الملك والرئاسة وجعلها مناط العلم . ولو كان هناك نبوة لكان هو أولى بها كما قال أهل مكة في رجل من القرئتين ( فأطاعوه ) فيما أمرهم به ( إنهم كانوا قوما فاسقين ) إذ أطاعوا الفاسق . هكذا أتم يا أهل مكة إذا اتبعت من يجعل النبوة موقوفة على العظمة والجاه وتصبحون كقوم فرعون إذا نتقمنا منهم لما أغضبونا ( فلما آسفونا ) أغضبونا بالعناد ( انتقمنا منهم ) فأغرقتناهم أجمعين ) فى اليم ( فجعلناهم سلفا ) قدوة لمن بعدهم من الكفار يتقدون بهم فى استحقاق مثل عقابهم ( ومثلا للآخرين ) حديثا عجيب الشأن سأراسير المثل يضرب بهم الأمثال فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون .



## ذكر المقاصد من ١٤ إلى ١٨ وهي الأخيرة

وهي شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق . وذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ، وذكر معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين . وذكر تنزيه الله تعالى . ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك . وبالاختصار وصفه تعالى بصفات الجلال والإكرام . وذكر سعة الصدر والصفح والمسئلة وأنها خير الأخلاق

أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على قريش « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » غضبوا فقال ابن الزبيرى : يا محمد أخاصة لنا ولآهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هو لكم ولآهنتكم ولجميع الأمم . فقال ألسنت زعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثنى عليه وعلى أمه خيرا . وقد علمت أن النصرارى يعبدونها وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأترل الله تعالى « إن الذين سبقتم مننا الحسنى أولئك عنها مبعدون » ونزلت هذه الآية ( ولما ضرب ابن مريم مثلا ) أى ولما ضرب ابن الزبيرى عيسى ابن مريم مثلا لآهنتهم وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصرارى إياه ( إذا قومك ) قريش ( منه ) من هذا المثل ( يصدون ) ترتفع لهم جانبة وضجيج فرحا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات النبي صلى الله عليه وسلم بمجده ( وقالوا آهتنا خير أم هو ) آهتنا خير عندك أم عيسى؟ فإن كان في النار فلتكن آهتنا معه ومع عزير والملائكة ( ماضر بوه لك إلا جدلا ) أى ماذ كروا لك عيسى ابن مريم إلا للجدل والحصومة ( بل هم قوم خصمون ) جدلون بالباطل . ولما ذكر عيسى وأنه معبود عند النصرارى أخذ يبين حاله فقال ( إن هو ) أى إن عيسى ( إلا عبد أنعمنا عليه ) بالنبوة ( وجعلناه مثلا ) وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ( لبني إسرائيل ) فليس معبودا كما يزعم قوم من النصرارى ؛ وإنما العبرة فيه أنه ولد من غير أب فيفتح للناس باب التفكير والتذكر والفهم والعلم وليست مخالفة العادة في شئ موجبة لعبادته بل هي مذكرة بعبادة الخالق الحكيم ( ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ) على اننا لو نشاء لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر وجعلناه رجلا : أى لو نشاء لجعلنا في الأرض عجايبا كأمير عيسى بحيث يلد الرجل ملكا فيخلفه ، فباب العجائب والنظم المدهشة لا حد له عندنا ، فيكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصر فيها ( وإنه ) أى القرآن ( لعلم للساعة ) لأن فيه إعلاما بها ودلالة عليها ( فلا تترن بها ) فلا تشكن فيها ( واتبعون ) هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوله ( هذا ) الذى أذعوكم إليه ( صراط مستقيم ) لا يضل سالكه ( ولا يصدنكم الشيطان ) عن المتابعة ( إنه لكم عدو مبين ) ثابت عداوته لأنه وسوس لأبيكم ولكم ( ولما جاء عيسى بالبينات ) بالمعجزات الواضحات ( قال قد جئتكم بالحكمة ) بالإنجيل والشريعة لتستبين السبيل لكم ( ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ) من أمور الدين وحدها ( فاتقوا الله وأطيعون ) فيما أبلغه عنه ( إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ) وهذا ملخص جميع الديانات اعتقاد الوحداية والتعبد بالشرائع أى العلم والعمل . انظره في سورة ( آل عمران ) فهناك ملخص الديانات في الأرض مصداقا لهذه الآية ( هذا صراط مستقيم ) هو من كلام عيسى عليه السلام ، فالصراط المستقيم علم بحقائق وعمل بشرائع ( فاختلف الأحزاب ) الفرق المتجزئة

(من بينهم) من بين النصارى (فويل للذين ظلموا) من المتحزبين (من عذاب يوم أليم) يوم القيامة (هل ينظرون إلا الساعة) والمعنى هل ينتظرون إلا الساعة (أن تأتيهم بغتة) خفاة والمقصود أنها تأتيهم لاحالة (وهم لا يشعرون) أى غافلون عنها لا شغلهم بأمور الدنيا وإنسكارهم لها (الأخلاء) الأحياء (يومئذ بعضهم لبعض عدو) فالخلة التي مبنها الباطل تبطل متى ظهرت حقيقتها ، وهؤلاء يظهر باطلهم يوم القيامة (إلا المتقين) لأن المودة أسست على حقيقة لا تنفى ، وإذن ينادى الله المؤمنين المتحابين في جلاله فيقول (يا عباد لا خوف عليكم اليوم) مما تلاقونه بعد الموت كما يخاف غيركم (ولا أنتم تحزنون) على ما خلتكم لاعتقادكم أى وكيل حكيم أتصرف فى ملكي بالحكمة والعدل ، ولكن الحزن لغيركم ، ثم وصف العباد بقوله (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) أى مخلصين (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) تسرون وتنعمون (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) جمع صحفة وهى القصعة الواسعة (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لا عروة له (وقها) فى الجنة (ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين وأتم فيها خالدون) بخلاف النعيم الذى هو زائل وهو نعيم الدنيا (وتلك الجنة التى أورتهموها بما كنتم تعملون) شبهت الجنة فى بقائها على أهلها بالميراث الباقى على الورثة ، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة والجنة خبر ، وقوله (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) فيه إيحاء إلى أنهم يأكلون بعض الثمار والباقي مزين لشجره . وفى الحديث «لا ينزع أحد فى الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلها» (إن الجرمين فى عذاب جهنم خالدون) خبر بعد خبر (لا يفترونهم) لا يخفف ولا ينقص (وهم فيه) فى العذاب (مبلسون) آيسون من الفرج متحIRON (وما ظلمناهم) بالعذاب لأننا نضع كل مخلوق فى مرتبته (ولكن كانوا هم الظالمين) هم ضمير فصل . يقول : إن العذاب راجع إلى الاستعداد الفطرى لنقص فى قابليتهم ولم يخرج ذلك عن ترتيب الدرجات على مقتضى الاستعداد ، وهذا ليس من الظلم فى شيء . فالفاعل يعطى والقابل ليس بأهل لما يفاض عليه (ونادوا) لما يبأسوا من فتور العذاب (يامالك) وهو خازن النار . قيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ يامال . فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم (ليقض علينا ربك) ليمتنا يقال قضى عليه : أماته أى سل ربك أن يقضى علينا (قال إنكم ما كثون) لا بثون فى العذاب لا تتخلصون منه بموت ولا فتور (لقد جئناكم بالحق) أى لقد جئناكم معاشر الملائكة بالحق حينما أوحى الله إلى الأنبياء بواسطة (ولكن أكثركم للحق كارهون) لا تقبلونه وتتفرون منه ، لأن الحق يوجب التعب والباطل يوجب الكسل (أم أبرموا أمرا) أى بل أأحكم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (فإننا مبرمون) كيدنا كما أبرموا كيدهم ، وكانوا يتنادون ويتناجون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة (أم يحسبون أننا لانسمع سرهم) حديث أنفسهم (ونجواهم) ما يتحدثون فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم (بلى) نسمةهم (ورسلنا) والحفظة مع ذلك (لديهم) ملازمة لهم (يكتبون) ذلك (قل إن كان للرحمن ولد) فأنا أول العابدين) منكم : أى لو صح وثبت برهان صحيح تورودونه وحجة واضحة تدلون بها أن للرحمن ولدا لكنت أسبقكم إلى طاعته كما تعظمون أنتم أبناء ملوككم فإننى أول العابدين وهذا وارد على سبيل المبالغة فى نفي الولد ، يقول : وإذا كنت أنا لم أعترف بولد بدليل أننى لم أعبد مع أى أقرب الناس إلى الله فالولد منى حتما : أى فانتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء . لازمه ثم نزه نفسه . فقال (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أى عما يقولون من كونه ذا ولد . ألا ترى أن السكواكب والشموس والأحجار والمعادن كلها لا تلد المثل كما يلد الإنسان والحيوان . وذلك لأن هذه العناصر المركبة منها تلك العوالم موضوعة للتخليط والتركيب فهى جعلت أصولا للأحياء تبرأت عما يتصف به الحيوان من توليد المثل ، فالحجر لا يلد حجرا . والأرض لا تلد أرضا مثلها ، وكذا السماء والهواء والماء فإذا كانت هذه التى جعلت أصول الأشياء تبرأت عن الولد فكيف يلد مبدعها ! (فذرهم يخوضوا) فى باطلهم

(ويلعبوا) في دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وهو القيامة (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) أي وهو الذي هو في السماء معبود وفي الأرض معبود لا إله إلا هو وإنما قلنا هو في السماء لأجل صناعة الإعراب . وقلنا معبود بدل إله ليكون مشتقاً بتعلق الظرف به (وهو الحكيم) في إبداعه وصنعه في السموات (العليم) بجميع التناجج والمقدمات ، والأسباب والمسببات ، بحيث تخللت الحكمة التي قرنت بالعلم كل رطب ويابس ، وجليل وحقير ، وهذا هو الذي يبرهن أنه المستحق للعبادة في السموات وفي الأرض لأن من يشاهد إتقان الحكمة فيهما يجد نظاماً واحداً وحكمة متسقة . هذا معنى الآية . ولما كان الناظر في علم الطبيعة والفلك وقد درس علوم الرياضات ونظر في هذا النظام يدهش لما يجد من العجائب والإتقان والصنع البديع ، ويحار لبه من تلك الحكم التي لا نهاية لها في أصغره كما يراه في جلائل الخلقوات أردفه بقوله (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما) والتعبير بتبارك لا يقوم مقامه تعبير في اللغة حتى يؤدي ما يشور في نفوس الحكماء والعلماء من مدهشات هذه الدنيا وغرائبها بحيث يرى العاقل في أدق الأشياء بدائع تحير العقول ، مثلاً ترى الملح الذي نأكله مم ركب ؟ ركب من عنصرين أحدهما عبارة عن مادة إذا وضعت في الماء التهب الماء فصار ناراً ، والعنصر الآخر سم مهلك قاتل ، فيا عجباً ! عنصران : أحدهما نار والآخر سم ، لانعيش في الدنيا إلا بتعاطي المركب منهما صباحاً ومساءً ، ولو نظر الحكيم الدارس علم الحيوان في قطعة صغيرة من جناح الناموسة لا اطلع على تفاصيل ودقائق وأوردة وشرايين ولرأى في إظهارها ما يشبه الريش محيطاً به ، وهكذا قد كشف العلماء بما نظروا بالمنظير المعظمة غرائب ينطق عندها العاقل قائلاً « وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما » .

### حيوان ذرى يدير دولاباً

قد اطلمت بواسطة المنظار المعظم عند الأستاذ شوقي بك كبير المدرس بمدرسة الزراعة بجلوان على بركة ماء يبلغ عمقها في النظر عشرة أمتار وفيها حيوانات كثيرة أصف واحداً منها بأنه يحمل عجلة وهو يديرها في لجج الماء الغزير لتحصيل رزقه ، ولعلك تقول : وما هذه البركة ؟ أقول لك إنه قد بل الزجاجة برطوبة من بركة هناك عنده ، فهذه الرطوبة لما وضعت تحت المنظار ظهرت هكذا وفيها تلك الحيوانات والنباتات والآلة الدائرة لتحصيل الرزق مع أن هذا الحيوان ودولابه الدائر لو اجتمع هو وآلاف مثله لم تره أعيننا فضلاً عن عجلته أو دولابه . هذه المعاني وأمثالها هي التي يحملها قوله تعالى « وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما » فهنا مما بينهما . واعلم أن العقول الإنسانية تبقى راكدة حتى تحركها أمثال تلك العلوم . وإنهاض القلوب على قسمين : قسم بما قلناه من أمثال تلك العلوم إذا قرىء على الوجه الذي قررناه . وقسم بظهور أصحاب العقول الكبيرة الذين يحملون الشعوب على انتهاز خطة الكمال ، وقد آن أو ان ظهور الأمرين معا في أمة الإسلام ، فسيظهر أهل العقول الكبيرة ومعهم تلك الحكم العالية ، وهذا هو الذي يديم الأمم وبقائها . ولما كانت هذه العجائب لا يعلمها إلا الله وحده ، والناس لا يعلمون إلا قليلاً مع أنها بين أيديهم كانت الساعة أولى أن مجهولها فأعقبه بما يدل على ذلك فقال ( وعنده علم الساعة ) التي تقوم القيامة فيها ( وإليه ترجعون ) للجزاء . ولما كان ذلك اليوم يكون فيه الحساب والشفاعة قال ( ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ) من معبوداتهم كالأصنام والملائكة والمسيح ( إلا من شهد بالحق ) بكلمة التوحيد ( وهم يعلمون ) أن الله ربهم حقاً ويمتقدون ذلك ، فهؤلاء هم الذين يملكون الشفاعة كالملائكة والمسيح لأن الشفاعة على مقدار وصول الآثار العلمية والدينية وكل من وصله علم المسيح قبل النسخ وهكذا المؤمنون من جميع الأمم الذين

لم تنسخ دياناتهم يشفع لهم أنبياءهم وعلماؤهم وشهداؤهم كما في الحديث والملائكة من باب أولى لأنهم الوسطة (ولئن سألتهم) أى المشركين (من خلقهم ليقولن الله) لا الأصنام (فأنى يؤفكون) فكيف أومن أين يصرفون عن التوحيد وهذا إقرارهم ، ثم عطف لفظ قبيله من (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) على الساعة أى وعند الله علم الساعة وعلم قول رسول محمد صلى الله عليه وسلم «يارب الخ» وقرى مجروراً ومنصوباً وهو فى الثانى عطف على محل الساعة لأن إضافة العلم للساعة من إضافة المصدر لمفعوله فتحملها نصب ، فلما شكنا صلى الله عليه وسلم إلى ربه عدم إيمانهم أجابه الله قائلاً (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم وأنت آيس من إيمانهم (وقل لهم) لهم (سلام) أى متاركة فلا تدع عليهم بالعذاب ولا تدعهم للدين (فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم وتنصر عليهم . انتهى التفسير اللفظى .

### فى هذه السورة سبع لطائف

- ( ١ ) فى قوله تعالى «إنا جعلناه قرآنا عربيا» مع قوله « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وقوله « وإنه فى أم الكتاب لدينا » الخ .
- ( ٢ ) وفى قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » إلى قوله « وإنا إلى ربنا لمنقلبون » مع قوله « سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون » إلى قوله « فأنى يؤفكون » .
- ( ٣ ) وفى قوله « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة » الخ .
- ( ٤ ) وفى قوله « قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » مع قوله « وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك » الخ . وفى قوله « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » مع قوله « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب » وقوله « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون » .
- ( ٥ ) وفى قوله « حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشركين » مع قوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .
- ( ٦ ) وفى قوله « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها » .
- ( ٧ ) وفى قوله « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا » .

### اللطيفة الأولى والثمانية

قد علمت فيما مضى من السور أن «حم» تشير فى هذه السور إلى الحمد ، وأن الحمد هو مناط العلوم كلها والحكمة ، فأول هذه الأمة الإسلامية حمد ، وآخرها حمد ، وفى صلاحها حمد ، وفى أكلها حمد وفى لبسها حمد . وفى سفرها حمد . وفى جنتها حمد ، يقولون : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » وأيضاً على لسان الملائكة حمد لأنهم يسبحون بحمد ربهم والحمد يكون على النعم : والنعم لا يحمدها إلا إذا عرفت .

فرجع الأمر إلى العلوم وعجائب الصنع والحكمة في السموات والأرض . أما علوم اللغة من النحو والصرف والمعاني وأمثالها فما هي إلا آلات ؟ وأما علوم الفقه ومقدماتها كالأصول وما يلحقها من علوم الجدل فإعما هي للقضاء وحفظ نظام الدولة الظاهري . أما امتلاء العقول بالحكمة وإظهار رجال عظماء في أمة الإسلام وحفظ البلاد من تألب الأمم عليها ورفدها بالخيرات والثمرات والنعم ، فذلك لن يكون إلا بعلم السموات والأرض وبعلم الكيمياء والنبات والحيوان والتشريح وطبقات الأرض والهواء والبحار ، ألا تراه ابتداء السورة قائلا « حمّ » مشيرا للحمد ؛ ثم أعقبه بذكر القرآن العربي لأنه الدليل على ما يجب على الناس ، ثم أبان منزلته في علوه عنده تعالى وحكمته فهي أعلى المنزلة وهو موسوم بالحكمة . ومن الحكمة ما ذكره في اللطيفة الثانية من شهادة الفطر بأن الله خالق السموات والأرض صاحب العزة والعلم الذي مهد الأرض وجعل فيها السبل وأنزل الماء من السماء فأخرج به النبات والأنعام وجعل السفن ، وأيضا ذكر أنه معبود في السموات والأرض ورب السموات والأرض ورب العرش ، كل ذلك مناط الحمد الرموز له بلفظ « حمّ » فالحمد لله رب العالمين .

والترية هنا أضيفت إلى السموات والأرض وأضيفت إلى العرش ، فيرجع مدار إسعاد أمة الإسلام إلى معرفة العوالم كلها وتربية الله لها ، وهذا هو الذي بيناه في ( سورة الفاتحة ) فارجع إليه فإنها أشارت لمجامع العلوم ، وكأن سور آل حم جاءت مفصلات للحمد المذكور في الفاتحة ، وقد جعلت آل حم رياض القرآن ومعلوم عند أكابر الحكماء من أمتنا الإسلامية أن رياض الجنة العلوم ، فالفاتحة بها تفتح أبواب الجنات وهي العلوم عند الحكماء في الإسلام وتفتح أبواب الجنات الحسية عند العامة ، فليس يعقل جنات العلوم إلا الذين أدركوها في هذه الدنيا ، فهؤلاء يتمنون جنات العلوم ولا تهمهم الجنات المحسوسة ، والعامة وضغار العلماء لا ينظرون إلا إلى الجنة المحسوسة ، ففي هذه السورة أشير إلى مجامع الحمد بالآيات التي ذكر فيها السموات والأرض وأضيف الرب إلى العرش تارة وإليهما تارة أخرى ، وكذلك شهدت الفطر بأن الله خالق ذلك كله وهذا القول منزل للأمة الإسلامية كلها عربيها وعجميها ، أما الذي يدهش العقول ويحير الألباب أن أبناء العرب اليوم مسئولون أمام الله وهم ناعمون .

يا أبناء العرب : يامن أنتم اليوم في شمال أفريقيا في تونس والجزائر ومراكش ومصر والشام والعراق واليمن والحجاز وغيرها ، أنتم نيام ، ألا تنظرون ، ألا تفكرون ، اسمعوا كلام ربكم ، يقول : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ووصف هذا القرآن بأنه على المنزلة ، حكيم النظم والمعنى ، ثم في نفس هذه السورة قال : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وهذا أمر عظيم ، فأبناء العرب اليوم مسئولون عن هذا القرآن وحقه ونشره بين الأمم ، إنكم يا أبناء العرب لاتقدرون أن تنشروا هذا القرآن إلا إذا كنتم أنتم للعلوم دارسين ، وللحكمة عاقلين ، حتى إذا نشرتموها نشرتم ما يشير إليه من العلوم ، وليس معنى هذا أنكم تدرسون كل علم وكل فن . كلا . بل أقول إن من اطلع على ما كتبت في هذا التفسير وقرأ بعضه بنظام في جميع القرآن فقد أدرك كيف يدعو إلى القرآن . إن الله يا أبناء العرب سائلكم فشمروا عن ساعد الجد ، يا أبناء العرب نتم عن هذا القرآن بما كان لكم من الصولة والدولة وقام بنصره فريق من أمة العجم جزاهم الله خيرا ، ولكن أتم أصل اللغة ، فإذا نشرتم القرآن وكنتم عالمين بالحكمة انقادت لكم الأمم انقيادا أديبا والأمم اليوم لا تعرف إلا الحججة ، فلتكن لكم جمعيات منظمة تدرس نظام هذه الدنيا ومقاصد القرآن مع الإمام ببعض اللغات .

يا أبناء العرب : إن أهل أوربا يريدون منكم نشر دينكم . يا أبناء العرب ، أقول لكم ذلك عن علم

فإني سمعت ( اللورد هدى ) الإنجليزي لما حضر إلى الجامع الأزهر وهو يخطب يقول : ( إن ثلاثة أرباع الأمة الإنجليزية اليوم يريدون أن يسلموا ، وما منهم إلا أنهم لا يجدون قوة علمية مع هذا اللورد ومن معه تقوم بنشر حقائق دين الإسلام ويكونون قوة يحتج بها من أراد اعتناق الدين أمام آباءه وإخوته وأصحابه ) فأينما ولى الأوروبي وجهه لا يجد عربيا واحدا ينصر هذا الدين وقيم الحجة ويعلم الدين هناك .

يا أبناء العرب : هذا زمان مجدكم . يا أبناء العرب : إن ربكم يقول « وسوف تسألون » . أما نبينا صلى الله عليه وسلم الآن فليس بمسئول لأنه بلغ ونحن الآن المسئولون ، نسأل بين يدي الله تعالى ، إن الأمم سئمت تلك الديانات الباردة والتي قُرت ، ودينكم هو الذي يليق بالعصر الحاضر .

فإذا أعرضتم عن نشره فاعلموا أن الله لكم بالمرصاد ، فالنار تحت الأجل في باطن الأرض ، والنار قد ظهرت في الأعمال الحربية في أوربا ، وأصبحت الأمم المقصرة في العلوم الواجبات تحت رحمة أصحاب النار الذين يرسلونها من طياراتهم ، فهبوا من رقدتكم واقروا العلوم كما أوضحتها في هذا التفسير . ثم لتكونوا شهداء على الناس ، ولتكونوا حزب الله ، لتكونوا ناصرى العلم الحكمة ، لتقوموا بتمدين النوع الإنسانى بعد أن ترقوا ؛ ليس في الأرض اليوم شعب يقدر أن يكون بهذا غير العرب ، العرب قاموا بدورهم أيام القرون الأولى ولكن دورهم الحالى أهم وأعظم ، دورهم الحالى قراءة العلوم كلها ونشر القرآن بحكمته هو الذى يفهم الأمم أن العلوم المنتشرة في الدنيا يطلبها القرآن .

قولوا يا أبناء العرب للأمم : هذا القرآن نزل بلغتنا ونحن نحفظه وتركنا العلوم وربنا الذى هو ربكم ورب كل شئ ألهمكم أن تستخرجوا العلوم من كنوزها في الأرض وفي السموات ، فإذا هو أنزل إلينا لفظه وألهمكم ما يتضمنه من المعاني ، إن ربنا عدل حتى لا نقول نحن سادات العالم بالعلم والدين ، وحتى لا تقولوا أتم نحن سادات العالم بالأمرين ، فأعطانا ديننا حقا ، وأعطاكم سره ، فعندنا لفظه وعندكم معناه ، ونحن اليوم نقرؤه عليكم ونبين مواضع علومكم منه وهى تتخلل كل سورة وكل آية ، بل الحروف الهجائية في أوائله تشير إلى مجامع علومكم ، فلسنا نفتخر عليكم ولستم تفتخرون علينا ، فإذا قلنا هو ديننا نزل بلساننا تقولون أتم ولكن الله أظهر أسراره على أيدينا وقوله تعالى « وقل الحمد لله سيربكم آياته فتعرفونها » يشير إلى الآيات التى ظهرت على أيدينا . وقوله « سيربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » كذلك ، فإذا أتم حملتم لفظه وبعض معانيه ، ونحن قرأنا ما هو مقصوده ومعناه ، والله هو الذى أحوج أهل الشرق لأهل الغرب كما أحوج أهل الغرب لأهل الشرق ؛ فهؤلاء بدينهم وهؤلاء بعلمهم ، وهذا مما يشير له الحديث « ليلبغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » فنحن المبلغون وأتم المبلغون : والله أراد أن نتعارف وبمثل هذا يتم التعارف ، فنحن معاشر الأورباويين أخذنا أبائنا العلم عن آبائكم وآبائكم أخذوا العلم عن أمم أخرى ونحن دخلنا العلوم من أبوابها وأظهرناها فقر آتموها ، فلنا الفضل في حفظها وارتقاؤها ولكم الفضل في حفظها سابقا وفي حفظ الدين الإسلامى سابقا ولاحقا . هذا هو الزمان الذى يقال فيه هذه المحاورات ، والله هو الولي الحميد .

واعلم أن هذا الأسلوب من الدعوة هو الذى سينشر في مستقبل الزمان وهو بعض الذى يقصد من قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » وهذا ظهور حجة وبيان ، وقد ظهر كثير من ذلك أيام الحروب الصليبية ، فان أهل أوربا كانوا كالوحوش جهلة ذلك التاريخ ، ثم أخذوا في الرقي شيئا فشيئا ، ولما جاءت الحروب الصليبية خلعوا لباس الجهالة ولبسوا لباس الحكمة ، وأذكرك من ذلك :

(١) إن البابا كان معتبرا عندهم كالفطرب عند المسلمين ، وكان له الملك السيسى فى الأرض التى تحت سلطته ، وقدم ملك أهل إيطاليا سنة ٧٢٦ ميلادية الموافقة سنة ١٠٨ هجرية البابا عليهم فجعلوه رئيس النصرانية ، ثم توسع أتباعه فى ذلك قرنا بعد قرن حتى صاروا يولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون من ملوك أوروبا .

(٢) وكان لكل ملك تاج ولهم ثلاثة تيجان .

(٣) وكانوا إذا ركبوا يمسك لهم الركاب ملوكهم .

(٤) وإذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد .

(٥) ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حى .

(٦) وكان البابا مرة أكرم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام فى فصل الشتاء أمام باب قصره

ليطلب منه الغفران

(٧) ورفض البابا مرة برجله تاج ملك جرميا حيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران .

وبهذه الأفعال أخذت سطوة البابا تتمحط شيئا فشيئا الى سنة ١٢٨٨ هجرية فدخل الإيطاليون عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثوليك ومقره فى الكنيسة الرومية . وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى والثانية ، والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »

هذه الآية وأمثالها كثير فى القرآن قد تقدم القول عليها فى غير ما موضع . فإن النوع الإنسانى لكونه فى هذه الأرض التى تعتبر أنها فى الطبقة المتأخرة من العوالم ليس كاملا كل الكمال فهو فى عالم متأخر يعاشر الحيوان الذى لا رأى له بل يسير بما فطره الله عليه ، فأدنى الإنسان قريب من الحيوان ؛ قل فيه المفكرون الذين يجتازون تلك الأسوار المنيعة ، والحصون الشاهقة ، والأشواك الشائكة ، والطرق الوعرة ، والبحار الواسعة ، والجبال الشاهقة الفاصلة بينه وبين التفكير . إن الناس خلقوا بين أوهام وآراء تقف أمامهم سدا وحائلا أشد مما ذكرناه ، فإذا ما أثار الله بصائر الناس هدموا تلك الحصون ، وأزالتك الجبال ، وكسروا تلك الحوائل ، وعبروا الأنهار ، ووصلوا الى الحقائق سالمين ؛ وكثير منهم يهلكون ، أثناء الطريق لعدم قدرتهم على تلك المشاق العظيمة .

هذا كله من التقليد الذى ملك مشاعر هذا الإنسان الذى يعيش بالتقليد ويموت على التقليد بل جميع الديانات تقليد . فالمسلم والوثنى والنصرانى كلهم مقلدون ، متبعون لامبتدعون ، والله أظهر قهره للإنسان بهذه الأحوال ليفكر المفكرون ، ويعتبر المتعبرون ، ويخرج فى كل أمة مجتهدون عاقلون ، وقوله تعالى فى هذا المقام « قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فتح باب للنظر والعلم ، إن الأمة الإسلامية فى الأعصر الأخيرة غفلت عن هذا النور ، فهم أمروا بهذه الآية أن يتبعوا ما هو أهدى وما هو أحسن كما فى آية أخرى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فنحن ما مورون باتباع الأحسن وباتباع الأهدى فى كل زمان ، هذه فتح باب للنظر فى كل صناعة وكل علم ، فلندرس طرق البحار والهواء والحرب والسلم والسياسة ونسبع ما هو أسلم لنا . هذا هو الدين وهذا هو القرآن . وما سواه ضلال . تم الكلام على اللطيفة الثالثة .

### اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » مع قوله « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك » وقوله « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم » مع قوله « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب النخ »

الناظر في هذه السورة يرى أمر القصص واضحا، فإن نبأ موسى عليه السلام فيه مسائل كثيرة نذكر هنا ما يناسب المقام . إنه تعالى ذكر قول مشركي مكة هذا سحر ، وأتى من قصص موسى عليه السلام بما يناسبه فقال « وقالوا يا أيها الساحر » . وأيضا هزم الله فرعون ونصر موسى ، فهكذا محمد ﷺ يكون مثله وقد تم ذلك فإنهم قالوا ساحر كما قال قوم فرعون لموسى ، ثم نصر النبي ﷺ كما نصر موسى . وأيضا قال مشركو مكة : إن الأولى بالنبوة الرجل العظيم في المال والجاه ، فهكذا قال فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » وقال أيضا « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب » النخ أى إن النبوة إنما تكون لمن أعطى الملك وعزة الحياة الدنيا ، وكانت نتيجة ذلك أن نصر موسى هكذا يا محمد سيكون شأنك وقد تم ذلك ، واعلم أن هذا المقام يفتح لك باب التفكير في قصص القرآن . ويدلنا أن هذا القصص غير مقصود لذاته فيؤتى منه بالشواهد التي تكون تسلية للنبي وللمؤمنين وحكمة ، وهذا يدلنا أن التواريخ ليست مقصودة لذاتها بل يراد بها الحكمة والعلم واتباع الحجة المثلى . فلنرجع إلى قصص القرآن ولنفكر في المقصود منه لافى أصل القصة وحقائقها فإن ذلك ليس مقامه بل مقامه الاعتبار والحكمة والنتائج وهذا من غرائب الحكمة والعلم .

فالحكمة في ذلك أن لا يدرس التاريخ إلا للنتائج ولا يترك سهيلا ، بلا تنظم دروسه ، وتتخذ نتائجها منارا تهتدى به الأمم الإسلامية ، فليقرأ المسلمون تاريخهم ، وليأتوا بمقاصده الحكمة، والله حكيم عليم . انتهت للطيفة الرابعة .

### اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى « حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشركين فيئس القرين » وقوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين »

في هذه الآيات أصول المحبات والعداوات ، إن المحبة لا تكون إلا بأسباب ، ولا محبة بلا سبب فمن قال « أنا أحب فلانا لله » ظانا أنه لا سبب له فهو جاهل ، بل الحب حبان : حب في الله وحب في غير الله . فأما الحب الذي هو لله فهو المبني على العلم والطاعات والحكمة ، ولذلك ترى الذين استووا في أخلاق واحدة وعلوم متحدة وعقائد صادقة تكون بينهم المودة والمحبة على مقدار تكامل هذه الصفات فيهم ، وكلما تباعدت الصفات تقاصرت المحبة حتى إذا ما تنافرت أغلبها حصل التنافر العظيم ، فمن كانت موداتهم ترجع إلى الطاعات فحبهم في الله ، ومن كانت موداتهم على الشرور كالقتلة والفسقة فهي لغير الله ، ومستحيل أن تكون محبة بلا سبب . فإذا قال امرؤ أنا أحبك لله وظن أنه لا سبب له فهو مخطئ ، وعلى ذلك إذا أحب الإنسان أباه

وأستاذة وتلميذه والصانع الذي صنع له حذاءه فشكل هذا الحب في الله لأن الأسباب التي أوجبت الحب لامعصية فيها لأنها إما مباحة ، وإما واجبة ، أو مندوبة .

### نتائج تلك المحبات

وتسكون نتائج تلك المحبات بقاء ما كان أصله الطاعة وانحلال ما كان أصله المعصية ، وبيانه أنك ترى القتل والفسقة والذين يشربون الخمر ومشاغلهم يجتمعون ويتحابون ، فإذا وقفوا أمام القضاء أقر كل منهم على صاحبه بقتل أو بسرقة ، فذهبت تلك المودات ، وضاعت تلك الصداقات ، فهذا الذي نراه في الدنيا هو بعينه ما يرى يوم القيامة وبعد الموت ؛ فإن من أضل جاهلا يعرف بعد الموت أن ضلاله من إضلال قرينة فيكرهه يوم لا ينفع ذلك ولا الندم على ما حصل . فأما المتقون الذين كانوا على الصلاح وعلم الحقائق فإنهم بعد الموت لم يروا ما يناقض أسباب مودتهم ومحبتهم ، فتزيد لألفة الجامعة كما تهدمت الألفة الفاسدة . هذا معنى قوله تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » انتهت اللطيفة الخامسة .

### اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة »

تقدم أنك قرأت أن الضمير يرجع للقرآن لأنه مشتمل على بيانها فهو مبين لأمر الساعة ، وهذا الرأي على غير ما قال به جمهور المفسرين فإنهم قالوا إن الضمير يرجع لعيسى عليه السلام ، وفي هذا الاحتمال وجهان : الأول أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان ونزوله يعلم به قرب الساعة ، وقرئ علم كقمر أى علامة على قرب الساعة . الثاني : أن إحياءه الموتى بإذن الله دليل على أن الله قادر أن يحيى الموتى يوم القيامة . فها هنا يكون الوجه الأول والوجه الأخير لادليل فيهما على نزول عيسى آخر الزمان . والوجه الثاني هو الذي يدل . ولذلك ترى التفتازانى وبعض العلماء لم يجعلوا في الآية دليلا على نزول عيسى عليه السلام .

إذا عرفت ما ذكره العلماء في القرآن فهل لك أن تسمع الأحاديث الواردة في الصحيحين في أمر عيسى عليه السلام .

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » .

وفي رواية أبي داود : قال : « ليس بينى وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم الخ » . وفي حديث الشيخين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم » .

وهناك روايات أخرى ليست في الصحيحين مثل إنه يقتل الدجال ، وإنه يأتي بيت المقدس . والناس في صلاة العصر فيتأخر الامام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصراني إلا من آمن .

هذا ما جاء في الروايات وقد علمت ما صح منها فأما ما عداها فليست عن الشيخين ، ومحصل الكلام في أمر

عيسى عليه السلام أن القرآن لم ينص عليه فإن في الدليل احتمالا ، وأنى في الصحيحين ما سمعته وما زاد فليس فيهما .

### الكلام على المهدي

واعلم أن الكلام على المسيح يستدعي الكلام على المهدي ، وخير من كتب في أمره هو العلامة ابن خلدون ، لقد عقد فصلا لهذا الموضوع . هكذا « فصل في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك » وقد ذكر في هذا الفصل الأحاديث الواردة في المهدي وزوله في آخر الزمان وآراء المتصوفة وكبار الشيوخ ومحص الموضوع تمحيصا .

### الأحاديث المروية

ذكر الأحاديث التي رواها الترمذي وأبو داود والبخاري وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي ، وذكر أنهم أسندوا تلك الأحاديث إلى الصحابة رضي الله عنهم مثل علي ، وابن عباس وابن عمر ، وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وقرّة بن إياس ، وعلى الهلالي وعبد الله ابن الحرث . وقال إن تلك الأسانيد عارضها قوم بالإنكار ، والمعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل ، ومن جملة الأحاديث ماراوه أبو بكر الإسكافي : « من كذب بالمهدي فقد كفر ، ومن كذب بالدجال فقد كفر » ، وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك . ويقولون إن أبا بكر الإسكافي عندهم متهم وضاع للأحاديث . وهناك ذكر الأحاديث الكثيرة مثل أن المهدي يكون اسمه على اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه على اسم أبيه صلى الله عليه وسلم وقد أطلال في ذلك واستوفى المقام ، وكنت أود الإطالة بذكره ولكن المقام لا يحتمل ذلك في مثل هذا التفسير . ثم قال : فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان ، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل ، والأقل منه ، وقد تقدم الكلام في هذا الموضوع مطولا في أول سورة الحج فارجع إليه إن شئت .

### آراء الصوفية وكلامهم في أمر المهدي

ذكر العلامة ابن خلدون في هذه المقام أن السلف الصالح من الصوفية ما كانوا يتعرضون لمثل هذه الأمور ، فلا يذكرون المهدي ولا خروجه وكانوا يحرصون على المجاهدة ونتائجها ، وكان الإمامية والرافضة من الشيعة يرجع كلامهم إلى التبري من الشيخين أولا ثم حدث فيهم القول بالإمام المعصوم وألقوا كثيرا في ذلك ، وجاء الإسماعيلية منهم فادعوا ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة على طريق التناسخ ، وآخرون ينتظرون مجيء من يقطع بموته منهم ، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين بتلك الأحاديث المطون في أسانيدهم ثم ظهر عند المتأخرين منهم الكلام في الكشف ومعرفة ما وراء الحس والقول بالحلول والوحدة فشاركوا الإمامية والرافضة القائلين بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم ، وهكذا القول بالقطب والأبدال وهو يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والقباء ، وأشربوا أقوال الشيعة وظهر في كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة مثل ذلك في الفاطمي المنتظر . كل ذلك مبني على أصول واهية ، ومن هؤلاء ابن سبعين .

وقال ابن عربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه : (وهذا الإمام المنتظر من أهل البيت من ولد فاطمة . وظهوره يكون بعد مضي ستمائة وثلاث وثمانين سنة ، ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر أخذوا يؤولون ولم يتم شيء . قال : وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم الحمدي الذي ابتداءه وفاته صلى الله عليه وسلم ونهايته ألف سنة .

وذكر الكندي أن هذا الولي يجدد الإسلام ، ويظهر العدل ؛ ويفتح الأندلس ، ويصل إلى رومية فيفتحها : ويسير إلى المشرق فيفتحها ، ويفتح القسطنطينية ، ويصير له ملك الأرض ، فيقوى المسلمون . ويعلو الإسلام ، وحدد لذلك سنة سبعمائة وثلاث وأربعين ، ثم يعقب ذلك سبع سنين للدجال . ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر . فيصلح الدنيا ، وتمشي الشاة مع الذئب . وأطال في ذلك رحمه الله وأنا قبره وأنعم عليه بالنظر إلى وجهه الكريم .

إني حينما أقرأ أمثال هذا في كتب أسلافنا يأخذني الأسف على هذه الأمة المسكينة التي كثر فيها الخلط والخبث والتحريف ، حتى إن أكبر العلماء يضل في مثل هذه الأمور ، ومن العجيب أنه ينقل عن متصوفة عصره ما سمعه من متصوفة عصرنا ، وكل له خبط وخلط وأمانى وأضاليل . وقال إنه سمع في عصره عن المسمى أبا يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب في أول المائة الثامنة أن ظهور المهدي قريب . فالأولون والآخرون يقولون وينتظرون وتذهب الأعمار ولا يحصلون على طائل .

### رأى العلامة ابن خلدون

يقول : ان الملك لا يقوم إلا بشوكة وعصبية . يقول : وعصبية الفاطميين في زمانه قد تلاشت وهكذا قريش أجمع . وظهرت أم غلبت عصبيتها عصبية قريش ، ثم قال : إن بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة بنى حسن وبني حسين وبني جعفر . قال : فإذا صح ظهور مهدي فليكن منهم . وملخص كلامه أنه لا يظهر إلا في عصبية . وأما مجرد النسبة إلى آل البيت فلا يكفي .

وقد ذكر جماعة ممن قاموا بدعوة المهدوية ولا عصبية لهم قتلوا (مثال ذلك) أنه قام رجل ينتحل التصوف وادعى المهدوية برباط ماسة لأول المائة الثامنة فاتبعه خلق كثير من السوس ، فدس عليه رؤساء المصامدة من قتله بياتا وأنخل أمره ، وكذلك ظهر قبله بسنين قليلة رجل يسمى العباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه قوم ، ودخل مدينة فاس عنوة وأحرق أسواقها ، ودخل غيرها فقتل في الزمة غيلة وأنخل أمره .

### فكرة عامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي

قد رأيت أن المهدي أحاديثه مطعون فيها وليس له في القرآن ذكر . وقد ظهر بعد أيام العلامة ابن خلدون الشيخ السنوسي ، ويقول أتباعه إنه المهدي المنتظر : وهكذا ظهر في السودان المهدي السوداني وهو الذي تركته دولة انكلترا حتى استفحل أمر التعايش بعده . وانقضت عليه بعساكر بلادنا وعساكرها وهي تحكم بلادنا المصرية . فأزالت الملك وانتهى أمر المهدي أحمد . وقد ظهر في الإسلام بعد ابن خلدون أيضا من قال إنه هو عيسى وهو بهاء الله في بلاد الفرس وأتباعه يسمون البهائية ولهم انتشار في أوروبا وأمريكا .

وظهر في زماننا رجل في الهند جعل نفسه عيسى المنتظر . ويقال إنه نسخ الجهاد وأقر لانكلترا بأن تحكم المسلمين وهو بذلك مستبشر فرح وهو الملقب بالقباداني .

فياليت شعري ماذا يتخذ الإسلام من هذه المصائب التي حلت به . خرج المهديون وقد كثروا فمنهم من قتل ومنهم من بقي ملكه سنين ومئات السنين ثم ذهبت دولهم وخرج الذين يقولون إنهم هم نفس عيسى الموعود به في القرآن احتمالا وفي الحديث صريحا والأمة في ذلك لاتعرف كيف يكون المخرج . وإذا كان في الإسلام الآن «عيسىان» والسكل عيسى منهم أتباع فرمما جاء بعدهم غيرهم وهكذا . إن هذا تفريق لدين الإسلام وإضعاف له ، فالعامة يخرفون بالمهدى قديما وحديثا ، ويرون من يقول أنا عيسى فيحار أمر الناس في ذلك «والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» .

### رأى المؤلف

اعلم أن الأمة الإسلامية لاخرج لها من الجهالة العمياء والذلة إلا بدراسة العلوم والوقوف على الحقائق ليكن فيها اختصاصيون في العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخ والحديث والتصوف وهكذا حتى يقف الحواص على حقائق هذه الدنيا . وإذن يسهل عليهم معرفة الحقائق ، أما رأي في المهدي فواضح . فقد قام بالأمر العلامة ابن خلدون وأظهر الحقيقة ناصعة ، وأما الكلام في عيسى عليه السلام فاعلم أنه أقوى من المهدي لأنه جاء في الصحيحين . وجاء أنه يجعل الدنيا دار سلام ويكون على دين الإسلام الخ . وملخص ذلك أن هذه الأرض التي نسينها تتبدل حالها وتكون حالها أجمل مما نحن فيه . وإذا نظرنا نظرة صادقة لهذا الموضوع أيقنا أن ذلك لايم في يوم أو سنة أو قرن لأن انقلاب الإنسانية من هذه الحال إلى تلك الحال يحتاج لقرون فإذا عاش عليه السلام في الأرض سبع سنين أو أكثر أو أقل كما في الروايات الواردة فهذه المدة لا تقلب الأمم لأن هذه ليست سنة الله وهو عليه السلام نزل إلى الأرض قديما فرجع الناس لحالهم بل أرادوا صلبه فشبهم . وجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض وأمر الدنيا بعده معلوم . فإذا نزل المسيح مرة أخرى لا يكون إلا بعد انتقال الأمم من هذه الحال تدريجا إلى حال تصبح الأرض فيها أشبه بالفردوس ، ولعل العقول إذ ذاك يكون لها شبه علم بزوله عليه السلام : فإذا نزل تقبلته بالقبول هذا ما يمكن أن يقال والله أعلم .

### فائدة هذا الموضوع كله

ها أنت ذا قرأت الأحاديث الواردة في المسيح عليه السلام وقد دخل في جملة الأمور الاعتقادية في الأمة وإن لم يكن صريحا نصه في القرآن ، ولكن أحاديث الشيخين لهما منزلة القبول في الأمة . وإذن يزيد أن نعرف فائدة هذا الاعتقاد فنقول :

لقد علمت مما أسلفنا في هذا التفسير أن الأمة الإسلامية عليها أن تقوم بما عليها للإنسانية فهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء الله على الناس كما أن الرسول شهيد علينا ، وهذا الدين وعد الله بظهوره على جميع الأديان ، فهذه وأمثالها ترجع إليها لأنها ظاهرة واضحة ، وإذا ضمنا إليها أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونحن معاشر أمة الإسلام اليوم في الأرض قاعون بشريعته فنحن إذن يجب أن نكون رحمة للعالمين وعلى هذا يكون المسلمون يوما ما يقودون الإنسانية إلى السلام العام والإنسانية الخالصة ، وتكون الأمم بسبب نشر المعارف والعلوم قد اقتربت من السلام العام ، وتكون أمة الإسلام قد أصبحت صاحبة الفضل الأكبر في ذلك ، إذن تسرى الروح العيسوية في العالم بسبب الإسلام وظهور حقائقه الموعود بها بمثل قوله تعالى «سأريكم آياتي فلا تستعجلون» ومثل «سأريكم آياته فتعرفونها» ومتى سرت الروح العيسوية في

الأرض بسبب دين الإسلام فهناك حين يظهر المسيح يجد الأمة مستعدة للإسلام العام ، وسواء أنزل هو بنفسه أم كانت النفوس قد أشربت السلام فيكون ذلك رمزا ، فمثل هذا لا تعرض له ، فهو خاص بعلم الله تعالى والذي في قدرتنا أن نقوله : على المسلمين اليوم أن يأخذوا دورهم في الرقي ، وأن يكونوا دعاة الإنسانية والسلام والمودة وأن ينشروا العلوم ، ويكون الإسلام ممزوجا بما كشفه الناس في العصر الحاضر ، وتكون دعوته قائمة بنفس العلوم كما سطرناه في هذا التفسير ، أما أن يقوم في كل قرية رجل ويجعل له أتباعا ويقول أنا المسيح ، فهذا مالا يطيقه الإسلام ، وإذا كان هؤلاء الذين ظهروا كل واحد منهم هو المسيح فأين السلام في الأرض ، وما هذا التعدد ؟ مع أن عيسى واحد لاثنان . وكيف نرجع أحدهما على الآخر ؛ وأين السلام في الأرض .

فالقول العدل أن الأمة الإسلامية التابعة للمذاهب المختلفة يجب على رؤسائها أن يوجهوا همهم إلى تعميم التعليم وإكثار المدارس ونشر فكرة العلوم ممزوجة بالدين كما أوضحناه . ومتى تنورت الأذهان ووضحت الطرق طاحت تلك الدعاوى من النفوس أي إننا لانشغل أنفسنا بتكذيب أحد من مشايخ الطرق ولا اليسويين ولا المهديين ، ولكن نقول : ليقرا أتباع هؤلاء الشيوخ العلوم فيعلمون الحقائق : وربما كان أساتذتهم هم الذين يمنعونهم العلم خيفة اطلاعهم على الحقائق فيستصغرون شأنهم ، فأنا أوصي قراء هذا التفسير أن يذيعوا بين الأمة العلم والحكمة . وبذلك وحده يظهر المسلمون ويكونون خير أمة أخرجت للناس ويستعدون للروح العيسوية حتى إذا جاء أوانه فهموه فنزل فيهم . وأما مادام المسلمون على هذا المنوال فكيف ينزل المسيح في قوم جاهلين ربهم ونظامه وجماله وحكمته .

ولتنصح أيها الذكي الأمة أن تقلع عن انتظار من يأتي إليهم من المهديين . فوالله لا مساعدة لأمة إلا بجهدها واجتهادها . إن نفس الأنبياء لم يرسلوا إلا في أوساط تناسبهم . فليرق الشعب نفسه بالعلم والعمل والحب العام وينتظر بعد ذلك نعم الله عليه . فليس يقرب المسيح طبائهم بل يأتي إليهم وهم مستعدون للسلام العام . تم الكلام على اللطيفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة السابعة

في قوله تعالى : «فاختلف الأحزاب من بينهم»

اعلم أن النصراني بعد رفع المسيح عليه السلام كانوا مقرين بالوحدانية ولعيسى بالرسالة . ثم بعد رفعه دخلت شبه فانقسموا ثلاث طوائف : ملكانية . ونسطورية . ويعقوبية . فالملكانية مصرحة بالتثليث فهم يقولون : ( الآلهة ثلاثة : المسيح . وأمه . والله ) ويقولون : ( إن المسيح ناسوت كلي قديم . ومريم ولدت ولدا أزليا . والله هو الأب . وعيسى هو الابن ) اطلاقا حقيقيا عندهم . وأما النسطورية فإنهم يقولون ( إن الكلمة أشرفت على جسد عيسى كإشراق الشمس على كوة أو بلور ) . وأما يعقوبية فيقولون : ( انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو نفس المسيح ) وإلى الملكانية الإشارة بقوله تعالى ( لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ) وإلى يعقوبية الإشارة بقوله تعالى ( لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ) ثم إن الملكانية هم المسمون الآن ( كاثوليكية ) . فأما يعقوبية والنسطورية فهؤلاء ليسوا في أوروبا ، وربما يكونون في الشام ومصر والعراق والحبشة : وإنما الذي حدث في أوروبا هو مذهب

البروتستانت والكاثوليكية . والبروتستانت يقرون بالبعث . والبعث إما بالأرواح والأجساد ، وإما بالأرواح فقط ، خلاف بينهم . ثم إن لفظ كاثوليكية كلمة مدح لأنها كأهل السنة عندنا . ورئيس المذهب الكاثوليكي هو البابا برومة في دولة إيطاليا . فله اليوم الرئاسة الباطنية كلقب عند المسلمين وكشايخ الطرق ، وتقدم قريبا ظم البابا لأهل أوروبا وملوكها فأنحطوا وذهبت رئاستهم . ثم إن الكاثوليكية بقوا على مذهبهم إلى القرن التاسع الهجري . فظهر منكرون للبابا برومة فصاروا يسمون المنكرين (بروتستانت) وهي كلمة أشبه بكلمة الخوارج أو المعتزلة عند المسلمين .

وملخص ذلك أن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت هو البابا ، فمن اعترف ببابا رومة فهو كاثوليكي ومن لم يعترف به سموه بروتستانتى فيأنف ويقول أنا كاثوليكي وإن كان لا يعترف برئاسة البابا ، والبابا من جملة الأساقفة ، ورئاسة الأساقفة ليست خاصة به ، بل هي له والأسقف الإسكندرية وأسقف القسطنطينية ، فأما الكاثوليك فلا يعترفون إلا ببابا رومة ، وبعض البروتستانت أيضا لا يقر بالتثليث ، لأنهم نظروا في كتب الإسلام فاعترفوا بالوحدانية ، ويجعلون عيسى عبد الله ورسوله ، وهم مع الكاثوليك فيما بقي من العقائد .

وهناك فريق من البروتستانت باق على التثليث ، ويكون الفرق بينهم وبين الكاثوليك عدم الاعتراف بالبابا وحده ، ثم إن الصوم يقول البروتستانت إنه سنة ، ويقول الكاثوليك إنه فرض وهو مدة (٤٠) يوما يتكون الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها .

وأما البروتستانت وبعض الكاثوليك الذين ضعفت عقيدتهم ، فهم يجوزون تناول الطعام والشراب . لكن يمنعون اللحم كله وماتولد منه كاللبن والسمن إلا الحوت فانهم يأكلونه في حال الصيام وبأكلون الخبز والحلوى ، وعندهم فرقة يسمونها اللاتينية ، وفرقة يسمونها أهل الديانة الروسية (أورثوذكس) وذلك لأنهم لا يعترفون بالبابا رئيسا ، وهم موافقون للكاثوليك في كل شيء . وهؤلاء جميعا يفتخرون بأنهم كاثوليك فيكذبهم أخصامهم قائلين لهم: أتم فرقة لاتينية أو أورثوذكس .

واعلم أن الفرنسيين دخلوا دين النصارى سنة ٤٩٦ ميلادية وهم كاثوليك وبروتستانت ، ومنهم من لا يقر بإله في باطنة ، وكان ابتداء ملكهم سنة ٤٢٠ ميلادية وأصل ملكهم قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة ولم يتم الاستقلال فيما بين التاريخين ، فحكهم اليونان فالرومان فاستقلوا ، وكانوا يعبدون الأصنام التي على صور الكواكب كالهنود .

ودولة الانجليز التي ابتدأ ملكها قبل الميلاد بنحو خمس وخمسين سنة لم يستقلوا إلا سنة ٢٤٣ هجرية وهي سنة ٨٢٧ ميلادية ، ودخلوا النصرانية سنة ٥٩٦ مسيحية ، وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وفيهم الكاثوليك والبروتستانت والدهرية وحصل بينهم وبين الفرنسيين حرب من سنة ١٣٣٧ م الموافق سنة ٧٣٨ هجرية إلى سنة ١٤٥٣ م الموافق سنة ٨٥٧ هجرية ويسمى حرب المائة سنة .

(دولة النمسا أوستوريا) أكثرهم من التتار ، ابتدأ الملك سنة ٣٣ ميلادية ، والاستقلال سنة ٩٨٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، ودخلهم النصرانية كالذين تقدموهم .  
(الدولة الألمانية) ابتدأ الملك سنة ٥٤ ميلادية ، والاستقلال سنة ١٣١٥ ميلادية الموافق سنة ٨١٨ هجرية .

(دولة المسكوف) استقلالهم التام سنة ١٦٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، وكانوا يعبدون الأوثان ودخلوا النصرانية سنة ثلثمائة وخمس وسبعين هجرية ، فهم الأمة الوحيدة التي تأخرت في دخول

النصرانية إلى ذلك الزمن، وأما بقية دول أوروبا فإن دخولها في النصرانية في أواخر القرن الخامس الميلادي فتكون النصرانية في أوروبا الآن نحو ألف وأربعمائة سنة، ومذاهبهم الكاثوليك والبروتستانت واللاتين والأرثوذكس. ثم الكاثوليك هي عين الملكانية، وأما النسطورية والعقوبية فقد حذفتا من الغرب وربما كانت في الشرق، والله أعلم. وقد تقدم ملخص هذا في (سورة آل عمران) وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة من اللطائف الخاصة، والحمد لله رب العالمين.

### اللطائف العامة للسورة كلها<sup>(١)</sup>

#### اللطيفة الأولى

في قوله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » مع قوله « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »

لأجل الكلام على الآيتين في مقامين : المقام الأول في غريب اللغة العربية في القرآن . المقام الثاني في نفس الأمة العربية ، وهاك بيانها .

#### الكلام على المقام الأول في غريب اللغة العربية في القرآن

تقدم في أول سورة « حم فصلت » الكلام على الألفاظ التي دخلت في القرآن من القبائل المختلفة ومن اللغات التي ليست عربية كالفارسية والهندية الخ . وأريد هنا أن أذكر نبذة يسيرة في الكلام على معرفة غريبه فقد جاء في كتاب « الإتقان في علوم القرآن » تحت العنوان التالي مانصه :

النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه

أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد ، ومن أشهرها كتاب العزيزي فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري ومن أحسنها المفردات للراغب ، ولأبي حيان في ذلك تأليف مختصر في كراسين . قال ابن الصلاح وحيث رأيت في كتب التفسير قال أهل المعاني فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنباري انتهى . وينبغي الاعتناء به ، فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً « أعربوا القرآن واتمسوا غرائبها » وأخرج مثله عن عمرو بن مسعود موقوفاً ، وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً : « من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات » المراد بإعراجه معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها ، وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن ، فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة، المؤلف

عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئا ، فأخرج أبو عبيدة في الفضائل عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله « وفا كهة وأبا » فقال أي سماء تظلي ، أو أي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « وفا كهة وأبا » فقال : هذه الفا كهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو الكلف يا عمر ، وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس . قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بر فقال أحدهما أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها ، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله « وحنانا من لدنا » فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا ، وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس . قال : لا والله لا أدري ما حنانا . وأخرج الفرياني : حدثنا إسرائيل حدثنا سمك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس . قال : كل القرآن أعلمه إلا أربعا : غسلين ، وحنانا ، وأواه ، والرقيم . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة . قال قال ابن عباس : ما كنت أدري ما قوله « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » حتى سمعت قول بنت ذى وزن ( تعال أفتحك ) تقول أخاصمك . وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم .

فصل : معرفة هذا الفن للمفسر ضرورة كما سيأتي في شروط المفسر

قال في البرهان : ويحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة أسماء وأفعالا وحروفا ، فالحروف لقلتها تكلم النحاة على معانيها ، فيؤخذ ذلك من كتبهم ، وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة ، وأكبرها كتاب ابن السيد ، ومنها التهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والجامع للقرطبي ، والصحاح للجوهري ، والبارع للفارابي ، ومجمع البحرين للصاغاني . ومن الموضوعات في الأفعال كتاب ابن القوطية ، وابن الظريف والسرقسطي ، ومن أجمعها كتاب ابن القطاع . قلت : وأولى ما يرجع إليه في ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة ؛ وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة خاصة فإنها من أصح الطرق عنه وعليها اعتمد البخاري في صحيحه مرتبا على السور . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ( ح ) وقال ابن جرير حدثنا المثنى قال حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ( يؤمنون ) قال يصدقون ( يعمّهون ) يتبادون ( مطهرة ) من القدر والأذى ( الخاشعين ) المصدقين بما أنزل الله ( وفي ذلكم بلاء ) نعمة ( وفومها ) الخنطة ( إلا أمانى ) أحاديث ( قلوبنا غلف ) في غطاء ( ما ننسخ ) نبدل ( أو ننسها ) نتركها فلا نبدلها ( مثابة ) يشوبون إليه ويرجعون ( حنيفا ) حاجا ( شطره ) نحوه ( فلا جناح ) فلا حرج ( خطوات الشيطان ) عمله ( أهل به لغير الله ) ذبح للطواغيت ( ابن السبيل ) الضيف الذي ينزل بالمسلمين ( إن ترك خيرا ) مالا ( جنفا ) إنما ( حدود الله ) طاعة الله ( لا تكون فتنة ) شرك ( فرض ) أحرم ( قل العفو ) مالا يتبين في أموالكم ( لأعنتكم ) لأخرجكم وضيق عليكم ( ما لم تمسوهن أو تفرضا ) المس الجماع والفريضة الصداق ( فيه سكينه ) رحمة ( سنة ) نعاس ( ولا يثوده ) يشغل عليه ( صفوان ) حجر صلد ليس عليه شيء ( متوفيك ) مميتك ( ربيون ) جموع ( حوبا كبيرا ) إنما عظيما ( نخلة ) مهرا ( وابتلوا ) اختبروا ( آنستم ) عرفتم ( رسدا ) صلاحا ( كلاله ) من لم يترك والدها ولا ولدها ( ولا تعضوهن ) تقهروهن ( والمحصنات ) كل ذات زوج ( طولا ) سعة ( محصنات غير مسالجات ) عفاف غير زوان في السر والعلانية ( ولا متخذات أخدان ) أخلاء ( فإذا أحصن ) تزوجن ( العنت ) الزنا ( موالى ) عصبه ( قوامون ) أمراء ( قانتات )

مطيعات (والجار ذى القربى) الذى بينك وبينه قرابة (والجار الجنب) الذى ليس بينك وبينه قرابة (والصاحب بالجنب) الرفيق (فتيلا) الذى فى الشق الذى فى بطن النواة (الجبث) الشرك (تقيرا) النقطة التى فى ظهر النواة (وأولى الأمر) أهل الفقه والدين (ثبات) عصبا (سرايا) متفرقين (مقيتا) حفيظا (أركسهم) أوقعهم (حصرت) ضاقت (أولى الضرر) العذر مراغما التحول من الأرض إلى الأرض وسعة الرزق (موقوتا) مفروضا (تألون) توجهون (خلق الله) دين الله (نشوزا) بغضا (كالمعلقة) لاهى أيم ولا هى ذات زوج (وإن تلوا) ألسنتكم بالشهادة (أو تعرضوا) عنها ووهلهم «على على مريم بهتاناً» رموها بالزنا (أوفوا بالعقود) ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد فى القرآن كله (يجرمنكم) يحملنكم (شنان) عداوة (البر) ما أمرت به (والتقوى) ما نهيت عنه (المنخقة) التى تخنق فتموت (والموقوذة) التى تضرب بالحشب فتموت (والمتردية) التى تتردى من الجبل (والنطيحة) الشاة التى تنطحها الشاة (وما أكل السبع) ما أخذ (إلا ما ذكيتم) ذبحتم وبه روح (الأزلام) القداح (غير متجانف) متعدد (الإثم) الجوارح الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها (مكلمين) ضوارى (وطعام الذين أوتوا الكتاب) ذبأحهم (فأفرق) أفصل (ومن يرد الله فنتقه) ضلالتة (ومهيمننا) أمينا ، القرآن أمين على كل كتاب قبله (شرعة ومنهاجا) سبيلا وسنة (أذلة على المؤمنين) رحماء (مغولة) يعنون بخيل أمسك ما عنده تعالى الله عن ذلك (بحيرة) هى النافذة إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس فإن كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا أذنيها (وأما السائبة) فكانوا يسيبون أنعامهم لآلهم لا يركبون لها ظهرا ، ولا يحملون لها لبنا ، ولا يجزون لها وبرا ، ولا يحملون عليها شيئا . (وأما الوصيلة) فالشاة إذا أنتجت سبعة أبطن نظروا للسابع فإن كان ذكرا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى وذكر فى بطن استحيوها وقالوا وصلته أخته فخرمه علينا . وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قلوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ، ولا يجزون له وبرا ولا يمنعونه من حمى رعى ولا من حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه (مدرارا) بعضها يتبع بعضها (وينأون عنه) يتباعدون (فما نسوا) تركوا (ميلسون) آيسون (يصدفون) يعدلون (يدعون) يعبدون (جرحتم) كسبتم من الإثم (يفرطون) يضيعون (شيعا) أهواء مختلفة (لكل نبأ مستقر) حقيقة (تبسل) تفضح (باسطوا أيديهم) البسط الضرب (فالق الإصباح) ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل (حسانا) عدد الأيام والشهور والسنين (قنوان دانية) قصار النخل اللاصقة عروقها بالأرض (وخرقوا) تخرصوا (قبلا) معاينة (ميتا فأحييناه) ضالا فهديناه (مكاتبكم) ناحيتكم (حجر) حرام (حمولة) الإبل والحيل والبغال والحمير وكل شىء يحمل عليه (وفرشا) الغنم (مسفوحا) مهراقا (ما حملت ظهورها) ماعلق بها من الشحم (الحوايا) المبعر (إملاق) الفقر (دراسهم) تلاوتهم (صدف) أعرض (مذؤما) ملوما (ريشا) مالا (حشيئا) سريعا (رجس) سحق (صراط) الطريق (افتح) اقض (آسى) أحزن (عفوا) كثروا (ويدرك وألهتك) يترك عبادتك (الطوفان) المطر (متبر) خسران (أسفا) هو الحزين (إن هى إلا فتنتك) إن هو إلا عذابك (عزروه) حموه ووقروه (ذرأنا) خلقنا (فانبجست) انفجرت (نتقنا الجبل) رفعناه. كأنك حفى عنها) لطيف بها (الطائف) الالهة (لولا اجتبيتها) لولا تلقينها (بنان) الأطراف (جاءكم الفتح) المدد (فرقانا) المخرج (ليثتوك) ليوثتوك (يوم الفرقان) يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل (فشردهم من خلفهم) نكل بهم من بعدهم (من ولايتهم) ميراثهم (يضاهون) يشبهون (كافة) جميعا. (لبواطوا) يشبهوا (إحدى الحسينين) فتح أو شهادة (مغارات)

الغيران في الجبل (مدخلا) السرب (أذن) يسمع من كل أحد (واعلظ عليهم) أذهب الرفق عنهم (وصلوات الرسول) استغفاره (سكن لهم) رحمة (ريية) الشك (إلا أن تقطع قلوبهم) يعنى الموت (الأواه) المؤمن التواب (طائفة) عصابة (قدم صدق) لهم السعادة في الذكر الأول (ولا أدراكم) أعلمكم (ترهقهم) تغشاهم (عاصم) مانع (نفيضون) تفاعلون (يعزب) يغيب (يثنون) يكونون (يستغشون ثيابهم) يغطون رءوسهم (لا جرم) بلى (أخبتوا) خافوا (فار التنور) نبع (أقلعي) أسكني (كان لم يغنوا) يعيشوا (حنيد) نضيج (سوء بهم) سوء ظنا بقومه (وضاق ذرعا) بأضيافه (عصيب) شديد (يهرعون) يسرعون (بقطع) سواد (مسومة) معلة (ألم) موجه (زفير) صوت شديد (وشهيق) صوت ضعيف (غير مجدود) غير منقطع (ولا تركنوا) تذهبوا (شغفها) غلبها (متكأ) مجلسا (أكبرنه) أعظمه (فاستعصم) امتنع (بعد أمة) حين (تحصنون) تحزنون (يعصرون) الأغراب والدهن (حصحص) تبين (زعم) كفيل (ضلالك القديم) خطئك (صنوان) مجتمع (هاد) داع (معقبات) الملائكة (يحفظونه من أمر الله) بإذنه (بقدرها) على قدر طاقتها (سوء الدار) العاقبة (طوبى) فرح وقررة عين (يئأس) يعلم (مهطعين) ناظرين (في الأصفاد) في وثاق (قطران) النحاس المذاب (بود) يتمنى (مسلمين) موحدين (شيع) أمم (موزون) معلوم (حمأ مسنون) طين رطب (أغويتني) أضللتني .

هذا وإذا أردت بقية هذا الموضوع فراجعه في كتاب الإتقان المذكور تجد جميع الغريب فيه إلى آخره وهو نحو ٧ صفحات فاقراءه هناك إن شئت .

ويتبع ذلك ماورد عن ابن عباس أيضا إذا كتفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع ابن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا إلى هذا الذي يجترى على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه ، فقالا إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقته من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ؟ فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لك ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : «عن اليمين وعن الشمال عزين» . قال العزون حلق الرفاق قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عبید بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيزنا

قال أخبرني عن قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) قال الوسيلة الحاجة . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عنتره وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضي

وهكذا استمر يسأله وهو يجيب على هذا النمط ، ونحن الآن نجترى هنا ببعض الكلمات وشواهدا اختصارا واستبصارا :

الكلمة	الشاهد
(١) (منهاجا) طريقا	(١) لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام دينا ومنهجنا
(٢) (ينعه) نضجه	(٢) إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع
(٣) (ريشا) مالا	(٣) فرشني بخير طال ماقد بريقتي وخير الموالى من يريش ولا يبرى

الكلمة	الشاهد
(٤) (كبد) اعتدال	(٤) ياعين هسلا بكيت أربد إذ قننا وقام الخصوم في كبد
(٥) (السنا) الضوء	(٥) يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو بضوء سناه داجي الظلم
(٦) (حنانا من لدنا) رحمة	(٦) أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشراؤون من بعض
(٧) (أفلم يبأس الذين آمنوا)	(٧) لقد يبأس الأقبام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا
(٨) (فأجاءها الخاض) الجأها	(٨) إذا شددنا شدة صادقة فاجأناكم إلى سفح الجبل
(٩) (لاتنبا في ذكرى) لا تضعفا عن أمرى	(٩) إني وجدك ماونيت ولم أزل أبغى الفكك له بكل سبيل
(١٠) (القانع والمعتر) فالقانع الذي يقنع بما أعطي، والمعتر الذي يعترض الأبواب	(١٠) على مكترهم حق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل

ولأكتف بهذا في النظم، ومن أراد استيفاءه فليقرأه في كتاب الإتيان . والشواهد تبلغ نحو (١٥٠) شاهدا فلا نطيل بذكرها ، وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول .

## المقام الثاني

### في الكلام على نفس الأمة العربية

أعلم أيها الذكي أن الأمة العربية بقدر ما ذاقت من العز والاتحاد والسعادة وما نالت من الارتقاء أصابها النذل والانحلال والشقاء والانحدار، أمة بلغت بعلمها المشرقين والمغربين، ثم رجعت بعد ذلك بحفي حين رفمها العلم وخفضها الجهل، أمة عريقة في المجد، رفيعة القدر، قوية الشكيمة، هي وحدها التي اختارها الله لارتقاء النوع البشري، لذلك خلقها وتمت كلمة ربك، خلقها في البادية، وأنضج عقولها، وهذب نفوسها تهديبا نسيبا، ومرنها على شظف العيش، والبأس وعزة النفس والقناعة، أعطاهم مثالب مع هذه الفضائل فصار كل أهل بيت وقبيلة يرون أنهم سادات الأمم وعظاء أهل الأرض، فأورثهم ذلك التخاذل والتطاحن والأضغان والأحقاد، وما ذلك كله إلا من ازدياد سمو النفس والشهامة وحب العزة وازدياد تلك القوة عن المقدر الوسط والتهيج القديم، فأصبح ما كان ممدوحا تلحقه المذمة، وبينما هي على هذه الحال إذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن فجتمعهم بعد الفرقة ولم شملهم فنالوا ملكا لم تحلم به الأكاسرة ولا القياصرة، وتضامت تلك القوى المتفرقة المنتشرة في الصحارى والقفار فصارت قوة واحدة فهزت أمم الأرض هذا. وما ذلك إلا لما فهموا (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ». ثم استبدلوا الكسل بالعمل، والترف والتنعم بشظف العيش، والقناعة وفتح البلاد لنزوات

النفوس والشهوات ، والطمع والجشع وجمع المال الوفير المورث للاستكانة والصغار والنذل بالجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه مع حفظ الدولة وإسعاد الإنسانية كلها بلا تفرقة بين الأمم والشعوب بالمحافظة عليها مع تأدية تلك الأمم ما يجب عليها لهم . فحق عليهم ماورد في الصحيح . « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وهذا الحديث بنصه في أول ( سورة الأنفال ) وهو من صحاح الأحاديث .

ثم إن هذه الأمة بعد أن أدت وظيفتها في الأرض ونشرت الدين وتفرقت في أقطارها خدمت ريعها وأصبح الأبناء على تقيض الآباء ونسوا مجدهم القديم وعزهم الشامخ وفضلهم العظيم ، فأبناء العرب اليوم في شمال أفريقيا مراکش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والسودان واليمن ونجد والحجاز والعسير والعراق الموصل ودير الزور . فكل هؤلاء بلادهم متلاصقة ودينهم واحد وعقولهم متقاربة ولغتهم واحدة . فياسبحان الله ، أنا لم أر أمة بلغت ما بلغت هذه الأمة في مجدها أيام رفعتها ، ولم أر أمة سقطت سقوطها أيام ذلها كأن الغنم بالغرم ، وبرد الشتاء على مقدار حرارة الصيف ، وطول الليل في الشتاء بمقدار قصره في الصيف . ها أنا ذا من أبناء العرب ولدت بالبلاد المصرية في قرية من قرى الشرقية ، حفظت القرآن صغيرا ودخلت الأزهر بالغا ، ثم اعترتني فكرة هيجت بلبالي زمن الشباب ، فأخذت أستغيث وبمن أستغيث ؟ لا استغائة إلا بمن خلقتني ، فكنت أدعوه وهو سميع الدعاء ، ولكم سألته أن يوقفني على حقائق هذه الدنيا ونظام الكون وبؤس المسلمين وذلهم وعز غيرهم ، ولماذا أرى الجهالة والنقص فاشيين حتى في التعاليم الدينية . وأنت أيها الذكي تعرف بما ذكرته كثيرا في التفسير أن اتصالي بمدرسة دار العلوم ، ونظري في كتب الأمم المحيطة بنا ، ووقفت على كثير من أحوال هذا العالم ، وهذه الأمم . ومما اتفق لي حادثة لا بد من ذكرها ذلك أنها أشبه بتعريف لمفتاح به تفتح أبواب الخيرات لسائر الأمم العربية .

## محاورة بيني وبين المرحوم لطيف باشا سليم

في أمر ارتقاء العرب في المستقبل القريب

قد كنت في أطوار حياتي إلى السكون والجمول والازواء أقرب لما قرأت ما يأتي :

لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهديان من قيل وقال  
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

ولكم كنت أقول في نفسي : « لو أنني عرفت الحقائق وكنت مجهولا في الناس لا يفكر في أحد لكان ذلك أقصى أملي » ولكن حب البحث والعلم كانا سببا في علاقتي بجميع أمم الإسلام ، ومنهم الطبقة الراقية في مصر ، ولما أخذت أولف الكتب عرضتها على أهل العلم وذوى العقول الراجحة لأستوثق مما أنشر برأيهم ، وكان منهم المرحوم الشيخ محمد عسكر والمرحوم لطيف باشا سليم ، فأما الأول فإني قابلته في منزل المرحوم إبراهيم بك أباطة بجوار قريتنا ولم يكن رأيي ولا رأيته من قبل ولكن عرف كل منا الآخر وأنا شاب وهو قد بلغ نحو مائة سنة ، وله قدم صدق في الحادثة العراقية ، وأخذ يسألني عن تاريخ حياتي العلمية التي عرف مجملها من قبل أن ألقاه فأجبتة هنالك قال لي : أنتم أحسن منا : نحن أيام عرابي باشا لم نبن ثورتنا على

أساس ، أما أتم فبناؤكم على أساس ، لأنكم تريدون أن تجعلوا العلوم التي بها ارتقت أمم الأرض متصلة بالدين وأتم ناجحون ، وأن ماسمته منك من حيث إن بعض رجال المعارف يضطهد ذلك : فهذا زادني يقينا لأن الرجل لا يكون عظيم الشأن حتى يحقد عليه نظراؤه ، وسيكون نشر آرائك على أيدي تلاميذك ، والمستقبل لهذه الأمة عظيم ، وأما المرحوم لطيف باشا فهناك مدار بيني وبينه وهو الذي سقت الكلام لأجله ، لم تكن لي سابقة معرفة بالمرحوم لطيف باشا سليم . وهو كان من أكابر الأمة ومن أكابر الوطنيين ، والذي عرفني به أني نشرت بعض كتبي وأردت أن أعرف آراء أكابر العلماء في مصر ، فأعطيته كتابي (نظام العالم والأمم) فأثنى عليه ، وصارت لي به صلة وثيقة ، وهذه صورة المحادثة التي سقت الكلام هنا لأجلها :

قال رحمه الله : إن جلد الحمار الميت أرفع شأننا من الأمة المصرية ( أقول : وذلك من شدة غيرته على البلاد ) . فقلت : ما برهانك يا باشا : فقال : إن جلد الحمار يمكن العلماء بالصناعة والكيمياء يلونونه بالحمرة أو بالصفرة الخ وهذه الأمة حل بساحتها الآشوريون والفرس والرومان والفرنسيون والإنجليز ومع ذلك لا تزال نائمة خامدة جامدة ، إذن جلد الحمار أمكن تلوينه والأمة المصرية لم تلون . هذه الأمة جامدة . فقلت : إن لي ردا على ما ذكرتموه . فقال : فماذا تقول ؟ فقلت : إن الأمة المصرية أمة عربية لأن الأصل القبطي فيها قليل ، وهما نحن أولاء نجد عاداتنا وأخلاقنا وآدابنا كلها عربية ، والأمة العربية بعد ما بلغت الصين شرقا وجنوب فرنسا غربا وأزالت ملك فارس والروم أصابها داء الترف ، وأردأها الكسل ، وأنهبها الطمع ، وجند لها الجهل ، وأصابها التخاذل والتناوب والكبرياء والادخار والاتكال على الأمم المحكومة بهم فسلط الله عليهم من كانوا لهم مسخرين ومستعبدين من الفرس والترك والممالك البرية والبحرية ، وآذهم الاسبانيون في الجزيرة ، وحل الترك بساحة مصر فأزالوا نخوتها ومظاهر جمالها وكاملها ، وأقفلوا مدارسها وتركوها قاعا صفتفا ، ومحووا منها الصناعات والعلوم ، وبقيت البلاد ترتع في معاهد الجهل ، ومراتب الذل ، حتى إذا قيض الله لها المغفور له محمد علي باشا فقد أخذ يعلمها ، ولكن تعليمه لم يكن مصحوبا بحرية ، فبقيت الأمة مقيدة وعمومها جاهل بمقوقة ، حتى إذا جاء المرحوم مصطفى كامل باشا في هذه السنين ونشر في جريدة اللواء مقالات وقرأها الشبان وأنا ملاحظ ذلك انفتحت بصائرهم وعرفوا الحرية في هذه السنوات القلائل . ولقد كنت قبل ظهور جريدة اللواء أشاهد من تلاميذ المدارس احتقارا لكل ما هو وطني حتى إذا ظهرت جريدة اللواء أحبوا الوطن واستبدلوا حبه بحب الأساتذة الإنجليز ، وكان مدرس اللغة العربية كأنه أمر ثانوي عندهم ، فانقلب الحال وعدوه لهم أبا ، كل ذلك بتأثير جريدة اللواء التي طلعت بهيئة عرفت الشبان مامعنى المحافظة على الوطن وعلى الحرية . إن أهل مصر أكثرهم من أصل عربي ، والذي أخرهم وأضناهم هو الجهل الذي غمرهم به الترك مدة مئات السنين ، وما مثلهم في مصر إلا كمثل آبائهم قبل النبوة فإنهم كانوا قوما جاهلين ، فما كاد صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الدين ومضت ٢٣ سنة حتى كانوا أهل ملك عظيم ودين كبير هكذا (وإن كان الفرق كبيرا) آباؤهم وهم أهل مصر ومن حولهم من أهل الشام وفلسطين والمغرب والعراق والموصل فسكني هذه الأمم أن يظهر فيهم نابعة كظهور مصطفى باشا كامل حتى يعلموا حقوقهم وينفضوا عن رءوسهم غبار الذل وينفضوا ببلادهم ، ودليلي على ذلك حال التلاميذ بمدارسنا وانقلابها في زمن قليل جدا ، فهذا دلي على أن هذا الشبل من ذاك الأسد . فقال رحمه الله : أنا قلت لك لا مانع أن يحصل أمر غير عادي . فقلت : لكن أنا لا أقول ذلك ، بل أقول هو أمر عادي ، فإن المسألة علم وجهل فالعرب متى عرفوا نهضوا ورجع لهم مجددهم . انتهى الحديث .

## مصداق هذا الحديث

حديثي مع نجله فؤاد باشا سليم

وبعد سنين قليلة توفي المرحوم لطيف باشا فذهبت إلى منزله بالعباسية لأعزى نجله فؤاد باشا سليم ، فلما رأني بكى لعلمه بمودة أبيه لي ، وحكى لي ما أتى . قال :

« إن مصطفى باشا كامل لما أسس الحزب الوطني وأصبح هو رئيسه وأنا ناموسة (سكرتيره) ، كان والدي إذ ذاك في مرض موته ، فدخلت عليه ، وسألني ماذا فعلتم ؟ فقلت : ها نحن أولاء أسسنا الحزب الوطني فقال : يا فؤاد اجتمع المصريون ؟ فقلت نعم يا والدي وأنا سكرتير الحزب الوطني . فقال : لو قالها غيرك لم أصدقه ، أنا أموت وأنا مستريح الضمير إذ رأيت المصريين اجتمعوا في حياتي » اه .

فقلت له الحمد لله إذ صح ما استنتجته قبلا في حديثي معه وظهر له صدق فراستى في أمة العرب والأمة المصرية . أكتب هذا الآن وفي بلادنا الأحزاب الآتية : الوفد . الحزب الوطني . حزب الاتحاد . حزب الشعب . حزب الأحرار الدستوريين . إذن أصبح ما كان فراسة أولا يقينا الآن ، وعليه أقول حقا وصدقا إن الأمة العربية على بكرة أبيها لا ينقصها إلا العليم ! والذى قتلها هو الجهل ؛ فهي أمة متروكة مهملة وقد أقبلت أيام سعادتها وها هي ذه أخذت تقوم من رقدها . وهنا أذكر بعض ما كان لها من المجد في العلوم الطبية في الشرق والغرب والآثار العمرانية ، وأخص بالذكر بلاد الأندلس ، وأفني بذلك ما حاق بهما من النذل والهوان في القرون الأولى بسبب تفرق وحدتها ، ثم أتبعه بنتائج ذلك اليوم في البلاد الإسلامية ، وأخص بالذكر تونس ومراكش ، ثم أفني بما ساقه الله من الدلائل على مستقبل باهر للأمة العربية والأمم الإسلامية ، وذلك بذكر مسألة للوطن القومي لليهود في فلسطين ، وكيف كانت هذه أول أساس أخذ المسلمون يبنون عليه أعادهم ، فالعرب جميعا اتحدوا مع أهل فلسطين في ذلك ، ثم إن دفن المجاهد الكبير المولى محمد علي الهندي في فلسطين وتوطيد المودة بين العرب والمهتود المسلمين أمر لم يسبق له في التاريخ نظير ، ثم أبين أن هذه الحوادث ترجع لآيتين إحداهما آية « خلقت السموات والأرض أكبر من خلق الناس » في سورة حم غافر ، والثانية هنا وهي « وإنه لذكر لك ولقومك » وإيضاح المسيح الدجال هنا والعلم العيسوي ، فهذه سأوضحها في سبعة فصول : ( الفصل الأول ) في أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي ( الفصل الثاني ) فيما قاله الأمير شكيب أرسلان في رحلته إلى بلاد الأندلس للدلالة على عظمة آثار العرب ( الفصل الثالث ) فيما جاء له أيضا في كوكب الشرق من تحالف الأمم العربية قديما وتضافر الأمم عليهم فذهبت دولهم ( الفصل الرابع ) في نتائج ذلك التفرق القديم الذي حل بالمسلمين اليوم في تونس ومراكش ( الفصل الخامس ) في حادث الوطن القومي لليهود ، وكيف كان سببا لوضع أساس للاجتماع بعد التفرق ( الفصل السادس ) في حادث لم يسبق له نظير من اتحاد العرب والمهند بعد ذلك ومن دفن المجاهد الكبير ( محمد علي ) بالقدس وتصريح أخيه المولى شوكت ( الفصل السابع ) في أن هذه الحوادث ترجع لآيتين من كتاب الله تعالى الأولى « خلقت السموات والأرض أكبر من خلق الناس » وقد تقدم بيانها في سورة حم غافر ، وفيها شرح أمر الدجاج ، والثانية هنا وهي « وإنه لذكر لك ولقومك » .

## الفصل الأول

فيما ذكرت به أمة الإسلام عموماً والعرب خصوصاً في علم الطب

وذلك في مقالين : المقال الأول وهو ماجاء في مجلة « الجامعة الإسلامية » المقال الثاني وهو ماجاء في جريدة الأهرام : تحت عنوان « أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي » وذلك كله إيضاح لقوله تعالى هنا « وإنه لذكر لك ولقومك » وهاك نصهما

### البحث عن تاريخ العلوم

أو

تأثير المدينة العربية الإسلامية في نهضة العرب

في أوربا اليوم حركة عظيمة للبحث عن منشأ العلوم الحاضرة وعن كيفية تطورها ولقد كان من أكبر العوامل على هذه الفكرة أحد العلماء الطبيعيين الأفرنسيين الكيماوي ( مارسلين برتسلو ) ولهذا العلامة فضل كبير في جلب أفكار الأوربيين إلى مسألة هامة وهي تاريخ العلوم ، لقد أدرك ( برتسلو ) أنه لا بد من دراسة تطور الفكر البشري فقال لا بد أن ندرس كيفية تطور العلوم في الأزمان المختلفة ، فألف لذلك كتاباً سماه تاريخ العلوم ومنذ ذلك الحين عمت في أوربا فكرة جديدة وهي أنه لا يجوز أن ينظر إلى ما فكر فيه السالفون كأنه أساطير الأولين لأن الرقي لا يكون إلا بالتدريج أي كل عصر من العصور مدين للعصر الذي قبله ، ولا يمكننا أن نتصور أمة تنشأ فجأة كما نرى ذلك في كثير من كلامهم ، وترى الأوربيين يهتمون الاهتمام العظيم في هذا الشأن ، وينفقون له كثيراً من القوى المادية والمعنوية ، ففي كل قطر من الأقطار عدة معاهد لهذا الشأن بعضها للبحث عن تاريخ الطب ، وبعضها للبحث عن تاريخ العلوم الطبيعية . أما تاريخ الفلسفة فقد اشتغل فيه كما لا يخفى أناس كثيرون منذ أجيال عديدة ، ولا يمكننا أن نتصور شخصاً درس الفلسفة إلا واهتم بتاريخها قبل كل شيء ، ففي ألمانيا اليوم عدة أساتذة وقفوا كل حياتهم لهذا الغرض ، وقد عثروا في طريقهم على نقط هامة ، وليس غرضهم هنا معرفة المنشأ ولما فضل في نشر العلوم فحسب ، بل يودون أن يعلموا إلى أي جهة تتجه معارفنا ( أي معرفة الماضي والحاضر للتفكير في المستقبل ) كما اتضح لبعضهم أن العلوم المادية برقي عظيم والمعنوية باحطاط مستمر فثاروا على إحيائها ، وبذلك قطعوا خطوات واسعة ، واهتمت الحكومات الأوروبية لهذا الشأن اهتماماً كثيراً فساعدت علماءها على نشر ما كشفوه من الأمور وعلى عقد مؤتمرات يحضرها العلماء من أقطار مختلفة ليتبادلوا الآراء وليعرفوا صوابهم وخطأهم بالبحث مجتمعين ، وقد عقد في منتصف شهر أيار الماضي من السنة الحالية مؤتمر بين المللي ( كندا ) في باريس حضره علماء من أصقاع مختلفة ، هل تعلم ماذا كان أهم شيء تداوله المؤتمر ؟ وجوب تعلم تاريخ الأمة العربية ، وإن أكبر عثرة واقفة أمام طريقهم هي معرفتهم تاريخ الأمة العربية حق المعرفة ، وما دامت الحالة على هذه لا يمكنهم أن يداوموا البحث بصورة جدية ، ولقد سمعت هذا من أستاذين كبيرين : الأستاذ سيفريست المتخصص بالطب عند العرب في ليزيغ ، والأستاذ روسكار رئيس معهد البحث عن تاريخ العلوم الطبيعية في برلين . وهناك كتب خطية عديدة ولا أظنها إلا بيعت بثمن بخس هي اليوم في مكتبات أمهات مدن أوروبا محفوظة في أعز موقع لا يسمح لنا

برؤيتها إلا بكل صعوبة ، تفتخر كل أمة من الأمم بأنها بين خزائن كتبها . ولا يمكننا أن نناولها ولو أنفقنا في سبيل ذلك ما أنفقنا من الأموال الطائلة ، هكذا كانت تلك الكتب القيمة ذليلة بيننا ، عزيزة عند من يعرف قيمتها ، ولقد أحرز اثنان من بني وطننا وهما السيدان : كامل عياد ومحمد أبو غنيمه ، لقب دكتوراه في جامعة برلين ، الأول في الفلسفة ، والثاني في الطب ، لاشتغال الأول في ابن خلدون والثاني بالطبيب العربي الجراح أبي القاسم الزهراوي . فأهمية ابن خلدون كما قال عنه كبار الغرب إنه أول من وضع التاريخ ضمن علم ، وجاء بنقد التاريخ ، وتببع الحوادث التاريخية ليحصل الإنسان على نتائج لا بد منها لمعرفة الشعوب ومزايها وتطورها وحسناتها وسيئاتها ، أما أبو القاسم فقد ذكر عنه الدكتور أبو غنيمه بأنه سلك طريقا في التداوي بالكى يشبه تمام الشبه الجراح الشهير الأستاذ المستشار ( بير ) وقد ذكر قاموس المحيط الألماني عن أبي القاسم هذه الكلمات :

« ولد أبو القاسم في الزهراء من مدينة قرطبة وتوفي سنة ١١٠٦ - ١١٠٧ ج وقد كان شهيرا في الجراحة ، وأهميته لا تزال حتى هذا اليوم في التاريخ ، وله كتاب في الطب الذي ألفه وترجم إلى اللاتينية للمرة الأولى من غريم سنة ١٥٣٢ م . »

أما القسم التشريحي وهو خير ماورث من الطب العربي ، فقد ترجمه إلى اللاتيني في أكسفورد سنة ١٧٧٨ العالم الإنكليزي شانينغ . فنجد أهمية البحث عن تاريخ العلوم هنا وكيف كانت تدرس العلوم من منابع عربية ، وقال السيد الدكتور محمد شرف في المقدمة من معجمه الإنكليزي العربي مانصه : « بقيت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد في مادتها العلمية على الكتب العربية ، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المستعملة في جامعة توبنجين أضعاف الكتب اليونانية ، وكانت مؤلفات الرازي وابن سينا أساس التعليم الطبي في ( جامعة لوقان ) في القرن السابع عشر ، واستمرت مؤلفات ابن سينا تدرس في جامعة الطب الكبرى في ( مونبيليه ) حتى القرن الثامن عشر . »

ولقد ألقى الأستاذ المتخصص في تاريخ الطب ( سيفريست ) محاضرة في الحلقة التي أقيمت على مضي ألف سنة على الطب العربي في المعهد الطبي الألماني التابع لجامعة برلين هذه خلاصتها : « نحن مدينون للعرب بجزيل الشكر لهذه المدينة الزاهرة التي نتنعم بها . أهمية المدينة العربية كبيرة لأننا إذا وصلنا إلى آخر حلقة من حلقاتها نجدها متصلة بنا ، فإذا أخذنا مثلا اكتشاف ميزان الحرارة من قبل ( غاليليه ) نجد كتب طب ابن سينا الأساس الذي نمشى عليه في ذلك العهد ، عندنا اليوم كثير من التعابير اليونانية لا يمكننا فهمها إلا إذا ترجمناها للعربي ، تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام لا يهمننا كثيرا حيث لا صلة له بنا ، ولكن الذي يهمننا منذ نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي عرف توحيد القبائل وغرس الفضيلة في قلوب الناس . وما مضى على ظهور هذا الرجل قرن واحد إلا رأينا مدينة زاهرة وحكومة عظيمة عادلة ، فنجد أولاد الصحراء القاحلة يفتحون العالم وينشرون العلوم والفنون في أرجائه المختلفة . »

وقد ازدهرت العلوم في عهد العباسيين وترجموا كثيرا من آثار اليونان وقد كانوا مترجمين فأصبحوا بحاثة وإنما نجد حتى يومنا هذا كل العجب بتلك القابلية العظيمة التي كانت عندهم ، فنجد شخصا واحدا تجتمع فيه ميول عديدة مثل الفخر الرازي الذي ألف ألف مجلد ، وكان رئيس مستشفى وفيلسوف وموسيقي ومن محب الفنون الجميلة ، ولا زال العجب يأخذ منا من ابن سينا الذي أراد أن يستخرج قانون الطب على حسب المنطق فنجده سياسيا دينيا حقوقيا طبييا منطقيا ، ومن يذهب اليوم إلى قرطبة يرى غابة من المرمر الجليل ، ويرى الآثار التي تنبئ عن وجود ( ٥٠ ) مستشفى ، ويرى المكتبة التي تحتوي على ( ٤٠٠ ) ألف مجلد ،

ويرى الجامع القديم هناك يدرك ولا شك أهمية تلك المدينة ، ثم إذا مر بعد ذلك على قصر الزهراء يكون في القصر الذي ولد فيه الطبيب العربي الجراح ( أبو القاسم ) .

ولقد كان لظهور هذا العالم أهمية عظيمة في الجراحة حيث كانت العرب قبله تخاف من موسى . وأهميته على قسمين : نظرية وعملية . أما الأولى ففي تغير أفكار الناس من وجهة الجراحة والنظر للمريض بعين الشفقة . أما العملية فهي ترقى أسباب الطب الجراحي إلى أن صار بالصورة التي نراها اليوم .

الآن لقد انعكس الأمر ( مخاطبا طلبة العرب ) فنحن يجب أن نؤدى ما علينا محوكم من الواجب . وهذه العلوم التي ترونها اليوم عندنا قد ورثناها عن أجدادكم ، عندكم واجب كبير ولكم مجد عريق وسلف صالح ، يجب عليكم أن تفهموا تاريخكم ومدنيتكم ، وكم من الكنوز العربية الثمينة أصبحت اليوم مدفونة للاهمال ، ومؤتمر العلوم في باريس أفهمنا جهلنا بتاريخ العرب ، وقد ساعدونا على درس تاريخكم وحضارتكم وعليكم واجب ثان ياطلاب العرب ، الشرق اليوم يتحين للنهضة وأنتم ستنتقلون المدينة وتعلمون الناس كما فعل ذلك حنين بن إسحاق وستكونون باديء ذي بدء مترجمين فتصبحون بحاثة . ولا يبعد أن يكون بيننا رجل يحتفل فيه أيضا بعد ألف سنة كما يحتفل اليوم في هذا المكان بأبي القاسم . ولقد قال المستشار الأستاذ ( هيس ) مدير جامعة برلين هذه الكلمات : ( نحن نهتم بتاريخ الطب العربي لأمر ثلاثة :

( أولا ) الجهد والاجتهاد الذي لا يعرف الملل الذي كان عندهم .

( ثانيا ) حب الاطلاع وأداء الواجب المحرد عن أى شخصية .

( ثالثا ) تهمسهم للمعرفة وشرف الصنعة عندهم .

فلذلك لا عجب أن نرى ممن اجتمعت فيهم هذه الصفات أن يكونوا من أحسن البحاثة :

ليتنا قدرنا هذه الحقيقة كما يقدرها الأوروبي الذي لا يريد من ذلك إلا أن يزيد مداركه ومعارفه ليتقدم إلى الأمام ، وقد بحثوا أيضا في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب مباحث كافية ، ونشروا كذلك كتباً عديدة كمصنفات في الكيمياء لجابر بن حيان ، نشره هو لمبارد الانكليزي وطبع في باريس ، ولقد أطلعت على هذا الكتاب فوجدت نظريات حجة في العلوم الطبيعية الموجودة في ذلك الزمن وبين الآراء الطبيعية اليوم . وأكبر فضل وجدته في جابر هو تقديره للعمل والتجربة إذ يقول : ( وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبدا .

ثم قوله أيضا : كل شيء طبيعي فاعتمد عليه . ويوجد أيضا كثير من التعقيدات التي وضعها قصدا لكي لا يوح بسر الصنعة .

ونشر أيضا في فن المستعدنات تأليف ( التيفاش ) طبع في روما . وكتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمة ( لوقا بن اسرافيون جمعة ) وترجمه إلى الألمانية الأستاذ ( روسكا ) . وقد قال في مقدمة الكتاب الكلمات الآتية : ( ليست الأسفار اليدوية ولا الأدب الذي جاء بعد الإسلام هو الذي رفع اسم العرب في الغرب فقط إذا أردنا أن نعرف تأثير المدنية الإسلامية في المسيحية الغربية فلنتفكر في الرياضيات والفلك والكيمياء والطب كيف كان علماء الاسلام يشتغلون بها بعد أن فقدت علوم اليونان إلى يومنا هذا ففيها نرى الأسماء الفنية ، المشتقة من العربي وكيف كانت العلوم زاهرة تحت راية الإسلام وكيف تعلق الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي ، هكذا يشتغل الأوروبيون في البحث والتنقيب عن تاريخنا ومدنيتنا وينشرون بذلك كتباً قيمة يقيمون حفلات عظيمة لكل عالم خدّم البشرية خدمة صادقة ، ونحن ننظر إليهم كأساطير الأولين ، أيطربنا هذا الإهمال ؟ أيطربنا تفرقنا شيئا وأحزابا بين قديم وحديث ، ونحن اليوم بأشد الحاجة أن نمديد الإخاء إلى بعضنا للجد والاجتهاد ؟

وقد قال لي أحد الإخوان أثناء احتفال ألف سنة على الطب العربي ، وفي نفس الوقت نقيم

مأثما على خروج المدينة من أيدينا ، ولا ينفعنا الحزن واليأس بل السعي والجهد ، النوم كان طويلا فكل شيء أمامنا صعب جدا ، وكلما تقاعسنا عن العمل ازدادت الصعوبة ، هكذا كان أجدادنا في غابر الأزمان واليوم فقدنا كل شيء من أثر الأجداد ، ولم يبق لنا غير ذكريات الماضي نسمعها من العلماء الغربيين .

إن كنا حقا نحب ذلك السلف الصالح رحمهم الله فلنسترجع همم الخلف لنعيد لنا ذلك الشرف فإننا بهم مقتدون ، وإننا على آثارهم لمهتدون .

برلين

محمد يحيى الهاشمي

\*\*\*

ومما يناسب ذلك أيضا ما جاء في جريدة الأهرام يوم ١٥ مايو سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي وهذا نصه :

### أثر الطب العربي

ألقى الدكتور البارع يوسف أفندي حريز الحائز لشهادة الامتياز من كلية باريز محاضرة في نادي مدرسة الطب عن أثر الطب العربي في تطور علم الطب في فرنسا ، ولأهمية هذا الموضوع رأينا نشر خلاصة تلك المحاضرة القيمة . قال المحاضر :

« من المتعارف أن الإغريق كانوا منذ ألقى عام حملة الطب القديم ، أكان ذلك بعض ما خلقه الإسكندر الأكبر عقيب غاراته المشهورة على الشرق ، أم أن هنالك بقايا معلومات طبية يونانية ينبوع ، قد يكون الصواب بين هذين . على أن العرب لم يتصل بهم فن الشفاء إلا بعد قيام الدولة الأموية ، ولئن كان العهد الجاهلي فيه بعض من مارس الطبابة إلا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان أول من نقل العلوم الطبية والنجوم والكيمياء إلى العربية ، وكذلك فعل جابر بن حيان . على أن الحركة العلمية التي بدى بها في صدر الدولة الأموية لم يتح لها أن تبلغ شأوا بعيدا إلا في صدر الدولة العباسية ، وعلى الأخص في عهد المأمون سابع الخلفاء العباسيين الذي حمل رأسه أرفع عمامة في الشرق والإسلام . ولما انتهت هذه البذور الجديدة إلى ذلك المستنبت العربي العجيب ظهرت قرائح طبية من الطراز الأول في القرن العاشر للميلاد أعد منها الرازي أبا بكر محمد بن زكريا في آسيا وابن الجزار في أفريقيا بالقيروان وأبا القاسم عباس بن خلف الزهراوي في الأندلس . أما الرازي فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية في الجيل الثاني عشر للميلاد وكانت عمدة التدريس في أوروبا جميعها وعلى الخصوص في مدرستي مونبليه وباريس بفرنسا كما تشير إليه بكل تفصيل أطروحتي في جامعة باريس الموسومة « حظ الطب العربي في تطور الطب الإفرنسي » .

وللرازي مؤلفات عديدة أوصلها كتاب « عيون الأنباء » إلى المئة ، ومما يدهش فيها تعدد مواضعها وبحوثها ، فقد كتب الرجل في الفلك ، وقال بدورة الأرض ، وكتب في الطب والتفسير والكيمياء والإلهيات إلى آخر ما هنالك من شتى المذاهب والأبحاث . وبمناسبة عيد الألفي أنشأت عنه محاضرة في المجمع العلمي في دمشق الشام في شهر أكتوبر المنصرم ، وله بيتان مشهوران من الشعر لا بأس من إيرادهما قلهما حين حضرته الوفاة بعد أن عمر مئة من الأعوام وتزيد :

لعمرى لا أدري وقد أذن البلى بعاجل ترحال إلى أين ترحالى  
 وأين مقر الروح بعد خروجه من الهيكل المنحل والجسد البالى  
 ومنه يستدل على شكه العلمى . وأما ابن الجزار فهو تلميذ سليمان الإسرائيلى ومن أكبر مؤلفى العرب  
 فى الجيل العاشر للميلاد . وضع فى القيروان كتابه الموسوم بزاد المسافر ونقله إلى اللاتينية فى الجيل الحادى عشر  
 (لاون) الإفريقى كبير النقلة من العربية إلى اللاتينية فى الجيل الحادى عشر كما كان حيرار السكرمانى كبيرهم  
 فى الجيل الذى يليه ، وفى ابن الجزار وكتابه [زاد المسافر] يقول كشاجم :

أبا خالد أقيت حيا وميتا مكارم ذاعت فى البلاد عظاما  
 رأيت على زاد المسافر عندنا من الناظرين العارفين زحاما  
 سأذكر أفعالا لأحمد لم تزل مواقعها عند الكرام كراما

وأما أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ، فقد كان بلا شك جراح عصره وأستاذ القرون الوسطى  
 فى ذلك الفن ، ولقد نشرت له مجلة [المعهد العلمى] بدمشق الشام منذ عامين رسوم أدوات جراحية  
 وجدت فى إحدى منسوخات كتبه وكلها تشير إشارة لا تقبل الاعتراض إلى معارفه التشريحية وطول باعه  
 فى هذه الصناعة .

### الجيل الحادى عشر

كان من أكبر كواكبه الشيخ الرئيس ابن سينا ، وقد كان اهتمام أوروبا به بالغاً حد الإعجاز فقد  
 نقلت إلى اللاتينية وشرحت كتبه وذيلت ما يقارب الأربعين من المرات . على أن أكبر مؤلفاته الطبية وهو  
 القانون موجود اليوم بالعربية فى قاعة المطبوعات فى المكتبة الأهلية بباريس وهو طبع روما ، ويرجع  
 تاريخ طبعه إلى الجيل السادس عشر أى فى أوائل عهد الطباعة كما هو معلوم ، ولابن سينا فى قاعة المطبوعات  
 بباريس كثير من كتبه أذكر منها كتابا لبقراط فى الطب العام ، وقد كتب على الصفحة الأولى منه : (هذا  
 الكتاب ملك أبى الحسين على بن سينا المتطبب) .  
 وعلى الجدار الأمامى للبهو الكبير فى كلية الطب بباريس رسم أطباء الإنسانية من عهد أبى الطب بقراط  
 إلى يومنا ومن جملتهم الرازى وابن سينا والزهراوى .

### الجيل الثانى عشر

وانتقل مصباح العلم من الشرق إلى الغرب وكان بنو زهر على رأس الحركة العلمية لذلك العهد وحفيدهم  
 أبو العلاء وهو أشدهم صداقة متينة وصلة بابن رشد فيلسوف الأندلس وطبيبها ، وبينما كان ابن زهر يظهر  
 عدم اكتراث مؤلفات الرئيس ابن سينا كان ابن رشد يشرح أرجوزة الرئيس ، وكتب هؤلاء المؤلفين الكبار  
 نقلت إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وكانت موضوع التدريس فى أوروبا جميعها مئات من الأعوام  
 أما ابن رشد فقد ظل لمذهبه الفلسفى أثر جديد ، وآخر من اهتم به الفيلسوف الكاتب (أرست رينان)  
 فقيده فرنسا ، ولما كان الرازى أول من وصف الجدرى وكتب فى أمراض الأطفال وفى واجبات الطبيب ،  
 كان ابن زهر أول من تسكلم عن الشعور فى العظام ، ووصف عالم الجرب ودعاه بالصواب ، وأسهب فى  
 وصف الكسر والوشاء ، وكذلك كان الزهراوى أول من أشار بالسكى واستعمل حجر جهنم إلى آخر  
 ما هناك من ضروب العلاج .

وأختم كلمتي هذه بأن أرى من طلاب المدارس الطبية في الشرق أمثال الأعلام من سبق ذكرهم فنعيد للشرق رونقه العابر ونسير مع أبناء المعمور في سبيل رفاهية الإنسانية، وما على المجتهد أمر عسير . وإلى هنا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

## الفصل الثاني

في بعض أسرار قوله تعالى « وسوف تسألون » وأن هذه الأمة عوقبت في الحياة الدنيا فضلا عما تعاقب به في الآخرة وذلك في ثلاث مقالات ، وهالك نضها

### المقالة الأولى

جاء في جريدة « المؤيد » بتاريخ يوم الأربعاء ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هجرية تحت عنوان « الرحلة إلى الأندلس » وفي مدريد وطليطلة للأمر شكيب أرسلان مانصه :

وصلت أمس إلى مدريد آتيا من سرقسطة التي كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى كما يسمون طليطلة بالثغر الأدنى ، وقد استغرقت معنا الطريق من سرقسطة إلى مدريد نحو من ست ساعات بالسكة بالسير السريع مررنا فيها على قرى ومدن معروفة من زمان العرب مثل قلعة أيوب والحمة وغيرها ، والحمة حمام سخن كما يفهم من اسمها ، وجميع هذه القرى والمدن الصغار التي شاهدناها في أثناء اجتيازنا إلى مدريد مبنية على أهر وجداول ومحاطة بالجنان والبساتين وهيئتها شامية في تربتها وأشجارها وزروعها حتى في جبالها ووادها فلا عجب أن رغب أهل الشام أكثر من كل العرب في سكنى الأندلس ، فإنهم ما انتقلوا من شام إلا إلى شام ومن لم يشاهد أسبانيا لم يعلم سبب الجاذبية التي بينها وبين سورية ولكن متى شاهد هذه الديار فهم السبب فالأندلس في الحقيقة قطعة شرقية في الغرب ، أو قطعة غربية من الشرق ، ولقد ذكرت لقراء رسائلي أني سأخرج إن شاء الله كتابا مستقلا عن رحلتي إلى الأندلس ، فلا ينتظر القراء مني هنا إلا إشارات بسيطة ولحات دالة ، وقد كان يخفق فؤادي طول هذه الطريق من مشاهدة المآذن التي كنا نراها في كل قرية من القرى التي كانت السكة تشقها أو تمر حذاءها ، فهي باقية على حالها بطرزها المعماري العربي وشراريفها وطاقاتها وتخاريمها وكلها مربعة الشكل على نمط مآذن المغرب وما تغير فيها إلا وضع الأجراس في أعلاها وتحويل المساجد إلى كنائس في أديانها ، وجميع البشر يريدون الله ، وكثيرا ما كنا نرى منارتين أو أكثر حول مسجد واحد مما يدل على أن المساجد كانت لعهد العرب أوسع مما هي الآن وهي كنائس وأن القرى التي هي اليوم قرى متوسطة الحال كانت في دور الإسلام قصبات كبارا وأن القصاب التي لا ترتفع اليوم إلى درجات مدن كانت مدائن حافلة فإن المساجد التي تبني من فوقها منارتان وثلاث وأربع لا تكون إلا في المدن الزاخرة العمران ، وقد صادف وجودي في القطار بعض نهباء من الفرنسيين لحظواهم أيضا ملاحظته أنا .

أما مدريد فهي عاصمة من أجمل العواصم الغربية لا ينقصها شيء عن عواصم الممالك الأخرى من سعة شوارع ، ونظافة أزقة ، وضخامة شأن ، وخفامة بنيان ، وعظمة ساحات ، وتراخي مساحات ، واشتباك أدواح جنائن ، ونضارة أزهار وحدائق ، وانتظام شامل كل معاني المدنية مع مزية فيها هي ارتفاع الصقع وإشراف يشعر معه الغريب بانسراح الصدر .

ليس لمديريد ما ينقصها إلا حدائنة تاريخها إن كان هذا يعد نقصا ؛ فإنها ليست كبرشلونة التي يرجع تاريخها إلى دور الفينيقيين الذين لم يحبوها إلا لشبهه سواحل هذه البلاد بسواحل سورية ، ولا كسر قسطه التي كانت كرسيا لمملكة أراغون بعد أن أخذها الأسبانيون من بني هود الجذاميين ، وقد كان لها دور مجيد في زمن الرومان واشتق اسمها سر قسطه من (ميزرا وغسطا) أي القيصر أو غسطنس الذي كان له مزيد العناية بها . ولم تكن مديريد كطليطلة عاصمة القوط يوم دخل العرب الأندلس ، ولا كقرطبة كرسى الخلافة الأموية لعمد اكتمال عظمتها في الغرب واشتمالها على الممالك من جنوبي فرنسا إلى السودان . ومن البحر المحيط إلى طرابلس الغرب . كلا . لمديريد كانت في أيام العرب قرية غير ذات شأن بنى العرب فيها حصنا في وجه بوار قشتالة اسمه مجريط وذلك في القرن العاشر .

ثم لما أخذ الأسبانيون يسترجعون البلاد مستفيدين من قتال العرب بعضهم لبعض ( هذا المرض العربي الذي كان ولا يبرح رأس كل بلاء هذه الأمة ) استرجع الأذفونش السادس ملك قشتالة حصن مجريط بعد نحو ١٥٠ سنة من بناء العرب إياه ، والقصر المملوكي الحالي مبنى في محل جامع كان مسجدا لقرية مجريط التي تحول اسمها إلى مديريد لقرب مخرج الجيم من الدال وقرب مخرج الدال من التاء أو الطاء ، ولكن الذي جعل مديريد مديريد هو فيليب الثاني ابن شر لكان ، وإنما اختارها برغم قبحها باديتها وأجدها ضاحيتها لأجل توسطها من بلاد اسبانيا ، فسرقسطه ضاربة إلى الشمال الشرقي وبرشلونة مرسي واقع في طرف قرطبة مائلة إلى الجنوب وإشبيلية معمعة في المغرب وهلم جرا ؛ فهذا عمرت مديريد وهي أحدث أسبانية تاريخا وارتفعت وانخفض ما كان مرتفعا قبلها والله يرث الأرض ومن عليها .

ثالث يوم وصولى إلى مجريط أو مديريد قصدت إلى طليطلة التي لا تبعد عنها بسكة الحديد أكثر من ساعة ونصف فزرت تلك المدينة الشهيرة عاصمة الأندلس يوم فتحها العرب ، وشاهدت كل ما يشاهده السائح فيها وبقيت بطليطلة نحو ثمانى ساعات أبحث على آثار العرب وأحدق في هذا القصر وهذا الجسر وتلك المنارة وهاتيك المأذنة وأقبل ذا الجدار وأتمسح بذلك الركن حتى شفيت غليلي من طليطلة ، فقد كان في نفسى منها ما كان في نفس القراء حتى كمنت منذ عهد الحدائنة أحفظ قول القائل :

زادت طليطلة على ما حدثوا بلدة عليه نضرت ونعيم

الله زينه فوشح خصره نهر الحجر والغصون نجوم

فرايتها كما قيل بلدة عالية مشرفة على نهر كبير هو نهر ( تاجه ) الذي ينتهى إلى البحر المحيط عند أشبونة ( ليزبون ) وقد انخفض النهر المذكور عن طليطلة وأحاط بها من الجهات الثلاث فهي لا تساوى البر إلا من جهتها الشمالية ، وعلى النهر بساتين وأشجار ، وفي ضفافه غياض وجنان ، ومنظر هذا النهر وما يليه من بساطط طليطلة من أبداع المناظر التي سرحت فيها طرف طرفي على رأى الكتاب ، وكذلك حصانها ظاهرة للعيان وقد قلت لما دخلتها : إنه لا يمكن أن تؤخذ إلا بجوع أو بحيانة ، ولا سيما في الأعصر التي أخذت فيها ، وكنت أعلم من تاريخ الأندلس أن بنى ذى النون أساءوا التصرف فيها حتى آل الأمر إلى استرداد الأسبانيون إياها قبل جميع حواضر الأندلس حاشا برشلونة ، فلما رجعت إلى مديريد راجعت التواريخ بالتدقيق ، فأيدت المراجعة حدسى ( وقررت ما جال في نفسى ) وتحرير الخبر أن القادر بن ذى النون كان ضيف التدبير فائل الرأى فطمع فيه جيرانه من أمراء المسلمين وطفقوا يعتمدون عليه ويتجاوزون ، فذهب إلى الفونس السادس ملك قسطنطينية أو على حسب قول العرب الأذفنش طاغية قشتالة وطاب حمايته ، وجاء الأذفنش بجيش ومعه القادر بن ذى النون ليفتح له بلده التي كانت هي أيضا تمردت عليه ووعد الأذفنش بأنه يفتحها ويقره فيها ، فلما دخلها بسبب تفرق كلمة أهلها قلب له ظهر الحجن وأقطعه بلادا أخرى ، واستولى الأذفنش على طليطلة وأعادها الحاضرة الملك كما كانت يوم دخل العرب الأندلس .

وكم في العالم الإسلامي من أمثال القادر بن ذي النون قديما وحديثا يتخذون بأقاويل الأعداء ويستسلمون إليهم ويثقون بهمودهم حتى إذا ماتمكن هؤلاء بواسطتهم من مرادهم قلبوا لهم ظهر المجن وأرسلوهم يقرعون سن الندم على ثقتهم بهم ولكن حين لا ينفق قرع السن على حسن الظن ؛ فكان استرداد الإسبانيول لطليطلة مبدأ مصيبة الأندلس لأنه بأخذها أخذ الأذفنش إقليما طويلا عريضا فيه ثمانون منبرا ، ودخل في وسط بلاد الإسلام منها ، خال بين قرطبة وغرناطة من الغرب ، وسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب من الشرق حتى قال الشاعر :

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وإلى هنا تمت المقالة الأولى .

### المقالة الثانية

ثم إنه لما استوثق لصاحب قشتالة أمر طليطلة وتمكن بها طمع في قرطبة وما زال حتى أخذها ، ثم في أشبيلية وما زال حتى أخذها ، وانهار بعد ذلك ملك الإسلام بالأندلس : ولولا نجدة المرابطين ثم الموحدين من أفريقية لسقطت الأندلس قبل أن سقطت بنحو (٣٥٠ سنة) فأبناء تاشفين ثم من بعدهم أبناء عبد المؤمن هم الذين شاء الله أن ينسأوا أجل الإسلام في أسبانيا تلك المدة ، وأما السبب في ملك ابن ذي النون لطليطلة وجلبه الأذفنش إليها فهو انصداع الخلافة في قرطبة وتشظى عصاها بتوالي الفتن ، حتى إنه لما رأى أمراء الأطراف أن أمر الخلافة لم يعد جميعا استقل كل أمير منهم بما بيده ، فابن ذي النون بطليطلة وابن هود بسرقسطة ، وابن عباد بأشبيلية ، وابن صامح بالمرية ، وابن الأفطس بيطليوس وهلم جرا . وهؤلاء هم الذين يقال لهم ملوك الطوائف ، لم يكن لهم شغل إلا مقاتلة بعضهم بعضا بينما العدو يلتهم منهم جميعا كل يوم قطرا وهم مع ذلك عن غيهم لا ينتهون .

ولذلك ولشدة ما عانى مسلمو الأندلس من ملوك الطوائف عندما نصرهم يوسف بن تاشفين رحمه الله في وقعة الزلاقة وأراد القبول إلى أفريقية فزع إليه الفقهاء وقالوا : إنك بمجرد ما ترجع يرجع هؤلاء إلى الظلم والعسف ومقاتلة بعضهم بعضا واستنجد الطاغية على المسلمين فخرجوا منك أن تريخنا منهم وتقوم بما أخذه الله عليك وهكذا أقنعوه بأن يبسط يده على الأندلس كلها ويقضى على ملوك الطوائف ، وجاءت الفتاوى بمثل ذلك إلى ابن تاشفين من الشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي أفتاه بالاستيلاء على الأندلس إزالة لمعرة ملوك الطوائف ، وليس لي أدنى اعتراض على ما فعل ولو كان ابن عباد صاحب أشبيلية لخصيا وكنا نحن ننتمى إلى أرومة واحدة وكان ابن هود الجداعي جدا لصديق خالد بك القرقي من عيون أعيان طرابلس الغرب ، وهذا عدا أن لخصيا وجداما كانتا قبيلة واحدة تقريبا .

وقصارى ما أعترض أنا فيه على يوسف بن تاشفين في نفيه المعتمد إلى أخمات التقصير معه في أمر معيسته فقد كان يمكنه أن يرفه عيشه ، أو يسد خلته ولو كان منفيا .

ولم تنجم دويلات الطوائف هذه إلا بسبب سقوط الخلافة في قرطبة ، ولما كان حبل الخلافة مستحصفا كانت الوحدة تامة ، وكان الإسلام مهيبا ، وكان المسلمون في أسبانيا نحو ١٥ مليوناً ، وكانت قرطبة وحدها ذات مليون ومائتي ألف نسمة ، وكان وكان .

فلما انتكث حبل الخلافة ، وانصدعت الوحدة ساءت الحال ، وتفرق الناس وزالت الهيبة ، وذلت العرب ، وبعد أن كان الناس لهم خولا صاروا هم خولا للناس .

هذه هي الخلافة التي يقول بعض الناس اليوم إنها لم تعد الإسلام بشيء ، بل يقولون إنها كانت وبالا على المسلمين ، وما كان وبالا على المسلمين إلا ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع ، ولا سيما العرب الذين هم كما قال النعمان ابن المنذر لكسرى : « تراهم كلهم ملوكا » .  
وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ولا يبقى لها ملوك .  
وأعود إلى طليطلة فأقول : عند ما كنت أقرأ :

طليطلة أدال الله منها سواها إن ذا نبأ كبير

فليس نظيرها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير

كنت أقول : ماذا عساها أن تكون هذه التي لا يحاكيها إيوان كسرى ولا يرتفع إلى مستواها الخورنق والسدير ؟ فلما رأيتها وجدت من حصانة موقعها ، ومنعة أسوارها القديمة المبنية طبقا على طبق ما أكد لي قول هذا الشاعر وعلمت أن سقوط طليطلة هو بالفعل نبأ كبير ، لأن العرب لما أخذوا طليطلة ملكوا جميع ديار الأندلس ، ولأن صاحب قشتالة لما دخل طليطلة بدأ الإنهيار في جدار العرب ، ثم لما تذكرت قوله :

جوامعها كنائس أي قلب على هذا يقر ولا يطير

لحظة أن ناظم هذه القصيدة إنما نظمها ثانی سنة فتح الأذفونش لها لأنه بحسب شروط تسليم طليطلة له كان تقرر بقاء المسجد الجامع للمسلمين ووعده الأذفونش بمراعاة حقوقهم وأحسن معاملتهم في البداية ووزع مائة ألف دينار على ضعفائهم حتى يعملوا ويحراثوا ، وهذا كله حتى يخدر أعصابهم ويفرغ غيرهم بالاستسلام ، وقد أفلح في سياسته هذه ، وخدع منهم خلقا كثيرا ، ولكنه بعد ذلك نقض كل عهد عاهد به وأعاد المسجد الجامع وغيره كنائس وشاهدت تلك الكنيسة العظيمة وهي مبنية بركان المسجد ولم يبق من المسجد الأصلي إلا قسم قليل .

والبيوت في طليطلة لم يبق منها إلا قليل من القديم ، ولكن صفة البلدة في ضيق شوارعها ودخول بعضها في بعض لا تزال كما كانت كأنما العرب لم يخرجوا منها إلا من خمسين سنة ، وقد بقيت اللغة العربية لغة أهل طليطلة حتى بعد رجوعها للإسبانيول نحو خمسمائة سنة يتكلم ، ويكتب بها المسلمون والمسيحيون معا ؛ ثم خلت طليطلة من المسلمين ، فبقي المسيحيون وحدهم ، وكذلك بقي اليهود ، ولبثت لغتهم هي العربية ، وبقي طرز بنائهم ، وأسلوب معيشتهم غربيين ، واستمر ذلك إلى سنة ١٥٨٠ مع أن ارتجاع الإسبانيول إليها كان سنة ١٠٨٥ .

وكان لنصارى طليطلة طقوس دينية خاصة بهم يقال إنهم أخذوها عن القوط القدماء ، وليست بالتمام مطابقة للطقس اللاتيني ، ولما كانت طليطلة تحت حكم خلفاء بني أمية أي تبعا لقرطبة كان للنصارى المستعربين فيها أساقفة كما لنصارى قرطبة ، وقد كان لمطران طليطلة في زمان الخليفة عبد الرحمن الناصر أسقف يقال له عبد الله بن قاسم ، وقد أطلعني الأستاذ آسين بالأسبوس أعظم مستشرق الإسبانيول على أربعة مجلدات مطبوعة حديثا تتضمن الوثائق والصور العربية الباقية كانت في خزنة الكنيسة بطليطلة يستدل منها على أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة في تلك البلدة وماجاورها إلى نحو سنة ١٦٠٠ .

ولقد نسخت بعض أموزجات من هذه الوثائق وهذا كاف من خبر طليطلة ، بل هذا زائد على لقدرة اللازم لأن جميع هذه المباحث يجب ادخارها (للحلة السندسية ؛ في الرحلة الأندلسية) وما جاء منها هنا هو محض اعتداء على (الحلة) وابتسار من ثمرات الرحلة ، فمن شاء فليراجع الأخبار في أنها ومكانها .  
انتهت المقالة الثانية .

### المقالة الثالثة

الجامعة الإسلامية لم تكن يوماً من الأيام بالمعنى الذي شاعت أوروبا تسميتها به لافى العصور الأخيرة ولا فى العصور الأولى من الإسلام ، طبعاً أن القرآن يوصى المؤمن أن يكون دائماً إلى جانب أخيه ، وأن لا يفرق قضيته عن قضيته ، غير أنه يأمره أيضاً بأن لا يؤيد إلا قضية عادلة . وأن يقيم العدل الصحيح تجاه كل الناس دون ماتفریق فلا يمكن والحالة هذه أن يكون فى الإسلام مسألة مناصرة مؤمن لغير مؤمن لمجرد كونه مسلماً ، جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون » .

إن القرآن وسنة الرسول مليتان بالمواظ على إقامة العدل دون ماتفریق ، الحق والحقيقة هما لله ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فستل : كيف يعين أخاه ظالماً؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام : إذا كففت أخاك عن الظلم فقد نصرته . ولكن إذا كان المؤمن مظلوماً أينما كان وكيفما كان فإن القرآن يجعل معونته فرضاً مقدساً إلا أنه ينبغى ذكر أن امكان هذه المساعدة بين المسلمين يجب أن يكون ثابتاً ، ويجب أن تكون درجة هذه المساعدة موضع الدرس ، فلا يمكن مطلقاً أن يطلب من المؤمن ما لا يستطيع ، فأقربون أولى بالمعروف والقرآن صريح فى هذه النقطة ، وإليك الشروط التعاونية التى أمر بها الدين الإسلامى .

فالمسلمون تعاونوا بعضهم مع بعض غالباً أديباً وعقلياً وسياسياً واقتصادياً ومادياً ، والإسلام يقدم الأمثلة الفاصلة على هذا التضامن ، بيد أنه لم يتخذ فى زمن من الأزمان شكلاً عاماً عالمياً ، فالخلافة الموحدة فى الإسلام لم تدم إلا مدة حكم الخلفاء الأربعة الأول ، حتى أن خلافة على كانت منشأ انشقاق هائل وحرب دامية بين المؤمنين ، حرب أولدت الانقسام بين السنة والشيعة فمنذ عهد الأمويين فى الشام ووحدة الخلافة تعرضت لصدمة عظيمة من قبل ثورة ابن الزبير الذى أنزع منهم الحجاز مدة خمس عشرة سنة . لكن فى الاجمال ظلت الامبراطورية الإسلامية موحدة . وهذه الحال استمرت زهاء قرن حتى سقوط الأمويين وقيام العباسيين الذين نقلوا قاعدة الخلافة من دمشق إلى بغداد . وفى ذلك الحين استطاع أحد المرابطين من بنى أمية أن ينجو من سيف العباسيين فقصده أسبانيا التى كان الاستيلاء عليها حديث العهد . لكنى يقيم فيها دولة مستقلة عن خصومه . ثم إن عبد الرحمن الأول وهو المسمى بصقر قریش لم يجرؤ وهو مستقل على اتخاذ لقب الخلافة لنفسه ، وظلت الأدعية العامة فى الأندلس تدعى أمامه باسم خلفاء بغداد ، وإنما عبد الرحمن الثالث الفاتح الشهير الذى أخضع كل اسبانيا وجنوب فرنسا وكل شمالى أفريقيا والذى كان أبرز حاكم فى زمانه (القرن الثالث للهجرة) هو الذى تجرأ على أن يتخذ لقب خليفة بالرغم من وجود الخلفاء العباسيين فى بغداد . وعندئذ قامت عدة دول إسلامية مستقلة بعضها عن بعض ، فالعباسيون فى بغداد والأمويون فى قرطبة ، وفى حين من الدهر كان الأدرسيون فى المغرب ، ثم قامت أسرة ملكية أخرى تحدى انقساماً جديداً وهى أسرة الفاطميين خلفاء القاهرة (القرن الخامس للهجرة استتال حكمها حتى القرن الحادى عشر) ومن ذلك الحين فقدت الوحدة الإسلامية كقوة سياسية : ولم يعد التضامن إلى تلك الممالك المتحدة . وكان معترفاً للعباسيين بشيء من التفوق الأدبى ليس غير . وكان يبدو أحياناً مظهر التضامن الأدبى حتى والمادى فى البلاد الإسلامية لكنه لم يتجاوز حدود التضامن الذى كان تمارسها فى البلاد المسيحية .

وقد قدمت الدول المسيحية في القرون الوسطى تجاه الإسلام مثالا للوحدة التي كانت مفقودة عند الدول الإسلامية ، وذلك بتضايف الفرنسيين والألمان والفلمنك والإنكليز والاطليان الخ ، كتلة واحدة لحرب المسلمين في الشرق ، فقاموا باحدى عشر حملة صليبية ، ومن جهة ثانية رأينا أن المسلمين لما أرادوا صد تلك الحملات لم يتحدوا إلا فيما بين المصريين والسوريين وسكان ما بين النهرين ، وهؤلاء جميعا ليسوا إلا جزءا من المسلمين وعبثا نادى صلاح الدين ودعا مسلمي المغرب لتؤازره حكوماتهم بأساطيلها القوية ، ولو أنهم لبوا دعوته لاستطاعوا أن يحولوا دون نزول الحملات الصليبية .

ولئن كان بين مسلمي أفريقيا ومسلمي الأندلس تضامن تجلّى بتقدم الجيوش فقد كان ازاء ذلك اكثرية منهم بجانب الشعوب المسيحية ، ولكن بين الشرق الإسلامي والغرب الإسلامي لم يسطر التاريخ أعمالا عسكرية تبودلت بشكل عام . وقد وقع فقط أن أهل تونس والجزائر وطرابلس الذين كانوا أقلية تجاه الدول المسيحية دعوا لنجدتهم الدول العثمانية ، وقد سارع السلطان سليمان القانوني لوضع هذه البلاد تحت سيطرته إما رغبة في الفتح ؛ وإما في التضامن الإسلامي ، وإما لإقامة التوازن بين قوته وقوة شارلسكان .

وقد مر حين من الدهر لم يكن في البحر المتوسط سوى أسطولين : أحدهما إسلامي تحت قيادة خير الدين بربروس . والآخر مسيحي . انتهت المقالة الثالثة .

### الفصل الثالث

في أن القرآن ذكر للمسلمين عموما وللعرب خصوصا

في النهضة الحالية

ولأقدم مقدمة فأقول : اعلم أيها الدكي أني كما ذكرت سابقا مولود بقرية من قرى مديرية الشرقية تسمى (كفر عوض الله حجازي) وقد كان ذلك أيام الظلم والاعتساف ، والجور والقسوة ، فكان الحكام أظلم خلق الله ، وكانت الرعية جارية على سنن الرعاة ، فالأقوى كان يظلم الأضعف ، وكنت أرى أن الأقوياء والأغنياء يتحكمون في الضعفاء ، فيرسلونهم إلى أعمال الحفر في الجسور والترع التي لا أجر عليها من الحكومة بل هي مجرد ظلم واسترقاق وإرهاق ، ولكن كانت الحكومة المصرية تنتقل من حسن إلى أحسن سنة فسنة حتى استتب الأمن في البلاد وعرف كل ذي حق حقه . وفي أثناء تلك المدة دخلت الأزهر فمدرسة دار العلوم فصرت مدرسا . وهناك أخذت أولف الكتب لنشرها بين المسلمين قياما بما عاهدت الله عليه أني إذا عرفت الحقائق العلمية جملت حياتي وقفا على تعليم ورقي المسلمين كي لا يستسلموا للشك الذي آذاني وأقلق بالي ، وأخذت أعرض الكتب على ذوي الرأي في البلاد حتى إذ وجد أحدهم عيبا دلتني عليه وكان حديث المتقدم مع المرحوم لطيف باشا سليم وتوالت الجمعيات في مصر كحزب الوفد المصري وحزب الأحرار الدستوريين وغيرهم وهذا كله مصداق لما رأيته من قبل ، وقد ظهرت في هذه الأيام جمعية الشبان المسلمين ولها فروع في الجزائر وتونس والشام والعراق وأمريكا ، وهكذا جمعيات أخرى كجمعية المواطنة والجمعية الجغرافية وغيرها ، وكل في الأقطار العربية من جمعيات أدت أعمالا عظيمة وأكثرها ظهرت بعد الحرب الكبرى ، وجميع البلاد الناطقة بالاضاد اليوم تطلب الاستقلال . فانظر ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

## الانتداب في البلدان العربية

بقلم الكاتبين غوردون كاننج

المقال الأول

كان من أعظم أسباب سقوط الأمبراطوريات القديمة اسراف القوة الرئيسية تدريجاً بالتوسع المطرد في الممتلكات ، وزى في عصرنا هذا أن الامراطورية البريطانية والأمراطورية الفرنسية في خطر الانحلال لهذا السبب نفسه ، إن مستشاري الأمباطوريتين ويلوح انهم من طراز قديم ( سابق لتاريخ البشر ) ممن لهم خبرة بفنون الحرب يصرحون أن الضرورة تقضى بصيانة الممتلكات الموجودة بضم ممتلكات أخرى .

معلوم أن زيت البترول باب من أهم مطالب العالم في هذه الأيام فأصبحت موارده من الضرورات الأولية لكيان الدول العالمية ؛ فالبتروال اذن كان من العوامل التي اجتذبت انكلترا إلى العراق وفلسطين وإيران التي اضطرت بحكم أحوال خصوصيه إلى الانسحاب منها ، ومتى كانت انكلترا موطدة في العراق وفلسطين ففرنسا لا يمكنها أن تتجلى عن بقعة مجاورة تتركز إليها وتتخذها قاعدة لحماية مصالحها ، وهذا ما بحث على عقد اتفاق ( سيكس - بيكو ) وتنفيذ هذا الاتفاق كان مضراً بالاتفاق الذي عقد بين الملك حسين والحكومة البريطانية مع أنه كان في تاريخ سابق لاتفاق ( سيكس - بيكو ) ومما يدل على أن انكلترا قد سلمت بأنها حدثت في عهدا مع الملك حسين أنها أوجدت عرش العراق للملك فيصل بعد مطرده السلطات الفرنسية من سورية ، وقد أثر ذلك تأثيراً سيئاً في سمعة انكلترا وهيبتهما في الشرق الأدنى والشرق الأوسط لأن العناصر العربية أدركت أنها سمعت لشار أقوى وأقدر ، فقد كانت مقتضيات مواصلة الحرب أهم من كل شيء وفوق كل شيء ، حتى أن الشرف البريطاني ترك جانبا وعد من سقط المتاع ، وكانت هذه الاتفاقات الحربية المختلفة هي السبب الأكبر التي جعلت معاهدة فرساي وغيرها من المعاهدات شؤماً وهولاً وأسباب القلق الحالى وعدم الارتياح بين ملايين من الناس . والغاية من مقالتي هذه أن أقترح علاجاً لمسألة بلدان الانتداب في الشرق الأدنى والشرق الأوسط التي عانت هول تلك المعاهدات وفي أى علاج يتناول مصالح عدة أمم لا يمكن لأية أمة منها أن تكون راضيه كل الرضا ، ولا بد من مراعاة مبدأ الأخذ والعطاء من كل جانب

وللبحث في هذه المسألة لأرى من الضرورة الدخول في تفاصيل إدارة شئون بلدان الانتداب خلال الثمان سنوات الأخيرة لأن هذه الوجهة من المسألة كانت موضوع البحث في عدة جرائد ومؤلفات ، فالغلطات التعيسة والأخطاء المحزنة التي ارتكبتها فرنسا وانكلترا قد اعترف بها ، وليست المصاعب التي جابهتها كلاهما مما يستحق العطف لأنها من المصاعب التي أوجدتها انكلترا وفرنسا ، وقد أصلحت انكلترا جانبا عظيماً من أخطائها ولا سيما علاقاتها مع العراق ، وأخذت فرنسا بإرشاد المسيوبو سو تحاول إصلاح عواقب إارتها الوضيعة في سورية ، إن الغلطة الرئيسية التي ارتكبتها كل من انكلترا وفرنسا هي عدم العمل بمقتضى البند الثامن والعشرين من عهد جمعية الأمم ؛ وقد قالت اللس ( هويت ) في كتابها عن الانتدابات مالى :

أما إذا كانت هذه الرغائب قد نفذت فأمر مبهم غامض ، وأما إذا كان هناك لاً ولئك الناس رغب .  
جلية فأمر أغمض وأكثر إبهاماً . وبالْحَقِيقَة وواقع لأمر أن أهل بلدان الانتداب لم يستشاروا والأسلوب الذى اتبع في هذه البلدان في تقسيمها إلى دويلات أوجد على سطح الكرة الأرضية بلقان أخرى وهو أسلوب

سقيم من الوجهة الاقتصادية نظرا للتعريفات الجمركية بين تلك الدولات وعرقلتها لحركة التجارة . وبلدان الانتداب المعرفة بحرف (١) هي كالي :

(١) - العراق وضع انتدابه في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٤ ويبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين

(٢) - سورية وضع انتدابها في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم في يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٢٢٥٠٠٠٠ من المسلمين و ٤٠٠٠٠٠ من الدروز و ٤٠٠٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠٠٠٠ ماروني

(٣) - فلسطين وضع انتدابها في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم في شهر يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٧٥٠٠٠٠ نفس ٨٧ في المئة منهم عرب (٤) شرق الأردن ويبلغ عدد سكانه ٢٠٠٠٠٠ نفس

وفي شبه جزيرة العرب بلدان تحت الحماية البريطانية وهي : عدن ، وعمان ، والكويت ، وبلدان مستقلة وهي : نجد والحجاز والعسير واليمن وحضرموت ، ومجموع عدد سكان هذه البلدان كلها يتراوح بين خمسة عشر مليوناً وعشرين مليوناً نسمة : أما إذا كان إصطلاح الانتداب قد وضع على قاعدة المثل الأعلى أو ابتكر كمرادف للضم والتملك فليس من موضوع البحث في مقالتي هذه ؛ ولكن الأرجح أن جانباً عظيماً من عدد السكان المبين آنفاً متحد في مطالبه ورغبته في التخلص من الوصاية الأجنبية وإن كان مختلف الأحزاب غير متفقة على شكل الحكومة التي يجب أن تحل محل حكومة الانتداب أو دولة الحماية

فهل مقتضيات الأمبراطورية البريطانية تتطلب أن تكون إنجلترا في فلسطين والعراق وشرق الأردن وهل من الضروري أن تكون فرنسا في سورية ؟ إن جواب البلدين هو ( نعم ) فإذا كانت إحدى الدولتين في سورية لا بد أن تكون الأخرى في فلسطين والعكس بالعكس ، وتقول انكلترا : نعم لأدافع عن قناة السويس ضد مهاجميها من الشرق ، ولأدافع عن مصالح بريطانيا في بتروال الموصل والحمره . وتقول فرنسا نعم لأدافع عن خط أنابيب البترول وسكة الحديد المزعم مدها إلى الموصل وبغداد ومن كل منهما إلى حيفا ، وهذه الفكرة الثانية لتنمية التجارة ومصالح الصناعات ، ويتبعها ويترب عليها الحماية العسكرية ، وهكذا تظل الدول الأوروبية الإدارية تثير كتلة متجمعة من الرأي العدائي في تلك البلاد الذي قد يصبح بقوة الاتحاد قوة خطيرة ، فالأفضل والحالة هذه الاعتماد على عقل سكان البلاد وطي عهد صداقة يقوم على قاعدة التعاون التجاري والكسب المتبادل .

والسبب الأول يمكن دراه باتفاق متبادل يعقد بين انكلترا وفرنسا للانسحاب في وقت واحد من سورية وفلسطين وشرق الأردن ، ولكن فرنسا تقول : « محال على أن لا أحمي الأقلية المسيحية » ولكننا نرى اليوم أن هذه الأقلية المسيحية هي أيضاً تطلب جلاء فرنسا عن البلاد ، وتقول انكلترا : « إن ذلك مستحيل لا يمكننا أن ننسحب وندع الاسرائيليين تحت رحمة العرب » ومع هذا فإن اليهود والعرب كانوا في عهد تركيا عاشرين معاً وفي وفاق تام ، إن تصريح بلفور هو سبب الاضطراب الحالي بين العرب واليهود ، إن تأسيس هذا الوطن القومي لليهود لم يلق تعضيداً حقيقياً من زعماء اليهود ، فقد أيدوا الفكرة عن غير طيبة خاطر مالياً وأديباً ولم يوافقوا قط على فكرة مغادرة محل إقامتهم للاقامة بذلك الوطن القومي ، وقد كان معظم المهاجرين من اليهود القاطنين في شرقي أوروبا الذين ذاقوا الندل والهوان ، وعانوا الشيء الكثير من الاضطهاد والظلم . وقد برهنت الأيام على أن الصهيونية صناعة خائبة عقيمة وجناية سياسية . فالصهيونيون المقيمون

الآن بفلسطين قد وجدوا هناك بمساعي انكلترا وجهودها ولا بد من الاعتراف بهم وحمايتهم ومساعدتهم  
نعم يجب الوصول إلى اتفاق متبادل بين فرنسا وانكلترا تتفقان فيه على سحب كل شيء فيه شبهة العسكرية  
من سورية وفلسطين وشرقي الأردن وأن يقدموا للبلاد خبراء لتنمية فن الادارة الحكومية والفنون والصناعات  
عندما يطلب منهم العرب ذلك بأنفسهم . والحامية البريطانية التي تسحب من مصر وفلسطين يمكن أن تعسكر  
لمدة ١٥ سنة في جوار بورت فؤاد بعد استئذان الحكومة المصرية فتكون منها قوة مركزية متأهبة في أية  
لحظة للدفاع عن مصالح بريطانيا العظمى في شرقي البحر الأبيض المتوسط وللتعاون مع الحكومة المصرية على حماية  
القناة ودرء الاعتداء على حرية الشعب المصري . ولكن قلما يتسنى نقل هذا الاقتراح إلى حيز العقل يجب  
على العرب أن يمدوا أيديهم للعمل ويقدموا برهانا حاسما على استطاعتهم إيجاد مشروع ابتكارى يتسنى به  
ملافاة حدوث الفوضى عندما تنسحب القوات البريطانية والفرنساوية من البلاد . فعلى نواب العرب أن يقدموا  
مشروعا يبينون به ما يلي :

- ( ١ ) أنهم أهل لادارة شئون بلادهم بأنفسهم وأن الانتداب صار غير لازم .
- ( ٢ ) إن جميع المشروعات التجارية مثل سكك حديد بغداد وحيفا ومنابع البترول في الموصل والحمرية  
تقدم لها التسهيلات اللازمة لترقيتها وإتمامها ، وأن يسمح للمشروعات الأوروبية بالاشتراك مع  
المشروعات العربية أن ترقى مؤهلات البلاد التجارية والصناعية تحت شروط عادلة مرضية للجميع .
- ( ٣ ) أن تستطيع الحكومات العربية تقديم الضمان الوافي لتأمين معاملة الأقليات المسيحية في سورية  
والأقلية اليهودية في فلسطين وتنفيذه ، وأن تمنح الوطن القومى اليهودى قسما معينا من الحكم  
الذاتى ، وهذا الوطن القومى يجب أن يكون مثالا مصغرا لمركز روى تثقيفى فقط .
- ( ٤ ) أن يستطيع زعماء نواب العرب أن يقدموا برهانا حاسما على موافقتهم على إنشاء إيجاد  
دول عربية تحت سيطرة ابن السعود إذ كان ذلك ممكنا . وبهذا تم الكلام على  
المقال الأول .

\*\*\*

### المقال الثانى

يعتقد معظم الناس أن العرب يعجزون عن إظهار مقدرتهم بتقديم خطة إنشائية ، أما أنا فأعتقد أنهم  
قادرون ليس بناء على تاريخ عنصرهم الماضى فقط بل لما يحرزه أبناء العرب المهاجرون من النجاح الباهر  
في المراكز الصناعية والتجارية العصرية في بونس أيرس ونيويورك وغيرها من أنحاء العالم المتمدن ، وليس  
من الضرورى الرجوع بالقارىء إلى الحكومات العربية السديدة الخطوات في العهد الغابرة ، وحسى أن  
أقول إنه في القرن الثامن بعد الميلاد في عهد الخلفاء الراشدين ببغداد كان في وسع التاجر التجول أن يسافر  
من البصرة إلى دمشق مثقلا بالسلع بغير أن يعتدى عليه أحد . وفي عام ٩٨٠ ميلادية ، كان المسافر يقطع  
الشقة بين المهديّة والقاهرة بلا خوف ولا وجل من قطاع الطرق ، فإذا كان العرب قد استطاعوا في تلك  
الأيام تأمين الطرق بهذه الكيفية ، فمن الأكيد المحقق أنهم قادرون على ذلك في هذه الأيام ، ولا بد لنا  
من التسليم أنهم يحرزون هذه المقدرة بالارث ، ولكن هل يحرزون الإرادة والعزيمة على إظهار هذه  
المقدرة ؟ إن على العرب أن يرهنوا على ذلك الآن ، ولا يكفى أنهم شديد والرغبة في طرد المعلم من بلادهم ،  
فهذا لا يعدو سياسة الهدم ، ولكن يجب عليهم أن يظهروا مقدرتهم على التعمير والإنشاء . أما فيما يتعلق

بالخوف القوي قد تنطرق إلى قلوب الانكليز بأن الأقليات المسيحية واليهودية لا تطبق الأغلبية الإسلامية فلا بد من قول شيء في ذلك .

إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة في البلدان الإسلامية إلى أن تأتي دولة أوروبية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث في مسألة الأرمن والأترک ، نعم إنه في الأنحاء البعيدة المنعزلة عن العالم الإسلامي قد لا يخلوا الأمر من تعصب ضد المذاهب الأخرى ، ولكن هذا كان كذلك بين مختلف الطوائف المسيحية . على أن زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائماً يعملون على تلافى هذا التنافر وإصلاح ذات البين ، فإذا كان التعصب الديني قد أخذ مجراه في زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون من غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين ، ومن الواجب أن تتخذ مبادئ نجرن كالمثل الأعلى للزعيم المسلم ، وكامة الإمام على رضى الله عنه : « إن دم النبي كدم المسلم » هي أيضاً خير مثال .

واليوم نرى الموازنة في لبنان والمسيحيين العرب في فلسطين ومسلمي الشام وفلسطين والعراق قد أخذوا يعرضون عن الفوارق في المذاهب والعقائد ويحنون إلى المثل الأعلى والمذهب العميم وهو أننا جميعاً إخوان في الإنسانية ، وأول خطوة في هذا السبيل هي السعي إلى توحيد بلاد العرب ، وقد أخذ أبناء العرب المثقفون المتنورون في هذه الأيام يتطلعون إلى هذه الغاية ويثيرون الدعوة إليها في عدة أنحاء ، وزعماء العرب أدركوا مني بالمنهج الذي يجب أن يتجهوا للحصول على الوحدة العربية والتخلص من وصاية الأجنبي والتقدم الحثيث في التعاون مع خير الطبقات الأوروبية ، وإني أقترح ما يلي على سبيل التجربة :

- (أولاً) المبادرة إلى عقد مؤتمر في القاهرة يدعي إليه مندوبون من جميع البلدان العربية .
- (ثانياً) ينتخب هذا المؤتمر مجلساً دائماً يكون مقره في القاهرة أو جدة أو الشام « ولما كانت القاهرة مركزاً حسناً تتوفر فيها أسباب المواصلات مع جميع بقاع الأرض العربية قد تكون لائقة لأن تصبح بمثابة جنيف للعرب » .
- (ثالثاً) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر كل سنة أو سنتين .
- (رابعاً) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد عربي وأن ينتخب زعماءه ويتفق على زعيمه الأكبر .
- (خامساً) تكون مهمته توحيد الأمة العربية بيث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة .
- (سادساً) يجب وضع خطة للتعليم يمكن كل دولة في خلال الخمس عشرة سنة المقبلة من الحصول على سيل مطرد من الشبان المتدربين على فن الإدارة الحكومية والعلوم والفنون والشئون الصحية وما إلى ذلك .

فإذا استطاع العرب أن يصلوا إلى هذا التوحيد فيحتمل أن تتمكن انكلترا من رفع حمايتها عن جميع البلدان العربية عدا عدن ، وأن تعقد معاهدة صداقة ومحالمة بين سلطات الاتحاد العربي والأمبراطورية البريطانية ، وإني أعتقد أن حلاكهنا يكون ضامناً أفضل لسلامة المواصلات الأمبراطورية وتوطيد أركان القوة في هذه البلدان من الشرق الأوسط وتوحيدها تتخلص الأمبراطورية البريطانية من إنفاق عدة ملايين من الجنيهات كل عام .

ويغلب على ظني أن العرب يجب أن لا يتصوروا وهم لا يتصورون أنه يتسنى لهم الوصول إلى هذه الغاية بغير مساعدة من الغرب ، ويجب أن لا يعزب عن بال انكلترا وفرنسا أن أمة تحت التدريب والتعليم لا يمكن أن تحرز المسؤولية اللازمة إلا بالممارسة والاختبار ، وبهما دون سواهما تتعلم هذه الأمة اجتناب الأخطار والوصول إلى مستوى مرض من الحكم الذاتي ، وزعامة الدعوة إلى الوحدة العربية يجب أن تخرج من دمشق ، وربما قبل مضي وقت طويل يعود العالم العربي إلى ازدهاره ويناعته ، ويدهش العالم بثقافته وعلمه كما كان في سالف الأحقاب .

وما هو تأثير هذا كله في انكلترا فيما يتعلق بالأمبراطورية البريطانية ؟ الجواب عن ذلك من الوجهة السلبية أنه يوجد القوة العسكرية في مركز واحد ويقلل من تبعه التورط ويؤدي إلى اقتصاد المال ، ومن الوجهة الإيجابية الابتكارية يضم جميع العنصر العربي إلى دائرة الصداقة الخاصة ، ويوجد زبائن أقوى وأغنياء بالتقدم في المعيشة العصرية وبالتعاون التجاري الوثيق مع الغرب ، وحيث كان زبون واحد في الماضي يقوم اثنا عشر زبونا جديدا محله .

إن مشروعا كهذا يتطلب وقتا للنضوج ، ولكن الوقت لا يجدي ولا يفي فتبلى إذا كان زعماء العرب في هذا العصر لا يعدون التربة ويطعمونها بسماد العقل والفضيلة وينثرون فيها بذور الاتحاد والوثام والإنعاش هذا المشروع وإبلاغه طور الازدهار والإيناع يجب أيضا أن تنقي أرضه من الأعشاب البرية ، وأن يروى ويسقى ليس بمساعي زعماء العرب الشجعان فحسب ، بل بمساعي الأوربيين أيضا ولا سيما الرجال الإنكليز ذوي البصيرة النيرة والنية الحسنة .

ولسكي ينتج هذا المشروع خير النتائج من الضروري الحصول على تعضيد انكلترا ومعاونتها ، فللعرب أن يقتبسوا العلوم عن الألمان والفنون عن الفرنسيين ، ولكن العلوم السياسية وفن معاملة المذاهب المختلفة ، وتحمل الفوارق الدينية ، وواجبات الشرف والنزاهة يجب أن يتعلموها من انكلترا ومن الرجال الإنكليز ، وقد يطول العمر على ثقافة انكلترا وتبقى مكرمة محترمة مرغوبا فيها خلال أجيال كثيرة مقبلة ويكون مثلها مثل ثقافة الرومان والعرب في هذا العصر .

وأختم مقالتي هذا بكلمات أوناموتو : « إنني أفصد الحث وإذكاء وطيس الحماسة والاقتراح لا الإرشاد والتعليم » وإلى هنا تم الكلام على المقالين للكاتب التزيه غوردون كاتنج .

## الفصل الرابع

في تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين

### المقال الأول

التنافس الدولي ونصيب العرب منه

جاء في إحدى جرائدنا المصرية في يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هجرية ما يأتي :

إن القاعدة التي بنيت عليها مدينة القرن العشرين « الحق للقوة » وعلى هذا الأساس أصبح التنافس عظيمًا بين الدول العظمى في بناء الأساطيل ، وتدريب الجيوش ، والنفق في ابتكار الآلات الجهنمية القاتلة

لحياسة السيادة والتفرد بالنفوذ في هذا العالم بما أدى إلى نشوب الحرب العظمى التي كان من نتائجها انهيار  
الأمبراطورية الألمانية وسقوط أكبر دولة حربية على وجه الأرض .

إذا كانت الضغائن موجودة في الأفراد عند انتصار أحدهم على الآخر ومنعه من نيل ما يبتغيه والاستئثار  
به دون رفيقه ، فأحر بها أن تكون عند الدول الكبيرة وهكذا فإن ألمانيا التي كانت تطمح لفتح العالم  
أصبحت اليوم لاحول لها ولا طول ، لا ترى بعين الرضا ما يتمتع به دول الحلفاء من ثمرات الانتصار وتفردهم  
بالاستيلاء على بلاد العرب ، وإذا كانت عاجزة عن إثارة حرب ثانية تقضي بها على ما يتمتع به غرماؤها ، فلا  
تقدم غيرها من الوسائل خصوصا وهي تلك الدولة التي دفعت سفينة العالم في اليم وجعلتها تائهة بين أمواجه  
المتلاطمة مدة أربع سنوات حتى رست على الشاطئ وهي محطمة .

إن الشعب العربي يقطن أقطارا شاسعة ، وأغلبها واقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج  
الإسكندرونة إلى مضيق جبل طارق ، وهذا الشعب خاضع لجميعه لنفوذ وسيطرة ثلاث دول كبيرة ( الحلفاء )  
الأولى بريطانيا العظمى ولها الشطر الأهم ك مصر والسودان وجزء من سوريا الجنوبية والعراق وأغلب سواحل  
الجزيرة العربية ، والثانية فرنسا وفي يدها سوريا وإقليم المغرب أو إفريقيا الشمالية كتونس والجزائر ومراكش  
والثالثة إيطاليا وهي مستولبة على طرابلس الغرب .

فمن هذا ترى أن بلاد العرب محصورة في يد هذه الدول الثلاث التي لم تزل تسعى وتجاهلتهنفسيك عرى  
هذا الشعب وبث روح التنافر فيه بمختلف الوسائط ، فهذه مصرى وذاك سورى ، وهؤلاء عراقيون ، وأولئك  
مغاربة ، وبث سموم فكرة اللغات العامية والسعى للتشويق إلى العدول عن اللغة الفصحى التي هي الرباط  
الوحيد الذي يربط سبعين مليوناً من العرب .

ولما كان لهذه الدول من يناقشها في السيادة ولا يروق له أن تتجكم في هذه الشعوب جعل يناصبها العداء  
بمختلف الوسائط التي تقضي على نفوذها وسلطتها من حيث لا تشعر .

إن التنافس بين انكلترا وروسيا هو سبب بقاء الأستمانه بيد الترك أو بقاء الدولة العثمانية إلى زمن الحرب  
العظمى وكذلك بقاء الدولة الإيرانية : وهانحن الآن للمرة الثانية نرى التنافس بين ألمانيا ودول الحلفاء  
سيكون سببا لإيجاد شيء من لا شيء وخلق كيان من العدم .

إن الشعب العربي الذي قرر المفكرون بأنه صائر إلى الانقراض بدأ يتحرك ويحس بوجوده في هذا  
العالم بعد تلك الغيبة الطويلة ، وما هذا إلا بفضل ذلك الطبيب النطاسي الحاذق الذي أخذ على عاتقه إحياء  
هذا المريض ليحرم أعداءه من تراثه .

إن الاجتماع العربي الكبير في ( برلين ) تحت إشراف لجنة الدفاع عن المغرب العربي وحضور مندوبين  
من جميع الأقطار العربية للاحتجاج على مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر أول قطر عربي احتله  
الأجنبي وإلقاء الخطب النارية التي ترمى جميعها إلى وحدة العرب الكبرى ما هو إلا أثر من آثار التنافس  
الدولي بين ألمانيا والحلفاء .

وهكذا سوف نرى أن هذه المنافسة الخطيرة ستقضي إلى خلق دولة ( الاتحاد العربي العام ) ومن يعيش  
يره ، أو كما قال شاعر العرب القديم :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا      ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبعد له      بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

أبو الوليد

( البصرة - العراق )

## المقال الثاني

جاء في جريدة الأهرام يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م ما يأتي :

### في المجمع النسائي العربي

قرر المجمع النسائي العربي في بيروت وكذلك فروعها في البلدان العربية في الجلسة القانونية المنعقدة في أول نوفمبر سنة ١٩٢٩ م بعد الوقوف على آراء الأكتربة الساحقة من مفكرات وجمعيات الأقطار كافة المسائل التالية :

( أولا ) المبادرة إلى عقد المؤتمر الشرقي العربي الأول في مدينة دمشق قلب العرب النابض في أواخر الربيع القادم لتعود المرأة العربية إلى ازدهارها ومناعتها ، وبدهش بثقافتها وعلمها كما كان في سالف الأحقاب ، وتنضم جميع العناصر النسائية إلى دائرة الصداقة الحالصة .

( ثانيا ) ينتخب لهذا المؤتمر مجلس أعلى من مفكرات هذه الأقطار ويكون له مركزان رئيسيان في دمشق والقاهرة .

( ثالثا ) علي هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر في كل سنة مناوبة في أقطار الشرق العربي .

( رابعا ) علي هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد نسائي شرقي عربي تكون مهمته توحيد الأمة العربية ببث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة .

( خامسا ) أن يكون هذا البيان كإعلان رسمي لجمعيات وأفراد المفكرات في الأقطار الآتي ذكرها وهي : مصر ، تونس ، طرابلس ، الجزائر ، برقة ، مراکش ، السودان ، جنوبي أفريقيا ، فلسطين ، شرقي الأردن ، العراق ، الحجاز ، اليمن ، نجد ، حوران ، بلاد العلويين ، سوريا ، لبنان . وبصورة خصوصية يطلب المجمع آراء أخواتنا في المهجر ليشتركن معنا روحيا .

( سادسا ) أن المسائل الخمس الرئيسية التي ذكرت في برنامج المؤتمر وأضيفت إليها مسألة رعاية الطفل باقتراح النابغة (ح) سيتفرع منها مواد شتى .

( سابعا ) أن هذا المؤتمر العام لا يزاحم المؤتمرات المحلية بل يحترمها ويؤيد مقرراتها . انتهى المقال الثاني

### الفصل الخامس

في أن الوطن اليهودي في فلسطين مما قرر ارتفاع ذكر الأمم العربية

جاء في إحدى المجلات العلمية وهي « السياسة الأسبوعية » في يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ تحت العنوان الآتي ما نصه :

## حديث للأستاذ محمد علي باشا

عن رحلته في فلسطين ودفاعه عن البراق ورأيه في الرابطة العربية

عاد الأستاذ الكبير محمد علي باشا من الديار الفلسطينية بعد أن قضى في بيت المقدس زهاء عشرين يوماً أبلى فيها أحسن البلاء في الدفاع عن حقوق المسلمين والعرب في البراق الشريف أمام لجنة التحقيق الدولية وكان لدفاعه المجيد أثر خالد في الأوساط السيامية العربية وضجة عنيفة في الدوائر الصهيونية ، وقد رأى أحرار الجالية السورية بمصر أن يخفوا زيارته ويهنئوه بسلامة الأوبة ويشكروه على ما تحمله من المشاق ، وما قام به من جلائل الأعمال في تأييد حقوق العرب وتشجيب مزاعم الصهيونية ، فتألف وفد من هيئة إدارة جمعية الدفاع عن فلسطين وأعضاء حزب الشعب السوري برئاسة الأستاذ الزعيم الدكتور شهيندر وزاروا الأستاذ محمد علي باشا في منزله للقيام بواجب التهئة والشكر ، وقد رأى كاتب هذه السطور أن يعتم هذه السانحة فطرح على الباشا أسئلة عدة حول البراق والمسألة الفلسطينية والرابطة العربية فتفضل معاليه وأجاب عليها بما يلي :

(س) لقد رفعتم رأس مصر والشرق عاليا بما ناضلتم به عن حقوق العرب وتفنيدها المزاعم اليهودية الصهيونية في قضية البراق الشريف ( جدار المبكى ) فهل لكم أن تتفضلوا بتلخيص الأسس التي بنيت عليها دفاعكم المجيد ؟

(ج) حينما اتصل بي نبأ إبحار اللجنة الدولية إلى فلسطين للتحقيق في قضية البراق والنظر في شكاوى الفريقين المتنازعين والحجج التي يتذرع كل منهما بها ، تحركت في نفسي عاطفة الغيرة على هذا المكان المقدس الذي تتجه نحوه أنظار ثلاثمائة مليون مسلم ونيّف في جميع أقطار العالم ، ورأيت أن الواجب الديني والقومي يقضى على بأن أقبل دعوة إخواني الفلسطينيين ، وأقوم بقسطي في الدفاع عن ذلك الجدار الشريف ، فبرغم الأزمة الوزارية التي قامت في مصر ، وبرغم ما كنت أشعر به من الانحراف في صحق لبيت نداء الواجب ووليت وجهي شطر بيت المقدس ، وبعد أن تعرفت هناك إلى أحرار البلاد ودرست الموضوع من جميع أطرافه رأيت بالاتفاق مع سعادة الأستاذ أحمد زكي باشا ، وهيئة الدفاع أن نقسم أعمالنا إلى ثلاثة أقسام :

(١) القسم التاريخي : ويتولى القيام به الأستاذ أحمد زكي باشا .

(٢) قسم التحقيق ومناقشة الشهود : ويتولاه الأستاذ عونى بك عبد الهادى .

(٣) القسم القانوني والسياسي : وقد عهد إلى بالقيام به .

وسار التحقيق سيره المعلوم ، وأدلى كل من الفريقين بحججه وبراهينه ، وبسط الأستاذ أحمد زكي باشا موضع النزاع من الوجهة التاريخية الثابتة والوثائق القطعية التي لا ترد مؤيدا بها حقوق المسلمين ، ومن ثم جاء دورى فرأيت أن أستهل دفاعى بإبداء الاحتياطين الآتين :

(الأول) إن الأمة الفلسطينية أعلنت رسميا وفي كل الظروف عدم اعترافها بالانتداب البريطاني وهي لذلك لا تريد أن تتقيد بأى نظام مستمد من هذا الانتداب ولا الإقرار بأية نتيجة ترجع إلى ما يسمى بوطن قومي لليهود ، فدفاعى في هذا النزاع لا يغير شيئا مما احتفظت به فلسطين لنفسها لأنها هي وحدها صاحبة الحق في تقريره .

(الثاني) يقرر المسلمون أن النزاع على ملكية أَمَا كُن العبادَة أو على حقوق مدعى بها على هذه الأَمَا كُن يجب أن ترفع إلى الهيئة المختصة دون غيرها بالفصل في أمر الوقف والأَمَا كُن المقدسة الإسلامية وما عداها فهو غير مختص أصلاً لعدم وجود حق له في ولاية الحكم على هذه الأَمَا كُن .

ثم دخلت بعد ذلك في الموضوع من الوجهة السياسية وكشفت القناع عن حقيقة هذا النزاع وأسبابه الصحيحة ، وبسطت ما لقيه اليهود من العنت والإرهاق في أكثر بقاع الأرض وأنهم لم يجدوا ملاذاً يفرعون إليه إلا البلاد الإسلامية والعربية لما كان يظهر أهلها من التسامح والرعاية نحوهم وأمطت اللثام عن المطامع الصهيونية في السعي للاستيلاء على المسجد الأقصى وعلى قبة الصخرة وجعل مكانهما هيكلًا لليهود ، وسردت طائفة كبيرة من الأدلة تؤكد نياتهم وهي مستمدة من كتبهم وتصريحات مفكرهم وزعمائهم ، ثم ألمت إلى الخطر المقبل فيما إذا أصر اليهود على التمسك بمزاعمهم فتكون النتيجة أن هذه الصهيونية ستحمل العرب والمسلمين كافة على أن يعتقدوا الانتمسمنس (مطاردة اليهود) ولو تحت ستار (الانيسيونيم) مطاردة الصهيونية فيتلطخ تاريخ الإنسانية مرة أخرى بمثل تلك المآسي التي وقعت في أوروبا من قبل ، ولكن بطريقة أشد وأسكى ، ثم تكلمت عن الجدار والرصف في نظر المسلمين وأسباب تقديسهم إياها وماورد بشأنها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ثم قارنت بين ذلك وبين أسباب قدسية الجدار عند اليهود . وختمت دفاعي بالبحث من الوجهة الشرعية ، وتطرت إلى ذكر الوقائع والتطبيق القانوني .

(س) هل تعتقدون أن لجنة التحقيق تراعى في وضع قرارها تلك الاعتبارات الخطيرة التي وردت في دفاعكم ؟

(ج) لا تستطيع الجزم الآن في كيفية القرار الذي ستصدره لجنة التحقيق الدولية في هذا الموضوع ، ومهما كان شأن هذا القرار فنحن غير مقيدين به بوجه من الوجوه كما مهدت في دفاعي أمام اللجنة لأن هذا الجدار لا يخص فلسطين وحدها بل هو ملك لثلاثمائة مليون مسلم منتشرين في أنحاء المعمورة ، ولا بد من القول أننا لم نشأ أن نكتفي بإبراز وثائقنا وأدلتنا أمام اللجنة ، بل قدمنا لها البراهين العمالية المحسوسة التي لا تدفع والتي تنذر بشرويل فيما إذا فكر أحد بالاعتداء على الأَمَا كُن الإسلامية المقدسة ، وذلك بأن دعونا أعضاء اللجنة إلى زيارة بعض الكنائس المسيحية مثل كنيسة القيامة وبيت لحم وغيرها ، وشاهدوا بأعينهم نتيجة الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها الذي سالت من أجله الدماء ، فكيف يكون بالإمكان والحالة هذه التوفيق بين عنصرين متنافرين قد تأصلت بينهما الخصومة الدينية والسياسية وحملهما على الاجتماع للعبادة حول جدار واحد .

إن وضعية الستانيسكو القائمة بين الطوائف المسيحية كانت من أقوى الحجج التي تدعم نظرية المسلمين وتدعو أعضاء اللجنة إلى التفكير العميق في هذا الموضوع الديني السياسي الخطير قبل أن يرموا قراراً بصدده وقد علمت أن أحد أعضاء اللجنة صرح لأحد رجالات العرب قبل سفره : « إن القضية خطيرة جداً أكثر مما كنا نتصور » .

(س) ما هو الأثر الذي تركته في نفس معاليكم زيارتكم إلى القطر الفلسطيني ؟

(ج) لقد لفت نظري أثناء وجودي في فلسطين نقطتان : الأولى ملأت نفسي غبطة وحبوراً ، والأخرى ملأتهما كآبة وأسى . لقد أبهجني منظر تلك الوحدة الجميلة التي تضم رجال العنصر الكريم مسلمين ومسيحيين وتلك الوجوه المتلاثة بعاطفة الإخلاص والنفوس الممتلئة بروح الهمة والنشاط وانصراف القوم جميعهم إلى

الدفاع عن حقوقهم المقدسة والوقوف كتلة واحدة في وجه العدو الغاصب والصهوني الدخيل . والذي أحزنى أن أرى تلك التربة الطيبة والأرضي الخصبة التي تعد من أخصب بقاع العالم قد أخذت تنساب من أيدي العرب شيئا فشيئا وتنتقل إلى يد الصهيونيين الذين تشد أزرهم الأموال الأجنبية الطائلة وتردهم المساعدات الكبرى من سائر أغنياء اليهود في العالم . أما العرب فمع خصب أراضيهم وجودة تربتهم لا يستطيعون أن يستثمروا تلك الكمون الدفينة بسبب فقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية وشدة احتياجهم إلى المواد الأساسية للاستفادة من أراضيهم كما يجب .

وفي اعتقادي أن السبيل الوحيد لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية وتقوية عزائم العرب في هذا القطر الشقيق وإنهاض هذه البلاد من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية هو أن يتضافر أغنياء الشرق عموما ، ومصر خصوصا على استملاك الأرض في تلك الأصقاع ، وقد علمت بعد البحث الوافي والاستقراء الدقيق أن ثمن دونم الأرض في فلسطين ، وهو يعادل ربع فدان مصري يتراوح بين جنهين وعشرة جنيهات ، ويعطى موردا في العام تبلغ نسبته بسهولة إلى ٢٠ في المئة ، وهذه عملية ناجحة ، وصفقة رابحة كما ترون .

وأنا سأواصل جهودي في هذا الموضوع ، وأدعو من أتوسم فيهم الخير من متمولى مصر إلى الاشتراك في هذا العمل الاقتصادي المضمون وتعزيد هذه الفكرة الرشيدة .

( س ) ماهي أقوى الوسائل التي تقترحونها معاليكم لتعزيز الروابط بين الأقطار العربية الشقيقة ؟  
( ج ) إن التعاون على تحقيق المشروع الآنف الذكر وإخراجه إلى حيز الوجود مما يقوى الأواصر بين هذه الأقطار الشقيقة ، لا جرم أن المشاريع الاقتصادية والعمرائية يجب أن تتقدم على كل مشروع سواها لأنها دعامة الاستقلال وأساسه .

وهناك مسألة أخرى يجب أن يكون لها الاعتبار الأول في هذا الضمار ، وهو أن نسعى سعيا حثيثا لانتزاع الفكرة الفرعونية من مصر لأنها فكرة عقيمة لا يمكن تحقيقها ؛ ومن المصلحة الأدبية والمادية لمصر ( كما نوه الدكتور رشهيندر في إحدى خطبه ) أن تهجر عبادة الأحجار الميته وتستعطف القلوب الحية في الشرق العربي التي جعلت قبلتها مصر لتتال الزعامة الحققة التي هي جديرة بها ، وما دامت شروط الزعامة متوافرة فيها بالنظر لما لها من الموقع الطبيعي والمكانة التاريخية والمقام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فغير بها أن تسير في طليعة الأمم العربية وتحمل لواء ثقافتها وتسمى إلى توثيق الروابط مع هذه الأمم الشقيقة .

ولا أكتف عنكم أننا الآن منحدرون في انحدار خطر مجهول العواقب بسبب اختلاف اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد ، وأخشى كثيرا إذا استمرت هذه الحالة أن يؤدي ذلك في النتيجة إلى إيجاد لغات جديدة كما وقع في اللغات اللاتينية ، وهذا من أفسى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لإفساد لغتنا ، وتقطيع أوصالها والاستعاضة عنها بلغات دخيلة كما هو الحال في بلاد الجزائر حيث تشجع هناك اللغة البربرية وتعلم تعليما مدرسيا لإحلالها محل اللغة العربية .

وعبثا تحاول الأمم العربية أن تتبوأ مكانها بين الأمم المتعدنية وتنال ما تصبو إليه من حياة استقلالية هنيئة مالم تعمل باديء ذي بدىء على تكوين ثقافة خاصة لها وتحفظ بهذه الثقافة كبريات تاريخي خالد وأنا ما زالت أعلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف ، فهو باعتباره أكبر معهد ديني عربي في العالم الإسلامي قوة لا يستهان بها ، فإذا أمكن إصلاحه وتنظيم شئونه عاد بالفوائد الجليلة على مصر والبلاد العربية جمعا .

وأرى أن يتكاتف العرب جميعا لوضع معجم عام باللغة العربية على شاكلة القواميس الإنكليزية والفرنسية الكبرى لتوحيد المصطلحات العملية والفنية وغيرها .

(س) مارأيكم في عقد مؤتمر عربي للبحث في هذه الشؤون ؟

(ج) أنا لا أعتقد نجاح فكرة المؤتمر في الوقت الحاضر ، وإنما أستصوب تأليف لجنة عامة من كبار مفكرى مصر والشرق تأخذ على عاتقها النظر في إنهاض البلاد العربية وترقية شئونها الاجتماعى والاقتصادى واتخاذ الوسائل المؤدية إلى إيجاد روابط مالية وأدبية بين هذه الأقطار وتوطيد دعائم الألفة والاتصال بينها وإزالة جميع ما يقام بين هذه الأقطار من الحوائل والفوارق التى يمكن التغلب عليها .

فإذا وفقنا إلى تأليف مثل هذه اللجنة وسعينا لأن تكون متجردة من جميع النزعات الحزبية والصبغات السياسية ونالت عطف أرباب الثراء فى الشرق وتأييدهم المالى أمكننا حينئذ أن نخطو خطوات واسعة نحو الهدف الأسمى .

إن الأمم التى تظلم وتسلب حريتها لا بد أن تستعيد هذه الحرية إن كانت جديرة بها ، فنحن كأمة عربية كبيرة يجب أن نسعى لاستكمال الخصائص والمزايا التى تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال انتهى ما أردته من المجلة المذكورة .

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة كيف اجتمعت أمم العرب بل أمم الإسلام لهذه القضية ، وهذا كاف لما قصدناه فى الفصل الخامس .

### الفصل السادس

فى ذكر أمر عظيم إسلامى فى أيامنا هذه

وهو دفن فقيد الإسلام محمد على بفلسطين وهذا حادث يعز نظيره فى التاريخ

٢٠٠ ألف يشيعون الجنازة و ١٠٠ ألف يشهدون الصلاة

حفلة التأيين فى المسجد الأقصى

جاء فى جريدة الأهرام يوم السبت ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م ما نصه .

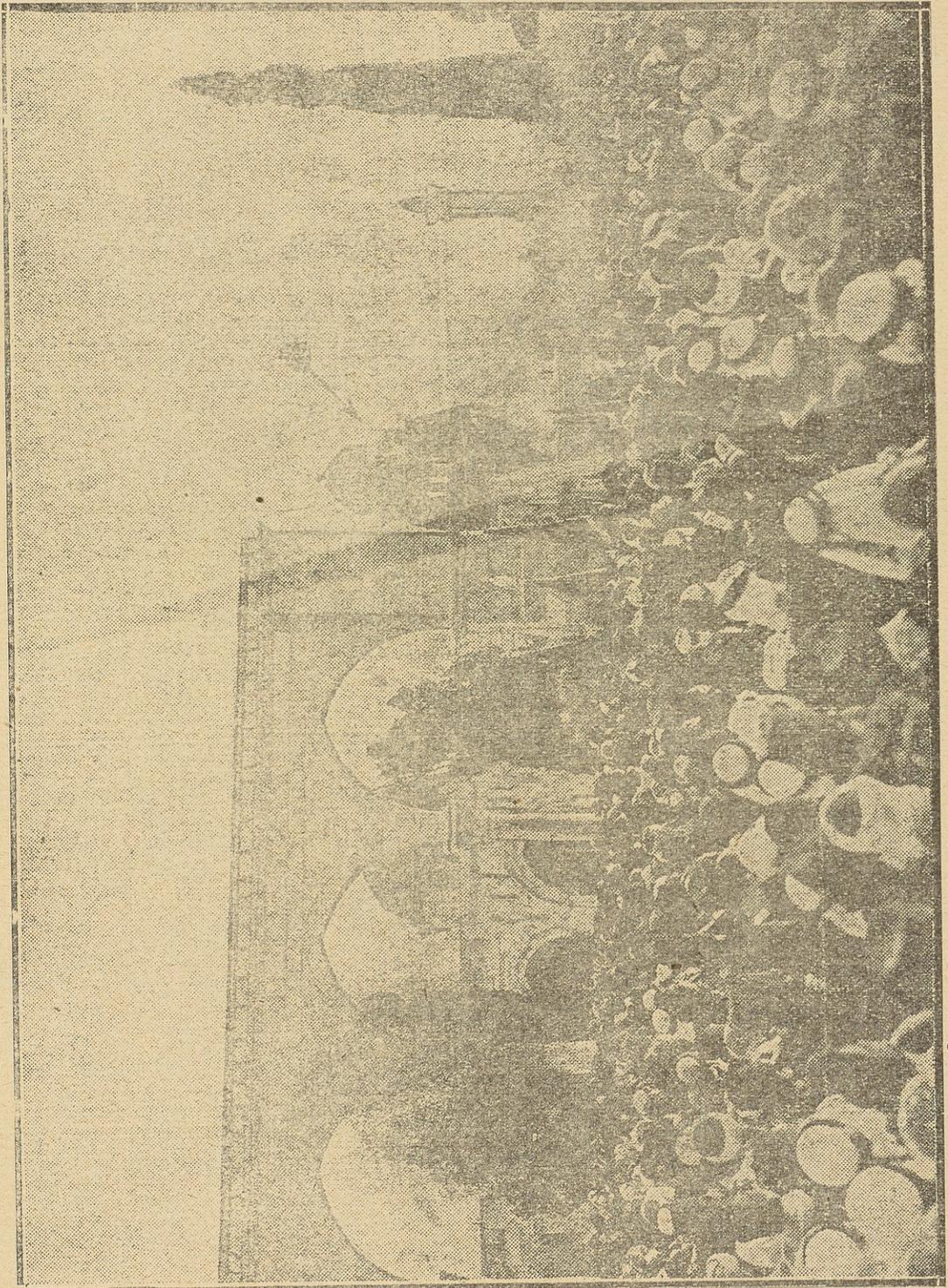
خرجت البلاد الفلسطينية الواقعة على خط السكة الحديدية من القنطرة إلى القدس لتحية رفات الفقيد الكبير مولانا محمد على وتعزية شقيقه مولانا شوكت على ونجله مولاي زايد على وحرمة الفقيد الكريم فكانت كل بلدة تقابل القطار بالتهليل والتكبير قبيل انبثاق الفجر بساعات برغم شدة البرد وكان مولانا شوكت على يشكر لهم تكبيرهم هذه المشاق ويحى عواطفهم النبيلة ، وفى منتصف الساعة السابعة صباحا ، وصل القطار إلى البلد التى كانت عمتها غاصة بالجماهير من سائر الأنحاء ، واصطف طلبة وطالبات المدارس ورجال الجمعيات بأعلامهم وشاراتهم وكلهم مكبرون مهللون وكذلك فى الرملة وفى سائر المحطات حتى وصل القطار إلى القدس التى احتشد فى محطتها ألوف من المشيعة بينهم قناصل الدول الأوربية ورؤساء الدين المسيحى ، وبالرغم من شدة الزحام ابتداء الموكب سيره فى الساعة العاشرة صباحا ووصل إلى المسجد الأقصى فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حيث أدى هؤلاء جميعا فريضة الجمعة فى حرم المسجد الأقصى الذى غص بالمصلين ورغم اتساع جوانبه الفسيحة ضاق بهم ولم يتمكن الكثيرون من أداء الفريضة داخل الساحة العظمى فأدوها فى الشوارع المجاورة للحرم ، وبعد انتهاء الصلاة وقفت الألوف لشهود حفلة التأيين التى لم يمكن

إقامتها في الحرم وضاعت بها ساحته الرحبة، وصعد رجال الوفود الإسلامية والمؤمنون على المنبر الأثرى المصنوع في عهد المرحوم السلطان قايتباي سلطان مصر مدة حكمه في فلسطين وسوريا وابتدأ سماحة السيد محمد أمين الحسيني مفتي القدس بافتتاح حفلة التأبين بكلمة قيمة أسالت العبرات أعرب فيها عن مبلغ الحسارة التي أصابت الشرق وعلى الخصوص الهند وفلسطين، هذه النكبة الصاعدة التي انتزعت بطلا نادرا من أبطال الإسلام، وقام بعده الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي نائبا عن شمال أفريقيا، وعلى الخصوص عن وطنه تونس، وهو أقدم الحاضرين عهدا بصداقة الفقيه، وأخذ يتدفق في بلاغته تدفق السيل، وأخيرا بكى فأبكى، وواصل رثاءه فكان ينقل الجمهور من الحسرة المطلقة وأثر النكبة الصاعدة إلى الأمل والرجاء بأن تكون هذه الفاجعة مبدء عهد جديد للمسلمين يقتدون فيه بالراحل الكريم في حياته الحافلة بالجمود والتضحيات العظيمة.

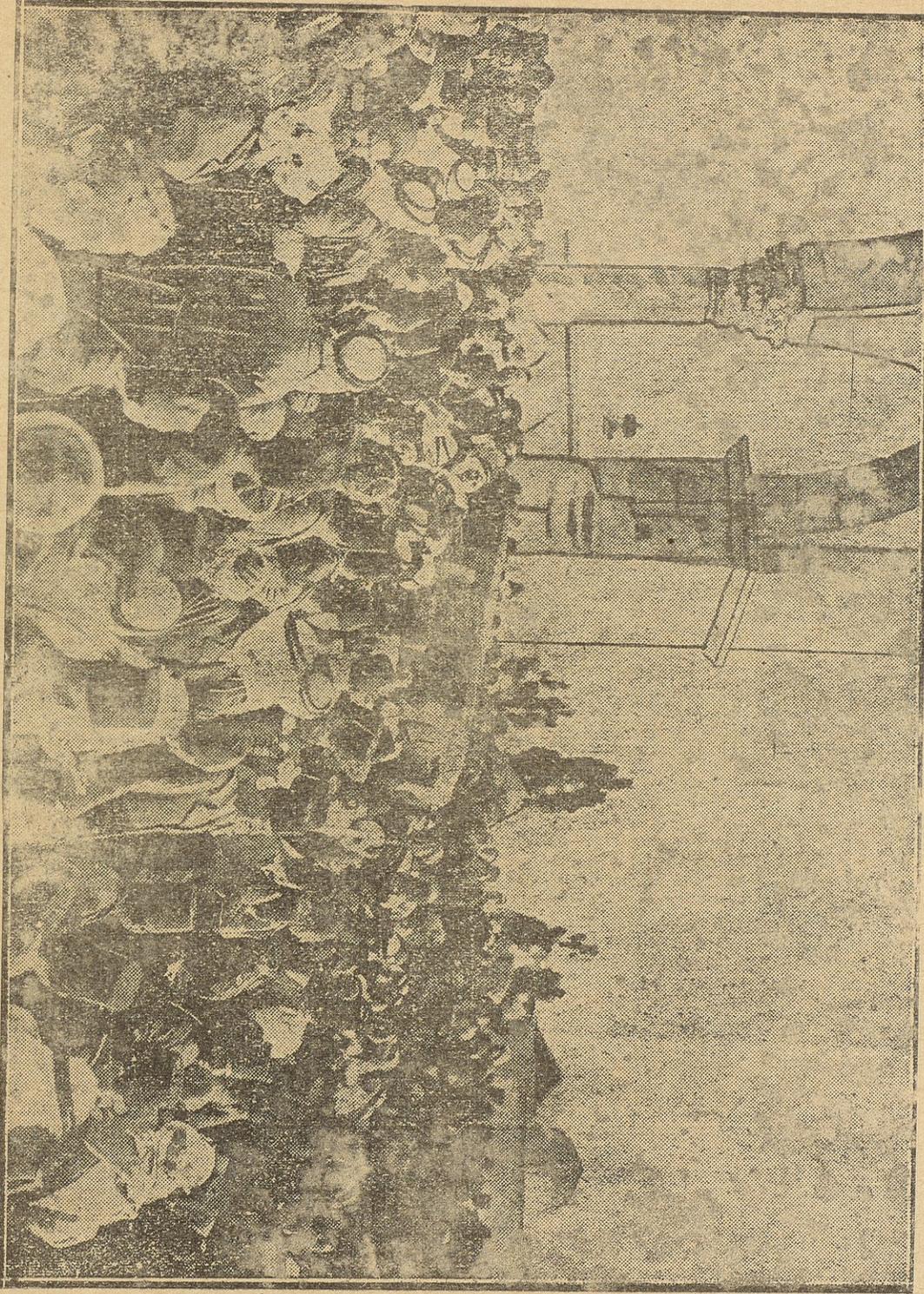
وقام خطباء مصريون وغيرهم، ثم ابتدأت حفلة الدفن، فسارت الألوف تلوالألوف إلى القبر الذي أعد للفقيه في خلف آل الخطيب الكرام بالمسجد الأقصى، وجيء بالنعش وقد غطى بغطاء من القطن المنسوج في الهند أعده هنود بور سعيد وفوقه غطاء من الحرير الأخضر الموشى بالقصب، وقد نقشت عليه بعض آيات الكتاب الكريم صنعها سيدات القدس الشريف، وفوقهما قطعة أثرية من الكسوة الشريفة النبوية أهدها سمو الأمير محمد علي لتوضع فوق نعش الفقيه (انظر شكل ٨ وشكل ٩ في صفحة ٢١٥، ٢١٦).

وقد صلى عليه داخل حجرة الدفن فضيلة شيخ المنود في القدس ومولانا شوكت علي ونجله زاهد علي وحرم الفقيه الكريم وفضيلة الأستاذ التفتازاني، ثم ووري التراب بين بكاء الباكين ودعاء الداعين. وبالجملة فقد شهدت فلسطين مشهداً في جنازته لم يشهده من قبل المعاصرون كثرة وإجلالا وعناية، وكان مولانا شوكت علي يجيب على تعزيات الوفود الإسلامية العديدة بعبارات بليغة بالإنجليزية تترجم إلى العربية، وقد قال أخيراً لأهل فلسطين: «لقد استودعناكم أمن ما نملك، وذلك دليل قيم على حبنا لكم وإخلاصنا في قضيتكم، واهتمامنا بأمركم، نحن معاشر المنود المسلمين المدينين للعرب كافة بإسلامهم ومدنيتهم، وكانت كلماته تقابل بما هي أهل له من الأثر الصالح في النفوس.





(شكل ٨ - مولانا شوکت علی واقفا علی المنبر وحواله عظماء الإسلام)



( شكل ٩ نعش الزعيم الكبير مولانا محمد علي محمولاً على الأكتاف . وخارجاً للدفن بعد الصلاة عليه في المسجد الأقصى الذي ضاق على سمعته بعشرات الألوف من المسلمين فاضطروا إلى الصلاة في الشوارع المجاورة له )

## بعد يوم محمد علي في فلسطين

قال مراسل الأهرام في يوم الأربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتي : « انقضى يوم مولانا محمد علي ولكن أحاديث الناس عن هذا اليوم لاتنقضى قبل وقت طويل ، فلم تزل الألسنة تلهج بعظمة هذا اليوم وما لاقاه جثمان الفقيه من الإجلال في الاستقبال والدفن . وقد هالني ما رأيت من كثرة الناس المتوافدين لزيارة الضريح وقراءة الفاتحة والترحم على الضيف الثاوي في هذا المكان ، ورأيت كثيراً من النساء البدويات فضلا عن السيدات والعوائل من أهل المدن يزرن محمد علي راقدا في ضريحه ، وبينما أنا خارج من هذا الجامع فاذا جماعة قادمون صوب الباب ، فبادرنى أحدهم سائلا : هل هذا قبر مولانا محمد علي ؟ ثم دخلوا بكل لهفة ، وكذلك تردد الوفود الفلسطينية على مولانا شوكت لتقدم عزاءها له ، فيجب بأنه إن ينسى هذه الحفاوة الكبرى ، وأن ما شاهده من مشاطرة أهل هذه البلاد له في هذا الخطب العظيم يدل على أن الشعور بالوحدة الشرقية أشد مما كان يتصور ، وقد قال لأحد الوفود : « إن هذا اليوم يوم دفن أخي محمد علي في بيت المقدس هو بالحقيقة فاتحة عهد جديد بين فلسطين والهند .

ويتردد على مولانا شوكت على مكاتب الصحف الأجنبية ويطلبون مقابلته ، ولكن الوقت إلى الآن لم يتسع له هذا ، وقد علمت أن المستر مارتن مكاتب الديلي تلغراف قابل مولانا شوكت وأخذ منه حديثا أعرب فيه مولانا شوكت عن الوقع الذي حصل في نفسه من ليلة ٢٣ يناير الحالي إلى ساعة المقابلة .

وقد علمت أن مولانا شوكت على قد أبقى إلى جمعية الخلافة في بمباي برقية مسهبة ضمنها صفوة الأخبار التي تصف نقل الفقيه من بور سعيد إلى القدس الشريف ودفنه بجوار المسجد الأقصى ، وقد جاء في هذه البرقية العبارات التالية : وضع النعش تجاه الصخرة إلى جهة الجنوب ، وفي الساعة الثانية حتى الرابعة بعد الظهر كان عظماء المؤمنين يتبارون في تأيين محمد علي ، وبعد أن فرغوا وقفت وطلبت منهم باسم الاسلام وبحرمة الفقيه أن يقطعوا العهد على نفوسهم أن يكونوا من هذا اليوم عاملين لتكميل العمل الذي بدأ فيه محمد علي ووثاب عليه بكل توفيق من تجديد الحياة الإسلامية الشرقية .

وقال في هذه البرقية أيضاً ما نصه : إن جثمان أخي محمد علي كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح إلي معشر العرب الذين لم يزل العالم مدينا لهم بأعمالهم التي قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة في جميع العالم .

ومن أقوال الأستاذ شوكت على أيضاً ما يأتي : « إن موت أخي في ميدان التضحية للحظة الأخيرة وقد كان مشتغلاً بخدمة الوطن والإسلام أثرت تأثيراً عظيماً في الإنكليز ، والموت على مثل هذه الحالة المقرونة بالجهاد يؤثر أكثر من الجهاد في حالة الحياة ، ثم قال : إن موت شقيق سيؤدي إلى حل مشاكل الهند ويوصل إلى تحقيق رغبات البلاد . وسئل هل ستطرح قرارات مؤتمر لندن على هيئة عامة في الهند ؟ نعم سيعقد مؤتمر من مسلمي الهند بعد وصولي لسمعوا من المندوبين المسلمين في مؤتمر لندن كل ما حدث هناك لتقرير ما رونه ملائماً للوقوف على رأيهم فيما يشيرون به ، ثم يعقد بعد ذلك مؤتمر عام من المسلمين والهندوس . هل أتم متفائلون ؟ نعم إنني متفائل ، وما يدل على ذلك أن المسلمين بحمد الله يد واحدة وقوة متحدة .

ثم قال : « إنني مسرور لأن مؤتمر لندن أعطاني فرصة للتحقق من أن الإنكليز يرغبون رغبة أكيدة في انتهاج سياسة مبنية على حسن التفاهم وإصلاح ذات البين بينهم وبين الهند ومصر ، وإعطاء الشرقيين القسط الواجب من الاحترام » اهـ .

لما رسمت هذه الصور واطلع عليها صديقي العالم . قال : إن لي اعتراضاً على رسم هذه الصور في التفسير إن عادتك جرت في هذا التفسير أن لا ترسم إلا ما يفيد فائدة طبيعية من صنع الخالق عز وجل . أما هنا فأراك خالفت عادتك . فقلت : نعم ، ألا ترى رعاك الله أن هذه حادثة يعز نظيرها في التاريخ ، ألم تر كيف أقدم الأستاذ شوكت على دفن أخيه في البلاد العربية المقدسة ، وهذا حادث لم أجد له نظيراً من قبل ، بل إنني لم أرا بطة بين المسلمين توطدت مثل هذه ، إن تاريخ المسيحيين شاهد أنهم كانوا أقوى اتحاداً من المسلمين كما تقدم ، ولكن اليوم جاء دفن المولى محمد على ببلاد العرب دليلاً على ارتباط مسلمي الهند وهم ٧٠ مليوناً بمسلمي الأمم العربية . فادا قالت انك لترا هذا وطن يهودى قال الهنود نحن مع إخواننا وقد دفنا أحد عظمائنا فيه ، وهل في زماننا معجزة قرآنية أعظم من هذه ، وهل أنا رسمت النمى في التفسير إلا لأنه أبرز لنا معجزة نبوية ، ألا ترى إلى ما قاله الأستاذ المولى شوكت على : « إن جثمان أخى محمد على كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى معشر العرب الذين لم يزل العالم مديناً لهم بأعمالهم التي قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة في جميع العالم » اه  
 إن هذا القول لم يصدر من أمة من أمم الترك أو الفرس فانترك هدموا ممالك العرب هدموا وأذلوهم وقدماء الفرس من قبلهم فتكوا فتكاً سياسياً بالأمم العربية وهم مسلمون ، ولكن أهل الهند بهذا العمل المجيد قد أفهمونا معنى قوله تعالى هنا « وإنه لذكر لك ولقومك » .  
 أصبحت الهند وأبناء العرب اليوم صفاوا أحداً في مقابلة من يعتدى على بيت المقدس أو بلاد فلسطين ، فهذا مصداق لهذه الآية ونور من أنوار النبوة المحمدية والحمد لله رب العالمين . انتهى الفصل السادس .

### الفصل السابع

في اتحاد المسلمين اليوم على فرنسا إذ أشيع أنها تنصر البربر ، وتشجع النصرانية في تونس ، وذلك في مقالين : المقال الأول وهو ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠ بعنوان « نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعها » . المقال الثانى وهو ما جاء في جريدة « كوكب الشرق » تحت عنوان « ظاهرة عجيبة » وهاك نصهما :

#### نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعاً

وإلى علماء الحرمين الشريفين ، ورجال المعاهد الإسلامية من أعلام الأزهر وملحقاته في المملكة الإسلامية ، وجامع الزيتونة في تونس ، وجامع القرويين في فاس ، ومعهد ديوبند في الهند ، ومعهد النجف في العراق ، وإلى الجمعيات الإسلامية في أنحاء الأرض ، ولا سيما جمعيات الهند : جمعية الخلافة في بومباي ، وجمعية العلماء في دلهي ، وجمعية أهل الحديث في دلهي ، وجمعيات أندونيسيا : اتحاد إسلام في سومطرة ، وشركة إسلام في جاوه ، والجمعية المحمدية في جكجا كرتا ، وإلى المسجد الإسلامى الأعلى في القدس ، والمسجد الإسلامى الأعلى في بيروت ، وإلى جمعية رقى الإسلام في الصين ، وإلى الصحف الشرقية على اختلاف لغاتها ولهجاتها

إن أمة البربر التي اهدت بالإسلام منذ العصر الأول والتي طالما اعتمد عليها الإسلام في فتوحه وانتشاره وطالما استند إليها مستنجداً أو مدافعاً في خطوبه العلمى ، هذه الأمة التي سارت مع طارق إلى أسبانيا ثم

مع عبد الرحمن الغفقي ومع أسدين الفرات إلى صقلية ، هذه الأمة التي كانت منها دولتنا المرابطين والموحدين فكانت لها في تاريخ الإسلام أيام غراء مجيدة ، هذه الأمة التي ظهر منها العلماء الأعلام ، والقادة العظام ، والتي لرجلها في المكتبة الإسلامية المؤلفات الخالدة إلى يوم الدين ، هذه الأمة التي تبلغ في المغرب الأقصى وحده أكثر من سبعة ملايين نسمة تريد دولة فرنسا الآن إخراجها برمتها من حظيرة الإسلام بنظام غريب تقوم به سلطنة عسكرية قاهرة تمهنة به حرية الوجدان ، ومعتدية على قدسية الإيمان ، بما لم يهدله نظير في التاريخ .

لقد وردت على مصر كتب من الثقات في المغرب الأقصى تذكر أن فرنسا قديما استصدرت ظهيرا سلطانيا تاريخه ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هـ ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ م ونشرته الجريدة الرسمية في المغرب بعدد رقم ٩١٩ تنازل فيه سلطان المغرب لها عن الإشراف على الأمور الدينية لأمة البربر ، وأن فرنسا قد بدأت بالفعل في تنفيذ ذلك الظهير ، فقامت السلطنة العسكرية في المغرب الأقصى تحول بين ثلاثة أرباع السكان وبين القرآن الذي كانت به حياتهم مدة ثلاثة عشر قرنا ، فأبطلوا المدارس القرآنية ووضعوا قلوب أطفال هذه الملايين وعقولهم في أيدي أكثر من ألف مبشر كاثوليكي بين رهبان وراهبات يديرون مدارس تبشيرية للبنين والبنات ، وأقفلوا جميع المحاكم الشرعية التي كانت في تلك الديار ، وأجبروا هذه الملايين من المسلمين على أن يتحاكموا في أنسكحتهم وموارثهم وسائر أحوالهم الشخصية إلى قانون جديد سنوه لهم وأخذوه من عادات البربر التي كانت لهم في جاهلتهم وهي عادات لا تتفق مع الحضارة ولا تلائم مستوى الإنسانية ، وحسبنا مثلا على انحطاطها وقبحها أنها تعتبر الزوجة متاعا يعار ويباع ، وتورث ولا ترث ، وأنها تجيز للرجل أن يتزوج ما شاء كيف شاء ولو أخته فمن عداها في وقت واحد ؛ وإن قانونا كهذا القانون يسن للمسلمين مخالفا للإسلام ، يعد من رضى به مرتدا عن الإسلام باجماع علماء المسلمين .

إن فرنسا التي تبث الدعاية في أمم الأرض بأنها أمة الحرية قد أجبرت رجال حكومة المغرب المسلمين على أن يتركوا دينهم بتنازلهم عما للسلطان من الحق في إقامة أحكام الشرع الإسلامي بين رعاياه من قبائل البربر وجماهيرهم والاعتراف لحكومة الحماية الفرنسية بأنها صارت صاحبة التصرف في دينهم وأمورهم التشريعية والتهديبية وهو ما لا تملك تلك الحكومة الحق في التنازل عنه ، ومنذ استصدر الفرنسيون ظهيرا (مرسوما) من سلطان المغرب بهذا التنازل اعتبروا جميع المدارس القرآنية ملغاة ، وجميع العبادات الإسلامية معطلة ، ووكالوا أمر تعليم أطفال المسلمين إلى الرهبان توطئة لتنصير هذه الأمة عقيدة وعبادة وعملا ، وحالوا بين جميع مناطق البربر وبين علماء المسلمين ورؤسائهم فلا يتصل بها أحد منهم .

أيها المسلمون : قد أجمع علماءكم من جميع المذاهب على أن من رضى بارتداد مسلم عن دينه يكون مرتدا برضاه عن ذلك ، فيجب على جماعات المسلمين وطوائفهم وجميعياتهم وأفرادهم أن يرفنوا أصواتهم بالاحتجاج على هذا العمل المنكر الفظيع بكل مافي وسعهم كل يحسب ما يليق به ، فإذا لم ينفع الاحتجاج فكر المسلمون في الوسائل الجديدة ، وإن في وسعكم أيها المسلمون أن تجبروا دولة فرنسا على احترام إسلام هذا الشعب الكبير وتتركه يتمتع بحريته الدينية والوجدانية ، لأن حرية الدين والوجدان حق من حقوق الإنسان يجب على الإنسانية حمايته من عبث العابثين واعتداء المعتدين .

لقد سلكت دولة فرنسا مع إخواننا مسلمي المغرب سبيلا غير سبيل الرفق والنصح ، فجردتهم من وسائل النهوض وحالت بينهم وبين التعليم الصحيح ، وأنتقت أموال أوقافهم الإسلامية في ضد ما وقفت له واختصتهم بشر النصبيين في كل ما تتصل به مصالح الوطنيين والأحباب ، وأن في المسلمين من كان يعرف هذا ويتقاضى

عنه إلى حين رجاء أن يجعل الله لأهل المغرب فرجا من عنده ، ولكن امتداد يد السلطة القاهرة في المغرب إلى دين الإسلام واعتداؤها على حرية العقيدة والعبادة قد أوصل هذا العدوان إلى الحد الذي ليس بعده حد فحق على كل مسلم أن يبادر إلى إنكار هذا المنكر بكل وسيلة يستطيعها .

يجب أن تعلم فرنسا أن الإسلام لم يمت ، وأن المسلمين قد استيقظوا وصار بعضهم يشعر بما يصيب البعض الآخر من اضطهاد في دينه ودينه ، وأن بناء مسجد في باريس تؤخذ باسمه ملايين الفرنكات من أوقاف الحرمين الشريفين وملايين أخرى من الإعانات الجبرية من جميع مسلمي أفريقيا مع إعانات أخرى من سائر العالم الإسلامي لا يمكن لفرنسا أن تجعله حجة على حرية الإسلام ومودة المسلمين في مملكتها ( التي تسميها أحيانا إسلامية ) مع هذا الجرم الفظيع الذي شرعت فيه أخيرا وظنت أنها تتمتع به بضعة ملايين من حظيرة الإسلام بنظام تنفذه قوة عسكرية قاهرة .

إن فرنسا إذا لم ترجع عن هذه الجريمة فإن العالم الإسلامي يعتبر ذلك مجاهرة منها بعداوته ، وسيعان ذلك على منابر المساجد ، وعلى صفحات الجلات والجرائد ، وفي حلقات الدروس الدينية وفي نظم الجمعيات الإسلامية . لقد كان حين امتحان أحرار أوروبا فيما يدعون من الانتصار لحرية العقيدة والوجدان ، حتى لقد رضوا بكثير من المنكرات التي يعترفون أنها منكرات ، وذلك حرصا منهم على بقاء الحرية طليقة من قيودها ، وإن أقدس الحريات حرية الوجدان والاعتقاد ، وأسوأ ما أصيبت به هذه الحرية في هذا العصر محاولة فرنسا أن تحول المغرب الأقصى عن إسلامه إلى النصرانية أو ما شاءت أن تحوله إليه .

لقد سمعنا صوت أوروبا حكوماتها وشعوبها يرتفع عاليا باستنكار ما فعلته روسيا البولشفية من إقفالها بعض المعابد مع أن يد البولشفيك الحديدية إنما امتدت إلى الحجارة والطوب ولم تمتد إلى النفوس والقلوب فالعالم الإسلامي ينتظر من أوروبا التي احتجت إلى عمل السوفيت في الكنائس أن تقول لفرنسا كلمتها الصريحة في عدوانها على دين الإسلام في المغرب الأقصى ومنعها سبعة ملايين من البشر منعا رسميا مؤيدا بالسياسة والجيش من أن يسكنوا إلى دينهم وأن يتصلوا بإخوانهم المسلمين اتصالا روحيا يطمثون إليه ويرتاحون له .

فيا أيها المسلمون : إن دينكم مهدد بالزوال من الأرض ، فإن فرنسا إذا أمكنتها تنفيذ مشروعها هذا في المغرب فستحذو حذوها جميع دول أوروبا في المشرق ، وقد حكم عليكم في هذه الحال بذل أنفسكم وأموالكم في سبيل الدفاع عن دينكم ، فما الذي يمنعكم عن الدفاع عنه والله تعالى يقول : « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » ويقول : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ويقول « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » وبلى ذلك الإضاءات .

## ظاهرة عجيبة

من ظواهر التبشير الديني في تونس

حديث اليوم . الشعور العام نحو المؤتمر الإنخارستي . الإضراب عن العمل . مظاهرة الطلبة . عرائض من الشعب للباي والأعضاء المسلمين . نشاط البوليس واهتمام الحكومة اعتقال ٣٥ طالبا

جاء من مراسل كوكب الشرق في تونس يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

لعل القراء يعلمون أن المؤتمر الإنخارستي الذي يعقد في كل عامين لحج الرهبان والكاثوليك عامة ولأموار أخرى قد قرر اجتماعه في هذه الدورة بتونس ، وهذه أول بلاد إسلامية يعقد فيها مؤتمر مسيحي ، وقد حاولت الحكومة التي أشرفت عليه إخفاء حقيقة صبغته والتجويه على الناس بأنه حج مسيحي لا دخل فيه لجرح العواطف ومس العتقادات ، غير أن أسقف قرطاجنة (منسنورلوميتير) أعرب عن الصبغة الحقيقية للمؤتمر وقال في إحدى خطبه : « إن هذا المؤتمر هو عبارة عن حملة صليبية جديدة نحو تحقيق فكرة سان لوى (لويس التاسع) والكردينال فيجري » .

وقد زادت الحكومة الفرنسية أن قررت أخذ مليونين من الميزانية التونسية (رغم أنف المجلس الكبير) وخمسة ملايين من إدارة الأشغال العامة التونسية ونصف مليون من البلدية التونسية وعشرات ألوف من إدارة أوقاف المسلمين ، كل ذلك لتصرفها على المؤتمر الذي هو حملة صليبية ، وقد قدر واغضب الشعب واستياءه من هذا العمل المخرج ، ولكي يتخلصوا من ذلك الغضب وتكون الضربة متمكنة ، ولكي ينفذوا شيئاً من برنامج سياستهم التي اتخذوها بهذه البلاد وهي إيجاد الشقاق بين الأمة والعرش أي بين الشعب وملكه قرروا أن يكون المؤتمر تحت رئاسة الباي أحمد الثاني ، وبعضوية شيخ الإسلام ، والباين مفتي ، والوزراء المسلمين وشيخ المدينة الذي قدم لهم خدمات حمة في الموضوع ، وشقيق رئيس الحجر التجارية الأهلية ، وعضو المجلس الكبير ، ومحمد يس رمضان عضو المجلس الكبير وغيرهم من الدوات .

واستاءت الأمة وقررت الإضراب عن العمل احتجاجاً على وجود المؤتمر بصيغته هذه وعلى الملايين المقدمة لقوم يريدون أن يقوموا بحملة ضد الدين الإسلامي الذي هو دين الأمة العزيز عايبها ، وأصبح يوم السبت ٣ مايو يوم إضراب ، فاستعملت الحكومة القوة لمنعها ، واتخذ البوليس كل طرق الشدة والصرامة في ذلك . وقام جميع طلبة المعاهد بإضراب عام عن التعليم ، وفي الغد تظاهروا واشتدغيظ الحكومة وتدخل البوليس فانهال على المتظاهرين بالضرب حتى وقعت جروح لبعض وشاهدت البوليس يضرب الناس بالبسكليت من غير رحمة ولا شفقة إلا أن الطلبة أعادوا المظاهرة في الغد (يوم الاثنين) وجابوا شوارع باب البحر والبوليس يعتقل ويفرق ولم يرحم ، وظل الطلبة متظاهرين من الساعة الثالثة ونصف إلى الساعة السادسة ينادون بحياة الإسلام وسقوط المؤتمر الإنخارستي ، وقدمت عرائض ممضاة من كافة الأمة إلى الباي والدوات المسلمين الذين قبلوا عضوية المؤتمر تطلب منهم الانسحاب من المؤتمر واعتقل البوليس خمسة من الوطنيين و٢٥ من الطلبة ، والحكومة هاهنا متخوفة من العواقب الوخيمة التي يفرضها هذا العمل الجارح الذي أرادت أن تقوم به في القرن العشرين . هذا ، وإن الحزب الاشتراكي معاضد للأمة التونسية في احتجاجها .

وقد سعى لدى المراجع العليا لإطلاق سراح المعتقلين كما سعى الطالبة في ذلك مع زعماء الحزب الدستوري ،  
وقد أطلق سراح الكثير منهم بفضل مساعي الحزب الدستوري ورجاله ، والحواطر لا تزال مضطربة ولا يزال  
مرأى الألف راهب يثير الحماس والغضب . وإلى هنا تم الكلام على الفصل السابع من اللطيفة الأولى ،  
والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : «والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون .  
والذي خلق الأزواج كلها » مع آيات أخرى في سور كثيرة كقوله تعالى : « ألم تر أن الله  
أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ، إلى آخر ما في سورة الزمر من شرح الصدر  
للاسلام إذ يقول تعالى : « أفمن شرح الله صدره للاسلام » الخ

جاء في هذه الآيات إنزال الماء ، وإخراج الزرع ، ثم شرح الصدر للاسلام ، وأن القرآن أحسن الحديث  
في (سورة الزمر) وهنا مجال لفهم زرع مختلف الألوان نابت بسبب الماء ، وانشراح صدر للاسلام ،  
وكون القرآن أحسن الحديث ، فلعمري أي مناسبة بين الزرع والماء الذي يشربه وبين انشراح الصدر  
للاسلام ، ثم كون القرآن أحسن الحديث ، ولما كتبت هذا حضر العالم صديق الذي اعتاد الحديث معي في  
مثل هذا المقام ، فقال بعد أن قرأ ما ذكرته الآن : حقيقة إن المناسبة تكاد تكون بعيدة الشقة بين الأول  
والثاني ، أما بين الثاني والثالث فللمناسبة ظاهرة لأن الثالث سبب في الثاني فهو من ذكر السبب بعد المسبب  
لأن من قرأ أحسن الحديث ينشرح صدره لما فيه من المعاني . أما المناسبة بين الأول والثاني فهي التي  
تحتاج إلى بيان . فقلت : لقد جاء الكلام على النبات في مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، ولقد ظهرت  
عجائب في (سورة النمل) في آية « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » وفي غيرها ، مثل إن الجذور وتدية  
وليومية ودرنية ، وهناك مباحث أخرى ، هكنا في (سورة السجدة) عجائب من النبات في صوره الظاهرة  
وعجائب تركيبه من الداخل ، ويان أن النخل له في تركيبه صورة أخرى تخالف جميع الأشجار وإذا رأينا  
الله عز وجل يكرر ذلك الشيء الواحد في مواضع كثيرة في القرآن فهذا معناه أن نذكر الحكمة مفرقة  
لا مجمعة (وبمارة أخرى) يستحسن أن تفرق عجائب النبات على الآيات فإن قراءة علم النبات بصفة  
علم لا يشعر في النفس بهجة كالتى يشعرها ما يصنع في أمثال هذا التفسير بحيث يصطفي من أصناف النبات ما يشير  
في النفس بهجة وترسم أشكاله ويشرح شرحا يشرح الصدر ويهيج النفس ؛ فالقرآن ليس كتابا علميا بالمعنى  
المتعارف . فالكتب العلمية قصد منها نفس العلوم ، والعلوم شيء والوعظ والاستدلال والتأثير في النفوس  
شيء آخر . وفرق بين خزن الحب في مخزن وبين إعداد الطعام للجائع . فالعلوم في حد ذاتها كالخازن  
واقطاف شيء منها في مواضع متفرقة من القرآن شيء آخر . فليس المقصود من آيات القرآن أن تدرس  
العلوم المتعلقة بها دفعة واحدة في تفسيرها بل تقتطف اقتطافا . ولعمري إن الناس يعرفون الفرق بين روضة  
ذات أزهار وبين باقة من الأزهار تهدي للزائرين . إن الروضة لا تهدي ولكن الباقة تهدي وتشم وتأتي  
بالعرض المقصود من الاكرام : هكذا يجب أن يهدي لقارئ الآيات المختلفة زهرات العلوم . ويجب أن  
تنوع تلك الأزهار على مختلف الآيات كما تنوع المضيف لضيفه أنواع المأكول والمشروب والمشوم في اختلاف

الحالات . إن النمس لتسام من التماذى فى طعام واحد ، ومن التماذى فى حديث واحد ، لذلك نجد القرآن نوع الحديث ، وجعل النبات الذى يحض عليه مفرقا على السور تعليما للمفسرين أن يفرقوا عجائب النبات على مختلف الآيات وبصوروا محاسن أشكاله لينشرح الصدر للإسلام بما يرى من الجمال البديع ، وذلك بما يؤثر فى نفسه من مختلف الأشكال فى الأحوال المختلفة ؛ وهنا استبان أمران : انشرح الصدر للإسلام بمباهج الصور ، وكيف كان القرآن أحسن الحديث ، لأنه حديث ذو شجون لا يأم الإنسان منه للتفتن فى ترتيب الآيات .

فهاك ما يبهج من علم النبات ومن صوره البديعة الحسنة ، إذا قلنا فى (سورة النمل) إن الجذور ثلاثة أقسام ، ورأيت رسمها وشرحتها هناك فلنذكر هنا الجذور التى لا تنشأ من الجذر الأصيل بل من الساق وتسمى الجذور العرضية (انظر شكل ١٠) ومثلها الجذور التى تشاهد على الساق الزاحفة للشليك ، والجذور العرضية شائعة على الأكثر فى ذوات الفلقة الواحدة كالذرة والقمح فإن الجذر الأصيل لهذه النباتات يموت بعد الإنبات بقليل ، وتنشأ بدلا منه جذور عرضية على قاعدة الساق ، وتتكون الجذور



(شكل ١٠ الجذور العرضية)

العرضية فى بعض النباتات بمجرد ملامسة الساق للماء أو التربة الرطبة ، ويستفاد من هذه الخاصة عمليا فى تطبيقات عديدة كترقيد النباتات وتقصيب القمح الخ ، وفى الترقيد يحنى فرع من ساق النبات (شكل ١١) ويدفن فى الأرض فلا تلبث الجذور العرضية أن تتكون على هذا الفرع فيصبح نباتا جديدا يمكن فصله من النبات الأصيل ، وتلك وسيلة لكثير النبات كما سترى فيما بعد ، وتقصيب القمح يكون بإمرار عجلة أسطوانية على القمح وهو حديث فتعمل السوق على الأرض وتثبت عليها جذور عرضية تزيد فى تغذية النبات فيترتب على ذلك وفرة العلة .

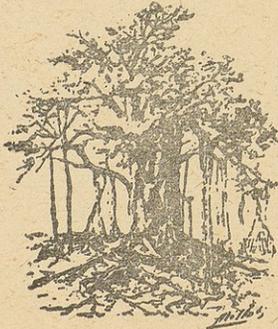


(شكل ١١)

ترقيد الكرمة

قلما قرأ صاحبى هذا القول واطع على هذين الشكلين . قال : إن الجذور العرضية للشليك (شكل ١٠ المتقدم) وترقيد الكرمة (شكل ١١ المتقدم) لم يخرج عن كونها أمرين اعتماديين ، فكل من الجذور الوتدية فى القطن مثلا ، والجذور الليفية فى نحو القمح ، والجذور الدرنية فى نحو الجزر . والجذور العرضية فى نحو الشليك ، والجذور الترقيدية فى نحو العنب ، كل هذه لم تخرج عن كونها مدفونة فى الأرض وقد وافقتها الرطوبة والمواد الأرضية ، غاية الأمر أن الساق امتدت منها الجذور فى الشكلين السابقين على خلاف المعتاد فى الجذور الأصلية ولكن الدفن فى التربة هو السبب فى ذلك ، فليس أمرا غريبا . فقلت : حياك الله ، إن الأرض والدفن فيها ليسا شرطا فى امتداد الجذور . فقال : « هاتوا برهانكم إن كنتم صديقين » . فقلت :

### الجذور الهوائية

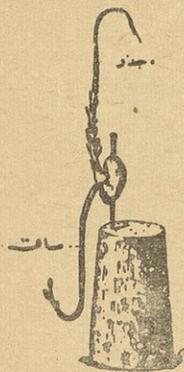


(شكل ١٢ - الجذور الهوائية)

قد تنشأ الجذور على سوق بعض الأشجار كالفيكوس البنغالى (انظر شكل ١٢) فتتعمق مدلات فى الهواء حتى تصل إلى الأرض فتعرس فيها وتعرف هذه الجذور بالجذور الهوائية وتكون مغطاة بنسيج ضارب إلى السمرة يحفظها من أن تجف فى الهواء ، ومن أهم وظائفها أنها تكون بمثابة دعامة للغصون الأفقية .

فقال : هذا حسن ولكن لا يزال في النفس شيء ، إذا اتجهت الجذور من الأعلى إلى الأسفل في الهواء واستغنت عن الطين وارتقت في أشجار كالفيكوس البنغالي عن أمثال القطن والجزر والقمح ، فهي جميعها تتجه من أعلى إلى أسفل ، وهذا أمر طبيعي عام ، والتجربة الآتية شاهدة بذلك .

### اتجاه الجذور



يتجه الجذر الأصلي على العموم اتجاهها رأسياً من أعلى إلى أسفل لإظهار ذلك تأخذ بادرة في طور النمو وتضع الجذر وضعاً أفقياً ( شكل ١٣ ) فترى طرفه ينجح رأسياً إلى أسفل ، وإذا ثبتنا بادرة على قطعة من الفلين بحيث يكون الجذر إلى أعلى والساق إلى أسفل ( شكل ١٤ ) نشاهد في اليوم التالي أن الجذر ينثني إلى أسفل والساق إلى أعلى .

فقال صاحبي : هذا حسن فقد عرفنا أننا إذا وضعنا الجذر وضعاً أفقياً كما في ( شكل ١٣ ) أو وضعاً منكوساً معكوساً كما في ( شكل ١٤ ) فإن الجذر يتجه إلى أسفل دائماً ، ولكن ربما يخطر لبعض الناس أن هذا الجذر إنما يتجه إلى أسفل دائماً فراراً من النور أو طلباً للرطوبة الأرض . فقلت :



« إذا بذرنا بذوراً في أصيص ثم ينكس الأصيص ( انظر شكل ١٥ ) بعد أن توضع على حافته شبكة سلكية تمنع سقوط التربة منه فيرى أن الجذر ينمو رأسياً من أعلى إلى أسفل وهو في هذه الحالة لا يجتنب الضوء ولا يتجه نحو البيئة الرطبة . فقال صاحبي : لقد استبان هذا الموضوع وظهر ظهوراً واضحاً ولكن بماذا يسمى العلماء هذا الميل ، فقات يسمونه ( الانحناء الأرضي ) وقالوا إن هذه ليست من الجاذبية العامة ، وما هذه التسمية إلا مجرد الاصطلاح . فقال صاحبي : هذا حسن وبه نعرف قول الله تعالى « والذي قدر فهدى » وقوله « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

( شكل ١٥ )  
تجربة الأصيص المنكس

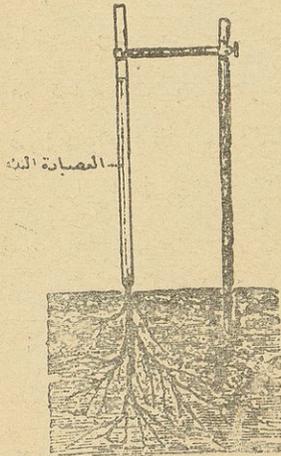


( شكل ١٦ ) الانتشار  
الغشائي ( م ماء نقى :  
غ غشاء . ش شراب )

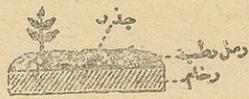
فقال صاحبي : عرفنا أن النبات يتجه دائماً جذره إلى الأرض وإن هذا أمر جديد لم يكن في طبائع الأشياء ، ولكنني أرى أن امتصاص الجذور للمواد التي حولها يشبه كل المشابهة امتصاص المثانة ( في التجربة الآتية ) للماء النقي حولها ، وذلك أننا نأخذ أنبوبة مسدودة في أحد طرفيها بقطعة من مثانة ونصب فيها محلولاً سكرياً باسميكا ثم نغمز الأنبوبة رأسية في إناء يحتوي على ماء نقي ( شكل ١٦ ) بحيث يكون المحلول السكري على سمت الماء الخارجي وندعها كذلك زمناً ما فنلاحظ أن سمت المحلول السكري قد ارتفع في الأنبوبة من ( أ ) إلى ( ب ) كما نلاحظ أن ماء الإناء الخارجي يحتوي على قليل من السكر ، ويدل ذلك على أن مقداراً من الماء النقي قد نفذ من المثانة إلى داخل الأنبوبة ، وأن بعضاً من المحلول السكري قد نفذ إلى الإناء الخارجي غير أن تسرب الماء إلى داخل الأنبوبة كان أسرع من تسرب المحلول إلى الخارج فانتشار السوائل والمحاليل خلال الأغشية على هذه الصورة يعرف بالأمموز أو الانتشار الغشائي ، والضغط الذي حدث في الأنبوبة فرفع سمت المحلول يعرف بالضغط

الانتشارى ، إذن ينفذ الماء والمواد الذائبة فيه من جذران الشعيرات الجذرية بالانتشار الغشائى ثم يندفع إلى أعلى بالضغط الانتشارى .

إذن الجذور فى النبات كهذه المثانة سواء بسواء ، فهى تمتص من الخارج إلى الداخل وترسل من الداخل إلى الخارج . إذن هذا أمر طبيعى معروف ، فإذا وضعنا قطعة من السكر فى ماء رأيناها امتصت الماء ، فعلا فيها أمام أعيننا ورأينا الماء حولها قد وصله شئ من حلاوة السكر ، ولكن الماء الداخل فى قطعة السكر أكثر مما فقدته السكر فى أول الأمر ، ثم تنعكس الحال بعد ذلك . فقلت : إن الجذور ليست كذلك إنما تأخذ ولا تعطى .



( شكل ١٧ )



( شكل ١٨ )

امتصاص المواد الصلبة

إن الانتشار الغشائى فى الأنسجة الحية يختلف عنه فى الأنسجة غير الحية ، لذلك لا تسمح الشعيرات الجذرية بمرور السكر وغيره من المواد التى فى داخل الخلايا إلى الخارج ، ولإظهار أثر الضغط الانتشارى فى رفع العصارة النيئة إلى أعلى تعمل التجربة المعروفة بتجربة ( هلز ) :

« تقطع ساق شجرة بمقربة من الأرض ويثبت على الجذع أنبوبة زجاجية تجعل رأسية ( انظر شكل ١٧ ) فيعد مدة ما يندفع فى الأنبوبة سائل رائق ضارب إلى الصفرة إن هو إلا العصارة النيئة .

ولست قدرة الشعيرات الجذرية مقصورة على امتصاص السائل والمواد الغذائية الذائبة فيها بل إنها قادرة أيضا على امتصاص المواد الصلبة فإذا وضعنا رملًا رطبًا على قطعة ملساء من الرخام وبذرنا فيه بعض البذور ( انظر شكل ١٨ ) نشاهد بعد الانبات أن الموضع من الرخام الملاصقة للشعيرات متآكلة ، ذلك لأنها تفرز فى مثل هذه الأحوال سائلًا يذيب هذه المواد الصلبة ، ثم بعدئذ يحدث الامتصاص .

ويقوم الجذر عدا وظيفة الامتصاص بوظائف أخرى ، فهو يثبت النبات فى الأرض ، وكلما كان الجذر أكثر تعمقا وتفرعا كان النبات أكثر ثباتا وأشد مقاومة لفعل الرياح والمنطقة الخاصة بالثبيت هى الأقرب إلى الساق وهى خالية من الشعيرات وبشرتها غير ماصة . والجذر يتبادل الغازات مع الأرض لأنه يتنفس ككل الأجزاء الحية من النبات ، وربما مات النبات إذا لم يجد الجذر مددا كافيا من الأكسجين ، لهذا كان من الضرورى تسهيل دخول الهواء إلى الجذر ويتوصل إلى ذلك بمرث الأرض وعزقها ، ويستخدم الجذر لادخار المواد الغذائية التى يستهلكها النبات عند التزهير كما يشاهد فى جذور البنجر واللفت الخ .

فقال صاحبي : هذا عجب ؟ فان إفراز الشعيرات التى فى الجذر للسوائل وإذابتها المواد الصلبة من أعجب العجب ، وهى فى هذا أشبهت الإنسان والحيوان ، إذ لنا جميعاً غدد لعابية فى أفواهنا ، ولنا سوائل أخرى مثل ( البنكرياس ) فى المعدة ، وكل هذه لهضم الطعام ، ولنا غدد تفرز لبن المرأة لولدها ، ولنا المرأة الصفراء التى بجانب الكبد تفرز تلك المادة فتكون سببا فى منافع صحية ، وهكذا هنا الكليتان ليتجه الماء إليهما فينزل فى الحالبين ، فإذن النبات عنده وظائف كالوظائف عند الحيوان ، وبإفرازه سوائل خاصة يحدث تقمنا فى الحصى ؛ وعلى ذلك تهدم الجذور المباني العظيمة بنفس الإفراز لا بالضغط الذى يفعله الثلج إذا جمد فى الحصى ؛ وعلى ذلك تهدم الجذور المباني العظيمة بنفس الإفراز لا بالضغط الذى يفعله الثلج إذا جمد

في باطن الكهوف فإن الماء إذا برد في باطن الجبال كسرها لأن الثلج أكبر حجما من الماء الذي صار ثلجا فيكسر ذلك الثلج ما فوقه من الأحجار فتظهر العيون ، فظهور العيون في الجبال إنما يكون بضغط الثلج على الأحجار أما ذوبان الحجارة والحصى وحبات الرمل ودخولها في جسم النبات فلن يكون بالضغط والتكسير وإنما يكون بأعمال كيميائية وهي التحليل والتركيب فتحلل الجذور تلك العناصر الصلبة في الحال وتدخلها أجسامها وهناك تركيب تركيبا جديدا ، وهذا هو الرقي الذي وضعه الله في أرضنا وجعله درسا لنا ، فهو يقول : الضغط الجسمي شأن الجمد ، فتعليم الناس العلم بالضغط والأذى ، وإرغامهم على العمل لمصلحة الدين استعملوا بلادهم وإنما هو شأن الأمم الذين لم يخرجوا عن أعمال الجمد ، فالحياة لهم إلا الحياة الجامدة وهل الرجل الذي يسخر غيره لمنفعته هو إلا كالثلج ضغط على الحجر فكسره ، فأما الأمم التي هي أرقق فإنها تعلم الشعب تعليما نافعا وتنقله من حال الصلابة والهمجية إلى حال العلم والحكمة ، فترجع سهلة القبول للرقق وتكون الأمم إذ ذاك أشبه بتلك المواد المفتتة من الحصى وقد حصلت في جسم النبات فصارت زهرا باهرا ، وورقا ناصرا ، وتمرا نافعا لسائر الناس ، هذا هو صراط الله المستقيم أن يعلم الناس قاطبة فيكونون أشبه بأمة واحدة لا أن يساموا الخسف كما يفعل الثلج في الجبال فيكسرها ، الماء في حال المعتادة كالأمم في حال هدوئها . ولكنه إذا برد وصار ثلجا في الجبل صار كالأمم الوحشية إذا اجتمعت لغزو أمة أخرى فتؤثر فيها بالقوة وأما جذور الأشجار فلا تؤثر بقوة الجسم بل بقوة العلم وهو علم الكيمياء ولنا نقول أن الجذور علماء الكيمياء بل نقول أن السلطة العليا المحيطة بهذه العوالم علمت هذه الجذور وهدتها أن تفتت الحصى حولها كما هدت لعباب الحيوان أن يهضم الطعام ، ولقد اجتمع هذان المثالان أي مثل الثلج ، ومثل الجذور في مضغ الأسنان والحيوان لطعامهما ، فنحن نمضغ بقوة الأسنان ، ولكن هذا المضغ وحده لا يسعد الحيوان لأنه وإن فتت اللقمة فليس معنى هذا أن اللقمة بهذا التفتت أصبحت صالحة للغذاء . كلا . بل هناك تتلقى اللقمة الغرد اللعابية في الفم والبنكرياس في المعدة ، وهناك يهضم الطعام ويتمثل بالجسم الإنساني ويصبح هو جسم الإنسان ، فحال المضغ هي حال هذا الإنسان في وحشيته الحاضرة والماضية ، وحال اللعب ، وهضمه حال الأمم التي تأتي بعدنا التي تضع كل أمرى فيما استعد له من العمل ، وكل أمة فيما استعدت له من المنفعة العامة لجميع الناس ، وهذا هو الذي ألفت له كتاب ( أين الإنسان ) .

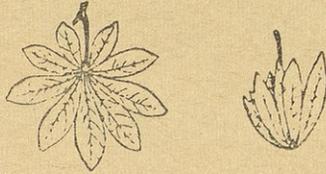
فقال صاحبي : هذا الموضوع كله قد بنيت أنت على الجذور وعملها ، وأنا أريد أن تحتمه بالكلام على أجزاء بعض الشجرات الظاهرة . فقلت : لقد تقدم الكلام على ذلك في مواطن كثيرة ، منها ما تقدم في ( سورة الحجر ) عند آية « وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » فإنك ترى هناك الدوائر البديعة المنتظمة بها أوراق النبات بنظام هندسي بديع فاقرأ هناك ، وعند آية « وأرسلنا الرياح لواقح » في نفس السورة فإنك ترى هناك عجائب الأزهار ونومها ويقظتها وإلقاها ، وترى في ( سورة الشعراء ) نظيره وفي ( سورة النمل ) ترى الكلام على الأوراق ونظامها من جهة أخرى غير ما جاء في ( سورة الحجر ) . فقال ولكني أريد أن أشاهد نفس الزهرة عند نومها وعند يقظتها وما أشبه ذلك أيضا لما تقدم في ( سورة الحجر ) فقلت : جاء في كتاب ( مبادئ التاريخ الطبيعي ) مانصه :

« ويؤثر الضوء في اتجاه الأوراق ، فإذا وضعنا نباتا في غرفة أمام نافذة رأينا الأوراق تدير وجهها العلوي نحو النافذة حتى تلتقي أكبر قدر ممكن من الضوء ، والأوراق بوجه عام تجعل نصلها عموديا على اتجاه الضوء » .

## حركات الأوراق

رأينا فيما تقدم أن أوراق البراعم تغير وضعها عند تفتحها وأن المحاليق تلتف حول الأشياء التي تصادفها وهذا التغير في الوضع أو في الاتجاه الذي يشاهد في الأوراق الآخذة في النمو يعتبر نوعا من الحركة ، على أن الأوراق النامية النمو قد تتحرك بصورة واضحة عند بعض النباتات ، وقد تكون هذه الحركة مسببة عن الضوء أو عن الملامسة وقد تكون ذاتية ناشئة عن أسباب داخلية ، ونحن نسرد هنا بعض أمثلة من هذه الحركات :

### نعاس الأوراق



(أ) يقطه (ب) نعاس

شكل ١٩ - أوراق الترمس

وريقات الورقة المركبة من الترمس تكون أفقية أثناء النهار ولكنها متى أقبل الليل تنسدل شيئا فشيئا حتى تضم أوجهها السفلى بعضها إلى بعض ( انظر شكل ١٩ ) ثم تعود في الصباح سيرتها الأولى ، وتسمى الحركات التي من هذا القبيل بالحركات النعاسية وهي شائعة في كثير من النباتات كالبرسيم والحميض الخ إنما يغلب أن تتجه

الأوراق في نعاسها إلى أعلى ضامة أوجهها العليا بعضها إلى بعض ، وفي قاعدة الوريقة المتحركة نجد انتفاخا يعرف بالانتفاخ المحرك ( انظر شكل ٢٠ ) وهو متى امتلأ بالماء تضخم ودفع الورقة إلى أعلى أو إلى أسفل وفقا لشكله الذي يختلف باختلاف النباتات ، وبالضد إذا تسرب منه



شكل ٢٠ - الانتفاخ المحرك

رسم وهمي

بعض الماء إلى الساق رأيناها يهبط ويصير خراعتا أخذ الوريقات وضعها الأفقي من جديد ، وترجع كثرة الماء وقتها في الانتفاخ المحرك إلى أن مقدار الماء الذي ينتجه النبات يتغير تبعاً لشدة الضوء ، وكأما الغرض من الحركات النعاسية إنقاص السطح الورقي المعرض لبرودة الليل .

### الحركات المسببة عن الملامسة

أوراق بعض النباتات كالمستحية والنباتات الآكلة الحشرات تتحرك بمجرد اللمس فتغير وضعها ثم تعود إليه بعد زمن ما ، هذه النباتات هنا قابلة للتهيج بصورة تشبه من بعض الوجوه قابلية التهيج عند الحيوانات لاسيما أننا نستطيع في كلتا الحالتين إبطال هذه القابلية للتهيج وقتياً بتأثير بعض المواد المرقدة كالأثير والكلوروفرم والنباتات المستحية تقدمت مشروحة بصورة في سورة الرعد عند آية « يسقى بماء واحد » .

## الحركات الذاتية



(شكل ٢١)

وهناك نباتات تتحرك أوراقها لغير سبب ظاهر ويطلق على مثل هذه الحركات اسم الحركات الذاتية ، وأحسن مثال لهذه النباتات نبات ينبت في الهند اسمه هديزاروم جيرانس (شكل ٢١) تتكون ورقه من وريقة كبيرة ، وعند قاعدتها وريقتان صغيرتان (ب) و (ب) فمقي وضع النبات في بيئة لا تقل درجة حرارتها عن ٢٢° مئوية نرى الوريقتين الصغيرتين تتحركان ببطء فتدور كل منهما حول قاعدتها بحيث تتم الدورة الكاملة في زمن يتراوح بين دقيقتين وخمس دقائق ، وغالبا لا تكون هذه الحركات الدورية منتظمة بل تتركب من عدة رجات متتابعة ، وهنا أيضا يري في قاعدة الوريقة المتحركة انتفاخ هو الذي يدفعها إلى الحركة بما يظهر على جوانبه من الارتفاع والهبوط المتبادلين ، على أن السبب الباعث لهذه الحركات لا يزال غير مدرك حتى الآن ؟

## سقوط الأوراق

في غاب الأشجار والشجيرات التي تنمو في المناطق الباردة والمعتدلة تكون الأوراق محدودة الأمد فإنها تتولد في الربيع وتنمو مدة الصيف ، ولكن متى حل الخريف نراها تفقد خضرتها وتأخذ صبغة صفراء أو ضاربة إلى الحمرة ، ثم تنفصل قاعدتها عن الغصن الذي كان يحملها وتسقط على الأرض تاركة مكانها أثرا ظاهرا يعرف بندبة الورقة ، ويشاهد فوق سطح الندبة طبقة واقية من الفلين ، وهذه الطبقة تنشأ قبل سقوط الورقة بمدة ما فتمنع وصول العصارة إلى الورقة كما أنها تساعد على انفصالها من الغصن ، ويتكون في إبط الورقة قبل سقوطها برعم إبطي يظل ساكنا مدة الشتاء ، ثم ينمو في الربيع التالي ويكون غصنا جديدا ذا أوراق ، وتعرف مثل هذه الأوراق بالأوراق المتجددة ، ومثلها أوراق المشمش والتفاح والكرمة ، على أن بعض الأشجار والشجيرات تكون مكسوة بأوراق خضراء في جميع أوقات السنة ، وتسمى هذه النباتات بدائمة الخضرة ، ومثلها الصنوبر واليوكالبتس (المعروف عند العامة بالكافور) والفيكوس الخ ، ففي هذه النباتات تبقى الأوراق على الأشجار أكثر من فصل ولا تسقط أوراقها في وقت واحد .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذا حسن جدا ، فهل ترى هنا فكرة حكيمية ؟ فقلت : لقد عجبت هنا من (أمرين : أولهما) أن الورقة قبل سقوطها يحدث فوق سطح الندبة طبقة واقية فتمنع وصول العصارة إليها (ثانيهما) إنه يتكون في إبط الورقة قبل السقوط برعم إبطي يظل ساكنا مدة الشتاء ثم ينمو في الربيع وهذا عجبان ، فكأن هذه الطبقة أشبه بالسدود في البحر تمنع جري الماء لغرض خاص أو كما يصنع في سقية الأرض إذ يحول الماء من الحوض الذي يجري فيه الماء إلى حوض آخر وذلك بسده بالطين الذي يحرفه بالفأس ؛ إذا فعل الله في أبداننا ما فعله في حقولنا سواء بسواء ، ويدون دراسة هذه العلوم لا يخطر لنا أن ذبول الأوراق تقدمه سد العصارة عنه كما أن الإنسان يموت ولا يعرف الناس عن الموت إلا أنه أمر طبيعي ويجهلون السبب ، لم يكن ليخطر لأحد من الناس قبل انتشار هذه العلوم أن الحمى والجدرى والإسهال والحمى التيفوزية ، والحمى التيفوسية وأمثاتها والكويليرا كلها لم تكن إلا حيوانات ميكروسكوبية أحدثتها وأنتجت تلك الأمراض (انظره في سورة الروم) كما أن سقوط الأوراق لم يكن ليخطر للناس قبل ظهور هذه العلوم ، إن هناك سدا يوجب انحباس العصارة عنها ، إذن كل ما في أجسامنا وما في هذه العوالم لا يكون

إلا بأعمال دبرتها نفوس عالية منظمة مستمدة نظامها من مبدع العالم كما نرى الضوء المنتشر في الأرض مستمدا من قرص الشمس ، فهاهنا قوى عاقلة تحيط بنا كاملة العقل مهندسة حكيمة لها أفعال ذات نظام تحيط بنا إحاطة الشمس بأجسامنا ، فهاهنا نور شمسي وكوكبي وهاهنا ضوء عقلي يتدخل في كل شيء .  
هذا هو الأمر الأول ، أما الأمر الثاني فهو أن البرعم الإبطي الذي ينمو في الربيع أشبه بالأجنة في بطون أمهاتها ليحلوا محل الآباء إذا ماتوا ، فبينما الهرم محل بالآباء ترى الأجنة والأطفال ينمون ويكبرون ، هكذا البرعم الإبطي ينمو أثناء منع العصارة عن تغذية الورقة ليحل محلها الفناء ، وهذا هو قوله تعالى « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فهذه العصارة حولت من الورقة إلى البرعم الصغير كما تتزايد الحياة في الأطفال وتتناقص في الكبار ، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل . كتب في يوم الأربعاء ١٥ يناير سنة ١٩٣٠ م

### بهجة العلم في اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « والذى نزل من السماء ماء بقدر »

يقول الله في (سورة الواقعة) « أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونوه أم نحن الزارعون . لئن نشاء لجعلنا من حطاما فضلتم تفكهمون » فالله هو الذى أنزل الماء من السماء ؛ وهو الذى سلكه ينابيع في الأرض ، وهو نفسه الزارع ، وهذه الآيات يفهما الجاهل والعالم لأنها واضحة ، ولكن التحقق منها وإدراك حقائقها لن يكون ولن يتسنى إلا لقليل من نوع الإنسان . إن الناس مغمورون في النعم وهذه النعم تعمى وتصم لكثرتها عن إدراك الحقائق ، فالنعم لو فرتها من شمس تضى وهواء يحيط ، وجوب زرع ، ونبات يظهر ، ولا عمل للإنسان فيها ، كل هذه أنامت هذا النوع الإنسانى قديما وحديثا ، فهل لك أن أحدثك حديثا جميلا يكشف بعض النقاب عن هذا الجمال حتى يكون بابا تلج منه لإدراك الحقائق وإن كانت تلك الحقائق يعوزها صرف الحياة في فهمها والبحث عنها ، ولن يجب الإنسان صانع هذا العالم حبا مفرطا لذاته غير ملاحظ خوفا من النار ولا طمعا في الجنة ، ولا عقابا ولا ثوابا إلا إذا درس هذه الدنيا وجمالها درسا فكريا بعد الاطلاع على علوم الحيوان والنبات والكواكب النخ وهذا الدارس هو السعيد حقا في هذه الدنيا وبعد الموت لأنه لا يرى من الله إلا الرحمة العامة ولا يكدر صفوه ما يرى من حوادث الدول والحروب ولا الموت ولا الحياة فإن هذا الدارس المفكر وقفت نفسه على سر هذا كله وقنعت بالحقائق فانشرت لها وتجلي لها الله في الدنيا برحمته الحقيقية وهذا هو الذى لا يحزنه الفزع الأكبر لأنه عارف والعارف موقن بالرحمة ، والذى يخاف من الفزع الأكبر هم أكثر هذا النوع الإنسانى لأنهم يعيشون في جلودهم ولا يفهمون نظام الرحمة في الوجود ويتقبلون في أنواع اللذات والآلام ولا يفهمون ما وراءها ، فهؤلاء قد جعل من بين أيديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد الآلام فأعشى على عقولهم فهم لا يبصرون الحقائق ، فأما أنت أيها الذكى فهناك نبذة من ذلك الجمال تفتح بها ما أغلق على أكثر نوع الإنسان وإن كانوا علماء في جميع هذه العلوم ، فانظر إلى الشمس إنها ترسل الألوان السبعة المعروفة وهو الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجى وهذه تتحد وتصير لونا واحدا هو الذى يغطى الأرض وجمالها وأنهارها وبحارها وآجامها وحجرها ومدرها ونبتها وشجرها ، وهذا الضوء هو الذى به ينمو النبات ، ذلك أنه يساعد المادة الملونة المخزونة في الأوراق على اجتذاب المواد الفحمية من الهواء وهو الذى يقيم هيكل النبات ، وهذا النبات هو الذى توقف بناء هيكله على الشمس ، ترى فيه أمرا عجبا !

تراه مقسما على بقاع الأرض وعلى الأزمنة وعلى حواس الأحياء وعلى ما ينفعهم من غذاء وفا كمة ودواء . فها هنا أربعة فصول في تقسيم النبات على بقاع الأرض والأزمان والحواس ومنافع الحيوان : وهالك بيانها :

### الفصل الأول

في أن أنواع النبات تكون في جميع الأماكن

إن منها ما ينبت في البرارى والقفار ، ومنها ما ينبت على رؤوس الجبال . ومنها ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنها ما ينبت في الآجام والغياض ، ومنها ما يزرعه الناس ويغرسونه في القرى والسوادات والبساتين ، ومنها ما يكون على وجه الأرض ، ومنها ما ينبت تحت الماء ومن ذلك قصب السكر والأرز والنيلوفر ، وأنواع العكرش ، ومنها ما ينبت على وجه الماء كالطحلب ، وما ينسج على الشجر والنبات ( كالكشوثى ) والبلاب ومنها ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن ، ومنها مالا ينبت إلا في البلاد الحارة كالنخل . ومالا ينبت إلا في البلاد الباردة . ومالا ينبت إلا في التربة الطيبة . ومالا ينبت إلا في الرمال وبين الحصى والحجارة والصخور والأرضين اليابسة . ومنها مالا ينبت إلا في الأرضين السبخة المشورجة .

واعلم أن أرضكم هذه لما أتمت في حضانة الشمس المدة الكافية لسن بلوغها قالت لها بلسان الحال أى بنيتى ها هو ذا جاء زمن بلوغك فانهضى من مرقدك في معهدك الذى تترين فيه وها أنا ذا أرسلك إلى مدارك الذى تدورين فيه حولى كما أرسلت من قبلك أخواتك الكبريات مثل بناتى ( أورانوس ونبتون والمشتري والمريخ وأمثالهن ) فها هو ذا جاء الوقت الذى أرسلت لتكونى في مدار خاص وهو منزل بعلك الذى تطيعه وهو الضوء الذى يسير منى إليك حين تبدئين في الدوران ، وباجتماعه معك تلدين ذرية صالحة إن شاء الله وهى أنواع النبات والحيوان ، ولكن يا بنيتى واسوءتاه ، إن أبناءك من ذرية أحد أولادك المسمى آدم سيكونون خارجين عن سنن القوانين حين يطردون من الجنة التى كان أبوهم فيها ، فأنا يا بنيتى أنصحك أن تأخذى معك كل ما يجب لحفظ صحتهم إذا ضعفت لتطول حياتهم أمدا ما ؛ فخذى في هيكلك من العناصر ما ينفعهم ، فها هو ذا المغنسيوم والكبريت والفوسفور والحديد والسكر وأمثالها فإنها ستدخل في مواد نباتية فيكون الأول نافعا في العضلات ، والثانى في الدم ، والثالث في المخ ، والرابع في احمرار الدم ، والخامس في هضم طعامهم ، فهذا يا بنيتى هو وأمثاله من الجهاز الذى تأخذه بناتى معهن لأزواجهن حتى يلدن الذرية الصالحة النافعة . واعلمى يا بنيتى أن الله قد أعد لأبنائك من ذرية آدم كل ما يحتاجون إليه قبل إخراجك من جسمى لأنه علم أنهم قوم لا يحافظون على صحتهم فأحرنى أن أبلغك أمره إذ يقول : إنه سينبت عليك مثلا الجزر ليكون نافعا للجلد كما تقدم ، وأمثال الخس ليكون نافعا للأعصاب ، وأمثال البرتقال ليكون نافعا للشجاعة ، والبقدونس ليكون نافعا للكيتين ، والطماطم لتكون نافعة للكبد .

وهذه الذرية ستخلق بعد مئات الملايين من السنين . فقالت الأرض : يا أماه . وكيف هذا ؟ فقالت لأن الله يعلم كل شى قبل خلق السموات والأرض فهناك مناسبة عجيبة بين العناصر والنباتات وبين أعضاء الإنسان عضوا عضوا « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

## الفصل الثاني

في تقسيم النبات على الفصول

زمان حصده	مبدأ زرعه	النبات
	في زمن الربيع	أكثر النبات
الربيع	في زمن الخريف	الحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها
الربيع	في الشتاء	القثاء . الخيار . الباذنجان
الشتاء	الخريف	الجزر . الشلغم . الكرنب . القنبيط
الخريف	الصيف	السمسم . الذرة . الأرز
الخريف	الربيع	القطن . القنب

## الفصل الثالث

في تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان

الحاسة	النبات
حاسة البصر	مناظر الأشجار والأزهار جميعها
حاسة الشم	الأزهار وذوات الرائحة الطيبة كالورد
حاسة الأذن	حنيف الأشجار وغوير الأعشاب وهكذا
حاسة الذوق	الحلو كالتمر والتفاح والعنب وأمثال ذلك
حاسة اللمس	نعومة الزهر والقطن مثلا

## الفصل الرابع

في تقسيم النبات على منافع الانسان

فمن النبات ما هو للغذاء كالحبوب والفواكه ، ومنها ما هو للدواء ، وهذا مقسم على الأعضاء أو عام ، فأما ما هو عام فمثاله الكافور والصفصاف ، أما الكافور فهو نافع في الأمراض العصبية كالصرع واختناق الرحم المسمى ( هيستريا ) وذلك بأن تهجم على المريض نوبات عصبية فيفقد الشعور تماما فلا يحس ولو كوى بالنار ويقع ولو كان أمامه بر ويعض على لسانه ، ويقول له العامة ( مغفرت ) وهذا يستعمل له التفريح وترك السكر ، ويرش له مسحوق الكافور على فرشه فهو مضاد للتشنج وإن كان قد اعتاد الاستمناء باليد يمنع

ذلك المسحوق على الفرش ، وأما الصفصاف فهو للحمي ، وذلك أن المصاب بالحمي يعالج بمغلي أوراق الصفصاف بأن يوضع ( أوقيتان في رطل ماء ) ويغليان ويشربهما مع وجوب ترك المحل الذي أصيب فيه بالحمي حتى يغير الهواء ، ويقتصر على الحمية ولا يأكل إلا قليل المرق واللبن ولا يشرب إلا ماء الشعير ليظفي الماء الظماً ويكون مقام ورق الصفصاف مغلي قشر البلوط وورق الجوز أو الزيتون . فهذان مثلان هو عام لمداواة الجسم كله ، أما ما يختص ببعض الأعضاء دون بعض فمثاله :

- (١) إن الجلد ينفعه أكل الجزر .
- (٢) والأعصاب ينفعها أكل الخس والسبانخ .
- (٣) ولترك الخوف وظهور الشجاعة ينفع أكل البرتقال والليمون .
- (٤) ولأجل شفاء الكليتين ينفع أكل البقدونس وكشك الماز والفجل .
- (٥) ولأجل شفاء الكبد ينفع أكل الطماطم والهندبا ( جعريض ) والبصل .
- (٦) ولشفاء النزلة المعديّة المعوية المزمنة وهي ( القرقة ) يأكل المريض السريس الأخضر ، وهو ( الشكوريا البرية ) مع الغذاء مدة أسبوع ، وهكذا حب الرشاد لأنه يحتوي على أصول مقوية جدا للهضم ومصاحبة لتلبك المعدة .
- (٧) ولشفاء الرأس من ضرر ( بطحة الشمس ) وهي المسماة ضربة الشمس يصب على الرأس ماء بارد مضاف إليه قليل من الحل ؛ ويترك الرأس عاريا .
- (٨) ولشفاء ( داء الخناق ) المسمى ( دفتيريا ) يؤتى للمريض بخرقة نظيفة تلف على قطعة خشب رقيقة ثم تعمس في عصير الليمون المصفى ويمس بها حلق الطفل ، ويكرر ذلك كل ساعة مرة .
- (٩) ولإسهال الطفل الذي يسميه الفلاحون بمصر ( التلويجة ) يجب أولا منع سببه وهو أكل الطعام والثمار قبل استعداد الطفل للأكل بل يجب أن يطعم لبن البقر إذا لم يكن لأمه لبن ويضاف إليه مقدار درهم من مسحوق الطباشير الناعم النقي كل يوم أو مثله من مسحوق الفحم النباتي ( فحم الحشب النظيف ) وقد يضاف إليه ( بي كربونات الصودا ) .
- (١٠) ويعالج وجع الشقة وهو ( أمراض النخاع والمغص المعوي والمغص السكوي ) باستعمال مغلي بزر الخلة يؤخذ قدر أوقية ويغلي في رطل ماء ويصفي ويشرب منه قدر فنجال كل صباح ، فليواظب على ذلك فإنه لا يشكو مرة أخرى من وجع الشقة ، وليلاحظ نقاء ماء الشرب ، فالأحسن أن يغلي في إناء ويؤخذ الصافي منه ويبرد في أوان ويستعمل ، أما الترويق بنوى المشمش أو بالقول ففيهما ضرر كبير ، فالأول قتال والثاني يعفن ويأتي بجراثيم مضرّة ، والأحسن وضع نصف أوقية من الفحم النباتي النظيف المغسول مرارا في الزير ، ومتى فرغ الزير يؤخذ الفحم ويغسل ثانيا ويفعل به مافعل أولا ، فهذا ربما يفيد في إزالة وسخ الماء ، وينفع في هذا المرض أيضا أكل الكبر وهو معروف في حقول البرسيم في مصر ، وينفع أيضا فنجان من مغلي بزر الحرمل عند تناول الإفطار مدة أسبوع .

تلك عشرة كاملة بعد المثالين الأولين العامين . فقلت : هذا كله من كتابين : أحدهما كتاب « طب الركة » تأليف الدكتور عبد الرحمن إسماعيل المتخرج من القصر العيني بمصر ، وثانيهما كتاب في الطب تأليف ( السيرويليم ويلسكوكس )

ولقد بذلت جهدي في أن أجعل هذه الأمثلة مستوفاة بحيث يمكن الانتفاع بها في المعالجة ولم أنقص من المعالجة المذكورة فيها شيئا مما ذكر في المصدر الذي نقلت منه .

هنالك اطلع على هذا أحد العلماء فقال لي : هذه الفصول الأربعة طال الكلام فيها ، وهل هذا كتاب طب ؟ أم هو كتاب زراعة ؟ إن هذا تفسير للقرآن . وإنما ذكرتك بهذا لئلا يستهويك جمال العلم فتدسى أصل الموضوع ، فيرى القارى أنك تجاوزت الحد المقرر للتمثيل في التفسير . فقلت : كلا . ماغفلت وإنما هذه الفصول جعلتها قواعد أربعة أبني عليها قصور الحكمة وقلاع العلم إن القمح والنطن وأنواع الخضر والريحان والفاكهة يزرعها الناس وترب عليهم الفصول والسنون ويأكلون ويتفكحون ويمرضون ويتداونون ثم يموتون وأكثرهم لا يذكرون . فها هنا ذكرنا هذه الأمور ، وسأبين هنا كيف تمثل الروايات حول الناس صباحا ومساء وهم لا يشعرون ولا هم يذكرون ، غاية الأمر أن يقال فلان غني ، وفلان فقير ، وفلان جاهل ، وفلان عالم ، أما هذه الفصول التي تمثل في مشاهد الطبيعة فهم عنها معروضون ؛ وقل من يخلق في هذه الأرض ثم هو يفكر في أن الشمس خرجت منها أمواج الأشعة فسافرت حتى وصلت إلى البحار ، فأثارتها وأثارت الهواء فكانت سحب فطر فرزق وترب ودواء الخ .

إن أكثر الناس لا يعلمون « قتل الإنسان ما أكفره » « إنه كان ظلوما جهولا » ضوء وهواء وحب يدفن في الأرض وماء ينزل عليه ومواد خضراء بعضها فوق بعض ذات أوراق على ساق فأزهار فاتنة ، ثم إن كل ثمرة أوجب له عضو من أعضاء جسم الإنسان يدويه . فأى مناسبة بين الشمس التي بعدت عنا مسافة (١٢) ستة بسفر قلة المدفع وبين بذور تلتقي في الأرض وماء يخاطبها ثم ينتج دواء أو غذاء لمخلوق بعيدا عنهما لامناسبة بينهما البتة ، أى مناسبة بين بذور ومياه وأضواء وبين رجل في الحقل حتى إن هذه الجيوب والأوراق المختلفة تقسم منافعها على أعضائه من قلب وكبد ومعدة وأمعاء إلى آخر ما تقدم . يحار ففكر العاقل فيقول : نور يسوق غازا وسائلا وهذا يجرى في الجو بلا نظام ؛ ثم ها يؤثران في غيرها وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى منفعة عامة لكل حي .

فقال صاحبي : لقد ذكرت أن هذه أشبه بالروايات والناس لا يعقلونها . فقلت نعم أن فصول الروايات على قسمين : فصول يعقلها الحكماء ، وفصول يعقلها الجهلاء ، والعقلاء والجهلاء كل منهما فرح بمالديه ، فهذا بالخيال مغرور وهذا بالحقائق في حبور فيا بعد ما بينهما . إن بينهما بعد الشرقيين والمغربيين فقال : حدثني عن الخيال الذي للعوام وللحقائق التي للخواص على شريطة أن يتحدا في معنى واحد حتى أدرك الفرق بينهما ؟ فقلت : أذكر لك أولا قصة خيالية من قصص (ألف ليلة وليلة) قد قدمت ذكرها في (سورة الكهف) وهي قصة مدينة النحاس ، ذكرتها هناك من أنواع الزينة التي أبدعها الله في عقول العلماء فأبهجت القلوب ذلك أن الكتاب تصور أن موسى بن نصير المعروف بأنه مع طارق بن زياد الدين فتحا الأندلس كان معه رجل اسمه عبد الصمد قد كسفا عمودا من النحاس ففتحاه فخرج جنى كان معذبا من أيام سليمان عليه السلام ، وحكي لهما تاريخ حبسه . ثم ذهبا إلى مدينة النحاس وهي كبيرة جدا طاف الرجال حولها على خيولهم يومين حتى رجعوا للمكان الذي خرجوا منه ، وأدهشهم سورها الذي لا يمكن اقتحامه لعظمة ارتفاعه ، ثم عثروا على مفاتيحها فوجدوا جواهر من ذهب وفضة وألماس وياقوت مما لا يحصىه إلا الله والناس صرعى كل في مكان في السوق والقصور والمنازل ، ومن أعجب العجب أنهم رأوا فتاة جميلة وعيناها تنظران فسلمتا فلم ترد فعرفوا أنها ميتة ولكن عينها تتحرك بالحكمة تقرب واحد منها ليأخذ ما عليها من الحلى والحلل التي لا نظير لها في الدنيا ، فانقض عليه سيافان واقفان حولها بتصوير الحكمة فضرباه بالسيف فقتلاه فتركوها ، ثم وجدوا لوحا مكتوبا فيه قصة هذه المدينة والحجاعة التي حلت بها ، فأقرأ الملخص بتمامه في (سورة الكهف) أو فارجع إلى نفس ألف ليلة وليلة .

فهذه الخرافة تلك السامعين من الصغار والنساء والعامية الجهلاء ، لأن فيها مفاجآت عجيبة وأمورا

غريبة والخيال يصبو إلى هذه الغرائب، فإنه إذا سمع أن هناك مدينة عظيمة جدا دهش لأنه لا نظير لها ،  
وإذا سمع أنها مملوءة جواهر وأن فتاة جميلة تنحرك عينها دهش جدا ، وإذا سمع أن رجلا قتل بسيوف  
من تماثيل واقفة زاد دهشه ، فهذه الرواية جعلت لتعليم الناس الزهد في الدنيا ولا سبيل لذلك إلا  
بهذه الحرافات فهي حسنة جدا لصغار الأحلام . وهكذا تجد رواية أخرى جاء فيها أن ابن ملك  
من ملوك مصر رأى في خزان أبيه خلعة بهجة فيها صورة فتاة جميلة وهو في سن الرابعة عشرة فهمم بحبها  
وأعطاه أبوه بعد اللتيا والتي ما طلبه من رجال الجند والنخار والعدة وسافر إلى أقصى الشرق ومات جميع  
رجالها غرقا تارة وقتلا أخرى بعد أن وقع في الأسر مرارا ، ورماه القدر في بلاد الفرس بعد  
رجوعه من الشرق الأقصى فعثر على ابنة ملك الجن في حديقة وهى نفس الصورة التي كان يطلبها فزوجها  
ورجع بها إلى أبيه وكان يوما مشهودا .

فهذه القصة تقرأها في نفس كتاب « ألف ليلة و ليلة » وربما مرت الإشارة إليها في غضون هذا  
التفسير . ولعمري ما هذه القصة وأمثالها إلا رموز لمعرفة الحقائق التي نحن بصددتها ، فإننا نعيش في الأرض  
ولا نفقه من هذا الوجود شيئا ، ولن ننال تلك الحقيقة الناصعة التي هى السعادة الحققة إلا بأن نجعل أجسامنا  
وأموالنا قربانا لأجلها ونلقى بمهجنا في سبيل العلم والحكمة أو في ساحات الحرب ، فنكون أدينا ما وجب  
علينا . فهذه الممالك التي وقع فيها ابن ملك مصر وما صادفه من ذل وجوع وعرى وقدم الرجال والمال ثم  
الأسر والضرب والغرق ثم النجاة . كل هذا ضرب مثلا لطلاب المجد والعلا، فهم لا يتألمونه إلا باستغنائهم عن  
هذه الحياة والوقوع في المهالك والمهاوى والمشاق العظيمة فيكون الفوز .

ولقد أردت أن أوّلف رواية خيالية تستبين بها سبيل هذه الفصول الأربعة في ضوء الشمس والهواء  
والماء والنبات وتقسيمه على الفصول الأربعة وعلى أعضاء الإنسان مع تباين ما بينها فأعيتنى القرينة بعد  
السكد والنصب حتى إذا كنت يوم أمس بعد الظهر وهو يوم الأحد ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية  
وأنا سائر في منيل الروضة وهناك جلست تحت شجرة فأخذتني وأنا جالس سنة من النوم خيل لي كأن أمامي  
رجلين يتحدان . فقال أحدهما : هل أحدثك حديثا عجيبا في غرائب هذه الدنيا . فقال أحب ذلك .  
فقال كنت الليلة نائما فأتاني خمسة رجال فأيقظوني فرأيت جسمي مطروحا على الأرض كأنه ميت فقلت أنا  
ميت قالوا أنت حي وهذه روحك ولها اتصال بهذا الجسم وسترجع إليه ، وسارا بي حتى ارتفعنا إلى السماء  
ووصلنا إلى الشمس :

( ١ ) فرأيت حمامتين : إحداهما ذات طوق أحمر ، والأخرى ذات طوق أبيض . فقلت ماهاتان يرحمكم  
الله ؟ فقالوا : اصبر قليلا .

( ٢ ) ثم نظرت فوجدت هاتين الحمامتين أسرعتا في الجرى حتى وصلتا إلى الهواء المحيط بالأرض  
ثم أخذتا ترفرفان كثيرا حتى رأيت عربات لا عدد لها تجرى في الجو ولكن لا عجلات لها .  
فقلت : ما هذا ؟ فقالوا اصبر قليلا .

( ٣ ) ثم عمدت الحمامتان إلى البحر فأخذتا تضربانه بأجنحتهما فخرجت قرب لطيفة الصنع مملوءة ماء  
وصارت تطير في الجو هنا وهناك بغير نظام ، إذن هناك عربات وقرب ماء كلها طائرات شرقا  
وغربا وشمالا وجنوبا لا نظام لها ولا ثبات .

( ٤ ) وبينما أنا متعجب من هذه المعركة المختلطة إذ رأيت هذه القرب قد حملت على تلك العربات

واتخذت هذه مع هذه حتى صارت كأنها سفن تقترب من بعضها ، فمجبت كل العجب ؟ فقلت ما هذا يرحمك الله؟ أدر كوني وأسعدوني حتى أفهم ، فقالوا: اصبر .

(٥) وبينما أنا كذلك إذ رأيت هاتين الحمامتين عمدتا إلى تماثيل مصنوعة من الطين مجوفة فأخذتا ترفرفان عليها ، فرأيت تلك الصور أخذت تنقلب من حالها الأولى إلى حال أتم وأرقى وأخذ الطين يصفو شيئا فشيئا حتى صار للحما وعظما وفيه عيون وأسماع وأبصار : ثم أخذت التماثيل تتحرك وتمشي وتتكلم ، فأخذ مني العجب كل مأخذ ، وهذه الصور مختلفة الأشكال والألوان والأعمال من كبير وصغير .

(٦) ثم رأيت صورة طينية أكبر من جبال هملايا بهيئة إنسان ، وهذه الصورة أخذت الحمامتان ترفرفان عليها ، وانضم إليها ألوف مرفرفات حتى تحركت ونطقت ، وهناك أخذ مني الرعب كل مأخذ وقلت إن هذا الذي أمامي هو ما يقال له القول ولو أنه خطأ خطوتين نحوى لقتنى . فقالوا لا تخف اصبر قليلا .

(٧) ثم سارعت الحمامتان إلى أرض قفر ، فأخذتا ترفرفان عليها وقد رأيت هناك نملا كثيرا تضع ما يشبه الحصى أو الرمل والحمامتان تضربان دائما على وجه الأرض فوق تلك الرمال ، فما أسرع أن رأيت تلك الحصى والرمل قد ارتفعت فوقها أعمدة شيدت عليها قصور خضر وفيها مخازن عجيبة .

(٨) وتلك المخازن فيها ما يشبه تلك الحصى والرمل التي جلبها النمل . فقلت ما هذا يرحمك الله : فقد والله رأيت عجبا لم أسمع ولم أر مثله ؟ فقالوا اصبر .

(٩) ثم سمعت من ذلك الإنسان الكبير الجثة أصواتا من جميع جسمه ، وتلك الأصوات مختلفات من معدته ، ومن أمعائه ، ومن كبده ، ومن قلبه ، ومن رأسه ، ومن جنبه ، ومن نخاعه ، ومن رثته ، ومن طحاله ، ومن كليته .

(١٠) فعند ذلك رأيت جماعات من النمل قد أسرعت حثيثا إلى تلك المخازن فصارت تأخذ منها وتلقي على مواضع تلك الأصوات فلا تكاد النملة تضع بزرا من تلك البرز على الجنب أو الرأس أو المعدة حتى يسكن الصوت حالا ، وتارة يتأخر قليلا ، فهناك اعتراني أشد الدهش ، فقلت ما هذا يرحمك الله ، فإني لاصبر لي على هذه العجائب ؟ فقالوا لي : أما الآن فعم قد تم لك العلم .

قال : فقلت وأى علم ؟ أنا لا أعلم شيئا . فقولوا لي يرحمك الله ما هما هاتان الحمامتان . فقال أحدهم وهو الرئيس : الآن أحدثك ، إن الناس في الأرض نيام ، وهذا الذي رأيته هو الذي يرونه بأعينهم ولكنهم لا يفقهون وعلمائهم وجهلاؤهم على حد سواء . قال فقلت ولم لا يفقهون ؟ قال لأن هذه روايات خلقوا فيها وهم أنفسهم من الممثلين والممثل في مسرح التمثيل غير النظارة ، فأنت الآن من المشاهدين وأهل الأرض هم المشهودون . فلما كنت في جسمك كنت مشهودا ولكنك الآن شاهد والشاهد غير المشهود . فما أهل الأرض إلا صور متحركات يشهدهم فيها المقربون . فأما أنت الآن فلست منهم بل صرت روحا فصرت أشبه بالشاهدين . قال فقلت ولم لا أكون من الشاهدين ؟ قال يابني إن الشاهدين ليسوا هم الذين تضرب لهم الأمثال فحسب مثل هذه الأمثال التي سأبينها لك بل هم الذين يدركون نفس الحقائق ؛ وفرق بين الثريا والثرى ، ومدركو الحقائق هم المقربون الذين يقول الله فيهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » والوادة الحقيقية لا تكون إلا بمعرفة الحقائق فعلا لا تخيلا ، فها أنا ذا أقص عليك ما رأيته

الليلة لتبلغه لأهل الأرض . فقلت : فما هاتان الحمامتان إذن ؟ فقال . أما ذات الطوق الأحمر فهي الحرارة وأما ذات الطوق الأبيض فهو الضوء ، وأما العربات فهي الرياح ، وأما القرب المملوء ماء فهي البخار الخارج من البحر بتسلط الحرارة عليه فيكون باجتماعهما سحب ، وأما ضرب الحمامتين بأجنحتهما على الأرض وعلى ما يشبه الحصى والرمل فذلك أن الحرارة والضوء لا بد منهما في ظهور النبات من الأرض ، وأما تلك الصور الطينية فهي جميع الحيوانات فهي من الطين مصورات ولولا الحرارة والضوء ما كانت لها حياة ، وأما القصور المصورات فوق الأعمدة وفيها المخازن فهي النباتات ، وأما ذلك الإنسان العظيم الجثة كجبال هالايا فهو الأمم الأرضية صورت لك بهيئة إنسان كبير الجثة ، وأما الأصوات الخارجة من أعضاء جسمه فهي الأمراض الموزعة على الأعضاء الجسمية في أفرادها ، وأما طوائف النمل الحاملات لتلك الحبوب من المخازن في تلك القصور فهم الأطباء يضعونها على مواضع الداء لتشفى . قال ثم قال هذا الطيف لي : فهذا هو تمثيل أحوال تحيط بكم ، فإذا رجعت روحك إلى جسمك فقل لهم : يا أهل الأرض - إن حولكم عجائب وعجائب ولكنكم لا تعقلونها لأنكم أنتم صور ممثلون ولستم من النظار ، ولقد أقسم الله بالشاهد والشهود وقدم الشاهد لأن الشاهد يعقل ويكون من المقربين وهو الذي عقل عن الله وأدرك رحمته فعلا فلا يهوله الفزع الأكبر لأنه اطلع على الأسرار وعرف الحقائق فلم ير من الله إلا الرحمة فإن أماته أو أحياءه أو أقره أو أغناه فهو في السعادة الأبدية سعيد في الدنيا بالعلم ، وسعيد في الآخرة بالعلم ، فأما أمثال هذه الخيالات فهي لفتح باب العشق والحب ومتى كان الحب وصل العبد لحالقه : والعبيد على قسمين : عبيد عبدوا بالرغبة ، وعبيد عبدوا بالرهبة ، فأهل الخيال عبيد الرهبة ، وأهل الحقائق والحب والعشق عبيد بالحب ، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » وإلى الثاني الإشارة بقوله « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا الخ » فملك الناس تارة يكون بالرهبة ، وتارة يكون بالحب والعشق ، وأفضلهما الثاني . قال : ثم قال لي الطائف وهو رئيس الجماعة الذي معه :

\* وما كل مصقول الحديد يماني \*

قال ثم قلت لرئيس الجماعة المذكور : حياك الله عرفت أن القصور الحضر تمثل المزارع وأن المخازن فيها تمثل الحبوب فعلمني رعاك الله مما علمك الله بعض الحقائق بعد الخيال عسى أستيقظ فأخبر أهل الأرض فيصلوا إلى الحقائق فقال أما الآن فنعلم لأنك اشتقت إلى العلم ولا علم إلا بعد الشوق ، والشوق أعظم أبواب السعادة ، فقد رأيت النبات في الأرض ؟ قال نعم . قال وهو مقسم على الأزمنة والأمكنة والأعضاء والحواس . قال فقلت نعم وهذا أمر عجب ! لا أعرف سره . فقال : قد علم الله أنه سيخلق الإنسان وأن أنسب الأوقات للزرع فصل الربيع الذي فيه تظهر أكثر النباتات . قال فقلت نعم . قال : لو أنه تعالى لم يجعل الزرع إلا في ذلك الوقت لتعطل الإنسان في بقية السنة ، فدبر الأمر وجعل لبقية الفصول أنواعا من الزرع ليعمل الناس لأنهم إذا لم يعملوا كان ذلك تعطيلاً لهم ومرضا لأجسامهم ، ولو أن النبات اختص بمكان دون مكان لاجتماع الناس في مكان واحد هم والحيوان فهل كوا فلذلك وزعه على أمكنة كثيرة . قال فقلت هذا عجب ! والله إن أهل الأرض لا يفكر أكثرهم في ذلك . قال : لهذا أعلمك . ثم قال : وهل الحرارة والضوء والهواء والماء كانوا علماء بكل شيء حتى عرفوا أن بدورا مرماة في الأرض فاجتمعوا عليها ثم حصل النمو فوزعت محصولاتها على الأعين والآذان والجلود والبطون والأكباد والقلوب الخ بحيث أصبحت تلك الأمور البعثة التي يرى ظاهرها لانظام لها وكأنها جاريات بغير حساب قد صارت مقصودة قصدا حقيقيا بحيث توزع ثمراتها على حاجات الحيوان والإنسان عضوا عضوا وحاسة حاسة أي أن النباتات البالغات عندكم الآن (٢٥٠) ألف نوع كلها موزعات على

أعضائكم وحواسكم مع أن من يرى الضوء والحرارة والهواء والماء والأرض وهي تتفاعل لا يخطر له أن النتائج تكون منظمة هذا التنظيم المدهش ، وأي نسبة بين الشمس التي تجرى وبينها وبينكم آماد وآماد وهي ترسل ضوء لكم وبين الأعين والمعدت والجلود ؛ ثم أن أرضكم كما تقرءون أنتم في العلوم كانت قطعة من الشمس ، وهذه القطعة فيها الجير والمغنسيوم والكبريت والفسفور والحديد والكلورين ، فهذه المواد مما يدخل في النبات عندكم ، وكل هذا مرسل من الشمس في أجزاء الأرض ، فلم تقف الشمس عند هذا الحد ، فأمرها الله بإرسال ضوء وحرارة ينبعثان منها لئتما ما قصده الله سبحانه كما خلق الله عقولكم يابى آدم فهي كهذه العناصر ساكنة لا عمل لها ؛ ولكنه يرسل لكم أنبياء ، ويلهم من بينكم حكاء فيحركون أجسامكم وعقولكم كما أنكم ترون الضوء والحرارة ينبعثان من الشمس فيساعدان :

(١) الجير المذكور المفيد للعظم الشافي للجروح على أن يدخل في نبات الكرنب وفي اللبن والجبنة التي لم يؤخذ زبدها وفي السبانخ والبصل والشمس والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا والردة

(٢) ويساعدان أيضا المغنسيوم الذي يكون قوة في العضلات ويمنع الفتق فيدخل بسببها في السبانخ

والخس والخبث والطماطم والبرتقال والشعير والنرة والقمح والليمون والتين والباميا .

(٣) ويساعدان أيضا الكبريت الذي هو المنظف للدم المانع للروماتيزم على أن يدخل في السبانخ

والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والباميا

(٤) ويساعد الحرارة والضوء أيضا الفسفور الذي هو مغذ للمخ على أن يدخل في الفجل والقنبيط

والخبث والجوز والبسلة والعدس والقمح وفي الخس والسبانخ ، وهكذا في صفار البيض وكشك الماز

(٥) ويساعدان أيضا الحديد وهو الذي يعطى الدم لونه الأحمر على أن يدخل في تركيب الكرنب الأحمر

والسبانخ والبصل والزيت و صفار البيض التيء والبلح والبرقوق والبنجر وكشك الماز والطماطم

(٦) وهما أيضا يساعدان الكلورين وهو المساعد للهضم للمنظف للمعدة على أن يدخل هيكل الكرنب

وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر والملح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر

ثم قال : هذه المواد الست مما يدخل في تركيب النباتات قد أرسلها الله مع الأرض يوم أن اقتطعها من

الشمس ، ثم أرسل لها الضوء والحرارة فنزلت عليها فكانت سببا في دخولها في هذه النباتات المفرقات على

أعضاء بني آدم وعلى حواسهم بحيث لا يكون هناك داء إلا وله دواء ، ولا حاسة إلا ولها ماتطلبه ، ولا حاجة

من حوائجكم إلا كانت حاصلة موجودة قد أثبرت بدورها وأصولها من عوالم فوق شمسكم « وفي السماء

رزقكم وماتوعدون » .

ثم قال : فهذا هو ما سألت عنه ، فهل فهمت ؟ قال فهمت . يقول مؤلف هذا الكتاب : كل هذا وأنا

مصغ إلى القائل وعندى أشد الدهش والهجة ، وأقول في نفسي . يارب كيف أكون في حيرة وقد عجزت

فعلا عن تمثيل ما يحيط بنا من العجائب بحيث يكون أشبه بالروايات ، وكيف يؤت ؟ والله يأسا حقيقيا من

أن أصور ذلك بصور خيالية ، ثم كيف أسمع ذلك في المحاورة بين هذين الرجلين ؟ فهل هذه الأرواح هي

إخوان روحى أم أى شىء هذا ؟ ثم أردت أن أسأل هذا المتكلم ، لأسأله من أنت ؟ فاستيقظت وقد عجزت

كل العجب وحمدت الله على أنه علمنى ما لم أكن أعلم ، وإنى الآن يكاد قلبي يطير من بين جنبي إذ عرفت

ما عجزت عنه والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ١٣٤٨ هجرية .

## اللطيفة الثالثة

كشفت النقاب عن بعض أسرار قوله تعالى «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا  
فهو له قرين»

حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يحدثني في هذا التفسير . فقال : لقد أومأت إلى تفسير آية «ومن  
يعش عن ذكر الرحمن الخ» عند الكلام على البسملة ، ولكن النفوس اليوم يعوزها الوقوف على الحقائق ،  
وكما أن علم الطبيعة لا يورث اليقين إذا اشتقناه اشتقاقا هكذا علم القرآن ، فإذا لم نصل إلى النهايات فلسنا  
علماء ولنسنا سعداء ، فهل هذه الحياة الدنيا شقاء والسعادة محصورة في ذكر الله تعالى ؟ نحن نريد التحقيق  
في هذا المقام بالعقل . فقلت : أيها الحبيب : إذا أردت الوقوف على حقيقة هذا الموضوع فلا مندوحة لك  
من الصبر على البحث معي والتنقيب . فقال سأصبر . فقلت . جاء في كتابي « بهجة العلوم » في الفلسفة  
العربية وموازنتها بالعلوم العصرية الذي ألفته وهو الآن تحت الطبع ما يأتي من علم الحساب :

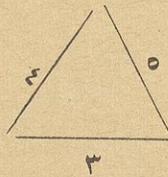
(أولا) إن كل عدد قسم تقسمين ثم زيد عليه أحد القسمين يكون المجموع من ضرب جميع ذلك في  
نفسه مساويا لضرب ذلك العدد قبل الزيادة في تلك الزيادة أربع مرات والقسم الآخر في نفسه ومثاله أن  
تربع  $(7 + 3 + 3)$  فهذا يساوي  $10 \times 3 \times 4$  زائد  $7$  .

(ثانيا) كل عدد قسم بنصفين ثم زيد عليه زيادة ما يكون الحاصل من ضرب ذلك العدد مع الزيادة  
في نفسه وضرب الزيادة في نفسها مجموعا مثلي ما يكون من ضرب نصف العدد مع الزيادة في نفسه وضرب  
نصف العدد في نفسه ، مثال ذلك (١٠) قسمت نصفين ثم زيد عليها اثنان فأقول إن ضرب الإثنى عشر في  
نفسه والاثني عشر في نفسها مجموعا مثلا ما يكون من ضرب ٧ في نفسها و ٥ في نفسها مجموعا .

(ثالثا) كل عددين مجدورين على الولاء إذا ضرب جذر أحدهما في جذر الآخر ويزيد عليه ربع  
تكون الجملة عددا مجدورا ، فإذا ضربنا جذر ٤ في جذر ٩ زدنا ربعا فحذر المجموع ٢٥ فهذه ثلاثة  
مسائل من علم خواص الأعداد ، وهالك ثلاثة أخرى في الهندسة وهي :

(١) زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين .

(٢) مربع وتر الزاوية القائمة في المثلث يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين ، فإذا كان أحد  
الضلعين ٣ والثاني ٤ فإن الضلع المقابل للزاوية القائمة يكون ٥ ومربع ٣ = ٩ ومربع ٤ يساوي ١٦  
ومجموعهما ٢٥ ومربع ٥ يساوي ٢٥ وهو المطلوب وهذه صورته :



(٣) الزاويتان الحادتان من وقوع خط مستقيم على آخر مستقيم على جانب واحد منه قائمتان  
أو تعدلان قائمتين . فهل فهمت أيها الصديق هذه المسائل ؟ فقال إنها في غاية الوضوح ، إن مسألة الزوايا

الثلاث في الثالث تقدمها ٣٢ شكلا حتى أمكن البرهنة عليها ، ومسألة مربع الوتر تقدمها ٤٦ شكلا كذلك ، ومسألة الزاويتين تقدمها للبرهنة عليها ١٢ نظرية في الهندسة . فقلت : حسن جدا . إذن هذه المسائل ليست من البديهيات بل هي نظريات ، ولا جرم أن النظريات ترجع إلى البديهيات في آخر الأمر كقولهم « السكل أعظم من الجزء » وهذه النظريات والأشكال التي تقدمت المسائل المتقدمة قد جعلت لتوصل هذه المسائل إلى البديهيات ، قال نعم : قلت فلنسر في بحثنا على هذا النور العلمي لنصل لما نقصده فنقول : لنتخذ هذه المسائل الهندسية والحسابية الست مقدمات كما جعل الناس القضايا البديهية مقدمات وبنوا عليها علومهم الجزئية كالحساب والهندسة والفلك والجبر وغيرها ، فلنبن نحن علمنا الذي هو سيد العلوم وهو العلم الأعلى وهو أصل العلوم على تلك العلوم الجزئية ( وبعبارة أخرى ) إن علماء الرياضيات والطبيعيين يتخذون المحسوسات والبديهيات أساسا وبنوا عليها علومهم الجزئية التي بها نظمت أمور الحياة في الأرض فلنتخذ نحن نفس علومهم التي برهنوا عليها ونجعلها أساسا للعلم الأعلى وهو العلم الذي به السعادة والحكمة والجمال المطلق ، ذلك لأن الناس مع شيوخ علومهم وكثرتها تراهم دائما في قلق ، وآراؤهم في حيرة واضطراب والناس في حرب وضرب واختلاق واختلاف ، لافرق بين علمهم وجاهلهم وأرباب العلوم ورجال الصناعات سواء في ذلك .

وكل يدعي وصلا ليلي ولي لا تقر لهم بذاكا

فنحن هنا نريد أن نتوصل إلى العلم الذي يربح جميع الطوائف وهو في اليقين كاليقين الذي يعرفونه في العلوم الرياضية ، ومتى عرف الإنسان اليقين سعد السعادة التي لا نهاية لها . فقال صاحبي : إنك لتحدث عن أمر عظيم ذي بال وهو شريف ، وأود أن يمنحك الله قوة الفكر حتى تعرفنا هذا العلم البديع الذي لو تحقق لأعطى النوع الإنساني اطمئنانا والاطمئنان هو النعيم الأكبر في هذه الدنيا . قلت أيها الصديق ستسمع ما يسرك ويكون عندك اليقين ، لننظر في المسائل الحسابية الثلاث وأخواتها الهندسية التي قدمناها هل هي خاصة بالأعداد التي كتبناها وأشكال هندسية خاصة ؟ أم كل قاعدة منها تشمل أعدادا وأشكالا كثيرة . قال بل كل منها تشمل مسائل لا حصر لها هندسة وحسابا ، فالأرقام التي ذكرتها والزاويتان اللتان رسمتهما ماها إلا مثالان لا غير ، فهناك من الزوايا ومن الأرقام ما لا يعدو كله مطبق على هذه القواعد ، قلت : أصبت المرعي ، أرى هذه القواعد السككية مشاهدة بأبصارنا . قال : كلا ، بل نحن نعقلها ببصائرنا والمشاهد بالأبصار :

( أولا ) المعدودات الخارجة والمواد التي دخلها الهندسة في العالم المشاهد كالمنازل والقلاع .

( ثانيا ) الألفاظ الدالة على تلك المعدودات والمواد الخارجة .

( ثالثا ) أرقام الأعداد وأشكال الهندسة المرسومات في الدفاتر والكتب ، فالألفاظ والأرقام تدل على

ما في الخارج ، وما في الخارج صورة لما في الذهن ، أما الذي في أذهاننا فهي القواعد السككية التي لها صور كثيرة في الخارج . فقلت الله أكبر ، وصلنا إلى المقصود وأشرفنا على عالم الجمال والسكال والدوام ، قل لي أيها الحبيب ماذا تقول في هذه القواعد السككية التي في ذهنك أنت في الحساب والهندسة والمنطق والفلك والطبيعة والكيمياء هل اعترها يوما ما تغير أو تبدل من يوم أن عرفتها ، قال كلا هي دائمة في عقلي وهي أشبه بالمخازن ومنها أنصرف في أعمال اليومية . قلت حسن ، أيهما أكثر دواما ، خزائن الذهب والفضة ومخازن الحب ونحوها أم هذه ؟ قال بل هذه هي الدائمة . قلت : ولكن الناس لغفلة أكثرهم لا يفرحون بهذه المخازن التي في أنفسهم وإنما يفرحون بالأمور الجزئية الوقتية ، فتعال معي إلى ما هو أرقى من هذا قل لي

أيها الحبيب : ، الذي أدرك هذه الكليات العلمية . قال نفسى ، قلت : فهل لهذا نظير في العالم المحسوس قال نعم ، العين والصورة الواصلة إليها بضوء الشمس من شجرة الورد مثلا ، فالعين نظير نفسى وقواعد الحساب والمهندسة كصورة شجرة الورد الواصلة إلى عيني من ضوء الشمس . قلت حسن جدا ، فلنرق في البحث إلى درجة أخرى . فقال : إني إلى ذلك وامق . فقلت ما الذي كان السبب الظاهر باذن الخالق في نمو الشجرة . قال الشمس . وما الذي كان السبب أيضا في أنك رأيته ، قال الشمس أيضا . فقلت : إذن الشمس سبب لظهور شجرة الورد وسبب لرؤيتك إياها . قال نعم . قلت حياك الله وبياك : فبين لى ذلك . فقال الشمس تضىء ولها حرارة . والحرارة سبب البخار . وجرى الهواء والبخار يحمله السحاب فالبخار والهواء معا سببهما الظاهري الشمس ، والسحاب يكون مطرا ، والمطر ( بإذن الله ) كان النبات ، وأيضا تقدم في ( سورة يس ) أن الورق المرسوم هناك في داخله مواد ملونة عامة في سواحل هناك ، وهذه المواد الملونة تساعد أضواء الشمس على تناول المواد الفحمية من الهواء فينمو النبات ، ومن النبات شجرة الورد المذكورة ، ثم ضوء الشمس كما أنه ساعد على التغذية هو نفسه الذي رسم صورة شجرة الورد ويوصلها إلى حديقتي فأناراها .

قلت : أحمد الله أنك تتذكر العلوم إجمالا وتفصيلا ، ولم تنس شيئا مما ذكرناه في هذا التفسير .

ثم قلت إذن عندنا :

- ( ١ ) شمس .
- ( ٢ ) وشجرة الورد .
- ( ٣ ) وصورتها المرسومة بالضوء .
- ( ٤ ) وعين الإنسان .
- ( ٥ ) والقواعد العلمية .
- ( ٦ ) ونفوسنا .

فنفسنا كالعين والقواعد العلمية كصورة شجرة الورد التي وصلها الضوء إلى العين فيما تقدم فلم يبق إلا مثال الشمس ومثال نفس شجرة الورد ، فها نحن أولا لدينا ست مقدمات واضحة : أربعة محسوسة واثنان معقولتان ، فلم يبق إلا الاثنان الباقيتان ، فلنبحث عنهما كما يبحث علماء الجبر إذ يتوصلون بالمعلوم للمجهول فنقول : أيها الحبيب ، هل تظن أن ضوء الشمس يوصل لأعيننا صورة شجرة الورد وهي ليست موجودة قال . كلا . فالضوء لا يوصل إلا صورة ما هو موجود فعلا . قلت حسن . أفلمست ترى أن الصورة السكية التي في أذهاننا في سائر العلوم لها أصل وهي صورته ، قال ، إن كليات العلوم أصلها هو الذي نشاهده في الخارج من المعدودات ومن المباني في الهندسة وهكذا . فقلت : هذه جزئيات وتلك كليات وما أبعد الفرق بينهما ، فصورة السكي في عقولنا منقولة عن معنى كلى ، كما أن صورة شجرة الورد الواصلة لعيوننا منقولة عن مادة جزئية ، وليس من المعقول أن السكى يكون عن جزئى ، وما الجزئى إلا مثال له ، فانظر لمثال شجرة الورد والشمس ، وقل لى ، ألسنت ترى أن القواعد التي نحس بها في عقولنا صور لأموور كلية معنوية ثابتة في أنفسها وصانع العالم هو الموجد لها وهو الذى أظهر صورها لعقولنا بلا واسطة كما أن شجرة الورد المذكورة صنعها بوساطة الشمس وأظهرها لعيوننا بوساطتها ، أو لست ترى أيها الحبيب أن مثال الشمس جميل به أمكننا أن نعرف هذه المسألة العظيمة فنقول :

إن الله الذى هو ثابت لا يتغير قد خلق أمورا كلية معنوية وهي أمور روحانية ثابتة لا تتغير وهو نفسه

أهداها لعقولنا فعرقتها وعشنا بها وضرب لها مثلا بالشمس وبالخلوقات الأرضية ، فكأن الشمس سبب في حياة النبات والشجر كانت هي أيضا سببا في رؤيتنا لهما والله تعالى سبب في خلق المعاني الدائمة بدوامه ، الجميلة المستمدة من جماله ، وحين تشاهد أعيننا صور العوالم المشاهدة يكون ذلك سببا في استيقاظ عقولنا واستعدادها إلى انكشاف تلك القضايا الكلية التي يفيضها الله على عقولنا ، وبهذا تنحل مشاكل لا حد لها في عالمنا الأرضي وتظهر حقائق كانت مخبوءة .

فها نحن أولاء قد وصلنا إلى المقصود ، واستنتجنا نتائج باهرة ، وقسنا ما لم نشاهده على ما شاهدناه وأدركنا أن المعاني الكلية التي نحس بها في عقولنا والتي عليها مدار حياتنا هي أصل لكل ما نشاهد في هذه الأرض وهي صنع الله نفسه بلا واسطة وهي دائمة ، وإذا ثبت هذا في علومنا التي ترجع إليها في جميع أحوالنا فليثبت نظيره في كل أمر عام .

فاذا رأينا الوجوه الجميلة ، وإذا سمعنا بالعدل والكمال وما أشبه ذلك فانتمل أن كل جمال وكل عدل مشاهد لنا فهو في هذا العالم ناقص كما قلنا ، إن المعلومات التي نراها جزئية والكل هو العالم المعقول ، فالجمال المعنوي والعدل المعنوي والكمال ؛ كل ذلك له مثل ( بالضم ) عليا في عوالم خارجة عن المادة كما أن للعالم مثلا ( بالضم ) عليا .

وبالجملة فلا علم ولا جمال ولا كمال ولا سعادة إلا فيما هو ثابت ، فأما ما لا ثبات له فإنما هو مذكر بماله كمال . أيها الحبيب : إن ما قلته الآن كله قد أذكرتني به آية في ( سورة النبأ ) وأنا أصلى وقت السحر ليلة الخميس ( ١٩ ) نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهي قوله تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا » فإني حينما كنت أفرؤها ذكرت بالسراج الوهاج وبالسحب والمطر والنبات المذكورات في الآية مسألتنا بمخدا فيرها ، فالنبات أذكرني بالمعلومات الجزئية التي تشبه المسائل الست المتقدمة في الحساب والهندسة . والشمس ذكرتني بصانع تلك الصور الجميلة المعنوية وهو الله تعالى ، والصور المعنوية الروحية توصلنا لها المعلومات الجزئية المشار لها وهي مصنوعة لله الذي يرمز له بالشمس ، وهناك تبدي لي معان كثيرة ، فالجمال والعلم وكل معنى شريف إنما يكون في العالم العقلي ، وما الحس إلا أثر من آثاره .

أليست هذه مسألتنا التي نبرهن عليها الآن ، وما مثل الحرارة المرسل من الشمس إلى ماء البحر التي بها يكون البخار فالسحاب فالمطر إلا كما يفعل العقل الإنساني الذي يعرف الحقائق الخبوءة في العالم العقلي فتنزّل إلى العوالم الأرضية فيدرسها كما تنزلت الحرارة من الشمس فاستخرجت الماء الصافي فصار مطرا هكذا هذه العقول تستخرج بحرارة ذكائها المعارف وتنشرها بين أهل الأرض ، وهذه النظرية الآن بها نعرف أكثر آيات القرآن وأسرارها مثل « أفتأرونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى » إلى قوله « لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى » ، وآيات الله الكبرى هي التي رآها في عوالم غير عالمنا هذا ، وذكر اللات والعزى ضرب مثل للعوالم المادية ، فإن الناس إذا اكتفوا بالعالم المادي صاروا أشبه من بعض الوجوه بالذين يكتفون بالأصنام في العبادة ، ومثل قوله تعالى هنا « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » . فذكر الرحمن إنما يكون بالعلوم الثابتة المعنوية ، فأما عكوف الناس على الأمور المادية فذلك هو البقاء في مربط البهائم وشهواتها ، وهناك تكون الشياطين إذ لا شيطان ولا وسوسة إلا حيث تكون العوالم المادية والوقوف عندها ، وهكذا البيوت ذات السقف المزخرفة والسرر كلها عالم مادي ، ولكن الرحمة الحقيقية في العوالم الحكمية العقلية وهكذا قوله تعالى

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ، فضل الله ورحمته هنا هي العلوم والمعارف ومنها الدين والوحي والذي يجمعونه هو المال . هذا هو القرآن ، واعجب كيف تكون هذه المعاني هي التي يحوم حولها سقراط ، ولقد أوضحت لك أيها الذكي الدلائل التي أجملها هو وفصلتها لك تفصيلا تاما ، ثم لتعجب ولتعجب ألف مرة من دين الإسلام كيف تكون الآيات التي تعد بالمشات في هذه المعاني قد ذكرت في جمهورية أفلاطون ، ألا فلاسمعك بعضها في العلم وفي الجمال والعدالة وهكذا ، إذ ذكر في الكتاب السادس منها أن الفلاسفة وخدمهم هم الذين يقدرون أن يحكموا الأمم وأما الجهلاء فلا ، ومن هم الجهلاء إذن؟ هم التأهون في تعدد الصور أي هم الذين لا يفكرون بمقولهم . وكل مقصودهم هذه الخلوقات المشاهدة لا المعقولة كما قدمنا .

« وانشرع الآن في إيراد ما جاء في جمهورية أفلاطون » من صحيفة ١٥٦ إلى ١٥٨ وهاك نصها بالحرف لواحد .

قال سقراط : لما كان الفلاسفة هم القادرون على إدراك الأبدى غير المنغير ، ولما كان العاجزون عن إدراكه تائهين في بيداء النغير وتعدد الصور ليسوا فلاسفة ، فأى الفريقين يجب أن يحكم ؟

غلوكون : بماذا أوجب إذا رمت أن أنصف القضية ؟

(س) سل نفسك ؟ أى الفريقين قادر على رعاية قوانين الدول وعاداتها . وليكن هؤلاء الحكاميين (غ) أنت مصيب .

(س) أفيمكن أن نسأل : هل الأعمى أو البصير أهل للحكم . ولحفظ كل شئ ؟

(غ) لا محل لهذا التسأل .

(س) أفنظن أن هنالك أقل فرق بين حال العميان . وحال الذين تجردوا كل التجرد من معرفة الأشياء على ما هي في ذاتها . وليس لهم في نفوسهم مثل واضح وليسوا بقادرين أن يتفلسفوا في الحقيقة الكاملة تفرس المصورين فيتخذونها عودجا دائما يتأملونه ويدرسونه بأتم عناية قبلما يقدمون للعمل في النظم الأرضية فيما هو جميل وصالح وعادل ، واضهين هذه الأشياء في محلها اللازم ، ساهرين على حفظها حيث وجدت

(غ) كلاليس بينهم كبير فرق .

(س) أفهؤلاء نعين حكاما ونؤثرهم على العارفين كل شئ معرفة حقيقية وليسوا أقل من إخوانهم اختبارا ، ولا هم دونهم في دوائر الفضل الأخرى .

(غ) من الجبون تولية غيرهم . إذ أنهم لا يمتصون جدارة ، ولأن النقطة التي يتفوقون فيها هي أهم كل شئ .

(س) أفنقدم الآن لبيان كيفية امتلاكهم نوعي الجدارة ؟

(غ) من كل بد .

(س) إذا كان الأمر كذلك وجب أول كل شئ ، أن ننظر نظر ثاقبا في سجيته الخاصة كما قلنا في مسهل بحشا ، وأظن أنا إذا اتفقنا فيها اتماقا كافيا انقما أيضا في إمكان اقتران الجدارتين في الأشخاص أنفسهم وأن أرباب هذه الصفات دون غيرها هم الذين يحكمون الدول ؟

(غ) وكيف ذلك ؟

(س) دعنا نسلم أن أرباب الفطرة الفلسفية هأعمون بكل أنواع المعارف لتتجلى لهم حقيقة هذا لوجود الخالد الذي لا يغيره الزمن ، ولا تسطو عليه عوادي المحن .

- (غ) فلنسلم  
 (س) ولنفرض أيضا أنهم شغفون بحقيقة الوجود الخالد لا يرضون منه بديلا ، ولا أن يحذف فرع من فروعها ، كبيرا كان ذلك الفرع أو صغيرا ، معتبرا أو مستصغرا ، كما أننا ذلك سابقا في كلامنا في أرباب المطامع والحب ؟
- (غ) أنت مصيب .  
 (س) وآآن تتقدم لنرى هل في الإمكان أن نجد صفة ثالثة في خالق الدين تنطبق أوصافنا عليهم ؟  
 (غ) وأية صفة تعنى ؟  
 (س) أعنى صفة الصدق أى العزم على تجنب الكذب في كل صورته ما أمكن ، ومقته مقنا كليا . ومحبة الصدق محبة حقيقية .
- (غ) نعم وأأرجح أننا سنجد فيهم هذه الصفة .  
 (س) ليس الأرجح فقط يا صديقي ، بل إنها ضرورة لامندوحة عنها . فإن من كان فيه شغف فطري بشيء سر بكل ما اقترن بذلك الشيء اقترانا وثيقا .  
 (غ) يقينا .  
 (س) أفجد حليفا ألق بالحكمة من الصدق ؟  
 (غ) مؤكدا لا .  
 (س) أفستطيع فطرة واحدة أن تحب الحكمة وفي الوقت نفسه تحب الكذب ؟  
 (غ) لا يمكن ذلك قطما .  
 (س) فالنتيجة هي أن عاشق المعرفة الحقيقية يصبو إلى الصدق منذ الطفولية صبوا شديدا .  
 (غ) نعم يصبو .  
 (س) ولا رتاب في أن من تنصب رغبته على شيء انصبابا شديدا يضعف ميلها إلى سواه كالماء الذي يتحول عن مجراه .  
 (غ) نعم لاشك في ذلك .  
 (س) فمتى تحول التيار نحو العلم بكل فروعها حامت رغبات الرء حول اللذات العقلية هاجرة اللذات التي محورها الجسد . هذا إذا كانت محبته الحكمة حقيقية لامضطمة .  
 (غ) لا يمكن أن يكون غير ذلك .  
 (س) ثم إن إنسانا كهذا يكون عفيفا لا يسوده الطمع لأنه أبعده أهل الدنيا عن اعتبار الأشياء التي تحمل الرء على الاستماتة في حب المال مهما يكفه الأمر .  
 (غ) يقينا .  
 (س) وهنالك نقطة أخرى ينبغي لك اعتبارها في تمييز السجية الفلسفية عما سواها .  
 (غ) وماهى ؟  
 (س) إنها أخذ التغاضى عن أية وصمة ساقلة ، لأن الصغارة أعظم ضد للنفس المتصفة بالميل التام لامتلاك الحقيقة الإلهية والبشرية في حالى وحدتها وتعميمها في كل أين وآآن .  
 (غ) غاية في التأكيد .  
 (س) أفظن أن النفس المملوءة بالأفكار السامية الممتازة بالتفكير يمكنها أن تعلق شأنها كبيرا على الحياة الحاضرة .

- (غ) كلا ذلك غير ممكن .  
 (س) فإنسان كهذا لا يحسب الموت حادثا مروعا .  
 (غ) مؤكدا أنه لا يحسبه كذلك .  
 (س) فلاحظ للفطرة الجبابة في الفلسفة الصحيحة .  
 (غ) لا أراها تتمكن منها .  
 (س) أفيمكن عقلا مترناحزا من الطمع والسفالة والعجرفة والجبابة أن يكون صعب المراس أو متعديا؟  
 (غ) غير ممكن .  
 (س) فحين تراقب ظاهرات الخلق الفلسفي والخلق غير الفلسفي يجب أن تلاحظ أيضا منذ الصغر هل ذلك العقل لطيف عادل أو شرس ووحشى؟  
 (غ) تماما هكذا .  
 (س) وهناك نقطة أخرى لا إخالك تغفلها .  
 (غ) وما هي ؟  
 (س) أبسرعة يتعلم ذلك العقل أم ببطء ؟ لأنك لا تستطيع أن تتوقع أن يجب أحد عملا ما محبة كاملة وهو يتعاطاه بصعوبة وانزعاج فيكون تعب كثيرا ، ونجاحه قليلا .  
 (غ) كلا ، ذلك مستحيل .  
 (س) وإذا كان حليف النسيان فلم يذكر شيئا مما حصله ، أفلا تفرغ جعبته من المعرفة ؟  
 (غ) تفرغ .  
 (س) أفلا تظن أن جهوده العقيمة تنتهي به إلى كرهه نفسه ووظيفته .  
 (غ) دون شك .  
 (س) فلا تدرجن حليف النسيان في عداد النفوس الفلسفية بل نطلب ذوى الذاكرة الحافظة . انتهى ما أردته من جمهورية أفلاطون « والحمد لله رب العالمين .  
 ولقد شرح قبل ذلك في الكتاب الخامس أن الرجل ذا الفطرة السليمة يعلم أن من شغف بالحب في شرح الشباب يكون شديد الشغف بمحبوبه ، فيمدح في الفتى قصر الأنف لأنه جذاب ، والأنف الأفتى أيضا أمره عجب ومظهره بديع ، والأنف المتوسط يجعل الوجه أكثر اتساقا وجمالا ، ويمدح الأسمر اللون بأنه ذورجولة ، وشقر الألوان بأنهم أعلى الناس ، والعشاق يمدحون ( الأصفر الزيتوني ) .  
 وذلك لأنه انتحل عذرا لما رأى صفرة في وجنة الحبيب ، وبالاختصار يختلق العاشق جميع أنواع الأعدار لمدح جميع صفات محبوبه ، وهكذا المولعون بالخمير فانهم يختلقون جميع الأعدار لرشف أنواع الخمير كلها ، وهكذا عشاق المجد فإهم إذا لم ينالوا إكرام عظماء الرجال اكتفوا بمدح الأقلين ممن لا وزن لهم ، وهذا مجد على أية صورة ، هكذا فلنقل : محب الفلسفة يجب أن يكون عاشقا لها جميعها عاشقا كليا لا جزئيا مولما بجميع العلوم . أما المغرمون بسماع القصص والحكايات والنوادر ، والذين يدخلون كل جوقة لسماع الطرب ، وكأهم أجروا آذانهم للسمع ، فهؤلاء نسميهم فلاسفة زائفين ، والحقيقيون هم الذين ينظرون فيما هو ثابت لا ما هو متغير ، والثابت هي المعاني الكلية المتقدمة التي ترجع لها جميع العلوم .  
 وهنا أخذ يبين أن هناك جمالا وقبجا ، وعدالة وتعديا ، فكل منها واحد في نفسه عقلا ولكنه متعدد المظاهر . ثم قال إن الذين أغرموا بالعلوم كلها ، وأدركوا الحقائق ، وتعلقت نفوسهم بالصور المعنوية التي

سبقت فهؤلاء قسم وهم الفلاسفة الحقيقيون ، أما عشاق النظر الظاهر والصناعة والفنون ورجال العمل فهؤلاء لا نسميهم فلاسفة ؛ فمعاشاق الأصوات الجميلة والأشكال والألوان والصور وكل ما أنتجه الفن ليسوا فلاسفة ، لأنهم لم يعرفوا الجمال المطلق الذي أوضحناه ، وحياء هؤلاء حلم ومنام ، فليسوا أحياء لأنهم خلطوا الحقائق بالصور ، وإذا أردنا أن نتلطف مع هؤلاء جميعا قلنا لهم : « أيها الأحباب إن عقولكم عقول متوسطة ، ذلك لأنها أدركت ما هو متردد بين الوجود والعدم وهي هذه الصور والأشكال لأن وجودها ليس دائما ، فهؤلاء لا ينحسبهم حقهم ، ولا نقول لهم إنكم جهال كالذين يقولون إن المعدوم موجود كلا ؛ فالذين يحكمون بوجود المعدوم جهال ، والذين يعقلون الوجود الدائم هم الفلاسفة ، أما أنتم فلا أنتم فلاسفة ولا أنتم جهال ، بل أنتم ذوو عقول متوسطة بين الجهل والعلم ، لأنكم خلطتم في حكمكم وفرحتم بالأشياء الأرضية من مال ومتاع وجمال وثروة ومنصب ، فلسنا نحكم على عقولكم بالجهل المطبق ولكنكم أشبه بالأطفال تفرحون بالألعاب » .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : الله أكبر ، إني قرأت ذلك في نفس الجمهورية ، ولكن القول هناك مطول ، وهنا ظهرت المعاني ظهورا واضحا ولم يخرج هذا عنها .

الله أكبر : إن هذه المعاني تنطبق على آي القرآن التي تزهد في الدنيا وتحبب في الآخرة ، ولكن وصفك لها على هذا النهج يجعل المسلمين بعد اليوم مغرمين بالعلوم مع شدة حرصهم على نفع الناس فيكون العالم فعلا زاهدا في الدنيا لأنه عرف حقيقتها وهو نفسه ينبوع يقبض الخير على أمته فترتقى بما تسمع من علمه ويكون أشبه بالشمس والناس أشبه بالخلوقات على الأرض فهو كلي أنتج الجزئيات ، فأما أكثر كتب الصوفية ومن على شاكلتهم في القرون المتأخرة فإنهم تصدوا إلى احتقار الدنيا ولصحتهم في الوقت نفسه لم يعيشوا الناس في إدراك العلوم وتنظيم المدن . كلا . فانحطت الأمم الإسلامية ، وأن هذا الشرح الذي أبنته الآن من أعظم النعم ، ولطالما أشكل على ما كنت تقوله لي سابقا من أن القرآن يعوزه في تفسيره علم جميع الحكماء ، فيها أنا ذا الآن أرى أكبر العقول في العالم الإنساني بعد الأنبياء ( وهو عقل سقراط وأفلاطون اللذين قال فيهما الفيلسوف سبنسر الإنجليزي وستلانه التلياني : « إن عقول فلاسفة أوروبا بالنسبة لهؤلاء كالبقرة بالنسبة للفيل » هو الذي يقوم بشرح هذه الآيات وإيضاح بعض حقائقها ) وأن القصور والمعارج المزخرفة والسرير البديعة وحطام الدنيا ، كل هذا لاحظ للإنسان فيه كامل ، والشياطين تلازم المادة ، ورحمة الرحمن تلازم العلوم والمعارف والمعاني التي لا تتغير بتغير الزمن والنفوس تعلقها بإشراق النور الإلهي عليها . ولقد زاد تعجبي ودهشي إذ أرى سقراط يقول : « إن المعاني العقلية التي هي صور وأساس لكل ما على الأرض وغيرها من عالم المادة صنعها الله بنفسه ، والشمس جعلت رمزا لله فصنع الله للمثل العقلية بلا واسطة مثله لنا وقربه لعقولنا كون الشمس سببا ظاهريا لوجود الحوادث التي تقابل تلك المثل ، وهذا وإن كان جميلا فإني مرتقب ما ستقولونه في ( سورة محمد ) صلى الله عليه وسلم ولكن إذا أشرت إليه هنا فإني أكون شاكرا أجل شكر فقلت : إن حاسة اللمس تتصل بمحسوساتها وحاسة الشم كذلك ، وهكذا حاسة الذوق والسمع والبصر ، فكل واحد منها متصل بالعالم الذي يحس به ، فلا ريب أن يكون للعقل اتصال بعالم عقلي أوسع مما لا حصر له من العالم المشاهد ، وهذا البرهان الذي سأوضحه إن شاء الله هناك أقرب إلى اليقين من برهان سقراط . فقال حسن والله لقد انشرح صدري . فقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة .

### اللطيفة الرابعة

(في قوله تعالى : « ادخلوا الجنة أتم وأزواجكم تحبرون ، إلى قوله : منها تأكلون مع قوله تعالى : وهو الذى فى السماء إله إلى قوله : وعنده علم الساعة وإليه ترجعون » مع ملاحظة نظائر هذه الآيات كقوله تعالى فى سورة الزمر : لکن الذين اتقوا ربهم إلى قوله تعالى يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه النخ)

ما أجمل العلم ، وأبهج الحكمة ، وحي نزل ، ودنيا منتظمة ، تسمو بهما العقول ، وترقى بهما النفوس الدنيا عروس زينت للناظرين ، وجنة بهجة للمفكرين ، نحن نعيش فى جو من النور . والكتاب المسطور والعلم المنشور ، فسمحان الله مسدى النعم ، مظهر الحكم ، بارئ النسم ، أليس من عجب أن نسمع فى القرآن وصف الجنة أنها غرف من فوقها غرف مبنية ، ثم نسمع عقبها الكلام على الماء النازل من السماء الذى جرى فى باطن الأرض فخرج ينابيع فوقها فكان النبات المختلف الألوان ، ثم أليس من أعجب العجب أن نرى فى (سورة العاشية) ما يشابه هذا إذ وصفت الجنة بأن فيها عينا جارية ، وسررا ، وأكوابا ، ونمارق ، وزرابى . ثم يعقب ذلك ذكر الإبل كيف خلقت ، والسماء كيف رفعت ، والجبال كيف نصبت ، فهنا أتبع ذكر الجنة بالماء والنبات ، وهناك أتبع بالحيوان والسماء والجبال ، فما هذا العجب ! جنة تذكر فى القرآن ويذكر عقبها هذه العوالم فيقال هناك : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت النخ » ويقال فى آية الزمر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » على سبيل الاستفهام التقريرى وهو أبلغ بما لا حد له من جعل الكلام خبرا أليس هذا من الأسرار المكونة والجواهر الحسنة النظام ، نعم هنا سر وأى سر ، فاعلم أن الإنسان يصبو للجمال والحب ، فالنوع الإنسانى كله يطلب الجمال والجمال مطلوب للحب ، والحب هو المقصد الأسمى لهذا الإنسان ، والأمانة التى فى قلبها الحب يقل فيها الناغون المفكرون ، والحب لا يكون إلا للجمال ، والجليل ما يناسبنا ويوافقنا ، والتقييح ما ينافرنا ، وكل ما يؤلمنا منافر لنا ، والموافق لنا هو الذى جملت صورته الظاهرة فى نظرنا أو صورته الباطنة بعلم أو بشجاعة أو إحسان ، وبالاختصار كل جمال يرجع لأمرين : العلم والقدرة ، فالعالم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والإحسان والشجاعة يرجعان للقدرة ، والجمال الظاهرى فيه نوع من القدرة ، فأما العلم فهو معروف ، ولا جرم أن من يسهمون شجاعة عترة العيسى أو علم الشافعى وأفلاطون وأبى حنيفة ويرون ذوى الجمال يكون حبه على مقدار الأثار الواصلة لقلوبهم من أولئك المحبوبين ونرى الرجل فى حياته بين امرأتين : إحداهما ترضعه ، والأخرى يسكن إليها ، فالأولى أحبها من طريق الإحسان ، والثانية أحبها من طريق الشهوة والجمال ، فما أبدع القدرة ، وما أجمل الحكمة ، يمشى الناس ويموتون وهم موزعون القلوب بين عوامل لا يدرسونها ، وفى سبيل لا يفهمونها ، نهم محمولون على أجنحة لم يروها ، يدارون بقوانين مجهولونها ، ويحكمون بسنن لم يسنوها .

ولا جرم أن الإحسان المذكور والجمال من نوع القوة والقدرة ، ثم إن الإنسان فيما بين المرأتين يعلمه الأستاذون ، ويؤدبه المؤدبون ، وذلك من طريق العلم ويكون حبه للاستاذ على مقدار ما عرف من حكمته وما أدرك من فطنته ، وما استفاد من خبرته ، إذن الحب موزع على إحسان الأم وجمال المرأة وعلم الأستاذة فهنا اجتمع عند أكثر الناس أصول الأسباب التى بها الجمال ، ولا جرم أن هذا تمرين على إدراك الجمال الأسمى . واعلم أن الإنسان مع هذا كله محبوس فى هذه الأرض ، محكوم عليه بالسجن فيها ، مبعده عن

بدائع السموات ونجوم الأرضين ، بل لاقدرة له على معرفة نفس هذه الأرض التي يسكنها إذ يجهل بواطن جبالها وبحارها وأنهارها وجوها بل يجهل خواص جسمه وعجائب روحه ، ومع ذلك له نفس توافقة إلى إدراك ذلك ، فهي تطوف به أعلى العلا ، وتسمو به فوق العرش وتحت الفرش ، نفس وثابة خطواتها تنتهب الفلوات وتقطع السموات مع أنها محبوسة الجسم مكبلة الروح .

نرى الرجل إذا أدخل السجن حن إلى وطنه وأهله ، وكان أمله على مقدار ما عرف من الأهل والأصحاب وما كسب من المال الذي حرمه ، والملك الذي صرف هو عنه ، هكذا نرى نفوسنا تود لو تطير إلى أقاصي السموات أو تخترق تخوم الأرضين ، إذن هي كالمحبوس في سجنه . إذن هي كانت تتمتع تمتعا ما بتلك العوالم وحجزت عنها ، وإلا فلماذا هذا الحين والغرام ، وما هذا التهافت على العوالم ، وما بالناس تراها مذجاءت إلى هذه الأرض تقرأ علم الفلك ، وتخترع المجاهر ( المناظر المعظمة ) وتدرس أقدار النجوم ، وتعدّها وتحسبها ، وتمدأ بعبادها وأفئداتها وتفرح بذلك مع أنها لا طعام فيها ولا شراب ولا ملك ولا مال ، ونسمع أن نجمة من نجوم الجبار وهي الجوزاء قدر الشمس ٢٥ مليون مرة كما تقدم في هذا التفسير ، فنفرح بذلك فرحا شديدا ، ثم نقرأ في الكشاف الحديث أن الحجر التي تشتمل على آلاف الملايين من الكواكب وشمسنا كوكب واحد منها تدور حول نفسها مرة واحدة ( كما تدور أرضنا في اليوم والليل ) في مدة ( ٣٠٠ ) مليون سنة فتدهش قلوبنا وتفرح ويكون ذلك لنا سعادة وذكرى ومسرة وقد اشتركت جميع أهم الأرض في هذه العلوم وكل أمة تسابق أخرى في هذا الكشف ، ولا ريب أن ذلك كله حصل لما نظر العلماء كواكب السماء بمنظار قطره مائة بوصة ، وهامم الآن في أمريكا يصنعون ( تسلكوبا ) قطره مائتا بوصة ، وهذا سيأتي بما لم يحلم به أهل الأرض من العلم قريبا .

ذلك هو طبع الإنسان ، فالعلماء يتسابقون إلى ازدياد العلم غراما وحباً أكثر من تسابق رجال الحرب في إعداد المعدات الحربية وتدمير المدن ، وهاتان الطائفتان مشتركتان في خلاص الناس من الجهل ، فالعلم بعلمه وصانع القنابل بالقليل يخرج الإنسان من هذا الجسم فيرجع إلى عالمه الروحي فيدرس على مقدار طاقته إياك أيها الدكي أن تنكر على هذه الجملة ، فحن الآن في مقام الجمال والحب والعجائب الإلهية ، فهذا القتل بالحرب وإن كان مذموماً ومخربا للأمم ذكرناه من حيث إننا ندرس نفس الوجود ، وصانع العالم حكيم يداوى الداء بالداء ، فالناس أشبه بمن أصابه القولنج فأصيب بالحُمى فكانت سببا في شفاء القولنج ، فهذا خراب للأمم ، ولكن نفس الأشخاص خرجوا من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، نعم أكثرهم يخرجون ناقصين ولكن النظام نجمله « والله بكل شيء محيط » .

إذا عرفت هذا أدركت تفسير هذه الآيات وأمثالها . علم الله تعالى حبس الناس في الأرض وتشوقهم إلى الحرية التامة فانطلق أرواحهم إلى باحاتها فأبرز لهم علمين : علما مسموعا ، وعلما معقولا . أما العلم المسموع فهو ما يذكر في نحو الآيات من الغرف التي من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ومن السرر المرفوعة ، والأكواب الموضوعة ، والمارق المسفوفة ، والزرابي المشوثة . ومثل البناء بلبينات الفضة ولبينات الذهب في الجنة ، وملاط ذلك البناء مسك ، والحصباء لؤلؤ وياقوت ، والتراب زعفران ، وأهم لايموتون ومثل أن الحيمة من لؤلؤة مجوفة ، ومثل أن الجنة فيها مائة درجة ، والدرجة الواحدة تسع العالمين جميعا ، ومثل أن الشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، ومثل إن المرأة من أهل الجنة لو ظهرت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا ولملأها ريحا ، وخمارها خير من الدنيا وما فيها . ومثل أن هناك سوفا للصور يدخل فيه المؤمن فيرجع بالصورة التي يحبها ، فهذه العجائب المسموعة في الكتاب تارة والسنة أخرى ترجع إلى

الجمال وإلى القدرة ، فالشجرة التي يسير في ظلها الراكب مائة عام ترجع للعظمة والعظمة محبوبة ، فهي ترجع للقدرة كما رجعت شجاعة الشجاع إليها ، والغنى محبوب لأنه يملك مالا ، والملك قدرة ، هكذا هذه الشجرة العظيمة ، والحوراء الجميلة ، والقصور البديعة ، فيها الجمال ، وفيها القدرة والعظمة مع الإحسان ، فها هنا اجتمع الجمال والعظمة والإحسان ، وكل هذا محبوب ، فالؤمن إما شهوانى فيكون حبه لنفس الجنة ، وإما حكيم فينتقل هذا الحب لخالق الجمال ويحب الله نفسه ، وإليه الإشارة بحديث الترمذى عن ابن عمر « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا » وأيضا حديث الترمذى ومسلم : « فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » اه .

لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه صاحبي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير ، فقال حسن ما قلت وبديع ما وصفت ، ولكني سألتك سؤالين : الأول أن هذه الأوصاف التي أسندتها للأحاديث فوق طور العقول فما هذه الشجرة التي لا يقطعها الراكب في مائة سنة . إن العقل لا يقبلها قبولاً حسناً . والثاني أنت ذكرت أوصاف الجنة من الأحاديث فأحب أن أسمعها لأعرف روايتها حتى تطمئن النفوس للرواية ، ومن أى الكتب ولا جرم أن هذا المقام كله في الكلام على ما هو مسموع ؛ ومتى تم الكلام عليه نريد أن تشرح العقول شرحاً وافياً كما تشرح المسموع لأن هذا المقام جميل ، فإذا كان مستوفياً شرحه شرح الصدور . فقلت أما كون الشجرة المذكورة وأمثالها لا يقبلها العقل فهذا ممنوع لأن الإمكان لا حصر له . فقال نعم هو لا حصر له ولكن الإمكان شيء وتصور الممكن وقبوله أمر آخر . فقلت : أأست تذكر الكوكب الذي ذكرت لك أنه قدر الشمس (٢٥) مليون مرة . فقال : بماذا يفيدنى هذا . فقلت : هو شمس ، قال نعم . فقلت : إذا قسناها على شمسنا كان لها سيارات . قال نعم . قلت : وأرضنا حول شمسنا ليست أكبر كوكب . قال نعم . قلت : وشجرها نعرفه . ولا جرم أن السيارة يكبر بنسبة شمسها ، فلو أن أرضنا كبرت بالنسبة لكبر الشمس (٢٥) مليون مرة لكانت أشجارها أكبر من حالها الآن (٢٥) مليون مرة ، وأكبر شجرة في أرضنا إذا كبرت (٢٥) مليون مرة احتجنا في قطعها إلى عشرات السنين ، فإذا تذكرنا كوكبا آخر حول الشمس كالمشتري زادت شجراته أضغافاً مضاعفة ، ألا ترى أن المشتري الذي هو أكبر السيارات حول الشمس حجمه قدر حجم الأولى (١٣٠٠) مرة ، فإذا جعلنا أكبر شجرة فيه أكبر من أكبر شجرة في أرضنا (١٣٠٠) مرة ، وجرى الفارس تحت أكبر شجرة أرضية في زمان ما ، وكبرت شجرة المشتري (١٣٠٠) مرة ثم ضربنا هذه في ٢٥ مليوناً فيكون سير الفارس تحتها في سنين كثيرة .

وإذا وجدنا اليوم كوكبا أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة ، فنحن قريباً سنسمع عن كواكب أعظم وعليه تصبح الشجرة المذكورة في الحديث من أصغر الأشجار ، بل إذا تذكرنا أن ذلك الكوكب الذي هو أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة فيه مواضع مسكونة ، كما أن أرضنا فيها مواضع مسكونة لا كلها كانت الشجرة التي فيها لا يقطعها الفارس في ألف سنة لافي مائة فقط ، إذن العلم الحديث اليوم فتح باباً لتصور عقولنا عظمة الله وعظمة الملك ، وإذا كانت العوالم المحسوسة التي ليست بحجة هذه عظمتها وقد وجدنا فيها هذه العظمة فما بالك بعوالم الجنة .

هذا ما أقول لك أيها الذكي جواباً على سؤالك الأول وهو أنك تستبعد ماجاء في وصف الجنات ، أما السؤال الثاني وهو أنك تريد أن تسمع نفس الأحاديث بأسانيدها ؛ فهناك ماجاء في كتاب (تيسير الوصول لجامع الأصول) من المجلد الثالث في صحيحة ٢٣٥ وما بعدها وهذا نصه :



وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أن ما يقل ظرماً في الجنة بدأ ترخرفت له خوافق السموات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطاع فبدأ - واره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس من الجيوم» (أخرجه الترمذى) قوله (الزخرفة) الزينة والزخرف (الذهب) ووافق السماء جوانبها الأربعة وهي جهات الرياح الأربع.

وعن أس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رفعت إلى صدره للنتهى فإذا أربمة أهار نهران ظامران ونهران باطمان. فَمَا الظاهران فليل والفرت. وأما الباطمان فهران في الجنة» أخرجه البخارى.

وعن ردة رضى الله عنه قال: «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل في الجنة خيل؟ قال إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء. أن تعمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء. تطير بك في الجنة حيث شئت إلا كان. فقال آخر: هل في الجنة من إبل؟ قال إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما شئت نفسك ولدت عينك» (أخرجه الترمذى).

وعن علي رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة الجنة للجنح العيين يعنين بأصوات لم يسمع الخلاق بمثلهما، يقلن: نحن الخائبات فلا نبيد، ونحن الباعثات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط. طوى لمن كان لنا وكناله» (أخرجه الترمذى).

قوله (المرور) جمع حورا، وهي الزنيدة يباصر العين الشديدة سوادها (والعيناء) واحدة العين وهي الواسعة العين، وقوله لا نبيد: أى لا يهلك ولا يتلف.

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح المال فتحثوا في ثيابهم ووجوههم فيزدادوا<sup>(١)</sup> حسنا وجمالا. فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقولون: والله لقد ازدادتم حسنا وجمالا، فيقولون: وأسم الله لقد ازدادتم بعدنا حسنا وجمالا» (أخرجه مسلم).

وعن علي رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لسوقا ما فيها شرا، ولا بيع إلا العور من أرجال والنساء، فإذا انتهى لرجل صورة دخل فيها» (أخرجه الترمذى) انتهى الفصل الأول

## الفصل الثمانى

### (في ذكر أهل الجنة)

عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكواكب في السماء» (أخرجه الشيخان).

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكواكب الدرر في الغار في أمتق من الشرق إلى الغرب لفاضل ما بينهم، قالوا يارسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلى والذي فى بيده رحال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (أخرجه الشيخان). وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على شدة كوكب درى في السماء، إضافة لا يبولون

(١) هكذا في النسخ، والله «فيزدادون».

ولا يتعوطون ولا يفلون ولا يمتخطون أمشاطهم للذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم أدلوه (١) . الجوج (٢)  
عود الطيب ، أزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء ،  
(أخرجه الشيخان والترمذي) قوله الألو ، والألجوج من أسماء العود الذي يتخبر به ، ومن أسمته  
السكباء (٣) .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يأكلون فيما يشربون  
ولا يتفلون ولا يبولون ولا يغفلون ولا يمتخطون ، قيل فما بال الظمام . قال جشاء ورشح كرشح المسك  
ياهمون النسبج والتحميد كما تاهمون النفس » (أخرجه مسلم وأبو داود)

وعن الحدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات من أهل الجنة من  
صغير أو كبير يدخلون الجنة بنى ثلاثين لا يزيدون عليها أبدا . وكذلك أهل الدار » (أخرجه الترمذي) .  
وعن أن هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم  
ولا تبلى ثيابهم » أخرجه الترمذي .

وزاد في رواية : « عليهم التيجان ، وإن لؤلؤة منها لتضى ما بين المشرق والمغرب » . قوله الجرد جمع  
أجرد وهو الذى لا شعر عليه ، والسكجيل هو الذى ترى أجنافه كأنها مكحولة من غير كحل .  
وعن أنى رزين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يكون لأهل الجنة ولد »  
(أخرجه الترمذي) .

وزاد في رواية عن الحدرى : « إن اشتبه الولد كان حمله ووضعته وسنه في ساعة واحدة » قال بعضهم  
ولكن لا يشبهى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عطى المؤمن في الجنة قوة كذا  
وكذا من الجماع . قيل يا رسول الله أو يطبق ذلك . قال يعطى قوة مائة » (أخرجه الترمذي) .

وعن الحدرى رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة  
واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يتكفى أحدكم خبزته في السفر تزل لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود فقال  
بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ، قال بلى ، قال تكون الأرض خبزة  
واحدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلي ثم ضحك حتى برت نواجذه  
ثم قال لا أخبرك بإدامهم . قال بلى قال بالام ونون . قال وما هذا ! قال نور نون بأكل من زائدة كيرهما يعون  
ألما » (أخرجه الشيخان) قوله يتكفأها أى يقلها ويميلها ، والجبار من أسماء الله تعالى ، والنزل ما يعد للسياف  
من طعام وشرب ، والنواجذ الأنياب ، وبالام النور كما فسره في من الحديث ، ولعل للفظه عبرانية ،  
والنون الحوت وهو عربى .

وعن الحدرى رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة منزلة الذى  
له ثمانون ألف خادم ، واثمان وسعون زوجة ، وتنسب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجارية  
بلى صعاء » (أخرجه الترمذي) . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه ونعمه وسروره مسرة ألف عام ، وأكرمهم  
على الله من ينظر إلى وجهه غيرة رعنية . ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : وجوه وسوء ماخرة إلى ربها ناظرة »  
(أخرجه الترمذي) .

وعن المغيرة بن شعبه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سأل موسى عليه السلام ربه تعالى : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يحىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : أدخل الجنة فيقول : أى رب وكيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال : أما ترى أن يكون لك مثل ملك (١) ملك (٢) من ملوك الدنيا ، فيقول : رب رضيت ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة : رضيت رب ، فيقول . هذا لك وعشرة أمثاله ؛ ولك ما اشتيت نفسك ، ولدت عينك ، فيقول : رب رضيت ، فقال : فأعلام منزلة ، قال أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » (أخرجه مسلم والترمذى) .  
وقوله أخذوا أخذاتهم أى نزلوا منازلهم المختصة بهم .

وعن الحدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ، فيقولون : وما لا نرضى ياربنا ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (أخرجه الشيخان والترمذى) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه » (أخرجه الترمذى) .

وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأهل الجنة ؛ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر » (أخرجه الشيخان) .

ولأبى داود من رواية حارثة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجمظرى » . قال والجواظ الغليظ الفظ . قات الجواظ المنوع ، وقيل السمين المختال فى مشيته ، وقيل القصير البطين ، والجمظرى الفظ الغليظ والله أعلم اهـ .

### رؤية الله تعالى

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه . قال : « نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر ، فقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » أخرجه الحجة إلا النسائي .

وعن صهيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة ، ألم تنجنا من النار . قال فيكشف

(١) بضم فسكون . (٢) بفتح فسكون .

الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أخرجه مسلم والترمذى .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك تعالى قال نور إنى أراه » ( أخرجه مسلم والترمذى ) .

وعن مسروق قال « قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت . أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً » ، ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحى فقد كذب ثم قرأت « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » الآية ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين » ( أخرجه الشيخان والترمذى ) انتهى الفصل الثانى ، وبهذا تم الكلام على العلم المسموع من الكتاب والسنة .

### الكلام على العلم المعقول

لقد عرفت أيها الذكى العلوم المسموعة فى هذا المقام من الكتاب والسنة ، وأدركت أن العلوم التى ملأت الدنيا كلها إلا بلاد الإسلام قربت لنا تصور النبوة المحمدية وأصبحنا نشاهد نجومها أقدارها قربت لعقولنا تلك الصور الجميلة فى الجنة ؛ فهناك أحدثك حديثاً عجيباً فى القرآن نفسه وفى الدنيا : تقدم فى هذا المقال أنى ذكرت لك أن آيات النبات والماء فى هذه الصورة ذكرت عقب ذكر الجنة ، وآيات الإبل والسماء والجبال فى سورة الغاشية ذكرت بعد ذكر الجنة ، فما الحكمة فى ذلك يا ترى ؟ الحكمة فى ذلك أوضحتها العلوم التى فى هذا التفسير ، اللهم إنى أحمدك حمداً كثيراً ، أحمدك على نعم العلم ونعم الحكمة ، وهل كان يدور بخلدى أيام شبابه وأنا جاهل جد جاهل ، أتلمس العلم فى النهر وفى الحقل وفى النجم ، إننا منصل الآن إلى أبداع الجمال فى هذا التفسير ، وإننا ندرك جنة تتمتع بها عقولنا ونحن أحياء فى الدنيا قبل أن نموت ونرى الجنة الموصوفة فى الأحاديث الشريفة ، بل هل كان يخطر لى أن السعادة الحقيقية فى جنات العلوم والمعارف التى ندركها فى هذه الحياة ، وأنه لولا نكبات الحياة ومصائبها لكان جننا الآن آخذنا بقوانا وعقولنا ولعلنا أن حب الولد لأمه ، وحب الشاب لمن أعزم بحمايتها فتزوجها ليس شيئاً مذكورا بالنسبة للحب الذى يترتب على الجمال العلمى والحب العظيم هو الذى يذهب الحزن والغم ويجعل النفس فى السعادة التى لا سعادة فوقها ، ولكن هذا الحب الآن مخبوء عند العلماء ومحسوس به فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم أحوال هذه الأرض وعوارضها رحمة بهم ليزدادوا علماً .

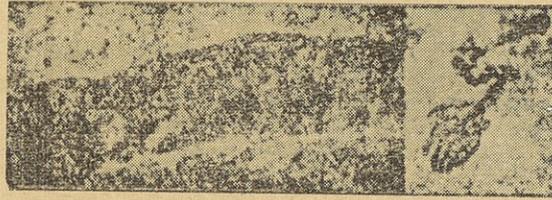
أقول : فهل كان يخطر لى زمن الشباب أن عقولنا فيها حساب الجندر والتربيع ، وأن نفس الجندر والتربيع الجميلين عند عقولنا نراهما فى نفس المادة كما تراه فى ( سورة الرعد ) عند آية « وكل شئ عنده بمقدار » وفى مواضع أخرى هناك إذ تبين أن الضوء والجادية جرى حسابها على الجندر والتربيع ، وترى الحجر إذا قذفناه فى البئر جرى بسرعة على تلك القاعدة فلا خطأ فيها ، وهذا أمر عجب أن تكون هذه الأحوال الطبيعية على هذا القانون العجيب ، أو كان عقلى يتصور أن للنمل حجرات منظمات كحجرات فى أعظم قلعة ، وأن لكل حجرة سكانا ، فمنهم الجند ، ومنهم الأظفار وهكذا ( انظر ذلك كله فى سورة طه وسورة النمل مرسوماً )

أم كان يخيل لي وأنا في الشباب أن يكون بعض الطيور خياطا ، ومنها حائك ، وبعض اسود يغزل ، وبعض الزنابير يصنع الورق ، وأن الخلد يعرف أحوال الطقس . وأن السجل مهندس ، وأن اللقلق يحكم بالمشاورة ، وأن السكب يعرف تعاطي المسهلات في الطب ، وأن الخنزير يحرق الأرض ، وأن العلق في بطن الأرض يباغ في الفدان الواحد آلافا وهو ينفع لتسميدها ولحرثها قبل أن يحرقها الإنسان ، وأن للسرطان درعا ، أقول . هل كانت هذه المعجائب تدور بخلدى وأنا أطوف على شواطئ الأنهار وفي الحقول أتلس الحفائقي . أم كان يخلج بفكرى أن فار الجسل يبنى بناء متقنا ، ويحفر أنية ليجرى الماء فيها حتى قلده الإنسان ، إن أكثر ما ذكرته هنا ملخص مما تقدم في ( سورة طه ) وأزيد مسألة حفر الحفادق أيضا هنا مجاء ، في إحدى المجلات العلمية ، فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي مانصه :

### عجائب المخلوقات

#### الحيوانات التي تحفر الحفادق

إن حفر الحفادق خاصة يشترك فيها كثير من الحيوانات على اختلاف درجاتها من أخط الأنواع إلى أرقاها فبين ذوات الثدي منها عدة أمثلة على ذلك ، وأشهر الأنواع من هذا القبيل ( الخلد ) وهذه صورته ( انظر شكل ٢١ ) .



( شكل ٢١ - خلد في حفرة وعلى يمين الصورة هيكل يده التي يحفر بها خادقه )

وقد منح الله هذا الحيوان يدين مساحتين بأظافر قوية تمكنه من حفر الأرض بسرعة عظيمة جدا ، حتى أنك لو أخرجت خلدا من حفرة ووضعت على سطح الأرض وجدت أنه بعد هنيهة وحيزة جدا قد احتفر حفرة واخفى عن بصرك . ولا يكفى هذا الحيوان بحفر نفق بسيط تحت الأرض بل هو يتفنن في عمله هذا ويشعب من نفقه الأصلي أنفاقا في غاية البساطة ، ثم إن الخلد يحفر أخرى عديدة على شكل عربب تعد بجانبها صفوف الخندق والأنفاق التي يحفرها الجنود في ساحات في غاية البساطة ثم فضلا عن هذه الأنفاق غرفة مستديرة بجعلها مركز إقامته العاى ، ويبلغ طرها بين ثمانى وعشرة سنتيمترات ، ويحفر حول هذه الغرفة المستديرة نفقين بشكل دائرتين الواحدة على مستوى الغرفة والثانية فرقه ، والغرفة متصلة بهذين النفقين بواسطة عدة ممر حتى يجر لنفسه مفذما من أى جهة يداهمه الخطر ؛ وفي داخل الغرفة شبه سرير من الأراق واقش ليام عليه الخلد ، والتملب أيضا يسمى جزءا من جبانة داخل الأرض لاسيا في النهار ، وهو في الداب يستولى على حفرة حيوان آخر بدلا من أن يحفر حفرة خاصة له ، وحنرفته عبارة عن رعدت عميقة تنهى حميمها في غرفة كبيرة لا يقل عمقها عن ثلاثة أمتار ، وهذه الردهات ، متصلة بعضها مع بعض بممار عديدة .

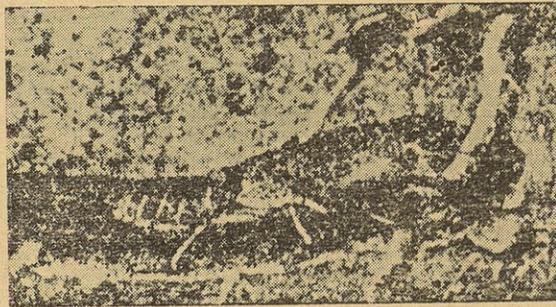
وأشد ذرات الثدي مهارة في حفر الحفادق وأكثرها توسعا فيها حيوان بين ابن عرس وادب فاتح اللون في الأعلى وقائه في الأسفل يسمى عماق الأرض النفه وهو من الحيوانات الليلية وصرف الشنا . وما فا

له برائن قوية يحفر بها الأرض بسرعة غريبة ، وكيفية ذلك أنه يبش الأرض بيديه القويين ، فاذا تراكم التراب استعمل يديه الخفيفتين لدفعه إلى لوراء ، ثم يرجع إلى خف بين آن وآخر . ويجر بحسبه التراب المتركم إلى خارج الحفرة . ولفق هذا الحيوان أبواب عديدة يبعد الواحد عن الآخر نحو ٣٠ قدما وكل نفق من أنفاقه يبلغ طوله بين السبعة والعشرة أمتار وتنتهي في غرفة كبيرة على عمق متر أو مترين تحت الأرض يجعلها مقرا العادي .

هذه بعض الأمثلة من الحيوانات الثديية التي تحفر الأرض ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة يضيق عن ذكرها المقام ، والأغرب من ذلك أن بعض الطيور (والطيور عشية الهواء الطلق عادة) تحفر مثل هذه الأنفاق والحفر ، فمن أنواع الطيور الحطاف نوع يحفر أنفاقا على شاطئ البحر : يبلغ طولها مترا ونصف متر ويضع عشه في داخلها ، ولاشك أن مثل هذا الأمر من الغرابة بمكان ، لاسيما إذا أمعنا النظر في تركيب هذا الطير ونعنافة جسمه ، وهناك طائر آخر يسميه الأسبان (البناء الصغير) يضع وكره في حفرة عميقة طولها متران أو أكثر ، ومثله طير أزرق صغير يسمى عند الفرنسيين (الحطاف السيام) يصطادونه من البحيرات حيث يعيش في وكره منبذان .

أما في عالم الحشرات فإن مهارة بعض العناكب في حفر الأنفاق غريبة جدا يقف عندها المرء وقد أخذت منه الدهشة كل مأخذ . وهي على أنواع تحفر أنفاقا بدماليز مختلفة ، ومن أعرب أنواع العناكب نوع يسمى وكرا غريبيا في هندته وهو عبارة عن حفرة عميقة مبطنة بنسيج حريري خشية أن تهبط جدرانها . وفوقها باب بقي من المطر ومن الضيوف الثقلاء ، وهذا النوع ينتخب عادة لحمته مكانا محوطا بالحشائش حتى لا يظهر بيته للعادي والرائح ، أما الباب فإنه جميل الهندسة كامل الصورة يشبه الأبواب التي تقفل وحدها بزنبك لمروية مفاصله ، ولهذا العناكب مقدرة كبيرة للدفاع عن أوكرها ، فإداسعى أحد في فتح الباب تشبثت به السمكيت من الداخل حتى نه يلزم قوه كبيرة لفتحه .

وهناك حشرات أخرى كثيرة ، منها نوع من الجنادب نشرنا صورته هنا وهو يقطع جذور الشجر والنبات ويتغذى منها (انظر شكل ٢٢) ولا ينبغي أن يبرح من ذهننا مهارة النمل في هذا الفن فإنها أشهر من أن تحتاج إلى التدكير .



(شكل ٢٢ - نوع من الجنادب في حفرة يقطع جذور الأشجار)

## قوة الحشرات

إذا درسنا قوة الحيوانات بالنسبة إلى حجم جسمها وجدنا أن الإنسان من أضعفها وأخفها ، فإن المحار أو البطليوس مثلاً يحمل ثقل ٣٧ رطلاً ، ومن السرطان أنواع يحمل الواحد منها ٤٩٢ مرة وزنه وعلى هذا المعدل كان يجب أن يحمل الإنسان المعتدل الجسم ٧٣٨٠٠ رطل .  
وفي مقدمة الذين درسوا مقدرة الحشرات على حمل الأثقال (فليكس فلاتو) العالم البلجيكي ، ومما قاله إن حمل الذبابة لعود كبريت صغير بأرجلها يعادل رفع الإنسان برجله لعمود خشب طوله ١٤ قدماً ومساحته عند قطعه عمودياً قدماً ٦ بوصات مربعة .

ومن البق نوع يجير ست عيدان كبريت وهي تعادل للرجل (٣٣٠) عموداً من الخشب بحجمه ، وطريقة العالم المتقدم في درس قوة الحشرات أنه يربطها إلى ميزان دقيق ثم يخزها في الماء ثمشى تتحرك عقرب متصلة بالميزان فتدل على قوة تلك الحشرة . انتهى ما أردته من مجلة الهلال والحمد لله رب العالمين .

هذه بعض العجائب التي عرفها عقل الإنسان وملىء بها هذا التفسير . وهناك عجائب وعجائب في سورة المؤمنين عند آية « وما كنا عن الخلق غافلين » من تلك الحشرات والحيوانات التي كان حفظها بسبب مشاكلها حولها . وهي مرسومة هناك مصورة . وكذلك ترى في سورة الفرقان كيف كان للمكبوت جهاز لغزله ظاهر واضح . وكيف كان لبعض الحشرات جهاز أشبه بجهاز الطبيب الذي به يضع الحقنة في جسم المريض ؛ وهذا الجهاز عملاً سماه بهيئة عجيبة . وكيف كان للحشرات آلات للحرب وآلات لجلب المفعلة تراها موضحة هناك مرسومة ، وهكذا في (سورة النمل) من عجائبه ومزارعه المنظمة المتقنة . وكذلك دابة الأرض المرسومة في (سورة سبأ) وهكذا ترى في أول الروم عجائب الحشرات وألوانها التي خلقت لحفظها وحفظ ماملها اقتصاداً في الحلقة وإبداعاً في النظام ، وهكذا ترى في سورة السجدة بعد سورة لقمان كيف كان نظام النخل من داخله غير نظام الأشجار وحكمة ذلك . ثم ترى في (سورة يس) عند آية « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » تلك الأوراق المرسومة التي كونت من حجرات منظمت ذوات سوائل فيها المادة الخضراء . وكيف كان ذلك سبباً في أن الأوراق تجتذب المادة الكربونية المغذية لها من الهواء . وكيف كانت الورقة قد تتسع لآلاف وآلاف في آلاف من هذه الحجرات الدقيقة الصنع . هذا من عجائب النبات وغيره من عجائب الحيوان يفهمنا لماذا يذكر الله في (سورة الغاشية) الإبل ونحوها بعد ذكر الجنة . ولماذا يذكر الماء والنبات في هذه السورة بعد ذكرها أيضاً ليفتح لنا باب التفكير في العجائب لنفرح بصانعها في هذه الحياة ونرى حقائق الجمال . وبهذا ندرك لماذا يقول الإمام الغزالي فيما قلناه في (سورة فاطر) : إن السعادة في معرفة العجائب وهؤلاء هم الذين يرون ربهم أكثر من غيرهم ، ونعمهم قول (إخوان الصفاء) فيما قدمناه في أول سورة الصافات . « إن معرفة العجائب جزاء المحسنين » اه

فلما كتبت ذلك قال صاحبي : هذا جميل جداً جميل . ولاكني أريد أن تشرح لي جملة لم أفهمها؟ فقلت وماهي؟ فقال : لقد ذكرت الجذر والتربيع المتقدم في (سورة الرعد) وأنا الآن أريد مثلاً واحداً تراه فطرنا بعلم الحساب ونرى له نظيراً في علم النبات مثلاً حتى يكون ذلك نبزاساً نعرف به ملاءمة فطرنا لهذه العوالم من حيث الحساب وان تقدم من هذا كثير ولاكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

فقلت : انظر هذا العدد ٣٧ فهذا العدد إذا قسمنا عليه عدد ١١١ كان الخارج ٣ وإذا قسمنا عليه

٢٢٢ كان الخارج ٦ أو قسمنا عليه ٣٣٣ يكون الخارج ٩ أو قسمنا عليه ٤٤٤ كان الباقي ١٢ أو قسمنا عليه ٥٥٥ كان الخارج ١٥ أو قسمنا عليه ٦٦٦ كان الخارج ١٨ أو قسمنا عليه ٧٧٧ كان الخارج ٢١ .

فقال صاحبي : هذا عجب حقا ؟ لأن ضرب ٢١ في ٣٧ يساوي ٧٧٧ وهكذا البواقي . عجب إذن الخارج يكون مساويا لجمع المقسوم فهو ٣ في الأولى و ٦ في الثانية و ٩ في الثالثة وهكذا . فقلت له : لقد فهمت ، فهذه الأعداد من واحد إلى ٩ إذا قسمت على ٣٧ كانت بهذه المثابة : فهذه المسألة في عقولنا عجيبة يدهش العقل لها وتطرب النفس ، فإذا رأينا أن العناصر مرتبة ترتيبا أبديع وأجمل من هذا فانظره في سورة العنكبوت ولها حساب مبني على التوالي الهندسية والنسبة العددية بحيث يكون العنصر مع ما فوقه وما تحته جاريا على النسبة الهندسية ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ ويكون مع ما قبله وما بعده جاريا على التوالي العددية ٢ - ٤ - ٦ وهكذا إذا رأينا ما تركب من العناصر له أمثال هذا ونظيره فإننا ندخل إذ ذاك في جنة العرفان التي لاحد لها ولعلك تتذكر ما تقدم في (سورة الحجر) عند قوله تعالى « وأنبئنا فيها من كل شيء موزون » وتتذكر صور أنواع من النبات ونسبة عدد الدوائر الحلزونية إلى عدد أوراق تلك الدوائر وملاحظة المناسبات المدهشة بين النبات الواحد وما قبله وما بعده في صفه الأفقي وفي صفه الرأسي ، وأن الأوراق في جميع الأشجار بينها نسب مدهشة يحار العقل فيها « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ها أنت ذا أيها الذكي قرأت الجمال المسموع ، وأدركت المعقول ، ووازنت بينهما : أفلا يكون ذلك حصنا لبصيرتك تلجأ إليه ، وملجأ يحفظك ، وملاذا وسعادة ، أولا تتذكر معي ما قلته في أول هذا المقال من أن الرجل بين امرأتين إحداهما ترضعه ، والأخرى يسكن إليها ، ولا جرم أن الأم والزوجة كلاهما مخلوقتان مسخرتان لحياة تنقضي سريعا ؛ فالرحمة في الأولى ، والشهوة في الثانية وضعتا فيهما لغاية نافعة وهي المحافظة على حياة المولود وعلى نظام الأسرة ، ورباط الزوجية ، وحسن المعاشرة ، فيها إذن محدودتان ، والمحدود لا يصلح للدوام وإنما يصلح للدوام ما كان من العناية الدائمة رأسا ، وهل ذلك غير العلم بالعجائب ، إذن ظهر لنا السر في آية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فعبير بأنا نسكن إليها ، وقال في سورة أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فالإنسان قد يسكن في منزله وهو غير آمن ولا مطمئن ونهاية السعادة السلامة من المخاوف ، ولذلك نسمع الله تعالى يقول « تخمهم يوم يلقونه سلام » وجاء في القرآن أيضا « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » إذن التعبير بالسكون إلى الزوجة غير التعبير بالاطمئنان بذكر الله ، فالإنسان يكدر ويجد في حقله أو تجارته أو صناعته أو سياسته ويحتمل ما يحتمل من التعب والتعب والألم ، فلا بد له من وقت فيه يتخلى عن هذه الأعمال والهموم لتستجم قواه ، وهل هذا إلا الائتناس بالزوجة والراحة معها ، ولكن هذه الراحة غير تامة « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

وأيا الإنسان وإن سكن إلى زوجته من هموم الأعمال النهارية ، فليس ذلك السكون تاما من كل وجه فهل في قدرتها أن تحل له مشكلات هذا الوجود والمسائل المشككة ؛ كأن تحدته نفسه بأن الحياة شاقة ، والدنيا كلها هموم وأحزان ، فلم خلق هذا العالم ؟ ولم كثر الظلم فيه ؟ ولم كثر المرض والحرب ؟ ولم تر الحيوانات يأكل بعضها بعضا ؟ ولم يعذبنا الله وهو قادر على كل شيء ، بل أعمالنا كلها هو الذي قدرها ؟ فهذه الشكوك والأوهام لا طاقة للمرأة بحلها . فهذا هو بعض السر في التعبير بالسكون إلى الزوجة دون الاطمئنان . وفي التعبير بالاطمئنان بذكر الله وعدم الاقتصار على السكون « وبعبارة أخرى » إن قراءة العلوم والعجائب مثل التي في هذا التفسير تورث الاطمئنان وسكون النفس لا مجرد سكونها إلى الزوجة بل تسكن إلى الحقائق وتطمئن .

فلما سمع صاحبي هذا . قال الحمد لله رب العالمين ؛ أنا الآن عرفت سر ذكر البيات والحيوان بعد ذكر الجنة ، وعرفت الجنة الحسية الجميلة ، والجنة العرفانية البديعة ، وأن هذه مقدمة للقاء الله ، وأن هذه الطائفة أعلى العالمين ؛ وهم المقربون ، فقلت الحمد لله رب العالمين ، انتهى صباح يوم الاثنين أول سبتمبر سنة ١٩٣٠ م .

## الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات

### وحوادث الأيام

بسم الله الرحمن الرحيم

أكتب هذا قبيل الفجر ليلة عيد الأضحى في عام ١٣٤٩ هجرية ، وأحمد الله عز وجل أن أراني بفضلته بعض الأسباب وبعض النتائج لما أصاب أمم الإسلام من المحن والزياب ، وما أحاط بهم من النذر ، وما حل بساحاتهم من تعذيب أمم الفرنجة لهم وظلمهم وعسفهم ، وفكسهم بأجسامهم وأعراضهم ، واغتصابهم ديارهم وأموالهم وأرضالم يطووها .

أكتب هذا وقد أصلى الطليان إخواننا الطرابلسيين منذ أيام نارا حامية ، وفكسوا بهم فتكا ذريعا وهم آمنون في ديارهم ، وهتكوا أعراض ( ٧٠ ) أسرة وشتوا شملهم وأخذوا ( ١٥ ) من قوادهم في طياراتهم فألقوهم من أعلى الجو ليتسلوا بذلك ليفرحوا بما يرون من تهشيم وتكسير وموت عاجل ، وأجلوا ثمانين ألفا من الطيل الأخضر وأزلوهم في أرض فقراء لا أنيس بها ولا جليس ، وأخذوا منهم أناسا وضموهم في سلاسل من حديد ورموا بهم في البحر فالتقطهم جنود المصريين ودفنوهم ، وأذلوا آخرين فهاموا على وجوههم في الصحراء ، كل ذلك ذكر في الجرائد أوس وتلى في جلسة علنية كنت حاضرها وأرسل به احتجاج لجميع المأم قاطبة .

دعاني ذلك أن أفكر الليلة في أمر الأمة المحمدية الحاضرة ، وما ساقته الأقدار إليها ، وكيف نشطت المسيحية ككرة أخرى لتقتيل المسلمين وذبحهم وإهلاكهم وإشهارهم حروبا صليبية أخرى ، ولقد شرح الله صدرى الليلة وهداني ووقفني أن أكتب ماجاش بخاطري ليكون مما ينظر فيه حكماء الإسلام بفكر ناقب عسى أن يهتدوا لإسعاد هذه الأمم الإسلامية في أيام حياتي وبعد موتي ، وبالله التوفيق .

كان العرب قبل الإسلام أمما متفرقة جاهلة خاطئة فأسلمت :

- (١) ( ففقرت ) لها ذنوبها السابقة واستأنفوا حياة جديدة .
- (٢) ( ففصلت ) لهم آيات القرآن تفصيلا وعرفوا الحقائق فصار أمرهم .
- (٣) ( شوري ) بينهم ، ثم انقلبت الشورى إلى استبداد والخلافة إلى ملك عضوض ومالوا إلى .
- (٤) ( زخرف ) الحياة الدنيا . فهاهم أولاء أنذرهم الله البطشة الكبرى وأخذ ينتقم منهم وأرسل لهم
- (٥) ( الدخان ) في الجو لما جاءت الحرب الكبرى ، فإن أوروبا كلها اصطدمت فيها بالقتال ، وازدادت العداوة والبغضاء ، ولكن كانت النتيجة تقسيم بلاد الإسلام فأصبحت أمة :

(٦) ( جائية ) لأمم الغرب . ولما كان من عادة الله عز وجل أن يجعل بعد الضعة رفعة ، وبعد النذل عزا ، وبعد العناء راحة ، وبعد العسر يسرا ، أخذت أمم الشرق جميعها تستعد للوثبة ، وتجد لإرجاع الوحدة ، فهاهم أولاء الأمراء الإسلاميون في العراق وشرق الأردن ونجد والحجاز واليمن قد اضمحلت

بينهم العداوات القديمة وأخذوا يسترجعون لهم مجدا جديدا وبؤسسون هيكل لوحدة الإسلامية العربية ،  
ومثلهم أهل الهند والأفغان ومن نحا نحوهم ، فلا بد من جهاد هذه الأمم كلها لاسترجاع مجدها ووحدها  
فقد ظهر فيهم مندرون وهداة ، ذاكرون « أخاصاد إذ أنذر قومه » .

(٧) (بالأحقاف) « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » ولا بد من النصر والغلبة في هذا .

(٨) (القتال) الأدبي والحربي ، ثم :

(٩) (الفتح) والنصر ، ثم يكون أمم الإسلام ، بل أمم الشرق بعد ذلك أمما متضامنة إجابة لقول ربهم

في سورة الحجرات « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

### الخلافة الإسلامية

وسينظر أمراء الإسلام في هذه الحملات الصليبية التي تشنها أوروبا علينا ، ويفكرون في أمر الخلافة  
الإسلامية فيجدونها في العصور السالفة كانت على غير أساس ، فلذلك خر على المسلمين سقنها من فوقهم  
وأناهم العذاب من حيث لا يشعرون . فبالت شعري أى خلافة كانت هذه الخلافة ، خلافة لفظية لامعنوية  
فأى خلافة صادقة بعد الخلفاء الراشدين ؛ إن هي بعدهم إلا ملك عضوض ، أخلافة الأمويين ، أم خلافة  
العباسيين بدمشق وبغداد ، أم خلافة الفاطميين بمصر ، أم خلافة الأمويين بالأندلس ؟ وكيف تتعدد  
الخلافة ، كيف يقوم مهدي وراء مهدي ، وكيف يرث الابن أباه فيها : إن يرث الخلافة يرث خاطيء  
فكرة جاهلية ، لقد فرق المسلمين أحاديث موضوعة تفرقوا بها شيعا وذاق بعض بأس بعض ، واقفوا تلك  
الموضوعات بالتقليد ، ونسى كثير منهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

### لجنة الخلافة في الهند

ومن أمارات اقتراب أيام السعادة أن مسلمي الهند شككوا جماعة خاصة بالخلافة لارجاع مجدها ، إن  
المسلمين لا بد لهم من الخلافة ليرجموا لعصر النبوة ، لنسكن على نهج أصحابه صلى الله عليه وسلم لترك نعمة  
الجاهلية ، وهل يكون الخليفة إلا بالانتخاب ، ليجتمع أمراء الإسلام في زماننا أو بعده ، ولينتخبوا من بينهم  
أميرا هو الخليفة ، ولا يجوز أن تتعدى خلافته مدة حياته ثم بعد موته ينتخبون سواه ، بل أقول أكثر من  
ذلك لتسكن خلافته إلى مدة معينة ، وبعد تمامها يعاد الانتخاب ، ولا مانع من إعادة انتخابه مرة أو أكثر ،  
فأما أن تبقى الخلافة في أمة واحدة من أمم الإسلام ، أو أسرة واحدة ، فهذا هو أس الشقاق والنزاع  
والخلاف والعداوة والحقد . ويجب على كل من اطلع على هذا من أهل العلم في بلاد الإسلام أن ينشره بين  
أمراء المسلمين ويبعثه إلى لجنة الخلافة في الهند متى كان قادرا على ذلك . وههنا يظهر معنى قوله تعالى « إن  
أكرمكم عند الله أتقاكم » ويظهر معنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ويظهر معنى « إن الله اصطفى  
عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم » ويظهر معنى « وأمرهم  
شورى بينهم » ويظهر معنى « وشاورهم في الأمر » . ويظهر معنى هذه الحكمة الإسلامية القديمة حكاية  
عن الله « اليوم أصع نسبكم وأرفع نسبي » وتظهر نتائج « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف  
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » ونتائج « ولا تباذروا أنفسكم ولا تباذروا أنفسكم » وتظهر آثار قوله تعالى  
« ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا

الله من فضله» وآثار «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» وإذا كان السلم محرما عليه أن يشهد زورا لأجل منفعة أبيه أو أخيه ، فأولى ثم أولى أنه يحرم عليه أن يرشح لأجل الخلافة رجلا مسلما وهناك غيره أحق منه بالخلافة ، هذا هو الحق الصراح .

أيها الأمم الإسلامية : عار عليكم أن تشهدوا تلك المصارع والمخازي والمصائب والفضائح والجهالات المتركمة بين العرب والعجم في مدة ١٣ قرنا ، ثم لا تتوبون ولا أنتم تندكرون .

ألم تعلموا أيها المسلمون أن الفرنجة أيام الحروب الصليبية اتحدوا وأنتم متفرقون ، لماذا ذلك ، لأنهم لهم (بابا) يجمعهم على الباطل ، فأما أنتم فقد كنتم متفرقين ، فعبد المؤمن بالبلاد الغربية كان يرى أنه خليفة (المهدي محمد بن تومرت) وهذا المهدي يجب اتباعه على جميع المسلمين ، فلما لم يعترف صلاح الدين الأيوبي في خطابه لعبد المؤمن بأنه أمير المؤمنين رفض مساعدته وحارب صلاح الدين بمصر هو ومن معه من المسلمين الفرنجة ، وأيضا أليس من العار الذي يخزى ويحجل أن نرى الفاطميين ببلاد الغرب وبمصر هم كانوا أول من مزق الأمم الإسلامية شرمزق ، وكان ذلك فتح باب لدخول الفرنجة في بلاد الإسلام وهم لا يشعرون .

هذه المشاهد يجب أن يعرفها أمراء الإسلام . إن الله عز وجل جعل هذه دروسا لكم لتتدوا بها ، ودعوا النزعات القديمة التي مزقت الجموع ، وشتت الشمل ، وأبانت الصدع ، وأعظمت الخطب ، وأذلت أمم الإسلام «أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» .

يجب على جميع المسلمين أن يعتبروا بتاريخ الأمم الإسلامية ، دعوا أيها المسلمون تلك الشراهة والجهالة والبلاهة ، بأى كتاب ، أم بأية سنة أيها المسلمون تكون الخلافة متجرا؟ بأى حق تكون الخلافة التي تخلف النبوة متاعا دنيويا ، الخليفة لا يجوز أن يقوم بها إلا من أحيا أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، إن لم يكن على منهاج هؤلاء فلتبذوه ، أتكون الخلافة في حجاب كحجاب العذارى كما حصل لبعض العثمانيين والعباسيين ، لا لا ، أيها المسلمون : كفى كفى ؛ الخلافة زهد في الدنيا وحفظها وغرام بالأمم الإسلامية ، وحب لله ، وجمع للكلمة «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون» .

أليس مما ينجل له جبين الدهر ، وتخزى به الإنسانية كلها ، وتكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر له الجبال هدا أن يتبوا البابا في مكاتته بروما ، وتزداد هيئته ، ويعظم نفوذه ، ويقوى جاهه ويشد خطره ، وتقوم إيطاليا فتسبى الدرارى والنساء ، وتهتك الأعراض ، وتذل السنوسيين . كل ذلك يعلمه البابا وتحت سمعه وبصره ، والمسلمون على بكرة أبيهم لاخليفة لهم ولا زعيم ، بل هم أشتات في الأرض فوالله لم أجد أمة كهذه الأمة . كل ذلك لشرفنا وجشعنا وحبنا للمال حبا جما .

يقول كل جماعة من المسلمين : ليسكن الخليفة فينا ، ولماذا هذا؟ ليكون المال والسطوة لهم ويخضعون لهم سواهم كما فعل الأمويون والعباسيون والعثمانيون . الأدهى والأمر أن الأقباط في ديارنا لهم (بطريك) والمسلمون خلوا من رئيس لهم يضارعه على الأقل ، وما ذلك إلا لأن القوم يجعلون رئيسهم سواه أكان بابا أو بطريك منتخبا من بينهم . أما المسلمون فإنهم أبوا الشورى ، فلما أبوها أصبحت الخلافة تسع السيف فبنو أمية غلبوا فكانت فيهم . وبنو العباس غلبوا فكانت فيهم ، والعثمانيون غلبوا فكانت فيهم .

فيهم . لا لا . كلا . أيها المسلمون : الخليفة ينتخب ، والأمراء والمسلمون يكونون حوله ، والمواصلات اليوم متوفرة ، إن لم يجتمع المسلمون على خليفة ازداد ذلهم وخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

أيها المسلمون : يكون ثلثمائة مليون أو أربعمائة أقل من أمة القبط بين ظهرائنا التي لا تبلغ مليوناً واحداً ورئيسها الديني له السيادة على بلاد الحبشة ، أيحسن هذا بكم أيها المسلمون ؟  
أيها المسلمون : أيليق بكم أن تكونوا أدل أمة في الأرض بتفرق كلمتكم وفيكم الحجاجيخ الشجعان ، والصامصم والأقران ، والعلماء الأعلام ، والحسكاء والبلغاء ، والخطباء الفصحاء .  
هاتوا لي أيها المسلمون أمة من الأمم محرومة من رئيس ديني ، لقد أدبنا الله فأحسن تأديبنا وفعل فينا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ النَّفْيَ      لَسَكَ الطَّوْلَ الْمُرْخِي وَنَيْيَاهُ بِالْيَدِ  
مَتَى مَا يَشَاءُ يَوْمًا يَقْدُهُ كَيْفَهُ      وَمَنْ يَكُ فِي أَسْرِ الْمَنِيَّةِ يَنْقُدِ

يقول : إن الإنسان أشبه بدابة ربطها الموت في حبل وتركها ترعى كما تشاء حتى إذا أراد انتزاع روحها قادها حالاً لذلك ، فهكذا هنا العناية الإلهية شاءت أن يكون لأمم الإسلام ١٣ قرناً يتخبطون فيها في أمر الخلافة ، وتبقى تبع السيف ، وليس للعقل ولا للرأى ولا للشورى نصيب ، وقال في القرآن ما يفيد أنه عز وجل مامنعه أن يرسل بخوارق العادات إلا أن الأولين كذبوا بها ، لم يقول الله ذلك ؟ يقول الله أنا وأنا أعلام الغيوب ، عاملت الأمم معاملة المختبرين الذين يقيسون الأمور بنظرها ، وأنا لا تخفي على خافية ، فلما طغت الأمم الماضية ولم تؤمن لما رأت خوارق العادات أرسلت محمداً ﷺ وجمعت أهم معجزاته القرآن ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يحاطبنا بكلامه على قدر عقولنا ، وهو العليم بكل شيء ، ويقول لنا : أنا لما وجدت أن الأمم السابقة لم تبال بخوارق العادات جعلت النبوة اليوم راجعة للتفكير لالخوارق العادات ؛ أفليس هذا معناه أننا ننظر في الأمور ونزنها ، فإذا وجدنا أسلافنا اتخذ أغلبهم الخلافة بالسيف فكان ذلك باعثاً على الشقاق والافتراق ، أفليس يجدر بنا أن نقول الآن : إنك ياربنا أدبتنا وفعلت معنا ما يفعله الموت مع الناس فنحن طغيينا في أمر الخلافة فأنت عاقبتنا ، وسلبت منا الملك ، وحكمت بتفريقنا جزاء تركنا الشورى ، وأرئيتنا أن أصغر أمة الأرض لها رئيس ديني ، ونحن ( وإن كنا خير أمة أخرجت للناس ) لم نقم بالحق في الخلافة ولم نعطيها إلا للقاهرين ، فهأنحن يا الله رجعنا عن جهلنا السابق . وامثلنا أمرك ، فليكن الخليفة هو من يصطفيه الرؤساء والأمراء في الإسلام ، هذا هو الذي يجب الآن .

اللهم إني أكتب للمسلمين ما شرحت له صدري ، اللهم إني قد حذرت وأعلنت ، وطلت كل من قرأ هذا من ذوى الرأى في أمة الإسلام أن ينشره ويفكر فيه المسلمون ، وما ذكرني به إلا مناسبات هذه السور لأنى عجبت كيف تكون سورة الزخرف بعد سورة الشورى وتكون بعدها الدخان . وما المناسبة بين هذه السور من حيث ترتيبها . وإني أحمدهم على التوفيق والتعليم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وإلى هنا تم الكلام على سورة الزخرف ، والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء العشرون من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم

ويليه : الجزء الحادى والعشرون ، وأوله : تفسير سورة الدخان

## فهرس

## الجزء العشرين

من كتاب « الجواهر »  
في تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ تفسير سورة الشورى. السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة .
- ٥ بيان أن هذه السورة قسمان : الأول من أول السورة إلى قوله « لهم عذاب شديد » وفي هذا القسم ستة مباحث .
- ٦ القسم الثانى فهو من قوله تعالى « ولو بسط الله الرزق » إلى آخر السورة . وفيه أن تسخير العباد فى جلب الرزق لم يكن عبثا بل لتدريبهم على العمل .
- ٧ التفسير اللفظى لهذه السورة، وبيان أن « حم عسق » ترجع إلى كل من الحمد والحكمة والتسييح الخ. ويتبع ذلك تفسير الآيات من قوله « كذلك يوحى إليك » إلى آخر السورة .
- ١٣ بيان فى هذه السورة سبع لطائف :
- اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « تسكاد السموات يتفطرن من فوقهن » والسادسة فى قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » الخ .
- ١٦ اللطيفة الثانية والرابعة فى الكلام على التناسل واختلاف الذكور والإناث فى الحيوان ولطف الله فى تغذيته .
- فصل فى حكمة خلق الحشرات .
- ١٨ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق واليزان » .
- ١٩ الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة .
- ٢١ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » .
- ٢٣ اللطيفة السابعة فى قوله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » والكلام على أهل الهند الذين يرون أن الإنسان بعد الموت يكون فى حال تشبه حال فى الدنيا .
- ٢٩ اللطائف العامة للسورة كلها .
- اللطيفة الأولى : بهجة العلم فى الحكم المودعة به فى « بسم الله الرحمن الرحيم : حم عسق » وبدائع أسرار التنزيل . وفى هذه اللطيفة ستة فصول :
- ٣٠ الفصل الأول والثانى فى صفة الموسيقى عند القدماء وصفها عند علماء العصر الحاضر .

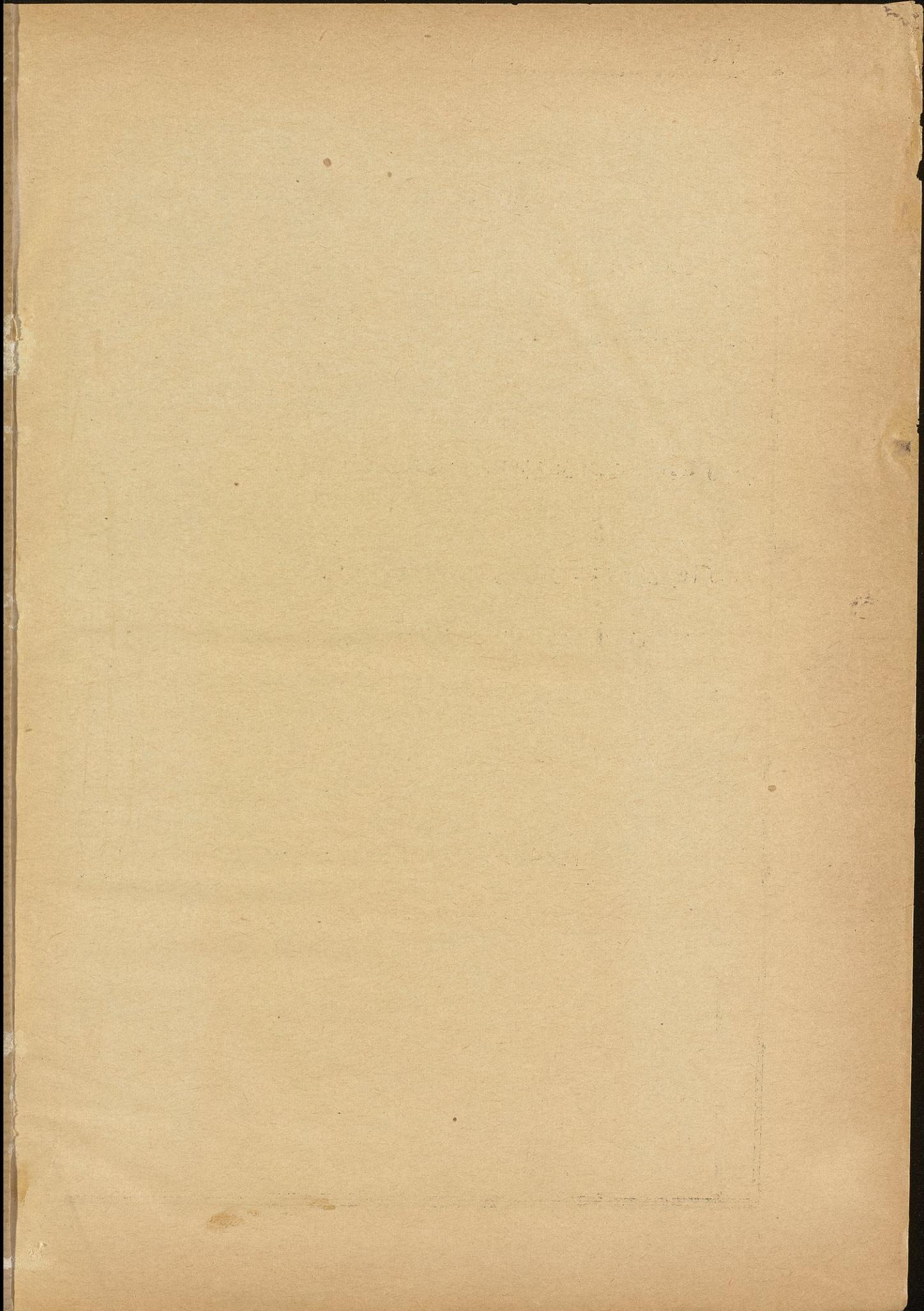
- ٣١ الفصل الثالث في النظام العام في العالم .
- ٣٢ الفصل الرابع والخامس والسادس : في الكلام على نتائج هذا كله .
- ٣٤ منافع الموسيقى العلمية وضرر الموسيقى العملية .
- ٣٨ الجوهرة الأولى في آية « الله الذي نزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب » .
- ٥٢ الجوهرة الثانية في ذكر ما خطر بقلب المؤلف ليلة ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية .
- ٥٨ اللطيفة الثانية في قوله تعالى « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وبنشر رحمته وهو الولي الحميد » وذكر الأشجار التي يرجع تاريخها إلى ما قبل ١٥ مليون سنة .
- ٥٩ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى ، « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » الخ الآيات ، ويان أن هذه المعاني لا يعقلها إلا رجل درس .
- ٦٠ تأثير الحرارة في الضغط الجوي (شكل ١) .
- ٦١ (شكل ٢ نظرية هبوب الرياح) .
- نسيم البر ونسيم البحر .  
الرياح الموسمية .
- ٦٢ التيارات البحرية . وتأثير دورة الأرض على محورها (شكل ٣) وانعطاف مركبة الترام في طريق منحن .
- ٦٣ (شكل ٤) دورة الأرض على محورها  
مناطق الضغط العظيم خلف المدارين .  
(شكل ٥ دوران الماء في النوعاء) .
- ٦٤ (شكل ٦) الرياح التجارية والرياح العكسية ومناطق هبوبها واتجاهها :  
تلخيص ما تقدم وخطاب الله للرياح التجارية .
- ٦٥ (شكل ٧) دورة التيارات البحرية في الدنيا .
- ٦٧ جوهرة في قوله تعالى « إن يشأ يسكن الريح فيظلمن رواكد على ظهره » الآية .
- ٦٨ الكلام على الماء والسما .  
الكلام على السماء .
- ٧٠ عالم الماء .
- ٧٤ إيضاح بعض أسرار قوله تعالى : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إلى قوله « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » الآية مع آية : « فما أوتيتم من شيء فمتع الحياة الدنيا » الآية وفي هذا المقام بيان عجائب البحر .
- ٧٥ الإنسان ومغالبة البحار والمحيطات .
- ٧٨ مراكب التجارة
- ٨٢ اللطيفة الرابعة مباح العلم ومناهج الحكمة في ملخص سورة الشورى .
- ٨٣ الكلام على السموات وعجائبها .

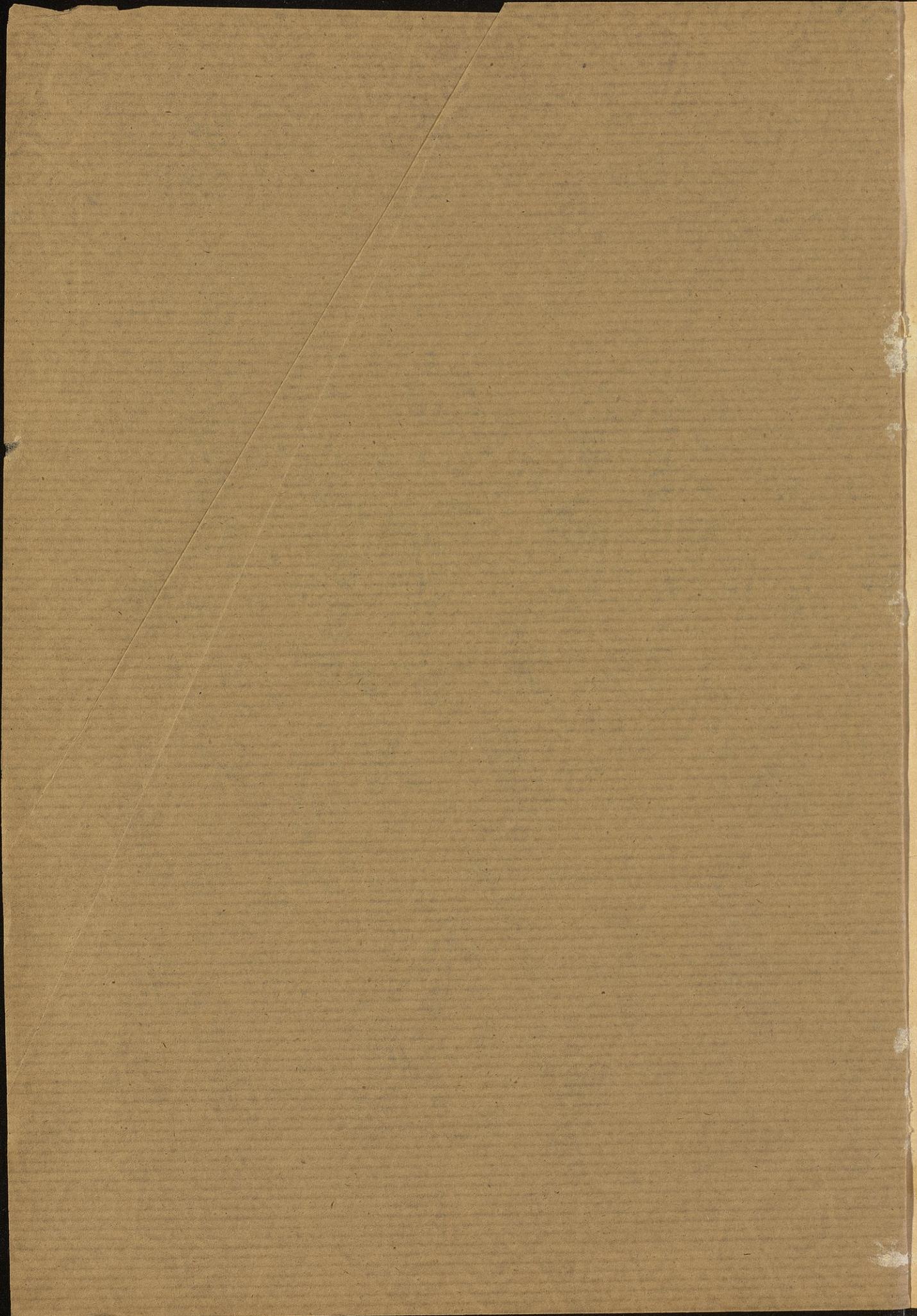
- ٨٧ خطاب المؤلف للمسلمين، وبيان أن نظام القرآن فيه فصلان:  
الفصل الأول في أن القرآن عربي، وقد تقدم في سورة فصلت.
- ٨٨ الفصل الثاني في ذكر أم القرى ومن حولها.
- ٩٠ ذكر تعداد المسلمين في بلاد الاسلام.
- ٩٢ كيف يتجدد المسلمون، وبيان أنهم كالجسد الواحد فيجب أن يكونوا جماعة تكون أشبه بالرأس ولتتمكن لهم فروع يمتدون إلى بقاع الأرض.
- ٩٤ فصل في أن الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة.
- ١٠٤ اللطيفة الخامسة في قوله تعالى: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب» الآية.
- ١٠٩ حرم أرباب القلوب (كالشيخ عبد العزيز الدباغ) وتفسير الجواهر كلاهما من مصداق قوله تعالى «وما كان لبشر» الآية مع قوله أيضا «سنريهم آياتنا» الآية.
- ١١٣ جمال العلم وبهجة الحكمة وهاهنا سؤالان.
- ١١٧ فذلكت في قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» وآثار القرآن لاسيا سورة الشورى في أمم الأرض.
- ١٢١ خطاب المؤلف لله عز وجل يشكو ضعف هذا الانسان.
- ١٢٢ خطابه لأمم الاسلام.
- ١٣٢ موازنة بين سيرة عمر وجمهورية أفلاطون وتطبيق نظام الأمم العربية والشرقية والفرنجية عليها.  
وتقسيم الحكومة إلى خمسة أقسام: أورستقراطية، وتيموكراسية، واليعاركية، وديموقراطية واستبدادية.
- ١٢٨ بيان العدل العام في السموات والأرض وأن العدل والجمال يرجعان لشيء واحد، ومقياس جسم الانسان والموسيقى يثبتان ذلك النخ.
- ١٣٠ بيان ما كان عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من العدل في الرعية والإنصاف مع شدة خوفه من الله عز وجل.
- ١٣٨ قصة من عدل عمر وإنصافه من نفسه.
- جمال الحكمة العلم في آية الشورى وآية «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» الآية.
- ١٤٢ فراسة عمر رضي الله عنه في ابن عباس رضي الله عنهما.
- ١٤٤ الكلام على الحياة النيابية في أفغانستان.
- ١٤٧ تفسير سورة الزخرف. والسورة مكتوبة مشكلة كلها.
- ١٥٠ تفسير البسملة.
- ١٥٢ الكلام على المآكل والمشارب من جهة تحليلها وانحلال الماء إلى شيء كالهواء بعد تسليط الكهرباء عليه وهو في زجاجة إلى غير ذلك.
- ١٥٥ الكلام على الرحمة.

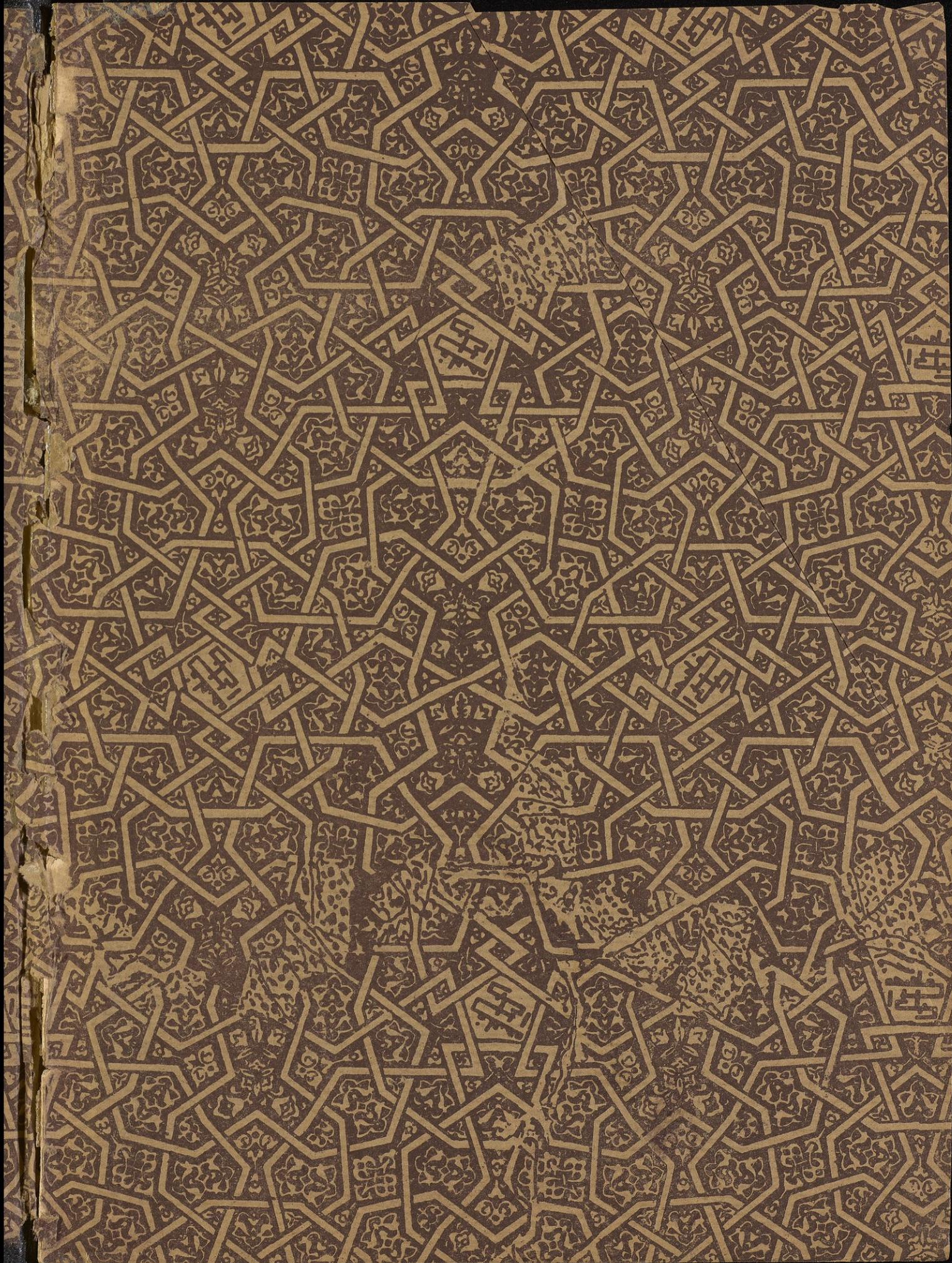
- ١٥٩ ملخص هذا المقام .
- ١٦١ امتحان آراء علماء الاسلام وآراء علماء اليونان .
- ١٦٣ مقاصد السورة .
- ١٦٤ التفسير اللغطي من أول السورة إلى قوله «ويحسبون أنهم مهتدون» .
- ١٦٥ ذكر سبب كفرهم ، وشدة جهالهم وجمود عقولهم .
- ١٦٨ الكلام على المقاصد من العاشر إلى الثالث عشر من قوله «إذا جاءنا» إلى قوله «ومثلا للآخرين»
- ١٧٠ ذكر المقاصد من ١٤ إلى ١٨ وهي الأخيرة من قوله تعالى «ولما ضرب ابن مريم مثلاً» إلى آخر السورة .
- ١٧٢ حيوان ذرى يدير دولابا .
- ١٧٣ بيان أن في هذه السورة سبع لطائف :
- اللطيفة الأولى والثانية ، ما تشير إليه (حم) من الحمد يرجع في نهايته إلى العلوم الطبيعية والفلكية وكل ما هو دليل على جمال الصنع الإلهي .
- ١٧٦ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : «إنا وجدنا آباءنا على أمة» وبيان أن هذا النوع الانساني ابتلى بالتقليد والاتباع بلا عقل ، وهذه الآية تلزم كل من له ذكاء في الاسلام أن يفكر في الدين وارتقاء الأمم الإسلامية .
- ١٧٧ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى «قالوا هذا سحر» إلى قوله «فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب» الخ . اللطيفة الخامسة في قوله تعالى «حتى إذا جاءنا» إلى قوله «إلا المتقين» وبيان مامعنى الحب في الله .
- ١٧٨ اللطيفة السادسة في قوله تعالى «وإنه لعلم للساعة» وبيان أن هذه الآية لاتدل على نزول المسيح إلا على وجه من ثلاثة وجوه فدلالتها غير قطعية ، وبيان الأحاديث المروية في المهدي المطعون فيها والمسيح وآراء الصوفية في ذلك وفي غيره .
- ١٨٠ فكرة عامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي .
- ١٨١ رأى المؤلف .
- فائدة هذا الموضوع كله .
- ١٨٢ اللطيفة السابعة في قوله تعالى : «فاختلف الأحزاب من بينهم» وبيان أن النصارى منهم ملكانية يعتقدون بالثليث ، ونسطورية يقولون باسراق الكلمة على جسد عيسى الخ . ويعقوبية يقولون : انقلبت الكلمة لحما ودما الخ .
- ١٨٤ اللطائف العامة للسورة كلها ، اللطيفة الأولى في قوله تعالى : «إنا جعلناه قرآنا عربيا» مع آية «وإنه لندكرلك ولقومك» وهاهنا مقامان : الأول في غريب القرآن .
- ١٨٥ فصل معرفة هذا الفن للمفسر ضرورة كما سيأتى في شروط المفسر .
- ١٨٨ المقام الأول : في الكلام على نفس الأمة العربية التي اختارها الله بما فيها من الزايات وصفات الشهامة لنشر دينه ، وكيف اضمجلت بعد ذلك ، وأصبحت متفرقة .

- ١٨٩ محاورة بين المؤلف وبين المرحوم لطيف باشا سليم .
- ١٩١ مصداق هذا الحديث ، وفيه سبعة فصول :
- ١٩٢ الفصل الأول فيما ذكرت به أمة الاسلام عموماً والعرب خصوصاً في علم الطب ،  
البحث عن تاريخ العلوم أو تأثير المدنية العربية الإسلامية في نهضة الغرب .
- ١٩٥ أثر الطب العربي ، وأنه إنما ظهر واتسع من عهد الدولة العباسية لاسيما في عهد المأمون الخ .
- ١٩٧ الفصل الثاني في أسرار قوله تعالى : « وسوف تسألون » وأن هذه الأمة قد عوقبت بما أهملت .  
المقالة الأولى من الفصل الثاني .
- ١٩٩ المقالة الثانية في أن الأذفونش المذكور أخذ قرطبة وأشبيلية له .
- ٢٠١ المقالة الثالثة في بيان أن الجامعة الإسلامية ليست بالمعنى الذي يظنه الأوروبيون ولم يكن هناك التمام  
حقيقي إلا أيام الخلفاء ثم جاء الانشقاق .
- ٢٠٢ الفصل الثالث في أن القرآن ذكر للمسلمين عموماً وللعرب خصوصاً في النهضة الحالية .
- ٢٠٣ الانتداب في البلدان العربية بقلم السكبتن غوردن كاننج .  
المقال الأول .
- ٢٠٥ المقال الثاني
- ٢٠٧ الفصل الرابع في تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين : المقال الأول التنافس الدولي ونصيب العرب منه .
- ٢٠٩ المقال الثاني في الجمع النسائي العربي .
- الفصل الخامس في الكلام على الوطن اليهودي بفلسطين ودفاع محمد علي باشا المصري أمام اللجنة الدولية  
وبيان أن الأمة الفلسطينية لم تعترف بالوطن اليهودي .
- ٢١٣ الفصل السادس في ذكر أمر عظيم إسلامي في أيامنا هذه .
- ٢١٨ الفصل السابع في اتحاد المسلمين اليوم علي فرنسا .
- ٢٢٢ لطيفة في الكلام على آية « والذي نزل من السماء ماء بقدر » وبيان أن العلوم كالمخازن وأن التفسير  
وظيفته أن يأخذ من تلك المخازن ما يغذي الناس على مقتضى الآيات ، وأن تكرار الآيات في سور  
مختلفات في موضوع واحد يقصد به أن تنوع العلوم بتنوع تلك الآيات .
- ٢٢٣ الكلام على الجذور التي لم تنشأ من الجذر الأصلي بل من الساق وهي الجذور العرضية (شكل ١٠)  
للشليك وكالدرة والقمح لأنها عارضة ، ولذلك يستعمل ترقيد النبات لأجل أن يكثر المحصول (شكل ١١)  
وقد تكون الجذور هوائية (شكل ١٢) في الفيكوس البنغالي .
- ٢٢٤ بيان أن اتجاه الجذر دائماً يكون إلى أسفل تجر به (شكل ١٣) جذر في وضع أفقي ، (وشكل ١٤) بادرة  
معكوسة ، وتجربة الأصبص المنكس (شكل ١٥) وهاهنا بيان (شكل ١٦) للانتشار الغشائي .
- ٢٢٥ شكل ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ لإثبات ارتفاع العصارة في النبات إلى أعلى .
- ٢٢٩ بهجة العلم في اللطيفة الثانية في آية « والذي نزل من السماء ماء بقدر » وأنه أربعة فصول .

- ٢٣٠ الفصل الأول في أن أنواع النبات تكون في جميع الأماكن .
- ٢٣١ الفصل الثاني في تقسيم النبات على الفصول .
- الفصل الثالث في تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان
- الفصل الرابع في تقسيم النبات على منافع الإنسان .
- ٢٣٨ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «ومن يمش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين» .
- ٢٤٦ اللطيفة الرابعة في آية «ادخلوا الجنة» النخ مع آيات أخرى . وبيان الحكمة في اتباع وصف الجنة بأن فيها غرفاً بالكلام على إنزال الماء من السماء والينابيع . وفي ذكر الإبل وخلقها والسماء ورفعها بعد المرر والأكواب والتمارق .
- ٢٤٩ ذكر الجنة والنار . وفيه فصلان :
- الفصل الأول في صفتها .
- ذكر صفة الجنة ، وملخص من الأحاديث الواردة في صفة الجنة مثل اللبنة من الفضة والذهب والياقوت واللؤلؤ النخ .
- ٢٥٠ الفصل الثاني في ذكر أهل الجنة .
- ٢٥٢ رؤية الله تعالى ، وبيان أن أهل الجنة يرونه كما يرون القمر ، وأهل الجنة لا يحبون شيئاً أكثر من أن يروا ربهم .
- ٢٥٣ الكلام على العلم المعقول بعد المسموع ، وبيان أن السعادة الحقة في العلوم والمعارف .
- ٢٥٤ عجائب المخلوقات : الحيوانات التي تحتفر الخنادق .
- لجنة الخلافة في الهند .
- ٢٥٤ (شكل ٢١) وهي صورة الخلد في حفرة التي ارتقى فيها على الجند في حفر خنادقها .
- ٢٥٥ (شكل ٢٢) نوع من الجناب في حفرة يقطع جذور الأشجار .
- ٢٥٦ قوة الحشرات .
- ٢٥٨ الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات وحوادث الأيام .
- ٢٥٩ الخلافة الإسلامية .







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758469

BP  
L30.4  
.J27  
v. 19-20

NOV 21 1973

20